

الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني

منشورات
مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات

المدير المسؤول
أ. د. عبد الجليل التميمي

- لا يتحمل مركز الدراسات والبحوث مسؤولية الاراء المعبرة ويترك لكل باحث أحقية ذلك .

م.ت.د.ك 6 - 02 - 719 - 9973 I.S.B.N (السفر الاول)
م.ت.د.ك 8 - 01 - 719 - 9973 I.S.B.N (النشرة كاملة)

تم طبع هذا العدد بمطبعة الشركة التونسية لفنون الرسم في شهر مارس 1988
تحت عدد 1121 / 87 - الايداع القانوني 1 / 88



الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني

جمع وتقديم
الأستاذ عبد الجليل التميمي

منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات

زغوان ، 1988

منشــــــورات
المجلة التــــاريخيــة المغــــربيــة
ومــركـــز الــــدراســــات والــبحــــوث

تحت اشراف الاستاذ عبد الجليل التميمي

- **المجلة التاريخية المغربية** ، صدر منها منذ انشائها (1973) ، 48 عددا .
- د. عبد الجليل التميمي ، **بايلك قسنطينة والحاج أحمد باى 1830 ـ 1837** ، 303 ص + 24 رسميا ، تونس ، 1978 .
- د. عبد الجليل التميمي ، **موجز الدفاتر العربية والتركية بالجزائر** ، 116 ص ، تونس 1979
- د. عبد الجليل التميمي ، **بحوث ووثائق فى التاريخ المغربى ، الجزائر ، تونس وليبيا (1816 ـ 1871)** 208 ص ، الطبعة الثانية تونس ، 1980 .
- دومينيك مونيى ، **القنصلية الانقليزية بتطوان اثناء تولى اوتونى هتفيد (1717 ـ 1728)** 112 ص ، تونس ، 1980 .
- د. عبد الجليل التميمي ، **وثيقة عن الاملاك المحبسة باسم الجامع الاعظم بمدينة الجزائر** ، 92 ص ، تونس 1980 .
- شانتال دو لافارون ، **مصادر فرنسية عن تاريخ المغرب الاقصى فى القرن الثامن عشر** . 118 ص ، تونس 1981 .
- د. عبد الجليل التميمي ، **الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس وليبيا ووسط وغرب أفريقيا خلال العصر الحديث** ، 80 ص ، تونس ، 1981 .
- د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، **المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى (1517 ـ** ج 2 ، 128 ص ، تونس ، 1983 .
- شانتال دو لافارون ، **مصادر فرنسية عن تاريخ المغرب الاقصى فى القرن الثامن عشر** ، ج 2 ، 128 ص ، تونس ، 1983 .
- د. لوى كاردياك ، **الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون** ، تعريب د. عبد الجليل التميمي ، نفذ 196 ص ، تونس ، 1983 .
- **الولايات العربية ومصادر وثائقها فى العهد العثمانى ، مع اقامة فهارس لها** ، 610 ص ، تونس ، 1984 (القسم العربى) ، جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمى ، زغوان 1984 .
- **الولايات العربية ومصادر وثائقها فى العهد العثمانى** (القسم الفرنسى والانقليزى) 412 ص ، تونس ، 1984 . جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمى زغوان ، 1984 .
- د. ع. التميمى ، **بحوث ووثائق فى التاريخ المغربى** . الطبعة الثانية ، 256 ص . زغوان 1985
- **الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادر وثائقها فى العهد العثمانى** ، 3 أجزاء ، 970 ص. جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمى ، زغوان ، 1986 .
- **اعمال مؤتمر اللجنة العالمية للدراسات العثمانية المنعقد بكامبريدج سنة 1984** ، جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمى ، 183 ص ، زغوان ، 1987 .
- د. ص. بوبكر ، **أيالة تونس فى القرن السابع عشر وعلاقاتها الاقتصادية مع موانى البحر الابيض المتوسط : مرسيليا وليفورسة** (بالفرنسية) زغوان . 1988 .
- **الحياة الاجتماعية فى الولايات العربية أثناء العهد العثمانى** 3 اجزاء ، 1150 ص ، جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمى ، تونس ، 1988 .
- **المجلة المغربية للتوثيق والمعلومات** ، العدد 6 .

تحت الطبع

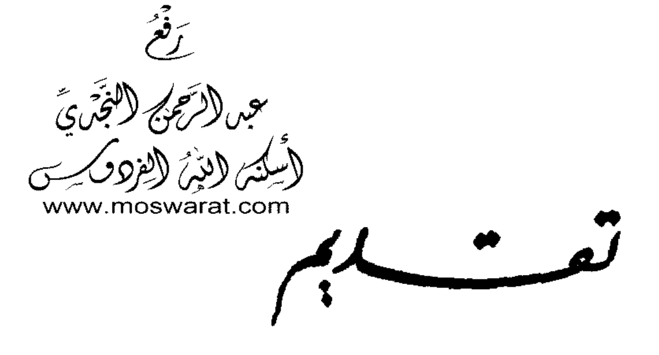
- د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، **وثائق المغاربة من سجلات المحاكم الشرعية المصرية ابان العصر العثمانى** ، الجزء الاول .
- **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية** ، العدد الاول .
- **اعمال مؤتمر تطبيق الموريسكيين للشعائر الاسلامية خلال القرن16 وحتى الطرد النهائى سنة1609**
- المجلة المغربية للتوثيق والمعلومات ، العدد السادس .
- لوت لوبازبارلد ، **صورة الاسلام فى الادب الاسبانى من خوان رويز الى خوان قوانيصلا** تعريب د. نجيب بن جميع .
- د. شانتال دولافارون ، **مصادر فرنسية عن تاريخ المغرب الاقصى فى القرن الثامن عشر** 2 ج. 3.
- لوث لوبار بارولد ، صورة **الاسلام فى الادب الاسبانى من خوان رويز الى خواو فوانيصولا** .

تطلب هاته الكتب على العنوان التالى ، ص ب 50 زغوان (1118) ، ج. التونسية



فهـــرس المـوضـوعـــات

الصفحـة



تقديم

بين أيدي القارئ الكريم أعمال : مؤتمر الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني والذي نظمناه قبل سنتين وضم نخبة فاضلة من المؤرخين والباحثين العرب والأتراك والأجانب .

إن مجمل هاته الدراسات والمناقشات التي توفقنا في تعريفها من أشرطة التسجيل وتم نشرها هنا ، تترجم بأمانة ودقة عن المستوى العلمي المرموق الذي تتمتع به الدراسات التاريخية العربية لكل ما يتعلق بالولايات العربية أثناء العهد العثماني والتي تميزت بالرجوع إلى الوثيقة المحلية الأم عربية كانت أو عثمانية ، هذا فضلا عن الوثائق الأجنبية . كما أن المدرسة التاريخية العربية بفضل تنوع نشاطها ولقاءاتها الدورية المنتظمة ومعالجتها لمختلف القضايا والاشكاليات التاريخية ثم الابتعاد عن التنظير الايديولوجي السياسي والتقوقع وتبنيها لمنهجية علمية سليمة ، قد ساهمت مساهمة أساسية وفعالية في كتابة تاريخ البلاد العربية أثناء العهد العثماني بحيث لا يمكن اليوم التغافل أو التقليل من شأن هاته الحركية المعرفية المشرقة والطلائعية والتي حققها المؤرخون العرب خلال هاته السنوات الأخيرة .

إن نشر كل أعمال المؤتمرات العالمية التي نظمناها عن الولايات العربية أثناء العهد العثماني تشكل اليوم مراجع أساسيا لا غنى للباحث عنها . ونحن بنشرنا أعمال مؤتمر الحياة الاجتماعية نضيف لبنة جديدة في تعزيز الدراسات التاريخية العربية ، مؤملين أن نوفق في نطاق مركزنا المتخصص والذي أصبح يحظى بثقة واهتمام المؤرخين دون استثناء ، في أخذ العديد من المبادرات الجديدة ، سواء كان ذلك عن طريق النشر الأكاديمي أو تنظيم اللقاءات المتخصصة . ولا شك لدينا اليوم أن المناخ السياسي الجديد لبلادنا سوف يكون له الأثر الحاسم على مستقبل البحث التاريخي ، إيمانا منه بقدرات العاملين الجادين والذين اتخذوا من البحث العلمي شعارا ثابتا يسمو عن الشعارات .

كان الله في عوننا لنجعل من تونس نقطة استقطابات معرفية مثل في خدمة البحث التاريخي العربي ومن الله التوفيق .

زغوان في 88/3/4

د. عبد الجليل التميمي


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

كلمـة الاستـاذ عبد الجليـل التميمـي

حضرة الاستاذ البشير بن سلامة ، وزير الشؤون الثقافية

حضرة السيد البشير الحميدي ، والي نابل والحمامات

حضرات السادة العلماء الافاضل ، عمداء ومدراء ورؤساء وأساتذة المؤسسات الجامعية والبحثية فى البلاد العربية وتركيـا والـدول الاجنبيـة

سيـداتى سـادتي ،

انها لمنة من فضل الله ورعايته بنا أن وفقنا فى هذا المسعى الحميد لجمع شمل الباحثين والمؤرخين العرب والاتراك والاجانب فى تونس هاته الارض الطيبة المطمئنة ، ليتدارسوا معا بمنهجية وبقلب مفتوح وود صادق متجدد وباحساس تاريخي وحضارى مسؤول ، موضوع : الحياة الاجتماعية للولايات العربية ومصادر وثائقها فى العهد العثماني ، شأننا فى ذلك شأن المؤتمرات العالمية التي كنا قد نظمناها فى تونس خلال السنوات الماضية والتى أثبتنا تواصلها العلمي وجدواها وأهميتها البالغة فى تعزيز هذا الحوار التاريخى الهادف بين العرب بادىء الامر ثم بيننا وبين الاتراك وبقية الباحثين .

ذلك أن الاشكالية التاريخية التى فرقت فى السابق المـؤرخين حتى فى البلد الواحد ، وكانت وراء هذه الاديولوجية المتشددة والملتزمة وعاقت كل مسعى علمي مشترك بين الجامعات ومراكز البحوث ، فانها لم تعـد اليـوم موضوع نقاش وخلاف بيننا . فالمؤتمرات والندوات ونشر نتائج البحوث التي عملت على توظيف الوثائق العثمانية والعربية والحوار النزيه الذى أقمناه مع زملائنا الأتراك والفرنسيين والأمركيين وغيرهم ، قد شجعنـا على المضي قدما لتنويع هذا النشاط وتكثيفه ومنحنا الأمن والثقة فى غـائية وسمـو المبادرات العلمية التي عملنا على تحقيقها في نطاق اللجنة العربية للدراسات العثمانية ومركز الدراسات والبحـوث عن الولايـات العـربية فى العهـد العثمانى ، هذا المركز الذى أنشأناه مؤخرا ، وهدفنا من انشائه أن يكون للباحثين العرب والأجانب ، خير عون لهم لمواكبة المعرفة على المستوى العربى والدولى ، ثم ابلاغها الى كل المتخصصين دون استثناء ، والعمل على احتضان وانجاز المشاريع الطلائعية والافكار الجديدة البناءة ونشر وترجمة الدراسات والوثائق المتعلقة بالولايات العربية وتوفير كل وسائـل البحث والاقـامة للباحثين ، ومنحهم مناخا فكريا وحضاريا للعمل الصادق المخلص وهذا ما يمكن من تجذير الحوار وتعميقه والسمو بالحقيقة فوق كل الاعتبارات القومية والدينية أو العرقية ، خدمة للمعرفة الشاملة والتفاهم بين الافراد والشعوب. ولا شك أيضا أن انشاء مؤسسة وقف دراسات العلاقات العربية ـ التركية مؤخرا باستانبول والتى يرأسها سعادة السفير اسماعيـل صوصيـال ، يترجم عن مدى الأهمية البالغة التى يعلقها الجـانب التـركى وعلى جميـع المستويات السياسية والجامعية والاقتصادية ، لمستقبل العلاقات العـربية ـ التركية ـ والتي سوف نعمل من جانبنـا وبالتعـاون معهـا ومـع بقيـة المؤسسات ، وفاء لمميزات تاريخنا وحضارتنا المشتركة .

حضرة السيد الوزير ،

ضيوفنا الكرام ، سيداتي سادتي ،

لا شك ان دراسة المجتمع العربي في العهد العثماني يكتنفه الغموض وهذا نتيجة قلة الدراسات التي تناولت خصائصه وغطت كل مواضيعه . واذا فنحن مدعوون الى صرف الاهتمام لدراسة الاسس الاولى التي انبنت عليها السياسة العثمانية للمجتمع العربي منذ القرن 16 والتي كيفت التركيبة الاجتماعية في المدن والارياف ولدى القبائل ونوعية الحكام والاشراف والنبلاء وتأثير الزواج والطلاق وخصوصا تأثير ظاهرة الزواج من الجوارى على المجتمع العربي المدينى ثم الزواج بين الطوائف الدينية المختلفة المحلية والاجنبية وتحركات الشعوب ودراسة ظواهرها من خلال التراث والسير الشعبية ، وحياة الترف واللهو ، ودور المقاهي المتأخرة نسبيا ، ثم تأثير الموسيقى وكـذلك تأثيـر الجـوانب اللاخلاقية على السلوك العربي ودور المرأة في تربية النشء ، ودراسة معتقدات الناس ومستوى ثقافتهم وتعليمهم ودراسة المنشآت المعمارية والتي اكتست طابعا اجتماعيا بحتا .

ان الباحثين والمؤرخين مدعوون الى استنطاق الوثائق وتوظيفها لدراسة كل هذه الظواهر الاساسية المجتمع العربي ذلك المجتمـع الذى بقي موحـدا مترابطا طوال العهد العثماني . ولا شك ان القاء مثل هـذه الاضواء سـوف تساعدنا حتما على استثناء جوهر الادارة العثمانية في الولايات العربية خلال العصر الحديث .

سيـادة الوزيـر ،

كما يطيب لي أن أنوه هنا بما وجدناه لدى وزارة الشـؤون الثقـافية تأييد صادق ومن دعم مادي وأدبي كان له الأثـر المبـاشر في تحقيق هذا المؤتمر العالمي ، ولا غرابة في ذلك ، فما تم انجازه من مشاريع طلائعية قد غيرت طبيعة وجوهر العمل الثقـافي ، هـذا فضـلا عن تأطيـر وانطـلاقة الانجازات التراثية والتي تخدم حضارتنا في تونس والبلاد العربية .

كما يسعدني أن أنوه هنا بما وجدناه لدى السيد البشير الحميدي ، والي نابل والحمامات ومن بقية السلط الجهوية من تفهم أخوي واستضافة المؤتمرين والاحتفاء بهم. شكري أيضا الى أخي المنصف الجيناوي ، والي زغوان الذى كان معنا منذ اللحظات الاولى لانشاء المركز وحيث حبانا برعايته اعطفه الأخوي .

حضرات السادة ضيوفنا الافاضل ، نحن مدينون لكم بحضوركـم بيننـا وبقبولكم دعوتنا ومنح ثقتكم لنا ، وتحملكم اتعاب السفر وتشريف تونس ، أرض الحوار والفكر والعمل والكلمة الصادقة المخلصة ، وتأكدوا أننا معتزون أيما اعتزاز بكم وبعلمكم ، مؤملين أن نكـون في مستـوى الـرسالة التي عاهدناكم على أدائها خدمة للمعرفة العربية المشرقة .

في خاتمة هاته الكلمة أنهي الى سمعكم خبر وفاة صديقنا الراحل د. مروان البحري ، أستاذ التاريخ العربي بالجامعة الامريكية ومدير مركز الدراسات اللبنانية في بريطانيا والذى وافاه الأجل قبل عدة أسابيع بلندن أثناء القـاء محاضرته ، ونحن ان ننعى وفاة مؤخنا العامل الدؤوب والذى ساهم بعلمه وكتاباته العديدة في تعزيز البحث التاريخي العربي ، أطلب منكم أن تقفوا دقيقة صمت ترحما على روحه الطاهرة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

د. عبد الجليـل التميمـي

كلمة سعادة السفير اسماعيل صوصيال في الجلسة الافتتاحية

- سيدي الوزير ،
- سيدي الرئيس ،
- سيداتي سادتي ،

لقد سعدت بالدعوة التى وجهت لي بوصفي مسؤولا عن مؤسسة الأوقاف للدراسات والعلاقات التركية العربية للمشاركة في هذا الاجتماع ولأخذ الكلمة اليوم في هذه الجلسة الافتتاحية . وهنا فاني أشكر صديقي العزيز الدكتور عبد الجليل التميمي المؤرخ اللامع والمنظم الذى لا يتعب .

لقد ناقشنا في نوفمبر من السنة الفارطة أثناء الاجتماع الاستشارى التركى العربى الذى نظمته مؤسستنا فى استانبول مع الدكتور التميمي و 25 مؤرخا ورجل اقتصاد وادارى كانوا قد جاؤوا من عدة بلدان عربية ، امكانية التعاون الفكري التركى العربى وخصوصا فى مجال التاريخ . لقد ساهم ذلك الاجتماع فى ربط علاقات متينة بين جمعيتنا ومركز الدراسات والبحوث الذى أسسه الدكتور التميمي .

ان هدف مؤسستنا هو دراسة العلاقات التركية - العربية فى الماضى والحاضر فى مجالات التاريخ والثقافة والفن والاقتصاد والاجتماع . ومن المؤسف أن وجدت أحكام مسبقة وبعض التأويلات الغالطة التى كانت تذكر عن سوء نية ، عملت على تحريف تاريخ الماضى المشترك منه أكثر من ألف سنة . وفعلا فانه حسب بعض المؤرخين وبعد أربعة قرون من التعايش السلمي فى العصر العثمانى ، فان الأتراك قد يكونون اضطهدوا العرب وقطعوا صلتهم بالغرب وتسببوا فى تأخرهم الحالى . ومن المؤسف أنه فى بعض البلدان العربية راجت هاته الأفكار وأنها أدرجت حتى فى الكتب المدرسية .

وفى الحقيقة ، فان الامبراطورية العثمانية كانت تمثل وتدافع عن الحضارة الاسلامية والعالم الاسلامى . ومن الطبيعى أن تحدث طيلة هاته الحقبة الطويلة من التعايش المشترك صراعات بين الأتراك والعرب ، ولكن لا أعتقد أنها كانت أكثر من تلك التى حدثت فيما بين الأتراك أنفسهم أو العرب . وانه بفضل عقلية الوحدة الاسلامية أمكن استتباب السلم واعادة التفاهم بسرعة وبدون آلام كثيرة .

أما عن المزاعم المتعلقة بتأخر العرب فقد اعترف أبرز المؤرخين من ذوي الكفاءة بأن الحضارة العربية الاسلامية قد دخلت منذ القرن 11 فى فترة جمود . واذا ما تمكن العرب فى الاندلس أولا والعثمانيون ثانيا بوصفهم ممثلين لهاته الحضارة من مواصلة مجهودهم فى المجالين الثقافى والعسكرى طيلة 3 و 5 قرون ، فان ظهور النهضة بأوروبا ، ثم حركة الاصلاح الدينى فى

القرنين 15 و 16 ، قد عملت على ترجيح الكفة لفائدة الغرب وذلك على اثـر تقدم العلوم وحرية الفكر عندهم . ولهذا كانت البلدان الاسلامية التـابعة للامبراطورية العثمانية أو التي كانت خارجها أقل تقدما في المجالات العلمية والتكنولوجية وحتى في مستوى عيشها وعليه فان الخطأ لا يتحمله أحد .

وحسب رأيي فان المشكل اليوم يتمثل في ايجاد الوسائل لتجاوز هـذا التاخير . فلنحاول أولا تخليص تاريخنا المشتـرك من التأويلات الغـالطة والتشويهات لنتفحص معا الأرشيف واذا ما وجدنا بعض الأمـور المـزعجة لهذا أو لذاك فاننا نحـاول تأويلهـا ليس حسب الشعور القومي الموجـود اليوم ، ولكن باعتبار ظروف ذلك العصر . اني مقتنع شخصيا بأننا لا نخشى الحقائق التي قد تكشف عنها الوثائق حول تاريخنا المشترك .

لم يكن العرب محركي هاته الحضارة الاسلامية الكبرى فقط بل كانوا أيضا وراء تطور الحضارة الاسلامية الكبرى بل وكانوا أيضا وراء تطـور الحضارة العالمية خاصة حين عرفوا بأفلاطون وأرسطو في الغرب ، وحين توصلوا الى كثير من المكتشفات . ان مدرسة الفلسفـة التي اعتمـدت على الفكر الحـر وتطورت فيما بين القرن 9 و 12 عن طريقة علماء عرب وغيرهم من المسلمين مثل الكندي والفارابي وابن سيناء في المشرق وأبى باجة وابن طعيل وابن رشد في الأندلس قد كان لها تأثير كبير في الغرب .

هل من الممكن اليوم تجديد هاته المنجزات ؟ أرى أنه من واجب العـرب والاتراك وغيرهم من الامم الاسلامية أن توطد العلاقات الـروحية والأخـوية التي تربط بينها وتطور مع بقية العالم مناخ التفـاهم والاحتـرام المتبـادل والتعاون العلمي والتكنولوجي والثقافي لاني أعتقد أنه بدون تواصل ثقافي لا يمكن أن يحدث تقدم في المجال العلمي والتقني . نحن مجتمعون اليـوم هنا في هذا البلد الجميل الذي استطاع أن يجمع بين التقاليـد ومتطلبـات التحديث . نحن فخورون بأنه توجد على بعد 150 كلم من هنا مدينة القيروان التي كانت في العصر الوسيط مركز الثقافة وحرية الفكر ونقطـة اشعـاع ثقافي شاسع بين المغرب والمشرق . ومن جهـة أخـرى فان الاجتماع الذي ينظم في بلد واحد كبار رجال الدولة والمصلحين قد زاد كثيرا من قيمته بالنسبة لنا .

نحن نعلم أن هذا البلد مسالم ومعروف بتسامحه وبحرية الفكـر فيه . ونحن سعداء بذلك .

أيها السادة والسيدات ، أحييكم من أعماق قلبي .

شكرا سيدي الرئيس .

سعادة السفير اسماعيل صوصيال

كلمة الاستاذ البشير بن سلامة وزير الشؤون الثقافية

حضرة السيد الوالي

حضرة السيد الكاتب العام للجنة التنسيق الحزبي

أصحاب السعادة حضراتِ الاساتذة والمديرين الاجلاء

أيتها السيداتِ والسادة

انها لفرصة ثمينة تتاح لي اليوم للالتقاء بنخبة متميزة من العلماء والباحثين، رؤساء وعمداء ومدراء وأساتذة عدد من مراكز البحوث والجامعات العربية والتركية والاجنبية ، هاته النخبة التي آلت على نفسها ومنذ سنوات العمل على كتابة تاريخ الولايات العربية في العهد العثماني والاستفادة من كنوز الوثائق والمخطوطات العثمانية والعربية والاجنبية والتي تعد بالملايين .

ولقد أتيحت لي أثناء زيارتي الرسمية لتركيا منذ سنتين فرصة الاطلاع على دور أرشيفات ومكتبات أنقرة واستانبول ، وقد تبين لي يومها مدى أهميتها البالغة بالنسبة لتاريخ الولايات العربي في العهد العثماني . وعليه فان توظيف تلك الوثائق والمخطوطات لكتابة تاريخية علمية، يبقى هو الهدف الاساسي الذي تروم تحقيقه من خلال المؤسسات البحثية في البلاد العربية وتركيا وغيرها من مراكز البحث والتي تشترك في الاهتمام بتاريخ البلاد العربية في العصر الحديث .

واننا لنشهد منذ عدة سنوات نشاطا ملحوظا لدى المؤسسات العربية والتركية حيث تعددت قنوات الحوار بين المؤرخين والباحثين العرب والاتراك من جهة وبينهم وبين غيرهم من المؤرخين الاجانب ، وقد توج ذلك بظهور تيار فكري عربي وتركي جديد اتسم بالموضوعية والنزاهة والعمل على اقامة وتعزيز جسور التعاون بين الشعبين ، خدمة لتاريخنا المشترك . ولا شك أن انشاء اللجنة العربية للدراسات العثمانية وتنظيم عدد من المؤتمرات العالمية عن الدولة العثمانية بتونس مع انشاء مؤسسة وقف دراسات العلاقات العربية التركية مؤخرا باستانبول والتي يرأسها سعادة السفير اسماعيل صوصيال، ثم ظهور عدد من مراكز البحث في صلب الجامعات العربية والتركية ، ثم اهتمام اتحاد المؤرخين العرب بموضوع كتابة تاريخ البلاد العربية في العهد الحديث ، كل هذه الفعاليات ترجمت عن الاهتمام الجديد الذي يوليه الباحثون العرب والاتراك على حد سواء لكتابة موضوعية ومنصفة نحن اليوم في أشد الحاجة اليها .

حضرات الاساتذة وأصحاب السعادة

ان مثل هذه اللقاءات العلمية لتبادل الخبرات والاجتهادات والآراء، ومناقشة المشاريع العلمية ودراستها لكتابة تاريخ البلاد العربية ، يعد أفضل السبل وأبقاها لتعميق الحوار واثرائه لما فيه خير الشعب العربي والتركي ووفاء منا لخصائصنا المتميزة والتي كيفت البنية الاجتماعية والسياسية لمجتمعاتنا

وشعوبنا . ومما لا شك فيه أن مبادرة الاستاذ عبد الجليل التميمي بتنشيط التبادل المعرفي بين الباحثين ، سيكـون له الاثـر الطيب على غـائية تلـك الدراسات في المستقبل القريب . وما اجتماع هذه النخبة الفاضلة من الباحثين والمؤرخين الا دليل جديد على ما توليه في تونس من قيمة مطلقة للبحث العلمي وللحوار الحضارى والامن الثقافي .

فالثقافة ، حضرات السيدات والسادة ، في منهجيتها العلمية ، هي التي تنطلق من معطيات الواقع ، ماضيا وحاضرا ، لضبط المرتكزات العلمية على صعيد التطبيق قصد نحت مجتمع المستقبل . ولعل من أهـم ثـوابت هذه المرتكزات اطلاقا ــ وفي هذا الاطار يتنزل ملتقانـا اليـوم ــ أن الثقافة هي عامل من عوامل اثبات الذات وتحذير الشخصية . فـذاتية المجتمـع ــ أي مجتمع ــ لا تتحقق الا بتكوين شخصية تتميز في أصالتها عن الشخصيات الاخرى ولا تكتمل هذه الشخصية الا بترابط حلقات « الانـا » الثـلاث في حاضرها المستمد من ماضيها ــ أى تاريخها ــ المفضي جدليـا الى تحديـد مستقبلها . وهذا المبدا لا يعني الانغلاق على النفس والتعصب للذات الضيقة ، بل هو من صميم الانتماء الموضوعى الفاعل الى الذات الانسانية الشاملة في تمايز تتلاقح فيه الخصوصيات أخذا وعطاء . فليست «الانا» المتميزة ــ وخاصة في عصرنا الحاضر الذى يطلق عليه الباحثون في مجال الاعلام عصر « القرية الشاملة » لزوال المسافات وانتهاء الحدود بواسطة وسائل الاتصال الحديثة ــ ليست هذه « الانـا » الا متفاعلة بالضرورة مع الـذوات الاخرى على أسس التلاقح افادة واستفادة . وهنا يكمن البعد الانساني للعمل الثقافي .

وفي هذا المنحى اذن ، يتنزل ملتقانا اليـوم ، فينضاف لبنـة أخرى من لبنات البحث العلمي الهادف والذى تسعون من خلاله لاستقـراء مـرحلة من مراحل تاريخنا ــ الحياة الاجتماعية للولايات العـربية ومصادر وثائقهـا في العهد العثماني ــ استقراء موضوعيا يكشف النقـاب بالـدرس والتمحيص والمقارنة عن هذه الفترة من تاريخنا . وهنا يتجلى بعد آخر من أبعاد سياستنا الثقافية في تونس ، ويتمثل في ايماننا الثابت بالبحوث العلميـة وعملنـا الدائب على تشجيع البحاثين . وما المركز الدولي بالحمامات الا مؤسسة يتجاوز اشعاعها الحدود الضيقة للوطن ليكون منارة ثقافية علميا عالمية يلتقي فيهـا رجال العلم والفكر من مختلف اصقـاع المعمـورة بالتبـاحث وتبـادل الآراء والمعلومات الا من صلب هذا الايمان . وهكذا بات المركز مجلسا علميا يضم عديد الباحثين والمفكرين بين أعضاء قارين ومنتسبين من كثير من بلـدان العالم . كذلك بعثنا منذ سنوات مؤسسة علمية كبرى هي المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ــ بيت الحكمة ــ التي تساعد على الخلق الفكرى والفني وتسعى الى ترويجه وتعمل على تنظيم حـركة التعـريب والتـرجمة وتنشيط الدراسات والبحوث قصد التحقيق العلمي للنصوص . كما أن من مهامها أيضا ــ اضافة الى الحث على الابتكار والخلق ــ الاسهام في نشر الاعمال الادبية والفنية والعمل على تدعيم الحوار بين الحضارات .

ولا يسعني في هذا السياق الا أن أشير كـذلك الى مركـز الدراسـات والبحوث العثمانية والاندلسية ــ والموريسكية والذى انشاه ويديره الدكتور عبد الجليل التميمي ، وهو مركز علمي أراد لنفسه التخصص في البحـث

ودراسة هذه الحقبة التاريخية الزاخرة بالمعطيات والحقائق التي ما تزال الى اليوم على الوثائق ، وما التخصص في دراستها والانفـراد بالبحث فيها الا من سبيل المنهجية العلمية .

تلك هي بعض مرتكزات سياستنا الثقافية أوحي بها إلي ملتقاكم العلمي هذا ، أردنا بسطها على مسامعكم دون الدخول في مختلف هذه الدعائم الثابتة للابعاد الفلسفية والفكرية للسياسة الثقافية في تونس . هذه الدعائم التي تتمثل أساسا في أن الثقافة عنصر من عناصر التنميـة الشـاملة وذلـك بانصهارها كمحرك أساسي في البناء الاقتصادي الشامل بمـا توفـره من مقومات التثقيف والتكوين تجعل الفرد قادرا على تطويـع المحيط لادارتـه واستغلاله لفائدته .

ولن يتحقق ذلك الا بترسيخ مبدأ ديموقراطية العمل الثقافي والامركزيته على مستويي الخلق والتلقي . ويتمثل ذلك في تهيئة المناخ الملائم للخلاقين في اطار من التشجيع المادي والمعنوي يطمئن المبدعين ويذكي فيهم جـذوة الابتكار وما بعثنا لصندوق التنمية الثقافية الذي يؤازر المفكرين والفنانين في مختلف مجالات الخلق الا من صميم هذا الايمان . كما دأبنا ـ قصد تحقيق الهدف المنشود ـ على الاعتناء بايصال ثمرات هذا الانتاج الى المواطن التونسي حيثما كان عبر مختلف جهات البلاد وذلك ببعث دور الثقافة والسينما ودور الشعب والمكتبات في كل منطقة من مناطق الجمهورية . بل لم يتوقف عملنا عند هذا الحد وقد اردفناه باجراء ثوري قد تكون من المنفردين به وهو بعث المجالس الجهوية للثقافة وهي هياكل تهدف من بعثها الى اشعاع الثقافة في كل مكان وتحقيق لا مركزيتها وتكتيل كافة القوى الحيـة في سبيـل تثبيت أركـان ديمقراطية الثقافة وشموليتها . وتعمل هذه الهياكل انطلاقا من استقطـاب الطاقات المتواجدة بالجهة على تخطيط العمل الثقـافي جهويـا وذلك بضبط الحاجيات وتحديد الاولويات التي تتطلبها كل منطقة . وهكذا يتخلص العمل الثقافي من قيوده التقليدية التي ترسخت في الاذهـان والتي تـرى أنه من مشمولات وزارة الشؤون الثقافية وحدها باعتبارها سلطة الاشراف . ولعلنا بهذا الاجراء الثوري سندخل منعرجا تكون نتـائجه محمودة خصوصا وأن بعث هذه المجالس كان قد سبقه اجراء لا يقل أهمية وهـو الاجـراء المسمى بقانون ديسمبر 1982 والذي يتحتم على مختلف المؤسسات من وزارات ووكالات عقارية وولايات وبلديات وشركات خاصة بأن تخصص عند بعث كل مشروع الفضاءات الثقافية اللازمة حتى تكون هذه الهياكل وحدات متكاملة متوازنة . تلك هي حضرات الاساتذة والباحثين بسطة سريعة عن توجهنا الثقافي في تونس آمل من خلالها أن أكون بلغتكم بعض ملامحها بما قد يفيد . ولا يسعني في ختام هذه الكلمة الا أن أجدد لكم ترحيبي بكم في بلدكم تونس متمنيا لكم التوفيق في أعمالكم والنجاح في مهامكم .

والسـلام

كلمة السيد الباجي قائد السبسي وزير الشؤون الخارجية

أصحاب السعادة

السادة أعضاء المؤتمر

صديقي الاستاذ عبد الجليل التميمي

سيداتي ، سادتي

يشرفنا ان نستقبل في تونس أرض الحوار والمحبة والتفاهم مثل هذه النخبة الفاضلة من المؤرخين والباحثين والعلماء من عدد كبير من الدول الصديقة والشقيقة الذين أموها ليتبادلوا الرأى في عدد من المسائل الجوهرية ذات الاهتمام المشترك بين العرب والاتراك بصفة خاصة ، وبينهم وبين بقية الباحثين بصفة عامة .

ولا شك أن الحوار المسؤول بين الباحثين وغير الباحثين على اختلاف وجهات نظرهم وأديانهم وجنسياتهم ، اذا صدقت نيتهم ، يعد أنجع السبل لحسم الخلافات وتقريب الشقة والعمل سويا على بناء جسور التعاون الثقافية منها والاقتصادية والسياسية .

ولقد آمنا نحن في تونس بميزة الحوار البناء والمسؤول ، واثبتنا ان تونس تعد بحق جسرا للحوار الحضارى والسياسى والاقتصادى بل كذلك بين افريقيا والقارة الاوروبية وبين العرب وأوروبا .

وما مؤتمركم العالمي هذا وحضور هذا الجمع الكبير من الباحثين ليتدارس عدد من المسائل التاريخية المتصلة بخصائص المجتمع العربي في العهد العثماني ، الا دليل جديد على استمرارية ونوعية هذه العلاقات العلمية الطيبة ، بل الممتازة والتي أصبح يتحلى بها كل من الباحثين العرب والاتراك على حد سواء فضلا عن المناخ السياسي الجديد الذى أصبح يميز العلاقات العربية التركية هذه السنوات الاخيرة .

فالمؤتمرات العالمية التي دأب الاستاذ عبد الجليل التميمي على تنظيمها بتونس عن الولايات العربية والدولة العثمانية ، ثم هذه الدراسات المنهجية الجيدة ، ثم انشاؤه هذا المركز المتخصص وكسبه ثقة الجميع من أجل مزيد من التواصل المعرفي والتعاون العلمي البناء يعد كل ذلك جملة من أنشطة وفعاليات قربت ولا شك الباحثين بعضهم ببعض وعلى الخصوص منهم العرب والاتراك . وهو عمل جدير بكل تقدير وتنويه .

ولا أشك فى أن ما دار بينكم من نقاش مفتوح حـول مختلف القضايـا التاريخية ، وما اظهرتموه من ود صادق ورغبة مخلصة للتعاون وما خططتموه من مشاريع مشتركة بين مؤسسات البحث العربية والتركية والاجنبية سوف يخدم تاريخنا وحضارتنا المشتركة ، فنحـن مدعـوون مستقبـلا سياسيين واقتصاديين ورجال أعمال أن نأخذ بالاعتبار مميـزات تاريخنـا وحضارتنـا ودينـا ، بل وجب القول بأننا مدعـوون الى تنويـع قنـوات الاتصـال وحث المؤسسات على تبني المزيد من المشاريع المختلفـة وانفتـاح بعضها على بعض وتشجيع المؤرخين على أن يتحلوا بالامانة العلمية وأن يكونوا أوفياء للحقيقة، ولا يتسنى لهم ذلك الا اذا توفرت لديهم كل مصادر المعرفة وأوعية المعلومات والوثائق التاريخية المختلفة ، وخاصة منها العثمانية . ولا شك أن العلاقات الطيبة التى تربط اليوم البلاد العربية بتركيا سوف تساهم فى تبادل كـل قنوات المعلومات وأخص بالذكر ارصدة الوثائق العثمانية التى ما زال الباحثون يأملون تمكنهم من الاطلاع عليها وتصويرها خدمة لتاريخنا المشتـرك . ان المشاريع التى سوف تحققها ، فى هذا المضمار ، مؤسسات دراسة العلاقات العربية التركية باستانبول سيكون لها الاثر المحمود على مستقبل التعـاون العلمى بين الجامعيين والباحثين من كلا الجانبين .

وفى الختام أدعو لكم بالتوفيق فى أعمالكم القيمة وأتمنى لكم اقامة طيبة فى تـونس .

CERPAO ORGANISE LE 2[e] SYMPOSIUM INTER[al] D'ETUDES OTTOMANES SUR :
LA VIE SOCIALE DES PROVINCES ARABES
ET LEURS SOURCES DOCUMENTAIRES A L'EPOQUE OTTOMANE
Hammamet 15-21 Mars 1986

الولايات العربية في العهد العثماني
في للدراسات العثمانية حول :
ومصادر وثائقها في العهد العثماني
21 مارس 1986

ES OTTOMANES SUR :
ES ARABES
A L'EPOQUE OTTOMANE
الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني
العالمي الثاني للدراسات العثمانية حول:
للولايات العربية ومصادر ووثائق العهد العثماني
15-21 مارس 1986



جوانب من الحياة الاجتماعية
فى سنجق الحسا فى ظل الحكم العثمانى الثانى

د. عبد الفتاح أبو علية

من المدرك بدهي أنه من الصعب على الباحث أن يدرس الحياة الاجتماعية برمتها لمجتمع ما أو لجماعة سكانية تعيش فى منطقة ما فى بحث معين ومحدود ، وبناء عليه فقد ركزت فى بحثى هذا على جوانب معينة من الحياة الاجتماعية لمجتمع سنجق الحسا فى ظل الحكم العثمانى الثانى فيه من خلال الوثائق التركية من جهة ومن خلال المصادر الأولية الأخرى من جهة ثانية .

ومن المدرك بدهي أيضا أن هناك أمر يؤثر أو ما يسمى بالعامل المؤثر وأمر متأثر أو ما يسمى بالجانب المتأثر بالعامل المؤثر . وكلما كان العامل المؤثر قويا وضاغطا على الجانب المتأثر به كانت حصيلة النتائج كبيرة لأنها حصيلة تراكم . ومن هنا لا بد من إبراز مدى الارتباط بين العامل المؤثر وبين الجانب المتأثر به . ولا بد من إبراز مدى قوة الجذب والشد بين القطبين المؤثر والمتأثر من خلال الحياة الاجتماعية لمجتمع الحسا فى ظل السيادة العثمانية فيه.

وتبرز هنا قضية مهمة وهى ناتجة عن الارتباط الوثيق القائم بين العاملين المؤثر والمتأثر به وهى مدى التلاحم بين مجموعة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والعلمية . ومن خلال هذا كله لا بد وأن يحدث تداخل على الرغم من تركيزنا على الجانب الاجتماعى ، وذلك لعمق الصلة بينة وبين الجوانب الأخرى المتشابكة فى الموضوع .

وتجدر الاشارة هنا الى أن الحياة الاجتماعية لمجتمع ما تظل على وتيرة معينة ونمط معين قل أن يتغير ويتبدل فى فترة زمنية محدودة وبشكل سهل لأن العادات والتقاليد الموروثة والمتوارثة لا يمكن تغييرها أو استبدالها فى مدة قصيرة مهما كان التأثير القائم قويا وضاغطا بخاصة فى المجتمعات القبلية أو شبه القبلية فى المجتمعات الحضرية التى تعتمد على الأصول القبلية أو على أسس فكرية وثقافية قوية ومترابطة .

وبناء على هذا كله فان الحياة الاجتماعية لمجتمع سنجق الحسا تمتد بجذورها الى عهود أسبق وأقدم من العهد العثمانى فى المنطقة . ومن هنا فان العوامل المؤثرة فى هذا الجانب هى عوامل متعددة ومتنوعة ومختلفة الى حد ما وأحيانا الى حد كبير . ومن هنا يختلف مدى عمق العامل المؤثر على العامل المتأثر به بخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار الفترات الزمنية المصاحبة للحدث .

ينقسم الحكم العثماني في سنجق الحسا الى فترتين تاريخيتين : الاولى وكانت منذ دخول العثمانيين منطقة القطيف عام 957 هـ. / 1550 م. (1) الجزء الشمالي من السنجق وامتدادهم في منطقة الهفوف عام 963 هـ. / 1555 م. (2) الجزء الجنوبي منه حتى خروجهم من السنجق عام 1080 هـ./1669 م. (3) على يد آل حميد من بني خالد الذين استولوا على السلطة وطردوا الولاة العثمانيين من السنجق . والثانية فكانت منذ عام 1288 هـ. / 1871 م. (4) عندما استعادت حملة مدحت باشا منطقة الحسا من الدولة السعودية الثانية ، وظل العثمانيون فيها حتى استردها عبد العزيز آل سعود عام 1331 هـ. / 1913 م. (5) ، وتمكن من إجلاء النفوذ العثماني نهائيا عنها . وجدير بالتنبيه أن الحكم العثماني الثاني للحسا هو ألصق وأهم بالنسبة للدراسات الاجتماعية مما هو عليه في الحكم العثماني الأول فيه لأن الحكم العثماني الأول للحسا ركز على مقارعة القوى النصرانية الخارجية كالبرتغاليين وغيرهم .وكان هذا الجهد الاسلامي يلقى دعما قويا من السكان في السنجق لأنه يمثل جهادا ضد القوى الاستعمارية النصرانية ، وكانت الدعوات الدينية تلقى تأييدا قويا وقتذاك . فساد الوئام جو العلاقة القائمة بين العثمانيين وبين مجتمع الحسا الى حد ما بخاصة في زمن أصبحت فيه الدولة العثمانية الاسلامية حامية للمسلمين ومدافعة عنهم ضد القوى النصرانية التي تعتدي على بلادهم وسواحلهم ، أما في العهد العثماني الثاني فأصبحت علاقة العثمانيين بمجتمع الحسا ألصق وصارت علاقات الاحتكاك بينهم أعمق . وأصبح النمو السياسي للقوى المحلية أقدر مما كان عليه الحال من قبل ، ووصل نموها السياسي الى مرحلة بشكل تسمح لها أن تبحث عن استقلاليتها . وأصبحت التطورات السياسية في المنطقة تؤثر الى حد كبير على العلاقة القائمة بين السكان في المنطقة وبين العثمانيين .

واستنادا الى التنظيمات الادارية العثمانية في الجزيرة العربية فان التحديد الاداري والجغرافي لسنجق الحسا يشتمل على الارض الممتدة من حدود متصرفية الكريت شمالا حتى شبه جزيرة قطر وصحراء الجافورة جنوبا. ومن مياه الخليج

---

(1) الحنبلي ، الشيخ عبد القادر الجزيري ، درر الفوائد المنظمة ، مخطوط ، نسخة دار الكتب المصرية ، تاريخ تيمور 926 ، ص 312 .

(2) الاحسائي ، محمد بن عبد الله بن عبد المحسن آل عبد القادر ، تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد ، القسم الأول ، ط 1 ، ص 121—122 (بدون) .

(3) الفاخري ، محمد بن عمر ، الأخبار النجدية ، مخطوط ، حوادث سنة 1080هـ ، حقق المخطوط وعلق عليه الأستاذ الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل ، وطبع بمطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

(4) منشور مدحت باشا على أهالي الأحساء ، مؤرخ في 18 رجب 1288هـ.

(5) الزركلي ، خير الدين ، الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز ، ص : 56 دار العلم للملايين ، بيروت (بدون) .

شرقا حتى الصمّان غربا (6). وهى المنطقة التى تشتمل إداريا على منطقة الخط التى كانت قبل العهد العثمانى تشمل كلا من واحة هجر وواحة القطيف (7).

وعليه فان سنجق الحسا يعد من المناطق ذات الصفة الاستراتيجية المهمة بالنسبة للدولة العثمانية من جهة وبالنسبة لأهاليه من جهة ثانية. وتكمن فائدته الاستراتيجية بالنسبة للدولة العثمانية فى كونه يساعدها فى تثبيت سيادتها فى السواحل الشرقية للجزيرة العربية. وقد عبر المسؤولون العثمانيون العاملون فى المنطقة عن أهمية السنجق بالنسبة للدولة العثمانية فى كثير من الرسائل التى كانوا يوجهونها إلى رؤسائهم فى استانبول. فيقولون: « إن الحسا ذات موقع مهم، وتقتضى إدارتها من الوجهتين: السياسية والادارية حنكة. ولهذا لا بد أن تتوافر فى المتصرف الذى يعين عليها شروط من أهمها: الحنكة واللباقة والقدرة على تصريف الامور (8). ويقولون أيضا: « إن سنجق الحسا له أهميته وخطورته بالنسبة لموقعه وخصوبة أرضه » (9).

ومما يقوى هذا الاتجاه بالنسبة لوجهة النظر العثمانية فى موقع سنجق الحسا كونه مهم وحيوى بالنسبة لولاية البصرة العثمانية. فهو ضرورى لحماية الوجود العثمانى فى مناطق جنوب العراق. كما أن ولاية البصرة تعد مركزا رئيسا فى دعم نفوذ الدولة فى هذا السنجق وفى الحفاظ على تبعيته لها.

وتبرز هنا نظرية استراتيجية مهمة بالنسبة للاستراتيجية العثمانية فى الجزيرة العربية وهى نظرية توازن الاجنحة بالنسبة للوجود العثمانى والسيادة العثمانية فى سواحل الجزيرة العربية: الغربية والشرقية والجنوبية. فتظل ولاية البصرة تشكل أهمية قصوى بالنسبة لنظرية توازن الأجنحة فى الساحل الشرقى للجزيرة العربية، كما هو الحال بالنسبة لولاية مصر فهى تشكل أهمية قصوى بالنسبة لنظرية توازن الأجنحة فى السواحل الغربية للجزيرة

---

(6) لمزيد من التفصيلات عن حدود سنجق الحسا ومناطقه ارجع إلى:
لوريمر، ج، ج، دليل الخليج، القسم الجغرافي، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، ص 838، مطابع علي بن علي بالدوحة، قطر (بدون).

(7) أنظر: لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب، تحقيق وتعليق الشيخ عبد الرحمن ابن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، ص 160، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز بالرياض (بدون).
– ان واحة هجر هي واحة الهفوف وتعني مدينة الهفوف والبلدان والقرى المحيطة بها.

(8) أنظر: وثائق أوراق الباب العالي، الوثيقة التركية، هيئة المأمورين المدنيين، عدد 293، بخصوص تعيين متصرف على الحسا، مؤرخة في 11 رمضان 1322 هـ / 2 تشرين الثاني 1320 رومي.

(9) أوراق الباب العالي، الوثيقة التركية، رسالة صادرة عن يلدز سراى همايون، باش كتاب دائرة سى، رقم 1881، مؤرخة في 8 ربيع الأول 1320 هـ / 1 حزيران 1318 رومي موقعة من قبل تحسين كاتب السلطان.

العربية ، وكما هو الحال بالنسبة لليمن فهى تشكل أهمية كبـرى بالنسبة لنظرية توازن الاجنحة فى السواحل الجنوبية للجزيرة العربية .

ويشكل سنجق الحسا مستطيلا جغرافيا يصل طوله على ساحل الخليـج فى حدود (500) كم . ويصل عمقه من الشرق الى الغـرب فى حـدود (60) كم . ويتميز سطحه بالانبساط الذى يغلب عليه الانخفـاض التـدريجى باتجـاه مجموعة من الهضاب الداخلية . ولهذا فان السنجـق يحتـوى على عـدد من السبخات المالحة وعلى عدد آخر من التلال الصخرية (10) . وقد أثر هذا كله على عملية التوزيع السكانى فى السنجـق من جهـة وعلى الوظـائف الاقتصادية للسكان من جهة ثانية .

البـوتقة الاجتمـاعية فى السنجـق :

يتركز أهالى السنجق فى المناطق الساحلية منه وفى المنـاطق الـداخلية القريبة نسبيا من الساحل بخاصة فى واحتيه (11) . ويأخذ التجمع السكانى فى التبعثر والانفراط فى باقى مناطق السنجق فيزداد نسبيا عند الآبار وعلى حافة الصحراء فى المناطق التى تتوافر فيها مياه الشرب والكلأ وفى مناطق التلال الزراعية .

وبناء على البنية الجغرافية للسنجق فان عدد سكانه لا بد وأن يكون قليلا اذا ما وزع على مساحة السنجق الكلية . ونجد تجمعا سكانيا مركزا فى منطقة ما ، بينما نجد مناطق خلت من السكان ومناطق أخرى كادت تخلو منهم . كما أن تمركز السكان فى الساحل كون لديهم وظـائف اقتصـادية تختلـف عن الوظيفة الاقتصادية للسكان الذين تجمعوا فى الواحات الزراعية . ومن خلال هذا كله فقد تركزت الوظائف الاقتصادية لسكان الساحل على التجارة وصيد الأسماك واللؤلؤ. وتركزت الوظائف الاقتصادية لسكان الواحات والتلال على الزراعة . وتركزت الوظائف الاقتصادية للسكان المتنقليـن فى المنـاطق على الرعى وتربية المواشى والابل .

واستنادا على ما سبق ذكره فان سكان سنجق الحسا انقسموا الى مجموعة مقيمة ومستقرة فى الساحل والواحات وبعض المناطق الأخرى سميت بالجماعة المتحضرة . ومجموعة غير مستقرة ومتنقلة سميت بالبادية . ومجموعة أخرى

---

(10) الشريف ، عبد الرحمـن صادق (دكتور) ، جغرافية المملكة العربية السعودية ، الجز الأول ، ص 46 ، دار المريخ للنشر بالرياض ، طبعة 1403هـ / 1982م .

(11) يحوى السنجق كلا من واحة الهفوف وتبلغ في امتدادها الطولي مسافة 20—30 ميلا وفي امتدادها العرضي في حدود 12 ميلا . وواحة القطيف الساحلية وهي ذات طول وعرض أقل من واحة الهفوف . وتحتوي الواحتان على مجموعة من الينابيع والعيون الباردة والحارة المتناثرة من شمالي السنجق حتى جنوبه ، انظر :

Pelly's Visit to Wahhabee Capital, Centre Arabia, p. 177, Royal Geographical Society, 2 nd Series, vol. 141.

تتردد فى انتمائها بين المجموعتين المتحضرة والبادية وهم ما يسمون بأشباه الحضر أو بأشباه المقيمين .

وتتركز البوتقة الاجتماعية الحضرية فى الواحتين : واحة الحسا وواحة القطيف الى جانب عدد من الجزر كجزيرة جنة والمسلمية وتاروت ومناطق الساحل بخاصة فى المناطق التى تشتهر بصيد اللؤلؤ والأسماك (12) .

وتتركز الأصول القبلية فى السنجق بين أفراد البادية ولا نجد هذا التركيز عند السكان الحضر فيه ، وانما نجدهم يركزون على المذهب الذى ينتمي اليه الفرد . كما أن التمركز السكانى فى السنجق توكز فى الاساس على أتباع المذهب الواحد . فنرى أن أتباع المذهب السني يتجمعون فى مراكز سكنية وقرى زراعية تكاد تخلو أحيانا من اتباع المذهب الشيعي ونجد كذلك أتباع المذهب الشيعي يتمركزون فى قرى ومراكز سكنية تكاد تخلو من أتباع المذهب السني . وظهر تجمع سكانى فى المدن وبعض القرى شكل مزيجا من السكان السنة ومن الشيعة كل حسب نسبته . فجاء هذا المزيج أحيانا مناصفة وأحيانا أقل أو أكثر فى النسبة لاتباع حد المذهبين . وقد تم هذا التجمع المزجى نتيجة لتشابك المصالح بين أتباع المذهبين ونتيجة للظروف العامة التى تسود السنجق ونتيجة لما بين أتباع المذهبين من رابطة المواطنة ولما لهم من آمال وآلام مشتركة . وعلى الرغم من شدة التقارب والمجاورة بين أصحاب المذهبين الا أنه تظل بينهما فروق واضحة . ويطلق على أتباع المذهب الشيعي فى السنجق اسم البحرانة لقرابتهم من سكان البحرين قديما . وهم من السكان الأصليين فى السنجق (13) .

أهالى السنجق من الحضر :

أولا : أهالى واحة الحسا :

تشكل واحة الحسا الواحة الرئيسية فى السنجق ومركزها مدينة الهفوف وهى قاعدة السنجق بكامله . ومن المعروف أنه لم تكن وقتذاك احصاءات دقيقة لعدد السكان ، وقدر عدد سكان الواحة من الحضر فى الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى بحوالى (67،000) نسمة . كانوا موزعين كالآتى :

(1) فى مدينة الهفوف وحدها قدر عددهم : 25،000 نسمة .
(2) فى مدينة المبرز وحدها قدر عددهم : 8،500 نسمة .
(3) فى بلدان الواحة وقراها قدر عددهم : 33،000 نسمة .
(4) الى جانب فئة قليلة أخرى من الخدم والرقيق .

---

(12) لوريمر ، المصدر السابق ، القسم الجغرافي ، الجزء الثاني ، ص ص 822–723 .
(13) Dickson, H.R.P., The Arabs of the Desert, p. 248, London, 1951.

وقد تمركز السكان فى الواحة حول الينابيع والعيون المتناثرة ، والواقـع أن الحصيلة العددية لهذه التجمعات لم تكن ذات نسبة كبيرة،فعلى سبيل المثال لا الحصر فان معدل سكان القرية الواحدة من قري واحة الحسا البالغ عددهـا فى حدود (50) قرية كان فى حدود (1000 ـ 1500) نسمة (14) .

ويشكل السكان فى الوحة توزيعا عائليا . وقد أقامت العائلات هـذه فى منازل خاصة بها وقد تجاورت منازلها فى المدن والبلدان والقـرى . وجـاء التوزيع العائلى فى بلدان الـواحة وقراهـا غيـر مـدينتى الهفـوف والمبـرز كالآتى (15) :

فى العيون (2500) عائلة والرقيقة (500) عائلة والطرف (450) عائلة والجشة (400) عائلة والجفر (350) عائلة والعمران الشمالية (350) عائلة والبطالية (325) عائلة والمركز (325) عائلة والقارة (300) عائلة والتميمية (250) عائلة والكلابية (250) عائلة وتويثير (250) عائلة والفضول (250) عائلة والمنيزلة (225) عائلة والدالوة (225) عائلة وبني نعام (200) عائلة وجبيل (200) عائلة والعمران الجنوبية (200) عائلة والشعبة (150) عائلة وجليجلة (150) فائلة وسيارة (150) عائلة والقرين (130) عائلة والمطلفى (125) عائلة والقرن (120) عائلة والمقدم (100) عائلة والرميلة (100) عائلة وصاباط (100) عائلة والشقيق (100) عائلة والمزاوى (50) عائلة وطريبيل (50) عائلة وأبو ثور (40) عائلة والعقار (40) عائلة وبني نهو (20) عائلة والشبهارين (20) عائلة .

ثانيا : أهـالى واحـة القطيـف :

تقع مدينة القطيف فى الجزء الشمالى من السنجق وهى المركـز الـرئيس للواحة وقدرت الاحصاءات التقريبية عدد سكان الواحة بـ (26،000) نسمة . وذلك فى الربع الاخير من القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى. وكانوا موزعين كالآتى (15) :

فى مدينة القطيف	5،000 نسمة
ضواحى مدينة القطيف	5،000 نسمة
قرى القطيف	16،000 نسمة

وقد حوت مدينة القطيف وضواحيها وقراها عددا من العالائت التى كانت موزعة كالآتى (16) :

فى صفوى (350) عائلة وفى قديح (350) عائلة وفى العوامية (300) عائلة وفى دبيبية (250) عائلة وفى الجشى (250) عائلة وفى كويكب (250)

(14) لوريمر ، المصدر السابق ، القسم الجغرافي ، الجزء الثاني ، ص ص 1879—1886 .
(15) لوريمر ، المصدر السابق ، القسم الجغرافي ، الجزء الثاني ، ص ص 1879—1886 .
(16) لوريمر ، المصدر السابق ، القسم الجغرافي ، ج 2 ، ص 1879—1886 .

عائلة وفى أم الحمام (250) عائلة وفى شويكة (200) عائلة وفى جارودية (150) عائلة وفى ميـاس (150) عائلة وفى خـويلدية (150) عائلة وفى حلة محيش (135) عائلة وفى توبى (100) عائلة وفى أم الساهك (60) عائلة وفى الاجام (50) عائلة وفى المـلاحة (50) عائلة وفى جـوارى (40) عائلة وفى عنك (20) عائلة .

وقدرت الاحصاءات عدد سكان السنجـق من الحضـر فى حـدود 100.000 نسمة وكانت منازل العائلات فى كل من واحتى الهفوف والقطيف مبنية من الآجر المجفف فى الشمس ومن الطين الممزوج بالتين . وكانت المدن والبلدان والقرى محاطة بأسوار، وأن البدو يبنون بيوتهم من الأكواخ خارج أسوار المدن والبلدان والقرى فى أوقات الصيف .

أهالى السنجـق مـن البـادية :

تعيش فى سنجق الحسا مجموعة من القبائل البـدوية . وهى تنقسم الى قبائل أصلية فى السنجق وقبائل تؤم السنجق فى مناسبات معينة لكنهـا ليست فى الأصل من قبائل السنجق .

أما عن القبائل الأساسية فى السنجق فهى :

قبيلة العجمان وهى قبيلة تقطن فى المنطقة الساحلية من السنجق وتتنقل فى منطقة واسعة من الجزيرة العربية فتصل فى ترحالها وتنقلاتهـا باتجـاه الغرب الى منطقة الخرج ومناطق جنوب الرياض . ويبلغ عددها التقريبى فى حدود 35،000 نسمة . وتعد قبيلة العجمان من أقوى القبائل ويشتهر رجالها بحب الغزو والحروب فى الصحراء (17) .

قبيلة آل مرة وهى من أبناء عمومة العجمان ويغلب عليها طابع البداوة وهى أكثر من غيرها من البدو بعدا عن الحضارة والتحضر . وتعد واحـة يبـرين الواقعة على طرف الربع الخالى الموطن الرئيس لاقامتها ويتحول ابناؤهـا فى مناطق العقير والجافورة (18) .

قبيلة بني خالد وهى من أكثر قبائل المنطقة عددا وأوسعها ديارا . وعلى الرغم من أن إقامتها الرئيسية في سنجق الحسا الا أنها تتنقل فى مناطق واسعة من الجزيرة العربية ، ولها فرع فى كل من قطر وعمان وكانت صاحبة سيـادة فى سنجق الحسا . وهناك عدد من قبيلة بني خالد يقيمون فى عدد من الجـزر كجنة والمسلمية وتاروت وكذلك فى أم الساهك وقصر آل صبيح . ويغلب على بني خالد التحضر أكثر مما هو عند قبيلتى العجمان وآل مرة (19) .

(17) Palgrave, W.G., Narrative of A Year's Journey through Central andEastern Arabia. (1962-63), vol. 2, pp. 1355-56.

(18) حمزة ، فؤاد ، قلب جزيرة العرب ، ص 194 ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، 1352هـ / 1933م .

(19) لوريمر ، مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، ج 2 ، ص 845 .

قبيلة بني هاجر وهى تقطن فى الجنوب من ديار العجمان . وتصل فى تجوالها وتنقلاتها الى قطر (20) .

أما عن القبائل التى تؤم السنجق فهى :

قبيلة العوازم والرشايدة وهما من قبائل الكويت . وهناك قبائل : السهول ومطير وسبيع وعتيبة وقحطان التى تتردد على سنجق الحسا فى أوقات الصيف ، أى أن زيارتها للسنجق زيارات موسمية . وتقدر الاحصاءات التقريبية عدد سكان البادية الأصليين فى السنجق فى حدود (57،000) نسمة .

وتسكل القبائل هذه فى المواضع التى تتوافر فيها آبار الماء والكلأ فى الصحراء ولهم مضارب مشهورة نذكر على سبيل المثال لا الحصر منها : مضارب غرابى وعقلة وحزم وكنزان وأبى ثنين وأبى الحياة وزغيل وأبى معن وتل المباركية وشاطر بريمان وحودة وآبار منطقة البياض ومنطقة الطف ومنطقة زور العوضان ومنطقة الحزوم وبر الظهران وبر العقير وبر القارة وغيرها من الآبار المتناثرة فى السنجق (21) .

ويشير مدحت باشا فى مذكراته الى أن سنجق الحسا يقطنه فى حدود 28 قبيلة بدوية تسكن بيوت الشعر وثروتها الابل والماشية . وكانوا يشترون حاجاتهم من أسواق المدن مقايضة ، اذ كانوا يقايضون سلع المدن بالماشية ومنتوجاتها عوضا عن النقود (22) .

والواقع فان هذا النوع من التعامل الاقتصادى وتبادله يعطينا دليلا كافيا على أن ثروة البدو فى أساسها ثروة تعتمد على ما لديهم من إبل وماشية . وأن غنى القبيلة يعتمد على ما لديها من إبل وماشية ، إذ أن النقد لا يعد دليلا أو قياسا للغنى فى البادية لانه فى العادة يكون نادرا .

ويصل المجموع العام لعدد السكان فى السنجق حسب التقديرات الاحصائية مشتملا على السكان الحضر ساكنى المدن والبلدان والقرى والسكان البدو ، والسكان أشباه البدو فى حدود 160،000 نسمة موزعين فى مناطق السنجق الساحلية والداخلية .

المذهب وأثره فى البوتقة الاجتماعية فى السنجق :

يعد المذهب المعيار الاجتماعى الأول للبوتقة الاجتماعية التى تقطن السنجق ويركز عليه السكان كثيرا بخاصة فى الحاضرة أكثر من تركيزهم على الأصول

(20) حمزة ، فؤاد ، مرجع سبق ذكره ، ص 200 .

(21) لوريمر ، مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، ج 2 ، ص 840 ، 846 .

(22) مدحت باشا ، مذكرات مدحت باشا ، ط 1 ، تعريب يوسف كمال حتاته ، ص 179 ، مطبعة هندية بمصر (بدون تاريخ للطبع) .

القبلية . أما فى البادية فجلهم من مذهب واحد هو مذهب السنة والجماعة . وعليه فان المذهب يشكل نقطة رئيسة فى سلم التنظيم الاجتماعى فى السنجق.

وتختلف نسبة أتباع المذهب الواحد فى مناطق السنجق بين السكان الحضر بقسميهم : المدنى والقروى ، اذ أن نسبة عدد السكان السنة فى واحة الحسا يصل تقريبا الى (4/7) مجموع السكان العام فيها ، وبذلك تقل نسبة أتباع المذهب الشيعى فى الواحة عن نسبة السكان فى حدود (1/7) (23) . ويصل عدد الشيعة فى حدود (30،000) نسمة من أصل (67،000) نسمة تقريبا .

ونسبة أتباع المذهب الشيعى فى واحة القطيف نسبة عالية جدا . ويشكل الشيعة فى الواحة الاكثرية الساحقة وتصل نسبتهم الى أكثر من (6/7) المجموع الكلي للسكان فى الواحة تقريبا . فالسكان فى معظمهم شيعة ، باستثناء بعض السنة الذين يقيمون فى بعض القرى الى جانب الشيعة فيها ، وذلك كجماعة بني خالد الذين يقيمون فى أم الساهك وبعض بدو بني هاجر والعوازم ، إضافة الى ذلك الجند العثمانى وبعض الموظفين الاداريين من السنة. والى جانب هذا كله فان هناك مجموعة سكانية تسمى الهولة وهم من السنة ويعملون فى الحرف الصناعية اليدوية المحلية فى القطيف وقراها (24). ويصل عدد الشيعة فى حدود (24،000) نسمة .

ويمكن تفسير النسبة العالية للسكان الشيعة فى واحة القطيف فى الدرجة الأولى وفى واحة الهفوف فى الدرجة الثانية الى الاتصال والتمازج السكانى بين سكان السنجق وبين سكان المناطق التى يكثر فيها الشيعة كمناطق : جنوبى العراق والبحرين وايران . ونلاحظ أن نسبة الشيعة فى واحة القطيف عالية جدا أكثر مما هى عليه فى واحة الهفوف لاتصال القطيف المباشر بالمناطق الشيعية أو بالمناطق التى يكثر فيها الشيعة بحكم موقعها الساحلى المطل على الخليج والقريب من هذه المناطق من جهة، وكونها نقاط عبور شمالية للسنجق من جهة ثانية . وهناك الكثير من العوامل التى تغذى الصلة والاتصال بين هذه الجماعات مثل : التجارة ومرور قوافل الحجيج وقرب العتبات الشيعية فى جنوب العراق والمد الثقافى والفكرى المتلاقى فى المنطقة ، الى جانب بعض الصلات العائلية . وتقل نسبة الشيعة فى واحة الهفوف عنه فى واحة القطيف بسبب انحرافها الى جهة الداخل ، وبسبب تأثرها بالقبائل البدوية المنتشرة فى داخل السنجق ، وبسبب صلتها القوية بالسكان فى قطر .

وترجع أصول السكان فى الاقليم الى أصول عربية تمتد بجذورها الى زمن بعيد . أما أصول السكان الشيعة فيغلب عليهم انهم من أصل عجمي. وهناك

(23) لوريمر ، مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، حـ 2 ، ص 845 .

(24) لوريمر ، مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، جـ 2 ، ص 845 وجـ 5 ، ص 1892 .

جماعات سكانية قليلة فى السنجق تعود فى أصولها الى أصل هندى (25) .

ويلاحظ على التجمع السكانى فى السنجق أن أتباع المذهب الواحد لهم مساجدهم ومدارسهم وأحياؤهم الخاصة بهم ، وتصل أحيانا الى حد نجد فيه أن القرية بكاملها تكون لأتباع مذهب واحد إما لأتباع المذهب الشيعي أو لاتباع مذهب السنة والجماعة . ويغلب الطابع المذهبى وطابع القرابة الدموية وطابع الروابط العائلية على التجمعات السكانية ، ويمكن تمييز ذلك بسهولة فى كل من المدن والقرى فى السنجق . كما أن للمذهب أثر كبير على نوعية العمل الذى يمارسه السكان فى السنجق .

ويتجمع غالبية السنة فى واحة الحسا فى المدن أو القرى والبلدان الآتية (26) : الهفوف ، المبرز ، العيون ، الفضول ، غرابى ، غويبج ، قصر الدليقية ، العقار ، عقلة ، بئر حمادة ، حزم جواثة ، كنزان ، قصر اللويمي ، قصر الشرقي ، الجشة ، الطرف ، أبو ثنين ، الرملية الرقيقة . ويتجمع غالبية الشيعة فى واحة الحسا فى المدن والقرى الآتية : العمران الشمالية ، العمران الجنوبية ، البطالية ، الدالوه، حليلة ، جبيل ، جليجلة ، المنزلة ، المقدم ، المطيرفى ، بنو نعام ، بنو نهو ، القارة ،القرين ، القرن ، صاباط ، الشعبة ، الشهارين ، التميمية ، أبو ثور ، طرببيل ، توبثير .

وهناك تجمع سكانى فى الواحة يتساوى تقريبا فيه عدد السنة والشيعة كما هو الحال فى قرى : الكلابية ، الجفر ، المركز ، الشقيق .

ويلاحظ ان عدد القرى الشيعية فى واحة الحسا أكثر من عدد القرى السنية ، ومع هذا فان السكان السنة يزيد عددهم على السكان الشيعة فى الواحة ، ويفسر هذا بزيادة نسبة السكان السنة فى مدينة الهفوف وفى بلدة المبرز المجاورة وهما من أكبر البلدان عددا فى السكان،اذ يصل عدد سكان مدينة الهفوف الى (25،000) نسمة تقريبا يشكل السنة نسبة عالية منهم . ويصل عدد سكان المبرز الى (8،500) نسمة ، علما بأن سكان السنجق يصل عددهم فى حدود (67،000) نسمة ، كما أن عدد سكان القرى فى الواحة البالغ عددهم فى حدود (33.000) نسمة يشكل السنة نسبة لا بأس بها من هذا العدد .

ويتجمع غالبية الشيعة فى واحة القطيف فى المدن والقرى الآتية (18) : القطيف ، العوامية ، باب الشمال ، بحارى ، دبيبئة ، جرارى ، جارودية ،

---

(25) The Moslem World, « Sunni-Shi'aa Discord in Eastern Arabia» by Hakken, B.O., vol. 23, p. 303.

(26) لوريمر ، مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، ج 2 ، ص : 821—830 .

(27) الهفوف اسم قديم لقصبة هجر . وهي في الأصل هفهوف . يقول الشاعر الشيخ على بن حبيب التاروتي :

سمعا مهفهفة الهفهوف من هجر أنغمة الصوت ذا ، أم رنة الوتر

(28) لوريمر ، المصدر السابق ، القسم الجغرافي ، ج 5 ، ص ص: 1880—1888 .

كويكب ، أم الحمام ، الآجام ، مدارس ، حلة محيش ، الملاحة ، مياس ، قديح ، صفوى ، سيهات ، تاروت ، توبى .

ويتجمع غالبية السنة فى واحة القطيف فى القرى الآتية : أم الساهك ، شريعة ، خويلدية ، عنك ، الدمام ، الجش ، وفى جزيرتى : جنة والمسلمية .

ونلاحظ أن عدد الشيعة أكثر بكثير من عدد السنة فى الواحة وأن نسبة السنة قليلة جدا فيها ، ونلاحظ كذلك أن المجمل العام لعدد السكان السنة فى السنجق يزيدون كثيرا على عدد السكان الشيعة فيه وذلك لسببين : الاول : هو زيادة عدد سكان واحة الحسا على عدد سكان واحة القطيف من جهة . وزيادة عدد السكان السنة فيها من جهة ثانية . والثانى : هو أن البدو فى السنجق فى معظمهم من السنة وهذا بدوره يزيد من عدد سكان السنة فى السنجق ، حيث أن عدد السكان البدو فى السنجق يصل الى حدود (60،000) نسمة ، أضف الى هذا عدد الجند العثمانى والموظفين الاداريين العثمانيين العاملين فى السنجق .

وعليه فان البوتقة الاجتماعية فى سنجق الحسا تتكون من كتل اجتماعية ذات أجناس مختلفة فى الأصول والمذاهب . وقد تعرضت هذه الكتل الاجتماعية لكثير من حالات التمازج والاحتكاك بالمجتمعات الأخرى خارج السنجق نتيجة للحركة التجارية من جهة ونتيجة للمتغيرات السياسية من جهة ثانية . وعليه فان البوتقة الاجتماعية فى السنجق بوتقة ذات صفة غير متجانسة الى حد ما يعكس التجانس القائم فى مجتمع نجد مثلا .

وتجدر الاشارة الى أن بدو السنجق ظلوا يحافظون على نقاوة أصولهم القبلية وسلامة انسابهم الى حد كبير وذلك لقلة احتكاكهم بالاجناس الأجنبية الأخرى من جهة ورفضهم مصاهرة من هم أدنى منهم نسبا وأصلا من جهة ثانية . وظلوا يحافظون قدر إمكانهم على سلم الأصول القبلية المتعارف عليها بين القبائل فى البادية ، ومن هنا ظل التأثير العثمانى عليها من الناحية الاجتماعية تأثيرا يكاد يكون محدودا ، وظل فى نطاق ضيق جدا وفى مناحي أخرى غير الناحية الاجتماعية . وقد ظهر تأثير العثمانيين على الجماعات الحضرية أكثر مما هو عليه فى الجماعات القبلية بخاصة الجماعات التى تقطن فى الاجزاء الداخلية من السنجق .

التنظيمات العثمانية فى السنجق :

مما لا شك فيه أن الحكم العثمانى فى السنجق وغيره إتسم بالطابع العسكرى المميز . فعندما دخلت حملة مدحت باشا سنجق الحسا واستولت عليه من الدولة السعودية الثانية عام 1288 هـ. / 1871 م. (29) ، طبق

---

(29) لمزيد من التفصيلات انظر : د. عبد الفتاح حسن أبو علية ، الدولة السعودية الثانية ، ط 4 ، ص 184 وما بعدها ، دار المريخ للنشر بالرياض 1405هـ / 1985م .

المسؤولون العثمانيون فيه النظام الادارى العسكرى . فوضوا فيه حاميات من الجند النظامى وصل عددهم الى (5000) جندى ، الى جانب عدد من قوات الأمن من الفرسان (الخيالة) ورجال الأمن (الشرطة) العاديين . ورتبوا بعض السفن الحربية العثمانية قبالة ساحل السنجق (30) .

وتثبيتا للسيادة العثمانية فى السنجق وزع العثمانيون حاميات من الجند النظامى مع عدد من الشرطة الخيالة فى عدة مواضع فى السنجق (31) . فوضعوا حامية فى كوت (32) الهفوف مؤلفة من كتيبة مشاة وفصيلتين من الفرسان الشرطة وبطارية مدفعية واحدة . كما وضعوا فى قصر الحزام فى المدينة نفسها حامية مؤلفة من ربع كتيبة مشاة و (25) فارسا من الشرطة ووضعوا (100) شرطى عادى فى قصر العبيد .

أما فى مدينة المبرز المجاورة لمدينة الهفوف فوضعوا فيها (25) فارسا شرطيا و (10) شرطة عاديين . ووضعوا فى قصر ساهود فى المدينة نفسها ربع كتيبة مشاة و (25) من الفرسان الشرطة .

هذا ووزعوا الحاميات فى واحة الهفوف فى الضواحى والقرى . فوضعوا حامية عسكرية فى قلعة قصر الدليقة على بعد خمسة أميال فى جنوب غرب قرية الجشة التى تبعد فى حدود تسعة أميال عن مدينة الهفوف باتجاه الغرب. ووضعوا حامية مؤلفة من ربع كتيبة مشاة و (25) من الشرطة الخيالة فى قلعة قصر اللويمى الواقعة على بعد ميل واحد من الهفوف باتجاه الشرق . ووضعوا حامية عسكرية فى قرية المركز على مسافة نصف ميل فى شمال غرب قرية الجشة مؤلفة من (25) شرطى خيال . ووضعوا حامية عسكرية فى قلعة قصر الشرقى التى تبعد أربعة أميال عن مدينة الهفوف مؤلفة من ربع كتيبة مشاة و (25) خيالا من الشرطة . ووضعوا حامية فى قرية باب الجفر مؤلفة من (50) شرطيا من الخيالة و (10) من الشرط العاديين . ووضعوا فى ميناء العقير (50) شرطيا من الخيالة و (20) شرطيا عاديا .

أما فى واحة القطيف فرتب العثمانيون حاميات فيها (33) . فوضعوا فى مدينة القطيف مفرزة من (50) جندى من المشاة . ووضعوا كتيبة مشاة فى عنك و (150) شرطى من الخيالة من بينهم عدد من السكان المحليين مل شيعة وسنة . ووضعوا فى سيهات مفرزة من (25) من الشرطة الخيالة يساعدون فى

---

(30) منشور مدحت باشا المذاع على الأهالي في الأحساء في 18 رجب 1288هـ .

(31) لوريمر : مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، ج 2 ، في الصفحات 821 ، 826 ، 827 ، 828 ، 857 ، 858 .

(32) الكوت معناه حصن صغير يقع قرب الماء . انظر : الأب أنستاس مار الكرملي ، تسمية الكويت » مقال منشور في مجلة المشرق ، عدد 10 ، سنة 1904م ، ص ص : 449–358 . وانظر أيضا : Philby, Saudi Arabia Jubilee, p. 272, London, 1952.

(33) لوريمر ، مصدر سبق ذكره ، ص 856 .

أعمال الجمارك . ووضعوا (10) خيالة شرطة فى جزيرة تاروت و (3) شرطة من الخيالة فى جزيرة جنة و (3) شرطة عاديين فى جزيرة المسلمية .

وكان من الجند النظامى العامل فى السنجق كلهم يأتون من ولاية البصرة ، وكانوا يأتون على فترات زمنية ، وكانوا ينقلـون الى السنجـق فى البواخـر الانجليزية بالاجرة أو يأتون اليه بواسطة القوارب العادية التى كان يمتلكها السكان المحليون .

وقدر ت مدة إقامة الجندى فى السنجق فى حدود سنتيـن ثـم يستبـدل بجندى آخر (34) . وكان الجند العثمانى النظامى لا يرغبون العمل فى سنجق الحسا ، وكانوا يرون أن نقلهم للخدمة فيه ما هى الا عملية نفي أدبى لهـم ، وذلك لقسوة الحياة والطقس وكثرة الامراض هناك من جهة وبعده من جهـة ثانيـة .

والى جانب القوة العسكرة النظامية العاملة فى السنجق كانت هناك قـوة عسكرية بدوية مساندة قوامها من (50) فردا يركبـون الابـل ويتسلحـون بالبنادق ويعملون مرشدين للقوات العثمانية فى السنجق (34) .

والشرطة هم القوة الظهير للحاميات العسكرية فى السنجـق : وهـم من فصائل الضبطية القادمين من ولاية البصرة . ووظيفتهم حفظ الأمن الداخلى فى السنجق وحماية القوافل التجارية والمسافرين من اعتداءات قطاع الطرق. وكان الراتب الشهرى للشرطى الفارس (30) روبية . أما الراتب الشهـرى للشرطى العادى فهو (15) روبية . وكان معظم العاملين فى الشرطة الخيـالة من أكراد العراق ومن العرب غير المحليين . ووظفت الدولة عددا من الشرطة السنة والشيعة المحليين (35) .

ونلاحظ من الترتيبات العسكرية العثمانية فى السنجق أن الادارة العثمانية فيه مركزة على الوجود العسكرى . ويظل الوجود العسكرى فى السنجق متوقفا على مدى قوة السلطة المركزية ومدى انتباهها له . ولا يمكـن من خـلال هذا الوجود العسكرى أن تقوم صلة قوية بين المجتمع فى السنجق وبين السلطة العثمانية فيه ، لان الاهالى نظروا الى السلطة العثمانية بأنها سلطة قهـريـة قائمة أساسا على إخضاع الأهالى للطاعة العثمانية بالقوة ، وعدوا هذا الأمر مظهرا غير حضارى . ومن هنا انعدم الولاء المحلي الفعلي للسلطة العثمانية . وظلت العلاقة القائمة بين أهالى السنجق فى غالبيتهم وبين العثمانيين مرهونة بمدى بقاء العسكرية العثمانية الضاغطة فى السنجق .

أما من حيث التنظيمات الادارية العثمانية فى السنجق (36) فقد قسمت الدولة السنجق إداريا الى قضائين هما : قضاء الهفوف وقضاء القطيف .

---

(34) لوريمر ، مصدر سبق ذكره ، ص 855 .

(35) لوريمر ، نفسه ، ص : 856 .

(36) لوريمر ، نفسه ، ص ص : 855–856 .

وقسمت قضاء الهفوف الى أربع نواح هى : الهفوف والمبرز وباب الجفر العقير ، أما قضاء القطيف فأبقته بدون تقسيمات إدارية أصغر ، وضمت إليه إدارة جزر : تاروت والمسلمية وجنة .

وعينت الادارة متصرفا لادارة شؤون السنجق كانت الهفوف مركز إقامته، وعينت أيضا مديرا للناحية ، وقائمقاما على قضاء القطيف ، الا أن السلطة ظلت بيد قائمقام الهفوف ومدير ناحيتها . وأقامت الدولة إدارة مدينة خاصة بالشؤون المدنية فى ميناء العقير . وقد تولى تصريف أمورها أمر الضبطية فى الميناء . وأقام العثمانيون دائرة مدينة عامة فى السنجق ، وعينوا شيوخا فى القرى ليس لديهم أى سلطات تنفيذية . وعينوا على كل قرية مختارا يعد من الوجهة الادارية رئيسا للقرية ، وأقام العثمانيون مكتبا للبريد والتلغراف فى السنجق .

وقد نظمت الدولة عملية جبي الضرائب ، وكانت أهم ضرائب الدولة تجمع من محصول التمر فى السنجق الى جانب الضرائب الاخرى التى تأخذها من المحصولات والسلع التجارية وسفن الغوص وغيرها . وكانت الضرائب التى تأخذها الدولة عن التمور ضرائب عينية فى واحة الهفوف . وكانت الدولة تبيع تمورها المجموعة من الضرائب بالمزاد العلني باشراف المتصرف الذي يبلغ رئيس دائرة الجمارك فى بغداد بالنتيجة . وكانت تجح ضرائب التور فى قضاء القطيف نقدا لا عينا كا هو الحال فى واحة الهفوف . وكانت الدولة تجبي ضرائب من قوارب الغوص أو قوارب صيد اللؤلؤ ، فكانت تجبي 1/2 ليرة عثمانية عن كل قارب . وكانت الدولة تعطى حق تحصيل جمارك السنجق بخاصة الموانيء لمتعهدين من الشيعة . وبلغ ما دفعه المتعهدون للدولة مبلغ (13،500) ليرة عثمانية عام 1323 هـ./1905 م. (37) .

وبلغت العائدات السنوية للدولة من ضرائب السنجق (60.000) ليرة عثمانية . وكانت مصروفاتها فيه (54،000) ليرة عثمانية سنة 1321 هـ. / 1903 م. (38) .

وكان للدولة أملاك خاصة سميت أملاك الدائرة السنية (39) . فكان لها مزارع نخيل فى الهفوف وباب الجفر وبلغ محصولها من التمور فى واحة الهفوف من 2000 ـ 2500 من (40) وبلغ محصول تمورها فى واحة القطيف 16،000

---

(37) و (38) لوريمر ، المرجع السابق ص ص : 858–859 .

(39) لوريمر ، نفسه ، ص 858–859 .

(40) المن القطيفي ويساوى وزن (34،37) رطلا انجليزيا . ويستعمل في وزن البضاعة في القطيف عندما تباع بالمفرق لا بالجملة . وهو الوحدة الرئيس للوزن في واحة القطيف . ولمزيد من التفصيلات انظر : د. عبد الفتاح حسن أبو علية ، النقود والموازين والمقاييس في سنجق الحسا في العهد العثماني الثاني ، بحث مقدم الى المؤتمر العالمي الأول للجنة العربية للدراسات العثمانية المنعقد في تونس من 20ـ26 يناير 1984م ، ونشر في المجلة التاريخية المغربية .

قلة (41). وبلغ ثمن محصول الدولة من التمور مبلغ 3000 جنيه استرليني تقريبا . كما كان للدولة مزارع أرز في جبيل وجليجلة وحلياة ومنيزلة ومطيرفي ومزاوي والشقيق وجميعها من قرى واحة الهفوف . وبلغ الانتاج من الأرز في حدود (1000) موسمية (42) .

موقف أهالي سنجق الحسا من السيادة العثمانية ومدى تأثرهم بها :

لقد أوردنا وبشكل موجز التنظيمات العثمانية في السنجق لربط هذا بموقف أهالي السنجق من السيادة العثمانية ولبيان مدى تأثرهم بالعثمانيين. لقد ركزت التنظيمات العثمانية في السنجق على الاسلوب العسكري في حكم المنطقة . ومن المعروف تماما أن القوة العسكرية يمكنها ضمان استمرار ولاء الأهالي للحكم العثماني . كما أنها تتأثر الى حد كبير بعدة متغيرات أذكر من أهمها : مدى محافظة الدولة على بقاء تركيزها على الاسلوب العسكري والقوة العسكرية المؤثرة التي تضمن خضوع الأهالي بخاصة وان الدولة كثيرا ما تنشغل بأمور عسكرية خارجة عن حدود السنجق فكان هذا يقلل من عملية التركيز العثماني في المنطقة . كما أن بقاء التركيز العسكري في السنجق يعتمد الى حد كبير على مدى تحمل الدولة العثمانية للمصروفات المكلفة لاستمرار التركيز العسكري بخاصة وأن واردات السنجق من الضرائب لا تغطي جوانب المصروفات اللازمة للحفاظ على السيادة العثمانية . ويظل بقاء التركيز العسكري في السنجق يرتبط الى حد كبير بمدى تقبل العسكر للبقاء في المنطقة في إطار الخدمة العسكرية في ظل الطقس الشديد الحرارة وفي ظل الرطوبة العالية والأمراض الكثيرة التي أخذت تفتك بهم ، بالاضافة الى البعد المسافي بين السنجق والمواطن الاصلية للعاملين فيه . ويعد تململ الجند وانتقاداتهم وتذمرهم من الامور المهمة للحفاظ على التوازن بين طاعتهم للمسؤولين وبين تقبلهم لتنفيذ أوامرهم . كما أن التركيز العسكري في السنجق يعتمد كثيرا على مدى اخلاص المسؤولين فيه وعلى مدى تقبل أهاليه لهذا المبدأ .

وتشير العلامات التارخية الى أن الوجود العسكري العثماني في السنجق كان وجودا مهلهلا وهشا ويعود هذا الأمر الىصعوبة المواصلات بينالحسا وبين ولاية البصرة.وكان تنقل الجند يتم إما بواسطة السفن أو بواسطة البر، وقد تطلب هذا مصروفات كبيرة وصعوبات (43) أخرى كالصعوبات التي تحدث

(41) القلة وهي خاصة بوزن التمور في حالة بيعها بالجملة في واحة القطيف ، وهي لا تستعمل في واحة الهفوف . وتساوى القلة وزن (2) من قطيفي . وتساوى في حدود (75،68) رطلا انجليزيا . انظر : لوريمر ، المصدر السابق ، القسم الجغرافي ، ج 2 ، ص : 849 .

(42) الموسمية : هي وزن خاص بالحبوب والأرز في حالة بيعها بالجملة ، وتزن (230) رطلا انجليزيا ، وتساوى وزن (12) قياسة من قياسات الحسا .

(43) أوراق الباب العالى ، دائرة الخيالة (السواري) رقم 810 ، موقعة من سر عسكر رضا ، مؤرخة في 7 ذى القعدة 1324 ر .

فى عملية نقل المؤن والامدادات والذخائر من البصرة الى الحسا . فعلى سبيل المثال لا الحصر كانت الدولة تشترى البغل الواحد بـ (3000) قرش عثمانى من ولايات : بروسة وطرابزون وآيدن وغيرها. وكان يكلف نقل البغل الواحد من الولاية التى اشترى منها الى البصرة ليرسل الى الحسا مبلغ من 400 — 500 قرش عثمانى • وكان هناك تجار محليون متعهدون لهذه العملية مثل ابراهيم البسـام (44) .

وكانت ميزانية السنجق ميزانية قليلة ومحددة . وكان الجند والموظفون العثمانيون من خارج السنجق وداخله متذمرن من شدة الضيق الاقتصادى والازمات الاقتصادية الحادة التى تواجههم من جراء قلة واردات الدولة من السنجق ومن جراء قلة الاعتمادات المالية المخصصة من قبل الدولةلمصروفات السنجق . وقد عبرت رسائل سر عسكر رضا القائد العام المرسلة الى الصدر الاعظم عن هذا الخلل ، وطالبته بدراسة وضع المشكلة المالية الخاصة باعتماد الأموال اللازمة لاعاشة الجند فى خطة الحسا . وترجوه بضرورة ايجاد الحل اللازم لها .

وبهذا الاسلوب فان الدولة لم تستطع التأثير على مجتمع الحسا ولم تستطع كذلك صهر البوتقة الاجتماعية فيه ، ومن هنا ظل ولاء الاهالى للدولة ولاء يعتمد كثيرا على مبدأ الخضوع للسلطة لا على مبدأ التبعية والولاء لها . ولم يشارك الاهالى فى الوظائف العسكرية ولا حتى فى الوظائف الادارية المهمة أو الاقل أهمية منها ، على الرغم من مشاركة عدد قليل من الاهالى فى خدمة الدولة فى مجال الأمن: شرطة وأدلاء.وظلت نسبة العاملين فى وظائف الدولة نسبة قليلة جدا اذا ما قيست نسبتهم بعدد أهالى السنجق .

والواقع أن أسلوب الدولة فى حكم السنجق ظل أسلوبا لا مركزيا فى الأمور التى تخص مجتمع السنجق كحرية لتمتع بالعادات والتقاليد والاعراف والأساليب الاجتماعية القائمة والمتبعة فى السنجق . وبهذا الأسلوب فان الدولة لم تمس جوهر النظام الاجتماعى القائم هناك وظلت تركز على مبدأ الولاء القائم على الخضوع لا على أساس الانتماء القائم على الاقتناع بفائدة السلطة العثمانية ، مما سبب فى فقدان الدولة للقاعدة الشعبية والتأييد

---

(44) أوراق الباب العالى ، الوثيقة التركية ، دائرة الخيالة (السواري) مقر القيادة العليا (سرعسكر) ، رقم 810 ، مؤرخة في 7 ذى القعدة 1324هـ . والوثيقة التركية ، برقية صادرة من ولاية البصرة وموجهة الى الصدر الأعظم باستانبول رقم 7821 ، مؤرخة في 16 شباط 1322 .

— ابراهيم البسام وهو من عائلة البسام وموطنها مدينة عنيزة في القصيم في نجد . وقد اشتهرت هذه العائلة بالتجارة والعلم .

(45) أوراق الباب العالى ، الوثيقة التركية ، مقام القيادة — سر عسكر ، دائرة المحاسبات ، رقم 1458 ، مؤرخة في 24 محرم 1326هـ .

السكانى فى السنجق (46) . كما أن أسلوب الحكم القائم على القوة العسكرية لا بد أن يفتقر دائما الى تأييد الاهالى ويكون مجالا واسعا لظهور حوادث الظلم وحالات الفوضى والاضطراب على الرغم من أن العثمانيين بـرروا وجـودهم العسكرى من أجل إحلال الامن وراحة الاهالى (47) .

وكان مما يغذى مبدأ عدم ولاء أهالى السنجق للدولة العثمانية ما كان يتمتع به شيوخ القبائل من سلطات ترتكز على الولاء الكبير الممنوح لهـم من قبـل قبائلهم ، إضافة الى طموحاتهم السياسية التى كثيرا ما كانت تتعـارض مـع السلطة المركزية المحلية فى السنجق،أضف الى هذا طموح ذوى السلطة والنفوذ من بين أهالى المدن الذين كانت لهم نزعات سياسية استقلاليـة . وكان ممـا يقوى هذه النزعة الاستقلالية فى السنجق وجود العدد الكبير من الشيعة فيه الذين لم يكنوا للدولة السنية ولاءا .

ونظرة على البنية الاجتماعية لأهالى السنجق فى فئاتهم المختلفة وما كانوا يتمتعون به من روابط قبلية وعائلية وأخرى مذهبية وما كانوا يتمسكون به من عادات وتقاليد محافظة على الأنظمة المتبعة من عهد قديم، فان هذا يقودنا الى القول بأن رابطة الخضوع للسلطة كانت العلامة المميزة فى علاقة الاهالى بالدولة العثمانية ممثلة بالمسؤولين العثمانيين فى السنجق . وظلت الضرائب ومـا يدفعه الأهالى للدولة تشكل رمزا لهذا الخضوع وتلك التبعية .

ولما كثرت الضرائب على الأهالى بخاصة الضرائب التىكانت تأخذها الدولة من اتمور فكر السكان طويلا فى ضرورة الثورة على الدولة ، وساد السنجقفى كثير من الاحيان حالة من التذمر والسخط . وندلل على هذا ما قام به أهـالى مدينة الهفوف من إغلاق حوانيتهم التجارية ومحالهم المختلفة تعبيرا عن هذا السخط (48) وقد تكررت مثل هذه الحالة من الاضطرابات فى مركز السنجق وفى غيره من مناطقه . وكانت مثل هذه الاضطرابات تعبر عن نقمـة أهـالى السنجق على إدارته من العثمانيين وغيرهم . وقد عبرت هذه الاضطرابات عن وعي مجتمع السنجق وتفهمه السياسى لما يدور من حوله . وأن التذمر الجماعى المنظم فى السنجق ضد العثمانيين كان له مغزاه ، فهو يعطينا صورة واقعيـة للعلاقة القائمة بين أهالى السنجق وبين السلطة العثمانية فيه ، ودلالة واضحة على عمق عدم الانسجام بين الطرفين .

وكان مما يركز النزعة الاستقلالية فى السنجق كونه يتجمع فيه الكثير من السكان البدو والذين يتوقون دائما للحرية والاستقلال والنزعة الانفصاليةعن

---

(46) انظر : د. عبد الفتاح أبو علية ، دراسة تاريخية لموقف أهالي الأحسا من الاستراتيجية العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، بحث منشور في مجلة الدارة ، العدد الرابع من السنة الأولى ، ذى الحجة 1395هـ / ديسمبر 1975م .

(47) منشور مدحت باشا المذاع على أهالى السنجق في 18 رجب 1288هـ .

(48) أوراق الباب العالى ، الوثيقة التركية ، برقية صادرة من ولاية البصرة ، رقم 209859 ، في 25 آذار 1322 رومي.

السلطة المركزية وأحيانا كانوا يحاولون مد نفوذهم على سكان المدن والقرى المجاورة فى حالة ضعف السلطة المركزية . وظلت هذه النزعة سببا قويا من أسباب الخلاف القائم بينهم وبين السلطة العثمانية فى السنجق . وظلت الدولة تحاول قدر استطاعتها أن تكسب شيوخ القبائل وتخضعهم لسيادتها بشتى الوسائل : العسكرية والسلمية . وجربت الدولة أن تكسب شيوخ القبائل عن طريق دفع المنح والهبات والعطايا لهم . فدفعت الدولة هبات مالية لشيوخ العجمان وشيوخ بني هاجر وشيوخ بني خالد وشيوخ بني مرة . ووصلت هباتهم ومنحهم لشيوخها مبلغ (437) ليرة عثمانية فى السنة (49) .

لقد تأثر المجتمع الحضرى فى السنجق من جراء فوضى القبائل بصورة أكثر مما تأثرت به الدولة العثمانية . لأن هذا الوضع أثر تأثيرا كبيرا على التجارة فى المنطقة وعلى الأمن والاستقرار الذى ينشده مجتمعها . وقد أشارت الليدى آن بلانت « Anne Blunt » الى أن أهالى الساحل الممتد من الكويت الى قطر تضايقوا كثيرا من فوضى القبائل وكثرة تمرداتهم ضد السلطة (50) . وذكر « زويمر » « ZWEMER » أن طرق التجارة فى سنجق الحسا ظلت غير آمنة بسبب ما كان يقوم به البدو من اعتداءات على القوافل التجارية (51) . وكانت الدولة تحاول الافادة من الخلافات التى كانت تحدث بين بعض القبائل، كما هو الحال فى الخلاف الذى حدث بين آل مرة والعجمان فى السنجق (52) ، الا أن الدولة فى كثير من الاحيان كانت لا تستطيع الموازنة فتفلت الامور وينعكس كله على أوضاع مجتمع الحسا بخاصة الحضر والمستقرين منهم . وتفيد الوثائق التركية بأن الكثير من الاعتداءات البدوية ضد مدينتى الهفوف كانت تقوم بها قبائل العجمان وقبائل آل مرة . وكانت اعتداءاتهم تركز على القوافل التجارية القادمة الى المدينتين وعلى الاسواق فيهما (53) . وهذا بدوره يوضح مدى ضعف السلطة العثمانية فى المنطقة وعجزها عن رد اعتداءات القبائل البدوية على مدنها .

وقد عبرت الوثائق العثمانية الكثيرة عن تردى الأوضاع فى سنجق الحسا، وعن ثورة الأهالى من حضر وبادية ضد السيادة العثمانية فيه . وكانت الدولة

---

(49) لوريمر ، مصدر سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، جـ 2 ، ص : 856 .

(50) انظر :

Blunt, Lady Anne, Pilgrimage to Nejd, the Gradle of Arab Race, (a visit to the Court of the Arab Amir and our persion Campaign), vol. 11, pp. 258-263.

(51) Zwemer, S., Arabia the Cradle of Islam, p. 217, London, 1912.

(52) أوراق الباب العالى ، الوثيقة التركية ، دائرة الأركان الحربية العامة ، الشعبة الرابعة ، تقرير من المخبر محمد عبده ، مرسل إلى قائد الجيش السلطاني السادس في بغداد ، مؤرخ في 25 آيار 1322هـ .

(53) أوراق الباب العالى ، الوثيقة التركية ، صادرة عن مكتب الصدارة العظمى ، مؤرخة في 10 شوال 1324هـ / 13 تشرين ثاني 1322 رومي .

تحاول ارسال قوات الى السنجق لتهدئة سكانه وتثبيت دعائم نفوذها فيه ودرء المفاسد وإحلال الأمن وضبط الأمور (54) .

ومما كان يباعد بين أهالى السنجق وبين السلطة العثمانية فيه ما كان يقوم به بعض المسؤولين العثمانيين فى السنجق من أعمال تسيء للدولة ، فهناك بعض المسؤولين العثمانيين كانوا يفضلون منافعهم الشخصية على المنافع العامة للدولة وللسكان . وكثيرا ما كان يرتكب متصرف السنجق وقائد الدرك ومدير الادارة المالية من الاعمال التى لا يرضى عنها السكان ولا ترضى عنها الدولة . فتشير بعض الوثائق العثمانية الى « أن نجيب بك متصرف لواء نجد (الحسا) يرجح منافعه الشخصية على المصلحة العامة للدولة ... وكان يكتم الحقائق ويخفيها ويختلق الأكاذيب والوشايات على المسؤولين فى اللواء ليغطي على تصرفاته ... وأن أمير اللواء مصطفى حلمى القائد السابق لجند الحسا كان ضحية أكاذيبه (55) ... » ، علما بانه لم يمض على تعيينه فى هذا المنصب سوى سنتين فقط . أضف الى هذا فان خلافات واضحة كانت تقوم بين المسؤولين العثمانيين فى السنجق ، كما هو الحال فى الخلافات التى كانت تقع بين المتصرف وقائد الدرك ومدير المالية وغيرهم . كما كانت تقوم الخلافات بين المسؤولين العثمانيين وبين الاهالى فى السنجق بخاصة فى مسألة الضرائب الخاصة بالتمور . فتشير الوثائق العثمانية (56) التى سجلت الوقائع الرسمية فى السنجق أن تسعيرة التمور فى السنجق كانت تحدد من قبل الدولة العثمانية ، وكان المسؤولون العثمانيون فى السنجق يقدرون تسعيرة التمور سنويا الأمر الذى جعلها غير مستقرة من جهة وجعلها تخضع لرغبات المسؤولين العثمانيين من جهة ثانية . وكانت تسعيرة التمور مرتبطة بالضرائب مما يفيد الدولة من جهة ويضر بالسكان من جهة ثانية وخاصة سواد الناس وبالاخص الطبقة الفقيرة منهم التى تضررت مباشرة من عملية ارتفاع أسعار االتمور التى تشكل الغذاء الرئيسى لها.وكان المستفيد الاول من غلاء أسعار التمور هم الفئة الغنية من ذوى أصحاب النخيل الى جانب الدولة العثمانية والمسؤولين العثمانيين كالمتصرف وقائد العسكر ومدير المالية فى

(54) أوراق الباب العالى ، الوثيقة التركية ، دائرة الأركان الحربية العامة ، الشعبة الثالثة ، رسالة من ناظر الحربية إلى ناظر الداخلية ، مؤرخة في 15 جمادى الآخرة 1327هـ / 20 حزيران 1325 رومي.

— أوراق الباب العالى ، الوثيقة التركية ، برقية من مكتب الصدارة العظمى ، رقم 2598 ، مرسلة إلى وزارة البحرية ، مؤرخة في 12 شوال 1324هـ / 5 تشرين الثاني 1322 رومي .

(55) أوراق الباب العالى ، الوثيقة التركية ، رسالة صادرة عن دائرة الأركان الحربية العامة ، الشعبة الرابعة ، رقم 1553 ، مؤرخة في 22 جمادى الآخرة 1324هـ / 31 تموز 1322 رومي .

— أوراق الباب العالى ، دائرة صادرات ، الديوان الهمايوني رقم 2508 ، مؤرخة في 10 شوال 1322هـ / 15 كانون الثاني 1320 رومي .

(56) أوراق الباب العالى ، الوثيقة التركية ، رسالة من دائرة الأركان الحربية العامة ، الشعبة الرابعة ، مؤرخة في 25 ايار 1322 رومي .

السنجق . وكان ارتفاع أسعار التمور يؤدي الى استنكار وسخط شديد من قبل سكان السنجق . وكم رفعوا الشكاوى للدولة العثمانية عن طريق ولاية البصرة للتعبير عن سخطهم وقساوة معيشتهم وتـردى أوضاعهم الاقتصادية نتيجة لهذا السلوك . وأحيانا فقد كانت الدولة ترضخ لمطالبهم فتأمر بتخفيض أسعار التمور فى السنجق وتعمل على تحسين أحوالهم (57) .

والغرب أن المسؤولين العثمانيين فى السنجق وفى ولاية البصرة كانوا فى كثير من الاحيان يعدون اضرابات أهالى سنجق الحسا والشكاوى التىيرفعونها ما هى الا درب من دروب التمرد وخلق الاضطرابات ضد الدولة . وكان علاجهم الوحيد لهذا التذمر هو ارسال قوات عسكرية من أجل اخضاعهم بالقوة وقمع حركاتهم واضطراباتهم (58) . وكـان من الافضل للمسؤولين العثمانيين أن يعالجوا سبب الداء بالطرق الصحيحة لا بالاسلـوب العسكرى . وكـان هـذا الاسلوب قد وسع هوة الخلاف بين الدولة وبين معظم أهالى السنجق من سنة وشيعة . وأصبح لدى السكان حساسية كبيرة تجاه العثمانيين ، وصارت أقل حادثة تثير غضبهم (60) .

وجدير بالملاحظة هنا أن أهالى سنجق الحسا لم يتذوقوا فائدة وجود الدولة فى منطقتهم ، ولم يحسوا بتغيـر حيـاتهم المعيشية وأحـوالهم الاقتصـادية والتعليمية . ولم تهتم الدولة باقامة المرافق العامة التى لا بد من اقامتهـا فى السنجق كالقنوات الحديثة التى تنظم المياه بخاصة المياه الـلازمة للـزراعة ، علما بأن السنجق يعتمد فى كيانه الاقتصادى على الزراعة . ولم يتذوق أهالى السنجق طعم العلم وفائدته لان الدولة لم تهتم كثيرا بانشاء المدارس الا فى الآونة الاخيرة من حكمها للسنجق ، فيذكر زويمر « ZWEMER » أن عدد المدارس فى السنجق كان عام 1318 هـ / 1900 م. ثلاث مدارس فقط وكان عدد المتعلمين فى حدود (3450) شخص من مجموع السكان (61) بينما وصل عدد المدارس فى الحسا قبل الحكم العثمانى فيه الى (20) مدرسة لتعليـم الصبيـان حفظ القرآن والقراءات والتجويد الى جانب العلوم الاخرى كالحسـاب و (30) مدرسة لتعليم اللغة العربية والعلوم الشرعية (62) .

---

(57) أوراق الباب العالى ، الوثيقة التركية ، رسالة صادرة عن دائرة الصدارة العظمى قلم الشيفرة ، رقم 216786 ، مؤرخة في 21 آب 1322 رومي .

(58) أوراق الباب العالى ، الوثيقة التركية ، رسالة صادرة عن دائرة الأركان الحربية العامة الشعبة الرابعة ، رقم 209859 ، مؤرخة في 19 آذار 1322 رومي .

(60) لمعرفة مدى الضعف الذي وصلت إليه الدولة في السنجق راجع :
Aitchison, C.V., A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries, vol. X, p. 104-5.

(61) Zwemer, Op. cit., p. 117.

(62) الألوسي ، محمود شكري ، تاريخ نجد ، ص : 38 ، المطبعة السلفية بمصر ، 1347هـ .

صحيح أن الدولة العثمانية حاولت أن تعطى التعليم فى السنجق بعض الاهتمام الا أن هذا الاهتمام جاء فى وقت متأخر ، ونعنى هنا اهتمام الدولة بالتعليم الحكومى المنظم فى دائرة انتشار المعارف كما هو الحال فى الولايات العثمانية وألويتها لأخرى كالحجاز مثلا .

وتشير الوثائق التركية الى ضعف التعليم وقلته فى السنجق فتذكر الوثائق (63) أنه حتى مطلع القرن العشرين الميلادى / العشرينات من القرن الرابع عشر الهجرى ظلت « أمور المعارف بهذا اللواء الى الآن (أى الى سنة 1319 هـ. / 1901 م.) غير منتشرة وأنور ترقيات أطفاله فى ظلمة الجهل مستترة كما فهم من التحقيقات وعرف من التدقيقات والاستطلاعات ... » .

وورد أيضا : « .. فلذلك صار من الواجب (على الدولة) تحرى الاسباب العاجلة لاستحصال الفوائد الآجلة ، فرأينا تشكيل مجلس يتكفل باجراء منطوق الارادة السنية الصادرة علىهذا المنوال لاستنفاذ أطفال أهالى هذا اللواء من لجة بحر الضلال ... » .

ويتضح مما تقدم أن دعوة الدولة العثمانية الى ايجاد تعليم منظم فى سنجق الحسا كانت دعوة متأخرة ، فجاءت عام 1319 هـ./1901 م. يوم أن كانت الدولة العثمانية فى السنجق تعانى من مشكلات سياسية وأمنية واقتصادية فيه . وأهم من هذا كله أنها كانت تعانى كثيرا من مشكلة عدم الثقة التى سادت العلاقة القائمة بينها وبين أهالى السنجق ، حضره وبدوه ، سنته وشيعته . ومن هنا فقد جاءت الدعوة الى اقامة المدارس الحكومية المنظمة والاهتمام بالتعليم متأخرة . ومن هنا فقد تميزت الصلة القائمة بين مجتمع السنجق وبين الدولة بسمة السلبية طالما أن السكان فى السنجق شعروا بأن الدولة لم تهتم بمجتمعهم وماله من حقوق وواجبات عليها . ولو أن الدعوة جاءت متقدمة يوم أن دخل العثمانيون السنجق لكانت استجابة الاهالى لها أكثر وأعمق .

طبيعى أنه حدث بعض المصاهرات والزواج بين بعض الحضر وبين العثمانيين العاملين فى السنجق ، لكن مثل هذا النوع من الصلة والعلاقة تظل صلة محدود ولم تصل إلى حد ايجاد جماعة مولدة أبوها تركى وأمها من أهالى السنجق . وظلت مثل هذه الامور تعد أمورا فردية ولا تدخل فى البنية الاجتماعية ولا فى تركيبة السلم الاجتماعى فى السنجق .

ولم تكن اللغة التركية سائدة فى السنجق وانما ظلت لغة الحكام والموظفين الرسميين فى السنجق ، وكان لا بد أن تظهر جماعة من أهالى السنجق تعرف اللغة التركية بحكم اتصال أعمالها بالعثمانيين وارتباط مصالحها الاقتصادية أو غيرها بهم . ومن هنا ظل التأثير العثمانى الحضارى على أهالى السنجق تأثرا محدودا جدا .

---

(63) الوثيقة التركية وهي رسالة من متصرف لواء نجد (سنجق الحسا) موسى الحسيني الى صاحب الرشادة الشيخ راشد أفندي المبارك ، مؤرخة في 29 جمادي ا لآخرة 29 جمادى ا لآخرة 1319هـ . أخذت صورة من الوثيقة من فضيلة الشيخ يوسف بن راشد المبارك ابن الشيخ راشد المبارك التي أرسلت إليه صىرسالة . والمبارك هم الأسر العريقة في مدينة الهفوف ومن علمائها المشورين .

٥١

صاحب الرشادة الشيخ راشد افندي المحترم

لما كان تعميم انتشار المعارف في جميع الممالك المحروسة الشاهانية هو من اقصى آمال ولي النعم خليفة الله في الارض
وحامي حوزتها في الطول والعرض ادام الله شوكته واعلى كلمته ما دام الدوران ومتعاقب الملوان
وان امور المعارف بهذا اللواء الى الآن غير منتشرة وانوار ترقيات اطفالهم في ظلمة الجهل مستترة
كما فهم من التحقيقات وعرف من التدقيقات والاستطلاعات بوقت ان اسباب انتشار وحصول المعارف
في عموم الممالك المحروسة الشاهانية اشعتها لامعة وانوارها منتشرة باهرة في جميع البلاد والامصار
كظهور الشمس في رابعة النهار فلذلك صار من الواجب تحري الاسباب العاجلة لاستحصال الفوائد الآجلة [illegible]
تشكيل مجلس يتكفل باجراء منطوق الارادة السنية الصادرة على هذا المنوال لانقاذ اطفال اهالي
هذا اللواء من لجة بحر الضلال فبناء عليه قد تقرر وتنسب في مجلس ادارة اللواء ان تكونوا عضواً لهذا المجلس
المذكور مع جماعة فضلاء مشكور تحت رياسة النائب ذي الفضيلة مصطفى افندي وتعيين ايام الاجتماع
محولة الى الرئيس المومى اليه فالمرجو من جنابكم المداومة في المجلس بالايام المعينة مع بذل الهمة في خصوص ترقي
هذا الامر المهم كما هو المطلوب ليكونوا متنعمين من هذه النعم العظيمة ويهتدوا بها الى الطرق المستقيمة
والسلام

متصرف لواء

احمد ... ٢٩

سببية الهجرة الاسلامية من جبل لبنان باتجاه ولاية الشام فى القرن 19

د. رباح ابي حيدر

هدف الدراسة :

الغاية من هذه الدراسة التاريخية للهجرة الاسلامية من جبل لبنان باتجاه ولاية الشام فى القرن التاسع عشر ، هو بحث خصوصية اجتماعية واقتصادية للفئات الاسلامية اللبنانية ، التى تأثرت مصالحها بالمتغيرات السياسية والاقتصادية المحلية ، التى بدأت معالمها فى التغير تتمحور حول محاولات الغرب المتكررة والمتتالية وباكثر من اسلوب ، للتغلغل والتدخل فى منطقة الشرق الاوسط ، عن طريق خلق وانشاء كيانات سياسية مستقلة عن الدولة العثمانية ، ترتبط اقتصاديا من حيث الانتاج والاستهلاك بمصالح أوروبا ذات النفوذ التاريخى التقليدى فى المنطقة ، والتى فشلت محاولات استيلائها المباشر على اراضى الدولة العثمانية ، لعدم تمكنها فيما بينها من ايجاد حل للمسألة الشرقية المعقدة .

مصادر الدراسة :

ان الوجود الاسلامى فى جبل لبنان مستمر حتى يومنا هذا رغم الاشكالات السياسية الضاغطة ، حيث نلاحظ قدرتهم على التماسك فيما بينهم والتعاطى الايجابى بمحيطهم المسيحى الاجتماعى الفاعل سياسيا واقتصاديا ، متجاوزين بذلك مجموع ازمات سياسية منها سنة 1860م ، و1958م . دفعت فئات لبنانية غاليا ثمن عدم تمكنها من حلها ، وهذا أمر بدوره لافت للنظر ومدعاة للبحث لكن مجموع الدراسات التاريخية على اختلاف اختصاصات اصحابها ، مفصلة أو مقتضبة ، سياسية ، اجتماعية أو اقتصادية ، بقيت بعيدة عن التعاطى مع هذه الظاهرة الحضارية حيث يلاحظ ان بعض نتف فى مصادر أو مراجع متفرقة كانت فى أكثرها مرتجلة أو هادفة متجنية سطحية ، لا تمت الى الدراسات التاريخية الموضوعية بصلة ، وجدت دون ان تفي بالغرض المطلوب .

بالاضافة الى ذلك فان تكون هذه الجماعة من الناحية الاجتماعية السياسية ، وخاصة ما يتعلق منها بالنظام العشائرى ، أمر ما يزال حتى اليوم فارض اعرافه وعاداته وتقاليده على مساحة واسعة من منطقة الهرمل بعلبك ، هذه العادات والتقاليد والاعراف كانت الاساس فى تنظيم المجتمع الاسلامي الشيعى فى جبل لبنان .

ومن اللافت للنظر أيضا توفر الدراسات التاريخية والسياسية ، والاقتصادية والاجتماعية لبقية الطوائف والمناطق ، التى تتشكل منها مجموعة سكان لبنان

الا ان تجاهلها أو اهمالها لهذه الفئة يعيق وبشكل عام فهم حـركة التاريـخ اللبنانى ، لذلك وجدت بما توفر لدى من وثائق خاصة ، حصلت عليهـا من بعض البيوتات الاسلامية ، وغيرها من اماكن التوثيق انه من الضرورى درس هذه الوثائق حيث تنكشف امام المؤرخين الباحثين بعض معلومات ربما تساعد على اكمال صورة والقاء اضواء على حقبة زمنية دقيقة من تاريخ جبـل لبنـان ومجتمعه ، هذا التاريخ الذى عمل ويعمل بعض المؤرخين عن قصـد أو غير قصد لتشويه معالمه وتزوير واقعه التاريخيين ، حيث يتوخون اثبات وجهات نظر ، تخدم التوجهات السياسية اللبنانية ، بتوجهها العام المرتكز أساسا على رفض حقيقة انتمائه وواقعه التاريخيين . هذه الطريقة التى لا تأخـذ بعيـن الاعتبار من واقع الاحداث الا ما يثبت نظرية سياسية مسبقة أريد اخراجها ، فاجتزأوا من حقائق وواقع هذا التاريخ ما يوفر لابحاثهم غطاء وسترا مضللين . ومن المؤكد ان انتماء الباحث اصلا واقامته فى هذه المنطقة ، قد يساعد على توفر الوثائق ويوضح الكثير الكثير من الاخبار التى تكشف جوانب مهمة فى التاريخ الاجتماعى والسياسى والاقتصادى لجبل لبنان ، والتى بواسطتها ربما تكتمل المعلومات .

أصحـاب الوثـائق وأمـاكن تواجدهـا :

من مصادر هذه الدراسة التى اعتمدتها فى بحثى ، الاوراق الخاصة التى وجدتها عند ورثة بعض النافذين أو الموظفين فى متصرفية جبل لبنان ، من أبناء الطائفة الاسلامية الشيعية ، وأخص بالذكـر ، أوراق كل من اعضـاء مجلس الادارة ما بين السنتين 1861 ـ 1919 أعني بهم كاظم عمرو ، علي حمود سعد الدين عمرو ، محمد الحاج محسن أبى حيدر والسيد أحمـد الحسينى ، كذلك بعض أوراق وسجلات تعود لمدير ناحية المنيطرة ، اسعد حسن علي أبى حيدر وولده من بعده محمد اسعد أبى حيدر بالاضافة الى أوراق مدير بلـدة شمسطار ، السيد علي محمد أحمد الحسينى . أضف الى ذلك بعض أوراق تعود الى عضو المحكمة العليا فى المتصرفية الشيخ حسن همدر ، ومن بعده السيد علي أحمد الحسينى الذى أصبح فيما بعد رئيسـا للمحكمة الاسلامية الشيعية الجعفرية فى بداية الانتداب 1920 . بالاضافة الى أوراق وسجـلات كثيرة ، تعود الى شيوخ صلح ومخاتير وكتبة عدل ، وغيرهم من النافذين . كما وان سجلات مجلس الادارة المهمة والاساسية بالنسبة لاى بحث تاريخى لتلك الفترة والتى كانت موجودة فى المتحف الوطنى ، وغيرها من الاوراق هناك ، وكذلك أوراق سراى بيت الدين ، والدوائر العقارية تشكل مجتمعـة مصدرا مهما لهذه الدراسة .

موضوعـات الوثـائق :

هذه الموجودات من الوثائق وغيرها ، ذات الموضوعات المتعـددة والحقبـات الزمنية المختلفة ، قـد شكلـت أساسـا لهـذه الـدراسة وذلـك لتنوعهـا وغناها ، منها :

أ ـ عقود بيع وشراء ، يتفاوت تاريخهـا ما بين 1833 ـ 1920 ، ويتجـاوز عددها 500 عقد .

ب ـ وصـايـا دينيـة اسـلامية ومسيحيـة ، يبلـغ عـددهـا نحـو 37 وصية متفاوتة الاهمية غنية الموضوعات .

ج ـ عقود مشاركة على أراضى فى جبل لبنان أو أراضى فى ولاية الشام : أراضى بعل ـ أراضى سقي ـ كروم عنب ـ كروم تين ـ كروم توت .

د ـ عقود مشاركة على حيوانات : خيل ـ ابقار ـ حمير ـ اغنام وماعز . عقود مشاركة على نحل ودود قز ، وما اليها .

هـ ـ عقود زواج ، وتحوى انواع المهر من حيوان او عقارات وما اليها .

و ـ سجلات ادارية فيها شكاوى ، قرارات ، أحكام ، تبليغات ، توزيـع ضرائب ، جباية ، ومناسبات عدد 2 أوراقها 72 ورقة .

ز ـ سجلات حسابية فيها انواع انتاج سنوى ، واسعار منتجات مباعة ، أو مشتراة ونفقات على اختلافها ، لعائلات ميسورة عدد 3 أوراق عدد 68 ورقة .

ح ـ سجل محكمة شرعية فيه أحكام قضائية مذهبية عدد 1 ، أوراق عدد 28 ورقـة .

ط ـ سجلات نفوس واحصائيات للسكان ، مقيمين ومهاجرين ، صغـارا وكبارا ، نساء ورجالا لاكثر من طائفة ، عدد 4 .

ي ـ قصائد وزجليات سياسية واجتماعية عدد 9 .

ك ـ رسائل اجتماعية وسياسية واقتصادية عدد 22 .

بالاضافة الى مجموعة أوراق رسمية وغير رسمية ، يستفاد منها فى أكثر من جانب وموضوع . كما وان بعض أوراق وكتب مطبوعة ، وجدتها فى هذه البيوتات تعتبر جد مهمة مثال على ذلك كتاب من 146 صفحة طبع عام 1867 م ، هو عبارة عن ثلاثة فصول موضوعه « تحقيقات جنائية دعوى اختلاس ، رشوة وتزوير » لم يستعمله مؤرخ أو بـاحث من قبـل ، يتعلـق باحـداث 1860 وانعكاسها على مسلمى الفتوح وجبيل .

هذه الموجودات من الوثائق لو لم يقدر لها ان حميتها عن طريق الحصـول عليها ، لكانت كغيرها قد زالت أو على طريق الزوال ، الامـر الـذى يفقدنـا الكثير من المعلومات المتعلقة بتاريخ كثير من شعوب وسكان الولايات العربية فى الدولة العثمانية . لذلك أجد من الواجب التنبيه الى أهمية البحث للحصول على هكذا وثائق مهددة بالزوال والتنقيب عنها فى البيوتات النـافذة صاحبة الدور السياسى ، أو الاجتماعى ، أو الاقتصادى ، لاهميتها . ولو كلف ذلك دفع اثمانها عن طريق تأسيس صندوق مالى لمثل هكذا حالة .

تـنـبـيـــه :

ان جهدا فرديا من هذا النوع يبقى محدودا أمام عمل مؤسسى مستمر ، لذلك أجد من الضرورة ان توسع دائرة البحث والتنقيب لتشمل مجمل الوثائق والسجلات التى تعود لولايتى طرابلس ودمشق من مكتبات اسطنبول، أو فى كل من طرابلس ودمشق . رغم ان شيئا من هذا القبيل لم يظهر أمام الباحثين الذين اهتموا بدراسة هذه الاوراق والسجلات ، حيث لم يكن للمسلمين الشيعة من صلة بالمحاكم الشرعية الاسلامية ، حيثما كانت لهم مراجعهم الدينية الخاصة بهم ، يأخذون باحكام علمائهم وفتاويهم الشفوية أو المكتوبة وهى غير مدونة فى سجلات رسمية أو خاصة . وكان على ما يبدو المذهب الجعفرى أساسا لهذه الاحكام الشرعية ، لذلك يفترض مضاعفة البحث لدى البيوتات الاسلامية الشيعية ، حيث تبقى المصدر الاساسى والوحيد للوثائق المتعلقة بتاريخ هذه الفئة اللبنانية ما قبل فترة مركزة الدولةفيجبل لبنان بعد السنة 1861 م.

« التحديد الجغرافى ـ التاريخى » .

جبل لبنان « أو المعاملة الشمالية » .

لم يشكل لبنانقبلالسنة 1920م. منالناحية السياسية وحدة ادارية معروفة الحدود ، بل ان تكون المستقل ـ كدولة ـ قد تم على أيدى السلطة الفرنسية المنتدبة سنة 1920م. وقبل هذا التحديد الجغرافى السياسى الادارى كان لبنان، موزعة مناطة بين متصرفية جبل لبنان وولاية بيروت وولاية دمشق، وذلك بعد الحرب الاهلية والفتن التى جاءت كنتيجة لاصراعات الطائفية على امتلاك السلطة فيه ما بين السنتين 1840 ـ 1860م. حيث كانت تجربة تقسيمه الى قائمقاميتين على أساس طائفى ، درزى ومارونى . وقبل ذلك كان لبنان مقسما الى عدة أقسام ومقاطعات ادارية مبنية على طبيعة أماكنه ، وعلاقة الاهالى مع بعضهم البعض ، ومصالح الذين اقطعهم حكام الجبل الاصليين أو الولاة مناطق نظرا لخدماتهم المقدمة للحكام . وقد سميت هذه الاقسام مقاطعات ، وكانت تنتقل بالتوارث من الأب الى الابن ، أو بكف اليد لاسباب يقدرها الحاكم أو الوالى ، وكانت عامة الناس تسمى أصحاب هذه المقاطعات : « مقاطعجية » .

ولقد قسمت مقاطعات الجبل أيام الدولة العثمانية الى معاملتين (1) : معاملة طرابلس ، وهى القسم الشمالى من الجبل ، وقد عرفت باسم معاملة جبل لبنان. وكانت تمتد من حدود مدينة طربلس شمالا ، الى جسر يقع شمالى بلدة جونية جنوبا عرف باسم « جسر المعاملتين » . ومن ساحل البحر غربا حتى السفح الشرقى للسلسلة الغربية من جبال لبنان . وكانت قاعدة هذا القسم بلدة جبيل . وبقيت هذه المنطقة تابعة لولاية طرابلس حتى حكم الامير بشير الشهابى الثانى 1789م. ـ 1740م. الذىضمها الى امارته. وقدتولى حكمها منقبل بعض أمراء من المعاملة الجنوبية سماهم والي طرابلس .

اما القسم الثانى من جبال لبنان فقد عرف باسم جبل الدروز أو « المعاملة الجنوبية » وكانت تمتد من جسر المعاملتين شمالا ، الى نهر الاولى جنوبا ، قرب مدينة صيدا ، حيث بقيت هذه المعاملة تابعة لولاية صيدا أو عكا . وكانت قاعدة هذه المعاملة بلدة بعقلين ثم دير القمر فبيت الدين . ومع تقدم النفوذ المارونى السياسى من الشمال باتجاه الجنوب ، والمتوافق مع ضعف دور الدروز بعد انتقال امارتهم الى أمراء مسلمين من خارج مناطقهم سنة 1697م. غلبت تسمية جبل لبنان على تسمية جبل الدروز أو الامارة الدرزية وأصبح الكل يعرف باسم الجزء . ويلاحظ ان تسمية جبل الدروز قد أصبحت التعبير الجغرافى فيما بعد لمنطقة سورية ، على الحدود الاردنية ـ السورية تعرف بجبل العرب من حوران .

الجغرافيا البشرية :

لم تشر المصادر التاريخية على اختلافها وتنوعها الى وجود اسلامى فى جبل لبنان بالمعنى الاقتصادى ، أو الاجتماعى قبل حملات المماليك ، فى نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر ، بل ان الاشارة تقتصر على بعض محاولات لفرض الامن والاستقرار ، قامت بها اما حملات عسكرية تأديبية ، كما الحال بالنسبة لحملة والي بعلبك 758 م. ـ 759 م. ، ايام العباسيين على مرتفعات بلاد جبيل (المنيطرة) كرد على الهجوم الجبلى المسيحى على البقاع ـ بعلبك . أو فى ناحية أخرى تقدم وصدامات باتجاه جبل لبنان ، قامت بها مجموعات قبلية ، اسلامية من تنوخ ، أسكنها العباسيون ارباض بيروت وصيدا وقسما من الجبل ، حيث أخذت تشن غاراتها باتجاه شمال لبنان ، بعد السنة 763 م. ومع خروج الصليبيين من لبنان تحت الضغط العسكرى المملوكى المميز، باتجاه فرض السلطة الاسلامية على كامل المناطق الواقعة تحت سلطاتهم ، خاصة تلك التى كانت متعاونة مع الصليبيين من أهل الذمة ، أو من مجموع الاقليات المذهبية الاسلامية ، الخارجة عن دائرة مذاهب أهل السنة الاربعة ، والمتراجعة ولاسباب خاصة بها باتجاه الجبل ، تبرز ولاول مرة وفي أكثر من مكان من الاراضى اللبنانية الجبلية الواقعة شمال بيروت ، شراسة مقاومة هذا المشروع المملوكى ، الامر الذى أوجب حملات تأديب واخضاع ، انتهت بحلول السنة 1305 م. حيث ولاول مرة تصل الدولة الاسلامية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا الى تلك المناطق .

منذ ذلك الحين أصبح الوجود الاسلامى منظما ومنتظما ، فاعلا ومؤثرا ، فى المجالات العامة والخاصة ، حيث غرس المماليك بتنظيماتهم مجموعة حاميات ذات طابع عسكرى ، اقتصادى وأمني ، على طول الساحل الممتد من بيروت باتجاه طرابلس . بعدها بقي الجبل بسكانه على اختلاف مذاهبهم خاضعا للمماليك ، دون اشكالات أمنية معارضة تذكر . مع انتقال السلطة الاسلامية على المنطقة الى أيدي العثمانيين ، بقي الوضع السياسى فى جبل لبنان مستقرا ، مع ازدياد فى الوضوح ، حيث يبرز ولاول مرة دور جماعات اسلامية

اثني عشرية (على المذهب الجعفري) حليفا لسلطة الوالي فى طرابلس ، أو العائلات الاسلامية السنية المتواجدة على اطراف هذا الجبل فى كل من بلدة غزير (العسافيون) أو عكار فيما بعد (السيفيون) المكلفين أمر فرض النظام وجباية الضرائب .

وفى مرحلة ازدياد النفوذ الاوروبى التجارى ، فى حوض المتوسط المدعوم بتطور تقنية الحرب والنقل البحرى فى القرن الثامن عشر ، واستقرار الدولة العثمانية على واقع منجزاتها التى سبقت هذا التاريخ ٠ كان مشروع حوار تقليدى يقوم ما بين اصحاب الامتيازات فى الدولة العثمانية من الاوروبيين ، ومجموع الاقليات الدينية المسيحية من أجل استرداد المبادرة . فى هذا الاطار التاريخى ، ومع تقدم الزمن ، باتجاه القرن التاسع عشر ، بدأ المشروع الاوروبى الاستعمارى المحلي يكبر شيئا فشيئا على حساب واقع السلطة والمجتمع الاسلامى ، فينتزع مكاسب ذات دلالات واضحة فى مجرى الحدث التاريخى ، الامر الذى لم يتم دون تفكيك حلقات كانت متماسكة من قبل ما بين الدولة العثمانية ورعاياها .

على أبواب القرن التاسع عشر ، وكنتيجة للضربات المتتالية المنظمة من قبل الاوروبيين التى توالت لضرب الدولة العثمانية ، فى حلقتها الاضعف فى لبنان ، ترنحت سلطة الباب العالى فى لبنان من جراء الهزائم المتتالية التى منى بها مشايخ الحمادية ، وحلفاؤهم فى البقاع (الحرافشة) ، لتحل محلهم امكانية قيام مشروع حكم محلي ، سياسى اقتصادى ، بدعم أوروبى ، يتمثل فى اقامة امارة مارونية متعاطفة مع الغرب الكاثوليكى ٠ وقد تم هذا المشروع فى الحقبة التى بدأت فيها معالم متغيرات أساسية ، سياسية واقتصادية ، تتمحور حول محاولات بناء مرتكزات لدولة ذات طابع مميز عن الدولة العثمانية ، بمضامينها التقليدية ، حيث كانت تجربة محمد علي باشا فى مصر وانسحابها على مجمل منطقة الشرق الاوسط ، وخاصة ما يتعلق منها ببلاد الشام (سوريا ـ لبنان ـ فلسطين وشرق الاردن) اليوم ، حيث تقاطعت هذه المحاولة مع انموذج الدولة فى الغرب ربما على أسس من الناحية النظرية ، ينطبق عليها مضمون القومية ، المدعومة أساسا ببعض دول أوروبا ، الضالعة فى المسألة الشرقية ، ذات المصالح والنفوذ البارزين فى هذه المنطقة أعنى بها فرنسا ٠ بالاضافة الى الجانب الاقتصادى فى التنظيم الانتاجى المحلي للزراعة الصناعية (حرير ، قطن ، وتبغ) ، أو فى عملية امتلاك اسواق تجارية تصرف فيها منتجات أوروبية ، تستهلك فى هذه المنطقة ، تتعارض مع المنتجات الحرفية المحلية مستفيدة من غزارة الانتاج الآلي ، وخاصة فى مجال الحياكة والنسيج ، بالاضافة الى التدنى الضريبى على هذه المستوردات ، الامر الذى أفقد السوق الانتاجى على الصعيدين الزراعى والحرفى القدرة على المزاحمة ، رافقه نمو نفوذ الفئات البورجوازية المحلية المستفيدة من الحركة التجارية فى مجالى الاستيراد والتصدير ، على الصعيدين السياسى والاقتصادى . حيث تقدمت وبوتيرة

أكثر بروزا محاولات مركزة السلطة السياسية بايدى من يمثل هذه التوجهات من العائلات البورجوازية الجديدة ، ذات الصلة الوثيقة بتاريخ العائلات الحاكمة ، أضف الى ذلك مؤسسات دينية ، تمتلك قدرة تنظيمية متقدمة فى مجالات التأثير الايديولوجى الدينى على عامة مؤمنيها ، بالاضافة الى سعة فى امتلاك أراض زراعية ومؤسسات للخدمات منتشرة فى مناطق متعددة ، أعنى بها الرهبانيات فى الاديرة .

ان هذا الامر من المتغيرات ، لم يكن ليمر دون ازمات سياسية ، وصدامات عسكرية محلية ، انعكست فى مجملها على واقع الوضع السكانى ، الذى أدى بدوره الى حركة سكانية مضطربة ، كانت نتيجة لعدم استقرار فى مجالات الانتاج ، المرتبطة أساسا بالسوق العالمية بالاضافة الى واقع الانظمة والقوانين المرعية الاجراء ، حيث كانت مواقف الولاة والحكام شبه ذاتية المصالح والاهداف، اذ كان همهم تحصيل أكبر قدر ممكن من المداخيل والمكاسب باقل زمن ممكن دون النظر الى مستقبل الجماعة ومصلحة الدولة العليا ، الامر الذى سهل معه تحقيق مشاريع الانفصال والاستقلال بعد عملية ضرب القوى المعترضة ، والمتضررة مصالحها بتحقيق هذه المشاريع والتوجهات ، لذلك فقد كان الحماديون رغم ما يمثلونه فى تنظيماتهم الاجتماعية والانتاجية والسياسية التقليدية ، ذات المرتكزات المتعارضة مع واقع المتغيرات ، قد شكلوا ولمدة طويلة عائقا فى طريق تحقيق مشروع الامارة فى الجبل ، المستقل والمنفصل عن الدولة العثمانية ومحيطه ، والمرتبط عن وعي أو غير وعي بمصالح الغرب التقليدى أو الصناعى .

ومن الملاحظ أيضا أن مجموع الطائفة الاسلامية الشيعية التى ينتمى اليها الحماديون رغم تسلمها لاكثر من منطقة فى لبنان ، وفعاليتها السياسية والاجتماعية فى التاريخ الحديث لم تشكل فى أى وقت مضى أى تصور استقلالى عن محيطها وانتماءاتها ، رغم تعدد المقولات عن التناقض المذهبى الذى افترضه المستشرقون وبعض مؤرخين محليين واعتبروه مدعاة لحركات انفصال واستقلال عن المحيط الاسلامى العام ، رغم ما يظهر فى بعض الاحيان من صدامات وخلافات ، قد تؤخذ على غير محملها ودوافعها ، التى لا تعدو كونها صراعات مصالح محلية بمضامين فكرية دينية يستخدمها بعض القادة فى سبيل الدفاع عن مصالحهم .

سكان جبل لبنان قبل سنة 1800 :

يقطن منطقة «جبل لبنان» حسب الاحصائيات المحلية الواردة فى مخطوط «تحفة البيان فى خارطة جبل لبنان» نحوا من 33،097 مكلفا ذكرا موزعين على 461 مزرعة وقرية ، ينتمون الى أربع طوائف ، متفاوتة العدد والدور ، اذ شكل الموارنة العدد الاكبر على مجموع السكان ، فتوزعوا فى قرى جبلية حصينة كانوا فى البدء وبأكثريتهم فى جبة بشري ومحيطها . ثم كانت الطائفة

الاسلامية الشيعية فى المرتبة الثانية من حيث عدد السكـان ، الا انهـا كانت صاحبة الدور السياسى والعسكرى الاول فى مجريات الاحداث اذ توزعت على مجموعة قرى كانت فى الفتوح وجرود كسروان ــ جبـة المنيطرة الكـورة ــ البترون وغيرها . اما الطائفة الارثودوكسية فان تواجدها قد اقتصر على منطقة الكورة وبعض قرى من منطقة البترون وجبيل الساحلية . لكن المسلمين السنة رغم انهم أصحاب هذه المقاطعة فقد كان عددهم قليلا بالنسبة لباقى الطوائف واقتصر تواجدهم على بلدة غزير وجبيل وبعض قرى فى الكورة وجرد اللقلوق.

ويلاحظ ان التوزع السكانى فى قرى جبل لبنان قد قام على أساس الانتماء الدينى المذهبى العائلى • حيث يندر تعدد الطوائف فى القرية الواحدة باستثناء البلدان ذات الطابع التجارى أو الحرفى ، كما كان فى البترون أو دوما أو جبيل وغيرها • لكن مجموع قرى موزعة فى بلاد جبيل وفتوح كسروان يلاحظ فيها وجود أكثر من طائفة حيث يختلط المسلمون الشيعة بالموارنة دون تعـارض يذكر على مستوى القرية . بينما ينعدم هذا الاختلاط بين مجمـوع الطـوائف الاخرى . أمر تستخلص منه انفتاح اسلامى شيعى تنعدم معه النوايا الانفصالية أو العدائية •

المسلمـون الشيعــة قبـل السنـة 1800 :

مع نهاية القرن الخامس عشر بدأ الوجود الاسلامى الشيعى الاثني عشري يظهر فى منطقة الفتوح وجبة المنيطرة بعد مرحلة من السرية اعقبت صدامات 1305 م• مع المماليك عرفت بفترة «التقية» • وذلك بزعامة المستراحية ، الذين تولوا جبة المنيطرة من قبل العسافين ، وذلك بعد قضائهم على أولاد قصاص مشايخ تلك الناحية سنة 1482 حيث أشار الى ذلك طنوس الشدياق فى كتابه اخبار الاعيان فى جبل لبنان فيقول : « وسنة 1482 قوى عـزم المستـراحية المتاولة فى جبة المنيطرة وعزلوا أولاد قصاص من المشيخة » . هذا الامر يتطابق مع روايات المسنين فى المنطقة •

لكن دخول العشائر الحمادية وعلى رأسهم مشايخ بيت حمـادة فى خـدمة الامراء العسافين حكام « جبل لبنان » وازدياد نفوذهم قد أدى الى تناقض فى المصالح مع المستراحية وعشائرها الامر الذى دفع الى صـدامات عسكـرية انتهت لمصلحة الحماديين حيث انسحب المستراحيون من اكثـر قـرى فتـوح كسروان وجرده باتجاه البقاع من ولاية الشام ليقيموا فى المناطق الواقعة على السفوح ما بين زحلة وشمسطار ويعملوا فى الزراعة والرعى وهكـذا كـانت أولى الهجرات الاسلامية الشيعية• وبعد معركة مرج دابق سنة 1516م• وانتصار العثمانيين على المماليك استمر العسافيون حكاما لكسروان وغيرها فاتخذوا غزير مركزا لهم ، حيث استعانوا بالحماديين على أخصامهم السنة مقدمي جاج فقضوا عليهم وولوهم مكانهم ، عندما ترك الحماديون مركزهم الاول فى قرية الحصين فوق غزير الى وادى علمات حيث قطنوا قرية فرحت ، ومع هذه النقلة

الجديدة انتقل مركز الثقل الاسلامى الشيعى من فتوح كسروان باتجاه جبة المنيطرة فى بلاد جبيل . ومع تقلب السياسة الناتجة عن الصراع بين الامراء الحاكمين للجبل وغيرهم من الولاة كوالى عكا أو والى طرابلس أو دمشق أو بين الولاة انفسهم كان الحماديون يشكلون طرفا حليفا لاحدى المتصارعين ، لذلك فقد كانت منطقة نفوذهم تضيق أو تتسع نتيجة واقع حلفائهم حيث استطاعوا الانتقال الى خدمة الامراء السيفيين أمـراء عكـار بعـد ان قضى هـؤلاء عـلى العسافين سنة 1593 م.

وخلال الصراع ما بين ولاة الدولة العثمانية من جهة والامير فخر الدين من جهة ثانية على النفوذ نرى الحماديين يقفون الى جانب الامـراء السيفييـن ، فيضربون انصار فخر الدين الثانى مشايخ بيت الخازن اثناء غيابه فى أوروبا 1613 ـ 1618 م. لكن عودة فخر الدين الثانى بعد تسوية وضعفه مع الباب العالى لم تكن لمصلحة الحماديين وحلفائهم الامراء السيفيين حيث ضربهم ورفع ايديهم عن بلاد جبيل بعد ان كان ولده الامير علي قد أحرق قراهم ونهبها . ثم ولى أخاه الامير يونس وذريته من بعده بلادهم بالاضافة الى تولية خصمهم أبا نادر الخازن سنة 1618 على مناطقهم . وقد ضرب الامير فخر الدين الثانى المسلمين الشيعة فى كل مناطق نفوذه وذلك فى الجليل الاعلى وبلاد بشارة وبلاد بعلبك.

لكن اعتقال فخر الدين الثانى سنة 1633م. وقتله 1635م. فى الاسيتانة بعد سقوط مشروعه قد أعاد الاعتبار للامراء السيفيين وحلفائهم الحماديين ، حيث قاموا بمهاجمة حلفاء فخر الدين وانصاره وطـردوهم من المنيطرة بعد احراق قراها وقتل مشايخها من المستراحية وذلك سنة 1634 . لكن المستقبل لم يكن لمصلحة الحماديين فى بلاد جبيل والفتوح وجبة بشري والبتـرون ، ذلـك ان النفوذ المسيحى فى كسروان كان يزداد وخاصة بعد انتقال الكرسى البطريركى اليها ، وازدياد نفوذ الدور الاوروبى فى الدولة العثمانية وانتشار الاديرة وما ناله الخوازنة من تقدير ورفعة مكانة فى شخص الشيخ أبى نوفل الخازن الذى دعمه الحبر الاعظم وملك فرنسا حيث تولى سنة 1659 قنصلية بيروت ووكالة قنصلية البندقية .

ان تقلب الاوضاع السياسية نتيجة لصراع الولاة فيما بينهم كان وراء ضرب الحماديين سنة 1659م.، اذ تحرق قراهم ويلاحقون لايوائهم وحمايتهم للمعنيين، ثم ينكل بهم وبأمر من السلطان 1675 (محمد الرابع 1648 ـ 1687) لعدم دفعهم أموال الميري ، فلاحقهم والى طرابلس واعتقل مشايخهم رهائن عنـده الى ان يدفع المال . وقد كان لوصول جماعات اسلامية شيعية من جنوب لبنان بدافع الهروب من ملاحقات والى عكا الى بلاد جبيل وعملهم لدى والى طرابلس 1676 م. حيث تولى كبيرهم المدعوأبو حيدر الملقب بـ «النمس» أمر التزام الميري ، شأن سلبى على واقع الحماديين ، حيث بدت مظاهر صراع ومزاحمة فيما بين المسلمين الشيعة . هذه المجموعة السكانية الاسلامية الجديدة استطاعت فيما بعد لعب

دور سياسى مهم على حساب مشايخ الحمادية خلال فترة قيام نظام القائمقاميتين 1843 ـ 1860م· وفى عهد المتصرفية، وذلك بتحالفها مع مجموعة السكان الشيعة العاملين فى الارض والمتضررة مصالحهم من الازمات السياسية ما بين الحماديين من جهة والولاة أو الامراء من جهة ثانية ، أضف الى ذلك امكانية هذه الفئة الجديدة من اقامة علاقات حسن جوار مع المسيحيين الموارنة وخاصة البورجوازية التجارية ، حيث لعبت هذه الفئة دور الوسيط ما بين المنطقة الاسلامية الشيعية فى انتاجها الزراعى والرعوي أو فى استهلاكها لمواد مستوردة عن طريق العائلات المسيحية .

رغم ذلك بقيت العشائر الحمادية تشكل القوة الاساسية فى مجرى الاحداث فى بلاد جبيل وخاصة على الصعيد العسكرى . فقد ساعدوا الامير عمر الحرفوش سنة 1680 لاسترداد امارته فى البقاع بعلبك ، لكن الامير أحمد المعني ضربهم واحرق قراها سنة 1684) لاسا ، اهمج ، ايلج ، ميفوق ، اليوم ، افقا). فقطع اشجارهم وأجلى عددا منهم الى بلاد بعلبك مع عشائرهم ، غير ان الامير المعني رفض تولي مناطقهم لما أصابها من خراب ودمار بالاضافة الى يقينه بعودتهم وعدم تخليهم بسهولة عنها ، العمل السياسى بالنسبة لهذه العشائر كر وفر : لقد استغلوا سنة 1692 موت أبى نوفل الخازن ليعاودوا الهجوم على الكورة ويضربوا العاقورة ويهاجموا ميناء جبيل حيث اغلال الكسروانيين ، لكن المعني عاد ولاحقهم من جديد بمساعدة والي طرابلس فطاردهم باتجاه البقاع حيث مات منهم فى الشلج نحو 150 رجلا . لقد اعادت معركة عين داره سنة 1710 اعتبارهم بعد ان انتصر حليفهم الامير حيدر الشهابى على أخصامه من أمراء اليمنية آل علم الدين . وردا لموقفهم من ايوائه وحمايته اثر اجباره على ترك الامارة ،ولاهم الفتوح وبلاد جبيل وجبة المنيطرة وغيرها ، حيث حاولوا فى هذه الحقبة خلق قوة مناهضة للخوازنة من العائلات المارونية كآل حبيش الذين اقطعهم الشيخ اسماعيل حمادة عقارات فى الفتوح ومنطقة لحفد ، واصدر صكا برفع جميع الاموال الاميرية عن عقاراتهم وكذلك الجزية عن خدمهم وشركائهم، ورفع المرتبات عن مواشيهم ومواشى شركائهم، وفوض اليهم جمع مال الفتوح كى يستطيعوا الوقوف فى وجه الخوازنة .

لكن تولي الامير يوسف الشهابى لبلاد جبيل من قبل والي طرابلس واعتناقه للمسيحية ساعد من جديد على ضرب المشايخ الحمادية واضعافهم وحلفائهم ، يبدو ذلك حين أوقف مشايخ آل الدحداح اراض واملاك المشايخ الحمادية للاديرة كدير البوار فى الفتوح ودير البنات فى جبيل · ولم ينته الامر ما بينهم والامير يوسف عند هذا الحد ، بل استمر فى ملاحقتهم فضربهم بالقرب من قرية افقا ، فقتل منهم مئة رجل وتعقبهم حتى القلمون اذ قتل شيخهم أبا النصر حماده . وبعد ان تولى امارة لبنان كتب صكا بملكية الفتوح ومحصولاتها التى كانت من قبل للحماية الى حلفائه مشايخ آل الدحداح الموارنة · ومما تقدم نستنتج تراجع التواجد الاسلامى الشيعى من جبل لبنان لما اصابهم من

خسائر اقتصادية وعسكرية واجتماعية ، الامر الذى دفع بهـم الى المهـاجرة باتجاه الداخل مخلين الكثير من مناطقهم وارزاقهم لاخصامهم من الموارنة أو لفئة من أبناء طائفتهم . نتج عن هذه الهجرة قلة فى اليد العاملة الاسلامية مما أدى الى الاستعانة باليد العاملة المارونية لسد هذا الفراغ وذلك فى القرى التى كانت اساسا ملكيتها للمسلمين الشيعة . هذا ما حدث فى الفترة السـابقة للقرن التاسع عشر من هجرة وتراجع وتغير فى مجال اقامة وتواجد المسلمين الشيعة فى جبل لبنان وخارجه . لكن الفترة اللاحقة لهذا التاريخ التى أحاول دراستها وهى فترة الهجرة الاسلامية الى ولاية الشـام بقيـت تحمـل دلالة ومؤشرا لوجود اسلامى شيعى مساعد فى مجرى الاحداث كان يسمح بتقدير عودتهم الى سابق دورهم لولا المتغيرات السياسية الخارجية وحجـم التدخـل الاجنبى ونمو القوى الاخرى المعادية للحماية وللحماديين التى كانت كـافية لوضع حد لطموحاتهم بعد ان كانوا شاركوا فى عامية لحقد ضد حكـم الاميـر بشير الشهابى الثانى سنة 1820 وقبلها فى عامية انطليـاس 1810 . كـذلك فانهم سنة 1840 قد شاركوا فى حركة العصيان المسلح ضد وجود ابـراهيم باشا فى لبنان حيث شكلوا الاغلبية العسكرية فى قوات أبو سمرا غانم ضد والي طرابلس من قبل المصريين وحليفه الامير بشير الشهـابى الثـانى فى كسروان . وبنتيجة ما قدمه الحماديون من مقاومة للمشروع المصرى فقد أعـاد الوالي على جبل لبنان عمر باشا النمساوى الاعتبار لمشايخ الحمادية الى بـلاد جبيل وجبة المنيطرة كحكام من قبله رغم معارضة الموارنة لذلك .

لكن تقسيم لبنان الى قائمقاميتين درزية ومارونية لم يكن لمصلحة المسلمين الشيعة فى القائمقامية المارونية حيث كان ميزان القوى يميل لمصلحة الكرسى البطريركى وحلفائه من البورجوازية حيث انها الاقطاعيون الموارنة امام حركة الفلاحين 1859 فى كسروان واقتراب نهاية المخطط الذى رسم لجعـل جبـل لبنان امارة مارونية والدور الذى لعبته الاديرة من شحن وتحريض طائفيين فانه يلاحظ ان مسلمى بلاد جبيل من الشيعة لم يقوموا بأى حـركة معـادية للمسيحيين ، لكن الحذر واليقظة والخوف من ضربة مسيحية لهم دفعتهم الى الاحتماء فى جبل حصين فوق قرية افقا محاولين بذلك الابتعاد عن الصـدام العسكرى مع موارنة الفتوح وكسروان بقيادة طانيوس شاهين . لكن ذلك لم يجد نفعا فقد اضطر المسلمون سنة 1860 سنة « الهيجان » وبدون استثناء الى الانسحاب من مناطق جبل لبنان باتجاه ولاية الشام « بعلبك ــ الهرمل » أمام الضغط والتهديد المارونيين حيث أقاموا عند أقاربهم من العشائر التى كانوا قد سبقوهم من قبل واستقروا هناك ، تاركين وراءهم مواسم الحصاد والحرير وما اليها من منتجات زراعية عرضة للاتلاف والدمار . وقد عاد بعد ستة أشهر قسم قليل منهم بعد ان بقي القسم الاكبر حيث هاجروا ليقينهم بأن مساكنهم قد احرقت وارزاقهم قد اتلفت حيث قيمتهـا لجان التقديـر المشكلـة رسميـا بـ 14،682،743 قرشا كما جاء فى سجل مجلس الادارة رقم ــ 1

ومع نظام المتصرفية I86I كانت القوة الاساسية من العائلات الشيعية قد غادرت المنطقة أو كادت ، حيث لم يبق لها اراض تذكر ، كما الحال بالنسبة لمشايخ بيت حمادة وعشائرهم ونظرا لطغيان الشكل المركزى فى الحكم الجديد، فقد أصبحت الوظيفة الوسيلة الوحيدة للسيطرة وامتلاك الاراضى التى كانت الدعامة الاقتصادية الاساسية فى الانتاج ٠ لذلك فان فئة جديـدة من ابنـاء الشيعة الذين تسلموا وظائف ادارية فى القرية ، أو خارجها قد لعبوا دورا بارزا على صعيد امتلاك الارض وتوسيع ملكيتهم التى بلغت فى بعض الاحيان ملكية القرية بكاملها تقريبا محولة صغار الملاكين الى فلاحين لديها او دافعة بهم الى الهجرة بعد بيع أراضيهم باثمان مرتفعة ، الى اللحـاق باقاربهـم فى البقاع . كما وان الوسطاء التجاريين الذين استفادوا بدورهم فى هذه الحقبة من عوامل تفتيت الملكية الزراعية فضموا اليهم عن طريق الشراء أو الزيجات أو الوصايا بعض حصص كانت لا تقوم باود اصحابها من أراضى القرى ٠ ان انتشار عملية الرهونات التى كانت لارض أساسا لها ، مـع انتشـار عدد ليس بالقليل من المرابين المنتشرين فى المناطق قد ساعد على نزع الملكية من الافراد المسلمين الذين دفعوا الى لاستدانة نتيجة الفقر والحرمان فهاجروا الى بلاد بعلبك حيث كانت امكانية الانتاج الزراعى أسهل وأوفر ومردودهـا أغنى وأكثر . ان الازمات السياسية والاقتصادية التى عرفتها بلاد جبيـل والتى دفعت الى هجرة أهلها كانت أكثر حدة منها فى المناطق اللبنانية الاخرى لاسباب منها :

I ـ وضعها الجغرافى كمنطقة حدودية ما بين معاملتى الجبل ، ورغبة أمراء الجبل بضمها الى دائرة نفوذهم السيـاسى والاقتصـادى بتوليهـا من والي طرابلس لغناها وتحاشيا لتولى اخصامهم السياسيين لها ، واعتمادها نقطـة انطلاق لبلوغ حكم الجبل كما حدث فى عهد المعنيين والشهابيين ايـام الامير يوسف وأولاده من بعده .

2 ـ صعوبة تعامل والي طرابلس مع أصحاب المنطقة من مشايخ بيت حمادة نظرا لعدم ايفائهم بالتزاماتهم المالية تجاهه ، مما كان يدفع به الى ضربهم اما بواسطة جيش الدولة العثمانية أو عن طريق اخصامهم السياسيين من أمراء الجبل وحلفائهم فى منطقة كسروان آل الخازن وغيرهم ٠

3 ـ ان نمو حركة التجارة التى تتطلب مركزية فى السلطة وامنا واستقرارا ، كانت تتعارض مع الذهنية العشائرية التى كانت سائدة فى وسط الحماديين ، والتى كانت تخلق تناقضا ما بينهم وبين ابناء مذهبهم من المزارعين والوسطاء والتى كانت تناقضا ما بينهم وبين ابناء مذهبهم مـن المـزارعين والوسطـاء

4 ـ نمو النفوذ المسيحى لدى أمراء الجبل ، وازديـاد دور الكنيسـة فى كسروان قد ساعدا العائلات المسيحية لاخذ دور المشايخ الحماديين فى ادارة والتزام بلاد جبيل .

5 ـ سياسة الحكام في معاقبة الخارجين عن ارادتهم باتباعهم أساليب ضرب وسائل الانتاج ، من قطع اشجار ، واتلاف مواسم واحراق مساكـن ، هـذه ممارسات كانت تحدث كثيرا بعد كل عملية عصيان دون تمييز بين الفاعلين والابريـاء من أهل المنطقـة الامر الذى دفـع الى عـدم الارتبـاط بالارض والتشبث بها .

جميع هذه الاسباب وغيرها قد ساعدت على عدم استقرار الشيعة في بلاد جبيل ، مما دفع بهم دائما الى الهجرة باتجاه البقاع حيث استقروا في السفح الشرقي للسلسلة الغربية حيث كان لهم أقارب وحلفاء من الحرافشة وغيرهم من عشائر الهموند، تاركين وراءهم الاراضي يدفع ميرتها من تخلف عن الهجرة فيستعين على ذلك ببيع أو رهن جزء منها لملتزمي الميري . كما ان الجراد الذى كان يأتي المنطقة فيضرب مواسمها الزراعية قد ساعد بدوره أيضا على افقار الناس وتخليهم عن أرضهم ، يضاف الى ذلك حاجة البقاع الى اليـد العـاملة وسهولة استعمال أراضيه الزراعية ومردود هذه الاراضي وشروط المشاركة عليها ، وامكانية الهروب من دفع الضرائب على المواشي وعدم وجود ضرائب تدفع على الاراضي ، أمور ساعدت على الهجرة . ويلاحظ أيضـا ، ان تـدنى أسعار الحرير بالنظر للمزاحمة الخارجية كما تشير وثائق كثيرة من مرسيليا ، أو نتيجة ازمات سياسية في فرنسا ، أو نتيجة لاقبال المواسـم في الشرق الاقصى ، أو في قبرص ، قد ساعدت بدورها على خلق ازمات اقتصادية كانت تدفع الى المهاجرة .

كما ان السماسرة لدى تجار الحرير يأتون المزارعين متخذين كل أنـواع الخداع والغش فيختلسون ثمرة اتعابهم ، فيسرقون من حساب الوزن والثمن ، فيدفعون ببعض نقود زائفة أو ليرات ذهبية ناقصة نظرا لانعدام وسـائـل الرقابة الحكومية ، حيث يعرض أهالي جبيل في تقرير لمكلفي الحكومة من : « ان أهالي بلاد جبيل يشتكون من زيادة اثمان الاغلال عليهم ، واخذ الحرير منهم بالوزن الكبير وباسعار حطيطة ، وذلك من التجار الذين يعاملونهم » . وكذلك أهالي جاج يعرضون : «يعرض عبيدكم أهالي جاج بأن انخواجه فارس ولحود له حسابات عندنا من جملة سنين وحسب علينا رباء ورباء الربا وزوايد عن ذلك وفرق حرير في السعر والوزن واخذ منا أرزاق بدون ثمن » . اضافة الى ذلك فان اصابة المواسم بالامراض قد سعدت بدورها على الهجرة الى الداخل والخارج خاصة في الربع الاخير من القرن التاسع عشر وباتجاه أميركا فافرغت القرى من قواها المنتجة الشابة ليحل محلها عمل الاطفال والنسـاء الضعيف . ان واقع هذه الهجرة المستمرة حتى يومنا هذا، يبدو لافتا للنظر . فاذا لم يتم تدارك أسبابه فان المنطقة قادمة على زوال جزء من أهلها ، وهذا الامر يتعارض مـع مستقبل التعايش والعيش المشترك في لبنان . لذلك وجب الانتباه الى دروس التاريخ عن طريق الاخذ بنتائج احداثه السابقة التالية :

أولا : ترسخ فى هذه الفترة الممتدة على نحو من خمسماية سنة صراع ما بين المسلمين الشيعة انفسهم ادى الى اضعافهم وضربهم بعضا ببعض ، حيث هاجر قسم كبير منهم اتجاه البقاع (ولاية الشام) كما الحال بالنسبة للصراع المستراحى الحمادى ، الامر الذى أدى الى افتقار مناطقهم لليد العاملة والمنتجة ، فاستعانوا بالعديد من العائلات الفلاحية المارونية لسد هذه الحاجة وخاصة فى مجالات الزراعة والرعي .

ثانيا : برزت وبشكل واضح الانقسامات فى صفوف المسلمين الشيعة على أساس مصالحهم الاقتصادية ، حيث تكونت نتيجة ذلك فئات اجتماعية ثلاث ، لكل فئة عاداتها وتقاليدها ، ان مفاهيم وعادات وتقاليد وقيم العشائر الحمادية قد اثرت فى الفئين الاخريين فطبعتها بطابعها العشائرى المميز .

ثالثا : نتيجة الصراع السياسى مع السلطات المحلية المتمثلة بالولاة ومصالحهم التى هى فى الاساس فوق مصلحة الدولة العليا فى الجنوب وفى البقاع وفى الشمال ، بالاضافة الى الصراع الداخلى على المصالح ما بين اللبنانيين أنفسهم وخاصة فى صراعهم مع الموارنة اصحاب المشروع السياسى فى كل من جبة بشري ومنطقة البترون وبلاد جبيل وفتوح كسروان بالاضافة الى صراعهم مع الامارة فى المعاملة الجنوبية ، فان الذهنية الاسلامية الشيعية للعامة قد حملت ترسبات ومفاهيم ربما مغلوطة حول عادات وتقاليد الاخصام ، وبقيت هذه الترسبات تؤثر فى مجرى العلاقات ما بينهم والآخرين .

رابعا : ان القتال المستمر والسياسة التى اتبعها مشايخ الحمادية تجاه عشائرهم وخاصة ما يتعلق منها بالسياسة الزراعية قد اثرت وبشكل ملحوظ فى عدم استقرار هذه العشائر وميلها الى حياة تعتمد الغزو والقتال كمصدر للرزق والعيش ، أمور ساعدت فئة من المسلمين الشيعة عملت فى الزراعة والرعي واستقرت آخذة بالدفاع عن مصالحها بطرق متعددة حيث نتج تناقض أدى الى صراعات خرجت بنتيجتها هذه الجماعة المعارضة بعد تحالفها مع البورجوازية المارونية الى ضرب الحمادية وطردهم نهائيا من المنطقة .

خامسا : على الصعيد السكانى فان الحروب المستمرة وعدم الاستقرار السياسى والاجتماعى قد ساعدت على انخفاض عدد السكان باطراد عن طريق دفعهم باتجاه الهجرة المستمرة الى الداخل بافراغ الجبل تقريبا من المسلمين الشيعة ليصبح البقاع مركز ثقل وتجمع جديدين للعشائر المنتمية بأصولها الى كل من كسروان وبلاد جبيل والبترون .

سادسا : ان سياسة الارض المحروقة التى اتبعها الحكام فى صراعهم مع المشايخ الحمادية فى حرق البيوت وقطع الاشجار المثمرة المنتجة ومصادرة الاغلال وزيادة الضرائب وغيرها أمور أدت الى خراب الممتلكات وخاصة الزراعية منها التى صعب استعمالها فيما بعد وادى الى افقار اصحابها وعدم

ميلهم الى استخدامها وهجرها لعدم توفيرها « لميرتها » مما دفع أصحابها الى عدم الارتباط والدفاع عنها فباعوا بأبخث الاثمان أو وهبوها دون مقابل أو أوقفوها للاديرة أو رهنوها عند ملتزمي الميري من عائلة لحود حيث تحولت فيما بعد ملكا لهم ليحولوها بدورهم الى احراش تهربا من دفع ميرتها ٠

ان الوثائق المعتمدة في هذا البحث ستبقى ناقصة اذا لم يقدر لغيرها ان تقع في أيدي باحثيين ، حيث تستكمل الصورة ويعم النفع وتكون العبر .

د٠ رباح ابي حيدر
قسم التاريخ ـ الجامعة اللبنانية



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الصور الفوتوغرافية كمصدر لدراسة تاريخ القرن التاسع عشر من خلال أرشيف مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية باستانبول

د. أكمل الدين إحسان أوغلى (*)

من المعلوم ان اختراع آلة التصوير حدث في اغسطس عام 1839 على يد الرسام الفرنسي داغير Daguerre . ومنذ ذلك التاريخ بدأ ذلك الفن ينتشر بسرعة فائقة على مدى قرن ونصف في شتى انحاء العالم . وقد وجد هذا الاختراع عند العثمانيين عناية في التطبيق سايرت العناية التي حظي بها عند الأوروبيين . فمن المعروف ان أكاديمية العلوم الفرنسية اخذت عام 1839 بأصول التصوير عند داغير ثم تم اعلانها في الدولة العثمانية بعد سبعين يوما ، أي في 28 أكتوبر 1839 (19 شعبان 1255) واطلع عليها الرأي العام العثماني ، اذ بدأت جريدة تقويم الوقائع التركية الصادرة في ذلك اليوم تنشر المعلومات التي اوردتها الجرائد الأوربية حول هذا الموضوع بعد فترة قصيرة من ظهور الاختراع في اوربا . وبعد عامين نشرت (جريدة حوادث) التركية في عددها الصادر في 15 اغسطس 1841 (26 جمادى الآخرة 1256) ان كتاب فن التصوير الذي الفه داغير الفرنسي قد وصل تركيا وتمت ترجمته الى اللغة التركية . وبعد هذا التاريخ بعام واحد نشرت نفس الجريدة في عددها الصادر في 17 تموز / يولية 1842 م (8 جمادى الآخرة 1258 هـ) إعلانا شد انتباه الجميع اذ جاء فيه ان المسيو قوميا احد تلاميذة المسيو داغير قد وصل استانبول ، وان سعر تصوير الشخص او عدة اشخاص معا يتراوح بين 100 و 150 قرش ، وان سعر تصوير احد الأماكن يتراوح بين 125 الى 1000 قرش تبعا لحجم الصورة ، وهكذا بدأ المصورون اعمالهم في استانبول وشرعوا يبحثون عن زبائنهم على صفحات المجلات والصحف .

وعلى الرغم ان بعض المصادر تذكر ان أول معمل للتصوير قد فتحه من يدعى بسكال سباه عام 1857 في حي (بك اوغلى) في استانبول ،

(*) أ. د. أكمل إحسان أوغلى مدير عام مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية باستانبول التابع لمنظمة المؤتمر الاسلامى ، ورئيس تاريخ العلوم بكلية الآداب جامعة استانبول .

وان معمل التصوير الذي اقامه الإخوة عبد الله قد اعقب ذلك مباشرة الا أننا نرى على ظهر ورق مقوى لأحد الصور التي سحبت في استديو قارغو بولو (Kargo Poulo) انه تأسس في استانبول 1850 .

ومنذ ذلك بدأت تتزايد معامل التصوير ، وتزايد العاملون في هذا الفن حتى اتجهت اليهم انظار السراي العثماني ، فكان المصورون الذين ينالون اعجاب السراي يحصلون على القاب مثل «رسام ومصور الذات الشاهانية» يكتبونها بحروف الذهب خلف الصور التي يلتقطونها . بل وقام الإخوة عبد الله بفتح فرع لهم في القاهرة بتشجيع من خديو مصر .

وفي عام 1867 اقام الإخوة عبد الله هؤلاء جناحا في معرض باريس الدولي عرضوا فيه صورهم تحت عنوان «مناظر استانبول من خلال الصور والأسلحة التركية التاريخية» فحازت هذه المجموعة اعجاب وتقدير الجميع.

ولم ينحصر اهتمام السراي العثماني على معامل التصوير القائمة في استانبول فحسب ، بل نعلم ايضا ان بعض الرحالة الأوربيين قدموا البومات للسراي ، وان هذه الألبومات حازت اعجاب السلاطين . وهكذا فإن مجموعة الصور التي بدأت تتكون داخل السراي مهدت السبيل لانشاء معامل للتصوير داخل بعض المؤسسات الحكومية ، وخاصة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، اذ أصبح التصوير على درجة من الأهمية جعلته يحتل مكانا بارزا في كثير من المرافق الرسمية . فرأينا معامل للتصوير في كثير من الدوائر الحكومية ، وعلى راسها الأركان الحربية والقيادة العسكرية العليا ونظارة البحرية والمهندسخانة البرية وقيادات الجيوش ودار العجزة وغيرها . ويمكننا التعرف على نشاطات هذه المؤسسات في مختلف بلدان الدولة العثمانية من خلال الصور التي التقطت واعدت في معامل هذه المؤسسات . كما تم تشكيل هيئات في بعض الوزارات والمؤسسات طافت انحاء الأناضول وولايات الدول المختلفة عربية كانت أم اوربية وسجلت ملاحظاتها من خلال الصور .

وعلى سبيل المثال يمكننا التعرف على مختلف الانشطة والتطورات التي جرت في ساحة العمليات اثناء الحرب التركية اليونانية عام 1897 م ، وذلك من خلال الصور التي التقطها الجنود المصورون تنفيذا للارادة السلطانية . كذلك كانت تقوم الإدارات المحلية في ذلك العهد بحصر وتوثيق اعمالها وخدماتها عن طريق البومات الصور .

كذلك قام من يدعى أبو بكر حازم تبيران احد رجال الدولة العثمانية بتسجيل المهام التي انجزها عندما كان متصرفا على (دده اغاج) (1896 — 1898) من خلال مجموعة من الصور التقطها بنفسه وجعل منها البوما قدمه للسراي العثماني ، فلقي الألبوم استحسانا عظيما وحظي صاحبه بتقدير السراي .

وقد اقيم في عهد السلطان عبد الحميد الثاني معمل للتصوير داخل سراي يلديز بمقتضى ارادة سلطانية ، تم فيه تصوير العائلة والمنسوبين للسراي والعاملين فيه .

والى جانب هذه الألبومات التي ظهرت من خلال السبل التي ذكرناها فقد كان هناك البومات يهديها ملوك ورؤساء الدول الأجنبية للسراي العثماني ، وألبومات اخرى يتم الحصول عليها بغرض تتبع التطور الصناعي والتقني في اوربا على وجه الخصوص ؛ حتى تكونت منها جميعا مجموعة ضخمة من الألبومات عرفت بألبومات سراي يلديز .

ولم يكن العثمانيون يستخدمون الصورة مصدرا للمعلومات من اجل انفسهم فحسب ، بل اعدت في نفس الوقت ألبومات ارسلت خارج حدود الدولة لمقاصد مختلفة ، فكان القصد من اعداد ستة وثلاثين ألبوما وارسالها الى مكتبة الكونجرس الأمريكي بواشنطن عام 1893 م هو هو للتعريف بالدولة العثمانية وابراز جوانبها السياحية ومساعدة الباحثين في استجلاء تاريخها .

ومجموعة البومات سراي يلديز تضم صورا تم التقاطها من عام 1865 حتى عهد الدستور الثاني على ايام السلطان عبد الحميد الثاني . وان اقدم هذه الألبومات هي التي تضم صورا للقدس وتحمل تاريخ 1865 م ، وصورا عن جبل لبنان تحمل تاريخ 1866 م ، وصورا عن مصر وسورية ، وصور معرض باريس الدولي عام 1867 م ، والصور الخاصة برحلة السلطان عبد العزيز عام 1867 الى اوربا وهو يتابع تدريبات «اقامة المعابر» على ساحل نهر الطونة في النمسا .

وقد انتقلت مجموعة البومات يلديز هذه الى مقتنيات المكتبة المركزية لجامعة استانبول عام 1924 ثم آلت الى مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية الموجود حاليا داخل قصر يلديز ، فكأنما عادت الى بيتها الأول ، وذلك بموجب اتفاقية خاصة بحق تجديد وفهرسة ونشر

هذه المجموعة الفوتوجرافية الفريدة التي يبلغ عدد صورها 35،000 صورة تمثل مادة ارشيفية ثرية خدمت الباحثين داخل شروط معينة في المكتبة المركزية لجامعة استانبول من عام 1924 حتى عام 1983 .

هذا بالإضافة الى عدة مجموعات اخرى خاصة بالمركز قام بضمها لهذه المجموعة الأساسية سواء كان عن طريق الصور الأصلية التي حصل عليها ام عن طريق الطبع عن الصور الأصلية ، وعلى سبيل المثال فإنه يوجد بين الصور التي اضافها المركز الى مجموعة يلديز الأساسية صور المرحوم فخر الدين باشا الذى كان قائدا للجيش العثماني في الحجاز ، وهي الصور التي التقطها المرحوم بنفسه ، واهداها الى المركز ولداه الجنرال المتقاعد سليم ترك قان واخوه الجنرال المتقاعد ايضا اورخان ترك قان :

ويمكننا تقسيم موضوعات ارشيف الصور الفوتوغرافية التاريخية بالمركز الى الخطوط الرئيسية الآتية :

1 — مناطق سكنية متعددة تصل حتى القرى والنجوع داخل حدود الدولة العثمانية وولاياتها المختلفة .
2 — مباني الخدمة العامة والآثار التاريخية والمؤسسات الصناعية والزراعية ، وصور الحياة التجارية ، وغير ذلك من موانىء وارصفة وسكك حديدية .
3 — مؤسسات تعليمية وصحية .
4 — اعمال البناء والترميم .
5 — صور الأشخاص .
6 — صور مختلفة تخرج عن الموضوعات السابقة :

واستنادا على هذه الإتفاقية الخاصة التي تمت بين المركز ومكتبة جامعة استانبول فقد اقام المركز معملا فوتوغرافيا بالإضافة الى تأسيس وحدة خاصة للفهرسة والتصنيف ، بدأت بتقويم هذه المجموعة بالأسلوب العلمي الصحيح . وقد درست وقومت حتى اليوم 25 ٪ تقريبا من صور هذه المجموعة .

يضم هذا القسم الذى قمنا بالدراسات الأولية عليه ، 41 البوما و 1850 صورة ، خاصة بالولايات التابعة للدولة العثمانية ، والتي تشكل ألبوم العالم العربي .

قامت هذه الدراسة اساسا على الصور التي تحدثنا عنها سابقا . وان موضوعات هذه الصور التي تعود الى الأعوام 1867 – 1910 مختلفة متباينة ، وتعتبر مصادر اصلية للدراسات اكاديمية متنوعة . وبصورة خاصة ان الحياة الإجتماعية وبعض الأحداث في بلاد الشرق وشبه الجزيرة العربية ، قد وثقت بهذه الصور . ان بعضا منها في القسم الذي تم فهرسته في المركز ، يصور الأبنية الرسمية والأهلية . وان قسما من هذه الأبنية صار بمثابة آثار تاريخية ، والقسم الآخر يصور الثكنات العسكرية ومراكز الشرطة والمدارس والمستشفيات والقصور والجوامع والأضرحة والتكايا والخانات والحمامات والأسواق ومحطات القطارات ومباني البرق والبريد ودوائر الدولة الرسمية . وقد التقطت هذه الصور خلال تشييد او ترميم هذه الأبنية . وهناك قسم آخر منها يعتبر وثائق لحركات الاعمار العامة . والمثال على ذلك : مجاري المياه والقنوات والأسبلة والمراسي والموانىء والسكك الحديدية واسلاك البرق .

ويمكننا ان نذكر هنا مختلف المؤسسات الصناعية الصغيرة والكبيرة التي كانت تقوم بنشاطاتها آنذاك ، كما يلفت النظر ايضا عدة موضوعات اخرى امكن تسجيلها بالصورة ، نذكر منها على سبيل المثال النباتات الطبيعية ومواسم الحصاد والآلات والأدوات الزراعية والمنتوجات الصناعية والمعارض المختلفة التي ضمت هذه المنتوجات .

ونرى من الفائدة بمكان ان نشير هنا ضمن هذه المجموعة الضخمة من الصور التي سجلت مسار الحركة في زمانها الى قسم من الصور في موضوع آخر في الحياة اليومية وهو : صور المناظر الخاصة بالمدن والقرى . فهذه الصور مصادر على درجة كبيرة من الأهمية ، يمكن بعد دراستها بدقة ان نتعرف على شكل الحياة الإجتماعية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

اذ يمكننا من خلال النظرة الأولى في صورة لسوق صغير في زقاق ان نتعرف على طبيعة الزي آنذاك ، وعلى بائعي الملابس وطريقة عرض البضائع ، وبعض المعلومات عن جانب من الحياة في ذلك الزقاق . كما يمكننا من خلال مثل هذه الصور التعرف على اماكن النزهة وبعض الألعاب وغيرها من انماط الحياة في المجتمع .

د. اكمل الدين احسان اوغلي



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

اصلاحات حسيب باشا فى ولاية الحجاز

1848 ـ 1849

كمـا جـاء فى الوثـائق العثمـانية

د. محمـد عبد الله آل زلفـه

ظلت الحجاز بماو فيها من أماكن مقدسة تحظى باهتمام ملوك وحكام المسلمين لما لهذه البلاد من حرمة وقدسية لدى الجميع . ولكن المصادر العربية وبخاصة ما ألفه مؤرخو الحجاز أنفسهم تجمع على أن الدولة العثمانية بزت فى اهتمامها بأحوال هذه الديار المقدسة كل من سبقها من الحكومات الاسلامية . وكان الخلفاء العثمانيون أول من تلقب بلقب خادم الحرمين الشريفين (1) لتقديرهم البالغ بمكانة الحرمين الشريفين وأهميتهما وقدسيتهما .

ويعود اهتمام العثمانيين بالحجاز الى فترة مبكرة جدا على بـداية دخـول الحجاز فى تبعيتهم رسميا عام 1517 حينما أوفد شريف مكة ابنه الى القاهرة معلنا مطاعته للسلطان سليم الاول (2) .

فمن الثابت ان العثمانيين كانوا يبعثون قبل ذلك باعطيات سنوية الى مكة لتوزيعها على اشرافها وسادتها وفقرائها وهى ما كان يعبر عنه بالصرة والتى كان يبعث بها سنويا مع قافلة الحجاج (3) .

وتشير المصادر أيضا الى ان مقدار ما أوقفه آل عثمان على البلاد المقدسة من أوقاف فى انحاء متفرقة من أراضى الامبراطورية يفـوق بكثير ما أوقف عليها من قبل .

---

(1) لما عاد السلطان سليم قافلا الى بلاده بعد ان تم له فتح مصر والحجاز واثناء توقفه فى حلب حضر صلاة الجمعة فى جامعها فختم الخطيب دعاءه بقوله اللهم انصر خاقان البرين وسلطـان خادم الحرمين الشريفين . ارتاح السلطان للقب وسجد شكرا لله واستمر هذا الدعاء لخلفاء آل عثمان منذ ذلك الحين . وبعض الروايات تذكر ان السلطان رمم المسجد الامـوى بدمشـق وعندما صلى الجمعة دعا له الامام واضاف خادم الحرمين . انظر محمد فريد تاريخ الدولة العلية العثمانية تحقيق احسان حقى ص 193 دار النفائس بيروت 1981 .

(2) النهروالى ، محمد بن احمد البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، منشورات دار اليمامة 1387/ 1967 ، ص 26 .
الاعلام باعلام بيت الله الحرام طبع على هامش كتاب خلاصة الكلام لدحلان القاهرة 1305 ص 47

(3) ضياء قاريجى ، خدمات الدولة العثمانية للحرمين الشريفين ، المجلة التاريخية المغربية السنة الثانية عشر العدد 39 ـ 40 ديسمبر 1985 ص 583 ـ 589 .
الاعلام للقطبى على هامش خلاصة الكلام لمؤلفه احمد زين دحلان القاهرة 1305 ص 173 احمد السباعى تاريخ مكة ج 2 مكه 1378 5 ص 5 .

وبقيت هذه الاوقاف وما تدره من ريع يشكل أحد المصادر الرئيسية للاتفاق على الديار المقدسة وأهلها .

ثم لو قبلنا صفحات التاريخ لوجدنا ان اول من اعتنى بعمارة الحرمين الشريفين العناية الفائقة وعلى مدى ما ينيف على أربعة قرون هم العثمانيون .

اذ ما زالت مظاهر الفن العمرانى العثمانى فى الحرمين الشريفين بارزة ماثلة جنبا الى جنب مع التوسيعات والتحسينات التى قامت بها حكومة المملكة العربية السعودية حيث فاق ملوك آل سعود فى اهتمامهم برعاية الحرمين الشريفين وحمايتهما وخدمتهما ما كان عليه اسلافهم سلاطين آل عثمان .

لم تهمل الدولة العثمانية وعلى رأسها السلطان شؤون الحجاز حتى فى أحلك ظروفها الاقتصادية والسياسية وكانت ولاية الحجاز تعامل معاملة خاصة . وما كان يحدث من تقصير فانما كان مرده فى الدرجة الاولى الى سوء تصرف الادارة المحلية فى الحجاز نفسها ، والصراع التقليدى الذى كثيرا ما كان ينشب بين الولاة والاشراف وهو فى معظمه صراع على السلطة خصوصا ان الخطوط الفاصلة بين صلاحيات كل من الشريف والوالى لم تكن واضحة .

كان لهذا الصراع انعكاسات سيئة على أوضاع الحجاز الاقتصادية والاجتماعية ــ وجر على أهالى الحرمين من الويلات ما لا يعلمه الا الله من غياب الامن وانعدام الاستقرار ــ فكان بعض أطراف الصراع يوعز الى القبائل بقطع الطرق واشاعة الفوضى كوسيلة للطعن فى مقدرة الطرف الثانى على ضبط الامور فى الولاية فاذا ما تحقق الهدف بازاحة الطرف الخصم أخذ فى شن الحملات على القبائل التى اثارها بالامس فأدى هذا الى تمرد القبائل واثارتهم للقلائل لعدم ثقتهم فى حكومة الولاية اما الحكومة المركزية فى استانبول فلا يصلها الا تقارير متضاربة من الخصمين كل يبرىء ساحته ويتهم خصمه .

وهكذا بقي حال القبائل تستمال لتأييد طرف على آخر وتملي شروطها وتستوفي أموالا طائلة من خزينة الدولة فاذا ما انقطعت لسبب من الاسباب عادت الى عادتها الاولى فى ممارسة النهب والسلب والحكام منهمكون فى صراعاتهم . ويكاد ان يكون هذا حال ولاية الحجاز حتى نهاية حكم العثمانيين الهاشميين معا فى الربع الاول من القرن الحالى حين قيض الله لهذه البلاد المقدسة ملكا عظيما حكم فى أهلها كتاب الله فارهب به أعداء الله وأعداء زوار بيت الله ذلك هو الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله .

بعد هذه المقدمة نأتى الى الموضوع الذى خصصت له هذه الدراسة وهو القاء الضوء على اصلاحات الوالى حسيب باشا اذ لا يخلو عصر من العصور من الرجال المصلحين المخلصين واصلاحات حسيب باشا لم تكن لتقتصر على النواحى الاجتماعية فحسب بل امتدت لتشمل نواحى أخرى . وما كان سيأتى

لنا انه نتعرف على أعمال حسيب باشا أمام صمت مصادرنا العربية والاجنبية أيضا لولا ما تيسر لهذا الباحث من كشف بعض من وثائق فترة هذا الوالى فى أرشيف رئاسة الوزراء فى استانبول وعلى مدى فترات متعددة من البحث فى هذا الارشيف عن وثائق الجزيرة العربية حيث أصبح من الثابت والمؤكد انه اذا ما تم الكشف عن وثائق أرشيف رئاسة الوزراء فان ذلك سيجعلنا نعيد النظر فى كثير مما كتب عن تاريخ جزيرة العرب ومن المؤكد أيضا أن ما ينطبق على جزيرة العرب ينطبق تماما على بقية وطننا العربى الكبير فى حالة الكشف عن الكم الهائل من وثائقه فى دور المحفوظات العثمانية والتى تغطي أربعة قرون من تاريخه .

أما حسيب باشا ، يا حضرات السادة ، فقد صدرت الارادة السلطانية بتعيينه واليا على الحجاز (4) فى أواخر سنة 1264/1848 وكان وصوله الى مدينة جدة مقر الولاية فى غرة شهر محرم سنة 1265/ نوفمبر 1884 ويأتى حسيب محمد باشا الوالى الحادى والاربعون فى عداد الولاة العثمانيين الذين تولوا ولاية الحجاز منذ دخولها فى طاعة العثمانيين فى عهد السلطان سليم الاول وذلك فى عام 1517 م. ويأتى الوالى الثالث (5) منذ عودة الادارة العثمانية المباشرة على الحجاز اثر انسحاب القوات المصرية منها 1257/1840 م.

وكان جديدا على هذه الولاية على عكس سلفيه فانهما كانا من الموظفين العثمانيين الذين خدموا فترة طويلة فى مشيخة الحرم المدنى (6) بالمدينة المنورة الذى لم أجد له ترجمة ما عدا ما ورد عنه لدى مؤلف سجل عثمانى .

وحسيب باشا يعد من رجال الدولة القديرين ذو خبرة طويلة ودراية وحنكة فى أمور الدولة .

ولد حسيب باشا عام 1320 هـ. / 1805 م. وتدرج فى أعمال ومناصب رفيعة فى الدولة فى العاصمة استانبول وخارجها ففى عام 1250/1834 أصبح ناشرا

---

(4) لم يكن يسمى والى الحجاز بل كان يدعى والى جدة وسر عساكر الاقطار الحجازية واحيانا تضاف مشيخة الحرم المكى الى والى جده وقد بقيت جده مقر ولاية الحجاز الى عام 1688 هـ حينما انتقل مقر الوالى الى مكة المكرمة . انظر سليمان باشا فى سياحة تامة مخطوطة فى مكتبه ثم اصبح شيخا للحرم المدنى خلفا لعثمان باشا وعندما عزل عثمان باشا من ولاية جده خلفه شريف باشا واليا ثم عاد الى المدينة بعد عزله مجاورا وبراتب تقاعدى قدره 10000 قرش . انظر الوثيقة رقم 11299 تاريخ 25 جماد الاول 1265 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(5) انفرد صالح الهمرو فى كتابه
The Hijaz under Ottoman Rule, 1869-1914 - Riyad University Press 1978 P. 253.
بأن جعل حسيب باشا الوالى الرابع وذلك باضافة اسم كامل باشا كثانى والى فى عداد ولاة الحجاز للفترة الثانية ولم نجد ما يؤيد ما ذهب اليه فى المصادر والمراجع التى بين ايدينا .

(6) كان عثمان باشا اول والى عثمانى فى العهد العثمانى الثانى وكان يشغل قبل ذلك مشيخة الحرم المدنى ثم خلفه شريف باشا وكان من موظفى مشيخة الحرم المدنى لفترة طويلة زادت عن اربع عشرة سنة .

للاوقاف وفى عام 1252/1836 أعطى رتبة الوزارة وأصبح ناظرا للخزينة الخاصة وفى عام 1254/1838 أضيفت اليه أعمال نظارة الاوقاف ثم أصبح واليا لسلانيك ثم أعيد الى العاصمة ليصبح فى عام 1256/1840 رئيسا لمجلس «والا» ثم عزل وعين مفتشا فى الاناضول وفى عام 1260/1844 عين ناظرا للاوقاف للمرة الثالثة ثم فى شوال عام 1264/1848 عين واليا لجدة وبعد عزله من جدة عاد الى استانبول لتولى نظارة الخزينة الخاصة ثم ناظرا للاوقاف ثم ناظرا للمالية ثم مراوحا بين الاوقاف والمالية والخزانة الخاصة الى ان أحيل على المعاش. وكانت وفاته فى عام 1286/1869 (7) .

الوضع فى ولاية الحجاز عشية تولى حسيب باشا :

مضى على ولاية الحجاز سبع سنوات منذ عودتها تحت الادارة العثمانية المباشرة . انقضت جميعها فى محاولات جادة من قبل الولاة السابقين لحسيب باشا وبصفة خاصة عثمان باشا فى اعادة السلطة العظمانية وترسيخها ليس على الحجاز فحسب بل على الجزيرة العربية بشكل عام ان أمكن وكان عثمان يدرك ان فرض سلطة الدولة المباشرة على المناطق خارج الحجاز أمر مستحيل فى ظل الظروف الاقتصادية والعسكرية الصعبة التى كانت تعانى منها الادارة العثمانية ، هذا بالاضافة الى ثقل التركة التى ورثوها من جراء حكم محمد علي للاجزاء التى امتد اليها حكمه حيث كان التذمر من وطأة ذلك الحكم الذى عرف بالقسوة والجور ، هو الشعور الذى كان يسود معظم سكان هذه الاجزاء . ناهيك عن الحروب التى لم ينفىء لها اوار ضد حملات محمد علي والمتعاونين معه وخاصة فى منطقة عسير ، اما الاجزاء التى دخلت تحت حكم محمد علي مثل بعض أجزاء اليمن الاسفل ونجد فلم يكن دخولها بمحض ارادة أهلها بل كان مفروضا عليهم بالقوة وظل وجوده مفروضا بواسطة الحاميات المصرية التى كانت ترابط فى قلاع تلك البلدان . فلما صدرت وأمر محمد علي باشا الى تلك الحاميات بالانسحاب والعودة الى مصر ، حدثت خلخلة سياسية وفراغ يصعب على الادارة العثمانية الجديدة ان تملاه . بيد ان عثمان باشا واجه هذه الظروف بحكمة وبعقل مستخدما سياسة الملاينة مع زعماء القوى السياسية فى الجزيرة العربية ، الامر الذى تمكن من خلاله فى الحصول على اعتراف زعماء هذه القوى بالسلطة العثمانية ولو اسميا .

كان اول من سارع الى الاعتراف بالسلطة العثمانية الجديدة والانضواء تحت لوائها من الأمراء العرب كل من الاخير خالد بن سعود امير نجد والشريف الحسين بن على حيدر المتوكل على ابو عريس والسواحل اليمنية . ومن الملاحظ ان هذين الزعيمين تسلما مهام السلطة فى بلديهما بالتعيين من قبل محمد على

---

(7) محمد ثريا . سجل عثمانى ياخوذ تذكرة مشاهير عثمانية ج 2 استانبول 1311 ص 180 ـ 81

وان انسحاب القوات المصرية يعرض نظاميهما للسقوط ما لم تدعمهما السلطات العثمانية • لم يكن عثمان باشا براض عن هؤلاء الحكام المحليين المعروفين بارتباطهم بمحمد على لانه كان يفضل ان يتعامل مع حكام مقبولين من شعوبهم قادرين على احلال الامن والسلام فى بلادهم وصادقين فى تعاملهم مع الدولة العثمانية من خلال اعلان ولاءهم الاسمى لها فنجده يسارع الى الاعتراف بنظام الامير عبد الله بن ثنيان فى نجد الذى ثار على الامير خالد بن سعود لان ابن ثنيان يمثل القاعدة الشعبية وقادر على ضبط احوال الامارة وليس له سابق ارتباط مع محمد على (8) • كما نجده لا يوافق الشريف ابن عون على شن حرب على امير عسير رغم ان عسير لم تعترف لا ضمنيا ولا اسميا بالسلطة العثمانية ولكن اميرها عايض بن مرعى اكد للسلطات العثمانية فى الحجاز عن رغبته فى اقامة احترام متبادل بين الطرفين وتعهد بعدم التعدى على حدود ولاية الحجاز طالما الاخيرة لم يقم باية محاولة عدوانية على بلاده •

وبطبيعة الحال لم يكن الشريف محمد بن عون راضيا عن سياسة عثمان باشا الرامية الى اعادة تشكيل البنية السياسية فى المنطقة مستهدفة كل ما تم بناؤه فى خلال الثلاثين السنة الماضية او بعارة اخرى فان عثمان باشا فيما يبدو كان يريدها ثورة على كل ما تركه نظام حكم محمد على من بصمات فى الحجاز وقد استهدفت سياسته هذه حتى الشريف نفسه لكونه واحدا من ركائز محمد على فى الحجاز • وقد اعلنها عثمان باشا صراحة حينما طالب الباب العالى بعزل الشريف ابن عون واحضار الشريف عبد المطلب بن غالب المقيم فى استانبول والمعروف بعدائه لمحمد على ليحل محله (9) ولم يتورع عثمان باشا من تحديد صلاحيات الشريف ابن عون حتى ما كان يتعلق منها بشؤون القبائل التى تعد من اخص خصوصيات صلاحيات الشريف •

وقد عبر الشريف ابن عون فى تقرير مطول رفعه الى محمد على باشا يشكو فيها بمرارة عن الحالة السيئة التى بلغ بها وضعه الذى لم يعد يحتمل مع الوالى عثمان باشا نقتطف منه ما يلى : منذ عام 1259 هـ وهو (اى عثمان باشا) يظهر الاغبرار لنا واذا كان قد تم القيام من جانبنا حسب العادة برعاية اى مصلحة من مصالح العربان نراه يقول ان هذه المصلحة ايضا من لواحق ايالة جدة وانا [illegible]

المجربين المحنكين منذ عشرين او ثلاثين سنة الذين كنت قد وضعتهم على بعض الامور ونصب هو الرحال الذين عدهم مناسبين ونشر على الاطراف والاكنـاف «البيورلدات» قائلا لا تنظروا لامر ونهى الشريف بل انظروا لامرى انا وعلى عن البيان والعرض على دولتكم ان هذه المعاملة لم تكن شيئا قد حدث من طرف ولاة جدة حتى الآن لامير من امراء مكة» (١٠) ٠

بعد هذا العرض المختصر لاحوال ولاية الحجاز قبيل تولى حسيب باشا مقاليد الامور فيها وقبل الحديث عن اصلاحاته حيث يبدو من المؤكد انه اول رائد من رواد الاصلاح فى ولاية الحجاز احب ان اشير الى انه ما توفر لدينا من الوثائق وكذلك المصادر الاخرى عن تاريخ هذه الفترة لم تشر الى ان الواليين اللذين سبقوا حسيب قد منحا شيئا من اهتمامهما لتحسين اوضاع الولاية فى اى مجال من المجالات حتى ما كان منها متعلقا بخصـوصية وظيفتيهما كمسـؤولين عـن مشيخة الحرمين الشريفين حيث من واجبات شيخ الحرم الحفاظ على نظافته وتنظيم شؤونه ولكن حتى هذه الامور التى لا تحتاج الى كبير جهد يبدو انها قد اهملت ونحن هنا لا نبرىء ساحة الشريف الذى يعد شريكا فى السلطة وشريكا فى المسؤولية ٠ لقد اعترف بالحالة المتردية التى كـانت عليها نظـافة الحـرم الشريف (١١) كما سيأتى توضيحه مفصلا ٠

ولقد شملت اهتمامات حسيب باشا الاصلاحية النواحى العمرانية وتنظيـم الادارة المحلية والتعليم والمواصلات والضمان الاجتماعى ونظافة المدن المقدسة بالاضافة الى اهتمامه البالغ بأمن الولاية من الاخطار الداخلية والخارجية التى كانت تهددها وسأتناول هذه الجوانب بشىء من التفصيل وبذر ما تمدنا به مصادرنا الوثائقية ٠

الاهتمام باحوال العاصمة المقدسة :

التفت حسيب باشا لاصلاح احوال العاصمة المقدسة ٠ لقد ذهل للحالة التى كانت عليها من ترد فى اوضاعها وخاصة الحالة المزرية للحـرم الشـريف ، خصوصا فيما يتعلق بنظافته ، كتب تقرير بعث به الى الصدارة بعد حوالى شهر من وصوله الى الحجاز لتولى مهام منصبه اوضح فيه انطباعاته الاولية عما شاهده وما يجب عمله لتحسين الاوضاح المتردية فى مكة المكرمة والحرم الشريف بوجه الخصوص ٠ حيث قال : «فلما وصلت مكة المكرمة لايفاء ما كلفت به وفق المطلب

(١٠) مسائل مهمة دفتر جدة وثيقة رقم ١٢٤٤١ لفة 2 وتاريخ غرة جماد الاول ١٢٦١ هـ وكانت لمساعى محمد على باشا لدى اصحاب النفوذ فى الباب العالى اثر فى عزل عثمان باشا وابداله بشريف باشا الذى عرف بضعف شخصيته فاصبح اداة طيعة فى يد الشريف ابن عون الـذى عـرف بدهائه وحنكته الا انه شغل نفسه وانهك امكانيات الدولة المحدودة فى حرب طائلة ضد القوى الوطنية .

(١١) محمد بن عون الى الصدر الاعظم بتاريخ غرة ربيع الاول ١٢٦٥ هـ وثيقة رقم ١١٢٩٩ ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

العالى بادرت للعمل ، وفوجدت ان الحرم الشريف السعيد يعج بالفقراء والغرباء والسائحين والعربان وان الكثيرين من هذه الفئات تقيم فيه وتتخذ منه مبيتا وشاهدت رأى العين امورا مخلة بالنظافة ، مما لا يحسن قوله ولا ذكره وهى تجانب الحرمة والتعظيم وتغاير الاداب الامر الذى يلزم منعه وازالته» (12) اما عن نظافة المدينة المقدسة بشكل عام فقد اخبر فى تقرير آخر رفعه الى الصدارة بعد حوالى شهر من تقريره الاول قد باشر فعلا بازالة ما لا يتناسب مع حرمة المدينة المقدسة ، ويتنافى مع روح الشريعة حيث قال : منذ وصلت مكة المكرمة ـ لله الحمد والمنة ـ والامور تسير وفق الشريعة الاحمدية فى التطبيق وهو الحبل المتين • فقد هدمت المقاهى ودور المجمدات وامثالها من المحدثات ومنعت المسكرات وغيرها من المنهيات وهكذا قطعنا دابر الفساد ورغبنا الناس الى صلاح الحال وقد ثبتوا على ما قيل لهم من حيث اجرينا العدالة السنية على قدر المستطاع وكان هذا ما اوليناه الاهتمام من امور النظافة والطهارة مدعاة للدعوات الخيرية التى رفعها الجميع شاكرين ذاكرين الطرف الاشرف السلطانى» (13)

وكما نلاحظ فان حسيب باشا اخذ المبادرة الفورية فى ازالة كل ما لا يتفق مع روح الشريعة الاسلامية فى المدينة المقدسة ، اما ما يتعلق بنظافة الحرم الشريف وطهارته فانه يرى ان ذلك مرتبط فى الدرجة الاولى باخلائه من اولئك الذين اتخذوا منه مكانا للسكن ولكنه يرى فى الوقت نفسه ان الحل لا يتم الا بتأمين مكان لاقامة هؤلاء الفقراء والغرباء اولا ، وذلك يتطلب انشاء دور سكنية لعم ملحقا بها عدة رباطات واقامة مثل هذا المشروع الخيرى يلزمه المال الكثير الذى تفتقر اليه خزينة ولاية الحجاز •

وكحل لهذا المشكل العاجل الذى لا يقبل التأخير فقد وجد أقرب وسيلة لتنفيذه واسرعها واقلها كلفة فى الوقت نفسه هو الالتفاف الى الاوقاف السلطانية والمبرات الخيرية التى كان قد اوقفها بعض السلاطين السابقين على الاعمال الخيرية مثل اوقاف السلاطين سليم ومراد واحمد ووالدة الاخير السلطانة «خاصكى» وكذلك اوقاف السلطان المملوكى الجركس «قايتباى» وابراهيم خان زاده وغيرها من الاوقاف المؤلفة من عمارات ومدارس ورباطات (14) •

الا انه وجد ان البعض منها قد عفى عليه الزمن وآل الى الخراب بسبب الاهمال وعدم الاكتراث ، بينما البعض الآخر قد آلت ملكيته الى يد الغير بدون

---

(12) من حسيب باشا الى الصدر الاعظم وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية بدون تاريخ ومن المرجع انها بتاريخ غرة ربيع الاول 1265 أرشيف رئاسة الوزراء .

(13) من حسيب باشا الى الصدر الاعظم بتاريخ غرة جمادى الاولى 1265 / 25 مارس 1848 وثيقة رقم 11034 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(14) الوثيقة السابقة .

حق فجعلوا من بعضها بيوتا يسكنون بها وحولوا بعضها الى اماكن مستثمرة ذات موارد (15) .

استعادة الاوقاف واحيائها

باشر حسيب باشا فى استعادة الاوقاف واحياء ما اندثر منها رافعا من اجل ذلك شعارا «كل شيء يجب ان يعود الى اصله» «15» ولكنه كان يدرك ان استعادة الاوقاف التي تحولت الى ملكيات خاصة لن يكون امرا سهلا بل انها كانت معضلة ومهمة صعبة (17) تغلب عليها حسيب بحنكة وتعقل وشجاعة بدافع من ايمانه الصادق بالاصلاح وذلك باستقطاب شريف مكة محمد بن عون وغيره من الاشراف اصحاب النفوذ الى جانبه بالاضافة الى قاضى مكة المكرمة واعيانها وعلمائها من اجل مساعدته فيما يتعلق باصلاح احوال العاصمة المقدسة وذلك من خلال مجلس قام بتشكيله لهذا الغرض ــ بالاضافة الى المشاركة بالامور الاخرى المتعلقة بشؤون الولاية ــ وكان هذا المجلس قد تكون من سبعة عشر عضوا ضم فى عضويته قاضى مكة المكرمة واربعة قضاة يمثلون المذاهب الاربعة ونقيب الاشراف ورئيس المدرسين (اعلم العلماء) وخمسة من كبار العلماء ونائب الحرم وقائد العساكر النظامية وابن شريف مكة عبد الله باشا وعبد الله بن شرف باشا احد اقرباء شريف مكة المهمين ومعاون اول ولاية الحجاز توفيق باشا (18) وتقرر ان يجتمع هذا المجلس فى يوم الثلاثاء من كل اسبوع ، ومهمته النظر فى الادعاءات التى تتعلق بالاوقاف وما عدا ذلك من الامور التى تهم الولاية (19) .

لم تمر مسألة استعادة الاوقاف بسهولة كما سبق الاشارة اليه بل قوبلت بمعارضة شديدة كما سنأتي الى توضيحه فيما بعد الانتهاء من معرفة كيفية معالجته لمشكلة اسكان الفقراء والغرباء . وكحل عاجل لاسكان هؤلاء بل واطعامهم شرع وبشكل سريع فى اصلاح بعض من اوقاف «خاصكى» سلطان اذ فيما يبدو ان هذا الوقف لم يتحول الى ملكية خاصة بل كان مهملا ويستغله البعض بطريقة غير مشروعة وقد وصف هذا الوقف بأنه عبارة عن عمارة

---

(15) من حسيب باشا الى الصدر الاعظم وثيقة رقم 11299 بدون تاريخ ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(16) نفس المصدر السابق .

(17) ادت فيما يبدو الى عزل حسيب باشا من ولاية الحجاز فيما بعد حينما كثر معارضوه بسبب اصراره على اعادة الاوقاف الى سابق مجدها ووظائفها التى خصصت من اجله .

(18) انظر الوثيقة فى الملحق رقم والتى تحتوى على اسماء ووظائف اعضاء المجلس .

(19) حسيب باشا الى الصدر الاعظم وثيقة رقم 11299 بدون تاريخ ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

مكونة من عشرين منزلا ومدرسة (20) يجاورها من اوقاف «قاتباى» وهو ما يقرب من عشرين بيتا ومدرسة خشبية كبيرة(21) كانت قد تحولت الى مخازن. وقدر ان تعميرا جزئيا فيها يعيدها الى اصلها فاخليت من سكانها وشرع فورا فى مباشرة العمل على اصلاحها وتم الانتهاء من التجديد وجهزت بالاثاث اللازم وفرشت ارضيتها بالحصر واسكن فيها ما يقرب من 450 من الفقراء والضعفاء حيث تم نقلهم من الحرم الشريف ، وخصص لكل فرد منهم رغيفين من الطعام يوميا كل رغيف بوزن 100 درهم ومغرفة واحدة من الحساء وما ان تم اخلاء الحرم الشريف منهم حتى باشر الضباط والجنود عملية غسل المسجد الحرام وتنظيفه على الوجه الاكمل (22) .

وفى حالة من الشعور بالسعادة والفخر بما قام به من عمل خيرى الفقراء وتم بموجبه نظافة المسجد الحرام قال حسيب باشا «وهكذا تم تخليص تلك الاماكن الخيرية من الايدى التى كانت قد استولت عليها . واذا كان ذلك قد مس بعض الذوات وذوى العلاقة ، فانه من جهة اخرى كان وسيلة بان اصبح الفقراء والضعفاء يشاركون العلماء واهل البلدة عامة بخير الدعاء لحضرة السلطان» (23) .

ويذكر حسيب باشا انه كان يوجد بتلك العمارة ـ من اوقاف «خاصكى سلطان» ـ والتى تم اصلاحها ثمانية «قازانات» (24) تم العثور على ستة منها كانت مخفية ومدفونة فى حين بقى اثنان وبعض القطع النحاسية الاخرى مفقودة . ويقول «ولا زال الجهد جاريا محاولة فى معرفة المسؤول عن ضياعها» وقد اورد حسيب باشا وصفا لتلك العمارة الوقت ، وتجهيزاتها حينما كانت فى حالتها الاولى (25) حيث يقول «وعلى كل حال فان العمارة قد انشأت فيما مضى على اساس تركيز «القازانات» الثمانية كافية لطبخ الحساء والزر فى المطبخ

(20) حسيب باشا الى الصدر الاعظم وثيقة سبق الاشارة اليها وانظر كذلك تقرير محمد بن عون الى الصدر الاعظم بتاريخ غرة ربيع الاول 1265 وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(21) يبدو ان مدرسة قايتباى كانت من الضخامة بمكان حيث نزل فيها عثمان باشا قائد الجيوش العثمانية المتوجهة الى اليمن لضرب ثورة الامام المطهر وذلك اثناء توقفه فى مكة لاداء العمرة وذلك فى عام 975 هـ انظر النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، دار اليمامة 1387/1967 ص 207 وسكن بها محمود باشا اثناء توقفه فى مكة وهو فى طريقه الى اليمن ايضا فى عام 960 هـ . دحلان خلاصة الكلام ص 55 .

(22) حسيب باشا المصدر السابق .

(23) مصدر سبق الاشارة اليه .

(24) القازان اكبر مقياس من ادوات الطبخ .

(25) يبدو ان وثائق اوقاف مكة كانت محفوظة أما لدى المحكمة الشرعية او جهة مسؤولة عن الاوقاف حيث ما كان ليتسنى لحسيب باشا ان يعرف هذه المعلومات المفصلة عن الاوقاف لو لم يطلع على وثائقها وسجلاتها .

الكبير المعد والفرن الخاص بصنع الخبز والمستودع الواسع لادخار الحبوب هذا عدا المطحنة المنفصلة» (26) .

وذكر حسيب باشا انه قام بزيارة تفقدية لعمارة كان قد انشأها محمد على باشا والى مصر (27) وقفا على اطعام الفقراء تقع فى مقابل الحرم الشريف ويبلغ عدد من يصرف له الطعام فى هذا المركز (التكيه) 500 شخص وذلك من اول رمضان وحتى غاية شهر ذى الحجة والطعام يتألف من الحساء والخبز يـوميا وفى خلال 11 شهرا ما عدا كل يوم خميس وكذلك ايام شهر رمضان فيصرف للنزلاء الرز المطبوه ويشير انه نظرا لكثرة الفقراء فان الفرد منهم لا يحصل على ثلث حصته المرتبة (28) .

بناء مغسلة للموتى (شرشوره)

وجد حسيب باشا ان مغسلة الموتى ـ او ما يعرف حينذاك فى مكة وحتى الآن فيما اعتقد (بالشرشوره) ـ (29) كانت تقع فى بنـاء ملتصق بالحـرم مباشرة بالقرب من باب الوداع وان وجودها فى ذلك المكان غير لائق بنظافة الحرم الشريف فقد انشأ لها بناء فى مكان آخر مناسب ويتكون من قسمين منفصلين واحد للذكور وآخر للنساء ألحق بكل قسم منهما غرف خاصة لسكن العاملين بها (30) ويقول حسيب باشا «وما من احد رأى او سمع بنقل تلك المغاسل من اماكنها الاولى ... من السادة العلماء وعامة الشعب الا واستحسن التدبير داعيا بالخير لحضرة السلطان» (31) .

التعليـم

حينما قدم حسيب باشا الى مكة وجدها خالية من المدارس ووجد ان الناس الراغبين فى طلب العلم يتجهون الى الحرم الشريف للانضمـام فى الحلقـات

---

(26) وثيقة سبق الاشارة اليها . يذكر ايوب صبرى مؤلف مرآة الحرمين ج 4 ص 1039 بـان اوقاف خاصكى سلطان كان بها 34 دكان مؤجرة وريعها يقبض من قبل مديـرية الحـرم الشريف ويصرف على دار الضعفاء والغرباء الملحقة بالوقف .

(27) انشئت فى عام 1238 انظر ابراهيم رفعت مرآة الحرمين ص 185 .

(28) ذكر حسيب باشا فى تقريره هذا الى الصدر الاعظم انه بعث بتقرير مفصل باللغة العربية عن وقف محمد على اعده الموظفون القائمون على هذا الوقف او هذه المبرة الخيرية .
اما لمن اراد تفاصيل اكثر عن مبرة محمد على هذه او ما تسمى بالتكية المصرية فيرجع الى مرآة الحرمين للواء ابراهيم رفعت باشا ج 1 مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة 17 1344/1925 ص 185 ـ 86 . فان نظامها اثناء زيارة صاحب المرآة لها عام 1318 هـ / 1901 م لم يتغير كثيرا عما كان عليه فى عهد حسيب باشا .

(29) لا اعرف هل «شرشوره» لفظة عربية ام تركية ولكن لم اعثر عليها فى قاموس رد هاوس تركى انجليزى .

(30) حسيب باشا الى الصدر الاعظم بدون تاريخ وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ، ارشيف رئاسة الوزراء .

(31) المصدر السابق .

التعليمية التى كانت تعقد في اروقته الا انه كان يرى ان ذلك غير كاف ويرى انه من اللازم انشاء مدارس للتعليم أو على اقل تقدير اعادة احياء اربع مدارس كانت موجودة فى مكة المكرمة منذ زمن قديم كان قد بناها السلطان سليمان خان (القانونى) من جملة اوقافه فى مكة المكرمة حيث خصص هذه المدارس الاربع للمذاهب الاربعة اثنتان منها قرب باب الزيادة ، ومع مرور الزمن اصبحت ملكا خاصا اضاف اليها مالكها بناء فاصبح فيما بعد مقرا للمحكمة الشرعية الا انه بسبب ما كان يشاهده قاضى مكة المكرمة من اعمال تجرى فى الحرم الشريف لا تتفق وحرمته فقد انتقل الى مقر آخر مخليا المقر الاول • ويرى حسيب باشا انه لا بد من اخلائه واعادته مدرسة كما كان فى عهده السابق • اما المدرستان الاخيرتان فتقعان فى طرف باب السلام وقد آلت ملكيتهما الى احمد باشا لما كان واليا على جدة (32) وبصورة ما اضيفت اليها ابنتية فاصبحت قصرا مسكونا وان هذا القصر على وضعه الحالى اضحى ملتصقا بسطح الحرم الشريف ورای حسيب باشا ان فى ذلك مما يخالف الاداب وحرمة الحرم الشريف وهو بذلك يقترح هدمه وارجاع المدرستين الى هيئتهما الاصلية (33)

وبما ان اتخاذ قرار هدم هذا القصر يتجاوز صلاحيات حسيب باشا لذا فقد طلب من المصدر الاعظم الحصول على الارادة العلية بالموافقة على هدم تلك الابنية المحدثة «واعادة كل شيء الى اصله» ومطالبة الباشا المذكور باثبات انه قد قام فعلا بشراء القصر • وقد اجرت الصدارة اتصالاتها مستفسرة من احمد باشا حول احقيته فى ملكية ذلك القصر حيث اجابها ، ان القصر المذكور لم يكن مدرسة وانما اشتراه من شريف باشا سعيد وانه جدده وعمره • ومع ذلك فقد اعلن عن موافقته على الامتثال للقرار الذى يتخذ بحق أمثاله (34) •

ومن الجدير بالاشارة الى ما ذكره حسيب باشا بان اهل الخبرة قد قدروا ان تكاليف اعادة بناء مدرسة «قايتباى» 35000 كيس اما اذا كان ترميما فقط فكلفتها 2500 كيس من الاقجة (35)

وقد علقت الصدارة العظمى على موضوع المدارس القديمة بقولها ولما كانت تلك المدارس مع التعامل القديم آلت الى عقارات واضحى ارجاعها الى شأنها

---

(32) هو احمد باشا ابن اخت محمد على باشا ـ اما والده فيدعى مصطفى بك وكان يمتهن بيع الفلافل والجبنة فى القاهرة . اصبح واليا على الحجاز فى سنة 1235 / 1819 بعد وفاة اخيه خليل باشا ثم عزل عام 1244/1828 ثم اعيد واليا مرة ثانية عام 1248/1832 ومكث بها الى عام 1256/1840 عند انسحاب قوات محمد على نهائيا من الجزيرة العربية ولمكوث احمد باشا فترة طويلة فى الحجاز صار يطلق عليه احمد باشا الحجازى . انظر دحلان خلاصة الكلام القاهرة 1305 ص 303 .

(33) من خلاصة تقارير تقارير حسيب باشا الى الصدر الاعظم وثيقة رقم 11299 بدون تاريخ ارادة داخلية رئاسة مجلس الوزراء .

(34) المصدر السابق .

35) من حسب باشا الى الصدر الاعظم وثيقة رقم 11299 بدون تاريخ ارادة داخلية رئاسة الوزراء.

القديم متعسرا من اجل ذلك حصل الاستفسار من المعارف العامة والتى بدورها دعت الى عقد مجلس موقت جرت فيه المذاكرة حول المدارس الخيرية والتى آلت الى ايدى الغير ومالها من اوقاف ومصادر تمويل ٠ وقد رأى المجلس المسارعة الى انشاء مدرسة واحدة تكفي عن الاربع وبشكل نموذجي وان يكتب للوالى بصدد ذلك على ان تسوى المصاريف من الاعتمادات الخاصة لانشاء المدارس (36) ٠

مجلس الولاية واعماله وخاصة ما يتعلق بالاوقاف

يمكن القول بان المجلس الذى دعى الى تشكيله حسيب باشا فى مكة المكرمة عام 1265 للمشاركة والنظر فى القضايا التى تهم الولاية يعد اول مجلس من نوعه تشهده ولاية الحجاز فى العهد العثمانى وذلك قبل الاخذ بنظام مجالس الادارة فى الولايات الذى نص عليه نظام الولايات بعد هذا التاريخ بحوالى عشرين سنة ٠

ولن ادخل فى تفاصيل مهام واعمال هذا المجلس لاسيما ونحن نفتقر الى المادة التاريخية ولعلنا يوما نحظى ببعض من محاضر جلسات هذا المجلس والذى لا استبعد وجودها محفوظة فى ارشيف رئاسة الوزراء الغنى بكثرة فهارسه وتفرعاته او فى المحفوظات التابعة لوزارة الاوقاف فى العهد العثمانى٠

ولكن لعله من الطريف والمفيد ان اورد هنا ما قاله المؤرخ الحجازى المشهور احمد زينى دحلان فى كتابه خلاصة الكلام (37) عن هذا المجلس يقول دحلان كانت اكثر الاحكام بتصرف حسيب باشا ورتب مجلسا من العلماء والمفاتى الاربعة فى كل اسبوع وصار يصنع لهم طعاما من افخر الاطعمة الملوكية فى كل اسبوع واظهر فى اول الامر انه يريد التحقيق فى الاحكام الشرعية واجرائها على طبق الشرع الشريف وقسم هدايا جزيلة على العلماء ثم ظهر بعد ذلك انه انما يريد انتزاع الاوقاف السلطانية من ايدى الناس الذين استولوا عليها بالفرغات الشرعية فلم يمكنوه من ذلك (39) ٠

اكتفى المؤرخ دحلان بايراد هذا الخبر ولم يأت على ذكر اى من اعمال حسيب باشا الاصلاحية او حتى اشارة اليها ولعل له فى ذلك عذره فكثير من مؤرخى تلك الفترة لايهتمون الا بذكر الوقائع ٠ هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فانه من المعروف ان دحلان كان مؤرخ الخاصة من الاشراف والسادة ، وبما ان الاخرين كانوا ممن وضعوا ايديهم على الاوقاف كما سنلاحظ فيما بعد فانهم كانوا أكثر القوم معارضة لاى اصلاح لا يخدم لهم مصلحة ٠ وكحل

---

(36) خلاصة قرار مجلس المعارف وثيقة رقم 11699 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(37) خلاصة الكلام فى بيان امراء البلد الحرام المطبعة الخيرية القاهرة 1305 .

(38) المصدر السابق ص 315 .

(39) حسيب باشا الى الصدر الاعظم وثيقة رقم 11299 بدون تاريخ ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

لمشكلة القيادات الوقفية التى آلت الى البعض بطريق الشراء وصعوبة متابعة تسلسل انتقال تلك العقارات من مالك الى آخر وخشية الحاق الضرر بالمالك الاخير ورغبة فى تعويضه فقد لجأ الوالى يعاونه المجلس الى طريقة تعويض المالك الاخير على اساس مدة التصرف وما استوفاه من اجور واعطائه الثلث او الثلثين تعويضا بل وكاملا لما يكون الادعاء مدعما ومتوافقا مع الشرع الشريف (39) .

وظهر بعض المعارضين لاجراءات الوالى وقرارات المجلس المتعلق منها باستعادة الاوقاف من ايدى المتنفذين ، فلقد اشار حسيب باشا فى تقريره الى الصدر الاعظم الى المعارضة دونما ذكر لاسماء قادتها . بل وصفهم بالذوات حيث قال «تم لنا فى ظل السلطان ذو الخير ان استرجعنا دون كلفة من ايدى بعض الذوات والاشخاص الذين كانوا قد تغلبوا على الاثار الخيرية ونزعناها منهم وارجعناها الى اصولها دون مراعاة للخواطر والمشاعر» (40) ولكن احمد زيد دحلان ذكر اسماء بعض المعارضين وذكر من ضمنهم مفتى مكة السيد عبد الله المرغنى والذى قال ان الباشا عزله بسبب معارضته وقلد منصب الافتاء للسيد محمد الحنفى (41) ....

بينما الوثائق التى بين ايدينا تذكر ان قاضى مكة حينذاك هو السيد عماد الدين والسيد محمد الكتبى من كرام العلماء وكليهما اعضاء فى المجلس اما المرغنى فكان مفتيا للاحناف واسمه محمد (42) وليس عبد الله كما ذكر دحلان الا ان يكون ميرغنى آخر .

ومهما يكن من امر فالمعارضة قد بلغت اشدها كما يذكر دحلان عندما اراد الوالى ان يفتح دعوى ضد السيد عبد الله بن عقيل اخى السيد اسحاق شيخ السادة لغرض نزع ملكية دار كان قد بناها الاخير بالقرب من الصفا وهى فى الاساس من الاوقاف السلطانية فدبر السيد عبد الله هذا هروبه من مكة وذهب الى استانبول عن طريق مصر ليشكو حسيب باشا لدى السلطات هناك وبعث الى حزبه من المعارضين فى مكة يستكتبهم عريضة يشكون فيها حسيب باشا الذى تطاول فى حد زعمهم على استعادة الاوقاف التى آلت الى ملكياتهم الخاصة بدعوى الافراغات الشرعية ويذكر دحلان ان حزب عبد الله بن عقيل كتبوا عريضة وبعثوا بها بصفة سرية الى عبد الله هذا ، فى استانبول ليدعم بها دعواه ويذكر دحلان ايضا ان السلطان وشيخ الاسلام امرا حسيب باشا بالكف عن بحث موضوع الاوقاف وابقاء كل شىء على ما كان (43) .

---

(40) المصدر السابق .
(41) خلاصة الكلام ص 315 .
(42) قائمة اسماء الشخصيات اعضاء المجلس وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء انظر الملحق رقم (   )
(43) خلاصة الكلام ص 315 .

اننا لا نعرف سبب عزل حسيب باشا من ولاية الحجاز اذ اننا لم نتمكن من الحصول على كل وثائق فترة ولايته اذ ربما تكشف لنا المزيد من اخبار هذا الوالى المصلح والاسباب الحقيقية لانتقاله او عزله ، كما ان المؤرخ دحلان الذى اورد تفاصيل معارضة السادة لاصلاحات حسيب باشا لم يشر صراحة الى ان سبب عزل حسيب كان مرده شكوى اصحاب العقار فى مكة ، ولكن فيما يبدو ان ذلك واحد من العوامل ان لم يكن الرئيسى منها ٠

على اية حال ، فبالاضافة الى معارضة اصحاب النفوذ لاصلاحات حسيب باشا فقد واجهته مشكلة اخرى وهى توفير المصاريف اللازمة لتمويل المشاريع الخيرية التى قام باصلاحها وباحيائها ٠

بالرغم من ان حسيب باشا تمكن من استعادة بعض موارد الاوقاف التى يعود دخلها للصرف على ما احياه من المآثر الخيرية سواء من حيث تعميرها او اصلاحها او الصرف على الخدمات التى تقدمها هذه المؤسسات ، الا انه اشار الى ان الموارد السنوية لهذه الاوقاف لن تفى بمصاريف اعادة كلما خرب من الاوقاف ، ناهيك عن المصاريف اللازمة الاخرى ٠ وللاسراع فى حل هذه المشكلة طلب حسيب باشا من الصدر الاعظم التوسط لدى السلطان بالصرف على هذه المؤسسات الخيرية من اوقاف السلطان الخاصة «فيكون بذلك بمثابة الواقف الثانى» (44) وامام الضرورة الملحة يلتمس الوالى ايضا من الصدر الاعظم بذل المهمة لدى حضرة السلطان بصرف مبلغ 150 الف قرش من وقفه السلطانى على الحساب ، ويلح على سرعة ارسال هذا المبلغ (45) ٠

كما اشار حسيب باشا الى ان النظام يقضى بألا يصرف مبلغ يزيد عن 2500 قرشا فى الانفاق على الابنية الميرية والوقفية قبل الاستئذان من لدن الصدارة٠

وهنا نجده قد تجرأ وصرف اكثر من ذلك المبلغ ملتمسا لنفسه العذر ، لكونه امام قضية خيرية ، وحيث ان طلب الاستئذان بالصرف مع بعد المسافة يعوزه وقت طويل وعلى حد قوله «الخير لا يؤخر» (46) ٠

اهتمام حسيب باشا بالمواصلات البرية والبحرية بين ولاية الحجاز واستانبول

كانت مسألة البريد بين ولاية الحجاز والعاصمة استانبول مرورا بالقاهرة من القضايا التى طالما شغلت بال حكام هذه الولاية ٠ وكان الطريق المعول عليه هو الطريق البرى لعدم وجود بريد بحرى منتظم بين جدة والسويس ٠ الا ان الطريق البرى لا تضمن سلامته بصفة دائمة بسبب كثرة تعديات القبائل القاطنة على طول الطريق الموصل بين مكة والقاهرة ٠ ومن هنا رأى حسيب باشا

(44) من حسيب باشا الى الصدر الاعظم وثيقة سبقت الاشارة اليها .
(45) نفس المصدر .
(46) وثيقة سبق الاشارة اليها .

بأن انشاء خط بحرى مباشر ومنتظم بين جدة والسويس سيكون له اهميته القصوى لا فى نقل البريد فحسب بل وفى تنشيط التجارة وسهولة انتقال المسافرين والقادمين الى الديار المقدسة من اجل الحج • بالاضافة الى اختصار زمن الرحلة بين مصر والديار المقدسة وكذلك ما فيه من امن وسلامة لارواح المسافرين وضمان اموالهم ورواج تجارتهم • وذكر حسيب باشا فى تقرير مفصل بعث به الى الباب العالى تناول فيه الاهمية القصوى التى تشكلها المواصلات فى حياة الامم ورقى الشعوب وسهولة الاتصالات بين العاصمة والاطراف (47) واشار انه عندما وصل الى مقر الولاية تذاكر مع شريف مكة المكرمة ومع سلفه شريف باشا فى الشؤون والقضايا الحجازية فادرك الجميع جسامة هذه الولاية واهميتها وما يتبعها من مناطق كثيرة • وان الكثير من القضايا لا يتم البت فيها الا بعد التشاور مع الحكومة فى استنبول • وبذلك اضحى من الضرورى تسهيل وصول المخابرات فى الامور المهمة والتى لا تقبل التأخير • وأورد امثلة اخرى لاهمية البريد للربط بين مقر الولاية والمناطق التابعة لها مثل موانىء مصوع وسواكن وبربره وزيلع ، لا سيما وهذه الجهات البعيدة تواجه تحديات كثيرة نتيجة للتدخلات الاجنبية ، الامر الذى يجعل سرعة الاتصالات مع محافظى هذه المناطق مطلبا ضروريا سواء فيما بينهم وبين مقر الايالة فى جدة ، او بين جدة واستانبول فى حالة ضرورة ابلاغ الحكومة بوقائع تلك الجهات (48) •

واشار حسيب فى تقريره الى ان نخبة من تجار مدينة جدة سبق ان تقدموا بطلب الى شريف باشا الوالى السابق يطلبون منه الترخيص لهم باقامة مؤسسة استثمارية تقوم على تسيير خط بحرى يربط بين جدة والموانىء المصرية وغيرها ، ولدى تشاور شريف باشا فى هذا الخصوص مع عباس باشا فى مصر اجاب الاخير معتذرا ان ايجاد مثل هذا الخط يعطل امر نقل «الذخائر»(49) وعلق حسيب باشا على موقف والى مصر تجاه طلب تجار جدة «انه مجرد تملص» (50) •

---

(47) وضرب مثلا ببريطانيا التى تملك اسطول بحرى ضخم يحمل البريد والتجارة ويربط الامبراطورية بعضها مع بعض حيث قال «ان وجود عدد من البواخر (الخاصة) فى جدة ، باى وجه كان . وفى ظل حضرة السلطان ، انما هو من الموجبات العالية للشنآن والشوكه ، عدا ما تؤمنه للممالك من الفوائد والمحسنات العديدة ... ان دولة انجلترا لها العديد من البواخر التى تتراوح قوتها بين 400 ــ 500 حصان تمخر البحر بين السويس وعدن ومنها الى سواحل الهند وهى تجول بالتنقل والرسو فى سيلان وكلكتا وبومباى وهى فى كل شهر تدفع باخرتين متتابعتين ، فى هذا الخط متخذة منعا واسطة بريد فى حين تدع بعض البواخر فى موقف الاهبة الاحتياطية ، وعلى هذا الوجه فانها تحصل فى كل شهر ، مرتين ، على اخبار واحوال ملكها» . انظر التقرير المفصل الذى اعده حسيب باشا بدون تاريخ وثيقة رقم 11299 ارشيف رئاسة الوزراء •

(48) حسيب باشا الى الصدر الاعظم تقرير مطول مكون من اثنى عشر بندا •

(49) المصدر السبق ويقصد بالذخائر هنا المواد التموينية لولاية الحجاز •

(50) المصدر السابق •

لم يرق لحسيب باشا ان يرى فكرة اهل جدة البناءة تموت فى مهدها ولم يدع الفرصة تمر دونما اثارتها من جديد ، فدعى تجار جدة الى اجتماع وطلب منهم زيادة الايضاحات عن مشروعهم فكان جوابهم ان مشروعهم كان الهدف منه تخصيص باخرة بقوة 200 حصان او بالقوة التى تتفضل الحكومة بتحديدها وتكون على هيئة مؤسسة (شركة) وتستورد الباخرة شراء من الهند وتخصص للقيام برحلتين فى كل شهر فيما بين جدة والسويس وتتولى مهمة نقل الحجاج فى الفترة ما بين شهر رجب وشهر ذى الحجة وقالوا انهم لن يطالبوا باجرة محددة لنقل البريد (51) .

ويرى حسيب باشا انه اذا ما توفرت باخرة او اثنتان مو البواخر الكبيرة وبقوة 300 ــ 400 حصان للعمل بين جدة والسويس وبشكل منتظم فانها ستقطع المسافة بين هاتين المدينتين فى مدة تتراوح ما بين 3 الى 4 أيام . واذا ما توفرت وسائط النقل السريعة فى ما بين السويس والاسكندرية فان البريد القادم من الحجاز الى استانبول عن طريق الاسكندرية سيصل فى فترة لا تزيد عن 14 ــ 15 يوما وهى فترة اقصر اذا ما قورنت بالمسافة التى تقطعها الباخرة المصرية الصغيرة والقديمة والوحيدة العاملة بين جدة والسويس وهى بقوة 60 حصان والتى تستغرق فى رحلتها من جدة الى السويس ما بين 20 ــ 25 يوما (52) .

اما ما يتعلق بكيفية مكان وشراء البواخر اللازمة للعمل فى البحر الاحمر ، فقد حدده الوالى فى ثلاث جهات الجهة الاولى مصر الا انه نبه الى ان انشاء او تصنيع السفن فى مصر يعوزه الاخشاب اللازمة والحديد المصنع . ولهذين السببين ستكون كلفة تصنيع السفن فى مصر غالية نسبيا اذا ما قورنت باسعار السفن المصنعة فى انجلترا ، المكان الثانى المقترح لشراء هذه السفن . ولكن الوالى اوضح ايضا ان شراء السفن من انجلترا لا يخلو من المصاعب اهمها البعد والابحار من هناك الى جدة وخاصة كبيرة الوزن منها وهى ما تزيد حمولتها عن 500 حصان .

اما المكان الثالث والاكثر ترجيحا فهى الهند حيث يوجد بها صناعة سفن متقدمة . وقد نمى الى علم الوالى بانه يصنع بها اجود انواع السفن وباحجام مختلفة . وقد اكد له هذا ، التجار الهنود المقيميون فى جدة والمترددون عليها وايدهم فى ذلك رئيس المهندسين الانجليزى فى ترسنه «الحوض الجاف» فى السويس . وتقدر اسعار الواحدة من السفن المرغوبة ما بين 2000 ــ 2500 كيس . اما ما يلزم هذه البواخر من الوقود (الفحم) ومقدار الكمية التى

---

(51) المصدر السابق .

(52) تقرير حسب باشا الى الصدر الاعظم سبقت الاشارة اليه .

تحتاجه في الساعة فيسحدده حجم تلك البواخر ، والمسافة بين جدة والسويس والتى تبلغ650 ميلا بحريا (53) ٠

أما اسعار الوقود اللازم لبواخر جدة فقد اشار حسيب باشا الى ان قيمة الاقة من الفحم المستورد من انجلترا عن طريق الاسكندرية فلتبلغ قيمة الاقة من السويس ـ والذى يصل اليها من الاسكندرية بواسطة المراكب الصغيرة ـ ما بين 15 ـ 20 بارة للاقة الواحدة وما يباع من هذا الفحم للسفن المصرية لا تزيد قيمة الاقة عن 10 بارات ٠ ويأمل الوالى ان تطبق هذه التسعيرة الاخيرة على السفن التى ستخصص لولاية جدة كما دعى الى انشاء مخزن للفحم فى مدينة جدة (54) وقدر حسيب باشا ان الاحصاء السنوى يشير الى ان عدد الذين يعتمدون السفر بطريق البحر بين جدة والسويس يزيد عن 10 آلاف راكب سنويا ٠

وبهذا نستدل على ان حسيب باشا قد قام باعداد مشروع متكامل من جميع نواحيه للنقل البحرى بين موانىء البحر الاحمر ٠ وان كان لم يتحقق فى عهده كلما اراده فقد تحقق شيء منه فيما بعد (55) ولحسيب باشا فضل الريادة فى التفكير ورسم الخطط لهذه المشاريع التنموية والاصلاحية الهامة ٠

البريد البرى

لم يخبرنا حسيب باشا عن النظام او الطريقة التى كان يسير عليها البريد البرى بين ايالة الحجاز ومصر ومن ثم من هناك الى استانبول ، وذلك فى الفترة السابقة لتوليه ولاية الحجاز ٠ كذلك المصادر التى تم الاطلاع عليها لم تشر ايضا الى هذا الموضوع ٠ بيد ان هذا الطريق ـ اى الطريق البرى لنقل البريد ـ وكما اشرنا اليه من قبل ، هو الطريق المعول عليه فى نقل البريد بين ولاية الحجاز والعاصمة استانبول ٠ وبما ان البريد البحرى الذى تحدثنا عنه سابقا ما زال مجرد فكرة طالب الوالى حسيب باشا على ضرورة تطبيقها ٠ لذلك لم يكن امام الوالى والحالة كذلك ، الا ان يوجه اهتمامه الى العناية بالبريد البرى وجعله منتظما طبقا لقواعد واصول اتى على ذكرها بالتفصيل فى دفتر حول هذا الخصوص قدمه الى الباب العالى انظر صورة الدفتر فى الملتحق رقم وبما ان بريد ولاية الحجاز المرسل الى عاصمة الخلافة يمر عبر الاراضى المصرية،

---

(53) تقرير حسيب باشا المفصل الذى سبق الاشارة اليه .
ذكر محمد رفعت فى كتابه مرآة الحرمين جـ 1 ص 15 مصدر سبق الاشارة اليه ان المسافة بين السويس وجدة تبلغ 642 ميلا ، وقطعتها باخرة المحمل المصرى فى عام 1317/1901 فى 66 ساعة .

(54) المصدر السابق .

(55) انظر محمد عبد الله آل زلفه ميزانية ولايتى الحجاز واليمن لعام 1283 ـ 1866 المجلة التاريخية المغربية السنة الثنية عشر العدد 39 ـ 40 ديسمبر 1985 ص 341 ـ 361 .

فقد قام حسيب باشا بالتنسيق مع والى مصر فيما من شأنه سلامة وامن البريد الحجازى والاتفاق مع السلطات فى ولاية مصر على تحديد مسار البريد ومحطاته فى اراضى كل من الولايتين (56) • وبموجب هذا التنسيق قسم طريق البريد بين ايالة الحجاز والقاهرة الى قسمين ، القسم الاول ويبدأ من مكة المكـرمة وينتهى فى قلعة الوجه الحد الادارى لولاية الحجاز من جهة الشمال وهذا الجزء بدوره ينقسم الى تسع محطات على النحو التالى :

المحطة	عدد المنازل	المسافة بالساعات
مكة ـ عفان	I	8
عفان ـ خليص	I	7
خليص ـ رابع	I	8
رابع ـ مستوره	I	6
مستوره ـ	I	8
	I	3
	I	3
ينبع البحر ـ حوراء	3	I8
حوراء ـ قلعة الوجه	3	I8
	I3	83 ساعة

ومن قلعة الوجه الى القاهرة رتب البريد على النحو التالى مرورا على المحطات التالية :

المحطة	عدد المنازل او المراحل	المسافة بالساعات
قلعة الوجه ـ مويلح	4	20
مـويلـح ـ العقبـة	5	25
العقبـة ـ الطـور	3	I8
الطـور ـ عميـر	3	I8
عميـر ـ مـصـر	3	I8
	I8	99

وخصص لنقل البريد ثلاث من الهجن مع ثلاثة من الهجانة وخصص لكل هجان (اى ساعى البريد) معاشا شهريا قدره I25 قرشا مع مصاريف طعام يومين قدره 22،5 قرشا ولكل هجين I32 ثمن فول • واصدر حسيب باشا اوامـره

(56) انظر صورة من الخطاب الذى بعث به حسيب باشا الى والى مصر عباس باشا بدون تاريخ وثيقة رقم II299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

الى رؤساء العشائر وموظفى الدولة على طول الطريق بمساعدة رجال البريد وتسهيل مهمتهم كما طلب من السلطات المصرية ان تفعل ذلك فى حدود الولاية المصرية (57) .

ومن الملاحظ ان البريد يمر بنفس الطريق الذى يسلكه محمل الحج المصرى. وقد ورد فى دفتر البريد الذى اعتمدنا عليه فى معلوماتنا هذه معلوماتنا هذه مقارنة المدة الزمنية التى يقطع البريد خلالها المسافة بين الحجاز ومصر فنجد ان البريد يقطع المسافة من مكة الى قلعة الوجه فى خلال 83 ساعة بينما يقطعها المحمل فى 192 ساعة . ومن الوجه الى القاهرة يقطعها البريد فى 99 ساعة اما المحمل فيستغرق لقطعها 224 ساعة . انظر الملحق رقم .

اهتمام حسيب باشا بالناحية الامنية لولاية الحجاز

اهتم حسيب باشا بأمن ولاية الحجاز على الصعيدين الداخلى والخارجى : فعلى الصعيد الداخلى ، كانت ولاية الحجاز تواجه مشكلة تعديات القبائل على الطرق الرئيسية وخاصة طريق الحج الشامى والمصرى ، حيث تقطن قبائل حرب وجهينة وبنى صخر وغيرها من القبائل وكانت الدولة تعانى مشكلة كبيرة فى ادخال هذه القبائل تحت الطاعة او على اقل تقدير ربط رؤساء هذه القبائل باتفاقيات تتعهد الدولة بموجبها دفع مبالغ واعطيات سنوية الى هؤلاء الرؤساء مقابل الحصول على امن وسلامة الحجاج والمسافرين والعابرين من اجل التجارة وغيرها .

وتبرز مهارة الوالى ونجاحه فى ادارة شؤون الولاية اذا تمكن من حل هذه المعضلة ويتفاوت الولاة فى الوسائل التى ينتهجونها لمواجهة مشكلة تعديات القبائل والحديث عن هذا الموضوع جدير بأن يخصص له دراسة مستقلة ، على اننى سأتحدث هنا على حسيب باشا وكيف تعامل مع هذه القضية المزمنة التى طالما غزل باسبابها ولاة كثيرون بل ادت فى فترة من الفترات الى سقوط احد الصدور العظام .

من المؤكد ان خبرة حسيب باشا الطويلة كناظر للاوقاف والخزانة معا ، جعلته بحكم اهتمام هاتين الجهتين باحوال الحجاز بأن يكون على اطلاع جيد باحوال القبائل البدوية والخطورة التى تكونها على امن الاراضى المقدسة وزوارها . فاسقط من حسابه التفكير فى استخدام القوة لمواجهة مشكلة القبائل ، اذ ان القوة فى كل الظروف لا تجدى ، ووجد ان من المصلحة التفاهم مع رؤساء هذه القبائل بالتى هى احسن ، فدخل فى مراسلات مع رؤساء هذه

(57) صورة الخطاب الموجه من حسيب باشا الى والى ايالة مصر عباس باشا وثيقة سبقت الاشارة اليها

العشائر وخاصة المهمة منها وهى قبيلة حرب ذات الفروع والفخوذ المتعددة (58) والتى تتحكم فى الطرق التى تربط بين مكة المكرمة والمدينة المنورة .

وكان على رأس هؤلاء المشايخ الشيخ سعد بن جزا شيخ الفرع الاكبر والاقوى من قبيلة حرب ، وهى قبيلة الاحامدة وكان قد منح لقب شيخ المشايخ، وتستوطن قبيلة الاحامدة المذكورة بالقرب من ممر الجديدة المشهور (59) .

وقام الشيخ سعد بن جزا الذى استماله حسيب باشا الى جانبه ، بدور الوسيط بين السلطة فى ولاية الحجاز وبين بقية رؤساء الفروع الاخرى من قبيلة حرب ، الذين كان الوالى قد بعث اليهم برسائل منذ الشهر الاول لوصوله الى جدة بواسطة الشيخ سعد المذكور ومحافظ مدينة رابغ (60) وقد انهالت على الوالى رسائل من الكثيرين من رؤساء قبيلة حرب ردا على رسائله التى بعث بها اليهم يعلنون فيها عن اعطياتهم السنوية فمن الرسائل التى وصلت الى حسيب باشا من الرؤساء بواسطة الشيخ سعد بن جزا رسائل من الشيخ

---

(58) من اهم فروع قبيلة حرب :
(1) الاحامدة وشيخهم سعد بن جزا وهو من اهل بل ومن اكبر شيوخ حرب وكان يخص بالاعطيات والهدايا من الدولة العثمانية ومن ولاة مصر . ويقدر عدد افراد هذه القبيلة عام 1854 بـ 3500 رجل .
(2) الحوازم وينقسمون الى مزينى وزهيرى وعددهم حوالى 3000 .
(3) صبح وهم بالقرب من بدر وعددهم 3500 .
(4) السلامية وواحدهم سليمى ويسمون ايضا أولاد سليم .
(5) سعادن وواحدهم سعدانى .
(6) المحاميد وواحدهم محمدى ــ 8000 رجل تقريبا .
(7) الرحلة وواحدهم رحيلى 1000 رجل تقريبا .
(8) تمام وواحدهم تميمى .
(9) مسروح وهى من الفروع الكبيرة لحرب وتنقسم الى قسمين عوف وبنى عمر وعوف أكبر من بنى عمر وتمتد اراضيها من وادى النقيع قرب نجد الى رابغ والمدينة ومن فروعها السهلى ، سويد ، الرخصة ، غسان ، ربايعة ، خزارة ، لهبه ، فرده ، بنى على ، زبيد قرب مكة المكرمة .

اعتمدت فى المعلومات عن قبيلة حرب هنا على ما ورد فى كتاب الرحالة ريتشارد بيرتون الذى مر عبر بلاد حرب عام 1854 م فى طريقه الى مكة بعد اقل من اربع سنوات من انعزال حسيب باشا من ولاية الحجاز انظر :
Sir Richard Burton, Personal Narrative of a Pilgramage to al-Madinah an Meccah, Vol. 2, New York, N.D. P. 120.

(59) فى ممر الجديدة هذا تلقت قوات محمد على باشا بقيادة ابنه طوسون هزيمة نكراء على ايدى القوات السعودية بقيادة عبد الله بن سعود وذلك فى عام 1811 م فبالاضافة الى اهمية هذا الممر الاستراتيجية فانه اصبح له شهرة منذ حدوث هذه الواقعة انظر من اخبار الحجاز ونجد فى تاريخ الجبرتى تأليف محمد اديب غالب دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر 1395/1975 ص 130 ــ 131 .

(60) ذكر محافظ رابغ فى تقرير بعث به الى حسيب باشا بانه بعث بالرسائل التى بعث بها الوالى الى كل من مشايخ عربا مسروح والحوازم ، الشيخ سعد بن ربيق وعوده العويد وهنيدى المريبطى ورافد اليحى وعواد العميرى واولاد عبد الله والشيخ سعد ابو ربعة والشيخ موقد الطرسى والشيخ عمران الجربوعى . وثيقة رقم 11299 تاريخ 6 ربيع الاول 1265/1848 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء . انظر نص الوثيقة فى الملحق رقم .

عامر بن وصال (61) من كبار مشايخ الاحامدة والشيخ عبد الله بن مطلق (62) من كبار المشايخ ايضا ومن الشيخ نصير بن نصار من المشايخ المعدودين بقبيلة الحوازم ورسالة من الشيخ زيد بن محمد وابن اخيه فهيد واللذين لم يرضخا لسلطة الدولة منذ ثلاث سنوات ووصفا بانهما كانا منبع الفساد . وقد اتضح للوالى ان اسباب خروج هذين الشيخين على السلطة وتعدياتهم بسبب انقطاع مرتباتهما بامر من الشريف عبد الله باشا وكيل امارة مكة . ولدى استفسار الوالى عن هذا الموضوع من قبل وكيل الامارة المذكور قال منع عنهما الصرف منذ ثلاث سنوات بسبب كثرة تعدياتهما على الطرق .

كما وردت الى حسيب باشا رسالة من الشيخ طامى بن زيارة شيخ قبيلة بنى عمر من حرب يجدد فيها طاعته للدولة ويطلب اعادة صرف اعطيته السنوية التى قطعت بدون ما سبب يعرفه . ولعل من طريف ما ورد فى رسالة هذا الشيخ اخبار الامطار التى عمت البلاد فانعم الناس بالخيرات ونزلت عليهم السكينة ورخصت الاسعار (63) .

ومن الجدير بالملاحظة بان قلة الامطار وشدة الجفاف وقسوة الطبيعة وانقطاع الامطار كلية فى بعض المواسم وما ينجم عنه من هلاك مواشى هذه القبائل البدوية من هذه الانحاء كل هذه الظروف مجتمعة هى المسببات الرئيسية التى كانت تدفع بالقبائل الى تعديها على الحجاج او اخذ رسوم عليهم اثناء مرورهم باراضيهم او رفع اجور وسائط النقل لانه فى ظل مثل هذه الظروف القاسية التى كانت تعيشها قبائل حرب وغيرها لم يبق لهم امل فى مصدر آخر للرزق غير ما يحصلون عليه من الحجاج وكانت الناس هناك تستبشر خيرا بمقدمهم واصبح من امثالهم قولهم «رزق حرب على الحاج ورزق الحاج على الله» .

ولم تكن السلطات فى ولاية الحجاز تهتم بشؤون القبائل خاصة اذا ما تعرضت لمثل هذه الظروف الصعبة ، فلم يحدث ان وفرت لهم فرص للعمل كتوظيفهم للخدمة العسكرية فى الولاية مثلا او غيرها من الاعمال او تشجيعهم على العمل الزراعى والاستقرار فى اماكن ثابتة (64) ، بل فى احسن الاحوال اكتفت

(61) من عامر بن وسال الى حسيب باشا بتاريخ 28صفر 1265 هـ وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(62) من عبد الله بن مطلق الى حسيب باشا بتاريخ 27 صفر 1265 هـ وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء ولعل زين العابدين هذا اما محافظ رابغ او محافظ المدينة المنورة .

(63) من طامى بن زيادة الى حسيب باشا بتاريخ 25 صفر 1265 هـ وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(64) كانت اول محاولة من الدولة العثمانية لنشر الوعى بين قبائل الحجاز من خلال برنامج محو امية وتشجيعهم على الاستقرار والعمل الزراعى وذلك فى عام 1285 هـ / 1868 م حينما بعثت ولاية الحجاز بمائة وخمسة عشر معلما من شيوخ وفقهاء مكة المكرمة الى مناطق متعددة فى الولاية المأهولة بالسكان من القبائل خاصة تلك المحيطة بمكة لغرض تعليمهم القرآن ومحو

الولاية بصرف مخصصات سنوية نقدية وعينية بسيطة لرؤساء هذه القبائل والذين نلحظ تصاعدا فى اعدادهم طمعا فى الحصول على تلك الاعطيات وهذا بدوره ادى الى ضعف العلاقة بين الرؤساء الكبار والرؤساء الصغار وبالتالى خروج من لا تصله الاعطية عن الطاعة وذلك بتعديهم على قوافل الحجاج والتجار (65) كما ان بعضا من مشايخ القبائل لم يكتفوا بالكتابة الى الوالى بل ذهبوا اليه بانفسهم بعد أن وثقوا منه بالامان مثل مشايخ «الهيه» وهم فرع من حرب ايضا حيث قدموا اعتذارهم عن تعدياتهم على الحجاج وسلبهم بعض امتعتهم وتعهدوا بالامتناع عن القيام بمثل هذا العمل مستقبلا وأخذت عليهم مواثيق بعدم العودة اما اولئك المشايخ الذين لم يتمكنوا من الحضور الى مقر الولاية بجدة بسبب بعد المسافة ، فقد التقى بهم فى المدينة المنورة واخذ منهم ضمانات تعهدوا بموجبها بسلامة طريق الحج ووزع عليهم كساوى هى عبارة عن شالات واردية (66) ٠

وفى عهد حسيب باشا ارتفع عدد الكساوى التى توزع على الاعيان وكبار القوم فى كل عام مع قدوم الصرة السلطانية السنوية (67) ٠

وصول الصرة السلطانية من المواسم الهامة التى تحتفل المدن المقدسة وسكان الحجاز عامة بمقدمها وتقال فى هذه المناسبة الاشعار وتلهج القلوب الى الله دعاء بطول عمر السلطان ولها مراسم عظيمة حين قدومها الى المدينة (68) ويرأسها شخصية هامة من رجال بلاط السلطان ويسمى امين الصرة ويفترض فيه الصدق والاخلاص والامانة والعطف والمبرة بالفقراء ٠

ولكن من الطريف ان حسيب باشا المعروف بصراحته وعدم مجاملته رفع الى الصدر الاعظم يلفت انتباهه الى عدم نزاهة امين الصرة السلطانية والمدعو مصطفى وانه رجل مشكوك فى امانته حيث قال ٠٠٠٠ وقد بدر منه انحراف فى امانته اذ قدم لحضرة صاحب الدولة والسيادة الشريف «الفروة» المعتاد ارسالها من قبل السلطان فكانت لا تليق بسيادته ولا يستحسن اظهارها

اميتهم . وقد ادت هذه المحاولة ثمار طيبة عادت بالنفع على السكان وعلى الولاية حيث هذبت اخلاق العربان وحببت اليهم العمل والاستقرار مما ساعد على تحسين وضعهم ورفع طاقتهم الانتاجية من خلال العمل الزراعى انظر الوثيقة رقم 568 شورا دولت لفة 4 وهى تحتوى على دفتر يوضح اسماء المعلمين واسماء المناطق المعينين بها وللمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر ايضا الوثيقة رقم 578 شورا دولت لفة 2 بتاريخ 16 شعبان 1285 هـ وايضا نفس الوثيقة لفة 1 بتاريخ 17 شوال 1285 هـ ولفة 5 بتاريخ 24 شوال 1285 هـ ولفة 3 بتاريخ 27 جماد الثانية 1285 هـ من محفوظات ارشيف رئاسة الوزراء . انظر كذلك مرآة الحرمين تاليف ايوب صبرى استانبول 1302 جـ 4 ص 1027 وما بعدها .

(65) سعد بن جزا الى حسيب باشا بتاريخ 28 صفر 1265 هـ وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(66) حسيب باشا الى الصدر لاعظم بتاريخ غرة جماد الاولى 1265 هـ وثيقة رقم 11034 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(67) حسيب باشا الى الصدر الاعظم بدون تاريخ وثيقة رقم 11299 سبق الاشارة اليها .

للعيان ، وعدا ذلك فانه غير وبدل الخلع والصرر الخاصة بالمشائخ والعربان ووزع الاعطيات على اهل الحرمين بكلمات عديمة الوفاء وبذلك جرح قلوب الغرباء والفقراء والذين يغتنم دعاءهم من الذوات وتجرأ على ارتكاب العديد من الامور غير اللائقة .

وكذلك فقد كان الحاج احمد اغا الذى كان فى السنة السابقة امينا للصرة رجلا متقدما فى السن فى شيخوخة متهالكة ولذلك احال اموره على معتمده (كتخدا) الذى ارتكب ما لا يليق . ولذلك نأمل ان تتفضلوا بتعيين السادة المجربين بعد الآن لهذه المهمات وتزويدهم بالوصايا اللازمة والاوامر والتنبيهات (69) وقد عين ابراهيم ادهم وقد وصف بانه من اهل التجربة والعفة امينا للصرة لموسم عام 1266 هـ كما اوصى مجلس «والا» بمراعاة اختيار امناء الصرة السلطانية فى المستقبل من ارباب التجربة والامانة (70) وبهذا اصبحت احوال الامن فى ولاية الحجاز فى حالة جيدة وعم الناس حالة من الرضاء العام والشعور بالطمأنينة وقد وصف حسيب باشا حالة الامن فى مكة المكرمة بقوله «عم الناس فى مكة المكرمة صلاح الحال حتى ان اصحاب الحوانيت يتركونها غير مغلقة لما يقصدون الحرم الشريف لاداء الصلاة ويعودون الى حوانيتهم دون ان يفقد منها اقجه» (71) .

ومن الجدير بالاشارة ـ طالما الحديث عن امن طرق الحج ـ الى ان طرق الحج العابرة من خلال اراضى امارتى نجد وعسير المحيطتين بولاية الحجاز من الشرق والجنوب حيث يعبر من خلال اراضى نجد الحجاج القادمون من العراق وشرق الجزيرة العربية وبلاد فارس بينما يعبر بلاد الثانية طريق الحج اليمنى، تعد اكثر امانا واكثر انضباطا من تلك التى تمر فى اراضى ولاية الحجاز خاصة للقادمين من الشام ومصر .

---

(68) جمع احد كتاب الصرة السلطانية ويدعى حسن الوسنوى فى السنوات ما بين 1234 ـ 1238 مقتطفات من قصائد شعرية تكتب على دفاتر الصرة عند تسلمها من قبل المسؤولين فى المدينة المنورة حيث يقول «ومن القاعدة القائمة من قديم فى كل عام بالخصوص ، تأتى من الدولة العلمية دفاتر سلطانية وعلى ما قل وجل فيها منصوص ، واذا وردت المدينة المنورة يرسم فيها الكاتب ما يشعر بالوصول بالتمام ويطبعها حضرة القاضى بختمه وحضرة شيخ الحرم ويزينان ابتداءها بحسن الختام» مخطوطة مكونة من 9 ورقات محفوظة فى مكتبة جامعة استانبول تحت رقم 5948 .

(69) حسيب باشا الى الصدر الاعظم بدون تاريخ وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية سبق الاشارة اليها . قام الصدر الاعظم باحضار السيد مصطفى امين الصرة الذى اشار اليه حسيب باشا وذلك لسؤاله من قبل مجلس والا عن اسباب تقصيره فى اداء مهمته ولكنه توفى قبل ان ينتهى التحقيق معه . ملخصات تقارير حسيب باشا لدى الصدارة العظمى الوثيقة الموضح رقمها اعلاه.

(70) المصدر السابق .

(71) حسيب باشا الى الصدر الاعظم بتاريخ غرة جماد الاولى 1265 وثيقة رقم 11034 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

ولدينا رسالتان في هذا الخصوص تتعلق بأمن طرق الحج عبر اراضي هاتين الامارتين واحدة من امير نجد فيصل بن تركي 1843 ـ 1865 واخرى من امير عسير محمد بن عايض 1855 ـ 1871 يقول الاول في رسالته التي وجهها الى والي الحجاز عبد العزيز باشا بتاريخ 7 شوال سنة 1267 هـ «.... غير خافي شريف علمكم ولطيف فهمكم اننا لم نزل مستقيمين في مرضات الله ورسوله ثم سلطان المسلمين باقامة شريعة سيد المرسلين وتأمين سبل الحجاج والمسافرين وامناهم من جميع طغات البادية والمتمردين حتى صار الحج من فضل الله تعالى يمشي من بغداد والعراق والبصرة والبحرين وساحل عمان واقاليم العجم آمنين مطمئنين ونجعل عليهم امير لدفع الاذى عنهم ولنبوادي على الحجاج رسوم رسموها المتقدمين واحتملناها عنهم فامنا البلاد والعباد وسلكا طرق الحجاج والمسافرين ونطعم الفقراء والمساكين ونربي الايتام ونكسي العرايا ونجبر الكسير ونواسي العسير وكل ذلك من فضل الله وامتنانه وحسن توفيقه ورجاء الثواب الجزيل والاجر العظيم من الله» (72) .

أما أمير عسير محمد بن عايض فنلمس اهتمامه البالغ بامن طرق الحجاج في رسالته التي بعث بها الى والي جدة محمد ناحق باشا وذلك بتاريخ 21 ذي القعدة 1273هـ. فيها «.... ولتعلموا علم اليقين بمحبتنا ذوي التسديد الخارجين عن العنف والتشديد واخبارنا ولله الحمد سارة قارة ونحن في الاجتهاد الكلي في تصليح سبل المسلمين وتتبع ارغام المفسدين الذين اولعوا بسفك الدماء وقطع الطرق سيما طريق بيت الله الحرام القاصدين تلك المشاعر العظام مع اقامة الشريعة المطهرة وتجديد الطريقة المنورة» (73) .

ونلمس من هاتين الرسالتين تأثير مدرسة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية من حيث الصدق وشدة العزيمة على ضرب كل متجاسر تسول له نفسه بقطع طرق المسلمين والمسافرين من اجل الحج والتجارة وغيرها .

أمن ولاية الحجاز من الخارج

من المعروف ان ولاية الحجاز ومقرها مدينة جدة ـ وتسمى احيانا ايالة جدة والحبشة ، وتعريف الحبشة هنا من الصعب تحديده. الا انه من الثابت ان المدن الرئيسية والموانيء الكائنة على الساحل الغربي للبحر الاحمر مثل سواكن وطوكر ومصوع وزيلع وهرر وبربره تتبع لولاية جدة وهي فيما اعتقد ما يعبر عنه بولاية الحبشة المرتبطة اداريا وماليا وعسكريا بولاية جدة .

---

(72) من فيصل بن تركي الروالي ايالة جده عبد العزيز باشا بتاريخ 7 شوال سنة 1267 هـ وثيقة رقم 14790 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(73) من محمد بن عايض الى محمد ناحق باشا والي الحجاز بتاريخ 21 ذي القعدة 1273 هـ وثيقة رقم 594 ارادة مجلس مخصوص ارشيف رئاسة الوزراء .

وقد انتقلت ادارة هذه المناطق الى الادارة المصرية فترة استيلاء محمد على باشا على ولاية الحجاز 1811 ـ 1840 واستصدر لابنه ابراهيم فرمانا بتعيينه واليا على جدة وولاية الحبشة (74) . واصبح من الطبيعي ان تعود ادارة هذه المناطق الى الادارة العثمانية التى استعادت نفوذها على الحجاز 1840 . وقد حاول محمد على باشا ان يبقى سواكن تحت نفوذه ويربطها بالخرطوم مقر حكمه فى السودان (75) .

الا ان محاولته هذه واجهت معارضة شديدة من قبل سكان سواكن نفسها الذين طلبوا من والى جدة عثمان باشا ابقاء سواكن تابعة لجدة كما هو الحال منذ بداية الحكم العثمانى (76) وكذلك مصوع بقيت ايضا مرتبطة بولاية جدة.

وبما ان هذين الميناثين لما يكونان من اهمية استراتيجية بالاضافة الى اهميتها الاقتصادية لولاية الحجاز ، اصبحا يتعرضان لمنافسة دولية وخاصة من قبل كل من بريطانيا وفرنسا ، واللتين اتخذتا من هذين الميناثين معبرا الى الحبشة وما يعقبها من بلاد السودان لاغراض تجارية وتبشيرية . لم يقتصر نشاط هذه الدول على النواحى التجارية فقط بل اصبح نشاطها يهدد السيادة العثمانية على الطرف الآخر من البحر الاحمر وبالتالى تهديدا لامن ولايتى الحجاز واليمن معا (77) . وقد ازداد نشاط هذه الدول وتغلغلهم فى المناطق العربية الاسلامية على الطرف الآخر من البحر الاحمر من خلال عقد تحالفات مع بعض قبائل هذه المناطق من ناحية ، وتعاونهم مع حكام الحبشة النصارى ضد سكان هذه المناطق من ناحية اخرى . وتشير المصادر الى ان الادارة العثمانية فى استانبول وافقت على انتقال ادارة مينائى سواكن ومصوع الى الادارة المصرية مقابل مبلغ سنوى مقطوع تدفعه الاخيرة الى خزينة ولاية جدة وذلك فى 19 رمضان 1262 / 12 سبتمبر 1846 م . وهذا لا يعنى ان الدولة العثمانية قد تخلت عن حقها التاريخى فى تبعية سواكن ومصوع لها . بل على العكس من ذلك فقد ابلغ السفير البريطانى فى استانبول السير كاننج فى عام 1848 م (78) .

(74) Henry Dodwell - The founder of Modern Egypt - A Study of Muhammad Ali, Cambridge University Press, 1967. P. 49.

(75) ارتبطت سواكن اداريا بلسودان فى الفترة ما بين 1246/1830 و 1249/1833 ثم عادت تبعيتها الى جدة بعد ذلك انظر عريضة سكان سواكن الى والى جدة عثمان باشا بتاريخ 14 ذى القعدة 1258 هـ وثيقة رقم 2432 لفة 4 مسائل مهمة دفتر جدة ارشيف رشاسة الوزراء استانبول .

(76) المصدر السابق .

(77) الوثيقة السابقة وانظر كذلك محمد صالح ضرار ، تاريخ سواكن والبحر الاحمر ، الناشر الدار السودانية للكتب ، الخرطوم 1401 / 1981 ص 64 .

(78) (1) Sven Rubenson - The Survival of Ethiopian Independence. London, 1978, P. 116.

انظر ايضا شوقى الجمل سياسة مصر فى البحر الاحمر ، القاهرة 1974 م ص 420 وتجدر الاشارة الى ان محمد على باشا لم يتمكن من ابقاء سواكن تحت سلطته طوال فترة ولاية عثمان

ادرك حسيب باشا ازدياد النفوذ الاجنبى فى هذه المناطق ويعتبر اول من تنبه الى هذا الخطر المحدق بولاية الحجاز فسارع فى الكتابة الى الباب العالى يدعوه الى ضرورة عودة تبعية سواكن ومصوع وغيرها من المناطق على الساحل الغربى للبحر الاحمر لولاية جدة وادخال ما لم يدخل من قبائل هذه الجهات تحت الحماية العثمانية (79) وقد اشار فى خطابه الى الباب العالى انه تذاكر مع المسؤولين المصريين فى هذه الخصوص اثناء مروره بمصر فى طريقه الى جدة فقوبلت فكرة عودة سواكن ومصوع الى ايالة جده بعدم الرضا من قبلهم(80) ولكنه يرى ان الادارة المصرية لم تعد قادرة على ضبط امور هذه المناطق واحلال السلام بها وابعادها من الخطر الاجنبى الذى طالما وجد الفرص واختلاق المعاذير للتدخل فى شؤون هذه المناطق ، وذلك من خلال تأجيج الصراع بين القوى المحلية ، الذى زاد من حدته الطريقة التى ينتهجها الحكم المصرى لادارة هذه المناطق . وقد اشار حسيب باشا الى ان الحكم المصرى الغى نظام التعاون او التحالف مع (حريفو) حركيكو الذى كان قائما فى مصوع للمحافظة عليها واحل مكانه نظام عسكرى آخر حدد له مرتبات تقريبية وكان على رأس النظام القديم النائب حسن الذى فر لاجئا محتجا على النظام الجديد الى الرأس على زعيم قبيلة الكبيرة المجاورة لمصوع والذى كان قد دخل هو بدوره تحت الحماية الفرنسية (81) .

ويرى حسيب باشا انه اذا ما عادت سواكن ومصوع وغيرها من المناطق على الساحل الغربى للبحر الاحمر الى الادارة العثمانية المباشرة ومرتبطة بولاية جدة ، فانه يلزم تشكيل قوة نظامية ترابط فى قلاع الموانى ، المذكورة ، وخاصة مصوع ، حيث ينشط التدخل الاجنبى ، يساعدها قوة من المليشيا ، ويرى انه من الافضل تشكيل القوة الاخيرة من سكان هذه الجهات من اصحاب التجربة والاستقامة . ويقترح ان يجلب اعداد من الرقيق من المناطق المجاورة لمصوع والحاقهم بالخدمة العسكرية النظامية التابعة لولاية الحجاز حتى اذ ما تم تدريبهم وتعليمهم حينئذ لا تحتاج ولاية الحجاز الى استخدام امثالهم من مناطق اخرى بل قد تفيض اعدادهم عن احتياج ولاية الحجاز فيرسل بالفائض الى

باشا والى جدة الذى عرف بمعارضته الشديدة لاية هيمنة لمحمد على على هذه الجهات ولكن نرى ان سواكن ومصوع ضمت لهيمنة محمد على بمجرد عزل عثمان باشا والذى كان لمحمد على دور كبير فى عزله ، وخلال فترة شريف باشا الضعيف والشريف محمد بن عون الصديق الخلص لمحمد على .

(79) حسيب باشا الى الصدر الاعظم بتاريخ 5 ربيع الاول 1265 هـ وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(80) الوثيقة نفسها .

(81) الوثيقة السابقة ولزيادة التفاصيل انظر

Sven Rubenson,
Then Survival of Ethiopan Independence. London, 1978, pp. 116-7
Ghada H. Talhami, **Suakin and Massawa under Egyptian Rule 1865-1885** University Press of America, 1979. P. 61.

استانبول او مناطق اخرى ترتأيها الدولة • اما طريقة الحصول على هؤلاء الرقيق فيرى الوالى ان الطريقة الاميركية مثل يحتذى ، حيث تحصل دولة امركيا على آلاف الرقيق سنويا مقابل عينيات زهيدة من الخرز والاقمشة الرخيصة (82) •

واشار فى تقريره الى ازدياد التدخل الاجنبى فى مينائى مصوع وسواكن واقدام بعض مشايخ هذه المناطق الى بيع ما بايديهم من اراض الى الاجانب ، ونبه الى الاخطار التى قد تتعرض لها ولاية الحجاز وامن الاراضى المقدسة من جراء هذا التصرف غير المسؤول ، وانه لا بد من جعل حد لتصرف هؤلاء المشايخ والمسارعة الى ربط بلادهم بولاية جدة وتحصينها بحاميات من الجنود السلطانية • ويختتم تقريره هذا بقوله :

سنولى الاهتمام بالسواحل الحجازية وما هو فى جانب السواحل البرية السودانية بربره ومصوع لنجعل بحر السويس وحتى ذلك المضيق فى البحر الاحمر (بحر الشعاب) وما على جانبيه ــ اليمين واليسار ــ من البنادر والمرافىء والجزر من امان من كيد الاغيار محافظة وممارسة (83) •

ظلت بعض المناطق الكائنة على الطرف الافريقى للبحر الاحمر مثل زيلع وهرر وبربره بعيدة عن نفوذ الادارة العثمانية • وذلك منذ اضمحلال النفوذ العثمانى على اليمن فى النصف الاول من القرن السابع عشر ، واقتصر النفوذ الفعلى للعثمانيين على المدينتين المقدستين مكة والمدينة فقط • لكن نلاحظ اهتمام العثمانيين منذ عودة نفوذهم على ولاية الحجاز 1840 يزداد فى تأكيد شرعية هيمنتهم على كل مناطق نفوذهم السابقة والتصميم على اعادة نفوذهم الفعلى على كل الاجزاء التى كانت تابعة لهم يوما ما • جاء هذا فى وقت ازداد فيه نشاط الدول الاوروبية وخاصة فرنسا وبريطانيا فى العمل على ان يكون لها مواطىء اقدام ومناطق نفوذ فى المناطق المطلة على البحر الاحمر والخليج العربى حيث تمكنت بريطانيا من احتلال عدن فى عام 1839 واتخذت منه قاعدة لتوسيع نفوذها فى المناطق المطلة على البحر الاحمر بقسميه العربى والافريقى•

أما فرنسا فقد اقتصر نشاطها فى بادىء الامر على التجارة والاعمال التبشيرية وممارسة حقها التاريخى فى حماية الروم الكاثوليك فى المشرق ، واقتصر اهتمامها فى مصوع كمركز مهم لتجارتها كما اتخذت منه معبرا الى مسيحى الحبشة وكانت اول محاولة لها فى الاستيطان هى محاولة الاستيلاء

(82) الوثيقة السابقة .

(83) الوثيقة السابقة ، لم يوافق الباب العالى على فكرة حسيب باشا الرامية الى تجنيد الرقيق وذلك خوفا من المحذورات الدولية التى تأتى بريطانيا على رأس الدولة المعارضة لفكرة العبودية ومحاربة تجارة الرق . خلاصات قرارات الباب العالى مصدر سبق الاشارة اليه .

على جزيرة كمران المحاذية للحديدة الا ان والى الحديدة فشل فى محاولتها تلك ووضع حامية فى الجزيرة (84) .

اما المناطق الثلاث المشار اليها اى زيلع وهرر وبربره فقد تنبه حسيب باشا الى اهميتها وتطلعات لاجانب الى بسط نفوذهم عليها فدعى الى المبادرة بضمها تحت النفوذ العثمانى المباشر وقطع الطريق على الدول الاجنبية فى التدخل فى شؤونها مستغلين الصراعات الداخلية بين رؤساء هذه المناطق فكتب فى تقريره المفصل الى الباب العالى عن احوال هذه المناطق والظروف التى تواجهها حيث قال : «كان يحكم مرفأ بربره الكائن خارج باب المندب من البر العجمى قبيلتان احداهما المسماة عيال احمد التى عرضت فى عام 1264/1847 الماضية بيع حصتها الى الحاكم المدعو شوه صاحب حاكم عدن من قبل الدولة الانكليزية، فعارضتها القبيلة الثانية الشريكة معها فى هذا العرض وجرت الفتنة بينهما واتسع الخلاف فكانت معارضة عيال يونس لعيال احمد سببا لتجميد موضوع البيع واستمر الاختلاف والشقاق بينهما اشهرا فانتهز حاكم عدن فرصته فارسل من قبله موفدا على سفينة وصلت بربره حيث قام الموفد بمصالحة القبيلتين ولكن هذا الصلح لم يكن على اساس متين (85) . وقدم لنا حسيب باشا فى تقريره وصفا حيا لاحوال ميناء بربره يقول فيه :

«... مرفأ بربره لا يكون مسكونا طيلة العام لان مرور وعبور السفن فى البحر المذكور (اى خليج عدن) له مواسم معينة فلما يحل موعدها تفد القبائل اليها من حيث ترد السفن العديدة قادمة من اطراف الهند والبصرة ومسقط والمكلا واليمن والجهات الاخرى ماخرة فى البحر آتية آيبة ، والسفن القادمة الى المرفأ تحمل انواع التمور والنقود لتبادل بها المحاصيل الجاهزة اليومية.. الصمغ والمر والصبر والباغة وريش النعام وسمون الماشية والاغنام وهى فى هذا المرفأ وافرة ورخيصة تلبى مطالب الوافدين الذين يحملونها على سفنهم عائدين من حيث يمرون على عدن وهنا لا تستوفى ادارتها اى جمرك (86) معين،

---

(84) زاد نشاط قنصل دولتى بريطانيا وفرنسا عن حده وتجاوز طبيعة مهام وظيفتيهما حينما اقدم القنصل البريطانى على تهريب كميات من الاسلحة عن طريق مصوع وزيلع الى القبائل الحبشية المسيحية بلغت 10 آلاف بندقية و 15 مدفعا وكمية كبيرة من العتاد الحربى ، كما قاما بانشاء ابنية فى مصوع فى حين كانت بواخر بلديهما قادمة ذاهبة فى حركة دائمة تحمل اعدادا من الجزويت والبروتسنانت المبشرين الى النصرانية فى صفوف القبائل الحبشية . انظر تقرير والى ايالة اليمن الى الصدر الاعظم بتاريخ 13 شعبان 1268 هـ / 1851 وثيقة رقم 15844 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(85) حسيب باشا الى الصدر الاعظم بدون تاريخ وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(86) تبنت بريطانيا منذ الوهلة الاولى لاحتلالها لعدن فى عام 1839 م ان اعفت جميع التجارة الواردة الى عدن من الجمارك وبذلك اغرت الكثيرين من التجار بالذهاب الى عدن بتجارتهم تجنبا للضرائب الباهظة التى كان يستوفيها محمد على / كل ما يرد الى الموانىء اليمنية وخاصة مخا من تجارة اليمن الداخلية وخاصة القهوة تجارة اليمن القومية . فنظام محمد على الاحتكارى الذى طبقه فى اليمن اثناء فترة احتلال قواته لها 1835 ـ 1840 قد ادى الى ثلاث نتائج عكسية انتكبت باسبابها اليمن نكبة عظيمة :

على ان السفن الواردة تدفع (الغفارة) لاحدى القبيلتين الآنفتي الذكر ويودى اصحاب السفن لهؤلاء ما جرت عليه العادة من اعطيات تكريما ·

ولما ينتهي الموسم ويتم الوارد يبقى المرفأ خاليا من السفن · اذ تكون القبيلتان والعربان الذين جاؤوا من هنا وهناك للبيع والشراء قد استقروا في سفنهم ومراكبهم التي تمخر في البحر · وهكذا يصبح المرفأ الذي يعج بالوافدين اليه والذين كانوا على انتظارهم خاليا خاويا لا يسكنه احد» (87) ·

أما بندر زيلع الذي يقابل ميناه فخا ويفصل بينهما مسافة يوم واحد ، فقال حسيب باشا انه يتبع لايالة اليمن تحت ادارة الشريف الحسين بن علي حيدر ويتولى المحافظة عليها الشريف المذكور بواسطة بعض التجار الملتزمين له بها ووصفها بانها «بلدة محصنة واسعة العمار محاطة بسور» (88)

كما دخل حسيب باشا في مكاتبة مع من أسمته الوثائق العثمانية بسلطان الحبشة ·

كان الهدف من هذه المكاتبة تذكير هذا السلطان بانه وبلاده تابعين للخليفة العثماني وقد رد سلطان طائفة الحبشة بجواب مع مندوب يدعى الحاج اسماعيل كوندري ، اكد في جوابه هذا بانه من اتباع السلطان العثماني ، وقد وصل موفود سلطان الحبشة الى جدة في الوقت الذي كان حسيب باشا قد انعزل منها وحل بدلا عنه عبد العزيز باشا الملقب بآغا (89) ·

كذلك تناول حسيب باشا مسألة امام عمان الذي ذكر انه دخل في اتفاقيات مع بريطانيا وفرنسا ويخشى ان يجر ذلك الى استيلاء اى من هاتين الدولتين على شيء من املاك الامام · ورغب الامام الانضواء تحت طاعة السلطان العثماني (90) ·

اولا ــ قل اهتمام المزارعين اليمنيين بزراعة البن التي لم تعد مربحة في ظل النظام الاحتكاري فكان محمد علي يفرض اسعار محددة ويقوم هو بشراء القهوة وبيعها بالسعر الذي يناسبه في السوق الدولية .

ثانيا ــ نقل تجارة البن الى عدن تجنبا لاسعار محمد علي المحدودة والبيع في سوق حر بالسعر الدولي بالاضافة الى الاعفاء من الجمارك . فادى هذا الى تنشيط الحركة التجارة في عدن على حساب الموانيء اليمنية وخاصة منها التي كانت لها سمعة دولية بتصدير البن فاصبحت في نهاية حكم محمد علي مدينة صغيرة فقدت شهرتها الدولية .

ثالثا ــ ان التسهيلات البريطانية وتعسف حكم محمد علي الذي لم يكن مهتما اطلاقا بمصلحة وتنمية البلاد انسى المواطن اليمني التفكير في توحيد صفوفه ومجابهة الاحتلال البريطاني لعدن بل اصبح البعض منهم لا يرى فرق بين الاحتلالين بل الانجليزي يمتاز بمغرياته .

(87) وثيقة سبقت الاشارة اليها .

(88) تقرير حسيب باشا سبق الاشارة اليه .

(89) من سلطان الحبشة الى والي الحجاز بتاريخ شعبان 1267 هـ وثيقة رقم 14790 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(90) لم تخضع عمان يوما للحكم العثماني ولكن هذا لا يعني انعدام علاقة بين الطرفين فلقد كان لتظافر جهودها الدور الحاسم في دحض توغل لعمان شأن كبير واضحت قوة ضاربة في بحر

كل هذه الامور اولاها حسيب باشا بالغ اهتمامه وذلك منذ الوهلة الاولى لتسلمه مهام منصبه واليا للحجاز ، سطرها فى تقارير ورفع بها الى استانبول لعرضها على انظار الحكومة هناك لتكون لديهم صورة واضحة وحقيقية للاخطار التى تتعرض لها تلك الاقاليم من الامبراطورية من جراء المحاولات المتكررة من قبل الدول الاجنبية لغرض الاستيلاء عليها متخذين للوصول الى ذلك وسائل وحجج ، تارة بحجة منع بيع الرقيق ، وتارة بحجة نشر الديانة المسيحية بين السكان فى الطرف الافريقى وعلى ضوء ما تقدم دعى الصدر الاعظم الى عقد مجلس خاص (91) وذلك بتاريخ غرة شعبان 1265 / 1849 لمناقشة الاوضاع فى ولاية الحجاز وملحقاتها على ضوء تقارير حسيب باشا واتخذ حيالها عدة قرارات صدرت الموافقة السلطانية باقرارها نلخصها فيما يلى :

أولا : ما ورد بخصوص نشاط قناصل الدول الاجنبية ـ الموصوفين بالمتحابة، اى الصديقة ـ وتدخلاتهم فى المناطق التى اشار اليها والى الحجاز ونشاط جمعياتهم الدينية الرامية الى نشر الديانة المسيحية وحماية قناصل هذه الدول لهم بحجة منع بيع الرقيق • وحيث ان قنصليات هذه الدول اقيمت فى المناطق التى ارتضوها وجعلوها وسيلة لحرية مرور سفنهم التجارية بالاستناد الى الاتفاقيات المعقودة بين الدولة العثمانية وهذه الدول والتى تنص على عدم المساس بذلك فيرى المجلس بما ان الاقدام على مواجهة هذه الامور بالمنع العلنى امر غير ممكن فان من المتوجب على الولاة والموظفين ان يبذلوا قصارى جهودهم وذلك باستخدام وسائل البراعة والمهارة فى مراقبة نشاط هؤلاء الاجانب ورصد حركاتهم وافعالهم وبصورة خفية حتى اذا ظهرت من تصرفاتهم ما يخل بروح الاتفاقيات ووجب الادعاء اذا بأيدينا ملتزمات تدين تصرفات قناصل وموظفى هذه الدول •

العرب والمحيط الهندى ناهيك عن دورها البطولى فى الدفاع عن عروبة الخليج امام غزوات المتكررة وخاصة مهاجمة الفرس للبصرة فى عهد كريم خان زند عام 1773 ـ واضطلاع عمان بالدفاع عن البصرة فى عهد الامام احمد بن سعيد مؤسس الاسرة البوسعيدية الحاكمة فى عمان حاليا ودخول هذا الامام مع السلطان العثمانى فى علاقات بلغت الذروة بين الطرفين وتناولتها فى بحث قدمته فى الندوة السنوية لدراسات الجزيرة العربية التى تعقد سنويا مراوحة بين كمبردج ولندن واكسفورد وذلك فى صيف عام 1984 بعنوان .

Omani-Ottoman Relations During the Reign of Imam Ahmad-Ibn Sa'id (1741-1783).
In the light of recently discovered exchange of letters between the Imam and
The Ottoman Sultan (with special reference to the situation in Basra during
The crisis of the Persian Invasion).
This study will appear in Arabian Studies (Volume 8) which will be published shortly.

هذا البحث تحت الاعداد للنشر .

(91) ينعقد المجلس الخاص برئاسة الصدر الاعظم وعضوية الوزراء المعنيين فى القضية المطروحة للمداولة .

ثانيا : قضية بيع الرقيق . سعت حكومة بريطانيا الى توقيع اتفاقيات دولية تحرم فيها بيع الرقيق وخشية من اعطاء الفرصة للتدخل في الاملاك العثمانية بحجة بيع الرقيق فان المجلس يحض الموظفين والولاة بمراقبة الالتزام بالاتفاقيات الدولية في هذا الخصوص واعلان هذا الامر على مشايخ العرب . مع ان المجلس يدرك ان بعض الدول الاوروبية التي تملك مستمرات في البلدان الحارة ما زالت تستقدم لها الرقيق من الحبشة لتعذر مواءمة مناخ تلك المناطق مع طبيعة سكان البلاد الباردة .

ثالثا : مسألة استمالة امام عمان : أشار المجلس في تقريره الى ان محادثات قد تمت بين شيخ الاسلام وامام عمان حين لقائهما في مكة المكرمة (92) وقد ابدى الامام رغبته في تبعيته للدولة العثمانية «فاذا كان الامام الموحى اليه قد عقد فيما سبق معاهدات تجارية مع انجلترا وفرنسا فكأنه الآن يسير في طريق اخرى ، فازاء هذا يجب النظر الى حمايته من قبل الدولة العليا» (93) وقد اوصى المجلس في الاستمرار في المحادثات مع الامام .

رابعا : دعى المجلس الى اصدار التعليمات الى كل من شريف مكة ووالي ايالة الحجاز بان يكون لهما عيون وبصورة خفية في المناطق المحيطة بالبحر الاحمر وان تكون هذه العيون ممن يعتمد عليهم من سكان القبائل المتوطنة في هذه المناطق . ومهمتهم مراقبة حركات قناصل الدول الاجنبية ونشاطاتهم على ان تدفع لهم اعطيات مالية مقابل عملهم هذا . هذا بالاضافة الى التنبيه على الشريف والوالي المذكورين ببذل اقصى جهدوهما لما فيه حفظ وحماية البلاد العثمانية من الوقوع تحت النفوذ الاجنبي كمثل ما حدث لعدن .

ومن الجدير بالذكر ان عرض رئيس الكتاب تمهيدا لعرضه على السلطان قد اشتمل على فقرة هامة في خصوص عدن والكيفية التي وقعت بها تحت الاحتلال البريطاني وموقف الدولة الثعمانية رسميا من هذا الاحتلال . وقد ورد ما نصه «ان عدن من ممالك الدولة العلية وبصورة ما فان شيخها قد باعها الى شركة الهند الشرقية وان هذا الامر وبأى وجه لم تصدق عليه الدولة العلية ، ولكن حسب الوقت والحال فان امر استخلاصها ذو اشكال» (94) .

---

(92) للاسف لم يشر المحضر الى تاريخ سنة اللقاء ولم يعط تفاصيل عن هذا اللقاء والمحادثات التي تمت فيه اذ ان الكشف عنها سيلقى اضواء جديدة على تاريخ العلاقات العمانية العثمانية التي لا نعرف عنها الشيء الكثير .

(93) الصدر الاعظم الى رئيس الكتاب بتاريخ غرة شعبان 1265 وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(94) الصدر الاعظم الى رئيس الكتاب بتاريخ غرة رمضان 1265 وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

وبهذا نأتى الى نهاية هذا البحث الذى اشتمل على بعض من جوانب تاريخ ولاية الحجاز ومنطقة البحر الاحمر فى فترة تولى حسيب محمد باشا حكم هذه الولاية وهى فترة من اهم الفترات فى تاريخ الولاية ونقطة تحول تاريخى هام من مرحلة سادت فيها المفاهيم التقليدية البالية وما خلفه حكم محمد على من ظلم واضطهاد وتخلف الى مرحلة اخذت روح التنظيمات والاصلاح والدعوة الى المشاركة الجماعية فى اتخاذ القرار تجد لها متنفسا من خلال القيادات المتنورة والواعية حيث كان حسيب باشا اول داعية الى هذه المفاهيم الجديدة فى ولاية الحجاز .

محمد عبد الله آل زلفه
جامعة كمبردج

حياة اللهو وخدمات الخمارات والمقاهي والفنادق في الجزائر في أوائل القرن الثامن عشر

الدكتور المازري بديرة

مقدمـــة

مـازال التاريخ الاجتمـاعي الحديث والمعاصر كشقيقـه التاريخ الاقتصادي للولايات العربية التابعـة للدولة العثمـانية يحتاج الى الكثير من البحث والتحليل والاستنتـاج : البحث اذا كان ممـكنا عن المعلـومات والتعمق في تحليلهـا ومحاولة توظيف النتائج لمعرفة خاصـة اسباب الركود الذي يرجع بعض المؤرخين ظهوره الى بداية الحكم العثمـاني في الوطن العربي (1) والذي تطور الى تخلف المجتمع العربي عن المجتمعـات الصناعية وتولدت عنه اشكاليات التنميـة المعـاصرة .

في هذا الاتجاه من البحث العلمي وبالتحديد في ميدان البحث عن المعلـومات اي الوثائق التاريخيـة المختلفـة المصادر والرصينـة والموثوق بهـا اكتشفت في خزائن الأرشيف السويدي بستوكهـولم ملفا يحمل عنوان «رسائل رفلتيليوس الى اللجنـة التجـارية (بوزارة الخارجية) 1730 — 1732 في قسم الأرشيف المعنون بتركيا : ملحق : الجزائر : ملف 1 — 4 (2) . فمن هو رفتيليوس كاتب هذه التقـارير ؟ وما هو محتواهـا ؟ ولمن هي موجهـة ؟ ولمـاذا كتبهـا ؟ كارل رفتيليوس أول سكرتير كارل رفتيليوس أول سـكرتـير في أول قنـصلية سـويدية انشأت بمدينة الجزائر سنة 1730 بعد توقيع معاهدة «السلام والتجارة والصداقـة» عام 1729 بين السويد والجزائر . والمصادر السويديـة لا تقول شيئا كثيرا عن حيانة اذ تقتصر على أنه بدأ طالبا في جامعـة أوبسالا عام 1708 وبدأ في 12 مارس 1722 كمتربص بالديوان الملـكي للتجارة حيث ثبت في 23 — 7 — 1724 ثم ألحق بدائرة البعثـات الخارجية في 7 — 7 — 1725 وفي 23 — 3 — 1730 عين سكرتيرا في القنصليـة السويديـة بالجزائر التي بقي فيها الى 14 — 3 — 1732 وهي السنـة التي توفيت فيها أرملتـه (3) ولقد ألف كارل رفيليوس كتابا ضخمـا صدر في ستوكهـولم سنة 1737 تحت عنوان «وصف تاريخي وسياسي لمملـكـة ومدينـة الجزائر 1516 — 1732» (4) قـال في مقدمتـه مبينـا دافع تأليفـه له «لقد أتاحت لي اقـامتي برغم قصرهـا في الجزائر

أن أحصل على بعض المعلومات من خلال تجربتي بالتنقل داخل البلاد والاتصال المباشر والنقاش مع السكان العرب والبربر والموريسكيين والأتراك واليهود والأوربيين رأيت من المفيد ان أقدمها الى قراء اللغة السويدية الذين لا يعرفون تأليفا في لغتهم حول الجزائر (5) .

يبدو واضحا ان المؤلف اعتمد في هذا الكتاب فيما عدى قسمه التاريخي على التقارير التي كان بعثها المؤلف سكرتير القنصلية الى «ديوان التجارة» من أوائل 1730 الى أوائل 1732 حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلاقات الإنسانية مثل الحانات والمقاهي ودور الضيافة والمواصلات والبريد (6) والتجارة الداخلية والخارجية الصحراوية والصناعات الحرفية ومداخيل الدولة (7) والعبيد واسرى القرصنة الأروبيين (8) الخ ...

وتقارير رفتيليوس تستجيب لتعليمات الحكومة السويدية التي تطلب من قنصليتها في الجزائر بموافاتها بتقارير ضافية عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الجزائر حتى تعرف مدى تحدي حكومة الجزائر التي تجبرها على دفع ضريبة «معاهدة السلام والتجارة والصداقة» (9).

اذن يبدو من المفيد لجمع المعلومات التاريخية عرضا من كتاب وتقارير كارل رفتيليوس أن نقدم عرضا لوصف رفتيليوس لبعض جوانب الحياة الاجتماعية في الجزائر طوال سنوات 1730 – 1731 .

الخمارات :

تجيز الحكومة الجزائرية اقامة الخمارات العامة خارج سور المدينة . ويتمتع بهذا الامتياز العبيد (اسرى القرصنة الأوربيين) فقط شرط أن يكون لهم الإمكانيات لشراء المقر وان يدفعوا لبيت المال اداءات سنوية تتناسب مع كميات الخمور التي يبيعونها ويجب عليهم تشغيل اثنين أو ثلاثة من اخوانهم في الأسر كمساعدين لخدمة الزبائن ، كما يلتزمون عند الحاجة – بإطعام اخوانهم من الأسرى الفقراء بدون مقابل اذا كانوا مرضى أو لم يجدوا وسيلة أخرى لإسكات جوعهم .

وهذه الحانات التي يجب أن تكون خارج دور الأسرى العامة تبيع – مقابل المال – للمسيحيين والأتراك والعرب الدخان والخبز والنبيذ وانواعا مختلفة من المأكولات المتداولة في البلاد والتي يطبخها العبيد أنفسهم .

أما رواد هذه الخمـارات فهم غالبا ما يكونون من العسكر والصعاليك والسوقة والعبيد أسرى القرصنـة الذين يقضون الوقت في مقارعة الخمر والتدخين والحديث .

وتدر خدمـات هذه الخمـارات على أصحابهـا أرباحا هائلـة اذا ماالتزموا بالتواضع والطيبـة والرصـانة وابتعدوا عن الفجور والخنـاء وكسبوا الاحترام . وتوجد امثلـة على خمـارين استطاعوا أن يجمعوا خلال سنوات قليلـة ، وبعد ان دفعوا الضرائب المستحقـة ، كميات كبيرة من المال حتى أنهم استطاعوا ان يفدوا انفسهم من الأسر .

وعلى السؤال المطروح كيف يمكن أن توجد خمـارات ويستهلك الخمر بكميات ضخمـة في بلد يحرم فيه شرب الخمر على الأهالي . يجيب رفتيليوس بأن الأسرى الأوربيين يستهلكون الكمية الكبرى من الخمور المباعة في الجزائر اذا ما استطاعوا بيع خدماتهم للأهالي . ولكن الملاحظ ، وبدون مبالغـة ، فإن الأتراك وخاصـة العصاة منهم يشربون ــ نسبيا ــ كميات أكبر من الأوربيين بالرغم من أنهم يعرضون أنفسهم للعقـاب اذا مـا ثبتت التهـم عليهـم .

ومن الأشياء الغريبة التي تلاحظ في الجزائر هي ان ترى تركيا يعـاقب تركيا آخر على انتهاك القانون بشرب الخمر ثم ترى الحاكم أو القاضي مع شلـة من الأصدقـاء والزملاء في حالة سكر بالغ يرهق نفسه بشرب الخمر طوال الليل حتى طلوع الفجر حيث يبدأ في الاستعداد للذهاب الى المسجد لاداء صلاة الصبح فيتوضأ ويتناول افطار الصباح المتركب عادة من القهوة والتفاح المقلي لمنع انتشار وتسرب رائحـة الخمر الى الآخرين .

وهذه الفئـة من الأتراك العـارفين في الجـزائر يؤلون الشريعـة لفائدتهم عندما يقولون بأن شرب الخمر الحرام هو الذي يؤدي الى الخلاف والعراك او إزعاج الناس والاعتداء عليهم . وهذه المظـاهر يجتنبونهـا هم عندما يسكرون في الليل وفي كنف السريـة وبدون الاعتداء على أحد او انتهـاك حرية الآخرين . وهـكذا يدافعون على انتهاكهم لشريعـة القرآن في هذا الموضوع . فالأهمية عندهم لا ترتـكز على عمليـة شرب الخمر نفسهـا وانمـا على كميـة الخمر المشروبة وهم يرون ان القانون الإلاهي لايتسامح مع الذين يشربون الخمر بكميات هائلـة حتى يفقدون الإدراك فينهـارون ويأتون اعمـالا مختلفـة ترعج وتغضب الآخرين فيستحقون العقـاب

لذلك يبدو من غير المستغرب أن نرى في المساء مجموعات من السكارى من المسلمين المستهترين يتجولون خارج سور مدينة الجزائر . ويجب تجنب المارقين وعدم تبادل الكلام معهم حتى لا نجلب المشاغب لأنفسنا . والملاحظ أن هؤلاء السكارى المدمنين لايرحبون بجولة الداي التفقدية للمدينة رغم ان الداي ، نظرا لتغير الأزمان والطباع والأمزجة أصبح متسامحا كثيرا .

والأسرى العبيد أصحاب الخمارات يمنع عليهم الترفيع في اسعار الخمور المحددة من طرف الحكومة .

والخمارات غالبا ما تكون في محلات بسيطة جدا شبيهة بالمغازات أو مخازن بسيطة لايدخلها النور الا من الباب بحيث يجب استعمال القناديل طوال النهار والليل حتى يتسنى تقديم الخدمات ورؤية الزبائن وتختلف الخمارات في الكبر والصغر حسب حاجيات الاستعمال التي يقدرها صاحبها . وتشترك الحانات كلها في عدم النظافة وفقدان الأناقة وتحتوي عادة على بعض المناضد المستطيلة الشكل وبعض براميل الخمور وكذلك بعض الأسرة للنزلاء المعوزين واشياء أخرى متفرقة وتافهة .

والخمارات في الجزائر نادرة نسبيا لأن الناس في كل مكان يشربون الماء عادة ولا يعرفون شيئا عن عصير الشعير أو عصير العنب بالرغم من أنهم يسمحون لأنفسهم بالتمتع بكأس من الجعة الخفيفة عندما يمكنهم الحصول عليها كالمشروبات الغازية الغير محرمة في القرآن .

أما بالنسبة للمسيحيين الأحرار المقيمين في الجزائر والمعتادين على خزن زاد من الخمور في بيوتهم فإنهم يتولون بأنفسهم أو بواسطة العبيد تحضير الكحول في أماكن معزولة عن الشمس في ديارهم .

المقاهي :

أما المقاهي في الجزائر فهي موجودة بكثرة تزيد عن اللزوم ولكن من النادر وجود مقهى نظيفا يستهوي الزائر للجلوس فيه بانبساط وسرور وهذا لايمنع من أن هذه المقاهي تكون دائما مكتظة بالرواد الذين يقضون فيها أكبر قسم من النهار في الحديث والثرثرة والتدخين وشرب القهوة واللعب (ولم يذكر فتيليوس أي نوع من اللعب).

والبن الذي يستخرج منه مشروب القهوة والذي بدأ ينتشر في اوربا الآن (أي حوالي 1730) يطبخ في الجزائر بكثرة ويستورد من ولاية اليمن التي تبعد عن الجزائر ثمانية أيام سفر .

ويصف الجزائريون القهوة بأنها مشروب يزيل الهموم ويبعد الكآبة ويجلب المرح وينشط الجسم ويساعد على هضم الأكل ويقوي الإدراك والفهم حتى ان بعض الناس يضفي على هذا المشروب القداسة .

الفنـــادق :

الفنادق العصرية (اي على النمط الأروبي) والضرورية لاستراحة المسافرين لا وجود لها في الجزائر . والمسافرون يستعملون الحمار أو الحصان يقومون بنفس السفرة في نفس اليوم .. ويفضل الجزائريون ركوب السفن للاماكن التي يمكنهم وصولها بالطرق المائية .

أما بالنسبة للأوربي الذي يريد القيام برحلة داخل البلاد الجزائرية فيجب عليه أن يكون مصحوباً ببعض الأتراك الطيبين والتقاة كرفاق طريق والا فإنه يعرض نفسه وأمتعته للخطر لأن قطاع الطرق من العرب والبربر الذين لا يحترمون الأتراك انفسهم الا نادرا فإنهم يعتقدون بأنهم يقدمون خدمة جليلة للملكوت السماوي اذا هم اجهزوا على اروبي مسيحي .

وبما أنه ـ كما أسلفنا ـ لا توجد فنادق عصرية فالمسافرون الجزائريون يقيمون ـ اذا كان ممكنا ـ عند أقاربهم أو أصدقائهم . اما الأوربيون الذين يأتون الى الجزائر للأعمال التجارية أو مكلفين بمهمات رسمية أو الذين تجبرهم الأحداث على الإرساء في الجزائر فينزلون في قنصليات بلدانهم اين يقيمون ويقدم لهم الأكل .

أما بالنسبة للأوربيين الغرباء الذين لامكان لهم في القنصليات والذين لايجوز لهم الإقامة او الاستضافة عند الأتراك أو العرب أو البربر فيقيمون عند اليهود الذين يؤجرون لهم غرفا مفروشة في ديارهم ويتحملون كل المسؤولية اذا تعرض نزلاؤهم الى مكروه . وهنا تجدر الملاحظة أنه يجوز لأي شخص سواء كان اجنبيا او من الأهالي صعوبة أن يستأجر دارا بأكملها اذا سجل رغبته تلك عند ادارة الداي .

أما المسافرون من الأهالي المعوزين والذين ليس لهم أقارب أو اصدقاء في مدينة الجزائر وكذلك اليونانيون فإنهم مجبرون على الإقامة في الخانات الموصوفة اعلاه أو في الأماكن المشابه لها .

أما في بقية أغلب مدن وقرى الجزائر فتوجد عادة دور الضيافة تسمى خان (Kaans) شيدت خصيصا لإيواء الغرباء الوافدين على البلدة . ويشرف على الدار مدير يسمى «محرك» (Maharak) وهو الذي — بعد اذن حاكم المنطقة — يستقبل الوافدين ويحتفي بهم ويقدم لهم الخدمات المتناسبة مع كرم الضيافة العربية . واقامة الضيوف في هذه الدور لا يجوز أن تتعدى الليلة الواحدة .

د. المازري بديرة
جامعة تونس
مركز الدراسات والأبحاث
الاقتصادية والاجتماعية

هوامش

(1) يمكن الرجوع في هذا المجال التاريخي الى :
H.A. Gibb and H. Bown, Islamic Society and the west : A Study of the Impact of western civilisation on muslem Culture in the Near Eeast, 2 vol., London 1950, 1957.
أو خلاصة هذه النظرية في مقال د. محمد السيد سعيد : نظرية التبعية وتفسير تخلف الاقتصاديات العربية . في : التنمية العربية ، الواقع الراهن والمستقبل ، سلسلة كتب المستقبل العربي (6) ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت 1984 .

(2) Riksarkivet (R.A.), Stockholm, Turcica, Bihang :
Algeria, vol. 1—4, vol. 2 : Reftelius brev till
Handels-deputationen 1730 — 1732.
Kommerskollegiets arkiu, Huvudarkivet 1651 - 1919, skrivelser fran konsuler och ministrar : a) skrivelser fran svenska (svansknora) konsuler, vol. 8 Alger 1730 — 1832.

(3) J.A. Almquist, Kommerskollegium och riksens standers manufakturkontor sam konsulsstaten, stockolm 1912-1915, p. 513.
J. H. Kreuger, Sveriges forlhallanden till barbaresk staterna i Africa stockholm 1856, vol. 1, P. 353.

(4) Carl Reftelius, Beskriuning ove riket och staden Alger, fran ar 1516 till och med a 1732, Stockholm 1737.

(5) رفتاليوس : المقدمة
(6) رفتاليوس : 272 279 .
(7) رفتاليوس : 639 — 650
(8) رفتاليوس : 650 وما بعدها .
(9) نص المعاهدة المتركبة من 22 فصلا والبروتوكول الملحق في :
R.A., Turcica : Algerica, vol. 1, 1730 .
B. Boethius : Sverges traktater med frammande magter (Traités de la Suède), vol. 8 : 1723 — 1739, Stockholm 1915, P. 99 — 115.



الوضــع الاجتمــاعى لتجــار جــدة فــى القــرن الثــامــن عشــر الميــلادى

د. محمد عبد الرحمن برج

حين يكتب الباحث عن طبقة التجار فى جدة فانه يتناول قطاعا كبيرا من سكان تلك المدينة ان لم يكن كلهم . فاذا كان غالبية سكان البــادية المحيطــة بجدة قد مارسوا مهنة الرعى كالبدو والمنتمين لقبائل حرب وهذيل وعتيبة وجهينة • ومنهم من اشتغل بالزراعة مثل سكان وادى فاطمة والطائف وخليص فان معظم سكان هذه المدينة ان لم يكن جلهم قد مارس مهنة التجارة بحكــم موقع هذه المدينة التجارى .

لعبت جدة فى هذه الفتــرة دورا هامــا بحكــم كونهــا المينــاء الــرئيسى لولاية الحجاز .

ويقرر (بوركهاردت) ان جدة كونت ثروتها لا بحكم انها ميناء مكة فحسب بل بحكم علاقاتها التجارية مع مصر وسائر انحاء الجزيرة العربية •

وتقرر علي العبــاسى وهــو الاسم الذى تسمــى بــه الرحــالة المشهــور Badiay Lablack فى كتــابــه المشهــور Traveis of Ali Bey والذى صدر فى لندن سنة 1816 ميلادية فى جزئين بعد زيارته لكل من المغرب وطرابلس ثم مصر والجزيرة العربية أن جدة ليس لها علاقات تجارية مع مصر ومــوانى الجزيرة العربية فحسب بل ومع الخليج والهند وافريقيا .

ووصــف جـدة بقــوله :

« مدينة جميلة شوارعها منظمة ومنازلها ذات طابع هادىء مبنية من الحجر تتألف من طابقين أو ثلاث بها نوافذ كبيرة وسقوفها مستوية وبالمدينة خمسة مساجد ويحيط بها سور متين وابراج منتظمة وعلى بعد خطوات من الســور حفر خندق ولكنه مهمل تماما ــ واسواق المدينة عامرة بالتجارة والاثمــان مرتفعة ــ وتحمل اليها الخضروات والفواكه من أماكن بعيدة ولا توجد بها حدائق . وزيادة على ذلك لا يوجد بها نهر أو ينبوع . ويعتمد السكان على مياه المطر للشرب يخزنونها فى صهاريج . وتباع المياه فى زجاجات . وعدد سكان جدة حوالى خمسة آلاف ويعمل معظمهم فى التجارة . فتحمل السفن البن اليها من مخا . وفتحات الشرق التى تنقل بعد ذلك على سفن أخرى الى ميناء السويس والقصير وينبع وسواحل الجزيرة العربية وافريقيا » .

ويجد الباحث فى كتابات الرحالة (ينبور Niebuhir) الذى زار الحجاز سنة 1763 تعجبه من أن أهل جدة لم يعاملوه ورفاقه بقسوة وغلظة وجفاء على

نحو ما كان متوقعا ان يقابلوه به بحكم كونه غير مسلم وارجع ذلك الى تعود سكانها على مقابلة غير المسلمين بحكم اشتغالهم مع التجار من أوربا وغيرها .

وكان بسبب هذا الاشتغال بالتجارة ان تنوعت أصول السكان فيها بدرجة لا توجد فى مدينة أخرى من مدن الحجاز يقرر (بوركهاردت) ان معظم السكان من أصل أجنبى عن جدة وما يمكن ان يقال انهم من أصل وطنى هم مجموعة أسر قليلة من الاشراف . وغالبية سكان جدة من أصل حضرمى أو يمنى . وهناك أكثر من مائة أسرة هندية قدمت من (سورات) و (بومباى) أقامت فى جدة يضاف اليهم بعض الملاويين وسكان مسقط الى جانب القادمين من مصر وسوريا والسودان وتركيا .

ويمضي (بوركهاردت) فى حديثه عن سكان جدة فيوضح ان السكان الهنود لهم عاداتهم وملامحهم وملابسهم التى يستطيع الانسان ان يميزهم بها عن غيرهم . وقد سكن هؤلاء التجار الهنود فى جدة فى حى خاص بهم عرف باسم (قصبة الهنود) . وكانوا أغنى طبقات التجار فى الحجاز ولهم ارتباطهم التجارى مع الموانى الهندية . ولم يكونوا جميعا مستقرين فى الحجاز فمنهم من كان دائم التنقل بين الموانى الهندية والجزيرة العربية .

ونظرا لما تمتعوا به من حسن تعامل فى أمور التجارة فقد كسبوا احترام الناس فى الحجاز ومن بين هذه الاسر الهندية أسر ما زالت تزاول التجارة حتى الوقت الحاضر فى جدة مثل أسرة (نورولى) وأسرتى (كنسارة) و (سيت فيتنى) ويقرر بوكهاردت أن بعض هذه الاسر الهندية كون ثروة تجارية كبيرة وصل لدى بعضها الى ما يقرب من خمسة عشر الى عشرين ألف جنيه استرلينى .

وهناك أسر تجارية من أصل مغربى مثل أسرتى (السكات) و (الجيلانى) . وكان لهذه الاسرة الاخيرة أملاك كبيرة فى جدة منها حوش الجيلانى الذى كان يقع فى وسط المدينة وقد احضر (بوركهاردت) توجيه لسيدى العربى الجيلانى من التاجر أحمد المحروقى فى مصر . وقال عن الجيلانى انه أغنى تاجر فى جدة . وكان للجيلانى أملاك كثيرة فى الحجاز فى غير جدة . ففى مكة كانت له املاك عقارية فى محلة كرارة المشهورة بمنازلها الراقية التى يقطنها أغنى التجار وأكثرهم ثروة . وقال عنه العباسى انه رجل له ارتباطه الكبير بالانجليز اذ هم عملاؤه الرئيسون فى التجارة .

وتأتى طبقة الاشراف على رأس البناء الاجتماعى للتجار . كان لهم مركزهم الاجتماعى المشهور بحكم انتمائهم لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويشهد تاريخ القرن الثامن عشر الميلادى صراعا بين فرعى الاسرة الهاشمية (بنى نمى) و (بركات) . ولعل أكبر سلطة بلغها شريف فى هذا القرن كانت على عهد الشريف سرور بن مساعد وأخيه الشريف غالب .

حكم الاول الحجـاز ما بين 1773 م. ـ 1788 م. (1186 هـ. ـ 1202 هـ.) ووصفه الجبرتى فى كتابه عجائب الآثار بقوله :

« مات الجناب الساسي والغيث الهاطل ذو المناقب السنية والافعال المرضية والسجايا المتينة والاخلاق الشريفة السيد السيند حامى الاقطـار الحجـازية والبلاد التهامية والنجدية الشريف سرور مكة . تولى الاحكام وعمره سبـع عشرة سنة . وكانت ولايته قريبا من أربع عشرة سنة وساس الاحكام أحسن سياسه وسار فيها بعدالة ورزانة وأمن تلك الاقطار أمنا لا مزيد عليه ومات وفى محبسه سيف وألبعمائة من العربان الرهائن . وكان لا يغفل عن النظر والتدبر فى مملكته ويباشر الامور بنفسه ويتنكر ويعسس ويتفقـد جميـع الامور الكلية والجزئية . ولا ينام الليل قط فيدور ثلثى الليل ويطوف حـول الكعبة الثلث الاخير . ولم يزل يتنقل ويطوف حتى يصلى الصبح ثم يتوجه الى داره فينام الى الصحوة ثم يلبس للنظر فى الاحكام لا تأخذه فى الله لومة لائم . ويقيم الحدود حتى ولو على أقرب الناس اليه فغمـرت تلك النـواحى وأمنت السبل وخافت العربان وأولاد الحرام فكان المسافر يسافر بمفرده ليلا فى حيازته . وبالجملة فكانت أفعاله حميدة وأيامه سعيدة » (الجبرتى ج 2 ، المطبعة الاميرية 324 هـ.) .

وقد لقبه بعض المؤرخين الاوربيين بلويس الرابع عشر أوريشيليو الحجاز (انظـر Didier فى كتابه الذى سماه :

Sejollir chez le grand cherif de la mecque (Paris 1856).

أما الشريف غالب فقد آلت اليه أمور الحجاز بفرمان الدولة العثمانية سنة 1788 م. ، سنة 1202 هـ. وفى عهده بلغت الشرافة شأنا عظيما لم تبلغها لدى شريف آخر من قبل . ووصفه العباسى بأنه مفكر داهية سياسى شجاع يتبع سياسة ظالمة يجمع المال بكـافة الطـرق والوسائـل من السكـان والتجـار ويقول العباسى : « لم أجد أحدا يذكره بالخيرة » . وعلاوة على اثقاله كاهـل التجار بالضرائب فانه كان يحتكر تجارة البحر الاحمر بسفنه الكبيرة التى تحتكر نقل البضائع ومعظم التجارة .

وفى مخطوطة بعنوان « تاريخ اشراف وأمراء مكة » لعبد الله بن محمد بن عبد الشكور المكى المتوفى عام 1257 هـ. محفوظة بمركز البحث العلمى واحياء التراث الاسلامى بجامعة أم القرى مكـة المكـرمة تحت رقـم 1371 ، تراجم تاريخ ، يجد الباحث ترجمة كبيرة للشريف غالب من أحد معاصريه ويعطى صورة واضحة عن سلطاته واملاكه فى الحجاز ويصف صـاحب المخطـوطة الاحتفال الذى أقيم فى الحجاز : « لا لباس الشريف غالب الخلعة السلطانية وهى أول خلعة لبسها صاحب الشرافة فأخرج لملاقات العساكر المنتظمـة الموسمة ودخلوا بموكب تغنى له الغياهب ويزحفوا حسنا على الكواكب فنزل الى المسجد الحرام بين الركن والمقام وحضرت السادة الاشراف المنتسبين الى

عبد مناف والعلماء والاعلام من الآفاق وبدر التمام وقاضى الشريعة المطهرة والمغاتى الاربعة وجميع الخواص . فقرأ الفرمان الغالى باسمه وبرز مرسومه بموسمه ولبس الخلعة السلطانية ... » .

وفى كتاب أحمد زينى بن أحمد دحلان بعنوان : « خلاصة الكلام فى بيان أسرار البلد الحرام » (طبعة الجمالية 1305 هـ) فيض من الوصف للمعارك التى دارت بين الشريف غالب والرهابيين ، وقيام الشريف بتحصين جدة ضده هذه الغارات وحين أكل الناس القطط والكلاب ونفدت مخازن أمير مكة قرر الشريف غالب الانسحاب من مكة فجمع أمواله وهرب بها وبأهله الى جدة . ولكن الامر يختلف فى مكة عن جدة عنده فى مكة لوجود سور بها والمدينة مفتوحة من ناحية البحر وانسحب الوهابيون عند جدة التى تأثرت حياتها الاجتماعية بهذه الحروب فقلت الاسعار وقل القوت ، وكان للشريف أملاكه العقارية فى جدة الى جانب ما كان له من أملاك فى مكة والطائف كما كانت له بساتينه الزراعية فى وادى فاطمة وغيرها .

يقول بوركهادت : يحاول اشراف مكة الذين بيدهم جمرك جدة حيث ان يجعلوا من المدينة مركزا للتجارة الهندية لا ن الجمارك تمثل مصدر دخلهم الرئيسى . وكان الشريف غالب التاجر الرئيسى للتجارة الهندية . وقد رفع الجمارك على البن فى عهده من 2،5 % الى 5 % دولار على القنطار أى ما يعادل 15 % من ثمنها ورفع جمرك البضائع الهندية من 6 % الى 10 % واذا لم يستطع بيعها فانه يوزعها على التجار الوطنيين بسعر السوق .

وعلى الباحث فى هذه الفترة ان يرجع أيضا الى وثائق المحاكم الشرعية فى مصر ذلك للارتباط الشديد بين تجارة جدة ومصر وما كان لهؤلاء الآخيرين من وكلاء تجاريين فى الحجاز لانهاء معاملاتهم وشراء البضائع لحسابهم .

كانت الطبقة العالية فى جدة هى طبقة التجار فيؤكد لنا بوركهاردت أنهم لم يكونوا يجلسون على المقاهى التى اعتاد الناس الجلوس فيها يدخنون الشيشة الفارسية . وكانت مساكنهم فى الاماكن المتازة من جدة كانوا يسكنون بجوار البحر بشارع مواز للشاطى حيث تقع محلاتهم وخاناتهم .

أما البدو والفلاحون والعمال الفقراء فى جدة فكانوا يسكنون اكواخا شبيهة بتلك التى يسكنها اقرانهم فى الجزيرة .

كانت مدينة جدة فى تلك الفترة مقسمة الى احياء مختلفة فالقادمون من سواكن كانوا يسكنون قرب الباب المعروف بباب المدينة لانه يقع فى الطريق الى المدينة المنورة كما كان هناك باب مكة الذى كان يقع هو الآخر فى الطريق الى مكة .

أما منازل التجار فهى عالية مهواة كل منزلمكون من طابقين وبالمنزل صالة كبيرة لاستقبال الزوار يعرف باسم الحوش يجلس فيه صاحب الدار

ويستقبل ضيوفه فيه ويعيب بوركهاردت على مبانى جدة عدم التناسق بينها منها ما هو مبنى بالحجارة الكبيرة ومنها وما هو مبنى بقطع صغيرة منها وبينما تدهن الحوائط من الداخل يترك الخشب فى البيوت على لونه الطبيعى مما يعطى منظرا مشمئزا • وبينما لبعض البيوت قباب مريبة فلبعضها الآخر قباب مدورة واما الدهان الخارجى للبيوت فهو من طبيعة سريعة التحلل عندما تتعرض للرطوبة والمطر .

وعن عادات الاكل تشتهر الطبقات العليا بمآكل الزبدة مع القهوة فى الصباح وكانوا يعتبرونها مقوية للجسم وخلال الغزو الوهابى لجدة توقف استيرادها من داخل الجزيرة ولكن فى وقت السلم كانت الكمية التى تستورد تكفى حاجة أهلها وبعضها يحضر من (سواكن) ولكن احسن الانواع كان يستورد من (مصوع) وكان يقال لها زبدة الدهلك .

أما عسل النحل فكانت تفيض به جبال الحجاز وكانت أحسن أنواعه الموجود لدى بدو النواصرة جنوب الطائف . وأما فطور الطبقات الفقيرة فكان من هذا العسل مع بعض من اللبن ولم تكن تشتهر موائد أهل جدة بالسلاطة على نحو ما كان بجدة الرحالة على موائد الاتراك .

ويقول بوركهاردت : ان اكثر من ثمانية عشر نوعا من الفاكهة والخضر التى تحبها القوات التركية الموجودة بجدة تحضر من الطائف الغنية بحدائقها . لقد وجد فى شهر يوليو (تموز) العنب من أحسن الانواع والليمون الصغير مثل ذلك الذى كان موجودا فى القاهرة والرمان وفى شهر مارس (آزار) يحضر الشمام من وادى فاطمة وهو صغير الحجم لكنه حلو المذاق . وقال عن أهل جدة انهم يأكلون القليل من الفاكهة فيما عدا العنب .

أما الخضروات المعتادة فهى الملوخية والبامية والباذنجان والكرنب والخيار واللفت الصغير الحجم الذى يؤكل ورقه اما الاصناف اليومية على المائدة العربية فكان الفجل والكرات لكن بوركهاردت لاحظ أن أهل جدة كانوا يستهلكون القليل من الخضروات .

كانت محلات الفاكهة تبيع (التمرهندى) الذى كان يأتى من جزر الهند الشرقية واشتهر أهل جدة شأنهم شأن أهل الحجاز بأكل التمر والعجوة وهى عبارة عن بلح مضغوط وكانت غذاء يوميا لكل الطبقات وخلال السفر كانت تبلل بالماء ويشرب محلولها وكان احسن أنواعها يأتى من (تربة) الغربية من الطائف .

واشتهر أهل جدة بأكل الفول الذى أخذوه عن المصريين وسماه بوركهاردت فول الحصان المصرى Egyptian Horse Beans .

أما عن الحلويات فكانت الكنافة من أشهر الانواع التى تصنع فى الحجاز . وتعجب بوركهاردت من ندرة اللبن فى الحجاز خاصة فى جدة ومكة وعندما زار

جدة فى يوليو سنة 1814 كان رطل اللبن يباع بقرش ونصف ولم يكن من السهل الحصول عليه . ولم يكن أهل جدة يعرفون ذلك النـوع المصنـوع من اللبن والذى عرفه الاتراك باسم (بوغـورت) أو (اللبـن الزبـادى) عند المصـريين .

ووجد فى جدة فى تلك الفترة محلات لبيع الجبنة اليونانية الصنع واللحوم المجففة وقمر الدين .

أما عن لباس تجار جـدة فكان العمامة الحجازية (العمامـة الالفى) وكـان يرتديها كذلك العلماء وأوساط الناس والشباب المتعلم واذا كان العلماء يتحرون البساطة فى ملابسهم فكان التجار اكثر كلفة واظهر اناقة فيلبسون القماش الصوف أو الكشمير الغالى الثمن وفى الصيف كانوا يلبسون أغـلى أنواع الحرير .

كان من الطبيعى أن يكون الواحد منهم ما بين ثلاثين الى أربعيـن لباسـا لاستخدامه الشخصى كما ذكر لنا ان الحجازيين أنيقون فى ملابسهم بصورة لم يشاهدها لدى المسلمين الآخرين بل ان الفقراء منهم ينفقون معظم دخلهم فى اللباس اما لباس المرأة فكان الحرير الهندى والسروال المحـلى بالخيـوط الفضية وفوقه كن يلبس (الحبرة) التى كانت تستخدمها النساء فى مصر وسورية أو الملاية ويذكر لنا بوركهاردت انهن كن يغطين وجوههم بالبرقع ..

وقد لاحظ نيبور مثلما لاحظ بوركهاردت ان صنادل التجار التى يضعونها فى أقدامهم تختلف عن تلك التى تضعها الطبقات الاخرى كما لـوحظ ان التجار كانوا يحملون ساعات غالية الثمن معظمها انجليزية الصنع تحضر من الهند أو مع الحجاج وكثيرا كان الحاج يحتاج الى أموال اثناء حجة فيبيع بعض ماليديه ومنها هذه الساعات وكانت طبقة التجار تدخن النرجيلة وقد كـانت الواحدة تكلف حسب تقدير بوركهاردت لها حوالى مائة دولار .

وقد لاحظ العباسى ترفا فى ملابس وسكن أغنياء جدة فى الوقت الذى عانى الفقراء فقرهم الشديد ومعظمهم كانوا عراة لا يجدون ما يغطـون بـه أجسامهم . ومما لاحظه العباسى كذلك انعدام الخيل فى جدة فيما عدا ما يملكه بعض الاغنياء لاستخدامهم الحاجى فى الوقت الذى وجدت فيـه الكثيـر من الجمال التى كانت تستخدم للنقل .

ومن أهم التجارة فى ذلك الحين كانت تجارة الصابون التى كانت تأتى من سوريا وكان تجارها يسمون بالخليلية نسبة الى بلدة الخليل فى فلسطين التى يأتى منها هذا النوع من التجارة .

وأما تجارة العطور فقد اشتهر بها التجار الهنود الذين لم يستطـع أحـد منافستهم فيها واشتهرت فى جدة فى تلك الفترة تجارة العاديـات والاشيـاء

الاثرية التى زين بها تجار جدة منازلهم وخاصة أماكن استقبالهم للضيوف . ولم يكن من عادة التاجر فى جدة الاحتفاظ بدفاتر حسابات عديدة شأن التاجر الاوربى انما هى مفكرة صغير يكتب فيها ما يبيعه وما يشتريه واذا كان التاجر على حد قول بوركهاردت لا يستطيع ان يحصى افراد قبيلته أو قطيع ماشيته أو سكان مدينته فهو لم يحاول كذلك ان يعرف بالدقة التامة رأسماله انما كل شيء عنده بالتقريب ويعلل بوركهاردت ذلك بقوله انه (التاجر فى جدة) يعتقد ان عد الثروة انما هو مباهاة بها وهو أمر قد يغضب بذلك ربه فيحرمه منها . وكان التاجر فى جدة يخشى الافلاس ولذلك لا يقدم على مضاربات تتجاوز رأسماله . واذا ما أفلس تاجر كثيرا ما تنازل من كان لهم استحقاقات عنده عن حقوقهم أو انتظروا بعض السنين حتى تتحسن احواله المادية .

وعلى الباحث عن الاحوال الاجتماعية لتجار جدة أن يرجع الى ما كتبه الرحالة عن مكة وأهلها ذلك لانه على حد قول بوركهاردت قل ان تجد غنيا من أغنياء مكة ليس له بيت فى جدة وان عادات وطبائع أهالى المدينتين واحد . وقل ان تجد تاجرا فى مكة ليس له مقر لتجارته فى جدة .

ومما لوحظ على تجار جدة ومكة على السواء الاسراف فى حياتهم المعيشية وفى أفراحهم وختان أطفالهم التى كانوا يقيمونها عادة فى شهر المحرم بعد انتهاء أشهر الحج . وقال بوركهاردت ان موائدهم حفلت بأنواع الطعام التى لم تحفل بها مائدة أحد سواهم فى الشرفة . وقل ان يجلس على موائدهم يوميا ما لا يقل عن عشرين شخصا من ضيوفهم حتى عبيدهم يدعون الى موائدهم وتزدان غرفهم بالنرجيلة المطلية بالفضة .

وكان الاغنياء يأكلون وجبتين واحدة قبل منتصف النهار والاخرى عند غروبها . أما الطبقات الفقيرة فانهم كانوا يأكلون وجبة قبل طلوع الشمس ولا يأكلون بعد ذلك طول النهار الا عند غروبها وفى أشهر الصيف حيث تزداد الحرارة على وجه التحديد فى شهرى يونية وأسطس (تموز وآب) وهى الاشهر التى تزداد فيها الحرارة بشكل كبير يهرع التجار الى الطائف التماسا للجو اللطيف وكانوا يعتادون على ذلك ما لم يأت الحج فى هذه الاشهر .

ولوحظ العباسى ارتفاع السلع فى جدة لان الخضروات تحضر لها من مسافات بعيدة ولكن هذا لم يمنع من مظاهر الاسراف التى تبدو فى لباس ومسكن الاغنياء من أهلها وقدر عدد أهلها العاملين فى وقت زيارته لها بخمسة آلاف شخص . ومدى له ان سكانها خليط من أصل حبشى وهندى وعربى ولوحظ الكثير من أهلها الذين لهم وجوه هندية تقرب كثيرا من وجوه أهل الصين وقد لاحظ كذلك كثرة التزواج بين أهل جدة بالحبشيات اللاتى كن يقمن فى المدينة وقد عرض عليه مرافقه ان يزوجه بحبشية فابدى اعتذاره له .

ولم يكن من عادة أهل جدة على حد قول العباسى كذلك استخدام الفحم كوقود انما كان المتوفر لهم الخشب ينقل اليهم من مسافات بعيدة أو من مخلفات المبانى ووصف لنا بوركهاردت افراح أهل جدة ومكة وعن مهور الطبقة الغنية التى قال انها تتراوح ما بين أربعين الى ثلثمائة دولار وبين الطبقات الفقيرة ما بين عشرة الى عشرين دولار وكان الزوج يدفع نصفها مقدما والباقى مؤخرا فيما لو حدث الطلاق .

أما حفلات الختان للاطفال فكانت شبيهة بتلك التى كانت تجرى فى القاهرة حيث يلبس الولد ازهى الملابس ويحتفل به فى موكب وهو راكب جوادا من أحسن الانواع .

د. محمد عبد الرحمن برج
جامعة المنوفية

دفاتر تسجيل الاراضى الزراعية دراسة فى مصادر تاريخ مصر الاجتماعى فى القرن التاسع عشر

د٠ على بركات

تمثل دفاتر تسجيل الاراضى الزراعية بدار المحفوظات بالقاهرة اضخم مجموعة وثائقية فى تاريخ مصر الحديث (1) ٠ وهذه الدفاتر تغطى بشكل متصل الفترة من عام 1800 وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، وان كان نظام التسجيل بهذه الدفاتر قد اختلف من مرحلة لاخرى وفى هذه الدراسة سوف احاول القاء الضوء على هذه المجموعة موضحا اهميتها فى دراسة جوانب من تاريخ مصر الاجتماعى خلال القرن التاسع عشر ، وعلى وجه التحديد خلال الفترة من عام 1800 وحتى عام 1882 ٠

والدفاتر التى نحن بصدد الحديث عنها يمكن تقسيمها الى ثلاث مجموعات هى :

- دفاتر الترابيع التى تم عملها زمن الحملة الفرنسية ، وعلى وجه التحديد عام 1215 هـ (1800) ٠

- دفاتر التواريع التى سجلت بها اعمال المساحة التى تمت فى عهد محمد على ، والتى يرجع اقدم سجل منها الى عام 1228 هـ (1813) ٠

- دفاتر المكلفات ، وهى تطوير لدفاتر التواريع وقد اصبح العمل بالمكلفات شائعا ابتداء من عام 1259 هـ (1843) ٠

وسنعرض لكل مجموعة من هذه الدفاتر على حدة على النحو التالى :

دفاتر الترابيع : (2)

٠٠٠٠٠٠٠٠٠ نتيج عن انهيار السلطة العثمانية المملوكية على يد الحملة الفرنسية وهرب كبار الموظفين العثمانيين اضطراب فى اوضاع الادارة المالية ، وكان على سلطات الحملة الفرنسية ان تعيد بناء هياكل الادارة المالية بما يكفل سيطرة الفرنسيين على مصادر الدخل فى البلاد ، خصوصا بعد تدمير الاسطول الفرنسى فى معركة ابى قر البحرية (اغسطس 1798) ٠

وكانت عملية اعادة هياكل الادارة المالية تتطلب الحصول على اكبر قدر من المعلومات المتعلقة بحيازة الارض واوضاع الضرائب وحجمها ، وقد حصل

الفرنسيون على هذه المعلومات وغيرها من مصدرين : الاول هو حسين افندى، احد موظفى الرزنامة فى الفترة السابقة على الحملة الفرنسية ، والمعلومات التى قدمها فى شكل اجابات على اسئلة ستيف مدير الادارة المالية فى العهد الفرنسى ، وجاءت فى ستة عشر بابا ، تضمنتها الوثيقة المعروفة بوثيقة حسين افندى الرزنامجى ، والتى نشرها وعلق عليها الراحل شفيق غربال منذ نصف قرن تقريبا (3) .

والمصدر الآخر هو العناصر التى كانت تباشر اعمال الشؤون المالية عند وصول الفرنسيين الى مصر ، ومعظمهم من الاقباط ، وهؤلاء كانوا حريصين على كتمان ما لديهم من معلومات تتصل باسرار عملهم حتى يطمئنوا الى استقرار الاوضاع وبقاء الفرنسيين فى مصر ، ودافعهم فى ذلك هو بقاء الشؤون المالية فى ايديهم ، وقد روى «ستيف» كيف انه تحايل على جمع عدد منهم فى منزله، وابقاهم فيما يشبه الاسر ثلاثة شهور ، اضطروا خلالها الى ان يقدموا له معلومات دقيقة عن اوضاع الحيازة والضرائب المقررة على القرى ومساحتها (4)

ومن الواضح ان دفاتر الترابيع التى نحن بصدد التعرض لها كانت نتيجة من نتائج هذه المحاولة التى اشار اليها ستيف ، ذلك انه فيما يتعلق بحيازة الارض ونظام الضرائب قامت السلطات الفرنسية باعداد دفاتر جديدة جاءت اكثر تفصيلا من دفاتر الالتزام السابقة عليها (5) حيث تضمنت الدفاتر الجديدة معلومات وافية عن مساحة راضى القرى والضرائب المقررة عليها ، وانواع الحيازة ، وكذلك الاراضى التى اعفيت من الضرائب فى كل قرية ، وقد اطلق على هذه الدفاتر اسم ترابيع ، ويوجد منها فى الوقت الحاضر ثلاثة دفاتر : اثنان يتعلقان بالوجه البحرى ، والثالث يتعلق بمصر الوسطى والاشمونين ، ويبدو أن الصعيد الاعلى الذى كان موضع صراع ومقاومة عنيفة ضد الفرنسيين لم تعمل عنه دفاتر خلال فترة الحملة الفرنسية ، وهناك ما يؤكد ان المعلومات التى وردت بهذه الدفاتر أخذت من الدفاتر السابقة عليها والتى كانت لا تزال فى حيازة المعلمين الاقباط ، كما يتضح ذلك من مقدمة الدفتر الخاص بولاية الشرقية ، وتحمل هذه الدفاتر تاريخ تحريرها وهو عام 1215 هـ (1800) (6) . ويتضح من هذه الدفاتر ان ضرائب عام 1213 هـ (1798) قد اتخذت اساسا لتقدير الضرائب على الارض الزراعية فى القرى ، ففى تعليق على قرية صنبو الوقف بمصر الوسطى جاء به «حكم واقع سنة 1213 هـ» وهو تعليق يتكرر فى أكثر من موضع (7) .

وحيث لا توجد سجلات لبعض القرى بمصر الوسطى اعتمد فى تقدير الضرائب ومساحة الارض على التخمين والمعلومات الشفوية ، يتضح ذلك من التعليق التالى على قرية بخريج «حكم المتملى وجه تخمين لكون لم يوجد لها تاريخ» (8) .

ومن الواضح ان هذه الدفاتر قد اتخذت اساسا لعملية جباية الضرائب خلال الفترة التالية ، فعقب خروج الفرنسيين قامت السلطات العثمانية بعمل دفاتر جديدة عام 1217 هـ (1802) اعتمدت على دفاتر عام 1215 هـ ، مع اضافة مصدر جديد هو معلومات الملتزمين ، يتضح ذلك من مقدمة دفتر ترابيع ولاية الغربية عن سنة 1217 هـ الذى جاء به «تاريع قراى مذكورين بموجب تاريع سنة 1215 هـ وبتعريف ملتزمين» (9) ووجود الملتزمين كمصدر للمعلومات فى الدفاتر الجديدة امر طبيعى لان الملتزمين بعد جلاء الفرنسيين كانوا حريصين على ان يثبتوا حقوقهم فى التزاماتهم بعد التطورات التى مرت بها نظم الحيازة زمن الحملة الفرنسية ، ذلك لان المصادر تشير الى ان ما يقرب من ثلث مساحة الاراضى الزراعية آلت الى السلطات الفرنسية ، وادارها موظفون فرنسيون بشكل مباشر ، وكان يقوم على جباية ضرائبها اقباط يشرف عليهم مفتشون فرنسيون (10) كذلك فان الدفاتر التى تم اعدادها عام 1805 اعتمدت فى بياناتها على دفاتر عام 1215 هـ فقد جاء فى مقدمة دفتر ترابيع ولاية الشرقية عن عام 1220 هـ ما نصه: «دفتر ترابيع الاموال الديوانية ككامل بلاد ولاية الشرقية سنة 1220 هـ حكم دفتر سنة 1215 هـ» (11) وفى الدفاتر التى جرى تحريرها بعد خروج الفرنسيين اصبحت ضرائب الارض تحدد حسب نوعيتها من حيث الجودة «عال ووسط ودون» كما اصبحت اراضى القرية تقسم الى احواض يظهر ذلك من مراجعة بعض القرى مثل قرية محلة حسن وقرية سمر باى (غربية) وقد قدرت ضريبة الارض من النوع العال فى القرية الاخيرة بمبلغ 135 بارة للفدان ، بينما قدرت الاراضى من النوع «الاوسط» بمبلغ 100 بارة ، اما الاراضى الدون فقد قدرت ضريبتها بمبلغ 90 بارة ، وبلغت ضرائب القرية المذكورة 378068 بارة عن مساحة اراضى القرية التى تبلغ 3600 فدانا (12) .

وهناك ما يفيد بأن علماء الحملة الفرنسية قد استفادوا من هذه الدفاتر فى اعداد بحوثهم عن الريف المصرى فى كتاب وصف مصر ، فالمعلومات التى أوردها ستيف فى مقاله عن قرى الانبوطين ومنية حبيش وبقلولة تتفق الى حد بعيد مع المعلومات الواردة عن هذه القرى بدفتر ترابيع الغربية عن عام 1217هـ السابقة الاشارة اليه (13) .

والحقيقة أن هذه الدفاتر تقدم معلومات لا غنى عنها لدراسة الريف المصرى فى مطلع القرن التاسع عشر ، واذا اخذنا القرى الثلاث السابقة الاشارة اليها، والتى كانت تمثل وحدة مالية وادارية واحدة لوجدناها تقدم معلومات مفيدة حول مساحة الارض وانواع الحيازة والضرائب فى هذه القرى ، ففيما يتعلق بمساحة الارض نجدها موزعة على النحو التالى :

اسم القرية	سهم	قيراط	فدان
الانبوطين	20	21	1626
بقلولة	4	10	476
منية حبيش	16	1	1106
ويبلغ اجمالى المساحة	16	9	3209 موزعة

ومن حيث الحيازة على النحو التالى :

نوعية الحيازة	سهم	قيراط	فدان
رزق	–	–	68
بور الجوالى	4	4	17
أوسية	16	21	171
فلاحة	20	4	2805
مناجزة	–	14	146

ومن دراسة توزيع الحيازة (فلاحة وأوسية ورزق) والضرائب يمكن تصور خريطة القوى الاجتماعية فى القرى الثلاث خلال تلك الفترة والفئات التى كانت تحصل على الفائض ، فمجموع الاموال المقررة على القوى الثلاث يبلغ 658514 بارة ، منها ما كان يذهب الى السلطة المركزية وهو الميرى ويبلغ 107382 بارة ، والفائض الذى يذهب الى الملتزمين وقدره 240247 بارة . أما البرانى فيبلغ 264288 بارة وهناك مبلغ 46597 بارة مخصص لاوجه الصرف المحلية ويعرف باسم «ملازم الناحية» وهذا المبلغ يتم استقطاعه من الضرائب الاجمالية لهذه القرى .

ويشير المصدر الى ان اراضى الفلاحة فى قرية الانبوطين كانت تنقسم الى اراضى «وسط ودون» ومعنى ذلك ان الاراضى الجيدة «العال» كانت ضمن اراضى الوسية التى يحوزها الملتزمون ، وبذلك تكون القوى الاجتماعية التى تحصل على الفائض هم الملتزمون والمشرفون على اراضى الوقف فى المحل الاول (14) .

ويشير دفتر ولاية الاشمونيين الى ان بعض قرى مصر الوسطى كان عليها ان تدفع كمية من السكر الخام كضرائب مثل قرية بنى حسن الشرق التى بلغت الكمية المقررة عليها من السكر 850 قنطارا ، بينما كانت قرى اخرى تدفع ضرائبها عينا من الحبوب مثل قرية تونة الجبل (15) .

وقد بلغت الضرائب المطلوبة من لاية الاشمونيين 3،591،999 بارة ، وبينما كان الميرى يبلغ 471340 بارة ، كان الفائض يصل الى 2،203،663 بارة ، كما

بلغ البرانى 916596 بارة ، ويشير المصدر الى ان اجمالى العجز فى القائض بلغ عام 1215 هـ 131698 بارة ٠

وقد جاء فى نهاية الدفتر المشار اليه ما نصه واما بلاد الولاية المذكورة نبع النيل أى التى تعتمد فى ريها على النيل ـ فكل سنة بالمساحة والقياس والشراقى ترفع لهم وكل سنة يزرعوا نبارى (16) ويدفعوا ماله ، وسنة يزرعوا كثير وسنة يزرعوا قليل ، والنبارى يخصم عن المال والغلال والاعتماد على المساحة (17) وعموما فان دفاتر الترابيع تشير الى حقيقة هامة ، وهى ان الجزء الاكبر من الفائض فى العمل الزراعى كان يذهب الى الملتزمين والسلطات المحلية ، وهؤلاء كانوا يستخدمونه فى اغراض مضادة لاهداف الدولة صاحبة السيادة ، الامر الذى يفسر أزمة النظام المملوكى العثمانى فى مصر فى نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ٠

دفاتر التواريع :

٠٠٠٠٠٠٠٠٠ كجزء من برنامجه الزراعى قام محمد على ابتداء من عام 1228 هـ (1813) بعمل مسح شامل للاراضى الزراعية فى مصر وتسجيلها بطريقة تضمن له السيطرة على مصادر الدخل فى القطاع الزراعى ، وقد أشرف على هذا العمل فى المرحلة الاولى المعلم غالى سرجيوس ومحمود بك أمين الديوان ، كما أشرف على أعمال المساحة ابراهيم باشا ابتداء من عام 1236 هـ (1820) ، وهى الفترة التى شهدت مسح اراضى الوجه القبلى ، واعادة مسح بعض اراضى الوجه البحرى (18) ٠

وقد قام بهذا العمل المعلمون الاقباط تحت اشراف بعض اعيان الوجه القبلى من امثال عبد الله فواز من أعيان العسيرات وحسن الشريعى من اعيان سمالوط وعلى عاشور من اعيان الدوير ، كما عمل مشايخ القرى كدلالين لتقديم المعلومات الضرورية لمساحة القرى (19)

وتشير بعض دفاتر التواريع الى ان بعض القرى تأخر مسحها حتى عام 1243 هـ ، مثل قرية الغنايم (أسيوط) التى جرى مسحها عام 1243 هـ (1827)(20) وتقدم هذه الدفاتر بدورها معلومات اكثر استفاضة عن سابقتها من حيث انواع الحيازة من أوسية ورزق وفلاحة التى ظلت واضحة فى هذه الدفاتر ، على الرغم من ان اراضى الرزق قد اخضعت للضرائب ، كما توضح تفصيلا نوعية الارض من حيث الجودة ، واجمالى مساحة اراضى كل قرية والتى تعرف بمساحة الزمام بما فى ذلك اراضى الابعادية التى لم تفرض عليها الضرائب لكونها غير مزروعة وتوضح انواعها المختلفة من الشراقى (التى لا تصلها مياه الرى) والبور الصالحة للزراعة ، ومساحات البرك ، والاراضى عالية الاملاح (مستملح) ، والجسور ، ومساحة الاجران ، ومساكن القرية ، وكلها تدخل فى نطاق الابعادية ، كما توضح مساحة الاراضى المزروعة التى اعفيت من

الضرائب تحت اسم «مسموح المشايخ» ، والتى خصصت لمشايخ القرى مقابل الخدمات التى يؤدونها للحكومة ، وبلغت نسبتها 1/26 من اراضى القرية (21) وفى نفس الوقت تشير هذه الدفاتر الى نوع آخر من المسموح خصصت لبعض أعيان القرى ، كمسموح مصاحب نظير استضافة المترددين على القرى ، يظهر ذلك فى قرية قليوب التى تم تخصيص مساحة 100 فدان من اراضيها كمسموح مصطبة للشيخ سالم الشواربى (22) .

واذا حاولنا أن نلخص المعلومات الواردة بأحد هذه الدفاتر وهو دفتر قرية محلة اسحق الملحق صورته بهذه الدراسة لجاءت النتائج على النحو التالى :

- ان عملية مسح القرية شارك فيها مشايخها كدلاليين وهما الحاج على حجازى ومحمد البلتاجى وأشرف عليها المعلم غالى سرجيوس ، يتضح ذلك مما جاء فى الصفحة الاولى من هذا الدفتر ونصه «تاريع الاراضى السلطانية بناحية محلت اسحاق (هكذا) من خط اريمون بولايت الغربية سنة 1228 ثمانية وعشرين ومائتين حكم واقع المساحة سداريت سليمان اغا حلونى مساحة الشيخ يوسف والمعلم يعقوب دلالت الحاج على حجازى ومحمد البلتاجى قصابت (اغفل النص اسم حامل القصبة او لقياس) صيرفت (اغفل النص اسم الصراف) المندوب من طرف (اغفل النص الاسم) عزيز مصر سربوابين زكاة عالى ناظر الولايات والمعلم غالى رئيس المباشرين وذلك حكم الامر الصادر من سعادة ولى النعم والى مصر حالا ادم الله اجلاله» .

- ان جملة مساحة زمام القرية بلغت 3143 فدانا ، كما أن اجمالى اراضى الابعادية بلغت 618 فدانا (23) .

- بلغت الاراضى المزروعة القابلة للزراعة والتى تحمل اسم معمور 2525 فدانا بالقرية .

- بلغت مساحة الاراضى التى خصصت لمشايخ القرية معفاة من الضرائب 81 فدانا وجاءت تحت اسم «مسامح المشايخ والخدمة من معمور الفلاحة كل مائة فدان واربع اربع فدادين» أى انها قدرت بنسبة 1/26 من اراضى القرية .

- بلغت مساحة اراضى الوسية التى تركت فى حيازة الملتزمين معفاة من الضرائب 34 فدانا تحت اسم «أوسية مفروجة باسم الملتزمين» .

- كذلك فقد اعفيت مساحة قدرها 193 فدانا من الضرائب من الاراضى البور الصالحة للزراعة لانها لم تكن مزروعة .

- ان مساحة اراضى الرزق والاوقاف بهذه القرية بلغت 189 فدانا فرضت عليها الضرائب كغيرها من الاراضى كجزء من اجراءات محمد على فى القطاع الزراعى ، وبلغت الضرائب المقررة عليها 118 ريالا على اعتبار أن الضريبة

المقررة على الفدان فى هذه القرية هى 6 ريالات . وقد خصص من هذا المبلغ 559 ريالا كفوايض لاصحاب هذه الرزق تحت عنوان «اصحاب رزق تحت الافراج» ، وهو مبلغ يمثل نصف ضرائب هذه الرزق ، وتم خصمه من اجمالى ضرائب القرية التى بلغت 13298 ريالا ، وبذلك يصبح مجموع الاموال المطلوبة من هذه القرية بعد دفع فوايض الرزق 12739 ريالا (24) .

ـ ان اراضى القرية وزعت على احواض او قبالات وان بعضها ترك الانتفاع به بشكل جماعى تحت اسم «رواك الناحية» .

ـ ان الضرائب التى سبق تحصيلها من الفلاحين فى هذه القرية تخصم من الاموال المقررة عليهم ، كما تخصم على الملتزمين كجزء من الفائض المستحق لهم ولا يحصل من الفلاح اى ضرائب اخرى مثل «كلفة القائم مقام» او «تقدمة الملتزم» وهى عادات كانت القرية تدفعها للسلطات المحلية او للملتزمين ، يتضح ذلك من النص الآتى الوارد بنهاية الدفتر :

«توضح على موجب المشروح اعلاه لا زايد ولا ناقص ولا يكون على الفلاح لا كلفة قايمقام ولا تقدمة ملتزم ولا لطرف حاكم الولاية ولا فرط ولا لعادة ولا لشى يقال له شى حكم الامر العالى وذلك عنما وجد بالمساحة مزروع خارجا عنما يجد بعد المساحة وجميع ما وصل الملتزم بموجب رجع (هكذا) يخصم للفلاح من اصل المطلوب ويخصم على الملتزم من اصل المطلوب ويخصم على الملتزم من اصل المطلوب له والعمل على الترابيع الذى يعمل وخلاص المساحة ومعاملة المساحين تحريرا فى شهر جماد آخر سنة 1229» .

وهناك حقيقة هامة يؤكدها هذا الدفتر مع غيره من الدفاتر ، وهى ان محمد على قد قام بتوزيع اراضى القرى على حائزيها بنسب متفاوتة حسب مقدرة كل فلاح على زراعتها ، وكانت اراضى الحوض الواحد توزع على مجموع الحائزين حتى يحصل كل منهم على قدر من الاراضى الجيدة وغير الجيدة .

وتوضح هذه الدفاتر ايضا انه كان هناك تفاوت من البداية بين الحائزين فى القرية الواحدة ، وبين اهالى قرية واخرى (25) . وفى احوال نادرة كانت بعض القرى تتلقى مساحات من القرى المجاورة ، مثل قرية الغنايم التى تلقت مساحة قدرها 1196 فدانا من اطيان القرى المجاورة لها (26) . وقد ظلت اوضاع الحيازة متغيرة فى هذه الدفاتر الى ما بعد عام 1840 حيث كان العامل الحاسم فى الحيازة هو قدرة الفلاح على زراعة الارض .

دفاتر المكلفات :

.... ظهر تعبير مكلفة فى دفاتر الاراضى الزراعية ابتداء من عام 1236 هـ ـ (1820) ، ففى دفتر تاريع ناحية برج نور الحمص نجد ما نصه «دفتر مبارك ان شاء الله تعالى يضم علم غنداق الاراضى السلطانية وتكليف

الاموال الديوانية بناحية برج نور الحمص بخط المنصورة الثانى بولاية الدقهلية عن واجب سنة 1236 هـ ، كما جاء فى نهاية هذا الدفتر ما نصه» «قد تحرر هذا التاريخ المشتمل على مكلفت الاموال الديوانية حسب سنة 1236 هـ» (27) . ونفس العبارة تقريبا نجدها فى مقدمة دفتر ناحية دويدة دقهلية «دفتر مبارك ان شاء الله تعالى الكريم يتضمن غنداق الاراضى السلطانية ومكلفت الاموال الديوانية بناحية دويدة ......» (28) .

ثم اصبح تعبير مكلفة يطلق على دفاتر الاراضى ابتداء من عام 1259 هـ (1843) ، يتضح ذلك من مراجعة دفاتر قريتى الغنايم وبرج نور الحمص – على سبيل المثال (29) . وقد شهدت المكلفات بعض التغيير فى طريقة تسجيل الارض ، حيث اصبحت وحدة التسجيل هى الحصة ، وهي جزء من اراضى القرية يخضع اداريا لاحد مشايخها ، وتضم الحصة عددا من الحائزين ، وتتفاوت مساحتها من حصة لاخرى ، يتضح ذلك من الجدول الآتى المستخلص من مكلفة قرية الغنايم عن عام 1271 هـ (1854) ، والذى يوضح اسماء مشايخ القرية ، ومساحة حصصهم ، وحيازتهم ، واراضى المسموح لكل منهم (30) .

اسم الشيخ	مساحة الحصة فدان	حيازة شيخ الحصة فدان	اراضى المسموح لكل شيخ فدان
بخيت عبد البارى	575	43	21
عبد القادر فرغلى	499	28	18
حسن على عسكر	392	56	14
احمد عطيفى	371	29	13
حسن احمد	370	23	14
عبد القادر فرغلى	499	16	14
ابو داود رفاعى	360	25	13
محمد خطاب	340	29	12
عوض بخيت الساجد	327	24	12
بدران عبد الخالق	258	18	9
محمد سالم عاشور	243	22	8
بخيت درغام	226	15	8
ابراهيم الديك	69	44	2

وفى المكلفة اصبحت حيازة الفلاح تذكر جملة موزعة على احواض القرية واجمالى الاموال المطلوبة من كل حائز حسب نوع فئات الضرائب .

والمكلفات الى جانب انها تمثل مصدرا لا غنى عنه لدراسة تطور توزيع الملكية فى القرية المصرية ، فانها تمثل مصدرا لدراسة التحولات الاقتصادية والاجتماعية فى الريف المصرى ، والاعباء المالية التى تضاعفت اكثر من مرة على القرية المصرية خلال فترة تقل عن نصف قرن ، فعلى سبيل المثال ارتفعت الاموال المطلوبة من قرية الغنايم من 76165 ريالا عام 1243 هـ (1827) (31) الى 472370 قرشا عام 1869 ، بما فى ذلك ة رائب النخيل (32) ، ومعنى ذلك ان الضرائب تضاعفت ثلاث مرات تقريبا خلال هذه الفترة .

كذلك فان دفاتر المكلفات تقدم مصدرا هاما لدراسة خريطة القوى الاجتماعية فى القرية المصرية ، وبروز طبقة اعيان الريف وخاصة مشايخ القرى الذين اصبحت فى حيازتهم مساحات كبيرة من اراضى القرية منذ فترة ترجع الى اواخر عصر محمد على ، كما انهم استطاعوا تنويع نشاطهم الاقتصادى فى الريف .

واذا حاولنا دراسة هذا الموضوع فى قرية أبيار اعتمادا على مكلفتها فى عام 1264 هـ (1848/47) سوف نصل الى الحقائق الآتية :

- ان ثلاثة من مشايخ القرية هم السيد احمد محمد الشريف ويوسف البرادعي واحمد الشاعر يحوزون 1116 فدانا من اجمالى مساحة القرية البالغ 3977 فدانا .

- انه من بين ست معاصر للزيوت واربع سيرج (محلات لبيع الزيت) موجودة بالقرية كان هؤلاء المشايخ الثلاثة يملكون ثلاثا من هذه المعاصر وثلاثا من السيرج ، بواقع معصرة وسيرجة لكل منهم .

- ان السيد احمد محمد الشريف وهو اكبر مشايخ القرية بلغت حيازته 595 فدانا من بينها 50 فدانا معفاة من الضرائب كمسموح ، الى جانب ملكية المعصرة والسيرجة وعدد من انوال النسيج (33) .

واخيرا فان المكلفات تشير الى الدور الذى لعبه الاجانب واغنياء المدن فى الريف المصرى عن طريق اعمال الرهونات وشراء الاراضى ابتداء من عصر اسماعيل ، فعلى سبيل المثال تشير مكلفة ناحية بقطارس (دقهلية) الى نشاط التاجر جريس اسطفانوس الذى استقر فى قرية كفر اللاوندى فى نهاية عصر محمد على ، وراح يشترى الارض فى القرى المجاورة ، واستطاع خلال الفترة من عام 1879 الى 1881 أن يشترى 124 فدانا مملوكة لاكثر من ثلاثين اسرة من اسر الفلاحين بقرية بقطارس ، بينما اشترى اليونانى قسطنطين بنولى اكثر من عشرة افدنة من اراضى هذه القرية خلال نفس الفترة (34) .

كما توضح مكلفة برج نور الحمص نشاطا مماثلا لجريس اسطفانوس فى شراء الارض ، حيث اشترى خلال تلك الفترة اكثر من 61 فدانا من 16 أسرة

من ابناء القرية ، وتوضح نفس المكلفة نشاطا كبيرا للاجانب ايضا فى هــذه القرية ، فقد اشترى الاجنبى الكسانوقسطنطنيدس التاجر بالاسكندرية 10 أفدنة من اطيان الشافعى عتبة واخيه وذلك بعقد فى صفر 1297 هـ ، اما الاجنبى صوصة فقد اشترى 6 أفدنة ونصف ساقية من المدعو احمد عيسى بعقد فى ربيع أول عام 1297 هـ من محكمة المنصورة نظير مبلغ 9846 قرشا (35) .

وهكذا فان دفاتر تسجيل الاراضى من تواريع ومكلفات تمثل مصدرا لا غنى عنه لدراسة التحولات الاقتصادية والاجتماعية فى الريف المصرى فى القــرن التاسع عشر .

د. علي بركات
كليــة الآداب ـ جامعة المنصورة
جمهورية مصر العربية



العلاقات الاجتماعية فى مصر العثمانية دراسة لوثائق ديوان الروزنامة وأحكام المحاكم الشرعية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر

د. عبد الوهـاب بـكـر

تمهـيـد

ما زال تاريخ الولايات العربية فى العهد العثمانى زاخرا بالمعلومات والبيانات التى تحويها وثائق حكم دام اكثر من اربعة قرون ـ وتشهد دور الحفظ فى استانبول والقاهرة وفيينا ولندن وباريس وغيرها بغزارة المادة الوثائقية المحفوظة عن العصر العثمانى سواء فى هذه الولايات ـ ام عن علاقات الدولة العثمانية بباقى دول العالم .

ويلاحظ المهتم بدراسة تاريخ الولايات العربية فى العصر العثمانى ندرة ما كتب من ابحاث بالمقارنة بهذا الكم الضخم من المادة الوثائقية التى تنتظر من يكشف عن الثروات الخبيئة فيها .

فاذا انتقلنا الى الجانب الزمنى من العهد العثمانى ـ فاننا نقول ان النادر مما كتب تناول القرنين التاسع عشر والعشرين بينما كان نصيب القرون من السادس عشر الى الثامن عشر قليلا .

وحتى هذا القليل من الكتابات عن هذه القرون ـ فانه لم يغط تاريخ المنطقة العربية جغرافيا ـ ففازت بعض الولايات بنصيب وافر بينما جرى تجاهل البعض الآخر تماما ـ كذلك فان هذا التاريخ لم يغط موضوعيا ـ فما زالت هناك جوانب هائلة غامضة من التاريخ الاقتصادى والاجتماعى والثقافى والعسكرى للولايات العربية قابعا فى ظلمات الاقبية ينتظر جهود الباحثين للكشف عنه .

وقد عنى أغلب من تصدوا للتاريخ العثمانى بصفة عامة بدراسة الجوانب السياسية والادارية والمالية للفترة دون ان تمتد عنايتهم الى جوانب عديدة ـ جديرة بالتسجيل ـ وحسنا فعل المؤتمر العالمى الاول للجنة العربية للدراسات العثمانية المنعقد فى تونس عام 1984 م لدراسة «الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادر وثائقها فى العهد العثمانى» ـ عندما انتهى الى قرار بان تكون حلقته الثانية حول «الحياة الاجتماعية للولايات العربية ومصادر وثائقها فى العهد العثمانى» ـ والتى نقدم دراستنا هذه اليها .

والخوض فى العلاقات الاجتماعية فى مصر العثمانية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر هو نوع من ركوب بحر متلاطم الامواج ـ فالقضايا الاجتماعية

تحتاج الى تدقيق فى التحليل للانتهاء الى نتائج صحيحة من ناحية ـ والكتابات التى رصدت واقع المجتمع المصرى فى الفترة موضوع الدراسة ـ من ناحية اخرى قليلة ـ وتكاد تنحصر فيما كتبه ابن ابى السرور البكرى الصديقى (الروضة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية) ـ وأحمد الدمرداش كتخدا عزبان (الدرة المصانة فى اخبار الكنانة) ـ واحمد جلبى عبد الغنى (اوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات) ـ واخيرا الجبرتى الذى اكمل ما بدأه (عبد الغنى) فى «عجائب الآثار فى التراجم والاخبار» •

ومن نافلة القول الحديث عن الصعوبات التى تكتنف البحث فى العلاقات الاجتماعية بالاعتماد على هذه التواريخ ـ نظرا لاسلوب كتابتها غير المترابط ـ والذى كان سمة الكتابة فى ذلك العصر ـ وخلو هذه الكتابات من التحليل والاسناد ـ وانقطاع المادة التاريخية والاشتباك بمواضيع اخرى بعيدة عن المواضيع التى كانت محل المناقشة (1) •

لكن الاستعانة بهذه المصادر ـ الى جانب مصادر التوثيق الاصلية المودعة بدور الحفظ ـ قد يخفف الى حد ما من عناء البحث عن المظان الاصلية للتاريخ الاجتماعى أو غيره من التواريخ •

وفيما يتعلق بدراستنا هذه «العلاقات الاجتماعية فى مصر العثمانية» ـ فان مصادر توثيق هذه العلاقات ، توجد ـ الى جانب كتابات المؤرخين السابق ذكرهم ـ فى سجلات المحاكم الشرعية المودعة بارشيف مصلحة الشهر العقارى والتوثيق بالقاهرة وفى دار الوثائق القومية بالقلعة ـ وتحوى هذه السجلات احكام وتقارير المحاكم الشرعية التى غطت فترات طويلة من الحكم العثمانى (2) ـ وهذه الاحكام والتقارير على تنوع موضوعاتها ومسائلها تقدم

---

(1) عن نقد كتابات مؤرخي القرنين السابع عشر والثامن عشر – راجع الدكتور احمد طربين « التاريخ والمؤرخون العرب في العصر الحديث » – دمشق 1970 .

(2) كانت المحاكم الشرعية خلال الحكم العثماني في مصر هي : محكمة مصر القديمة – محكمة الصالحية النجمية – محكمة طولون – محكمة البرمشية – محكمة الزاهد – محكمة باب السعادة والخرق – محكمة الصالح – محكمة بولاق – محكمة جامع الحاكم – محكمة قناطر السباع – محكمة قوصون – محكمة باب الشعرية – الى جانب محكمة الباب العالي بالقاهرة والتي كانت تعد المحكمة العليا في مصر ولها اختصاصات لا يجوز للمحاكم الأخرى مباشرتها ومحكمتي القسمة العسكرية والعربية اللتين اختصتا نوعيا بمسائل التركات – وفي الأقاليم كانت هناك محاكم : ثغر الاسكندرية – ثغر رشيد – ثغر دمياط – المنصورة . المحلة الكبرى منف العليا – ا لجيزة – دمنهور – بني سويف – بلبيس – الفيوم – الخانقاه – منية بن خصيب – منفلوط – جرجا – زفتي – المنزلة – اسيوط – تزمنت – سلسلمون – البهنسا – سنديون – النحارية – سنبواه – دلجا مع اشمونين الفشن – محلة ابو علي الغربية – محلة مرحوم – فوه – طهطا – المنشية قنا – قوص – أبو تيج – الواح – البرلس .
انظر الدكتور / محمد نور فرحات ، « التاريخ الإجتماعي للقانون في مصر الحديثة » ، ص 378 .

صورة واضحة لاحوال المجتمع المصرى وترسم اطار الحياة اليومية فى مصر من خلال تسجيل دقيق لاغلب علاقات التعامل ٠

كذلك فان وثائق (ديوان الروزنامة) بدار الوثائق القومية بالقلعة تسهم بقدر غير قليل فى كشف غموض العلاقات الاجتماعية فى مصر العثمانية بما تحويه من صكوك التزام ومراسلات وأوامر ـ يتضح منها علاقة الحاكمين بالمحكومين ـ وعلاقة رجال الدين والعلماء والمشايخ بالسلطة ٠

وقد استعنا فى هذه الدراسة بسجلات المحاكم الشرعية ووثائق ديوان ديوان الروزنامة ـ الى جانب الكتابات التاريخية لمعاصرى الفترة موضوع الدراسة ٠

وتقدم هذه الدراسة صورة للعلاقات الاجتماعية فى مصر العثمانية من خلال نماذج تعرض لها ـ هى على التوالى (الطبقة الحاكمة) ـ (الطبقة الوسيطة) ـ (اهل الذمة) ـ (النساء) ـ (الاحوال الشخصية) ـ (علاقة السلطة بالمحكومين)٠

1 ـ **الطبقة الحاكمة :** خضع المجتمع المصرى على مدى الفترة (1517 ـ 1798 م) لحكم عثمانى منفرد ، حتى بدايات القرن السابع عشر عندما اصبح هذا الحكم ـ الى حدما ـ مشتركا بين العثمانيين والعناصر المملوكية التى استطاعت فى ظل ظروف ضعف الدولة العثمانية بدأ من نهايات القرن السادس عشر ـ ان تثب الى مواقع السلطة ـ وأن تزاحم السلطة الشرعية ـ وان تغتصب السلطة فى النهاية ٠

ولقد كانت فكرة الدولة العثمانية عن (مفهوم الحكومة) تتلخص فى ثلاث امور أساسية (الادارة المالية : لتوفير الاموال لخزينة الدولة) (القضاء : لتنفيذ الاحكام بين الرعية) (الدفاع : لضمان بقاء الولاية تحت سيطرة الدولة الام) ـ وما عدا ذلك من وظائف الدولة حسب المفاهيم الحديثة ـ كالتعليم ـ والصحة ـ والامن ـ والشؤون الاجتماعية ـ فقد كانت خارجة عن نطاق اهتمامات النظام الحاكم ـ وتركت اغلب هذه الامور للرعية يديرونها وفق مصالحهم ٠

كذلك فان مفهوم الدولة للعلاقة بين الحاكمين والمحكومين كانت تفسره حقيقة ان السلطان العثمانى كان يبدأ مهام منصبه بقوله «لقد ورثت ملك الامبراطورية عن آبائى وأجدادى» ـ ومؤدى هذا وفقا لنظم العصر العثمانى ، ان الارض التى تخضع للسلطان ملك له بمن عليها من الكائنات الحية ـ يتصرف فيها كيف يشاء دون أى اعتبار لشيء ـ سوى ارادته فقط .

وتبعا لتسلسل السيادة ـ فان هذا المفهوم كان ينتقل من السلطان (ظل الله فى الارض) ـ الى عبيده الحكام فى الولايات ، الذين ينفذون اوامره ويسهرون على انفاذ ارادته فى عبيده (الرعية) .

وفى ظل هذا المفهوم لعلاقات الحاكم ـ والفئة المحيطة به بالطبع ـ بالرعية ، فان (الضبط الاجتماعى) كفكرة تستهدف ضبط البناء الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع وضبط السلوك الانسانى والانتاج والحياة الاجتماعية ـ تطرح نفسها فى سؤال محدد :

«هل كان الضبط الاجتماعى ـ ووسائله ـ ومن بينها القانون ، يجدان مكانا لهما فى مجتمع مصر العثمانية ؟

من واقع مفهوم السلطة الذى ذكرناه فى السطور السابقة ـ فان (الضوابط) على ممارسة الحكام لسلطاتهم فى مواجهة الرعايا كانت (باهتة) ـ بمعنى امتداد سلطة الحكام على الرعية دون اعتراف من جاب الاولين بحقوق للاخيرين .

وفى مجتمع هذا شأنه ـ فان (الانعزال) بين طبقاته يكون علامة بارزة لا يغير منها اعادة توزيع مناصب السلطة بين الطبقة الحاكمة ـ ولا تغير الحيازة الزراعية من ملتزم الى آخر العلاقة بين الفلاح والاخير ـ كذلك فان العلاقة بين طوائف الحرف والسلطة تبقى دون تغيير ـ كما يتميز بثبات اجتماعى لا تمسه تغييرات الا تلك التغييرات الفوقية التى تمس الشريحة العليا منه القائمة على الحكم .

كذلك فان هذا النوع من المجتمعات ينتهى الى اعتياد الرعية مع الوقت على معايشة النظام دون محاولة التأثير فيه أو تغييره ـ اللهم الا فى حالات نادرة ـ وتنظيم اغلبية هذا المجتمع لحياته اليومية بعيدا عن النظام الحاكم الذى لا يعنى كثيرا بشؤونه .

ولقد كانت هذه الظواهر هى السمة الغالبة لمجتمع مصر العثمانية ـ وساعد على ابقاء هذه الظواهر ـ ما قام عليه النظام العثمانى من (ابقاء ماكان على ما كان) وغياب الفكرة التنظيمية السياسية أو الاجتماعية .

لذلك فانه لم يكن غريبا مع هذا الانعزال التام بين (الحاكمين) و(المحكومين) ـ ان يكون (الانفصال) هو اوضح مظاهر العلاقات بين الطبقتين .

وفى ظل هذه الظروف اغتصبت حقوق الافراد من جانب اصحاب العصبيات ـ وشاركهم فى ذلك النظام الحاكم عندما تدهور خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

واذا نحن أردنا أن نرسم تصورا للمجتمع المصرى خلال العصر العثمانى ـ فاننا نستطيع ان نقول انه كان مجتمعا يتشكل من (صفوة ارستقراطية) من الحكام والعسكريين ـ تستأثر بالمناصب والالقاب والمال والحكم .

(وطبقة العامة) من ابناء الشعب المصرى الذين وقع على كاهلهم عبء تحمل سطوة السادة من ناحية ـ والعيش فى ظل ظروف السلب والنهب والنصب من جانب هؤلاء ـ من ناحية أخرى .

وبين هؤلاء وهؤلاء وقعت شريحة من المصريين استطاعت فى ظل ظـروفها الوظيفة ان تجد لها مكانا وسطا ارتاحت اليه وقبعت لا تلوى عـلى شيء — ناعمة بالرضا والانعامات التى كان يلقيها اليهم اهل الطبقة الحاكمة بين حين وآخر — وهؤلاء هم رجال الدين والعلماء والمشايخ ·

ويلى هؤلاء — او ربما يقف معهم على قدم المساواة — جماعات التجار من سكان المدينة الذين كانوا اسعد حالا من جموع العامـة — وان كـانوا غيـر محصنين مع ذلك ضد تجاوزات الحكام والسادة ·

ولقد كان المفترض ان يكون (القضاء) — باعتباره الجهاز المطبق الرئيسى لوسيلة المجتمع فى ضبط بنائه — اى القانون — هو الملاذ الوحيد فى مجتمع التناقض الطبقى هذا — بحيث يستطيع بما يحوزه من اسباب المنعة ان يقف حائلا دون تجاوزات الطبقات على بعضها مستخدما وظيفتى (القانون) من حيث معاملته لهؤلاء الذين يقومون باعمال عدوانية بطريقة حاسمة ورادعة · وتصرفه بطريقة اجبارية ملزمة فى تطبيق الجزء الموضوعى الملزم المادي المتساوي ·

وقد كشف لنا (القضاء فى مصر العثمانية) من خلال ممارسته لدوره فى تنظيم العلاقات بين طبقات المجتمع المصرى عن أمرين : — اولهما — أنه سجل الفارق الطبقى الهائل بين عناصر البشر فى مصر العثمانية — مؤكدا وجـود هذا الفارق — وثانيهما انه (اى القضاء) قدم صورة لحقيقة دوره كجهاز فى مجتمع مصر العثمانية من خلال رصده فى احكامه وتقريراته لاحوال علاقات التعامل بين الناس نتيجة ظروف الحياة اليومية التى لا بد ان تخلـق هـذه العلاقات ·

كانت اولى مظاهر الفوارق الطبقية بين الحكام والمحكومين هو ، ما اسبغته احكام المحاكم الشرعية فى الفترة موضوع الدراسة — من نعـوت التشـريف والتكريم على اهل الفئة الحاكمة فى كل أمر يرد ذكرهم فيه — سواء كانت احكام المحاكم هذه (لهم ام عليهم) ·

ونبدأ بالحاكم او (الباشا) نائب السلطان فى الولاية — الذى كان اسمـه لا يذكر دون تقديمه بنعوت (حضرة مولانا الوزير المكرم والمشير المفخم مدبر أمور الامم فى البر والبحر واليم — صاحب السيف والقلم والطبل والعلـم — والشجاعة والكرم — والخدم والحشم — والقوة والعفة — جمال الدولة العمثانية — طراز العصابة الخاقانية — وزير المملكة السلطانية بالديار المصرية — لازالت لعزته اعناق الجبابرة خاضعة — وافئدة الظلمة خاشعة) ··· (3)

ثم يليه (قاضى القضاة) وهو أحد افراد النظام العثمانى الحاكم الذى كان يأتى من قبل الدولة ليرأس الجهاز القضائى فى الولاية — وهذا كان يتمتـع

(3) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 107 ص 019 و 100 ص 18 سنة 1054 هـ

بالقاب «مولانا شيخ الاسلام قاضى القضاة جمال الموالى الكرام تاج الائمة الاعلام» «المولى الاعظم ــ العلامة الاجل الاكرم ــ اوحد العلما الاعلام ــ اشرف السادات الاعزة الكرام ــ الناظر فى الاحكام الشرعية ...» مكين العلما الاعلام ... (4) .

وتتدرج ألقاب التشريف والتكريم بتدرج المناصب وصولا الى اعوان القضاة من المفتين والعدول ... (5) .

وقد يرد على ذلك بان توقير رأس الدولة (الوالى) ورجال القضاء والدين فى نصوص احكام المحاكم أمر طبيعى ــ بحسبان أن الوالى هو اكبر موظف عثمانى ونائب السلطان فى الولاية ــ كما ان الدولة العثمانية كانت دولة اسلامية ومن ثم فان اسباغ اوصاف التشريف على القضاة ومطبقى احكام الشريعة الاسلامية ــ وأعوانهم لا يجافى واقع الحال .

لكن هذه النعوت واوصاف التكريم كانت تسبغ على اهل الصفوة فى احكام المحاكم فى كافة امور التداعى ــ سلبية او ايجابية وسواء أكان اصحاب هذه الاوصاف مدعين او متهمين ــ وهو ما يدعو الى التساؤل عن دور القضاء اذا مثل هؤلاء الكبراء فى مسائل تستدعى الزجر والعقاب .

كانت تسبق اسماء اهل الصفوة القاب «فخر الاعيان ــ عالى الشان ــ الجناب العالى ــ فخر ذوى المعالى ــ فخر الاكابر الصلحا ــ فخر الاماجد ــ مجمع المحامد ــ فخر الاعيان ــ كمال الاعزة ــ ذوى الشان ــ قدوة الامرا الكرام ــ عين الكبرا الفخام ...» (6)

على انه اذا كان مقبولا اسباغ هذه الاوصاف على اهل الطبقة الحاكمة فى علاقات (المعاملات) ــ وهى التى تمثل الجانب الهادىء فى علاقات الطبقة الحاكمة بالمحكومين ــ او بافراد الطبقة نفسها ــ فان غير المقبول ــ كما قلت ــ ان تستمر الفاظ التشريف لاصقة بهؤلاء الحكام فى القضايا التى يتهمون فيها بالقتل او التعدى على حقوق الغير ــ أو اغتصابها ــ وهو ما سنقدم له فى مواضع أخرى .

---

(4) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة (1) ص 1 سنة 1054 هـ — ودار الوثائق القومية — ديوان الروزنامة دفتر مقاطعات نواحي خاصة ولاية الشرقية والمنصورة وقليوبية وبحيرة وطفيح والواحات ومنزله وفارسكور مع طرانة سنة 1146 (التزام) رقم الحفظ النوعي 312 — عين 5 — مخزن تركي 1 — ودفتر اصول مال اسكلها ومقاطعات تابع قلم شهر عن سنة 1134 .

(5) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 19 ص 4 — و 15 ص 3 سنة 1056 هـ — ودار الوثائق القومية — ديوان الروزنامة — محفظة 509 .

(6) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 19 ص 4 — و 32 ص 5 — و 219 ص 38 سنة 1056 هـ .

ولم يقتصر التميز الطبقى فى مصر العثمانية فى الفترة موضوع الدراسة على رجال الطبقة الحاكمة فقط ...... وانما امتد ليشمل نساءهم أيضا .

ففى المسائل التى كان للنساء فيها طرف كان التمييز يبدو واضحا فى النعوت والاوصاف التى تختص بها نساء الطبقة الحاكمة دون نساء العامة ــ فنساء العامة كن يلقبن (بالحرمة) و (المرأة) (7) فى كل الحالات التى يرد ذكرهن فيها من شراء أو بيع أو طلاق او نفقة او دعاوى جنائية ... الخ .

اما نساء الطبقة الحاكمة فكانت لا تذكر اسماؤهن الا مسبوقة بالفاظ التشريف : ــ «بالباب العالى .... لدى ...... بحضرة .... و .... كلاهما بمنزل الجناب العالى عثمان اغا وكيل دار السعادة العظمى حالا .. والجناب المكرم ... تابع عثمان اغا ..... أشهد على نفسه فخر امثاله المكرمين .... ابن .... شهوده الاشهاد الشرعى وهو بأكمل الاوصاف المعتبرة شرعا انه اسقط حقه لفخر المخدرات الست المصونه والجوهرة المكنونة بيهانه خاتون بنت المرحوم ... والمشمولة بوكالة زوجها فخر الاعيان الكرام كمال اولى الشان الفخام الجناب المكرم والمخدوم المعظم الحاج عبد الله اغا تابع وخازندار عثمان اغا المشار اليه ...» (8)

ومن الالقاب الاخرى التى كانت تسبغ على نساء هذه الطبقة الى جانب ما ورد بالوثيقة السابقة «معتوقة فخر المخدرات و «تاج المستورات» و «ذات الحجاب الرفيع» و «الحصن البديع المنيع» ... الخ (9) .

ومثلما كان رجال الدين ينالون قدرا ــ ولو ضئيلا من التكريم عند ذكر اسمائهم فى سجلات المحاكم ــ فان من ينتسبن اليهم من النساء كن ينلن مثل هذا القدر من التكريم ، باضافة لقب (المصونه) قبل الاسم ــ ولقب (خاتون) بعده .

«بالباب العالى ... لدى ... بحضرة ...... اشهدت على نفسها المصونة .... خاتون بنت المرحوم ..... من اعيان اهل الافادة والتدريس بالجامع الازهر كان تغمده الله بالرحمة والرضوان ... الخ (10) .

---

(7) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة (37) – (39) – (45) – (78) – (80) – (87) سنة 1056 ه .

(8) دار الوثائق القومية – ديوان الروزنامة – محفظة روزنامة رقم 97 سنة 1210 ه .

(9) دار الوثائق القومية – ديوان الروزنامة – محفظة روزنامة 96 سنة 1220 ه .

(10) دار الوثائق القومية – ديوان الروزنامة – محفظة 509 من 1219 ه الى 1243 ه .
وخاتون كلمة فارسية تقابل كلمة (سيدة) في اللغة العربية – ولم تكن كلمة (خانم) تستعمل في الفاظ التشريف للنساء في ذلك الوقت – وهي كلمة فارسية من شقين (خان) بمعنى منزل ثم تضاف اليها (م) اداة الملكية للفرد (انا) فتعني (منزلي) على أعتبار أن الزوجة هي بمثابة منزل الرجل لا يدخله احد غيره – حرفت الكلمة بعد ذلك في مصر الى (هانم) دون ان تعني المعنى اللغوي لها .

على أن أهم ما ميز نساء الطبقة الحاكمة عدم ورود ذكر لهن فى قضايا الاحوال الشخصية على الاطلاق ـ اللهم الا فى حالات نادرة تتعلق بزوجات او مطلقات افراد الاوجاقات العسكرية من اصحاب الرتب الصغرى الذين كان يطلق عليهم وصف (من طايفة المستحفظان او العزب أو ٠٠٠٠ أحد الاوجاقات السبعة) بما يعنى انهم فى مستوى الافراد (انفار) ـ او من ماثلهم من رجال الاوجاقات الذين لا تتجاوز رتبتهم (بلوكباشى) وهى رتبة منخفضة فى الاوجاق العثمانى ٠

«لدى مولانا قائم مقام ، أصدق النورى على بن على من طائفة مستحفظان قلعة مصر علوفه 5 بلوك 37 مخطوبته الحرمة كريمة المرأة بنت محمد بن همام الهوارى صداقا قدره ٠٠٠٠ الخ» (11) ٠

و« أقر فخر الامثال مراد بن محمد بلك باشى طايفة الينكجرية بمصر اقرارا شرعيا وهو فى كمال الصحة والسلامة والطواعية والاختيار وجواز الاشهاد عليه شرعا من غير اكراه ولا اجبار ان عنده فى ذمته بحق صحيح شرعى ووجه قرعى مرعى لحرمه المصونة مباشرين المرأة بنت المرحوم الخواجا عبد الكريم ابن المرحوم ناصر الدين القليوبى المعصرانى ببولاق القاهرة ٠٠٠٠٠٠ مبلغا من القروش الفضة ٠٠٠» (12) ٠

و «ادعت الحرمة بدرة المرأة ابنة على الببلاوى على مطلقها احمد بن عبد الله من طايفة عزب القلعة (اوجاق العز بان المستقر بالقلعة) انه طلقها طلقة واحدة مكملة لعدد الطلقات الثلاثه وانها مشتملة منه على حمل ظاهر وطالبته بنفقة الحمل الى انقضاءه بالوضع ٠٠٠ الخ» (13) ٠

ومع هذا فانه يبدو أن ذكر هاته النسوة فى سجلات المحاكم الشرعية لايعود الى انهن كن زوجات او مطلقات لافراد الطبقة الدنيا فى الجهاز العثمانى فقط ـ وانما يعود فى اعتقادنا الى أنهن كن من طبقة العامة حسبما توضح اسماؤهن وأسماء آبائهن ٠٠٠ وهى حقيقة نخلص منها فى مقام العلاقات الاجتماعية الى أن افراد الطبقة الدنيا من الجهاز العثمانى الحاكم كانوا يصهرون الى طبقة اولاد البلد من المصريين ٠

وفى نفس الوقت فان عدم عثورنا على حالات شخصية لغير هؤلاء تؤدى الى طرح عدة تساؤلات تفرض نفسها :

ـ هل انعدمت حالات الاحوال الشخصية بين افراد الطبقة الحاكمة ٠٠٠ وهذا غير متصور ٠

---

(11) سجل محكمة الباب العالي (123) وثيقة (3) ص 1 بتاريخ 1055/2/2 و (علوفه) تعني راتب – اي رقمه المسلسل في دفتر الرواتب هو (5) .
(12) سجل محكمة الباب العالي (123) وثيقة 44 في 1056/1/8 هـ .
(13) سجل محكمة الباب العالي (123) وثيقة 80 في 1056/1/13 هـ .

ـ اذا كان هذا غير متصور فلماذا خلت سجلات المحاكم الشرعية من ذكر لمسائل الزواج والطلاق وما اشبه بالنسبة لهم ٠

ـ هل يعنى ذلك ان هذه الطبقة كانت تستخدم وثائق خاصة بها لتسجيل وقيد مثل هذا النوع من العلاقات ـ بعيدة عن سجلات المحاكم الشرعية التى كانت تتصدى لمسائل الاحوال الشخصية لابناء وبنات البلد والطبقة الدنيا من الجهاز العثمانى الحاكم ٠

نميل الى الاعتقاد بصحة الفرض الاخير ـ فالطبقة الحاكمة كانت ـ كما هو واضح ـ منعزلة تماما عن باقى طبقات الشعب ، ولم يكن هناك ثمة اتصال البتة بين هؤلاء وهؤلاء ٠ فلا يستبعد والامر كذلك ـ امعانا فى الانفصال ـ امكانية قيد وتسجيل والحكم فى مسائل «الاحوال الشخصية» للطبقة الحاكمة فى دفاتر خاصة ـ خاصة وان هذا الاجراء لم يكن يمس مصالح العامة فى شيء ـ موضوعا فى الاعتبار ان العلاقات الشخصية بين الطبقتين معدومة ٠

على اننا اذا قبلنا بما سبق كتبرير لسلبية العلاقات بين الطبقة الحاكمة وطبقة العامة فى مسائل الاحوال الشخصية او ما اشبه ـ فان ظروف المعايشة لا بد وانها كانت ستفرز انواعا من العلاقات الاجتماعية الاخرى التى من المحتم ان يكون افراد الطبقتين اطرافا فيها كالمنازعات والمعاملات والحوادث الجنائية وما اشبه ٠ وقد سجلت لنا وثائق المحاكم الشرعية انواعا عديدة من المعاملات بين أفراد الطبقتين ـ منها اتفاقات (التواجر) (ايجار الاماكن) ـ وفى غالب الاحوال فان اهل الطبقة الحاكمة كانوا هم (المؤجرون) وليس (المستأجرون) ٠

«بعد الاذن الكريم من حضرة مولانا العلامة ٠٠٠٠٠٠ قايم مقام ٠٠٠٠ لمولانا الشيخ الامام ٠٠٠٠٠ الحنبلى خليفة الحكم العزيز بهذه المحكمة ٠٠٠٠ صدر ما مضمونه انه بحضور فخر الاعيان الامير محمد جاويش الديوان الناظر الشرعى على وقف المرحوم ماماي اليوسفى أجر مولانا افتخار الاعيان عالى الشأن الجناب العالى فخر ذوى المعالى الامير على بن مولانا الامير زكريا كتخدا الجاويشية (نائب قائد اوجاق الجاووشان) بمصر المحروسة لفخر الاكابر والصلحا الزينى رضوان بن عبد الله جميع المكان الكائن بمصر المحروسه بخط الورشة المهمندارية بالقرب من باب سر الصاغة المشتمل على اربع طباق (ادوار) وقاعتين كبرى وصغرى وحوش واسطبل الخ ٠٠٠٠٠ أقر واعترف مولانا الامير على كتخدا المشار اليه اعلاه انه قبض وتسلم من الزينى رضوان المستاجر المذكور مبلغا وقدره من الفضة السلطانية ٠٠٠ فى نظير اسقاط حقه فى الخلو والسكن والانتفاع بالمكان المذكور وسائر حقوقه للزينى رضوان المذكور فى نظير المبلغ المذكور اعلاه اسقاطا صحيحا شرعيا ٠٠» (14) ٠

(14) سجل محكمة الباب العالي (123) وثيقة 19 ص 4 بتاريخ 1055/12/18 هـ .

ولعل علاقات (المعاملات) هى التى كانت تمثل الجانب الهادىء فى علاقات الطبقة الحاكمة بطبقة المحكومين ٠ لكن اغلب مظاهر العلاقات الاخرى كانت تكشف عن الجانب المظلم من هذه الاوضاع الغير سوية ـ ففى قضايا المنازعات كثيرا ما كان الفائز هو الطرف المنتمي للطبقة الحاكمة والخاسر هو المحكومين ـ بما يعنى اهدار دور المحاكم الشرعية فى اصدار الحكم الشرعى العادل ٠

ففى مجال النظارة على الاوقاف توجد حالات كثيرة لحلول اهل الطبقة الحاكمة فى النظر والتحدث بدلا من النظار من العامة دون ان يسبب القاضى (مولانا قايم مقام) قراراته هذه ٠

«قرر مولانا قايم مقام دام عزه فخر الاغوات المقربين فخار الملوك والسلاطين سليمان أغا دار السعادة دام اقباله فى وظيفة النظر والتحدث على وقف المرحوم القاضى بركات وتوابعه ٠٠٠٠ عوضا فى ذلك عن سيدنا ومولانا الشيخ ٠٠٠ ابو عبد الله محمد شيخ طريق السادة الخلوتيه بمصر ـ وفى النظر على وقف فاطمة بنت الظاهر جمقق عوضا عن تابع مولانا الشيخ محمد المشار اليه اعلاه وهو الامير حسن جاويش ٠٠٠ تقريرا شرعيا محررا مرعيا مقبولا وذلك بعد الوقوف على التمسكين (الحجتين) الشاهدين لمولانا الشيخ محمد الخلوتى المشار اليه بذلك ـ المؤرخ الاول منهما فى ٠٠٠٠ والثانى مؤرخ فى ٠٠٠٠٠ (15)

ان اغفال اسباب تقرير (مولانا قايم مقام) لفخر الاغوات سليمان اغا دار السعادة فى النظارة على وقفين يتنظر على أحدهما شيخ السادة الخلوتية وهو من ابناء البلد ـ ويتنظر على الثانى تابعه دون ابداء سبب لذلك يحمل فى طياته شبهة قيام طبقة الحكام باغتصاب الاوقاف لاغتيال ريعها ـ وهو ما كان احد مظاهر العلاقة بين جماعات السلطة ومجتمع المحكومين ـ تلك العلاقة القائمة على القهر وما يتفرع عنه ٠

ومن مظاهر العلاقات الاجتماعية الغير متوازنة بين طبقتى الحكام والمحكومين ـ ما كان تفرزه المعاملات بين الملتزمين (وهم من طبقة الصفوة المشار اليها) والعامة من المتعاملين مع الملتزمين بحكم طبيعة عملهم ٠ ساد هذه العلاقة نوع

---

(15) سجل محكمة الباب العالي (123) وثيقة 26 ص 5 بتاريخ 1056/1/1 – وأغا دار السعادة هو تسمية عربية (للقزلار اغا = اغا البنات) وهو خصي يشرف على الحريم في القصر السلطاني ويساعده عدد من الخصيان والطواشيه الذين كانو يستوردون في القرنين 15 و 16 من (القوقاز) اي انهم بيض – لكنهم أصبحوا من الخصيان السود في عهد السلطان (مراد الثالث 1574 – 1595) واصبحوا يجلبون من افريقيا عبر مصر – في القرن الثامن عشر آل الإشراف على اوقاف الحرمين الشريفين الى (القزلار أغا) – وبمضي الوقت أصبح (أغا دار السعادة) الرجل الثالث في الأهمية بعد الوزير الأعظم وشيخ الإسلام – ودار السعادة (دار سعادت) هي الأستانة .

راجع عبد الكريم رافق « بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت 1516 – 1798) ص 65 – 55 .

من الجور والعسف الذى كان يضج منه اهل الحرف والصناعات المتعاملين مع الملتزمين ـ والذى كان يؤدى بهم الى اللجوء الى ساحات المحاكم لعلها تدفع عنهم الظلم الذى كان يوقعه بهم السادة ٠

«لدى مولانا قايم مقام ٠٠٠٠ بعد أن وردت من قبل حضرة مولانا الوزير المكرم ٠٠٠٠ على حضرة مولانا قايم مقام ٠٠٠٠ البيور لدى الشريف (الامر أو التكليف) المكتوب فى شأن الحادثة الآتية ٠٠٠٠

حضر فخر الاعيان الامير على (المتفرقه) (16) الملتزم بمعمل النشا حالا فى جانب الملتزم بمقاطعة البحرين وبصحبته المجلس المعتبر (لقب من القاب التشريف) المعلم حسن ابن الحاج على شيخ طريقة الصباغين فى البفته والبطاين الملونات بمصر المحروسة والمعلم محمد بن على بن مخلوف والمعلم سليمان بن محمد والمعلم خطاب بن عبد الحافظ والجم الغفير والعدد الكثير من طايفة صباغين الملونات من اصفر وأخضر وأزرق ولازوردى وماوى وبندقى وغير ذلك من الالوان المعتادة وتخاصموا مع الملتزم المذكور اعلاه بسبب ما ادعوه من انه يكلفهم لاحداث حادثة وتجديد مظلمة عليهم ويأمرهم بأخذ النشا الذى يصنع فى معمله المذكور وذلك خلاف العادة القديمة وهو (النشا) مضر بصناعتهم وباصحاب الاقمشة من بفته وغيرها لكونه يحرق القماش ويطفا (يطفىء) نورانية الصباغ وأن فى ذلك ضررا عليهم وعلى اصحاب الاقمشة من المسلمين وغيرهم وأن العادة القديمة من قديم الزمان الذى كان عليها من سبقهم من المعلمين والآباء والاجداد كل واحد يعمل لنفسه فى منزله ما يحتاج

---

(16) يعني انه من رجال اوجاق المتفرقة – وقد نظمت الحامية العسكرية في مصر وفقا (لقانونامة مصر) الصادر في عهد الوزير الأعظم (اسكندرلي ابراهيم باشا عام 931 هـ = 1525 م في ستة أوجاقات (فرق) او طوائف) هي (الجوكليان) وتنطق الجونوليان واطلق عليها المصريون اسم الجمليان او الجملية او الكمولیان او الكمولية وتعني المتطوعين – والتفنكجيان (أي حملة البنادق الفرسان وسماهم المصريون التفكجية او التفكجيان او التفكشية ، وكلمة توفكجي او توفكشي تطلق في مصر الان على من صناعته اصلاح الأسلحة والجراكسة وهم من المماليك الفرسان – والمستحفظان وهم الينكجرية او الإنكشارية المشاة وكان مقرهم القلعة وتولوا اعمال الشرطة – والعزبان المشاة او (العزب) وكانت مهمتهم حماية قلاع القاهرة والقلاع الخارجية – وحماية الوالي (الباشا أو الوزير) – وكانت تلي طائفة المستحفظان او (الينكجرية) في الأهمية ، وكثيرا ما تصادمت هاتان الطائفتان تنافسا على السلطة السياسية و (الالتزامات) المربحة (كالضربخانة) أي دار سك النقود – واماكن جباية الضرائب – وكانت الطائفة السادسة هي (الجاووشان) وتذكرها المصادر العربية باسم (الجاويشية) – وكان افرادها يقومون باعمال المراسلة لابلاغ وتوصيل أوامر الباشا والديوان او جباية الضرائب في الأقاليم – وقد تأسست الطائفة السابعة (التفرقة) في النصف الثاني من القرن السادس عشر (1554 م) من مماليك دخلوا في خدمة العثمانيين الى جانب افراد جلبوا خصيصا من الأستانة – وكانت مهمة هذه الطائفة حماية القلاع في الأقاليم – وحراسة (الوالي العثماني) .

أنظر : P.M. Holt «Egypt and the Fertile Crescent», 51.

ود. عبد الوهاب بكر « الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر » ملحق 1 .

اليه من النشا المتخذ من الارز والقمح النافع لصناعته ولاصحاب الاقمشة ويرسله مع صناعه وأتباعه الى مصبغته وأنه لم يتعرض لهم أحد من الملتزمين السابقين بالمعمل المذكور والى الآن ـ وطلبوا اجراهم على عادتهم القديمة فى ذلك وطال بينهم الخصام والنزاع بسبب ذلك وخرجوا على ان الامير على الملتزم المذكور يفحص ويسأل من الملتزمين قبله بالمقاطعة المذكورة (أى معمل النشا محل التزامه) عن ذلك وهل عليهم عادة بالاخذ من نشا المعمل المذكورة أم لا ـ ثم انه عاد فى اليوم الثانى وهم صحبته وأخبر عن نفسه بان فحص وسأل فما وجد عليهم (اى الصباغين) بأخذ شىء من نشاء المعمل المذكور وأشهد على نفسه الاشهاد الشرعى أنه صدق على انه ليس على الطايفة المذكورة عادة بأخذ شىء من نشا المعمل المذكور ومكنهم من اجراهم على عادتهم (أى استمرارهم على ما كانوا عليه بحكم العادة المستقرة) المذكورة اعلاه وانه لا يتعرض لهم ولا لاحد من صناعهم وصبيانهم بسبب ذلك وأشهد عليه شيخ الطايفة المذكورين وكل منهم ان يعمل ما يحتاج اليه من النشاء المذكور فى منزله لنفسه وانه لا يبيع شيئا من ذلك لغيره وانه متى خالف ذلك وباع منه شيئا لغيره كان عليه ما يراه الحاكم الشرعى فى شأن ذلك وثبت الاشهاد بذلك لدى مولانا الحاكم الشرعى المومى اليه بصريح الاعتراف من الملتزم المذكور ومن كل منهم بذلك ومنع مخالفة ذلك عملا بالبيور لدى الشريف المشار اليه جرى ذلك فى تاسع عشر المحرم الحرام سنة ستة وخمسين والف (فبراير 1646) وذلك بعد أن حضر الزينى عبد الجواد الملتزم السابق وفخر الاقران يسين والزينى ناصف الشيخ كل منهما سابقا (أى شيخ الطائفة كل منهما سابقا) وأخبروا بانه ليس على الطايفة عادة بالاخذ من المعمل المذكور ....» (17) ٠

يتحدث هذا النص عن شكل العلاقة بين ملتزم مقاطعة ما (معمل النشا التابع لمقاطعة البحرين : اى جمارك ميناءى بولاق ومصر العتيقة) ومحاولته اجبار اهل طايفة معينة (طائفة الصباغين والبفته والبطاين الملونة) على شراء منتجات معمله من النشا رغم ما تسببه من أضرار لاقمشة اهل الطايفة ـ ولولا ثبوت (العادة) التى نفت سابقة تعامل اهل الطايفة مع منتجات هذا المعمل لاجبر هذا (الاوجاقى) أهل الطايفة على شراء نشا معمله .... وكما تنفى العادة سابقة التعامل ـ فقد تجبر على الرضوخ لظلم اذا ثبت تواترها ٠

على أن نجاة اهل الطائفة من ظلم (الملتزم) فى هذه الوثيقة لا يجب أن يؤخذ على أنه تأكيد لاستقرار حقوق العامة فى مواجهة طبقة الصفوة ـ وبالتالى استقرار القضاء فى مصر وقيامه بواجبه فى تنظيم العلاقات الاجتماعية ٠

ذلك ان القضية هى قضية (العادة) او العرف ٠ فمن المعروف ان مصادر القانون فى الدولة العثمانية كانت هى الشريعة الاسلامية ـ والتشريع ـ

(17) سجل محكمة الباب العالي (123) وثيقة 100 ص 18 سنة 1056 هـ .

والعرف ، مع التسليم با نكل مصدر من هؤلاء قد اصابه التطور مع تطور العصور التى مرت بالدولة ـ فكما سادت الشريعة لوقت ما (فى المراحل الاولى لتطور الدولة العثمانية) ـ فانها افسحت مكانها فيما بعد للتشريع ـ وكما كانت تطبيقات الشريعة الاسلامية أظهر فى علاقات القانون الخاص ـ فان التشريع والعادة و(العرف) كانا ارحب مجالا فى علاقات القانون العام والقانون الجنائى باستثناء مسائل الحدود (18) ٠

ولقد وجد العرف مكانه فى النظام القانونى العثمانى نتيجة لما تميزت به الدولة العثمانية من طابع المحافظة ، الذى يقرر التعامل فى المجتمعات الخاضعة لسلطتها وفق (الامر الواقع) وعدم اللجوء الى تغيير هذا (الواقع) الا فى حالات الضرورة ٠

هكذا بقى العرف فى النظام القانونى العثمانى عاملا من عوامل تكريس الواقع وليس عاملا من عوامل المواءمة بين النص القانونى الثابت والواقع الاجتماعى المتجدد ٠

وليس هناك خطر فى قيام العرف بدوره كمصدر يطبقه القاضى اذا لم يجد حكما صريحا فى مبادىء الشريعة او القانون ـ لكن الخطورة تكمن فى استخدام العرف كمظهر لسلطة النظام الحاكم المتحررة من القيود ـ بمعنى تحول معنى (العرف) عن عرف الرعية فى استباحة فعل او استقباحه الى عرف السلطة فى تحريم فعل او اباحته ٠٠٠ خروجا من جانبها على معانى الشرعية تبرره الرغبة فى تغليب قيمة الاستقرار والنظام وتوطيد اركان الحكم على قيمة الحرية الشرعية والحفاظ على حقوق الرعية (19) ٠

فمكمن الخطورة هنا ليس فى تطبيق العرف حسبما ينبغى ان يكون ـ وانما حسبما يراه الحاكم ـ واذا كانت الرعية قد أفلتت من الظلم فى الحالة التى قدمتها الوثيقة ـ فان مصدر الخطورة باق فى حالات كثيرة يستخدم فيها الحاكم الشرعى (العرف) كما يراه وليس كما تراه الرعية من العامة ـ وهم اصحاب العرف بطبيعة الحال ٠

(18) الحدود في الشرع هي العقوبة التي شرعها الله للزجر والردع في حالات ارتكاب الكبائر التي نص عليها الاسلام مثل السرقة والزنا والقذف والقتل . وحدود الله هي محارمه « ألا ان لكل ملك حمى ، وحمى الله محارمه ، ومن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه » حديث شريف .
والقصاص هو مجازاة الجاني جزاء ما قدمت يداه — كالقصاص في القتل « ولكم في القصاص حياة يا اولى الألباب » البقرة .
أما (التعازير) فهي العقوبات لمعصية لم يشرع لها حد مقدر — وانما يضعها (ولي الأمر » حسب الحال بشرط الا تتجاوز أدنى الحدود .
راجع : « عبد القادر عودة » التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي » مذكور في « محمد نور فرحات » ص 479 .

(19) د. محمد نور فرحات « المرجع السابق » ص 101 — 103 .

ولقد كانت الحوادث الجنائية كنوع من العلاقات الاجتماعية التى تفرزها ظروف المعايشة فى مجتمع واحد مكون من طبقات متباينة ـ صارخة بالتناقض، كاشفة لحقيقة العلاقات الاجتماعية بين طبقة الحاكمين والمحكومين ـ ولدور القانون ـ ايا كان نوعه (شرعى او وضعى) فى تنظيم ووضع الضوابط بين الناس ·

فالوثيقة التى بين أيدينا تتحدث عن جريمة وقعت فى السادس عشر من شهر ذى القعدة سنة سبع عشرة ومائة وألف ١١١٧هـ : فبراير 1705م بقرية ميت دمسيس التابعة لمدينة ميت غمر بولاية الدقهلية ـ قتلت فيها امرأة نتيجة اصابتها بطلق نارى اطلقه (قائمقام الناحية) العثمانى ـ وانتهى الحكم الى عدم ثبوت التهمة وتكليف زوج القتيلة بعدم التعرض للقائمقام العثمانى ·

«بحضرة فخر الاعيان الجناب العالى الامير خليل ـ قايم مقام (ميت غمر) حالا ورفيقه سيدى ايوب (الحوالة) والعلامة الشيخ محمد الاسناوى وغيرهم ـ ادعى سيد مصطفى الشهير بالجوربجى تابع الجناب العالى الامير ابراهيم جوربجى جراكسة ملتزم ناحية ميت دمسيس بالولاية بوكالته الشرعية عن المحترم ابراهيم بن المحترم سلامه الحاضر بالمجلس ـ على (سيدى يوسف) (قايم مقام) ناحية (····) بالولاية المذكورة ، وتابعه سيدى مصطفى : أن زوجة الموكل المذكور كانت واقفة بشاطى بحر النيل بناحية بلدها (ميت دمسيس) وكان اذ ذاك سيدى يوسف ورفيقه المذكور فى (قياسه) صغيره (قارب صغير) على جانب شاطىء بحر النيل فرمى ببندقيته يقصد طير فأصابت المرأة المذكورة بجنبها خرجت من الجنب الآخر فوقعت ميتة ـ وان يسأل سؤاله عن ذلك (يطلب مساءله المدعى عليه) ، فسيل من الامير يوسف المدعى عليه عن ذلك (سئل المدعى عليه عن المنسوب اليه) فأجاب بانه كان بسفينة صغيرة قادم من ناحية المنصورة الى بلده من جملة المراكب المسافرين يوم تاريخه ورمى ببندقيته البحر ـ وان كل من بالمركب المسافرين فى المياه يرمون الطير بالبندق (بالبنادق) ولم يعلم عن هذه المرأة مطلقا ولم يقترب (الشاطىء) بلدها وكان بعيدا عن بلدها المذكور · فطلب من المدعى (بينة) تشهد له بما ادعاه ـ وأحضر (فأحضر) الريس محمد ابن المحترم عمر السنانى والريس على ابن سلامه · واستشهد بهما عما يعلمان من ذلك فأقام كل منهما شهادته انهما كانا بمركبهما من جملة المسافرين فى البحر فرأيا سيدى يوسف ورفيقه سيدى مصطفى بمركب صغيرة قريبة من جزيرة بوسط بحر النيل ورمى بندقيته بالبحر ولم يعلما ان كانت هى التى اصابت المرأة أم لا ـ وانهما سمعا الصياح فقط ولم يشهدا بالاصابة بالمرأة المذكورة · فطلب من المدعى بينة اخرى غير هذه واصابة المرأة وموتها فلم يبين ·

فعند ذلك عرف مولانا الحاكم الشرعى المشار اليه اعلاه المدعى والموكل المذكورين ان هذه البينة لم تصادف محلا ولم تقع موقعا ـ وانما يثبت ذلك

بشهادة العيان والاصابة والموت ـ ومنع المدعى والموكل من معارضة سيدى يوسف المدعى عليه ورفيقه سيدى مصطفى المذكور لعدم ثبوت دعواه هو وموكله كما أفتت به السادة العلماء رضى الله عنهم وأرضاه ٠

فبمقتضى ذلك طلب سيدى يوسف المدعى عليه من مولانا الشرعى المشار اليه اعلاه كتابة ما صدر به الدعوى والسؤال والجواب اجابة لطلبه وكتب ذلك ضبطا للواقع ليراجع عند مسيس الاحتياج اليه وعلى ما جرى وقع التحرير ٠٠٠» (20) ٠

كان نظام الاثبات امام المحاكم الشرعية فى مصر العثمانية ـ وهو نظام واحد لا فرق فيه بين المواد المدنية والمواد الجنائية ـ يقوم على اساس من المبدأ الشرعى المستقر (ان البينة على من ادعى واليمين على من انكر) ـ وقد وجه المدعى وفقا للمعمول به ـ الدعوى الى المدعى عليه ، وانكر المدعى عليه ما هو منسوب اليه ـ وطلب القاضى من المدعى اقامة البينة على دعواه ـ واستشهد المدعى بشهود خذلوه ولم يقدموا شهادة حاسمة لصالح دعواه (21) ٠

هنا كان من حق المدعى العاجز عن الاثبات ان يطلب توجيه اليمين الى المدعى المنكر ـ لكن الذى نلاحظه فى هذه الواقعة ان المدعى لم يستخدم هذا الحق رغم رسوخه فى تقاليد الاثبات وعلم الكافة به ـ وبذلك تخلص المدعى عليه من التهمة المنسوبة اليه ـ بل وطلب من القاضى اعطائه صورة الحكم ضبطا للواقع ٠

هل أغفل القاضى تنبيه المدعى الى حقه فى توجيه اليمين الى المدعى عليه انحيازا الى الاخير لانتسابه الى طبقة الحكام ؟ والملاحظ ان المدعى عليه يذكر اسمه مسبوقا بكلمة (سيدى) رغم اتهامه بارتكاب جريمة قتل ٠

لكن هناك أمرا يستلفت النظر فى هذا الواقعة ـ فقد تقدم بالدعوى (سيد مصطفى الشهير بالجوربجى تابع الجناب العالى الامير ابراهيم جوربجى جراكسة ملتزم ناحية ميت دمسيس ـ أى ان زوج القتيل أو كل اقامة دعواه الى شخص ينتسب الى احد كبار ضباط أوجاق الجراكسة وملتزم الناحية أيضا ـ فهو من الصفوة ٠

والتساؤل الذى يفرض نفسه هو : لماذا أوكل زوج القتيل اقامة دعواه الى أحد افراد الطبقة الحاكمة ولم يباشر اقامة الدعوى بنفسه ؟ وهل يفهم من ذلك أن العامة من الناس فى مصر كانوا يستعينون بالطبقة الحاكمة المتنفذة لمساعدتهم على اقتضاء حقوقهم ؟ ـ وهو أمر ان صح فانه يؤكد صحة ما انتهينا

---

(20) دار الوثائق القومية – سجل محكمة الدقهلية الشرعية بتاريخ 1117/11/1 هـ وثيقة 32 ص 14 .

(21) د. محمد نور فرحات « المرجع السابق » ص ، 492 – 493 .

اليه من ان العلاقات الاجتماعية بين طبقة الصفوة وطبقة العامة كانت غير متوازنة ، وأن حقوق طبقة العامة كانت مهضومة ، وانهم كانوا يستعينون على اقتضاء حقوقهم بأهل الطبقة الحاكمة (الصفوة) اصحاب النفوذ والسطوة ـ لعل هذا يشفع لهم عند أهل القضاء (22) ٠

ومن المؤكد ان اهل الطبقة الحاكمة اصبحوا خلال الفترة موضوع الدراسة محصنين تماما ضد القانون بانواعه ، بصورة تعرضت فيها أرواح ومصالح وأعراض طبقة العامة للخطر ـ فقد اصبح القضاء مغلول اليد في مواجهة تجاوزاتهم ـ وفقد العامة الملجأ الوحيد الذى يرجعون اليه لصد عدوان السادة بانحياز القضاء الى اصحاب السلطة وفقدانه لفعاليته ودوره الاجتماعي ـ ووقوفه عاجزا عن ملاحقة التطورات الاجتماعية فى الفترة موضوع الدراسة ـ وما مرد ذلك الا الى الفوضى التى ضربت بجذورها فى جميع مظاهر الحياة فى الدولة العثمانية ٠

لقد انعكس كل ذلك على القضاء ـ واصبحت ولايته تكاد ان تكون منحصرة فى تحقيق الاعتداءات البسيطة التى تفرزها العلاقات الاجتماعية اليومية ـ والا فأين هذا القضاء من الصراعات الدموية التى كانت تسود علاقات مجتمع السادة والتى اصبحت تشكل ظاهرة عادية سجل لها «احمد شلبى عبد الغنى» فى «اشاراته» ـ «وعبد الرحمن الجبرتى» فى «آثاره» ٠

لقد كان القضاء معزولا تمام الانعزال ـ ليس فقط عن هذه الصراعات بين الانداد من السادة ـ بل وأيضا عن انزال حكم الشرع والقانون على الجانى وحماية المجنى عليه فى حالات اعتداء السادة على العامة من الرعية ـ والنص الآتى يبين بجلاء مدى التدهور الذى اصاب العلاقات الاجتماعية فى مجال الحوادث الجنائية ـ وما آل اليه أمر القضاء فى ظل مناخ التعسف واضمحلال الشرعية ٠

« لدى سيدنا ومولانا افندى دامت فضايله

حضر المحترم الشيخ يوسف العنانى من أهالى ناحية أجا بالولاية وعرف مولانا افندى المومى اليه اعلاه ان فى ثامن عشر شهر تاريخه (ذى القعدة سنة 1117 هـ : 1706 م) تعدى على اهالى (أجا) المذكورة اهالى ناحية (منية سمانود) وبايديهم السلاح والبندق واوقعوا بهم الضرب والقتل فأصاب (فأصيب) رجل يدعى شعلان بن أحمد برصاصة اصابته من رمى البندقية فوقع ميتا لا حركة فيه لا روح ، وأخذوا مواشى الناحية المذكورة جميعها وتوجهوا بها الى ناحية

---

(22) يقول الاستاذ الدكتور محمد نور الدين فرحات ان نظام الوكالة في التداعي كان ممارسا في المسائل المدنية و الأحوال الشخصية – وافترض ان الوكالة في التداعي كانت مقصورة في محاكم مصر العثمانية على المسائل المدنية دون الجنائية – والنص الذي نقدمه يثبت عكس ما افترضه سيادته . «المرجع السابق» ص 413 – 415 .

بلدهم المذكورة وسأل فى الكشف على شعلان المقتول بالمجلس الشرعى الشريف فاجيب الى سؤاله وكشف على المحترم شعلان المذكور فوجد ميتا لا حركة فيه ولا روح ···· وهذا ما دل عليه الكشف المذكور بحضور الامير يوسف قايم مقام الناحية المذكورة وسيدى سليمان تابع الامير مصطفى جلبى القيصرلى ··· واطلاعهم على ذلك الاطلاع الشرعى وكتب ذلك ضبطا للواقع ليراجع عند مسيس الاحتياج اليه وليعرض على من له ولاية الامر فى ذلك ··· وعلى ما جرى وقع التحرير فى تاسع عشر ذى القعدة الحرام من شهور سنة سبعة عشر وماية والف» (23) ·

لكن القصة لم تنته عند هذا الحد ـ فقد أتت الوثيقة المحررة فى اليوم التالى بنفس المحكمة لتلقى الضوء على دور (الامير يوسف) قايم مقام ناحية أجا التى تقدم أحد مواطنيها (الشيخ يوسف العنانى) بدعواه المذكورة فى السطور السابقة والذى كان حاضرا (الكشف على شعلان المقتول) ·

تقول الوثيقة الثانية

«لدى سيدنا ومولانا دامت فضايله ·

حضر فخر اعيانه الامير ابراهيم جوربجى جراكسة ومتسلم بالقليلوبية سابقا (24) وصحبته مشايخ ناحية (منية سمانود) التزام فخر الاعيان الامير

---

(23) سجل محكمة الدقهلية الشرعية – وثيقة 18 ص بتاريخ 1117/11/19 – وقد أثبتت محرر الوثيقة في حاشية بعرض الدفتر ما نصه (التزام أحمد كتخدا عزبان بحق النصف) .

(24) جو بجي هي رتبة عسكرية من رتب ضباط الاوجاقات العثمانية التي كانت تتكون منها الحامية العثمانية في مصر – فقد كان يرأس الأوجاق (الأغا) . يليه (الكاخيا) أي وكيله – وكان (كاخيا الوقت Vakit Kahyasi) هو اعلى كاخياوات الأوجاق مقاما ثم يليه رئيس الجاويشية (باش جاووش) ثم الجاووشية – ومن قدامى هؤلاء الضباط جميعا تتكون مجموعة (اختيارية الأوجاق) واختيار تعني كبير السن في التركية (اي قدامى ضباط الأوجاق) – ثم تأتي رتبة الباش اوضه باشي – ثم أوضه باشي – ولفهم الرتبتين الأخيرتين فإننا نقول ان اوجاق الإنكشارية على سبيل المثال كان ينقسم الى 196 فرقة او بلك Bolok – وكانت كل فرقة مكونة من 50 الى 500 رجل تقيم داخل الثكنات في غرفة) تسمى بالتركية (أوضه) ولكل فرقة في (أوضه) رئيس يسمى (أوضه باشي) أي رئيس الفرقه – ويرأس كل الأوضه باشية – الباش اوضه باشي – وتأتي رتبة (الجوربجي) قبل رتبة (اوضه باشي) . لمزيد من التفاصيل عن الرتب العسكرية في الأوجقات العثمانية راجع :

— P. M. Holt «The career of Kûçûk Muhammed».
— S. Shaw «Ottoman Egypt in the Eighteenth Century — The Nizammame-i Missir of Gezzar Ahmed Pasha.

هذا عن وضع الجوربجي بين الرتب العسكرية وترتيب اقدميته – اما الجوربجي كوظيفة عسكرية فهي رتبة تخص ضباط بلوكات المشاة التي كانت تكون الجيش العثماني وكذا ضباط بلوكات العجم الحادية والثلاثين التي كانت تتفرع عن معسكرات (القابي قوللر= عبيد الباب) – كما كان يطلق هذا اللقب على ضباط الإنكشارية (وهم مشاة بالطبع) – ولقب جوربجى مرادف للقب يايا باشي (يايا= بيادة) أو (بلوك باشي) – واحيانا كان يطلق على الجوربجي لقب (الصوباشي) – واقدم ضباط الجوربجية كان يطلق عليه بين جماعته يايا باشي اي رئيس المشاة – وبين البلوكات جميعا باش بلوك باشي أي رئيس رأسة البلوكات – وكان

أحمد أفندى جراكسه بمصر حالا وهم احمد صيام وابراهيم منصور والشيخ عطا الله ومحمد النادى ـ وأعلموا مولانا افندى الموما اليه اعلاه أن فى يوم الخميس الموافق الثامن عشر شهر تاريخه تعدى عليهم أهالى ناحية أجا بالولاية هم وقايم مقامهم الامير يوسف وهم خيالة ومشاة بايديهم آلات السلاح والمزاريق (الحراب) والسيوف والبندق (البنادق) والنبابيت ونزلوا فى غيط بلدهم (المنيه) المجاورة لاجا المذكورة يحشوا زراعة البرسيم والقمح والفول ليطعموه بهايمهم ـ فلما علموا بذلك توجه لهم الامير مراد من طايفة الجراكسة تابع الامير أحمد أفندى (جراكسه) ملتزم الناحية المذكورة والعمدة العارف بالله والتالى لكتابه المتين الشيخ سلمان شيخ الناحية وفقيهها وجماعة من اهالى الناحية وأرادوا منعهم حش الزرع بالمعروف ـ فأوقعوا بهم الضرب والقتل فقتل الامير مراد المذكور والشيخ سلمان المذكور وجرحوا رجلين من أهالى الناحية وأخذوا للامير مراد سيفه وبندقيته وركاب أحمر مطلا (مطلى) وسرج و... وثلاثة آلاف نصف فضة ثمن سمسم قبضها يوم تاريخه وأطمار بدنه وأخذوا من بهايم الناحية ستين جاموسة وثلاثين ثورا وخمسة عشر بقرة وراسين خيل وجملين ومناية وثلاثين راس من الغنم ـ وسألوا (أى المدعين) فى الكشف على المقتولين والمجاريح وسماع كلام أهالى النواحى المجاورة لهم فأجيبوا الى سؤالهم وندب معهم من عدول المحكمة وخدامها من يعتمد عليه فى

للجوربجية خيولهم الخاصة بهم والتي يركبونها أمام قواتهم المشاة – كما كانوا يرتدون جبة من الجوخ الأحمر ذات اكمام طويلة وفوقها شالوار (شال) أحمر وينتعلون اخفافا صفراء ويعتمرون بعمامة مطرزة الأطراف يطلق عليها (جوربجي كجة سي) وتعلق عليها حزمة من الريش . وكان ضباط الجوربجية مسؤولون عن كل اعمال بلوكاتهم – بما في ذلك صلاحية تأديب الجنود الذين تحت ادارتهم الا في حالات الجرائم العظمى فإن اغا الإنكشارية (قائد الإنكشارية) كان هو الذي يتولى ذلك – وليست هناك اية علاقة بين لقب جوربجي وبين اعداد (الشوربا) كما يظن البعض – وقد تم تغيير هذه التسمية آل (اورطة اغاسي) قبيل الغاء السلطان محمود الثاني (1808 – 1839) لأوجاقات الإنكشارية في اعقاب تدميرهم في (الواقعة الخيرية) (Vakayi Hayriye) عند (آت ميداني) في 15 يونيو 1826 .

اما (المتسلم) فهو مصطلح اداري يطلق على الموظفين الإداريين الذين يتولون ادارة الأقضية والقصبات التي تكون في عهدة الوالي او (المتصرف) قبل عصر التنظيمات (1839 – 1876) – معناه لغويا (متسلم الشيء) و (قابله) – وحتى عهد السلطان محمود الثاني (1808 – 1839) وبعد تأسيس نظام المركزية كان اذا ما خرج احد الوزراء أو أمير الأمراء أو احد أصحاب المناصب الكبرى الى الحرب – فإن المتسلم يدير امور منصبه نيابة عنه وحتى عودته – وكان هذا المتسلم يجمع لهؤلاء الكبراء عوائدهم ويبعث بها اليهم حيث كانوا كما كان المتسلم في بعض المناطق التي تثور على حكامها يقدم مبلغا مقطوعا عن الإقطاعية التي يديرها .

وقد كان بعض الولاة او الوزراء يسندون ادارة المناطق التي تحت ادارتهم الى المتسلم اذا ما قل دخلها ... وقد بدأ هذا النظام بعد سنة 1000 هـ = 1591 م واستمر حتى (عصر التنظيمات) .

راجع :

— Mehmet Zeki Pakalin «Osmanli Tarih Deyimleri Ve Terimleri SözLÜGÜ» Istanbul. 1971.

ذلك وتوجهوا صحبة الامير ابراهيم المذكور وصحبتهم الامير مراد الاسمر طايفة جراكسه (...) بالاقليم حالا والامير حسن من طايفة متفرقة المعينين فى خصوص ذلك من طرف قدوة الامراء الكرام عمدة الكبرا الفخام الامير محمد أغا حاكم الولاية حالا والعسكر المنصور المحافظين بالولاية ـ وكشف على الامير مراد المذكور ..... وكشف على العارف بالله الشيخ سلمان .... وكشف على حسن بن على الديب .... وحضر الشهود كل من مشايخ .... فخر الاشراف ... ورفيقه المحترم ..... ومن مشايخ .... العمدة الحاج .... ورفيقه .... ومن مشايخ .... ورفيقه ..... ومن مشايخ .... ورفيقه .... ومن .... ومن .... وذكروا الجميع لشهوده انهم عاينوا اهالى أجا المذكورة فى يوم الخميس المذكور حضروا هم وقايم مقامهم الامير المذكور لحش زرع اهالى المنية (منية سمنود) المذكورة فحضر لهم الامير مراد والحاج سلمان المذكورين وجماعة من اهالى الناحية لمنعهم بالمعروف عن حش الزرع من غيطانهم فأوقعوا بهم الضرب والقتل فقتلوا الامير مراد والشيخ سليمان المذكورين وجرحوا الرجلين المكشوف عليهما ـ عرفوا بذلك كذلك هذا مادل عليه كلام أهالى النواحى المذكورة .... وعاد الموجهون لذلك وعرفوا مولانا الافندى المومى اليه اعلاه بذلك كذلك تعريفا مرضيا كافيا فى مثل ذلك شرعا فعند ذلك حضر الامير ابراهيم المذكور وطلب من مولانا افندى المومى اليه كتابة صورة ذلك فأجابه الى طلبه وكتب ذلك ضبطا للمقال ناطقا بصورة الحال عند الطلب والسؤال ليراجع عند مسيس الاحتياج اليه وليعرض على من له ولاية الامر فى ذلك ليرى على كل أمر مقتضاه وعلى ما جرى وقع التحرير فى عشرين ذى القعدة الحرام من شهور سنة سبع عشرة ومائة وألف» (25) .

لقد قاد (الامير يوسف) قايم مقام ناحية أجا رجال ناحيته فى هجوم على ناحية منية سمنود لينهبوا مواشيها ويتلفوا زرعها ـ فلما تصدى لهم تابع ملتزم الناحية (الامير مراد) وشيخها وفقيهها (الشيخ سليمان) قتلوهما وجرحوا آخرين واستولوا على الماشية والاغنام والجمال والخيول .

يعنينا هنا تحليل دور القضاء فى «الحفاظ على استقرار المجتمع وحسن سير مؤسساته ومنظماته» ـ بحسبان أن هذه هى وظيفته فى كل مجتمع . ان كل ما قام به القضاء فى نزاع انتهى الى قتل عثمانيين وعامة وسرقة ونهب ممتلكات هو كتابة الواقعة على لسان المدعين «ضبطا للواقع ليراجع عند مسيس الاحتياج اليه وليعرض على من له ولاية الامر فى ذلك أو كتابة الواقعة «ضبطا للمقال ناطقا بصورة الحال عند الطلب والسؤال ليراجع عند مسيس الاحتياج وليعرض على من له ولاية الامر فى ذلك ليرى على كل أمر مقتضاه» ..... ماذا اذن عن دم المقتولين الذى أهدر .... ومال الاهالى الذى اغتصب ـ ان الوثيقتين تنطقان دون تعقيب ـ بنتيجة مؤداها ان مصر قد سادها خلال الفترة موضوع

(25) سجل محكمة الدقهلية الشرعية ـ وثيقة (23) ص 10 بتاريخ 1117/11/20 .

الدراسة نوع من القضاء الخاص مؤداه أن القوة وحدها تنشيء الحق وتحميه (26) ـ فقد تخلى القضاء الشرعى عن مهمته تماما واكتفى لنفسه بالكتابة فقط (ضبطا للواقعة) وهى وظيفة الشرطة فى وقتنا الحالى ٠

وقد عالج بعض من تصدوا للاوضاع الاجتماعية فى مصر ـ هذا الاحجام القضائى عن طريق رده الى (تفاسير قانونية) انتهوا فيها الى ان المحاكم الشرعية فى مصر العثمانية كان لها دور فى الجرائم (حدودا وقصاصا) بحيث تنطق بالعقوبة وتحددها ـ وانها فى جرائم (التعزير) كانت تكتفى بتحقيق الجريمة وضبط الواقعة ، فاذا اثبتت الادانة قررت مبدأ التعزير وأحالت الامر الى من بيده ولاية الامر من رجال التنفيذ لتحديد مقدار التعزير ونوعه ثم استيفاءه (27) ٠

ونحن فى مجال تحليل الوثيقتين السابقتين لا نرى شيئا من ذلك ـ وانما نرى ان تفسير هذا الامر يرجع الى قضيتين ـ أولاهما هى المكانة الاجتماعية للمدعى عليه ودخلها فى توقيع أى نوع من العقاب عليه ـ بمعنى ان أهل الطبقة الحاكمة كانوا محصنين ضد العقاب خلافا لما تقضى به المصادر الشرعية الاصلية فى الكتاب والسنة ـ وتغليبا لعوامل السياسة على عوامل الشرع فى الدولة العثمانية وولاياتها (28) ٠

أما القضية الثانية فهى قضية صراع القوى الذى ساد مصر منذ ستينيات القرن السابع عشر وحتى ثلاثينيات القرن الثامن عشر ـ فالمعروف ان الفقارية والقاسمية قد تم القضاء عليهما بين عامى 1660 ـ 1662 م ـ ولقد انتج سقوط هاتين القوتين حدوث فراغ سياسى ظهرت بحدوثه قوى سياسية جديدة لمئه ـ وكانت هذه القوى السياسية الجديدة هى الزعامات العسكرية الاوجاقية (كوجك محمد ـ افرنج أحمد) والبيوتات العسكرية التى تشكلت من عسكريين تجمعت حولهم طائفة من الاتباع عرفت باسمهم (البلفية ـ القازدغلية) ثم ما لبثت هذه القوى ان دخلت فى تحالف مع طائفتى الفقارية والقاسمية اللتين عادتا الى الظهور فى أواخر القرن السابع عشر ٠

على هذه الصورة جاءت سبعينيات القرن وقد اندمجت فى كفتى الصراع الفقارى ـ القاسمى طوائف عديدة (مماليك ـ طوائف عسكرية ـ عربان ٠٠ الخ) ـ وحاولت هذه القوى ان تملأ الفراغ السياسى الحادث فى البلاد ـ ودخلت فى امتحان كانت نتيجته ثورة العساكر فى 1675 ـ 1676 م ، وعزلهم للوالى أحمد باشا الدفتر دار ـ وتعيينهم لقائمقام بدلا منه ـ وقتلهم لموظفى الولاية ـ وفرضهم ارادتهم على السلطان لتعيين وال آخر ٠

---

(26) د. محمد نور فرحات » مرجع سبق ذكره « ص 422 .
(27) راجع د. محمد نور فرحات « مرجع سبق ذكره » ص 478 .
(28) د.محمد نور فرحات « مرجع سبق ذكره » ص 487 — 488 .

وكانت المرحلة التالية للفوضى السياسية فى مصر هى انقسام الاوجاقات العسكرية على نفسها نتيجة ظهور الشخصيات العسكرية المغامرة التى تريد السيطرة ـ وانضمام الوالى والصناجق والفقارية والقاسمية الى حلبة الصراع ودخول مصر مرحلة جديدة من مراحل التدور السياسى والادارى بان أثره على الاحوال الاجتماعية والاقتصادية فى البلاد .

فى ذلك الوقت كانت مصر تعانى ازمة اقتصادية مردها تلاعب الملتزمين بالاموال الاميرية ـ وانقضاض وباء الطاعون على البلاد ... وزاد هذا كله العداء بين طبقات المجتمع .

وخلال العقد الاول من القرن الثامن عشر تأزمت العلاقات بين طائفة المستحفظان (الانكشارية) وباقى الطوائف العسكرية الاخرى (الجوكليان ـ التفنكجيان ـ الجراكسة ـ العزبان ـ الجاووشان ـ المتفرقه) ـ كذلك قام النزاع بين (طائفة العزبان) وباقى الطوائف العسكرية بزعامة الانكشارية .

وظلت الصراعات الطوائفية تتوالى بين الانكشارية من ناحية ـ والسباهية (الجوكليان ـ التفنكجيان ـ الجراكسة) (29) من ناحية اخرى ـ وتوترت العلاقات فى نهاية العقد الاول من القرن بين الانكشارية وطائفة (الجاووشان) وانضم اليهم السكان المحليون ـ واصبحت الامور بيد القوى المتنفذة وليس الوالى ـ كذلك فان قاضى القضاة كان عاجزا عن مباشرة واجباته القضائية .

وفى عام 1710 م تحالف الدفتر دار (ايوب بك) الفقارى مع طائفة الجراكسة والتفنكجيان والجوكليان ضد طائفة (العزبان) الذين انضم اليهم القاسمية ـ وانضم بدو (الهوارة) و (الحبايبة) كل الى فريق .

وهكذا أقبل عام 1711 والبلاد منقسمة الى قوتين :

– الانكشارية والدفتر دار ايوب بك الفقارى وحاكم جرجا بقواته الضخمة والفقارية وبدو الهوارة وبدو الحبايبة وأغوات اوجاقات (الجراكسة) و(التفنكجيان) و(الجوكليان) و(المتفرقة) و(الجاووشان) والوالى وقاضى القضاة ونقيب الاشراف .

– اوجاق العزبان والقاسمية ـ وافراد اوجاقات (الجراكسة) و(التفنكجيان) و(الجوكليان) ، وبدو السلالمة والهنادى فى البحيرة وعلماء الازهر .

---

(29) السباهية تعني الفرسان ـ وكانت هذه الأوجاقات الثلاثة من راكبي الخيول ومن واجباتهم حفظ الأمن والمساعدة في تحصيل الضرائب في الأقاليم .

وعزل اوجاق العزبان (الوالى) وعين قائمقام بدلا عنه ــ بينما ظل (الوالى) يحكم فى ظل مؤيديه ، وازدوجت السلطة فى البلاد .

وفى يونيو 1711 دارت المعارك بين الفريقين فيما أسمى (بسنة الفتنة) او (الواقعة الكبيرة) أو (الحرب الاهلية لعام 1711 م) ــ وقد انتهت بانتصار فريق العزبان والقاسمية على فريق (الانكشارية والفقارية) (30) .

هذه صورة لما كان عليه حال البلاد خلال الفترة الواقعة فيها الحادثة موضوع الوثيقتين ــ وهى صورة تكشف بجلاء كيف ان الامر لم يعد قضية تفاسير قانونية أو تأصيلات فقهية ــ وانما كان الامر هو قضية الانهيار السياسى والقانونى للنظام الحاكم الى درجة لم يعد يوجد معها قضاء أو يعرف فيها من سيؤول اليه الامر ... ولعل كاتب الوثيقة كان يشير الى ذلك عندما قال «وليعرض على من له ولاية الامر فى ذلك» ــ فالقاضى هنا لا يعرف من له ولاية الامر فى البلاد فى ذلك الوقت ــ أهم جماعة (الامير يوسف) قائمقام أجا والتى يعود التزامها الى (أحمد كتخدا عزبان : نائب قائد أوجاق العزبان) ــ أم لجماعة (الامير ابراهيم جوربجى جراكسة التابع لاوجاق الجراكسة) ... وبين الجراكسه والعزبان ضاعت الحقوق وأهدرت الدماء .

2 ــ السلطات الوسيطة :

قلنا فى مقدمة هذه الدراسة أن رجال الدين والعلماء والمشايخ كانوا يشكلون من المنظور الطبقى فى المجتمع المصرى «شريحة من المصريين استطاعت فى ظل ظروفها الوظيفية ان تجد لها مكانا يتوسط الطبقة الحاكمة وطبقة المحكومين ــ بمعنى انهم فى مجال التقسيم الطبقى لا ينتمون الى الطبقة الحاكمة ــ وفى نفس الوقت فانهم بحكم مكانتهم فى مجتمع يوقر الدين والقائمين عليه ، كانوا أعلى مقاما من طبقة المحكومين .

كان رجال الدين والعلماء والمشايخ ــ بكلمات أخرى ــ أقرب شرائح طبقة المحكومين الى الحاكم بحكم حاجة الطبقة الحاكمة اليهم فى قضايا كثيرة ــ أقربها «اضفاء الشرعية» على قراراتهم وسياستهم .

من هذا المنطلق فان أقرب وصف يمكن ان توصف به هذه الشريحة فى المجتمع المصرى هو انها فى مجال السلطة كانت تسمى «السلطة الوسيطة» ــ والسلطات الوسيطة هى تلك الهيئات او التنظيمات المدنية التى كانت ترتبط

---

(30) حول هذه الأحداث في الفترة ما بين 1660 م — 1711 م انظر « احمد شلبي عبد الغني » (اوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات) تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ص 156 — 201 — سيذكر فيما بعد تحت عنوان (اوضح الإشارات) وعبد الكريم رافق « مرجع سبق ذكره » ص 280 — 293 .

بالحاكم الشرعى والحكام عامة من ناحية ـ وتقود فى ذات الوقت الاهالى من خلال انتماءات طائفية او حرفية محددة (31) .

فهل كان رجال الدين والعلماء والمشايخ يمثلون بحكم مكانهم فى المجتمع المصرى (سلطة وسيطة) تنقل للحاكم آلام المحكومين وآمالهم ، وتقف فى وجه الحاكم عندما يشتط أو يستبد .

لقد كان رجال الدين فى مصر فى الفترة موضوع الدراسة يرتبطون بالحاكم (معاشيا) ـ بمعنى ان الحاكم كان هو الذى يملك تعيينهم وعزلهم ـ وبالتالى فهو الممسك بارزاقهم . (فالاوقاف) التى كانت تتشكل مما يحبسه (أهل الخير) من اموالهم وممتلكاتهم على أوجه البر تقربا الى خالقهم ـ كانت تخضع فى تنظيمها والاشراف عليها لسلطة الدولة ـ لذلك فان توزيعها وتوزيع اعطياتها على الذين يقومون بمهام الخطابة والامامة والاذان والقوامة والقراءة والوعظ والتدريس وتأديب الاطفال والنظر على الاوقاف ـ كل هذا كان بيد الحاكم ـ أعنى السلطة القضائية العليا (وهى عثمانية بطبيعة الحال) ـ ولما كانت مصادر ارتزاق هذه الشريحة من الناس تعتمد على هذه «الحبوس» ـ فان يد الحاكم عليهم كانت هى العليا ـ وهو الممسك بارزاقهم (32) .

لذلك فان (رجال الدين والعلماء) ـ من هذا المنطلق ـ لم يستطيعوا ان يشكلوا (سلطة وسيطة) تحمى الاهالى من عنت الحكام ـ كما انهم لم يلعبوا أى دور فى قيادة الاهالى عندما كان الضيق يفيض بهم فى مواجهة الحاكم ـ واقتصر دورهم على تسويغ الحكام واصدار الفتاوى التى تجيز لهم فرض هيمنتهم بشكل أقوى (33) ـ تأسيسا على تبغية لقمة عيشهم للنظام الحاكم .

«قرر مولانا قائم مقام ـ الشيخ محمد زين العابدين ... فى السكن والانتفاع بالبيت والرواق والخلوة الكائن بوقف خوندام السلطان الاشرف شعبان ..... سنة خمسة عشر وخمسين وألف» (1645 م) (34) .

«قرر مولانا قائم مقام الشيخ عابدين ابن الشيخ عثمان القرافى فى الربع من وظيفة شهادة المرمات ومن وظيفة التسبيح ومن المصحف بوقف الجامع الازهر المعمور وفى خدامة المزملة تجاه رواق المغاربة بالجامع الازهر ورغيفين من الخبز السلطانى كل يوم بالجامع الازهر ... محرر فى خامس محرم سنة ستة وخمسين والف (35) .

---

(31) انظر : « د. خالد زيادة » (السلطة المدنية من خلال وثائق المحكمة الشرعية) ـ ابحاث المؤتمر العالمي الأول للجنة العربية للدراسات العثمانية حول الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني ـ تونس 20 ـ 28 يناير 1984 ص 8 .

(32) المرجع السابق ص 7 .

(33) المصدر نفسه ص 8 .

(34) سجل محكمة الباب العالي 123 وثيقة 1 ص 1 عام 1055 هـ .

(35) سجل محكمة الباب العالي 123 وثيقة 6 ص 2 عام 1056 هـ .

«قرر الشيخ ابراهيم الشافعي فى الامامة والاذان وربع كناسة مطهرة بوقف البرمشية ٠٠٠٠ فى سابع محرم سنة ستة وخمسين وألف» (36) ٠

ويكشف اسلوب المكاتبات الصادرة عن العلماء الى موظفى الولاية من اهل الطبقة الحاكمة استحالة ان يكون هؤلاء المشايخ فى وضع يؤهلهم للقيام بدورهم كسلطة وسيطة ٠

فهذا كبير علماء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الشيخ عبدالله الشرقاوى (رئيس الديوان فى عهد الحملة الفرنسية عام 1798 م) يكتب الى احد موظفى الروزنامة طالبا رصد (جراية) فيقول :

«لحضرة أعز الاشراف وسلالة بنى عبد مناف الفخام قدوة أرباب الاقلام عمدة أصحاب الارقام ولدنا السيد سليمان افندى حفظه الله ٠

أما بعد الدعا لكم بخير فان الواصل لكم عرض حال جريان وقف عبد الرحمن كتخدا معين به ثمانية وستون جرايه وثلثاى برسم الجامع الازهر المعمور الانور اثنان وستون وثلثاى ــ ومنها برسم الرباط ستة جرايات ، فالقصد منكم ارصادها عن سنة 1216 كما هو العادة والقانون ولم تقصروا فى ذلك ولكم الدعوات الصالحة والسلام ختام ــ الفقير عبد الله الشرقاوى خادم العلم والفقرا بالازهر» (37) ٠

وهؤلاء ثلاثة مشايخ من علماء الازهر يشتغلون بنشر العلوم والتدريس بالازهر ويطلبون زيادة رواتبهم لفقر الحال وكثرة العيال :

«دولتلو عنايتلو مرحمتلو حضر تلرى صاغ اولسون
عرضحال داعيلر يدركه جامع الازهر ده تحصيل ونشر علومله اشتغالدن غيرى صنعتمز اولميوب بوآنه كلنجيه دكين اميد مروت مأمولمز اولوركمسنه مظنونمز اولمديغنده بناء كمسنه افادة حال ايلملدك الآن سز افنديمزك عاميه تقسيم اولنان الطاف عليه لريكز بومخلصلريكزه تحريك زمانه بادى اولمشدر فقير الحال وكثير العيال اولديغمز حالمزى افاده يه باعث طبع جود بيرسود كز در سؤال بوير لدقده اكر حالمز افاده كبى سنه مروتكزه حواله اولندى كرك جمكيه دن كرك محل آخر دن اولاد وعياله مدار معاش اولجق قدر احسان بابنده أمر وفرمان دولتلو عنايتلو حميتلو افندم سلطانم حضرتلر ينكدر

بنده	بنده	بنده
شيخ سيد على	سيد محمد البسطى الحنفى	سيد أحمد طنطاوى الحنفى» (38) ٠

(36) سجل محكمة الباب العالي 123 وثيقة 31 عام 1056 .

(37) دار الوثائق القومية ــ ديوان الروزنامة ــ محفظة روزنامة رقم 75 .

(38) دار الوثائق القومية ــ ديوان الروزنامة ــ محفظة روزنامة (9 محرم 1217 الى 15 محرم 1217) .

وقد يقال أن الحاجة كانت هى دافع امثال هؤلاء المشايخ الى طلب المال من الحاكم للانفاق على عيالهم وبيوتهم ـ لكن الثابت ان الآخرين من الاثرياء كانوا لا يتوقفون عن الطلب ـ فثراء (السادة الوفائية) اصحاب ثانى سجادة من السجاجيد الصوفية فى مصر بعد السادة البكرية ـ لا يحتاج الى تدليل ـ وقد قدرت ثروة الشيخ محمد ابو الوفا السادات خلال القرن الثامن عشر بملايين البارات (39) ، ومع ذلك فان الوثائق تكشف لنا انه كان يتعاطى (الالتزام) المربح ـ ويطلب من الحاكم المزيد ٠

---

(39) كان السادة البكرية والسادة الوفائية زعيما أكبر تجمعين صوفيين في مصر في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر وبدايات القرن العشرين – وكان كل رئيس فرقة صوفية (طريقة) يسمى (شيخ السجادة) – وكان في مصر في القرن الثامن عشر أربعة سجاجيد كبرى – الى جانب الطرق (الأحمدية والبرهامية والشاذلية وهي :

أ – السادة البكرية – وتنتسب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه .

ب – السادة الوفائية – وتنتسب الى علي بن ابي طالب .

ج – السادة العمرية وتنتسب الى عمر بن الخطاب .

– السادة الخضرية وتنتسب الى الزبير بن العوام .

وقد تمتع ارباب السجاجيد بمراكز عالية واحترام كبير بالنظر لأنسابهم ، وكان السلاطين العثمانيون يرتبون لهم ترتيبا عظيما – وكانوا يتولون التزام الأراضي الزراعية الذي كان سائدا في العصر العثماني – المملوكي كما كانوا يحضرون اجتماعات الديوان العالي بحكم مراكزهم الدينية ، وكان الباشا (الوالي) يخلع عليهم (الفراوي السمور) عند طلوعهم الى القلعة في اوائل كل شهر للتهنئة .

وقد تنازع بيت (السادات الوفائية) مع (البيت البكري) على منصب شيخ مشايخ الطرق الصوفية في اواخر القرق الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر ، وتزعم هذه المنازعات في القرن التاسع عشر 1813 م/1228 هـ (الشيخ محمد ابي الأنوار السادات) ، الذي تزعم الطرق الصوفية في ذلك الوقت – على أن الأمر لم يلبث ان عاد الى ما كان عليه – وعادت الزعامة الى (السادة البكرية) .

وقدكان لمشايخ الطرق الصوفية (البكرية والساداتية على وجه الخصوص) دور في الاصلاح بين الطوائف المتنفذة المتصارعة خلال أحداث القرن الثامن عشر في مصر – وبرز دور الشيخ (أبو الأنوار السادات) في النزاع بين (ابراهيم بك ومراد بك) زعيما مصر (1775 – 1798) وشاركه في ذلك الشيخ محمد البكري الصديقي شيخ السجادة البكرية والشيخ (احمد الدردير) .

ولقد كانت الأحوال المالية لمشايخ السجاجيد الصوفية في مصر ترفعهم الى مصاف اعيان البلاد وسراتها وتقف بهم على قدم المساواة مع اغنى امراء المماليك او الحكام – فقد كان الشيخ السادات يتنظر في اواخر القرن الثامن عشر على 52 وقفا – والبكري على 44 – والمهدي 11 – والأمير 11 .

وكان (السادات) يتقاضى من الأوقاف المرصودة على الحرمين الشريفين 635 و 148 (مائة وثمانية واربعون ألف وستمائة وخمسة وثلاثون) بارة – كما كان يتقاضى راتبا من الخزانة المصرية قدره 1020 عثمانة يوميا (العثمانة راتب يمنح كجراية او علوفة) – و 120 جراية قمح سنوية (الجراية الواحدة 120 اردب) – كما كان يحصل على نصيب من ضريبة الجوالي (الضريبة التي كانت تفرض على اهل الذمة في مصر) .

وقد اشتغل (السادات) بتجارة العقارات – فكان يشتري البيوت ويجري عليها اصلاحات وترميمات ويبيعها – وامتلك أسطولا نهريا لنقل البضائع والركاب في النيل من الجيزة الى جزيرة الذهب ومصر القديمة وبولاق – واحتكر هذا النشاط التزاما (مقاطعة) .

راجع الدكتور : عبد الله محمد عزباوي « الحركة الفكرية في مصر في القرن الثامن عشر » رسالة ماجيستير غير منشورة مقدمة لجامعة عين شمس 1976 .

«نسألك اللهم نصرا وتأييدا وعزا باقيا ورفعة ومجدا حميدا لحضرة الوزير المعظم الدستور المفخم مشيد أركان لدولة العثمانية ممهد القوانين الخاقانية مولانا ... محافظ مصر المعزية حفظ الله تعالى اولاده وبلغه من الخير ما شا مع التوفيق لتنظيم امور الموحدين والقيام براحة أمة نبينا سيدنا محمد فخر العالمين عليه الصلاة والسلام والد السادات الكرم هذا ومما يعرض على المراحم الوفية المتواصلة المرضية ان من المتعلق بالمحب الداعى ببلوغ المرام كما هو معلوم لجنابكم قرية سملوط وما معها وقد اخذ مالها وخراجها العسكر خمس سنوات ولم يصلنا من خراجها شيء وعرفناكم بذلك مرات وأوعدتونا بالتعويض ووعدكم صدق فان وعد الملوك لا خلف فيه والمرجو من الشيم الجميلة فرمان لحضرة دفتر دار افندى وروزنمجى افندى بحساب خراج القرية المذكور وخصم ميرها (أى خصم الضرائب الحكومية المسماة بالميرى) والباقى من فايظها يثمن ويعطى لنا به وديعة حكم العادة حتى يفتح الله تعالى بفيضه وينعم على عباده بالفرج العميم ويصل كل ذى حقه بهمتكم العلية وخلوصكم ودام اجلالكم ، الفقير محمد السادات» (40) .

وتوضح هذه الوثيقة أن العلماء والمشايخ ورؤساء الطرق الصوفية كانوا قد اصبحوا فى عداد طبقة الملتزمين المتميزة . كما تكشف ايضا عن قضية علاقة هؤلاء المشايخ بالطبقة الحاكمة - فرغم وضعهم الطبقي المتميز بالمقارنة بالرعية من بين وطنهم - وارتباطهم بطبقة الحاكم - الا أن هذا لم يكن يمنع الحيف عنهم عندما ينقض عليهم رجال الطبقة الحاكمة ويستولون على ارزاقهم - فالوثيقة تكشف لنا عن استيلاء العسكر (يقصد الاوجاقات العسكرية التى كان رجالها يتمتعون بالتزامات دسمة فى النظام المالى لمصر العثمانية) على ايرادات التزام الشيخ فى «سمالوط» - كذلك فانها تبين ان المشايخ كانوا يستطيعون الاتصال بالحاكم وايصال اصواتهم اليه مباشرة - لكنهم مع ذلك لم يستخدموا هذه الميزة لصالح الرعية - بل استخدموها للتكسب والثراء .

«يا مولاى دولتلو عنا يتلو مرحمتلو افندم سلطانم حضر تلرى صاغ اولسون حضرة نايب امير المؤمنين مدبر أمور وجمهور الموحدين صدر الاعظم دستور المكرم عزيز الزمان ضيا كل وقت ومكان اطال الله بقاه عرضحال داعيلرى بودركه محب داعى بالفتح المبين والنصر العزيز دايمابزه اولداغى نهب وسجن وعظيم حقارت كفردن عليهم اللعنة وأعوانهم ودمرهم جميعا كمسيه أولممش شرقا وغربابزه اولان برتاريخ اولمشدر اوقونور مادام الزمان فالحمد لله ثم الحمد لله .

---

(40) دار الوثائق القومية - محفظة 96 ديوان الروزنامة - وعن السادة الوفائية (الساداتية) وثروتهم - راجع د. عبد الله محمد عزباوي « الحركة الفكرية في مصر في القرن الثامن عشر » - ومذكورة في كتابنا « الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر » ملحق (1) .

جناب عالى حضور رنده فتح الله بالمواهب وجاءنا النصر والمآرب نعمتم عودى وزيادة انعام واكرام اولدى حضر تلرينه حمدثنا وشكر دايمابارى تعالى سزه عمر طويل مع بلوغ المرام الجزيل سنطانم بو أيـامـده بـزم تعينـات ووظائف ثلثنى سعيا ميـريه كشتـك وباقيسى محلولـدن بوقـريدن يكـرمى قيراط عوضا عن الثلثين الدك وكسور قلان حلوان التى بنك غـروش رجـا ونيازعفو وانعام قاعدت اوزره ملوك آل عثمان ادام الله ملكهـم عـلى تـوالى الزمان اكرام وانعام اباء واجدادم بندن اسبق سنين عديدة متصلدر ومأمولم محلولدن بوقرية كامل انعام اثر جميل وذكر جليل دنياده شايـع اولسـون اولادنه خاطر مكسوز اولد غنده مجبور ومسرور اوله باقى دعا امر وفرمان ٠

دولتلو عنا يتاو مرحمتلو افندم سلطانم حضرتلر ينكدر المخلص فى دعايه ختم محمد وفا السادات حسبه الله وكفى السيد محمد وفا» (41) ٠

واذا كان السادة الوفائية قد استخدموا وضعهم المتميـز المتصـل بالطبقـة الحاكمة للاثراء ـ فان (السادة البكرية) نسل «الخليفة ابو بكر الصديق» نعموا بالاستحقاقات فى الاوقاف المحبوسة للخير ـ التى كان يصيبهم منها قدر كبير بحكم ما اعتاده سلاطين آل عثمان من رعاية رجال الدين والعلماء والمشايخ ـ وتوفير وسائل العيش الرغيد لهم ٠

والوثيقة التى بين ايدينا تتحدث عن ابقاء وتمكين الشيخ (ابو السـرور البكرى الصديقى) شيخ السادة البكرية فى (مباشرة) (وقـراءة) و(نصـف قراءة) بوقف المرحوم جركس الخليل ـ فى 1056/2/8 هـ : 1646 ٠

«قرر وأبقى مولانا قايم مقام ومكن الفهامة المفيد الشيخ ابو السرور البكرى الصديقى الاشعرى فى مباشرة وقراءة ونصف قراءة كل ذلك بوقف المرحوم جهركس الخليل ابقا له فى ذلك على عادته ومستمر قاعدته حملا على ما بيده من الابقى والتقرير فى ذلك المرتب على ورود اسمه بالمحاسبـات التى منهـا محاسبة شيخ الاسلام نوح افندى قاضى مصر المحروسة كان المؤرخ فى صفر سنة خمس وعشرين والف (1616م) وعملا بالابقا المؤرخ فى سادس ربيع الثانى سنة اربعة واربعين والف (1634 م) ومنع من يعارضه فى ذلك وابطال كلما يخالف ذلك وأكد العمل بذلك والغى مايعارض ذلك لفضل المقر واستحقاقه لما لذلك من المعاوم المعين بالاستيمار تقريرا وابقا وتاكيدا شرعيا تحريرا فى صفر سنة ست وخمسين والف» (42) ٠

(41) دار الوثائق القومية ـ محفظة 27 ديوان الرورنامة ـ ملف 132 ـ وفي هذه الوثيقة يذكر الشيخ محمد أبو الوفا السادات شيخ السادة الوفائية انه تعرض للأذى من جانب الحملـة الفرنسية على مصر 1798 ـ 1801 ، ويلعنهم هم واعوانهم ، ويحمد الله على نعمه عودة البلاد الى حظيرة الدولة العثمانية ويطلب الإنعـام عليه بعشرين قيراط من اصل اربعـة وعشرين قيراطا في احدى قرى المحلول ـ كقاعـدة آل عثمان في الإنعام على ابـاءه واجداده الخ ـ وتاريخ الوثيقة عام 1216 هـ = 1801 م وهو نفس عام خروج الفـرنسيين من مصر .

(42) سجل محكمـة الباب العـالي رقم 123 وثيقـة 176 ص 31 ـ 1056/2/8 هـ .

ولو أننا تركنا قضية الاثراء الذى كان العلماء والمشايخ يحرصون عليه جانبا ـ وتطرقنا الى قضية مساهمتهم فى الحياة العامة ـ فاننا نستطيع ان نقول أنهم كانوا يتولون (الدعاء) فى المناسبات العامة التى يؤمها الوالى العثمانى (43) ويحضرون جلسات (الديوان العالى) (والجمعيات) التى يجرى تعريف أمور الولاية فيها .

غير ان لنا على قضية مشاركة العلماء والمشايخ فى هذه المؤتمرات ملاحظة ـ مفادها ان حضورهم الى هذه الجلسات لم يكن ذا أثر حاسم فى اتخاذ القرار ـ صحيح أنه لم تكن تعقد جلسة بديوان الوالى ـ أو (جمعية) من تلك (الجمعيات) التى كانت تعقد فى بيت كبار الصناجق والمتنفذين (كأمير الحاج) و (الدفتردار) ـ الا وكان مشايخ الازهر ومشايخ السجادتين (البكرية) و(السادانية) ونقيب الاشراف يحضرونها ـ لكن دور المشايخ هنا كان لا يتجاوز (الختم) على (عرض) أجمع الحضور على ارساله للوالى أو السلطان ـ أو اجراء الصلح بين (الباشا الوالى) والمتنفذين من اصحاب السلطة الذين تزخر بحوادثهم تواريخ القرنين السابع عشر والثامن عشر .

ورغم ذكر (احمد شلبى) لهم كثيرا فى مجال وصفه لاحداث الفترة التى أرخ لها . الا أن دورهم فى كل هذه (الجلسات) لم يكن يتجاوز ما سبق أن ذكرت .

«ونزل امير الحاج وابن ابى شنب (حاكم جرجا عام 1721) والمرسل الى بيت امير الحاج ، فعملوا الجمعية فى بيت امير الحاج ، وجاء الشيخ محمد شنن (شيخ الجامع الازهر) والشيخ أحمد البكرى (شيخ السجادة البكرية) ، وسيدى عبد الخالق السادات (شيخ السجادة الوفائية) ، ونقيب الاشراف ، والقاضى صلاح الدين ، وضمنوا المشايخ الباشا لمحمد بيك جركس ، ولاحمد بيك الاعسر ، وان كل قايم مقام من طرف الباشا يكونوا هم القاعدون به . واخذوهم وطلعوا بهم الى الوزير . فلما دخلوا على الوزير . فلما دخلوا على الوزير ، قام لهم وأجلهم وأكرمهم ، واصلح المشايخ بينهم وبين الباشا ... الخ (44) .

كما أن (المشايخ) كانوا ينضمون خلال الازمات الىالقوة المتغلبة أيا كانت ـ فيصدرون الفتوى التى يريدها هؤلاء ـ لصالحهم . وحسبنا احداث الحرب الاهلية أو (الواقعة الكبيرة) التى حدثت خلال عام 1711 م فى القاهرة بين القوى المتصارعة على السلطة فى مصر ـ ففيها أفتى العلماء بعزل (الباشا) العثمانى الذى كان قد ضعف موقفه كثيرا ـ وأفتوا بتعيين نائب عنه دون ما اعتبار للسلطة التى يمثلها (الباشا) كنائب للسلطان . لكن الشىء الذى

---

(43) « أوضح الاشارات » ص 138 .

(44) أوضح الاشارات ص 312 .

وضعوه فى اعتبارهم هو أن السلطة فى ذلك الوقت كانت بيد الفريق الذى انحازوا اليه ٠

«فلما طال الامر على العسكر ، والصناجق القاسمية ومن والاهم من الفقارية ٠٠٠ اجتمعوا فى جامع يشبك ٠٠٠٠ (وقرروا) أن يولوا من طرفهم قايم مقام ، ويعزلوا الباشا ، ووافقهم جماعة من العلماء ، وافتوهم بعزل الباشا ٠٠٠٠» (45) ٠

ومع ذلك فان فتاواهم كانت تصيبهم بالاذى فى بعض الاحيان ـ عندما كانت لا تصادف هوى طرف من الاطراف ـ فخلال معارك عام 1710 أفتى بعض العلماء بفتوى لصالح (افرنج احمد) أحد المغامرين العسكريين الذى أثار أزمة فى البلاد انتهت الى الحرب الاهلية عام 1711 ـ وكانت هذه الفتوى ضد مصالح اوجاق الانكشارية ـ فلما توجه اليهم أحد العلماء (الشيخ أحمد الخليفى) من أجل التصالح اهانه كبار الضباط وعاد مقهورا محسورا ٠

«وأما ما كان من أمر الينجشرية (الانكشارية) ، فان الشيخ أحمد الخليفى توجه اليهم ، وتكلم مع أحمد أوضباشا فى أمر الصلح ، فقام عليه أحمد اوضباشا قومة عظيمة ، واسمعه كلاما لا يليق ٠٠٠ ، وما راعى مقامه وأهانه» (46) ٠

ولم يكن الامر يقتصر على حد الاهانة فى حالة تعارض الفتاوى مع مصالح فئة ما ـ بل ان هذه الفئة كانت تحرم المشايخ من الافتاء ومباشرة مهام وظائفهم (47) ٠

ومع أن رجال الطبقة الحاكمة كانوا يصاهرون المشايخ وكبار رجال الدين ـ الا ان هذا لم يكن يمنع من تعرض هذه الزيجات للدمار خلال المعارك الدامية التى كانت تجرى بين افراد الطبقة الحاكمة ـ ويروح الازواج دون مراعاة لاعتبار من اصهر اليه عضو الطبقة الحاكمة ٠

فقد تزوج كيل على كتخدا ـ وهو أحد كبار ضباط الاوجاقات عام 1723 م من ابنة الشيخ احمد البكرى الصديقى ـ وأجرى العقد شيخ الاسلام ـ وقاضى العسكر (48) ، لكن دولة (كيل على) دالت عام 1727 وأعدمه منافسوه ـ رغم شفاعة نسيبه فيه ٠

«وفى خامس عشر ربيع أول (31 اكتوبر 1727) طلع كيل على كتخدا مستحفظان فأمر حسين الدمياطى بحبسه فى القلعة فحبس ، ثم أرسل أتى

---

(45) أوضح الاشارات ص 238 .
(46) أوضح الاشارات ص 234 .
(47) أوضح الاشارات ص 381 .
(48) أوضح الاشارات ص 228 ــ 329 .

بفرمان من الباشا بقطع عنقه وكان أرمنى الجنس وأزوجه سيدى أحمد البكرى الصديقى شيخ السجادة ابنته وحلف من بنت الشيخ مولودا .... وتشفع فيه نسيبه سيدى أحمد البكرى عند الباشا وحسين كتخدا ، فلم يقبل شفاعته فيه رحمة الله عليه» (49) .

كان هذا هو حال المشايخ والعلماء رجال الدين ـ أرزاقهم بيد الحاكم ، مشاركتهم فى الحياة السياسية سلبية ، فتاواهم تقبل وترفض حسب الاحوال ، شفاعتهم مردودة ـ ولم يبق لهم فى المجتمع الا بقية من احترام تسبغه الرعية عليهم صدورا عن عقيدة دينية راسخة ـ وبعض ارزاق قلت أو كثرت يستكثرون منها ليضمنوا لانفسهم معيشة لائقة .

واذا كان هذا هو حجم المشايخ ورجال الدين فى المجتمع المصرى فى الفترة موضوع الدراسة ـ فان هناك فئة قريبة منهم فى مجال الحديث عن (السلطة الوسيطة) ، وأعنى بها مشايخ الطوائف والحرف .

لقد تشكلت الحرف فى تنظيمات وأصناف فى المدن الاسلامية منذ فترات سابقة وقديمة ـ وكانت بحكم تشكل كل منها من جماعة يرأسها (شيخ) يرعى شؤونها ويفض مشاكلها ويسهر على نظامها ومصالحها ـ تعد من أكثر أنواع التنظيم الاجتماعى دقة وفعالية (50) .

وتأسيسا على ذلك فان علاقات افراد الطائفة الواحدة كانت تدخل فى نطاق اختصاص شيخ الطائفة أو الحرفة ـ الذى كان باستطاعته أن يفصل فيها فصلا ناجزا معترفا به .

فماذا اذن عن حجم السلطة التى كانت لشيخ الطائفة فى مواجهة السلطة الحاكمة ؟

فيما يتعلق بهذه الجزئية فاننا نقول ان رقابة الحاكم الشرعى على الحرف ومشايخها كانت قائمة من خلال دور النظام الحاكم فى تثبيت المشايخ وعزلهم، بل وتعيين صاحب الحرفة فى حرفته ـ وتقرير استمراره فيها . وحجم عمله فى تلك الحرفة ـ بمعنى أن رقابة الحاكم الشرعى وان كانت قد تخففت فيما

---

(49) أوضح الاشارات ص 513 .

(50) أشار احمد عبد الغني الى تنظيمات حرفية كثيرة فذكر (شيخ الشحاتين – نقيب الشحاتين شيخ السقايين – شيخ الدلالين – شيخ الحمامين – مشايخ الأسواق – البنايين والفعلة – متعاطو الطبابة – المزينين – العياريين (المعايرجية) – النجارين القلافطية – الدهانين – الجيارين – الجباسين الغيطانية – الكنفانية – العقادين – شيخ الحريرية – شيخ الطباخين – وأشارت الوثيقة 130 ص 23 من سجل محكمة الباب العالي الى شيخ السماسرة – والى الكتانية (المشتغلين بالكتان) راجع اوضح الإشارات ص 188 – 225 – 299 – 307 – 309 – 314 – 317 – 357 – 377 – 378 – 379 – 423 – 425 – 426 – 435 – 440 – 447 – 479 – 514 – 540 – 573 – 574 – 584 – 606 – 607 – 608 .

يتعلق بالمشاكل الداخلية للطائفة ـ فتركت للمشايخ حق التصرف فى المنازعات بين افراد الطائفة ـ الا أن هذه الرقابة لم تغفل عن وضع هذه الطوائف تحت اشرافها المباشر ٠

«قرر مولانا قائم مقام العمدة محمد وأخاه زين الدين عبد الرحمن ولدا الشيخ شمس الدين محمد ابن الشيخ خضر بن محمد ـ سوية فى كامل وظيفة الوزن بالقبان (بالمقفل) الكاين ببولاق القاهرة بخط الاستدارية قريبا من الحمام المجاور لحانوت محمد عجاجه ـ وفى كامل الوزن بالقبان في الجبن الجاموسى الاوسيه الوارد لبولاق بساحل بولاق ـ وفى كامل وظيفة الوزن بالقبان فى الخيار الشنبر والسنامكى ـ وفى الثلثان من الوزن بالقبان فيما يحضر من البلح البرلسى والموز بساحل بولاق ٠٠ الخ» (51) وتبعا لذلك ـ فان مشايخ الحرف والطوائف كانوا مغلولى اليد في مجال الدفاع عن منتسبى طوائفهم وحرفهم ـ شأنهم فى ذلك شأن رجال الدين والعلماء والمشايخ ـ ولم يكن لهم حقوق التصدى لغبن يقع على اهل الطائفة ـ وانما اقتصر دورهم على توصيل أوامر النظام الحاكم وتعليماته نواهيه الى أهل الطائفة أو الحرفة ٠ دون القدرة على محاورة اهل السلطة فى صلاحية أو فساد قرارتها ـ كما أنهم كانوا يتولون جمع الضرائب المقررة على اتباعهم وتسليمها الى من له حق استلامها من اجهزة السلطة ٠

بهذا انتفت صفة (الوساطة) كسلطة ـ من اختصاصات زعماء الطوائف الدينية والحرفية ـ وذابوا ـ بحكم هيمنة السلطة الحاكمة على مصادر ارزاقهم ـ فى وعاء السلطة رغما عنهم ـ وأصبحوا مجرد أدوات تستخدمها السلطة سياسيا واجتماعيا للسيطرة على الرعية واخماد اصوات الاحتجاج ٠

وعلى ذلك فان رجال الدين والعلماء والمشايخ ـ ومشايخ الطوائف والحرف لم ينجحوا فى القيام بدور (السلطة الوسيطة) فى مجتمع مصر العثمانية ٠

3 ـ اهل الذمة :

عاش القبط واليهود فى مصر ـ خلال الفترة موضوع الدراسة ـ حياتهم العادية ، وقامت علاقاتهم مع الاغلبية المسلمة على أسس متعادلة ـ اللهم الا فى حالات قليلة تتعلق بوضعهم «كأهل ذمة» خضعوا للشروط التى وضعها على مدى فترات التاريخ كل من (عبد الملك) و(عمر بن العزيز) و(يزيد الثانى) و(هارون الرشيد) والمتوكل (52) ٠

---

(51) سجل محكمة الباب العالي (123) وثيقة 119 ص 21 في 1056/1/12 هـ (1646 م) ووثيقة 231 ص 41 في 1056/2/19 هـ (1646 م) ووثيقة 279 ص 49 في 1056/2/12 هـ (1646 م) .

(52) كانت هناك قيود تتعلق بالزواج – وامتلاك العبيد – والضرائب – والدية – والملابس (حزام الزنار) – والملابس الفاخرة – وركوب الجياد الكريمة – وناصية الرأس ... الخ – عن اهل الذمة راجع : Encyclopaedia of Islam - Vol. I. Atr. Dhimma

فيما يتعلق بالاعمال التى شغلها اهل الذمة فى مصر خلال القرن السابع عشر كانت هناك وظائف (الصرافين بالديوان) والمباشرين (مديرو أعمال اهل الطبقة الحاكمة) و(كتبة الديوان) ، وهذه شغلها اليهود (53) ٠

كذلك فقد شغل القبط وظائف ادارية مماثلة لتلك التى شغلها اليهود ـ والوثيقة التالية تشير الى (فلتاؤوس يعقوب) كموظف فى ديوان الروزنامة ٠

«معلم فلتاؤوس مضبطه سندن

مجدد من بعد تحرير المرحوم محمد بيك سنة 1188 الف ماية وثمانية وثمانون داخل مرتب العربان بنواحى ٠٠٠٠٠ بموجب تقرير بختم ٠٠٠ حاكم ولاية جرجا كان تاريخه 19 ربيع الثانى سنة مائتين والف مجدد من ابتدا سنة تسعة وتسعون ومائة وألف باسم الشيخ ٠٠٠٠٠٠ من اهالى ٠٠٠٠ من اصل غلال مصاريف الولاية التى هى الكشوفية الى الحاكم من نواحى العسيرات كاتبه فلتاؤوس يعقوب مجدد من ابتدا سنة 1199» (54) ٠

وتفيد لغة الوثيقة ان (فلتاؤوس يعقوب) كان مسؤولا عن تحرير (مضبطة) رسمية تتعلق بالمحاسبات الرسمية والمسائل المالية ـ مما يجعلنا نطمئن الى أن هذا القبطى كان يشتغل باعمال المحاسبة فى الجهاز المالى فى الولاية المصرية ديوان (الروزنامة) فى نهايات القرن الثامن عشر ٠

كذلك فان المعلم (جرجس الجوهرى) كان يشغل منصبا مشابها فى ديوان الروزنامة فى وقت قريب من الوقت الذى كان (فلتاؤوس) يشغل فيه وظيفته فى الديوان المذكور ـ والوثيقة المرفقة تبين ان (جرجس الجوهرى) كان هو الموظف العثمانى المسؤول عن تحقيق مسائل الالتزام وتقدير الاموال وما يتفرع عنهما من أمور ـ فقد وجهت اليه تأشيرات المسؤولين فى الوثيقة فى اكثر من موضع ـ وقام هو بالرد استفسارات المسؤولين عن القرية موضوع الوثيقة بتأشيرة نصها :

---

(53) أوضح الإشارات ص 174 و 246 وسجل محكمة الباب العالي 123 – وثيقة 291 ص 52 سنة 1056 هـ = 1646 م .

(54) العبارة التركية في مقدمة الوثيقة معناها (من مضبطة المعلم فلتاؤوس) – أما عبارة (الكشوفية الى الحاكم) فإننا نقول ان الأقاليم الإدارية لمصر انقسمت الى قسمين (اقاليم ادارية كبرى) سميت ولايات هي الغربية – المنوفية – الشرقية – البحيرة – وجرجا – وكانت هذه الأقاليم تسمى (بكويات) ويسمى حاكمها بك أو (حاكم) . وأقاليم ادارية أصغر سميت كاشفيات يحكم كل منها (كاشف) – (والكشوفيات) مصطلح كان يطلق على (قرى الولاية) المخصصة كموارد (للباشا الوالي) او حاكم الاقليم الإداري الكبير – ومصطلح (كشوفية الحاكم) في الوثيقة يعني القرى المخصصة لحاكم جرجا كموارد له بحكم منصبه . راجع : د. ليلى عبد اللطيف « الإدارة في مصر في العصر العثماني » ص 375 – 390 .

«اننا بحثنا عن الحصة وجدنا هذه الحصة كان واضع يده عليها عثمان بك برديسى والآن الحصة خراب لان علمكم الكريم زيادة ببلاد البحيرة وخرابهم خصوصا هذه الناحية خراب زيادة ٠٠٠٠٠ محسوبكم جرجس جوهرى» (55) ٠

وقد شارك اهل الذمة ـ خلال الفترة موضوع الدراسة ـ كبار المتنفذين المماليك والعثمانيين فى تعاطى (الالتزام) الذى كان المعتقد انه كان قاصرا على اصحاب النفوذ من الطبقة الحاكمة ـ ففى رمضان 1107 هـ : ابريل 1696 م كان (ياسف اليهودى) هو ملتزم دار الضرب (دار سك النقود) التى كانت فيما بعد من أهم الموارد المالية (لاوجاق الانكشارية) (56) ـ وقد استولوا عليها من بين مخصصات «الباشا» الذى كان وضعه السياسى قد تدهور خلال نهايات القرنين السابع عشر والثامن عشر (57) ٠

وفى عام 1105 هـ : 1693 م كان المعلم (ياسف الربان اليهودى) هو (ملتزم ثغر دمياط) ـ وكان يدفع من مال المقاطعة المذكورة رواتب جنود (القلعة العربية الكاينة بالبحر العربى بفوهة الثغر المذكور) عن طريق وكيله فى الميناء (اسحاق اليهودى) (58) ٠

والى جانب هذه الوظائف الحكومية فقد كان اهل الذمة يشتغلون بالصياغة والصباغة والزياته (59) ٠

وكان لاهل الذمة علاقات تعامل عادية مع اهل المجتمع المصرى الذى كانوا يعيشون فيه ، حكمتها نفس القواعد الضابطة لمعاملات باقى الرعية فى الولاية٠

فأمام قاضى محكمة الباب العالى فى النصف الاول من القرن السابع عشر دخلت خديجة ابنة محمد بن يوسف القويسنى فى (شركة) مع (المعلم هارون

---

(55) دار الوثائق القومية – ديوان الرو نامة – محفظة روزنامة بدون رقم – الملحق رقم (1) .

(56) أوضح الإشارات ص 199 – 200 .

(57) الدكتور عبد الوهاب بكر « الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر » ص 191 حاشية (25) .

(58) دار الوثائق القومية – ديوان الروزنامة – محفظة روزنامة 14 ربيع أول 1161 م (1748 م) – الملحق رقم (2) – وكلمة (الربان) تعني أن (ياسيف) هذ كان من اليهود الربانيين (Rabbinite) – تمييزا له عن النوع الاخر منهم وهم اليهود القرائين (Karaites) وهما الفرقتان اللتان انقسمت اليهما اليهود – فالربانيون (ويسمون الحاخاميون) يتبنون العقائد المبنية على العهد القديم كما شرحت في التلمود – أما القراءون فهم الذين انشقوا عن عن الجسم الأصلي لليهودية في القرن الثامن بعد الميلاد – بهدف العودة الى اليهودية الأصلية (Scriptures) الممثلة في الكتاب المقدس بعد تخطي التلمود والتقاليد الشفوية – ويعارض القراؤون ادعاءات الربانيين في تفسير الكتاب المقدس .
عن اليهود بصفة عامة انظر « الدكتور علي ابراهيم عبده وخيرية قاسمية « يهود البلاد العربية » منظمة التحرير الفلسطينية » . بيروت 1971 ، ص 11 ، 13 ، 163 ، 164 .
منظمة التحرير الفلسطينية . بيروت 1971 ، ص 12 ، 13 ، 163 ، 164 .

(59) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 152 ص 28 سنة 1056 = 1646 م – و Encyclopaedia of Islam « Vol. I. Art. Dhimma.

ولد مردخاى ولد سليمان اليهودى الربان) ، ثم انهياها بعد عدة سنوات ٠ كذلك كان لها معاملات تجارية مع (مردخاى وشقيقه سوريا) ولدا (المعلم هارون) فى نفس الفترة أيضا ٠ وتم تخارج الطرفين من شركاتهما وفق الاساليب القضائية المعمول بها فى مصر فى ذلك الوقت (60) ٠

وكعادة الاقليات فى كل مجتمع فان طائفتى اليهود والنصارى أقاموا فى أماكن مخصصة لهم ـ فكان لليهود حارتهم المعروفة بحارة اليهود (61) ٠ وللنصارى حارتهم «بالخوخة المظلمة بظاهر الازبكية» (62) ٠

لكنهم رغم عزلتهم السكنية ـ فانهم كانوا يتداعون فى مسائل الانكحة (الاحوال الشخصية) أمام نفس الجهات المختصة بنظر نفس النوع من القضايا الخاصة بالمسلمين من المصريين ، رغم وجود بيعهم وكنائسهم ورؤسائهم الروحانيين (63) ٠

وكانوا يطبقون نفس قواعد الطلاق (اى الطلقات الاولى الرجعية ـ والثانية البائنة ـ والثالثة البائنة بينونة كبرى) والنفقة والحمل والحضانة التى تطبق فى منازعات الانكحة للمسلمين ـ غير أن الملاحظ هو غياب (الشهود) فى مخاصمات (اليهود) امام المحاكم الشرعية ، والاكتفاء بشهادة طرفى النزاع (الزوج والزوجية) (64) ٠

ويبدو أن اهل الذمة كانوا يسترقون العبيد ويستخدمونهم مثلما كان المسلمون يفعلون ـ رغم ان هذا كان محظورا فى ثلاثينات القرن الثامن عشر ٠ فقد أصدر (باكير باشا والى مصر 1735 ـ 1737 م) فى عهد ولايته الثانية أمرا لليهود والنصارى «انهم لا يستخدمون الجوار السود وأن كل من تعاطى بيعهم أو شرايهم فعليه القبض بأغاة مستحفظان ويقتل وينهب ماله ٠٠٠٠ (65) ٠

لكن الشيء الذى تكشف عنه الوثائق فى هذا الصدد هو استرقاق اليهود فى مصر للعبيد من اهل الذمة شركائهم فى ديانتهم اليهودية ـ ومن الجنس الفلاشى الذى كان يعيش اصحابه فى بلاد الحبشة ـ فقد اعتق ياسف بن داوود بن ياسف اليهودى الشهير بعشير الربان (مرقوقته) (راحيل المرأة اليهودية الحمرا

---

(60) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 90 ص 16 سنة 1056 هـ = 1646 م الملحق رقم (3) .

(61) أوضح الاشارات ص 492 وسجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 152 ص 28 سنة 1056 هـ = 1646 م .

(62) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 279 ص 49 في 1056/2/12 هـ = 1646 م

(63) « أوضح الإشارات » ص 615 . حيث تشير وقائع يوم الجمعة واحد وعشرين محرم الى بترك الأورام (بطريرك) .

(64) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 152 ص 28 سنة 1056 = 1646 م الملحق رقم (4) .

(65) أوضح الإشارات ص 615 .

اللون الفلاسية الجنس) فى عام 1053 هـ : 1644 م امام محكمة الصالحية بالقاهرة ٠

والواقع ان ما تكشف عنه هذه الوثيقة هو حالة غريبة من نوعها ـ فالمفهوم ان يسترق المسلم رقيقا من الذكور أو الاناث البيض او السود ـ ويدخله دين الاسلام ، ثم يعتقه اذا شاء ـ لكن الغريب أن يسترق (ذمى) (ذمية) سوداء ويعتقها وتبقى على دينها (ذمية) (66) ٠

ويلاحظ أن أهل الذمة كانوا يتعرضون فى مسائل (القصاص) لبعض التنكيل وخاصة عندما تكون تهمتهم هى (قتل مسلم) ـ ففى حادثة تشاجر فيها يهودى مع والده وهما مخمورين ـ قتل الاول خادم ابيه (المسلم) عندما كان الخادم يحاول أن يفصل بينهما ـ وبعد القبض على القاتل «أشهروه فى البلاد على حمار بأربع شاميات ، ثم انهم أرموا عنقه فى الرميلة ٠٠٠ ثم ان الباشا قطع فرمانا الى آغة مستحفظان أن يشهر النداء على طايفة اليهود والنصارى لا يستخدمون المسلمين ، وكل من استخدم مسلما يستاهل ما يجرى عليه ٠ ثم ان المتفرجين من اهل الرميلة جاءوا بالحطب وأحرقوه وراح الى لعنة الله لانهم عرضوا عليه الاسلام فأبى» (67) ٠

ومن الواضح هنا أن التنكيل الذى اصاب اليهودى القاتل (التهشير على حمار بأربع شاميات) ـ هو نوع من التزيد فى العقوبة ـ فعقوبة القتل هى القتل قصاصا سواء أكان القاتل مسلما أم ذميا ـ أما التشهير فلا بد انه كان أمرا يخص أهل الذمة فى مثل هذه الحالات ٠

كما يبدو ان التمثيل بجثة القاتل بحرقها فى الحالة المذكورة كان مرده الى موته وهو على دين اليهودية ـ بمعنى ان القاتل لو كان نطق بالشهادتين قبل اعدامه لكان جزاؤه القتل فقط دون حرق جثته ٠

كذلك فان الذمى المتهم بقتل مسلم كان فى الغالب يلقى عقابه على يد المسلمين دون محاكمة ـ بما فى ذلك تنفيذ الاعدام (حرقا) وليس بقطع العنق كما كان الحال فى الاعدام فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ٠ كما ان نهب بيت القاتل كان يعقب حرقه ، وفى بعض الاحوال كان بنى دين القاتل يتعرضون لبعض النهب والسلب من جانب المسلمين الغاضبين (68) ـ كذلك فان عقاب القتل والحرق كان من نصيب (ملتزمى دار الضرب) من اهل الذمة اذا احدثوا مظالم للرعية أو أفسدوا عملة البلاد (69) ٠

---

(66) سجل محكمة الباب العالي (123) وثيقة 291 ص 52 سنة 1056 هـ = 1646 م الملحق رقم (5) .

(67) أوضح الاشارات ص 337 – 338 .

(68) أوضح الإشارات ص 530 .

(69) أوضح الإشارات ص 200 .

وفى مجال التمييز بين أهالى الذمة والمسلمين فى القرن الثامن عشر ، فقد كان اليهود يلزمون بلبس الطراطير والطواقى الزرق) • وكان الاقباط يلزمون «بلبس القلايق» اما الاجانب (الافرنج) فقد كانوا يكلفون بارتداء (قلايق وبرنيطاط) ــ الى جانب (الزنار) الذى كان الاقباط واليهود يلزمون بلفه حول أوساطهم (كحزام) ــ كما لم يكن يسمح لاهل الذمة بارتداء الملابس (الجوخ الاحمر ولا بوايج صفر ولا مزوز صفر ولا شخاشين) (70) •

وكان يجرى تمييز أهل الذمة فى الحمامات العامة الاحدى والثمانين بالقاهرة بوضع (جلجل) فى اعناقهم لدى خلع ملابسهم ــ «وفى خامس محرم 1136 ، نزل أغا مستحفظان الى القاهرة ، وأشهر الندا لجميع طايفة اليهود والنصارى ان كل من دخل الحمام فلا يدخل الا وفى عنقه جلجل ليعرف الكافر من المؤمن» (71) •

لكن أهل الذمة كانوا لا يتقيدون بهذه التعليمات كثيرا ، كما أن المسؤولين لم يتشددوا فى تطبيقها الا فى بعض الاحوال التى تصاحب وصول حاكم متشدد أو عند الحاجة الى ارضاء جماعات المسلمين (72) •

على أن القواعد التى لم يكن يتهاون فيها هى زواج الذمى بمسلمة ــ واهانة الذمى للاسلام ــ وتحويل المسلم الى ديانة أخرى ــ ودية القتيل الذمى التى كانت تبلغ نصف أو ثلث دية المسلم ــ وضرورة ان يكون الطفل من زواج مشترك مسلما (73) •

وبالنسبة لدخول الاطفال من اهل الذمة فى دين الاسلام ــ فقد كان المذهب الشافعى لا يرى الاسلام الا بعد البلوغ ، وعلى ذلك فان الاطفال الذين لم يبلغوا سن البلوغ بعد ــ كانوا يردون الى ذويهم الذميين اذا أعلنوا اسلامهم ــ أما الاحناف (وهو مذهب الدولة العثمانية) فكانوا يرون الاسلام بعد سن التمييز (7 سنوات) (74) •

وكانت الضريبة التى يدفعها اليهود والنصارى (الجوالى) مائة وعشرون نصف فضة للفرد البالغ ــ ومن ثلاثون الى ستون نصف فضه لغير البالغ ــ لكنها رفعت عام 1734 الى ثلاث درجات (400 للاعلى) و(200 للاوسط) و(مائة للادنى) تبعا للحالة المالية للذمى (75) ــ ومن المؤكد أن ضريبة الجوالى كانت تتعرض

---

(70) أوضح الاشارات ص 469 .

(71) أوضح الإشارات ص 378 ــ 379 .

(72) أوضح الإشارات ص 378 ــ 379 .
و : — «Encyclopaedia of Islam» Vol. I. Art. «Dhimma».

(73) — «Encyclopaedia of Islam» Vol. I. Art. Dhimma.

(74) أوضح الإشارات ص 427 ــ 428 .

(75) أوضح الإشارات ص 590 ــ 591 .

للكثير من الزيادة والتعسف فى التحصيل شأنها فى ذلك شان الضرائب الغير قانونية التى كانت تحصل من باقى الرعية (كالمضاف) و(البرانى) و(حق الطريق) الخ ٠

ورغم ان لقب (معلم) كان يعنى فى مجال التطبيق عند المسلمين صاحب الحرفة كالقصاب والجبان والزيات (76) ـ الا انه كان يطلق على أهل الذمة المشتغلين بالمسائل المالية والحسابية والمشتغلين أيضا بالتجارة بصفة عامة ـ دون تمييز بين قبطى ويهودى (77) ـ كذلك فان اعتبارات الثراء لم يكن لها علاقة بهذا اللقب عند هذه الطائفة ٠

4/ النساء

تعاملت النساء فى المجتمع المصرى فى الفترة موضوع الدراسة مع بعضهن ومع الرجال ـ بانفسن ومن خلال الوكالة ـ وان كانت معاملاتهن المباشرة أظهر٠٠٠ فقد (تداعين) امام المحاكم مباشرة ضد خصومهم من الجنسيين فى مسائل الوراثة والتركات ، وطالبن بحقوقهن ، ووجهن اليمين الحاسمة فى مسائل المنازعات واشترين من الرجال والنساء ـ وبعن أيضا بانفسهن و(دون وكيل) ، وقبضن ودفعن ـ وأقرضن وصدقن وتشاركن فى عقود المشاركة ـ وأجرن ـ وأستاجرن ـ وأسقطن حقوقهن فى التصرف والتحدث والالتزام والتقسيط فى الجارى فى تصرفهن من الالتزامات (78) ٠

غير أن أهم ما تثيره وثائق الفترة موضوع الدراسة بالنسبة للنساء (قضية السفور) ـ فالثابت وفقا لما بين ايدينا من الوثائق ـ ان النساء كن يوصفن فى احكام المحاكم الشرعية وصفا تفصيليا يتعلق (باللون) و(الوجه) و (الحواجب) و (الذقن) و(العلامات) (ملمس الجلد) و(شكل الجسم) أيضا ٠

«لدى مولانا الحاكم الحنفى ٠٠٠ اشترت الحرمة ٠٠٠ ابنة ٠٠٠ من بايعتها ٠٠٠٠ المكان الكائن ببولاق ٠٠٠٠ بدلالة الحجة الشرعية ٠٠٠٠ والجارى الحصة المبيعة فى ملك البايعة المرقومة ٠٠٠٠ ولها ولاية بيع ذلك وقبض ثمنه ٠٠٠٠ البايعة المرقومة أنها حنطية اللون عربية الوجه مفروقة الحاجبين بذقنها دق أخضر وبيدها وذراعها دق أخضر ٠٠٠٠٠ (79) ٠

---

(76) سجل محكمة الباب العالى رقم (123) وثيقة 2230 ص 40 ووثيقة 135 ص 25 عام 1056 هـ= (1646 م) .

(77) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 230 ص 40 – 135 ص 25 و 90 ص 16 سنة 1056 هـ .

(78) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 37 – ووثيقة 39 – 44 – 90 ص 16 – 108 ص 19 – 150 ص 28 من نفس السجل سنة 1056 هـ= 1646 م ومحفظة روزنامة بدون رقم من ديوان الروزنامة بدار الوثائق القومية .

(79) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 39 سنة 1056 هـ= 1646 م .

«لدى مولانا الحاكم الحنبلي استأجر ٠٠٠٠٠ لنفسه من ٠٠٠٠ وشقيقته الحرمة فاطمة (المرأة) (الحنطية اللون) العربية الوجه (المفروقة الحاجز) (المعتدلة القامة) (الرقيقة البشرة) ٠٠٠٠ وهما اجراه بالسوية جميع المكان ٠٠٠٠ (٨٠) ٠

«لدى مولانا الحاكم الحنبلي ٠٠٠٠ ادعت الحرمة منا المرأة ابنة ٠٠٠ (الحنطية) (العربية) (المفروقة) (الرقيقة البشرة) (المعتدلة القامة) (الى الطول اقرب) على زوجها ٠٠٠ بان زوجها لم ينفق عليها ٠٠٠٠٠ (٨١) ٠

وكما هو ثابت فان وصف النساء لم يقتصر على قضايا بعينها ـ فقد وصفن في قضايا او عقود (الشراء) و(الاستئجار) و(الاحوال الشخصية) ـ كذلك فانهن وصفن في القضايا امام قضاة اكثر من مذهب (الحنبلي والحنفي) ٠

هل كان هذا يعني أن المرأة المصرية عرفت السفور في القرن السابع عشر ـ فكشفت عن وجهها ومفرق شعرها وقسماتها وذراعيها ـ واظهرت ما تعارف المسلمون على اخفائه ؟

لقد كانت المحاكم التي اثبتت اوصاف المرأة المصرية (محاكم شرعية) ـ بمعنى ان قضاتها ومحرري سجلاتها وشهودها ممن ينتسبون الى الجانب التطبيقي من الاسلام وأعني به القضاء الشرعي ، ويطبقون احكام القرآن والشريعة الاسلامية ـ أي انهم بحكم طبيعة عملهم يكونون ابعد الناس عن التهاون فيما حرم على الرجال النظر اليه من المرأة ـ وما حرم على النساء من الظهور امام الرجال ـ ولا اتصور ان تكون كل المذاهب قد اتفقت على صور (الحاجة) التي يسمح فيها للمرأة باظهار ما هو عورة منها ـ هذا اذا قلنا ان ما حدث امام هذه المحاكم من كشف لعورات النساء كان نوعا من انواع (الحاجة) التي تبيح السفور ٠

ان عورة المرأة هي جميع جسدها ٠٠٠ واعتبر البعض ان الوجه والكفين ليسا بعورة ٠٠ وقال البعض ليسا بعورة في الصلاة فقط ٠٠ والسماح باظهار الوجه والكفين في الصلاة عند بعض الفقهاء ٠٠٠ يدل على أن الاصل وجوب الحجاب لجميع جسد المرأة ٠٠٠٠٠٠٠ ولان الاستثناء لا يكون الا من أصل ـ والاصل هنا أن جسم المرأة كله عورة ـ والاستثناء لا يجوز ان يتوسع فيه ٠

هذا هو ما يتعلق بتحجب المرأة وتحريم اظهار عورتها ٠

ثم نأتي الى ذريعة (الحاجة) ٠

---

(80) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 109 ص 19 سنة 1056 هـ ـ 1646 م

(81) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 243 ص 43 سنة 1056 هـ ـ 1646 م

ان خروج المرأة لا يجوز الا فى احوال استثناها الشرع ٠٠٠٠ فيجوز لها الخروج اذا كانت فى حاجة ولم يكن لها من يقضى هذه الحاجة ٠٠٠ ومع ذلك فانها يجب ان تكون محجبة ٠

ويجوز لها تعاطى البيع والشراء اذا اضطرت لذلك ـ ويجوز لها ان تكشف عن وجهها وكفيها عند الخطبة لان الوجه يخبر عن الصفات والاخلاق ٠٠٠٠ والكفين يخبران عن نضج الجسد ٠

ويجوز لها ان تكشف عن نفسها عند العلاج أمام طبيب من الرجال اذا لم يوجد غيره أو من يكون فى كفاءته من النساء ـ وعند التعليم والتعلم اذا لزم الامر ٠

وعند الشهادة امام القاضى ليطلع على ما يساعده فى الحكم ـ ومع ذلك فاذا كان لون وشكل الوجه ووصف القوام والعلامات المميزة هى مما يساعد القاضى على الحكم وحتى لا تنسب احكام الى غير اصحابها أو يدعى بدعاو على غير الحق ـ فأى (حاجة) للقاضى فى التعرف على ملمس البشرة ـ أو الاشارة الى (دق اخضر) بالذراع وقد تجاوز الكف ـ وألم تكن (الوكالة) كافية لقضاء حاجات النساء عند (التداعى) فى المحاكم ؟ ٠

فى تصورى أن وصف النساء على الصورة التى وردت فى سجلات المحاكم الشرعية التى قدمناها يتجاوز (الحاجة) التى تبيح الخروج عن الاصل فى الشريعة وهو حجب المرأة عن نظر الرجل ٠

ولما كان القائمون على مجالس القضاء التى صدرت عنها هذه الاحكام الواردة فى الدراسة من المتمسكين ـ فرضا ـ بالقواعد المتعلقة بتحجب النساء التى قدمناها فى السطور السابقة ـ فان التسلسل الطبيعى للامور هو أن تكون النساء المصريات قد تخففن من قيود الحجاب فى الفترة موضوع الدراسة بحيث أصبح من السهل وصف (قوامهن) و(ملمس بشراتهن) و(العلامات التى بأذرعهن) ـ وهو ما يجعلنا نميل الى القول بأن المرأة المصرية قد عرفت السفور فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ٠

على انه اذا كانت المرأة المصرية على هذا القدر من الحرية الشخصية ـ فان زميلتها من نساء الطبقة الحاكمة كانت تتعرض لنوع من العبودية الشخصية يبدو من كتابات المؤرخين فى تلك الفترة وان كنا لم نجد له ما يسنده من الوثائق فى سجلات المحاكم الشرعية أو دور الحفظ ٠

فقد ذكر «احمد جلبى عبد الغنى» فى أكثر من موضع من (تاريخه) ما مفاده أن نساء المتنفذين المهزومين فى صراع السلطة كن ينتقلن هن وأموال أزواجهن الى المنتصرين بصورة تبعية ٠

وتبدو هذه الصورة واضحة تماما فى «نكبة الشواربية» عام 1727 ٠

كان الشواربية قد تحالفوا مع (الفقارية) خلال صراع الاخيرين مع (القاسمية) ـ فلما انتصرت الفقارية عام 1726 ورثوا هم وحلفائهم الشواربية

(أموال القاسمية وديارهم وبلادهم وتزوجوا بنسايهم وسكنوا بيوتهم وقفلت بيوتهم (القاسمية) جميعا وفتحت بيوت الفقارية والشواربية ، وصاروا اقوى مما كانوا) (83) .

لكن هذا التحالف الشواربى ـ الفقارى لم يدم طويلا ـ فقد كانت سمة الحياة فى مصر العثمانية خلال القرن الثامن عشر هى الانقلابات والتكتلات العسكرية وتجمعات البيوتات العسكرية والدخول فى معارك تصفوية تنتهى بالقضاء على فريق وسيطرة فريق .

ففى عام 1727 انتهزت الشواربية فرصة سفر زعيم الفقارية (زين الفقار بك) امير الحج بركب الحج ، واجتمع كبيرهم (مصطفى بيك ايواظ ـ وزوج شقيقته يوسف بك الشرايبى) وسليمان أبى دفيه أغا اوجاق المستحفظان (الانكشارية) وعبد الله كتخدا الجاووشان وعلى بيك امين الشون وبعض ضباط الاوجاقات السبع ـ واتفقت كلمتهم على تدبير مؤامرة تستهدف القبض على (الوالى العثمانى) محمد باشا النشانجى (1726 ـ 1728 م) لدى ذهابه للاحتفال بوفاء النيل (جبر البحر) وعزله ، وتعيين على بيك امين الشون (قائم مقاما) ـ ويوسف بك الشرايبى (دفتر دارا) ـ ومصطفى ايواظ (أميرا للحاج) ـ وان يرسلوا قوة تقطع الطريق على امير الحج (زين الفقار بك) وتقتله ـ ثم يتبعون ذلك بقتل بعض اعوان الفقارية من قادة الاوجاقات العثمانية .

وكان للشواربية زعيم آخر هو (على بيك الهندى) (الدفتردار) فلما أبلغه المتآمرون بما عقدوا العزم عليه ـ ابلغ هو بدوره (محمد باشا النشانجى) الذى تمكن من القضاء على (مصطفى ايواظ ـ وعلى بيك امين الشون ـ و(كيل على) كتخدا باب مستحفظان ـ وزوج ابنة الشيخ احمد البكرى شيخ السجادة البكرية ـ وسيلمان ابو دفية ـ وباقى المتآمرين .

وبوصول (امير الحاج زين الفقار) زعيم الفقارية اشتدت عمليات المطاردة والقبض والقتل حتى تم القضاء على بيت الشواربية (84) . ويقول (احمد جلبى) معقبا على نهاية الشواربية (وأخذ زين الفقار بيك القصر والجنينة اللذان بمصر القديمة وتقاسموا بيوتهم وبساتينهم وتزوجوا نسايهم واستخدموا اتباعهم ...) (85) .

وعندما تجدد الصراع بين (زين الفقار) الفقارى واعدائه وانتهى ذلك الى قتله عام 1730 واندحار (الفقارية) ـ تزوج على بيك «بسيدته زوجة سيده» (زين الفقار) (86) .

(83) أوضح الإشارات ص 485 .
أوضح الإشارات ص 385 .
(84) أوضح الإشارات ص 485 ـ 525 .
(85) أوضح الإشارات ص 525 .
(86) أوضح الإشارات ص 566 .

ويفهم من هذه النصوص ان «الزواج» كان (يفرض) على زوجات القتلى من بكوات المماليك المهزومين من جانب المنتصرين عليهم من اتباعهم أو اعدائهم على حد سواء ـ فالنصوص واضحة ، والمنتصر كان يأخذ (قرى) عدوه المهزوم وعقاراته وأمواله (ونسائه) شاملا ذلك جواريه ومحاظيه (وزوجاته) ٠

ويرتبط هذا الموضوع بقضية (زواج) طبقة الصفوة فى مصر فى الفترة موضوع الدراسة ٠ فقد اشترك في السلطة فى مصر منذ بدايات القرن السابع عشر الصناجق والمماليك المنتسبين اليهم ، ثم بدأت طائفتى (الفقارية) و(القاسمية) المملوكيتين تظهران على ساحة الاحداث فى ثلاثينيات القرن وتجمعان اسباب القوة والنفوذ ـ ودخلت البلاد فى منازعات على السلطة بين الطائفتين انضم النظام الحاكم فيها تارة الى هذه الطائفة وتارة لتلك ـ ومن ستينيات القرن السابع عشر وحتى نهايات القرن الثامن عشر اصبحت (البكوية المملوكية) هى القوة الاساسية فى الولاية ، وتلاشت الى جانبها قوة النظام الحاكم ٠ بأوجاقاته وتنظيماته التى اصبحت قوى تابعة للبيت المملوكى المتنفذ ٠

تكونت البيوت المملوكية من مماليك (بكوات) يشترون لانفسهم مماليك صغارا من (بلاد الجركس) وينشؤونهم على دين الاسلام ـ ويعلمونهم الفروسية ـ ويسندون اليهم مناصب (الخازندار) وغيرها داخل (بيوتهم) ، ثم يقومون بعتقهم (وتزويجهم) (بجوار) من بيوتهم بعد تحريرهن أيضا ـ أو بأخوات لهم أو بنات ـ أو بنساء من بيت مملوكى أخر بقصد تقوية تحالف مملوكى ضد تحالف مملوكى آخر ـ ومع الزمن أصبح (تزويج المملوك وعتقه وترقيته بيكا أو ضابطا فى احد الاوجاقات العثمانية) من بين مظاهر العناية والرعاية التى يوليها (البيك المملوكى) لافراد (بيته المملوكى) ـ ثم اصبح ذلك المظهر تقليدا راسخا توطدت من خلاله التقاليد البكوية المملوكية ، وتكونت فى ظله التحالفات بين البيوت المملوكية ـ وأصبح هذا التقليد أحد الوسائل الاساسية لوصول (المملوك الصغير) الى اعلى المناصب فى النظام المملوكى ـ بمعنى أن تزويج المملوك باحدى نساء بيت سيده (جارية ـ أو زوجة سابقة ـ أو أرملة ـ أو أخت ـ أو ابنة) كان يحمل معه فرص الثراء والنفوذ وامكانية اقامة المملوك بيتا خاصا به ـ ويتكرر التقليد ، وهكذا ٠

وكنا قد انتهينا فى الصفحات الاولى من هذه الدراسة ـ مع عدم العثور على قضايا تتعلق بزواج نساء الطبقة الحاكمة ـ الى احتمال انفراد نساء ورجال هذه الطبقة بقواعد وسجلات خاصة تسجل فيها امورهم الشخصية ٠

ولما كان من الثابت ان نساء الطبقة الحاكمة من البيوت المملوكية كن (جوار أو محاظ جلبن مثلما جلب الرجال من المماليك ـ فانه يصبح مقبولا القول أن هذه الشريحة من النساء فى مصر كن يعشن حياة اجتماعية خاصة تتعلق مصائرهن فيها (جوار كن ام معتوقات) بارادة (سيدهن) الذى يستطيع تزويج

من يشاء من مماليكه بأى منهن ـ هذا من ناحية ـ ومن ناحية أخرى فان هذا المسلك تطور مع تزايد الصراع على السلطة الى انتقال البيت المملوكى المنهار اثر مصرع سيده ـ الى البيك المنتصر بما يحويه هذا البيت من مال وعقار وممتلكات ونساء ـ فيقوم السيد الجديد بتزويج مماليكه الخاصة بزوجات من مماليك هذا البيت ـ وقد يختص نفسه بارملة سيد البيت المقتول ـ كذلك فان مملوك البيك المقتول دون هزيمة كان يمكن ان يتزوج ارملة سيده بهدف استمرار الحفاظ على البيت والوفاء لذكرى استاذه (87) ٠

ويبدو أن لهذا (الحق) الذى يتمتع به السيد على نساء بيته (جوار) كن أو (محررات) صلة بالآثار الناجمة عن عملية (العتق) التى تتم ـ فالثابت وفقا لسجلاتالمحاكم الشرعية أن (العبد) يبقى بعد عتقه (ملتزما بولاء شرعى لمعتقه) ٠

«لدى مولانا الحاكم الحنبلى ٠٠٠ أشهد على نفسه ٠٠٠٠ وهو متجمل بالصفات المقررة شرعا انه نجز عتق مرقوقه ٠٠٠٠٠ تنجيزا شرعيا ابتغاء لوجه الله تعالى وطلبا لثوابه الجسيم وعملا بقول نبيه الكريم عليه افضل الصلاة وأكمل التسليم من أعتق نسمة مؤمنة اعتق الله تعالى بكل عضو منها عضوا منه من النار حتى الفرج بالفرج وبمقتضى ذلك صار ٠٠٠٠٠ حرا من أحرار المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم (الا الولاء الشرعى فانه لمعتقة المشار اليه) ٠٠٠٠ (88) ٠

ولعل هذا (الولاء الشرعى) المشار اليه فى احكام المحاكم الشرعية كان يقع على (حرية المرأة المعتقة) فى اختيار من تتزوجه ـ وان هذه (الحرية) تبقى (بعد عتقها) لسيدها الذى اعتقها ـ هذا فيما يتعلق باحوال التزويج الطبيعية اى التى يقوم (السيد) فيها بتزويج معتوقته أو احدى نساء بيته لاحد المماليك ـ اما فيما يتعلق بزوجات ونساء البكوات المهزومين والمقتولين ـ فاننا نتصور أن حريتهن الشخصية بصفة عامة ، كانت بيد السيد الجديد الذى يؤول اليه (البيت المهزوم) بما يحويه من مال وثروة ونساء ـ فيتصرف فى هذا كله وفق الشريعة التى تحكم تصرفات المنتصر فى صراعات العصور الوسطى ـ هذا هو ما يمكن استخلاصه من تواريخ الفترة موضوع الدراسة بشأن حرية نساء (البكوية المملوكية) فى الزواج ـ والقيود المانعة التى ترد على هذه الحرية الشخصية ٠

---

(87) عن زواج نساء البكوية المملوكية في مصر ، راجع « جذور مصر الحديثة » تأليف دانيال كريسليوس Daniel Crecelius ترجمة وتعليق د. عبد الوهاب بكر .

(88) سجل محكمة الباب العالي (123) وثيقة 15 ص 3 في 1055/12/16 (1645 م) — ووثيقة 266 ص 47 في 1056/2/17 (1646 م) .

5 ـ الاحوال الشخصية :

احتلت الجوانب الشخصية من العلاقات الاجتماعية فى مصر العثمانية مساحة كبيرة من هذه العلاقات ـ وذلك أمر طبيعى ـ فالجوانب الشخصية من العلاقات الاجتماعية هى تلك الجوانب التى تعنى بكل ما يتعلق بالحياة الاسرية ، وليس هناك علاقات اكثر تشعبا وتعقدا وتفرعا من العلاقات الشخصية أو الاحوال الشخصية ـ وهو بحكم غزارة ما تفرزه من قضايا ومسائل ـ فانها تمثل الواقع الاجتماعى بعلاقاته المتعددة اصدق تمثيل .

وقد رسمت المنازعات الشخصية وتصادقات الزواج وقضايا النفقة والارضاع والطلاق والتطليق ، بما حوته من تفاصيل دقيقة لشكل الحياة فى مصر ـ صورة دقيقة لخبايا ذلك المجتمع وشكل العلاقات بين افراده .

ففى قضايا (التخاصم والتنازع) بشأن (نفقة الابناء) يبدو المستوى الاجتماعى للمتخاصمين من قيمة ما فرض لنفقة الطفل (نصف فضة فى اليوم) ـ وتتكشف قواعد الحضانة المعمول بها فى ذلك الوقت (كسقوط الحضانة فى حال زواج الحاضنة المطلقة برجل اجنبى) وامكانية (احتفاظ الحاضنة بالطفل اذا ما تعهدت بتحمل نفقته عن مطلقها) (89) .

وفى قضايا التصادق على (الطلاق الثلاث) تكشف السجلات عن (قيمة المهور) فى الفترة موضوع الدراسة ـ وكيفية تقسيم وتوزيع (الصداق) مقدمه ومؤخره ـ والمبالغ المخصصة من الصداق (لكسوة الزوجة) (الصداق ستة قروش ـ منها خمسة كمؤخر صداق ـ وقرش نظير الكسوة) (90) .

وتكشف سجلات المحاكم الشرعية عن أسرار الحياة الزوجية عندما يتصرف الزوج بالبيع فى (مصوغات) زوجته ـ ثم اضطراره الى الاعتراف بمديونيته لها ورهنه لملابسه واسلحته فى مقابل قيمة المديونية ـ وتعويض الزوج لزوجته بما يملكه من عقار فى نظير مؤخر صداقها مما يفهم معه ان مؤخر الصداق كان يمكن أن يوفى للزوجة قبل حلول اقرب الاجلين (الطلاق أو الوفاة) ـ وتصفية املاك كل من الزوجين واختصاص كل منهما بحقه حال قيام الزوجية بصورة يفهم منها احتمال قيام نزاع بين الزوجين تمسكت فيه الزوجة بحقوق لها قبل زوجها ، وانتهى ذلك الى تصفية هذه الحقوق أمام المحكمة (91) .

---

(89) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) — وثيقة 11 ص 2 سنة 1056 ـ 1646 م الملحق رقم (6) .

(90) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) — وثيقة (13) ص 2 — سنة 1056 ـ 1646 م .

(91) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) — وثيقة 44 ص 11 — سنة 1056 ـ 1646 م — الملحق رقم (7) .

وقد طلبت الزوجيات فى القرن السابع عشر الحكم لهن بالتطليق (لغيبة الزوج) (92) ٠ وطلب الازواج اثبات طلاق زوجاتهم فى مقابل دفع مؤخر الصداق (93) ٠

وتداعت المطلقات امام المحاكم لطلب النفقة (لاشتمالهن من مطلقيهن على حمل ظاهر) ـ وأنكر الازواج ذلك ـ وظهر دور (القابلة أو الدايه) الشاهدة باشتمال المطلقة على الحمل (94) ٠

واختلفت الزوجات مع أزواجهن حول (صلاحية مسكن الزوجية) والتجأن للقضاء ـ وتداخل (متكلم بالصلح فاصطلحا ورضى الزوج المرقوم بان يهيىء لزوجته المذكورة مكانا داخل الصور بخط الدرب الاحمر بعد ثلاثة ايام تمضى من تاريخه) (95) ٠

ويبدو أن شكوى الزوجة فى القضية السابقة حول صلاحية مسكن الزوجية لم تكن (لان المكان لم يكن مأمونا) كما جاء بالدعوى ـ ولكن لأن (والدة الزوج) كانت تقيم مع الزوجين ـ مما يدفع الى الاعتقاد بان الزوجة كانت ترغب فى مسكن منفصل بعيدا عن (حماتها) (96) ٠

وعلى خلاف ما هو متعارف عليه من (طلاق الابراء) الذى تبرىء فيه الزوجة طالبة الطلاق ذمة زوجها فى مقابل الطلاق ـ فقد شهدت حوادث الطلاق فى القرن السابع عشر حالات طلبت فيها الزوجة من زوجها ان يطلقها من عصمته وعقد نكاحه فى مقابل مبلغ من المال تدفعه له ـ دون ان تتنازل عن مؤخر صداقها الذى قبضته فى مجلس الطلاق (97) ٠

لكن حالات (الطلاق بالابراء) كانت قائمة ـ وكانت الزوجة تبرىء زوجها ـ فى مقابل الطلاق من مؤخر صداقها ، و(من دينها عليه ومما تجمد عليه من كساوى وانفاق ومن ساير الحقوق الشرعية) (98) ـ كذلك فقد كان الزوج يتنازل عن حقه فى (ضم الطفل) لمطلقته (عزباء كانت أو متزوجة مسافرة أو مقيمة من تاريخه (تاريخ الطلاق) والى ان يميز (أى الى أن يبلغ الطفل سن التمييز) وأسقط حقه فى طلبه وانتزاعه منها الى انقضا المدة المذكورة) (99) ٠

---

(92) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) – وثيقة 45 ص 11 – سنة 1056 = 1646 م .
(93) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) – وثيقة 78 ص 14.
(94) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) – وثيقة 80 ص 15 سنة 1056 = 1646 م .
(95) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) – وثيقة 130 ص 23 سنة 1056 = 1646 م .
(96) المصدر نفسه .
(97) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) – وثيقة 160 ص 30 سنة 1056 = 1646 م الملحق رقم (8) .
(98) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) – وثيقة 227 ص 40 سنة 1056 = 1646 م .
(99) المصدر نفسه .

وسجلت عقود الزواج شروطا اشترطتها الزوجة أو أقرها الزوج بعدم زواجه على زوجته نساء غير التى تكون فى عصمته وقت عقد الزواج ـ أو عدم (رد مطلقة من مطلقاته) ـ فاذا خالف أحد هذه الشروط وأبرأته زوجته من ربع قرش من مؤخر صداقها ـ فان الطلاق يقع (بطلقة واحدة) ـ بمعنى ان (استمرار الزواج) فى مثل هذه العقود كان (معلقا على شرط فاسخ) ـ وقبلت المحاكم هذا (التعليق) وجرى العمل به فى حالات الزواج فى القرن السابع عشر (100) ٠

بل ولقد بلغ (التعليق) فى بعض عقود الزواج حد ذكر اسم الزوجة التى فى عصمة الزوج عند زواجه الجديد ـ تأكيدا لشرط عدم زواجه بثالثة ـ وكان الشرط الفاسخ يقع الى جانب (رد المطلقة) اذا (تسرى عليها بسرية من اى الاجناس) (101) ٠

ويلاحظ فى مجال العلاقات الاجتماعية المرتبطة بمسائل الاحوال الشخصية وجود ظاهرة (تعدد الزوجات) (انه متى تزوج عليها زوجة غيرها وغير التى في عصمته الآن) (102) ـ وقبول النساء بها فى حدود زوجة واحدة أخرى فقط ـ ورفضهن لاستمرار العلاقة الزوجية اذا زاد عدد زوجات الزوج عن اثنتين ـ كذلك فان ظاهرة (الطلاق) كانت متفشية بين المصريين بدليل تعليق الزوجات استمرار علاقاتهن الزوجية على عدم رد الزوج (مطلقة من مطلقاته) ـ وهو نص يفهم منه ان الرجال فى مصر العثمانية كانوا يستعملون هذه الرخصة بافراط ، فيطلقون (ويردون) بصورة تقلق الزوجات الجديدات الى حد قبولهن بانهاء علاقتهن الزوجية فيما لو أقدم الزوج على رد احدى مطلقاته ٠

ويلاحظ ان (السرارى) كان لهن وجود فى المجتمع المصرى ـ وان الرجال كانوا (يتسرون) الى جانب اقترانهم بزوجات ـ وان هذا الوضع كان يضايق الزوجات الى حد اشتراط عدم تسرى أزواجهن عليهن (بسرية من اى الاجناس) (103) ٠

كذلك فان عقود الزواج كانت تتضمن ما معناه تقرير (بدل كسوة) شهرية للزوجة بقيمة نقدية على الزوج تتراوح ما بين عشرين نصف فضة وعشرة انصاف (104) ٠

---

(100) سجل محكمة الباب العالي (123) — وثيقة 230 ص 40 — سنة 1056 — 1646 م الملحق رقم (9) .

(101) سجل محكمة الباب العالي (123) — وثيقة 273 ص 48 — سنة 1056 = 1646 م الملحق رقم (10) .

(102) راجع الملحق رقم (10) — والملحق (9) .

(103) راجع الملحق رقم (10) .

(104) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 327 ص 59 سنة 1056 هـ (1646 م) وراجع الملحق (9) و (10) من هذه الدراسة .

وقد استخدم (التعداد المذهبى فى مصر : حنفى ـ مالكى ـ شافعى ـ حنبلى) وسيلة للتحلل من استمرار العلاقات الزوجية فى بعض الاحيان ـ فما لا يجيزه مذهب قد يميزه مذهب آخر ـ وفى ظل ظروف فساد الذمم الذى كان حادثا فى مصر العثمانية ـ وامكانية ارتشاء القضاة ـ كان يمكن لزوجة تبغى فصم علاقتها الزوجية دون اسباب شرعية ودون تحمل (الابراء) أن تحصل على حكم بالتطليق مع دفع مؤخر الصداق عن طريق رشوة القاضى ـ وقيام الاخير باصدار حكم ينافى مذهبه ومذهب الزوجين ٠

وعلى سبيل المثال فان المالكية كانوا يرون (بالتفريق) (اذا حدث من الزوج هجر للفراش والضرب المؤلم مع اقامة البينة) ـ اما مذهب أبى حنيفة النعمان فكان لا يفرق بين الزوجين لهذا السبب (105) ٠

ولم يكن قصور الفتيات عن سن الزواج يحول دون ابرام عقد النكاح فى القرن السابع عشر فى مصر العثمانية ـ فقد سجلت احكام المحاكم الشرعية حالات كانت الزوجة فيها (قاصرة عن البلوغ) (106) ٠

6 ـ علاقات السلطة بالمحكومين :

تحكم علاقات الناس فى مجتمع ما فكرة معينة اتفق على تسميتها «بالضبط الاجتماعى» ـ وقد اختلف الفقهاء فى اعطاء التعريف الموحد للضبط الاجتماعى ـ فبينما عرفه Ross بأنه «سيطرة اجتماعية مقصودة وهادفة» ـ فقد حدده سمنر Sumner فى «ما أرسته العادات الشعبية من أثر على المجتمع ٠ فهى تصبح منظمة للاجيال المتعاقبة وملزمة لها وبذلك تعمل على ضبط السلوك الفردى والاجتماعى الى حد بعيد ، وتمارس القهر على الفرد لكى يمتثل لها ـ أما دوركهايم Dorkheim فقد قال بان «اى عامل يتدخل فى سلوك الانسان يعتبر عاملا ضابطا element Contrait (107) ٠

وايا كانت التفسيرات ـ فان ما لا خلاف فيه هو ان الضبط الاجتماعى كفكرة يهدف الى ضبط البناء الاجتماعى والاقتصادى فى مجتمع ما ٠ ومع ان وسائل الضبط الاجتماعى تعددت ـ وتعددت بالتالى النظريات التى تناولتها ٠٠٠ الا أن القانون يعتبر أداة متخصصة ومحددة تحديدا دقيقا يستخدمها المجتمع لضبط افراده بحكم ماله من وظائف الحسم والردع ـ والاجبار والالزام ٠

ولعل مصر العثمانية فى الفترة موضوع الدراسة كانت أرضا خصبة لاختبار هذه التعريفات الوسائل فيها ـ واكتشاف مدى انطباق هذه النظريات عليها ٠

---

(105) أوضح الإشارات ص 380 — 381 .
(106) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 280 ص 49 سنة 1056 م (1646 م) .
(107) د. سامية محمد جابر « القانون والضوابط الإجتماعية — مدخل علم الإجتماع الى فهم التوازن في المجتمع» ص 34 — 36 .

لقد قدم الشارع المصرى فى الفترة موضوع الدراسة صورة صادقة للعلاقة بين السلطة والمحكومين ـ وهى صورة ترسمها لنا الوثائق والتواريخ التى تحكى أخبار ذلك الزمان ٠

فقد كانت التعليمات التى ينادى بها فى شوارع القاهرة «ان لا أحد يركب بغلة ، ولا رهوانا ، من اولاد البلاد والتجار» (108) ـ وكانت احتكاكات اهل المدينة باصحاب السلطة تنتهى الى مآس تراق فيها دماء الاولين ٠

«وفى يوم الثلاثاء ثانى عشر محرم (1712م) تشاجر رجل شريف ٠٠٠ مع مملوك ٠٠٠٠ فضربه المملوك فقتله ٠٠٠٠ فوضعت الاشراف المقتول فى تابوت ٠٠٠ وتوجهوا الى منزل غيطاز بك (دفتر دار مصر وأحد كبار المماليك المتنفذين في ذلك الوقت) فخرجت عليهم جماعة بالسلاح فهزموهم٠٠٠٠ ولقد جاء صالح آغا آغة الجملية (قائد أوجاق الجوكليان) (المتطوعة) على باب جامع الفكهانى والناس داخلة صلاة الجمعة ، وهو يسأل الداخلين ، ويقول ، هل هنا احد من هؤلاء اليهود ـ يعنى الاشراف ٠٠٠٠ وراح الشريف المقتول (اى راح دمه هدرا) (109) ٠

وقد تسبب السراجين والغز فى افساد العلاقة بين السلطة وطبقة المحكومين بافعالهم المنكرة فى شوارع القاهرة من نهب للفقراء والمتسببين وتعطيل ارزاق التجار وأصحاب الحوانيت الذين كانوا يقفلون حوانيتهم خشية الضرر (110)

---

(108) « أوضح الإشارات » ص 256 .

(109) « أوضح الإشارات » ص 256 – 257 .

(110) « اوضح الإشارات » ص 374 – والسراجين شبان من بلاد الدولة العثمانية (بلاد الروم) – يسمون (روم اوشاغي) – كانو يردون الى مصر كمسلمين احرار يرغبون في اداه فريضة الحج – وعند وصولهم الى مصر يلتحقون بخدمة احد الأغاوات (القادة) قادة الفرق العسكرية العثمانية كحراس خصوصيين – ويسمى الواحد منهم في هذه الحالة (سراجا) . وبعد خدمة بضع سنوات في (الجيش الخاص) للمتنفذ العثماني يقوم الأخير بالحاق سراجيه باحدى الطوئف العسكرية السبعة ويتقاضي راتبه من الفرقة التي التحق بها (الأوجاق) – في نفس الوقت فان ولاءه يكون لسيده القائد العسكري – وزيادة في الكسب المادي فان سيد (السراج) يلحقه بطائفة تجار جدة الأغنياء – ويتحول اسمه هنا الى تشراك Çirak (وهي تعني تلميذ او اجير – أو مريد في اللغة التركية) – وقد ذكر الجبرتي هذه الطائفة باسم (اشراق) – (اشراقات) – أما (الغز) فهو مصطلح يقصد به (الأتراك أو السلطة العثمانية الحاكمة بصفة عامة) وأصل الكلمة أوغوز Oğuz وتعني فرعا من القبائل التركية التي هاجرت من أواسط آسيا واتجهت في رحلاتها تجاه آسيا الصغرى (الأناضول ايران – والعراق) وتعتبر القبائل التي انحدر منها العثمانيون فرعا من هذه القبيلة – ولغويا تحولت الكلمة مع الإستعمال الدارج الى (غز) بضم الغين – واصبحت تعني اصطلاحيا الطبقة الحاكمة بصفة عامة – أو السلطة المتنفذة على البلاد من غير الرعية – بمعنى انه كان أيمكن ان يندرج تحتها المماليك في العهد العثماني أيضا – وليس الأتراك فقط .

نظر :

— P. M. Holt «The Career of Kûčûk Muhammad (1674-94) BsoAs-XXVI 2. PP. 274 - 276.

— Shaw, S. J. «Ottoman Egypt in the 18 th Century, pp. 23-26,

وعبد الرحمن الجبرتي « عجائب الاثار في التراجم والأخبار » ج 1 ص 100 .

وكان تذمر (الرعية) من احوال النظام الحاكم يقابل بالعنف والبطش دون مبرر ـ ففي عام 1724 م ثارت العامة واغلقت الحوانيت ـ وضرب اهل القاهرة المشايخ والعلماء لتخلفهم عن القيام بدورهم كسلطة وسيطة بينهم وبين النظام الحاكم ـ ويصف لنا أحمد جلبي رد فعل النظام الحاكم بقوله «فضربوا (أي القوات العسكرية) الرعية بالبندق والنبابيت فقتل من المغاربة رجل ومن الرعية واحد . ثم ان الرعية نزلت الى الرميلة والى بيت جركس (جركس بك محمد شيخ البلد فى ذلك الوقت) ، فلما رآهم العزب (طائفة العزبان العسكرية العثمانية) ضربوهم بالبندق فنزلوا على بيت جركس فضربهم جماعته بالرصاص فانكسروا الى الرميلة (ميدان عند القلعة) ، فبقيت الرعية بين العسكرين ، فما ساع الرعية الا أنهم قصدوا القرافة وتوجهوا الى قبة الامام الشافعي ، وفرقة طلعت الى الجيوشي وفرقة قصدت الامام الليث بن سعد ، وباتوا طول ليلتهم يدعون الله بالعفو ... وطلع الناس على المنارات يدعون الله بالعفو عنهم .... وكان دعايهم (دعاءهم) فوق المنارات يا من له المراد فى كل ما أراد . بجاه المصطفى الحبيب تعفو عن البلاد ...» (111) .

وهكذا فان «الرعية» لم يكن لديهم ما يفعلونه امام ظلم السلطة سوى (الدعاء) للتخفيف عنهم .

ولقد بلغ من عسف السلطة بالرعية أن القتلى من الرعايا كانوا لا يسلمون الى ذويهم الا بعد تحصيل مبالغ مالية لرئيس الشرطة (الوالى) .

«فى ليلة الجمعة ثالث رجب سنة 1140 هـ (فبراير 1728 م) عملوا مولد سيدى احمد الرفاعي المعتاد الذى بسوق السلاح ، فحصل فيه شدة ازدحام كبير من كثرة الخلق ، فمات فيه تحت أرجل الخلق سبعة عشر رجلا وولد صغير ... فأتى آغة مستحفظان وأمر أتباعه بشيل الاموات فشالوهم ووضموهم داخل السبيل ـ ثم أنه توجه الى منزله وأبقى كتخداه (نائبه) الى ان طلع النهار وأوصاه بأن كل من عرف ميته يأخذه ... ثم ان الوالى تعلل وقال .... لى على كل قتيل أحد عشر قرشا .... واني لا أفوت من دفناتهم شيئا ...»(112)

وقد كان غرم الصراعات العسكرية بين الطوائف المتنفذة المتناحرة فى النهاية على اهل البلد من الرعية ـ ففى صراعات عام 1729 بين (جركس محمد) و(زين الفقار) استقر رأى المتنفذين من المماليك على تجهيز حملة لمطاردة (جركس محمد) ـ فاقترح (زين الفقار بك) جمع تكاليف الحملة وقدره (400 كيس) (113) من التجار ـ «المطلوب لتجهيز العسكر اربعمائة كيس

(111) أوضح الإشارات » ص 433 ـ 434 .

(112) أوضح الإشارات » ص 524 .

(113) الكيس يساوي 500 قرش ـ والقرش كان يساوي في الفترة موضوع الدراسة 90 نصف فضة وهي الوحدة الأساسية للنقود في مصر خلال ذلك الوقت .

نفردها على التجار ثم انه كتب تذاكر وصار يرسلها الى التجار صحبة سراجينه ويرسل صحبة التذكرة صورة تمسك (ايصال) وكتب عليه القدر المطلوب منه دين ، فلما توجه السراجين بالتذاكر او التمسك كتب فيه خمسة الاف ... فما يسع التاجر الا أنه يرسل له الفين او ثلاثة آلاف مساعدة ويرسل له التذكرة والتمسك ، فمن جملة ما اخذ من عمر لطفى ثلاثة آلاف ومن أحمد الصراف مثل ذلك ومن عثمان حنون خمسة آلاف ، والذى يعطيه طيبة (عن طيب خاطر) اذا لم يعطيه طيبة تأخذ منه غصيبة اكثر مما طلب (114) .

اما فى الريف فقد كانت علاقات السلطة الحاكمة والملتزمين بالفلاحين اكثر قتامة من اهل المدينة الذين مر ذكرهم فى السطور السابقة .

كانت صيغة تقسيط الالتزام (صك الالتزام) الذى يعطى للملتزم بعد فوزه بالمقاطعة (الالتزام) تقول :

«سنكه ملتزم مزبورسن اشبويديكه ويريلان تقسيط ديوانى موجبنجه قرية مذبوره وغيره بحق (تذكر هنا المساحة ـ من الارض التى التزم بها الملتزم) مذبورك فراغنده التزامكه ويريلوب كدكدركه متصرف اولوب اوزرينه اواسى لازم كلان مال ميرى سى وقت وزمانيله ديوان اول وتسليم ايدوب رعايا وبرايا مال حفظ وحمايه سيله مشغول ومقيد اولوب ظلم وتعديده بغايت احتراز اوزره اوله سن» .

(بموجب التقسيط الديوانى الممنوح الى ذلك الملتزم .... تعطى القرية المذكورة الى التزامك وتكون متصرفا بها دائما وتسلم المال الميرى اللازم عليها .... فى وقته وحينه الى الديوان .... وكن مشغولا ومقيدا بالرعايا والبرايا وحفظ مالهم وحمايته واحذر غاية الحذر من الظلم والتعدى) (115) .

وكان هذا يعنى انه وان كانت الدولة قد اعتنت بتحصيل الاموال ـ وتكليف الملتزم بتحصيلها بكل عناية وتوريدها فى اوقاتها الى الديوان المختص ـ الا انها (الدولة) حرصت على ان يتقيد الملتزم (بالرعايا والبرايا وحفظ مالهم وحمايته) ـ وحذرته الدولة ايضا من الظلم والتعدى .

ولم يفت الدولة أن تنبه الرعايا الى دورهم وواجباتهم تجاه الملتزم ـ فكانت توجه الى الفلاحين (نميقة) خطابا يحمله الملتزم نصه :

«صدرت هذه لنميقة من ديوان الدفترى المصرى خطابا الى نايب الشرع الشريف والحكام والمشايخ والفلاحين بناحية (...) تابع ولاية (....) بحق .... قيراطا ... من فدان ... يعرب مضمونها ويوضح مكنونها بان

---

(114) « أوضح الإشارات » ص 555 .

(115) دار الوثائق القومية – ديوان الروزنامة – محفظة 7 تقاسيط 1211 هـ (1796 م) ملف التزامات 1189 .

الحال اقتضى ان يبرز الامر العالى من الديوان دام بالمفاخر والشان معناه الشريف وفحواه المنيف بأنا مكنا حاملى النميقة .... (اسماء الملتزم او الملتزمين) بحق (تذكر مساحات الاراضى التى التزم عليها الملتزم) باعتبار (يذكر بداية تاريخ الالتزام بالتاريخ القبطى الهجرى) ـ وأصدرنا هذه النميقة الديوانية بموجب الامر الجليل الشان ومقتضى الحكم المحتم الاذعان ـ فحال وصوله اليكم وتحقق مفهومه لديكم يكونوا المذكورين متمكنين متصرفين فى (الالتزام) المذكورة بحق (تذكر المساحة الواقع عليها الالتزام) بالزرع والزراعة والاجرة والاجارة وساير وجوه الانتفاعات وتقووا يدهم وتشدوا عضدهم وتساعدوهم اتم مساعدة بموجب الامر الشريف ومقتضى القانون المنيف وبحكم الخوالى السابقة والحذر ثم الحذر من المخالفة وقد عرفناكم ...

فى 16 محرم سنة 1217» (116) .

لكن واقع الحال يثبت أن هذه الاوامر الرسمية كانت لا تساوى ثمن المداد الذى كانت تكتب به ـ فقد اكتوى الفلاحون بنار (الظلم بضم الظاء وفتح اللام) و(الكلف بضم الكاف وفتح اللام) (117) ـ ويكفى القول ان الضرائب على الفلاحين زادت من عام 1083 هـ (1612 م) تاريخ صدور دفتر تحرير ابراهيم باشا (13 محرم 1081 ـ آخر جماد أول 1083 هـ : 2 يونيو 1670 ـ 23 سبتمبر 1672) الخاص بتحديد الضرائب على الولاية المصرية ـ حتى عام 1724 م ستمائة وثمانون كيسا نتيجة زيادة الظلم والكلف على الفلاحين (118) ـ وقد اثبت «أحمد جلبى عبد الغنى» أن كلفة واحدة على قرية معينة بلغت فى عام 1724 م» خمسون خروفا وقنطار سمن وقنطار عسل وعشرون أردب شعير وعشرة أرادب فول وعيش كفايته وخمسون زنجرلى» (119) .

لذلك لم يكن غريبا ان يضطر الفلاحون الى هجر قراهم والنزوح الى المدينة هربا من جور الملتزمين واخلالهم بالتزامهم امام السلطة العابثة ـ مشكلين (ظاهرة التسحب) منذ القرن السابع عشر ـ وهى الاجراء الوحيد الذى كان امام هؤلاء المقهورين فى مواجهة السلطة الغاشمة .

---

(116) دار الوثائق القومية – ديوان الروزنامة – محفظة 27 روزنامة .

(117) الظلم والكلف هي المغارم التي كانت تحصل من الفلاحين زيادة عن الضرائب الأميرية التي كانوا يكلفون بدفعها للملتزمين .

(118) « أوضح الإشارات » ص 438 – 439 .

(119) « أوضح الإشارات » ص 416 – والزنجرلي عملة ذهبية كانت تستعمل في مصر خلال سنوات القرن الثامن عشر الى جانب الفندقلي – والطرلي – والريال – والكلب – وكانت تسمى احيانا الجنزرلي – وقد تراوحت قيمتها بين 107 نصف فضه عام 1715 م – و 150 نصف فضة عام 1723 و 160 نصف فضة عام 1731 م أنظر « أوضح الإشارات » ص 286 ، 369 ، 576 .

ومع ذلك فان (التسحب) لم يكن ليقيل الفلاحين من مطاردة الملتزمين وممثلى السلطة لهم ــ فقد كان من حق السلطة التنفيذية ورجال الملتزم تعقب (الفلاحين) الذين يكون عليهم أثر فلاحة (التزام بزراعة الارض فى الريف) وعادة (حق الملتزم على الفلاحين بالعمل فى المساحة المخصصة لزاعته الخاصة والمسماة بالاوسية) وغرامة (المغارم التى كانت تحصل من فلاحى الارض زيادة على الضرائب والتى كان يفرضها الملتزم عسفا) ــ والقبض عليهم واعادتهم الى قراهم كرها (120) ٠

كان هذا هو حال (الرعية) فى علاقاتها الاجتماعية مع السلطة الحاكمة واعوانها من الملتزمين ٠

ويبدو أن شريحة من الرعية فى مصر العثمانية ــ فطنت مبكرا الى (الوسيلة الملائمة) لاقامة (علاقات) مع السلطة بصورة متوازنة ــ فاستخدمتها مبكرا واستطاعت بالفعل أن تحقق لنفسها وضعا اجتماعيا مناسبا فى البلاد ٠

وأعنى بهذه الشريحة (العربان) من اهل البلاد ٠

لقد رفض (العربان) فى مصر العثمانية الرضوخ لبطش السلطة الحاكمة وتعسفها وقاوموها أشد مقاومة وبادلوها عنفا بعنف ــ فقاتلوا رجالها ــ وقاوموا قوانينها ــ وهاجموا مواكب الحج الرسمية ــ واعتدوا على القرى ــ وتحدوا السلطة ــ واعتدوا عليها ــ وكانوا أكثر من ند فى مواجهة النظام العثمانى(121) ٠

ويبدو أن (القوة) كانت هى اللغة الوحيدة التى يفهمها النظام العثمانى الحاكم ــ فقد تمتع (العربان) فى مصر العثمانية بمزايا لم تتوفر لاحد سوى الطبقة الحاكمة نفسها ٠

من ذلك حصولهم على رواتب ومزايا مالية ترصد لهم فى دفاتر الاوجاقات العثمانية (122) ــ وافتداء النظام الحاكم قوافل الحج بدفع مبالغ مالية سنوية (صر) لقبائل العربان على طرق الحج لمنع تعديهم على هذه القوافل واتقاء لشرهم (123) ــ واشتراكهم فى مهام حفظ الامن فى الاماكن النائية فى مقابل تصرفهم فى مساحات من الاراضى ــ بمعنى مشاركتهم للمتنفذين من اهل الطبقة الحاكمة فى التمتع بمزايا الالتزامات التى كانت مقصورة على هذه الطبقة وبعض اهل الذمة من اليهود والمسيحيين الذين تولوا التزام بعض الموانى ــ لكن التزام (العربان) فى مجال حفظ الامن كان التزاما من نوع خاص ــ فهو التزام

---

(120) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 184 ص 32 سنة 1056 = 1646 م ــ الملحق رقم (11) .

(121) « أوضح الاشارات » ص 183 ــ 184 ، 250 ، 304 ، 318 ، 394 ، 420 ، 342 .

(122) « أوضح الاشارات » ص 167 .

(123) Shaw, S. J. «Ottoman Egypt in the 18th Century - The Nizamname - i Misir of Gezzar Ahmed Pasha - pp. 22.

بوظيفة لا يدفع عنها أموالا لخزينة الدولة ـ بل ان الدولة هى التى تعطى العربان هنا امتياز التصرف فى اراضى منطقة معينة مقابل جهودهم فى تنفيذ وظيفة الامن فى المنطقة الملتزمين بحفظها ـ كذلك فان الدولة (الولاية) اسندت الى العربان فى هذا المقام مهمة توفير وسائل الانتقال لموظفى الدولة العلية واتباعهم «وحفظهم وصونهم الى ان يصل الى آخر دركهم المتعلق بهم» (124) .

كذلك فان (الدولة) كانت تمنح (العربان) مزايا عينية تتمثل فى تخصيص أنصبة لهم من ايرادات الاراضى الزراعية فيما كان يسمى (بمرتب العربان) ـ وهو تقليد يبدو انه كان متبعا على مدى عهود حكام مصر من (الباشوات العثمانيين) أو (المتنفذين المماليك الذين) استولوا على السلطة وشاركوا الدولة العثمانية فى حكم مصر .

فالوثيقة التى لدينا بشقيها (العربى) و(العثمانى) تفيد انه كانت تصدر فى عهد (محمد بك ابو الذهب 1772 ـ 1775) تحريرات (قوانين او مراسم) يمنح بمقتضاها (العربان) مقادير ثابتة من (الحنطة) ـ واستمر هذا التقليد متبعا حتى تاريخ تحرير الوثيقة ـ 1200 م ـ ولا يوجد بيدناما يفيد توقف هذا التقليد .

«معلم فلتاؤوس مضبطه سندن (من مضبطه المعلم فلتاؤوس) .

مجدد من بعد تحرير المرحوم محمد بيك سنة 1188 هـ (1774 م) داخل مرتب العربان بنواحى العرابا والعسيرات داخل (375 أردب حنطة ـ شعير) بموجب تقرير بيده بختم المرحوم لاجين بك حاكم ولاية جرجاكان ـ تاريخه 19 ربيع الثانى سنة 1200 هـ (1786 م) مجدد من ابتدا 1199 (1785) باسم الشيخ احمد بديوى من اهالى ناحية الساحل بالعرابا من اصل غلال مصاريف الولاية التى هى الكشوفية الى الحاكم من نواحى العسيرات .

---

(124) دار الوثائق القومية – ديوان الروزنامة – محفظة روزنامة بدون رقم – وثيقة التزام خفر ناحية قطية بصحراء سيناء بتاريخ 1133/3/6 هـ= 1720 م – ويلاحظ في الوثيقة ان الطرف المقابل للعربان الملتزمين بحفظ الأمن – كان اهم رجال الولاية (احمد بيك الأعسر) دفتر دار مصر الذي عين في هذا المنصب في غرة ربيع اول عام 1133= ديسمبر 1720 م – و (محمد بيك بن اسماعيل بيك الكبير) أمير الحج الذي عين في هذا المنصب في 23 محرم عام 1133= نوفمبر 1720 – والأمير محمد بيك جركس أحد كبار زعماء الطائفة القاسمية المملوكية التي تزعم عام 1130 هـ= 1718 م فريقا من القاسمية وقتل أحد كبار زعمائها (اسماعيل بك بن ايواظ) في عام 1136 هـ= 1723 م – واصبح اقوى شخصية مملوكية في مصر حتى عام 1142 هـ= 1730 عندما قتل في الصراع ضد طائفة الفقارية المملوكية – وبقتله قضي على القاسمية نهائيا – ووجود هؤلاء الثلاثة في الإتفاق مع العربان يوضح الأهمية الإجتماعية والسياسية التي كانت لهذه الشريحة من الرعية المصريين في القرن الثامن عشر ويكشف عن الوضع الإجتماعي للعربان في ذلك الوقت . وكلمة (بيجير منزل) الواردة في السطر (21) من الوثيقة كلمة تركية تعني بغل= بيجير ومنزل= مستأنس (بيجير منزل= بغل مستأنس) . أنظر الوثيقة المذكورة في ملحق رقم (12) .

وراجع : « أوضح الإشارات » ص 290 – 567 – ود . عبد الكريم رافق « بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت 1516 – 1798 » ص 294 – 295 .

كتابه فلتاؤوس يعقوب مجدد من ابتدا 1199 .

دولتلو عنايتلو عمه فقرايه مرحمتلو سلطانم حضرتلرى صاغ اولسون عرضحان قوللرى بودركه بوقوللرى اقليمنده جرجيه متعلق عراب عسارايه اهاليسه شيخ احمد بديوى نام كمسنك يد ينده اولان سند ايسه تقرير حكام سابقا منواله اوزره سنة 1199 عن اصل مصاريف الولاية بهرسنه التمش أردب حنطه مصرى ويريله كلوب مراحم عليه امرنده مرجو دركه كرم عنايت بيورب يد ينده بر قطعه أمر عالى كرمنامه اعطا بيورب ولايت حاكمنه خطابا كما كان فى الاول مذكور التمش اردب حنط مصرى ويرا لمك نيازيله كرم أمر وفرمان افنديمز ـ بنده ـ احمد بديوى ـ عرابات أهاليسى» (125) .

ومن المقطوع به أن (العربان) كان لهم فى مصر العثمانية وزن كبير يكاد يقترب من وضع الطبقة الحاكمة من حيث القوة والنفوذ ـ فقد شكلوا ـ كقبائل ـ قوات غير نظامية تؤدى الخدمات العسكرية شأنها شأن الطوائف العسكرية العثمانية السبعة فى الولاية ـ وحصل مشايخهم فى مقابل ذلك على اقطاعات زراعية كبيرة ـ فعلى سبيل المثال حصل شيخ العرب (محمد وافى) شيخ عرب المغاربه باقليم (منفلوط) على اقطاع زراعى شمل بلاد بنى رافع ـ وبنى سند والجاولى ـ وام القصور ـ والمنشاة ـ وبسلة ـ وبنى شعران ـ ولوق وبنى زيد ـ وملوط ابو خليل ، وكان يدفع عن هذه الاقطاعات ضرائب (مال ميرى وبدل حلوان) قدرها 12840 قرشا فى العام أى ما قيمته 36،48 كيسه ـ وكان الى جانب التزامه بدفع المال الميرى يقدم افرادا من قبيلته لاداء خدمات عسكرية .

ويستفاد من ذلك ان (العربان) فى مصر العثمانية كانوا يديرون التزامات زراعية من نوع خاص خليط من الالتزام المعروف فى مصر والذى يتلخص فى التزام المتلزم بسداد ما على مساحة معينة من الاراضى او مورد مالى معين من الاموال الاميرية فى مقابل تحصيل مبالغ من المال زائدة عن القدر الذى دفعه (فايظ) لمصلحته الخاصة ـ ونظام الاقطاع الزراعى السباهى الذى كان يطبق فى الاناضول بانواعه الثلاثة (التيمار ـ الزعامت ـ الخاص) والذى كان مقتضاه هيمنة الفارس الاقطاعى على مساحة معينة من الارض فى مقابل تقديم عدد

---

(125) «حضرة صاحب الدولة والعناية سلطاني راحم الفقراء عامة ليسلم ان معروض عبدكم هو أن السند الذي في يده (الشيخ احمد بديوي من اهالي عرب العسيرات التابع لإقليم جرجا) الصادر سنة 1199 بناء عل منوال تقرير الحكام سابقا قد أتاح دوما له الحصول على ستون اردبا من الحنطة المصرية سنويا من اصل مصاريف الولاية . والمرجو من المراحم العلية ان تتفضل العناية باعطائه تقريرا عالي الشأن الى قائم مقام الولاية لإعطائى ستون اردبا من الحنطة المصرية كما كان في السابق – وان يصدر فرمان وامر وعطف سيدى بذلك المعنى . عبدكم أحمد البديوي من اهالي عرب العسيرات » دار الوثائق القومية – ديوان الروزنامة – محفظة روزنامة بدون رقم .

معين من الفرسان للدولة وقت الحاجة ـ يتناسب مع ما تغله الارض من ايرادات مالية مقيمة بالاقجة (العملة العثمانية الاساسية) ٠

فهم يقدمون خدمات عسكرية للدولة فى مقابل الاراضى التى ينتفعون بها ـ لكنهم فى نفس الوقت يدفعون (المال الميرى والغلال الميرى وفايض المال والغلال) لخزينة الولاية كل عام (126) ٠

من هذه المقارنة بين علاقات أهل المدينة وأهل الريف بالسلطة الحاكمة من ناحية وعلاقات (العربان) بهذه السلطة من ناحية أخرى ٠ نخلص الى أن فكرة الضبط الاجتماعى المستهدفة ضبط البناء الاجتماعى فى مصر العثمانية كانت غائبة تماماً ـ وأن (القانون) كوسيلة من وسائل الضبط الاجتماعى لم يكن له أى وجود ـ انما الذى ساد هو شريعة (القوة) ـ فقد تسيدت السلطة على الرعية فى المدينة والقرية عن طريق منطق القوة والبطش والسف ـ فرضخ المصريون واستكانوا ـ ولم يكن امامهم ـ وقد تخلى عنهم رجال (السلطة الوسيطة) من المشايخ والعلماء ـ سوى الدعاء من فوق المآذن الى الله بالعفو عن البلاد ـ وهو مسلك اجتماعى متخاذل يحسب على أهل المدينة فى مصر العثمانية ٠

وبعكس الحال ـ فان العربان الذين رفضوا الاذعان لمنطق القوة الغاشمة العثمانية ـ المملوكية ـ وقاوموها وبادلوها عنفا بعنف ـ فازوا بالمغانم وشاركوا الحاكم المستبد الاسلاب ـ وحازوا وضعا اجتماعيا متميزا ٠

الخاتمة

عاش المجتمع المصرى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر علاقات اجتماعية ذات مظاهر متباينة ـ فعلى مستوى علاقات الطبقة الحاكمة كان هناك شبه انفصال بين طبقة العامة وطبقة الحكام وتمتع الاخيرون بوضع اجتماعى متميز فى كافة مظاهر الاحتكاك اليومى ـ بل وضاعت حقوق الرعية فى مواجهة هذا التميز الطبقى الكريه ٠

ولم تستطع شريحة رجال الدين والعلماء ومشايخ الطوائف والحرف ـ بحكم وضعها الوظيفى فى المجتمع ان تمارس دورها (كسلطه وسيطه) بين الحكام والمحكومين ـ وتقاعست عن التخفيف عن الاخيرين ـ واستحسنت ـ فئة رجال الدين والعلماء والمشايخ أن تفيد من وضعها الدينى للاثراء واكتساب

---

(126) دار الوثائق القومية – ديوان الروزنامة – محفظة روزنامة بدون رقم – وثيقة روزنامة بعنوان تابع اقليم منفلوط عن محلول شيخ العرب محمد وافي عن مال ميري وغلال ميري وفايض مال وغلال واجب سنة 1216 = 1801 م – انظر الملحق رقم (13) – والترجمة العربية المرفقة بالملحق المذكور – وراجع أيضا الحاشية 125 والملحق رقم (12) .

المزايا عن طريق توظيف الدين لصالح السياسة ففازوا بالمغانم وقنعوا بملء خزائنهم بالاموال ودخلوا فى علاقات التصاهر مع السادة من الطبقة الحاكمة تاركين الرعية تعانى مساوىء الخلل الاجتماعى الذى ساد البلاد ٠

ولا يبدو أن مصر العثمانية كانت تعانى من ظاهرة التعصب الدينى خلال الفترة موضوع الدراسة ـ فقد عاش اهل الذمة حياتهم الاجتماعية بصورة سوية فتزاوجوا وانفصلوا واختلفوا وتداعوا ـ واشتروا وباعوا وتشاركوا مع مسلمى الولاية ـ وشغلوا وظائف فى الاجهزة المالية وتعاطوا (الالتزام) الذى كان مقصورا على طبقة الحكام ـ ولم يتعرضوا لمظاهر التعصب الدينى الا فى حالات نادرة لا يصح اعتبارها تشكل ظاهرة عامة ـ كما ان اهل الذمة استرقوا رقيقا من نفس دياناتهم وأعتقوهم كما كان يفعل المسلمون ٠

وقد تمتعت النساء فى مصر العثمانية بحرية شخصية فى حياتهن بصفة عامة ـ فباشرن كافة اشكال المعاملات التجارية والقضائية ـ وكشفن عن وجوههن ومواضع اخرى من اجسامهن خلال تعاملهن الاجتماعى بصورة تثير التساؤل حول قضية (السفور) فى مصر العثمانية ـ وقد فازت المرأة المصرية بقدر من الحرية الشخصية يفوق كثيرا ما كان للمرأة فى عالم (الحريم) الخاص بالطبقة الحاكمة ـ فبينما مارست المرأة من الرعية حقوقها الشخصية كاملة ، فان المرأة من الطبقة الحاكمة عاشت حياة العبودية حتى بعد عتقها ـ فتعلقت حريتها الشخصية بارادة (سيدها) يزوجها لمن يشاء ـ فاذا مات أو قتل انتقلت هذه الارادة الى سيدها الجديد المنتصر الذى يفوز بمال المهزوم ونسائه ٠

وقد فازت العلاقات الشخصية بنصيب كبير فى مجال العلاقات الاجتماعية بصفة عامة ـ وهو أمر لا تختص به الفترة موضوع الدراسة ـ فمسائل الاحوال الشخصية أو (قضايا الانكحة) تمثل اكبر حجم للعلاقات بين الناس على طول الازمنة ـ وقد تميزت العلاقات من هذا النوع بنماذج اختفت من مجتمعاتنا فى الوقت الحاضر ـ فقد تميزت العلاقات الشخصية فى الفترة موضوع الدراسة بانخفاض قيمة الصداق المسمى بين طبقات العامة ـ وكذلك نفقات الاطفال من الزواج ـ كما كثرت حالات التنازل عن الحق فى حضانة الصغير عند الزواج باجنبى فى مقابل التعهد بتحمل نفقات الصغير ـ وذكر فى تعاقدات الزواج المبالغ التى يتعهد الزوج بدفعها للزوجة شهريا مقابل (كسوتها) صيفا وشتاء ـ ومعايير تقدير هذه المبالغ ـ وهى مؤشرات لها دلالاتها فيما يتعلق بالمستوى الاجتماعى لهذه الطبقة ٠

ورهن الازواج متعلقاتهم الشخصية لزوجاتهم فى مقابل ما تصرفوا فيه من حليهن ـ أو تنازلوا لهن عن ممتلكاتهم فى مقابل صداق مؤخر ، رغم ما تعارف عليه الكافة من استحقاق مؤخر الصداق عند (الموت أو الفراق) ـ وهى مسائل تكشف عن حقيقة العلاقات بين الزوجات والازواج فى مصر العثمانية ٠

وانفصلت الزوجات عن ازوجهن للغيبة التى بلغت سنوات ثلاثا ـ وظهرت مشاكل المعيشة مع (الحموات : أم الزوج أو الزوجة) ٠

وظهرت فى عقود الزواج فى الفترة موضوع الدراسة شروط علقت فيها الزوجة استمرار الحياة الزوجية على وفاء الزوج بتعهداته بعدم الزواج عليها كلية ـ أو بعدم الزواج عليها باكثر ممن هن فى عصمته من الزوجات ـ أو بعدم رد مطلقة من مطلقاته ـ واصبح الشرط الفاسخ من مظاهر عقود الزواج فى مصر العثمانية ٠

وقد وجد فى مصر العثمانية (العبيد) من الجنسين ، والجوارى ـ وتسرى الازواج (بالسرارى) الى جانب الزوجات ـ كما عقدت عقود الزواج فى حالات كانت الزوجة فيها قاصرة عن البلوغ ٠

وفى غياب فكرة الضبط الاجتماعى فى البناء الاجتماعى المصرى فى الفترة موضوع الدراسة ـ واختفاء وسائل هذا الضبط تعرض العامة من اهل المدينة والقرية لبطش السلطة وقسوتها وعسفها ـ وفسدت العلاقة بين الحاكمين والمحكومين ـ واصبحت (القوة) هى اللغة التى يفهمها المجتمع المصرى بطوائفه المختلفة ٠

وبينما خضع مجتمع المدينة والقرية لهذا المسلك السلطوى واتخذ فى مقابلته سلوكا سلبيا متخاذلا ـ فان (العربان) رفضوا هذا المنطق وراحوا يقابلون الاساءة بالاساءة ـ فتحدوا السلطة وقاوموها وقاتلوها ـ ورفضوا تعسفها ـ ففازوا بمزايا المشاركة فى السلطة ـ أو تمكنوا من تجنب عنف السلطة ـ على الاقل ـ ثم حصلوا على المزايا الاقتصادية التى انفردت بها الطبقة الحاكمة واقاموا لانفسهم وضعا اجتماعيا يختلف تمام الاختلاف عن ذلك الذى فرض على مجتمع الرعية فى مصر ـ وأكدوا بذلك أن (القوة) هى العلاج الامثل فى المجتمعات التى تختل فيها موازين العلاقات الاجتماعية ٠

ان هذه الصورة المختلة للعلاقات الاجتماعية فى مصر العثمانية كانت وليدة مفهوم الحكم العثمانى للعلاقات بين الحاكم والرعية ـ وهو مفهوم مؤداه أن السيادة للحاكم فقط ـ والعبودية لرعاياه ـ وبكلمات أخرى فان المجتمع العثمانى ـ فى الفترة موضوع الدراسة كان مجتمع السادة والعبيد ـ وهو مجتمع لا يمكن ان تستقيم فيه علاقات اجتماعية سوية ـ وفقا لما نفهمه عن هذه العلاقات فى مجتمعاتنا الحديثة ـ فالنظام الحاكم فى مثل هذا النوع من المجتمعات منبت الصلة عن الواقع الاجتماعى الذى يعيش فيه ـ أسلوب تعامله البطش ـ وأداته العسف والقوة ٠

ونظام حاكم قابض بهذه الصورة لا يمكن أن يفرز الا شيئا كهذا الذى قدمته الدراسة ـ ولم يكن من المتيسر ان تتغير هذه الصورة الا بحدوث تغيير فى أحد اتجاهين ـ فى القمة فيتغير مفهوم السلطة عند اصحابها وبالتالى تتغير

نظرة الحكام الى المحكومين ـ أو فى القاع فيحاول المحكومون تغيير الوضع الذى هم فيه ٠ ولقد حدث بالفعل هذان التغييران وان كان ثانيهما قد سبق الاول ـ فقد أحدثت الحملة الفرنسية على مصر (1798 ـ 1801) الهـزة التى ايقظت المصريين وأشعرتهم بالوضع المستكين الذى رضوا به قرونا طويلة ـ وكان ذلك من خلال منشور نابليون والى الشعب المصرى ـ فبدأ الشعب يشعر بكيانه وبدأت ارهاصات ذلك تظهر فى بدايات القرن التاسع عشر عندما أقدم الشعب على اختيار (وال) دون رغبة السلطان العثمانى ٠

أما التغيير فى القمة فقد تأخر بعض الوقت ولم يبدأ الا فى نهاية ثلاثينات القرن التاسع عشر ـ عندما شعر سلاطين آل عثمان بضرورة مواكبة ركب الحضارة والتمدن وتغيير مفهوم السلطة والحكومة ـ وبالتالى نظرة القمة الى القاعدة ـ فكانت (التنظيمات الخيرية 1839 ـ 1876) التى غيرت مفهوم العلاقة بين السلطة الحاكمة والمحكومين ـ وأزالت مظاهر عبودية الرعية للسلطان ٠ وبدأت منذ ذلك الوقت بالفعل مظاهر الايمان (بالضبط الاجتمـاعى) كفكـرة تستهدف (ضبط البناء الاجتماعى) ـ تظهر ملامحها فى المجتمع العثمانى بصفة عامة ـ وكانت بالتبعية وسيلة الضبط الاجتماعى هى مجموعة القوانين الصادرة فى الثالث من نوفمبر 1839 (خط شريف كلخانه) Hatt-i Humayun (127) ٠

د٠ عبد الوهـاب بكـر
كلية الآداب ـ جـامعة الزقازيق
مـصـر

---

(127) — Stanford J. Shaw & Ezel Kural Shaw «History of the Ottoman Empire and Modern Turkey» Vol II Reform, Revolution, and Republic...» pp. 55-170.

ظهرت برامج الإصلاح العثمـانية على يـد مصطفى رشيد بـاشا كنتاج لإصلاحات السلطـان محمـود الثاني – واجرى رشيد تنقيحها – واعلنت رسميا في 13 نوفمبر 1839 في قـانون وقعـه السلطـان (خطء همايون) وقرأه مصطفى رشيد باشا امـام تجمع من الأعيان يمثلون المؤسسات الأساسية والطبقات وجمـاعات من المجتمع العثمـاني – والبعثات الأجنبية – وكان ذلك في (ميدان كلخانة) تحت اسوار (قصر طوب قابو) المطل على بحر مرمره – وتضمن القانون الإرادة السلطـانية بانشاء مؤسسات جديدة (1) تضمن امن الرعية على ارواحهم ، واعراضهم وممتلـكاتهم (2) وتأسيس نظـام لتقدير الضرائب (3) واقامة قواعد جديدة للتجنيد والتدريب والعناية بالجنود في الجيوش المحمدية المنصورة (اي الجيش العثمـاني) .

الملاحق

الملحق رقم (1) – من دار الوثائق القومية بالقلعة – ديوان الروزنامة – محفظة روزنامة بدون رقم .

الملحق رقم (2) – من دار الوثائق القومية بالقلعة – ديوان الروزنامة – محفظة روزنامة بتاريخ 14 ربيع أول 1161 هـ (1748 م) .

الملحق رقم (3) – مصلحة الشهر العقاري والتوثيق بالقاهرة – سجل محكمة الباب العالي رقم (123) – وثيقة (90) ص (16) سنة 1056 هـ= 1646 م .

الملحق رقم (4) – مصلحة الشهر العقاري والتوثيق بالقاهرة – سجل محكمة الباب العالي رقم (123) – وثيقة (152) ص 28 سنة 1056 هـ= 1646 م .

الملحق رقم (5) – مصلحة الشهر العقاري والتوثيق بالقاهرة – سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة (291) ص 52 سنة 1056 هـ= 1646 م .

الملحق رقم (6) – مصلحة الشهر العقاري والتوثيق بالقاهرة – سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة (11) ص 2 سنة 1056 هـ= 1646 م .

الملحق رقم (7) – مصلحة الشهر العقاري والتوثيق بالقاهرة – سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة (44) ص 11 سنة 1056 هـ= 1646 م .

الملحق رقم (8) – مصلحة الشهر العقاري والتوثيق بالقاهرة – سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة (160) ص 30 سنة 1056 هـ= 1646 م .

الملحق رقم (9) – مصلحة الشهر العقاري والتوثيق بالقاهرة – سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة (230) ص 40 سنة 1056 هـ = 1646 م .

الملحق رقم (10) – مصلحة الشهر العقاري والتوثيق بالقاهرة – سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة (273) ص 48 سنة 1056 هـ = 1646 م .

الملحق رقم (11) – مصلحة الشهر العقاري والتوثيق بالقاهرة – سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة (184) ص 32 سنة 1056 هـ = 1646 م .

الملحق رقم (12) – دار الوثائق القومية بالقلعة – ديوان الروزنامة – محفظة روزنامة بدون رقم –

الملحق رقم (13) – دار الوثائق القومية بالقلعة – ديوان الروزنامة – محفظة روزنامة بدون رقم –

الملحق رقم 2

ختم
الأمر حسبما ذكر فيه محمد القاضي بمدينة دمياط عفى عنه توكلي على خالقي
عبده محمد

سبب تحرير حروفه وموجب تسطيرها هو انه بالباب العالي بثغر دمياط المحروس اجله الله تعالى وادام بركة متوليه وايامه الزاهرة بين يدي مولانا وسيدنا فخر قضاة الإسلام جمال كمال ولاة الأنام معدن الفضل والجود والكلام الواثق بعناية الملك المبدي مولانا محمد أفندي الناظر في الاحكام الشرعية والأمور الدينية والدنيوية والتعلقات الشريفة السلطانية يومئذ بالثغر المذكور (....) وتوابعهما دامت سيادتهما آمين أشهد على نفسه فخر الأماثل والأعيان مصطفى جورباجي بالقلعة العربية الكاينة بالبحر بفوهة الثغر المذكور ابن محمد جورباجي وهو المعين حواله بالامر الشريف الديواني المسطر باطنه زيد قدره شهوده الإشهاد الشرعي وهو بأكمل الاوصاف المعتبرة شرعا انه قبض وتسلم ووصل اليه من ديوان الثغر المذكور من مال مقاطعته الجاري التزام المقاطعة المذكورة على المعلم ياسف الربان اليهودي بمصر من يد وكيله في المقاطعة المذكورة بالثغر المذكور حالا هو الذمي اسحاق اليهودي الثابت توكيله عنه فيما يذكر فيه بالطريق الشرعي ثبوتا شرعيا مبلغا قدره من الانصاف الفضة العددية معاملة تاريخه بالديار المصرية ستة عشر الف نصف فضة ومساية نصف فضة وتسعة وثلاثون نصف فضة وان المبلغ المذكور هو القدر المعين بالأمر الشريف الديواني المسطر باطنه القبض والتسليم والوصول الشرعيان من يوم تاريخ ادناه بالتمام والكمال وان ذلك جامكية الشهر الحوالة المذكور هو وبقية رفقايه المحافظين بالقلعة المذكورة عن مواجب ثلاثة أشهر وهي شهر رجب وشهر شعبان وشهر رمضان من شهور سنة أربع ومساية الف المعين ذلك باطنه وان الحوالة الشهر المذكور لم يتأخر له من ذلك مطالبة ولا شيء قل ولا جل وان على الشهر الحوالة المذكور الخروج عن عهدة ما قبضه لرفقايه المحافظين بالقلعة المذكورة اعلاه بالطريق الشرعي وانه بمقتضى ذلك صار المعلم ياسف ملتزم المقاطعة المذكورة يستحق المحاسبة بالديوان العالي بمصر بالمبلغ المعين المذكور ليقام له مما عليه من مال مقاطعة الثغر المذكور عن سنة تاريخه المعينة المذكورة اعلاه وصدقه على ذلك وقبل منه ذلك الموكل له الذمي اسحاق الوكيل المذكور التصديق الشرعي المقبول شرعا باعترافهما بذلك وتصادقهما عليه الاعتراف والتصادق الشرعيين وثبت مضمون ذلك كما شرح اعلاه لدى مولانا الأفندي المشار اليه بشهادة شهوده وصدوره لديه ثبوتا شرعيا تاما معتبرا ومحررا مرعيا واشهد على نفسه بذلك وجرى ذلك وحرر به شهد في عاشر صفر الخير سنة خمس ومساية والف .

شهود

شهود
ختم
وما توفيقي الا بالله
عليه توكلت واليه انيب
لا اله الا الله الملك الحق
المبين
عبده علي

* * *

الملحق رقم 3

لدى مولانا قايم مقام دام عزه

تصادقت الحرمة خديجة المرأة ابنة المرحوم محمد بن يوسف القويني مع المعلم هارون ولد مردخاي ولد سليمان اليهودي الربان وهو معروف لشهوده تصادقا شرعيا في صحتهما وسلامتهما وطواعيتهما واختيارهما وجواز الإشهاد عليهما شرعا على ان ما تستحقه الحرمة خديجة المذكورة بذمة هارون المذكور مما كان بينهما من عقد الشركة الشرعية السابقة على تاريخه المعينة بالحجة المسطرة من هذه المحكمة المؤرخة بثالث عشر شوال سنة اثنتين

واربعين والف المعلوم لهما شرعا ثلاثمائة نصف فضة مقبوض ذلك بيدهما منه القبض الشرعي بتمام ذلك وكماله باعترافهما بذلك لشهوده الاعتراف الشرعي أقرت الحرمة خديجة المذكورة وهي فريق والمعلم هارون المذكور وهو فريق الإقرار الشرعي وهما بالصفة المشروحة اعلاه أن كل فريق منهما لا يستحق ولا يستوجب قبل الفريق الاخر بسبب ما من الأسباب كلها حقا مطلقا ولا استحقاقا ولا دعوى ولا طلب بوجه ولا سبب ولا فضة ولا ذهبا ولا فلوسا ولا نحاسا ولاشركة ولاراس مال شركة ولا ربحا ولاخسرانا ولامرجانا ولابضائع بأنواعها ولاثمنا عن ذلك ولادينا ولاعينا بحجة ولابوثيقة ولابذمة ولابينة ولابغير ذلك ولاسهوا ولانسيانا ولاذهولا ولاحمالة ولاعلاقة ولاتبعة وأبرا كل فريق منهما ذمة الفريق الآخر ويده وعهدته وأمانته ابرا شرعيا قاطعا مانعا مسقطا مهبطا لكل حق ودعوى وطلب ويمين مقدم سببه والى تاريخه وتصادقا على ذلك كله التصادق الشرعي المقبول – زادت الحرمة خديجة المذكورة في اقرارها أنها لا تستحق قبل الذمي مردخاي وشقيقه سوريا ولدا المعلم هارون المرقوم أعلاه حقا مطلقا ولا يمينا بالله سبحانه وتعالى وقبل ذلك لأنفسهما مردخاي وسوريا المذكوران أعلاه قبولا شرعيا وصدر ذلك جميعه بحضور الشيخ الإمام شهاب الدين أحمد بن الشيخ ابراهيم القويني زوج خديجة المذكورة والمحترم سلامة ابن محمد القويني وهو اخو خديجة المذكورة لأمها والشيخ عبد الله وولده الشيخ علي ولدا المرحوم الشيخ ابراهيم القويني واطلاعهم على ذلك وعرفو بخديجة المذكورة التعريف الشرعي الكافي في مثل ذلك شرعا وثبت الإشهاد بذلك لدى مولانا الحاكم المومى اليه اعلاه بشهادة شهوده ثبوتا شرعيا وحكم بموجب ذلك الحكم الشرعي واشهد على نفسه الكريمة بذلك وبه شهد في سابع عشر المحرم الحرام سنة ست وخمسين وألف .

الشيخ عبد اللطيف الشعراني الشيخ أحمد السوادي

* * *

الملحق رقم 4

لدى مولانا الحاكم الحنفي بعد ان حضر الذمي حنان ولد عطية اليهودي الربان الزيات بخط حارة اليهود ومعه زوجته الحرمة جوهرة بنت مردخاي اليهودية وسأله سايل شرعي ان يطلق زوجته المذكورة من عصمته وعقد نكاحه طلقة واحدة على درهم فضة في ذمته لها على الحلول وأجابه لذلك وطلقها من عصمته الطلقة المسيولة على العوض المرقوم واعترف بالدخول بها والإصابة وبأن هذه الطلقة مسبوقة بطلقة قبلها مكملة لعدد الطلاق الثلاث اعترافا شرعيا صدر بينهما التخاصم والتنازع بسبب مؤخر الصداق وكسوتها عليه وبأن يقرر نفقة لحملها منه ولبنتها سبيتة المرضعة وأجاب حنان المطلق المرقوم بأن مؤخر صداقها عليهماية نصف وخمسون نصف فضة متجمد لها عليه في كل سنة خمسة عشر نصف فضة كما هو معبر بوثيقة النكاح المسطرة من الصالحية المؤرخ في رابع عشرين شوال سنة خمسة وخمسين وألف وتمسك عليها بذلك وبأنه دفع لها تحت كسوتها عليه من حين تزوجه بها والى تاريخه خمسة وعشرون نصفا فضة بتعويض نصف مقطع روبي وصدقته على ذلك قرر لها على نفسه برضاه عن نفقة حملها الظاهر من تاريخه والى حين الوضع ولما ينفصل عنه الحمل مع اجرة رضاع بنته منها وهي سبيتة المرضعة وارضاعها مادامت على حضانة والدتها لكل يوم يمضي من تاريخه نصفين فضه فلوسا نحاسا هو لنفقة الحمل ولما ينفصل عنه الحمل نصف واحد فلوسا وما هو لابنته سبيتة النصف الباقي الى انقضا أمد الرضاعة وعن غدايها وعشائها ستون نصف فضة من متجمد الصداق على سبيل التعجيل وصار المتأخر لها عليه تسعون نصف فضة وأقر الإقرار الشرعي ان كل واحد منهما لا يستحق قبل الاخر حقا مطلقا ولا صداقا ولانفقة ولا علقة ولاتبعة ولا يمينا بالله تعالى الى تاريخه سوى التسعين نصف الفضة الباقية من متجمد الطلاق (....) التقرير تقريرا على ذلك وتصادقا على ذلك وثبت الإشهاد بذلك لدى الحاكم المرقوم بشهادة شهوده ثبوتا شرعيا وحكم بموجب ذلك في خامس عشر من محرم سنة ستة وخمسين والف .

الشيخ محمد الإمام الشيخ محمد الأبحر

* * *

الملحق رقم 5

لدى مولانا قايم مقام أشهد عليه الذمي ياسف بن داود بن ياسف اليهودي الشهير بعشير الربان الصراف بالديوان شهوده الإشهاد الشرعي وهو بحال الصحة والسلامة والطواعية والإختيار أنه صدق على صحة العتق الصادر منه لمرقوتته قبل تاريخه هي الذمية راحيل المرأة اليهودية الحمرا اللون الفلاسية الجنس المعين العتق المرقوم بالحجة المسطرة من الصالحية المؤرخة في ثالث جمادي الأول سنة ثلاث وخمسين والف تصديقا شرعيا لا دافع له في ذلك بوجه من الوجوه ولا بطريق من الطرق ولا بحال من الأحوال كلها وثبت الإشهاد عليه بذلك لدى الحاكم المشار اليه بشهادة شهوده ثبوتا شرعيا وحكم بموجب الحكم الشرعي في ثالث عشر ربيع الأول سنة ستة وخمسين وألف .

الشيخ علي القصري   الشيخ ....

* * *

الملحق رقم 6

حضر الشيخ علي بن المرحوم أبو النصر العلاف ومعه مطلقته سابقا الحرمة كريمة المرأة بنت حسين بن علي زويني وتخاصما وتنازعا بسبب فرض بنته منها المدعوة (بغداد) الصغيرة الدارج المقرر عليه في كل يوم نصف واحد فلوسا بحجة شرعية مخلدة بيدها — وسقوط حضانتها لتزوجها برجل أجنبي ، ثم أنها تطارحت مع أحكام التقرير الغرض المذكور المعين بالحجة المذكورة التطارح الشرعي واشهدت على ذلك الإشهاد الشرعي طايفة مختارة انها تحملت عن مطلقها المذكور اعلاه نفقة بنته المذكورة ولوازمها الشرعية من تاريخه ادناه الى الزفاف التحمل الشرعي وقبل ذلك منها المطلق المذكور وأقام ابنته المذكورة في حضانة والدتها المذكورة المدة المذكورة عازبة كانت أم متزوجة مسافرة أو مقيمة مسافرا هو أو مقيم واسقط حقه في طلبها وانتزاعها منها في المدة المذكورة الإقامة والإسقاط الشرعي وقبلت ذلك منه المطلقة المذكورة وأقرت الإقرار الشرعي أنها لا تستحق قبل الشيخ على المطلق المذكور بسبب الغرض المعين بالحجة المذكورة حقا مطلقا ولا استحقاقا ولا طلب ولا دعوى ولافضة ولاذهبا ولا علقة ولاتبعة ...... الى آخر سلف من الزمان والى تاريخه وتصادقا على ذلك ... التصديق الشرعي وثبت الإشهاد بذلك لدى مولانا الحاكم المشار الية بشهادة شهوده ...

وجرى ذلك في ثالث محرم الحرام سنة ست وخمسين وألف وحسبنا الله ونعم الوكيل

الشيخ محمد الإمام   الشيخ محمد السامولي

* * *

الملحق رقم 7

لدى مولانا قايم مقام افندي دامت عزتة آمين .

أقر فخر الأمثال مراد بن محمد بلك باشي طايفة الينكجرية بمصر اقرارا شرعيا وهو في كمال الصحة والسلامة والطواعية والإختيار وجواز الإشهاد عليه شرعا من غير اكراه ولا اجبار ان عنده في ذمته بحق صحيح شرعي .... لحرمة المصونه مباشرين المرأة بنت ..... الحاضرة معه بالمجلس .... مبلغا قدره ..... ماية غرش .... يقوم لها بذلك جملة واحدة على حكم الحلول الشرعي .... وان ذلك ترتب لها بذمته بدل زوج سوار من الذهب زنتها خمسون مثقالا تسلم ذلك منها قبل تاريخه وتصرف فيه لنفسه بالبيع بماية غرش .... وصدقته على ذلك وقبلته منه لنفسها ..... — ورهن الأمير مراد بلوك باشي المذكور اعلاه تحت يد زوجته المذكور توثقة على الماية غرش .... المذكورة .... وعلى كل جزء منها الى حين وفايها شرعا جميع سيف من البولاد بقراب اسود مفضض القبضة ووسط

القراب وفمه والأطراف مطلا بالذهب ، وجميع فرجية من الجوخ المناويشي مسجفة بسجاف كمنجة أحمر وتفصيلتين هندي مخيطتين وسنجير من الجوخ الأحمر معلوم ذلك لهما شرعا رهنا شرعيا مسلما ليدها منه التسليم الشرعي ...... (و) صدق على صحة التعويض الشرعي الصادر قبل تاريخه منه لزوجته الحرمة مباشرين للصحة التي قدرها النصف اثنا عشر سهما شايعة في كامل المكان المعروف بالحوش الكاين داخل خوخة الغاغية ببولاق .... في نظير مؤخر صداقها .... وصدق ايضا على جريان الجارية المدعوة رمانة ابنة عبد الله السودا في ملك زوجته المذكورة بمقتضى انها اشترت ذلك من مالها ... وبأنه لاحق له في الجارية المذكورة وقبلت ذلك منه زوجته المذكورة لنفسها القبول الشرعي ..... (و) ان كل واحد منهما لا يستحق على الاخر ..... سوى المماية غرش التي بذمة الأمير مراد بلوك باشي المشار اليه لزوجته الحرمة مباشرين المذكورة على حكمها المسطور وعلقة رهن السيف والأعيان المذكورة تحت يدها على حكم ما هو مشروح اعلاه .... وحكم بموحب ذلك ....

في ثامن محرم الحرام سنة ست وخمسين والف الشيخ محمد الإمام الشيخ محمد الساmouli .

* * *

الملحق رقم 8

لدى مولانا الحاكم الحنفي سألت الحرمة فاطمة ..... زوجها ... أن يطلقها من عصمته وعقد نكاحه طلقة واحدة لملكها نفسها – على درهم فضة في ذمتها له على الحلول .... أجاب سؤالها لذلك وطلقها على ذلك الطلقة المسؤولة على العوض المذكور واعترفا بالدخول والإصابة .... وعلى أن اخر ما تستحقه المطلقة لذمة مطلقها من مؤخر صداقها ... مبلغا قدره من القروش المعاملة عشرة غروش مقبوضة بيدها بالحضرة .... وحكم بموجب ذلك الحكم الشرعي ....

* * *

الملحق رقم 9

لدى مولانا الحاكم الحنفي اصدق المعلم يوسف بن علي القصاب هو في البقري والجاموس ببولاق مخطوبته سكرية المرأة ابنة ..... صداقا قدره من القروش المعاملة ثلاثون غرشا الحال لها عليه من ذلك عشرون غرشا مقبوض لها من ذلك عشرة غروش ... وباقي الحال على حكمه والعشرة غروش الباقية تحل بموت أو فراق زوجها المذكور ..... وقرر الزوج على نفسه برضاه لزوجته كسوتها الشرعية عليه لكل شهر يمضي من تاريخه عشرة انصاف فضة وعلق لها على نفسه برضاه أنه لا يتزوج عليها زوجة غير التي في عصمته الان . ولايرد عليها مطلقة من مطلقاته ومتى فعل ذلك وثبت عليه بالوجه الشرعي وأبرأته زوجته من ربع غرش من مؤخر صداقها عليه تكن حين ذلك طالقا طلقة واحدة تملك بها نفسها تقريرا وتعليقا شرعيين .... وثبت جريان النكاح بالمسمى على حكمه والتقرير والتعليق المشروح لدى الحاكم المشار اليه ...... ثبوتا شرعيا ....

* * *

الملحق رقم 10

لدى مولانا الحاكم الحنفي اصدق العلاي علي بن محمد .... التاجر في الأقمشة بسوق أمير الجيوش مخطوبته الحرمة سعادة المرأة ابنة احمد بن يوسف ... صداقا قدره من القروش المعاملة خمسة واربعون غرشا الحال من ذلك ثلاثون غرشا مقبوضة بيده .... والباقي بعد ذلك وقدره خمسة عشر غرشا يحل لها عليه بموت أو فراق زوجها ..... وقرر الزوج المذكور على نفسه برضاه لزوجته بدلا عن كسوتها الشرعية عليه لكل شهر من تاريخه عشرون نصف فلوسا تقريرا شرعيا وعلق الزوج المرقوم على نفسه برضاه لزوجته انه متى

تزوج عليها زوجة غيرها وغير التي في عصمته الان هي الحرمة (......) زوجته المرأة أو رد عليها مطلقة من مطلقاته أو تسرى عليها بسرية من أى الأجناس كانت وثبت ذلك عليه أو شيء منه بالطريق الشرعي وأبرأته زوجته سعادة المذكورة من ربع غرش مما تستحقه بذمته اذ ذاك – تكن حين ذلك طالقا من عصمته وعقد نكاحه طلقة واحدة تملك بها نفسها تعليقا شرعيا ملفوظا به مقبولا .... وثبت جريان النكاح بالمهر المسمى حكمه والتقرير والتعليق المعين لدى الحاكم المشار اليه ..... وحكم بموجب ذلك ....

* * *

الملحق رقم 11

لدى مولانا الحاكم الحنفي بعد أن حضر الاخوان الشقيقان هما الحاج محمد والحاج سلامة ولدا المرحوم محمد الشهير بسميط التاجر كلاهما بسوق نعل الربع الطاهري بمصر وحضر معهما على بن حماد شيخ ناحية (ديرين) بولاية الغربية وصدر بينهم التخاصم والتنازع بسبب ما ادعاه الأخوان على (علي) شيخ الناحية المذكورة من أنه في يوم تاريخه حضر لهما وهما بحانوتيهما الكاين سفل الربع المذكور واحضر لهما جماعة من الأجناد من توابع ملتزم الناحية وتعرضوا لهما وارادوا ايقاع القبض عليهما وذكروا لهما بأنهما من فلاحين ناحية ديرين المذكورة وان عليهما (اثر فلاحة) و (عادة) بالناحية المذكورة – والحال انهما لم يكونا من الفلاحين بالناحية المذكورة وليس عليهما (عادة) ولا (غرامة) ولا (أثر فلاحة) بها وانهما مقيمان بمصر نحو خمسين سنة فأكثر لم يبرحا منها شتا ولا صيفا وانه قد حصل لهما بسبب تعرض (علي) المذكور والجماعة المذكورين أذية وضرر وانهما حضرا لمجلس الشرع الشريف للتمسك به ومنع من يتعرض لهما في ذلك بغير وجه شرعي – وطلبا من الحاكم المومي اليه استفسار (علي) المذكور عن سبب التعرض لهما وسيل (وسئل) منه عن حقيقة الأمر في ذلك فأنكر كونه بغير حق لهما وكونه أحضر لهما جماعة الملتزم بالناحية وذكر بأنهما ليسا من الفلاحين ولا عليهما (أثر فلاحة) بها ولا (عادة) ولا (مغارم) ولا غيرها – ثم حضر بحضورهم جمع من المسلمين منهم الشيخ أبو النجا بن مجاهد النبراوي والحاج شريف بن فرهاد (النبراوي شهاب ابن أبو النصر وأخبروا الحاكم المشار اليه بان الحاج محمد وأخاه سلامه لم يكونا فلاحين بناحية (ديرين) وليس عليهما أثر فلاحة) بها ولا (عادة بغرامة) ولاغيرها وأنهما مقيمان بمصر المحروسة منذ خمسين سنة فما فوقها ولم يبرحا منها شتا ولا صيفا يعلمون ذلك ويشهدون به الإخبار الشرعي الواقع بحضور (علي) شيخ الناحية وصدق على ذلك كذلك – فعند ذلك منع الحاكم المومى اليه من التعرض للحاج محمد والحاج سلامه المذكورين بسبب ما ذكر منعا شرعيا وكتب ذلك ليتمسكا به عند الاحتياج تحريرا في تاسع صفر سنة صت وخمسين والف

وحسبنا الله ونعم الوكيل .



ترجمة الملحق رقم 13

معروض عبدكم ما يلي : لقد ابدى ابن وافي أحد مشايخ العربان صدقا وثباتا في الخدمة السنية وفي معيته بضع مئات من الخيالة - وسيبذل المساعي ليكون مثالا للصدق والغيرة التي لجميع العساكر السلطانية في خدماتها . وقد اقتضت المصلحة الإحسان عليه بالقرى المبينة اعلاه والتي كانت في عهدة المرحوم والده في اقليم منفلوط مجانا في مقابل خدماته - خاصة وان القرى المذكورة المسجلة للأمراء والعساكر خربة وعاطلة تقريبا وليس هناك من هو أقدر منه على اعمارها .

وبموجب ما هو مجبول عليه فقد اسندت اليه طبقا للشروط الواجبة واعطيت له السندات اللازمة . وبمنتهى خلوص النية في الإيفاء بواجبات صيانة بيت مال المسلمين فقد قيدت على عهدته هذه القرى لمدة ستة عشر عاما وسلمت له السندات اللازمة لذلك بعد تقرير الحلوان اللازم على الوجه المناسب - وقد تم ارسال الإرادة السنية المتعلقة بذلك الى صاحب المأمورية بمعرفة رئيس المعلمين جرجس الجوهري وتم تقدير الحلوان وحسابه على اساس سنتين ونصف على وجه العدالة ونظر التقرير - وضمها جميعا الى الأموال الأميرية للستة عشر عاما وبلغت جميعها ثلاثة وسبعون الفا وستمائة واثنان وثمانون قرشا على أن تقسط على أربعة أقساط كل واحد منها ثمانية عشر الفا واربعمائة وعشرون قرشا ونصف - يحين القسط الأول بيمنه تعالى في شوال عام سبعة عشر ومائتين والف - أما الأقساط الثلاثة الباقية ان شاء المولى تيحين تسليمها الى جهة مصر في شوال عام ثمانية عشر ، وتسعة عشر ، وعشرين . وسوف فؤدى المال والغلال في وقتها وزمانها نقدا وعينا كما هو محسوب .

فإذا كان قيدها على عهدته - بشرط عدم جواز التداخل ومنحه السندات اللازمة لذلك - موافق لرأيكم السامي - فإن الأمر والفرمان يصدر من حضرة صاحب الدولة والعناية أفندم ،

محمد شريف الدفتري

ختم

مصـــادر الـدراســه

أولا : المصـادر العـربيـة

- وثـائق غير منشورة :

1) سـجل محكمـة الباب العـالي رقم (123) بمصلحة الشهر العقاري والتـوثيق – الوثائق أرقام :

الوثيقة	صفحة	سنة
1	1	1055
3	1	1055
6	2	1056
11	2	1056
13	2	1056
15	3	1056
19	4	1056
26	5	1056
31	5	1056
32	5	1056
37	6	1056
39	7	1056
44	11	1056
45	11	1056
78	14	1056
80	15	1056
87	16	1056
90	16	1056
100	18	1056
107	19	1056
108	19	1056
109	19	1056
119	21	1056
130	23	1056
135	25	1056
150	28	1056
152	28	1056
160	30	1056
176	31	1056
184	32	1056
219	38	1056
230	40	1056
231	41	1056
243	43	1056
266	47	1056
273	48	1056
277	49	1056
279	49	1056
280	49	1056
291	52	1056
327	59	1056

2) سجل محكمـة الدقهليـة الشرعيـة — دار الوثـائق القوميـة بالقلعـة

وثيقـة 18 ص 8 سنـة 1117
وثيقـة 23 ص 10 سنـة 1117
وثيقـة 32 ص 14 سنـة 1117

3) ديوان الروزنـامـة — دار الوثـائق القـومية بالقلعـة

- دفتر مقاطعات نواحي خاصـة ولاية الشرقية والمنصورة وقليوبية وبحيرة واطفيح والواحات ومنزله وفارسكور مع طرانه سنة 1146 (التزام) رقم الحفظ النـوعي 312 – عين 5 – مخزن تركي 1
- دفتر أصول مال أسكلها ومقاطعات تابـع قلم شهر عن سنـة 1134

– محفظة روزنامة رقم 59
– محفظة روزنامة رقم 97 لسنة 1210 هـ
– محفظة روزنامة رقم 96 لسنة 1220 هـ
– محفظة روزنامة رقم 75
– محفظة روزنامة بدون رقم (9 محرم 1217 الا 15 محرم 1217)
– محفظة روزنامة رقم 27 ملف 132
– محفظة روزنامة بدون رقم
– محفظة روزنامة بدون رقم (14 ربيع أول 1161)
– محفظة روزنامة رقم 7 تقاسيط لسنة 1211 – ملف التزامات 1189
– محفظة روزنامة بدون رقم +
– محفظة روزنامة بدون رقم ++
– محفظة روزنامة بدون رقم +++

– المصادر المطبوعة :

– د. أحمد طربين « التأريخ والمؤرخون العرب في العصر الحديث » دمشق 1970 .
– أحمد جلبي عبد الغني « أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات » تحقيق الدكتور / عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم – القاهرة 1978 – مكتبة الخانجي بمصر .
– عبد الكريم رافق « بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت 1516 – 1798 » دمشق 1968
– عبد الوهاب بكر « الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر » القاهرة 1987 – دار المعارف بمصر .
– د. خالد زيادة (السلطة المدنية من خلال وثائق المحكمة الشرعية) – أبحاث المؤتمر العالمي الأول للجنة العربية للدراسات العثمانية حول الحياة الإقتصادية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني – تونس 20 – 28 يناير 1984 .
– د. علي ابراهيم عبده وخيرية قاسمية « يهود البلاد العربية » – منظمة التحرير الفلسطينية – بيروت 1971
– د. محمد نور فرحات « التاريخ الإجتماعي للقانون في مصر الحديثة » – القاهرة 1985 – دار الثقافة للنشر والتوزيع .
– د. ليلى عبد اللطيف « الإدارة في مصر في العصر العثماني » – جامعة عين شمس 1982
– دانيال كريسيليوس « جذور مصر الحديثة » ترجمة د. عبد الوهاب بكر – القاهرة 1985 – دار نهضة الشرق – جامعة القاهرة .
– د. سامية محمد جابر « القانون والضوابط الإجتماعية – مدخل علم الإجتماع الى فهم التوازن في المجتمع » – الإسكندرية 1984 » دار المعرفة الجامعية .

– الرسائل العلمية :

عبد الله محمد عزباوي « الحركة الفكرية في مصر في القرن الثامن عشر » – رسالة ماجيستير مقدمة لجامعة عين شمس عام 1976

ثانيا : المصادر الأجنبية

— P. M. Holt «Egypt and the Fertile Crescent, 1516-1922», London, 1966. «The Career of Kucuk Muhammed (1676-94)» Bsoas, XXVI. 2 (1963).
— S. Shaw «Ottoman Egypt in the Eeighteenth Century - The Nizamname i-Misir of Gezzar Ahmad Pasha, Harvard 1962.
— S. Shaw & Ezel Kural Shaw «History of the Ottoman Empire and Modern Turkey» Vol. II Reform, Revolution, and Republic» Cambridge, 1977.
— *Mehmet Zaki Pakalin «Osmanli Tarih Deyimleri Ve Terimleri SozLûGû* Istanbul, 1971.
— Encyclopaedia of Islam, 2nd Edition - Leiden, 1954.

الحياة الاجتماعية فى مكة المكرمة منذ مطلع القرن العشرين وحتى قيام الحرب العالمية الاولى 1900 ـ 1914

د. عبد اللطيف عبد الله بن دهيش

مكـة المكـرمة مدينة الاسلام الاولى ، وهى غنية عن التعريف وأهم معالمها الكعبة المشرفة والتى يتجه اليها المسلمون خمس مرات يوميـا ، وبهـا أيضا المسجد الحرام ، والمشاعر الاسلامية المقدسة ، وبذلك فان لها أهميـة كبـرى ومكانة عالية فى قلب كـل مسلـم ومسلمـة ، وتاريخهـا حافـل بالاحـداث والانتصارات والانجازات، ففيها كتبت أول سطور التاريخ الاسلامى ، ومنها انبثق نور لاسلام .

وعندما خضع الحجاز تلقائيا للدولة العثمانية فى عـام 923 هـ / 1517 م. أصبحت مكة المكرمة المركز الرئيسى لولاية الحجاز طوال الحكم العثمانى والذى استمر أربعة قرون . وقد انتهى الحكم العثمانى للحجاز بثورة الشريف حسين عام 1334 هـ / 1916 م. وذلك بقيام مملكة الحجاز . وكان الحجاز مرتبطا ارتباطا وثيقا بمصر وخاصة أيام ولاية محمد علي ، لكن الحجاز فى هذه الفترة المعنية بالدراسة أصبح تحت الحكم المباشر للسلطان العثمانى وذلك بعد أن احتلت بريطانيا مصر فى عام 1300 هـ / 1882 م.

وفى إطار سياسة السلطان عبد الحميد الثانى (1293 ـ 1327 هـ / 1876 ـ 1909 م) حظى الحجاز باهتمام كبير وعناية فائقة من السلطـان العثمـانى ويتضح ذلك فى أعماله الكثيرة والتى من أهمها :

1 ـ اصلاح مبانى الحرمين الشريفين .

2 ـ إنشاء سكة حديد الحجاز .

3 ـ زيادة الاموال والهبات المخصصة للحرمين الشريفين .

4 ـ ربط الاحكام وعقوبات السجن الطويلة والنفي أو القتل التى يصدرها الاشراف أو الولاة فى الحجاز بموافقة المجلس الأعلى للقضاء باسطنبول والذى كان مقره فى اسطنبول ، كما أنه لا بد من تتويجها بموافقة السلطان العثمانى، مما جعل السلطة فى الحجاز مرتبطة ارتباطا وثيقا بالسلطان ، فحد بذلك من تسلط الولاة .

وعندما أعلن الدستور العثمانى الجديد فى عام 1326 هـ / 1908 م. لم يطرأ أى تغيير على السياسة العامة فى مكة المكرمة بل فى الحجاز بكامله الا ما اقتضاه نص الدستور من تمثيل البلاد الخاضعة للدولة العثمانية فى مجلس المبعوثين الذى أنشأ بموجب الدستور ليشرف على شؤون الولايات .

وبعد استيلاء الاتحاديين على السلطة فى الدولة العثمانية وعزل السلطان عبد الحميد الثانى فى عام 1327 هـ / 1909 م. بدأت التحركات ، وتأسست الجمعيات فعمت الثورات والاضطرابات فى مختلف الولايات ، وكان نصيب الحجاز من تلك الاضطرابات كبيرا جدا ، فلم يأت عام 1332 هـ / 1913 م. حتى تعاقب على ولاية الحجاز أربعة ولاة هم : كاظم باشا وحازم باشا وفؤاد باشا وأحمد نديم ، وفى نفس الوقت تأسس فى مكة المكرمة فرع لجمعية الاتحاد والترقى ومدرسة تابعة لها ، كما أن جمعية الاتحاد والترقى قررت ندب أحمد جمال باشا وزير البحرية العثمانية الى سوريا ليتولى ادارتها العسكرية ، ومنحوه صلاحيات واسعة ، شملت سوريا ولبنان وفلسطين ، وامتدت الى الحجاز واليمن . ثم ندبوا فى نفس العام وهيب بك واليا على الحجاز وأمروه بأن يخمد التحركات هناك ، ويعمل على تقليص وتحديد صلاحيات الشريف الادارية فى المنطقة . وقد رفض الشريف جميع تلك الاجراءات وأخذ يلتمس المساعدات من بعض الدول الكبرى . وفى تلك السنة قامت الحرب العالمية الاولى فاضطربت الاحوال فى الحجاز بشكل كبير .

والبنية السكانية لهذه المدينة تتكون فى معظمها من الاشراف والقبائل العربية الموجودة فى منطقة الحجاز وبقية مناطق شبه الجزيرة العربية ، وهناك بعض الوافدين من الدول العربية والاسلامية الذين قدموا للحج أو للعمرة ثم استوطنوا فى مكة المكرمة .

والاحصائيات السكانية لمكة متوفرة خلال هذه الفترة ، لكنها مختلفة اختلافا كبيرا فى تقديراتها لعدد السكان ، كما أنها فى الحقيقة مبنية على التخمين ، ولا تعتمد أساسا على بيانات احصائية دقيقة أو وثائق رسمية علاوة على أنها ربما تكون قد أخذت فى فترة الحج وهى الفترة التى تكون فيها مكة مكتظة بالحجاج ، كما أن معظم هذه الاحصائيات عن كامل منطقة الحجاز وليس عن مكة فقط ، ويهمنا هنا الاحصائيات الخاصة بمكة والتى تتحدث عن الفترة المعنية بالدراسة ، فلقد ذكر ابراهيم رفعت أن سكان مكة فى عام 1318 هـ / 1900 م. يقدرون بـ 120،000 نسمة (1) وجاء ذكر نفس الرقم فى التقرير البريطانى الذى صدر فى عام 1321 هـ / 1903 م. ، وربما اعتمد على الاحصائية السابقة للاستاذ ابراهيم رفعت (2) . وعندما زار الاستاذ / محمد لبيب البتنونى مكة فى عام 1328 هـ / 1910 م. ذكر أن عدد سكانها يقدرون بـ 150،000 نسمة (3) . وأهل مكة كلهم من المسلمين ، ولا يدخلها غير مسلم وذلك منذ السنة التاسعة للهجرة .

---

(1) مرآة الحرمين ، (القاهرة : 1925م) ج 1 ، ص : 203 ، ص ص : 438–439 . و ج 2 ، ص : 12 .

(2) F.O. 195/2148, Report on Hijaz Villayat, p. 2.

(3) الرحلة الحجازية ، (القاهرة : 1911م) ، ص : 40 .

والاعمال التى يزاولها السكان فى تلك الفترة فى مكة المكرمة متعددة ، وتعتبرمن أهم الموارد الاقتصادية لهم . وأهم تلك الاعمال : خدمة الحجاج والمعتمرين والتى يقوم بها فى الغالب فئة المطوفين وعمالهم ويقومون عادة بتأمين سلامة وراحة الحجاج من مسكن ومأكل ونحوهما ، وتسهيل سبل أداء مشاعرهم الدينية ، مقابل مبلغ محدد من المال ، يدفعه الحاج عند وصوله الى مكة . وهنالك فئة العلماء وطلابهم فى المسجد الحرام ولهم مخصصات سنوية من الدولة العثمانية تأتى ضمن الصرة (1) وفئة الموظفين والذين يتقاضون رواتب شهرية من صندوق الولاية الذى هو فى يد الوالى ومقره مكة . كما يعمل بعض السكان بالزراعة فى الاودية المحيطة بمكة ، وخاصة فى منطقة العابدية والحسينية ، ووادى فاطمة والشرائع ، وتقوم البادية عادة بالرعى وتربية الماشية فى المناطق الصحراوية المحيطة بهذه المدينة .

ويعمل بعض السكان بالتجارة والصناعة اليدوية الخفيفة وخاصة صناعة المشربيات والاسقف الخشبية بمختلف أحجامها وأشكالها الفنية ، وقد نمت هذه الحرفة فى العهد العثمانى وروعى فيها الاتقان والابداع مع الالتزام بالمنهج الاسلامى فى الزخرفة والنقش ، وبجانب هذه الصناعة هنالك صناعات يدوية اخرى كصناعة الحلى والفخار .

وكانت ولاية الحجاز والتى تضم مكة المكرمة معفاة من قبل الدولة العثمانية من تقديم أى نوع من الضرائب أو الرسوم ، كما كان عليه الحال أيام المماليك بل علاوة على ذلك فان الدولة العثمانية كانت تقدم المساعدات والهبات النقدية والعينية لحكام مكة وعلمائها وفقراء الحرمين الشريفين ، كما تدفع رواتب موظفيها وجنودها المرابطين فى مختلف المدن والثغور الحجازية ، وتأتى هذه المساعدات والهبات عادة مع المحمل المصرى أو الشامى الذى يحمل بجانب الصرة كسوة الكعبة المشرفة ، وكان قدومهما عادة فى موسم الحج من كل عام . وبجانب ذلك كان يرد الى مكة ريع أوقاف الحرمين الشريفين الموجودة فى مختلف البلدان العربية والاسلامية وخاصة مصر ، والذى يتم توزيعه على العاملين فى الحرمين الشريفين والفقراء فى هاتين المدينتين . كما يرد اليها أيضا بعض المساعدات والهبات من تجار الهند المسلمين لدعم بعض المؤسسات التعليمية التى أسست فى مكة مثل المدرسة الصولتية ، والمدرسة الفخرية العثمانية ، ومدرسة دار الفائزين ، وبعض الاربطة التى خصصت لسكن الفقراء .

وتلتقى فى مكة المكرمة طرق القوافل التى تنقل التجارة من الشمال الى الجنوب والعكس ، وقوافل الحجاج الذين يفدون اليها من كل فج لاداء فريضة الحج ، وترتبط هذه الطرق بمينائى جدة وينبع واللذين يعتبران النافذة التى

(1) الصرة : مجموعة الأموال الخاصة بريع أوقاف الحرمين في مصر والتي ترسل عادة مع كسوة الكعبة لتوزيعها على فئات معينة من سكان الحرمين الشريفين .

تطل منهما مكة المكرمة والمدينة المنورة على العالم الخارجي • كما أن الحجاز يرتبط بسكة حديدية تصل من الشام الى المدينة المنورة والتى تم افتتاحها فى عام 1326 هـ• / 1908 م•

وتحتفل مكة المكرمة كغيرها من المدن الاسلامية بالاعياد والمناسبات الدينية ومن هذه الاعياد والمناسبات عيد الفطر المبارك وفيه يتجه معظم السكان وعلى رأسهم الشريف والوالى العثمانى والعلماء الى المسجد الحرام ، حيث يؤدون صلاة العيد ويستمعون الى خطبة العيد التى يلقيها عادة المفتى الحنفى فى مكة أو قاضيها ، وقد لبسوا أحلى ما لديهم من ثياب ، أما عيد الاضحى المبارك فليس فيه نفس المظاهر التى نشاهدها فى عيد الفطر وذلك لان معظم سكان مكة وعلى رأسهم الشريف والوالى يذهبون الى المشاعر المقدسة لاداء مناسك الحج ويكونون فى أول أيام التشريق فى منى وبعضهم يؤدى صلاة العيد فى مسجد الخيف فى منى ، أما من تخلف عن الحج فيؤدى صلاة عيد الاضحى المبارك فى المسجد الحرام بمكة المكرمة ولكنهم قلة . وهناك مناسبات دينية عديدة من أهمها إحياء ليالى شهر رمضان بالصلاة والذكر فى المسجد الحرام والمساجد الاخرى بمكة ..

ومن المناسبات السعيدة مناسبة الزواج وتسير حسب الشريعة الاسلامية ، فتبدأ بالخطبة ثم عقد النكاح فالزواج ، وتتم عملية الزواج حسب مراسم ومظاهر معينة فبعد الخطبة وعقد النكاح يبدأ أهل العروس فى شراء ما يلزم للبنت من حلى ويبدأ العريس فى تجهيز بيت الزوجية وهو فى الغالب لا يعدو أن يكون غرفة أو مجموعة غرف بمنافعها فى منزل والديه ، وهذا يدل على ترابط الاسرة وتماسكها ، وقليل منهم من يخرج عن بيت والديه بعد الزواج مباشرة ، وتحدد بعد ذلك ليلة العرس ويتم تجهيز الولائم والتى تحتوى على الارز واللحم والمشبك والطرنبة والسمبوسة ، وتنصب البرزة وهى عبارة عن كراسى خشبية مفروشة وفى مقدمتها تنصب أقواس خشبية مزركشة وتكون عند باب منزل العروس . وبعد صلاة العشاء يسير العريس على الاقدام من منزله ومعه والده وأخواته وأقاربه ومن دعى من جانبه لهذه المناسبة ومعهم المعاشر (1)والتى بها الحلوى ، وتحمل الاتاريك لاضاءة الطريق ويسير الجسيس (2) برفقة العريس ووالده ويردد بصوت عال بعض الادعية والاناشيد الخاصة بهذه المناسبة ، وعند وصولهم الى بيت العروس يستقبلهم والدها وأقاربها بالترحيب ، أما النساء فيستقبلن العريس بالزغاريد ، ثم تقدم الولائم للمدعوين وبعد ذلك يذهب الجميع الى منازلهم • وعادة يحيي النساء تلك الليلة بكاملها فى فرح ، وفى اليوم الثانى تنتقل الزوجة الى بيت زوجها ويقيم لها زوجها وليمة غداء بهذه المناسبة يدعو لها الاقارب من أهله وأهلها

(1) وعاء كبير من الخشب على شكل مثمن تحمل فيه الحلوى ويسار به في موكب العريس .
(2) الجسيس : الشخص الذى يردد الأدعية والأشعار في موكب العريس بصوت عال .

والاصدقاء (1) . ومن الاحتفالات أيضا الاحتفال بختم القرآن الكريم أو بعض أجزائه ويسمى هذا الاحتفال بالصرافة أو القلابة وتتمثل فى أن يقيم والد الطالب الحافظ للقرآن وليمة غداء يدعو اليها شيخ الكتاب وجميع الطلاب ويقدم والدا الطالب هدية قيمة للشيخ وهي عبارة عن ملابس ومبلغ من النقود ، ويطلب من الطالب الحافظ أن يتلو قبل تناول الغداء أو بعده بعض ما حفظه من القرآن بصوت عال أمام والده وأستاذه وزملائه من الطلاب والمدعوين حتى يبرهن لهم على صدق حفظه (2) . وهناك حفلات الختان والتى تتم فى اليوم السابع أو الشهور الاولى من ولادة الطفل ، وكذلك حفلات السابع للمولود الجديد من ذكر وأنثى ، فيقيم والد المولود وليمة بهذه المناسبة يدعو لها الاهل والاقارب ، وعادة يذبح شاة أو اكثر فيتصدق بجزء منها ويولم بالجزء الآخر

وأهل مكة لهم ولع بالتنزه والخروج الى الضواحى وخاصة فى الاعياد والاجازات والمناسبات السعيدة ، فيخرجون فى مواكب كبيرة على الدواب الى الجعرانة ، والحسينية ، والسنوسية ، والعكيشية ، وسوله ، والزيمة ، ووادى فاطمة ، ومنطقة الشهداء ، أو بعض البساتين المحيطة بمكة يحملون معهم أنواع عديدة من الاطعمة والفواكه الشهية ، فيقيمون هنالك يوما أو عدة أيام مليئة بالافراح والالعاب الشعبية ، يعودون بعدها بروح نشطة وراحة بال ، ولم يكن للنساء مجال واسع فى مثل هذه التنزهات (3) .

ومن عاداتهم فى مثل هذه الاحتفالات تقديم الشاى والقهوة والاطعمة المختلفة فى صنعها وطعمها ، فمنها الطعام الحجازى والهندى والشامىو المصرى والتركى والمغربى . وتقدم الاطعمة عادة على أصمطة مفروشة على الارض فى شكل صفوف يجلسون حولها . وبعد فراغهم من الطعام يخلدون للراحة بعض الوقت ، ثم يجلسون للسمر يستمعون الى الاشعار التى يقدمها بعض الاشخاص من أصحاب الصوت الحسن (4) . ويقوم بعضهم بمزاولة بعض الالعاب الرياضية أو الرقصات الشعبية مثل (المزمار) وهو من الالعاب المفضلة التى لا تكاد تخلو منه أي احتفالات أو أفراح فى مكة المكرمة ، وتستعمل فيه الطبول والعصى ، وتشعل النار فى وسط حلبة من الرجال الاقوياء ، بينما يرقص بعضهم رقصات شعبية بالعصى فى وسط تلك الحلبة (5) .

---

(1) أحمد عبد الاله عبد الجبار : عادات وتقاليد الزواج في الحجاز (الطبعة الأولى – جدة ، منشورات تهامة : 1403هـ / 1983م) ص 165–203 .

(2) عبد اللطيف بن دهيش : الكتاتيب في الحرمين الشريفين وما حولهما ص : 53–55 .

(3) أحمد السباعي : تاريخ مكة ، ج 2 ، ص : 196 .

(4) محمد لبيب البتنوني : الرحلة الحجازية ، ص 49 .
وأحمد علي : ذكريات (من مطبوعات نادى الطائف الأدبي ، الطائف مطابع الزايدى للأوفست : 1397هـ) ، ص : 18–20 .

(5) أحمد علي : المصدر السابق ، ص :

ومن الالعاب الرياضية التى كان يزاولها السكان فى مكة المكرمة فى تلك الفترة ، لعبة (الكبت) وكان اللاعبون لها ينقسمون الى فريقين ويوضع خط فاصل فى نصف مساحة مكان اللعب ، الذى لا يزيد فى العادة عن 6 × 14 متر. وعندما يتقدم أحد الفريقين فيجتاز الخط الفاصل الى داخل المساحة المخصصة للفريق الآخر محاولا لمس أحد لاعبى الفريق الثانى ، حيث يتحاشى أفـراد هذا الفريق أن يلمس أحدهم ، فتبدأ عندئذ المحاورة بين أفراد الفريقين وكل واحد منهم يحاول لمس أحد افراد الفريق الآخر فى منطقته . فاذا استطاع لمس أحدهم فى يده عاد مسرعا الى منطقة فريقه وهو يقول بصوت عال (كبـت) بفتح الكاف والباء وسكون التاء . وهذه اللعبة تعتمد على سرعة الحركة وليس فيها غير المحاورة وعدم تمكين المهاجم من الفريق الآخر لمس فرد من الفريـق المـواجه .

ومن الالعاب الشعبية أيضا لعبة (البربر) بكسـر الباء وسكون الـراء فى الحروف الاربعة التى تتكون منها الكلمة . وهذه اللعبة كانت تـؤدى بالقـدم اليمنى . ووصفها أن يتم وضع قطعة صغيرة مستديرة من الفخار فى الارض ، وتوضع حفر صغيرة معينة فى اماكن متفرقة من الملعب الذى لا تزيد مساحته عن 3 × 8 متر ، ثم يقوم اللاعب بدفع القطعة الى أحد حفر الملعب بقـدمه اليمنى بعد أن يرفع قدمه اليسرى الى الركبة ويمسكها بيده اليسرى أحيانا فيؤدى اللعبة بقدم واحدة وهو يحجل ، حيث يسير فى الملعب برجلـه اليمنـى التى يدفع بها قطعة الفخار الى احدى الحفر الصغيرة التى فى الملعـب ، وعليه أن يحفظ توازنه لئلا يقع (1) .

وفى مكة المكرمة أنواع من الاطعمة اللذيذة التى اشتهرت بها هذه المدينة المقدسة عن غيرها من مدن شبه الجزيرة العربية ، ويظهر أن أهل مكة استفادوا من الوافدين اليها من مختلف البلاد العربية والاسلامية خلال المواسم الـدينية ، فاقتبسوا منهم طرقا كثيرة لاعداد الاطعمة ، ولذلك تنوعت لديهم الاطعمة ، والمائدة فى بيوت أهل مكة كانت تتكون غالبا من الارز واللحـم والخضروات والفطائر والسلطات والفواكه الموسمية المحلية ، ومن أهم الاطعمة التى تقدم فى المناسبات طعام يطلق عليه (السليق) ويتألف من اللحـم أو الدجـاج المسلوق والارز المطبوخ على ماء اللحم والمضاف اليه الحليب ، وهنـالك أيضـا (الزربيان) أو (البريانى) ويتكون من الارز واللحم أو الدجاج مضافا اليه مجموعة مختارة من البهارات والكـرى والزعفـران ، ومن الاكـلات أيضـا (البخارى) ويتكون من الارز مع اللحم أو الدجاج مع قليل من البهارات ، ولا يدخل فيها الكرى ، وهنالك الكوزى مع الارز والمندي مع الارز ، ويتم طبخهما عن طريق شوي الخروف بعد ذبحه وسلخه وتنظيفه فى أفران تكون بداخـل

(1) محمـد علي مغربي : ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز (الطبعة الأولى ، جدة ، مطبوعات تهامة : 1402هـ / 1982م) ، ص : 254–256 .

الارض ، وغالبا تكون هذه الافران معمولة من الفخار ، ويطبخون الارز بالحمص في المأتم فقط .

أما المائدة اليومية فى كثير من البيوت فى مكة المكرمه فتتكون عادة من الارز المطبوخ مع اللحم ، وأحيانا يطبخ اللحم منفصلا عن الارز مثل الكباب والكبيبة والمقلقل والمعوق ، والخضروات وهى فى الغالب من الخضروات التى تزرع محليا مثل : (الملوخية البامية الفاصوليا بنوعيها الاخضر والناشف) ، ويتفننون فى صنعها من بيت الى آخر ٠

أما الفطائر فأهمها (السمبوسك والبف) وتتكون من لحم مفروم ملفوف في عجينة يضاف اليها أحيانا البيض والتوابل ، وتكون السمبوسك مثلثة الشكل ، أما البف فيكون أكبر من السمبوسك وشكله مربع أو مستطيل ، وهنالك أيضا الزلابية وهى من العجائن المطبوخة فى شكل أقراص ، واللقيمات وتصنع أيضا من العجائن ولكن على شكل كرات صغيرة وكلها تغلى بالزيت ٠ ومن الحلويات الكنافة والدبيازه والمشبك والخشاف والماسية والمهلبية والسمسمية والجبنية واللدو وغيرها ، وتتكون السلطات من الخيار والطماطم والخس والجرجير المضاف اليه الليمون ، وهناك أيضا سلطة الخيار باللبن ، وسلطة الطماطم المطحون مع الفلفل . أما الفواكه فهى متوفرة فى مكة وأهمها الحبحب والبطيخ والشمام ، وهنالك فواكه تأتى من الطائف وبعض بلدان الحجاز من أهمها : العنب والرمان والموز والبرشومى (التين الشوكى) والتفاح والمشمش والتين والخوخ وغيرها ، وغالبا تقدم هذه الاطعمة فى الوجبة الرئيسية وهى وجبة الغداء ٠ أما وجبة الافطار فتكون خفيفة وتتكون فى الغالب من العسل البلدى والبيض البلدى والفول والحليب واللبن الرائب ، وتقدم كلها مع الخبز البلدى (التميس أو الكعك) . وفى بعض البيوت يأكلون المعصوب أو الهريسة . وقد وجدت بعض الحوانيت التى تقدم بعض تلك الاطعمة مثل الفول والمعصوب والهريسة .

وفى المساء يتناول الاهالى أطعمة خفيفة أيضا مثل اللبن الرائب والحليب والبيض والفول وحلوى الطحينة أو المفروكة (1) أو فطائر المطبق أو السمبوسة وغيرها . ومن النادر أن تجد الاسماك الطازجة في مكة المكرمة وذلك لبعد المسافة بينها وبين مدينة جدة الواقعة على ساحل البحر الاحمر ، ولكن توجد بعض الاماكن التى تبيع السمك أو الجمبرى المجفف . وكان السيد حسن عشي من أشهر الطباخين في مكة المكرمة وكان يقوم باعداد الاطعمة فى المناسبات المختلفة للسكان ، وكان لديه مطبخ كبير به جميع الاستعدادات ، وقد أخذ عنه أبناؤه الثلاثة هذه الصنعة . ولم يكن حسن عشي هو الطباخ الوحيد ولكن وجد بمكة عدد كبير من الطباخين ، ذلك لان عملية الطباخة يحتاج

---

(1) نوع من الحلوى تتكون من حلوى الطحينية والهريسة يخلطان معا .

اليها المطوفون ، وذلك في أيام الحج لتقديم الوجبات المناسبة لحجاجهم ، خاصة فى منى وعرفات ، ولذلك وجد بها مجموعة من الطباخين المهرة .

وبما أن مكة المكرمة يفد اليها أعداد كبيرة من المعتمرين أو الحجاج طول العام فقد وجد بها عدد كبير من الحوانيت التى تبيع الاطعمة والخبز بأنواعها لهم . كما وجد بها أيضا عدد من المقاهى تقدم الشاى والقهوة لهؤلاء مقابل مبلغ زهيد من المال .

والاشربة التى كانت مشهورة فى مكة وفى غيرها من مدن الحجاز هى الاشربة التى كانت تلائم الجو الحار ، وذلك لان مناخ مكة مناخ حار جدا صيفا لطيف فى الشتاء .

ومن تلك الاشربة : شراب (السوبيا) ويصنع من الخبز الناشف والماء والسكر ، وشراب (الزبيب) ويصنع من الزبيب الجيد المعصور ويضاف اليه الماء والسكر ، وشراب الحمر (التمر الهندى) ويتم صنعه بأن ينقع الحمر فى الماء ثم يصفى ويخرج النوى من داخله ويضاف اليه الماء والسكر ، وشراب القرفة والزنجبيل ، شراب الخروب وشراب الليمون وغيرها (1) . وتعتبر القهوة العربية والشاى من المشربات الرئيسية فى مكة المكرمة ويستعملون أيضا النعناع والشاى الاخضر ، وتقدم هذه المشروبات حارة وفى أى وقت ، ولا بد من تقديمها للضيوف كمظهر من مظاهر الترحيب بهم فى كل المناسبات، ويقدمون معها أحيانا التمر أو الحلوى . ويستوردون القهوة من اليمن وأحسن أنواعها قهوة مخا . أما الشاى فيستوردونه من الهند وبلدان جنوب شرق آسيا ، وكذلك يستوردون الشاى الاخضر ، أما النعناع فيزرع محليا .

ومن مظاهر هذه الفترة اختلاف أزياء العلماء والحكام عن العامة فكان الشريف يلبس الملابس التى خلعها عليه السلطان العثمانى وكذلك يفعل الوالى وبقية حكام المناطق . أما الجند فيلبسون نفس الملابس التى يلبسها جند الدولة بمختلف مراتبهم العسكرية .

وكانت الجبة التى تلبس فوق الثوب والعمامة التى تلبس على الرأس هى لباس العلماء ، ويميل لباس العلماء الى الالوان الفاتحة وخاصة اللون الابيض بينما تكون ألوان جبة الحكام وأصحاب المناصب الرفيعة تميل الى الالوان الداكنة والمزركشة . ويلبس الطلاب الملابس العادية الخفيفة مع غطاء للرأس بالكوفية أو الطاقية ، وأحيانا يلبس الطلاب الجبة والعمامة وخاصة الذين هم على عتبة التخرج . أما فئة العمال فيلبسون الثياب الملونة بألوان زاهية فيها الازرق والاصفر والاحمر ، والقليل منهم من يلبس الملابس البيضاء ، وذلك لانها سريعة الاتساخ ، ويضعون حزاما من القماش يشدون به وسطهم ليزيد

---

(1) للمزيد من المعلومات انظر محمد علي مغربي : ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز ، ص : 219-241 .

فى صلابتهم أثناء العمل كما يتوهمون . أما فئة التجار فيلبسون الثياب الفاخرة ويلبسون عليها معطفا قصيرا فاخرا يعرف بالسدرية أو (ميتان) . وكان السكان يعنون بنظافة ملابسهم ويقومون بغسلها وصقلها بقطع ناعمة من الودع وخاصة الحكام والعلماء والتجار والطلاب (1) .

أما النساء فيلبسن ما يشأن من الملابس ، وكانت أهم تلك الملابس الصديرية والكرتة والمحرمة والمدورة للرأس والملاية والبرقع . وعند خروجهن من بيوتهن يلبسن الملاية والبرقع أو العباءة ، وعليها ستر جميع جسمها بالملاية أو العباءة . وينتعل الرجال الخف ، وهناك نوع خاص بالنساء ومعظم الاحذية تصنع محليا وبعضها يجلب من مصر أو الشام أو الهند (2)

واهتم أهل مكة بخدمة الحجاج والمعتمرين وبذلك اتسع نطاق الطوافة فى هذه الفترة المعنية بالدراسة وزاد عدد المطوفين • وكان الحج مسموحا به لسكان البلاد الاسلامية الخاضعة للدولة العثمانية أما غيرهم فان عليهم التقدم بطلبات خاصة للحج واتخاذ الاجراءات اللازمة لذلك • وبالرغم من ذلك فان اعداد الحجاج كانت قليلة جدا وذلك لان الحج لم يكن ميسورا بل كانت تحيط به الكثير من المخاطر والمصاعب ، ويتعرض الحجاج فى كثير من الاحيان للسلب والنهب والقتل على يد بعض الطامعين •

وكان معظم الحجاج يأتون للحج بطريق البحر وعند وصولهم الى جدة أو ينبع تقف مراكبهم فى عرض البحر بعيدا عن الساحل ، وينزل الحجاج منها فى زوارق شراعية تأخذهم الى الميناء الذى كان صغيرا جدا • وهنالك يسأل كل حاج عن مطوفه ثم يأخذهم وكلاء المطوفين الى مراكزهم فى جدة أو ينبع ، ولا تزيد إقامتهم هناك عن أيام قليلة ينقلون بعدها الى مكة المكرمة بواسطة الابل المحمول عليها الشقادف (3) • أو الشبارى (4) •

وعند وصولهم الى مكة المكرمة ، يقوم المطوفون بانزال حجاجهم فى بيوتهم ، أو فى بيوت خاصة قريبة من المسجد الحرام أعدت لهذا الغرض ، وتقديم الضيافة اللازمة لهم ، من مأكل ومشرب ، والاشراف على ذهابهم الى المسجد الحرام لاداء الصلوت الخمسة فيه أو الطواف بالكعبة المشرفة • ويخرجون عادة فى شكل مجموعات يقودها المطوف بنفسه ، أو أحد أبنائه أو أحد العاملين

---

(1) أحمد السباعي : تاريخ مكة ، ج 2 ، ص : 194—198 .

(2) أحمد السباعي : تاريخ مكة ، ج 2 ، ص : 194—199 .

(3) الشقادف مفردها شقدف وهي مراكب خشبية صغيرة توضع على ظهور الجمال ، ومكونة من جزئين يجمع بينهما بحبل ، ويعتبر المركب الوحيد في ذلك العصر لمن يريد الانتقال من مكان الى آخر براحة وسلام واتقاء البرد في الشتاء والحر ووقدة الشمس في الصيف . وللشقادف عدد من النجارين المتخصصين في صناعتها في مكة المكرمة يقومون باعدادها للحج قبل موسمه .

(4) الشبارى : وهي عبارة عن سرير خشبي واسع عليه مضلة من الخسف أحيانا ويختلف عن الشقدف بأنه مفتوح من جميع الجوانب .

معه ممن يحفظون الادعية المأثورة وخاصة عندما يطوفون بالكعبة المطهرة ، ولم يكن أحد يعرف شيئا عن الفنادق . أما الحجاج الفقراء من شبه القارة الهندية وبعض الجنسيات الاخرى فينزلون عادة فى الاربطة والتكايا الموجودة باسمهم فى مكة والتى أوقفها أصحابها لخدمة الفقراء من الحجاج وعادة ما تكون مزدحمة بالنزلاء (1) ويتم فى هذه الاربطة والتكايا تقديم المسكن مجانا للنزلاء ، وأما المأكل والمشرب فيتحمله الساكن ، ومنها رباط الداودية وكان فى باب العمرة ، ورباط السليمانية بباب دريبة ، ورباط محمد باشا بباب زيادة وغيرها (2) . وسعى أشراف مكة بالتعاون مع السلطة العثمانية الى تنظيم عملية الطوافة وتم توزيع البلاد العربية والاسلامية على مطوفين فكان كل مطوف مسؤولا عن البلاد التى خصصت له . ولذلك صدر فى سنة 1326 هـ. الموافق 1908 م. قرار ادارى يحدد تعرفة الحجاج ، وقد نشر هذا القرار فى جريدة (الحجاز) وهو كما يلى :

عدد	
1	جنيه عثمانى أجرة مسكن بمكة للجاويين .
2	جنيهان عثمانيان اكرامية مطوف وضيافة فى عرفات ومنى . ومن توفى قبل الوقوف بعرفة فعليه نصف المقرر .
10	عشر ربيات هندية اكرامية المطوف لعموم أجناس الهند .
2	جنيهان عثمانيان على الداغستان اكرامية مطوف وأجرة خيمة فى عرفة ومنى وبيت مكة .
5	خمسة ريالات مجيدية على حجاج مصر والشام والمغرب اكرامية المطوف .
2	ريالان مجيديان على حجاج الصعيد وغزة والعراق والاكراد .

وعلى كل حاج عدا ما ذكر أن يدفع لمطوفه اكرامية جنيه عثمانى واحد للميسور ونصف جنيه لمتوسط الحال .

واشتهرت مكة المكرمة بكثرة بيوت العلم فيها ومن تلك البيوت بيت الفدا وآل عبد الشكور . وآل زرعة وآل السقاف وآل عجيمى وآل الدهان وآل كمال وآل كتبى والمالكى من المغرب وآل عطا من مصر وآل مشاط واللبنى عرب وآل الطبرى وآل الشيبى وهم سدنة الكعبة المشرفة ، والدحلان والنقشبندى والأفغانى وآل فهد والسنوسى والرهبينى والحبشى والعطاس والكوجك ومنهم السيد حسن كوجك من أئمة الأحناف ، وأعتقد أنه من أصل تركى . وآل بابصيل وآل باجنيد وآل باسنبل وآل مرداد . وقد أورد الشيخ

(1) أحمد علي : ذكريات ، ص 32 .
(2) محمد طاهر كردى : التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ج 2 ، ص : 139 .

عبد الله أبو الخير ، فى كتابه نشر النور والزهر عرضا مفصلا لتراجم أشهر علماء مكة . كما كتب الاستاذ عمر عبد الجبار كتابا عن علماء مكة سماه سير وتراجم علماء المسجد الحرام ويصل فيه الى أواخر النصف الاول من القرن العشرين . كما كتب الشيخ عبد الله غازى كتابا وافيا عن علماء مكة ولا يزال هذا الكتاب مخطوطا .

وكان أمر الفتوى فى مكة تختص به بعض بيوت العلم من المذاهب الاربعة ، ويرأسهم مفتي الاحناف ، وذلك بتأييد من السلطان العثمانى أما القضاء فكان يتولى منصبه فى مكة علماء الاتراك الذين تندبهم الدولة وكانت أحكامهم مرتبطة بمشيخة الاسلام فى اسطنبول ، فهو يمثل سلطة الاتراك الدينية ويرأس الحفلات التى يتم فيها تنصيب أمراء جدد لمكة كما يعقد المراسم الخاصة بذلك ، ويتولى تقديم الخلع السلطانية الى الامير ، كما أنه يقوم بالخطبة فى الحج . وقد وجدت فى محكمة مكة مكتبة بها كتب كثيرة فى الفقه الحنفى وبعض الانظمة القضائية باللغة العثمانية المستعملة فى ذلك الوقت ويظهر أنها جلبت من اسطنبول ووضعت هنالك ليستعين بها القضاة العثمانيون فى مكة وغيرها فى أحكامهم . وكان التدريس يتم على يد العلماء فى المسجد الحرام وبمختلف اللغات ، فيجلس الشيخ وحوله الطلاب فى شكل حلقات علمية وكل شيخ يدرس العلم الذى تخصص فيه ، وباللغة التى يتقنها . كان بالمسجد الحرام أكثر من أربعين حلقة علمية مختلفة الاحجام والتخصصات ، كما أن التدريس يتم فى كل وقت صباحا ومساء وقد أحصى الشيخ حسين باسلامة فى كتابه عمارة المسجد أن بالمسجد الحرام بمكة فى تلك الفترة 1422 قنديلا عدا ما جعل فى المنائر ، جلبت كلها من مصر واسطنبول (1) . من عادة شريف مكة أن يجلس للحكم فى دار الامارة صباح كل يوم وحتى قبيل العصر فتعرض عليه المسائل الهامة ، وهنالك يستعد للتوجه الى الحرم الشريف فى موكب بسيط فيصلى العصر فيه . وكثيرا ما يجلس بالمسجد الحرام حتى يصلى المغرب ، ثم يعود الى قصره فيتناول طعام العشاء مع من يريد من اسرته وخاصته وضيوفه . ومن عادته أنه يجلس صباح كل يوم جمعة فى دار الامارة للمقابلات فيفد عليه الوالى وكبار الموظفين والاعيان والوجهاء ، وبعد السلام عليه يذهبون الى قصر الوالى للسلام عليه ، وعندما يقترب وقت صلاة الجمعة يتوجه الجميع للصلاة فى الحرم الشريف (2) .

واهتم العثمانيون أيضا بالكتب فأسسوا مكتبة عامة كبيرة فى المسجد الحرام بمكة لتكون منهلا للعلماء وطلاب العلم . ويرجع تأسيس هذه المكتبة الى السلطان عبد المجيد 1255 ـ 1278 هـ / 1839 ـ 1860 م. والذى أمر فى عام 1258 هـ / 1842 م. بتأسيس كتبخانة فى المسجد الحرام ، فأرسل اليها من

(1) أحمد السباعي : تاريخ مكة ، ج. 2 ، ص 421 .
(2) محمد البتنوني : الرحلة الحجازية ، ص 48-49 .

اسطنبول 3653 كتابا مجلدا تجليدا فاخرا ، وقد وضعت هذه المكتبة في القبة الواقعة في أعلى بئر زمزم وجعل لها ناظر ومعاون ، ورتب لهما معاشات جزيلة . وقد جمعت بها أيضا بعض الكتب والمصاحف الموجودة في أروقة المسجد الحرام ، وأصبحت تعرف بكتبخانة السلطان عبد المجيد ، وعندما داهم السيل المسجد الحرام نقلت الى المدرسة السليمانية (1) . وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1293 ـ 1327 هـ.) الموافق (1876 ـ 1909 م.) ، وجدت هذه المكتبة إهتماما كبيرا من عدد من حكام وعلماء مكة ، ومن الشخصيات الاسلامية في العالم الاسلامي . فقد أهديت لها مكتبة الشريف عبد المطلب . ومكتبتا الشيخ محمود حافظ ، والشيخ عبد الحق الهندي وهما من علماء مكة (2) . وكان الحجاج والزوار والعلماء من مختلف أقطار العالم الاسلامي يهدون لهذه المكتبة بعض إنتاجهم الفكري ، كما أن بعض الكتب ترد الى هذه المكتبة عن طريق الوقف أو الاهداء مساهمة في دعمها بكل نافع ومفيد من الكتب والمخطوطات الاسلامية . وفي عام 1328 هـ. / 1910 م. زارها الاستاذ محمد لبيب البتنوني وقال انها تحتوي على 4599 كتابا بين مخطوط ومطبوع ، وأنها وان كانت أصغر من كتبخانة عارف حكمت بالمدينة المنورة ، وأقل منها كتبا الا أنها جميلة ومرتبة (3) .

د. عبد اللطيف عبد الله بن دهيش
قسم التاريخ ـ جامعة أم القرى
مكة المكرمة

---

(1) سلنامة ولاية الحجاز عام 1303 هـ ، ص : 127 .
وابراهيم رفعت : مرآة الحرمين (الطبعة الأولى ، القاهرة : 1925م) ج 1 ، ص : 183 .
(2) خير الدين الزركلي : شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ، ج 4 ، ص : 1035 .
(3) محمد البتنوني : الرحلة الحجازية ، ص 255 .



من أجل كتابه تاريخ الحياة الاجتماعية « للاقلية الافريقية السوداء » بالبلاد التونسية : مصادر وآفاق

د. عبد الجليل التميمي

ان تـاريخ «الأقلية الإفريقيـة» بالبلاد العربية في العصر الحديث لم يقع الإهتمـام به البتـة ، وقد أهمل من طرف المؤرخين والباحثين العرب – المسلمين – وخصوصـا في المغرب العربي ، هذا فضلا عن الأوروبيين والأمريـكيين ، وهذا خلاف للاهتمـام الذي تمتعت به عدد من الأقليـات الأخرى اسلاميـة كانت أو مسيحيـة أو يهودية او ارمينيـة ، قبطيـة أو غيرهـا ، حيث افردت لهـا عدد من الندوات الدراسية والمؤتمرات وعلى الخصوص عدد من المنشورات وبعدة لغـاة خلال السنين الماضيـة (1) .

و «الأقلية الإفريقية» السوداء بالبلاد العربية لم تـكن موضوع اهتمـام أو عناية تذكر ولم تعقد من أجلهـا ندوات متخصصة (2) على الرغم من عددها المرتفع نسبيا والدور الإقتصادي والإجتمـاعي الهام الذي ادتـه في المجتمع العربي – الإسلامي خلال العصر الحديث وهذا ما سوف نتعرض اليه في دراستنـا هـاته ، مركزين بحثنـا عن الأقليـة الإفريقيـة السوداء بالبلاد التونسية ودراسة خصوصيـاتها اللغوية والدينية وعاداتها وعتقها ومهنها وأصـولها ومستواها الثقافي وحياتهـا اليومية و «اندمـاجها» في المجتمع التونسي وأخيرا سياسة الدولة تجاه هذه المسألـة .

ان الباعث على الإهتمـام بهذا الموضوع هو تلك الشبكة من المعلومات الجيدة والمستقـاة من مخطوطة بالمكتبة الوطنية بتونس وتـكتسي أهميـة تاريخية فريدة ، ثم من عدد من الدفاتر والوثائق المحفوظة بدار الأرشيف

---

(1) نظم عدد من المؤتمرات عن الأقليات الغير الإسلامية في البلاد العربية في عدد من الجامعـات في الولايات المتحدة الأمريـكيـة وفرنسـا وأوروبـا بصورة عـامة . وكمثـال على ذلك تنظيم مؤتمرات دوريـة على الأقليـة اليهوديـة في أوروبـا وايطـاليـا على الخصوص وحيث أصدرت دار الأرشيف الحـكومي بـرومـا أربع منشـورات هـامة جـدا .

(2) الإستثنـاء الوحيـد هو :

Valensi. L' « Esclave chrétiens et esclaves noirs à Tunis au XVIIIèmc siècles » in A.E.C.S., 1986, voir aussi du même auteur Esclaves noirs affranchis en Tunis» Cf. J. O. Hunwich «Black Africains in the Islamic World ; An Understudied Dimcnsion of the black Diaspora» in *Tarikh*, 5 / (1978), pp. 20-40.

الوطني التونسي والتي غطت «الأقلية الإفريقية السوداء» خلال القرن التاسع عشر . وقد تبين لنا أن المصادر العربية للتاريخ الإفريقي في المستقبل وجب ان تهتم ليس فقط بمختلف المخطوطات التي نعثر عليها من حين لآخر ، بل أيضا وجب التركيز على المعلومات الأساسية والتي تضمها دور الأرشيفات العربية الغنية جدا عن الموضوع (3) .

ففي البلاد التونسية كان يعيش فريق من شعوب جنوب الصحراء من غات وغدامس وكانو وبرنو ومن السودان ، وكانو اما عبيدا أو رحالة وطلبة وتجارا ، وحيث كانت التجارة نشطة في كلا الإتجاهين . وقدر عددهم حوالي السبعة آلاف بالبلاد التونسية ، وهذا على الرغم من ان احصائيات الحكومة قدمت لنا عددا أقل من ذلك . وعليه بأمكاننا أن نميز ضمن هاته الأقلية صنفين اثنين :

أحدهما : قد اندمج في المجتمع التونسي وهذا ماسوف نتحدث له بإعطاء معلومات دقيقة وجديدة .

ثانيهما : هي تلك المجموعة التي تميزت بممارسة طقوسها الوثنية وعاداتها الإفريقية المحضة . وقد استقينا هذه المعلومات من مؤلف مخطوطة المكتبة الوطنية التونسية (4) : **أحمد التمبكتو** الذى قدم لنا معلومات مفيدة جدا عندما حرر بتاريخ 20 نوفمبر 1800 وباللغة العربية ، الرسالة التالية وعرضها على الباي حمودة باشا :

هتك الستر عما عليه سودان تونس من الكفر

ماذا ذكر المؤلف عن «الأقلية الإفريقية السوداء» والتي كان يطلق عليها اسم السودانيين ؟

---

(3) راجع أبحاثنا التالية :
– الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس وليبيا ووسط وغرب افريقيا في العصر الحديث 80 ص . تونس ، 1980 .
– « كتاب نيل الإبتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التميكو : معلمة ببليوغرافية للاعلام المغاربة» في المجلة التاريخية المغربية (متم) عدد 33 – 34 ، ص 9 – 34 ، تونس جوان 1984 .
– «عتق العبيد وعددهم في منتصف القرن التاسع عشر بالإيالة تونس» ، في متم ، عدد 39 – 40 ، ص 590 – 596 ، ديسمبر – 1985 .
— « Pour une nouvelle approche des relations ottomano-arabo-africaines » m *RHM,* n 35—36, pp. 179—182, Tunis, 1984.

(4) راجع النص الأصلي لهذا المخطوط الذي كنا قد نشرناه في بحثنا : الروابط ... نفس المصدر ، 37 – 54 ، والذي يستحق ترجمة فرنسية .

انهـا صيحة قلق أطلقهـا المؤلف عندما وصف الوسائل الغربية جدا والتي يمـارسها «السودانيون» بتونس وسوسة وصفاقس والقيروان : كصلاتهم أمام النار وآلهتهم وطريقة ذبحهم الحيوانات التي كانوا يشربون دمـائهـا ، وممـارستهم السحر واعتقادهم في الساحرين ، وكيف انـه باستطـاعتهم غرس السكاكين في بطونهم دون ان يمسهم أذى . وبالإضـافة الى ذلك فهم يملكون منازل حولوهـا الى معـابد ، حاثين التونسيين وخاصـة التونسيات على الإنضمـام اليهم باعتبار ان الرجـال هم اليوم تحت سلطة نسـائهـم .

وبالإضـافة الى ذلك فإن مؤلفنا الذي روعته هـاته الممارسات الوثنيـة ، طالب بـاي تونس بإلغـائهـا ، اذ القضاء عليها في رأيـه افيد للبلاد من بناء ألف مسجد أو مدرسة ، بل هو افضل من جهـاد الكفار أو منح ألف دينار للفقراء المساكين . والذى نستنتجـه من خلال هذه المعلـومات هو الحرية الكاملة الذي تتمتع بها الأقلية الإفريقية السوداء «الوثنية» ، مع العلم انها تعيش في مجتمع مسلم تبنى المذهب المالكي والذي يعد أكثر المذاهب الإسلاميـة تشددا في العـالم الإسلامي قـاطبـة .

لنتنـاول الآن بالدرس الصنف الثاني من هـاته «الأقليـة الإفريقيـة السوداء» والتي اندمجت في المجتمع التونسي . ففي القرن السابع عشر تمتعت تونس وطرابلس الغرب بنظـام سياسي واقتصادي وثقافي في اطار الشمـال الإفريقي ـ العثماني ، حيث استمرت هاتان «العاصمتان» ولمدة طويلـة جدا كرابط وحدة بين شعوب جنوب الصحراء وافريقيا الشمـالية : فالمبعـوثون والرحـالة والزواج والتجـار والسفراء لعبوا دورا نوعيا في تعميق مختلف هذه الروابط بفضل النظـام السياسي العثمـاني الذي امن حرية تنقل الأشخاص والأملاك والأفـكار والآراء خلال العصر الحديث .

ومن جهـة أخرى اثرنا في دراسة كنا قد نشرناها عن : **عتق العبيد وعـددهم بـالبـلاد التـونسية في منتصف القـرن التـاسـع عشـر** ، ظاهرة الرق والقضاء عليهـا رسميـا ، ونتائج ذلك على المستوى المحلي ثم العثمـاني (5) . وكمـا نعلم فإن الباي احمـد باشا الذى حـكم ايـالة تونس من 1837 الى 1855 ، يعد أول حـاكم اسلامي يقوم بأخذ قرار الغـاء بيع الرقيق والقضاء على اسواقهم ومنع على التجار استيراد الرقيق من افريقيا

(5) راجع دراستنـا : عتق ... نفس المصدر .

وبيعهم بعد ذلك ، واثر هذا اعلن أن : « **كل مولود في المملكة التونسية حر لا يباع ولا يشترى** » (6) وهذا ما يعني مدى الرعاية التي أظهرها باي تونس عندما اتخذ قرار العتق الجريء .

ان عدد الملفات والدفاتر المحفوظة بأرشيف الدولة التونسية والتي غطت هذه الأقلية الإفريقية السوداء وظاهرة تجارة العبيد ونتائج منع ذلك ، ثم موقف المسؤولين تجاه تنفيذ هذا القرار أو عدمه ، وكذلك مواقف بعض التونسيين ازاء هاته الظاهرة ، تستحق التوقف عندها لاستخراج معلومات مفيدة سنعمل في هاته الدراسة على توظيفها وابراز المحاور الأساسية التي تناولتها ، خاصة اذا كان الأمر متعلقا بمختلف المصادر العربية المتعلقة بتاريخ افريقيا .

فحكومة الباي عندما الغت الرق في منتصف القرن التاسع عشر ، تبين لها من خلال شهود العيان ومقالات الصحف المحلية (7) والدولية ، أن ظاهرة تجارة الرقيق ، مازالت تمارس ولو بشكل جزئي حتى بعد الإحتلال الفرنسي للبلاد التونسية سنة 1881 ، على الرغم من منعه منعا رسميا . وهذا ما جعل الباي يومئذ يتخذ قرارا جديدا في جانفي يناير 1887 لتحرير مرسوم جديد وتوجيهه الى كل المسؤولين المحليين ، وتوزيعه في كل المدن والقرى ولدى القبائل ، طالبا من الجميع ليس فقط عتق كل العبيد ، بل معاقبة كل شخص يملك أو يشتري أو يبيع العبيد ، معاقبة صارمة (8) .

---

(6) أحمد بن أبي الضياف ، اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ج 3 ، ص 36 ، تونس ، 1962 .

(7) راجع مثلا كتاب المحامي قاستون جوهارب : (الرق في تونس) .
Geston Joherp, *L'esclavage en Tunisie,* 31p. Tunis, 1980.
حيث قدم صورة كاريكاتورية وعرقية ومنحازة لظاهرة الرق بالبلاد التونسية في أواخر القرن التاسع عشر .

(8) ننشر هنا للاهمية ، نص هذا المنشور التاريخي :
« الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
وبعد فإنكم على علم مما كانت صدرت به الأوامر العلية من إبطال ملكية العبيد بالمملكة ولا سيما الأمر المؤرخ في المحرم سنة 1262 وبمقتضى ما ذكر لم تأل الدولة جهدا في منع التجارة بالعبيد وعتق من يبلغها أنه مملوك منهم ومعاقبة من يتعاطى تلك التجارة أو يخالف الأوامر المشار اليها بوجه من الوجوه وقد بلغ الوزارة في الأيام الأخيرة أن كثيرا من السكان عمدوا الى شراء السودان والسودانيات من القوافل التي ترد من الجهة الجنوبية وان العمال متغافلون عن ذلك ولما عرضت النازلة على الحضرة العلية دام عزها وعلاها صدر الإذن العلي بتنبيهكم لما في ذلك من المسؤولية الشديدة وان

ان مثل هذه التعليمات التي أرسلت الى كل المسؤولين وقرئت على المواطنين في المساجد وفي الأسواق من طرف الدلالين ، قد اثمرت اهتماما كبيرا جدا (9) ونتيجة لذلك ، حررت مئات من الرسائل والتقارير وارسلت الى الوزارة الكبرى واصفة بكثير من الدقة المتناهية ، وضعية «الأقلية الإفريقيـة السوداء» بالبلاد التونسية وموقف القواد أنفسهم تجاه هذا الموضوع (10) .

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن بادىء الأمر بأي لغة كانت تتعامل هاته الأقليه فيما بينها أولا ، ثم في تعاملها مع الناس في بيئة معربة

يؤكد عليكم برد البال وعمل الجهد التام في مراقبة تجار العبيد الذين يقدمون للمملكة فمهما يبلغكما وصول أحد منهم توجهوا أتباعكم للبحث عنه والتمكن عليه وعندما تظفرون به يوجهونه الى الوزارة لمحاكمته أما من يوجد معه من العبيد فإنكم تجعلونهم في محل أمين وتعرفون الوزارة بعددهم واوصافهم ويكون المصروف عليهم من ماله الى أن يتيسر لهم خدمة تضمن لهم المعاش واذا كان صاحب القافلة باع عبيدا لبعض سكان المملكة فإنكم تتمكنون على البائع والمشتري معا وتوجهونهما جميعا الى الوزارة وفي هذه الحال يكون مصروف العبيد على الفريقين . واذا كان يوجد الآن عند أحد ممن لنظركم سودان أو سودانيات فإنكم تحضرونهم أمام النائب الشرعي بجهتكم وعدلين من عدول العمل وبعد تعريفهم أنهم أحرار غير مملوكين لأحد تسألونهم هل يريدون البقاء عند مخدومهم أو يختارون تركه فإن أحبوا البقاء لهم ذلك والا فإنكم تعرفون الوزارة وتبقونهم مؤقتا حيث كانوا في كلا الحالين يحرر العدول بمحضر النائب الشرعي تقريرا تصححه أنت ومن ذكر وتوجهونه الى الوزارة فورا وأجر العدول يدفعه المخدوم والذي نؤكد به عليكم أن تسلكوا في جميع هذه الأعمال مسلك الإستقامة والحزم وأن لا تستميلكم الأغراض الشخصية الى ارتكاب ما يخل بخطتكم واذا ثبت بالوزارة أن وقع منكم تقصير أو مخالفة لما يأذنكم به سيدنا ومولانا أدام الله عزه وعلاه ، تنالكم العقوبة الشديدة فاجتنبوا ذلك والله في عونكم والسلام من الفقير الى ربه أمير الأمراء محمد العزيز بوعتور الوزير الأكبر عفى عنه وكتب في 5 رجب سنة 1304» .

(9) أرشيف الدولة التونسية (أ.د.ت) قسم أ ، صندوق (3) ، 1 — 281 ،.

رسالة من محمد السقا الى الوزير الأكبر بتاريخ 15 ذي الحجة 1307 / 2 أوت 1890 معلنا أن كل شخص يملك أو يشتري عبيدا يتم سجنه لمدة ثلاثة أشهر .

(10) أن عددا من الرسائل في أرشيف الدولة التونسية ملف (3) — 1 — 281 . قد سجلت مواقفهم من ذلك : محمد السقا القائم مقام عامل المنستير قد ذكر في رسالته بتاريخ 15 ذي القعدة 1307 / 2 / 9 / 1890 ، الى الوزير الأكبر : «أن من كان عنده سودانية أو سوداني ليس بيده حجة تقتضي أنه حر غير مملوك ، يلزمه أن يدفع له تلك الحجة في مدة ثلاثة أشهر من تاريخ الأمر المشار إليه وان خالف تناله العقوبة المقررة بالفصل الثالث وهي الخطية قدرها من 200 ريال الى 2000 ريال . وان من يشتري انسانا أو يبيعه أو يحوزه بوجه الملكية يعاقب بالسجن من ثلاثة أشهر الى ثلاث سنين ... ومراقبة من يأتي بالسودانيين أو السودانيات من الخارج ليبيعهن بالمملكة والقبض عليهم وان وقع الظفر بمثل هذا وتوجيههم مسجونين لجناب الوزارة مع حجة قاضية بمخالفتهم» .

وفي رسالة أخرى وجهها أحمد زروق ، المكلف بجربة الى الوزير الأكبر بتاريخ 14 محرم 1309 ، ذكر له فيها : «... مازلت جادا في حسم مادة العبودية» .

تماما ؟ وللاجابة على هذا السؤال ، فإن وثائقنا عكست لنا ان الأغلبية كانت تمارس العربية «الدارجة» وان عددا آخر منهم كان يستعمل لغات افريقية محلية وهو ما أطلقت عليه وثائقنا باللغة العجمية (11) ، وهذا ما جعل الوزارة تطلب من «قوادها» العمل على ارسال هؤلاء الأشخاص الذين لا يتكلمون اللغة العربية ، مصحوبين بمن يعرف لغتهم لتسهيل عملية الترجمة (12) . على ان وثائقنا قد ذكرت لنا حالة شخص واحد هو الحاج محمد بن احمد «يحسن الكلام بالفرنسية ذكي» جدا واستعمل كعجندي تركي في حرب القرم » (13) .

أما أصول هاته الأقلية فقد ذكرت وثائقها أنهم من برنو وغدامس وطرابلس والطوارق وافنو وكانو وتمبكتو ووادا . وبالنسبة لأشخاص آخرين ، فلم يتمكن المحققون من معرفة أصولهم (14) ، وفي الكثير من الأحيان ، فإن اسمائهم نفسها كانت تدل على أصولهم مثل الغدامسي والوراقلي والطرابلسي والبرناوي الى آخره (15) ... أما عن انتماءاتهم الدينية ومستواهم الثقافي ، فقد أمدتنا وثائقنا بمعلومات مفيدة حول هذه النقطة بالذات ، ففي القائمة التي سجلت فيها 1113 عبدا اعتقوا

---

(11) أ.د.ت. المصدر نفسه ، ملف سنة 1889 ، رسالة من مسعود اثن عبد الرحمان قائد الجبل الى الوزير الأكبر بتاريخ 24 ذي الحجة 1305 / 1 سبتمبر 1808 ، رسالة أخرى من قائد المهدية صالح عبد الوهاب الى الوزير الأكبر بتاريخ 24 محرم 1306 / 30 سبتمبر 1808 وتوجد هاته الرسالة بالملف التابع لسنة 1808 وحيث ذكر بها : «سودانية عجمية ... وقد استنطقت السودانية ... وبواسطة المترجم عنها بلغتها . » وفي رسالة لوحظ في بيت الطاهر مورالي بأريانة : «خادمين لايعرفان التكلم بالعربي وكلاهما عجمان» راجع أ.د.ت. ، المصدر نفسه ، رسالة بتاريخ 7 رجب 1304 / 1 أفريل 18887 .

وفي رسالة أخرى من عامل الجبل المسعود بن عبد الرحمن الى الوزير الأكبر ذكر بخصوص أحد الزنجيات عند سؤالها : «فوجدناها عجمية لا تفهم بالعربية قليل ولا كثير... » راجع هاته الرسالة بملف سنة 1889 وبتاريخ 24 ذي الحجة 1305 / 2 / 9 / 1888 .

(12) أ.د.ت. ، المصدر نفسه ، ملف سنة 1889 ، رسالة من قائد نفزاوة الى الوزير الأكبر بتاريخ 23 رمضان 1306 / 30 سبتمبر 1888 حيث عرضت اسم الزنجي ابراهيم الغدامسي كمترجم من وإلى اللغة السودانية . ولاشك هنا ان المقصود به هنا بعض اللهجات الإفريقية والتي ليس لها ارتباط باللغة العربية .

(13) أ.د.ت. ، ملف سنة 1893 ، برقية من المراقب بجربة الى المقيم العام الفرنسي بتونس بتاريخ 23 فيفري 1893 .

(14) أ.د.ت. ، المصدر نفسه ، رسالة من القائد محمد بن خليفة الى الوزير الأكبر بتاريخ 16 شعبان 1303 / 19 ماي 1986 ، حيث ذكر أنه اشتريت شوشانة ولا نعلم من أين اشتريت .

(15) أ.د.ت. ، ملف رقم (3) — 1 — 281 سنة 1890 ، رسالة الى الكاتب العام للحكومة بتاريخ 6 ماي 1885 ، راجع أيضا التقرير الذي حرر في قضية محمد البكوش بتاريخ 8 صفر 1308 / 24 سبتمبر 1890 .

سنة 1860 ، كانوا بالغين ومن جنس الذكور وخاضعين للأداء (16)، نلاحظ وجود 37 شخصا قد أدوا فريضة الحج الى الأماكن المقدسة (17). وفي لائحة ثانية ممضاة من طرف 86 شخصا كانوا قد اعتقوا ايضا وعبروا عن عدم اعترافهم بقائدهم «الحسني الذي اتهموه بممارسة الأعمال الشائنة وتجارة العبيد» (18)، نلاحظ وجود سبعة عشر شخصا «حاجا»، ومن جهة اخرى طلبت سيدة افريقية اعتقت بالقيروان مع سيدات قيروانيات الإذن باداء فريضة الحج (19). وكذلك هرب عدد من العبيد، من مقر شغلهم والتجأوا الى المساجد (20) او مختلف الزوايا ذات الحركية والإشعاع الديني (21). ولا شك أن هذه الظاهرة ليست عفوية، بل هي تترجم عن ارتباط واضح بالدين وتعلق بالإيمان والمعتقدات الروحية. والذى يؤكد هذه الظاهرة أن الباي احمد باشا باي عندما قرر تنفيذ قرار الغاء الرق بالبلاد التونسية سنة 1842، كان قد عين عدلين بزاوية سيدي محرز والزاوية البكرية وزاوية سيدي منصور، لاستقبال المعتوقين وتحرير وثيقة العتق الرسمية (22)!

(16) ان هدف الحكومة يومئذ من حصر العبيد، من جنس الذكور والبالغين، كان الغرض منه معرفة القادرين منهم على دفع أداء المجبى وعليه فإنه من الصعب تقديم احصاء دقيق للأقلية الإفريقية السوداء بالبلاد التونسية في القرن التاسع عشر الميلادي.

(17) أ.د.ت.، القسم التاريخي، دفتر 819 حيث سجل العبيد المعتوقين في البلاد خلال سنة 1860، واذا قمنا بمقارنة سريعة لعدد اليهود، فإن احصائيات الحكومة التونسية خلال سنة 1860 وبالنسبة لمنطقة المنستير مثلا، تقدم عددا أكثر من المضاعف للعبيد، حيث أعطتنا رقم 73 يهوديا مقابل 157 للعبيد لنفس المنطقة. راجع لكل ما يتعلق بهاته المقارنة، الدفتر رقم 759.

(18) أ.د.ت.، ملف (3) — 1 — 281، رسالة الى الكاتب العام بتاريخ 6 ماي.

(19) أ.د.ت.، القسم التاريخي، ملف رقم 191، وثيقة، 13724، رسالة من قائد القيروان محمد المرابط الى الوزير الأكبر بتاريخ 24 جمادي الثاني 1293 / 17 جويلية 1875.

(20) أ.د.ت.، المصدر نفسه، وثيقة رقم 191، رسالة من قائد القيروان محمد المرابط الى الوزير الأكبر بتاريخ 10 شعبان 1294 / 21 أوت 1877.

(21) ان الأمثلة حول هذه الظاهرة في وثائقنا عديدة، ونضيف الى ذلك: زاوية السيدة المنوبية وزاوية سيدي عبد القادر الجيلاني.

كما نلاحظ أن عدد اخر من العبيد قد التجأوا الى القنصلية الأنقليزية بتونس وحيث سعى القنصل للتدخل لدى السلط، طالبا عتق هؤلاء العبيد: «لي الشرف أن أطلب منكم تسليم وثيقة الحرية من الحكومة التونسية لصالح العبد ابراهيم بن نديم البرناوي والذي التجأ الى قنصليتنا امس وحيث كان مقيما في بيت محمد بن عبد الله أكثر من عشر سنوات».

راجع هاته الرسالة في: أ.د.ت.، ملف (3) — 1 — 281 ملف من 1885 الى 1892، رسالة بتاريخ 2 جانفي 1889، رسالة أخرى من محمد الطاهر النيفر الى الوزير الأكبر بتاريخ 1 صفر 1305 / 20 أكتوبر 1887.

(22) الإتحاف، ج. 17، ص. 87.

أما المهن التي مارستها هاته «الأقلية الإفريقية السوداء» فإننا نلاحظ باديء الأمر ان العمل المنزلي كان السائد لدى الأغلبية الساحقة في المجتمع الإسلامي على العموم ، وهذا خلافا لأمريكا التي سخرت العبيد لممارسة كل المهن الصعبة والشاقة والتي استنفذت طاقات اصحابها . غير اننا من خلال مجموع الوثائق التي عالجناها ، سجلنا استثنائين لهاته القاعدة **أولهما** : هي هاته السيدة الإفريقية التي عبرت عن رغبتها في عدم ممارسة عمل **البادية** حيث بقيت تخدم فيها وأنها لا قدرة لها على خدمة البادية (23) . وللهروب من هذا العمل ، فضلت ترك سيدها . اما الحالة الثانية فهو الحاج محمد بن احمد الذي القي عليه القبض ولم يكن لديه تسريح وهو «يتعاطى **صناعة الطب** ويأخذ الضيافة بصفة كونه تابع لسيدي عبد القادر الجيلاني . وقد خرج من تونس منذ شهر وقطع البلاد راجلا الى جربة وله من السن خمسين سنة تقريبا ... » (24) .

ومن جهة أخرى فإن «الأقلية الإفريقية السوداء» التي كانت تتمتع بتعيين قائد عليها في تجمعاتها (25) ليشرف على شؤونها الخاصة ويحل مشاكلها الإجتماعية والإدارية ، وكانوا في بعض الأحيان ، بحامة قابس مثلا ، قد اقترحوا على الباي بأنهم : «اتفقوا (اتفاقا تاما) ورضوا بالمكرم الأجل احمد بن عبادان خليفة عليهم كسائر خلفاء العبيد أمثاله وذلك لصلاحيته واهليته وحسن سيرته معهم ...» (26) ، أو أنهم اشتكوا من ان « المكرم الأجل علي الحامي أضر بهم واساء السير معهم ولا هم راضون به ان يكون خليفة عليهم ... » (27) . ولهاته الاقلية حق التملك وشراء العقارات وفضلا عن ذلك كانت تتمتع بحق التحكيم الى العدالة المحلية ، اذا استوجب الأمر ذلك (28) .

---

(23) أ.د.ت. ، قسم أ. صندوق (3) — 1 — 281 ، رسالة من محمد الجلولي ، قائد صفاقس الى الوزير الأكبر بتاريخ 2 صفر 1305 / 21 أكتوبر 1887 .
(24) أ.د.ت. ، المصدر نفسه ، ملف راجع لسنة 1893 ، برقية موجهة الى المقيم العام بتونس بتاريخ 26 فيفري 1893 .
(25) أ.د.ت. القسم التاريخي ملف رقم 191 وثيقة ، قسم 13794 ، رسالة من قائد القيروان إلى الوزير الأكبر بتاريخ 10 شعبان 1294 / 20 أوت 1877 .

وبالإضافة الى ذلك فإن عددا من اللوائح قد حررها «أشراف» العبيد المعتوقين ووجهت الى حكومة الباي وقد عبرت عد عدم رضائهم عن قواد المعاتيق لعدم كفاءاتهم وهو الأمر الذي أضر بهم . راجع : أ.د.ت. ملف (3) — 1 — 281 .
(26) المصدر نفسه ، رسالة بتاريخ 20 ذي الحجة 1302 / 1 / 12 / 1885 .
(27) أ.د.ت. ، المصدر نفسه ، رسالة بتاريخ 5 جمادي الأول 1302 / 11 / 2 / 1885.
(28) Lucette Valensi «Esclaves chrétiens et esclabes noirs à Tunis en XVIII siècle » in *Annales E.C.S.* N°6, 22 année, 1967.

غير ان مصير هاته «الأقلية الإفريقية السوداء» سوف يعرف تحويلا جذريا بعد توزيع منشور الباي الثاني الذي حرم على كل المواطنين والأجانب الذين يعيشون في البلاد التونسية (29) حق شراء أو بيع أو تملك العبيد، وفي حالة المخالفة تسلط أشد العقوبات والتي تنص على الغرامة أو السجن أو الإثنين معا. ولم يستثنى أحد في ذلك. لقد كان موقف السلط حازما كل الحزم في تطبيق أوامر الباي ووظفت كل المعلومات التي وصلت الى عملها، واتخذت اجراءات صارمة ضد عدد من الشخصيات التونسية التي لم تلتزم بأوامر 1301، من ذلك أن الحاج علي حمزة احد الشخصيات المستقيمة والتي تمتعت بتأثير واسع وشرعي والموالي للحماية الفرنسية (31)، قد اتهم بشراء زنجية عمرها احدى عشر سنة. وقد اغرم نتيجة لذلك بدفع الف ريال 32). وهناك شخصيات اخرى مثل العبيدي بن محمد من توزر والمتهم بشراء زنجيات قد حكم عليه بالسجن ولمدة شهرين (33) اما الحاج محمد بن رمضان الحمادي فقد أوقف لأنه باع زنجية (34).

لقد قام ممثلو الباي بجهود مكثفة ومضنية لمراقبة كل الأشخاص على اختلاف اوضاعهم الإجتماعية أو السياسية أو الدينية والذين يشك

(29) أ.د.ت.، المصدر نفسه، ملف (3) – 1 – 281 سنة 1893، رسالة من الجنرال لوكلارك (Leclerc) الى المقيم العام بتاريخ 21 مارس 1893، يحيطه فيها علما بأن شخصا غير تونسي قد رفض تطبيق أمر الباي بعتق العبيد وقد أبلغ هذا الشخص بالخضوع للأوامر الصادرة عن الحكومة التونسية وان قانون الغاء العبودية ينطبق على كل الموجودين بالبلاد التونسية وهذا على الرغم من اختلاف جنسياتهم».

(30) وكمثال على ذلك رسالة الوزير الأكبر الى عامل الأعراض: «وبعد فقد بلغ لحضرة المعظم الأرفع مولانا وسيدنا انه يوجد عند الشيخ عمر بن سالم من سكان أوديبر (كذا) قرب قابس عدد وافر من السودانيات يقرب من 60 نفرا وبناء على ذلك صدر الإذن العلي بأنك تبادر للبحث عن ذلك بجميع ما يلزم استعماله من الوسائل واذا حصل لكم الظفر بشيء من ذلك نوجه للوزارة ما تجده منهن كما توجه الشيخ المذكور ونرجو ان يكون ذلك في أقرب وقت» راجع: أ.د.ت. ملف (3) – 1 – 281، رسالة بتاريخ رجب 1304/ 1 أفريل 1887.

(31) المصدر نفسه، ذكرت أن شخصيات عدة تمتلك بصورة غير قانونية العبيد. وقد أغرموا جميعهم نتيجة لذلك.

(32) المصدر نفسه، ملف سنة 1888، رسالة من امراقب المدني بسوسة الى المقيم العام بتاريخ 1888/10/10.

(33) المصدر نفسه، قسم أ، صندوق 281. ملف لسنة 1885 – 1892.

(34) المصدر نفسه، ملف سنة 1887، رسالة الى الوزير الأكبر بتاريخ 25 ذي الحجة 1304 / 14 سبتمبر 1887.

انهم يملكون «عبيدا سودا» والحقيقة ان هذه التحريات مكنتنا من تقارير ووثائق كانت قد وجهت الى الوزير الأكبر وتحتوي على معلومات مختلفة حول الأوضاع النفسية والأخلاقية والعائلية والإقتصادية، ليس فقط عن الأقلية السوداء، بل تجاوز ذلك لعدد من العائلات التونسية وموقفها العام من موضوع الرق، وهذا ما يشكل احد المظاهر المهمة والأساسية لدراستها والتوقف عندها وتحليلها. فالعائلة الحسينية المالكة قد احترمت هي الأخرى ما نص عليه المنشور واعتقت الثمانية والعشرين عبدا والذين يعيشون في القصر (35). اما الشخصيات الأخرى من كبار موظفي الدولة أو الشيوخ أو رجال الدين فقد اقتفوا مثال الباي واعتقوا العبيد الذين كانو بحوزتهم (36). وعليه كان تأثير المنشور الثاني العام والقاضي بعتق العبيد قد منح للمرأة الإفريقية على الخصوص حلين شرعيين: أما الزواج من أسيادهم أو من زنوج كان قد اعتقوا، أو بترك العمل المنزلي لدى سيدها تماما، والتمتع بحريتها المطلقة. والواقع اننا امام ظاهرة اجتماعية فريدة لتطور العلاقات العربية ـ الإفريقية في البيئة الإجتماعية التونسية. والمتتبع لمصير أغلبية الزنجيات اللاتي اعتقن في هذا الظرف يلاحظ انهن قد اخترن، بمحض ارادتهن، تقنين زواجهن وهن بذلك قد منحن بذلك الشرعية للابناء، وقد صرحن بأنهن احرار ويرغبن في البقاء لدى المواطنين وحيث كن اما زوجات او عبيدا (37). أو مثل هاته «الشوشانة عند سيدي صالح بن مسعود منذ خمس سنوات على سبيل المعاشرة والإحسان والتماس بركة الشيخ المذكور وانها راغبة في خدمته ومعاشرته...» (38).

ومن جهة أخرى لاحظ بعض المفتشين عددا من حالات سوء معاملة التونسيين لعبيدهم، وكمثل على ذلك، هاته السيدة التي عبرت عن رغبتها

(35) أ.د.ت. المصدر نفسه، تقرير بتاريخ 9 شوال 1307 / 30 ماي 1890.

(36) فالوزير الأكبر كان يتابع هذه المسألة عن كثب ولم يفتأ يوجه الى القواد والخلفاء تحذيرا حول امتلاك عدد من كبار موظفي الدولة، العبيد مثل الشيخ عمر بن سالم بقابس الذي اتهم بتملك سودانية، وقد صدرت الأوامر بالتحري من ذلك والتحول ال منزله، أو السيد علي بوحجر، أحد الزعماء الدينيين للطريقة الرحمانية الذي اتهم بتملك أربع زنجيات. راجع مجموعة هاته الرسائل بملف سنة 1888 بتاريخ رجب 1304 / أفريل 1886 و 23 أفريل 1887.

(37) أ.د.ت.، قسم أ. ملف (3) 1 – 281، المراسلة العامة لسنة 1887، رسالة من الجنرال جيون (Gillon) الى المقيم العام بتاريخ 6 جانفي 1887.

(38) المصدر نفسه، رسالة من محمد الصادق بن التليلي عامل أولاد وزار الى الوزير الأكبر بتاريخ 17 ربيع الأول 1394 / 12 / 1 / 1887.

بترك سيدها لأنه قد أساء معاملتها . وعندما سئلت من طرف المفتشين هلى هي بكر ام متزوجة ؟ ردت بقولها : «لا بكر ولا متزوجة ولي ولدان من سيدي وانها تطلب العتق ولا شيء خلافه» ! (39) . اما عائلة البكوش فإن الزنجيات الست اللاتي يعشن منذ سنوات ، فقد صرحن بأن جميعهن غير متزوجات وليس لهن ابناء ولا يرغبن في ترك اسيادهن وانهن احرار (40) . كما ان عددا آخر من الزنجيات المعتقات ذكرن أنهن أحرار وانهن يرغبن في خدمة اسيادهن بمحض ارادتهن وانهن سعيدات بمصيرهن ولهن أبناء ... (41) . أما الزواج بين المعتوقين فهي ظاهرة عامة وتمت وفقا للتقاليد الإفريقية المحضة (42) . وهذا خلافا للزواج بالتونسيين حيث نص على قيمة المهر واسعار البضائع المتوفرة يومئذ ، ومن جهة أخرى امكن العثور على معلومات عن املاك المعتوقين .

(39) أ.د.ت. ، المصدر نفسه ، ملف سنة 1890 : من تقرير حرره نعمان الخوري بتاريخ 11 أفريل 1890 ، فيما يلي مقتطفات من هذا التقرير :

رسالة من عامل الأعراض الى الوزير الأكبر بوعتور بتاريخ 4 ذي الحجة 1303 / 3 / 12 / 1886.

«حضرت بالوزارة السودانية سعيدة بنت معطى من برقو وذكرت أنها كانت مملوكة للحاج علي من أولاد منصور من حامة قابس وفي شهر ذي الحجة في العام الفارط قدمت مع سيدها للحاضرة وما لبثت أن هربت من عنده والتجأت الى زاوية سيدي محرز وهي الآن تطلب العتق .

س : من أين اشتراك سيدك
ج : من ... بطرابلس
س : أي وقت اشتراك .
ج : قبل دخول الفرنسيين للمملكة بأربع سنوات .
س : عمرك ؟
ج : لا أعرف
س : هل كان سيدك يسيء معاملتك ؟
ج : جدا
س : هل أنت بكر أم متزوجة ؟
ج : ولا بكر ولا متزوجة ولي ولدان من سيدي .
س : ماذا تطلبين من دون العتق ؟
ج : العتق ولا شيء خلافه
س : هل بقي عند سيدك سودانيات مملوكات ؟
ج : بقي عنده واحدة اسمها عايشة وهي شابة هربت مرارا وأرجعها سيدي الى الدار ...» .

(40) المصدر نفسه : في التقرير الذي حرر حول الزنجيات اللاتي يعشن في منزل محمد البكوش بتاريخ 8 صفر 1308 / سبتمبر 1890 .

(41) أ.د.ت. ، ملف (3) — 1 — 281 لسنة 1892 ، من تقرير بتاريخ 8 مارس 1891 ، حرره العقيد كاك (Kuk) بعد أن وصلته شكاية موجهة من قاضي تمرزة ضد قائد قبيلة أولاد سيدي عبيد وحيث اتهم بعدم الإلتزام بأوامر الباي بعتق العبيد .

(42) المصدر نفسه ، رسالة بن محمد الجلولي قائد صفاقس الى الوزير الأكبر بتاريخ 12 محرم 1305 / 1 أكتوبر 1887 حيث ذكر : «أنه تزوجها بعد شرائه لها على عرفهم الجاري من التزويج» .

ان المؤرخ وعالم الإجتماع سوف يجدان مجالا مهما جدا لدراسة مختلف العوامل والتأثيرات المتبادلة التي طبعت ليس فقط الروابط الثقافية والدينية والعاطفية والتي نسجت مع الزمن ، بين الأقلية الإفريقية السوداء في الولايات العربية وبين التونسيين ، بل أيضا للدلالة على أن الإرث الإفريقي في حياتنا اليومية — الإجتماعية منها على الخصوص — مازالت ماثلة للعيان الى اليوم في المغرب العربي وفي البلاد العربية على حد سواء أثناء العهد العثماني ، وهو الأمر الذي وجب علينا أن نوليه اهتمامنا ورعايتنا في المستقبل خصوصا وان دراسة تأثير ودور «الأقلية الإفريقية السوداء» في الولايات العربية يعد من المواضيع الشيقة والجديدة والهامة التي يتحتم علينا التصدي لها خدمة للمعرفة التاريخية الشاملة .

د. عبد الجليل التميمي

(43) المصدر نفسه : رسالة من قائد العرض الى الوزير الأكبر بتاريخ 4 ذي الحجة 1303 / 3 سبتمبر 1886 . وكمثال على ذلك فإن أحد المهور كان : 30 شاتا و 1000 ريال تونسية معجلة و 100 مؤجلة ، أو 100 ريال تونسية فضة يشترى لها بها زوج حوايج حلي خريص وخلال فضة» .

ملحق (*)

.... احضر جملة الخدم المراد سؤالهم ، فإذا عددهن ستة لاغير وهن الآتي ذكر اسمائهن وما اجبن به عن الأسيلة فأمرن بالوقوف بزاوية البيت الذي به كاتبه والسيد محمد البكوش وخادم له أسود اللون سنه نحو العشرين سنة واستقدمت احداهن المسماة حواء وسألتها بانفرادها عن الأسيلة الاتية فأجابت عن كل سؤال بما ذكر امامه ثم اخرى الى آخرهن ومن تسأل منهن تنصرف من امامنا حيث رضيت بالمكث عند السيد محمد البكوش وكلهن مستبشرات .... وفي اجوبة البعض منهن انها لاتريد الخروج الان حتى يزوجها سيدها بمن يريده لها وهذه صورة الأسئلة والأجوبة :

ما اسمك	حواء	دولة	سريعة	نجمة	فجرة	ربح
ما نسبتك	عفنوية	بكانو	توارقية	ولدت بتونس بدار محمد البكوش	لا تعرف بلدها لأنها لأنها أتت صغيرة لدار المذكور	برنويه
من اتى بك لهاته الدار	السيد علي الساحلي	السيد علي الجويني ربيت عنده صغيرة	لاتعلم وانها ربت بالدار صغيرة	مولودة بالدار	لا تعلم وانها اتت رضيعة للدار	ارسلها اليه يوسف اليقرو عامل الأعراض
كم مدة اقامتك بهاته الدار	نحو تسعة اعوام	نحو عامين	نحو اثني عشر سنة	مدة عمرها	كالتي قبلها	ستة اعوام
كم سنك	نحو الثلاثين سنة	نحو ثلاثة وعشرين سنة	كالتي قبلها	نحو تسع عشر سنة	كالتي قبلها	كالتي قبلها
هل تزوجت وهل لك ولد	لا	لا	لا	لا	لا	لا
لونها وبعض اوصاف	سمراء نصف لون و بخديها سيمة العبيد	سوداء رفعه	كذلك	نحاسي كالهنود رفقه	سوداء رخصة	كالتي قبلها
هل بالدار غيرك من السودان	لا (أي ما عدا الحاضرة)	لا	لا	لا	لا	لا

(*) حرر هذا التقرير من طرف الشيخ محمد مصطفى التي كلفته الوزارة الكبرى للتحرر حول وضعية العبيد لدى عائلة البكوش بأريانة . أرشيف الدولة الفرنسية ، ملف رقم 3 – 1 – 281 ، عن وضعية العبيد سنة 1890 .

السؤال						
مـا اسم السودانيتين اللتين ماتتا من عهد قريب بالدار وما نسبتهما وما سبب مـوتهمـا	لم يقع مرض واحدة من عهد قريب سوى ان تبر اعتراها مرض وعالجها الطبيب وماتت منذ نحو 6 أعـوام	لاعلـم بهـا	كمالأولى	لا علم لها من عهد قريب سوى ربح	كذلك	لا علم لهـا
ارني رسم عقتك	اتته من الدار فإذا هو مؤرخ في 20 ربيع الأول .	اناغير مملوكة لأحد نفس .	بدارنا بأريانة	أنا حرة لانحتاج	لانحتاج لعتق لأني لرضـاعي معهم .	عند سيدي بدارنا
هل تريد الخروج من هـاته الدار وتذهب حيث شئت وان كان لك اثاث اي حوايج من ملبوس وغيره يأخذه وتخرج الآن معي او تريد البقاء هنا فأنت مخيرة في ذلك ولا خوف عليك	لا	لا	لا	لا	لا	لا

وبعد الفراغ من الأسيلة والأجوبة المذكورة قال السيد محمد البكوش ان السودانيتين اللتين بلغ الوزارة موتهمـا منذ 6 اشهر ووقع الان السؤال عليهما لاوجود لهما ولا لهذا الخبر اصل . غير انه كانت بالدار شوشـانة تسمى تبر اعتراها مرض عضال وعالجها الطبيب براتس مدة طويلة وعند انقضاء اجلها ماتت وذلك منذ ست او سبع سنين وها أكتب كتابا جوابا عن مكتوب الوزارة الذي ابلغته الي وسلمه الى كاتبه وهذا نصه :

جنـاب الصدر الهمـام امير الأمراء الوزير الأكبر سيدي محمد العزيز بوعتور ادام الله تعـالى حفظه اما بعد السلام التام المودب لحق المقام فإنه شرفني كتابكم الأعز المؤرخ في 7 شهر تـاريخ صحبة الثقة الزكي الأكمل الشيخ محمد مصطفى للاطلاع على احوال الخدم الذي بلغ الوزارة انهن يطلبن الخروج وذكر الشيخ المذكور انه بلغ الوزارة ان اثنان (كذا) من الخدم المذكورين ماتوا عندنا في هذه المدة من سوء المعـاملة وقد حضروا أمام الشيخ المذكور وسألهن عن حالهم وعمن مات واجابوه بمـا ينهيه لسيادتـكم . أما ماذكروه من موت اثنين عندنا فهذا كذب محض حيث لم يمت بفضل الله عندنا أحد ولاشك ان الذي اخترع هذه الفرية وانهاها للوزارة قصده اذايتنا ولذلك نطلب من علي جنابكم احضاره واحضار عبدكم لديكم وتحققوا الأمر حتى يتبين لجنابكم حقيقـة الواقع ثم زجر المفتري بما يستحقه من تلويث اعراض الناس والله تعـالى يحرسكم ويحفظـكم والسلام من معظم قادركم السامي محمد البكوش لطف الله في 8 صفر الخير 1208 .

ومـا اجابني به السيد محمد البكوش ان الشواشن الست المذكورات ماكانت بداره عن طيب نفس منهن وكلهن احرار فالبعض بالأصالة

التفاعل الاجتماعي في ولاية حلب بين العثمانيين والعرب

د. محمد التونجي

مجتمع حلب والتفاعل السياسي :

إن من يستعرض الخارطة للامبراطورية العثمانية يدرك ـ وبوضوح تام ـ الموقع الاستراتيجي الذي تمتعت به ولاية حلب (والمدينة بشكل خاص) بالنسبة الى غيرها من الولايات العربية التابعة لها . ولقد حكم الوطن العربي حكام عرب حينا وحكام غير عرب حينا آخر . وكان هؤلاء الحكام جميعا مسلمين ، ويتسلطون على أبرز عواصم الوطن العربي من داخله . لكن الغريب في حكومة السلطنة العثمانية أنها أول حكومة ـ وآخر حكومة ـ حكمت الامة العربية من خارج حدودها . واستطاعت من بلاطها أن تهيمن عسكريا على هذه الولايات .

وقد كان نفوذ السلطة العثمانية متأرجحا بين الحكم المباشر والحكم الاسمي في الولايات العربية . وتعد ولايات الشام ـ ولا سيما ولاية حلب ـ أبرز الولايات التي خضعت للنفوذ العثماني المباشر ، لاسباب عديدة أهمها :

1 ـ قربها من سيطرة الباب العالي : وولاية حلب أقرب ولاية الى مركز السلطان العثماني ، والوحيدة ذات الحدود المتاخمة المتلاحمة معها ، وما زالت حتى اليوم .

2 ـ كون ولاية حلب أول ولاية يدخلها السلطان العثماني سليم الاول إثر معركة مرج دابق في 24 آب عام 1916 . ولا نعد دخوله الى العراق قبل سنتين من هذا التاريخ سوى تذليل للشاه عباس واحتلال لبعض مناطق نفوذه . ذلك أنه بعد أن جاس الديار الايرانية ودخل تبريز وشمالي العراق عاد الى بلاده من غير أن يعبر بغداد الى الولايات العربية الاخرى . وقد اتسم دخوله حلب بسمة الرغبة في الاستقرار وبسط النفوذ الدائم على أنقاض حكم المماليك في الشام ومصر .

وانتقل السلطان سليم من حلب الى حماة سلما ، وطاف بعض زوايا المتصوفة فيها ، ولا سيما التكية الكيلانية (1) ، ثم دخل بعدها دمشق . وبعد أن وطد حكمه في مصر عاد ليتوقف في حلب حينا من الزمان ، حيث نهب خيراتها وكنوزها (2) .

---

(1) معادن الذهب ، الورقة 19 .

(2) فقد غنم مثلا ملايين الدنانير المخبوءة في قلعة حلب ، وكانت من مخلفات المماليك

وبعد أن طاف هذه الولايات ، ودرس مواقع ما لم يصل اليها أدرك موقع حلب الاستراتيجي من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والمهم جدا بالنسبة الى سلطانه ، فأكد السيطرة عليها ، ولا سيما حين لاحظ امتداد رقعتها على مسافة طويلة من حدود بلاده الجنوبية ؛ فهي تمتد من الاسكندرونة غربا الى شواطىء نهر الفرات شرقا ، كما تمتد من الحدود العثمانية شمالا الى مسافة أربعين ميلا جنوبا . ومع أن سوء السياسة العثمانية اضطرهم فيما بعد الى تقليص مساحتها (عام 1752) اذ سحبوا منها بعض المناطق والسناجق مثل كلس وبيلان والاكراد ، حتى غدت مساحتها لا تبتعد كثيرا عن بليدة الباب شمالا والصحراء شرقا وانطاكية غربا ، فانها ظلت بالنسبة اليهم الولاية المهمة واللقمة الدسمة وكذلك بالنسبة الى الباشاوات الذين كانوا يعينون فيها .

وقد قسم العثمانيون الشام الى ثلاث باشويات كبيرة هي : باشوية حلب ، وباشوية الشام ، وباشوية طرابلس . وزاد العثمانيون بعد قرن ونصف ولاية صيدا فولاية فلسطين وعكا . وإثر تدهور الاوضاع الادارية وتردي السياسة العثمانية قلصوا ولايات الشام الى باشويتين كبيرتين هما حلب والشام . وأضافوا عليهما ولاية ثالثة هي باشوية بيروت . واستمروا على تقسيمهم الاداري هذا حتى قيام الحرب العالمية وجلائهم عن البلاد (3) .

ومما لا شك فيه أن ولاية حلب كانت أهم الولايات التابعة للعثمانيين ، ويكاد السلطان يشرف عليها مباشرة ، بتعيينه أبرز الوزراء عليها ، ويتقبل شكاوى الناس بنفسه أحيانا ، ويتدخل في تعيين قضاتها ومحصليها وغيرهم من صغار الموظفين .

والحق أن حلب لم تكسب شهرتها الكبيرة بسبب النفوذ العثماني والاهتمام بها وحسب ، لان شهرتها عريقة في القدم كما هو معلوم ، وكما يتضح بعد . ذلك أن العثمانيين لم يبدلوا كثيرا من نظمهم الادارية التي كانت في عهد المماليك ، ولا يعدو ما فعلوه أكثر من تبديلهم لبعض التسميات الادارية . فهم حولوا « النيابة » وحاكمها « النائب » الى « ولاية » وحاكمها « الوالي » أو «الباشا» . ثم طوروا مفهومهم للولاية فجعلوه «متصرفية» وصاحبها « متصرف » ليمنحوه بعض الحرية والتصرف في القضايا . وقد كان لقب الوالي « باشا » وهو برتبة وزير .

ثم قسموا كل ولاية الى «سناجق» ، وصاحب السنجق هو «السنجقدار» . وقد اشتملت حلب على تسعة سناجق . وظل منصب الوالي أعلى المناصب في الولاية ، ويتلوه القاضي ، وبعدهالمحصل (جابي الضرائب) . وكانت مساحة

(3) H. Lammans. La Syiie Précis Historique, Vol 2. PP 191-92.

ولاية حلب هى هى تقريبا فى زمان المماليك ، وكان آخر نائب لها حين دخلها العثمانيون «خاير بيك» .

لكن الوضع الادارى كان يزداد يوما بعد يوم ، لبعد الولايات عن مركز السلطنة ، ولتردى وضع السياسة العليا ، ولفشو الرشى ، ولا نستثنى ولاية حلب (المدللة) من هذه الاعراض المتردية ؛ فقد عم شراء المناصب واسترداد أثمانها من الشعب ، وتبديل الباشاوات بسرعة خاطفة كيلا تترسخ أقدامهم فى البلاد فيطمعون فى الاستقلال ، وحتى يتسنى للباب العالى أن يبيع المنصب لباشا آخر ، مما جعل الباشا الجديد لا يفكر الا بامتصاص الاموال من الشعب لاسترجاع ما دفعه ، ولسد جشع الوزراء وأصحاب النفوذ فى الباب العالى . فقد مر ما لا يقل عن مئة وثلاثين واليا على الشام فى غضون مئة وثمانين سنة ، كما تعاقب على ولاية حلب تسعة باشاوات فى ثلاث سنوات .

وكم كان باشوات حلب (وغيرهم كذلك) يحتربون على السلطة فيما بينهم داخل المدينة وخارجها ؛ بين الباشا القديم والباشا الجديد ، طمعا فى الكسب المالى (4) . وكانت حلب أولى بهذا التردى من غيرها ، لانها كانت ذات وضع مالى متميز . فقد ظل الباشاوات يمتصون خيراتها حتى كاد معينها يجف ، وحتى اندثرت معالم مئات القرى ، وتحولت أراضيها الخصبة الى قاع صفصف ، ودخلت فى عداد البادية والصحراء .

3 ـ وهكذا يمكن اعتبار ولاية حلب أول ولاية اعتمدوا عليها فى كثير من أمورهم ، وأكبر ولاية أولوها اهتمامهم ، وتفاعلوا معها ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا ، كما سنرى .

4 ـ كما امتازت ولاية حلب بأنها كانت فى العهد العثمانى محطة كبيرة لعسكرة الجيوش العثمانية البرية ، مما عمل على انغماس الروابط الاجتماعية بين الطرفين ، ولا سيما مناطق الريف الواسعة . أما المدينة نفسها فكانت محطة أساسية للباشاوات الذاهبين الى مراكز ولاياتهم ، أو العائدين من مهماتهم برا ، ولكبار الاسر العثمانية العريقة التى تنشد الاقامة فى أقرب بلد عربى ، ولطلاب العلم من الفتيان العثمانيين الذين يطمحون الى تعلم العربية أو التتلمذ على الزهاد وشيوخ الطرق والمتصوفة ، ومحطة للوفود القادمة شرقا أو جنوبا لتلقى الباب العالى (5) .

مجتمع حلب والتفاعل مع العثمانيين :

أشارت كتب التاريخ الى أن الحكم العثمانى على الولايات العربية كان حكما عسكريا ، تبعا لسياستهم التقليدية . وهذا يعنى أن الدماء كانت قلما تمتزج

(4) وانظر معادن الذهب في ترجمة الوالي ابراهيم باشا ، ورقة 11 .

(5) زار الشاعر العالم بهاء الدين العاملي حلب ، حاملا رسالة من شاه ايران الى الباب العالي .

بين العثمانيين والعرب ، وأن التركيب العنصرى نادرا ما يختلط . ويمكننا أن نستثنى من هذا الحكم ولاية حلب بخاصة ؛ فهى أكثر ولاية اعتراها الامتزاج الدموى بين الفريقين ، وما زالت آثار هذا الامتزاج بادية حتى اليوم .. ولا نغالى اذا قلنا ان هذا الامتزاج قد تستمر آثاره حينا آخر من الزمان .

ولما كان الاحتكاك المباشر يؤثر فى طبقات أمة الحاكم تأثيره فى طبقات الامة المحكومة فان ملامح هذا الاحتكاك غدت واضحة بشكل ملموس فى دماء المجتمعين وفى عاداتهم وفى ملابسهم وموسيقاهم ومنازلهم وأسمائهم وكناهم وحرفهم . والاحتكاك المباشر الذى نعنيه انما يتمثل فى تأثير المجتمع الحلبى فى المجتمع العثمانى ، وفى تأثير المجتمع العثمانى فى المجتمع الحلبى ·

صحيح ان الباشاوات كانوا يأتون الى الحكم ، وقليل منهم الذين يطول حكمهم أو يستقرون فى الاراضى العربية ، لان نهاية أكثرهم القتل أو النقل أو النفى أو الاستدعاء الى الاستانة · لكن الامر يختلف قليلا مع باشاوات حلب ؛ اذ لما كانت المدينة قريبة جدا من الاراضى العثمانية فان ذوى الباشا والمقربين كانوا يأتون الى حلب ، ويستقرون فى أحياء خاصة بهم فى البدء ، ثم ما يلبثون يندمجون كليا مع السكان الاصليين . وما زالت بعض أحياء حلب تحمل أسماء بعض الاسر والشخصيات النازحة ، كما سيأتى .

ولقد اختار كثير من الجنود الانكشاريين مدينة حلب مقرا دائما لهم ، فزاد ذلك من تمازج الشعبين وتفاعل دمائهما ، غير ناسين أن الانكشاريين أجانب الدماء ، عثمانيو العادات والمعتقدات · فقد استولى الانكشاريون فى حلب على معظم الحرف ولا سيما القصابة (بيع اللحوم) · وكانوا يفرضون نوعا من الطعام على الزبائن بحسب نوعية اللحوم المتوفرة لديهم ، وليس على حسب رغبة الزبائن ، حتى ذهب مثلا قول أهل حلب : « الارادة لرحمون آغا » يعنى أن رب العائلة لا يستطيع تحديد نوع الطبيخ الذى سيشتريه لمنزله قبل أن يسأل رحمون آغا (أو أى انكشارى) ماذا يريد اطعامهم هذا اليوم ؟

هذا نموذج من تسلط الانكشاريين على حلب ، أما الفتن التى كانت تجرى فى البلدة فأغلبها بسببهم . وكان ولاة حلب يعجزون عن اخضاعهم وردعهم . ولا شك أن نفوذهم وغناهم قادهم الى التزاوج بالاسر الحلبية المسلمة حين سمح لهم بالزواج والاستقرار خارج الثكنات .

ومع أن الانكشارية حوربوا فى عهد السلطان محمود عام 1826 فان فلولهم ظلت فى ولايات الشام وعاثت فسادا حقبة طويلة لانشغال السلطنة والباب العالى بالاوضاع الداخلية . ثم ما لبثوا أن استقروا فى الشام بعيدا عن سطوة السلطان ، ليذوبوا بين المجتمع الشامى والحلبى .

وعلى النقيض من الفئات الانكشارية نجد خصومهم من فرق السباهية (ويدعون طبقة المتسلحين فى الريف) ، وهم الذين كانوا يستولون على

المناطق الزراعية أو يقطعون بعضها ، ويسمى الواحد منهم تيمارا ، والاكبر منه يسمى «زعامة» وصاحبه يدعى «الزعيم» . وما زالت أسر كبيرة (كانت اقطاعية يوما) في حلب وحماة تحمل هذا الاسم ، كما يحمل بعضهم لقب « السباهي » المعروف بحلب اليوم . وقد ذكر العرضي (في مواضع متفرقة) حروبا كثيرة جرت بين انكشارية حلب وانكشارية الشام من جهة ، وانكشارية حلب وسباهية الضواحي من جهة أخرى . ولا شك أن هذه الحروب أثرت كثيرا في مجتمع حلب واقتصاده . وكان أغنياء الريف المسلمين في الولاية يتسابقون الى تزويج بناتهم من ضباط السباهية ليأمنوا شرهم ، فنجم عن ذلك جيل كبير مطعم من أشهر أسرهم آل الحراكي في حماة .

ونتج عن هذا التفاعل الاجتماعي بين الفئتين أن تأصلت العلاقات وتوطدت العادات بين العثمانيين والمجتمع الحلبي بشكل بين ، وبخاصة في :

1 ــ بناء الاسرة : ذلك أن بناء الاسرة العثمانية شديد التأثر ببناء الاسرة الحلبية المسلمة . فنادرا ما نجد أسرة حلبية ليس لها جذور عثمانية ، وكثيرا ما نلقى أسرا نصفها يحيا في حلب ونصفها الآخر في تركية . وأهل حلب شديدو المباهاة بجدودهم العثمانيين . وما زالت بعض الاسر اليوم تحتفظ بهذه الذكريات ، وتعتز بهذه الممتلكات . وكثيرا ما نرى اليوم صورا تزين جدران المنازل العريقة تمثل الجد العثماني وهو بزيه التركي المعروف أو بقطع من الاسلحة القديمة . كما نجد أسرا تركية تقيم في بعض الاحياء الجانبية ، محافظة على تركيتها وجنسيتها .

وحتى اليوم المشكلة الوقفية معلقة بين الحكومتين ؛ بين أملاك الاتراك في حلب وأملاك الحلبيين في تركية ؛ والتي يرجع تاريخ بعضها الى أكثر من مئة وخمسين سنة . واذا كنا ذكرنا أن بعض الاسر الحلبية كانت تتسابق الى تزويج بناتها بالعثمانيين ، وأن بعضهم يتزوج منهن قسرا فان بعض الاسر العريقة كانت ترفض هذا الزواج بدافع الترفع كآل الجابري ، أو بدافع العداء لمذهبي كالاسر الشيعية ، أو من لهم أصول نسب ببعض الايرانيين كآل الكواكبي الذين ينتمون الى جد الاسرة الصفوية المالكة آنئذ ، وهو الشيخ الصوفي صفي الدين الاردبيلي .

2 ــ العلم والدين : لقد كان للعلم والدين دور كبير في اندماج المجتمعين، ذلك أن رابط الاسرة الاجتماعي الذي ذكرناه فوق عمل على التوافق الديني والمذهبي على توثيقه وتناسي قضية الحاكم والمحكوم في بعض الاحيان.

ويحسن أن نشير أولا الى المذهب السائد . فقد كان العثمانيون متعصبين لسنيتهم ، وجعلوا مذهبهم الرسمي هو المذهب الحنفي ، وهو السائد في سورية بعامة وفي حلب بخاصة . وقد وضع ابراهيم بن محمد الحلبي (ت 956) أحد فقهاء حلب كتابا في الفقه الحنفي أسماه « ملتقى الأبحر »

سنة 923 . فغدا المرجع الاساسى للتشريع فى الامبراطورية ، وعمت شهرته الآفـاق (6) .

كما كان الباشاوات يهتمون كثيرا برجال الدين فى حلب (وفى غيرها) ويبنون لهم الزوايا والتكايا والمساجد ، ويوقفون لها أوقافا غنية ، ويوصون بأن يدفنوا فيها الى جانب شيوخ طريقتهم . وما زالت قبور بعض الباشاوات قائمة فى تكية الشيخ أبى بكر . ثم هناك مسجد الملاخانه ، ومسجد الشيـخ زكى ، والعثمانية • ويعد مسجد العثمانية من أبرز مساجد حلب وأغناها •

ومن الجدير بالذكر أن العلماء داخل البلاد العثمانية لم يكونوا فى البـدء عثمانيين ، بل كانوا يفدون عليها من الولايات العربية والاسلامية . وارتفـع مقام هذه الفئة كثيرا فى الدولة ، ومنحوا ألقابا لم تكن معروفة قبلا أو لم تكن ذات حظوة لدى الدولة مثل : رئيس القضاة ، قاضى عسكر ، قاضى روم ايلى ، المفتى ، شيخ الاسلام ، نقيب الاشراف ، المدرس . ومع أن الدولة العثمـانية عسكرية ــ كما أسلفنا ــ فانها كانت متمسكة بالدين ، فكانت تـرحب بهـذه الفئة ، وتستقدمها وتعطف عليها . وقد استقر عدد كبير من هؤلاء العلماء فى الاراضى العثمانية وانصهروا فى المجتمع . ونظرة عجلى فى مؤلفـات الاعـلام والتراجم المعاصرة للعثمانيين أمثال : الشقائق العثمانية ، سلك الـدرر ، معادن الذهب ، خلاصة الاثر ، نهر الذهب ، اعلام النبلاء ، الكواكب السائرة تثبت استقرار عدد كبير من علماء حلب فى الاراضى العثمانية واستقرار عدد من العلماء العثمانيين فى حلب (وغير حلب طبعا) . ومن العلمـاء الحلبيـة الذين آثروا البقاء فى الديار العثمانية : نعيم الحلبى ، ابراهيم الحلبى ، محمد ابن القاسم الحلبى ، يوسف بن عمران الحلبى ، أبو الهدى الصيادى الذى كان أشهر علماء عصره ، ونقيبا للاشراف وشيخ الشيوخ فى عهـد السلطـان عبد الحميد •

ولعل أبرز من كان يرحل ليستقر علماء الطرق الكبيرة كالمولوية والشاذلية والنقشبندية والرفاعية ٠٠ وقد كان العالم منهم ينقل أسرته معه الى مقر عمله ومدرسته ، لان أكثر هذه المناصب وراثى ، وهذا يعنى الاقامة الدائمة .

ولا بد من الاشارة الى أن العثمانيين كانوا متمسكين بسنيتهم (وحنفيتهم بخاصة) معادين لاصحاب المذاهب الاخرى . ولم ينس التاريخ أن يشير الى أن السلطان سليم قتل قرابة أربعين ألف شيعى حين أراد محـاربـة الشـاه الصفوى ، تحسبا من مباغتتهم من الخلف وهو منشغل بحربه هذه . وهذا ما اضطر أسرا كثيرة فى ولاية حلب (وغيرها) الى الرحيـل والاعتصـام فى الجبال أو فى القرى النائية ، وما زالت قرى شيعية كثيرة فى حلب منطوية

(6) شرحه كثير من العلمـاء ، وطبع الكتاب الأول مرة سنة 1309 ــ 1896 .

على نفسها من جراء عداء العثمانيين لهم ، وهى التى يدعوها أهل حلب قرى الرفاض أو قرى المتاولة ، مثل نبل ودير الجميل ٠

وهذا ما دعا الانكشاريين الى اعلان العداء على السادة الاشراف (أصحاب العمائم الخضراء) فى ولاية حلب . وتعد معركة جامع الاطروش أبشع تلك المعارك ، حيث قتلوا كل من لجأ الى هذا الجامع من السادة الاشراف بعد أن وعدوهم بالامان .

والامر نفسه (وهو ما ذكره العرضى فى معادن الذهب) جرى للدروز . فالمعروف أن للدروز تمركزا كبيرا فى ولاية حلب ، الا أنهم اضطروا فى النهاية الى الانسحاب من حلب الى الجنوب ، والى لبنان ٠ وما زال قصر الامير جانبولاد قائما فى حى البندرة ، وقد تحول اليوم الى مدرسة تدعى مدرسة العفاف ٠ كما مازالت حول حلب قريتان درزيتان ٠

3 ـ اللغة : صحيح أن كرسى الحاكم الجائر وفرض الضرائب الفادحة يحدث فارقا كبيرا فى اندماج لغة الحاكم بالمحكوم فى الولايات بعامة ، فان ذلك لم يمنع الاسرة الحلبية من اتقان اللغة العثمانية . وما زلنا نصر على أن حلب كانت أكثر الولايات التابعة للحكومة العثمانية اتقانا للغة التركية . وما زالت مئات الاسر تتبادل أحاديثها فى منازلها باللغة التركية ، ولا سيما أعجازهم . وتعتبر محطة الاذاعة والتلفزيون محطة رئيسية لدى بعض الاسر . واذا كان ثلث اللغة العثمانية عربيا فان عشرات الالفاظ العثمانية ما زالت سائدة فى عامية حلب ، من ذلك :

أ ـ فى الاحياء : ما زالت عشرات من الاحياء القديمة بحلب تحتفظ بأسمائها العثمانية . ونظرة فاحصة الى دوائر النفوس تدلنا على أن بعض الاسماء جاء إما من أعيان لامعين مثل : قاضى عسكر ، آغا جق ، هارون داده ، ألتون بغا ، أوغلى بيك ، جب قره مان ، قرقلار ، الشريعتلى ، مرعشلى ، صاجليخان ، إبشير باشا ، المامل ، باشا .. وإما باسم فئات عثمانية وأسر حطت رحالها مثل : أغيور ، قارلق ، تترلر ، أوغلى ، جقور جق .. وإما نسب الى حرف مشهورة ، مثل : أله جى ، ميدان جك ، كوجوك كلاسه ، بالى برغل ، جوقور قسطل ، هلك ، اصلاح خانه ..

ب ـ فى الادارة والمراتب : مثل باشا ، بيك ، أفندى ، سنجق ، جاويش ، قشله ، يسق ، يغما ، يبانجه ، كاغد ..

ج ـ فى المواضع : أوضه ، قبو ، خانه ، سلخانه ، جبخانه ، خستخانه ، أجزا خانه ، ملا خانه ، ليوان ، قناق ..

د ـ فى الكنى : سباهى ، باشا ، كيخيا ، الاجاتى ، سنجقدار ، بيرقدار ، خزنه دار ، صابونجى ، التونجى ، قندرجى ، كرسته جى ، أنجق ، آغا ، آشجى ، يازجى ، بربر ، بقجه جى ..

هـ ـ فى الاسماء : كلفدان ، نريمان ، مهتاب ، كلنار ، بيرم ، .. بل اننا نلفظ أسماء عربية بحسب النطق العثمانى فنقول : شـوكت ، عصمـت ، رفعت ، جودت .. بفتح التاء والوقوف عليها ، وصوابهـا العـربى بالتـاء المربـوطة .

و ـ وكما فعل المصريون بتقليد المماليك فى نطقهم الاعجمـى فقـد قلـد الحلبيون العثمانيين فى نطق بعض الالفاظ ، فقالوا للحوض (حاووظ) ، وللضابط (ظابط) ، وللضبط (ظبط) وللمرورة (ميرڤت) ..

ز ـ أسماء الاطعمة : اشتهر المطبخ التركى شهرة كبيـرة ، ونحسب أن شهرته جاءت من اندماجه بالمطبخ الحلبى و (الفارسى) . فاشترك المطبخان بأنواع واحدة من الاطعمة ، واحتفظ المطبخ الحلبى بأسماء أطعمة تركية كثيرة منها : ششبرك ، زرده ، شاورمه ، قاورمه ، قيمق ، كش مش ، دولمه ، يبرق ، يلانجى ، رشته ، أشه ، شيش كباب ، كزان كباب ، كفته ، بقلاوا ..

ولا بد من الاشارة هنا (وهو شديد الاهمية) الى أن عددا كبيرا من هذه الاسماء والالفاظ فارسى الاصل ، ودخل الى اللغة العثمانية بحكم الاقتباس الادبى والحاجة (ليس الحديث عنه مناسبا هنا) ، ومن العثمانيين دخلت الى سائر الولايات العربية • من ذلك : باشا ، بيك ، كفته ، كباب • وبعضهـا مركب من التركيةوالفار سية مثل : بيرقدار ، جوخه دار ، كلفدان . وبعضها مركب من التركية والعربية أو من العربية والفارسية ، مثـل : علمـدار ، خزنه دار •

4 ـ الالبسـة : امتازت حلب بتقليد العثمانيين فى أزيائهم . وانفـردت المرأة الحلبية وحدها بارتداء الحجاب الاسود المؤلف من ثلاث قطـع سـوداء (وتدعى الملحفة الخراطة) . صحيح أن هذا الحجاب وجد يوما فى عـدد من الولايات الاخرى ، الا أن هذا الحجاب لم يشع شيوعه فى حلـب . ومـا زال جمهور غفير من نساء حلب يرتدينه ، والى عهد غير بعيد كانت المرأة المسيحية (والارمنية) تتزيا به .

ومن أسماء ألبسة المرأة : يشمق ، باشايه ، الديوان ، قبقاب ، بابـوج ، خشر (وقصرت اليوم على الصاغة وبائعى الحلى) .

أما الرجل فقد ارتدى الشروال الاسود (بلون حجاب المرأة) وهو اللون السائد عند العثمانيين ، وفوقه الشال الكشميرى . كما ارتـدى الصايه ، الصرمايه ، الطربوش (7) ، القلبق .

---

(7) اول من ارتداه من السلاطين السلطان محمود . فدعي آنذاك بالرجل الكافر ، ثم عم في الولايات العربية والعثمانية وبعض الولايات الإسلامية ، مع اختلاف في هيئته وشرابته ولونه .

ومن الاسماء التابعة للالبسة والمنزل : كراويت ، سمندرة ، قطرميز ، ناموسية ، بابور ، طرمبة ، شيشه ، قمجه ، بقجه ..

5 ـ الموسيقى وأدوات التسلية : ان كثيرا من أدوات الموسيقى وقطعها ومقاماتها كالدوكاه ، والسي كاه ، والحجاز كار ، والبزق ، والباش بزق عثمانية ، أو فارسية منتقلة الى الفارسية . ومثل أدوات التسلية كالكنجفة ، والبرجيس ، وبعض الالفاظ في لعب النرد . ولن ننسى رقص الرجال الشعبي الايقاعي فهو تركي بحت . ويحتاج هذا الموضوع وحده الى بحث موسع يقوم به أحد السادة المختصين .

الافرنج والوضع الاقتصادي في حلب :

أجمع المؤرخون الغربيون والشرقيون على أن حلب كانت أكبر محطة تجارية تربط قارات آسية وأوربة وافريقية برا . فهي التي تستقبل القوافل التجارية القادمة من الهند ، وهي احدى أبرز محطات طريق الحرير القادم من الصين ، وهي السوق التجارية الكبرى بين أوروبة والشرق . ولهذا وصفها السائح الفرنسي « دي رازل ـ De Razel » حين زارها في منتصف القرن الثامن عشر بأنها «أكبر مدينة تجارية في جميع بلاد السلطان» .

فلا تذكر التجارة في العهد العثماني الا ولحلب دور كبير في ذلك ، فقد كانت حتى أواخر القرن السابع عشر (ق II هـ) صاحبة المركز التجاري الاول في الشرق الاوسط ويتلوها دمشق فطرابلس . وهذا ما دفع الحكومات الغربية الى كسب رضى الباب العالي للسماح لها بارسال البعوث التجارية والقناصل لحماية تجاراتها المنطلقة من حلب .

وقد اندفع اليها عدد كبير من السائحين والرحالة ، وكان منهم انكليز وفرنسيون وطليان ونمساويون ، وكتبوا عنها وأطنبوا في الثناء ، وأشادوا بمكانتها . وظلت تحظى باهتمام السائحين حتى شقت ترعة السويس ، فخبا ازدهارها عالميا ، وإن لم تتوقف تجاريا . لكنها سرعان ما استعادت نشاطها التجاري عام 1880 حين بنيت السكة الحديدية فيها ، حيث غدت همزة الوصل ثانية بين الشرق والغرب . وما زالت حلب أبرز مدينة تصل عددا من الدول العربية بتركية وأوروبة تجاريا . وسماها الرحالة الانكليزي موريسون ـ Morison حين مر بها عام 1617 : « مدينة حلب الشهيرة The Famous City of Aleppo » . كما خصها الشيفالييه دارفيو قنصل فرانسة فيها من 1679 ـ 1685 بمجلد كامل من مجلداته الستة التي جمع فيها مذكراته عن الشرق الاسلامي (8) . كما أشادت الموسوعة البريطانية في حديثها عن هذه المدينة التجارية وجعلتها المدينة الرئيسية في شمال سورية

(8) Memoirs du Chevalier d'Arvieux, Paris, 1735.

والسوق الاساسية للشرق الاوسط فى القرن السادس عشر • وترى الموسوعة أن ثروتها الاقتصادية استمرت حتى أواخر القرن الثامن عشر على الرغم من الحروب والصراعات مع ايران .

كما ورد ذكرها فى الآداب الغربية دليلا على شهرتها لديهم ، حتى قبل أن يفد عليها الغربيون بكثرة ، ولا سيما المسرحيات الانكليزية والايتالية . ففى مسرحية ماكبث ــ Mackbeth (الفصل الاول ، المشهد الثالث) يتحدث شيكسبير عن قرينة أحد الملاحين بأن زوجها رحل الى حلب ، فقال :

Her husband's to Aleppo gone

وفى مسرحية فولبونى Volpone يقول بن جونسون Ben Jonson (الفصل الخامس ، المشهد الرابع) :

To zant, or to Aleppo

ولم تدخل مدينة حلب مجالها العالمى الواسع الا لمكانتها التجارية منذ القدم ، وهذا ما دفع مئات من كبار البنادقة ، والتوسكانيين ، والهولانديين ، والفرنسيين ، والانكليز الى التوافد عليها والعيش فيها ، والاستغناء عن بلدانهم أحيانا فى سبيل الاقامة فيها • حتى ان الطاعون الذى اجتاح المدينة عام 1742 لم يعمل على هرب الاجانب لكثرة مصالحهم فيها . بل ان أطباءهم عالجوا السكان وخاطروا بحياتهم . وكان من أهم هؤلاء الاطباء الاخوان راسل (9) •

ولقد أسس الاوروبيون فيها مستعمرات كبيرة . ولعل البنادقة أول من نزل حلب من الافرنج التجار • فقد كانوا يرسلون قوافلهم الى الهند لتعود الى حلب حاملة التوابل ، حيث يضيفون على قوافلهم ما يشترونه من البضائع المحلية ، ليرسلوها الى المدن الايتالية . ولهم خانات يقيمون فيها ويستقبلون تجارتهم فيها ، وما زال « خان البنادقة » معروفا الى اليوم بهذا الاسم . ويذكر الرحالة الايتالى « تايكسير » أنه وجد أربع عشرة أسرة بندقية عدا القنصل ، وكانت أرباحهم التى يجنونها من التجارة كبيرة جدا . ويذكر المسيو بيلون أنه حين زار حلب عام 1548 وجد تجارا بنادقة فى حين أنه لم يجد تجارا فرنسيين • ومهم جدا أن نشير الى أن أغلب التجار البنادقة والتوسكانيين (10) كانوا يهودا ، وكان الحى المفضل الذى يفضلون الاقامة فيه هو حى اليهود ، والذى ما زال الى اليوم يعرف بحى بحسيتا .

ويأتى دور التجار الانكليز بعد البنادقة • وقد تأسست فى حلب « الوكالة التجارية الانكليزية ــ The English Factory » ، وكان مقرها خان الجمرك

(9) انظر مذكراتهما (ص 73) والتي طبعت مرتين في بريطانية ، ومرة في حلب تحت عنوان « الافرنج في حلب في القرن الثامن عشر » عام 1968 .

(10) Toscana : دوقية تابعة لايتالية الوسطى وعاصمتها فلورانسة .

المعروف اليوم ، وكان راسل يسميه فى مذكراته « الخان الكبير » . وكانت هذه الوكالة تتألف من قنصل ونائب للقنصل « كنشلور Chancellor » وعدد من التجار قد يربو عددهم على الستين تاجرا وقسيس وطبيب وحاجب يدعى الجاويش . وكان عدد منازل الانكليز عام 1753 ثمانية عدا بيت القنصل، ثم تناقص العدد . وذكر الرحالة الايتالى بـدرو تايكسيـرا ـ Pedro Teixera أن القنصل الانكليزى (وكذلك الفرنسى) كان تاجرا أيضا على الرغم من أن القانون الانكليزى والفرنسى يمنعان القناصل من تعاطى التجارة .

وفى عام 1543 عقد فرنسيس الاول مع السلطان سليمان معاهـدة صلـح نشطت فيها التجارة الفرنسية على أساسها . وازداد عدد التجار الفرنسيين بحلب شيئا فشيئا حتى زاد عددهم على عـدد التجـار الانكليـز ، وكانـت مستعمرتهم هى خان الحبال ، بالاضافة الى عدد كبير من المنازل . ومن الجاليات التجارية المهمة التى حطت فى حلب ونشطت جاليات هولاندية .

لم تكن حلب هدف التجار الافرنج وحسب ، فقد كان لزاما على الارساليات التبشيرية أن تتبع التجار . فقد وجد رجال الدين المسيحى طريـق هـؤلاء التجار منفذا تبشيريا مهما لهم بعد أن فشلت محاولات الحروب الصليبية . فقرروا غزو البلاد العربية سلما واقناعا عن طريـق نشـر المسيحيـة بين المسلمين . وكان الكاهن ريموند لال (ت 1315) قد سبق الآخرين فى تبنى الفكرة ، وكان أول أوروبى شدد على أهمية النضال السلمى الذى يعتمد على الاقناع بدلا من الابادة . واستمرت الارساليات تتوافد على حلب بعده ، ولا سيما حين وقع السلطان محمود معاهدة صلح مع لويس الخامس عشر تفتح فيها البلاد للحجاج النصارى ، وكانت وفودهم البرية كلها تمر عبر حلب .

كما كانت القوافل التجارية تشجـع طـلاب العلـم والرهبـان المبشـرين كالجزويت والكبوشيين والعازاريين بالتوجه معهم الى حلب . ولم يفق حلب فى استقطاب هذه الفئات الدينية سوى لبنان . فأسسوا فيها الاديرة والمدارس والمعاهد ، وما زالت بقاياها الى اليوم .

لكن هذه الجاليات الكبيرة بحاجة الى قناصل يشرفـون عليهـا ويحمـون تجارتها ويرعون مصالحها . وكان لكل قنصل عدد من الاعـوان والمـوظفين ، وكانت القنصلية الفرنسية أكبر هذه القنصليات ، ويمتاز قنصلها بمكـانة خاصة لدى الباب العالى . وكان السلطان يمنحه حق رعاية التجار الذين لم يكن لديهم قناصل فى حلب ، وله كذلك حق التقدم على سائر القنـاصل فى المناسبات الرسمية . وكان التجار يستظلون بحماية قنصلهم وكذلك الاديرة والتبشيريات كدير الأرض المقدسة الذى كان يقع فى خان القصبية ، وفيه أكبر كنيسة يؤمها الاجانب الكاثوليك ، ودير الآبـاء الكبوشيين ، والآبـاء اليسوعيين فى خان البنادقة ، ودير الكرمليين فى خان الجمرك (11) . وقد

(11) الإفرنج في حلب : 35 و 36 .

ازداد وضع الفرنسيين أهمية في بلاد الشام فتأسست قنصليات كبيرة أخرى في غير حلب كالاسكندرونة واللاذقية وطرابلس وصيدا وعكا .

وكان لكل قنصل عدد من الموظفين ، أهمهم : جراحون ، واحد منهم للجالية والباقون يعملون على تطبيب الشعب . ومترجمان يعرفان الايتالية (لغة التجارة) والتركية (لغة المخاطبات) ، ويقبضان مرتباتهما من الوكالات التجارية ، وقواسان (حاجبان) انكشاريان يلازمان دار القنصلية ، مهمتهما أن يمشيا أمام القنصل ، وبيد كل واحد منهما عصا كبيرة يقرعان بها الارض تنبيها للناس لكي يفسحوا له الطريق ، وعدد من التراجمة الفخريين والموظفين الاداريين من أجانب ومواطنين .

الافرنج ومجتمع حلب :

لقد اطلق سكان حلب لفظة «الافرنج» على الاجانب جميعا بلا استثناء ، وكان هؤلاء الفرنج يلتقون فيما بينهم ويتعاملون بكل صداقة ومودة ، ولم يبالوا بالعلاقات السياسية التي تربط دولهم بعضها ببعض . فقد كان هدفهم هو التجارة والكسب والعيش بسلام في هذه البلدة التي تعد بنظرهم أجمل المدن الاسلامية واشهرها بعد استانبول والقاهرة (كما قال أحد القناصل الفرنسيين عام 1683) .

كان زي القناصل رسميا معروفا ، أما باقي الافرنج فبعضهم كان يحافظ على لباسه التقليدي ، وبعضهم كان يرتدي الالبسة الشرقية حبا بتقليد الشعب ، وليس ضغطا من قبل الحكومة ، كما هو الحال في دمشق (12) ، حيث كان على كل افرنجي أن يرتدي اللباس الشرقي اذا أراد زيارة دمشق ، لقدسية دينية كان الباب العالي يوليها اياها ، ومن هنا انطلق اسم « شام شريف » على عاصمة ولاية الشام . حتى الذين يرتدون الالبسة الشرقية كانوا يحتفظون بقبعاتهم الخاصة وضفائرهم المستعارة علامة فارقة من السكان الاصليين . واستمروا على هذه الحال حتى 1770 حيث شرعوا يتزيون بالزي الغربي جميعا ، ولم يكن ذلك قسرا ، بل بحرية وميل .

ولقد كان الافرنج في حلب يتمتعون بحماية تامة من الحكومة المحلية ، ويتحلون بامتيازات كبيرة من الباب العالي بحكم معاهدات دولهم . وكان المسؤولون الافرنج والقناصل يزورون باشا حلب أو المحصل أو قائد الجيش، وكانت تجري لهم احتفالات عامة مهيبة في كل زيارة . وكانت هذه الحفاوات تؤثر كثيرا في نفوس العامة ، فاعتاد السكان ان يحترموا الافرنج ويكرموهم، ما لم يستفزهم أحد بسوء سلوكه أو استهانته ببعض عاداتهم ، فلا يسلم عندئذ من التقريع والاهانة ومناداته بقولهم الساخر : « فرنجي كوكو ، فرنجي

---

(12) الإفرنج في حلب : 29 .

كوكو » (13) . وكانوا يعاملون ــ بشكل عام ــ كما يعامل أصحاب الملل المسيحية . ومع ذلك فان الشعب كان يتنازل عن كثير من أعرافه مراعاة للافرنج . فالمعروف مثلا أنه لم يكن يسمح فى القرنين السادس عشر والسابع عشر لغير المسلمين بركوب الخيل ، ولكنهم كانوا يسمحون للافرنج بذلك . ويذكر السائح راولف الذى زار حلب عام 1573 أنه اضطر الى النزول عن جواده حين دنا من أبواب المدينة . كما يشير المسيو دارفيو (1679 ــ 1686) فى مذكراته الى استنكار الباشا (وليس الشعب) من ركوب الافرنج الخيل داخل البلدة ، ثم ما لبث الامر أن شاع بينهم .

وكان الافرنج يقيمون ولائمهم واحتفالاتهم فى خاناتهم أو فى حضن الطبيعة ، ويقيمون حفلاتهم التنكرية ويتجولون فى الشوارع ، ويركبون الخيل ويقنصون ويصطادون ، ويستأجرون البساتين فى الصيف (كالسكان الاصليين) ، وينزلون الى الحمامات العامة .

وقد تدفق التجار الاوروبيون ، وازداد عددهم كثيرا ، وكان لهم دور كبير فى استمرار احياء الطريق البرى الذى ينتهى دوما ويبدأ دوما بحلب . حتى الانكليز الذين يقصدون الهند كانوا ينزلون فى الاسكندرونة ثم يتابعون مسيرتهم برا عبر حلب . ولم يكتف التجار الافرنج باستيراد بضائع الهند ، بل كانوا يستوردون منتجات لبنان وفلسطين وغيرهما الى حلب بمساعدة تجارها ، ومن ثم ينقلونها الى بلادهم فى الغرب . ومع أننا لاحظنا أن قضايا التجارة كانت بيد الاجانب فان للتجار دورا حساسا ، فهم الذين يشاركونهم فى شراء السلع الداخلية ، ويتحكمون بالاسعار ، ويحتكرون البضائع ، ويتنقلون مع القوافل الى الهند أو الى ايتالية وفرانسة وانكلترة .

وقد استفادت ولاية حلب كثيرا فى العهد الحميدى حين أكمل السلطان عبد الحميد عام 1908 خط الحديد الحجازى بين استانبول والمدينة المنورة . وقد تنبه أعيان حلب المقربون من السلطة العثمانية الى أهمية هذا الخط أمثال أبى الهدى الصيادى ، فنشطوا حركته ، فاستعادت حلب نشاطها التجارى العالمى الذى كاد يخبو بعد فتح قناة السويس .

كنا ذكرنا أن احتكاك العثمانيين والانكشاريين والسباهيين الاجتماعى كان يجرى مع سكان حلب المسلمين . ولم يكن هؤلاء التجار الافرنج يحيون فى منأى عن الشعب ، بل كانوا يحتكون بهم تجاريا واجتماعيا ، ولا سيما المسيحيين . فقد كان بعض هؤلاء الافرنج ، والفرنسيون منهم بخاصة ، يتزوجون من النساء المسيحيات الحلبيات ، فنجم عن ذلك مزيج من الابناء الهجينين ، دعوا بالايتالية Mezza Razza أى نصف نسل . وقد أحدثت هذه الفئات فسادا كبيرا فى حلب وضجة مزعجة بين السكان ، مما اضطر

(13) الإفرنج في حلب : 67 .

لويس الخامس عشر الى اصدار أمر يمنع فيه زواج الفرنسيين بالحلبيات . ومن أقدم على الزواج منهم يرحل الى فرانسة فورا (14) .

كانت الخانات منازل التجار الافرنج الرئيسية . وكان لكل جالية خان تبنيه فى حلب لها ولاسرتها ولدوابها وبضائعها . وكانوا يبنونه بطابقين وساحة عريضة مكشوفة للنور والهواء ، مع أروقة تمتد على أطراف هذه الساحة . يستخدم الدور الاول للبضائع والدواب ، بينما يشمل الدور الثانى غرفا عديدة ومخادع يسكنون فى بعضها ، ويستريح الراحلون فى بعضها الآخر . وما زال عدد من هذه الخانات قائما فى حلب ، تجرى فيه الحركة التجارية . وكانوا يطبخون أطعمتهم فى خاناتهم ، وأكثر طباخيهم من الارمن .

لكن هذا لم يمنع الافرنج من العيش خارج الخانات ، أو من زيارة بعض التجار المحليين ، وتناول الاطعمة الحلبية المشهورة . ولا شك أن للمترجمين دورا فى هذه الزيارات ، كما أن بعض الافرنج كانوا يعرفون العربية وبعض التجار الحلبيين يعرفون الايتالية أو الفرنسية . فلقد كانت اللغة الايتالية شائعة بين الافرنج جميعا ، كما يجيدها بعض التجار الحلبيين لكونها لغة التجارة فى حلب . وهذا ما يفسر وجود كثير من الالفاظ الايتالية فى عامية حلب ، من ذلك :

أونه ، دوى ، ترى فى المزاد ، كمبياله ، بوليصة ، جيرو ، بروتستو ، كمبيو ، كوبيا ، دوبيا . وهى ألفاظ حسابية وتجارية ، تدل على نوعية العلاقات بين هذه المجتمعات . ومن الالفاظ الطريفة التى ما زالت متداولة قولهم « عوانة » أو « عوانية » من اللفظة الايتالية Avania وهى تهمة باطلة . وما زالت متداولة بين مهربى الحشيش والتبغ اذ يقولون : « راحت على فلان عوانة » . وأخذوا منها فعلا هو « تعاون » .

وكان بعض الافرنج يعرفون العربية لحاجتهم الماسة الى محادثة الشعب ، ولكن قليلا منهم الذين يعرفون الكتابة بها . وهذا ما عمل على نقل عشرات من الالفاظ العربية الى معاجم الغرب (15) . وهم كذلك اقتبسوا عددا من الالفاظ التركية واستخدموها فى حلب . فاذا شاهدوا طريدة فى مجال الصيد والقنص صاحوا « ياتو » من التركية « ياتمق » بمعنى النوم والاضطجاع . وكان بعض هذه الالفاظ التركية فارسى الاصل ، كقولهم « برابر » حين يقفون فى صيدهم مجموعة تلقاء مجموعة .

واضافة الى هذه الفئات الاجنبية كان هناك الارمن الذين لجؤوا الى حلب ولبنان بأعداد غفيرة اثر الحرب العالمية الاولى ، وانغمسوا فى مجتمع حلب ،

(14) الإفرنج في حلب : 35 .
(15) عبقرية العرب في لغتهم الجميلة : 49 — 68 ، تأليف صاحب البحث . طبع رومة . 1981 .

ورأوا فى هذه البلدة راحة وحفاوة لم يجدوهما فى بلادهم التى كانوا فيها ، وعوملوا معاملة المسيحيين . وما زالت حلب تحتضن أكبر نسبة من المهاجرين الارمن . كما توافد على ولاية حلب (وغير حلب) آلاف من الجراكسة اثر الحرب الروسية التركية الضارية عام 1877 ، وعوملوا معاملة المسلمين ، ولقوا ترحابا من السكان الاصليين .

وهكذا لاحظنا أن ولاية حلب استطاعت بحكم موقعها الاستراتيجى العام والتجارى الخاص أن تستقطب عددا من الملل والشعوب وغير المسلمة ، وتفاعلت معها اجتماعيا واقتصاديا . كسبت من ورائهما شهرة كبيرة ، وغنمت أموالا كثيرة ، وامتازت بهما من سائر الولايات العربية فى العصر العثمانى ، وانفردت عن غيرها بكثير من المواصفات . وما زالت حلب حتى اليوم موئل الاتراك وملتقى الامم حبا باسمها التاريخى العريق ورغبة فى موقعها الجغرافى والاقتصادى .

د. محمد التونجى
جامعة حلب ـ سوريا

مراجع أخرى

- إعلام النبلاء – راغب الطباخ .
- تاريخ سوريا الاقتصادي – الأمير علي الحسيني .
- تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين – فيليب حتى .
- نهر الذهب في تاريخ حلب – كامل الغزي .

— Lewis, B. Istanbul The Civilization of the Ottoman Empire.

— Russel, Natural History of Aleppo.

— Ency. Britannica.



الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل في العهد الجليلي 1726 ـ 1834

د. سيار الجميل
دائرة علم التاريخ ـ جامعة وهران

المقدمة :

يعتبر التاريخ العثماني في فصوله وحقوله وجوانبه من أغنى تواريخ البشرية في العصر الحديث .. وقد ارتبط به تاريخنا كعرب ارتباطا وثيقا على مدى زمني طويل يتجاوز أربعة قرون منه ، ولا يمكننا البتة من دراسة تاريخنا الحديث ، دون الالمام به ، ومعرفة جوانبه ، وفهم مزاياه على وجه من الدقة وروح العلم . وليست مهمة المؤرخ الجاد في دراسة تاريخ الولايات العربية في العهد العثماني يسيرة مهونة ، بل انها مهمة في غاية الصعوبة والتعقيد .. يقع المؤرخ فيها تحت وطأة زحمة الاختيارات والمواقف .. واعباء صعبة ، ومهام معقدة ، وجوانب متباينة ، ومصادر غريبة ومتنوعة ، ... عليه بالسيطرة عليها بكل أمانة ورصانة للخروج بدراسات وتجارب ، نحن في أمس الحاجة اليها في يومنا هذا .

ان تاريخ ولاياتنا العربية ابان الفترات العثمانية ، لم يقرأ أو يدرس على نحو علمي وأكاديمي .. موسع وموثق الا في جوانب محددة منه ، لا تفي ومتطلبات حياتنا المعاصرة ، وخصوصا ونحن نعلم بان تاريخنا العربي المعاصر في تكويناته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية .. انما يرتبط ارتباطا مباشرا ، وبصورة وثيقة وعضوية بتاريخ تلك الولايات العربية كأقاليم أو ادارات مرتبطة بحياة الامبراطورية العثمانية .

ان أبرز ما يميز تاريخ ولاياتنا العربية ـ العثمانية ، حيوية وقوة ونضوجا هي ـ عندي ـ فترة القرن الثامن عشر ، والنصف الاول من القرن التاسع عشر .. فقد تميز ذلك التاريخ ، بمفارقات غريبة ، وتطورات خطيرة ، ومميزات مؤثرة ، وحيوات بارزة ... كما انه غدا ذا طبيعة تاريخية ـ تراكمية غنية بالاحداث السياسية الجسام ، والشخوص التاريخية العظام ، وتنوع في العلاقات الاقتصادية ، وتبلور في الحركات السكانية ، وركام من الاحداث الاجتماعية .. وشعاع بعض المراكز أدبيا وثقافيا .. وموت للنظام القديم في انبعاث الاصلاحات والتجديدات . وكانت الولايات العربية المختلفة مسرحا واسعا وعريضا لذلك كله ، اذ انها عجت بمتغايراتها التاريخية ، وبدائلها الهامة وخصوصا بعد انحسار الدور السياسي للسلطة المركزية ـ العثمانية باعتمادها على الادارات والبيوت والسلالات المحلية على امتداد القرن الثامن عشر .

ولقد جاء اختياري في دراسة موضوع الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل العثمانية .. ضمن هذا الاطار الحيوي . والموصل هي من أمهات المدن التاريخية العربية العريقة ، وكان لها شأنها الواسع في العصر الوسيط كعاصمة لدول قوية وباهرة كالدولة الحمدانية والدولة العقيلية والدولة الاتابكية وغيرها ٠٠ وهي عاصمة لبلاد الجزيرة في جغرافية العصر الوسيط ، وغدت جزءا لا يتجزأ من كيان العراق الحديث بعد الفتح العثماني الاول للعراق على يد السلطان سليمان القانوني سنة 1534 م.

يعتبر موضوع «الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل في العهد الجليلي 1726 ــ 1834 م٠» من المواضيع الهامة التي تتصل اتصالا وثيقا بموضوع التاريخ العثماني العام ، باعتبار ان ولاية الموصل كانت من الولايات الاستراتيجية المهمة في حياة الامبراطورية ضمن حياة الصراع العثماني ــ الايراني ٠ وفي الوقت نفسه ، فان الموضوع المعني يتصل اتصالا مباشرا بتاريخ العراق الحديث ، باعتبار ان الموصل كانت ثاني ولاية عظمى من ولاياته الكبرى الى جانب بغداد والبصرة وشهرزور . وبين هذا وذاك ، فان الحياة الاجتماعية والاقتصادية للموصل في الفترة المذكورة ، تدخل في نطاق دراسات تاريخ العرب الحديث خلال القرون المتأخرة .. وعلى الاخص ، تاريخ العرب في القرن الثامن عشر . ولا سيما اذا عرفنا بأن ولاية الموصل كانت تابعة للامبراطورية العثمانية على مدى زمني طويل استغرق أكثر من أربعة قرون كاملة 1516 ــ 1918 م٠ ، فهي اذن ، أول اقليم عربي أو ولاية عربية تدخل المجال العثماني ، وهي نفسها آخر ولاية تخرج عنه ، وتخلق في تاريخنا العربي المعاصر مشكلة سياسية معقدة دعيت بـ (مشكلة الموصل) والتي انتهت سنة 1926 م.

لقد كتبت في موضوع تاريخ الموصل العثمانية ، العديد من الدراسات التاريخية والاكاديمية ، باقلام عراقية وعربية وأجنبية . وتطرق البعض من المؤرخين للموضوع من زوايا عامة أو جانبية في كتاباتهم التاريخية عن الموصل أو عن تاريخ العراق أو تاريخ العرب المعاصر . ولم يزل موضوع الحياة الاقتصادية والاجتماعية كغيره من تواريخ بقية الولايات العربية ــ العثمانية بحاجة الى العديد من الدراسات والابحاث والجهود العلمية لتوفير حقه من جوانب عديدة ، لم تزل حتى يومنا هذا : غامضة أو مجهولة أو دون معالجة حقيقية دقيقة ــ مع الاسف ــ .

لقد اعتمدت في كتابة هذا البحث على مصادر ومراجع متنوعة وفي لغات مختلفة . واستفدت كثيرا من وثائق عديدة منها : رسائل عمانوئيل سانت البرت / الارشيفات الوطنية ــ باريس . ورسائل المستر استانهوب اسبينول المحفوظة في دائرة التسجيلات العامة في وزارة الخارجية البريطانية . وتقارير الكولونيل تايلر المحفوظة في مكتبة المتحف البريطاني .. ثم الدفاتر العثمانية

التي تحتفظ بها اسطنبول ، ومنها ارشيفات (طـوب قبـو سـراى) . اما المخطوطات فقد اعتمدت على معلوماتها الحية بصورة كبيـرة ، وهي معلـومات موسعة واستخدمت الكتاب الثاني من مخطوطة (الدر المكنون فى المآثر الماضية من القرون) لصاحبها المؤرخ ياسين أفندى الخطيب العمرى ، والذى كتبه بعد كتابته للكتاب الاول الموسوم تحت نفس العنوان بثمـانى سنـوات . وقـد اكتشفت ان الثانى يحتوى على معلومات تاريخيـة ثـرة ، وهى مجهـولة لحـد اليوم ، اذ وجدت ان الكتاب الثانى لم يستخدمه أى مؤرخ حتى يومنا هـذا . وقد قمت بتحقيق الكتابين فى ابرازة واحدة سنة 1983 م. اضافة الى ذلك ، استخداماتى فى البحث الحالى لمخطوطات أخرى ، وتقارير ومذكرات رسمية .. ومراجع متنوعة . لقد تناول العديد من المؤرخين والباحثين الاكاديميين موضوع الموصل وحياتها العثمانية ، والذين اسهموا فى اغناء جوانب ذلـك .. وعلى الاخص : الجانب السياسى والادارى والثقافى ، ومن الذين استفدت من معلوماتهم وكتاباتهم : القس سليمان صائغ ، والمؤرخ الانكليزى ستيفن هيمسلى لونكريك، والمؤرخ صديق الدملوجى ، والدكتور صديق الجليلى ، والدكتور عبد العزيز سليمان نوار ، والمحققان : سعيد الديوهجى ، والدكتور سليم النعيمى . وبرزت خلال عقد السبعينات ثلاث دراسات أكاديمية رصينة لكل من المؤرخ الامريكى روبرت أولسن ، والمؤرخ العراقى عماد عبد السلام رؤوف ، وأيضا أطروحة برسى كيمب . ولا يفوتنى ان أذكر فى هذا المجال مذكرات دومينيكوا لنـزا المعربة عن الايطالية .. مع العديد من كتابات الرحالة الاجانب أمثال : ايفـز وجاكسون ونيبور ... وما تعرض له عشرات من المؤرخين الاجانب القدمـاء والمحدثين فى تآليفهم عن تاريخ العراق والامبراطورية العثمانية .. وجغرافية الشرق الادنى .

وأخيرا آمل ان يسد هذا البحث فراغا فى حياة دراساتنا التاريخية العربية المعاصرة .. ويقينى انه محاولة قد يكتنفها الخطأ ، وربما ستفيد المؤرخ الذى سيأتى من بعدى ليقدم ما هو أكثر استقصاء واستنتاجا ، والله ولى التوفيق .

1. مقدمة فى استراتيجية الموصل : المواصفات الجغرافية والسكانية

يمكننا أن نوضح بايجاز بعض الجوانب التى امتازت بها استراتيجية الموصل ، والآثار التى عكستها على انماط الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل خلال الفترة المعنية ، فى مركزها وتوابعها التى يجمعها الاقليم الممتد فى شمال العراق . وفى هذا السياق ، يمكننا فهم هذا الموضوع .. ثم فهمنا لمدى تأثير هذه الجوانب الجغرافية والطبوغرافية والسكانية على الدور السياسى والادارى الذى حكم انماط تلك الحياة .

تعتبر رقعة شمال العراق ذات استراتيجية قوية عبر التاريخ الطويل فى تحكمها بتجارة العالم ، من خلال قاعدة الموصل : النافذة التى كانت تصل الشرق بالغرب ، والتى تجتمع بها المسالك البرية الافقية التى تمتد بين الجبال الشرقية (= زاكروس) والبحر المتوسط . ثم المسالك النهرية العمودية التى تصل أناتوليا بالمحيط الهندى من خلال نهر دجلة ، وعبر خط : ديار بكر الموصل ـ بغداد ـ البصرة ـ الخليج العربى (1) .

لقد بقيت هذه النافذة مفتوحة منذ فجر التاريخ حتى فتح قناة السويس سنة 1869 م ، حين تحولت عنها القوافل التجارية ، وكاد ينعدم تحكمها بالمسالك البرية الافقية ، فتأخرت تجارتها ، وقلت مواردها .. فى حين ان سيطرتها على المسلك العمودى لم تزل قائمة حتى اليوم فى تخطيطه ووقفاته برا (2) . وقد انكفأ أثره ، وانعدم فعله نهرا .

ومن الاهمية بمكان ، ان نمهد فى قراءة طبيعة البنية الطبوغرافية والاثنوغرافية للمنطقة ، قبل تحليل الابعاد التاريخية ـ العثمانية التى توالدت من خلالها انماط الحياة الاقتصادية والاجتماعية للموصل : الولاية وأقاليمها التابعة لها خلال العهد الجليلى 1726 ـ 1834 م ، ونظرا لما لذلك من عوامل غير مباشرة اثرت فى البنية الحضرية والريفية لها ، وطبيعة الحكم المحلى الذى عرفته سواء الفترة التاريخية المذكورة ، وما سبقها على وجه التخصيص .

1 ـ تتصف المنطقة ، كونها من البقاع النهرية النادرة التى تجرى فيها ، انهار كبيرة وصغيرة ثابتة الجريان على امتداد السنة . وتتوزعها السهول

---

(1) For details ; see, Halil Inalcik in his artical, « The Ottoman Economic Mind and Aspect of the Ottoman Economy » : Journal titled. *Studies in the Economic History of the Middle East*, ed. by M.A. Cook, London, 1970, p. 213.

(2) S.H. Longrigg, *Four Centuries of Modern Iraq*, Oxford, 1925, p. 3 ; see also, Robert Olson, *The Seige of Mosul and Ottoman* — Persian Relations 1718-1743, India Univ., 1975, chap. titled, « The Strategic Importance of Mosul », pp. 11-12.

الخصبة ، أو الاراضى المتموجة والاحراش (3) • والمنطقة حلقة وصل طويلة بين برارى بادية الشام وجبال كردستان العالية . ولقد تميز موقع الموصل ـ المدينة ـ كونه غرب النهر ، وليس على شرقه . فاطلالته على هذا المائع المائى القاهر قد خدمها فى تاريخها الجغرافى والاقتصادى أفقيا .

2 ـ جمعت الموصل بين كلتا يديها استراتيجية كل من المسلكين البريين العراقيين العموديين اللذين يربطاها ببغداد وجنوب العراق عبر التاريخ وهما :

(1) المسلك البرى شرقى نهر دجلة ، الذى يسمى (طريق شهرزور القديم) (4) ، والذى يربط المراكز التالية : بغداد ـ خالص ـ توز ـ كركوك ـ اربيل ـ السلامية ـ نينوى ـ الموصل • يعد هذا الخط البرى من أهم المسالك . وكانت له أهميته الكبيرة عبر امتداد التاريخ الطويل للعراق ، وامتاز بحيويته من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية خلال القرون المتأخرة : السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر (5) .

(2) المسلك البرى غربى نهر دجلة ، الذى يربط بصورة مستقيمة المراكز التالية : بغداد ـ سامراء ـ قصر العاشق ـ تكريت ـ وهدة الحانوكة ـ الشرقاط ـ القيارة ـ حمام العليل ـ الموصل (6) . وقد ازدادت أهمية هذا المسلك خلال القرنين المتأخرين ، وخصوصا بعد بناء سكة حديد برلين ـ بغداد ، وبعد الاحتلال البريطانى للعراق بين 1914 ـ 1918 .

3 ـ سيطرة الموصل على الملاحة النهرية فى حوض نهر دجلة ، شمالا حتى نقطة ديار بكر ، وجنوبا حتى تكريت (أى حتى الحدود القديمة لولاية الموصل) (7) ، ثم نزولا الى بغداد . ويعتبر المسلك النهرى لنهر دجلة ، شريان العراق الازلى ، اذ كان له دوره العظيم من الناحية الاقتصادية ـ التجارية ، وفى خط مائى نازل أحادى الاتجاه من الموصل الى بغداد عبر العوامات (= الاكلاك) المتكاثرة التى تتقادم مع سرعة تيار النهر وحركته (8) . وفى هذا المجال ، استطيع ان اثبت بالاعتماد على رحلة الرحالة

---

(3) E. Monrœ, *The Middle East*, (Survey), London, 1954, p. 256 ; for details ; see, Col. Chesney, *The Expedition for the Survey Rivers Euphrates and Tigris*, vol. I, London, 1850, pp. 63-91.

(4) P. Kemp, *Mosul and Mosuli Historions of the Jalili era* 1726-1834, Ph.D. thesis, Oxford Bodilian Library, p. 56.

(5) See, Longrigg, *op. cit.*, p. 4 ; and R. Olson, *op. cit.*, p. 12.

(6) Walter B. Harris, *From Batum to Baghdad*, London, MDCCXCVI, p. 161.

(7) انظر : خريطة ولاية الموصل القديمة في الكتاب المتخصص ادناه :

D.E. Pitcher, *An Historical Geography of the Ottoman Empire from the earlies. times to the end of the sixteenth century*, Leiden — Brill, 1972, map No. XXXIIt'

(8) العوامات او الاكلاك هي السفن الصغيرة المصنوعة من الجلود المنفوخة . راجع اهميتها والمزيد من المعلومات عنها عند :

الانكليزى (جون اشر ـ John Ussher ـ) ، أهم نقاط ومراكز خط شريان نهر دجلة ابتداء من الموصل ونزولا حتى نقطة بغداد كالتالى : ... الموصل (المركز الاستراتيجى والاقتصادى المزود القوى) ـ حمام العليل (الينبوع المائى الكبريتى القديم) ـ النمرود (اطلال العاصمة الاشورية) ـ سكر اسماعيل ـ قلعة الشرقاط العربية ـ مصب نهر الزاب الادنى فى دجلة والمحفوف بغابة وعواسج كثيفة ـ تكريت (القلعة التاريخية القديمة) ـ قرية الدور على شرق النهر ـ مصر نهر النهروان بدجلة ـ اسكى بغداد (المنطقة القديمة) ـ اطلال قصر العاشق ـ سامراء (عاصمة المعتصم العباسية) ـ الكاظمية ـ بغداد (9) .

4 ـ تعتبر الموصل خزين اقتصاديات المنطقة الشمالية من العراق عموما ، فكثيرا ما كانت الظروف السيئة للمحاصيل الزراعية فى توابع الموصل ولواحقها .. تؤثر فى مركز المدينة ، وحركته التجارية ، وأحواله السكانية ، رغم علاقاته الاقتصادية المضطردة والمؤثرة على أطرافه من أقاليم الولاية فى امتدادات الجبال الكردستانية ، واقليم الجزيرة ٠ ومن أهم المميزات التى امتاز بها مركز الموصل ، انه غني بتوابعه من القرى والارياف والمستوطنات والضياع (10) . وعلى الاخص ، تلك المناطق السهلية التى تنحصر بين الجبال العالية والحوافى الغربية لنهر دجلة ، والتى تتوزعها السهول الخصيبة ، وأهمها : سهل اربيل وسهل الموصل . اضافة الى ان المنطقة المتموجة غنية برساتيقها ومراعيها (11) .

5 ـ تعتبر ولاية الموصل ذات كثافة سكانية فى مركزها وتوابعه من القرى والمدن الصغيرة والارياف والاديرة والحصون والنواحى والقصبات ... وتنتشر جميعها فى رقعة شرق نهر دجلة وحول المدينة ٠ ويكاد يكون التركز السكانى في رقعة شرق النهر هو أكبر لما هو عليه الحال فى الرقعة الغربية التى تمتد منها بادية الجزيرة بين النهرين : دجلة والفرات لتتصل ببادية الشام ، اذ تعتبر هذه الرقعة الغربية المترامية الاطراف ، ذات أفق مفتوح لا تتحدد بحدود ، ولا تتماشى بضوابط طبيعية مستقرة ، ما خلا منطقة جبل سنجار الذى لا يشكل مفصلا جغرافيا عموديا ، بل يتميز بالافقية كنتوء منفرد غير متسلسل . وهكذا ، فعدا هذه المنطقة ، ومنطقة المسلك التجارى القديم الرابط بين الموصل

C. Niebuhr, *Reisebeschreibung nach Arabian und andern Umliegende,* Landern), 1908, vol. 2, pp. 286-9 ; see also, *Journal of the American Oriental Society* (JAOS 2nd vol., New York & London, 1851, p. 113.

(9) John Ussher, *London to Pesopolis including Wanderings in Daghestan, Armen and Persia,* London, 1865, p. 193.

(10) راجع الفهرس الجامع لاسماء القرى والتوابع لمركز ولاية الموصل في كتاب المؤرخ ياسين الخطيب العمري :

(11) For details ; see, *JAOS,* 2nd vol., pp. 106-112.

وحلب عبر خط : تلعفر ـ سنجار ـ دير الزور ـ الرقة ـ حلب والبحر والمتوسط . فان المناطق الشاسعة من برارى الباديتين ، قلما عرفت الاستيطان السكانى المأهول لتلكم القبائل الرحل فى رحلات مكوكية محددة أو متفرقة بينها وبين برارى نجد ونجود الدهناء المفتوحة . فى حين كانت رقعة شمال ـ شرق نهر دجلة : مناطق ذات مراكز متوطنة ومأهولة بالسكان منذ آلاف السنين ، وقد اندثرت العديد من هذه المراكز خلال ظروف تاريخية عصيبة ومتغايرة (12) .

* * *

2. الموصل فى المجال العثمانى منذ سنة 1516 م. :

2/1. البدايات التاريخية : العوامل الاقتصادية

بعد معركة جالديران الشهيرة 22 آب (= أغسطس) 1514 = 1 رجب 920 هـ. التى انتصر فيها السلطان سليم الاول على الشاه اسماعيل الصفوى . غادر سليم تبريز العاصمة الصفوية شمالا ليفتتح ارمينيا وعاصمتها اريفان ، فسيطر بمعيتها على عدة قلاع استراتيجية (1) . ثم توجهت انظار السلطنة العثمانية نحو شمال العراق ، فحدثت مواجهات عديدة بعد حرب جالديران لافراغ منطقة شمال العراق من النفوذ الفارسى فكان ان ارسل السلطان سليم الاول جيشا دخل فى نزاع ضد الحاميات الفارسية استقطبته آخيرا معركة (كاركينديد) الفاصلة جنوبى ماردين ، فحسمت هذه المعركة جميع الاضطرابات والمواقف المتأرجحة بين الطرفين لصالح الاتراك الذين سقطت اثر المعركة المذكورة بأيديهم ، جميع المدن والمعاقل والمسالك التى تؤدى الى اطراف هامة فى تصريف اقتصادياتها وسيطرتها على تجارة العالم . وعلى جميع المناطق الجبلية ومنابع الانهار ، ومن تلك المدن الهامة : ماردين ـ ديار بكر ـ الموصل ـ حران ـ الرقة ـ ارغنى ـ نصيبين ـ اورفه ـ حصن سوران ـ كركوك ـ اربيل ـ ميافارقين ـ سنجار ـ وعموم ابن عمر ... الخ (2) .

---

(12) R. Olson, *op. cit.*, pp. 12-24 ; and see, É. Hersfeld, *Archeaologische Reise in Euphrat and Tigris Gebiet*, vol. II, Berlin, 1920, pp. 42-103.

---

(1) Von Hammer Purgstall, *Geschichte der Osmanischen Reiches*, Band 2, (1453-1520), Wien, 1828, p. 419.

وانظر التفاصيل بالتركية :

Yusuf Kenan, *Yavus Sultan Selim ve ittihad — islam siyaseti*, Istanbul, n. d., pp. 81-7, see also, *E.I.*, Ist ed., vol. IV, pp. 214-217.

(2) سعد الدين خوجه ، تاج التواريخ ، اسطنبول ، 1862 ص 321 . وانظر ايضا : د. سيار الجميل ، دراسة في السيطرة العثمانية على اقليم الجزيرة سنة 1516 ، مجلة (بين النهرين) العدد 31 ، سنة 1980 ، ص 327 .

اذا عدنا الى أسباب هذه الحركات التاريخية فى بداية القرن السادس عشر ، نجدها متمثلة بالتوجهات العثمانية الطموحة للسيطرة على اقليم الجزيرة فى شمال العراق ، فاذا استثنينا العوامل المذهبية فى انفجار الصراع العثمانى ـ الصفوى ـ كما هو معروف عند جميع الذين ارخوا فى اسبابه ـ . نجد ان تلك التوجهات العثمانية قد أثارت مطامح السلطنة فى استانبول الى مكانة اقليم الجزيرة الجغرافية ، والاستراتيجية التى تتمتع بها عاصمته (الموصل) .. اضافة الى مواقع منافذه الحية ، ومدنه التجارية (3).. فى فترة شهدت الامبراطورية العثمانية عدة تجديدات فى البيروقراطية والاعمال والحرف التقنية السائدة فيها آنذاك ، وتطورها بالشكل الذى جعلها تكثر من مطاليبها فى البحث عن مناطق نفوذ جديدة فى الشرق ، كما كان عليه الحال فى أوروبا الشرقية (4) وعليه ، فقد رصدت مواضع كل من الموصل وديار بكر وحدودهما ومسالكهما .. ثم امتدادات ذلك الخط العمودى الاستراتيجى الذى يرتبط بمسلك : الموصل ـ بغداد ـ البصرة .

اما النتائج التاريخية ، فقد افرزت الاحداث الموضحة اعلاه نتائج هامة بما يخص العراق ، اذ اثرت فى مسيرة احداثه اللاحقة ، وخصوصا عندما أصبحت الموصل ضمن المكتسبات العثمانية على عهد السلطان سليم الاول . وتعتبر أول مدينة عربية تدخل بمقاطعاتها جميعا الطوق العثمانى ، ولقد جاءت السيطرة المباشرة على شمال العراق ، فى خط يمتد محوره الجغرافى على النحو التالى : خوي ـ كركوك ـ اربيل ـ الموصل ـ سنجار .. اضافة الى ما يعلو هذا الامتداد ، أو يتدانى عنه . فلقد تداعت منطقة بادية الجزيرة على خط يمتد بين : سنجار ـ عنه ـ واطراف نهر الفرات وحوافيه الصاعدة حتى الرقة . اما ما يعلو المحور الاول ، فلقد كانت جبال كردستان المنيعة . وتعتبر المناطق النهرية ، ومناطق المحور الجغرافى الاول المستحوذ عليه من المناطق المكتسبة ـ حسب تقسيمات المؤرخ بيتجر ـ . اما المناطق الجبلية والموحشة من كردستان العراق ومنطقة البوادى المعشوشبة ، فتعتبران من المناطق التابعة (5) . لقد اكتسبت المناطق العراقية فى محورها الجغرافى الاول اثر الانتصار فى معركة كاركينديد مايس سنة 1516 م. وتبعتها المناطق الاخرى .

بعد ان استكملت ابعاد السيطرة على هذه المناطق وما يعلوها . أوعز السلطان سليم الاول بتشكيل الادارة الاهلية فى هذه الاقاليم ، التى تمتد من منابع نهر الزاب الأعلى حتى اطراف نهر الفرات . وقد جاء هذا التشكيل بعد

(3) A.H. Lybyer, « The Ottoman Turkes and the Routes of Oriental Trade » *English Historical Review*, London, 1915 ; see also, Halil Inalick, *op. cit.*, p. 213, and W.É.D. Allen, *Problems of Turkish power in the sixteenth century*, London, 1963, p. 12.

(4) د. سيار الجميل ، المرجع السابق ، ص 328 .

(5) D.É. Pitcher, *op. cit.*, p. 103.

رسم معاهدة بين السلطة العثمانية ورؤساء العشائر القبلية تحت اشراف مستشار السلطان سليم ، ذلك السياسى الكردى المحنك والمؤرخ الشيخ ادريس البدليسى الذى منحهم عن طريق تمثيله للسلطة العثمانية المركزية مواثيق سياسية للعمل من خلالها .. وقد نجحت خططه فى تثبيت دعائم الحكم الجديد (6) ، ولاول مرة فى تاريخ المنطقة الشمالية من العراق ، وما يعلوها ، والتى تتميز بتوظيفاتها وطاقاتها ضد الفرس . وتكمن تلك التوظيفات والطاقات فى استراتيجيتها الاقتصادية والجغرافية ، اذ تتمتع بمسالكها ومراكزها التجارية المتصلة بممرات جبلية ، وقنوات نهرية . كما انها غنية بمحاصيلها الزراعية ، وهى تمتاز بقواها البشرية التى تشكل وزنا كبيرا فى صنع الاحداث (7) . فلقد استطاع تمردها على الفرس ان يؤثر فى ميزان القوى كاملا لصالح العثمانيين أنفسهم . ولقد أثبت هؤلاء السكان ـ كما يذكر المؤرخ مريمان ـ بانهم اناس عمليون (8) ، وذلك مما يساعد على نمو وتقدم عجلة الحرف والصنائع والاعمال التقنية للدولة ، اضافة الى ضرائبهم التى يدفعونها الى العاصمة استانبول ، ومطاليب الدولة لهم فى أوقات الحرب (9).

2/2. الموصل : الولاية العثمانية

هكذا سيطر العثمانيون على الموصل سنة 1516 م. ، ولكن لم يطبق فيها النظام الاقطاعى العسكرى ، الا بعد فتح السلطان سليمان القانونى لبغداد سنة 1534 م. = 941 هـ. (10) ، حيث قسمت ولاية الموصل على عهده الى (زعامت وتيمار وخاص) بموجب النظام العثمانى (11) . وكما هو معروف ،

---

(6) Von Hammer Purgstall, *op. cit.*, Band 2, pp. 420-1.
وانظر للاستزادة : سعد الدين خوجه ، المصدر السابق ، جـ 2 ، ص 322 . د. سيار الجميل ، المرجع السابق ، ص 340 .

(7) Marsh, *The Tenessean in Persia and Kurdistan*, Philadelphia, 1869, p. 33.

(8) R.B. Merriman, *Suleiman The Magnificent* 1520-1566, Harvard, 1944, p. 24.

(9) Halil Inalcik, *The Ottoman Empire : Conquest, Organization and Economy* (*Collected Studies*), artical No. VII titled « Suleiman The Lawgiver and Ottoman Law », London, 1978, pp. 134-5 ; see also, Stanford Shaw, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*, vol. I, Cambridge, 1976, p. 95.

(10) Robert Mantran, « Baghdad a'epoque Ottoman », *ARABICA*, Special vol., 1963, p. 313.

(11) كان العثمانيون يقسمون اراضي الولاية الى ثلاث اقطاعيات حربية بحسب اهميتها وهي :
(1) خاص : (والجمع خاصلر او خواص) وعادة ما تكون من اقطاعات الولاة .
(2) زعامت : يطلق على كل اقطاع لا يقل دخله السنوى عن (99.999.20.000) اقجه .
(3) تيمار : هو الاقطاع الممنوح من قبل الدولة نظير خدمة حربية ، ويشترط ان يشترك الممنوح بنفسه في الحرب مع جنوده ، ويشارك بدخله ايضا (درلك) ، راجع : محمد ثريا ، سجلي عثماني ، استانبول ، 1808ـ1816 ، ص 161 .
see also, Halil Inalcik, *The Ottoman Empire...*, p. 134.

فان هذا النظام الجديد قد كفل للدولة الثمانية مصالحها الادارية والاقتصادية من خلال تواجد أرضية قوية تتحرك عليها بعلاقاتها المركزية مع أقاليمها فى الشرق .. وتشرف عليها أجهزة ترتبط بها ارتباطا فعالا فى سيطرتها على التيمارات ، كما وضعت بعض الاراضى والملكيات للاغراض الدينية كوقفيات معترف بها من قبل السلطة المركزية فى العاصمة اسطنبول (12) .

كانت حدود ولاية الموصل العثمانية مرسومة على النحو التالى : ولاية شهرزور شرقا ، وولاية ديار بكر شمالا ، وولاية الرقة غربا ، وولاية بغداد جنوبا . وقسمت ولاية الموصل الى عدة سناجق ، ويعود أمر التقسيم الى الشيخ ادريس البدليسى الذى أوجد هذا النظام قبل سليمان القانونى بزمن طويل ، اذ كان طبقه فى ديار بكر قبل سنة 1534 م. ، ثم طبقه بعد ذلك على الرها (= أورفه) والموصل (13) .

هناك اختلافات واضحة فى العديد من المصادر التاريخية فى اعداد واسماء سناجق ولاية الموصل . ففى قائمة الارشيفات التركية ، ظهرت الموصل كولاية مقسمة الى ستة سناجق هى : الموصل وباجواتلو واسكى موصل وهورن وكشاف وبانه (14) . هى القائمة التى كتبها عينى علي ، والتى أضاف (بانه) عليها علما بأن بانه تقع على الحدود الايرانية الفاصلة بين العراق وايران . أى ان ولاية الموصل تمتد الى منطقة الحدود . اما أولياء جلبى ، فيذكر بانها خمسة سناجق ، ويذكر (بانه) ولكنه ينسى ذكر (اسكي موصل) (15) . اما كاتب جلبى فيتفق مع عينى علي وأولياء جلبى ، ولكن يذكر بدلا عن (بانه) كلا من : قره داسنى وبوداسنى . اما قائمة فريدون بيك فى كتابه (منشآت السلاطين) فهى ناقصة عن ذكر ثلاثة سناجق كاملة اذ يقتصر على ذلك : اسكي موصل وكشاف وهورن فقط (16) . أما المؤرخ خير الله أفندى ، فهو يذكر ان لولاية الموصل ستة سناجق دون ان يذكر اسماءها (17) . وتطلعنا السجلات الرسمية ودفاتر الطابو والوقفيات الخاصة بالموصل ان ولاية الموصل تتألف من ستة سناجق هى : الموصل (18) ،

(12) انظر عن وقفيات ولاية الموصل : دفتر رقم (60) ، لوحة (9) ؛
Bas Viklat arsiv Dairesi, Ozel Sayi, p. 63.
وانظر : د. عماد رؤوف ، الموصل في العهد العثماني النجف 1975 .

(13) Von Hammer Purgstall, *op. cit.*, Band 4, p. 152.

(14) ارشيف طوب قبو سراى ، قانوننامه ، 1323 ، ورقة 11 .

(15) اوليا جلبي ، سياحتنامه سي ، جـ 1 ، اسطنبول 1857 ص 180 .

(16) فريدون بيك ، منشات السلاطين ، جـ 2 ، اسطنبول 1858 ص 407 .

(17) خير الله افندي ، دولت عثمانيه تاريخي ، 10 جلت ، اسطنبول 1271—1292 ، جـ 11 ، ص 213 .
وقارن : كاتب جلبي ، فذلكه تاريخ ، اسطنبول 1869 ، ص 56 .

(18) Bas Uekalet Arsivi, *Tapu Defteri*, No. 660, fol. 166.

اسكي موصل (19) ، تكريت (20) ، زاخو (21) ، عانه (22) ، كشاق (23) . وهذا هو التقسيم الاول للولاية القديمة ، اذ ان بعض هذه السناجق قد فصلت عنها ، وضمت الى غيرها مثل سنجق تكريت الذى أصبح ضمن ولاية بغداد ، وسنجق عانه الذى غدا جزءا من ولاية الرقه (24) .

3/2. الموصل فى القرن السابع عشر : العلاقات الاقتصادية

سيطر الفرس للمرة الثانية على العراق ، وبضمنه الموصل التى حاصروها فترة طويلة ، ولم تستسلم لهم الا بعد ان ارسل الشاه عباس جيشا تقدم فى حركته من ايران نفسها وفى خط مباشر الى الموصل ، تحت قيادة قاسم خان الذى شدد حصاره على الموصل ، ومارس حربا اقتصادية شعواء ، وضرب طوقا حديديا على موارد البلد واحتياجاته .. مما اضطر القيادة التركية للولاية ان تخضع أمام ذلك الحصار المهلك (25) ... فدخل الجيش الايرانى مركز المدينة ، وقتل المئات من أهلها ، واعدم واليها التركى ، ومارس شتى ضروب النهب للاموال وسلب المتاجر ، ثم منح قاسم خان الاماكن للسكان (26) ، بعد ان ترك له الشاه عباس حكم الموصل ، فاستقر فيها (27) . لقد استمر حكم السيطرة الفارسية الثانية على الموصل ثلاثة أعوام فقط ، حتى استردها العثمانيون سنة 1626 م. دون مقاومة تذكر ، وذلك من خلال تعاونهم مع سكانها .. فى حين استمر حكم السيطرة الفارسية الثانية على بغداد حتى سنة 1638 م. ، عندما تجرد السلطان العثمانى مراد الرابع الذى حكم للفترة 1623 - 1640 م. لفتحها الثانى ، بعد مروره بالموصل وتوقفه فيها (28) . وخلص بغداد قبل موته بسنة واحدة .. وبدت العلاقات السياسية بين العثمانيين والفرس أقرب الى الالتئام ، ولكنها جيرة دولية مشوبة بالحذر والدبلوماسية الباردة لمدة طويلة (29) . اما بالنسبة للعراق ، فلقد كان من نتائج الفتح العثمانى

---

(19) *Ibid.*, fol. 161.

(20) *Ibid.*, fol. 26[0].

(21) Bas Uekalet Arsivi, *Tapu Defteri*, No. 195, fol. 49.

(22) *Loc. cit.*,

(23) See f.n. No. 14.

(24) See the maps of Mosul in, Austen Henry Layard, *Nineveh and its Remains*, vol. I, ed. 1, London, 1849.

(25) Von Hammer Purgstall, *op. cit.*, Band 4, pp. 594-7.

(26) *ZUB.*, p. 65.

(27) *MAN.*, vol. 1, p. 13[3].

(28) *DUR.* I, p. 199.

(29) Longrigg, *op. cit.*, pp. 68-74 ; see also, Lorimar, *Gazetter of the Persian Gulf*, I (Historical Part), IB, Holand, 1970, pp. 1183-5.

له ، هو استقطاب الموصل للدور الاقتصادى ـ العسكرى باعتبارهـا مركـز اتصالات العراق بعاصمة الامبراطورية . ونظرا لمكانتها الراسية ، وعلاقاتها بأقاليم الاناضول والشام . وبرزت تلك العلاقات الاقتصادية الحية بصـورة قوية ومضطردة من خلال شريان العراق (دجلة) ومـواطنه السكـانية على امتداد رقعته الجغرافية . لقد ابرز القرن السابع عشر دور كل من الموصل وبغداد فى النواحى الادارية والعسكرية والاقتصادية ، اذ يسجل تاريخه ذلك الاطراد فى علاقات الولايتين ، رغم الآفات والكوارث الاقتصادية التى حاقت بشمال العراق خلال تلك الحقبة ، ثم نكبات الطاعون التى حلت بالموصل على امتداد القرن المذكور ، وخلال السنوات التالية : 1625 م. = 1035 هـ. (30) ، ثم عاد الطاعون غازيا سنة 1643 م. = 1053 هـ. (31) ، ثم فى سنة 1650 م. = 1061 هـ. (32) ، ثم اطبق وبصورة خطيرة سنة 1673 م. = 1084 هـ. (33) ، وحل أيضا وبصورة مفجعة سنة 1702 م. = 1117 هـ. (34) . ورغم كل هذا وذاك من عوامل الضعف والقهـر وآثـارهما فى حـركة التـاريخ السكـانى والاقتصادى لاى بلد ، الا ان المركز الاستراتيجى للموصل بقي ثـابتا ، بـل ولعبت قاعدته العسكرية ـ الاقتصادية دورا فعالا لحماية بغداد ضد ما يهددها من اخطار ايرانية مستفحلة .. بل وكانت خزينا احتياطيا للمواد الغذائية فى أوقات مختلفة لبغداد ، وعلى الاخص ، مطاليبها من الحبوب ، وذلك عبر الخط الملاحى لدجلة . اضافة الى كونها محطة الارساء العسكرى بين بغداد والدولة وبالعكس فى تموين العدة والعدد وخصوصا المارة بها الى بغداد (35) .. او ان يكون التموين من امكانيات ولاية الموصل المحلية ذاتها ، فى مشاركتها يضرب التحرشات الخارجية ، أو مساعدتها فى اطفاء الفتن الداخلية ، وما يحدث فى اطرافها من العصيان المسلح ، وقد تمثل كل ذلك فى السنوات التى مرت بها بغداد واطرافها من غزوات فارسية ، أو مشاكل ادارية ، او انقسامات داخلية ، خلال القرن السابع عشر ، على السنوات التالية : سنة 1638 م. = 1048 هـ. قدمت الموصل خدماتها فى استرجاع بغداد من ايدى الايـرانيين . وفى سنـة 1665 م. = 1076 هـ. جردت الموصل حملة كبيرة لمشاركة بغداد فى القضاء على عصيان حكومة افراسياب فى البصرة . ثم عززت امكانيات بغداد فى سنة 1667 م. = 1078 هـ. ثم ما قدمته من مساعدات اقتصادية سنة 1692 م. = 1104 هـ. ولقد شاركت قوات الموصل مع قوات اضافية من اطرافها ـ ديار بكر والعمادية ـ فى اخماد العصيان المسلح الذى نشب فى جنوبى العراق سنـة

(30) *MUN.*, p. 174.

(31) *Loc. cit.*

(32) *ZUB.*, p. 71.

(33) عباس العزاوى ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج 5 ، بغداد ، ص 107 .

(34) *DUR.* I, p. 825.

(35) Kemp, *op. cit.*, p. 56.

1701 م٠ = 1113 هـ٠ وانضمت قوات عديدة من ولاية الموصل فى الحملة المشتركة التى قادها والى بغداد لاسترجاع البصرة سنة 1707 م٠ = 1119 هـ. (36) .

★ ★ ★

3. طبيعة الادارة الاقليمية فى القرن الثامن عشر :

1/3. الادارات الاقليمية العربية فى القرن 18 :

كانت الدولة العثمانية قد وصلت الى أوج قوتها السياسية والاقتصادية فى النصف الاول من القرن السادس عشر . ولكن سرعان ما بدأت عوامل الانحلال تدب فى أوصالها ، وخصوصا فى الفترة الواقعة بين وفاة السلطان سليمان القانونى فى سنة 1566 م. ، وبداية عهد السلطان سليم الثالث فى سنة 1787 م. خلال هذه الفترة ، أصيب الجهاز العثمانى الحاكم : البلاط والمؤسسات السياسية بفساد كبير ، حيث حكم خلالها سبعة عشر سلطانا ، تميز ثلاثة منهم فقط بالكفاءة السياسية ، وهم : السلطان محمد الثالث 1591 ــ 1603 م٠ ، والسلطان مراد الرابع 1623 ــ1640 م. ، والسلطان مصطفى الثالث 1756 ــ 1773 م. اما الآخرون ، فقد حافظ بعضهم على أمور الدولة من الانهيار بواسطة وزرائهم ، وقاموا باصلاحات كى تعطى للدولة حيوية ونشاطا سياسيا أكبر (1) .. وفى حين كان النظام الانكشارى ، ذلك العمود الفقرى لكيان الدولة قد دخل هو الآخر فى نطاق التدهور ، اذ غدا آلة للفساد والفوضى والانتكاسات . وفى حين كانت أوربا قد بدأت فى بلورة كياناتها السياسية على أساس الدولة القومية المركزية ، نجد ان الدولة العثمانية قد سلكت مسلكا مغايرا ، نتيجة لضعف سلطتها المركزية على أقاليمها ، مما دعا الاخيرة لبناء كيانات محلية مرتبطة على نحو ادارى ــ سياسى شبه مركزى .. وذلك نتيجة للسياسة العثمانية التى دعت فى آن واحد الى نمو العصبيات الحاكمة فى طول الامبراطورية وعرضها ، بعد ان خرجت الامبراطورية العثمانية من القرن السابع عشر بازمات خطيرة ، ومشاكل حادة ومزمنة فى ميادينها المتعددة ٠ فما لبثت الاقاليم خلال القرن الثامن عشر ان خرجت عن نطاق الحكومة المركزية فى صنع القرار السياسى الداخلى ، والسيطرة على المؤسسات الاقتصادية بشكل مباشر .. ومن ثم

---

(36) For details ; see, Longrigg, *op. cit.*, pp. 71-127.

وانظر : د. عماد رؤوف ، المرجع السابق ، ص 33 ، ملاحظة رقم 1 . اما تفاصيل الفترة التاريخية فقد كتبها : الشيخ عبد الرحمن السويدي ، حديقة الزوراء في سيرة الوزراء : تاريخ بغداد ، تحقيق د. صفاء خلوصي، بغداد 1962 .

---

(1) L. Kinross, *The Ottoman Centuries : The Rise and Fall of the Turkish Empire*, London, 1977, pp. 161-1.

تبلورت البنى الاجتماعية فى الاقاليم والادارات المتعـددة من خـلال ذلـك الانحسار السياسى للسلطة المركزية فى الامبراطورية العثمانية .

أصيب نظام الحكم العثمانى فى المشرق العربى بالانهيار ، متمثلا باختلال التوازن السياسى والادارى الذى كانت تحكمه وتربط علاقـاته : قـوانين السلطان بين السلطة المركزية العثمانية من ناحية ، والذين ينفذونها بصورة مباشرة من ناحية أخرى ، ويمثل الاخيرة : الباشوات من الوزراء والولاة .. ثم أمراء الحاميات العثمانية وقوادها كالبيكلربيكات والبيكات والاغاوات.. الخ.

ونتيجة لما تقدم ، فقد اتضح ذلك التبلور الاقليمى الذى افرزه الانحسـار عن السلطة المركزية لتتمثله العصبيات والقوى المحلية فى الادارات الاقليمية، وخصوصا فى الولايات العربية متخذة من الحاميات العسكرية المتواجدة فى كل اقاليم أساسا فى العمل على زيادة نصيبها فى الادارة المحليـة . وكانت تلـك الادارات تعمل على تنفيذ الاوامر الصادرة اليها من الباب العـالى دون تـردد باعتباره الرأس الحقيقى الذى يمثل شرعيتها الادارية من خلال الولاء الدينى ، وعليه ، فلم تكن تلك الادارات ثابتة فى بقائها الا من خلال خدماتها الحربية للدولة ، ونفعها المادى للسلطة .. ومن هنا تحـافظ على ولائهـا السيـاسى المطلق .ويمكننا ان نضيف سببا آخر من أسباب هامة دفعت الى ولادة هذه الحالة خلال القرن الثامن عشر هو تردد الباب العالى فى انتهاج سياسة تقليدية فى تغيير الباشوات العثمانيين ، أو تثبيتهم عندما يظهروا قدرة كبيـرة فى اخضاع التمردات ، او الاشتراك فى صراعات الامبراطورية الكبرى مع الدول المعادية للعثمانيين .

ان أهم النتائج التى تمخضت عن مجمل الحالات المتشابهة فى ايالاتنا وولاياتنا وأقاليمنا العربية ، هى :

1 ـ ولادة أسر محلية داخل الولايات العربية ، استطاعت ان تبقى السلطة الادارية والمتصلة بجوانب أخرى سياسية كانت أم اقتصادية .. فى ايديهـا لفترات طويلة .

2 ـ ظهور بعض الزعمـاء المحليين الـذين استقطبـوا اهتمـام السلطـة المركزية ، فثبتوا مواقعهم السياسية والادارية والعسكرية من خلالها .

3 ـ حصول بعض الاسر أو الحكام المحليين على اعتراف رسمى بهم يبقيهم كسلالات حاكمة أو أنظمة حاكمة .. يلتزمون باداء خدماتهم للامبراطورية متى احتاجتهم فى مركزها ، أم على اطرافها البعيدة فى البر والبحر .

4 ـ ولادة طبقة جديدة من الاقطاعيين المحليين الذين افرزهم تاريخ القرن الثامن عشر ، بامتلاكهم للاقطاعات والاراضى الزراعية .. وسيطـرتهم عـلى الاقتصاديات المحلية ، مما نتج عن بروز حالات اقتصادية لم تكن معروفة فى السـابق .

ويمكننا أن نجمل على وجه التحديد والايجاز ابرز أنواع تلك الادارات العثمانية على امتداد الرقعة العربية المستقلة في نطاق المجال العثماني ، وتلك السلالات العربية الحاكمة المستقلة عنه ٠ وأيضا ، تلك الحركات الدينية ـ السياسية فيه ، والتي تعود جذورها الى القرن الثامن عشر .

لقد كان العالم العربي خلال القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر قد تميز بخارطة في كياناتها ومراكز قواها .. وتتوضح صورتها على النحو التالي :

1 ـ الاسر السلالية :

(1) اشراف مكة في الحجاز

(2) اسرة العظم في الشام

(3) الاسرة الجليلية في الموصل

(4) الزيدانيون في الجليل

(5) الحسينيون في تونس (= البايات)

2 ـ البيوتات الملوكية والحكومات العسكرية :

(1) البكوات المماليك في مصر

(2) الباشوات المماليك في بغداد

(3) عبد الله الجته جي في ديار بكر (= النمط العسكري)

(4) احمد باشا الجزار في صيدا والشام ثم عكا (= النمط العسكري)

(5) دايات الجزائر (النمط الجمهوري العسكري)

(6) اسرة محمد علي باشا في مصر

3 ـ بيوتات الاحزاب الاثنية :

(1) البابانيون في قره جولان

(2) الشهابيون في لبنان

(3) البهدانيون في العمادية

4 ـ بيوتات الحركات الدينية ـ الاصلاحية :

(1) الوهابيون + السعوديون في نجد (شبه الجزيرة العربية)

(2) السنوسيون في شمال افريقيا (ليبيا)

(3) المهديون في السودان (محمد احمد المهدي)

5 ـ السلالات العربية الحاكمة المستقلة :

(1) الاسرة العلوية الشريفة في المغرب

(2) الزيديون فى اليمن (= الفرع القاسمى)
(3) البو سعيد فى مسقط وزنجبار
(4) المشيخات العربية المتفرقة (= البحرين + قطر + عجمان + الكويت) .

2/3. ولادة الادارة الاقليمية ـ الجليلية :

خلال النصف الاول من القرن الثامن عشر ، ازدادت فاعلية الروابط السياسية للعراق قوة وحياة .. عندما بدأت ولايتا الموصل وبغداد تستقطبان نفوذهما العسكرى ـ الاقليمى على مسرح الرقعة العراقية ، معززتان روابطهما الاقتصادية (انظر : بند 2/3) .. تلك الروابط المتلاحقة التى تطورت خلال القرن السابع عشر . وكان البلاط العثمانى مجبرا لان يعترف بالجهات العسكرية المخلصة والنفقات المالية الواسعة التى كانت تبذلها القوى المحلية من الاسر الناشئة والتى توطنت فى هذه الاقاليم . فقد ترسخ حكم المماليك فى بغداد (2) ، والحكم الجليلى فى الموصل (3) ، وحكم آل العظم فى دمشق (4) ، والحكم القصير لعبد الله جته جى فى ديار بكر (5) .

مضى على حكم المماليك لبغداد اثنان وعشرون عاما ، عندما نصبت اسطنبول اسماعيل باشا بن عبد الجليل واليا على الموصل سنة 1726 م. = 1139 هـ. (6) ، وقد قضى فى منصبه هذا سنة واحدة ليخلفه ولده الحاج حسين باشا بعد ثلاث سنين من وفاته . اذ عين واليا على الموصل سنة 1730 م. = 1143 هـ. ويعتبر الحاج حسين ، هو المؤسس الحقيقى لسلالة حكم الولاة المحليين فى الموصل .. اضافة الى العديد من المناصب الادارية التى كلفوا بها فى ولايات اخرى بالمشرق العربى والاناضول (7) . على الرغم من ان الجليليين قد عاشوا فى الموصل منذ النصف الاول من القرن السابع عشر، ولكن أصولهم تعود الى كل من ديار بكر وحصن كيفا (8) . ويقول الجليليون ـ اليوم ـ بانهم اصلا من قبيلة تغلب ، احدى القبائل الشهيرة التى استوطنت

---

(2) Longrigg, *op. cit.*, chap. No. VI titled « Battles of Giants », pp. 123-162.

(3) R. Olson, *op. cit.*, pp. 168-9 ; see also, S.K. Al-Jamil, *A Critical Edition of al-Durr al-Maknun fi al-ma'athir al-Madiya min al-Qurun of Yasin al-'Umari*, Ph.D. thesis, St. Andrews Univ. Library, vol. I, pp. 132-3.

(4) Karl K. Barbir in his introduction of the book entitled : *Ottoman Rule in Damascus* 1708-1758, Princeton Univ., 1980, pp. 3-10.

(5) علي اميرى ، تذكرة شعراء آمد – بالتركية – ، مطبعة امدى ، 1327 ، عدد (4) ، ص 260ـ5

(6) *DUR. I*, p. 342.

(7) راجع ترجمته المطولة التي كتبها د. صديق الجليلي في ملحق رقم 1 من تحقيقه لديوان : حسن عبد الباقي الموصلي ، الموصل ، 1966 ، ص 103—120 .

(8) علي اميرى ، المصدر السابق ، ص 261 . ود. صديق الجليلي ، المرجع السابق ، ص 103 .

بلاد الجزيرة فى شمالى العراق . ومن خلال المركز القوى الذى تحصلوا عليه فى الموصل ، فقد استطاعوا تدريجيا ان يصلوا الى حكم الولاية ، وهو أعلى مركز سلطوى سام فى الموصل . لقد لعبت الاسرة الجليلية فى نشأتها السياسية الاولى دورا بارزا ومتميزا فى خدمة الدولة العثمانية ، وخصوصا كلا من الوزير الحاج حسين باشا وولده الوزير الغازى محمد أمين باشا .. وذلك من خلال مركزهم القوى بالموصل . واذا كان الحاج حسين باشا قد قدم خدماته الكبيرة للدولة فى صراعها مع الفرس على أرض العراق ، فان ولده الغازى محمد أمين باشا قد قدم خدماته للدولة من خلال صراعها مع روسيا القيصرية فى عهد كاثرين الثانية .

يعتبر الحصار العظيم الذى فرضه نادرشاه على الموصل سنة 1743 م. = 1156 هـ. مع جيوشه الغازية التى بلغ عددها (300.000) مقاتل ، وانتصار الموصل فى دفاعها الاهلى الشهير تحت قيادة الوزير الحاج حسين باشا الجليلي .. قد اكسب الاسرة الجليلية الحاكمة مكانة كبيرة لدى الباب العالى (9)، واعتبر هذا الحدث التاريخى العظيم سياسيا واقتصاديا واجتماعيا بداية حقيقية لفترة تاريخية تراكمية فى تاريخ الموصل والمشرق العربى (انظر : بند 3/3) .

اما طبيعة الادارة فى ولاية الموصل ، فانها كانت ترتبط بالسلطة المركزية العثمانية ارتباطا قويا فى بداية الحكم الجليلي .. ثم بدأت سلطة المماليك فى بغداد تؤثر فى ادارة الموصل ، وخصوصا بعد الانشقاق السياسى الذى حدث فى الاسرة الجليلية بعد وفاة الحاج حسين باشا ، وغياب الغازى محمد أمين باشا فى أيام اسره بروسيا . ورغم ان الجليليين كانوا بمثابة عيون السلطة المركزية على باشوات بغداد ، الا ان شرخ الانقسام السياسى المحلى بالموصل قد قسم كلا من الجيش والمجتمع فى الموصل الى قسمين .. وبقيت حلقة نزاع طويل الامد يثور ويخبو بين آونة وأخرى نتيجة لاسباب وعوامل عديدة (انظر : بند 2/2/4) .

اما الولاة الجليليون الذين حكموا الموصل فى فترات مختلفة ومتعاودة فهم (10) :

1	ـ اسماعيل باشا بن عبد الجليل	توفي سنة 1146 هـ.
2	ـ الحاج حسين باشا بن عبد الجليلي	1108 ـ 1171 هـ.

(9) عن وثائق استانهوب اسبينول في معلوماته الدبلوماسية عن موقف البلاط العثماني من حصار الموصل ، انظر :

State papers (97) Turkey ; letters from Mr. Stanhope Aspinwall to the Duke of Newcastle, vols. 24-32, Public Record Office in London.

(10) انظر قائمة ولاة الموصل التي حققها كاتب هذا البحث :

S.K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. I, App. No. 4, pp. 353-5.

3 ـ الغازي محمد أمين باشا بن الحاج حسين باشا الجليـلى 1132 ـ 1189 هـ.
4 ـ عبد الفتاح باشا بن اسماعيل باشا الجليلي 1132 ـ 1185 هـ.
5 ـ سليمان باشا بن محمد أمين باشا الجليلي 1152 ـ 1211 هـ.
6 ـ عبد الباقي باشا بن عبيد آغا الجليلي ؟
7 ـ محمد باشا بن محمد أمين باشا الجليلي 1170 ـ 1221 هـ.
8 ـ نعمان باشا بن سليمان باشا الجليلي 1174 ـ 1226 هـ.
9 ـ محمود باشا بن محمد باشا الجليلي 1192 ـ 1225 هـ.
10 ـ سعد الله باشا بن الحاج حسين باشا الجليلي 1167 ـ 1127 هـ.
11 ـ أحمد باشا بن سليمان باشا الجليلي 1197 ـ 1239 هـ.
12 ـ حسن باشا بن الحاج حسين باشا الجليلي 1172 ـ 1233 هـ.
13 ـ عبد الرحمن باشا بن محمود باشا الجليلي 1209 ـ 1244 هـ.
14 ـ عبد الرحمن باشا بن عبد الله بك بن مـراد باشا بن الحاج حسين باشا 1183 ـ 1237 هـ.
15 ـ محمد أمين بن عثمان بيك الجليلي 1213 ـ 1263 هـ.
16 ـ يحيى باشا بن نعمان باشا الجليلي 1200 ـ 1284 هـ.

3/3 · حصار نادر شاه للموصل سنة 1743 م· : الحرب الاقتصادية ونتائجها

يعتبر حصار نادر شاه الرهيب للموصل سنة 1743 م· = 1156 هـ· ، من أهم وأبرز الاحداث التاريخية المريرة في حياة عراق العصر الحديث ، كما وتعد وقائعه ونتائجه ، ذات دلالات بارزة على حد سواء في مجريات تاريخ الامبراطورية العثمانية خلال القرن الثامن عشر · وقد اكتسح نادر شـاه اراضي العـراق وحاصر الموصل حصارا قويا ، فجابهته وحدها وانتصرت عليه · وكان لذلك الانتصار اثره في النتائج الاقتصادية والسياسية داخليا وخارجيا ، اذ غـدا سدا منيعا حال دون تقدم نادر شاه والغزو الايراني ، وكسر جبـروتـه في المشرق العربي (11) .

وكان للناحية الاقتصادية اثرها في احوال الحرب . اذ لم يكـن اقتصـاد الموصل جيدا بأي حال من الاحوال قبيل فرض نادر شاه حصاره عليها · وقد انقطعت صلات الموصل الاقتصادية بالاقاليم الاخرى منذ فترة طويلة ، كما لم تصلها اية مساعدات اقتصادية من بغداد وحلب او ديار بكر ، او من مقاطعات

(11) انظر الدراسة الرصينة التي نشرها المؤرخ الامريكي روبرت اولسن في كتابه عن حصار الموصل : R. Olson, *op. cit.*, pp. 170-189.

الجبال وان ما وصلها من العاصمة اسطنبول ، لم يكن كافيا بأى شكل من الاشكال لكى يبقيها على قيد الحياة حتى ولو لفترة قصيرة . ان كل هذا ، يوضح لنا بأن اعمالا عظمى قد انجزت بدون اجر مقابل ، رغم ان المعلومات التاريخية تشير بأن حكومة الموصل كانت لها انفاقاتها الخاصة للعاملين ، قام بصرفها والي الموصل . ونستنتج بأن فترة تقشف اقتصادى عاشتها الموصل، وعلى درجة عالية من التنظيم والضبط فى الانفاقات الفردية للمعيشة اليومية ، أو أن التقشف قد مورس مرحليا لمواجهة حصار طويل الامد قد يستمر اشهرا عديدة ، كما حدث فى حصار الايرانيين لبغداد سنة 1733 م. ، او توقعا لمواجهة حرب اقتصادية ضارية . ومن هنا ، نستنتج بأن عمليات تخزين كبيرة للمواد الغذائية قد نفذت ، اذ لم تواجه المواصلة مشاكل من الناحية الغذائية سوى مشكلة المياه التى نجح نادر شاه فى قطعه لها ، وتحويله للشعبة الرئيسية من نهر دجلة عن الموصل وسكانها . ومن المؤكد ، ان الحصار قد خلق فى استعدادات المواجهة او اثناء الحرب .. مجالا للعمل والمهارة ، وازدادت مدخولات ذوى الحرف والصناع . ولم تردنا أية اشارة تاريخية عن ارتفاع الاسعار فى السوق ، او حدوث ازمة بعد ذلك .. وكان من المؤكد ان يحدث ذلك نظرا لانقطاع خطوط المواصلات عن الموصل ، وانعزال المدينة عن العالم الخارجى . ثم توقف التجارة النهرية بسيطرة الايرانيين على نهر دجلة (12) .

لقد كان لدفاع الموصل ضد حملة نادر شاه على العراق وحصاره للموصل سنة 1743 م. = 1156 هـ. ، الاثر الكبير فى حفظ علاقات الموصل الاقتصادية بغيرها من الاقاليم والسناجق والدساكر والتخوم المجاورة لها او المرتبطة بها من خلال المسالك التجارية البرية والنهرية ، وسواء كان ذلك فى أعالى الجبال أم فى البرارى الغربية . وبقيت الموصل مسيطرة على جميع تلك المسالك ، وأهمها : مسلك اسطنبول ـ بغداد الاستراتيجى عبر الموصل . وبقيت خاناتها الكثيرة تعج بقوافل النازلين والراحلين . وبقيت اسواقها عامرة بالبضائع والمواد ، اذ استمرت فيها حركة التجارة العالمية التى يمثلها التجار الكبار عبر الشرق ووربا ، وبقيت حركة التجارة المحلية سارية المفعول ، والتى يمثلها التجار الصغار عبر اتصالاتهم بالاقاليم والتوابع المجاورة . وقد وصف الرحالة (ايفز) اسواق الموصل بعد مروره بالموصل عقب حصار نادر شاه لها بسنوات قليلة ، وذكر بانها اسواقها عامرة بالمنتوجات والمحاصيل (13) . كما وبقيت الصناعات والحرف بالموصل على حيوتها فى المركز والتوابع ، فلقد وصف الرحالة (جاكسون) الوضع الصناعى المتطور فيها

(12) راجع تفصلات الحرب في المصادر والمراجع التالية :
MAN., vol. 1, pp. 150-4 ; *DUR.* I, pp. 361-3 ; *DUR. II* ; pp. 889-897 ; Archieves National, (Paris), E. de St. Albert, « *Letters from Baghdad* », L. dated 14/9/1843, fol. 17 ; Longrigg, *op. cit.*, p. 149, Kemp, *op. cit.*, pp. 310 ; Olson, *loc. cit.*

(13) E. Ives, *A Voyage from England to India*, London, 1760, p. 327.

سنة 1767 م. = 1181 هـ. ، وذكر بأن بعض المصنوعات الموصلية تتفوق على الصناعات الاوربية مثل صناعة السروج والاحزمة والسجاد الحريرى المطرز بالازهار .. ثم مصانع الحديد والنحاس لمختلف المواد التى يتم شحنها الى الخارج عبر نهر دجلة نحو البصرة (14) . هذا اضافة الى وصف صناعات الموصل للمنسوجات المختلفة ، وصناعة الموسلين الذى تصدره الموصل الى أوربا منذ العصور الوسطى .. وقد اشاد بذلك كل من الرحالة (ايفز) سنة 1758 م. = 1172 هـ. (15) ، والرحالة كرستيان نيبور سنة 1766 م. = 1181 هـ. (16) . اضافة الى تطور الممارسات النقابية والعمل من خلالها ضمن حقول الصنائع واصناف الحرف (17) .. لقد اشتركت فى دفاع الموصل كافة الفصائل الاجتماعية فى المدينة ، ولكن بقي النظام الضرائبى يعمل (18) به كما كان عليه الحال قبل هذه الهزة التاريخية القاسية التى عرفها مجتمع الموصل ، ولكن هذا النظام قد تطور مع نمو الحياة الاقتصادية ،وتحولت الموصل بعد الحصار من مركز دفاعى عسكرى الى مركز ثقافى ومدنى وتجارى بالدرجة الاساس . وتحولت بعد ان كانت تحكمها العلاقات الاقطاعية الواسعة الى مركز يتصرف فى حياته الاقتصادية اصحاب رؤوس الاموال والتجار الكبار والصغار ، ثم الملاكين المحليين مما زاد فى تعقد احواله عما كان عليه .

شهدت الموصل بعد حصارها حركة عمرانية متطورة ، بدأها الوزير الحاج حسين باشا الجليلى باصلاحه مرافق عديدة بعد حصوله على موافقة السلطان محمود الاول ، فجدد قلعة باشطابية ،وسور الموصل ، والعديد من الكنائس . وفتحت أبوابا جديدة فى سور المدينة بعد قيام الوالى بسد باب العمادى الواقع فى شمال المدينة اثناء فترة الحصار (19) .. اضافة الى تجديد وتعمير العديد من دور الحكومة والقصور والبيوت والشوارع والجوامع والاسواق والمدارس . ولقد اعجب الرحالة (ايفز) بالموصل بعد حصارها الرهيب بسنوات قليلة ، وذكر بانها احسن مدينة شاهدها فى الامبراطورية العثمانية (20) . كما وشهدت الموصل حركة ثقافية وعلمية وأدبية مزدهرة ، وارتقت بمدارسها ومكتباتها وعلمائها وشعرائها ومؤرخيها واطبائها .. وعدت مركزا حيا للثقافة العربية ابان القرن الثامن عشر ، وتشهد على ذلك المئات من التآليف والتصانيف والادبيات التى كتبت فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر .

---

(14) J. Jackson, *Journay from India*, London, 1799, p. 79.

(15) E. Ives, *op. cit.*, p. 324.

(16) C. Niebuhr, *op. cit.*, vol. 2, p. 317.

(17) *MAN.*, vol. I, p. 142 ; and Kemp, *op. cit.*, p. 318.

(18) انظر الملحق رقم (7) عند د. عماد رؤوف ، المرجع السابق ، ص 516—522 .

(19) Olson, *op. cit.*, p. 173.

(20) E. Ives, *op. cit.*, p. 324.

من ناحية أخرى ، فقد حفظ لها دفاعها وانتصارهـا روابطهـا الاسـرية القوية ، وصان مجتمعها الداخلي من الانهيار والتفكك او التشـرذم والهجـرة والتشتت على ايدى الايرانيين . كما وحفظ لها عاداتها وتقاليدها الاصيلة التى تشترك فيها كافة صنوفها وطبقاتها الاجتماعية فى مركزها بالذات .. وترك الدفاع العظيم بفصوله الدرامية والدموية بصمات روحية فى المجتمع من خلال ضرب الامثلة التاريخية عن قصصه البطولية ، والاشادة بعظمته .. وكانت الحكايات عنه يتناقلها جيل بعد آخر لاكثر من قرنين من الزمن . اضافة الى ذلك ،فقد حافظ دفاع الموصل عن عروبة المشرق العربى وحفظه من التيارات المذهبية وصراعاتها .

* * *

4. الموصل : الحياة الاجتماعية فى القرن 18

1/4. الجذور التاريخية للانقسام الاجتماعى :

كانت الدولة العثمانية قد حسمت تأثير الافكار الفارسية ـ الصفوية بعد سيطرتها على الموصل سنة 1516 م. = 922 هـ. وكانت الموصل قد عانت من الحكم الفارسى سياسيا واجتماعيا (1) .. وبموجب ذلـك ، فقـد استقـدمت الحكومة العثمانية الحاج قاسم العمرى من مكة الى الموصل ، كعـالم وفقيـه فى الدين ليساعد فى تثبيت المذهب السني ـ الحنفي فيها ، وهو المذهب الاسلامى الذى اعتمده العثمانيون فى سياستهم الداخلية والخارجية (2) .

عاش الحاج قاسم العمرى فى محلة باب العراق بالموصـــل ، وهى المحلـة الواقعة فى الجنوب الغربى من المدينة القديمة . وقد بنى له جامعا كبيرا فى سنة 1563 م. = 971 هـ. وذلك بجانب بيته ، وغدا خطيبا فيه وإماما له (3) . وأوقف عليه بستانا وأرض غرب (= احراش) ، وثمانية حـوانيت تقـع جميعها فى سويقة باب العراق وسوق العلافين (4) . ويعتبر الحـاج قـاسم العمرى هو المؤسس الحقيقى للاسرة العمرية الشهيرة . خلف له ولدا واحدا اسمه علي والذى توفي قبل والده بسنة واحدة ، وذلك فى سنة 1591 م. = 1000 هـ. (5) مخلفا ثلاثة أولاد هم : عثمان وموسى ومحمد . اصبـح هـؤلاء

---

(1) انظر : مخطوطة اسكندر بيك منشىء التركمان ، عالم اراى عباسي – بالفارسية – ، ورقة 37 . وانظر :

MAN., vol. I, p. 133.

(2) *ZUB.*, p. 16 ; *MAN.*, vol. I, p. 144 ; *DUR.* I, p. 59.

(3) *DUR. I*, p. 59 ; *DUR. II*, p. 553.

(4) Kemp, *op. cit.*, p. 105.

(5) *DUR. I*, p. 59 ; *DUR. II*, p. 553 ; see, f.n. 3.

الثلاثة آباء لثلاثة فروع كبرى في الاسرة العمرية . وغدا عثمان مستحصلا على أكبر مكانة اجتماعية بالموصل (6) ، وليصبح نسله من بعده جماعة من العمريين الاغنياء الذين شكلوا فئة ارستقراطية في المجتمع ، اذ كان أغلبهم من العلماء الكبار والادباء المشهورين ، والقضاة المفتيين .. اضافة الى ملاك الاراضي الواسعة . أما فرع موسى من العمريين ، فقد غدوا أجمعهم من الخطباء في الجوامع ، اذ كان موسى قد عرف خطيبا ، فعرف نسله من بعده باسم (الملالي) وكان أغلبهم من متوسطي الدخل والفقراء . أما محمد ، فقد ترك فرعا صغيرا اختلط فيما بعد بين العمريين ، وكان أغلب نسله من طبقة العلماء والادباء (7) .

ويبدو للمؤرخ ، بأن العمريين قد نجحوا في الدعاية للسياسة العثمانية المضادة للسياسة التبعية الطائفية التي كانت تؤججها ايران الصفوية . وكان الاشراف في الموصل يمثلون في القرن السابع عشر فئة تدين بالمذهب الشيعي .. وهم جماعة قليلة تؤلفها بعض الاسر المعروفة .. وعليه فقد ناصب الاشراف العمريين العداء . وقد ظهر النزاع بين الطرفين واضحا ومستحكما عندما احتل الفرس الموصل سنة 1623 م. = 1032 هـ. (8) ، وذلك بمساعدة الاشراف(9) (انظر : بند 3/2) . وعليه فان موسى بن علي بن قاسم العمري قد هرب مع عائلته الى جزيرة ابن عمر ، بينما هرب أخواه عثمان ومحمد مع عائلتيهما الى قلعة القمرى قرب العمادية في شمال العراق (10) . ويظهر لنا ان هناك تحالفا قد وقع بين الفرس والاشراف ، فقد تزوج القائد الفارسي قاسم خان بامرأة من الاشراف (11) . لقد بقي العمريون ثلاثة سنوات مغتربين عن الموصل في الجبال الشمالية للموصل (12) ، وعادوا الى مدينتهم بعد خروج الفرس منها . وعاد الحكم العثماني الى الموصل محكما السيطرة مما ساعد الاسرة العمرية على تقلد مناصب عديدة في الموصل والعراق .. ولم تذهب حدة العداء الاجتماعي بين هذه الاسرة الممثلة للمواجهة السنية وبين الاشراف ان تدني الامر بحدوث مشادة نسوية بين الطرفين في احدى الحمامات الشهيرة (13) . واستطاع الفرع الارستقراطي من الاسرة العمرية ان يهيمن

---

(6) Kemp, *loc. cit.*, and see, S.K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. I, pp. 16-29.

(7) S.K. Al-Jamil, *loc. cit.*,

(8) *DUR. I,* loc. cit.

(9) *MAN.*, vol. I, p. 224.

(10) *DUR. I,* p. 164 ; details in *DUR. II,* p. 639 ; see also, *ZUB.*, pp. 65-6, and *MAN.*, vol. I, p. 136.

(11) *DUR. I,* loc. cit.

(12) *loc. cit.* ; and see, *ZUB.*, p. 66.

(13) *loc. cit.*

على المكانة الاجتماعية الاولى فى المجتمع ، وذلك من خلال ظهور العديد من الرجال الاغنياء والمثقفين فى آن واحد ، فالعلماء والقضاة والمفتون منهم هم من الملاكين والاقطاعيين فى الوقت نفسه (14) . وقد وقعت بعض الاصطدامات بين هؤلاء كفئة قوية من الطبقة الارستقراطية المحلية ، وبين الولاة الاتراك الذين حكموا الموصل قبل ان يتسلم الجليليون الحكم ، وكان آخرها فتنة محلية اشتعل اوارها داخليا وعنيفا ودارت بين قوتين اثنتين : القوة الاولى كانت تتمثلها الارستقراطية المحلية ويتزعمها المفتى الشهير علي أفندى العمرى . أما القوة الاخرى ، فكانت سياسية يمثلها الوالى التركى بجهازه الادارى والعسكرى . وقد علل المؤرخ لونكريك حدوث تلك الفتن كنتيجة من نتائج حسد الوالى لما كان يتمتع به المفتى من نفوذ خاص فى المدينة (15).. وأستطيع أن أضيف عاملا آخرا ، ولكنه مخالف لما يراه المؤرخ لونكريك : ذلك ان عروبة الموصل بفئاتها الاجتماعية وطبقاتها المتباينة كانت دائمة الرفض لكل وال تركى غريب ، فنادرا ما كان الوالى يقضى بمنصبه فى الموصل أكثر من سنة (16) . لقد تعاظم نزاع سنة 1725 م. ، وتطور الى مصادمات دموية . وبعد ستة أشهر ، افتقدت المدينة حالتها الامنية فكثرت فيها السرقات وحوادث القتل والاغتيال . ولم يسكت هذه الحالة الا بروز باشا جديد ، وهو يخرج لاول مرة من قلب مجتمع الموصل . اذ كان معروفا فيه ويعد واحدا من الرجال الملاكين الكبار هو اسماعيل باشا الجليلى (17) .. اذ كان قد تعاظم شأنه ضمن حلقة الارستقراطية المحلية فى تراكم ثروته وتقربه من السياسة العثمانية العسكرية ، فاستحوذ على شهرته من خلال انفاقاته (18) .. فيأتى فرمان السلطان بتنصيبه واليا جديدا على الموصل ، لتبدا حلقة جديدة من حياة الموصل العثمانية . وتحالف العمريون مع الجليليين رغم بعض الاختلافات التى حدثت بين أفراد كل من العائلتين ، ولكن على العموم ، فان الاسرة العمرية التى كانت مستقطبة للعروبة قد وجدت فى الاسرة الجليلية ظهيرا لها وللموصل العربية نفسها من سطوة الولاة الاتراك الاجانب الذين كانوا ينقمون فى ممارساتهم السلطوية على العمريين قبل واثناء الحكم الجليلى (19) .

---

(14) راجع تراجمهم في المصادر التاريخية التالية :
DUR. I ; *DUR. II* ; *MAN.*, vols, I, II ; *SHAM.*, *RAW.*

(15) *DUR. I*, p. 342 ; and see, Longrigg, *op. cit.*, p. 158.

(16) راجع قائمة ولاة الموصل منذ سنة 1000هـ ، حتى نهاية الحكم العثماني ، في التقرير الادارى السنوى :
سالنامه در موصل ولايتي ، عربي 1310هـ – 1308 رومي نمره 2 ، ص 60– 68 .
وراجع ايضا : S.K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. I, pp. 443-5.

(17) القس سليمان صايغ ، تاريخ الموصل ، ج 1 ، القاهرة 1928 ص 273 . وانظر :
Olson, *op. cit.*, pp. 179-180.

(18) علي اميرى ، المصدر السابق ، ص 60–65 .

(19) *DUR. II*,

كما وكان لوجودهم واستيطانهم فى محلة باب العراق قد أثر تأثيرا كبيرا فى وقوفهم بجانب الجليليين فى الانقسامات التى كانت تحدث بين سلطة الوالى والجيش الانكشارى الذى وجد ضالته فى محلة (الميدان) باثارة أهله على أهل محلة (باب العراق) . لقد حدثت العديد من الفتن المحلية والانقسامات الاهلية بين الطرفين المذكورين على امتداد العهد الجليلى (20) ، وكانت تؤججها النزاعات الداخلية التى حدثت بين الاسرة الجليلية نفسها ، وعلى الاخص ذلك الصراع طويل الامد الذى حدث بين الوزير الغازى محمد أمين باشا وبين عمه عبد الفتاح بيك بن اسماعيل باشا الجليلى . ويظهر ان نزعة السيطرة قد شبت عند الاثنين منذ صغرهما اذ كانا قد ولدا فى سنة واحدة ، وتوفي أولهما بعد الآخر بأربع سنين . أو أن تلك الصراعات تؤججها انقسامات الانكشارية على أنفسهم .. أو نقل الوالى الجليلى وتنصيب وال تركى غريب ، أو حتى وال قريب كما حدث للوالى محمد باشا الترياكى وهو تركى نصب سنة 1748 م. = 1161 هـ. (21) ، أو رجب باشا الحلبى الذى نصب سنة 1751 م. = 1165 هـ. ، أو مصطفى باشا الشاه سوار الذى نصب لأكثر من مرة ، كان أولها سنة 1750 م. = 1164 هـ. (22) ... وهكذا ، فان الولاة الاتراك ما كانوا يجدون لهم أرضية يتحركون عليها ، ولا شعبية يعتمدون عليها . وكانت الاسرة الجليلية الحاكمة هى التى تؤجج حركة التمرد على الولاة الغرباء . اما أغلب الفتن المحلية فلم يكن يستفيد منها الا اصحاب المصالح الكبرى ، ويكون السوق هو أول المتضررين (23) .

4/2. التركيب الطبقى لمجتمع الموصل :

4/2/1. الطبقة الارستقراطية : الملاكون الكبار

ان الارستقراطية المحلية قد تمثلتها بعض الاسر القديمة والمستحدثة كأعيان وأشراف وحكام وسادة. وكان اغلبهم من الملاك للاراضى الزراعية الواقعة فى شرق نهر دجلة ، والتى تكثر فيها القرى والارياف والضياع ، وتعتمد فى زراعتها على مياه الانهر والمياه الجوفية (انظر : موضوع 1) . اما طبيعة العلاقة بين الملاك والمزارعين ، فكانت علاقة اقطاعية وخصوصا فى التيمارات والخواص . وكانت الاملاك الاخرى قد توزعتها المدينة كالحوانيت والقيصريات والبساتين والخانات والحمامات والمصانع ... الخ .

---

(20) راجع التفصيلات التاريخية عند : *Loc. cit.*

(21) S.K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. I, p. 353.

(22) *Ibid.*, pp. 353-4.

(23) *DUR. I*, p. 370 ; see also, Kemp, *op. cit.*, p. 211 ; and
دومينيكو لنزا ، الموصل في الجيل الثامن عشر حسب مذكرات دومينيكو لنزا ، فصول ترجمها : د. روفائيل بيداويد ، الموصل 1953 ، ص 12 . وانظر : د. عماد رؤوف ، المرجع السابق ، ص 116 .

كان من أبرز الذين يمثلون هذه الطبقة هم : الفرع الارستقراطي من الاسرة العمرية ، والاسرة الجليلية ، وبعض عوائل الاشراف الذين يسمون بـ (السادة) . فالفرع الارستقراطي من العمريين كان قد برز فيه ومنذ وقت طويل العديد من الملاكين الكبار ، وكان اشهرهم هو المفتي علي أفندي بن مراد العمري والمشهور بأبي الفضائل المتوفي سنة 1734 م. ، فقد ترجم له المؤرخ ياسين أفندي العمري قائلا : « واقبلت عليه الدنيا ، وكثرت ثروته واقطاعه وضياعه فملك من القرى نصف قرى [جبل] المقلوب .. ومن القرى المتفرقة : تل أسقف ولواحقها : كير اسحق والقبة وحسن شامي ، وقرية برطله ولواحقها : الجنكجي وجام كرك ، وقرية اغج قلعة نصفها كانت على ولده مراد ، وكذا قرية الممان وخرابك وسندانك وغيرهم . وله في الموصل حمامتان سوى حمامتي الوقف وقيصريتين وجوانيت وبساتين . وكان له من الجواري نحو أربعين جارية سوى الحرائر . وكان في فصل الربيع يخرج بجواريه الى بستانه شرقي دجلة عند قرية نبي الله يونس ع. م. ، وبنى له هناك حمام ، وجمع له من الاموال والذخائر والكتب ما تعجز عنه الاقلام» (24).

وفي خضم تنامي الاسرة الجليلية سياسيا من خلال الخدمات التي قدمها اسماعيل باشا الجليلي كأحد أقطاب هذه الطبقة لحكومة الوالي التركي ، انعم الباب العالي عليه برتبة الباشوية . وكانت العلاقة بين كل من الجليليين والعمريين تتراوح بين المد والجزر .. ولكن يبدو ان مكانة الاسرة العمرية كرأس قديم لطبقة الملاكين كانت أكبر بكثير من الاسرة الجليلية التي استغلت المسرح السياسي بالتحرك عليه والحصول على مراكز نفوذ لها . وقد وقعت بالفعل نزاعات عديدة بين أفراد كل من العائلتين (25) . وكان الجليليون يخشون سلطة العمريين الاجتماعية والدينية ، وخصوصا وان العمريين كانوا يشعرون بأنهم أعرق في وجودهم بالموصل من الجليليين أولا ، وثانيا ، انهم كانوا يتمتعون بنصيب عال من الثقافة والمكانة الدينية في الافتاء والقضاء المرتبط بقاضي الاناضول مباشرة (26) وبعد ان ثبت المركز السياسي للاسرة الجليلية ، دان العمريون لها وخصوصا الجيل الجديد منهم ، وقدم العديد من رجالاتهم خدماتهم للجليليين ، وكان أبرز أولئك الرجال : عثمان الدفتري بن علي أبو الفضائل العمري الذي دخل في خدمة الحاج حسين باشا الجليلي ، وبقي مساعدا له سنوات عديدة وخصوصا في ازمة الحصار القاسي ، ثم صاحب الغازي محمد أمين باشا الى استانبول بعد انتصار الموصل على نادر شاه لحمل اخباره الى السلطان محمود الاول (27) .

---

(24) *DUR. I*, p. 351 ; *DUR. II*, p. 872.

(25) *DUR. I*, p. 343.

(26) S.K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. I, pp. 16-24 ; see also, Tab. No. XI.

(27) انظر تفصيلات عنه في مقدمة محقق كتابه (RAW) : الروض النضر في ترجمة ادباء العصر ، 3 اجزاء ، تحقيق : د. سليم النعيمي ، جـ 1 ، بغداد 1974 . (مقدمة الجزء الأول)

ويعتبر الجليليون من الملاكين الكبار فى الموصل على غرار البابانيين فى قرة جولان ، أو تلك البيوتات العربية فى العراق الوسيط من الشيوخ الذين استقروا فيما بعد ببغداد : آل الشاوى وآل ربيعة . ولكن كل هـذه الاسـر المالكة للاقطاعات كانت تختلف تاريخيا عن الجليليين فى الموصل وخصوصا الروابط الوثيقة التى كانت تربط الاخيرين بالعثمانيين (28) . لقـد ارتقى الجليليون من طبقة التجار الكبار التى كانت تمارس اعمالهـا بين الولايـات والمناطق البعيدة اذ كانت روابط الجليليين كبيرة بمناطق ديار بكر .. وانتقلوا الى طبقة الملاكين فى المدينة ، وبعد ان اصابوا الحكم انتقلوا الى تملك المقاطعات الزراعية فى اطراف المدينة ، واشهر اقطاعاتهم تلك التى منحت لهم من قبل السلطان العثمانى ، والواقعة فى منطقـة شـرق دجلـة والمسمـاة بـ (قـرة قوش) (29) . كما استطاع الامير مراد باشا ابن الحاج حسين باشا الجليلى ان يتملك بعض الاراضى الزراعية فى شرقى دجلة أيضـا ... وذلـك فى 1747 م (30) .

لقد استطاع الجليليون ان يقربوا انفسهم من الجماهير الفقيرة والاعيـان على حد سواء ، اضافة الى الانكشاريين المحليين ، فحفظوا بذلك انفسهم من بدائل الولاة الاتراك . لقد بقى الجليليون من فرع البـاشوات ، وهى الفئـة التى تملثتها الارستقراطية المحلية .. بقوا منعزلين فى اختلاطهم مع الآخـرين من خلال الزيجات ، وفى كراهيتهم تجاه ارتباطهم بالغرباء ، ولكنهـم تـزاوجـوا لاول مرة فى أواخر الفترة العثمانية مع عوائل الاشراف أو السادة (31) .

4/2/2. الجيش : الطبقة المنقسمة

كانت انكشارية الموصل تتألف من ثلاث أورطات ، لا يتجـاوز عددهـا ثمانمائة انكشارى الا بقليل . والاورطات الثلاث هى : الاورطة (52) المسماة

(28) For details ; see, the L. from the Rritish Consul at Mosul, FO 78/2615, Public Record Office in London ; see also, C.J. Rich, *Narrative of a Residence in Koordistan and on the Site of Ancient Nineveh*, London. 1836, p. 81.

(29) *DUR. I*, p. 365.
يخطىء المؤرخ حنا بطاطو في ذكره ان الوزير الحاج حسين باشا الجليلي قد تملك مقاطعة قره قوش بعد سنة 1732م ، في دفاعه ضد نادرشاه . في حين نعلم ان تمليك الدولة هذا الاقطاع للوزير الجليلي كان بعد انتصار دفاع الموصل في حصارها من قبل نادرشاه سنة 1743م . اى بعد انتهائه . وربما قصد المؤرخ في ذلك ، دفاع حسين باشا عن الموصل وانتصاره على نركزخان أحد ضباط نادر كولي خان في حملة الاخير على العراق سنة 1732 ، وذلك قبل ان ينصب نادر كولي نفسه شاها على ايران . انظر كتاب حنا بطاطو :
Hanna Batatu, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq*, Princeton Univ., 1982, pp. 214-215.

(30) *DUR. I*, p. 367.

(31) H. Batatu, *op. cit.*, p. 215 ; see also, Great Britain (Confidential), *Personalities Mosul, Arbil, Kirkuk, and Sulaimaniyyah*' p.98. (هذا المصدر الاخير عند بطاطو)

(اللى ايكى) ، والاورطة (58) المسماة (اللى سكز) ، والاورطة (10) المسماة (أوننجى) . ثم ارتفع عدد الانكشارية في النصف الاول من القرن الثامن عشر الى خمس أورطات بعد ان قام والى بغداد الشهير الوزير أحمد باشا بن حسن باشا 1723 ـ 1748 م. بارسال كل من الاورطة (31) المسماة (الاوتوزبير) في سنة 1729 م. = 1142 هـ . ، والاورطة (27) المسماة (يكرمى يدى) في سنة 1735 م. = 1148 هـ. من ولايته بغداد الى ولاية الموصل .

ان انكشارية ولاية الموصل لم تكن مستقرة في مكان واحد من مركز الولاية (32) ، فقد كان قسم منهم يتركز في ايچ قلعة (33) ، وآخرون في (سنجق الباشا) الذى يكون تحت قيادة آغا الانكشارية . وتتوزع البقية الباقية منهم في مختلف وحدات سناجق الولاية والقلاع المهمة التابعة لها . ولكنها تكون تحت قيادة ضباط آخرين ادنى من مرتبة الاغوات ، مثل رتبة (الجلبى) . وعادة ما تكون مراكز السناجق التابعة لولاية الموصل هي بمثابة القلاع الحصينة للجيش الانكشارى .

كان آغا الانكشارية يتسلم أوامره من سلطة الوالى مباشرة ، والى جانب هذا التنظيم ، فهناك مناصب عسكرية تناط مهام قيادتها بآغا الانكشارية ، وتكون مشرفة على الجماعات التابعة لها . اما التنظيمات العسكرية الاخرى فقد كانت : السباهية التى يقف على رأسها (الاى بكى) . وهناك (التفنكجية) الذين يرأسهم (تفنكجي باشى) والذين كانوا بمثابة الشرطة لحماية الامن والنظام . وهناك (السلحدار) المشرف على دار الاسلحة .. وهناك (الباش دلى) المشرف على جماعات (الدلاتية) المسلحة ... وهناك (ايچ مهتر باشى) المسؤول على جهاز (المهترخانة) .. وهناك الآخور اغاسى (34) ... الخ .

لم يكن الجيش بالموصل معزولا عن الحياة الاجتماعية سواء في المدينة أم السناجق ، بل كان مندمجا فيها بحكم موقعه في قلب المدينة والسناجق على حد سواء . ويبدو ان انكشارية الموصل قد تعربت بفعل اختلاطها السريع مع السكان ومع الفئات العسكرية الاخرى كالسباهية والدلاتية .. وخصوصا في عهد آل الجليلي الذى ظهرت الموصل فيه بثوب عربى كالذى كانت عليه . ان الانكشارية والسباهية الاتراك ، والدلاتية واللاوند من الاكراد (35) .. كانوا مندمجين مع الشرعية السياسية التى فرضتها الاسرة الجليلية على الموصل ، اذ كانوا يمثلون رصيد الولاة في حملاتهم على الاقاليم المتاخمة ، واجهاض غارات السلب والنهب التى كانت تتعرض لها اقتصاديات الولاية في شرق

---

(32) د. عماد رؤوف ، المرجع السابق ، ص 179 .

(33) سعيد الديوه جي « قلعة الموصل في مختلف العصور » ، مجلة سومر ، العدد 10 ، بغداد 1954 ، ص 14 .

(34) S.K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. I, Tab. No. XI.

(35) *Ibid.*, p. 140.

مجرى نهر دجلة أم فى غربه .. وسواء كانت تلك الغارات سيئة الصيت (36)، تنفذها جماعات من قبائل اليزيدية فى مناطق معينة من ولاية الموصل (37) . ويتضح تحالف الجيش مع الشرعية الادارية والسياسية للولاية عندما نصب عبد الفتاح باشا الجليلي واليا على الموصل ، وكان ندا سياسيا لابن أخيه الغازى محمد أمين باشا ، فما كان من عبد الفتاح الا ان بدأ بتصفية الخصوم ، والاخذ بالثأر ، والاستيلاء على الغلال والديون والخيام من دار الحاج اسعد آغا الجليلي الممثل الشرعى لمحمد أمين باشا ، ثم الاستيلاء على غلال الحاج محمد الديوهجي والحاج علي ابن النعلبند ، وكلاهما من أمراء الجيش الانكشارى ومن حلفاء الغازى محمد أمين باشا (38) .

ومن المفيد ان نوضح ، بأن الجيش الانكشارى لم يكن متلاحما فيما بينه ، اذ كان عرضة للانقسامات الواسعة نتيجة للانشقاقات السياسية فى الموصل. وقد وصلت تلك الانقسامات الى حالة تنذر بالخطر بعد اكثر من ثمانين عاما على تسلم الجليليين السلطة ، اذ تفيدنا الاحداث التى وقعت سنة 1806 م. = 1221 هـ. بأن فرقة (اللى ايكى) الانكشارية قد تحركت كجماعة مسلحة الى السوق الكبير بالموصل وبدأت المناوشات فيه مع فرقة (الاكرمى يدى) ومن معهم يوم الاربعاء رابع عشر من شوال ، فاتفقت الفرق الاربع : الاوتوزبير واللى سكس واون انجى والاكرمى يدى والتحمت فى نزاعها ضد الفرقة الباغية اللى ايكى ، وأخرجوها من السوق الكبير ، وحدثت اعمال شغب واسعة النطاق اذ نهب حوالى مائتين من الحوانيت التى تضم ، النجارين والحدادين والبقالين وجميع الاصناف فى سوق الميدان الفوقى وسوق العتمة.. وقد ذهب للناس ما يقارب خمسين ألف قرش . وفى يوم الخميس حوصرت الفرقة المعتدية وحملوا عليها وهزموها وقبضوا على مقدمها (جرجيس آغا) ، وانطفأت نار الفتنة التى راح ضحيتها خمسة جنود من انكشارية أورطة الاكرمى يدى .. ومات من أورطة الالى ايكى عشرون انكشاريا ، هذا عدا الذين جرحوا بطلقات الرصاص (39) . ان ابرز الاسر الانكشارية التركية المعروفة التى استوطنت الموصل خلال العهد العثمانى هى : الديوهجى والدملوجى والجلبى والخطيب والنعلبند .. وهناك اغوات باب البيض .

3/2/4. العلماء والادباء : ازدهار الحركة الفكرية

تأتى طبقة العلماء والادباء لتشكل قطاعا كبيرا ، وشريحة اجتماعية لها مكانتها واثرها الواضح فى التركيبة الاجتماعية بالموصل . وكانت هذه الطبقة

(36) Rich, *op. cit.*, pp. 137-140.

(37) صديق الدملوجي ، اليزيدية ، الموصل 1949 ، ص 112 .

(38) *DUR. I*, p. 384-404.

(39) *DUR. II*, p. 1211.

فى الامبراطورية العثمانية عموما تتميز باتصالها بكل الفئات الاجتماعية المتنوعة وتتصل رؤوسها مع الطبقة العليا فى المجتمع المحلى بالموصل فى تدعيم اركان السلطة السياسية ونفوذها من أجل منافع مادية أو معنوية أو سياسية .. كما وانها كانت تعمل ضمن ما يشبه القداسة العثمانية من أجل الحفاظ على المذهب الحنفى باعتباره الايدلوجية السامية للعثمانيين ، فمنهم يعين القضاة ورجال الافتاء والدفاترة .. وكان أغلبهم من أسر عـربية ، أولئـك الـذين يخدمون فى عالم الولايات العربية أو عالم الاناضول (40) . لقـد شهـدت الموصل خلال القرن الثامن عشر حركة فكرية وأدبية وعلميـة مزدهـرة .. وتشهد على ذلك العديد من المدونات والمصنفات فى مختلف الآداب والعلوم . واشترك فيها أغلب رجال هذه الطبقة التى كانت احوالهم تتراوح بين الغنى المادى أو الفقر المدقع . كانت دراسة جميعهم للعلوم الدينية فى عشرات مدارس الموصل القديمة أو تلك التى استحدثت خلال العهـد الجليـلى ، كما ودرس بعضهم فى مدارس رصينة خارج الموصل . كان الاغنياء منهم يتمتعون برصيد من المكانة الاجتماعية والمناصب الفخرية أو الادارية أو السياسية .. بينما يبقى الفقراء كخطباء أو مدرسين فى المدارس والجـوامـع ، أو كشيـوخ متصوفة لهم حلقاتهم وعالمهم الخاص بهم . اذا تتبعنا فى دراسة ما انتجتـه طبقة العلماء والادباء فى الموصل خلال العهد الجليلى ، نجدها قد امتازت على غيرها فى ولايات عربية أخرى بالمميزات التالية :

1 ــ التنوع فى التصانيف والتأليفات باللغة العربية فى علوم مختلفة كان أبرزها : الشعر والفقه والتفسير والاراجيز والتراجم والتاريخ .

2 ــ الحركة الفكرية المتوقدة التى تبرزها العديد من الافكار الاصلاحية فى الفكر الاسلامى ، والتى تعد جذورا تاريخية للحركات الاصلاحية الحديثة التى برزت فى القرن التاسع عشر .

3 ــ النزعة الوطنية وجذور الارهاص القومى ــ العربى .

4 ــ العلاقات الثقافية والفكرية ، فقد تميزت الموصل كونها جـامعة علميـة يؤمها العديد من الادباء والعلماء من الولايات العـربية فى المشـرق العـربى ، للدراسة أو الاستزادة أو التدريس واكتساب التجارب والمعلومات .

لكى نتوسع قليلا فى هذه المميزات ، فاننا نحتاج الى بحث مستقـل لـه ابرازته المتفرقة عن الحياة الفكرية التى عاشتها الموصل فى القرن الثامن عشر ويمكننى ان اجد ما يشابهها لى حد كبير فى فاس المدينة المغربية العريقة خلال الفترة المذكورة . ان التطور الذى شهدته طبقة العلماء والادباء بالموصل قـد أدى الى ابرازتين تاريخيتين فى حياة العرب الحديثة هما : النزعة الاصلاحية ، والنزعة العربية .

---

(40) For more detaills ; see, Kemp, *op. cit.*, Chap. III.
وانظر ايضا : د. عماد رؤوف ، المرجع السابق ، ص 223 .

قد تمثلت النزعة الاصلاحية بولادة الحركة السلفية التى أظهرها عدد من علماء الموصل كان أشهرهم أحمد بن كولة والبعض من الدارسين (41) ٠٠ وهى حركة دينية تدعو مبادئها الى الرجوع الى أسس السلف الصالح ، ونبذ البدع والتبرك والخرافات التى كان تعج بها أفكار المتصوفة بالموصل (42) .. وخصوصا التبرك بضريح نبي الله جرجيس فيها .. وقد رد أحد علماء حلب على هذه الدعوة السلفية ووصفها بالمروق عن الاسلام (43) .. وقد توفي الملا ابن الكولة سنة 1759 م. = 1173 هـ. بعـد ان لاقـى استصغـارا من بني قومه(44) • وفى اخبار سنة 1794م• = 1208هـ•، يخبرنا المؤرخ ياسين العمرى الذى يترجم «للشيخ الوهابى» بأن محمد بن عبد الوهاب كان قد حل بالموصل سابقا عندما كان طالبا للعلوم ، ودرس على يد العالم ملا حمد الجميلي وغيره ، « ورافق الملحدين ... » ثم سافر الى مكة (45) ومن خلال بقاء مؤسس الحركة الوهابية بالموصل ، فانه شهد النزاع الفكرى المحتدم فيها بين السلفييـن المواصلة من الاحرار المجددين وبين المتصوفة والفئات المحافظة • ورجع الى بلاده متأثرا بالافكار الاصلاحية الجديدة .. ليبدأ بنشر دعوته الوهابية التى ستأخذ لها فيما بعد طابع الحركة التاريخية الشهيرة ، من خلال انتشارها فى مجتمع مفتوح بين القبائل . وفى حين ان الحركة السلفية ـ الموصلية تبقى أسيـرة اسوار الموصل ولا تتعداها منذ العهد الجليلي وحتى يومنا هذا ٠٠ فى حين انها تعتبر الجذر التاريخي لجميع الحركات الاصلاحية التى ظهرت فى محيطنا العربى خلال القرن التاسع عشر . اما النزعة العربية فهى الاخرى جذرا تاريخيا لحركة القومية العربية ، فاذا علمنا ان الموصل فى العهد الجليلي قـد شهـدت ولادة العديد من الافكار بواسطة الادباء والعلماء يبشرون بعروبتهم ، نـاهيـك عـن دواوين الولاية العربية .. ادركنا اصالة هذا الجذر الذى توقف عن الحـركة بعد زوال الحكم الجليلي . وقد بدأ النزوع العربى يأخذ مداه الحقيقى بعد انتصار الموصل فى دفاعها المجيد ضد نادر شاه فى حصاره لها سنة 1743 م• = 1156 هـ. ، اذ خلق ذلك الانتصار روحا جديدة عند العلماء والادباء كطبقة حية فى المجتمع الموصلى الداخلي .

يقول الاديب عبد الله أفندى الفخرى فى قصيدة شهيرة له يمدح بها والى الموصل الحاج حسين باشا الجليلي بطل دفاع الموصل ضد نادر شاه :

وانا من العرب الكرام أولى العـلى وفينا الهدى والمجد والعلم والفخر
ومـا ضم حب المال قط صدورنـا فأموالنـا عبـد واعراضنـا حـر
أبى المجـد الا ان نعيـش بعـزة اذا لم يكن عـز فمختارنا القبـر
وانـا لفينـا نـخـوة عـربيـة وأنا لنا جد به ينتهى الفخر (46)

---

(41) For details ; see, *DUR. I*, p. 405.
(42) S.K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. I, p. 126.
(43) *DUR. I*, p. 446.
(44) *Ibid.*, p. 336.
(45) *Ibid.*, p. 466.
(46) *Ibid.*, p. 420 ; see also, *SHAM.*, p. 123.

وتكرست أيضا من خلال هذا النزوع الحى ، الـوازع الـوطنى .. ليس للموصل فحسب ، وانما للعراق بأجمعه . فهذا مفتي شافعية الموصـل علي أفندى الغلامى ، يقول فى قصيدة له متشوقا :

برق تألـق فى الظـلام المسـدل	فأثـار فى الاحشاء ذكر الموصـل
أورى زنـاد الشوق بين جوانـح	جنحت الى ذكـر الحمـى والمنـزل
يـا أيها البـرق الولـوع بمهجتى	رفقـا فـديتـك بالفـؤاد المبتـل
هـات الحديث عن العـراق فاننى	أصبحت عن تلك البقـاع بمعـزل
أيـن العـراق وساكنوه لمن غـدا	بالـروم يسـأل كـل ركب مقبـل
حيا الحيا تلك الرحاب وان نـأت	عنـي فذكراها حليـف تخيلـي
ما الروم دارى يا بريـق ولا انـا	ممن تشد الى ذراها أرجلـي (47)

لقد انفردت الموصل عن بقية الولايات العربية فى المشرق العربى بحركتها الفكرية ، ومدارسها ، وبروز العشرات من علمائها وأدبائها الذيـن شكلـوا طبقة اجتماعية عريضة الاوصال ، غزيرة النتاجـات ، ومؤثـرة فى الحيـاة العامة .. واشترك العديد من رؤوسهـا فى الحيـاة السياسية والاجتماعية . كما وشهدت الفترة الجليلية ذلك النزاع الفكـرى بين الاحرار المجددين وبين المتصوفة والمحافظين والتقليديين ، وكان الجليليون ينزعون دائما للمحـافظة على القديم ... وكانت عديد من الطرق الصوفية منتشرة فى المجتمع الموصلى ، وكان أبرزها : النقشبندية والقادرية والرفاعية .. والتى انخرط فيها المئات من الرجال ، سواء كانوا من الاغنيـاء أم من الفقـراء . اضـافة الى مئـات الخطباء ورجال الدين فى الجوامع والمدارس الدينية (48) .. وعد مركز الموصل فى علاقاته الثقافية مستقطبا لمئات الدارسين والمتعلمين والزوار من مـراكز أقاليم وولايات عربية عديدة ، من الاقاليم الكردية ، أم من حلب وبلاد الشام ، أم من نجد والبصرة وبغداد .

4/2/4. طبقـة التجـار :

لهذه الطبقة وظائفها الكبيرة التى تحرك السوق المحلية ، وتأثر أقـاليم الولاية بالمركز بواسطتها (49) . اضافة الى أسواق أوربا ، وتكفى هنا الاشارة الى تأثر الموصل فى أسواقها التجارية بنشوب الثورة الفرنسية عام 1789 م. والتى كان لاحداثها أثر فى انقطاع أقمشة (الجوخ) عن المشرق العـربى ، وخصوصا مركزه التجارى بالموصل . «وانقطع الجوخ عن بلاد الاسلام ، وغلا حتى بيع الذراع الفرنساوى بستين درهما » (50) . كان التجـار يتمتعـون

(47) *SHAM.*, p. 154.

(48) For historical details ; see, *MAN.*, vol. I, pp. 5-126.

(49) انظر : يوسف رزق الله غنيمه ، تجارة العراق قديما وحديثا ، بغداد ، 1922 ، ص 63 .

(50) *DUR. I*, p. 463.

بامتيازات فى ظل الوالى الجليلي . وينقسم التجار المواصلة الى قسمين رئيسيين : تجار كبار وتجار محليون . يتعامل التجار الكبار مع الموصل كمركز فى علاقاتهم بمراكز الولايات الاخرى كبغداد أو حلب أو ديار بكر أو اسطنبول أو ماردين ونصيبين وهمدان والشام . اما التجار المحليون ، فهم الذين يتعاملون مع الاقاليم الجبلية فى شمال الموصل فى تصريف المنتوجات المحلية ، والتبادل السلعي الذى يعتبر أساسا فى حصيلة المعيشة اليومية . وكان التجار حماة السلطة المحاية ، وكثيرا ما حصلت تجاوزات من قبلهم ابان الازمات الاقتصادية التى حاقت بالموصل ، وتضاعفت ظاهرة الاحتكار المحلى للسلع والمنتوجات .. وهذا ما نراه مثلا عند تجار القمح والشعير من العلافين وتجار الموارد الاخرى ، كالسمن والقهوة واللحوم (51) ... الخ (انظر : بند 3/5) . كانت طبقة التجار تتمتع بالثراء ، وكان الثراء الفاحش من نصيب التجار الكبار الذين يستفيدون من موجات الغلاء الكاسحة التى كانت تضرب اطنابها الموصل وبقية الاقاليم . وقد وصل الامر لكى يستدين عبد الفتاح باشا الجليلي والى الموصل 1769 ـ 1771 م. من تجار الموصل ثمانين ألف قرش ، واعطاهم املاكه رهنا (52) . من هنا نلاحظ ، كم كانت هذه الطبقة تستحوذ على أرباح نتيجة لخدماتها التجارية أو تجاوزاتها الاحتكارية التى كانت تمارسها فى أسواق مدينة اقتصادية كبرى . ويظهر لنا بأن ضرائب الحكومة على القوافل التجارية كانت كبيرة جدا ، فى حين ان ضرائبها على التجارة الداخلية كانت قليلة . ويتصل التجار اتصالا وثيقا بكل من المزارعين فى الريف ، والحرفيين فى المدينة . وبحكم موقع الموصل الجغرافى ومركزها التجارى ، فقد نزح اليها واستوطنها اناس من حلب وديار بكر وحصن كيفا وبغداد وماردين وسنجار والشام ... ولدينا اشارة تاريخية عن استيطان احد المغاربة الموصل وزواجه فيها (53) .

5/2/4. الحرفيون والصناع المواصلة :

اشتهرت الموصل منذ القديم بالظاهرة الحرفية ونشاطاتها فى تصنيع المنتوجات المحلية ، وأداء الخدمات اليومية فى المجتمع . وقد شكلت الطبقة الحرفية وزنا له قيمته فى الاحداث الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، اذ اعتمد النشاط الحرفى على الحالة الاقتصادية التى كانت تعيشها الولاية (54) . ويظهر لنا ان مكانة الطبقة الحرفية قد ازدهرت فى العهد الجليلي ، وعلى الاخص بعد انتصار الموصل على نادر شاه فى حصاره الشهير لها سنة 1743 م. ،

---

(51) *Ibid.*, p. 381.

(52) *Ibid.*, p. 406.

(53) *Ibid.*, pp. 373-4.

(54) تذكر مذكرات دومينيكو لنزا ، بان اغلب الصناع والحرفيين المواصلة كانوا ينتسبون الى اورطات الانكشارية . انظر : دومينيكو لنزا ، المصدر السابق ، ص 61 .

وخصوصا فى عهد الوزير الغازى محمد أمين باشا ، اذ وصل النشاط الحرفى والنقابى فى عهده الى حد الترف واتخاذ المسؤوليات والمشاركة فى الاحتفالات الكبرى التى تقام فى المناسبات الامبراطورية • فكانت شوارع الموصل تشهد خلالها عبور الكرنفالات من أمام منصة الوزير الوالى .. ومنها الاحتفالات التى أقامتها الموصل ونقاباتها بمناسبة ولادة أحد أبناء السلطان مصطفى الثالث (55) ، وكان هذا السلطان هو الذى أمر باقامة المهرجانات بهذه المناسبة فى معظم ارجاء الدولة . يحدثنا صاحب الدر المكنون قائلا : « فزينت الاسواق والخانات والحوانيت فى الموصل سبعة أيام . وكل يوم فى الصبح والعصر والعشاء يصنع أمين باشا الجليلى فى الصراى شنلك وتضرب الطبول ، ثم تضرب التفنكات والمدافع والناس تجتمع للفرجة . وفى اليوم السابع اجتمعت الاصناف أهل الحرف بالزينة ودخلوا الصراى ، وأول من دخل الحراثون ثم الباغين ثم باقى الحرف بالزينة وأكثر منهم على العربانة مثل الخباز له تنور يخبز ويرمى الخبز على الناس ، والنجارين على العربانة يشقون الخشب ، والحدادين أيضا ، وأمثال ذلك . ويصعد شيخ الحرفة الى عند أمين باشا فيخلع عليه بما يليق به وكان يوما مشهودا » (56) .

كان لكل حرفة شيخها الذى ينتخبه ابناء الصنعة وهو أكبرهم وقد قضى فترة طويلة من حياته فيها .. فيأتى كمسؤول يسيطر على حركتها ، ويزيدها من خلال جهازه النقابى أهمية وفاعلية . ويعتبر الحرفيون والصناع المواصلة طبقة تتصل مباشرة بحياة الناس وتقديم ما يحتاجونه فى حياتهم .. كما وانهم يرتبطون بعلاقاتهم مع التجار الصغار والكبار (57) . فكان لهم تأثير واسع فى السوق المحلية ، كما وكانوا يعملون مع السلطة فى بعض الاحيان من أجل تبادل المنافع بين الطرفين • وقد يتعرضون لامتهان الجيش الانكشارى ، أو انهم يشاركون فى الاحداث المحلية فى الانقلابات المتعددة ضد الولاة الاجانب .

كان الحرفيون والصناع المواصلة ينتشرون فى أماكن معينة من المدينة القديمة ، وكان لكل حرفة مكان معين من السوق الكبير أو سوق الميدان أو السوق الفوقى أو سوق العتمة • كما وان بعض الحرف تنتشر لتؤدى خدماتها اليومية متنقلة بين ملة وأخرى من الموصل • وشهدت هذه الطبقة تطورا كبيرا فى العهد الجليلى أدى فى نتائجه الى نمو رأس المال والنمو الحضرى .. وذلك من خلال جودة المصنوعات المحلية التى أعجبت بها أوربا بصورة خاصة.

---

(55) S.K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol., p. 306.

(56) *DUR. II*, p. 939.

ورد في النص ، مصطلح (شنلك) ، وهي كلمة تركية معناها (المهرجان) او الاحتفال الشعبي ، انظر : *ibid.*, vol. I, p. 318.

(57) Kemp, *op. cit.*, p. 211.

لقد كانت الموصل عامرة بالحرف والخدمات الحرفية ، وكانت طبقتها الاجتماعية تؤلف فئة جامعة للموارد من خلال ارتباطها بالتجار .. اما الصناع الذين اعتبروا شريحة اجتماعية واسعة فكانوا من متوسطي الدخل ، ولعل في تقسيمنا لاغلب الاصناف الحرفية تطلعنا على تركيبتها الطبقية المشتركة بين رؤوسها والقاعدة التي تؤلفها ، فهناك : العلافون والدباغون والنجارون والحدادون والقصابون والسقاؤن والصاغة والعطارون والنساجون والبزازون والقزازون والغنامون والحبالون والحلاقون والخبازون والسماكون والصرافون والعنازون والجماسون والشعارون والحراتون والخشابون والكلاكون والحبارون والصوافون والدهانون والحمامون والدلاكون والوراقون والطحانون والصباغون والملاحون والسراجون والحياكون والخطاطون والبناؤون ... الخ . ولو تأملنا – اليوم – ظاهرة تسميات عشرات من الاسر الموصلية في القابها العديدة ، فاننا سنقف على ظاهرة قلما نجدها في مدينة عربية أخرى وخصوصا في ولايات المشرق العربي .. اذ ان تلك التسميات والالقاب الاسرية انما تعود في انتماءاتها الاجتماعية المحلية الى الحرفيين القدماء الذين تواصلوا في الموصل على امتداد القرون المتأخرة . وقد امتدت حركة هذه الاسر الاجتماعية في هجراتها ونزوحها الى أماكن عديدة من العراق وبلاد الشام بحكم الاتصالات التجارية الواسعة بين الموصل وكل من مدن العراق وبلاد الشام (58) .

لقد شكلت الموصل مركزا حيويا للتطور الحرفي ، وغدت كيانا له شديد التعقيد . وكان الحرفيون في بعض صنوفهم يعانون شديدا من الازمات الطبيعية التي تلم بالموصل كانجماد نهر دجلة ، وانقطاع خطوط المواصلات ، وموجات الجراد الكاسحة التي تأكل الاخضر واليابس من المحاصيل الزراعية ، أو انهم يقعون تحت وطأة الاحتكارات التي يمارسها التجار ، وخصوصا تجار الحبوب واللحوم والجلود .. وكانت السلطة المحلية تفرض على كل من التجار وأرباب الحرف والصناع ضرائب عديدة . ولم يقتصر تسويق المنتوجات الحرفية على أبناء المدينة ، بل ان أسواق الموصل وحوانيتها كانت مركزا سوقيا لابناء الاقاليم المجاورة وتجار الولايات الاخرى .

4/2/6. الطبقة الفقيرة :

تشكل هذه الطبقة المسحوقة ، قاعدة اجتماعية مفرغة من جميع الامتيازات والحقوق التي كان يتمتع بها الصناع أو التجار أو الجيش . وكانت ابناء فئات هذه الطبقة هم أول من يتعرض للانتكاسات والهزات الاقتصادية ، وازمات الغلاء الفاحش التي تعم الولاية من وقت لآخر نتيجة الجدب في المحاصيل الزراعية ، أو عملية افتعال واستغلال الازمات الاقتصادية عن طريق الاحتكار الذي يمارسه التجار والعلافون وأرباب الحرف المعيشية .. كما وان الفقراء كانوا

(58) S.K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. I, pp. 142-3.

دائما عرضة للامراض وطعاما مهينا للكوارث • ومن خلال النصوص التاريخية المتعددة التى تحكى قصة الاوضاع الاجتماعية لمدينة الموصل ، نتبين بأن الطبقة الفقيرة كانت تشكل نسبة عالية من السكان سواء كانوا فى المدينة ، أم فى أريافها ورساتيقها . وغالبا ما تطالبهم السلطة المحلية فى الانخراط بصنفين من الاعمال : أولا : كشغيلة وعمال فى البناء والزراعة والترميمات بأجور يومية • ثانيا : كجنود دفاع أو هجوم فى الحملات الاقليمية التى يتزعمها وزراء الاسرة الجليلية فى حركاتها ضد المناوئين للحكومة من القبائل العربية والكردية المحيطة بالموصل شرقا وغربا . وكانت الطبقة الفقيرة جزءا من حلقة النزاع المحلي فى المدينة . ولا يقتصر أمر ازمات الغلاء التى كان يواجهها الفقراء على سوء الظروف الطبيعية كانقطاع الامطار وموجات الجراد ، بل لقد علل شاهد الاحداث تلك الظاهرة بقوله : «عم الغلاء بعض البلاد منها ديار بكر لجور الولاة ونهب أموال العباد وقتل أمرائها وأعيانها . وأما الموصل لعدم غلاتها وكثرة أهلها حتى بيعت الحنطة الرطل بدرهم ونصف ، والشعير بدرهم ، وذلك أيام الخريف • ويصير ازدحام من الفقراء على الشراء • واما العقر والعمادية وجبال الاكراد ـ وكانت هذه المناطق من أقاليم ولاية الموصل ـ فمن جور ملوكهم وأمرائهم ونهب القبائل والعشائر •••» (59) • وهكذا يقول فى مكان آخر : «••• ففى سنوات المحنة والكرب والغلاء ، يقع الموت بالفقراء دون الاغنياء » (60) . فى ازمة الغلاء التى اكتسحت الموصل سنة 1756 م = 1169 هـ . ، أمر الوالى محمد أمين باشا ان يطبخ كل ليلة شوربة وتطعم للفقراء » (61) • اما فى غلاء سنة 1786 م• = 1200 هـ• ، فقد أمر الوالى محمد باشا ابن محمد أمين باشا الجليلى ببناء العديد من الافران بلغ عددها خمسة عشر فرنا لصناعة الخبز ، وتوزيعه على الفقراء (62) . ورغم هذه السياسة الا ان التفاوت الطبقى بقي كبيرا ، وكان يعرض الطبقة الفقيرة للموت والدمار .

* * *

5. الحياة الاقتصادية للموصل :

5/1. الثروات الاقتصادية بين وقع الضغوط وظواهر الابادة :

بانت جملة واسعة المحتوى من الظواهر الاقتصادية ، بفعل الظروف الطبيعية ، وأدت الى بلورة الانهيار الذى بدأت ملامحه تبرز للعيان فى الحالة الاقتصادية . وقد أدى ذلك كله الى زحزحة الاستقرار الاجتماعى فى حياة

---

(59) *DUR. II*, p. 1195.

(60) *DUR. I*, p. 390.

(61) *Ibid.*, p. 380.

(62) *Ibid.*, p. 448.

المدينة بصورة خاصة ، منها : تدعيم منزلة الطبقات أو الفئات الغنية من الملاكين والتجار والاغوات والجلبية .. على حساب طبقة العلماء ، والفئات الكادحة من العمال والصناع والطبقة الفقيرة • تمثلت تلك الظواهر فى الاخطار والكوارث الاقتصادية ، وموجات الامراض والسواعين التى اجتاحت ولاية الموصل على مدى زمني طويل خلال القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر .. وخصوصا بعد انحسار حالة الحرب الدائمة والمنجزة مع الغزاة الفرس الاجانب سواء كانوا من الصفويين أم الافشاريين .. وعلى شكل حركات حربية كانت دائمة الحضور على المجتمع العراقى قاطبة منذ أوائل القرن السادس عشر ـ البدايهة التاريخية لاشتعال الصراع العثمانى ـ الايرانى ـ وحتى سنة 1743 م. ، بعد ان كان بارزا على مدى سنوات فارقة من القرن الثامن عشر هى : 1723 م. = 1136 هـ. ، 1731 م. = 1144 هـ. ، 1732 م. = 1145 هـ. ، 1733 م. = 1146 هـ. ، وأخيرا سنة 1743 م. = 1156 هـ.

ان ظروف الكوارث والابادة قد أدت من دون شك الى تحويل الارياف فى اقليم الموصل الى مساحات شاسعة من القفر واليبوسة .. وأراض لا تزرع بسبب استنزاف الكوارث لعدد هائل من سكانها ، فكثرت بذلك حالات السلب والنهب والاغارة على القوافل أولا ، وعلى مراكز الرعاة والزراعات الموسمية أو السيقية ثانيا . ان ابرز الظروف الطبيعية الصعبة هى غزو الجراد بمختلف أنواعه وخصوصا النجدى منه على المحاصيل ، وخصوصا محاصيل القمح والشعير • وقاد ذلك الى نتيجة أخرى هى الغلاء وانعدام المأكول • وهناك ظاهرة الانجماد لنهر دجلة الذى يعطل الحركة فيه شمالا وجنوبا . اضافة الى انقطاع الامطار ، وما يسببه من موت للزروع والمحاصيل (1) . هذه الظواهر جميعها قادت الى انتشار سياسة الغزوات المحلية ، وتفاقمها ضد القبائل والعشائر المتنوعة سواء كانوا عربا أم اكرادا أم من اليزيدية ، وعلى جانبى الاقليم الذى يشقه نهر دجلة شقا من وسطه . وكان المركز المتمثل بمدينة الموصل يؤكد طبيعة هذه الظواهر ونتائجها من خلال تجاوزات اللواحق والتوابع ، وكمجمع للمسالك عموما .. اضافة الى ذلك المجتمع المالك الذى سيطر على أغلب الاقطاعات الزراعية والرعوية من خلال الحكومة الاقطاعية وطبقة ملاك الاراضى والتجار الكبار ... علما بأن مركز الموصل ذاته كان يتأثر طرديا فى اقتصادياته بالظروف الطبيعية الصعبة التى يمر بها الاقليم عموما . ورغم ذلك ، فان القبائل المختلفة كانت تدرك ان مركز الموصل من الثراء بمكان باعتباره مجمعا للمحاصيل والثروة الحيوانية ، والمنتوجات

---

(1) في تاريخ هذه الظروف التاريخية الصعبة ، انظر التفاصيل في :
DUR. I ; *DUR. II* ; *MAN.*, vols. I, II ; *MUN.*, chap. III ; *ZUB.* ; see also, S.K. Al Jamil, *op. cit.*, vol. I, « The Economy », pp. 141-2.

الحرفية والذى يمثل فى طبيعته اقتصادا حضريا ، يتطلع اليه ابناء الاقاليم واللواحق والدساكر والرساتيق من خلال الاستحواذ لا من خلال عمليات التبادل فى السوق (2) • وليست لدينا احصائيات ثابتة عن مقدار الضرائب التى كانت تفرض على جميع السكان فى داخل المدينة وخارجها .. اضافة الى أرقام ضرائب المكوس والجمارك على أصناف السلع المصدرة ، وعلى مرور رحلات القوافل التجارية (3) . الا ان هناك بعض الملاحظات المهمة التى تفيدنا فى رصد الثروات التجارية والمحاصيل الزراعية لشمال العراق ، فمنذ كانت فى ظل الظروف العادية توفي بحد الكفاية ليس بالنسبة لاستهلاك السكان ، وانما لتوفير المبادلات أو للتخزين تحسبا لاجتياح المصاعب والضغوط الحربية القاسية ، أو لاسعاف الاقاليم العراقية الاخرى ، وعلى الاخص بغداد التى كانت تنجدها محاصيل الموصل فى الظروف الصعبة التى كانت تتعرض لها فى أوقات شتى . ونقف فى أسواق الموصل الثرية خلال القرن الثامن عشر لنشهد عظمة الاعمال التجارية البارزة لمواد الجلود والصوف والحبوب والزيوت والحيوانات والفحم والقطن والقهوة وغيرها (4) .. كمنتجات أساسية تتوقف عندها عجلة الحياة بين الرخص والغلاء . ولكن يضاف الى هذا الانتاج الاساسى الذى يتدفق على أسواق المدينة من لواحقها وأقاليمها •• تضاف اليه منتجات رساتيقها وبساتينها القريبة منها والدائرة حولها ، وخصوصا على الجانب الشرقى من نهر دجلة حين تكون الظروف ملائمة للانتاج السقوى سنويا كان أم فصليا ، ومنه انتاج : الخضروات والفواكه والكروم والبقول .. من الزراعات السقوية القديمة • وكانت المنتوجات الحرفية والصناعية ـ الزراعية تتكاثر أيضا بشكل كبير مثل : القطن ، وشجر دودة القز لانتاج الحرير الذى يزهر صناعة الموسلين العريقة فى الموصل والتى اشتهرت به منذ القديم وفى كافة انحاء العالم (5) . وكانت الموصل هي المصدر الاساسى للجلود المدبوغة والمجففة بأنواعها الى العالم ، وكانت بريطانيا تستورد الآلاف منها ، وتصدر اليها عن طريق نهر دجلة ، ثم البصرة والبحر (6) .

يعتبر كل من سهل الموصل وسهل اربيل المتجاورين من اعظم السهول الزراعية لانتاج الحبوب (= القمح والشعير) (7) . ويقعان على الجانب

---

(2) *Loc - cit*

(3) Lady Ann Blunt, *Beduin Tribes of the Euphrates*, London, 1968, vol. 2, p. 187.

(4) For details ; see, J.S. Buckingham, *Travels in Mesopotamia*, London, 1827 p. 86.

(5) *Ibid.*, p. 116.

(6) انظر وثائق الكولونيل تيلر :
« *Letters from L.t. Col. R. Taylar* », Pabilical Agent in Turcks, fo. 195/113, Part One A. ; (British Museum Library).

(7) For details ; see, Col. Chensey, *op. cit.*, vol. I, pp. 316-9 ; see also, Binder, *Au Kurdistan, en Mesopotamia et en Perse*, Paris, 1887, p. 216.

الشرقى من نهر دجلة . وتزرع الحبوب أيضا فى بـادية الجـزيرة الفراتية . وتعتمد زراعة الحبوب على مياه الامطار مائة بالمائة .. ويشترك كل من العـرب والاكراد فى زراعة الحبوب وتربية المواشى . اما الجاموس فيربيه عرب الانهار الذين يعتمدون الزراعة السقوية للخضروات . اما الفواكه فهى من نصيـب الاكراد فى أعالى الجبال كمنتوجات متنوعة كالجوز واللوز والبندق والكستناء والقسطل والحبة الخضراء والبطم والتوت والزعرور والجوز ومن السماء .. ومختـف أنواع الفواكه عدا الحمضيات . اضافة الى ذلك ، فهناك انتاج الفحم والاخشاب المختلفة فى نوعياتها (8) . ويعتبر سوق الموصل هو المركز الذى يستقطب تجارة مختلف هذه المحاصيل والمنتوجات . أما التيـن والزيتـون والشمع والعسل والمعز والزيوت والالبان فهى منتجات القرى اليزيدية سواء فى منطقة بعشيقة وعين سفني فى شرق دجلة .. أم منطقة سنجار فى قلب بادية الجزيرة والواقعة قرب جبل سنجار تلك المنطـقة الاقليميـية ببساتينها وأطيابها المتنوعة (9) . اما انتاج الفستق والمكسـرات التى تشتهـر بهـا الموصل ، فهى الموصوفة بـ (انعام الرساتيق) (10) . ولها صناعتها المحليـة التى تستقطبها بعض بساتين مدينة الموصل . هذا اضافة الى ما تنتجه القرى القريبة والمحيطة بالموصل من الطرف الشرقى والتى ينتشر فيها عرب الانهار من المزارعين المسلمين والمسيحيين ، اذ يقوم هؤلاء بانتاج انـواع البطيـخ : المائى (= الشمزى ـ باللهجة الموصلية ـ) والاصفر (11) .. اضـافة الى الزيوت والخمور والزهور والالبان والخضروات السقوية ، وخصوصا قرى تاكيف وتل اسقف وقره قوش وباطنايا . اما اكراد منطقة العقر . فينتجون الرز والتبغ بشكل أساسى . وتنتشر جماعات سكانية فى قرى معدودة قبالة الموصل شرقا وعلى طريق الموصل ـ اربيل ، تسمى بـ (الشبك) والتى تعود أصولهم الى الفرس ويدينون بالمذهب الشيعى ، وقد سكنوا هذه المنطقة فى تضاعيف القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر .. وينهمك هؤلاء بتربية المواشى والدواجن ليسدوا احتياجات سكان المدينة فى معيشتهم اليومية .

5/2. العلـل والمسببـات :

كان الاعتماد على هطول الامطار كبيرا فى زراعة الحبوب وخصوصا القمح والشعير ، فاذا ابطأ نزول الغيث ، فان ولاية الموصل تبدو وكانها على أبواب محنة اقتصادية قاسية ، كما حدث ذلك سنة 1732 م. = 1143 هـ. (12) .. وقد يعجب المؤرخ فى دراسته للاوضاع الاقتصادية للموصل ، وخصوصا فى

---

(8) *Ibid.*, pp. 216-212.

(9) ص. الدملوجي ، المرجع السابق ، ص 191 .

(10) *DUR. I*, p. 392.

(11) S.K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. I, p. 298.

(12) *DUR. I*, p. 342.

مقارناته بين طبيعة منتوجاتها الاقتصادية المتنوعة ، وبين الاحداث القاسية والمزمنة التى مرت عليها ، وخصوصا فى القرون المتأخرة . وهنـاك أسبـاب عديدة حيال الاخفاقات الاقتصادية والضغوط التى حلت بالمجتمع خلال الفترة المعنية منها :

1 ـ انعدام نزول الامطار يعود بالانتكاسة على انتاج المحاصيل الاسـاسية المعتمدة عليها أولا وأخيرا .

2 ـ زحف الجراد فى موجات عاتية تتقادم من هضاب نجد عبـر جنـوبى العراق ، فيأكل الاخضر واليابس .

3 ـ النزاعات الشائكة التى كانت تشتعل بين المركز واطـرافه ، أو بين الاطراف ، بعضها بالبعض الآخر .. وكانت أسبابها اقتصادية بالدرجة الاولى.

4 ـ كثرة السكان ، وخصوصا فى مركز مدينة الموصل ، وعلى نحو كبير كما أبرز ذلك العديد من المؤرخين والرحالة الاجانب . فاذا كان جملـة من قتله الطاعون سنة 1772 = 1186 هـ هو أكثر من ستمائة ألف نسمة (13) .. اذن ، كم كان عدد سكان المدينة ؟؟ دون شك هو ضعف ذلك .

5 ـ التفاوت الطبقى فى المجتمع الحضرى ، واعتماد هذا الاخير على منتجات الاطراف . ولم يكن هناك توزيع عادل للثروات التى كانت تعج بها الموصل فى مركزها واطرافها على حد سواء . فاذا كان الملاكون والتجار والاغوات هم الذين يسيطرون على حركة اقتصاد الولاية . فان أقاليم الولاية واطرافهـا ، فكان هناك رؤساء القبائل والعشائر من الشيوخ والمتنفذين هم الذين يملكون كل شيء .. وحتى الانسان فى بعض الاحيان .

6 ـ انقطاع المسالك والطرق والممرات الجبلية اثر تساقـط الثلـوج ، أو انجماد نهر دجلة بحيث تمتنع عن الانسان الوسائل البرية والنهرية فى حركة التنقل للبيع والشراء .

7 ـ ضعف الادارة الجليلية فى أواخر القرن الثامن عشر وبـداية القـرن التاسع عشر ، عنها لما كان عليه حالها فى عهودهـا الاولى ، وخصوصـا فى سياستها الاقتصادية .

3/5. ضغـوط الحـالة الاقتصـادية وازمـاتها :

اذا تتبعنا السنوات العقيمة التى مر بها السكان فى الموصل .. وتتبعنـا أخبارها الاقتصادية ، لوجدنا ان انحباس المطار وغزو الجراد .. عادة ما يؤدى الى قلة أو انعدام فى انتاج المحاصيـل الاساسية ، ممـا يقـود الى كـوارث

---

(13) *Ibid.*, p. 411.

اقتصادية من خلال ازمات الغلاء التي تقود الى وقوع المجاعة بأولئك المساكين من الفقراء وذوى الدخل المحدود . أو قد تقف ازمة الغلاء فى حدودها لتمر دون ظاهرة الابادة التى شهدتها الموصل فى سنوات سوداء معروفة فى تاريخها الاقتصادى النشيط ، وحركته الدائبة • ففى سنة 1742 م• = 1154 هـ• قحط المطر في الموصل نحو شهر ، وضاقت الاحوال (14) • وقحط المطر أيضا فى بداية سنة 1743 م• = 1155هـ• وفى السنة التى اعقبتها 1743 م• = 1156هـ• ، حاصر نادر شاه الموصل بجيوشه الغازية التى بلغت ثلاثمائة ألف مقاتل ، فى حين كانت حكومة الموصل وسكانها قد احتاطت للامر ، فخزنت الحبوب والمواد الغذائية قبيل بدء الحصار تحسبا من اطالته عليهم فى ظروفهم الصعبة داخل الاسوار ، وهم منقطعون عن العالم (الخارجى) • وفى سنة 1756 م• = 1169 هـ• ، بدأ غلاء كبير نتيجة لهجوم موجات كثيفة من الجراد ، وأكله زروع الموصل (15) • وفى سنة 1757 م• = 1170 هـ• ، اشتد الغلاء كثيرا بفعل الجراد ، ومات فيه خلق كثير من الجوع ، وبيعت الحنطة ستة أرطال بثمانية دراهم ، والشعير الرطل بدرهم ، والملح بدرهم وربع درهم (16) . وبدأت المجاعة الكبرى .. ورافقها انعدام الفحم والحطب والاخشاب .. كما رافقتها احتكارات للحبوب من قبل التجار ، وعندما تولى الموصل الوزير مصطفى باشا ابن عظم أمر بالقاء القبض على اثنين من أولئك العلافين وصلبهم نتيجة لتلاعبهم بقوت الناس ، وأمر بتعليق الموازين (17) • وقد قاد هذا الظرف العصيب الى نتائج عديدة اثرت على حركة تطور المجتمع ونكوصه ، اذ هرب كثير من أهل الموصل ، وتفرقوا فى البلاد من شدة الجوع ، وبدأ الفقراء ينادون فى الشوارع مستغيثين من آلام جوعهم ، وينامون فى الازقة ، ثم يموتون فيها (18) • وقد رافق ذلك موجة برد عاتية ، جمدت فيها مياه نهر دجلة مما تسبب انقطاع المواصلات من كثرة الثلوج ، فانعدم ـ أيضا ـ وصول الفحم والاخشاب الى المدينة من منطقة الجبال .. كما وقل الماء ، وقل الملح أيضا وبيع كل (حقة = 2 كيلو غرام) بثمان مصريات . وقد كان مثل هذا هو شىء غير مألوف أبدا فى الحياة الاقتصادية أو الاجتماعية آنذاك .. وعلى حد قول شاهد عيان فى نصه : « وهذا شىء لم نسمعه ولا رأيناه » (19) .

قادت هذه التأزمات الخطيرة الى الانفجار بين سكان المدينة الذين كانوا منقسمين سياسيا على انفسهم بين (الميدان) وبين (باب العراق) ، ووقع الاصطدام بينهما اياما يسيرة بسبب شدة الجوع (20) . وكان قد ولي الموصل

(14) *Ibid.*, p. 359.
(15) *Ibid.*, p. 380.
(16) *Ibid.*, p. 381.
(17) *Loc. cit.*
(18) *DUR. II*, p. 929.
(19) *Loc. cit.*
(20) *DUR. I*, p. 384.

رجب باشا الحلبي الذى انزوى فى سرايه أشهرا خوف انكشارية الموصل فى (الميدان) الذين اعلنوا العصيان عليه ، فهرب نحو باب العراق واحتواه بيت عثمان أفندى العمرى ، ثم عزلته السلطة العثمانية ، وارجعت للموصل الوزير الحاج حسين باشا الجليلى الذى أمر باعتقال اخيه عبد الفتاح بيك ومناصريه الذين تحالفوا معه ضد محمد أمين باشا والذى تسلم مقاليد الادارة اثر وفاة والده الحاج حسين باشا بعد أيام قليلة من رجوعه الى الموصل .

وفى سنة 1769 م. = 1183 هـ. ، انعدمت الامطار مرة أخرى ، ولكن لم تحدث مجاعة خطيرة كتلك التى وقعت سنة 1785 م. = 1200 هـ. فى عهد عبدى باشا الجليلى : قحط المطر ، وبدأ غلاء الاسعار ، فبيع رطل الحنطة بدرهم وأكثر ، وبيع رطل الشعير ونصف الرطل بدرهم ، ورطل لحم البقر أو الثور بمصرية ، والفرس الجيدة بعشرين قرشا (21) . ثم اشتدت ازمة الموصل الاقتصادية من خلال الاسعار التالية :

سنة 1200 هـ. 5 ارطال حنطة = 8 دراهم .
7 ارطال شعير = 8 دراهم .
1 رطل ملح = 1 درهم .
1 رطل سمن = 9 دراهم .
1 رطل قطن = 2 درهم (22) .

سنة 1201 هـ. 1 رطل حنطة = 1 درهم ونصف درهم .
1 رطل شعير = 1 درهم (23) .

أما فى سنة 1794 م. = 1209 هـ. ، فقد صادف ان حل البرد الشديد فى قرى الموصل ، واتلف زرع ست وثلاثين قرية ، واعقبه برد شديد آخر ، اتلف زرع خمس قرى أخرى .. وتهاطلت الامطار بغزارة على امتداد ربيع ذلك العام وشهر من صيفه ، ففسدت الزروع والبذور .. ودخلت ازمة جديدة باحتراق مائة وعشرين طغارا من البذور فى حريق هائل شب فى قرية النمرود القديمة فى شرق الموصل (24) ... وعاد الغلاء من جديد بحلول سنة 1795 م. بغزو الجراد هذه المرة واكله لزروع القمح والشعير والقطن الذى زرعوه للمرة الثالثة فى أواخر شهر حزيران من السنة نفسها ، وتوضحت اسعار ذلك الغلاء على النحو التالى :

(21) *DUR. II.* p. 1054,
(22) *DUR. I,* p. 444.
(23) *Ibid.,* p. 442.
(24) *Ibid.,* p. 409 ; see also, *DUR. II,* pp. 1107-8.

	السعر		المنتوج
سنة 1795 م. = 1209 هـ.	I وزنة ونصف حنطة	=	I ريال
	3 وزنات شعير	=	I ريال
	I المن من الزبيب	=	10 دراهم ونصف درهم
	I المن من القطن	=	3 دراهم
	I ذراع جوخ جيد	=	10 قروش
	I ذراع جوخ فرنسي	=	6 قروش
	I المن من القهوة	=	30 قرشا (25)
سنة 1797 م. = 1212 هـ.	I رطل سمن	=	10 دراهم
	I رطل لحم	=	2 درهم
	I رطل ليه	=	3 دراهم ونصف
	I رطل ملمح	=	I درهم
	I رطل عسل	=	6دراهم
	I رطل تمر	=	2 درهمان ونصف
	I رطل صمغ	=	9 دراهم (26)
سنة 1798 م. = 1213 هـ.	I رطل فحم	=	2 درهم (27)
	I المن من القهوة	=	60 قرشا (28)
سنة 1800 م. = 1215 هـ.	I رطل تمر	=	4 دراهم ونصف
	I رطل زبيب	=	3 دراهم
	I رطل تين	=	3 دراهم (29)
سنة 1801 م. = 1216 هـ.	I حقة بصل	=	I درهم (30)

ان العملات المستعملة كانت عثمانية ، تصل فى حركتها من السوق واليه من خلال حكومة الوالى ، ويقوم الوالى باستحصالها وتحريكها ، وله حق ايقاف العمل بها ، ومنها : الدرهم ، القرش ، الاقچة ، المصرية ، الصاغة ، الريال ،

(25) *DUR. II*, p. 1114.

(26) *DUR. I*, p. 417.

وقد سبب هذا الغلاء في هذه السنة الى تعطيل العديد من الاعمال الحرفية . انظر : *loc. cit.*

(27) *Ibid.*, p. 482.

وقد سبب غلاء هذه السنة الى تعطيل حرفة الحدادين والصاغة بغلاء اسعار الفحم . انظر : *loc. cit.*

(28) *DUR. II*, p. 1136.

وقد سبب غلاء القهوة الى تعطيل كثير من المقاهي . انظر : *loc. cit.*

(29) *DUR. I*, p. 491.

وكان سبب هذا الغلاء انقطاع سبل المواصلات وانقطاع القوافل . انظر : *loc. cit.*

(30) *DUR. II*, p. 1177.

الفلس ... الخ. اما الاوزان فتتباين مكاييلها عن تلك التى تستعمل فى بغداد أو حلب أو ديار بكر أو البصرة أو الشام ، ومنها : الحقة الموصلية ، الكيلة ، المن الموصلى ، الوزنة ، الاردب المصرى ، الطغار الموصلى ، التومان ، الرطل ... الخ .

★ ★ ★

6. التركيب الاثنوغرافى لسكان ولاية الموصل :

تميز مجتمع الموصل بميزات خاصة ، قلما نجدها فى غيره رغم أوجه التشابه بينه وبين مجتمعات عربية أخرى مجاورة له أم بعيدة عنه فى اطار العالم العثمانى ، وخلال الفترات العثمانية بالذات . وقد اكسبته الظروف التاريخية الشديدة التى مر بها مثل تلك الميزات أو الخصائص المنفردة فى محيطه الخاص ، سواء كان ذلك فى ولايته كاقليم واسع الابعاد ، أم فى مركزه : مدينة الموصل كعاصمة لذلك الاقليم الاستراتيجى الذى يحتل – اليوم – رقعة شمال العراق . ونجد ان اختلافات مجتمع المدينة يكاد يكون مختلفا اختلافا كبيرا عن المجتمع العام للاقليم نفسه حتى فى اللهجة المحلية ، فاللهجة المحلية والعامية الموصلية تنحصر استعمالاتها داخل اسوار المدينة فقط .. وهذا ينسحب على بعض العادات والتقاليد والممارسات .. ويرجع السبب فى هذه الاختلافات الى عوامل جغرافية واثنوغرافية أساسا ، اضافة الى عوامل تاريخية بالغة التعقيدات .

6/I. **المدينة :** يتركب مجتمع مدينة الموصل فى فترة العهد الجليلى من بدائل اثنوغرافية – سكانية ، تختلف فى أصولها وجذورها ولكنها تشترك بقاياها وحياتها الاجتماعية واللهجة الخاصة التى تميزها ، والعامية الموصلية التى تنفرد بها .. وكذلك ، عاداتها وتقاليدها وتجاربها وممارساتها فى الحياة. يشكل العرب النسبة العالية من سكان المدينة ، وأغلبهم من الذين سكنوها منذ فجر الاستيطان الثابت فى العهود الاسلامية الاولى ، اضافة الى الذين نزحوا اليها وسكنوا فيها .. والعرب المواصلة هم من السكان المتحضرين وخصوصا أولئك الذين سكنوا فى قلب المدينة . ولم تزل كل من محلة الخزرج تعرف باسم القبيلة العربية التى سكنتها منذ مئات السنين . ويشتغل العرب المواصلة بالتجارة والصناعة والعلوم وبعض الحرف الاساسية ، وخصوصا البزازة والقزازة والدباغة والوراقة والسراجة والصباغة والصياغة ... الخ وهم من المسلمين السنة • وينقسم المسلمون الى مذهبين : المذهب الحنفى والمذهب الشافعى ، ويقف على رأس كل مذهب قاض لتدبير شؤونه . وكانت الاكثرية من الحنفية ، ولم يكن من الشيعة الا السادة الذين اختلطوا – فيما بعد – وخصوصا فى العهد الجليلي مع السنة وأصحاب المذهب الحنفى وذابوا فيه على امتداد الفترات التاريخية الحديثة. وكان للعرب المواصلة من المتحضرين علاقاتهم المتنوعة مع عرب الاقليم واعرابه ، وخصوصا العلاقات الاقتصادية ..

أو عرب الولايات والاقاليم والمدن الاخرى فى المشرق العربى • اما مسيحو مدينة الموصل فتجمعهم بمسيحيي قرى الموصل العلاقة الدينية المشتركة . وينقسم المسيحيون في مركز وتوابعه الى قسمين أساسيين : الكلدان والسريان ، الذين تجمعهما العادات والتقاليد ، والتشابه فى الطقوس الدينية، ولكن يختلفون فى لهجاتهم التى يمورسانها فى تحدثهم باللغة السريانية أو كما تسمى تاريخيا (الآرامية) (1) • ان أغلب الكلدان هم من الكاثوليك الذين يتبعون بابا روما والكنيسة الغربية . اما السريان ، فبعضهم من الكاثوليك ، وأغلبهم من السريان الارثودكس ، وهم الذين يطلق عليهم بـ (اليعاقبة) ومركزهم الموصل ويتبعون الكنيسة الشرقية • ويشتغل مسيحو مدينة الموصل بمزاولة بعض الحرف الخاصة بهم مثل : الحلاقة والنجارة والسقاية والحدادة والبناء .. ويتركون حول كنائسهم فى قلب المدينة القديمة . وقد عاشوا بسلام ووئام مع المسلمين على امتداد تاريخ طويل . وقد انتشر المذهب الكاثوليكى بالموصل خلال العهد الجليلي . ولم يتواجد البروتستانت فى الموصل كما هو عليه الحال فى مدينة حلب مثلا . وكانت تتواجد فى الموصل أقلية يهودية تسكن فى محلة خاصة بها تقع فى شمال المدينة القديمة ، وتؤدى بعض الخدمات المالية كالصرافة كما ويشتغل البعض فى الحياكة والتجارة (2) . ونتيجة لقرب الموصل من جبال الاكراد ، وكانت تعتبر العاصمة الاقتصادية لشمال العراق ، فقد استقرت فيها العديد من الاسر الكردية التى تركت مدنها الجبلية ، ونزلت لتستوطن الموصل والعمل فيها من خلال التجارة ، واختلطت هذه الاسر الكردية بالسكان العرب الاصليين بالتزاوج والمصاهرة •• فنتج عن ذلك ولادة فئة اجتماعية جديدة لا هم بعرب ولا هم بأكراد • ويمكننا ان نطلق عليهم (الاكراد المعربون) أو تسمية — Arabized Kurds — ، وهناك عوائل موصلية عديدة يتصلون بهذه الفئة المذكورة .. وقد اندمجوا اليوم فى الاطار العربى . وقد حدث نفس الامر بالنسبة للاتراك الذين استوطنوا الموصل من خلال الحكم العثمانى ، ورغم قلتهم باعتبارهم ينحدرون من أصولهم الانكشارية ، الا ان عددهم تقلص بشكل كبير فى العهد الجليلي ، وذابوا فى المجتمع العربى ـ الموصلى الذى تميز بعروبته منذ القدم . ويغيب عن مجتمع المدينة كل من الجراكسة والمماليك .. اما الارمن فلم يستوطن بعضهم الموصل الا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (3) .

---

(1) بطرس نصرى الكلداني ، ذخيرة الاذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان ، جـ 2 ، الموصل ، 1913 ص 56–117 . وانظر ايضا :

H. Ch. Luke, *Mosul and its Minorities*, London, 1925, pp. 41-72.

(2) C. Niebuhr, *op. cit.*, vol. II, p. 172.

(3) For details ; see, the L. from the British Consul at Mosul, FO 2872 (1877-8), Public Record Office in London.

2/6. اطار التنوع السكانى فى ولاية الموصل (= سكان الاقليم)

فى اطار الموصل الجغرافى وأقاليمه المتنوعة ، تنوعت الفئات السكانية المتباينة التى كانت منتشرة على جانبى نهر دجلة . وكانت الغلبة السكانية قد تركزت على الجانب الشرقى منه ، وخصوصا فى المنطقة المحصورة بين نهر الزاب الأعلى ونهر دجلة ، فى مثلث جغرافى كانت الجبال قاعدته ، اما راسه فيمثله التقاء نهر الزاب الاعلى بدجلة .

ان أولى الجماعات القديمة ، هم : الآثوريون الذين يتكلمون اللغة السريانية، والذين يطلق عليهم بـ (النساطرة) . اما المصادر التاريخية العربية القديمة، فتسميهم بـ (الجرامقة) ، أى سكان الموصل القدماء ... (4) ويتميزون بنزعتهم الانعزالية ، ولهم عاداتهم وتقاليدهم التى يشترك بعضها مع الاكراد ، كونهم عاشوا قربهم فى قرى الجبال السفلى .. ويشتغلون بالزراعة وتربية المواشى وصناعة الخمور ، وهم من الكاثوليك ، ويتوزعون فى قرى اربيل ودهوك والعمادية . وينسبهم البعض من المؤرخين خطأ الى الاشوريين القدماء ، فى حين ان الاشوريين من الشعوب المندثرة التى لا تتصل بالاراميين فى شىء (5) .

اما الاكراد ، فيتميزون بحجمهم السكانى ، وقبائلهم وعشائرهم التى تتوزع فى أماكن عديدة من جبال الموصل (6) ، وكان لهم مع الموصل علاقات اقتصادية كبيرة ، اضافة الى العلاقات الثقافية .. اذ عدت مدينة (ماوران) الكردية خلال العهد الجليلي مركزا ثقافيا فى دراسة الآداب والثقافية العربية والعلوم الاسلامية ، وتخرج فيها العديد من العلماء والادباء الاكراد الذين استوطنوا الموصل فيما بعد . كانت أقرب الاماكن الكردية ذات العلاقة الوطيدة بالموصل هى : عقره والعمادية واربيل والشيخان ودهوك وزاخو .. اذ كانت ذات تبعية ادارية واقتصادية معها . وقد وقعت نزاعات بين السلطة الجليلية وبعض هذه المراكز ، اذ وقع نزاع الوزير حسين باشا الجليلي مع بهرام باشا والي العمادية أياما ، فصالحه بهرام باشا على مال (7) . وهكذا حدث أيضا مع صاحب عقره التى تعتبر أقرب للموصل من العمادية . واذا قارنا حركات النزاع المشتعلة بين مركز الولاية والقبائل العربية المنتشرة ، أو مع القبائل اليزيدية ، فاننا سنجد ان الاكراد كانت علاقتهم أقل نزاعا مع الموصل مقارنة

---

(4) س. صايغ ، المرجع السابق ، جـ 2 ، ص 5—16 .

(5) For details ; see, *JAOS*, vol. 2, 1851, p. 114.

(6) محمد امين زكي ، تاريخ الكرد والكردستان ، ترجمة : محمد علي عوني ، القاهرة 1936 . وراجع ايضا : Arfa Hasan, *The Kurds*, London, 1963.

(7) *DUR. I*, p. 351.

بالعلاقة الدموية التى كانت تميز الادارة الجليلية مع اليزيدية على وجه التخصيص .. واذا أخذنا بنظر الاعتبار النزاعات مع المهركان والشقاقية الاكراد .

اما الفئات التركمانية المنتشرة فى أماكن معينة من شمال العراق ، فقد استقطبت لها كل من كركوك فى شرق دجلة ، وتل عفر فى غرب دجلة بقراهما ودساكرهما . وتعود هذه الجماعات السكانية فى أصولها الى الدول التركمانية التى حكمت فى اجزاء من العراق ، وغدوا فى العهود العثمانية كبقايا مجتمعات غريبة : كالسلاجقة ، والآق قوينلو ، والقره قوينلو . ولم نلحظ ان هناك اى تعاطف معها من قبل الاتراك العثمانيين الذين يختلفون فى طرائقهم عن هذه البقايا التركمانية .

ان الاقلية التركية ــ العثمانية التى انحسرت اجتماعيا فى مركز ولاية الموصل ، كانت منظمة تنظيما اداريا مرنا ، واستطاعت ان تندمج مع السكان العرب المسلمين فى المدينة ، ولم تؤثر هذه الاقلية الصغيرة فى لواحق المركز واطرافه الاقليمية سكانيا ، اذ استطاعت الاسرة الجليلية ان تقلل من نفوذ هذه الاقلية ، وفاعليتها العسكرية بالسيطرة على أدواتها ، وعلى الاخص الوسائل المالية .. وكانت تكويناتها من فرق الانكشارية الخمس ، ومن السباهية .

اما اليزيدية ، فهم جماعات تستوطن اقليم الموصل ، وتداعى لهم اسمهم من يزيد بن معاوية . لهم دينهم الذى يختصون به ، ولهم فى ذلك طقوسهم وعاداتهم . وهم مجتمع مقفل ، اذ انعزلوا عن الحياة التاريخية للمنطقة منذ عهد طويل .. يقدسون ابليس تقربا منه ورمزهم هو طاووس ملك ، ويحجون الى مرقد عدى بن مسافر الواقع قرب عين سفنى للشمال من مدينة الموصل (8) . وكانت السلطة العثمانية تعتبرهم من الكفرة المارقين الخارجين عن الاسلام ، لذا استوجب حربهم ، وقد لاحقتهم فى صراع طويل كل من ادارة الموصل الجليلية وادارة المماليك ببغداد . وينتشر اليزيديون على جانبى نهر دجلة للشمال من الموصل . فمنهم من يستوطن قرب جبل سنجار ، ومنهم من يستوطن قرى بعشيقة والشيخان وباعذرا ، والعديد من القرى المنتشرة قرب جبل مقلوب . لقد بقيت العلاقة سيئة بينهم وبين العثمانيين حتى زوال الامبراطورية ، وكان نزاع الحكومات المحلية معهم كبيرا وفعالا .. يتعرضون لحملاتها ، ويجرى القتل والاحراق وأخذ النساء .. ولكنهم لم يستسلموا أبدا على امتداد حياة الدولة العثمانية ، بل كانوا يدافعون عن أنفسهم حتى النهاية. ومن الحملات التى تعرضوا لها فى حياة العهد الجليلي : حملة والى بغداد أحمد باشا فى سنة 1733 م. = 1146 هـ. على يزيدية شرق دجلة (9) ، وحملته

---

(8) قارن : ص. الدملوجي ، المرجع السابق ، ص 61 .

(9) *DUR. I*, p. 351.

سنة 1752 م. = 1166 هـ. على يزيدية جبل سنجار « وحاصر قراه ونهبها وقتل ألف رجل وأسر النساء والاطفال ، وبيعت الجارية بعشرين قرش»(10). وتجدد نزاع آخر بين ادارة الموصل ويزيدية شرق دجلة سنة 1762 م. = 1176 هـ. ثم مع يزيدية جبل سنجار سنة 1763 م. = 1177 هـ. ، ومعهم أيضا سنة 1764 م. = 1179 هـ. ، وآخر معهم سنة 1767 م. = 1181 هـ. ، وصالحوا الولاية على 2000 رأس غنم ، ثم غار سليمان باشا الجليلى والى الموصل عليهم سنة 1773 م. = 1187 هـ. (11) .

اما العرب (= عرب الريف والبادية) ، فانهم ينقسمون الى ثلاثة أصناف حسب البيئة التى توطنوا فيها منذ القدم ، فصبغتهم بصبغتها ، ولكن لم تمت عندهم الروح القبلية . كان هناك : عرب الانهار الذين تركزوا فى قراهم المحاذية لشواطىء الانهر ، والتى يعتمدون عليها فى زراعاتهم السيقية المختلفة .. وتنتشر مئات القرى على حوافى الانهر الكبيرة والصغيرة كنهر دجلة ، ونهر الزاب الكبير ، ونهر الزاب الصغير ، ونهر الخابور ، ونهر الخازر ، ونهر الخوصر ... وفروع تلك الانهر من النهيرات والجداول .. وغالبا ما يكون هؤلاء أكثر استقرارا من العرب الآخرين ، نتيجة توفر المياه الجارية على امتداد السنة . كما وانهم اقل ترحالا ، وأقل تعرضا للنزاعات . ثانيا : وهناك عرب السهول والمراعى الذين يعتمدون على زراعة الحبوب والرعى أساسا فى حياتهم المتوزعة بين كركوك والموصل ، ومنهم : عرب البو حمدان الذين كانوا فى نزاع مع أهالى كركوك التركمان . وهم عرضة للمآسى الاقتصادية ، اذا حدث القحط بانعدام سقوط الامطار ،فتكثر حركاتهم فى السطو ونهب القوافل التجارية .. أو الاعتداء ونهب اغنام الموصل .. او القبائل فيما بينها . وهناك اخبار كثيرة عن عرب طى وعرب الموالى وعرب اللهيب ... الخ . ثالثا : اما عرب البوادى والصحراء فكانوا من بدو قبائل شمر والاعنزه ... الخ ، وهم من القبائل غير المتوطنة أو المستقرة فى مكان معين من بادية الجزيرة ، بل هى فى ترحال دائم على امتداد بادية الشام نزولا الى مناطق عميقة جنوبى نهر الفرات ، اذ يصلون حتى نجد .. ويعتمد هؤلاء على رعى الاغنام والكلاء ، وكثيرا ما يتعرضون للقوافل التجارية ، وقوافل الحجيج والمسافرين بالاعتداء والنهب (12) . وتخبرنا وثائق الكولونيل تيلر — Taylar — ان يحيى باشا الجليلى ، الوالى الاخير من الجليليين للموصل ، كان على علاقة وثيقة بهم ، اذ كانوا حلقة الوصل بينه وبين ابراهيم

(10) *Ibid.*, p. 377.

(11) *Ibid.*, p. 399.

(12) Gertrude L. Bell, *Syria : The Desert & The Sown*, London, 1919, p. 109. « *Letters from L.t. Col. R. Taylor*, fo. 195/113, Part One A., The British Museum Library.

باشا بن محمد علي باشا حاكم مصر ، ابان اقامة ابراهيم باشا فى الشام (13). وكثيرا ما أقام العرب خلف اسوار المدينة من اجل الرزق والاستفادة ، أو حراسة الخيول والماشية ، ومن اجل الحماية ايضا تحت اسوار حكومة الاقليم.. أو للمساعدة فى الحملات .. وكانوا من عرب البكارة وعرب العكيدات ، الذين يقيمون جنوبى المدينة قرب ضريح نبي الله شيت . ولم يسمح لهم بدخول المدينة أبدا ، لذا كانوا يقيمون تحت عرازيل يبنونها من القصب ، اضافة الى استفادتهم من مواسم الحصاد وحمايتهم للبيادر (14) .

وهناك جماعات اخرى تستوطن الاقليم ، منها ما هو قديم فيها ، ومنها ما هو حديث النشأة والظهور . فهناك المسيحيون الكلدان السريان الذين يستوطنون فى القرى الواقعة شرق الموصل ونهر دجلة .. فالكلدان يسكنون قرى : تل كيف ، وتل أسقف ، وباطنايا ، والقوش ، اما السريان فى قرى : برطلى ، وكرمليس ، وقره قوش . ويشتغل هؤلاء بالزراعة وتربية الدواجن ، ويبيعون منتوجاتهم فى أسواق الموصل (15) . وهناك مجموعة أخرى من السكان يدعون بـ (الجرجرية) ، وهم مزيج اثنوغرافى من الاكراد والتركمان المعربين ، ويسكنون فى غرب الولاية وعلى الجنوب الغربى من مدينة الموصل عند قرية المحلبية ، ويشتغلون بتربية المواشى . اما (الشبك) الذين تقدم ذكرهم (انظر : بند 1/5) ، فهم طائفة صغيرة من بقايا ايرانية خلفتهم الحملات العديدة على شمال العراق .

هذا هو على وجه التحديد والاختصار : التركيب الاثنوغرافى لاقليم ولاية الموصل خلال العهد الجليلي (= القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر(16)).

* * *

استنتاجات تاريخية :

نخرج من دراستنا هذه بالعديد من الاستنتاجات التاريخية المهمة .. سواء ما يخص طبيعة مجتمع ولاية الموصل ابان القرن الثامن عشر ، أو العلاقات التى تميز بها ، أو الروابط الاقتصادية التى حكمته مع الجماعات والاقاليم المجاورة له أو البعيدة عنه .. واثر الاحداث السياسية أو الاقتصادية فى تكوين بنيته التى عرفناها . اضافة الى القوى السياسية والعسكرية التى تحركت على أرضيته ، وساهمت بقدر كبير فى تركيبته الطبقية . لقد عاش مجتمع ولاية الموصل خلال العهد الجليلى 1726 ـ 1834 فى مركزه المتمثل بالمدينة .. واقاليمها

(13) راجع بالتفصيل وثائق الكولونيل تيلر ، ورسالته المؤرخة في 1834/01/25 . انظر :

(14) *DUR. II*, p. 1096.

(15) Luke, *op. cit.*, p. 112.

(16) Cf. S.K. Al-Jamil, *op. cit.*, chap. « The Society » of Mosul, pp. 142-4.

التى تمثلها اللواحق والدساكر والتوابع والرساتيق .. عاش حياة اجتماعية تكاد لا تختلف اختلافا كبيرا عن الحياة الاجتماعية ـ العربية التى عاشتها الولايات العربية ابان القرن الثامن عشر . ولكنه تميز عنها بمواصفات اختلفت فى صبغتها عن بقية الولايات العربية الاخرى ، وخصوصا فى المشرق العربى.

لقد غدت ولاية الموصل منذ فتح السلطان سليمان القانونى للعراق راسا اقتصاديا لكيانه الحديث ، ولكنها لم تفقد علاقاتها واتباطاتها بكل من بلاد الجزيرة وبلاد الشام ، وخصوصا من الناحية الاقتصادية ، اذ اعتبرت الموصل بمثابة الجسر الحقيقى لاتصالات ولايات المشرق العربى قاطبة ، بحكم الموقع الجغرافى ـ الاستراتيجى الذى تمتعت به ، وتحكمها من خلاله بالعديد من خطوط التجارة والمسالك والمواصلات نهرا وبرا بمختلف الاتجاهات . وساهمت من خلال ذلك عسكريا وحربيا فى صراع الدولة العثمانية مع ايران، وبصورة فعالة منذ بداية حلقة ذلك الصراع التاريخى المرير ، وحتى تلك القفلة التاريخية الدموية التى كادت تودى بحياتها ، والتى مثلها حصار نادر شاه لها ودفاعها المستميت ثم انتصارها على نادر شاه وجيوشه الغازية سنة 1743 م = 1156 هـ ، بقيادة الوزير الحاج حسين باشا الجليلى . وبمشاركة كافة ابناء المدينة فى ذلك الفصل التاريخى المرير .. لتبدا من بعده حياتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المتميزة ، وفى فترة تاريخية طبعها الحكم الجليلي ـ المحلي .

ومن خلال دراستنا للحياة الاجتماعية والاقتصادية لهذه الفترة التراكمية من تاريخ ولاية الموصل العثمانية . نتوقف عند نتائج هامة يمكننا ان نجملها بالنقاط التالية :

ـ لقد كان للعوامل الاقتصادية اثرها البارز فى حياة المجتمع فى ولاية الموصل ، سواء كان ذلك فى مركز الولاية ، أم فى اطرافه وتوابعه اذ كان ذلك المركز يعتمد اعتمادا أساسيا على تلك الاطراف فى تسويق منتوجاتها ومحاصيلها الى الخارج . وان أهم ما يؤثر فى طبيعة الانتاج الزراعى ، هى الآفات الموسمية التى تخلقها الظروف الطبيعية كشحة نزول الامطار ، أو غزو الجراد ، أو الانجماد والثلوج ، اذ يخلق كل ذلك هزات اقتصادية لا مثيل لها .. وعليه ، فقد اكتسب المجتمع الداخلى فى مدينة الموصل نتيجة لتلك المحن القاسية .. تجارب فى تخزينه كل سنة من المواد الغذائية ما يكفيه على امتدادها ، وقد جرت العادة لذلك فى كل بيت من بيوت المدينة . اما الملاحظة الاخرى التى مكنتنا هذه الدراسة من رؤيتها هى ان اصحاب الاقطاعيات الزراعية من كبار الملاكين فى الموصل ، انهم يعيشون داخل المدينة بعيدا عن مقاطعاتهم ، ولكنهم يخرجون اليها موسميا لكسب الانتاج .. وكثيرا ما وقعت مصادمات بين حكومة الولاية وأمراء الاقاليم التابعة لها ، وتجرى المصالحة على مال أو مكاسب اقتصادية كمنتوجات زراعية أو حيوانية ، ودفع الضرائب .

كان أبرز المستفيدين من الحالات الاقتصادية الصعبة التى مرت بالموصل ، هم أصحاب الاقطاعات من الملاكين الكبار ، اضافة الى التجار الكبار الذين يتعاملون مع قوت المعيشة اليومية ، وكان أغلبهم من العلافين . وقد انصهر الجيش فى المجتمع ، وكان أغلبهم من الانكشارية .. وقد صرفتهم الانقسامات السياسية الى طلب الرزق من خلال الاعمال الحرفية الشهيرة التى امتازت بها مدينة الموصل عن غيرها من مراكز الولايات الاخرى ، واذا كانت حلب قد اشتهرت منذ القديم بصناعة الصابون والزيوت ، فان الموصل قد اكتسبت شهرتها عالميا من خلال صناعة الموسلين ودبغ الجلود . وقد صبغت الموصل خلال الفترة المعنية بالصبغة الحرفية ، وتطور تكويناتها ، وتعدد تراكيبها ، وأصبح لكل حرفة نقابة تمثلها يقف على رأسها : شيخ الحرفة أو (الصنف) . ولم تكن طبقة الحرفيين بمعزل عن الحياة السياسية رغم طابعها الاقتصادى المحض ، اذ كثيرا ما وقعت ازمات معقدة فى اسواق الموصل نتيجة للتداخلات السياسية من قبل الجيش فى هذه الاوساط .

ـ اما ما يخص العلاقات الاجتماعية ، فقد ميزها ذلك التركيب الطبقى الذى قد لا يختلف كثيرا عما تميزت به بقية الولايات العربية ـ العثمانية وخصوصا فى مركز الولاية (= المدينة) . ولكن شهدت الموصل انفجارا سكانيا كبيرا فى بداية حياتها خلال النصف الاول من القرن الثامن عشر ، ولكن سرعان ما أثرت فيه عوامل الهجرة والنزوح نتيجة للازمات الطبيعية والاقتصادية التى ألمت بالمجتمع . وبقي المجتمع عربيا .. ذابت فيه مختلف العناصر السكانية الخارجية والاقليمية ، بل ودافع عن عروبته ضد مختلف التيارات والبدائل السياسية والمذهبية التى كادت تريد العصف به . وكان عرب المدينة من المتحضرين الذين يتباين مستواهم المادى (المعاشى) والحضرى عن عرب الاقليم هذا اذا علمنا بأن الموصل قد سكنتها أقليات متنوعة ذابت فى قوام المجتمع الحضرى ، سواء كانت تلك الاقليات من الاكراد أو التركمان أو الاتراك . ولكن مجتمع المدينة كان منقسما على نفسه نتيجة للانقسامات السياسية التى تميزت بها الموصل ، وكان ابرز عواملها : رفض تنصيب الولاة الاتراك كبدائل موقتة وليست مزمنة تجاه الحكم الجليلي .. وكثيرا ما قاد ذلك الى انقسام الجيش . ويضاف الى ذلك ، الانشقاق الذى حدث فى الاسرة الجليلية نفسها ـ كما رأينا ـ . ان طبيعة الحكم الجليلي للموصل كان عربيا فى أساليبه وممارساته ، وكان ينزع على العموم الى التكتل أمام الحكام الاتراك الاجانب .. وشهدت الموصل ابان الحكم الجليلي المزمن ازمات اجتماعية متعددة ، ولكنها سرعان ما كانت تنطفىء ، وكان من ابرز عواملها التفاوت الطبقى بين الناس . ورغم ان ذلك التفاوت الطبقى هو سلم ترتقى اليه العديد من الطبقات كالتجار والعلماء .. الا ان الصناع الصغار والفقراء كانت تجد صعوبة فى تحصيل لقمة العيش خلال الازمات الاقتصادية الخانقة . ورغم هذا كله ، فالموصل متميزة عن غيرها من بقية الولايات الاخرى فى المشرق العربى بالصلة الوثيقة التى

كانت تربط الاسرة الجليلية بابناء مجتمع الموصل قاطبة كونها ولدت وبرزت فيه ، واستطاعت ان تبز غيرها من الاسر الحاكمة بالخدمات السياسية التى قدمتها .. اضافة الى اندماجها فى المجتمع ، والحركة العمرانية والثقافية التى شهدتها الموصل خلال الفترة المعنية ٠

ـ والنتيجة الاخرى هى ، ان الفترة التاريخية المعنية من حياة ولاية الموصل تعتبر جذرا تاريخيا أساسيا لابرز الحركات والنزعات والظواهر الفكرية الحديثة . اذ وجدت ان هناك ثمة علاقة مباشرة بين تلك الحياة التى عاشتها الموصل خلال القرن الثامن عشر والحركة الاصلاحية ـ الدينية التى تبناها المصلح النجدى الشهير : محمد بن عبد الوهاب فى القرن التاسع عشر ، اضافة الى علاقة الفكر العربى الذى حمله بعض ابناء الموصل خلال القرن الثامن عشر بالنزوع القومى الذى ظهرت بوادره فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وتبلورت ارهاصاته فى بداية القرن العشرين . وقد يستغرب المؤرخ لذلك ، ولكن قراءات متمعنة فى التراث الذى خلفه لنا مواصلة القرن الثامن عشر ٠٠ فانها سوف لا تدع مجالا للشك امام هذه النتيجة ٠ ولو قارنا بين الحركة السلفية الموصلية وبين الحركة الوهابية النجدية لوقفنا على ثمة تشابه كبير بين الحركتين .. ومما يعزز ذلك كله : اهتمام المواصلة بجذور الحركة الوهابية فى بداية القرن التاسع عشر .. والموقف التاريخى المتلكىء الذى اتخذه الوزير محمد باشا الجليلي ، وتعليله لمرضه امام السلطة العثمانية المركزية، فى محاربة الوهابيين ٠ ثم دراسة محمد بن عبد الوهاب فى الموصل على يد احد علمائها المشهورين . اما النزوع العربى للموصل ، فلم يقتصر على ما قاله أو نظمه بعض الشعراء والادباء .. بل يمتد الى الصبغة العربية التى تميز بها تراث الموصل ابان القرن الثامن عشر . وتعتبر الاساليب والممارسات المضادة للحكم الجليلي والتى اتخذها حكام بغداد من الجراكسة والاتراك والمماليك احدى العوامل الموضحة لبروز نزوع الموصل العربى ، ولم يقتصر الامر فى ذلك على الحكام الجليليين ، بل مورست ضغوط قاهرة تجاه ابرز الرؤوس العربية فى الموصل ، وكان اشهرها : عصام الدين عثمان أفندى العمرى صاحب كتاب (الروض النضر ..) الذى نصب دفتر دارا لبغداد ، فجر عليه المتاعب والمرارة بين السجن والتشرد ٠ اما قاسم باشا العمرى فقد نصب قائمقاما لولاية بغداد ، وذهب هو الآخر ضحية اغتيال مبيت . وتكفى الاشارة هنا الى الدور العربى الذى قام به والى الموصل يحيى باشا الجليلي فى اتصالاته السرية بعرب شمر ليكونوا حلقة وصل بينه وبين ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا الكبير ، اثناء وجود ابراهيم باشا فى الشام ٠

د٠ سيار الجميل

دائرة علم التاريخ ـ جامعة وهران

مشاكل الدراسات العثمانية في الوطن العربي

د. نزار الحديثي

يتضح جيدا الهدف من وراء التحديد الدقيق للعنوان ، فثمة عاملين رئيسيين يقفان وراء التحديد ، احدهما واهمها ان لغتي الوحيدة التي اتقنها قراءة وكتابة ومتابعة هي العربية ٠ وثانيهما ان اكثر المعنيين عناية بدراسة التاريخ العثماني بعد العثمانيين هم العرب فبين سنة 1515 وسنة 1918 مساحة زمنية واسعة صنعت احداثها عوامل كثيرة احد ابرزها النفوذ العثماني في الوطن العربي ، وكانت احداث ذات قيمة ليس لانها وقعت بشكل معين انما لانها ما زالت مستمرة في نتائجها التي ترتبت عليها ٠ فهل هناك امكانية للقول بأن موقف اوروبا من الامة العربية شيء جديد ؟ أم أن التوجه الفارسي نحو الوطن العربي توجه جديد ؟ أم ان وضع العرب في المرحلة التأريخية ، تأريخيا وحضاريا جديد ؟ على اية حال على الاقل بالنسبة للعرب والاتراك على السواء ثمة اهمية خاصة لقضايا كثيرة تترتب على ذلك التأريخ ٠

وانا اتحدث عن الدراسات العثمانية في الوطن العربي واذا كانت هذه الاشارة عن اهمية هذه الدراسات واضحة يصبح بالامكان المباشرة في عرض المشاكل التي تعاني منها ، والتي كما اراها هي :

الاول : فني في المعنى الاصطلاحي يتعلق بالمصادر واللغة وحجم التخصص في هذه الدراسات ٠

والثاني : منهجي لغة واصطلاحا ٠٠٠٠٠

اولا ـ المشاكل الفنية :

آ ـ المصادر

حتى الآن لم تستطع الجامعات العربية ، ومراكز البحوث تجاوز الاطار التقليدي لمصادر الدراسات العثمانية وهي الكتب التي اعدها المتخصصون بالدراسات العثمانية عربا او غير عرب ٠ والكتاب مهما كانت قيمته يبقى وجهة نظر ، ويبقى يحمل قدرا من الانتقائية ولم تصبح الوثائق حتى الآن مصادر لدراسة اساسية وعلى نطاق واسع رغم النجاح الذي تحقق في بعض الاقطار العربية ، وهي رغم وفرتها وكثرتها بشكل يندر ان يحظى به تأريخ اية حقبة الا انها ما زالت لم تتجاوز حدود اكداس من الورق يأكلها تقادم الزمن دون ان تصبح في متناول الدارسين ٠٠٠

علما بأن هذه الوثائق لا تشكل الا الجزء الاقل فى الوثائق العثمانية اذا قيست الى الوثائق المحفوظة فى مراكز الوثائق فى تركيا • ان اعتماد الدراسات العثمانية على المصادر سهلة البلوغ (الكتب) جعل نتائج الدراسات تبقى بحدود وجهات نظر مبنية على وجهات نظر سبقتها وهكذا •

ب ـ اللغة :

وينسحب الامر نفسه على اللغة فاللغة العثمانية لا تحظى باهتمام جدى فى الجامعات العربية وتشكل ابرز نقاط الضعف لدى اغلب المتخصصين العرب بالتأريخ العثمانى ، ومن الجيل الجديد من المختصين خاصة ، كما انها لا تحظى بتعاون مع متخصصين فعليين باللغة العثمانية يمارسون تدريسها •

جـ ـ التخصص فى الدراسات العثمانية :

يظهر ضعف الدراسات العثمانية فى حجم المتخصصين بها فى الجامعات العربية وفى مؤهلات التخصص لدى العدد المتوفر منهم وفى مجال الاطلاع على الوثائق العثمانية وان حجم التخصص فى الجامعات العربية يعانى من التقلص بسبب صعوبات اللغة وتتراجع الدراسات العثمانية من حيث الاهتمام فى الجامعات العربية سواء فى عدد الساعات المخصصة لها أو عدد الموضوعات المتفرعة منها •

يضاف الى هذه المشاكل جانب اكثر خطورة يتعلق بالنظرة الرسمية الى الدراسات العثمانية فى اقطار الوطن العربى اذ رغم الاتفاقيات الكثيرة بين الاقطار العربية وتركيا لم تتقدم حتى الآن قضايا الوثائق واللغة وكتابة التأريخ المشترك وتشجيع البحوث ، خطوة الى الامام •

ثانيا ـ المشاكل المنهجية :

اذا تجاوزنا المشاكل الفنية وانتقلنا الى المشكل الخاص بالمنهج فالمشكلة تبدو اكثر تعقيدا • اذ لا يجد المتتبع منهجا عاما يؤطر الدراسات العثمانية فى الوطن العربى وفى تقديرنا ان هذه الناحية تحتاج الى شجاعة للطرح الصريح قصد الوصول الى نتيجة • وفى رأيى تقود المشكلة اساسا الى طرفين هما الدين والعصر ••• فبسبب الدين ظهر فى الوطن العربى اتجاهان فى دراسة التأريخ العثمانى اتجاه يمثله العرب المسيحيون واتجاه يمثله العرب المسلمون والسؤال ايهما الصحيح ؟ يثير جوابا سريعا بالتأكيد ان كلاهما ليس صحيحا طالما انهما منطلقان من موقف اعتقادى يحمل مؤشرات التحيز والعاطفة والمزاج احيانا •

فالمؤرخ العربى المسيحى لازال بحكم الوعى الدينى الذى اسهمت اوربا فى احتوائه ضمن اطار دينى غير قادر على تجاوز الاثر الاوربى ••• والمؤرخون

العرب المسلمون تسودهم اتجاهات اما اتجاه غير قادر بفعل العامل الدينى على ان ينظر الى التأريخ العثمانى نظرة مؤرخ ، او اتجاه آخر اغـرق كثيـرا فى اعتناق الموقف الاوروبى السياسى (اصطلاحا) من التأريخ العثمانى فلم يعـد قادرا على اكتشاف رؤية خاصة لذلك التاريخ سواء كان الموقف الاوربى منطلق من منهج رأسمالى أو ماركسى فى الدراسات العثمانية تعطيها الارجحية وسط الاتجاهات السابقة •

لقد انضاف الى هذه الاتجاهات اتجاه آخر فعلى المستوى الدينى أصبحت المذهبية رؤية ضيقة محدودة للتأريخ العثمانى ، ويتفرد المؤرخون المسلمون بهذا التميز •

استطيع ان اقول بوضوح اننى مسلم ولكننى لست مؤرخا دينيا انما انـا مؤرخ قومى عربى ... ارى للامة العربية تاريخا طويلا حافلا وتاريخية فريدة ودور حضارى عظيم ترتكز جميعا الى نمط حضاى كما لغيرها من الامم انماطها الخاصة ••• من هذا التحديد انطلق فى تصور الدراسات العثمانية منهجا • وللتحديد الدقيق اسجل الاسئلة التالية :

— هل كان العثمانيون فى موقفهم من الامة العربية عثمانيـون مسلمـون ام عثمانيون ؟

— فى ضوء الاجابة ماذا نسمي الحقبة العثمانية فى الوطن العربى .؟

— هل كان المسيحيون العرب وحدهم المتضررون فى ظل الحكم العثمانى أم انهم اقل المتضررين تضررا ؟

— ثم قياسا الى ضغوط العصر (الضغط الاوربى والضغط الصفوى) هـل للعثمانيين فضل على العرب أم أن للعرب فضلا عليهم ؟

العثمانية ليست قومية انما هـوية امبراطورية اوربـا كان العثمـانيون مسلمين غير انهم مع العرب كانوا مسلمين مع الاسلام (العقيدة) وحكام الامة، والاتراك المحدثون اشتقوا تركيتهم من هذا الخيـط الـواهى ، ولضـرورات مزدوجة سياسية ودينية كان لابد من الاحتفاظ بالعرب وطنا وشعبا ولكن هذا الاحتفاظ الذى كان مكسبا عثمانيا كان مكسبا عربيا ايضا دون الاعتقاد بأنه مزية منفردة فالبلقان بقيت ايضا بلقان وهذا ينسحب على الاملاك العثمانية الاخرى على العكس العرب خسروا كثيرا فى الصراع العثمانى — الصفوي •

لم يكن المسيحيون العرب المتضررين الوحيدين من الحكـم العثمـانى بـل يمكن القول انهم كانوا الاقل تضررا خاصة بعد ان ارتبطوا بأوربا وأصبحوا موضع تطور متعدد الاطراف للحماية . واول الامر ارتبطوا بأوربا ولم يرتبطوا بالعروبة ولم يعودوا الى العروبة الا فى وقت متأخر سببه عدم حاجة أوربـا

للمسيحين مهاجرين اليها انما كانت حاجتها لهم فى أراضيهم وكانت هذا خطأ تاريخى كبير ، فالانسلاخ لصالح أوربا أفقدهم فرصة الاحســاس بالانتمــاء الى الحضارة العربية وبقى يسم مواقفهم اللاحقة ٠

ان معلوماتنا عن فهم ونظرة العثمانيين لرعاياهم قليلة لا تنفع فى حسم هذا الموضوع فدراسة دقيقة للتشريع العثمانى واستيعاب لافكار مفكرين عثمانيين بهذا الخصوص لم تتوفر لى لحد الآن لقد اسلم العثمانيون في وقت مبكر من تأسيس امارتهم وقد افادوا من الاسلام فى المجابهة الحضارية مع جيرانهم من الاوربيين بشكل خاص وباستثناء الحماس الدينى للاسلام (كموقف تأريخى) ولرموزه الدينية المقدسة لا يبدو ان العثمانيين تأثروا اثرا ابعد على مستــوى تشكيل النظرة الى الحكم والى الرعية فبين اسلامهم والزمــن الاول للاســلام مساحة زمنية بعيدة ولا يساعد اعتناقهم الصوفى للاسلام للاعتقاد بانهم كان عامل ابداع أو تغيير فى الحياة اليومية ، فالصوفية شكل من الهروب النقى من الحياة اليومية والتجاء غيبى الى الله ٠ وفى تقديرى ان هذه المؤشرات لا تساعد على توقع نظرة خاصة يكنها العثمانيون للعــرب مــن بين شعــوب الامبراطورية والراجح ان العثمانيين فى تعاملهم مع العرب تعاملوا حكاما أكثر من كونهم مسلمين اتقياء ، ليس من شك ان العثمانيين دافعوا عن العرب ففى جبهة العراق يعود الفضل لجهودهم فىالدفاع عنالعراق ضد الصفويين ولو انهم استرجعوا الكثير منأراضى تركيا الحديثة علىحساب العراق ولم يمنعوا سياسة القضم التدريجى الذى مارسه الايرانيون فى الحدود الشرقية للعراق، غير ان سياسة التحديث التى اتبعها مدحت باشا ، لعبــت دورا فى تــرسيم المجتمع العراقى والكيان السياسى للعراق فيما بعد ضد اطماع صفوية بريطانية شرسة مما قلل خسائر العراق ٠ وتمسك السلطان عبد الحميد بفلسطين قضية مشرفة فى تأريخ هذا الرجل ودولته وقد كان الاحتواء العثمانى للاقطار العربية احتواء السيادة ولم يتحول الى مانع بأى شكل فقوافل الحجاج لم تكن تقصد مكة وحدها انما تقوم بعملية ارتياد جغرافى واسع ونفس الامر يقال عن حرية انتقال السكان لغــرض التجــارة والاقــامــة وهى أمــور أســاسيــة فى احتفــاظ العــرب بوحــدتهم ، صحيــح انهــا كــانت وحــدة سكونية لكنها وحدة على أية حال ٠ وهذا فضل للعثمانيين على العرب ، ولكن الصحيح ايضا ان العرب قدموا للعثمانيين الاسلام فاعطوهم ايديولوجية المجابهة مــع أوربا وشكلوا الجناح الجنوبى للدفاع عن الامبراطورية العثمانية ضد محاولات الالتفاف الاوربى عبر المتوسط ولسنين طويلة منذ 1515، ودفعوا هذا الالتفاف بعيدا حول افريقيا وفى هذا المجال كان لمجاهدي البحر فى أقطار المغرب العربى دورا مجيدا ومشرفا ، غير ان المشكلة الاساسية هى ان التوجه العثمانى الى الوطن العربى جاء في وقت بدأ فيه العثمانيون تراجعهم فى اوربا ، صحيح انه تراجع عسكرى لكنه كان حضاريا فى جوهره فلم يكن بالامكان ان يقدموا للعرب دورا فى الاستنهاض الحضارى .

عاش العرب ديانتهم العثمانية دون مشاكل من النوع الـذى يمكـن ان يسمى بالازمة التاريخية ، مسيحين ومسلمين على السواء ، وبالتأكيد كان المسلمون أكثر اندماجا فى الحياة اليومية خاصة فى أمور الدين والامور العسكرية فالعصر كان عصر الدين، وحتى المسيحين لم يبدأ وضعهم بالتمييز والتفرد الا عندما نجحت أوربا فى ارتيادها الاستكشافى والتبشيرى من سحبهم من المناخ العام الذى كانوا يعيشون به وعندما تطوعت أوربـا لحمـاية المسيحية فى الدولة العثمانية (وفى الاقطار العربية خاصة) فان المسيحيين لم يعودوا اكثر المتضررين من الحكم العثمانى ، فالحماية الاوربية قدمت لهم وضعا قانونيـا خاصا ترتبت عليه امتيازات سياسية واجتماعية (اقتصادية خاصة) فقد اصبح المسيحيون العرب وكلاء النشاط التجارى الاوربى .

من هنا اشتقت المواقف . والسؤال ما الذى جعل المسيحى العربى يعتقد ان أوربا محررة ؟ وماذا تمثل أوربا للعرب ؟ انها سالبة فلسطين وصانعـة التجزئة ومصدر مشاكل الامة العربية ؟ وبالمقابل ما الذى يجعل المسلم ينظر الى الدولة العثمانية على انها شىء ايجابى فالذى قدمته كان بثمن وما قدمت لا يبرر التصرف المطلق الذى مارسته فى البشر والارض . الخطأ التاريخي التى وقع فيه العرب هى تحالفهم فى الثورة مع أوربا وفى تقديرى لولا ذلك التحالف لما تركت الثورة اثرا سيئا فى نفوس الاتراك. ولكن بالمقابل ماذا كان بامكان العرب ان يفعلوا فالصوت العثمانى بدأ يختفى لصالح الصوت التركى وهو صوت كان قوميا ابتدأ يمارس التصفية الجسدية للوطنيين العرب وابتدأ الفرز على أساس عنصرى وقد رأى العرب الدولة العثمانية تمزق الجزيرة العربية لتقضى على الوهابية ورأوها تصم اذانها عن حقوقهم التى يفرز الوعى بها عالم متحرك ، ورأوها تشنق أحرارهم وتستأصل كل موقف وكل فكرة شريفة ، وتتخلى عنهم فى أقطار المغرب .

اما العصر فيبرز اثره فى توجيه منهجية الدراسات العثمانية انطلاقا مـن الموقف السياسى فظهور حركة القوميات ساهم فى توجيه دراسات العديد من المؤرخين العرب وجهة حادة فى تعاملهم مع الدراسات العثمانية وتركيا الحديثة ولدت ولادة قيصرية فشعرت انها غير مدينة الى العثمانية فنزعتها عنها لتلحق بأوربا وفهمت القومية فهما عنصريا ، وحتى سقوط الدولة العثمانية وتمخضها عن دولة تركيا الحديثة لم يستطع الطرفان الوصول الى تقييم للحقوق القومية للاتراك والعرب فى الاحتفاظ بارث مشترك دام خمسة قرون فالقادة الاتراك تصوروا ان التقدم يتناقض مع الاصالة التأريخية فأبتدأوا بنزع الثياب من أجل اللحاق بأوربا لكنهم لم يحققوا التقدم وفى تقديرى قد لا يجدوا الثياب التى نزعوها ليلبسوها ثانية وبالمقابل فى لحظة حماس راح العرب يحاسبون الاتراك على تخلصهم من ارث اكسبتهـم ايـاه العثمـانية التى كـان العـرب ينتقدونها .

لقد أدى الخيار التركى الحديث (والاتراك أحرار فى خياراتهم) الى ان تصبح حركة تركيا الحديثة جزءا من حركة أوربـا التى يتحدد مـوقعهـا بالنسبـة للعرب بأنها مصدر تجزئة الوطن والامة العربية وعامل اسـاسى فى ضيـاع فلسطين وكابح مستمر يمنع العرب ووحدتهم وتقدمهم وكان هـذا يكفى لان تنسحب نظرة العرب لاوربا على تركيا ايضا (حليفة أوربا) وان ينظر لها بحكم الوجود فيها ووجودها في المشاريع الاوربية نظرة شك وريبة ٠ ولكـن هـل تبدو نظرة أوربا الى تركية الحديثة نظرة قبول بها ، التطورات السياسية بين تركيا واليونان على الاقل لا تكشف عن هذا التوجه وهذا قد يكون احد العوامل الكافية لان يعتقد العرب والاتراك ان ارث خمسة قرون يستـوجب الحـوار ومزيد من الجهد المشترك لتكوين نظرة جديدة الى المستقبل تفرضها الحدود المشتركة وحسن الجوار وما يحوى من منافع متبادلة هنا تصبح مسألة اعادة النظر بالدراسات العثمانية مسؤولية مزدوجة على الباحثين العرب والاتراك ٠

د٠ نـزار الحـديثـي
عميد معهـد الدراسات
القومية والاشتراكية ـ الجامعة
المستنصرية ـ بغداد

الحياة الاجتماعية فى بيروت فى القرن التاسع عشر فى ضوء سجلات المحكمة الشرعية فى بيروت

د. حسان حلاق
استاذ التاريخ الحديث والمعاصر
فى كلية الآداب العلوم الانسانية
الفرع الاول : قسم التاريخ

الموقع والملامح العامة فى بيروت العثمانية :

تقع بيروت على الشاطىء الشرقى من البحر المتوسط ، يحدها غربا البحر ، وجنوبا منطقة خلدة امتدادا الى صيدا وجوارها ، وشرقا جبال لبنان ، وشمالا البحر وبعض المناطق - الضواحى الشمالية . وتقع بيروت فى اقليم معتدل يتميز بجودة الطقس واعتدال فى المناخ وجمال فى المنظر .

وكانت بيروت العثمانية يسيجها سور بناه وحسنه ونظمه أحمد باشا الجزار فى اواخر القرن الثامن عشر ، يوم طمح الى الاستقلال والخروج على مولاه الامير يوسف الشهابى (1) . وكان يتخلل سور بيروت - أو كما يسميه العامة «الصور» - ثمانية أبواب وبعض الابراج . أما الابواب فهى : باب أبو النصر ، باب الدباغة ، باب الدركه ، باب السرايا (السراى) ، باب السمطية ، باب السلسلة ، باب المصلى ، باب يعقوب . أما الابراج فهى : برج الامير جمال الذى سبق أن بنى عام 1617 م ، وبرج الفنار ، السلسلة ، وبرج البعلبكية ، وبرج الكشاف . أما البرج الشهير المعروف باسم البرج أو برج المدفع فقد كان موقعه خارج السور . كان طول سور بيروت حوالى (570) مترا ، ولا يزيد عرضه على كيلومترين . أما ارتفاع الجدران فتقارب خمسة أمتار ، بينما سماكتها فهى حوالى أربعة أمتار (2) .

---

(1) انظر : د. أسد رستم : آراء وأبحاث ، ص 55 ، منشورات الجامعة اللبنانية - بيروت 1967 . انظر أيضا : كريمسكي : رسائل من لبنان 1896-1898 : بيروت وجبل لبنان على مشارف القرن العشرين ، ص 59 ، دار المدى ، بيروت 1985 . تقديم وتحقيق وضبط : د. مسعود ضاهر .

(2) شفيق طبارة : بيروت ، سورها وأبوابها ، أوراق لبنانية ، م 1 ، ج 6 ، ص 278-292 ، شفيق طبارة : معالم بيروت القديمة ، أوراق لبنانية ، م 3 ، ج 1 ، ص 16-21 ، طه الولي : أبواب بيروت ، المقاصد ، العدد 21 ، ص 44-50 ، 120 ، داروود كنعان : بيروت في التاريخ ، ص 86 ، مطبعة عون ، بيروت 1963 ، حسان حلاق : أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني - سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ، ص 66-67 ، المركز الإسلامي للاعلام والإنماء ، بيروت 1985 .

ومن ملامح بيروت العمرانية الاخرى بعض الاسواق المتخصصة ومنها : سوق ابو النصر ، سوق الاساكفة ، سوق الامير يونس ، سوق البزركان ، سوق البوابجية ، سوق بوابة يعقوب ، سوق البياطرة ، سوق الحدادين ، سوق الخضرية ، سوق الخمامير ، سوق زاوية ومسجد التوبة ، سوق الزبيبة ، سوق الساحة ، سوق سرسق ، سوق الشبقجية ، سوق الشعارين، سوق الصاغة ، سوق الطويلة ، سوق العطارين ، سوق القزاز ، سوق القطن، سوق القهوة ، سوق اللحامين ، سوق المنجدين ، سوق النجارين • وهناك الآلاف من الاوقاف وبعض البساتين والجنائن والمزارع والافران ، كما وجد فى بيروت بعض الثكن العسكرية ، بالاضافة الى الجبانات والمقابر الواقعة حكما خارج سور مدينة بيروت • وضمت المدينة الجوامع والزوايا الدينية والاديرة والكنائس ، والحارات والشوارع والمناطق والحمامات والخانات والزواريب والساحات والقناطر والقيساريات (الاسواق المقفلة) والمدارس والمعاصر والمقاهى والموانىء ، وكان أهمها ميناء بيروت الذى ضم الى جانبه موانىء متخصصة مثال : ميناء الارز ، ميناء الخشب ، ميناء القمح ، ميناء البصل ، ميناء البطيخ ••• (3)

والحقيقة فان التطور الاقتصادى الذى أصاب المدينة لفت الانظار اليها وخولها الى ان تكون المقر الرسمى لولاية جديدة عرفت باسم «ولاية بيروت» (4) وقد أعلنت ولاية بيروت فى العام 1887 ـ 1888 ، وكانت تمتد جنوبا الى نابلس فى فلسطين ، بينما امتدت وشمالا الى اللاذقية • وقد ألحق بولاية بيروت الى جانب صيدا وصور ومرجعيون ، متصرفيات (ألوية) طرابلس الشام واللاذقية وعكا ونابلس ، حتى نهر الشريعة وحدود لواء القدس الشريف •

وبذلك يمكن القول بأن ولاية بيروت فى العهد العثمانى كان يحدها شمالا ولاية حلب وشرقا ولايتا حلب وسورية ، وجنوبا لواء القدس الشريف ، وغربا البحر المتوسط • كان عدد سكان لواء بيروت (أقضية بيروت ، صيدا، صور ، مرجعيون) قبيل الحرب العالمية الاولى (276،639) ألف نسمة حسبما ورد فى سجلات النفوس الرسمية موزعين على النحو التالى :

---

(3) للمزيد من التفصيلات الوافية عن هذه الأسواق والملامح العامة انظر كتابنا : أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني ، صفحات متفرقة ، انظر أيضا مقالنا : الملامح العمرانية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية في بيروت العثمانية – في ضوء سجلات المحكمة الشرعية في بيروت – نشر في مجلة : تاريخ العرب والعالم ، العددان 81–82 ، تموز (يوليو) آب (أغسطس) 1985 (بيروت) ، ص 24–39 .

(4) عن الأوضاع الاقتصادية لمدينة وولاية بيروت انظر : د. حسين سلمان سليمان : بيروت ودمشق تحتلان مكانة صيدا وحلب الاقتصادية – من خلال الوثائق الفرنسية – تاريخ العرب والعالم ، العدد 35 ، أيلول (سبتمبر) 1981 ، ص 48–55 . انظر أيضا : د. وجيه كوثراني : الحياة الاقتصادية في ولاية بيروت عشية الحرب العالمية الأولى من خلال كتاب ولاية بيروت مجلة الباحث (بيروت) العددان 33–34 ، أيار (مايو) آب (أغسطس) 1984 ، ص 69–84 .

قضاء بيروت (150،000) ، قضاء صور (41،240) ، قضاء صيدا (54،284) ، قضاء مرجعيون (31،115) (5) ٠

وكانت الدولة العثمانية تعين والى ولاية بيروت من الجنسية التركية ، ويكون مقره مدينة بيروت ، وكان يعاونه فى ادارة الولاية والاقضية : المفتى، مجلس ادارة الولاية ، مأمورو الولاية ، المحكمة الشرعية وقضاتها وكتبتها ، هيئة التخمين ، محكمة استئناف الحقوق ، محكمة استئناف الجزاء ، محكمة بداية الحقوق ، محكمة بداية الجزاء ، المدعى العام ومعاونه ، مأمور دائرة الاجراء ، دائرة الاستنطاق ، محرر المقاولات ، محكمة التجارة ، مأمورو ادارة المعارف ، دائرة الاوقاف ولجنة الاوقاف ، لجنة الطرق والمعابر ، ادارة البنك الزراعى ، دائرة الشرطة ٠ وكانت هذه الدوائر أو بعضها يضم بعض الموظفين مثال : الدفتر دار ، المكتوبجي ، المحاسبجي ، التذكرجي ، اليوزباشى ، القومندان ، رئيس المحكمة ، مدير البوليس ، رئيس البلدية ، نقيب الاشراف، مدير البرق والبريد ، مدير المعارف ، مفتش الصحة ، مدير الامور الاجنبية ، رئيس مهندسى النافعة ، ناظر النفوس ، مدير تحرير الويركو (الضرائب) ، محاسب اولاقاف ، مفتش الاحراج ، مأمور السجل السلطانى ، مأمور المعية ، مفتش الزراعة ٠٠٠ (6) ومن بين ولاية بيروت الذين تبوأوا منصب الوالى : مدحت باشا ، أدهم باشا ، بكر سامى بك ، حازم بك ، حمدى باشا ، خليل باشا ، رشيد باشا ، ناظر باشا ، عزمى بك ، على منيف بك ، اسماعيل حقى٠ أما رؤساء بلدية بيروت فقد كانوا من أبناء بيروت ومنهم : محى الدين حمادة، الشيخ عبد القادر قبانى ، عبد القادر الدنا ، محمد أياس ، سليم على سلام ، عمر الداعوق ٠ أما العائلات البيروتية فى العهد العثمانى فهى بأكثريتها من الطائفة الاسلامية وهناك عائلات مسيحية جلها من الروم الارثوذكس ٠ أما أهم العائلات البيروتية الاسلامية المثال لا الحصر : الازهرى ، الاسطه ، الاسير ، الاحدب ، الانسى ، ادريس ، أياس ، بالوظة قليلات ، بدران ، البراج ، البربير ، بكداش (ومكداشى وبكداشى) بكار ، بنداق ، بلوز مشاقو (مشاقه) ، بليق ، بواب ، بولاد الحوت ، بيضون ، بيهم ، جبر ، الجبيلى الحسامى ، جلول ، الجمال ، الجندى ، جارودى ، حاسبينى ، حبوب، حبال ، حمد ، الحص حطب ، حلاق ، الحلوانى ، حماده ، حمزة ، حنتس ، الحوت ، دريان ، درويش ، دعبول ، دمشقية ، الدنا ، دندن ، دوغان ، دياب، ديه ، الراعى ، حورى ، خالد ، خرما ، خضر ، خطاب ، الخياط ، الداعوق ،

---

(5) انظر : رفيق التميمي ومحمد بهجت : ولاية بيروت ، ج 1 ، ص 7 ، ج 2 ، ص 8 ، مطبعة الإقبال ، بيروت 1335ه/1333م (مالية) 1917 ميلادية . أعيد تصوير هذا الكتاب وصدر عن دار لحد خاطر 1979 . انظر أيضا مقالنا : بيروت المحروسة في العهد العثماني ، مجلة الموقف (بيروت) العدد الأول ، حزيران (يونيه) 1983 ، ص 8–13 .

(6) انظر مقالنا : بيروت المحروسة في العهد العثماني ، في المرجع السابق ، ص 8 . انظر أيضا : أوراق لبنانية ، م 1 ، مقال : موظفو حكومة بيروت سنة 1982 ، ص 397–399 .

دبوس ، الرافعي ، الرفاعي ، رمضان ، زغلول ، زنتوت ، سبيلني ، سراج ، سرجي ، سحمراني ، سعاده ، السعقان (السجعان) سلطاني ، سلام سنتينا ، سنو ، سوبره ، شبارو ، شاتيلا ، شاكر ، شمانوحه ، شبقلو ، شعار ، شدياق ، شهاب ، الشيخ ، صعب ، صفصوف ، الصلح ، الصيداني ، طباره، الطبش ، الطبيلي ، الطرابلسي ، طربيه ، الطيارة ، العالية ، عبلا ، العجم ، العجوز ، العريس ، العريسي ، عز الدين ، عساف ، العشي ، عفره ، العلماوي، علم الدين ، علوان ، علايا ، عمران ، العويني ، العيتاني ، الغالي ، الغر (الاغر) غزاوي ، غزيري ، الغلاييني ، غندور ، الغول ، الفاخوري ، فانوس ، فايد ، فتح الله ، فتح الله الشيخ ، فتح الله المفتي ، فتوح الفحل ، فروخ ، الفيل ، القاروط ، القاضي ، القاطرجي ، قباني ، قدوره ، القرا بدران ، قراقيره ، قرانوح ، القرقوطي ، قرنفل ، قريطم ، قزاز ، القصاب ، القصار ، القضماني، القطان ، قواص ، القوتلي ، قمورية ، الكبي اللحام ، كريدية ، الكستي ، كشلي ، الكعكي ، كنيعو ، الكوسا ، الكوش ، اللبان الداعوق ، لبابيدي ، اللادقي ، المبسوط ، المبيض ، المجذوب ، المحب ، محرم ، المحمصاني ، محيو ، المدور ، ميرزا (مرزى) مرعى ، مشاقه ، مغربل ، مغربي ، مكاوي ، مخزومي ، مكداشي ، مكوك ، مكي ، منجد ، منقاره ، منيمنه ، مورلي ، ميقاتي ، الناطور ، نجا ، النحاس ، النحيلي ، النصولي ، نعماني ، النقاش ، النقيب ، النويري ، الهبري ، الهواري ، وهبه ، الوزان ، ياسين ، اليافي ، يموت ... (7)

ومن العائلات الدرزية البيروتية على سبيل المثال عائلات : جابر ، حلبي ، حمندي ، حمد ، حميه ، معقصه ، ديك ، ربح ، رباح ، رضوان ، وتوات ، روضة ، الزهيري ، علاء الدين ، زيتون ، السواح ، سليت ، شنتوف ، سرى الدين ، ضارب ، عاقل ، عبد الخالق ، العريضي ، عساف ، عود ، غاوي ، الفر ، غضبان ، غزارة ، قمند ، مروش ، منذر ، مياسي ، نعمان ، هشي ، يونس ... (8)

ومن العائلات المسيحية البيروتية على سبيل المثال عائلات : الارقش ، اليان، بسول ، برباري ، بسترس ، تابت ، تيان ، تويني ، داغر ، دهان ، رزق الله، زهار ، سابا ، سرسق ، السلموني ، السيقلي ، الصباغ ، طاسو ، طراد ، طربيه ، العم ، قسطه ، مطر ، الهاني ، يارد ، يمين ، فرعون ، مجدلاني ...(9)

1 ـ الوقع الاجتماعي في بيروت العثمانية :

كانت العائلات البيروتية تكون المجتمع البيروتي الذي شهد موجات من الوافدين الاتراك والاوروبيين وموجات أخرى وافدة من الولايات الاسلامية

(7) انظر كتابنا : أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني ، حيث تظهر وثائق ومستندات سجلات المحكمة الشرعية في بيروت أسماء هذه العائلات وأماكن تواجدها .

(8) انظر كتاب : د. سليم حسن هشي : دروز بيروت تاريخهم ومآسيهم ، دار لحد خاطر ، بيروت 1985 .

(9) انظر مقالنا : بيروت المحروسة في العهد العثماني ، المرجع السابق ، ص 9 .

والعربية • وعبر الحقب التاريخية تمت حركة التشابه فى العادات والتقاليد والممارسات مع ما تتميز به العائلات البيروتية من بعض التباين بسبب المعتقدات الدينية • وبشكل عام فقد كان المجتمع البيروتى مجتمعا متشابها فى كثير من مظاهره ، وقد كانت المسلمات والمسيحيات محتجبات الى حد كبير ، كما أن المسلمين والمسيحيين من الرجال كانوا يلبسون ثيابا موحدة كالسروال العثمانى (الشروال) والقمباز والصدرية الكشمير واللاستيك (الجزمة) لا سيما الاغنياء منهم ، ويعتمرون الطربوش • مع العلم أن الفئات المثقفة من مختلف الطوائف قد بدأت تتفرنج بلباسها وعاداتها وتقاليدها منذ أواخر القرن التاسع عشر • ومما يجمع العائلات البيروتية محكمة بيروت الشرعية التى كانت تبحث أمور مختلف الطوائف الاسلامية والمسيحية واليهودية أيضا • فمعاملات الارث والاوقاف والديون والدعاوى والشكاوى وتعيين علماء الدين ، كانت كلها تسجل فى سجلات المحكمة الشرعية للدولة العلية فى مدينة بيروت المحروسة (10) •

هذا وتصور لنا بعض الابحاث ومذكرات الرحالة أوضاع بيروت الاجتماعية فى القرن التاسع عشر • ومما يذكره د• أسد رستم عن واقع بيروت فى عهد ابراهيم باشا ابن والى مصر محمد على باشا ما يفيدنا فى بعض الجوانب الاجتماعية كقوله : «لو أتيح لك ان تدخل مساكن هؤلاء الاغنياء لوجدتها خالية من قسم كبير من الاثاث الذى نعده اليوم ضروريا لراحتنا ، فلا ترى فيها الاسرة الاوروبية التى نراها اليوم ولا الخزانات لحفظ الثياب • فان بيروتى سنة 1831 كان لا يزال مصرا على استعمال المصابيح الفخارية والمعدنية •••» ولما عين الامير محمود نامى حاكما على بيروت (1833 ـ 1840) أنشأ نظام الشرطة الذى يفيدنا فيما يفيدنا به عن المميزات الاجتماعية فى هذا النظام ، وكان من بين القرارات المتخذة فى بيروت القبض على كل شخص لا يحمل ليلا بيده مصباحا • وكانت عادة الشرطة أن يوجهوا الى كل من نظروه من أبناء السبيل فى الليل سواء أكان مسلما أم نصرانيا السؤال الآتى : من هذا ؟ فيجيبهم : «ابن البلد» • فيصيح الشرطى حينئذ ويقول له : «وحد الله» فيقول ابن السبيل «لا اله الا الله» (11) • ومنذ العام 1833 بدأت ملامح «التفرنج» على بيروت ، وازدادت عمليات الاحتكاك بالاوروبيين ، فتأثرت العمارة بالهندسة المعمارية الاوروبية ، وشاع فى بيروت استخدام الاثاث الافرنجى ، فابتاع البيروتيون الاسرة والخزانات والكراسى والطاولات ، واقتنوا الصحاف والشوك والسكاكين والملاعق الافرنجية • وقد تأثر الشعب بزى أفراد الجيش المصرى ، فالتعديلات التى طرأت على لباس الجيش سرت وتناولت لباس

(10) المقال نفسه ، ص 9 .
(11) د. أسد رستم : آراء وأبحاث ، ص 56 ؛ 71 .

الجبة والقنباز ، وأدخلت الطرابيش المغربية والصدارى وكبابيت التفتيك ٠ وبعد أن كان البيروتى يميل الى اقتناء الثياب ذات اللون الاحمر والبنفسجى، أخذ يهجرها شيئا فشيئا ، ويتخذ الاسود والكحلى منها ٠ وشاع ايضا فى هذه الفترة من تاريخ بيروت استخدام الكلسات (الجوارب) (12) ٠

ويفيدنا الشيخ محمد عبد الجواد القاياتى القادم من مصر الى بيروت اثر حركة أحمد عرابى عام 1882 ، عن الكثير من الملامح الاجتماعية فى بيروت العثمانية والتى شاهدها بنفسه ٠ ومما يذكره عن أبناء بيروت ونشاطهم «٠٠٠ ولاشتغال أهل هذه المدينة بأشغالهم التجارية من الصباح الى المساء ما بين كونه فى دكان أو حاصل يبيع ويشترى ، أو فى المينا يستخرج بضاعته المجلوبة اليه من اوروبا أو بلاد أخرى ، أو ينزلها الى جهات ثانية لشركائه وعملائه ، أو فى أحد الدواوين والمجالس مستخدما بمأمورية أو كتابة ، فليس لهم وقت فراغ ، فلا تراهم يكثرون من السهرات الليلية فى الحظوظ والشهوات النفسية ، ولا يشتغلون بكثرة مجالسة الاصدقاء والاقرباء ولا مؤانسة المسافرين والغرباء الا على قدر الضرورة ، كعزيمة أو وليمة لعزيز أو قادم كريم ٠٠٠ وبالجملة فبيروت مدينة اسلامية دينا وغيرة وحمية ، اوروباوية نظاما وبناء وحربية ، فانهم مع كثرة مخالطتهم لغير أهل دينهم من وطنيين وأجانب فى غاية الصلابة والتحفظ على شعائر الدين ٠ ولم يقلدوهم فى طول مدة العشرة الا فى مرعاة القوانين والنظامات ٠ فى المرافعات والمدافعات ، والمبانى والمشيدة البهجة ، والطرقات والاسواق المنفرجة ، وفيها غاية السهولة فى تناول البضاعات التجارية والتحارير والرسائل بواسطة البوستات والوابورات الاجنبية ٠ فالسفار فيها والاخبار يومية لا كغيرها من البلاد السورية ، فهذه مزية لها وأى مزية» (13) ٠

ومما يذكر عن عادات أهل بيروت فى بعض المناسبات ، أنه من تقاليدهم فى أعيادهم الاسلامية أن يصلوا فى المساجد ثم يزور بعضهم مقابر موتاه ، ويعود البعض الآخر الى المنزل ، ثم تبدأ الزيارات للمعايدة بقول العبارة التالية « كل عام وأنتم بخير» و«كل عام وأنتم سالمون» واذا كانت المناسبة هى لعيد الاضحى، فيقول الزئر بالاضافة الى العبارات السابقة عبارة «ان شاء الله السنة المقبلة نراك على عرفه» ٠ والمقصود بها القيام بالحج وشعائره ٠

ومن عادة البيروتيين (المسلمين) فى أعيادهم تقديم الحلوى للمعايدين ٠ وكانت أفران بيروت تعج فى فترة الاعياد بالاوانى (الصوانى) التى كانت تخبز عادة فى تلك الافران ٠ وكانت أجرة الفران قطعا يتناولها بعد انتهاء الخبيز ٠

(12) د. أسد رستم ، المرجع نفسه ، ص 62 .
(13) الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي : نفحة البشام في رحلة الشام ، ص 33—34 . نسخة مصورة عن دار الرائد العربي ، بيروت 1981 .

وكان المسلمون فى بيروت يصلون جميعا فى المسجد العمرى الكبير (مسجد سيدنا يحيى) وهو مسجد البلد الكبير . وكان مفتى بيروت فى مقدمة المصلين حيث يؤم فيهم الصلاة .

وأما عاداتهم فى الافراح ، فهى توزيع الدعوة لحضور الخطوبة أو عقد القران (الكتاب) . وكان المتبع أن يتوجه صاحب الدعوة بنفسه لدعوة الاقارب والاصحاب ، ودعوته بنفسه كانت لها معنى ومغزى معين ، تعبر عن مدى احترامه وتقديره للمدعوين ومدى التزامه بالاصول . وبعد اجتماع المدعوين يجتمع الرجال على حدة والنساء على حدة . ويبدأ الحفل عادة بقراءة من آى القرآن الكريم وقراءة المولد النبوى الشريف تبركا وتقريبا . ويحضر كل من دعى فى مكان متسع فى الدار أو ما يسمى الايوان (ليوان) ، ويفرشون هذا المكان بالمفروشات الجميلة . وينصبون للشيخ الذى يقرأ المولد كرسى القراءة مسجى بالحرير والديباج أو الكشمير . وحين يبدأ القراءة يرفع المدعوون النراجيل (النرجيلة ـ الاركيلة) ويتركون شرب الدخان احتراما . وبعد قراءة المولد والقرآن الكريم تنشد الاشعار والموشحات النبوية على الطريقة القديمة التى كانت متبعة فى مصر منذ زمن قديم . وبعد انتهاء المولد وعقد القران يوزع على المدعوين قراطيس الملبس (لوز ملبس بطبقة من السكر) والمشروب (الشربات) . والعادة المتبعة فى عقد القران (كتب الكتاب) ان يحضر ولى الزوج وولى الزوجة أو وكيلاهما بين يدى القاضى أو المفتى ، ويسمون المهر ثم بعد الانتهاء من هذه المراسيم تقرأ الفاتحة على نية التوفيق والصلاح . (14) وفى حفل الزفاف تجرى بعض الامور المتشابهة فى العقد ، مع زيادة فى مراسيم أخرى ، مثل توزيع الشموع على الاولاد ، والدق على الطبل والمزمار والعود . ويخرج العريس من منزله مصحوبا بالاصل والجيران ، ووجهتهم منزل والد الفتاة وذلك لاصطحابها الى المنزل الزوجى . وأثناء عبوره الطريق تطل من الشبابيك النسوة والبنات يزغردن وينشدن زغاريد ملائمة لمناسبة ، كما يدعو له العلماء والمشايخ بالسعادة والتوفيق .

وأما عادات أهل بيروت فى المآتم فهى قيلة الكلفة ، حيث يحضر الميت وينقل مع المشيعين الى احد مساجد المدينة ، حيث يصلى عليه صلاة الجنازة ظهرا أو عصرا ، ثم يدفن فى احدى الجبانات (المقابر) المقامة عادة خارج سور بيروت . وهناك تتلى عليه آيات من القرآن الكريم . وبعد الانتهاء من الدفن يتوجه المشيعون أو من يود منهم لتقديم العزاء ثانية . وتمد طاولة طعام على نية المتوفى . والامر اللافت للنظر أن الاقارب والجيران هم الذين يطبخون فى هذه المناسبة الحزينة ، ويقدمون المأكولات وينقلونها الى منزل المتوفى كى تقدم للمعزين . وفى تلك الفترات كانت النساء تلبسن الابيض وليس الاسود كما

(14) الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي ، المصدر نفسه ، ص 47–48 ، انظر أيضا : كريمسكي : رسائل من لبنان 1896–1898 ، ص 159–163 .

هو شائع فى بعض الاقطار الاسلامية والمشرقية · كما أن أهل الميت لا يكلفون بشىء فى الايام الثلاثة أو السبعة · وفجر اليوم الثانى من الوفاة يتجه أهل المتوفى الى الجبانة لزيارته أو كما يقال اصطلاحا «لفك وحدته» · ثم تقام ذكرى الاربعين بقراءة القرآن الكريم وذكر مآثر المتوفى ، اعتمادا على القول الشريف «اذكروا محاسن موتاكم» · ومما قيل عن أهل بيروت «لا يظهر على الرجل منهم كآبة الحزن والترح ، ولا تلألأ وجهه بالسرور والفرح · فهم رجال لا تلهيهم عن معاشهم أفراح ولا أتراح فليت أهل مصر يتشبهون بهم والتشبه بالرجال فلاح» (15) ·

وعن نساء بيروت فى القرن التاسع عشر ، فقسم منهن يلبسن الازار الابيض أو الملاءية (الملاية) الحرير ، وعلى وجوههن المناديل الرقيقة الاسلامبولى، وفى أرجلهن اللستيكات (الجزم) الافرنجى ، ولا يظهرن من أبدانهن شيئا ، وهن النساء المسلمات خاصة · أما نساء النصارى فيلبسن الفساتين الواسعة وعلى رؤوسهن الطرح الرقيقة ، وهن مكشوفات الوجوه وربما الزنود ، ويمشين فى الاسواق والشوارع والحارات ويتحدثن مع الرجال الاجانب فى الطرقات والبيوت ، ويقلدن الاوروبيات حق التقليد · وبعضهن كنساء اوروبا فى ارخاء الذيول ولبس الاعراف والبرانيط على رؤوسهن ، ولا يختلفن عنهن الا باللسان واللغة · ومن العادات الاجتماعية الحميدة فى مدينة بيروت عدم الجهر بالمعاصى كشرب الخمر والزنى لا سيما بالنسبة للطائفة الاسلامية التى حرم عليها الخمر والزنى ، بينما الطائفة المسيحية حرم عليها الزنى وأحل لها الخمر · كما لا يتعاطى أهل بيروت المنكرات كتناول الحشيش وبقية أنواع المخدرات ، ولا يوجد فى مدينتهم مراكز للمومسات (16) ·

ويؤكد عبد الرحمن بك سامى الذى زار بيروت فى العام 1890 من أن العادات الاجتماعية فى بيروت مختلطة من العوائد الافرنجية والشرقية ، وأنه ليس عندهم محلات لساقيات البيرة (الجعة) وتقل عندهم المواخير والملاهى وأماكن المومسات التى تطرح الانسان الى مهاوى الفقر ، وتصرفه عن لذة الاجتماع بأهله وخلانه · كما أكد بأن نساء بيروت محتشمات عاملات فى الميادين الاجتماعية والخيرية وفتح الجمعيات والمدارس ومساعدة المعوزات · واشار الى بعض الوقائع الاجتماعية فوصف أيام العطل وكيفية قضاء أهل بيروت هذه الايام ، فقد اعتاد بعض شبان بيروت وصياديها ، المولعين بركوب الخيل ولعب الجريد ، ان يذهبوا فى أوقات العطلة لا سيما يوم الجمعة والاعياد الى ميدان حرج بيروت الشهير ويتسابقوا على ظهور الجياد ، ويظهروا من

---

(15) الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي ، المصدر نفسه ، ص 50 ، انظر أيضا : كريمسكي ، المصدر السابق ، ص 174—177 .

(16) الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي ، المصدر نفسه ، ص 51 ، 53 ، 151 .

ضروب الفروسية ما يرتاح اليه الخاطر ويأنس بمرآه الناظر (17) . كما أكد ما سبق الاشارة اليه حول همة «البيارتة» (أهل بيروت) وحسن ضيافتهم مشيرا الى أن «أهل بيروت ذوو همة فى الاشغال يقومون صباحا قبل الشمس ويشتغلون طول النهار بلا ملل ، كل فى عمله ، ولا تكاد ترى بينهم باهلا يتردد بلا عمل الا فيما ندر» . وأشار الى الطبقات الاجتماعية فى بقوله :

«تحتوى هذه المدينة على كل طبقات الناس ، ففيها الاغنياء وأصحاب البنوك كالسادات : بيهم وأياس والخواجات بسترس وسرسق وتوينى وغيرهم . وفيها المتوسطون كتجار المانيفاتورة ... وفيها أصحاب الحرف والصنائع وغيرهم . وكل هذه الطبقات تأتلف بعضها مع بعض ، ولا سيما فى أيام المواسم والاعياد حتى تكاد لا تميز بين غنيهم وفقيرهم ... وكلهم على أتم الوفاق كأنهم قد أدركوا أن لكل انسان وظيفة فى العالم ، وهذه الوظائف مجموعة معا تؤلف الهيئة الاجتماعية ... اكرام البيروتيين ولطفهم ما يجعلنى أردد عبارات الثناء تكرارا عليهم ...» (18)

وأشار الامير محمد على باشا حفيد محمد على الكبير الذى زار بيروت فى العهد العثمانى ، وسجل انطباعاته عما رآه من احوال اجتماعية ومما قاله : «كان سرورى يتجدد كلما كنت أرى أولئك الناس متشبثين بالعوائد الشرقية ومتمسكين بالملابس القديمة والازياء الفطرية ...» أما عن التعليم فى مدارس بيروت فقد أوضح محمد على باشا «بأن التعليم فى مدينة بيروت مما يسر أنصار العلم وعشاق المعارف ومحبى التقدم والرقى . ولهذا كنت أرى معظم الاهالى يجيدون القراءة والكتابة ، وقلما وجدت مدينة أهلها كذلك فى كل بلاد الشام» (19) . أما عن اللغة السائدة فى بيروت فهى اللغة العربية ، وهناك لغات أخرى مستخدمة كاللغات التركية والفرنسية والايطالية والانجليزية .

وتظهر ملامح الحياة الاجتماعية فى بيروت العثمانية وأنماطها وتحركاتها عبر الاسواق التجارية والعلاقات الاقتصادية وأماكن ممارسة الحرف والصناعات والتجارة ، وعبر المؤسسات الدينية كالجوامع والتكايا والزوايا والمؤسسات العسكرية كالثكن ، كما تظهر الحياة الاجتماعية عبر المحكمة الشرعية فى بيروت المحروسة . وبما أن الحياة الاجتماعية تسود مختلف القطاعات البيروتية ، وهى أكثر من أن تشملها هذه الدراسة ، فاننا سنبرز ملامح اجتماعية أخرى ــ بالاضافة الى ما سبق أن ذكرناه ــ .

---

(17) عبد الرحمن بك سامي : القول الحق في بيروت ودمشق ، ص 13 ، 14 ، 18 . نسخة مصورة عن دار الرائد العربي ، بيروت 1981 .

(18) عبد الرحمن بك سامي : المصدر نفسه ، ص 33 ، 34 .

(19) محمد علي باشا : الرحلة الشامية ، ص 17–52 . نسخة مصورة عن دار الرائد العربي ، بيروت 1981 .

2 ـ أسواق بيروت والمهن والحرف فى المجتمع البيروتى :

ان دراسة الاسواق بما تحويه من مهن وحرف وتجارة فى بيروت العثمانية تعطينا فكرة أساسية عن أحد الميادين التى شكلت عنصرا هاما فى حياة المجتمع البيروتى ، وهو مجتمع الفئة العاملة ، أو مجتمع الحرفيين الذين قاموا بدور أساسى فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى بيروت ، ومن بين هذه الاسواق :

سوق الاساكفة : وهو من الاسواق المتخصصة الذى يتجمع فيه الاساكفة العاملون فى مهنة الجلود والاحذية بمختلف أنواعها وأشكالها • وكان هذا السوق يقع فى باطن بيروت قرب الجامع العمرى الكبير ، بالقرب من دكان وقف «قفة الخبز» • وكان يوجد فيه القهوة التى يتجمع فيها الاسكافيين المعروفة باسم قهوة سوق الاساكفة • وكان هذا السوق قريبا من سوق النجارين (20) •

سوق البازركان : كان يتجمع فى هذا السوق بصورة أساسية أصحاب المهن المتعلقة بالاقمشة والخياطة • وتمركزت فيه دكاكين الخياطين ، الذين كانوا يصنعون الالبسة العثمانية ـ البيروتية المعروفة فى تلك الفترة • ولما تفرنجت بيروت صار يعرف هؤلاء باسم «الخياطين العربى» • وكان يوجد فى هذا السوق تجار الاقمشة الحريرية • ويقع هذا السوق فى باطن بيروت فى اطار قيسارية الامير منصور الشهابى (وهو سوق مسقوف) يتألف من طبقتين، وكان الطبق (الطابق) الارضى من القيسارية دكاكين للخياطين • والى جانب هذه الملامح ، فقد وجد فى سوق البازركان ميزان الحرير وسوق الصاغة ، حيث مورست المهن والحرف والتجارة المتعلقة بالحرير والذهب والفضة•••(21)

سوق الحدادين : كان مركزا لعمل الحدادين العاملين فى تصنيع الاشغال الحديدية • وكان الى جانب كونه مركزا حرفيا ، كان أيضا مركزا لدور سكنية عديدة على عادة الاسواق القديمة ، حيث يسكن بعض أصحاب المهنة قرب مراكز عملهم • وكان يقع هذا السوق فى باطن بيروت فى الطريق الى اسكلة (ميناء) بيروت • وأوله من مدخل سوق البياطرة ، كما يلتقى سوق الحدادين بالباب الشرقى للجامع العمرى الكبير حتى أول سوق اللحامين عند مدخل كاتدرائية مارجرجس للروم الارثوذكس • ويتصل أيضا بزاروب سوق النجارين • ومن ملامحه أنه كان يوجد فى آخره جرينة الحنطة لطحن الحبوب (22) •

---

(20) انظر : السجل الأول ، من سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ، السجل 1259هـ-1843م ، صحيفة 18-22 . انظر أيضا : كتابنا : أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني ، ص 54 .

(21) السجل الأول من سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ، ص 18-22 . انظر أيضا : أوراق لبنانية ، م 1 ، ج 1 ، ص 23 . داوود كنعان : بيروت في التاريخ ، ص 37-38 ، مطبعة عون ، بيروت 1969 ، الشيخ عبد الباسط الأنسي : تقويم الإقبال لسنة 1327هـ ، ص 132-134 ، مطبعة الإقبال ، بيروت 1327هـ .

(22) السجل الأول من سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ، صحيفة 34 ، 35 ، 42 ، 43 ، 70 . انظر أيضا : داوود كنعان ، المرجع السابق ، ص 90 ، 92-93 .

وبالاضافة الى هذه الاسواق ، فقد وجدت أسواق أخرى تمثل التجمع المهنى والصناعى والتجارى للمجتمع البيروتى أهمها : سوق البوابجية ، سوق البياطرة ، سوق الخضار ، سوق زاوية ومسجد التوبة ، سوق الساحة، سوق ساحة الخبز ، سوق سرسق ، سوق الشبقجية ، سوق الشعارين ، سوق الطويلة ، سوق العطارين ، سوق القزاز ، سوق القطن ، سوق اللحامين، سوق المنجين ، سوق النجارين ... (23)

3 ـ دور الاوقاف فى الحياة الاجتماعية فى بيروت :

تعتبر الاوقاف الاسلامية أو النصرانية أو اليهودية من الاملاك الهامة التى اسهمت عبر التاريخ بتطور المجتمع وتقدمه على كافة الاصعدة . وتعتبر الاملاك والعقارات الوقفية من الاملاك ذات النفع الخيرى العام ، وتكون عادة ملكا عاما للطوائف الدينية . وقد اعتمد عبر مختلف الحقب التاريخية على واردات هذه الاوقاف فى بناء الكيانات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية ، بل وفى تحويل وبناء الكيانات السياسية والعسكرية لتلك الطوائف وقد حظيت الاوقاف فى العهد العثمانى بالاهتمام اللائق بها بعد تطور المفهوم الوقفى وتبيان نتائجه الايجابية فى مختلف المجالات ، واقبل المسلمون فى العهد العثمانى على العمل به وتطبيقه فى بيروت وشتى الامصار الاسلامية . ومن الدلائل على ذلك التطور الملموس فى ازدياد عدد وحجم الوقفيات وتعدد مجالات الاستفادة منها والانفاق عليها . ويكفى الاشارة الى ما يملكه المسلمون من أملاك وعقارات وقفية فى بيروت وهى تعد بعشرات الآلاف (24) . فما من مسجد أو زاوية أو مؤسسة خيرية أو صحية او اجتماعية ، الا وكان عليها وقف يتضمن العديد من الاملاك والعقارات وأحيانا بعض المنتجات والصناعات والاموال .

ومن الملاحظ ان الاملاك الوقفية سواء فى بيروت العثمانية أو فى سواها من المدن ، قد ساهمت مساهمة فعالة فى تطوير البنى الاجتماعية لمسلمى بيروت ولبنان . ومما يشير الى أهمية الوقف الاسلامى فى الحياة الاجتماعية ، هى أن جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية فى بيروت بعد تأسيسها عام 1295 هـ ـ 1878 م بسنوات قليلة ، توسلت لدى والى بيروت والحكومة العثمانية لتسليمها بعض الاوقاف الاسلامية المحلولة أو غير المضبوطة ، للاستعانة بوارداتها ولتوسيع نشاطاتها الاجتماعية ولاقامة المدارس للاناث والذكور .

---

(23) للمزيد من التفصيلات انظر : السجل الأول من سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ، في صفحات متفرقة حيث أشارات إلى هذه الأسواق . انظر أيضا كتابنا : أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني ، ص 52—120 .

(24) حسان حلاق : أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني ، ص 18 ، 25 . انظر أيضا في الكتاب نفسه وثائق الأوقاف الإسلامية .

وقد استجابت الحكومة العثمانية لهذا الطلب ، وسلمتها بعض الاوقاف ومنها على سبيل المثال (25) :

- وقف الجبانات (المقابر) •
- وقف التكية •
- وقف جل التين •
- وقف الشمع •
- وقف قفة الخبز •
- وقف سبيل السمطية •
- وقف سبيل السراج •
- وقف سبيل الجامع العمرى الكبير •
- وقف قطعة أرض فى رأس النبع •
- وقف فاطمة بنت عبد القادر جبيلى •
- وقف الحاج محمد آغا الطرابلسى •
- وقف بنى الطيارة والحص •
- وقف بنى نجا وقريطم •
- أوقاف الحلوانى والقصار والقبانى ورمضان واليافى ومنيمنة والكردلى وقرنفل •

وللدلالة على أهمية الاوقاف وارتباطها بالحياة الاجتماعية فى بيروت يكفى أن نشرح بعض غايات ومرامى بعض الاوقاف فى بيروت ومنها على سبيل المثال :

وقف قفة الخبز : وهو وقف خيرى لغرض اجتماعى انسانى ، كان موقعه فى باطن بيروت وله دكان خاص ، توضع فيه قفة مليئة بالخبز فى كل يوم جمعة ، حيث يقصدها المعوزون والفقراء والمساكين القاطنون فى بيروت من مختلف الطوائف ، فيوزع متولى القفة الخبز عليهم ، فيأخذ كل منهم حاجته وينصرف دون سؤال أو اذلال • وقد كان لهذه القفة أوقاف وأحكار عديدة وبعض العقارات والمخازن التى يعود ريعها للقفة ، وقد سجلت هذه الاوقاف فى سجلات المحكمة الشرعية فى بيروت فى العام 1259 هـ - 1843 م (26) •

وقف الابريق : ويعرف ايضا باسم وقف الفاخورة أو الكاسورة • وكان لهذا الوقف دكان خاص لتوزيع الاوانى الفخارية فى باطن بيروت • وكانت مهمة القيم على الوقف اعطاء الصبى والفتاة والفقير والغلام وعاء فخاريا سليما

---

(25) أحمد أمين الحبال : ما لا يعلمه المسلمون عن جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت ، ص 12 . (كراس) انظر أيضا : أوراق لبنانية ، م 2 ، ج 7 ، ص 335-337 .

(26) انظر : أوقاف وأحكام « قفة الخبز » في السجل الأول 1259هـ/1843م من سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ، صحيفة 30-31 .

مجانا مقابل الوعاء الذى كسر معه أثناء قيامه بعمله • والحكمة من ذلك أن الصبي اذا أرسله معلمه لملء الابريق ماء من السبيل ، ولسبب من الاسباب كسر الابريق ، فبدلا من تعرض الصبى للضرب والتوبيخ والاهانة أو الطرد من العمل ، فان بامكان هذا الصبى أخذ الابريق المكسور الى وقف الابريق المكسورة والحصول على ابريق جديدة ، وهذا نوع من الضمانة الاجتماعية للاحداث •

وقف سكة حديد الحجاز : كانت أملاك وعقارات هذا الوقف تقع فى ساحة البرج فى بيروت ، وهو أكبر عقار منفرد فى الساحة ، وكان الهدف من ايجاد هذا الوقف العقارى تأمين أموال سنوية للانفاق على سكة حديد الحجاز الممتدة من دمشق الى المدينة المنورة ، وتسهيلا للحجاج طريق الحج • وهذه السكة هى التى خربها لورنس خلال الحرب العالمية الاولى 1914 ـ 1918 (27) •

وهناك أمثلة لا حصر لها من أنواع الاوقاف التى كانت تشكل الضمانات الاجتماعية الحقيقة للمجتمع البيروتى بل وللمجتمع العثمانى ومنها : أوقاف المساجد والزوايا ، وقف العلماء ، وقف المفتين ، وقف طلبة العلم ، وقف المكتبات العامة ، وقف المرابطين والمجاهدين ، وقف المستشفيات (الخستة خانة) ، وقف المقعدين والعميان وذوى العاهات ، وقف الارامل والايتام وأبناء السبيل ، وقف الخانات ، وقف الحجاج ، وقف حفر الآبار ، وقف الدواب ، وقف أكفان الموتى ، وقف الحليب للايتام والارامل والفقراء ، وقف الجبانات•

4 ـ العلاقات الاجتماعية فى اطار عمليات البيع والشراء والدعاوى المتبادلة:

تمثل العلاقات الاجتماعية فى بيروت العثمانية بما تتضمنه من تبادل فى عمليات بيع وشراء الاراضى والعقارات والدور ، وبما تتضمنه من دعاوى شرعية لها مميزات اجتماعية ، تمثل حيزا هاما فى التاريخ الاجتماعى للطوائف الاسلامية والمسيحية • وكانت الشكاوى الشرعية تتخذ طابعا اجتماعيا قائما على أساس الشرع الاسلامى ، وبالرغم من ذلك ، فان العديد من دعاوى المسيحيين المحقة والشرعية ضد المدعى عليهم من المسلمين تنتهى الى قرارات مفتى بيروت أو قاضيها الشرعى بالوقوف الى جانب المدعى المسيحى ضد المدعى عليه المسلم نظرا لاحقية دعواه وشكواه • ومن بين هذه الدعاوى دعوى «الذمى النصرانى» الياس ابن الخورى ميخائيل ضد جهجاه بن أحمد ، المقامة فى محكمة بيروت الشرعية فى 25 صفر 1259 هـ ـ 1843م• حول أحقية فى ملكية أرض• وبعد دراسة ومناقشة الدعوى أصدر «مولانا الحاكم الشرعى» حكما شرعيا لصالح الياس ابن الخورى ميشائيل • وكان شهود الحال على هذه القضية بعض

---

(27) توفيق حوري : المؤسسات الوقفية . من منظار حديث ـ قديم ، ص 6 . المركز الإسلامي للتربية ـ بيروت 1980 .

المسلمين ومنهم : السيد مصطفى قرنفل ، ولده السيد صالح قرنفل ، الحاج على ابن السيد أحمد بولاد الحوت ، السيد مصطفى بيضون ، الشيخ محمد ابن السيد خليل الباف الطرابلسى (28) .

وفى نهاية صفر 1259 هـ ادعى المسلم الحاج على بن أحمد الحوت على النصرانى بشارة سيف الدهان مدعيا عليه بأن المزرعة الموجودة قرب جبانة المصلى خارج سور بيروت المشتملة على أرض وغراس أشجار توت وبرى وفواكه وبناء ... هى من أملاك موكله المسلم صادق خرما شقير ، وأن رفعة الدهان شقيقة المدعى عليه وضعت يدها عليها بدون وجه حق ولا طريقة شرعية ، وأنه يطلب رفع يدها عن الارض وبما تحويه . وبعد حضور الشهود الشرعيين وعدم وجود البينة الشرعية ، وبعد التدقيق فى الادعاء ، منع المدعى من ادعائه لانه لم يستند الى وجه حق . «وعند ذلك منع الحاكم الشرعى المومى اليه المدعى الحاج على المذكور من دعواه وعرفه أنه ممنوعا . وحكم عليه بذلك وجاها وشفاها غبّ اعتبار ما وجب اعتباره شرعا . وحرر ما هو الواقع فيه بالطلب والسؤال تحريرا فى نهاية صفر الخير سنة تسع وخمسين ومايتين وألف» (29) .

وهناك العديد من القضايا المماثلة التى ظهرت فى مختلف السنوات وفى مختلف سجلات المحكمة الشرعية فى بيروت المحروسة . كما تشير السجلات الى العلاقات الاجتماعية القائمة بين البيروتيين أنفسهم ، أو بينهم وبين سواهم من أبناء الجبل . وكانت تظهر هذه العلاقات فى اطار عمليات البيع والشراء بين مختلف البيروتيين ومختلف الطوائف ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: عمليات بيع وشراء من النصرانى أسعد خطار الرجي الى المسلم حسين صالح العيتانى فى منطقة الحمراء فى رأس بيروت ، وعملية بيع وشراء من الوكيل مصطفى مكنيها (مكنية) الى النصرانية وردة يوسف اده ، فى بستان بنى جمال الدين فى بئر الست فى مزرعة رأس النبع فى بيروت ، وعملية بيع وشراء من النصرانى فرنسيس نصر الله مسك الى «الذمى اليهودى» الخواجه موسى شوعا الديرانى قرب زاوية بنى القصار فى باطن بيروت . كما صدر حكم شرعى فى 19 محرم 1259 هـ ومصالحة اسلامية بين عبد الرحمن بيضون وعبد القادر جبيلى حول قضية بستان الخطاب وديون وعقارات فى بيروت . وجرت عملية بيع وشراء من محى الدين على وهبى الى عمدة التجار الحاج أحمد بكرى العريس فى باطن بيروت ، كما جرت عملية قسمة عقارات بالتراضى بين آل وهبى السيقلى قرب كنيسة الروم فى باطن بيروت . كما صدر فى 11 ربيع الآخر 1259 هـ حكم شرعى بدفع ديون شاهين خطار الدهان للوكيل يوسف ابن الشيخ حسن الداعوق «بازار باشى» ، وجرت مصالحة شرعية بين

---

(28) السجل الأول 1259هـ/1843م ، من سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ، ص 7 .
(29) السجل نفسه ، ص 9 .

الوكيل نفسه وبين فارس لحود حول بين قطعة أرض وعقار (30) • وهناك من الملامح الاجتماعية فى هذا الاطار والعلاقات الانسانية ما لا يمكن حصره فى هذا المجال ، لانها تعد بعشرات الآلاف وتحتاج الى دراسة متخصصة منفصلة•

5 ـ اوضاع المنازل البيروتية ودور النساء فى طبيعة العلاقات الاجتماعية:

تمنع الشرائع السماوية كشف العورات ، والنظر الى المحرمات ، ولهذا فان مختلف البيروتيين من مختلف الطوائف كانوا يحرصون على بناء بيوت وغرف لا تطل على الغير ولا يطل الغير عليهم وعلى مقر نسائهم • غير أن الشرائع والعادات والتقاليد لم تمنع البعض من الشذوذ على المألوف ، ولهذا برزت بعض العلاقات الاجتماعية المتوترة بين الاقارب والجيران بسبب عدم التقيد بالاصول والتقاليد • ونشير الى بعض القضايا التى عالجتها السلطة الشرعية فى محكمة بيروت ومنها : دعوى نعوم طنوس نعوم ضد بشارة مترى طاسو ، لانه فتح شباكين فى طابقيه تطل على ايوان منزله وفسحة داره ومقر حريمه وجولاتهن ، وذلك فى محلة القيراط خارج سور بيروت ، وأشار للحاكم الشرعى أن ذلك يعرضه للضرر البين « والتمس الكشف على ما ذكر ، فتوجه معه نائبى ابراهيم افندى الاحدب الى المكان المتنازع به بحضور بشارة طاسو المرقوم • وغب الكشف والمعاينة على الشبابيك الاربع المزبورة ، وجدها تكشف على مقر نساء نعوم المرقوم ، فتعرف بشارة المزبور بانه ليس له ان يفتح ما يكشف على حريم جاره ، وانه يلزمه شرعا منع الكشف والضرر الذى أحدثه عن جاره المذكور ، واعلمت ما هو الواقع ، والامر لحضرة وليه فى الثامن والعشرين من محرم سنة 1280 ه ثمانين بعد المايتين والالف » (31) •

وفى 15 صفر 1280 ه درس مجلس الشرع الشريف فى بيروت المحروسة دعوى الحاج زكريا حماده ضد المرأة خان زاده الزعنى «قائلا بدعواه ان للمدعى بيتا فى محلة التكنات له طاقة شرعية ليس فيه غيرها فى حائط ملاصق الدار موكلة المدعى عليه وأمامها مربع لها ببابه يقابل الطاقة المزبورة كان متخفضا لا يكشف على داخل بيت المدعى ، فالآن أعلت الموكلة أرض المربع المرقوم وعتبة بابه ، فصارت بذلك تكشف على مقر نسائه فى داخل بيته المزبور ، وتريد أن تعلى أرض فسحة دارها المرقومة بحيث تصير كاشفة على داخل بيت المدعى من الطاقة المرقومة ، وبذلك الضرر البين ، فيطلب منها مما ذكر «وقد صدر الحكم الشرعى بعد دراسة ومعاينة القضية لمصلحة المدعى وأمر المدعى عليها بعدم الشروع بما أقدمت عليه ، لانه لا يحق لها شرعا» (32) •

---

(30) للمزيد من التفصيلات انظر : السجل الأول 1259ه/1843م ، سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ، ص 3–4 ، 10 ، 15–16 ، 25 ، 37–38 ، وصفحات أخرى متفرقة .

(31) السجل 1279–1280ه ، قضية رقم (268) ، سجلات المحكمة الشرعية في بيروت .

(32) السجل 1279–1280ه ، قضية رقم (325) ، سجلات المحكمة الشرعية في بيروت .

وفى 18 ربيع الاول 1283 هـ ، عرض على مجلس الشرع الشريف دعوى عائشة صالح الدقر على ليلى أحمد الطبال ، لان المدعى عليها أحدثت طاقتين فى حائط بيتها فى زاروب المجذوب فى باطن بيروت تطل على مقر النساء وعلى مطبخها وداخل بيتها وعلى فسحة دارها ، وقد تبين لنائب المفتى النائب ابراهيم افندى الاحدب بعد معاينة المكان أحقية المدعية ، وبذلك صدر الحكم الشرعى باقفال الطاقتين غير الشرعيتين (33) ·

وتطالعنا دعوى عبد الرحيم أفندى الصلح مدير تلغراف بيروت ضد المرأة حافظة مصطفى دندن ، لانها أقامت علية فوق برج منزلها فى محلة الدحداح فى بيروت ، وفى العلية شباكين يطلان على داره ومقر نسائه · وبعد الكشف الشرعى صدر الحكم بايقاف العمل فى العلية وابطالها فى 7 صفر 1287 هـ (34)

ويبدو أن السيدة عائشة صالح الدقر التى سبق ان اقامت دعوى ضد ليلى أحمد الطبال فى عام 1283 هـ ، قامت فى العام 1287 هـ بارتكاب الخطأ نفسه مما دعا جيرانها لاقامة دعوى ضدها · فقد أقام اسماعيل وعلى علم الدين الناظران على وقف امهما ، دعوى ضد عائشة صالح الدقر لانها فتحت عدة شبابيك فى دارها الكائن فى زاروب المجذوب ، تطل على دار علم الدين · وبعد الكشف الحسى صدر الحكم الشرعى باقفال الشبابيك فى 9 صفر 1287 هـ(35)

وأقام جبور بشارة الملحمة دعوى ضد نصر الله جبور خضير ، لانه فتح عليتين وعدة شبابيك تطل على داره ومقر نسائه وعلى داخل غرفه ، الكائنة فى محلة الدحداح فى بيروت · وبعد الكشف الشرعى صدر الحكم بابطال ما قام به نصر الله ، فى 18 صفر 1287 هـ (36) ·

ومن الامور الشرعية والقانونية المتبعة فى محكمة بيروت الشرعية ، ان الدعوى فى حال كانت بين أشخاص مسيحيين ، كان يذهب لمعاينة المكان عضو مسلم من أعضاء المحكمة الشرعية ، وعضو مسيحى آخر · أما اذا كانت الدعوى بين أشخاص مسلمين ، فكان يكتفى بارسال العضو المسلم فحسب ·

6 ـ دور الرقيق فى العلاقات الاجتماعية فى بيروت :

قد يستغرب الباحثون والدارسون وجود الرقيق ونظام الرق الاسود فى بيروت ـ ولو فى القرن التاسع عشر ـ نظرا لتفرنج بيروت مبكرا وانفتاحها على الغرب الاوروبى ، ونظرا لوجود مؤسسات ثقافية أجنبية متعددة أثرت ثقافيا واجتماعيا فى المجتمع البيروتى · ولكن بالرغم من ذلك فقد تبين لى

(33) السجل 1283–1284هـ ، قضية رقم (415) .
(34) السجل 1286–1287هـ ، قضية رقم (335) .
(35) السجل 1286–1287هـ ، قضية رقم (337) .
(36) السجل 1286–1287هـ ، قضية رقم (360) .

بأن الرق كان لا يزال معمولا به فى الدولة العثمانية ، وقد ورثته بيروت والحكم العثمانى منذ أجيال بعيدة . وبالرغم من أن الدين الاسلامى شجع على الغائه بأساليب عديدة ومتنوعة وتطهيرا للنفس من الآثار والخطايا ، غير أن القرن التاسع عشر شهد نماذج أساسية تؤكد على استمرار هذا النظام ، علما أن مشارف القرن العشرين شهدت انحسارا هاما له نظرا لتطورات اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية وعسكرية . ويمكن الاشارة الى بعض النماذج الدالة على وجود هذا النظام فى القرن التاسع عشر ، وعلى دوره فى العلاقات الاجتماعية . فقد وجد فى بيروت سماسرة لبيع وشراء العبيد الزنوج ، لاستخدامهم فى الدور والقصور والسرايات لا سيما عند الولاة والامراء والاغاوات والاثرياء وكبار التجار وعلية القوم .

فقد ادعى عثمان آغا الاسلامبولى على سمسار العبيد الزنوج يوسف الخورى فرح لكونه باعه عبدا زنجيا بثمن (22) ليرة فرنسية . ثم تبين أن فى العبد عيبا وهو مرض صدرى لازمه منذ القدم ، وقد صدر الحكم الشرعى بفسخ الشراء وارجاع العبد الى صاحبه واعادة ثمنه فى 19 رجب 1283 هـ . ونظرا لاهمية دراسة هذا النظام المعمول به فى بيروت العثمانية فى القرن التاسع عشر فاننا نورد هنا نص وثيقة هذه القضية :

«المعروض الى حضور سعادتكم»

هو أنه فى مجلس الشرع الشريف بمدينة بيروت المحروسة لدى هذا الداعى حضر عثمان آغا قول اغاسى ابن محمد الاسلامبولى وادعى على الحاضر معه فى المجلس المزبور يوسف بن اسبر الخورى فرح من أهالى وادى شحرور قائلا بدعواه عليه أنه من نحو خمسة عشر يوما اشترى المدعى منه هذا العبد الزنجى الحاضر فى المجلس الذى سنه نحو سبع سنوات بثنتين وعشرين ليرة فرنساوية مقبوضة ليده تماما ثم الآن وجد فيه عيبا هو مرض الصدر فيريد رده عليه بهذا العيب واسترجاع الثمن المرقوم .

سئل المدعى عليه المذكور عن ذلك أجاب منكرا بيعه العبد المذكور منه وقبضه ثمنه المحرر وقرر أن الذى باعه منه مالكه الحاج عبده نصر الشامى والمدعى عليه كان سمسارا بينهما . فطلب من المدعى البيان الشرعى لاثبات مدعاه فأحضر للشهادة وادائها أحمد أفندى ابن عبد الله الملازم الاول فى طابور الششخانة من الاوردى الخامس ، وثروة أفندى ابن عبد الله الملازم الاول فى أوكنجى طابور ياده من الاوردى المذكور وشهد كل منهما بمفرده غب الاستشهاد الشرعى بوجه المدعى عليه المذكور بلفظ . أشهد بأن يوسف المدعى عليه المذكور من نحو خمسة عشر يوما باع هذا العبد المشار اليه المرقوم من عثمان آغا المدعى المرقوم باثنتين وعشرين ليرة فرنساوية قبضها منه تماما وسلمه العبد المذكور .

وغب التزكية الشرعية لهما جهرا وسرا حسب الاصول حكمت بثبوت الشراء على الوجه المشروح ثم بعد العلم بوجود عيب المرض المرقوم فى العبد المذكور بشهادة احمد افندى ابن عمر الاسكندرانى الطبيب • سئل المدعى عليه يوسف المرقوم عن وجود العيب المذكور وقدمه ، أجاب منكرا وجوده أصلا فى العبد المذكور فطلب من المدعى البيان الشرعى لاثبات العيب المحرر فأحضر للشهادة وأدائها أحمد أفندى الطبيب المرقوم والحاج محمد بن الحاج عمر شعر البيروتى وشهد كل منهما بمفرده غب الاستشهاد الشرعى بوجه المدعى عليه المرقوم بلفظ : أشهد أن هذا العبد المذكور به مرض الصدر من قديم وهو عيب • وغب التزكية الشرعية لهما جهرا وسرا حسب الامر العالى قبلت شهادتهما بذلك قبولا شرعيا وحكمت بكون العبد المرقوم معيبا بالمرض المذكور وفسخت البيع وألزمت المدعى عليه المرقوم بارجاع ثمنه المحرر للمدعى وتسلمه العبد المزبور حكما والزاما شرعيين وأعلمت ما هو الواقع والامر لمن له الامر تحريرا فى التاسع عشر من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين ومايتين وألف» (37) •

وفى الوقت الذى شهدت فيه بيروت استمرار العمل بنظام الرق ، غير أن الشواهد أثبتت أيضا بعض الارقاء لسبب أو لآخر ، ومنها ما جرى فى 8 ربيع الاول 1287 هـ ، حينما اعترف نقولا واليان ولدى ميخائيل الحداد الشامى فى مجلس الشرع الشريف فى بيروت بأنهما اعتقا الجارية السوداء «ظرفات» ، وأنها أصبحت حرة ليس لهما عليها حق ، وهى حرة لوجه الله تعالى ، وأشهدا على ذلك ، رفعتلو أحمد آغا بكباشى ضابطية بيروت وحسام آغا بن محمود الاسلامبولى • وقد حاول فى المجلس الشريف ميخائيل والد نقولا واليان استرداد الجارية الزنجية مدعيا الشراء من ابنه نقولا بثلاثين ليرة فرنسية • ولكن بعد التحقيق ثبت بطلان دعواه ، وردت الدعوى ، وعمل بعتق الجارية(38)

وشهدت المحاكم الشرعية الكثير من الدعاوى الخاصة بالارقاء ، ومنها دعوى كلفدان الجركسية عتيقة الامير محمد أمين أرسلان ضد شقيقة الامير مصطفى أرسلان ، مدعية عليه بأنه لم يعمل بوصية أخيه المرحوم الامير محمد التى تنص على تخصيص كلفدان بمبلغ (500) خمسمائة قرش كل شهر طالما هى على قيد الحياة بموجب وصية مكتوبة بخط يده • وبعد التحقيق فيما ادعته العتيقة صدر الحكم الشعى ببطلان الدعوى وبطلان حيثياتها بعد بطلان الادلة الشرعية والثبوتية ، وبعد صدور فتاوى بهذا الخصوص من مفتى دمشق عمدة العلماء الكرام محمود أفندى حمزة ومفتى يافا عمدة العلماء الكرام السيد محمد رشيد أفندى الدجانى • وقد صدر الحكم فى 16 ربيع الاول 1287 هـ (39) •

---

(37) السجل 1283—1284هـ ، قضية رقم (698) .

(38) السجل 1286—1287هـ ، قضية رقم (402) .

(39) السجل 1286—1287هـ ، قضية رقم (424) .

ومن الاهمية بمكان القول ، انه بالرغم من أن العبد الزنجي الرقيق كان مملوكا ومأمورا ، غير أن الشرع الاسلامي أنصفه ووقف الى جانبه لا سيما عندما يكون محقا . ولهذا فان مداولات المحكمة الشرعية فى بيروت وأحكامها وقراراتها قد أفادتنا فى هذه الامور ، ومن بين هذه النماذج :

دعوى الحاج حسن خالد الشوربجى الدمشقى ضد عبد الرحمن الحبشى فى أول شوال 1275 هـ ، وقد ادعى فى مدعاه بأن عبد الرحمن مخالف لاوامره غير مطيع له ، وأنه رقيق متروك من جملة مخلفات زوجته خديجة بنت عبدالله المهتدية من أهالى مرج عيون (مرجعيون فى جبل عامل فى جنوب لبنان) المنحصر ارثها به . غير أن الحبشى المدعى عليه عارضه فى هذا الادعاء قائلا : «انه حر وان اباه محمد آغا شام أرنوط» فاعترض المدعى . لذا طلب الحاكم الشرعى من المدعى عليه اثبات ما قاله وما ادعاه . ولما كان الشرع الشريف لا يمانع أيضا فى شهادة العتيق والعبد فقد أحضر المدعى عليه للشهادة الحاج محمد آغا كساسير وعبد الله التوتنجى عتيق محمد آغا العظمى . وبعد ثبوت الشهادة الشرعية فيما ذكره المدعى عليه ، منع الحاج حسن خالد الشوربجى من دعواه ، واثبت حرية المدعى عليه (40) .

كما طالعتنا سجلات المحكمة الشرعية فى بيروت بقضية متعلقة بأحد الارقاء العتقاء فى 5 ذى القعدة 1271 هـ ، حينما حضر الحاج على بن على الصفح الى مجلس الشرع الشريف فى بيروت المحروسة وادعى على الحاضر معه شاكر آغا بن عبد الله الجركسى عتيق الامير أمين أرسلان أن له فى ذمته ألفين ومايتين غرش دينا شرعيا . غير أن العتيق أنكر هذا الادعاء ، وبالتالى هو الذى حرك القضية ورفع دعوى مضادة مشيرا فيها أنه هو له بذمة المدعى ثلاثة آلاف قرش ، وان المدعى سدد مبلغ (2200) غرش ، وبقى بذمته (800) قرش ، وأنه بالتالى يطالبه بتسديدها . ونظرا لهذه الدعاوى المضادة ، طلب الحاكم الشرعى الشهود الذين شهدوا الى جانب عتيق الامير أمين أرسلان . وبعد قبول الشهادة ، ألزم الحاكم الشرعى المدعى الحاج على الصفح بدفع بقية الديون ، وأثبت بطلان دعواه (41) .

وأخيرا فان ما ذكرناه عن الحياة الاجتماعية فى بيروت المحروسة فى القرن التاسع عشر ، لا تمثل بالتأكيد مختلف جوانب هذه الحياة ، ولكن حاولنا اعطاء نماذج أساسية وهامة عن الملامح والمميزات الاجتماعية فى بيروت العثمانية . والحقيقة فانه لا بد من الاشارة بأن سجلات المحكمة الشرعية فى بيروت تعتبر من أهم الوثائق الاساسية لفترة العهد العثمانى ، وان دراستها

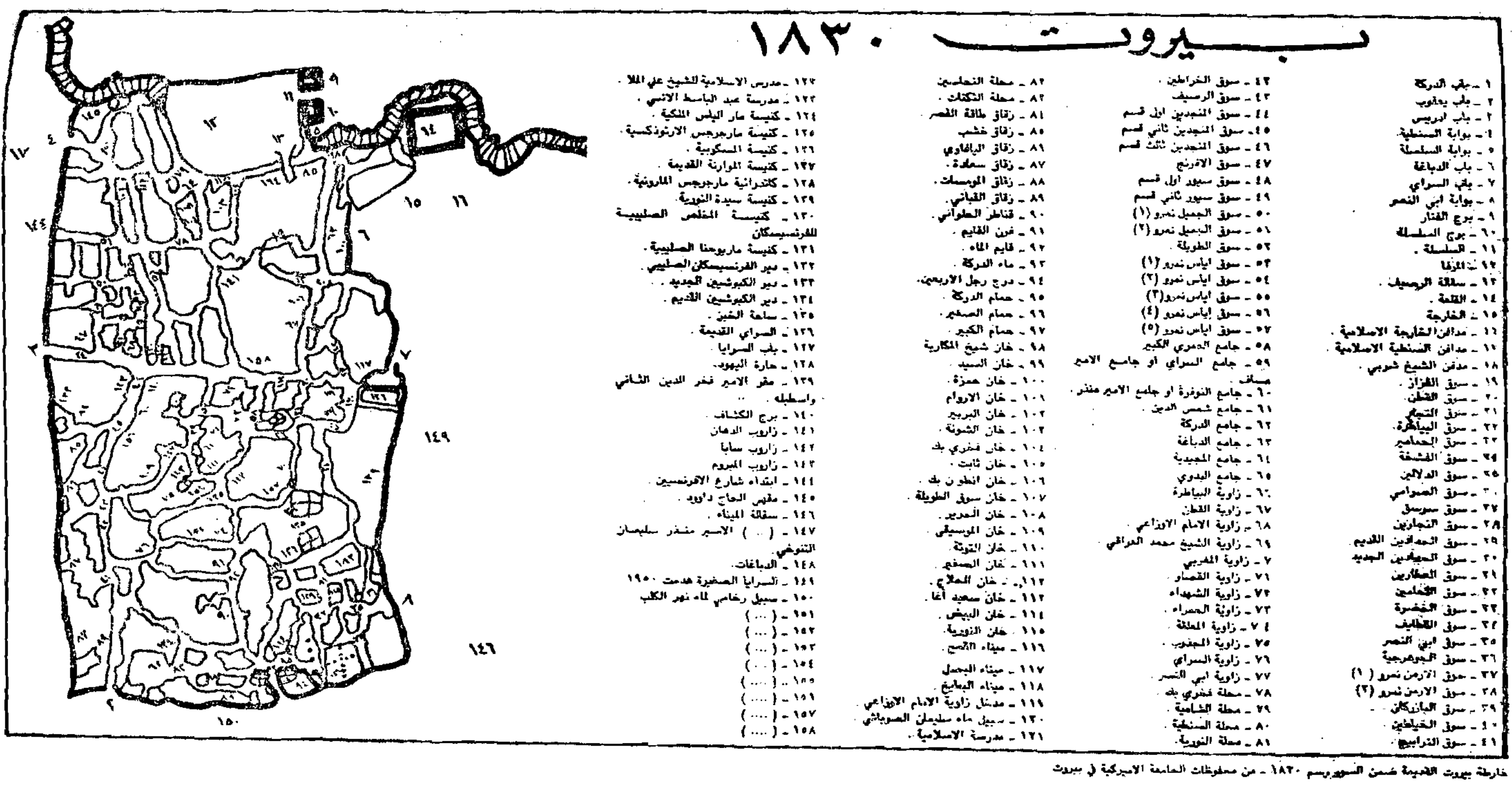
---

(40) السجل 1275-1276هـ ، قضية رقم (19) .
(41) السجل 1281-1282هـ ، قضية رقم (69) .

ونشرها وتحقيقها لن يؤدى الى احياء التراث العثمانى والعربى واللبنانى والبيروتى فحسب ، بل سيؤدى الى اعادة كتابة التاريخ وقلب المفاهيم التاريخية التقليدية . فالسجلات هى وثائق ومستندات لا يمكن الطعن فى صحتها مطلقا ، لانها كانت تعبر عن واقع وحقيقة الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والادارية والمالية والسياسية والعسكرية . وهى على كل حال ليست وثائق دبلوماسية أو تقارير قنصلية تطغى عليها الميول السياسية الخاصة والانفعالات الشخصية ، انما هى سجل لواقع الحال ومستند شرعى تاريخى يترجم أوجه الحياة العثمانية .

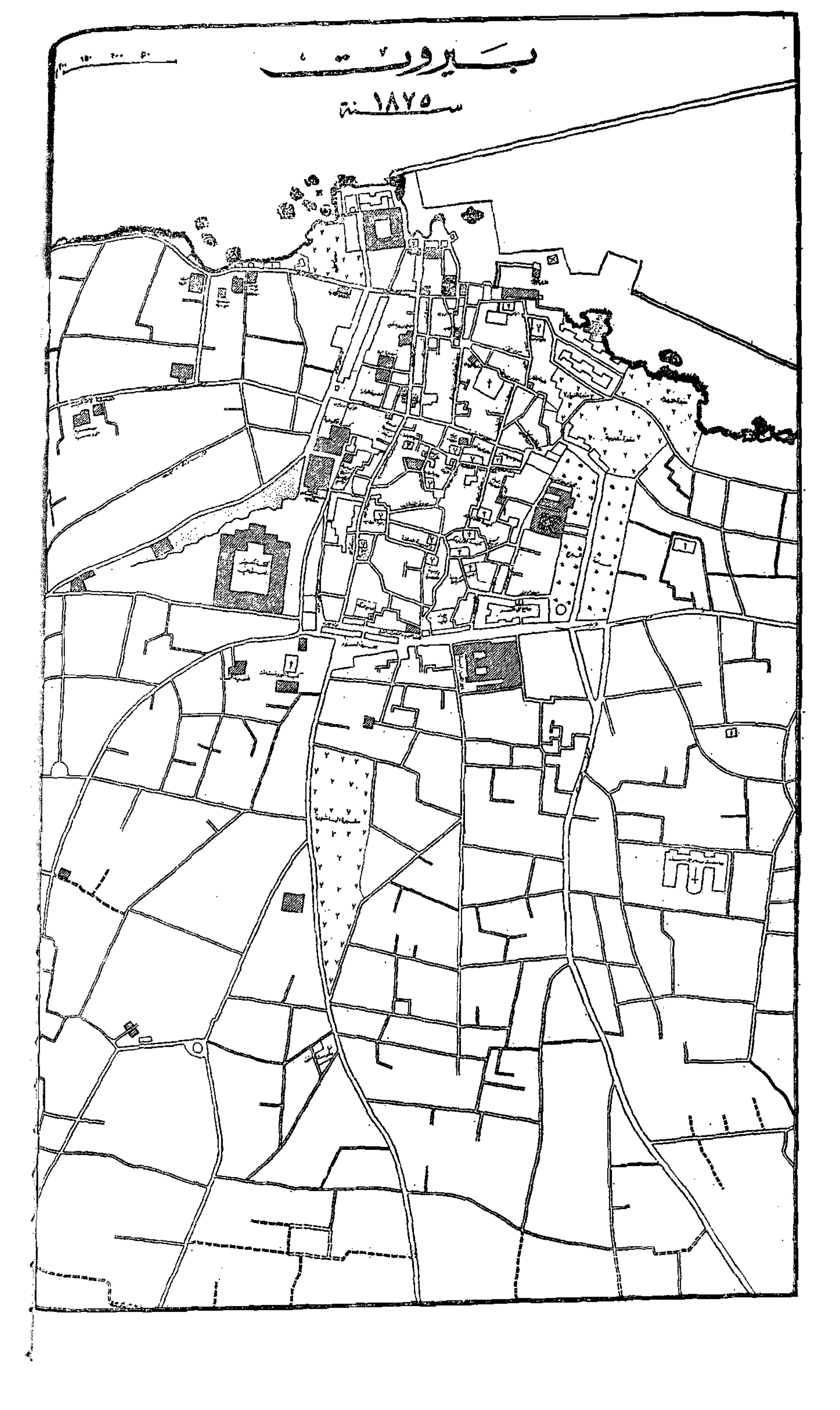
د. حسان حلاق

بيروت شباط (فبراير) 1986



خارطة بيروت القديمة ضمن السوريرسم ١٨٣٠ ـ من مخطوطات الجامعة الاميركية في بيروت

ملحق دراسة د. حلاق : الحياة الاجتماعية فى بيروت فى القرن التاسع عشر فى ضو سجلات المحكمة الشرعية فى بيروت .



بيروت
سنة ١٨٧٥

انموذج من سجلات المحكمة الشرعية في بيروت في العهد العثماني

سجـــل 1265 هـ



مسألة السلطة في حركة كسروان 1858 ـ 1860 من خلال ارشيف البطريركية المارونية

د. عصام خليفه

مقدمة عامة عن ارشيف بكركي :

يكاد يكون ارشيف (1) البطريركية المارونية واحدا من ابرز مراكز الارشيف المتصلة بتاريخ لبنان والمشرق العربي عامة . ولقد جهد اغلب البطاركة الذين توالوا ، بخاصة منذ القرن الثالث عشر ، الى جمع الوثائق والمستندات والمخطوطات والبراءات البابوية وغيرها . وكانوا عندما تضطرهم الظروف الامنية الصعبة ينقلونها معهم معتبرينها كذخائر ثمينة (2) .

ولقد قام بعض الآباء بمحاولات لتصنيف هذا الارشيف ، ولكنها بقيت حتى الآن ، غير مكتملة . فبالنسبة للبراءات البابوية فانها تبلغ مئة وسبع براءات . وقد قام الاب طوبيا العنيسي بجمعها وطبعها في روما عام 1921 (3) .

وبالنسبة للمخطوطات فانها لا تقل عن خمسماية مخطوطة (4) ، وقد تم وضع ثبت بعدد منها وشروحات لمحتوياتها من قبل المطران عبده خليفه والاب فرنسيس البيسري (5) . ويبدو ان مضمون العديد من هذه المخطوطات يحتوي على معلومات تاريخية عامة تتصل بتاريخ لبنان والمشرق العربي في الفترة العثمانية (6) .

---

(1) الأرشيف ، تحديدا ، هو عبارة عن مجموع الوثائق المأخوذة والموضوعة في حوزة شخص مادي أو معنوي ، أو مؤسسة عامة أو خاصة . وعملية جمع هذه الوثائق وتنظيمها تهدف اما الى استعمال فردي أو مباشر ، واما من أجل استعمال لاحق محتمل .
Jean Favier, Les archives, que sais-je ? P.U.F. 1975 p. 5.

(2) « وهذه البراءات سهر عليها رؤساء الطائفة أكثر من سهرهم على أموال الكرسي وارزاقه وحملوها ابان الاضطهاد والهرب كذخائر ثمينة وحفظوها من النهب والحريق ... » .
المطران بطرس شبلي ، اسطفانوس بطرس الدويهي بطريك انطاكية 1630 — 1704 ، منشورات الحكمة ، جونية ، 1970 ، ص 191 .

(3) P. ABBAS Tobias Anaissi Maronita, Collectio Documentarum Maronitarum Liburni, 1921.

(4) مقال للاب بولس صفير « أشيف البطريركية المارونية في بكركي) ، المؤتمر الأول حول أرشيف تاريخ لبنان ، مجلة دراسات ، الجامعة اللبنانية ، السنة 11 ، العددان 13 — 14 ، 1984 ص 36 .

(5) Abdo Khalifé et François Baissari, Catalogue raisonné des manuscrits de la bibliothèque de la résidence patriarcale maronite (Bkerké), Premiere série, Pub. du Ministère du Tourisme, Beyrouth, 1973.

(6) نشر الأب ابراهيم حرفوش مجموعة منها في مجلة المنارة ، لاسيما في الأعداد التي صدرت بين 1930 — 1937 .

اما الوثائق والمستندات فهى التى تشكل العنصر الاكثر اهمية فى ارشيف بكركى • وهى تبلغ ، على وجه التقريب ، مليون وثيقة ، محفوظة ضمن جوارير خشبية صغيرة يبلغ طول كل منها 44 سنتم وعرضه 27 سنتم ، وكذلك فى خزانات (7) • وكان الخورى ابراهيم حرفوش (8) قد حاول ان يضع فهرسا عاما لجميع هذه الاوراق والوثائق فوصل الى البطريرك يوحنا الحلو (1808 ـ 1823) واقعده المرض ، الامر الذى حال دون إتمامه عملية التصنيف •

وفى السنوات العشر الاخيرة حصلت محاولة لتنظيم هذا الارشيف • ويصف حافظ الارشيف البطريركى عملية التنظيم على النحو التالى (9) :

«اولا : قسمت الوثائق والمستندات الى وحدات وثائقية • والوحدة الوثائقية تعنى الشخصية الكبيرة ••• فجمعت الوحدات الوثائقية وادمجت بأسماء البطاركة الموارنة •

ثانيا : خصصت لكل وحدة وثائقية خزانة خاصة بها ، وافرزت الاوراق والمستندات ووزعت على وحدات موضوعية •••

ثالثا : وضعت الاوراق والوثائق فى كل ملف بحسب تسلسلها التاريخى» ان الاكثرية الساحقة من هذه الوثائق تعود للفترة العثمانية وبخاصة منذ تسلم البطريرك الدويهى مسؤوليات السدة البطريركية (عام 1670 م) (10) • وفى تقديرنا انها تشكل مصدرا (11) بالغ الاهمية للتاريخ الاقتصادي والاجتماعى والديمغرافى والثقافى والسياسى والدينى للبنان ولمناطق اخرى من بلاد الشام ، خاصة فى العهد العثمانى • وبرغم هذه الاهمية لم يتم العمل على هذه الوثائق بالشكل اللازم من قبل المهتمين بالبحث فى تاريخ المنطقة • والارجح ان السبب فى ذلك ربما يعود الى صعوبة الحصول على اذن بالاطلاع عليه من جهة ، ولعدم سهولة تبويبه من جهة اخرى •

---

(7) ألأب بولس صغير ، المرجع السابق ، ص 36 .

(8) هو من المرسلين اللبنانيين ومن الباحثين المدققين في التاريخ اللبناني عامة وتاريخ الطائفة المارونية بوجه خاص .

(9) الأب بولس ، صغير ، المرجع السابق ، ص 38 .

(10) ولد البطريرك الدويهي عام 1630 ، التحق بالمدرسة المارونية في روما وتخرج منها انتخب بطريركا في 20 أيار 1670 ، وتوفي عام 1704 ، كتب الكثير من المؤلفات في مختلف الحقول . أبرزها في مجال التاريخ ، ومنها « تاريخ الأزمنة 1095 م – 1699 م » ، نشره وحققه الأب فردينان توتل اليسوعي ، المشرق ، السنة 44 ، 1950 ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، 1950 .

(11) على سبيل المثال يوجد تقارير دورية تسمى « جورنال الفحص » كان يضعها المطارنة المرسلون من قبل الكرسي البطريركي الى القرى والمناطق ، فيها ذكر تفصيلي لأعداد السكان والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والدينية والتعليمية وما اليها ، وهي شبيهة بما تقوم به وزارات الإحصاء في الفترة المعاصرة .

وفى اطار اهتمامى بتاريخ لبنان منذ منتصف القرن التاسع عشر تمكنت من الاطلاع على بعض وثائق البطريركية المارونية وبخاصة تلك المتعلقة بالعلاقات مع الدول الاوروبية والدولة العثمانية ، وكذلك تلك المتعلقة بالفتن الطائفية وبالحركات الفلاحية • وما سنحاول عرضه فى هذا البحث المقتضب بتنـاول الناحية الكمية للوثائق المتعلقة بحركة كسروان 1858 ـ 1860 والموجودة فى ارشيف البطريركية المارونية ، وبالتالى القاء بعض الاضواء على مسألة السلطة فى هذه الحركة •

لقد شهدت مختلف المقاطعات العثمانية ، فى المشرق العربى ، اضطرابات اجتماعية فى منتصف القرن التاسع عشر (12) • واذا كان من البديهى فهم هذه الحركات فى اطار تزايد ضعف الدولة العثمانية فى هذه المرحلـة ، مـن جهة ، وتصاعد قوة التدخلات الغربية فى الشؤون الداخلية لهذه الدولة ، من جهة اخرى ، فان المنهج العلمى فى البحث التاريخى يتطلب العكوف على درس المركبة ـ الدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية وغيرها •

ولئن كان من الاهمية بمكان ، لفهم آليات هذه الحركات ، تقميش تقارير القناصل والرحالة الاجانب ، ودرس المذكرات الرسمية للدولة العثمانية ، فان ما يفوق ذلك فى الاهمية العكوف على جمع الوثائق المحلية واخضاعها لعمليـة النقد والتحليل •

من هنا توقفنا عند دراسة حركة الفلاحين فى كسروان 1858 ـ 1860 مـن خلال ارشيف البطريركية المارونية (13) •

---

(12) « هـاجم الجياع والفقراء في عينتـاب ومنطقتهـا الأفران والمخازن وبيوت الأعيان . »
عبد الله حنا ، القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سوريا ولبنان 1820 — 1920 ، القسم الأول ، دار الفارابي ، بيروت ، 1975 ، ص 171 .

« والفلاحون العلويـون ، رفضوا في ناحية صـافيتا ، دفع الضرائب للسلطات التركية . »
أ — سميليانسـكايا ، الحركات الفلاحية في لبنـان ، تعريب عدنـان جاموس ، دار الفـارابي ، بيـروت ، 1972 ، ص 224 .

(13) من أهم الدراسات عن حركة كسروان :
أ — مـا ورد في كتاب الخوري منصور الحتومي ، نبذة تاريخية في المقاطعـة الكسروانية ، لا اسم للمطبعـة ، 1884 ، ص 329 — 353 .
ب — انطون صاهر العقيقي ، ثورة وفتنـة في لبنـان ، نشرها وشرحها وعلق حواشيها يوسف ابراهيم يزبك ، منشورات مجلـة الطليعـة ، دمشق ، 1938 .
ج — اسميليـانسـكايا ، المرجع السابق ، ص 177 — 225 .
د — الأب فيليب الخازن ، كسروان عبر التاريخ ، المطبعـة اللبنانية ، درعون ، حريصا ، 1970 ، ص 58 — 175 .
هـ — Malcon KERR, Lebanon in the last years of feudalism, 1840-1860, Contemporary by Antun Dahir al Aqiqi and other documents. American University of Beirut, Faculty of Arts and sciences Publications, Orientale Series, N°, 33 Beirut, Catholic Press, 1959.

اولا : الوصف المادى للوثائق :

يبلغ عدد الوثائق المتعلقة بحركة كسروان 1858 ـ 1860 ، والموجـودة فى ارشيف البطريركية المارونية ، مائة وثمانية وعشرين وثيقـة (14) ويتراوح حجم بعضها بين صفحة قطع كبير وصفحة حجم وسط واخرى لا تتعدى الاسطر القليلة • كلها مكتوبة بلغة عربية تتصف بالضعف والركاكة عموما •

أ ـ الرسائل الموقعة من طانيوس شاهين وحده :

عددها 13 ، 10 منها مرسلة

الى البطريرك مسعد ، واحدة لاهل الذوق ، واحدة للخورى بولس برهوش ، وواحدة للياس نصر •

ب ـ الرسائل الموقعة من وكلاء القرى واهالى كسروان والموجهة الى البطريرك مسعد :

20 رسالة

وهناك رسالة واحدة موجهة من اهالى كسروان الى والى صيدا • وثمة رسالة هامة موقعة من حنيا ابى صعب الى البطريرك تعرض مطالب الفلاحين •

ج ـ الرسائل الموجهة من بعض الوجهاء المتعاطفين مع حركة الفلاحين الى البطريرك : يعقوب البيطار (5 رسائل) ، الياس نصر (4 رسائل) الياس خضرا (رسالة واحدة) •

وهناك رسائل اخرى للبطريرك من الياس شحادة(2) ، ومن حبيب جاماتى(1) ومن مجهول (2) •

د ـ الرسائل الموجهة من المشايخ الى البطريرك مسعد :

عددها 41 رسالة • 34 منها وجهها مشايخ من آل الخازن اما بصفة فردية او بشكل جماعى •

3 ـ من آل الدحداح •

3 ـ من آل حبيش •

1 ـ من الامير حسن بللمع •

ز ـ Dominique Chevallier, Aspects sociaux de la question d'Orient = aux origines des troubles agraires Libanais en 1858. Annales, XIV, N° 1, 1959, p. 35-64.

و ـ Yehoshua Porath, The revolt of 1858-61 in Kisrawan, Asian-African studies, V.2, 1966, pp. 77-157.

(14) لا يمكن الجزم بأي حال انني قد اطلعت على كل الوثائق المتعلقـة بهذا الموضوع . فربما يكون هناك وثائق أخرى وضعت في ملفـات أخرى ، ولم يتسن لي الإطلاع عليهـا .

هـ ـ الرسائل الموجهة من البطريرك :

عددها 12 موزعة على الشكل التالى :

5 الى الاهالى ·

3 الى المشايخ

3 الى بشير احمد ·

1 الى الخورى زوين ·

و ـ الرسائل الموجهة من بشير احمد (*) الى البطريرك :

عددها 10 رسائل ·

ز ـ أوامر الادارة العثمانية : 3 ·

ح ـ رسالة من القنصل الفرنسى ده لاسبس الى المشايخ ·

ط ـ 4 مسودات لبنود الاتفاق بين المشايخ والفلاحين ·

ى ـ رسائل متفرقة : واحدة من يوسف كرم الى البطريرك بخصوص طانيوس شاهين ، وثانية من يوسف الى بشير احمد ورسالة من يوحنا حبيب الى البطريرك واخرى من بولس الاشقر الى البطريرك ايضا ·

انطلاقا من هذه الوثائق يمكننا ان ندرس عدة جوانب من حركة 1858 ـ 1860 فى كسروان · فهناك البرنامج المطلبى للحركة الفلاحية ، وتطورات طرح هذا البرنامج،وفيه رد المشايخ على هذهالمطالب،وكذلك موقف الاكليروس، ويمكن ملاحقة نقاط التباين بين التيارات ضمن الحركة الفلاحية والمشايخ والاكليروس ، كما يمكن تحليل البنية الطبقة «لوكلاء القرايا» واجنحة الاكليروس ، فضلا عن الاشارات الدالة على التدخلات من قبل السلطات العثمانية او القنصل الفرنسى ·

ثانيا ـ مسالة السلطة فى حركة كسروان من خلال الوثائق :

ونظرا لغنى الاستنتاجات التى يمكن الوصول اليها انطلاقا من هذه الوثائق ، وانطلاقا من قصور اغلبلية الدراسات التى ذكرناها سابقا عن فهم الدور البارز للبطريرك المارونى بولس مسعد (*) فى هذه الحركة ، واقتصار هذه الدراسات على ابراز دور طانيوس شاهين وكانه وحده هو القائد الفعلى للحركة ، فقد وجدنا من المناسب ان نتوقف عند مسألة السلطة فى هذه الحركة ·

1 ـ ماذا نفهم بالسلطة : ثمة باحثون كثر تناولوا مفهوم السلطة من منطلقات عملية متنوعة · فبعضهم (15) يرى انها نمط معين من العلاقات الاجتماعية ·

(*) قائمقام المنطقة المسيحية في هذه الفترة .

(15) Georges Balandier. Anthropologie politique P.U.F. 1967 pp. 42-44

(*) ولد عام 1806 ببلدة عشقوت قضاء كسروان ، تعلم بالمدرسة المارونية بروما وانتخب بطريكا عام 1854 ، توفي عام 1890 .

وهى تفترض امكانية ارغام الآخرين على الانتظام فى نظام معين من العلاقات بين الافراد والجماعات • انها ظاهرة مسلم بها فى كل مجتمع انسانى ، حتى البدائى منه ، وهى تكون عادة فى خدمة نسيج اجتماعى معين • ثم انها تتخذ شكلها وتقوى تحت ضغط الاخطار الخارجية المحتملة او الفعلية ، وهى تحاول ان تعطى المجتمع الادوات والاساليب التى تسمح بتأكيد التماسك الداخلى وابراز «شخصيته» •

لقد عرفها بانها «المقدرة» ضمنية كانت او مكتسبة ، من اجل ممارسة السطوة او الهيمنة على مجموعة ، وهى مظهر للقوة وتتضمن الطاعة من قبل المجموعة الخاضعة لها (16) •

اما (ماكس ويبر) فقد عرف السلطة على انها ضرورة الزامية فى التنسيق بين فئتين بمعنى ان هناك مصدرا معينا يعطى اوامر محددة تفرض على مجموعة من الاشخاص طاعتها • هذا يعنى ان ضمن فئة اجتماعية يفترض ان يكون هناك تنسيق بين الاوامر والطاعة • اى ان الفرد يخضع بملء ارادته الى حد ادنى من الاوامر الصادرة عن سلطة معينة (17) وانطلاقا من ذلك يفترض (فيبر) ان الشرعية تكمن فى اساس كل سلطة ، وان هناك ثلاثة انواع :

ـ السلطة التقليدية المرتكزة على التسليم بقدسية التقاليد القديمة • والشرعية فى هذا الحال تكون مستمدة من الله او من الاسر المالكة • وفى هذا السياق يلعب رجال الدين دورا بارزا فى المجتمعات ذات الصبغة الدينية •

ـ السلطة الاسطورية وهى التى ترتكز على انسياق الشعوب لابطال معينين فى فترة تاريخية معينة (نابليون ، هتلر ، غاندى ••)

ـ السلطة العقلانية ـ القانونية : وهى بنت الدولة فى مفهومها المعاصر ، حيث هناك سيادة الدستور والقانون المنبثقان من ارادة الشعب •

2 ـ ماذا عن شخصية البطريرك مسعد وهل يمكن ان تكون طموحة للسلطة؟

لقد ترك العديد من المعاصرين اوصافا وذكريات تعطى بعض الملامح عن شخصية هذا البطريرك • فجبرائيل القرداحى وصفه قائلا (18) «شيخ قصير القامة ، قوى البنية ، رقيق الحاجبين ، جميل اللحية والعارضين ، ابيض اللون ، مهيب المنظر ، نقى الجيب ، متوقد الفؤاد • صحيح الفكر ، ثاقب

(15) مقال لفريدة أبو عز الدين ، مجلة الفكر العربي ، العدد 33 — 43 ص 32 نقلا عن :
Encyclopedia of social sciences p. 319.

(17) المرجع السابق ، ص 32 نقلا عن :
Max Weber, the theory of social and economie organization, New-York, the free press 1947 p. 32.

(18) الأب بطرس فهد ، تاريخ الرهبنة المارونية ، جـ 7 ، مطابع الكريم ، جونيه 1968 ، ص 467 — 468 .

الرأى ، أبى يؤثر المنية على الدنية ، متين الوداد ، طويل الباع فى علوم كثيرة ولا سيما فى التاريخ وكفى بكتابه الدر المنظوم شاهدا ، خبير بفنون السياسة ، يضع كل امر موضعه ، حكيم متدبر لا يأتى من الامور الا ما استطاع اليه سبيلا ... قليل الكلام محكمه مأمون التنديد» .

اما رشيد الشرتونى فقد قال عنه : وكان من البارعين فى الرسوم البيعية ولا سيما فى الحق القانونى وفى التاريخ وخاصة فيما يتعلق منه بتواريخ الطوائف الشرقية (19) .

عام 1854 اجتمع الاساقفة فى بكركى وانتخبوا (مسعد) بالصوت الحى واجماع الرأى (20) بطريركا ، اذن ثمة شرعية اجماعية من داخل المؤسسة الدينية نالها البطريرك الجديد . على اثرها انتقل الى تثبيت قبضته الايديولوجية على المجتمع ، فبادر للدعوة الى عقد المجمع البلدى . وان عرضا سريعا لابرز مقررات هذا المجمع تبرهن بوضوح المنحى السلطوى لديه .

ـ فالمجمع قد حكم بوجوب السهر الدائم على حفظ وديعة الايمان هذه ، والتوصى للجميع ، ولا سيما الكهنة ، ولكل المتقلدين الاهتمام بالانفس ، ليحترسوا من ان يناسب احد من الاعداء المخالفين للكنيسة الرومانية المقدسة، التى هى ام جميع الكنائس ومعلمتهن ، فى المحلات القاطن بها بنو ملتنا (21)

ـ رفض معاشرة (المبشرين الانجيليين) واعتبارهم كذئاب خاطفة ، يجب اخراجهم وعدم اقتناء كتبهم ورسائلهم الحاوية على تعاليم باطلة وكاذبة واقاويل مشككة (22) .

من تجاسر على عمل الخلاف يسقط بذات الفعل بالحرم الكبير المحفوظ حله لسلطان السيد البطريرك الكلى الغبطة .

ـ والمجمع ايضا فرض على اساقفة الرعايا فحص الكتب بحيث لا «يتجاسر احد ، ويشهر تأليفا مرتبا منه ، او منقولا منه الابرشية لاجل فحصه ، ونوال الاذن منه باشهاره خطيا ام طبعا» (23) .

ـ كذلك اتخذ المجمع قرارا بانشاء مطبعة باحرف عربية (24) .

(19) ـ سلسلة بطاركة الطائفة المارونية الطيب الذكر البطريك اسطفان الدويهي الأهدني عني بنشرها وتعليق حواشيها رشيد الخوري الشرتوني ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، 1902 ص 95 .

(20) المطران يوسف الدبس ، تاريخ سوريا ، م 8 ، بيروت ، 1905 ، ص 754 .

(21) الأب بولس مسعد ، المجمع البلدي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت 1959 .

(22) ألا يمكننا التساؤل عن مدى تأثير الثقافة المتشددة التي تلقاها مسعد في عين ورقة وخاصة في رومة في مثل هذه المقررات الصارمة في مجابهتا للفرق الإنجيلية ؟

(23) الا ب بولس مسعد ، المرجع السابق ، ص 16 .

(26) في السنة 1855 اشترى الرؤساء مطبعة من أوروبا مجهزة بالأحرف العربية والسريانية والافرنجية وبكل ما يلزمها من مصب أحرف وآلات الصرم والتجليد والقطع . وبلغ ثمنها

وبالطبع تكون هذه المطبعة ادارة في الصراع الايديولوجي الذي تقوده المؤسسة الدينية ضد الاخطار الخارجية والداخلية المهددة لها ·

ـ كما ضبط المجمع مسائل الصوم والاعياد وربطها «بسلطان السيد البطريرك الكلي الغبطة» بعد انجازه «المجمع البلدي» انتقل البطريرك لاحكام سلطته على المؤسسة الكنسية · فلقد كانت الرهبنة قوة اقتصادية وثقافية ودينية صاعدة · وكان هناك بعض التنافس بين الاساقفة والرهبان على رعاية الابرشيات (25) · ولقد استغل البطريرك مسعد بعض المصاعب الداخلية التي كانت تمر بها الرهبنة البلدية ففرض ، بالتنسيق مع روما ، قيادة جديدة على الرهبنة : نحتم عليكم الحتم الجازم بكلمة الرب العزيز سلطانها بانكم عند اطلاعكم عليها او بلوغ فحواها اليكم تبادرون حالا الى تقديم الطاعة التامة للرئيس العام والمدبرين الذين تسموا موقتا على رهبنتكم ··· كما اننا نناشدكم بالرب بان تكونوا مستكنين بالهدوء والسلام ··· ومبتعدين كل الابتعاد عن كلما من شأنه ان يوجب القلق ····· في الرهبنة (26) ·

وكذلك الامر بالنسبة للرهبنة الحلبية ، فقد عين البطريرك مسعد ، في اطار الفترة نفسها القس جبرائيل العجلتوني ، رئيسا عاما ومدبرين ورؤساء اديار بعد تأخر انعقاد مجمع هذه الرهبنة (27) · كما ان الرهبنة الانطونية هي الاخرى كانت تمر في هذه الاثناء بازمة داخلية ، حلها بالتنسيق بين روما والبطريركية (28) ·

وما يعزز طرحنا في ان البطريرك مسعد يريد احكام سلطته على المؤسسة الدينية هو قيامه اثناء توليه سدة البطريركية بتعيين العديد من اقاربه اساقفة يعزز طرحنا في ان البطريرك مسعد يريد احكام سلطته على المؤسسة الدينية هو قيامه اثناء توليه سدة البطريركية بتعيين العديد من اقاربه اساقفة على

---

75 ألف قرش ، وكان ذلك عن يد السيد ابراهيم بك الديراني طبيب العسكر العثماني ووضعت هذه المطبعة في دير سيدة طاميش من مطبوعاتها : اللاهوت الأدبي للقديس ايكوري ، لسد حاجات الكهنة وكتاب دحض الأرطقات له أيضا . ثم كتاب الدر المنظوم للسيد البطريرك بولس مسعد والشحيمة الكاملة لتعليم اللغة السريانية وغير ذلك ، الأب لويس بليبل ، تاريخ الرهبانية اللبنانية المارونية ، م 3 ، بيروت ، 1959 ، ص 306 .

(25) راجع المذكرة المقدمة من الرهبنة الى رومية تطالب فيها السماح لرهبان الأديار بممارسة الاعتراف والمناولة « للعالمين) » الأب بولس بليبل المرجع السابق ، ص 116 — 118 .

(26) الأب انطنيوس شبلي اللبناني ، الاثار المطوية ، ج 2 ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت 1964 ص 328 .

(28) الاب بطرس فهد ، تاريخ الرهبانية اللبنانية المارونية ، ج 6 ، مطابع الكريم ، جونية 1969 ص 35 .

(27) أقيل الاب شاول الأسمر وعين مكانه الأب فيلبوس الحاج بطرس ز الاباتي ايرونيموس خير الله . تاريخ موجز للرهبانية الأنطونية المارونية ، مطبعة المرسلين اللبنانيين ، جونية . لا تاريخ ص 25 .

الطائفة ، فقد رقى اخاه بطرس الى اسقفية حماه الشرفية ونيابة البطريركية وابن عمه يوسف مسعد الى اسقفية عكا الشرفية وابن اخيه بولس الى اسقفية حماه الشرفية بدمشق ونسيبه البعيد يوحنا الحاج الى اسقفية بعلبك (29) ·

بعد ان احكم البطريرك مسعد سلطته على ايديولوجية المجتمع من خلال المجمع البلدى · وبعد ان طوع المؤسسة الرهبانية من خلال تدخله المباشر فى شؤونها انتقل الى المجال السياسى ·

من المسلم به عند اغلب الدارسين ان البطريرك المارونى من الوجهة التاريخية لم يكن رئيسا روحيا فحسب ، بل كان فى اغلب الاحيان رئيسا روحيا ومدنيا لكن مرت فترة خاصة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، تصاعدت فيها سلطة «اهل المناصب والاعيان» من الاقطاعيين على حساب سلطة البطريرك الزمنية · ولكن منذ مطلع القرن التاسع عشر اخذ دور البطريركية يتزايد بسبب جملة عوامل متشابكة ، (30) · لكن علينا ان نذكر ان الخط الهمايونى اكد على ضرورة تخصيص «ايرادات معينة الى البطاركة ورؤساء الجماعات» ، كما نص على ضرورة «ادارة المصالح المالية المختصة بجماعة المسيحيين وباقى التبعية الغير مسلمة لحسن محافظة مجلس مركب من اعضاء منتخبة فيما بين رهبان كل جماعة وعوامها» · واكد الخط على ان «الدعاوى الخاصة مثل الحقوق الارثية فيما بين شخصين من المسيحيين وباقى التبعة الغير المسلمة ، فتحال على أن ترى اذا ارادت اصحاب الدعوة بمعرفة البطرك او الرؤساء والمجالس ···» (31)

هذه العوامل المتشابكة بالاضافة الى شخصية مسعد التى صقلت فى ثقافة عين ورقة وروما امنت الظروف المؤاتية ليمارس مسعد مواجهة تضعف المشايخ الخازنيين ·

ان الاطروحة التى نحاول البرهان عليها تختصر بما يلى :

ان البطريرك مسعد كان بصدد ترسيخ شرعيته المدنية وشمول سلطته الاجتماعية على مجموع الطائفة ، بعد ان حسم بسهولة «واجماع الرأى» امر شرعيته الدينية · *ولقد كانت حركة الفلاحين التى اندلعت عام 1858* ، فى

(29) الدكتور أسد رستم ، لبنان في عهد المتصرفية ، دار النهار للنشر . 1973 ، ص 301 .

(30) مما جاء في الخط الهمايوني الصادر عن السلطان العثماني عام 1856 : « يلزم ان تحصل المبادرة فقط الى رؤية امتيازات كل جماعة من المسيحيين والتبعة الغير مسلمة ومعاينة امتيازاتها الحاضرة بظرف مهلة معينة وتحصل المذاكرة في اصلاحاتها التي أوجبها الوقت وأثار التمدن والمعارف المكتسبة في مجالس مخصوصة لتشكل في البطركخانات بارادتي واستحساني الملوكي » ...

(31) يمكن مراجعة النصوص الكاملة لخط كلخانة وللخط الهمايوني وللعديد من القوانين العثمانية في : « الدستور ، ترجمة من اللغة التركية الى العربية ، نوفل آفندي ، نعمة الله نوفل ، المجلد الأول ، المطبعة الأدبية في بيروت ، 1301 ، ص 5 — 11 .

كسروان ، مناسبة لتطويع القوى الاجتماعية ، «مشايخ آل الخازن خاصة» التى يمكن ان تشكل عامل معارضة محتمل لسلطته (32) • اننا لا نحاول الزعم بان البطريرك خلق حركة الفلاحين ، فالاحداث ــ لا سيما الهامة منها ــ لا تكون نتاج شخص مهما سمت اهميته • بل اننا نزعم ان البطريرك استغل مسار هذه الحركة للوصول الى هدفه • ما هى الاسانيد التى يمكن ان نرتكز عليها فى ما نذهب اليه ؟

ثمة شارات تعود الى مؤرخين معاصرين للحركة او قبيلها تذكر بعضا من دور البطريرك مسعد فى الحركة (33) • ومن هذه الكتابات يمكننا ان نستنتج عدة امور منها :

1 ــ ان البطريرك يكره المشايخ •

2 ــ ان جذور هذا الكره يعود الى جوانب شخصية نفسية (حادثة والدته ورفض انتخابه عام 1845) ، وأسباب تتصل بالتنافس على السلطة •

3 ــ ان البطريرك والاكليروس يدعمون حركة طانيوس على كافة المستويات وخاصة ماليا •

4 ــ ان المشايخ الخوازنة حاولوا الاعتداء بالضرب على البطريرك •

5 ــ احجام البطريرك عن اتخاذ موقف ، عندما طلب منه يوسف كرم التدخل، كان بحد ذاته موقفا مؤيدا لتحرك الفلاحين •

اذا استعملنا منهج الشك التاريخى بمجمل هذه الروايات ومهما كنا صارمين فى عملية النقد ، فمما لا شك فيه ان تنوع مصادر الرواية ، عن دور البطريرك هو أمر لا يمكن انكاره • وان يقيننا يزداد فى دور البطريركية اذا حللنا تطور موقف البطريرك فى ضوء بعض وثائق البطريركية المارونية •

---

(32) يجب التذكير بما ورد في المقاطعة الكسروانية عن رفض المشايخ الخوازنة عن الاستمرار في التحريض ضد بشير أحمد رافضين الاذعان لنصايحه ، الحتومي ، المرجع السابق ، ص 328 .

(33) يمكن مراجعة ما قاله جرجس بك صفا المعاصر له ، واورد أسد رستم في كتابه ، لبنان في عهد المتصرفية ، دار النهار للنشر ، 1973 ، ص 301 .

وكذلك يمكن مراجعة كتاب الخوري اسطفان فريحة البشعلاني ، لبنان ويوسف بك كرم ط 2 ، 1978 ، بيروت ، ص 254 . نقلا عن مذكرات أسعد بولس المخطوطة والمعاصرة للبطريك أيضا . كما يمكن مراجعة رواية الدروز عن حوادث 1860 ، مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان ، تعريب فيليب وفريد الخازن ، م 2 ، مطبعة الصبر ، جونية 1911 ، ص 306 – 307 .

وهناك ما ذكره تشارلز تشرشل في كتابه :

Chrchill, Charles, The Druzes and the Maronites under Turkish rule pom 1840-1860 London 18162 p. 122.

اذا اعتمدنا التحديد الفيبرى للسلطة ، واذا اعتبرنا ان سلطة البطريرك هى ، من هذا القبيل ، سلطة تقليدية (34) ، فماذا يفرض علينا هذا التحديد من اطر المعالجة ؟

انه يفترض أمرين : الاول وجود أطراف . ففى الحالة التى ندرسها هناك تيارات ذات أصول طبقية متنوعة تتراوح بين الفلاحين والحرفيين والمرابين والاكليروس وربما غيرهم ، وكل هؤلاء يندرجون تحت شعار ، يكاد يكون واحدا من خلال الوثائق : وكلا القرايا (35) ، الوكيل العام (36) ، أهالى القرايا (37) .

وهناك المشايخ (الخوازنة ، والحبيشيين ، والدحادحة) (38) .

أما الطرف الذى ينتظر منه الفلاحون والمشايخ اعطاء الاوامر فكان البطريرك .

فكيف كانت اذن حركية موقف البطريرك خلال تطورات الازمة ؟ وكيف مارس سلطته باتجاه المشايخ من جهة وباتجاه الاهالى من جهة أخرى ؟ وكيف كان يمارس تدخلاته بشؤون القرى الداخلية ؟ ثم هل كا نهناك موقع لطوائف اخرى فى اطار معالجة احداث هذه الازمة ؟ وأيضا كيف تعاملت المراجع الرسمية الداخلية مع مسعد بما يتفق واحترام سلطته ؟ ..

هذه هى أبرز النقاط التى سنحاول التوقف عندها فى هذا الجزء من بحثنا .

أ ـ سلطة البطريرك باتجاه الاهالى : لقد تراوحت مظاهر سلطة البطريرك مسعد باتجاه الاهالى بين اعطائه العلم والخبر بما يجرى ، وبين التشاور وتقديم مظاهر الخضوع ، وبين ممارسة عملية التقرير من قبله .

I) اعطاء العلم والخبر : ان الاطلاع على ما يجرى هو مرحلة لازمة من مراحل اتخاذ القرار وممارسة السلطة . وثمة العديد من التقارير التى قدمها الاهالى ووكلاؤهم الى البطريرك : فأهالى كفرذبيان يعرضون ما فعل المشاريخ الخوازنة ببعض أهالى قريتهم (39) وأهالى عرمون والجديدة يبلغون البطريرك انهم

---

(34) مع العلم أنه يوم ارتقائه الى السدة البطريركية (قام الشعب) بمظاهرات لم يسبق لها مثيل ، وكثيرا ما هتفوا . فليحي بطريرك المساوات والحرية والعدل » . الخوارسقف يوسف داغر ، بطاركة الموارنة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، 1959 ، ص، 98 .

(35) من 83 وكيلا موقعا على بيان استسلام (29 تموز 1860) كان هناك عشر قساوسة ، ولا أقل من ثلاثة مرابين ، و 32 موسرا ، سميليا نسكايا ، المرجع السابق صفحة 221 .

(36) عادة ما كان طانيوس شاهين .

(37) الدقة العلمية تفرض علينا القول بأن هذه التسمية لم تقتصر فقط على مؤيدي الحركة .

(38) الاكثرية الساحقة من الدراسات تتجاهل وجود المشايخ الحبشيين والدحادحة في الحركة .

(39) أرشيف بكركي ، 18 ك 1 1858 .

انهم سيجتمعون مع أهالى دلبتا وغسطا وشننعير للمداولة واعطاء الجواب حول موقفهم من الحركة ، وعليه فقد «لزم بسطنا أعراضه لمسامع غبطتكم ليبقى كل شيء بشريف علمكم ...» (40) وبعد الاجتماع يرسل الاهالى تقريرا بما قاموا به «... فعلى ذلك نحن أولادكم أهالى القرايا المدونة اسماءنا بذيل هذه العريضة قد صار اجتماعنا فى قرية دلبتا فى 16 الجارى وغب المداولة مع وكلاء كامل جمهورنا قد اتفق رأيهم حيث غبطتكم انوجدتم ريسا روحيا علينا نقدم لغبطتكم بهذه العريضة ...» (41) . أما أهالى درعون فكتبوا للبطريرك» أيها الاب الاقدس . غب (لثم) (42) مواطى اقدام غبطتكم (43) بالوكالة عن أهالى درعون لجهة مأمورنا الشيخ أبو نوفل فكان جواب غبطتكم ان نبطل الهيجان وتعلموا على خاطرنا والآن بلغنا خبر بأن سعادته أمر علينا بل مامورنا جناب الشيخ قنصوه نترجا غبطتكم تشملونا بنظركم حيث يأتى علينا مخاطر كلية وكل شى راجع لامر غبتكم ونكرر تقبيل مواطى اقدام غبطتكم » (44) .

أما يعقوب البيطار وهو على ما يبدو ، من زعماء التحرك ، يرسل تقريرا عن مهمته فى «قرايا الوادى» بالنسبة لدفع الضريبة حسبما رسمتم (45) ، بينما يقدم الياس خضر تقريرا عن اجتماعه بالشيخ كنعان بان الخازن حيث وافق المشايخ على القبول «بديوان الكومسيون» (46) . وبدوره يرسل مسعد الى يعقوب البيطار علما بأنه «... وصل تحريركم وفهمنا كامل شرحكم عن سابق اجتهادكم بعمل الجمعية وتركيزها على شكل يرضى البارى ...» ثم يضيف «... فابقوا اخبرونا عما يحصل معكم ويجد بما يلزم » (47) .

وفى اليوم نفسه يرسل يعقوب البيطار خبرا عن اجتماع وكلا قرايا الوادى وحضرة الابا كهنتهم مع طلب قرايا الساحل (48) ، وفى اطار حملة التعبئة ضد تصرفات المشايخ يعرض أهالى كسروان للبطريرك حادثة ضرب تعرض لها «مكارية عدد 2 وهما منصور بطرس أبو انطوان من ريفون وبطرس طنوس من عجلتون» من قبل المشايخ رامح وحيدر الخازن فى جهات لحفد ، وزربهما فى دير ميفوق وضربهما من قبل رئيس الدير الاب القس اغناطيوس الخازن . «أقضى أعراضه لغبطتكم لكى تتبصروا بهذه القضية الكلية التعدى الظاهر» (49)

---

(40) أرشيف بكركي ، 12 ك 2 18059 .
(41) أرشيف بكركي ، 17 ك 2 1859 .
(42) غير موجودة في الوثيقة .
(43) هكذا كتبب في النص الأصلي للوثيقة .
(44) أشيف بكركي ، 7 أيار 1859 .
(45) أرشيف بكركي ، 23 أيار 1859 .
(46) أرشيف بكركي ، 29 أيار 1859 .
(47) أرشيف بكركي ، 14 تموز 1059 .
(48) أرشيف بكركي ، 14 تموز 1859 .
(49) أرشيف بكركي ، لا تاريخ .

وعندما يحاول سجعان العضيمه ضبط غلال المشايخ باسم البطريرك يطلب منه طانيوس شاهين الامر الخطى فيجيب انه أضاعه على الطريق ، ولما استطلع شاهين زلم العضيمة اخبروه انه يفعل ذلك برأى كنعان بان وعبد الله خطار، ويضيف شاهين ، في تقريره للبطريرك ، فغب ذلك اكراما لخاطر غبطتكم ولاهله ولاهل القرايا الذين بالقرب اليه لم ردنا (تهزيزه) ولا أخذ منه شي٠٠٠ هذا حدث بنا عارضينه لدى مراحم غبطتكم (50) ٠

ان التقارير للبطريرك لم تكن تتناول فقط عرضا لمواقف الاهالى أو المشايخ أو الاحداث التى يمكن أن تقع ، وانما أيضا كانت تطال التحركات العسكرية ـ اذا حصلت ـ من قبل الارناؤوط أو من قبل الطوائف الاخرى ٠ فهذه رسالة الى البطريرك : نعرض انه من بعد تقديم الاعراض لغبطتكم وقفنا مرسال طانيوس شاهين عن تسليم التحرير وحررنا له المقضى ان هذا العمل غير موافق بتوقف عن هذا العمل اوقف فجاوبنا الآن لا يتم الا بتسليم الكتابة واذ لم سلمناه الكتابة صباحا يكون جمهور العسكر عندنا وتحريره واصل سرا ٠

اقتضى اعراضه نرجو تأمروا بما يحسن واذا حسن امرهم تامرون بتوقف عن هذا العمل والتدبير بحكمتكم والام رلديكم الخياله والزلم نفروا منهم قدر 30 على الجديدة ودلبتا والفتوح وبك فيه اعتماد يتوجه غلافه الخياله الى ريفون (51) ٠

2) الاستشارة ومظاهر الخضوع : اذا كان البطريرك مسعد يتلقى باستمرار علما وخبرا بما يجرى فى القرى ، فانه أيضا يستشار وتقدم له مظاهر الطاعة والخضوع ، وهذا بالطبع مظهر من مظاهر سلطته ٠

فبعدما اجتمع المشايخ الخوازنة فى غوسطا ـ فى مطلع الحركة ـ بادر أهالى الذوق بارسال «اعراض» يخبرونه فيه ان المشايخ «مرادهم يكبسونا بمحلاتنا ويسلبوا نعمتنا» ، وهم بالتالى يتكلمون على غبطته «مسترحمين من حنيتكم الابوية ان تتبصروا برقايتنا بما يقتضى حكمت طوباويتكم» وقد وضعوا الاعراض «عبيدكم أهالى ذوق مكايل» (52) ولما تجمهر المشايخ فى الكرسى البطريركى أرسل أهالى كسروان رسالة الى غبطة البطريرك يطالبون فيها بترحيل المشايخ عن كرسى الطائفة وان وجود البطريرك هو وحده الذى يلجم الاهالى عن الهجوم (53) ٠ ويبدو ان بعض القرى تعرضت لضغط لكى تشارك فى الحركة ومن هذه القرى (الجديدة ، شننعير ، دلبتا ، عرامون ، غوسطا) فاستجارت بالبطريرك لكى يساعدها فى موقفها» ٠٠٠ الآن وحيث نحن أولادكم من البداية

(50) أرشيف بكركي ، لا تاريخ .

(51) أرشيف بكركي ، لا تاريخ من البديهي الإشارة الى ركاكة التعابير في هذه الوثيقة .

(52) أرشيف بكركي ، 10 ك 1 1808 .

(53) أرشف بكركي ، 30 ك 2 1809

مسلمين حالنا لغبطتكم حتى الدم وما صار منا تهييج ولا خلل لزم اعـراضنا لساحة مراحمكم وتشكى امرنا ••• (54) • وفى الوقت الذى تستجير هـذه القرى بالبطريرك لعدم زجها فى الحركة ، يجتمع مسعد مع طانيوس شاهين :

«••• وذاكرين أن نحضر للثم مواطى اقدام غبطته فان وفق البارى نكون صباحا عنده» (55) وثمة العشرات من الرسائل المقدمة من وكلا القرايا تؤكد طاعتها لسلطة البطريرك :

«••• بل كل وقت طايعين لاوامركم ولاوامر الدولة العلية صانها رب البرية هذا ما اقتضى اعراضه وما يحسن لديكم افيدوا به لان جميع جمهورنا خاضع لكلما ترسمون به ولا نبرح من جزيل الدعا •••» (56) • وفي رسالة من أهالى عشقوت للبطريرك : «نحن قابلون نصائحكم وأوامركم السابقة لحد الآن لنا بأن لا نسعى بالشر والمضرة لاحد •••••» (57) وفي رسالة اخرى لا تاريخ لها (58)، يشير اهالى كسروان الى اجتماع وكلا القرايا الخمس فى ريفون مع بعض الآباء المرسلين من قبل البطريرك «للمصالحة والمسالمة مع جناب المشايخ بنى خازن» • فيبدى الوكلا ارادتهم بالمصالحة وان أهل الخازن هم الـرافضون «••• والآن غب اجتماعنا بمقتضى امركم قد صار تعميم افكارنا برضانا الجميع بتسليـم ارادتنا واطاعتنا بكل خضوع لامركم وبه بتجشم من كريم اخلاقكم المنـازلـة بقبول معروضنا بهذا المحضر •••» (59) • وازاء المصاحب التى يواجهها بعض أهالى القرى (60) ، ومن جراء الخلافات الناشبة ، فيقررن الاجتماع على روح المحبة «وتحايد كافة الاسباب المقلقة» ، ومن كون ان راحـة أولادكـم هى مـن خصوصيات غبطتكم فوجب الامر لتقدمة اعراض ذلك لطوباويتكم ليكـن ذلـك بشرف مسامع الغبطة حتى اذا الآن تأمروا بما هو أيـل لخير اولادكـم المظلومين •••» (61) ــ كما ان اهالى قرى اخرى (62) ينتظرون صدور «ونفوذ امر» البطريرك للمداولة فى سبب تشكيات ومطاليب القرى الاخرى (63) .

3) السلطة التقريرية للبطريرك :

ان سلطة مسعد ، فى حركة كسروان ، لا تظهر فقط فى أخذ العلم والخبر بما يجرى ، ولا فى تقبل مظاهر الخضوع من الاهالى ، وانما هى تتجلى خاصة

(54) أرشيف بكركي ، 19 أيار 1809 .
(55) أرشيف بكركي ، 15 حزيران 1859 ، رسالة من طانيوس شاهين لأهالي الزوق .
(56) أرشيف بكركي ، 22 حزيران 1859 ، رسالة من وكلا قرايا كسروان الى مسعد .
(57) أرشيف بكركي ، 14 تموز 1859 .
(58) نرجح أنها تعود الى شهر تموز 1859 .
(59) أرشيف بكركي ، من أهالي كسروان الى البطريرك .
(60) ريفون غادير ، جعيتا ، بلونه ، داريا ، عجلتون ، عشقوت ، بقعاته عشقوت ، القليعات ، مزرعة كفر ذبيان .
(61) أرشيف بكركي ، لا تاريخ .
(62) عرامون والجديدة ودلبتا وساحل علما ودرعون وغوسطا .
(63) أرشيف بكركي ، لاتاريخ .

باعطائه الاوامر للاهالي ووكلائهم فيما يتعلق بكيفية اتجاهات الازمة واحتمالات الحلول المطروحة لها ٠

ففي 6 أيار 1859 يرسل أهالي عشقوت الى البطريرك الرسالة التالية (64) : «غب قبلة مواطي اقدام غبطتكم الطاهرة بكل توفير واحترام ثم نعرض حسبما امرته لاحد وكلانا باخوس بأن نجري المصالحة مع جناب الشيخ كنعان بأن الخازن لنحضر عنده فحضر كام نفر عنده وخاطبهم بهذه المصالحة بأن يباشروا في المصالحة بين جنابهم والاهالي وان يمر علينا بعشقوت نهار بكره الجمعة ونذهب معه لعلجتون وان اذا باقية القرايا لم رادت في الصلح يقبلوا في مصالحة عشقوت فقط قصدنا اعراضه لقدسكم ليكون كل شي بأمركم حيث ماكدين خاطركم ونكرر قبلة مواطي اقدامكم للدوام» ٠ ويبدو ان البطريرك أوعز الى القرايا بالرد على طروحات وضعها ، فيكتب له الياس نصر : «غب لثم ايديكم الكرام والدعا بحفظ وجود جنابكم للدوام ٠ المعروض انه بحسب امركم وجهنا الكتابة الى القرايا وحضر لنا جواب عنهم ان مرادهم الاجتماع وتصير المذاكرة ومثلما تحصل المداولة يصير الجواب اقتضى اعراضه لجنابكم ٠٠٠» (65) ٠

واذا ظهر في بعض الاحيان من طانيوس شاهين بوادر استقلالية في التحرك، ومحاولات التلطي وراء مواقف الوكلا والاهالي لتأجيل البت بأوامر قد يكون تلقاها من البطريرك (66) ، فاننا نلاحظ بوضوح وجود العديد من الوثائق التي تؤكد خضوع شاهين لتوجيهات مسعد ، ففي 12 حزيران 1859 (67) يرسل الاميكو (68) الى البطريرك الرسالة التالية : «٠٠٠ وطرحوا الصوت فابتدت الناس تتراكم وتتجمع الى أن بلغت نحو ألف نفر وتم العمل والغاية الذي في عقولهم وبلغ الجمهور الى قلعة معراب بكل اعتنا واجتهاد وامتثالا لامر غبطتكم قد رجعناه مخالف ولم حصل منه شي مضر ولا اسطى على احد فالله يوقينا بواسطة دعا غبطتكم من الاشيا الاعظم فربما قريب تحدث بسبب ما هو متظاهر من آل الخازن وغيره والبعض صف وكلا جمهورنا يقول ان وقوع البلا اهون من استظهاره ٠٠٠» ثم بعد ذلك بيومين يرسل رسالة ثانية : «٠٠٠ نعرض انه بتاريخه تشرفنا بورود مرسوم غبطتكم الشريف وقد قدمنا جزيل الحمد للمولى العليم (لاجارتنا) عام انشراح الخاطر وبه (راسمون) ان ترسل لوكلا القرى المرسوم الواصل فحلا (ياورنا) بارساله بدون تأخر البتة قدام رسولكم

---

(63) أرشيف بكركي ، 6 أيار 1859 .

(65) أرشيف بكركي ، 63 أيار 1859 .

(66) أرشيف بكركي ، على سبيل المثال لا الحصر الوثائق المؤرخة في أذار 1859 ، و 6 أذار سنة 1859 .

(67) أرشيف بكركي ، من طانيوس شاهين الى البطريرك مسعد .

(68) هذا اللقب لطانيوس شاهين ورد في العديد من الرسائل المتبادلة بينه وبين البطريرك ورجال الإكليروس .

ارسلناه والباين نحن لسنا مطلوبين بموجب مرسومكم» (69) • وردا على ارسال البطريرك احد مطارنته طالبا من شاهين «تخميد الهيجان» ، يجيب شاهين (70) : «••• نعرض انه حال ما تشرفنا بأمر غبطتكم بلسان قدس سيدنا رسولكم المطران بطرس البستاني الكلي الشرف والجزيل الاحترام المشتمل النصح لولدكم هذا بتخميد الهيجان والدخول في نير الاطاعة لدولتنا العلية وغب المفاوضة الكافية مع سيادته اعرضنا لديه انه بهذا النهار يحضروا عندنا كافة الوكلا ونفهمهم امر غبطتكم والذي يقر عليه الرأى نقدم عرض حاله لدى سدت غبطتكم ••• فحال ذلك افهمنا الوكلا الموجودين ان هذا النهار يجتمعوا مع بعضهم ويقدموا عرض حال لدى سعادت افندم كاخية مشيرية ايالت صيدا المعظم واننا متوجهين على الوجه المشروع وانصرفنا من هذه الجهات لبيروت خاضعين لامر غبطتكم والآن اقتضى اعراضه مسترحمين من شفقة ابوكم وحنون غبطتكم بألا تهملونا من عنايتكم • هذا ما وجب اعراضه وبكل الوجوه نحن وأولادكم اخوتنا الوكلا وكافة الطايفة ليس لنا غوثا وملجا بعد الله سوى غبطتكم» •

وسلطة البطريرك لها الاولوية على سلطة امراء البلاد ، بالنسبة لوكلا القرايا ، فلا استجابة لاوامر قبل الاذن والقرار من غبطته • فردا على الدعوة من قبل الامرا بان ترسل القرى وكيل أو تنين ونفرين او ثلاثة من اوجه القرية الى ذوق مكايل «لكي تتلى عليهم البلورودِه الشريفة وحيث غبطتكم راسمين ان لا احد يبدأ بعمل ونكون متربصين في أماكنا •••» «ونحن موقفين تحت أمر غبطتكم نرجا بجواب بما بشاهده الخاطر الشريف» (71) • والبطريرك بدوره يرسل الى وكلا القرى توجيهات بمثابة قرارات : «بعد الشوق • انه قبلا حضر البعض منكم لدينا وافهمناهم أن يكونوا مستكنين ومتحايدين اسباب السجس وان يفهموا الجميع بأن يتجنبوا ذلك ولا يبدى احد شيئا يوجب القلق والفتنة والآن موجهون حضرة ولدنا الخوري بطرس منصور القاضي الاكرم بهذا الخصوص عينه ليأكد عليكم وعلى الجميع باجتناب اسباب الخصومات والابتعاد عن الهيجان والمقالات وكل شيء يوصل الى مالا يلايم • فاقتبلوا هذه النصايح ولا تسعوا بما يمكنه ان يضر وهذا كاف لحسن طاعتكم وانقيادكم لاوامرنا والبركة الرسولية» (72) •

واذا ما قصر وكلا القرى عن ضبط الاوضاع في قراهم قدموا الطلب الى البطريرك ليساعدهم في ذلك • فوكلا مزرعة كفرذبيان يطلبون من البطريرك

---

(69) أرشيف بكركي ، 14 حزيران 1859 .

(70) أرشيف بكركي ، لا تاريخ وانما المرجع حزيران 1859 .

(71) أرشيف بكركي ، 17 حزيران 1859 من وكلاء وأهالي قرايا كسروان الى البطريرك .

(72) أرشيف بكركي ، لا تاريخ (الأرجح أواخر حزيران 1859) وهي من البطريرك الى وكلا القرى .

«ليصدر امركم بالحد» من رزالات موسى عجيز وفارس أبو حسن ومنصور بو طوبيا صقر وابن عبود أبو شاهين» (73) • وبعد تحرك قنصل فرنسا باتجاه وضع حد للحركة كتب اهالى كسروان للبطريرك : «••• وبهذه المدة القريبة ما تركنا استعمال الوسايط الفعالة لوضع نهاية لهذه القضية حسب رسم غبطتكم بل قد سعينا بشريف علوم غبطتكم لحصول المسالمة» (74) ، كما كتبوا للقنصل الفرنسى : «••• غب استعطاف شريف الخاطر نعرض ان غبطة قدس السيد البطريرك مارى بولس الكلى الطوبى قد صدر امره الكريم باستدعاينا نحن عبيد دولتكم وكلا مقاطعة اهالى كسروان وقد تلى علينا كتابة سعادتكم له ••• (75)

ان سلطة البطريرك باتجاه الاهالى تبدو كأنها ذات جذور راسخة • وبالرغم من استعمال مصطلحات «الجمهور» واجتماعات الوكلاء وما اليها • فان الشرعية التى يتمتع بها البطريرك لها قوة المرجعية والقرار • فحركة كسروان من هذا القبيل • لم ترسخ بشكل فعال • تقاليد «الارادة الشعبية» الرافضة لسلطة الاقطاع والمذبح • مستبدلة اياها بسلطة الشعب المتشكل من مواطنين لا من رعايا • انه المجتمع الذى تطغى عليه ملامح العلاقات الدينية باشكالها التى لم تحسم بعد مسألة فصل الدين عن السياسة •

ب ـ سلطة البطريرك باتجاه المشايخ :

ان تحليلا عاما لموقف البطريرك باتجاه المشايخ يحملنا على الاستنتاج بأنه لم يعتمد ازاءهم سياسة القطع والمجابهة المكشوفة ، بل اعتمد سياسة الانهاك والتوجيه والاحتواء • بين تطويع المشايخ واذلالهم مسافة حرص مسعد على ان تظل قائمة • ان الذين عارضوا باستعلاء عام 1845 انتخابه بطريركا ـ مستعملين لذلك قوة السلاح ـ • والذين تمردوا على تحذيراته من علاقاتهم مع «الانجليز البروتستانت» • والذين رفضوا الرضوخ لانذاره بعدم معارضة «بشير احمد» ، يستعطفونه للعودة الى بيوتهم ولابقائهم احياء •

وان التحليل المستند الى الوثائق يبرز ان هدف البطريرك لم يكن القضاء على سلطة المشايخ على نحو شامل ، بقدر ما كان هدفه الحاقهم بمشروع سلطته الصاعدة التى كان يسعى لترسخها • انه مشروع تهميش لسلطة الاقطاع ، وضبط وتطويع لما يمكن ان يشكل السلطة الشعبية فى آن • وهو فى كل حال مشروع انبعاث الطائفة ـ الامة التى تستمد سلطتها من مشروعية التقاليد الدينية الماضوية •

كيف تبرز ، من خلال الوثائق ، ظاهرة رضوخ المشايخ لسلطة البطريرك ؟

(73) أرشيف بكركي ، 2 تموز 1859 .
(74) أرشيف بكركي ، 15 ك 2 1860 .
(75) أرشيف بكركي ، 19 ك 2 1860 .

في I2 ك I 1858 يعرض المشايخ في صفحتين تصورهم لتطور الاحداث منذ بدايتها ويخلصون الى القبول بحلول وسطى حيث ارتباطنا بموجب مقتضى الديانة بنير الاطاعة والابتعاد عن كلما يكون مخالفا لرسوم ديانتنا ... «ويؤكدون خضوعهم للبطريرك» ... والحال على هذا المنوال قصدنا اعراضه لديكم كل شي بشريف علمكم وتأمروا بما يشاء خاطركم (76) وعندما شعر المشايخ الخازنيون ان رد فعل البطريرك لم يكن بالحسم الذى كانوا ينتظرونه الى جانبهم ، بدا ان البعض منهم اخذ يتحرك بمواجهة البطريرك ايضا ، الامر الذى زاد في تأزم وضعهم ، من هنا مبادرة I2 من وجهاء آل الخازن الى وضع اختامهم على رسالة يؤكدون فيها عدم ذمهم او تشكيهم على البطريرك لا لروما ولا لاحد الدول العظام (77) . «ونثبت قولنا بالنفي عما ذكر بقسم وهو انه قسما بالله العظم وسيدتنا مريم العذراء والدت (78) الاله بأن ليسنا واضعين اسماينا ولا اختامنا بمعروض تشكي ومذمه بغبطته كما ذكر» ...

في 5 نوار I859 يحاول الشيخ كنعان الخازن - بتوجه ذكي من المشايخ - الوصول الى حل مع وكلا عشقوة (79) . لما في ذلك من مدلولات وانعكاسات على صعيد المنطقة عامة (كونها مسقط رأس البطريرك) . «وبالاختصار هذا النهار وكلاهم لعندنا واوضحوا لنا رغبتهم وخصوصا حيث انهم فاهمين ان ذلك مما يشرح خاطركم ومن نحونا وان نكن محققين ان هذا مشرب طبعكم الباهر كان مرادنا نرسل احد ابنا عمنا ليعرض لديكم لتكون كافة اعمالنا متايدة بالفي (؟) نظركم الشريف ومن كون طبعنا مايل لسرعة نفود الامور والامور الخيرية لا يقتضى الاهمال بها فاكتفينا بتقدمة هذا الاعراض حتى اذا كان مقتضى نوع من الانواع تامرو به ليكون السلوك بموجبه ...» (80)

ردا على محاولات التقارب مع البطريرك يبدو انه حصل تصعيد من قبل الاهالى في هذه الاثناء :

«نعرض لغبطتكم حضر نهار الثلاثاء الواقع I7 نوار اهالى بقعتونا وافهمونا بأننا نقوم من بيوتنا نحن وعيالنا وانما قمنا والا يحضروا اهالى القرايا والوكلاء ويقيمونا جبرا . فصرنا في حيرة فان دشرنا بيوتنا وقززنا هذا عين الخراب .... نرجوكم اذا لاق وكان لكم امكان بطفى هذه المادة بالذى يحسن ان كان بحرم ام جزئى ندفع له اياه عن يد غبطتكم وكفلونا بذلك ... (8I) . ويبدو ان التصعيد طال النساء من آل الخازن . فحرمة الياس شيبان تطلب

(76) أرشيف بكركي ، 12 ك 1 1858 ، رسالة من المشايخ الخوازنة الى البطريرك .
(77) أرشيف بكركي ، 11 آذار 1859 .
(78) هكذ كتبت في الوثيقة .
(79) هكذا كتبت في الوثيقة .
(80) أرشيف بكركي ، 5 نوار 1859 ، من الشيخ كنعان الخازن الى البطريرك .
(81) أرشيف بكركي ، 19 نوار 1859 .

من البطريرك اعطاءها مرسوما لوكلاء عجلتون لكي لا يتعارضوها اذا حاولت الاصطياف هناك (82) ·

وعندما يعرض منصور الخازن ظروف نهب منزل شقيقه للبطريرك من قبل اهالي ريفون يستطرد «نحن بخاطركم بأن نوع تأمرونا به ··· اذ حسن تأمروا بالذي يشاء خاطركم ونحن مستعدين لنفوذ امركم ··· وعلى كل حال غبطتكم ملزومين بنا ···» (83) · ويذكر حنا نقولا الخازن بأوضاعه : «··· نعرض انه قبلا قدمنا الاعراض لغبطتكم لجهت الاواعي الماخوزة منا والدراهم بفيطرون امرتم بمرسوم لحضرة الاب الخوري انطون فيطرون واعتزر بأن حاصل لـه تشويش··· نرجو ان يصدر امركم الى نصار (من فيطرون) يسلم البارودي··· وكلشي راجع لامركم ···» (84) ·

اذن سلطة البطريرك تطال مسألة استعادة ما نهب من المنازل واداة التنفيذ احد الكهنة · وفي هذا السياق يعرض الشيخ فارس ضاهر الخازن ضبط القمح والارزاق من قبل اهالي بقعتوتا والمزرعة وفاريا ··· «قصدنا بسط اعراضنا مع وفور غيرتكم الابوية وكبر املنا تفيدونا بما يحسن ويا ليتك تعملوا الجهد ولا تدعوا المادة تتعاظم اكثر ···» (85) ·

ان التعديات لم تطل فقط المشايخ الخوازنة وانما طالت ايضا المشايخ الدحادحة والحبيشيين · فمرعي الدحداح يشكو من استمرار التعدي عليه ويلتمس المساعدة من البطريرك : «فنترجا مراحمكم تكرار التعديد والتحريس التام وحضرة الاب الخوري مخايل ابو صعب افهمهم بالكفاية ان هذا التعدي هو مضادد جدا لرأفتكم ···» (86) ، ثم يعود فيكرر التماسه : «··· فاقتضى واضعين كتابتنا لهم في طيه تنظروها غبطتكم ونترجا مراحمكم تأمروا بارسالها الى طنوس شاهين مع الامر الذي يحسن بامركم بقيام هذا الجمهور الذي عمال يتظاهر برد اوه كلية بضد الكتاب المرسول الى وكلا الكفور ونلتمس من غيرتكم الابوية تخلصونا من هذه الورطة» (87) · ويبدو ان المؤيدين لشاهين كانوا قد اجبروا مرعي الدحداح على دفع كمبيالة بـ 8 آلاف غرش (88) ·

من جهة اخرى يتقدم اهالي غزير بطلب الى البطريرك للتدخل «راجين صدور المقتضى بترجيع البارودة ···» التي اخذها «الثوار» من منزل الشيخ عفيف

---

(82) أرشيف بكركي ، 19 حزيران 1859 .
(73) أرشيف بكركي ، 24 حزيران 1849 .
(74) أرشيف بكركي ، آب 1859 .
(75) أرشيف بكركي ، 8 آب 1859 .
(76) أرشيف بكركي ، 26 آب 1859 .
(87) أرشيف بكركي ، 2 أيلول 1859 .
(88) أرشيف بكركي ، 24 آب 1859 .

حبيش (89) كما ان منصور سلوم الدحداح يطلب التدخل من البطريرك ردا على تسلط حنا معوض من يحشوش (الذى كان خادمه) • «وحيث ان غبطتكم لكم الحنو والرأفة علينا ولم نرى اقرب منكم لافعال الرحمة لنقصده لزم قرعنا باب حنوكم لتنقدونا من هذا القاسى الجاهل واحزابه فى الوجه الذى تروه موافق لراحة النفس والجسم ••• لان غبطتكم مجبورين للمحاماة عنا وعمن هو مثلنا ما له قوة ولا عضد ولا ملجا سواكم •••» (90) •

اذا كانت لهجة المشايخ ، فى اغلب الرسائل التى المحنا اليها ، تتصف بمنحى استعطافى ، فان رسائل اخرى ـ ولو قليلة ـ تحمل اتهاما ضمنيا للموقف المتقاعس من قبل البطريرك على المبادرة بحل المشكلة • فالشيخ عباس شيبان الخازن يختم رسالة مطولة للبطريرك بما يلى :

«••• يظهر لدى حكمتكم وغيرتكم كم هو ضرورى ان تسرعوا فى التشريف ولو كنتم لا سمح (الله) شاغراف المزاج واعراضنا هذا هو عن روح مخصوصيتنا بغبطتكم ولهذا نتجاسر ونعرض انه حاصل الظن من عموم الناس ان تأخير تشريفكم ناتج عن عدم اكتراث • واما اكثر العقلا مفسرين ان تأخير تشريفكم هو حتى يصير وضع العلاج بمحلاته ، غير ان الحال حاصل بخلاف لان من تأخير تشريفكم عمال يتزايد الهيجان ساعة بساعة واتصل لخطر الخراب كما اعرضنا •••» (91) •

اذا كان الحاح المشايخ مستمرا للتدخل من قبل البطريرك ، فان الباحث فى ارشيف البطريركية يلاحظ وجود ثغرات عديدة فى اجوبة البطريرك • فاين هى هذه الاجوبة ؟ هل فقدت فى فترة مسؤولية البطريرك ـ مع ما عرف عنه من الحرص على تنظيم ارشيف ومكتبة البطريركية ؟ (92) ، ام انها فقدت فى الفترات اللاحقة ؟ ام اننا لم نستطع الاطلاع عليها ؟ ومع امكانية ورود كل هذه الاحتمالات فان هناك رسائل قليلة توضح الى حد كبير سياسة الترقب والتسويف التى انتهجها •

ففى 14 ك 1 1858 يرسل البطريرك الى المشايخ الخوازنة رسالة يشير فيها الى ان ما حصل «قد اولانا غما لا يوصف ولا يقدر لانه فضلا عن مزيد ميلنا ورغبتنا فى حفظ شرفكم وشأنكم واعتباركم ••• فلا يهون علينا ابدا ان نسمع بوقوع ادنى حادث نواحيكم مما يكدر او يوجب القلق» •

(89) أرشيف بكركي ، بدون تاريخ .

(90) أرشيف بكركي ، 14 أيلول 1859 .

(91) أرشيف بكركي ، بدون تاريخ .

(92) ذكر المنجد لويس معلوف ، المطبعة الكاثوليكية ، ط 1956 ، ص 497 أن مسعد هو الذي أسس مكتبة بكركي ، كما أنه ترك ثلاثة مجلدات لفهارس السجلات البطريكية (محفوظ نسخة عنها في أرشيف الكريم) .

ثم يخلص الى القول : «فالملحوظ من حسن شيمكم ان تتخذوا الاشياء الإتساع والمعروف المفطور عليه طبعكم وبذلك وبحسن درايتكم تزول هذه الغيوم وينقاد جميع المذكورين الى ما به خاطركم هو مرغوبنا من صميم القلب» (93) ٠

وفي رسالة اخرى الى الشيخ فارس ضاهر الخازن يؤكد غبطته انه «قد تعبنا جهدنا وما تركنا شيا مما امكن للاشاة هذه البواعث ولترجيع الحال الى اصله» ٠ وما حدث «مصعب علينا الشي الذى جرى وكم عذب افكارنا وجرح فؤادنا» ، ثم يشير الى «ان مساعيه للمصالحة ذهبت سدى» (94) ٠

يرسل الى اهالي عشقوت رسالة (95) يؤيد فيها ما ورد على لسان وكيل القرية باخس بأن البطريرك مع «اجرا الصلح» فمنذ «الابتدا للآن قد بذلنا ولم نزل باذلين غاية الجهد باجراء الصلح وازالة هذه البواعث وقد صدر امرنا مرارا ليس فقط لولدنا باخس المذكور بل للجميع باجرا الصلح ونهاية هذه الامور الحاصلة على كل سلامة فيلزم ان كلا منكم يهتم بقضية الصلح هذه ويرفع كل باعث لان هذا هو خاطرنا من الابتدا للآن كما لا يخفاكم» ٠

ج ــ سلطة البطريرك تتدخل في الشؤون الداخلية للقرى :

اذا كان من المسلم به ، تقليديا ، ان الاكليروس برئاسة البطريرك كان هو القيم على كل ما يتعلق بشؤون الاحوال الشخصية للناس ، فاننا نلاحظ ان البطريرك مسعد ، ابان حركة كسروان ــ وبالطبع قبلها وبعدها ــ كان هو المرجع في العديد من القضايا التى اشكلت على قياة الحركة ٠ واننا نلاحظ ــ خاصة من خلال رسائل طانيوس شاهين له ــ ان سلطة البطريرك كانت اعلى ــ تطبيقيا وميدانيا ــ من سلطته ٠

ففي 21 ايار 1859 يرسل شاهين تقريرا يطلعه فيه على امتناع اهالي الوادي عن دفع الضريبة الى محمد بك السقعان (96) ، ويبدو من خلال العرض تأفف شاهين من هذا الموقف ٠ ومن شبه الاكيد ان هدف شاهين هو محاولة استقطاب البطريرك ليضغط على الاهالي من اجل دفع الضريبة ٠

وفي 14 آب 1859 يعرض شاهين للبطريرك خلاف اهالي عجلتون واهالي فيطرون على بارودة وزنا وبما تكون لاحد المشايخ ، ويضيف :

«نترجا غبطتكم بصدور امركي يسلمونا أواعي حنا المرقوم ٠٠٠» وفي نهاية الرسالة : «واصل تحارير عدد 3 ان شاء خاطر غبطتكم الاطلاع عليهم ويصدر امركم ٠٠٠» (97) ٠

(93) أرشيف بكركي ، 14 ك 1 1958 .
(94) أرشيف بكركي ، 10 آب 1859 .
(95) أرشيف بكركي ، 9 ايار 1859 .
(96) من الأرجح انه كان ملتزم جمع الضرائب للدولة العثمانية .
(97) أرشيف بكركي ، 14 آب 1859 .

من هذه الوثيقة يمكن استنتاج عدة ملاحظات :

ـ ان سلطة شاهين لم تكن تتمتع باجهزة تنفيذية · فهو لا يستطيع ان يصادر «بارودة وزنارا» من منطقة قريبة من مركز تحركه (ريفون) ·

ـ ان سلطة البطريرك هي السلطة العليا ، حتى في المجال التنفيذي ، وهذا ما يقر به شاهين ·

ـ ان هناك مراسلات مستمرة بين شاهين والبطريرك ·

ـ ان البطريرك يعطي اوامر في ما يعرض له شاهين من قضايا ·

ـ ان شكل العبارات المستعملة لا تنم عن موقف حذر ، او بالاحرى لا تنم عن معارضة واضحة من قبل البطريرك للتحرك الذي يقوم به «الاميكو» · بل بالعكس هناك ما يحمل على الظن بوجود تفاهم ضمني وربما تنسيق فعلي على الصعيدين النظري والتنفيذي للتحرك ·

حتى في استحقاق السندات وشؤون البذار كان هناك تدخلات من قبل البطريرك · ففي 26 آب 1859 يعلم مرعي الدحداح البطريرك بأنه قد استحق سند له على أولاد عمه ضاهر وجرجس بقيمة 3600 قرش في 31 الجاري · «نبقا نرسل لغبطتكم السند ونستورد المبلغ» (98) · وفي 15 آب 1859 يرسل شاهين الى البطريرك رسالة جاء فيها (99) «ونحن جاوبنا الاب الرئيس (لمارشليطا) بأن حيث غبطتكم رب الوقف يطيلع لنا أمر من غبطتكم كي نسلمه مطلوبه من البدار والآن مقدمين معروضنا هذا لمواطي مسامعكم فالذي يصدر امركم فيه يكون العمل ···» (100) ·

لئن كنا قد أشرنا باستمرار الى شمولية السلطة التي يتمتع بها البطريرك ضمن الطائفة وحتى في اطار الحركة ، فلا يجب أن نخفي جانبا ملفتا من الوقائع . فالموضوعية تقضي علينا بالاشارة الى وجود تيارات ، ولو هامشية ، في الحركة اتخذت طابعا جذريا يرفض ـ على ما يبدو ـ سلطة الاكليروس · فالخوري بولس الاشقر يرسل الى البطريرك تقريرا يخبره فيه ان يوسف حبالين مع عشرين نفر امر «بأن نقوم من الضيعة وانهم لا يقبلونا» · وعرضه لهذه الحادثة «لكي تأمروا ان توجه بجلاله (؟) وكل شي راجع لامركم» وان حبالين قال للخوري الاشقر عندما ذكره بالاجرة : «الذي جابك الى الضيعة هو يعطيك نحن لا ندفع» (101) ·

---

(98) أرشيف بكركي ، 14 آب 1859 .

(99) يبدو أن خط هذه الوثيقة مغاير لخط الوثائق الأخرى الممهورة بإمضاء أو بختم طانيوس شاهين .

(100) أرشيف بكركي ، 15 آب 1859 .

(101) أرشيف بكركي ، 10 أيار 1859 .

د ـ مشروع الحل المقدم من بكركى يمثل التوازن المتوافق مع سلطة البطريرك

بعد مفاوضات مطولة ، وبعد تدخلات كان ابرزها ، ضغط القنصل الفرنسي، بادرت البطريركية الى وضع حل (102) • للخلافة بين الفلاحين والمشايخ ، هذا الحل يتألف من ستة بنود (103) وابرز ما جاء فيها : ان حل الدعاوى (جنائية ومالية وحقوقية) بين الاهالى والمشايخ يتم فى مجلس القائمقامية او فى ديوان كومسيون مركب من اعضاء يعينهم الفريقان • مع الغاء العيديات ورسم النكاح ومال ويركو المشايخ ومشاعية اراضى جرد كسروان للجميع • ثم ان القائمقام ينصب ثلاثة من آل الخازن (واحد من كل جب) ، شرط ان يتمتعوا بالـذمـة والمعرفة والاستقامة والعدل • وهناك امكانية للعزل فى حال الخلل • اما باقى أفراد العائلة فلا تدخل لهم مع الاهالى ، مع وجوب ضبط النواحى العدلية ، وعدم السخرة وما اليها من وجوب مراعاة المشايخ «ظروف التمدن الحاضـرة وشرايط الانسانية الواجبة •••» •

أما البند الساس من «لائحة الاتفاق بين المشايخ والفلاحين» فقد نص على ما يلي : «بند سادس : ان هذه اللايحة من واجب الضرورة ان تحرر اربع نسخ وتنختم من وكلا المشايخ بيت الخازن ومن وكلا الاهالى ايضا ويتصادق عليها من قدس السيد البطريرك الكلى الطوبى ومن ديوانه المؤلف بهذا الخصـوص من السادة المطارنة شهادة على ما ذكر فيها لتكون دستور العمل • وغـب ذلـك فنسخة منها تبقى محفوظة فى خزنة الكرسى البطريركى ونسخة تتقدم لسعادة القايمقام ونسخة تحفظ عند المأمورين ونسخة تحفظ عند وكلا الاهالى» •

ان هذا الحل جاء يعكس موازين القوى الفعلية فى الحركة • فالاهالى لم يطرحوا منذ البدء مشروع سلطة شعبية تنبثق من الارادة العامة لـ «الجمهور»، وانما كان برنامجهم يتصف ، بشكل عام ، بالطابع الاصلاحى الذى يحاول ان يخفف من ظلم المشايخ من جهة ، وان لا يخرج عن دائرة الوصاية مـن قبـل الجهاز الاكليريكى من جهة ثانية • ولئن كان لدينا أكثر من برهان عـلى ان البطريرك مسعد كان يعطف على الفئات الفلاحية (104) ، من موقع حسه الدينى

---

(102) يمكن الاستنتاج ان يوحنا الحبيب قد كان له الدور البارز مع البطريرك – في صياغة النص النهائي للحل .

(103) أرشيف بكركي بدون تاريخ .

(104) أورد الاب انطونيوس شبلي اللبناني ، في كتابه الآثار المطوية ، جـ 1 ، المرجع السابق ، ص 329 صورة مرسوم من غبطته الى الاب لورنسيوس يمين الشبابي الرئيس العام (للرهبنة البلدية) مؤرخ في 12 شباط 1857 : « ... بتاريخه حضر لدينا أولادنا يوسف ضوميط البكاسيني وبطرس أنطون أبي هاشم من شركاه دير حوب بالوطا واعرضا لدينا بان الراهب برتلماوس التنوري تطاول عليهما بالضرب وضرب والد يوسف المذكور واهل بيته ونبه عليهم ليطلعوا من بيوتهم وهما واصلان يشرحان لكم القضية بظروفها . ونرغب من حضرتكم بان تفحصوا عن حقيقة ذلك وان وجد تقريرهما صحيحا فيقتضى ان تقاصصوا الراهب المذكور بموجب قوانينكم ليرتدع عن كذا مطاولات ولا يخفي حضرتكم ان الآن ليس هو قت اخراج الشركاء من الأرزاق . هذا كاف والبركة الرسولية تشمل حضرتكم تكرارا .
الختم : الحقير بولس بطرس البطريرك الأنطاكي

واصوله الطبقية وثقافته الواسعة ، لكن مما لا شك فيه ان حدود هذا العطف لا يتعدى دائرة الاستمرار التقليدي لمفهوم السلطة الدينيــة الرافضــة لكل شرعية قانونية عقلانية ترتكز على الانتخاب الشعبي وتتكيف مع مسألة الفصل بين شؤون الدين وشؤون الدنيا ٠

هـ ـ سلطة البطريرك والعلاقة مع السلطة الرسمية للطوائف الاخرى ابان الحركة :

لقد اسهب اكثر الباحثين لهذه الفترة في تحليل دور السلطات العثمــانية في تغذية الاضطرابات بين الطوائف اللبنانية من جهة ، وداخل القائمقــامية المسيحية من جهة اخرى من اجل فرض تدخلها المباشر في شؤون الجبل ٠ ويظهر من خلال المصادر العائدة لهذه الفترة ان البطريرك مسعد كــان على ادراك لهذا الخطر الداهم ، ولقد تعامل معه بكثير من الحذر والتبصر ٠

ان فهم السلطات العثمانية لقوة تأثير البطريرك على مسار الاحداث ادى الى تكرار اتصالها به للتداول في ما يمكن أن يطرح من حلول ٠ ففي 4 ك 2 1859 يبلغ القائمقام بشير احمد البطريرك عن نية الامير يــوسف عــلي وحميتلــو يوزباشي عثمان آغا مع انفار ارناؤوط ، المجيء الى «نادي غبطتكم» للبحث في الحادث الحاصل ما بين اخواننا المشايخ الخوازنة ومحبيننا واعــزازنا اهــالي مقاطعة كسروان (105) ٠ وقبل ان يضغط القنصل الفرنسي عــلى السلطــات العثمانية بالتدخل لوقف الحوادث ويحذرها من مغبة ادخال قوات كبيرة الى كسروان الامر الذي يتناقض مع «نظامات الجبل» ، كانت السلطات العثمانية ـ برشوة ربما من قبل المشايخ ـ قد أرسلت فرقة الى كسروان للقبض على زعماء الحركة ٠ ففي 1 حزيران 1859 يرسل طانيوس وعبد الله نصر وبشاره غانم ثم باقي الوكلاء رسالة الى البطريرك تذكر ان هناك «الامير حسن ومعــه سبعين خيال وخمسة وعشرين ارناؤوط وبيده امر بــربط اولاد سيــادتكم الخواجات طانيوس شاهين وعبد الله نصر وبشارة غانم وقصار الضيع ٠٠٠ وكان مراد الاهالي نحضر الى شننعير ونكحت الامير حسن ومن معه فاقتضى اعراضه لديكم وهديناهم لبعد علم سيادتكم ومتقدم اعراض بشأن ذلك ولا نبرح من دعاكم» (106) ومن المرجح ان البطريرك كان أميل الى عدم مجابهة قوات العثمانين بالقوة لكي لا يعطيهم المبررات التي ينشدونها لتوسيع نطاق تدخلهم العسكري المباشر في المنطقة المسيحية ٠ لكن ما يلفت ترابط الدخول الجزئي لقوات العثمانيين مع اندلاع قتال طائفي بين المتاولة والموارنة في جرود كسروان وجبيل (107) ٠ الا ان هذه المصادمات ذات الطابع الطائفي لم تمنع

(105) أرشيف بكركي ، 4 كانون الثاني 1859 .

(106) أرشيف بكركي ، 1 حزيران 1859 .

(107) أرشيف بكركي ، 5 حزيران 1859 ، تقرير من طانيوس شاهين الى البطريرك حول هذه الأحداث .

[illegible]

بند اول — [illegible] ان اهالي كسروان يدعون عموماً وخصوصاً على المشايخ بيت الخازن عموماً وخصوصاً دعاوى مختلفة
فمنها ما هي [illegible] مالية ومنها ما هي عرفية فهذه [illegible] رجع [illegible] او فصلها في مجلس [illegible] او في ديوان
[illegible] نظام الجبل. واما دعاوى الاهالي على المشايخ بالرسومات السالفة —
[illegible] فقد صار [illegible] والاهالي [illegible] الرسومات المذكورة جميعاً وان [illegible]
[illegible] الاهالي [illegible] مطلقاً [illegible] هذه الرسومات [illegible] من المشايخ المذكورين [illegible]
[illegible] الاهالي [illegible] المشايخ وحاصل [illegible] وصار [illegible]
[illegible] الاراضي المذكورة [illegible] كسروان [illegible] المشايخ ان يخصصوا [illegible]
[illegible] مرعية [illegible] بالمقاطعة المذكورة

بند ثاني ان المأمورين [illegible] من المشايخ بيت الخازن على مقاطعة كسروان ولا يكونوا الا ثلاثة اشخاص فقط من
اجيالها الثلاثة [illegible] واحد من فرع ابي نوفل وواحد من فرع ابي قانصوه وواحد من فرع ابي ناصيف ويكون الثلاثة
ينبغي ان يكونوا من ذوي [illegible] والمعرفة والاستقامة [illegible] النفس عن قبول الرشوة والهدايا سالمين من شائبة [illegible]
[illegible] لمنهج العدل [illegible] لله تعالى [illegible] العلية تطبيقاً
[illegible] اذا [illegible] الاستقامة
بالمعاملة [illegible] فيعزل ويستنصب عوضه من به اللياقة والاهلية
على الوجه المشروح اعلاه

بند ثالث — ان معاملات اشغال [illegible] المأمورية فهي مخصوصة [illegible] بالاشخاص الثلاثة المأمورين فقط [illegible]
[illegible] ولا يتعارضهم في اقل شيء [illegible] من حقوق وظيفة
المأمورين خاصة [illegible] المأمورون المذكورون [illegible] الاهالي [illegible]
[illegible] كان [illegible]
[illegible] بقدر امكان [illegible] في كل يوم [illegible]
[illegible] اذا كان [illegible]
[illegible] وان [illegible] ان ياخذ [illegible] اذا كان [illegible]
[illegible] اذا كان [illegible] نهار واحد [illegible]
[illegible] كذلك ليس للمأمور ايضاً ان [illegible] القيام ضد الحكومة [illegible]
[illegible] المثلية [illegible]
[illegible] المختصة بالمأمورين [illegible]
[illegible] حدود المأمورية [illegible]
من المأمورين [illegible] فرع ابي نوفل وابي ناصيف الخازن [illegible] وقوع المقدورية [illegible]
[illegible] للتشكي [illegible] مع المأمورين الذين من الجبين المذكورين

احد زعماء الشيعة كنج حماده من الكتابة الى البطريرك مسعد شارحا أنه بسبب الضيق يريد الذهاب الى بلاد جبيل «ولم نتوجه الى (الا) فى خاطركم فاذا اذنتونا لاتوجه الى محل ارزاقنا نرجو التحرير ونحن تحت خاطركم ...» (108)

على صعيد آخر كان ولا شك لحركة كسروان أصداء واضحة فى مناطق القائمقامية الدرزية . اذ ان المقاطعجيين الدروز تخوفوا من انتقال العدوى الى المسيحيين الموجودين تحت سيطرتهم . فبادر لامراء والمشايخ المسيحيون كافة الى عقد اتفاق مع الدروز «صاروا الجميع سوية وليس باقى فرق لا بالدين ولا بالعمل ...» (109) .

«... قصدهم يحضروا لكسروان بوجه مصالحه ... وحضورهم يكون من كل الجهات ...» اما رد فعل الاساقفة فقد كان سلبيا على هذا الامر : «سيادة المطارين طوبيا ويوسف جعجع حدث عندهم غم وافر من جرى ذلك...» ـ ويضيف التقرير ـ : «نحن استحسن عندنا الجواب برأى المعتمدان اننا لا نقبلهم حيث به بمعيتهم دروز فقط نطلب الديوان لا غير ...» .

ان السلطات العثمانية ووجهاء الطوائف الاخرى كانوا يراقبون ولا شك الدور الهام الذى كان يلعبه البطريرك مسعد فى الاحداث ، كما انهم كانوا يستشرفون مشروع السلطة الذى يسعى لترسيخه داخليا وخارجيا (110) على نحو مواز ان لم يكن مجابه لقيادات الطوائف الاخرى . ولقد تلاقت فى هذه المرحلة جملة مصالح دولية متناقضة (فرنسا ـ بريطانيا ـ الادارة العثمانية) ، مع آلية الصراعات المركبة ضمن الطوائف وبين الطوائف اللبنانية الامر الذى أدى الى اندلاع فتنة 1860 .

لقد كان بولس مسعد محطة هامة فى تاريخ البطريركية المارونية . فهو رجل التقوى ورجل التعصب فى آن ، جمع بين عمق الثقافة التاريخية ، والاصول الفلاحية وارادة السلطة التى ترفض ان يكون لها حدود فى مجالى الدين والسياسة . هذه السلطة كانت فى خطوطها العامة مزيجا مركبا . فهى من جهة تتحسس مع الفلاحين «والشركاء» حاسمة مسألة استقلالها ـ ان لم يكن معاداتها ـ للمؤسسة الاقطاعية . لكن فى موازاة ذلك كانت ترفض مقولات الحرية والارادة الشعبية ، محاولة ان تفرض شرعيتها الدينية كقيادة للطائفة المارونية وبروحية المواجهة والعصبية للطوائف الاخرى .

ان ارشيف البطريركية المارونية ، بما يحوى من الوثائق المتنوعة ، يشكل مصدرا هاما لدراسة مجمل الاوضاع السياسية ولاجتماعية والاقتصادية

(108) أرشيف بكركي ، 20 ربيع أول 1277 .

(109) أرشيف بكركي ، لا تاريخ .

(110) يمكن مراجعة رواية الدروز عن حوادث لبنان ، مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية ج2 ، المرجع السابق ص 306 ـ 318 .

والديمغرافية وغيرها في جبل لبنان والمناطق المجاورة وعلى امتداد مئات السنين • ويبدو ان القيمين على هذا الارشيف قد اخذوا يتحسسون هذه الاهمية وبادروا الى العمل لتنظيمه ، واخذوا يسمحون للباحثين بالاطلاع عليه • وما هو مأمول ان يبادر هؤلاء الباحثون للعمل الصبور لكي تتلاقى نشاطات باحثين آخرين في مصادر اخرى وتستمر بذلك نهضة الدراسات التاريخية ، خاصة في بعدها الاجتماعي ، بالنسبة للمرحلة العثمانية وكذلك بالنسبة لغيرها من المراحل •

وثائق ملحقة بالدراسة

1 ـ من حنا ابي صعب الى البطريرك مسعد •

2 ـ من مشايخ بيت الخازن الى البطريرك •

3 ـ من طانيوس شاهين الى البطريرك •

4 ـ جواب للمشايخ بيت الخازن من البطريرك •

5 ـ لايحة الاتفاق بين المشايخ والفلاحين •

كلية الآداب ـ الجامعة اللبنانية
د• عصام خليفه



التأثير المتبادل
بين اللغتين العربية والتركية فى العهد العثمانى

د. ابراهيم الداقوقى

المدخل :

اللغة تأكيد لشخصية الامة واصالتها ولمقومات وجودها ووحدتها لانها كائن حى تنمو داخل فكر الانسان كضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية ، فهى (ليست اداة للتعامل والتعاون الاجتماعيين فحسب ، وانما اداة للتفكير والحس والشعور بالقياس الى الافراد من حيث هم افراد ايضا .... لانها ضرورة من ضرورة من ضرورات حياتنا الفردية والاجتماعية) (I) .

كما انها ظاهرة اجتماعية يعبر بها جماهير الشعب المتعلقة بعقديتها الدينية وتراثها الحضارى عن مكامن نفوسهم بما يرضى الجانب الروحى من وجدانهم من خلال التراكيب اللغوية .

كما ان للغة (وظيفة اخرى اوسع واكبر وابعد فى البناء فهى الوسيلة التى تستخدم فى خلق الوضع المناسب لبناء الواقع الاجتماعى بكل ابعاده وشد المجتمع لوحدة اصيلة تشترك فيها كل الاطراف المتباعدة . فهى اصل فى التكوين الاجتماعى لكل العوامل المشتركة ، وجذر لكل المكونات التى ترتكز عليها الحياة .

فالتاريخ المشترك والمصير والاحساس والفكر والارادة والثقافة كلها تعود من حيث الاتصال الى اللغة ولا يمكن ان تقوم هذه العناصر المشتركة بغيرها ، لانها وسيلة التعبير عن كل قضية والاداة التى تتحقق بها صور الترابط وتشد من خلالها وشائج الاتصال . واللغة العربية استطاعت أن تحقق ذلك من خلال استعمالها وتطور اساليبها) (2) .

وان بين اللغة العربية والدين الاسلامى صلة قوية لا يمكن ان تنفصم فهى لغة القرآن الكريم ووسيلة اداء الصلاة ومناسك الحج واداة الاتصال والتفاهم بين مسلمى الارض قاطبة ... فاذا كان يجب على كل متخصص فى علوم اللغة العربية وآدابها ان يأخذ بحظ معقول من الثقافة الاسلامية ، فانه يجب ايضا – على الشعوب المسلمة ان تأخذ بقسط مقبول من اللغة العربية لكى

---

(1) د. طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر – مطبعة المعارف – القاهرة 1938 ، ص 305 .

(2) د. نوري حمودي القيسي : الحفاظ على سلامة اللغة العربية بين النظرية والتطبيق ، بحث منشور ضمن كتاب (نحو لغة عربية سليمة) منشورات وزارة الثقافة والإعلام – بغداد 1978 ، 94 – 95 .

تستطيع اداء مناسك دينها الحنيف وتقرأ كتابها الكريم ، ولكن ذلك لا يمنع ان تتكلم فى حياتها الاعتيادية والعقلية لغاتها القومية . لان هناك فرقا كبيرا بين اللغة القومية الخاصة واللغة الدينية المقدسة . فاللاتينية والسريانية والقبطية هي لغات دينية للنصارى الذين يتكلمون لغات قومية اخرى كالعربية والانكليزية والفرنسية والايطالية والالمانية وغيرها . ومن هنا فان معظم الشعوب الاسلامية «لا تتكلم اللغة العربية ولا تفهمها ولا تتخذها اداة للفهم والتفاهم و(لكن) لغتها الدينية هى اللغة العربية . ومن المحقق انها ليست اقل منا ايمانا بالاسلام واكبارا له وذيادا عنه وحرصا عليه» (3) .

ولما كانت اللغة العربية هى الوعاء الاصيل لحضارة وفكر وابداع وخصوصية الامة العربية ، فانّ علوم اللغة العربية التى اخذت بها الشعوب الاسلامية والتى اضحت جزءا من تراثها اللغوى ، اثرت فى لغات تلك الشعوب وتأثرت بها ايضا . ولذلك فاننا عندما ندرس اليوم هذا التأثير المتبادل بين اللغتين العربية والتركية فى العهد العثمانى ، إنما ندرس تأثير علم اللغة العربية باللغة التركيه من خلال الالفاظ المفرده والنحو العربى واثره فى التركيب اللغوى التركي وعلم البلاغه وتأثيره على الاساليب البلاغية التركيه من تقديم وتأخير وحقيقة ومجاز ومحسنات لفظية بلاغية .. اضافة الى بيان تأثير اللغة التركية على اللغة العربية باعتبارها لغة سادت لفترة طويلة فى الاقطار العربية، وهى الموضيع التى سندرسها من خلال ثلاثة مباحث رئيسة .

البحث الاول

التراث اللغوى التركى

تؤكد الدراسات اللغوية التركية الحديثة ، ان اللغة التركية ليست من السلالات اللغوية التى تتحد من حيث المنشأ والبناء والتى لا تشكل عائلة لغوية مستقلة وانما هى (مجموعة لغوية) تتحد مع بعض اللغات من حيث البناء فقط ، (4) .

وهى مجموعة لغات اورال ـ الطاى التى تنقسم الى فرعين رئيسين : (5) .

1 ـ اللغات الاورالية : وتنقسم الى : ـ

أ ـ اللغات الفنلندية والاويغورية المجرية والبرمية .

ب ـ اللغات الساموئيدية .

2 ـ اللغات الالطائية : وتضم اللغات المانجوية والمغولية والتركية .

---

(3) د. طه حسين : المصدر السابق ، ص 302 .

(4) د. ابراهيم الدقواقي : القواعد الأساسية للغة التركية ، منشورات الجامعة المستنصرية – معهد الدراسات الإفريقية والأسيوية – بغداد 1974 ، 8 .

(5) Prof. DR. Muharrem Ergin : TURK Dilbilgisi, istanbul 1972, S. 5.

وقد تنبه العلامه ابن خلدون في مقدمته ـ ومنذ القرن الرابع الهجرى ـ الى قرابة اللغتين المجرية والتركية ، كما اشار الى ذلك ابن النديم في فهرسه المعروف •

ونظرا لاهمية القاء الاضواء على التراث اللغوى التركي من جوانبه المختلفة ، ولذلك سوف نتناول هذه الموضوعة من خلال :

1 ـ نشوء وتطور اللغة التركية :

ولدت اللغة التركية في آسيا الوسطى ـ الوطن الام للاتراك ـ وحملتها القبائل التركية الرحالة في هجرتها نحو الغرب الى البقاع التى استوطنتها • ولقد كانت لدى الاتراك ـ قبل الاسلام لهجتان متمايزتان شائعتان في اللغة التركية هما : (6) •

1 ـ لهجة كوك تورك •

2 ـ لهجة الاويغور •

وهما اللهجتان الام التى اطلق عليها اللغويون الاتراك تسمية (التركية القديمة) ولعل اقدم هاتين اللهجتين هى لهجة (كوك تورك) التى كتبت بها المسلات الاورخونية خلال القرن السادس والسابع قبل الميلاد (7) •

وبعد دخول الاتراك للاسلام اطلق على لهجة كوك تورك ، (اللهجة الغربية) وعلى اللهجة الاويغورية (اللهجة الشرقية) وقد استعملت هذه التسميات كثيرا من قبل المستشرقين ورواد الحضارة العربية • (8) ثم استبدلت فيما بعد الى (الجغطائية) نسبة الى احد ابناء جنكيزخان • وقد انقسمت هذه اللهجة بعدئذ الى لهجتين : اللهجة الشمالية وهى لهجة الاتراك القبجاق ، واللهجة الشرقية وهى اللهجة الجغطائية التى تطورت منها اللهجة الاوزبكية المتداولة اليوم في أوزبكستان السوفيتية •

اما اللهجة الغربية ـ التى يطلق عليها احيانا اللهجة الجنوبية ايضا ـ فهى اللهجة التى يتلاغى بها الاتراك من بحر الخزر حتى البلقان ويطلق عليها ايضا اسم (اللهجة الاوغزية) نسبة الى اوزغوزخان ، جد التركمان الاعلى • وهى اللهجة التى حملها السلاجقه الى ايران ومنها الى آسيا الصغرى والعراق (9) وقد تشكلت ـ بمرور الزمن ـ دائرتان منفصلتان ضمن اللهجة التركية الغربية الغربية هما : اللهجة الاذرية التى تضم لغة التركمان القاطنين في اذربيجان

---

(6) *ibid*, S. 9.

(7) Tahir Necat Gencan : Dilbılgisi, T D K , istanbul 1971, S. I O.

(8) ابراهيم الدقواقي : فنون الأدب الشعبي التركماني ، بغداد 1962 ، ص 10 .

(9) المصدر السابق ، ص 10 .

والعراق وشرقى الاناضول والتى اطلق عليها ـ فيما بعد ـ اسم اللهجة الاوغوزية الشرقية • اما الدائرة الثانية فهى دائرة اللغة العثمانية التى اطلق عليها اسم (اللهجة الاوغوزية الغربية) (10) •

وعلى الرغم من ان اللهجتين المذكورتين تنتميان الى اللهجة الاوغوزية ، الا ان ثمة اختلاف فى التلفظ بينهما مع اختلاف بعض مفرداتهما من حيث المعنى نتيجة تأثر اللهجة الاذرية باللهجات القبجاقية والمغولية والروسية بينما حافظت اللهجة العثمانية على سلالتها وان كانت قد تأثرت باللغتين العربية والفارسية الى حد بعيد • وقد تطورت من اللهجة العثمانية ، التى كانت سائدة فى منطقة الشرق الاوسط طيلة الخمسة قرون الماضية ، اللهجة التركية الحديثة التى تعد ذروة الكمال والتطور للغة التركية التى يتلاغى بها الاتراك وابناء عمومتهم من الصين شرقا وحتى البحر الابيض المتوسط غربا •

2 ـ الكتابة التركية :

استعمل الاتراك العديد من الابجديات فى كتاباتهم منذ ان عرفوا فى التاريخ اواخر القرن السابع قبل الميلاد وحتى يوم الناس هذا وكان اقدم تلك الكتابات (الابجدية الاورخونية) التى كانت معروفة لدى دولة الاتراك الازارقة (كوك تورك) حيث استعملوها فى كتابة المسلات الاورخونية وكانت تتألف من (38) حرفا وتكتب من فوق الى اسفل ومن اليمين الى اليسار (11) • وقد استعمل الاتراك هذه الابجدية من القرن السادس ق•م وحتى القرن الخامس الميلادى (12) حلت محلها الابجدية الاويغورية المؤلفة من (14) حرفا والمكتوبة باسلوب الكتابة الاورخونية ايضا (13) وهى مقتبسة من الابجدية (السريانية ـ النسطورية) التى انتقلت الى الاتراك بواسطة الرهبان النساطرة (14) • ونظرا لسهولة كتابة الخط الاويغورى فقد امر جنكيزخان بان يتعلمه اطفال المغول (15) •

وبالاضافة الى الخطين الاورخونى والايغورى فقد اصطنع الاتراك ابجديات اخرى فى كتاباتهم اختبسوها من الاقوام التى اختلطوا بها نتيجة حروبهم معها او استيطانهم بلداتها ••• ومن هذه الابجديات السنسكريتية والفهلوية والارامية والنسطورية والبيزنطية (16) والخوارزمية والصغدية والبراهمية واليونانية والعبرانية واللاتينية السلافية (17) وقد ذكر اللغوى التركى محمود

(10) Prof. DR. Muharrem Ergin : *Op. Cit*, S. 14.

(11) كارل بروكلمان : الأمبراطورية الإسلامية وانحلالها ، بيروت 1956 ، ص 277

(12) Tahir Necat Gencan : *Op. Cit*, S. 9.

(13) محمد فؤاد كوبريلي : تركيا تاريخي ، استانبول 1924 ، ص 45 .

(14) المصدر السابق ، ص 46 .

(15) الدكتور عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ ، القاهرة 1967 ، ص 237

(16) طاهر نجاة كنجان : المصدر السابق ، ص 119 .

(17) محمد فؤاد كوبريلي : المصدر السابق ، ص 47 — 48 .

الكشغرى فى كتابه (ديوان لغات الترك) ان الاتراك كانوا يستعملون فى القرن العاشر الهجرى خطا يتألف من حروف جمعها فى العبارات التالية : اخوك ٠ لف ٠ سمج ٠ نزق بذر ٠ شتل (18) ٠

وعلى الرغم من استعمال الاتراك لهذه الابجديات فى فترات متقطعة واصقاع مختلفه الا انهم قد اتخذوا الابجدية العربية خطا لهم اعتبارا من القرن العاشر الميلادى بعد قبولهم للاسلام دينا ٠ وقد اضاف الاتراك الى الابجدية العربية ذات الـ (28) حرفا ، الحروف الفارسية الاربعة (الجيم والثاء والياء والكاف) اضافة الى الكافات التركية الثلاثه (الكاف نونى والكاف واوى والكاف يائى) وبذلك اصبحت الابجدية التركية ـ ذات الجذور العربية ـ مؤلفة من (35) حرفا ، وهى الابجدية التى اطلقت عليها فيما بعد تسمية (الابجدية العثمانية) ٠

لعل اقدم نص تركى مكتوب بالابجدية الاويغورية مع استعمال بعض الحروف العربية ، هو النسخة الاصلية من القصيدة التعليمية الكبرى (قوتادغوبيليك) التى نظمها يوسف خاص حاجب البلاساغونى عام (1070 م) (19) وقد اطلقت على اللغة التركية تسمية (اللغة العثمانية) اعتبارا من القرن الرابع عشر الميلادى ٠

3 ـ خصائص اللغة التركية :

تتميز اللغة التركية بثلاث خصائص فريده تختلف بها عن اللغات الاخرى المعروفة اليوم ، وهى : (20) ٠

أ ـ لا يتغير جذر الكلمة فى الجملة وتكون الاضافات دائما فى نهاية الكلمة ٠

ب ـ تنفرد اللغه التركية بقاعدة اساسية يطلق عليها (قاعدة التوافق الصونى) وهى ان الكلمة التى تبدأ بحروف العلة الخفيفة لا تتضمن حروف العلة الغليظة ابدأ ، الا اذا كانت غير تركية ٠ ولا يجتمع حرفا علة فى الكلمة الواحدة ، جنبا الى جنب ، الا اذا كانت اجنبية ، مثل Saat وفائق Faik وغيرها ٠

جـ ـ تأتى عناصر الكلام الاساسية (الفعل والفاعل) فى نهاية الجملة ، بينما ترد العناصر المتممة لها فى بدايتها ٠

---

(18) محمود الكشغري : ديوان لغات الترك . ج 1 الطبعة الأولى استانبول 1334 هـ ص 7 .

19) توهم كثير من الباحثين وذهبوا مذهب الأستاذ بروكلمان في ان (قوتا دغوبيليك) قد كتب بالخط العربي ، ولكن الدراسات الحديثة أظهرت بأنها كتبت بالخط الأيغوري مع استعمال الحروف العربية غير الموجودة في الأبجدية الأيغورية وهي (خ ، ع ، هـ) انظر كتاب :

حسين كاظم قدري : تورك لغتي – انقرة 1924 ، ج 1 ، ص 17 .

– ابراهيم الداقوقي : القواعد الأساسية للغة التركية ، ص 11، 12 .

4 ـ المعاجم اللغوية التركية :

يعد كتاب (ديوان لغات الترك) الذى بدأ بتأليفه اللغوى التركى محمود الكشغرى فى بغداد فى كانون الثانى 1072 م وانتهى منه فى العاشر من شباط عام 1074 ميلادية واهداه الى الخليفة العباسى المقتدر بالله ، اول معجم تركى ـ عربى ، واول معجم تركى فى تاريخ اللغة التركية ٠

ويظهر من مقدمة هذا الكتاب الثمين ، ان المؤلف اراد به تعليم العرب ، اللغة التركية ولذلك فقد ضمنه قواعد تلك اللغة اضافة الى نماذج من فنون الادب الشعبى التركى المعروفة فى تلك الفترة ، حيث يقول فى المقدمة : «ووضعته مرتبا على ولاء حروف المعجم موشحا بحكمة او سجع او مثل او شعر او رجز او نثر حتى لينت وعرها وبينت غورها وقعرها وقاسيت سنوات من برحائها حتى انخت كل كلمه محلها ٠٠٠ ولقد تالج فى صدرى ان ابنى الكتاب كما بنى الخليل كتاب العين واذكر المستعمل والمهمل معا لا علم ان لغات الترك تجارى العربية كفرسى رهان» ٠

لقد اعتمد العرب والاتراك فترة طويلة على هذا المعجم سواء من حيث تعلم اللغة التركية وقواعدها ، ام من حيث تعليمها الى العرب والاطلاع على تراث الترك الثقافى بلهجاتها المختلفة ، حتى عد بحق خزانة الادب التركى ٠

وبعد دخول الاترك للدين الاسلامى اشتد اتصال الاتراك بمراكز الثقافة العربية ومصادر التراث الاسلامى بعد القرن الرابع عشر الميلادى ، وكانت بغداد احد تلك المراكز الثقافية التى يدرس فيها الفقهاء والعلماء ومؤسسو الطرق الصوفية التركية نسيمى البغدادى ، الحاج بكتاش ولى ، عهدى لبغدادى وفضولى البغدادى ،بعد ان وجدوا فيها ملجأ امينا وحصنا حصينا ، كما انهم كانوا يفتخرون بالانتساب اليها ٠

ادى اتصال الاتراك بالحضارتين العربية والفارسية الى ان يكونوا قريبين من مصادر الثقافة الاسلامية ومن خزائن مفردات اللغتين العربية والفارسية مما منح اللغة التركية ابعادا جديدة سواء من حيث زيادة خزين المفردات ام توليد كلمات وعبارات تركية مركبة من الالفاظ العربية والفارسية ، بحيث اصبحت الكلمة او المفردة الوحدة تستعمل فى ثلاث صور :

ـ الشمس ، خورشيد ، كونش ٠
ـ القمر ، ماه ، آى ٠
ـ السنة ، صال ، ييل ٠
ـ الماء ، آب ، صو ٠
ـ الخبز ، نان ، اكمك ٠

وبعد القرن السادس عشر ، لا سيما بعد ان نشأ وتطور ادب الديوان ، وهو الادب الكلاسيكى العثمانى ، استعمل الاتراك تعابير والفاظ مركبة من خليط من الكلمات العربية ـ التركية او العربية ـ الفارسية او الفارسية

التركية بكثرة ، بحيث أصبحت اللغة الادبية لغة شديدة التعقيد لا يفهمها الا الادباء والشعراء الكبار الذين اصبحوا نتيجة هذه اللغة اللغز ، شيوخ ادب الديوان • كما ادت الحاجة للالفاظ والكلمات الجديدة الى قيام اللغوى العثمانى (محمد وانى) بترجمة قاموس الجوهرى العربى الى اللغة التركية وطبعه فى إستانبول عام 1729 م — 1141 هـ فى مجلدين واطلق عليه اسم (معجم وانقولى) الذى كان يتألف من 1422 صفحة •

وعندما بدأت فترة عهد التنظيمات (1830 — 1877) الذى كان يستهدف الحاق الدولة العثمانية — من الناحية التنظيمية والقانونية على الاقل — بركب المدنية الاوربية ، نشأ ادب التنظيمات (1860 — 1895) الذى بدا وكانه يستلهم الادب الاوروبى الغربى فى النتاجات الادبية الجديدة التى تولت نشرها جريدة (ترجمان احوال) لصاحبها شناسى بالتعاون مع مجموعة من المثقفين الاتراك المتأثرين بالادب الاوربى والذى كان لهم الفضل الاكبر فى ادخال الاصطلاحات الجديدة على مفاهيم (القانون) و(الوطن) و(القومية) و(الدولة) ، رغم أن اللغة العلمية التركية بقيت تحت تأثير اللغة العربية ، حيث نجد ان المعجم الطبى التركى الذى تم تأليفه فى هذه الفترة قد تضمن حوالى (30) الف كلمة عربية او تركية مستولدة عن العربية او منحوته منها (21) •

واذا كانت فترة الانقلاب العثمانى (بعد عام 1908) قد شهدت دخول الاصطلاحات الاجتماعية والفلسفية الى اللغة التركية الا ان الجيل العثمانى الجديد لذى لم يكن يتقن اللغة العربية ، بدأ باستعمال الالفاظ الفرنسية التى لا يوجد ما يقابلها فى اللغة العربية (22) •

اصبحت الحاجة شديدة الى اعداد معجم تركى يضم الالفاظ العثمانية المتداولة فى عالم الثقافة والادب ، فقام الشاعر المعروف (معلم ناجى) معجمه حصة الالفاظ العربية منها خمسة آلاف كلمة •

وفى عام 1900 طبع الباحث والمؤرخ التركى شمسى الدين سامى (قاموس تركى جمع فيه (31) احدى وثلاثين الف كلمة ، منها (13) ثلاثة عشرة الف لفظة عربية • كما وجدنا فى معجم (مكمل عثمانا لغتى) الذى الفه على نظيما ورشاد عام 1901م أن ثمة (18) ثمانى عشر الف لفظة عربية من مجموع (25) خمس وعشرين الف كلمة التى تضمنها المعجم المذكور •

واذا كانت هذه المعاجم العثمانية تؤكد بوضوح مدى تأثير اللغة العربية باللغة التركية بحيث استطاعت خرق القاعدة المعروفة ، بسيادة لغة الاقوام السائدة سياسيا ، لان الالفاظ العربية كانت تؤلف حوالى 30 ٪ من مجموع الالفاظ العثمانية المتداولة والثقافية فى آن واحد ••• فان سيادة اللغة العربية

---

(21) Mustafa Nihad Ozon : Osmanlica-Turkce Sosluk, istanbul 1965, S. 15.

(22) محمود الكشغري : المصدر السابق ، ص 5 .

على اللغة التركية استمرت رغم محاولات التتريك ، حتى يوم الناس هذا ، حيث اننا وجدنا فى المعجم العثمانى التركى الكبير الذى الفه مصطفى نهاد اوزون عام 1952 ان ثمة حوالى (19) تسع عشرة الف لفظة عربية من مجموع (40) اربعين الف كلمة يتضمنها المعجم المذكور • كما بلغ مجموع الالفاظ العربية فى المعجم العثمانى ـ التركى للاستاذ فريد دەوەلى اوغلو المطبوع عام 1970 حوالى (20) عشرين الف لفظة من مجموع الخمسين الف لفظة عثمانية يتضمنها القاموس المذكور • بينما لا تقل نسبة الالفاظ العربية المدرجة فى الطبعة السادسة والاخيرة من المعجم التركى ـ التركى المطبوع عام 1974 عن (20 ٪) من الكلمات المدرجة فيه •

البحث الثانى

أثر اللغة العربية فى اللغة التركية

بدأ الاتراك بالدخول الى الدين الاسلامى اعتبارا من منتصف القرن التاسع وحتى منتصف القرن العاشر الميلادى (23) حتى انهم شكلوا قوة لا يستهان بها فى المنطقة لا سيما بعد تشكيل دولة (القراخانين) الذين وقفوا مع العرب حتى ثورة الفرس فى خراسان عام (920 م) (24) كما انتشرت اللغة العربية فى جميع الاصقاع التركية فى عهد عبد الملك بن مروان بحيث اصبحت لغة العلم ولغة الدولة الرسمية معا • واصبحت مدن حلب وحران ونصيبين والموصل مراكز مهمة للثقافة العربية بحيث بدأت تشع بانوارها على المنطقة كلها لاسيما شبه جزيرة الاناضول الذى بدأ الاتراك بالاستيطان فيه بعد تغلب السلاجقة على البيزنطيين حتى ان مدينة ديار بكر التى سكنها الاتراك واصبحت مركز السلطة السلجوقية الاولى كانت اللغة العربية سائدة فيها اكثر من اللغة الفارسية بل ان اللغة العربية كانت اللغة الرسمية للدولة السلجوقية والدويلات التى تأسست فى الاناضول حتى القرن الثالث عشر الميلادى (25) •

واذا كانت اللغة العربية قد انحسرت من الكتابات الرسمية وتركت محلها للغة الفارسية التى اضحت اللغة الرسمية للدويلات التركية ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادى غير ان بصمات اللغة العربية واضحة على اللغتين الفارسية والتركية سواء بسواء حتى القرن الخامس عشر عندما اصبحت اللغة التركية اللغة الرسمية للدولة العثمانية فى عهد السلطان مراد الثانى (1421 ـ 1451) الذى شمل برعايته العلماء والشعراء والموسيقيين (26) •

---

(23) Agah Sirri Levend : Turk Dilinde Gelisme Ve Sadelesme Evreleri, ankara 1972, S. 3.

(24) *Ibid*, S. 3.

(25) *Ibid*, S. 6.

(26) فنون الأدب الشعبي التركماني ، ص 26 .

لقد بدأ تأثير اللغة العربية باللغة التركية منذ بدايات القرن العاشر الميلادى واستمر حتى منتصف القرن التاسع عشر ، لذلك سوف نحاول دراسة هذه الفترة الطويلة من خلال :

1 ـ اثر القرآن الكريم فى اللغة التركية :

لم يقتصر تأثير اللغة والثقافة العربية على اللغة التركية فحسب ، وانما غزت الثقافة التركية بشكل عام فدخل الكثير من المفردات العربية الى اللغة التركية ـ بكافة لهجاتها ـ وتحت تأثير لغة القران ابتدع الاتراك ادبا جديدا اسموه (ادب الديوان) وانتقلت اوزان الشعر العربى اليهم ونبغ عندهم شعراء السير العاطفية والبطولية من اصحاب الطرق الصوفية وغيرهم ، اضافة الى المدائح النبوية والنعت الشريف والانفاس البكتاشية والمولوية التى يؤديها الدراويش تقربا لاوليائهم وفق اداء موسيقى خاص •

والمعروف ان معظم هؤلاء الاولياء قد نشأوا بعد القرن الثامن عشر الميلادى تحت تأثير المذاهب والمدارس الفكرية الاسلامية كحامد يسوى (ت 1166) وبكتاش ولى (ت 1273) وجلال الدين الرومى (ت 1334) والشيخ صفى الدين (ت 1334) والشاه اسماعيل الصفوى (ت 1424) واولياء الطرق الملامتيه والنقشبندية والقلندية والخلوتية والرفاعية والقادرية وغيرها (27) •

كما انتقلت القصص الواردة فى الايات الكريمة الى الثقافة التركية بشكل اسطورى قصة الخضر (عبد الله) الواردة فى سورة الكهف (الآيات 60 ـ 82) وقصة يوسف (111 آية) وقصة ابراهيم (52 آية) واهل الكهف (110 آيات) وقصة لقمان (34 آية) اضافة الى قصص الحيوان الواردة فى القرآن الكريم بملامحها الطوطميه وابعادها الاسطورية • بالاضافة الى انتقال رموز الشر والخير الاسلامية بموتيفاتها العديدة الى مختلف ميادين الثقافة التركية : الادب والفلكلور والفنون ، فرموز الشر تتمثل بالحية السوداء والعجوز الشمطاء او السعلاة او التنين او زوجة الاب ، بينما تتمثل رموز الخير بالصياد والمارد الرحيم والبساط السحرى والحصان والكلب (28) •

واذا كان الشعر التركى الذى نظم تحت تأثير الثقافة الاسلامية يعتمد على اوزان العروض العربية واصول النظم فى الادبين العربى والفارسى من خلال ادب الديوان فان اثر الاسلام لا يبدو واضحا وجليا فى ديوان (قوتادغو بيليك) الذى يعد اول اثر تركى مستقل مكتوب تحت تأثير ادب الديوان وكان مؤلفا من قصيدة شعرية مفرغة من وزن البحر المتقارب فى حين ان هذا الاثر اخذ

---

(27) د. ابراهيم الداقوقي : تأثير الفولكلور العربي بالفلكلور التركي ، مجلة كلية الآداب - بغداد 21 ، 333 .

(28) د. ابراهيم الداقوقي : المصدر السابق ، ص 336 .

بالوضوح اكثر فاكثر في الادب الشعبي الذي نشأ على هذا الغرار والذي كان يدور على الاعم حول معراج النبي وسير الاولياء (29) .

اما في القرن الثاني عشر الميلادي فقد اعتبر ديوان (هبة الحقائق) للشاعر (اديب احمد) الاثر الثاني لادب الديوان ، وقد كان ايضا على شكل قصيدة تعليمية ـ مثل قوتادغو بيليك ـ ولكنها تعتمد على ايراد الامثلة في مضمار الجهل والخسة والنميمة مقابل فوائد الثقافة والعلم والكرم والشهامة وقد كتبت باوزان العروض وعلى شكل رباعيات شعرية اما اشعار (احمد يسوي) المتوفى سنة 1166 م فانها تعد نموذجا للادب الديني ، حيث جمع اشعاره في ديوان (الحكمة) ضمنه شكاته عن الحياة الدنيا وعرض فيه صورا للجنة وجهنم ومدائح الرسول ومعجزاته وارشاداته الدينية والاخلاقية .

واعتبارا من القرن الثالث عشر الميلادي اخذت اللغة التركية تحل محل لغتي الادب العالي الفارسية والعربية ونشأ نثر ديني شعبي استهدف تفسير القرآن وتنمية الحياة الروحية . (30) غير ان اللغة العربية ـ لغة القرآن ـ بقيت لغة الاراجيز الدينية ولغة التعليم الديني والتفسير والحديث والموالد والافراح والمهرجانات الدينية .

2 ـ النحو والقواعد

يعد اللغوي التركي محمود الكشغري اول باحث تركي بل آبا النحو التركي، اذ لم يصل الينا اي اثر في النحو التركي لمؤلف قبله . حيث كتب مؤلف قبله. حيث كتب مؤلفة القيم (ديوان لغات الترك) عام 466 هـ ـ 1072 م في بغداد واهداه الى الخليفة العباسي المقتدي بامر الله ، كما اكد ذلك في المقدمة التي كتبها لمؤلفه والذي قال فيها :

(وحصرت هذه اللغة باسرها في ثمانية كتب : اولها منها كتاب الهمز قدمناه تيمنا بكتاب الله تعالى . والثاني كتاب السالم والثالث كتاب المضاعف والرابع كتاب المثال والخامس كتاب ذوات الثلاثة والسادس كتاب ذوات الاربعة والسابع كتاب الغنه والثامن كتاب الجمع بين الساكنين . وجعلت كل كتاب من هذه الكتب شريحتين اسماء وافعالا ، وقدمت الاسماء على الافعال ثم قفوتهما بالافعال مبوبة على مراتبها . الاولى فالاولى ، واستعرت القاب هذه الكتب والابواب من العربية اصطلاحا ، لمعرفة الناس بها (31) .

ان الاثر العربي في هذا المؤلف واضح لا يحتاج الى بيان ، كما يبدو ذلك جليا من مقدمة الكتاب حتى نهايته ، اذ يدافع محمود الكشغري عن النحو في

---

(29) كارل بروكلمان : الأمبراطورية الإسلامية وانحلالها ، بيروت 1961 ، ص 278 .
(30) كارل بروكلمان : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، بيروت 1961 ، ص 32 .
(31) محمود الكشغري : ديوان لغات الترك ، ص 4 ــ 5 .

مقدمة كتابه ويبين ضرورته واهميته للدين ودراسته ، بصورة تذكرنا بمقدمات كتب النحو العربى كما يتضح الاثر العربى ايضا فى الشرح المستفيض للاصل الثلاثى والرباعى للالفاظ التركية والذى اقتبسه الكشغرى عن اللغة العربية اضافة الى لجوئه اليها لكي يستمد منها الحجة والدليل لاثبات صحة آرائه لان لغات الترك تجارى العربية كفرسى رهان) على حد قوله فى المقدمة التى يعترف فيها انه اراد ان يبنى كتابه كما بنى الخليل كتاب (العين) من حيث ذكر المستعمل والمهمل ، غير انه عاد الى بناء كتابه وفق اسس جديدة تلائم اللغة التركية من حيث اثبات المستعمل واهمال المهمل طلبا للاختصار •

ولعل خير ما يؤكد الاثر البعيد للنحو العربى فى فكر محمود الكشغرى ، هو تلك الثروة الهائلة من اصطلاحات النحو العربى التى استخدمها فى كتابه (ديوان لغات الترك) كالاعتلال والمجاز والتصريف واقسام الكلام الثلاثة : الاسم والفعل والحرف • ثم الفاعل والمفعول به والاسم بنوعيه : المفرد والجمع، والاضافة بضربيها : اللفظية والمعنوية والتمييز والمصدر وغيرها • حتى يكاد ان يؤكد الباحث والدارس لهذا الكتاب بانه كتاب نحو عربى فى منهجيته واصطلاحاته وقواعده ، سوى ان الامثلة التى اوردها المؤلف على ذلك كله كانت من اللغة التركية •

ورغم قيام الاتراك باستبدال الابجدية العربية المستعملة فى كتاباتهم حتى عام 1928 بالابجدية اللاتينية ، الا ان الاثر العربى فى النحو التركى ظل ثابتا لا يتزحزح وان كان الآن اقل وضوحا نظرا لطول العهد به ولما اعتراه من متغيرات نتيجة اعتماد اللغة التركية اساسا فى التأليف والترجمة بحيث اصبح المصطلح النحوى التركى غير عربى فى لغته وا نكان كذلك فى اصوله الاولى •

3 ـ الالفاظ العربية فى اللغة التركية :

لا نقصد بالالفاظ العربية فى اللغة التركية ، الكلمات المعجمية التى سبق وان بحثناها فى البحث الاول من هذه الدراسة وانما العناصر اللغوية التى دخلت الى قواعد واملاء اللغة التركية ، او الالفاظ العربية التى اكتسبت معان جديدة فى اللغة التركية بحيث فقدت اصولها العربية وجرفها التيار التريك • غير ان ثمة اختلافا وتطابقا بين اللغتين العربية والتركية يجب ايرادها قبل الدخول فى بحث تفاصيل الموضوعة التى نحن بصددها •

أ ـ الاختلافات الكائنة بين اللغتين العربية والتركية :

تعد اللغة التركية من اللغات الالتصاقية التى لا تتغير فيها صورة الكلمة عند استعمالها فى الجملة وانما يكون تصريف الكلمات وتوليدها باضافات ملحقة بجذر الكلمة • اما اللغة العربية فانها من اللغات التصريفية التى تتغير اشكال الكلمات لدى استعمالها حسب موقعها من الجمل • اضافة الى ان البنيان الداخلى للاسماء يتغير لدى تصريفها ايضا •

ولعل الاختلاف الرئيسي بين اللغتين هو ان عناصر الكلام الاساسية تأتي في نهاية الجملة في اللغة التركية ، بينما ترد العناصر المتممة لها في بدايتها . اما في اللغة العربية فان العناصر الاساسية تأتي في بداية الجملة والمتممات في نهايتها .

اما الاختلاف الثالث بينهما ، فهو ان الاشتقاق في اللغة التركية يتم عن طريق الاضافة ، بينما يحدث ذلك في اللغة العربية بالنحت .

كما اود الاشارة الى انه لا توجد في اللغة التركية اسماء تدل على الجمع فقط ، اى لا مفرد لها مثلما هو موجود في اللغة العربية (ابابيل ، نساء) .

ب ـ التطابق الموجود بين اللغتين العربية والتركية

على الرغم من ان اللغة التركية هي من اللغات القريبة الى عائلة اللغات الهندو اوروبية ، الا انها تشبه اللغة العربية من بعض الوجوه ، وهي :

1 ـ خاصية اسقاط الرابطة اللفظية في بناء الجملة مثل : اكتب Yaziyoium

2 ـ خاصية الاكتفاء بمادة الفعل وحدها وتضمينه الفاعل في همزة او نون او تاء الفعل بينما لا يمكن تطبيق ذلك على اللغات الاوروبية مثلا حيث يجب ايراد الفاعل لفظا .

3 ـ خاصيو الانفتاح والمرونة والقدرة على استيعاب الالفاظ ثم تمثلها واعادة خلقها من جديد بحيث تأخذ منها وتعطيها وتتبادل الفعل والاثر معها .

ورغم ان الاتراك بدأوا باستعمال الابجدية العربية منذ منتصف القرن العاشر الميلادي عند اتصالهم بالفاتحين العرب الاوائل لمناطق آسيا الوسطى ، غير انهم لم يأخذوا بكافة قواعد الاملاء العربي نظرا لبعض الخواص التي تتمتع بها اللغة التركية فعدم وجود التثنية في اللهجة التركية ، ادى بالعثمانيين الى استعمالها في نطاق ضيق جدا : الحرفين الشريفين ، حسنين . كما لم يستعمل الاتراك المونث السماعي ، لعدم وجود التأنيث في اللغة التركية ، حيث أخذوا منه فقط ثلاثة الفاظ هي : الشمس والنار والنفس .

ادى اخذ الاتراك لقواعد الاملاء العربية وحاجتهم الى استعمال الشدة والتشديد في الالفاظ الى تكرار الحروف في الالفاظ المشددة Sarraf , Ressam لانه لا يجوز استعمال حرفين صامتين جنبا الى جنب في اللغة التركية . كما استعمال الاتراك التاء المفتوحة بدل التاء المغلقة (المدورة) في الاسماء المذكورة والمؤنثة : حكمت ، مروت ، عصمت .

ولما كانت اللغة التركية تفتقر الى الاصوات التي تقابل اصوات الحروف العربية : الهمزة والثاء والحاء والخاء والذال والصاد والضاد والطاء والظاء والعين (32) فان حرف الزاى في اللهجة العثمانية وحرف Z في اللغة التركية

---

(32) فاروق تيورتاش : عثمانليجه ، ص 47 .

التركية اللاتينية كان يقابل حروف : ص ، ض ، ث ، ذ ، فى الكلام فقط بينما كانت تكتب بشكلها العربى فى لغة الكتابة · كما ان حرف (ت = T) يقابل حرف الطاء وحرف (س = S) يقابل حرف الصاد بالاضافة الى حرف السين التركية ، وحرف الهاء يقابل حرفى خ و ح اما الهمزة والعين ، فقد استعمل بدلا عنهما اشارة خاصة كالفارزة او الهلال فى الكتابة ، اما عند الكلام فى اللغة التركية اللاتينية فتستعمل الوقفة الدالة على الهمزة بدل العين والهمزة·

وقد اكتسبت بعض الالفاظ والكلمات العربية ـ بمرور الزمن ـ معان ودلالات لا يعرفها الآن ابناء العربية انفسهم (33) : فكلمة (عطف) تعنى فى اللغة التركية (الاحالة القانونية) وكلمة (ذى اليد) تعنى (الحيازة) وكلمة (اختلال) تعنى (الانقلاب العسكرى) و(المخطرة) تعنى (المذكرة السياسية) وكلمة (اللاقيد) تعنى (عدم الالتزام) وغيرها كثير ·

4 ـ تأثير الفلكلور العربى فى الفلكلور التركى

لا يساهم علم الفلكلور فى القاء الضوء على تاريخ ثقافة معينة فحسب وانما يسعى الى تحليل التأثيرات المتبادلة بين المختلفة ، سواء بين الثقافات الاوروبية المتقدمة ، او بين ثقافات العالم الثالث المتخلفة او بين الثقافات المتقدمة والمتخلفة ·· عبر العصور التاريخية التى التقت فيها هذه الثقافات فاختلطت وتمازجت الى حد ما او بقى بعضها تحت تأثير البعض الآخر بل ربما كانت احدى هذه الثقافات هى الثقافة السائدة لفترة طويلة من الزمن (34) ·

واذا كانت الدراسات الحديثة فى الفلكلور قد اطلعت على هذه العملية المعروفة فى الانترويولوجيا الثقافة تسمية (التثقف من الخارج) والذى يشمل على : تلك التغيرات التى تحدث فى ثقافة معينة بتأثير ثقافة اخرى والذى ينتج عنه ازدياد التشابه بين الثقافتين المعنتتين : وقد يكون هذا التأثير متبادلا او طاغى التأثير من جانب واحد · (35) فيجب ان يكون هدف الدراسات الفولكلورية المقارنة استخلاص الطابع القومى وشخصية الامة من هذا الخليط الثقافي الذى يمتد الى مئات السنين والذى يغطى مساحات جغرافية شاسعة قد تشمل الكرة الارضية ولذلك اود ـ بهذه المناسبة ـ ان اوكد بأن هذه الدراسة الموجزة سوف لن تستطيع ان تستوعب كافة النماذج الفولكلورية التى توضح

---

(33) د. ابراهيم الداقوقي : الأدب التركي المعاصر ، مجلة عالم الفكر الكويتية ، المجلد الثالث عشر — العدد الأول 1982 ، ص 115 .

(34) للتفصيلات أنظر :
د. ابراهيم الداقوقي : تأثير الفولكلور العربي بالفلكلور التركي ، مجلة كلية الآداب — بغداد ، العدد 21 ، ص 329 — 367 .

(35) الدكتور محمد الجوهري : علم الفولكلور ، دار المعارف بمصر — القاهرة 1975 ، ص 18 — 19 .

مدى الالتقاء والاندماج بين الفولكلورين العربى والتركى وانما سنركز على بعض النماذج فقط بالاعتماد على اقدم المصادر فى هذا المجال على ان التوسع فى هذا الموضوع مستقبلا .

ولا بد لى ـ فى هذا الصدد ـ من ابداء بعض الملاحظات التى تلقى الاضواء على جوانب تأثر الفولكلور التركى بالفولكلور العربى .

اولا ـ ان تأثير الفولكلور العربى لا يقتصر على اللهجة التركية المتداولة فى الجمهورية التركية اليوم ، وانما يمتد الى كافة اللهجات التركية التى يتلاغى بها الاتراك فى الساحات الواسعة الممتدة من شمال الصين الى البحر الابيض المتوسط وبكل لغاتها ولهجاتها .

ثانيا ـ تأثر الفولكلور التركى الفولكلور العربى منذ القرن العاشر الميلادى، حيث تأثروا بكل القيم الجديدة التى اتى بها الاسلام ، وقد ظهر التاثر واضحا جدا فى امثالهم واساطيرهم وعقائدهم ومعارفهم الشعبية .

ثالثا ـ لم تقتصر تأثر الثقافة العربية على الفولكلور لدى الاتراك فحسب ، وانما غزت الثقافة التركية بشكل عام فدخل الكثير من المفردات العربية الى اللغة التركية ـ بكافة لهجاتها ـ وانتقلت اليهم اوزان الشعر العربى و نبغ عندهم شعراء السير العاطفية والبطولية : سيرة ليلى والمجنون وبطال غازى وطاهر وزهرة وغيرهم .

رابعا ـ ان بعض العادات التركية القديمة ـ التى كانت معروفة لديهم قبل الاسلام ـ قد تحولت ، بفعل الديانة الاسلامية الى تقاليد اسلامية وشعائر دينية تمارس فى المناسبات الاسلامية المعروفة : تحولت رقصات الشامانيين الى رقصة (السماع) التى يؤديها الدراويش المولويون ، كما تحولت الملامح الطوطمية التركية الى عقيدة (تناسخ الارواح) ثم الى تقديم الضحايا والقرابين كصورة من صور قصة ابراهيم (ع) وابنه اسماعيل (ع) ، وتحول الطيران الخرافيان العربى (عنقاء) والفارس (سميرغ) الى طير خرافى تركى جديد باسم (سمر عنقاء) او (زمر عنقا) او (زمرد عنقا) .

خامسا ـ تأثرت الفنون الشعبية التركية بالفنون العربية من حيث الاسس والخطوط العامة التى توضح نقاوة الشكل والتعبير فى العمل الفنى : انتقال العديد من المقامات الموسيقية العربية الى الفنون التركية بالاضافة الى الآلات الموسيقية العربية كالعود والربابة والايقاع الذى يطلعون عليه (دريكا : ضرب وايقاع) كما تأثرت الفنون التشكيلية التركية بالفنون العربية ولا سيما فى مجالات الخط العربى والارابسك ورموز الفن العربى حيث استعملت فى الاشغال اليدوية والجداريات والفخاريات واعمال الخشب والتطعيم بالصدف والحياكة .

اما بالنسبة الى الازياء والحلى فقد انتقل العديد منها الى الاتراك ولا يزال الاتراك يستعملونها الى اليوم : الاحرام ، البجاد ، البرنسى ، الجبه ، التاج

الخرقه ، الدملج (الدلمج) ، الفرطة ، القفطان ، وغيرها • كما عـرف المطـعـم التركى العديد من الاكلات العربية : الحمص ، الكبة ، اللبلبـى ، المحلبـى ، القطايف ، المصقا (المصقع) والمافيش وغيرها •

سادسا ـ تقتضى الامانة العلمية ان اشير هنا الى ان تأثر الفولكلور التركى بالفولكلور العربى لا يعنى عدم تأثر الفولكلور العربى بالفولكلـور التـركى ، فثمة جوانب عديدة من الفولكلور العربى تأثرت بالفولكلور وهو امر طبيعى لتفاعل ثقافات المنطقة والتأثير المتبادل لهذه الثقافات التى انصهرت فى بوتقة الحضارة الاسلامية •

5 ـ الترجمة بين اللغتين العربية والتركية :

يعد كتاب (ديوان لغات الترك) اول كتاب يتم تاليفه باللغة العربية من قبل مؤلف تركى هو الكاتب اللغوى محمود الكشغرى عام 466 هـ ـ 1072 م ولم يكن هذا الكتاب سوى ترجمة قواعد اللغة التركية الى اللغة العربية كمحاولة لتعليم العرب هذه اللغة الجديدة التى بدأت بالانتشار فى المناطق الـواسعة نتيجـة سيادة العنصر التركى ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى • غير ان ترجمة الاصطلاحات العلمية والفنية العربية الى اللغة التركية قد بدأت منذ بـدايـات القرن الحادى عشر نظرا لحاجة اللغة التركية الى استيعاب تلك الاصطلاحات من جهة ولتعليم الاتراك بقوعد واسس الدين الاسلامى من جهة اخرى (36) •

الا ان الترجمة بين اللغتين العربية والتـركية لم تقتصـر عـلى تـرجمـة الاصطلاحات العلمية والفنية فقط ، وانما يتعدى ذلك الى ترجمة امهات الكتب العربية فى مختلف فنون المعرفة الى اللغة التركية لا سيما كتب الفقه والدين والتفسير وترجمات آيات القرآن الكريم • وقد كانت ترجمة با يزيد جانددار اوغلو لتفسير القرآن الكريم اول تلـك الكتب الدينية المتـرجمة الى اللغـة التركية (37) • اما الكتاب الثانى فقد كان (جواهر الاصداف) حول منـاسك الحج (38) • ثم توالت الترجمة الى اللغة التركية من قبل المترجمين : خضربك خضر بك (ت 1458) فى (تفسير آية يس) وسنان باشا (1440 ـ 1486) فى (تضرعنامه) و(تذهيب الاخلاق) وعـاشق جلبى (1517 ـ 1571) فى التبـر المسبوك فى نصائح الوزراء والملوك) وغيرهم •

اما فى مجال النظم ، فان اثر اللغة العربية والمحسنات البديعية يظهر واضحا فى مؤلفات : منطق الطير الذى الفه كولشهرى عام 1317 م وغريبنامه عاشق باشا الذى الفه عام 1329 م وسهيل ونوبار للشاعرين خوجا مسعود وعز الدين

(36) مجموعة علوم (مجلة العلوم) العدد الأول ، 1 ذي الحجله 1296 هـ ـ 1878 م .
(37) CL. Huart : Journal Asiatigue 1821, PP. 161 — 162
(38) مخطوطة محفوظة في مكتبة السليمانية باسطنبول ، قسم قليج عي بـاشا رقـم 78 . نقـلا عن : آكاه لاون : المصدر السـابق ، ص 34 .

احمد الذى الفاه عام 1350 م واسكندر نامة الاحمدى الذى الفه عام 1390 م ومولود نامة شريف لسليمان جلبى (ت 1412) ومجنون ليلى لفضولى البغدادى (1488 ـ 1556) وغيرهم .

كما قام المترجمون الاتراك بترجمة مصادر اللغة والادب والشعر العربى الى اللغة التركية اضافة الى قيام الدولة العثمانية بعد ادخال المطبعة الى الولايات العثمانية لطبع تلك المصادر باللغة العربية وترجماتها باللغة التركية .

المبحث الثالث ـ اثر اللغة التركية فى اللغة العربية

عندما تأسست الدولة العثمانية واستقرت لها الاوضاع بعد فتوحاتها الاوروبية والافريقية ... اتخذت اللغة التركية لغة رسمية لها فتقهقرت اللغتان العربية والفارسية وسادت اللغة التركية التى سميت فيما بعد بـ (لغات عثمانية) التى كانت مزيجا من لغات الشعوب الاسلامية فى الاتحاد العثمانى .

واذا كان الشباب العثمانى بدأ بالمطالبة بالدستور واطلاق الحريات العامة منذ القرن التاسع عشر ، كما تزعم شاعر الوطن التركى (ناطق كمال) حركة التجديد في اللغة العثمانية والتى كانت تستند الى اساسين : (39) .

الاول ـ تنقية اللغة من الالفاظ الدخيلة وايجاد الفاظ تركية صميمة لتحل محلها والاستناد فى ذلك على ادب الشعب الشائع فى الدولة العثمانية .

الثانى ـ نبذ ادب الديوان وخلق ادب جديد يرتكز على الواقعية ويعبر عن امال الشعب التركى وآلامه .

الا انه لم يكتب النجاح لحركة التجديد فى اللغة التركية الا بعد تأسيس الجمهورية التركية الحديثة عام 1923 . غير ان ثمة حاجة لدراسة حركة تجديد اللغة العثمانية وسياسة التتريك التى اتبعها الاتحاديون سياسيا وثقافيا لكل نصل الى النتيجة التى نتوخاها من دراسة هذا البحث .

ـ 1 ـ حركة التتريك :

نمت اللغة التركية وترعرعت في ظل الابجدية العربية لا سيما بعد ميلاد (ادب الديوان) تحت تأثير الاسلامية حتى مطلع القرن العشرين عندما دعا كل من حسين جاهد يالجين وقليج زاده حقى وجلال نورى ايلرى ، الى استبدال اللاتينية حيث كتب حسين جاهد يالجين اول مقال حول الموضوع فى جريدة (طنين) بتاريخ 31 كانون الثانى 1910 وقليج زاده حقى فى مجلة (حريت فكرية) فى 22 مارس 1911 وجلال نورى فى احدى مؤلفاته (40) فى العام نفسه على

(39) ابراهيم الداقوقي : فنون الأدب التركماني ، ص 14 .
(40) آكاه سرى لاون : ادوار اللغة التركية (بالتركية) انقرة 1960 ، ص287 .

اعتبار ان الابجدية اللاتينية اكثر ملاءمة للتركية ومسايرة لروح العصر وذلك تشبها بالغرب • الا ان هذه الفكرة واجهت معارضة شديدة من بعض المفكرين الذين وجدوا فيها محاولة الروابط بين الاترك والعالم الاسلامى من جهة ولقطع صلة الجيل الجديد بالتراث الثقافى التركى القديم من جهـة اخـرى • (41) ولذلك فقد جرت محاولات لاصلاح الابجدية العثمانية بحيث تفى بحاجة اللغة التركية فابتدع (اسماعيل حقى) طريقة جديدة لكتابة الابجدية العربية ، كما اقترح انور باشا كتابة حديثة لتيسير قراءة الابجدية العربية بالنطق التركى، الا ان هاتين المحاولتين لم تصادفا نجاحا ولا ذيوعا (42) فتشكلت لجنة دراسة موضوع اللغة العثمانية وبكل مشاكلها ، فقامت بتنقية هذه اللغة من بعـض الكلمات الدخيلة ، غير انها لم تستطع البت فى موضوع الابجدية الملائمة للغة التركية • وخلال هذه اللغة من بعض الكلمات الدخيلة ، غير انها لم تستطـع البت فى موضوع الابجدية الملائمة للغة التركية • وخلال هذه الفترة قـويت الدعوة الى تغيير الابجدية العربية بالابجدية اللاتينية لا سيمـا بعد ان طـرح اللغوى النمساوى هـ• ف• كويرغيج (نظرية الشمس) فى اللغة التركية (43) التى تقول بان اللغة التركية كانت ـ خلال العصرين الحجرى والحديدى ـ لغة الثقافة ومنها انتقلت الالفاظ الحضارية الى اللغات الاخرى (44) •

واذا كان الاتحاديون (1908 ـ 1916) قد حاولوا تسييس التتريك فى كل الاقاليم العثمانية ، الا ان حركة التتريك فى اللغة استمرت خلال الحرب العالمية الاولى وبعد انحلال الامبراطورية العثمانية وتشكيل الجمهورية التركية الحديثة التى تبنت (نظرية الشمس) وفكرة استبدال الابجدية العـربية بالابجـديـة اللاتينية لا سيما بعد ان قدم نظمى الازميرلى ـ مع اثنين من رفاقه ـ اقتراحا حول ذلك الى المؤتمر الاقتصادى المنعقد فى ازمير عام 1923 ، غير ان المؤتمر صرف النظر عن الموضوع لانه خارج اختصاصه وبعث رئيس المؤتمر الماريشال (كاظم قره بكر) بالاقتراح المذكور الى وزارة التعليم للنظر فيه • وقد بـدأت الوزارة المذكورة باجراء الدراسات حول الاقتراح المذكور منذ ذلك التاريخ ، وعندما انعقد مؤتمر الشعوب التركية فى باكو عام 1926 ، لدراسة مشـاكـل اللغة والكتابة التركية وافق المؤتمرون على احلال الابجدية اللاتينيـة مـحـل العربية (45) وقد طبقت الابجدية اللاتينية فى اذربيجان السوفيتية منذ عـام 1922 بدلا من الابجدية العربية ، غير انها استبدلت بالابجدية الكيريليه عام

---

(41) د. ابراهيم الداقوقي : الأدب التركي المعـاصر ، مجلـة عالم الفكر الـكويتية ، المجلد الثـالث عشر – العدد الأول 1982 ، ص 73 .

(42) د. مجيب المصري : تاريخ الأدب التركي ، القـاهرة 1951 ، ص 537 .

(43) آكاه سرى لاون : المصدر السابق ، ص 23 .

(44) أهمية هذه النظرية بعد الخمسينات ، وان كان بعض الفئات القومية التركية المتطرفة متمسكـة بها الى الأبد .

(45) د. حسين مجيب المصري : المصدر السـابق ، ص 537 .

1939 ، كما استعملت الابجدية الكيريلية بدلا من الابجدية العربية فى جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية اعتبارا من عام 1927 . اما فى تركيا فان وزارة التعليم قد اتخذت قرارا بعد دراسة التقرير الآنف الذكر المقدم اليها ـ باستعمال الرموز اللاتينية فى الجامعات والمعاهد العالية فى دروس الفيزياء والكيمياء والرياضيات اعتبارا من العام 1927 كما قامت ادارة البريد التركية بطبع عبارة (البريد التركى) باللاتينية على الطوابع البريدية فى السنة نفسها وقامت وزارة التعليم بتشكيل لجنة لاعداد ابجدية تلائم اللغة التركية من الابجدية اللاتينية، وقد قامت هذه اللجنة باعداد تلك الابجدية فى منتصف عام 1928 (46) .

وفى اغسطس 1928 اعلن مؤتمر اللغويين المنعقد فى (سراى بورنو) باستانبول عن قبوله الابجدية التركية الجديدة (47) وفى الاول من تشرين الثانى 1928 وافق مجلس الامة التركى على قانون الابجدية التركية الجديدة التى تتألف من (29) حرفا . اما الاقليات التركية الموجودة فى الصين وايران والعراق واليونان فانها لا تزال تستعمل الابجدية العربية فى كتاباتها نظرا للصعوبات التقنية او اعتزاز منهم بلغة القرآن وبالثقافة العربية (48) .

2 ـ الالفاظ التركية فى اللغة العربية :

عندما تسود قومية او امة معينة فى منطقة جغرافية محددة ، فان لغتها تسود ايضا كظاهرة اجتماعية فى التعامل اليومى وكأداة سياسية لتفاهم المحكومين مع الحاكمين وبالعكس ، وهكذا فقد سادت اللغة التركية فى العهد العثمانى فى كافة الولايات العثمانية . ولقد روى الشاعر العراقى المرحوم معروف الرصافى الحادثة التالية للدلالة على وجود الالفاظ التركية فى اللغة العربية حيث قال : (49) «لقد اجتمعت ببغداد مرة باحد مأمورى الحكومة فى مجلس حافل فاخذ يكلم بعض الحاضرين هكذا : رحنا الى بيت فلان فلما دخلنا **السلاملك** صعدنا فوق وكانت **باية** من **بايات النردبان قريق** وبما ان **النردبان** كان **قرانلق** عثرت رجلى **نه ايسه** صعدنا ودخلنا **الاوده** وقعدنا بصورة **قارما قارشيق** وكان الضياء **سونك** فحصل عندى **صقينتى**» .

ويقول الدكتور حسين على محفوظ عن تأثير اللغة التركية فى اللغة العربية: (عرف الناس اللسان التركى فى زمن السلجوقيين وقد انتشرت التركية من بعد ، ايام الفتح العثمانى خاصة ، وتسربت الفاظها فى العامية اذ اوجبها الحاكمون وفرضها الامراء واظهرها الجند الاتراك على شيوعها انها كانت لغة

---

(46) أنور ضيا قارال : تاريخ الجمهورية التركية (بالتركية) استانبول 1960 ، ص 161 .

(47) سرور ايسكيت : حركة النشر في تركيا (بالتركية) استانبول 1939 ، ص 184 .

(48) د. ابراهيم الداقوقي : الأدب التركي المعاصر ، ص 75 .

(49) انستاس مارس الكرملي : مجلة لغة العرب ، الجزء الرابع لسنة 1911 والكلمات التي تحتها خط هي كلمات والفاظ تركية .

الحكم والقضاء والتعليم والتدريس فذاعت تراكيبها وفشا استعمالها وظلت الناس تلهج بها نحوا من اربعة قرون وما زالت اثارة موجودة فى الالقاب والانساب والاسماء والتعبير) (50) ٠

ومن هنا فقد احصى الدكتور حسين على محفوظ حوالى (500) لفظة تركية فى اللهجة العامية العراقية (51) كما يمكننا القول بان ثمة مالا يقل عن (400) لفظة تركية فى اللهجات العامية العربية المتداولة فى شمال افريقيا وسوريا واليمن ولبنان والاردن ، وحوالى (350) لفظة تركية فى لهجات دول الخليج العربى ٠

وقد دخلت الالفاظ التركية الى اللهجات العربية بطرق عديدة والتى يمكننا حصرها بما يلى :

أ ــ النحت والتحريف : ان بعض الالفاظ التركية قد نحتت او حرفت لتصبح الفاظا عربية فى بعض اللهجات ٠ فكلمة (اوت = نعم) التركية اصبحت (ايوت) في اليمن و(ايوه) فى مصر وبالمعنى نفسه ٠ كما حرفت لفظة (برداها = مره اخرى) التركية الى (برده) ومن ثم الى (برضه) فى اللهجة العامية المصرية ٠ وكلمة (بورون اوتو = عشب الانف = انفيه) التى تعنى السعوط قد انقلبت الى (برنوطى) وبالمعنى نفسه فى اللهجة العامية العراقية ٠

ب ــ اضافة الصفة القياسية (لى ، جى) او كاسعة السلب والنفى (سز) الى الالفاظ العربية لتنقلب الى الالفاظ التركية ومن ثم نستعملها وكانها ذات جذور او اصول تركية ، ولا سيما فى الاسماء والالقاب : مطبعجى ، قامجى ، قصابجى ، قلمجى ، كتابجى ، او : ادبسز ، عاسز ، وجدنسز ، او : قلعه لى ، لى بغداد لى ، حقه لى ،

ج ــ دمج كلمتين او لفظين عربين مع بعضهما لتصبحا كلمة جديدة ، ومن ثم تنتقل الى اللهجات العربية وكانها لفظة تركية : دمج كلمة (عرض) مع كلمة (حال) لتصبحا لفظة (عرضحال) التى تعنى العريضة ، او كتاب الاسترحام ومثل دمج كلمة (علم) مع كلمة (خبر) لتصبح كلمة جديدة (علم وخبر) التى تعنى ورقة الايصال او التبليغ بأمر ما ٠ ومثل دمج كلمة (قائم) مع كلمة (مقام) لتصبح (قائمقام) التى تعنى رتبه عسكرية او وظيفة ادارية ٠

د ــ ثمة الفاظ عربية تستعمل فى اللغة التركية بغير صيغتها بحيث توحى الى القارىء بانها تركية الجذور وقد انتقلت بصيغتها الجديدة الى اللهجات العربية فكلمة (قلا بالغ) التى تعنى الزحام والفوضى ، هى فى الاصل كلمة

(50) د. حسين علي محفوظ : مجموعة الألفاظ التركية في اللهجة العراقية ، مجلة التراث الشعبي ، السنة الأولى – العدد السادس ، شباط 1164 ، ص 33 .

(51) د. حسين علي محفوظ ، المصدر السابق ، ص 33 – 56 .

عربية (غلبه) مع اضافة (لك) التركية لتصبح (غلبه لـك) التى انقلبت الى قلا بالغ • او اسم العلم المصرى (ميرفت) الذى هو بالاصل لفظة عربية صميمه (مروت) العثمانية ثم لتصبح كلمة تركية بلفظه (ميرفت) الصحيحة •

هـ ـ انتقلت العديد من الالفاظ التركية الصحيحة الى اللهجات العربية ايام الاحتلال العثمانى ولا تزال تستعمل فيها : افندى ، الجق ، بكباش ، اياق ، اوده ، اورطه آغر ، باش ، بوش ، تبسى ، خانم ، دوغرى ، زبون ، رشمة ، شب ، شيس ، طاس ، فيس ، قيغ ، كاهى لابجين ، منديل ، ياخه ، يدك ، يواش ، ••••• وغيرها •

3 ـ محاولات لتعليم اللغة التركية لابناء الضاد

يعد الباحثون الاتراك الفترة الكائنة بين القرن الثالث الهجرى ومنتصف القرن العاشر الهجرى الفترة الذهبية للغة التركية لان الاتراك كانوا يسيطرون على الساحات الواسطة الممتدة من الصين شرقا الى المجر غربا ومن انهار الشمال المتجمدة الى الهند وبلاد العرب جنوبا (52) •

ونظرا لسيادة الاتراك على الاقطار العربية خلال تلك الفترة فقد سادت لغتهم ايضا ، فتوسل العديد من المؤلفين ، العرب والاتراك الى تأليف الكتب التى تعلم العرب هذه اللغة الجديدة كحاجة يومية ، بـل ان بعضهم اضفى القدسية على هذه العملية ، من خلال ايراد بعض الاحاديث النبوية المنحولة امثال : (تعلموا لسان الترك فان لهم ملكا طوالا) او (يقول الله تعالى ان لى جندا اسميتهم الترك واسكنتهم المشرق فاذا غضبت على قوم سلطتهم عليهم) (53) •

ويمكننا تقسيم الادوار التى مرت على عملية تعليم اللغة التركية للعرب الى ثلاثة فترات تاريخية هى :

الفترة الاولى ـ وهى عهد سيطرة الدويلات التركية والمغولية والتركمانية فى المشرق العربى والمماليك فى مصر والسلاجقة فى الشام ، حيث تم تأليف الكتب التالية :

1 ـ ديوان لغات الترك المحمود الكشغرى الذى الفه فى بغداد عام 466 هـ ـ 1072 م •

2 ـ كتاب (جواهر النحو فى لغات الترك) لمحمود الكشغرى الذى الفه فى بغداد ايضا فى القرن الحادى عشر الميلادى الا انه لم يصل الينا (54) •

---

(52) Besim Atalay : Divuanu Lugat — it — Turk Ter cemesi, C. I, T D K, Ankara 1939, S. VIII,

(53) *Ibid*, S. XVII.

(54) *Ibis*, S. XI.

3 ــ كتاب (حلية الانسان وحلبه اللسان) لجمال الدين بن مهنا (معجم ابن مهنا) الذى يعتقد بانه الفه اواخر القرن الثالث عشر او بداية القرن الثالث عشر او بداية القرن الرابع عشر او بداية القرن الرابع عشر (55) وكان مكتوبا بخليط من اللغات التركية : الجغطائية والتركمانية والكشغرية والاويغورية ٠

4 ــ كتاب (مجموع ترجمان تركى وعربى ومغولى وفارسى) الذى استنسخه خليل بن محمد بن يوسف القونوى عام 1245 م وهو لمؤلف مجهول ويسعى الى تعليم اللغة القبجاقية التركية التى كانت متداولة فى مصر ، الى العرب ٠ وقد نشره المستشرق الالمانى هو تسما عام 1894 فى ليدن بعنوان (المعجم التركى ــ العربى) (56) ٠

5 ــ كتاب (الادراك للسان الاتراك) الذى الفه ابن حيان الغرناطى فى القاهرة عام 712 هـ (1312 ــ 1313 م) لتعليم اللغه القبجاقية التركية الى العرب٠ وقد تم طبعه فى استانبول عام 1309 هـ ٠

6 ــ كتاب (الدرة المضيئة فى اللغة التركية) الذى ذكره الكاتب المصرى (ملاصالح) فى نهاية كتابه (الشذور الذهبية) واكد بانه قد راه وبان الكتاب المذكور كان من تأليف ابن حيان الغرناطى (ت 745 هـ ــ 1344 م) (57) ٠

7 ــ وخلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى ، قام العديد من المؤلفين المجهولين بتأليف عدة كتب لتعليم اللغة التركية ، ولا سيما القبجاقية، للعرب ومن هذه الكتب : (58) ٠

أ ــ القوانين الكلية لضبط اللغة التركية ، نشره البروفسور فؤاد كوبريلى فى استانبول عام 1928 ٠

ب ــ بلغة المشتاق فى لغة الترك والقفجاق ، لم يصل الينا هذا الكتاب ٠

ج ــ زهر الملك فى نحو الترك ــ لم يصل الينا ٠

د ــ الافعال فى لسان الترك ــ لم يصل الينا ٠

هـ ــ نادر الدهر على لغة ملك العصر ــ ذكره جمال الدين بن مهنا فى معجمه٠

و ــ قصيدة قواعد لسان الترك ــ ذكره ابن مهنا فى لعجمه ٠

ز ــ كتاب حلى الملك ــ لم يصل الينا ٠

(55) Ibnu Muhanna Lugati, istanbul 1934, S. I,

(56) توري يوزف : اون دوردنجي عصر صوكلرينة قدر تورك ديلي يادكاراري ، مللي تتبعلر مجموعة سي ، ج 4 ، ص 133 .

(57) ملا صالح : الشذور الذهبية والقطع الأحمدية في اللغة التركية ، تحقيق بسيم آتالاي ، استانبول 1949 ، ص 71 المقدمة .

(58) Besim Atalay : *Op. cit.* S. VII — IV.

ح ـ كتاب تحفة الملك ـ لم يصل الينا ٠

ط ـ التحفة الزكية فى اللغة التركية ـ نشره المجمع اللغوى التركى فى انقره عام 1934 هو لمؤلف مجهول ٠

الفقرة الثانية ـ العهد العثمانى : على الرغم من ان الدولة العثمانية قد تأسست ـ فعليا ـ بعد عام 1299 ٪ 1300 الميلادى غير ان الاثار الثقافية العثمانية لم تظهر الا بعد فترة طويلة من هذا التاريخ ٠ اما المؤلفات الخاصة بتعليم اللغة التركية فقد ظهرت اوائل القرن السادس عشر وكان اهمها :

1 ـ ديوان تركى بسيط لمؤلفه ادرنه لى نظمى الذى الفه اوائل القرن السادس عشر وطبع فى استانبول عام 1928 ٠

2 ـ مؤلفات الكاتب المصرى (ملاصالح) الخاصة بتعليم اللغة التركية للعرب، وقد كان الكاتب مدرسا للمدرسة الاشرفية فى مصر وكان لا يزال يعيش عام 1029 هـ ٠ وهذه المؤلفات هى : (59)

ا ـ الاقنوم فى لغة الروم ٠

ب ـ الرجمان فى لغة آل عثمان ٠

جـ ـ قاموس الاروام ٠

د ـ الشذور الذهبية والقطع الاحمدية فى اللغة التركية ٠

3 ـ البرهان القاطع لاحمد عاصم افندى المؤلف عام 1797 ٠

4 ـ لهجة اللغات لمحمد اسعد افندى المؤلف عام 1801 ٠

5 ـ اللغات النوائية والاستشهادات الجغطائية الذى نشره المستشرق الفرنسى يافيت دى كورتل فى باريس عام 1880 وهو لمؤلف مجهول ٠

6 ـ لهجة عثمانى لاحمد وفيق باشا المؤلف عام 1888 ٠

7 ـ مؤلفات احمد فارس الشدياق اللغوية (ت 1887) التى طبعها فى استانبول عندما كان يقوم باصدار مجلته (الجوائب) فيها ٠

8 ـ كتاب (كنز اللغه العثمانية) لمؤلفه مصطفى افندى سليمان زاده الشريف الحلبى ، المطبوع بمشق الشام سنة 1329 هـ (1902) ٠

9 ـ المعجم العثمانى المصور لمؤلفه على سيدى المطبوع عام 1330 هـ ـ 1913 م

الفقرة الثالثة ـ العهد الجمهورى : على الرغم من قيام الثورة الكمالية بتغيير الابجدية العربية المستعملة فى الكتابة التركية بالابجدية اللاتينية عام 1928 وتبنيها لنظرية الشمس فى اللغة التركية ، غير ان اخطر الاراء تطرفا التى

---

(59) ملا صالح : الشذور الذهبية ، ص 71 المقدمة .

اطلعت على ساحة اللغة التركية هى الفكرة التى نادى بها البروفيسور نعيم حازم اونات ، عضو المجمع اللغوى التركى عام 1932 ٠ ووضعها حيز التنفيذ عام 1944 بمؤلفه الموسوم (اللغة التركية اساس اللغة العربية) (60) والتى تدعى ان اللغة العربية ما هى الا صورة مشوهة عن اللغة التركية لان تلك اللغة اخذت عن التركية قواعدها واصولها وضمائرها وتراكيبها ، بل وجذور كلماتها ٠

غير انه لم يكتب لهذه الفترة الذيوع والانتشار فى تركيا نفسها ، رغم قيام المجمع اللغوى التركى بطبع المؤلف المذكور خلال 1944 ـ 1951 ، لان الاتراك انفسهم نقدوها قبل غيرهم ٠٠ اذ كان الاساس الذى استند اليه اللغويون فى الاخذ بالابجدية اللاتينية بدل الابجدية العربية هو زعمهم ان اصوات اللغة العربية لا تلائم اصوات اللغة التركية ، اضافة الى ان اللغة العربية هى من اللغات التصريفية ، بينما اللغة التركية هى من اللغات الالتصاقية ٠ كما ان اللغات التصريفية تعد ذروة التطور والكمال فى اللغات المعروفة اليوم كاللغات الهندو ـ اوروبية واللغة العربية ، بينما لا تشكل اللغة التركية عائلة لغوية ، وانما هى تنتمى ـ حسب الدراسات اللغوية الحديثة ـ الى (مجموعة لغوية) قد تؤدى الدراسات فى لمستقبل الى اكتشاف الاصول المشتركة لتلك المجموعة (61)

واذا كانت هذه الدعوات المتطرفة قد ولدت فى فترة حكم الحزب الواحد 1923 ـ 1950 ، فان تعدد الاحزاب فى تركيا ، بعد الحرب العالمية الثانية ، ونشوء معارضة ليبرالية قوية على الطراز الغربى وتنامى التيار الاسلامى ، لا سيما بعد مجىء الحزب الديموقراطى الى الحكم ، ادى الى الاهتمام باللغة العربية مرة اخرى فقامت الجامعات التركية بفتح اقسام اللغة التركية فى عهد حكم الحزب الواحد ، كما كثرت مدارس الائمة والخطباء ـ التى يتم فيها تدريس اللغة العربية الى جانب القرآن والفقه والتفسير ـ فى طول البلاد وعرضها ٠٠٠ اضافة الى تأسيس كلية الالهيات فى جامعة انقره التى تقوم بتدريس المذاهب الاسلامية والفقه الاسلامى وعلم الكلام وغيرها من العلوم الدينية .

ورغم ان المجمع اللغوى التركى قد سعى ومنذ عام 1936 الى تتريك الكلمات الاجنبية الموجودة فى اللغة التركية واستطاع ان يجمع حتى عام 1952 ما يقرب من (275) الف لفظه تركية من افواه الناس ومن كتب ومن كتب التراث التركى (62) الا ان اللغة العربية لا تزال تضرب جذورها بعمق فى ارضية

---

(60) Prof. Naim Hazim Onat : Arap canin Turk Diliyle Kurulusu, C. I Ve II, Ist. 1944 — 1951 .

(61) د. ابراهيم الداقوقي : القواعد الأساسية للغة التركية ، ص 8 .

(62) Agah Sirri Levend : *Op. cit*, S. 471.

اللغة التركية ، بل ان ثمة حركة قوية ـ فى تركيا اليوم ـ لاعادة الابجدية العربية الى اللغة التركية ٠

وقد قامت نخبه من المثقفين الاتراك الذين يتقنون اللغتين العربية والتركية بحركة ترجمة واسعة اضافة الى اعداد المعاجم اللغوية نذكر منهم الاخوان آتاى وأ٠ قادر ومولود جبارلى ويشار قوتلواى ومظفر اوزاق وابراهيم اكاه جوبوقجى وغيرهم ٠

النتيجة :

ان الوشائج القوية التى ربطت بين اللغتين العربية والتركية ، خلال فترة العشرة قرون الماضية ، ادت الى تحقيق فكرة «التثقف من الخارج» المعروفة فى الانثرويولوجيا الثقافية والتى تشمل على «تلك التغيرات التى تحث فى ثقافة معينة بتأثر ثقافة اخرى والذى ينتج عنه ازدياد التشابه بين الثقافتين المعنيتين وقد يكون هذا التأثير متبادلا او طاغى التأثير من جانب واحد » (63) ٠

ولقد كان تأثير اللغة والثقافة العربية من القوة بحيث حافظت على سيادتها طيلة تلك القرون واستطاعت ان تخلق حركة ادبية وثقافية واسعة فى الاوساط التركية من شمال الصين شرقا وحتى البحر الابيض المتوسط غربا مرورا باقطار آسيا الوسطى ، غير ان سيادة اللغة والثقافة العربية فى تلك الاصقاع لم تكن تعنى الغاء الطابع القومى للثقافة التركية او تحطيم شخصية الامة التركية وانما كانت مدن بخارى وخيوه وسمرقند ومرو وبغداد وحلب ودمشق الشام والقاهرة بمثابة مراكز التعليم منارات الحضارة للثقافة العربية ـ الاسلامية التى رفدت ثقافات الشعوب الاسلامية ، ومنها الشعب التركى الصديق ، بالجديد فى علوم اللغة العربية وفنون الشعر وعلوم القرآن الكريم والفنون الاسلامية بحيث نبغ العديد من العلماء الاتراك فى التفسير والفقه والتصوف والالهيات والتاريخ والرحلات والفهرسة نذكر منهم الشاعر عبد الحق حامد صاحب (خرابات) و(فتح الاندلس) وكاتب جلبى صاحب (كشف الظنون) وذيوله واوليا جلبى ـ ابن بطوطه التركى ـ وصاحب (سياحتنامه) حتى اصبح حجم الثقافة التركية ـ لا سيما الادب والشعر ـ والتاريخ والتصوف والفقه ضخما جدا ، ليس من ناحية الكم فحسب ، لان فيه الشىء الكثير من الاصالة والجد وثراء الخيال والمحسنات البديعية التى اضعت عليها البيئة التركية جمالا اخاذا قلما نجده فى اداب الشعوب الاسلامية الاخرى ٠

كما تأثر الفولكلور التركى بالاحداث العربية وتفاعل معها ، فهناك العديد من الاغانى الشعبية التركية التى تتغنى بالجزائر وبطولاتها وخصوبة اليمن وقهوتها ونقاء مكه والمدينة وبقدسية تراب كربلاء ٠ اضافة الى ان الامثال

---

(63) د. محمد الجوهري : علم الفولكلور ، دار المعارف بمصر 1975 ، ص 18 — 19 .

الشعبية التركية تزخر بالعديد من المضامين العربية ، سواء اكانت مترجمة الى اللغة التركية نصا من المصادر العربية القديمة (كل شـاة برجلها تعلـق = قويونو آيا غندن اصاربر) (64) ام من حيث تناولها للعرب والموضوعة العربية (لا حبيبة كالام ولا مدينة مثل بغداد) (65) اضافة الى العـديـد مـن الالفـاظ والتعابير الشعبية المتأثرة بالفولكلور العربى (66) ٠

وتزخر اليوم مكتبات السليمانية واياصوفيا وطوبقبو ونور عثمانية ومتحف مولانا بقونيا والمكتبة الوطنية بانقرة بمئات المخطـوطات العـربية وعشـرات المخطوطات النادرة بل وبعض المخطوطات العربية الوحيدة التى لم تمتد اليها يد الباحثين لحد الآن ، كما ان خزائن ارشيف رئاسة الوزراء فى استنبول لا تزال تحتفظ بالوف الوثائق الخاصة بتاريخ العرب فى انقرة العثمانية لم يطلع عليها احد بعد ٠

وقد قامت الجامعات التركية بتحقيق ونشر العديد من المخطوطات العربية التى تتضمن مؤلفات الفارابى وابن سينا والغزالى ومحى الدين ابن عربى والرازى اضافة الى دواوين ابن المعتز وابى نواس وقيس بن الملوح ، حيث قام الاساتذة البروفيسور نجاتى لوغال والدكتورة شوقية اينالجق والدكتور حسين آتاتى واحمد اتشي وتحسين يازيجي والدكتور سعـادت اويمـاق والبـروفيسـور ضيائولكن وخير الدين قرامان وبكر طوبالوغلو ، بانجاز هذا العمل الجليل ٠

ان دراسة تفاعل ثقافات منطقة الشرق الاوسط والتأثير المتبادل بين هذه الثقافات التى انصهرت فى بوتقة الحضارة الاسلامية يمكن ان تكـون اساسا للدراسات الشرقية والمقارنة من جهة ، كما يمكن لها ان تلبى حاجة المحققين فى مجال التراث العربى خارج الوطن العربى من جهة اخرى ٠

د٠ ابراهيم الداقوقى

بـغـداد

---

(64) الميداني : مجمع الأمثال ، الطبعة الثانية — المكتبة التجارية بالقاهرة 1909 ، ج 2 ، ص 142 .

(65) T.D.K; Atasosleri Ve Deyimler, Ankara 1969, S. 57.

(66) للتفصيلات أنظر :

د. ابراهيم الداقوقي : تأثير الفولكلور العربي بالفولكلور التركي ، مجلة كلية الآداب . بغداد 1977 ، العدد 21 .



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



الوافدون على مدينة صفاقس خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر : أصولهم وتوزيعهم داخل المدينة وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية

د. علي الزواري

شهدت مدينة صفاقس خلال القرن التاسع عشر بالنسبة للقرن الذى سبقه عددا متزايدا من الوافدين عليها من بعض الجهات التونسية ومن بعض بلدان البحر الابيض المتوسط اسلامية ومسيحية . وتقتصر دراستنا بالطبع على الوافدين الى صفاقس الذين استقروا بها لمدة طويلة ربما أدت بهم أو بالكثير منهم الى الاستقرار النهائى والاندماج التدريجي فى المجتمع الصفاقسي، بالنسبة للمسلمين طبعا .

والمجتمع الصفاقسى ينعت الوافدين المسلمين بالبرانية ج. برانى ، خلافا لاهل المدينة : الصفاقسية . ج. صفاقسى ، أما بلدى فتطلق على أهل المدينة اذا وقعت مقارنتهم بالعرب ، أى الريفيون ، رحلا أو نصف رحل أو مستقرين أما الوافدون الذين هم على غير دين الاسلام فتنعتهم الوثائق بالذميين وتنعتهم اللغة الشعبية باليهود والنصارى اذا وجب التمييز بينهم .

ويمكننا أن نقسم هؤلاء مهما كان مذهبهم على ثلاث طرق . الطريقة الاولى تعتمد الاسباب التاريخية والاقتصادية التى أدت الى الهجرة والاستقرار وتشمل فى صنفها الاول التونسيين ، مسلمين أو يهودا ، وتشمل فى صنفها الثانى الاجانب عن الايالة التونسية مهما كان مذهبهم الدينى . وتعتمد الطريقة الثانية على الدين والعرق اللذين كان لهما دور أساسى فى تقسيم الوافدين الى صفاقس ، وتجمعهم وتأطرهم داخل المدينة المسورة وأرباضها وأحوازها .

وقد بدا لنا أنه من الاجدر فى دراستنا هذه أن لا نعتمد هذا التقسيم أو ذاك تفاديا للتكرار وأن نتبع طريقة أشمل تمكننا من استعراض الوافدين بالرجوع الى أسباب هجرتهم ، واستعراض تجمعاتهم السكنية والحرفية ، وحركاتهم الاقتصادية وروابطهم الاجتماعية ، فيما بينهم وأيضا بالنسبة للمجتمع الصفاقسى العام .

I) اسباب الهجرة :

أ) القوى الجاذبة لمدينة صفاقس :

- الجاذبية الاقتصادية :

أول أسباب الهجرة وأبرزها ما كانت تتمتع به مدينة صفاقس من جاذبية لموقعها الجغرافى المتميز وتوفر امكانياتها الاقتصادية ، وتحركها المستمر ،

وتنوع علاقاتها داخل الايالة وخارجها . ومن القرن الثامن عشر فصاعدا توفرت لمدينة صفاقس أسباب العمل التجارى . فاضافة الى تقاليدها فى المعاملات التجارية ومعرفتها الدقيقة لاحوالها منذ عصورها التاريخية الاولى كما حدثنا عن ذلك الجغرافيون العرب ، استغلت هذه المدينة استقرار الدولة الحسينية ، ووفرة رأس المال المتحرك عن طريق القراض ، وازدياد عدد سكانها، وارتفاع انتاجها الصناعى والفلاحى لتربط تجارتها مع عدة جهات ومدن من الايالة التونسية ، وعدة بلدان مغربية : الجزائر ، وطرابلس ، وافريقيا عبر الصحراء ، وبلدان مشرقية كالحجاز ومصر والشام « وبلاد الترك » ، وعدة مدن وجزر من البحر الابيض المتوسط ، وأوربا كمالطا ، وقبرص ومدينة كفنوليا باليونان وتريست ، ومرسيليا من فرنسا والقرنة من ايطاليا ... فنشطت أسواق المدينة بمختلف البضاعة المحلية والتونسية والاجنبية ، ونتيجة لذلك كثر عدد المترددين على أسواقها ، من منتجين ومستهلكين ، وعارضين لسواعدهم ، ووسطاء ، وتجار . وأكثرهم عددا باستثناء التجار هم من القرى والارياف القريبة ، ومن أرياف الوسط التونسى ومن مدينة قابس.

وازدهار التجارة بمدينة صفاقس سبب من الاسباب التى أدت الى التوسع الفلاحى . فأرباح التجارة استثمرت فى امتلاك الاراضى الفلاحية واستغلالها، كما أن الانتاج الفلاحى المتطور كان له دور أساسى فى تنشيط التجارة . فالزيت ، واللوز ، والزبيب ، والفزدق ، والعطورات المقطرة من الياسمين ، والورد ، والنسرين ... منتوجات لها مكانة هامة فى الصادرات الصفاقسية . واحياء الارض ، والاعتناء بها تما بفضل اليد العاملة الصفاقسية المتخصصة فى هذا الميدان وتما وكذلك عن طريق اليد العاملة الاجنبية عن صفاقس المهاجرة اليها بحثا عن عمل .

ونتيجة للتطور الاقتصادى بالمدينة ، ونتيجة للنمو الديمغرافى لغياب العاهات والامراض الفتاكة والاوبئة طيلة القرن الثامن عشر ، ضاقت المدينة المسورة بسكانها ، وضاقت أسواقها بروادها وبضائعها ، فاستلزم الامر تأسيس حى جديد تجاه المرسى ، مسور أيضا ، عرف بالربض القبلى . وهذا الربض الشاغر الذى به من المرافق الدفاعية ما للمدينة التاريخية يمثل بدوره قوة جاذبة للمهاجرين نحو مدينة صفاقس : اليهود والمسيحيون خاصة كما سنتعرض اليه فيما بعد .

- التعامل الاقتصادى :

كان لمدينة صفاقس منذ نشأتها تكامل اقتصادى بين أربع قطاعات أساسية : الفلاحة ، والصيد البحرى ، والصناعة ، والتجارة . وتوازنت هذه القطاعات كما ذكرنا خلال القرن الثامن عشر ، وارتبطت مع بعضها ارتباطا اقتصاديا متينا عضويا ، انتاجا وترويجا ، بشرا وأموالا ، واستمر هذا التوازن كذلك طيلة القرن التاسع عشر وبعده . ونتج عن ارتباط القطاعات

المنتجة بالتجارة ، ربط ذاتي قصد الربح بأقل كلفة ، كما نتج عن الطموح التجاري لاهل صفاقس توسع في المعاملات الفلاحية والتجارية داخل الايالة التونسية وخارجها . فكانت لصفاقسيين أملاك ومنافع فلاحية بالمنطقة الواسعة التي تحيط بمدينتهم وبالساحل ، وقابس ، وأملاك ومنافع تجارية بتونس ، وقابس ، وجربة ، وطرابلس ، وفي عدة مدن من مصر : القاهرة والاسكندرية خاصة . واقتضت هذه الاملاك والمنافع ، كما اقتضى التوسع التجاري الاعتماد على صفاقسيين كانوا يهاجرون لهذه المناطق ويستقرون بها لمدة قد تطول الى عدة سنين ، والاعتماد أيضا على العناصر المحلية . وقد استوجب هذا التعامل تنقل بعض المتعاملين مع أهل صفاقس الى هذه المدينة حيث رأس المال الذي يربطهم ، ومنهم من استقر بها نهائيا .

ولا ننسى دور الحركة التجارية ، ودور بعض الاتجاهات الاجتماعية في جلب العبيد الى مدينة صفاقس ، حتى بعد تحريرهم (1) وتوظيفهم داخل الاسرة والمجتمع ، اناثا وذكورا ، بيضا وسودا ، وأكثر العبيد من السود .

وبصفة عامة استمر التجار الصفاقسيون يتاجرون بالعبيد خارج الايالة بعد تحريرهم بها ، كما أن بعض التجار وبعضهم من الاجانب استمروا يستوردون خلسة الى صفاقس عبيدا من افريقيا ، كما أن بعض الصفاقسيين المقيمين خارج الايالة ، في مصر وطرابلس يرجعون الى مدينتهم ومعهم تابعوهم من العبيد السود . وذكر لنا ادوارد رأيا أنه « منذ بضع شهور جلب أحدهم عددا كبيرا من العبيد ـ السود ـ الى صفاقس ولكنهم اعتقوا بأمر من الحكومة » (2) .

ـ الموقع الجغرافي :

تقع مدينة صفاقس على المسلك الساحلي الذي يربط بين الشمال والجنوب التونسي مرورا بالعاصمة ومدينة سوسة ومدينة قابس . والقوافل التي كانت تمر بهذه الطريق وأهمها قافلة غدامس والاعراض ، تقف بمرحلة صفاقس ليوم أو أكثر . قال ادوارد رأي الذي زار صفاقس سنة 1877 : « ولم تمض سوى سبعة وعشرين عاما حتى كانت القوافل تسير بصفة معتادة من « تمبكتو » و « واداي » والدواخل وتمر خلال سوسة وصفاقس لتنتقل الى تونس في يونية من كل عام تحمل العاج والتبر وريش النعام » (3) . وتمر

---

(1) في محرم 1262 هـ / جانفي 1846 صدر أمر من احمد باي يعتق المماليك السود . ابن أبي الضياف ، اتحاف اهل الزمان ..، 1965 ، ص 87/44 .

(2) المغرب العربي في القرن التاسع عشر 1877 ، تعريب محمد جودة ، دار مكتبة الفكر طرابلس ليبيا ، ص 176 .

(3) نفس المصدر ، ص 175 .

قافلة الاعراض بالمرحلة الواقعة شمال المدينة قرب الناصرية (4) · غير بعيد عن محطة القوافل الواقعة خارج المدينة عند باب الجبلي . وقد أدى هذا المرور الى استيطان بعضهم بالربض المعروف بربض القوابسية خلال القرن التاسع عشر ، منذ نصفه الثاني . فهذا الربض صار مع مر الايام مستوطن الوافدين من قابس مهما كان سبب هجرتهم · وتنعت وثائق الحكومة التونسية سكان هذا الربض بأهل الاعراض القاطنين بصفاقس . والسيارة الحاملون لمكاتب الدولة الى الاعراض يقيمون فى هذا المكان من المدينة ، وكانت مؤونتهم ومؤونة دوابهم فى أول الامر تقام على أهل مدينة صفاقس على وجه الضيافة . ولما ضاق أهل صفاقس بهذه العادة المستجدة ، طلبوا من الباى احالتها الى أهل الاعراض القاطنين بربض القوابسية بصفتهم أولى باستضافة بنى جهتهم (5). وما من شك فى أن وجود مهاجرين ينتمون فى أصلهم الى جهة واحدة ومجتمعين داخل ربض من أرباض صفاقس خاص بهم ، ولهم خليفة ينوب الدولة فيهم شجع وسهل بدوره هجرة سكان الاعراض الى هذه المدينة وصارت تشملهم كلمة قوابسية ، واستيطانهم فى هذا الربض بالذات . وقد أمدتنا وثائق الدولة التونسية الخاصة بالآداءات الجبائية ووثائق متحف الفنون والتقاليد الشعبية بعدة أسماء لبعض المهاجرين نذكر منهم على سبيل المثال : عبد الدائم ابن الحاج أحمد القابسى ، وحسن بن علي القابسى (6)···وكلمة قابسى ، كما نلاحظه ، بعد ان كانت نسبة الى جهة ، صارت على مر الايام لقبا لاسرة . وأسرة القابسى من الاسر المعروفة فى صفاقس اليوم ، تنسب الى أصلها كعدة أسر أخرى : التونسى ، والغريانى ، والطرابلسى ، والبجاوى ، والجربى ... نسبة الى تونس العاصمة ، وغريان ، وطرابلس ، وبجاية ، وجربة .

ب ـ القوى الدافعة :

ـ الجفاف :

فى سنوات الجفاف كانت الجهات المتخصصة فى زراعة الحبوب ، المتضررة من الجفاف أكثر من غيرها ، تدفع بالعديد من شغاليها نحو الجهات والمدن الاقل تضررا . فيلجأ بعضهم الى صفاقس ، فمنهم من يجد عملا موسميا بالاراضى المشجرة ، أو عملا قارا لدى بعض الاسر ، يتغير حسب الحاجة ، وتنضم

---

(4) الناصرية – جملة من الصهاريج ، تنسب الى محمد الناصر بن يعقوب بن عبد المؤمن الموحدي الذي دخل صفاقس في سنة 1204 هـ / 1601 م فاتحا ومطهرا لهما من جيوش الميورقي وقراقوش الثائرين على دولته وهو الذي أمر ببناء نواتها الأولى .

(5) وثائق الحكومة التونسية ، ملف 465 وثيقة عدد 27 بتاريخ 27 جمادي أولى سنة 1288 هـ / أوت 1871 ، وملف 462 ، وثيقة عدد 68 بتاريخ 9 شعبان 1269 هـ/ 29 جويلية 1879م وكلاهما رسالة من عامل صفاقس حسين الجلولي الى الوزير الأول .

(6) وثائق متحف الفنون والتقاليد الشعبية بصفاقس ملف 37 عدد 1251 ، بتاريخ شهر صفر 1238 هـ 18 أكتوبر 1822 .

بقيتهم الى صفوف المهاجرين العاطلين التائهين ، الجائعين الذين تنعتهم كراريس بيت المال بصفاقس بالغرباء .

ـ الاحداث السياسية بطرابلس :

في أواخر القرن الثامن عشر كانت الاسرة القرمانلية في تنازع على السلطة في طرابلس فانحلت أمور ولايتها وخرج الكثير من أهلها هروبا من الفتن وغوائلها (7) واستغل علي برغل الفرصة وكان بالجزائر ، فاستولى على السلطة في أوت سنة 1793، وفر علي باشا القرمانلي وأتباعه الى تونس، ولما خلا الامر لعلي برغل في طرابلس ، استولى على جزيرة جربة . واضطهد علي برغل الطرابلسيين ، وسلب ونهب ولم ينته الا بتدخل الدولة التونسية التي أرجعت السلطة الى أهلها بفضل جيوشها في شهر جانفي من سنة 1795 . ولم تهدأ الحالة في ولاية طرابلس بعدها الا مدة قصيرة ، اذ كان لسياسة يوسف باشا القرمانلي مردود سيء على الاقتصاد ، وتوالت الثورات الداخلية في الدواخل وفزان خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر (8) .

كان لهذه الاحداث ، تأثير مباشر على حركة الهجرة نحو البلاد التونسية . ومدينة صفاقس نظرا لعلاقاتها التجارية والتاريخية مع طرابلس ونظرا لكونها صارت القنطرة الاساسية بين ولاية طرابلس وايالة تونس بعد احتلال جربة من طرف علي برغل ، كان لها نصيب وافر من هؤلاء النازحين ، ومنهم عدد وافر من اليهود الذين تعرضوا لاضطهاد علي برغل أكثر من غيرهم (9) . ومن وثائق متحف صفاقس نجد رسالة من ابراهيم الحاراتي من طرابلس الى محمد غريس تشير الى بعض الطرابلسيين اللاجئين بهذه المدينة الذين تركوا مسقط رأسهم أثناء الاحداث القرامنلية ، وقد وقع في الرسالة الشطب على أسمائهم لسبب لا نعرفه (10) . واللاجئون الى صفاقس كانوا على مستويات عدة ، وقد احتضنت المدينة أرفعهم مستوى ، ورجع بعضهم الى طرابلس ، واندمج الآخرون في المجتمع الصفاقسي شيئا فشيئا دون أن يتركوا لنا في الوثائق ما يدل عليهم سوى ألقابهم التي ترجع الى أصلهم : طرابلسي ، غرياني ، الخ . أما الفئة العامة فكان مصيرها مصير الفئات الشعبية النازحة الى صفاقس : العمل في الاشغال الفلاحية بالنسبة لمن أسعدهم الحظ ، والتشرد بالنسبة لغيرهم .

---

(7) انظر ابن أبي الضياف ، اتحاف اهل الزمان .
ج . 3 ، ص 21 — 22 .

(8) راجع ليبيا منذ الفتح العربي ، لاتوري روسي ، ترجمة خليفة محمد التليسي ، دار الثقافة ، لبنان 1274 ص 322 وما بعدها

(9) نفس المرجع ص 311 .

(10) ملف 31 عدد 1135 .

- التدخل الاجنبي المتطور :

ارتبطت الايالة التونسية مع بلدان عربية بعلاقات تجارية أدت بالعديد من التجار المسيحيين الى الاستقرار فى أهم المدن الساحلية التونسية ، وخاصة تونس مركز الحكومة ، للقيام بشتى أعمالهم ، وفى تونس نظموا حياتهم فى اطار مجموعات أممية ، بدأت تأخذ أهميتها عددا ، وحركة ونفوذا ، واهمها المجموعة الفرنسية ، منذ القرن الثامن عشر ، وتلا ذلك خلال القرن التاسع عشر ، منذ 1916 ، تدخل غربى سافر ، مرتبط بتدهور الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى الايالة ، ومرتبط بنية الغرب الاستعمارية المرتبطة بدورها بالتقدم الصناعى ، والتنافس الحضارى للدول الغربية المتطورة ، كما هى مرتبطة بالتسابق بين هذه الدول . وقد أدت هذه الحالة الى تكاثر المسيحيين واليهود داخل الايالة وسيطرتهم على دوراتها الاقتصادية ، ومن جراء ذلك برز اليهود التونسيون بدورهم ، ومنهم من علا مقامه الى مستوى الاثرياء والاقوياء من بنى جلدتهم وكذلك من النصارى من ذوى النفوذ.

وقد عرفت صفاقس دخول المسيحيين اليها ودخول يهود أوربا خلال القرن التاسع عشر بعد سنة 1826 ، وقد سبقهم بقليل اليهود التونسيون ، المهاجرون اليها خاصة من الجنوب التونسى ، ويهود ولاية طرابلس للاسباب التى عرضناها سابقا . ولم يكن بصفاقس قبل ذلك ، حسب ما ترشدنا اليه الوثائق فى القرن الثامن عشر أحد من النصارى واليهود . فاليهود الذين عرفتهم صفاقس كعناصر من مجتمعها خلال الفترة الاولى من حياتها وعرف لهم حركة ونشاط تجارى دائبان مع البلدان المشرقية ، تركوها اثر احتلال النرمان لها فى القرن الثانى عشر ، اذ رأوا فى هذا الاحتلال وتغير الاوضاع بالبحر الابيض المتوسط خطرا على تجارتهم فتحولوا لى صقلية حيث بدت لهم القوة النافعة لهم (11) .

وخلاصة كل ما تقدم فان الوافدين الى مدينة صفاقس من المسلمين ، والذين استقروا وفرعوا بها ينتمون الى جهتها والساحل التونسى ، وقابس ، وجربة ، والقيروان ، وطرابلس . وأكثرهم عددا العناصر المنتمية الى قرى صفاقس : قرقنة ، المحرس ، وعقارب ، وأريافها من عروش المثاليث ونفات . ونذكر على سبيل المثال أسرا من هذه المناطق استقرت بصفاقس واندمجت فى مجتمعها مع الايام : التومى ، والبرشانى ، وكسودة .. من قرقنة (12) ، العكروت ، وبوشحيمة ، وشلغم من المحرس ، بن حليمة من حزق ، دربال وبن معلم وبن رحومة والزغيدى من المثاليث ، وعبد المقصود من سيدى مخلوف (13) .

(11) علي الزواري ، العلاقات التجارية بين صفاقس والشرق ، أطروحة دكتوراه ، المرحلة الثالثة بالفرنسية ، قدمت في جوان 1977 بجامعة اكس الفرنسية .

(12) وثائق الحكومة التونسية ، سجل 1021 ، بدون تاريخ .

(13) وثائق الحكومة التونسية ، ملف 1671 ، وثيقة عدد 1266 .

والغمقى وبشه من قابس ، والمزقيطى من المهدية ، وبوزقندة من المنستير ، وبن حسين من جربة . وبقى لبعضهم دلالة فى نسبه عن أصله كالمثلوثى ، واليوسفى ، والخشرمى (14) ، والشمتورى (15) ، والعايدى (16) . وعدد الجرابة كان محدودا فى صفاقس بالنسبة لحركيتهم الاقتصادية وحضورهم الجغرافى داخل الايالة المعروف عنهم . وعددهم فى قرقنة أكثر منه فى صفاقس (17). وقد فسر بعض المؤرخين قلتهم بصفاقس لاستئثار الصفاقسيين بمدينتهم . وكان جان غانياج J. Ganiage أكثرهم قطعا . ففى دراسته حول سكان الايالة التونسية التى اعتمد فيها سجلات الضرائب للدولة التونسية أعطى عدد الجرابة فى عدة جهات من الايالة التونسية ، وذكر أنه لا يوجد جربى واحد فى صفاقس خلال سنة 1857 ، واعتبر ذلك منطقيا لانه يرى أن الصفاقسيين المتميزين بقدرتهم التجارية ونشاطهم فيها لم يتركوا مجالا للجرابة بينهم (18) ، وهو غلط ، اذ أن الجرابة كانوا يأتون الى صفاقس ولهم نشاط بها ، وان كان محدودا ، ومنهم من استقر بها نهائيا . ولا أدل على وجودهم فى هذه المدينة من تعيين شيخ منهم بها يمثل الادارة فيهم وكان فى سنة 1276 هـ. / 1855 م. عمر بوكراع (19) .

أما بالنسبة للمهاجرين الاجانب عن الايالة ، فأكثرهم عددا الطرابلسيون . أما بالنسبة للشرق ، فقد ذكرت لنا الوثائق الحاج علي الملاخ بن علي « الشرقاوى أصلا » ، والحاج ابراهيم المصرى . ونعرف أن أسرة النيفر الصفاقسية المعروفة ، التى فرعت فى تونس العاصمة ، أتت اليها من مصر كما ذكر محمد مخلوف فى شجرة النور الزكية عند حديثه عن أبى عبد الله محمد النيفر . قال : « قدم جده أبو النور لحاضرة تونس من صفاقس وكان مقدم آبائه من مصر » (20) . وقبل ذلك قدم اليها من الاسكندرية ميمون الوفائى الذى أسس الطريقة الوفائية بصفاقس ، المتمثلة فى أسرة الكراى التى برزت مع سيدى علي ، وسيدى أبى الحسن خلال القرن السابع عشر . وبصفاقس مقام صغير داخل سور المدينة ينعت للشيخ المصرى الذى بقى لحد الآن نكرة . ولا شك أن العناصر التى قدمت من الشرق الى مدينة صفاقس قليلة العدد ، وكذلك العناصر التى قدمت اليها من الجزائر والمغرب . وقد

---

(14) نفس المرجع ، سجل 1671 بتاريخ 1266 هـ / 1849 .

(15) وثائق متحف صفاقس ، سجل 37 ، وثيقة عدد 1251 . صفر 1238 هـ / 1822 .

(16) وثائق الحكومة التونسية ، سجل 1021 ، ص 81 .

(17) مكرر نفس المصدر ، ملف 452 ، وثيقة عدد 12 .

(18) La population de la Tunisie vers 1860, داخل الدراسات المغربية Etudes Maghrébines باريس 1964 ، ص 186 .

(19) وثائق الحكومة التونسية ، ملف 432 ، وثيقة عدد 39 .

(20) شجرة النور الزكية ، محمد مخلوف ، دار الكتاب العربي ، ص 390 .

ذكرت لنا الوثائق بعض هؤلاء مثل سالم القبايلي (21) والحاج أحمد سوسى الذى أتى الى صفاقس من المغرب عبر تونس العاصمة ومعه طفلة صبية صغيرة السن ، عمرها 18 سنة وذكر أنه يريد الزواج بها (22) .

2) توزيع المهاجرين :

أ) المدينة المسورة :

احتضنت مدينة صفاقس عبر تاريخها العديد من المهاجرين الذين استقروا بها نهائيا . ومنهم من دخلها اثر تخريب الرقة وملول (23) بالساحل التونسي، أو عن طريق الجند والادارة مع الموحدين والعثمانيين . وبتعاقب الاجيال انصهرت هذه العناصر فى المجتمع الصفاقسى وانتمت اليه أسرها ، ومع الزمن صارت من أسر صفاقس العريقة ، ونسي الناس أن آل الملولى وعبد الناصر من ملول ، وآل المصمودى والهنتاتى من المغرب ، وآل المنيف من الاندلس ، وبن مراد ، ووالى ، والبرجي ، والقارة ، من الاتراك العثمانيين (24) . ونجهل كيف كان استقبال هؤلاء المهاجرين من طرف الصفاقسيين ، عند مجيئهم ، وفى أى ناحية من نواحى المدينة توزعوا باستثناء أهل الرقة الذين أسسوا حيا خاصا بهم ، وكيف تم اندماجهم فى المجتمع الصفاقسى لبعد الزمن وفقدان الوثائق المكتوبة .

وان كان هذا كذلك فان معرفة توزيع المهاجرين داخل المداينة وأحوازها بالنسبة للقرن الثامن عشر وما بعده أيسر لتوفر ما ضاع بالنسبة للماضى البعيد .

يبدو المجتمع الصفاقسى خلال القرن الثامن عشر وكأنه منغلق على نفسه لتجنبه العناصر الدخيلة عليه . ويتجلى ذلك باستئثاره بالمدينة داخل سورها، وتجنب مصاهرتهم ، والصفاقسى آنذاك يتجنب بصفة عامة مصاهرة الاسر الغريبة عن مجتمعه حتى ولو كان فى ديار الغربة . ولهذه الاسباب وكذلك لقلة المهاجرين الى صفاقس خلال القرن الثامن عشر لا نجد بالمدينة الا القدر اليسير من غير الصفاقسيين باستثناء المتعاملين مع الدولة من الاطر الادارية والعسكرية وهذا القدر اليسير يرجع الى القرى القريبة من صفاقس التى تعاملت معها منذ أقدم العصور : قرقنة ، والمحرس ، وعروش المثاليث من نواحي جبنيانة ، والحريبة ، وسيدى مخلوف . وتجدر الملاحظة ان العناصر الدخيلة تركزت على هامش الاحياء السكنية والاسواق ، فى طرف المدينة الشرقى ، بجوار السور من الداخل طبعا .

(21) وثائق متحف صفاقس ، ملف عدد 1233 ، ربيع أول 1121 هـ / 1709 .
(22) نفس المرجع ، ملف 454 ، وثيقة عدد 142 ، 5 رجب 1248 هـ / 11 ديسمبر 1831 .
(23) محمد بهلي النيال ، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي ، مكتبة النجاح ، تونس 1965 .
(24) وثائق الحكومة التونسية ، سجل عدد 1021 .

الربع	جملة السكان	القاطنون بالربع	القاطنون بالغابة	الوافدون المولودون بالمكان	النسبة المائوية	أصولهم
الرقة	586	485	64	36	6،14	قرقنة 20 . قابس 3 . المهدية I . المنستير I . جربة I . الجم I . المحرس I ولم يذكر السجل بقية الوافدين القاطنين بالرقة .
الحميدية	583			20	3،44	قرقنة 14 . منستير I . جربة 2 . الجم I . القيروان I ولم يذكر السجل بقية الوافدين القاطنين بالمكان .
الحصار	752			34	4،52	قرقنة 12 . طرابلس 20 ولم يذكر السجل بقية الوافدين القاطنين بالمكان .
القصر	575			33	5،74	قرقنة 16 . قابس I . القيروان 5 . عقارب 4 ولم يذكر السجل أصل البقية .

وأخذ هذا الوضع يتغير شيئا فشيئا بتغير الاوضاع التى أشرنا اليها خلال القرن التاسع عشر ، حيث تكاثر عدد المهاجرين الى صفاقس ، وانفتح المجتمع الصفاقسى شيئا ما . ومن أهم أسباب انفتاح المدينة للمهاجرين التطور الذى حصل فى السكن الصفاقسى . كان الصفاقسى فى القرن الثامن عشر يسكن المدينة بصفة قارة ، وينتقل الى مسكنه الثانوى ، البرج ، فى الجنان ، بأحواز المدينة لمدة أشهر الصيف . وفى القرن التاسع عشر ، توسع البرج ، وصار محلا قارا للسكنى ، التجأت اليه عدة أسر لتقيم فيه باستمرار لرحابه الواسع ومرافقه الصحية ، وقربه من الاراضى الفلاحية التى لا يوفرها المنزل بالمدينة . والتحول السكنى ، ولو أنه جزئى ، أفضى بعض المنازل بالمدينة ، وفتق الحواجز الاجتماعية ، وحرك الملكية . وهكذا دخل الاجانب المدينة ، مسلمون ويهود ، للعمل بها . ومن المسلمين من استقر بها ، ولكن ذلك لم يتم بصفة عامة الا بعد فترة اقامة خارج سور المدينة للتأهل ، والتعود والتأنس ، تطول مدتها أو تقصر حسب قدرة أصحابها على فرض وجودهم الاقتصادى والاجتماعى . وتذكر لنا وثائق الحكومة التونسية عددا منهم ، فى نطاق تعداد سكان المدينة المسورة الخاضعين للضرائب • وفيما يلي قائمة أبناء الوافدين المقيمين بأحياء المدينة حيا حيا : من نصف القرن التاسع عشر اعتمادا على سجل الضرائب بارشيف الحكومة عدد 1021 .

ب ـ الربض القبلي :

وكما أشرنا لما ضاقت المدينة بسكانها طلب أهل صفاقس من علي باشا بن حسين بن علي الاذن لهم فى استغلال المساح المحاذى لسور مدينة صفاقس من الخارج من الناحية القبلية ، بجوار المرسى . فأذن لهم بذلك سنة 1189 هـ./ 1775 م. فبدأت بذلك نشأة حى جديد ، سوره مسند الى سور المدينة ، وبه أربعة أبواب . واكتمل عمران هذا الحى واكتملت حركته خلال القرن التاسع عشر ، محاكيا المدينة التاريخية فى هندستها وتلاصق عمارتها . وبدأ فى أول أمره كمتنفس اقتصادى وديمغرافى للمدينة ، فاستغله التجار الصفاقسيون ، والخبازون ، والطحانون ، للعمل به ولخزن البضائع ، كما استغله بعض الصفاقسيين لاقامة مبانى للسكنى وقع كراؤها فى أغلب الاحيان لغير الصفاقسيين المرتبط عملهم بالبحر ،من أهل جربة وقرقنة ، ثم التجأ اليه اليهود والمسيحيون من فرنسيين ، وايطاليين ، ومالطيين .. عملا ومسكنا ، وكثر عددهم به على مر الايام حتى صار يعرف بهم وينسب اليهم •

ت ـ الارباض الشمالية :

لقد كان الوافدون من التونسيين والطرابلسيين والمسلمين ، من الفئات الشعبية المتعلقة ببعضها والتى ليست لها امكانيات تأهلها للسكن بالمدينة أو بالربض القبلى تسكن فرادى كعسس فى معاصر الزيتون ، أو تخيم خارج المدينة من جوانبها الشرقية والشمالية • وتشير وثائق الحكومة التونسية الى

وجود مخيم من هذا النوع متكون من خيام وأكواخ حطبية مستند الى السور الشرقى من الخارج ، سيء الحالة . أما المخيمات الاخرى التى تركزت فى شمال المدينة ، قرب مواجل الناصرية ، فقد تحولت شيئا فشيئا الى أرباض عشوائية خلافا للربض القبلي • وقد عرفت بربض القوابسية ، وربض العوايد ، نسبة الى أصول سكانها . وقد التجأ الى هذين الربضين غير العوايد وغير أهل الاعراض من الوافدين .

ج ــ قرية العبيد :

ذكر لنا ادوارد السابق ذكره أنه توجد بقرب أسوار مدينة صفاقس قرية يسكنها السود (25) تشبه القرية القريبة من طرابلس . ولم نعثر على هذا الخبر فى أى موضع آخر ، ويجب ربما تقريبه مما نعرفه بالمشاهدة عن السمراء وجوانبها السكنية . ففى الركن الشرقى الشمالى من سور المدينة نجد حصنا يعرف بالسمراء ينعت لامرأة متعبدة من السود ، لا نعرف عنها شيئا من الناحية التاريخية . وحول هذا الحصن ، داخل المدينة ، تجمعت بعض أسر من السود لتعلقها بصاحبة الرباط . فهل هذا التجمع السكنى هو الذى نعته رأى بقرية السود ؟ ربما • ومهما يكن من أمر فلا يجب أن يذهب بنا التفكير ان صح هذا أن السود يسكنون هذه القرية فحسب . فوثائق متحف صفاقس وبعض الوثائق الخاصة تشير الى أن السود ملكوا وسكنوا بالجنات والارباض متفرقين (26) . فسليمان بن عبد الله الجناوى مثلا كان « من سكان ربض صفاقس الجوفى » (27) .

ح ــ الغابة :

تنعت أحواز صفاقس القريبة منها بالغابة وهى متكونة من بساتين ــ الاجنة باللغة الصفاقسية ــ مشجرة ، وبكل واحد منها مسكن ــ البرج ــ اتخذ منذ القرن التاسع عشر مسكنا قارا كما أشرنا . وتمكن أبناء الوافدين بالمكان الذين وصلوا الى حظوة اجتماعية وقدرة مالية ذات مستوى من امتلاك بساتين بأبراجها سكنوها متجاورين مع المالكين الصفاقسيين حسب اقتضاء سوق الملكية .

خ ــ الهامشيون :

تشير وثائق بيت المال القليلة ، التى بقيت لنا عن صفاقس (28) الى فئة من سكان هذه المدينة ، تنعتهم بالغرباء فى حساباتها المتعلقة بذمتهم • وتعنى بهم السكان المنبثين الذين ليس لهم كفيل يكفلهم ، وأغلبهم من المتشردين ،

(25) المصدر السابق ، ص 174 .

(26) وثائق العدل محمد الجموسي .

(27) وثائق متحف صفاقس ، ملف 50 ، وثيقة عدد 2251 .

أطفال ، وكهول ، وشيوخ ، إنـاث وذكـور ، منهم الصفاقسى ، والجربى ، والقرقنى ، والطرابلسى ... ومنهم أيضا المجهولون الذين لم يتمكنوا بعد من ربط علاقات اجتماعية واقتصادية ، ومنهم من كان له شبه مأوى خاص به ، ومنهم من كان متشردا تشردا كاملا ، يعيش على هامش المجتمـع وأنظمتـه وحركته ، يعيشون عيشة سيئة ، ملجأهم فى الليل مخابىء سور المدينة ، والمساجد ، والاضرحة ، والاماكن العامة . فسجلات بيت المال تذكر بصريح القول وجودها لجثث الغرباء فى هذه الاماكن ، وبالتحديد فى زاوية القلال ، ومقام المرابطة زحافة ، وضريح الشيخ عمـر كمـون ، وضريح سيـدى أبى الحسن اللخمى ، ومسجد سيدى عباس ، وقهوة السوق ، وفندق المحصولات ، وفندق الحدادين ، والازقة الضيقة بالمدينة .. وأكثر الغرباء حظا لم يكن يملك أكثر من ملابسه ، وماعون طبخه وأكله ، مثلهم كمثل الحاج علي الغربى الذى كان يعيش وحيدا وترك بعد حياته ، ملابس من النوع الصفاقسى ، وماعون طبخ وأكل باعتها بيت المال بقيمة 53 ريال صرفتهم أجورا لدفنه كما يلي :

5 ريـالات قـانون ودلال
25 ريـالات أجـر قبـار
4 ريـالات أجـر وفـاة
3 ريـالات أجـر عـون
10 ريـالات أجـر النـائب والوكيـل
6 ريـالات أجـر عـدول (29)

وفيما يلي : عدد الغرباء الذين تكفلت بدفنهم بيت المال من أوائـل رجـب 1288 الى 22 رمضان 1290 هـ. / 25 أوت 1873 (30) .

الأصـل	رجـال	نسـاء	أطفـال	الجملـة
صفـاقسيون	3		3	6
عـرب	6	4	9	19
طـرابلسيون	17	6	5	28
قـرقنيون	1			1
سـود	9	2		11
مجهـولون	14	5		19

(28) وثـائق متحف صفاقس ، سجل 67 ، وثيقـة عدد 2356 و 2357 .
(29) وثـائق متحف صفاقس ، ملف 67 ، وثيقـة عدد 2357 .
(30) « « « ملف 67 ، وثيقـة عدد 2356 .

وكما نلاحظ فان أكثر الوافدين انبتاتا ، هم الطرابلسيون ، ومنهم من كان يلقى حتفه عند انتهاء سفره بالمرسى ولم يدخل المدينة بعد .

3) دور المهاجرين فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية :

أ) دور المهاجرين المسلمين :

كما لاحظنا فان الوافدين على صفاقس كانوا متنوعى الاصل ويصعب التعرف على عددهم ولو فى فترة ما من تاريخ المدينة ، وسجلات الحكومة التونسية المتعلقة بالضرائب هى الوسيلة الوحيدة التى يتعين اللجوء اليها اذا أردنا المحاولة والاجتهاد . ومن محاسنها أنها فى بعض الحالات تبين عددهم فئة فئة طبقا لاصولهم أو مهنهم . وأهم عائق يعترض الباحث ، ويبعده ، عن الوصول الى معرفة الحقيقة أنها لا تضبط العدد الكلى للوافدين بل تبين فقط عدد البالغين من الذكور . وأهم هذه السجلات ، السجل المرتب تحت عدد 1021 ، وهو كما أشرنا اليه سالفا بدون تاريخ . ومن المرجح أنه يرجع الى منتصف القرن التاسع عشر . وعدد الوافدين فى هذا السجل بعد أن جمعنا عدد مختلف الفئات الى بعضها يبلغ 482 رجلا بالغا منهم 75 من السود ، ولو اعتبرنا هؤلاء الرجال أرباب أسر ، فيكون اذ ذاك العدد الجملى للوافدين غير بعيد عن الالفين باعتبار معدل أربعة للاسرة الواحدة . واذا اعتبرنا هذه النتيجة قريبة من الواقع ، فانهم يمثلون نسبة 15،40 % من مجموع سكان صفاقس المسلمين على أساس أن هذا المجموع يصل فى منتصف القرن التاسع عشر الى 13000 تونسيا تقريبا .

لقد كان الوافدون بصفة عامة يكونون جاليات مرتبطة الافراد ولكنها متفتحة على غيرها ، يميزها عن أهل صفاقس اللباس ، والمأكل ، واللهجة ، وتضيع هذه الميزات فى خضم الحياة اليومية ولا يلاحظها الاجنبى عن المدينة ، مما جعل ادوارد راى وغيره من الرحالين الاجانب يؤكدون أنه ليس بمدينة صفاقس أغراب كثيرون (31) .

وقد أرشدتنا وثائق متحف صفاقس الى حالة بعض العملة من عامة الوافدين ، فمن الطرابلسيين من كان حمالا ، و « حباسا » (32) ومن أهل عقارب من كان « صبايحيا » ... ، وقد استقطب العمل الفلاحى أكثر الوافدين وقاموا به لفائدة المالكين الصفاقسيين . وتنص بعض الوثائق على أن الاتفاق بين المالك والعامل يتم لسنة كاملة من العمل الفلاحى المتنوع ويسميه المالك كراء ، ويصرف الاجر للعامل فى صغة نقدية ، وملبوس . وفى أكثر الاحيان يضمن المالك المسكن للعامل . جاء فى سجل أحد أفراد أسرة النورى الصفاقسية ما يلى :

---

(31) المصدر السابق ، ص 169 .

(32) وثائق الحكومة التونسية ، سجل عدد 1021 .

لما كان في رمضان سنة 1275 هـ / أفريل 1858 اكترينا خداما اسمه مسعود بن علي بن عبد الله الطرابلسي الغرياني بالعام بكراء قدره 70 ريال تونسية صغرى مع كدرون ، وحرام ، و 2 سواى ، و 2 كشط ، و 2 سراول ، و 2 بلغة (33) واكترى آخر محمد بن علي الطرابلسي بالعام سعر العام 25 ريال مع حولى وكدرون وبلغة (34) • ولا يجب أن يذهب بنا التفكير الى أن الوافدين كانوا كلهم على هذا المستوى الاجتماعى والدور الاقتصادى . ولا شك أن بعضهم قام بدور اقتصادى هام ، ووصل الى مدارج عليا من السلم الاجتماعى ويتجلى ذلك فى عدد وقيمة الممتلكات التى كانت لبعضهم المتمثلة فى محلات سكنى وأراض فلاحية .

وما دام الوافدون فى مرحلة استقرارهم الاولى ، فان الروابط الاجتماعية تبقى منحصرة بين أفراد فئة واحدة وبين فئات متجاورة لها نفس المستوى ، وعلى نفس الوتيرة تقع المصاهرات ، مثلا : تزوج علي بن عطية عشير الخشارمة فطومة بنت عمار بن الحاج مبروك المرعوى من أولاد السلافى المثلوثى (35) ، وفى بعض الاحيان تكون الاسرة الصفاقسية سببا فى زواج اثنين من أجيرين فى خدمتها ، ينتميان الى فئتين مختلفتى الاصل ، ومن الممكن أيضا أن تتسبب أسرتان صفاقسيتان فى زواج أجيرين فى خدمتهما ينتميان الى فئتين مختلفتى الاصل كذلك . مثلا : تزوج « حمدة الطرابلسى أجير عند محمد بن الحاج محمد المسدى فاطمة القرقنية كانت تخدم سابقا بدار المرحوم الشيخ المفتى أبى فارس عبد العزيز الفراتى » (36) . أما الوافدون الذين انقضت على هجرتهم أجيال وفرضوا وجودهم مع طول المدة فقد اقتربوا من المجتمع الصفاقسى ثم اندمجوا فيه كليا وابتعدوا بعد الصفاقسين عن الجاليات الوافدة قريبا .

وحالة السود قبل عتقهم وبعده تختلف شيئا ما عن حالة بقية الوافدين ، لقد كان الصفاقسيون يسخرون العبيد لشتى الاعمال المنزلية والاقتصادية ، وامتلاكهم كان عن طريق الشراء ، أو الورثة أو الصدقة أو الهدية ... وقد ذكرت لنا عقود الزواج بصفاقس أن أسرة الفتاة المخطوبة كانت (فى عهد الرق) تشترط على أسرة العريس زيادة على الحلى والملابس ومختلف الهدايا : « أمة من وسط وخش رقيق السودان وأعدلهن فى القوام والاسنان » (37) لتكون فى خدمة العروس بعد عرسها • والخادم من الهدايا التى يمكن للزوج أن يقدمها لزوجته فى أى وقت من حياتها ويكون ذلك

(33) وثائق متحف صفاقس ، سجل 14 .
(34) نفس المصدر .
(35) نفس المصدر ، ملف 87 ، وثيقة عدد 2586 .
(36) نفس المصدر ، ملف 85 ، وثيقة عدد 2549 .
(37) عقد زواج على ملك أسرة شيخ روحة .

بصفة عامة تحت كساء الدين ، فتنعت الهدية اذ ذاك بالصدقة (38) ، وتستغل الخادم كمرضعة أيضا • واستعمال السود كان مظهرا من مظاهر الثراء والتفاخر كما تشهد به بعض أغاني الاعراس :

يا سعدى بوليدى كان مع العراسة روحلي عقب الليل
يلقى الميمة قاعدة ويقوللها صباح الخير
لابس زوز كساوى وجبة الحرير
يلقى الوصيفة واقفة تنقز تنقيز
ويلقى الوصيف واقف يعقل فى البعير
ويلقى العروسة راقدة فوق فرش الحرير

وكذلك :

مشى العروسة قدم قدم ما بين عشرة من الخدم

وكذلك أيضا :

يا خادمة ارمي الطبق   سيدك على الباب دق

ولا نعرف كيف كانت معاملة الصفاقسيين للعبيد ، ونظن أنها كانت معاملة في جملتها طيبة ، غير أن محمود مقديش ، يذكر في نزهة الانظار أن ضحايا الطاعون فى سنة 1199 هـ • / 1789 م• كان أشد بين العبيد ، وقد يشير هذا الى سوء مقاومة أجسامهم التى لا تجدد قواها كما يجب لسبب العمل أو لسوء التغذية •

وبعضهم كان يحظى لسبب ما بالعتق والحرية : فالعتق ابتغاء مرضاة الله ، وثواب الأخرة من بين هذه الاسباب ، وكان ذلك يتم فى حياة العاتق أو بعد مماته تطبيقا لوصيته . ويتم العتق كذلك اثر بشرى مسرة أو حدث سعيد ، كما تشير اليه بعض أغانى الاعراس :

يا عروس ما هى اللي جات   دخلت للسقيف
يا عروس على عينيها   اعتق الوصيف

وبعد تحرر العبيد اندمج البيض منهم شيئا فشيئا فى المجتمع الصفاقسى دون ان يتركوا أثرا يدل عن أصلهم .. ومما سهل ذوبانهم في المجتمع الصفاقسى صعوبة تجمعهم لتفرقهم وتعدد أصولهم ، وتقارب جنسهم مع الجنس التونسى ، وكان بعضهم قد تربى على الطريقة الصفاقسية ، كما دخلت بعض الجوارى الفاتنات مخادع الموسرين من الصفاقسيين خليلات وزوجات

(38) تصدق المذكور على زوجته المدخول بها ام الحسين بنت علي الجلولي بسالمة الشوشانة ابنة عبده قارة على صدقة تامة ... » .
وثائق متحف صفاقس ، ملف 84 وثيقة عدد 2528
9 حجة 1137 هـ / أوت 1724 .

مفضلات وهكذا تم التقارب والتناسل بينهم ، وقد حظي جلهم بالالقاب الصفاقسية هبة وحظوة أو ولاء •

أما وضع السود فيختلف شيئا ما عن هذا ، فمن السود من تلقب بلقب الاسرة التى كان يتبعها (39) ، ومنهم من تلقب بما يشير الى موطنه الافريقي، مثلا : الشموشان علي تنبكتو (40) ، وأكثرهم كان ينسب الى جنوة وينسب الى أب مجهول تنعته الوثائق دائما بعبد الله . مثلا : سعد بن عبد الله الجناوى (41) ، قار علي بن عبد الله الجناوى (42) ، بركة بن عبد الله الجناوى (43) ، مسعودة بنت عبد الله الجناوى (44) • أما الاسماء فهي الدارجة في صفاقس مثل محمد وسليمان وعلي وسليم أو المميزة الخاصة بهم مثل : بلخير، ومهدى وسعد ومسعود ومسعودة وبركة وسالمة ، وكأنها تطلق للتبرك وشوشان وشوشانة التى صارت مرادفة للاسود ، ولقب جناوى لم يعد له أثر بين الالقاب الصفاقسية .

والبشرة والاصل الافريقي ، وحالة العبودية قبل التحرر عوامل أساسية فى تقرب السود الى بعضهم ، أو تكوين مجموعة لها لكنتها اللسانية ، وعاداتها فى الزينة ، والتطيب ، والفن الموسيقى والرقص ، ثم التعلق بولى من أولياء صفاقس المشهورين وكان أسود اللون ، وهو المعروف بسيدى منصور ، صاحب الضريح القائم على ساحل البحر على بعد 11 كلم شرقى صفاقس فى القرية التى تحمل اسمه .

وبعد أن تحرر العبيد السود دخلوا بصفة كاملة فى المجتمع الصفاقسى يعملون ويملكون المنزل والارض الفلاحية حيث أمكنهم ذلك ، ويتعاملون مع أهل صفاقس اقتصاديا بدون تمييز (45) • ويدفعون الضرائب ، ويتزوجون فيما بينهم . مثلا : « تزوج سعد بن عبد الله الجناوى معتق محمد الزوش منة بنت عبد الله الجناوى معتقة محمد ومحمود ولدى الشيخ المفتى ابن عبد الله محمد حمزة بصداق قدره 150 ريال تونسية وقتية صغيرة وجبة قيمتها خمسة وثلاثون ريالا من النعت كالبناء عقد نكاحها » (46) .

(39) وثائق الحكومة التونسية ، وثيقة عدد 113 .
تذكر الوثيقة 54 عبدا في قضية ضرائب كلهم معتقون بعض له أسماء صفاقسية ، فندري ، فراتي ، كشو ، وبعضهم له اسماء من الوافدين من قرقنة أو جربة وغيرهما ، خوفي ، جربي ، غدامسي ...
(40) وثائق متحف صفاقس ، ملف 6 عدد 351 .
(41) نفس المصدر ، ملف 59 ، وثيقة عدد 2221 .
(42) نفس المصدر ، ملف 84 ، وثيقة عدد 2528 .
(43) نفس المصدر ، ملف 92 ، وثيقة عدد 2672 .
(44) وثائق العدل احمد الجموسي .
(45) وثائق متحف صفاقس ، ملف 81 ، وثيقة عدد 2444 .
(46) نفس المصدر ، ملف 59 ، وثيقة عدد 2221 .

ولانهم يكونون مجموعة متميزة ، جعلت حكومة البايات مسؤولا عنهم ، لا شيخا كبقية المجموعات المهاجرة ، بل قائدا يعرف بقائد العبيد له نائب ينوبه ، وتسميه بعض وثائق الحكومة بقايد الوصفان (47) . ومن جوانب دوره ارجاع العبيد الفارين الى أصحابهم (48) ، ثم بعد تحررهم جمع الضرائب المتعلقة بهم .

ومن رسالة استفسارية من عامل صفاقس حسين الجلولى الى الوزير الاكبر مصطفى بن اسماعيل نفهم ان الضرائب تصنف العبيد ، اذ : « أن حكم الذين ولدوا بصفاقس ونشؤوا بها واستمروا على السكن بها يكون كحكم أهلها . أما العبيد الذين جلبوا اليها فمطالبون بأداء المجبا (49) • وكانت الضريبة المتعلقة بهم تساوى سنة 1287 هـ. / 1870 م. ستة ريالات » (50) .

ب – دور المهاجرين اليهود والنصارى :

لقد أشرنا فيما سبق أن دخول اليهود والنصارى الى مدينة صفاقس تم خلال القرن التاسع عشر ، ذكر جان قانياج J. Ganiage أن عائلات ثلاث نصرانية ، هي الاولى من نوعها دخلت صفاقس بين سنتي 1830و1835 (51) • ونعتقد من جهتنا أن دخول أول أسرة مسيحية الى صفاقس تم قبل ذلك بست سنوات اذ أن القنصل الفرنسى بالعاصمة سمى نائبا له بصفاقس فى 24 أكتوبر 1824 وهو جيروم كيجرولو (52) Jerôme Quejrole وقد كثر عدد اليهود والمسيحيين وقويت شوكتهم على مر الايام ، فى اطار الحالة التى آلت اليها الايالة التونسية .

والمسيحيون فى صفاقس متعددو الجنسيات واكثرهم عددا المالطيون وهم من الرعايا الانقليز ، والايطاليون ومن بين رعاياهم اليهود الذين أتوا من القرنة . والايطاليون كثرت هجرتهم أثناء الحروب والحركة التى كانت تستهدف توحيد ايطاليا . وترعى الجاليات المسيحية ، المتفاوتة العدد والمصالح ، نيابات قنصلية ، ذكرتها لنا الوثائق ، وهى عديدة ، فحتى منتصف القرن التاسع عشر نجد نيابة قنصلية فرنسا ، وانقلترا ، والنمسا ، والامريكان ، والسويد ، ونابلى . ولا نعرف بالضبط متى أنشأت هذه النيابات القنصلية وكيف تطورت . فمعرفتها تتطلب بحثا طويلا . وأشهر

(47) وثائق الحكومة التونسية ، ملف 465 ، وثيقة عدد 83 .

(48) أتى في رسالة من محمد بن محمود النوري الى محمد حامد النوري وهي بدون تاريخ = « والواصل لكل اذن من الشيخ الإمام احمد الفحام في تسليم عبده الذي كان فر منه تبق تتسلموه من قايد العبيد ... » وثائق متحف صفاقس ملف 2 وثيقة عدد 10 .

(49) وثائق الحكومة التونسية ، ملف 457 ، وثيقة عدد 35 .

(50) نفس المصدر ، ملف 456 ، وثيقة عدد 113 .

(51) السكان في تونس La population tunisienne هامش صفحة 185 .

(52) بلانتي Pantet ج III ص 683

وكلاء القناصل بصفاقس أ. اسبينا الذى قام بمهمته فيما بين سنة 1849 وسنة 1858 ، وقريبه جان هنرى ماتايى J.H. Mattei وهو تاجر يتعامل مع كبار تجار مرسيليا ويسوق الى هذه المدينة الاصواف والزيوت والقموح وقد وقعت تسميته فى تلك السنة بالذات (53) .

وفى حدود سنة 1856 وصل عدد الرعايا المسيحيين الى 500 نسمة حسب تقييم دينان Dunant (54) وهو الرقم الذى يعتمده جان قانياج فى دراسته حول السكان بالايالة ، ووصل عددهم فى سنة 1860 الى 600 وفى سنة 1870 الى 720 نسمة (55) وقد بنيت لهم كنيسة فى سنة 1841 . ويؤكد نائب قنصل بلجيكا أنيبال ماتايى Annibal Mattei فى تقريره أن عددهم وصل سنة 1872 الى ألف نسمة مؤكدا أن جلهم من المالطيين والايطاليين وبعض الفرنسيين مقابل 2500 يهودى ، و15000 من السكان المسلمين (56) •

والمسيحيون على مراتب ، اشتغل المالطيون بأعمال البحر ، وتهريب البضائع ، والتجارات الصغرى بينما اشتغل الفرنسيون بالتجارة الكبرى المعتنية خاصة بتصدير الزيوت والاصواف والقموح وأهمهم طوماس ماتايى ، وابنه هانرى الذى أصبح نائبا لقنصل فرنسا كما أشرنا ، كما اهتم صغارهم بالتجارة التفصيلية التى تهتم ببيع وترويج المستوردات من أوربا المتعلقة بالحياة اليومية خاصة .

وعدد اليهود أكثر فقد ذكر لنا الرحالة اليهودى بنيامين الثانى J.J. Benjamin II الذى زار صفاقس فى سنة 1853 أن هذه المدينة تعد حوالى 150 أسرة يهودية ، لها داران للصلاة (57) • وقد بلغ عدد اليهود فى حدود سنة 1860 : 1800 نسمة • واليهود على فئات أيضا: اشتغل اليهود النازحون من طرابلس والجنوب بصفة عامة بالصياغة (58) والخياطة وأضافوا الى هذه الصناعات فى مدينة صفاقس فنونا وألوانا أخرى ، ومن حاذقى الصياغة يمكن أن نسمى معتوق بوخريص (59) ، كما اشتغلوا بائعى أقمشة

(53) انظر اندري مارتيل André Martel
Notes autobigraphiques : les origines d'un vice consul de France à Sfax A. D'Espina, (1819'1867), les cahiers de Tunisie
سنة 1959 عدد 28 .

(54) الإيالة التونسية La Régence de Tunis تونس 1975 ، ص 234 .

(55) قانياج ، المصدر السابق ص 185 .

(56) Recueil consulaire

(57) بول سباغ Paul Sebag. Les Juifs de Tunisie, au XIX siécle, les cahiers de Tunisie
سنة 1959 عدد 28 ص 497 .

(58) وثائق متحف صفاقس ملف 2 وثيقة عدد 70 .

(59) وثائق الحكومة التونسية سجل 1702 .

بالتجول وفى الحوانيت • أما اليهود الوافدون من القرنة فهم فى أعمالهم أقرب الى الفرنسيين ، اذ اشتغلوا بالتجارة الكبرى . وقد ذكر لنا الرحالة اليهودى بنيامين أنهم كانوا يقومون بأعمال تجارية كبرى مع تونس العاصمة ومالطة وايطاليا . واشتروا من الحكومة لزمات مختلفة ، أهمها لزمة تقطير الشريح وتسمى أيضا لزمة البوخة (60) ، ولزمة الرحبة التى تباع فيها الحبوب ، ولزمة المحصولات وقد اشتراها لسنين عديدة الياه الصباغ ، ونابوا الدولة فى الضريبة المعروفة بالخروبة ، وقد اشتراها فى سنة 1282هـ./1865م. جورجو طابية (61) ، والياه الصباغ حسب تعبير الرحالة بنيامين الثانى الذى نزل عنده فى رحلته ثرى جدا (62) .

واشترك اليهود والمسيحيون فى المعاملات التجارية والمالية بالرباء ، وأدت بالعديد من الصفاقسيين والمثاليث أصاغر ووجهاء بالتداين لديهم ثم فقدان أملاكهم لفائدتهم عندما عجزوا عن تسديد ديونهم . والامـلاك التى تحولت لفائدتهم متنوعة : أراض فلاحية ، وأغنام ، ومنازل وحوانيت الخ. ودخلوا المدينة المسورة للعمل بها ، فـراحمين الجـربى كـان يبيـع الملـح بسـوق الجمعة (63) ، واكترى آخر مخبزة (كوشة) للرحى وانضـاج الخبـز (64) . وسهلت الملكية للمسيحيين منذ سنة 1863 لما اعترف لهم الباى بحقها . وفى رسائل عمال صفاقس والمثاليث للوزير الاول اشارات الى كثرة ديون رعاياهم لدى النصارى واليهود (65) .

وكانت العلاقة بين الصفاقسيين من جهة واليهود والنصارى من جهة أخرى طبيعية فى أول أمرها ، لكن تكاثر عددهم واستفحال نشـاطهم ابتـداء من منتصف القرن التاسع عشر ، وتداين الصفـاقسيين لـديهم ومـزاحمتهم فى الاعمال التجارية تسبب فى ضغينة أهل البلد لهم اشتدت مع الشعور بالعجز ومجاملة الدولة لهم . وتجلت هذه الضغينة فى الخصومات والمشاجرات الدامية بينهم وبين أهل المدينة ، كما تجلت أثناء ثورة 1864 ثناء المقاومة للاحتلال الفرنسى سنة 1981 اذ كان اليهود والنصارى هدفا من أهداف المقاومة •

د• عـلـي الـزواري

---

(60) نفس المصدر ، ملف 450 ، وثيقـة عدد 159 .
(61) وثـائق متحف صفاقس سجل 24 .
(62) بـول سبـاغ Paul Sebag المصدر السـابق ص 198 .
(63) وثـائق متحف صفاقس ، سجل 14 .
(64) المصدر ، سجل 14 .
(65) وثـائق الحكومة التونسية ملف 466 ، وثيقـة عدد 18 .


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



مجتمع قسنطينة في كتاب منشور الهداية للفكون
(القـرن 11 هـ / 17 م) (*)

ابو القاسم سعد الله

1 ـ التطور السياسي :

عندما ولد عبد الكريم الفكون سنة 988 هـ (1580م) كان قد مضى على الحكم العثماني في قسنطينة حوالي نصف قرن ، وحوالي ثمانين سنة في الجزائر كلها . ولم يكن هذا العهد عهد استقرار سياسي أو ازدهار اقتصادي الا تجوزا. فالقرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري) كان قد عـرف في تـاريـخ الشرق والغرب بأنه عصر الصراع الاسباني العثماني في الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط . ولكننا لن ندرس هـذا الصـراع ولن ندخـل في موضوع العلاقات الدولية ، الا بالقدر الذي ينعكس عـلى اقليمنا (قسنطينـة) وشخصيتنا التي نترجم لها (عبد الكريم الفكون) . أما الذي يهمنا بالدرجة الاولى في هذا المجال فهو وضع اقليم قسنطينة سياسيا أثناء حياة الفكون وكيـف شارك هو في هذا الوضع ايجابا او سلبا .

ولكن الحكم العثماني في قسنطينة لم يبق حكما مباشرا . فهناك فتـرة لا نجد فيها حكومة الجزائر العثمانية تتدخل مباشرة في تعيين الحكام هناك ، وربما كان أهل البلد هم الذين يختارون من بينهم قائدا ترضى عنه السلطة في الجزائر . وكانت هذه السلطة تكتفي في الولاء بوجود قاض يدير الاحـكـام باسمها ، وبوجود حامية صغيرة من الجيش والدعاء للسلطان العثمـاني في الخطبة . وأقدم وثيقة تتعلق بوظيفة القاضي تعود الى سنة 948 (1541 م) ، اذ أن الشيخ عمر الوزان ، الذي سيتحدث عنه الفكون (1) ، قد اعتذر لباشا الجزائر في ذلك التاريخ عن تولي ذلك المنصب . ولا شك أن الباشا ، الذي هو حسن آغا نفسه ، قد قبل الاعتذار وعين عالما آخر من علماء قسنطينـة ، باقتراح من الوزان ، وهو قاسم الفكون جد مترجمنا والمتوفى سنة 965 .

وتوضح وثيقة اعتذار الوزان عن القضاء أمـرين هـامين ، الاول تبعيـة قسنطينة للسلطة العثمانية في الجزائر منذ ذلك التاريخ (948 هـ / 1541 م)، والثاني عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي في المدينة . وتدل عدة حوادث أخرى على الامرين معا . فحاكم قسنطينة (الذي لا نعـرف اسمـه) وأهلهـا

(*) بحث مستخرج من كتاب (شيخ الإسلام : عبد الكريم الفكون) ، وهو جاهز للطبع .

(1) توفي الوزان سنة 965هـ ، وقد ترجم لـه الفكون في كتابـه (منشور الهداية) .

اشتركوا سنة (1563/971) في الهجوم على وهران ضد الاسبان . كما عرفت مدينة قسنطينة عدة ثورات داخلية . منها ما حدث سنة (1567/975) ضد الحامية العثمانية .

والواقع أن الثورات لم تكد تتوقف في اقليم قسنطينة حتى بعد أن استقر الوضع للعثمانيين وأصبحوا يعينون حكامهم (البايات) بانتظام . وقد كثرت هذه الثورات حتى أصبح من الصعب احصاؤها وتحديد آمادها. فمنها ما كان يحدث داخل المدينة نفسها نتيجة تنافس العائلات أو ظهور شخصيات صوفية طموحة ، أو حوادث عامة تهز المدينة وتقسم الرأى العام ، ومنها ما كان يقع في الاقليم بين أهل الريف نتيجة السخط من الضرائب والتأثر بالعزل ، وغضب بعض المرابطين . وها نحن نسوق أمثلة بعينها مما ساقه الفكون نفسه في كتبه . من ذلك ثورة سنة 975 التي يسميها الفكون (فتنة الترك) ، وهي الثورة التي كاد يذهب ضحيتها جده عبد الكريم الفكون وعبد اللطيف المسبح . فقد ذهبا الى الجزائر لتطمين الباشا وتقديم بعض المطالب اليه ولكن الثورة حدثت وهما في الجزائر فهربا الى بلاد زواوة ، فأرسل الباشا في أثرهما وجيء بهما وسجنهما برهة . وبعد أن تأكد من براءتهما واطلع على حقيقة الموقف اطلق سراحهما واعادهما الى قسنطينة مكرمين . وقد وعداه بالسعي في توفير الامن والعافية في المدينة . وكذلك كان الحال ، وقد توجه الباشا نفسه الى قسنطينة ، وهو عندئذ محمد بن صالح رايس ، وبعد سهره على اعادة الاستقرار ترك عليها حاكما بلقب (باي) ، وهو رمضان شولاق .

وقد أطال الفكون أيضا في سرد قصة جرت لجده وأحدثت هزة عنيفة في داخل قسنطينة ، وهي قصة اليهودي الذي اعتنق الاسلام ثم سب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم . فقد انعقد مجلس الشورى وحضره الباي نفسه والجنود والشرطة والعلماء . وكان الجميع قد قالوا بعدم قتل ذلك اليهودي الا عبد الكريم الفكون الجد ، فقد أصر على الحكم بموته . وانقسم المجلس وخرج الخبر للشارع وكثر الضجيج والضغط على الشيخ، ولكنه لم يتزحزح عن موقفه الى أن خضعوا جميعا لرأيه (2) .

كما ذكر الفكون ثورتين أخريين هما : ثورة يحيى الاوراسي ، وثورة خالد بن نصر . ويبدو أن الاولى وقعت بعد سنة 988 ، ذلك أن الشيخ الاوراسي كان حاضرا وفاة عبد الكريم الجد في هذا التاريخ ولم يكن عندئذ قد ثار بعد . وقد انتشرت هذه الثورة التي كان صاحبها من العلماء البارزين ومن شيوخ الفكون الذي نترجم له . ثار الاوراسي في جبال الاوراس ـ بدون تحديد ، ومات ـ كما يقول الفكون ـ شهيدا . وبعد

---

(2) انظر القصة مفصلة في (منشور الهداية) صفحات 36 — 40 .

مقتله قام أخوه بالثورة ، ثم قام ولده (ولد يحيى الاوراسي) . ولم يكمل الفكون قصتها ، لانه أخبر أنها كانت مستمرة عندما كان هو يؤلف كتابه (أي بعد سنة 1045) .

اما عن ثورة خالد بن نصر فقد وقعت في شرق قسنطينة ، دون تحديد المكان بالضبط ولا التاريخ ، ولكن يبدو أن الثورة وقعت قبل سنة 1045 وهو تاريخ تأليف الفكون لكتابه الذي ذكرها فيه . وقد أورد الفكون خبر هذه الثورة في حديثه عن عبد الملك السناني الذي قال انه كان من أجناد قسنطينة وحشمها أبعدوه عنها فجمع أقاربه وانتصب للشيخوخة (بالمعنى الصوفي) وصار يفعل ذلك «تحت كنف باغيها وقائمها المسمى خالد بن نصر» . ويذكر الفكون ثورة أخرى دون أن يؤرخ لها ولكنها ايضا وقعت قبل سنة 1045 ، وهي ثورة محمد بن الاحسن في جبال قرب نقاوس ، فقد قام هذا الرجل المتصوف وشق عصا الطاعة مما جعل قواد وعساكر قسنطينة تخرج اليه كما يقول الفكون فهرب الى تلك الجبال ، وقد أشار الفكون ايضا الى عدة ثورات أخرى منها ثورة احمد السوسي المغربي (3) .

ولعل أكبر الثورات التي لم يؤرخ لها الفكون لانها وقعت بعد تأليف كتابه ، هي ثورة الذواودة المعروفة ايضا بثورة ابن الصخري . وقد كنا بسطنا القول في هذه الثورة في غير هذا المكان (4) .

2 ـ مجتمع قسنطينة :

قبل ان نتحدث عن هذا المجتمع نود ان نلاحظ ان كتابات الفكون تعتبر مصدرا هاما عن مجتمع قسنطينة في القرنين السادس عشر والسابع عشر (10 ـ 11 هـ) ولا نعرف ان هناك مصدرا آخر عربيا عن هذا المجتمع في تلك الفترة ، اللهم الا ما جاء في كتاب العدواني عن المجتمع القبلي في الاقليم خلال القرن السادس عشر . اما المصادر الاوربية فموجودة ولكن قليلة ، وكان هؤلاء يحرصون على تصوير حياة العواصم وقلما يتنقلون او يتاح لهم التنقل الى مدن الاقاليم مثل قسنطينة . ومن ذلك كتابات ليون الافريقي (حسن الوزان) ومرمول الاسباني .

وعلينا ان نعود الى مصادر أخرى لنعرف من خلالها طبيعة هذا المجتمع ، ولعل في كتابات ابن ابي دينار صاحب المؤنس وفي تراجم حسين خوجة صاحب ذيل بشائر أهل الايمان (وكلاهما من القرن السابع عشر 11 / هـ) ، بعض الفوائد لما نحن فيه . كما أن في كتابات رجال الصوفية أمثال زعماء الطريقة

---

(3) انظر عن هذه ، بالإضافة إلى الفكون ، كتاب (كعبة الطائفين) لمحمد بن سليمان ، في كتابنا أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، 213/1 .

(4) انظر كتابنا تاريخ الجزائر الثقافي ، 213/1 ، ط 2 (1985) .

الزروقية او الشابية معلومات هامة عن الحياة الاجتماعية بقسنطينة واقليمها، يضاف الى ذلك الكتابات الشرعية كدفاتر القضاة وكنانيش العلماء وكتب الفقه ونحوها • اما المصادر المتأخرة فمتوفرة ولا سيما منذ دخول الفرنسيين. ومن ابرزها كتابات صالح العنتري وأحمد العطار وفايسات وميرسييه وشيربونو وفيرو • وآخر ما صدر عن هذا الموضوع كتاب محمد المهدي شغيب المسمى (ام الحواضر) • وينسب الفرنسيون كتابا الى الشيخ محمد ا'بابوري ألفه سنة 1848 ، ولكننا لا نعلم الآن عنه شيئا ، ويبدو انه يشبه تآليف العطار (I) أما كتابات الورثلاني عن مجتمع قسنطينة فهي هامة ولكنها جاءت متأخرة عن الزمن لذى نعالجه •

كان مجتمع مدينة قسنطينة مجتمعا حضريا متماسكا • وكانت تلعب فيه العائلات الكبيرة ، ولا سيما الدينية ، دورا فعالا ونافذا • فهي التي تنظم العلاقات العامة ، وهي التي تضع شروط المعاملات ، وهي التي تعين او تبارك النظام الاداري للمدينة (مشيخة المدينة او البلدية) وتسهر على الحماية والرعاية الداخلية (الشرطة) ، وتنشط الحياة الاقتصادية وتتحرك في الازمات (كالطواعين ، والجوائح الاخرى) والمهمات الكبيرة بطريقة جماعية منسقة • صحيح ان المدينة كانت مقسمة الى أحياء اهمها حي باب الجابية وحي البطحاء، وصحيح ان هناك التنافس بين تلك العائلات من أجل المجد والجاه والثروة ، ولكن هذا التنافس لم يبلغ حد التنافر او التحارب • وحتى ما ركز عليه بعض مؤرخي الفرنسيين من ان عائلات قسنطينة انقسمت عند مجيء العثمانيين الى فريقين فريق بزعامة عائلة ابن عبد المؤمن وفريق بزعامة عائلة الفكون ــ قلنا حتى ذلك كان مجرد اختلاق لم تؤكده الوثائق (7) ، وكل ما في الامر ان عائلة عبد المؤمن قد ضعفت خلال العهد العثماني بينما ارتفعت حظوظ عائلة الفكون ، وانتقلت امارة ركب الحج من الاولى الى الثانية • ولا نجد في كتابات الفكون التي تعرض بالتفصيل الى أهل القرن السادس عشر (I0 / هـ) والسابع عشر اية اشارة ، تعريضا او تصريحا ، يشم منها المس من قيمة عائلة ابن عبد المؤمن ، بالعكس انه عندما ذكر شخصا من هذه العائلة قال عنه «حبيبنا محمد ، حفيد الشيخ عبد المؤمن» •

(5) انظر في هذا الشأن أيضا ما كتبناه عن كتاب (علاج السفينة في بحر قسنطينة الذي ألفه أحمد الإنبيري ، ونشرناه في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ط 2 1982 ، القسم الأول .

(6) ذكره فايسات وقال أن البابوري من علماء قسنطينة وأنه ألف عمله بتطلب من شيربونو ، كما أشار فايسات إلى تأليف للشيخ مصطفى بن جلول أيضا ولم نطلع عليه . انظر فايسات (روكاي) 243/2 .

(7) مثل ما أدعاه شيربونو (روكاي ، 1865–1857) ص 97–98 من أن الترك سمموا الشيخ عبد المؤمن خدعة وسلخوا جلده وحشوه تبنا وأرسلوه إلى الجزائر . وعينوا بدله شيخا من عائلة الفكون .

معظم العائلات في قسنطينة كانت تعيش على العلم والتجارة والزراعة والعلم لان قيمة العائلة كانت في تراثها العلمي وتنشئة ابنائها عليه من حفظ القرآن الكريم الى تولية القضاء والفتوى والتدريس • ومن اعتناق المذاهب الصوفية الى بناء الزوايا • اذن كان التراث العلمي لكل عائلة مما تعتز به وتفاخر بأنه طريقها الى المجد والشهرة والنفوذ • وكانت التجارة هي عصب الحياة فمعظم العائلات كانت تتعاطى التجارة بطريقة او بأخرى ، بالجملة او بالتفصيل في داخل المدينة فقط او بالتعامل مع مدن السواحل وتونس • وكانت اسواق المدينة تغص بالواردين من شتى انحاء الاقليم للتزود بالمواد الغذائية والبضائع المختلفة • فهؤلاء أهل زواوة وهؤلاء أهل الصحراء ، كلهم كانوا يؤمون عاصمة الاقليم لقضاء مآربهم في اسواقها • وكثيرا ما بقي بعض هؤلاء الوافدين في المدينة فيتخذون لهم مسكنا ويتزوجون او يأتون بعائلاتهم معهم فينمو المجتمع ويتنوع ويتنافس ، ولكن المجتمع الحضري كان في الغالب ينظر شزرا الى هؤلاء «البرانية» فهو يريد تجارتهم وأموالهم وبضائعهم وبدهم العاملة ولكنه لا يريد بقاءهم في المدينة ومنافستهم وعاداتهم الخشنة التي لا تتفق مع عاداته الرقيقة • وبالاضافة الى ذلك كانت معظم العائلات الكبيرة تملك ضيعات (البساتين) خارج المدينة لا سيما في منطقة الحامة التي كانت تعرف ايضا (بالفحص الابيض) ، وكانوا غيورين أشد الغيرة على هذه الاراضي الزراعية الخصبة التي تمون المدينة بالغلال والبقول والخضر والالبان واللحوم ونحوها • وكانت العائلة لا تعتبر نفسها ثرية او صاحبة اعتبار اجتماعي الا اذا كانت تملك مجموعة من البساتين لا بستانا واحدا ، ولذلك كانت العائلات حريصة كل الحرص على توفر الامن خارج المدينة ايضا حتى تستطيع القيام بعمارة الارض وزراعتها في اوقاتها • اما اذا انعدم الامن فكثرت اللصوص والحرابة وقطاع الطرق فان الخوف يمنع الناس من استغلال اراضيهم ، وسنعرف من كتابات الفكون ولا سيما في (منشور الهداية) عن موضوع العائلات وموضوع الامن والخوف واثرهما في الحياة العامة •

ولعل حرص عائلات قسنطينة على اراضيها واسواقها وتجارتها هو الذي حدا بها الى تأييد السلطة ضد ما كان يقع من ثورات في الريف احيانا ، كما حدا بها الى • • ان تتدخل بالصلح واصلاح ذات البين والتوسط حتى لدى باشا الجزائر من أجل الابقاء على الامن والاستقرار اللذين بدونهما تحل الفوضى وتتبعثر الجهود ويسود الخوف والخراب.ولكن هذا لا يعني ان الاضطرابات في المدينة والثورات في الريف (الاقليم) لم تحدث ، بالعكس فقد حدثت كما عرفنا وكان لها أثر سلبي على اقتصاد الاقليم كله • فثورة ابن الصخري وثورة يحي الاوراسي وثورة جبال نقاوس والفوضى التي اشاعها طلاب المال عن طريق الشعوذة والدجل في الريف ـ كل ذلك جعل اقليم قسنطينة في حالة بائسة وجعلنا نفهم ان قبضة السلطة كانت متداعية ، وهذا ايضا يجعل مسؤولية عائلات قسنطينة أعظم وأخطر • ولو تتبعنا الالفاظ التي وردت عند الفكون في وصف حالة الخوف

لخرجنا بقاموس هام • ومن ذلك هذه التعابير الموحية أشد الايحاء وهى : الظلمة (ج ظالم) ، الحرابة (الاشرار) ، اللصوص ، الاعراب (أهل البادية) ، غمريان (جماعة أتباع قاسم بن أم هانى) ، العلمة (جماعة ـ اتباع احمد بوعكاز) العبابسة (قوم نزل عندهم احمد الفاسى) وزعيمهم العباسى الغازى ، أولاد عيسى وهم جماعة من اللصوص والحرابة ، ريغة جماعة متلصصة أيضا • يذكر الفكون خاصة البلد (قسنطينة) يصفهم بأعيانها او سكانها او حضرها، اما عندما يذكر أهل القصبة (مقر الباى) فيذكر من هناك هكذا : السلطة ، الظلمة ، دار الامارة ، العسكر ، الخ •

ولم يسلم مجتمع قسنطينة من الطواعين والجوائح خلال الفترة التى ندرسها ، فهذا الفكون يذكر لنا عددا من زيارات الطاعون للمدينة وموت العديد من أهلها ، وفى مقدمتهم بعض العلماء والاعيان ، وهو نفسه قد مات بالطاعون سنة 1073 • ومن التواريخ البارزة لهذه الطواعين ما حدث سنة 1602 وسنة 1622 ، وسنة 1634 ، وسنة 1644 (1054 هـ) ، ثم طاعون سنة 1073 (1680 م) الذى أشرنا اليه (8) • اما الجفاف فأكبر ما حدث عام 1602 ، والذى دام حوالى تسع سنوات ، ثلثه مجاعة ، وجفاف سنة 1647 (1057 هـ) والذى تلته مجاعة كبيرة ، وقد حصل بعدها كثير من الشغب والتعدى واختلال التوازن الاقتصادى • وهذه الازمات الاجتماعية ـ الاقتصادية (بالاضافة الى الثورات التى اليها) كانت تقود أعيان المدينة ، ولا سيما العلماء ورجال الدين ، الى تولى المسؤوليات الاخلاقية والروحية والقيام بالواجب الشرعى تفاديا للمزيد من الفوضى وحقنا للدماء وصونا للاعراض • ولعل من هؤلاء عبد الكريم الفكون الذى أصبح فى القرن السابع عشر (11 هـ) ليس مجرد رجل عادى من أعيان قسنطينة ولكنه أصبح زعيما روحيا وقيادة اخلاقية عالية فى البلاد يهابها الحاكم ويلتجىء اليها المحكوم •

3 ـ عائلته ومكانتها :

عائلة الفكون من أقدم العائلات فى قسنطينة • فاذا عدنا الى عنوان الدراية للغبرينى (القرن 8 هـ) وجدناه قد ذكر عددا منها (9) • وهى عائلة اشتهرت

---

(8) ذكر الفكون أن بركات المسبح قد توفي بالطاعون سنة 982هـ . وأشار إلى وقوع الطاعون سنة 1031 ووفاه عدد من العلماء به . أما طاعون سنة 1073 فقد دام ثمانية أشهر (من رمضان إلى ذي القعدة) . وفي يوم واحد أودى بحياة 500 شخص من قسنطينة وحدها .

(9) منها الحسن بن علي ابن الفكون صاحب القصيدة الشهيرة :

ألا قل للسري ابن السري — أبي البدر الجواد الأريحي

وقد رواها الأدباء عنه ومنهم العبدري صاحب الرحلة ، والمقري صاحب نفع الطيب 241/3 (ط. القاهرة) . وقال عنها المقري : أنها « من در النظام وحر الكلام » . وأوردها أيضا عباس بن إبراهيم ، الإعلام 138/3 . انظر عنوان الدراية ص 48 ط. بيروت .

بالعلم والصلاح قبل الاعمال الحكومية · وهى تنتسب الى بنى تميم اذ يذكرون مع اسمائهم هذه النسبة «التميمى» · ومن ثمة فهى من العائلات العربية العريقة · ويضيف الفكون المترجم له أن جده من قبل أمه كان من الاشراف الحسنين ، وكان قد تولى فى قسنطينة وظيفة مزوار الشرفاء · ولكننا لا ندرى ان كان جده لامه من عائلة الفكون أيضا أو من فروع أخرى · فاذا كانت منها فان العائلة كلها تكون أيضا شريفة حسنية · غير أن هناك رأيا آخر فى الموضوع لم يذكره آل الفكون ولكن ذكره غيرهم ، وهو رأى عبد القادر الراشدى العالم ، الذى تولى وظيفة الفتوى الحنفية فى عهد صالح باى ، أواخر القرن الثامن عشر (12 هـ) · فقد نسب اليه تأليف ذكر فيه أن عائلة الفكون ليست شريفة وليست تميمية كما تدعى ، ولكنها من قرية (فكونة) الموجودة بمنطقة الاوراس · ونحن لم نطلع على تأليف الراشدى · ولذلك نتساءل هل صحيح انه قال بذلك ؟ وما الهدف من اثارته الموضوع أصلا ؟ ومما يذكر أن عائلة البونى التى تنتسب هى أيضا الى بنى تميم لم تثر موضوع هذه النسبة لدى آل الفكون عندما عاتب احد اعضائها ، وهو احمد البونى صاحب (الدرة المصونة) ، عبد الكريم الفكون على تعرضه لوالده ، محمد ساسى البونى · وفى الازمنة المتأخرة أصبحت العائلة تعرف بعائلة ابن الفكون ، وأحيانا بعائلة سيدى الشيخ ·

بقى علينا ان نتحدث عن صعود هذه العائلة الى الصف الاول بين العائلات فى قسنطينة بل الى تقدمها على جميع العائلات الاخرى هناك ، خلال العهد العثمانى · كيف وقع ذلك ؟ ومن هو أول من تقدم منها ؟ وما الفرق بين الروايات الرسمية (التاريخية) والشعبية ؟ وهل ما زعمه بعض الكتاب الفرنسيين فى القرن الماضى حول الموضوع يثبت اليوم ؟ هذا ما نحاول الاجابة عليه هنا ولو باختصار ·

وقبل كل شيء نبادر الى القول باننا نرى أن امارة ركب الحج لم تمنح الا الى عبد الكريم الفكون الحفيد صاحب هذه الترجمة · ودليلنا على ذلك عدة أمور ، منها انه لم يذكر هذه المهمة مقرونة باسم جده ولا والده حين ترجم لهما · ولو تولاها أحدهما او كلاهما لذكرها لانه كان حريصا كل الحرص على اظهار مجد لعائلة وتوليها الوظائف السامية ، ولا سيما الدينية منها ، كما فعل حين ذكر تولى جده وابيه امامة الجامع الكبير والخطبة فيه والتدريس ونحو ذلك ·

ومنها أنه أشار الى حج والده ووفاته أثناء منصرفه من حجه سنة 1045 ، كما سبق ، ولم يذكر أنه كان أميرا لركب الحج او كانت له أية مسؤولية دينية أو دنيوية مع الآخرين فى ذلك · ولو كان والده متقلدا لتلك الوظيفة لما أهملها فى ترجمته · ومن جهة اخرى فان الفكون لم يتحدث ابدا عن حج جده ، سواء بنفسه أو على رأس وفد رسمى ، ونعتقد أن جده لم يحج أصلا،

ولو قد فعل لما أهمل حفيده ذكر ذلك لان الحج كان عندئذ مناسبة علمية ودينية يحرص المترجمون على ذكرها لمترجميهم . فكيف نقول مع القائلين ان مشيخة الاسلام وامارة ركب الحج قد منحها العثمانيون لعبد الكريم الجد وورثها منه ابنه محمد ثم حفيده عبد الكريم الذى نحن بصدد الترجمة له ؟

ومنها ان الفكون ذكر فى ترجمة أحد معاصريه ، وهو الشيخ محمد الفقيه الزواوى ، ما يدل على أن امارة ركب الحج كانت ما تزال ، اثناء حياة والده ، فى يد عائلة ابن عبد المؤمن . ولكن الفكون لم يذكر تاريخ ذلك بالضبط . غير اننا نستنتج من سياق القصة أن ذلك وقع بعد 1045 ، سنة وفاة والد الفكون . فهو يقول عن نفسه انه تدخل لمنع الشيخ محمد الفقيه المذكور من الحج ثانية رفقة محمد ، حفيد الشيخ عبد المؤمن (أمير ركب الحج) لان محمد الفقيه كان قد سبق له الحج ، بينما أهله محتاجون الى النفقة . ولكن محمد الفقيه حج مع ذلك مع حفيد الشيخ عبد المؤمن مخالفا نصيحة الفكون . ولم يكن الفكون ضمن هذا الركب على كل حال ، لانه يخبر أن الشيخ محمد الفقيه وقف عند الفكون بعد رجوعه من الحج وأعلن ندمه عن فعله .

نستنتج من ذلك كله : أن أول من تولى وظيفة الامامة والخطابة بالجامع الكبير (جامع البطحاء) فى العهد العثمانى هو عبد الكريم الفكون الجد ، بعد سنة 975 هـ ، أى سنة خلع البيعة من قبل حضر قسنطينة .

2) ـ وأن أول من تولى وظيفة القضاء فى نفس العهد من عائلة الفكون هو قاسم الفكون .

3) ـ وأن أول من تولى امارة ركب الحج ـ بالاضافة الى الامامة والخطابة بالجامع الكبير ـ هو عبد الكريم الفكون الحفيد الذى نترجم له .

4) ـ وان امارة ركب الحج قد بقيت فى عائلة عبد المؤمن الى زمن محمد حفيد عبد المؤمن الذى تحدث عنه الفكون نفسه فى النص السابق ، أى إلى ما بعد حوالى قرن من وجود العثمانيين .

ومع هذا الوضوح فى تسلسل الاحداث وتولى المسؤوليات فان بعض المؤرخين (سيما الفرنسيون) قد خلطوا فى هذه القضية . فذهب بعضهم الى أن ولاء عائلة الفكون للعثمانيين يبدأ من خيانة عائلة عبد المؤمن لهم . وأن عائلة الفكون قد «منحت» وظيفة القضاء والامامة والخطابة بالجامع الكبير (وهو منصب يعنى الجاه والثروة) جزاء لها على دورها فى نشر العافية وجلب طاعة الرعية خلافا لعائلة عبد المؤمن التى تعاونت مع أولاد صولة وخلعت البيعة ورفضت الانصياع للعثمانيين . وقد استدل بعضهم ، مثل شيربونو ، برواية شعبية مفادها أن عائلة عبد المؤمن هى التى كانت تتوارث امارة ركب الحج فى قسنطينة . وعندما حل خير الدين بربروس بالقل تضررت تجارة قسنطينة

فجاءه وفد منها وعرضوا عليه الطاعة فعين عليهم بايا • ولما سمع الشيخ عبد المؤمن أغلق أبواب المدينة فظل الباى الجديد وجنوده فى المنصورة (بأعلى المدينة) . وهنا اتصلت بهم عائلة الفكون المنافسة لعبد المؤمن واقترحوا على الاتراك أن يعدوا عبد المؤمن بابقائه فى وظيفته ، فأرسل اليه الاتراك رسالة وأقاموا له وليمة فى المنصورة فجاءهم اليهم وفتح لهم أبواب المدينة • وأثناء هذه الوليمة سمره وسلخوا جلده وحشوه تبنا وأرسلوه الى الجزائر • ومنذ ذلك الحين ظلت العلاقة بين الاتراك وآل الفكون جيدة (9) •

وهذه الرواية وجدت صدى فى كتابات فايسات وميرسيبيه أيضا • ولكن الاول (فايسات) لاحظ أن هذه الرواية لا تستند على أية وثيقة • ومع ذلك فهو يقول ان أول من اعطى لقب شيخ الاسلام هو عبد الكريم الفكون الجد سنة 1567 او 1568 ، بعد الثورة التى حدثت ذلك العام (975 هـ) ، والتى قادها أولاد عبد المؤمن بالتعاون مع أولاد صولة (9) . ولكن المعروف أن الفكون الجد تولى فقط امامة وخطابة الجامع الكبير ولم يتول امارة ركب الحج ولم يلقب بلقب « شيخ الاسلام » . أما ميرسيبيه فيذهب أبعد من ذلك ، فيرى ان امامة وخطابة الجامع الكبير قد منحت الى قاسم الفكون بعد رجوعه من تونس (والوقع انه تولى القضاء فقط ، باقتراح من الشيخ الوزان ، الذى اعتذر عن ولاية القضاء بنفسه) • ويؤكد (ميرسيبيه) ان اول أمير لركب الحج هو عبد الكريم الفكون الجد (وقد عرفنا ان هذا المنصب بقى فى يد عائلة عبد المؤمن الى اوائل القرن الحادى عشر ، وان الفكون الجد قد تولى فقط امامة وخطابة الجامع الكبير ، وانه قد لا يكون حج اصلا) • ويرجح ميرسيبيه ان لقب أمير ركب الحج قد منح للفكون الجد سنة 1572 (980 هـ) على اثر الثورة الكبيرة التى أدت الى مقتل الشيخ عبد المؤمن (10) • ولكنه يستدرك على نفسه فيقول ان لقب أمير ركب الحج وشيخ الاسلام قد منحا ضمنيا لا تصريحا، لان امام الجامع الكبير كان بالضرورة شيخا للاسلام وأميرا لركب الحج •
وهو أيضا استدراك غير صحيح ، لان امارة الركب بقيت فى عائلة عبد المؤمن مدة طويلة بعد وفاة الفكون الجد وابنه محمد وحتى الى عهد الفكون الحفيد • اما لقب شيخ الاسلام فلم يصرح به الا لهذا الاخير •

---

(9) انظر شيربونو (روكاي) ، 1856–1857 ، ص 79 .

(9 مكرر) انظر فايسات (روكاي) ، 1867 ، ص 321 وما بعدها .

(10) يرى فايسات أن منح الفكون لقب شيخ الإسلام كان بعد ثورة 1567–68 (975) وبعد رجوع الشيخ من الجزائر . ويرى ميرسيبيه أن ذلك كان سنة 1572 (980) بعد الثورة الثانية ، لأنه من الممكن أن يغفر الأتراك المرة الأولى لعبد المؤمن . وكلا الكاتبين متفق على أن صعود عائلة الفكون مكان عائلة عبد المؤمن كان بين 1567 و 1572 . وقد رأينا خطأ هذا التقدير . وعن رأي ميرسيبيه أنظر (روكاي) 1878 ، ص 226 .

والشيء المؤكد هو أن اسرة الفكون ظلت تتوارث هذه الوظائف بعد ذلك : امامة وخطابة الجامع الكبير ، وامارة ركب الحج ولقب شيخ الاسلام ، الى الاحتلال الفرنسي ، وبالضبط الى سنة 1838 ، حين ألغت السلطات الفرنسية ذلك • وهكذا فان الوثائق تتحدث عن تولى محمد الفكون (والد المترجم) جميع مهام والده (سنة 989 هـ) ، وتولى الفكون الحفيد جميع مهام والده سنوات 1015 ، و1048 ، و1060 • وتولى محمد الفكون (ابن المترجم له) جميع مهام والده سنة 1074 ، و1075 • واستمر الحال كذلك الى الاحتلال الفرنسي كما أشرنا • وآخر وثيقة لتثبيت هذه العائلة على وظائفها وامتيازاتها ، يعود الى عهد الحاج احمد باى ، آخر حكام قسنطينة العثمانيين ، وبالضبط الى سنة 1242 (1826 م) (11) •

4 ـ منشور الهداية فى كشف حال من ادعى العلم والولاية :

يعتبر (منشور الهداية) أفضل ما ألف الفكون ، بل أفضل الكتب المؤلفة فى العهد العثمانى بالجزائر • فهو ليس كتاب تراجم بالمعنى المتعارف عليه لدى كتاب التراجم ، وليس تخليدا لملك أو أمير أو باشا كما فعل بعض كتاب ذلك العصر ، وليس كتابا فى التصوف وأحوال الدراويش والانهزامية التى ألف فيها أيضا بعض مثقفى تلك الفترة . ولكنه كتاب فى النقد الاجتماعى والنقد السياسى والنقد الدينى ، وهو أيضا كتاب عن أحول الناس وزعمائهم السياسيين والمثقفين والدينيين ، وعن علاقات هؤلاء جميعا بعضهم ببعض • انه وثيقة حية هامة عن حالة ذلك العصر ، وهو يصلح أن يكون نموذجا لما كان شائعا فى العالم الاسلامى كله عندئذ ، لان ما فيه من وصف الاحوال والعلاقات والافكار ليس خاصا بالجزائر • وقد تكون الكتب الاخرى التى ألفها الفكون فى النحو والصرف والحبس ، وحتى كتابه عن تحريم التدخين، وديوانه فى المديح النبوى ـ كلها قد فاتها الوقت وأصبحت تدرس كأعمال مضى عليها الزمن ، أما (منشور الهداية) فانه الكتاب الوحيد الذى سيظل فى نظرنا حيا خالدا لعمق أفكار صاحبه فيه واحتوائه على المعلومات الاجتماعية والانسانية التى قل من تعرض لها من قبل بتلك الطريقة •

لم يؤرخ الفكون الانتهاء من تأليف (منشور الهداية) ولكن يغلب على الظن أنه قد ألفه بعد سنة 1045 لانه تحدث فيه عن وفاة والده التى وقعت فى تلك السنة • ولا نجده قد ذكر تاريخا آخر بعد هذه السنة • والمعروف انه تولى

(11) أشار إلى هذه الوثائق كل من فايسات وميرسييه في المصدر المذكور ، وكذلك ميرسييه (روكاي) 1879 ، ص 215 وما بعدها . ويبدو أن محمد الفكون بن عبد الكريم الذي نترجم له هو نفسه الذي لقيه وتحدث عنه العالم التونسي أحمد برناز في كتابه (الشهب المحرقة) . أنظر دراستنا عن شعبان باشا من خلال هذا الكتاب في مجلة التاريخ 1985 . وفيها أن محمد الفكون كان هو أمير ركب الحج وخطيبا وإماما إلخ .

هو وظائف أبيه بعد وفاته وزاد عليها امارة ركب الحج ولقب مشيخة الاسلام. والمعروف أيضا ان ثورة ابن الصخرى قد وقعت سنة 1047 ، وهى الثورة التى لا نجد لها ذكرا فى (منشور الهداية) رغم تعرضه لثورات وأحداث أقل منها شأنا . ولذلك فنحن نرجح أن يكون (منشور الهداية) قد ألف بين 1045 و1047 . وهل يمكن اذن أن نقول ان تاريخ تأليفه هو سنة 1046 ؟ ذلك أقرب الاحتمالات فى نظرنا . ولكن الامر المحير هو أن الفكون ضمن كتابه حديثا عن أشخاص كانوا أحياء زمن التأليف ، كما يفهم من صيغة الحديث ، مثل حديثه عن أحمد المقرى ، بينما نعلم من مصادر أخرى ان هؤلاء الاشخاص قد توفوا قبل ذلك التاريخ المحتمل لتأليف الكتاب. فالمقرى مثلا توفى سنة 1041، بينما لا يشير الفكون الى هذه الوفاة ، ويبقى حديثه عنه فى الكتاب بصيغة الحى . وهناك نماذج أخرى على ذلك ، مثل ايراد مراسلاته مع عالمى تونس ابراهيم الغريانى ومحمد تاج العارفين ، الواقعة سنة 1037 . فيبقى لدينا احتمالان آخران هما : ان الفكون ألف الكتاب فعلا حوالى سنة 1046 ، ولكنه ضمنه وثائق المراسلات القديمة بتواريخها المتقدمة ، أو أنه كان قد بدأ فى تأليف الكتاب فى تاريخ سابق قد يكون من 1033 وظل يزيد عليه ويعمل فيه الى سنة 1046 (12) . غير أننا ما نزال نميل الى الاحتمال الاول ، وهو أنه ألف الكتاب سنة 1046 وضم اليه وثائق متقدمة وأخبارا بصيغها القديمة .

ورغم أهمية الكتاب فى نظرنا فليس له نسخ كثيرة . وبعد البحث والجهد توصلنا الى وجود نسختين مصورتين منه دون أن نعرف أو نطلع على الاصل . النسخة المصورة الاولى رأيناها فى المكتبة الوطنية ـ بالجزائر ، وكان قد قدمها لها الشيخ المهدى البوعبدلى . والنسخة المصورة الثانية هى نسخة الشيخ عبد المجيد بن حبة ، التى تفضل بارسالها الى للاطلاع بواسطة الاستاذ احمد ابن السائح .واثناء المقارنة بين نسخة المكتبة الوطنية (نسخة الشيخ البوعبدلى) ونسخة الشيخ ابن حبة وجدتهما متماثلتين وترجعان الى أصل واحد . وقد أخبرنى الاستاذ ابن السائح بأن الشيخ ابن حبة يعتقد ان نسخته ونسخة الشيخ البوعبدلى مصورتان عن النسخة الاصلية التى يملكها الشيخ فيصل العابد بباتنة . وقد استفدت من مقابلة النسختين المذكورتين ، فقد كانت نسخة الشيخ البوعبدلى ناقصة صفحة العنوان وبعض الصفحات الداخلية التى أكملها الشيخ بخط يده ، أما نسخة الشيخ ابن حبة فهى كاملة التصوير ، ولذلك أكملت منها الناقص فى النسخة الاولى . وأعدتها الى صاحبها شاكرا . اما النقص المشترك مثل بعض البياض وسوء كتابة بعض الكلمات الخ ، فقد بقى كما هو .

(12) من الأدلة أيضا على أن الفكون ألف كتابه قبل سنة 1048 أنه تحدث عنه في كتابه (فتح اللطيف) بصيغة الماضي قائلا : « وقد ذكرنا في تأليفنا منشور الهداية ... » كذا وكذا . ونحن نعرف أن (فتح اللطيف) قد ألفه سنة 1048 . انظر آخر هذه الدراسة .

اذن هناك أصل (لمنشور الهداية) عند السيد فيصل العابد . ولكن هل هو نسخة المؤلف الاصلية أو نسخة عنها ؟ ذلك ما لا نعرفه الآن . غير أننا نعتقد أن للكتاب أكثر من نسخة لانه يهم كثيرا من العائلات وكثيرا من الناس . وقد علمنا ان الشيخ أبا القاسم الحفناوى صاحب (تعريف الخلف) قد أخذ منه أوائل هذا القرن تراجم وأخبار بعض الاشخاص (13) . فمن أى نسخة كان ينقل الحفناوى ؟ واين هى الآن ؟ ومن جهة أخرى اطلع السيد فايسات على مقتطفات من (منشور الهداية) فى القرن الماضى وضمنها كتابه عن تاريخ قسنطينة ، وسماه هناك نوعا من المذكرات عن رجال وحوادث العصر ، وتأسف على انه لم يتمكن من الاطلاع على الكتاب كله رغم محاولاته المضنية والتى دامت ، كما قال ، سنتين ، مع الذين «يملكون» الكتاب (14) . ونعتقد ان السيد ميرسييه قد يكون اطلع على (منشور الهداية) أيضا واستفاد منه فى كتابه عن تاريخ قسنطينة . وعندما سألنا الشيخ البوعبدلى عن مصدر النسخة التى كان الحفناوى قد نقل عنها ، أخبرنا ان كل ما يعرفه عن الموضوع هو أن الحفناوى تلقى من الشيخ حمدان الونيسى القسنطينى بعض التراجم من (منشور الهداية) فضمنها كتابه (تعريف الخلف) دون ان يكون قد اطلع على الكتاب نفسه (15) . والواقع أننا غير يائسين من وجود نسخة أخرى ، على الاقل منه ، لنستفيد منها فى التحقيق الذى عزمنا على القيام به ان شاء الله .

عندما اطلعت على (منشور الهداية) أول مرة منذ أكثر من عشر سنوات ، اندهشت لاهميته وسجلت فى مذكراتى عنه على الفور ما يلى: «مخطوط ترجم فيه (الفكون) لشيوخه من العلماء الصالحين ومن عاصرهم ممن ادعى الولاية والعلم واتصل بالامراء ورام الدنيا . وترجم كذلك فيه لبعض تلاميذه وأصحابه . وفيه تراجم لوالده وجده واحمد المقرى وبعض عائلات قسنطينة ، مثل المسبح والموهوب وابن باديس والحركاتى ، وابن نعمون ، وابن ثلجون ، وغيرهم . وهو فى الواقع (كتاب) عن تراجم علماء قسنطينة فى القرنين العاشر والحادى عشر ، مع ذكر بعض وفياتهم ، والكتاب يحتوى على 294 صفحة ، والغالب أنه بخط المؤلف وخطه جيد . وفيه استطرادات وأخبار هامة عن الكتب والسياسة والاحوال الاجتماعية والعلمية والواقع اننى ما ازال على نفس الرأى اليوم . فالكتاب ، كما أشرنا فى البداية ، وثيقة لا غنى عنها لدارس الحياة السياسية والاجتماعية والدينية فى القرنين العاشر والحادى عشر (16 ، 17 م) بل ان أهميته تمتد الى وقتنا الحاضر لان معظم العائلات والافكار والاتجاهات والزوايا التى ذكرها ما تزال موجودة بيننا .

---

(13) الحفناوي (تعريف الخلف) ، 2/

(14) فايسات (روكاي) ، 1868 ، ص 263 . وقد أخذ فايسات أيضا من مقدمه (منشور الهداية) ، كما جاء في صفحة 389 .

(15) مراسلة الشيخ البو عبدلي بتاريخ

أحصينا ما فيه من تراجم فوجدناها حوالى ثمانين ترجمة . لكننا نبادر الى القول بأن الفكون لا يترجم للاشخاص بالطريقة المعتادة من ذكر الميلاد والوفاة والشيوخ والوظائف والتلاميذ والتآليف والكرمات والمناقب ونحو ذلك . انه لا يتبع هذه الطريقة على الاطلاق ، بل انه يتناول احوال الاشخاص فيصفهم فيما كانوا عليه ، فى نظره ، من الصلاح أو الطلاح ، ويتحدث عن نشاطهم الاجتماعى وعلاقاتهم مع بعضهم ومع السلطة ومع الناس ، ويخبر عن عقائدهم وأطماعهم وتنافسهم فى الخير والشر ، وعن قوتهم وضعفهم امام المغريات السياسية والمالية والشيطانية ، وعن نشاطهم العلمى اذا كانوا من العلماء وعن نشاطهم الصوفى اذا كانوا من المتصوفة ، وعن مغامراتهم اذا كانوا من المغامرين ، وهكذا . فالفكون اذن لا يترجم لاهل القرنين السابقين ولكنه يسجل عنهم انطباعاته وانطباعات من عرفوهم اذا كان لم يرهم ، وكثيرا ما يترك مكان الوفيات بياضا ، اما تواريخ الميلاد فقليلا ما تذكر ، لان ذلك لم يكن هدفه أصلا .

وقد اختلفت هذه الانطباعات طولا وقصرا وعمقا . فبعض أحاديثه تطول وتتعمق حتى تصل عدة صفحات ، وبعض أحاديثه تكون من القصر بحيث لا تتجاوز السطور . ولكنه مع ذلك يضع فيها من المعانى ما يكفى لمجلد . وقد يستطرد فيدمج الحديث عن شخص ما أثناء الحديث عن شخصية رئيسية أخرى . وقد يذكر مجموعة من الاخبار فى الخبر الاساسى . وقد يصرح حتى كأنه يرمى هدفه بسهامه النارية ، وقد يكتفى بالتلميح حتى كأنه يقول لنا عليكم باكمال الباقى وفهم الواقع وربط الحالات ببعضها . وهو فى أحاديثه هذه لا ينطلق من مصلحة ذاتية الا قليلا . ولكنه ينطلق من المصلحة العامة ، كالغيرة على الدين والاخلاق والعقل البشرى . وهو يبكى هبوط أحوال المسلمين وانتشار الشعوذة بينهم وفساد الدين على أيدى زعمائهم وشيوع الرشوة لدى أرباب السلطة والقضاة والعلماء والدراويش ، وقلة الامن فى المدينة وفى الريف . وهو يتحسر أثناء تراجمه كلها تقريبا على فساد الخاصة ورقاد العامة ، وهو الموضوع الرئيسى الذى يكاد يتكرر فى كل صفحة من صفحات الكتاب . ونحن وان كنا سنورد نص مقدمة هذا الكتاب فى قسم النصوص ، فاننا نسوق عبارته هنا فى الباعث على تأليفه ، فليتأمل القارىء معنا هذا النص وليتذكر ان روح النص موجودة فى كل ثنايا الكتاب كما أشرنا :

«اما بعد، فلما رأيت الزمان بأهله تعثر، وسفائن النجات(كذا) من أمواج البدع تتكسر،وسحائب الجهل قد أظلت،وأسواق العلم قد كسدت،فصار الجاهل رئيسا، والعالم فى منزلة يدعى من أجلها خسيسا ، وصاحب أهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة ، وروائح السلب والطرد من المولى عليه فائحة، الا أنهم ، اعنى الطائفتين ، تمسكوا من دنياهم بمناصب شرعية ، وحالات

كانت قدما للسادة الصوفية ، فموهوا على العامة بأسماء ذهبت مسميـاتها ، وأوصاف تلاشت أهلها منذ زمان وأعصارها ، لبسوا بانتحالهم لها على أهل العصر انهم من أهلها ··· كل ذلك والقلب منى يتقطع غيرة على حزب الله العلماء أن ينسب جماعة الجهلة المعاندين الضالين المضلين لهم او يذكروا فى معرضهم ، وغيرة على جناب السادة الاولياء الصوفية أن تكون أراذل العامـة وأنذال الحمقى المغرورين أن يتسموا بأسمائهم أو يظن بهم اللحوق بآثارهم· ولم آل فى التنفير من كلتا الطائفتين والتحذير منهم فى كل زمان وأوان ، وبين كل صالح من الاخوان ، الى ان احسست لسان القول قد انطق بنسبـة ما لا يليق ذكره من أفواههم ، فشرح الله صدرى فى ان اعتكف عـلى تقييـد يبدى عوارهم ويفضح أسرارهم ، ويكون وسيلة الى الله فى الدنيا والاخرى··· فهذا الجهاد الذى هو أحد من السيف فى نحور أعداء الله ، ونـاهيك بهـم أعداء ··· فعظم الباعث على النصح بهذا التقييد ···» (16)

ان الفكون يتحدث دائما عن حزبين متميزين متصارعين فى عصره ، وهما من يسميهما : حزب الله وحزب الشيطان · وأحيانا يسمى ذلك طائفة الخير وطائفة الشر وطائفة الشر هذه ذات شقين : شق يضم ادعياء العلماء الذين «سطرت أناملهم فى قراطيس السجلات ما يوهم من لم يـرهم ممن يـأتى فى غابر الزمن انهم من حزب العلماء ومن مشائخهم الاعلين» ، وشق يضم «الطائفة البـدعية» التـى أصبحـت «مقطعـا للحقـوق ، وقسمـا يقسـم بهـم فـى البر والعقوق ··· وأعلنوا بأن سابق الاقدار منوطة بارادتهم ··· واتخذت اتباعهم ألقابا لهم باسم الشيخوخة والتحذير من أن يغاضوا أو يغتاضوا···»

هل رأيت اذن ان الفكون كان يحمل علم الجهاد فى ليل مظلـم من الجهـل والبدعة والفساد الاخلاقى والسياسى ؟ وهل رأيت ان دافعه لتأليف كتـابه كان الغيرة على حزب الله من العلماء العاملين والصلحاء السلفيين ؟ وهل رأيت انه حمل رايته ضد أولئك الزنادقة أعداء الله وحزب الشيطان الذين انحرفوا عن الدين باتخاذ الالقاب الرئاسية والكهنوت الصوفى وربطوا مصالحهم بمصالح الحكام الفاسدين ؟ واين دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من هذه الثـورة التى أعلنها عبد الكريم الفكون قبله بأكثر من قرن ؟ اقرأ معى ان شئت قـول الفكون عن المبتدعة فى زمانه : «وربما زاد فى افصاح أحوالهم ··· ان من مات منهم بنوا عليه وشيدوا بناءات ، وجعلوا عليهم قبابا من العود وألواحا منقوشة بأسمائهم وما اختاروا لهم من الالقاب التى لا تصلح لهم» ·

ان هذا الكلام ، بل هذه الجملة ، لم تعجب ، بدون شك ، علماء ولا متصوفة عصر الفكون ، وبالطبع لم تعجب أيضا علماء ولا متصوفة ما بعد عصـره لان الامور قد زادت سوءا بعده كما هو معروف · فالجهل عم وانتشر ، وغطـى

(16) من مقدمة (منشور الهداية) .

السهل والوعر ، والدروشة (وحاشا التصوف) والتدجيل فاض بحرهما وطما زبدهما • ولامر ما أهمل العياشي ذكر (منشور الهداية) حين عدد كتب الفكون ، بينما أطال في النقل من ديوانه في المديح النبوى كما عرفنا ، ووصف كتابه في شرح أرجوزة المكودى في التصريف ، بل ولخص في عدة صفحات من رحلته كتاب الفكون عن تحريم التدخين • أما الثعالبي فقد اكتفى بقوله وله تأليف في حوادث فقراء الوقت والرد عليهم • وما هو ، كما رأيت ، في «فقراء» الوقت الذين يعنى بهم الثعالبي المتصوفة • فالكتاب كما نعلم لا يتحدث الا جزئيا عن هؤلاء الفقراء او المتصوفة ، ولنكون دقيقين ، لا يتحدث الا عن صنف منهم • ويبدو أن الشيخين : العياشي والثعالبي ، لم يطلعا أبدا على كتاب (منشور الهداية) وانما سمعا عنه من فقراء الوقت أنفسهم ، ومن غيرهم ، اولئك الذين صدمهم الفكون بكتابه وكشف عوارهم وفضح أسرارهم، كما قال ، فتألبوا عليه وأسروا له البغضاء ورموه بألسنة حداد (17) •

ومهما كان الامر فان الفكون قد رتب كتابه على هذا النحو : مقدمة ذكر فيها الدافع الذى دفعه لتأليفه كما سبقت الاشارة • ثم ثلاثة فصول وخاتمة • اما الفصل الاول فجعل عنوانه (في من لقيناه من العلماء والصلحاء المقتدى بهم ومن قبل زمنهم ممن نقلت الينا أحوالهم وصفاتهم تواترا ، أردنا التنبيه عليهم وذكر ما كانوا عليه وزمانهم وتواريخ وفاتهم) • وهذا الفصل ، رغم طول عنوانه ، قصير نسبيا • وقد ذكر فيه بعض أفراد عائلته أمثال يحيى الفكون وقاسم الفكون وجده عبد الكريم الفكون ووالده محمد الفكون وجده لامه محمد ابن قاسم الشريف . كما ذكر فيه عمر الوزان ، ويحيى الاوراسي ، ومحمد العطار ، واحمد الغربي ، ومحمد الكماد ، وعلى بن يحيى الياوراري ، واحمد بن تكفه ، ومحمد بن حسن ، وعبد اللطيف المسبح ، واحمد (حميدة) المسبح ، وبركات المسبح ، وعلى المرواني ، وعلى الغربي ، وابو القاسم العطار ، واحمد ابن باديس ، وبركات بن سعيد ، وشيخاه محمد التواتي وسليمان القشي النقاوسي ، وعبد العزيز النفاتي ، ومحمد الفاسي • ولم يذكر تواريخ الوفاة، كما قال ، الا لعدد قليل منهم • أما البقية فأماكن التواريخ لوفاتهم ظلت بيضاء في النسخة التي بين أيدينا • وكان المفروض أن يذكر تواريخ الوفاة لان هؤلاء متقدمون عليه أو توفوا أثناء حياته • اما الذين سيتحدث عنهم في الفصلين الباقيين والخاتمة فكانوا معاصرين له ومعظمهم كانوا أحياء عند تأليف الكتاب •

---

(17) يذكر الفكون في كتابه (فتح اللطيف) أن كتابه (منشور الهداية) قد جلب عليه النقمة والبغض « رمقتني من أجله العيون ، وانعقد على بغضي القلوب وأكثرت الشؤون » ، ولكنه اعتصم بحبل الله واعتبر عمله جهادا يجازى عليه في الآخرة . ونعتقد أن عدم ترويج الكتاب واستنساخه هو جزء من حملة الغضب والبغض التي أشار إليها .

أما الفصل الثاني فقد جعل عنوانه : (في المتشبهين بالعلماء ، وهم الذين قصدنا بهذا التقييد ايضاح أحوالهم) • ومن أجل ذلك كان هذا الفصل أطول من سابقه لان الفكون أخذ يعالج ما قصده في الكتاب . وقد تحدث فيه عن مجموعة من الناس لا يتسع الامر الآن لذكر اسمائهم جميعا • ونود أن نوضح ما جاء في صفحة 35 من المخطوط حين بداية الحديث عنهم ما أضافه الفكون نفسه من بيان لما سبق وهو قوله (فيمن تعاطى المنصب الشرعي لادعائه العلم، وهم كل من ادعى ما لا يصح له من خطة وتدريس وغيرهما) • وهو يقصد بالمنصب الشرعي وبالخطة الوظائف الرسمية كالقضاء والفتوى • وقد افتتح هذا الفصل بالحديث عن يحيى بن محجوبة الذى كان متوليا رئاسة الفتوى ، وهو الذى أخبر عنه انه كان كبير السن ومن معاصري جده ، وانه فصل في خلاف مع والده (والد الفكون) حول مسألة حبس في مجلس بالجامع الكبير ، مما أزعج الوالد حتى أنه طلب من ابنه (المؤلف) أن يخرج هو للرد على ابن محجوبة ، كما سبق • وعد من هذا الفصل أيضا جده لامه ، محمد بن قاسم الشريف ، الذى كان متوليا وظيفة مزوار الشرفاء • وقد تصدر أيضا للفتوى• ويحيى بن باديس واحمد الجزيرى ، واحمد الغربى ، ومحمد السوسى المغربى، ومحمد بن نعمون وعبد اللطيف بن سعيد ، وغيرهم •

ويأتي بعد ذلك الفصل الثالث الذى جعل عنوانه (في المبتدعة الدجاجلة الكذابين على طريق الصوفية المرضية)• ومما يذكر ان الفكون اضاف على صفحة 110 من المخطوط حيث عنوان الفصل الثالث هذا العنوان (فيمن ادعى الولاية من الدجاجلة) • وهو نفس المعنى ولكن فيه بعض التصرف • وقد ابتدأ بأحدهم وهو قاسم بن أم هانى ، وأخبر أنه افتتح به الفصل «لعظم مفسدته بين الخلق وشهرة بدعته وقوتها» • وبالطبع أطال فيه الحديث أيضا • وذكر منهم أيضا احمد بوعكاز ، ومحمد الحاج الصحراوى والشيخ طراد ، وسيدى الجليس ، وعبد الملك السنانى ، وعلى العابد الشابى ، الخ • ومن الغريب أن الفكون وضع الشيخ محمد ساسى البونى ضمن هؤلاء الدجاجلة ، لترحيبه بالشيخ المغربى على خنجل واتخاذه الحضرة وجعله مستحما سماه (حمام أهل الصفا) الخ • وقد أطال في الحديث عنه وعن امره الخرافي •

وأخيرا تأتى الخاتمة التى قال انه اختار لها عنوانا هو (اخوان العصر وما هم عليه) ، ولكنه في صفحة 234 من المخطوط يغير العنوان قليلا فيصبح (فى ذكر من اردنا ذكره من الاصحاب والاحباب) • ويقصد بهؤلاء من كان معاصرا له أو ندا ، وله معه مراسلات واتصالات شخصية • ولكن هؤلاء لم يسلموا من نقده اللاذع أيضا ، وقد جمع في هؤلاء الاصحاب بعض المنتمين للعلماء والمنتمين للمتصوفة أيضا • فنجد الشيخ بلغيث الذى تحول في تونس من العلم الى التصوف • ونجد الموهوب بن محمد الزواوى ، ومحمد وارث الهاروني المتيجى ، وعلى بن عثمان الشريف الزواوى ، واحمد بن الحاجة الميلى ، ومحمد ابن باديس ، ومحمد بن ناجى ، واحمد المقرى الذى أطال في الحديث عنه

ونقده • ثم عددا من التونسيين (مثل ابراهيم الغرياني ، وتاج العارفين) ، والمولى علي العثماني ، وغيرهم • ولنلاحظ ان أكثر من عدهم أصحابا وأحبابا كانوا من خارج قسنطينة •

ولكن تبقى أهمية كتاب (منشور الهداية) في انه ليس كتاب تراجم بالمعنى التقليدي • ففيه لمسات انسانية وأخبار طريفة وآراء شخصية أيضا • كما أن فيه نماذج من حياة وأخبار العلماء خارج قسنطينة سواء كانوا من القطر الجزائري أو من البلدان الاسلامية الاخرى المجاورة والبعيدة • وفيه أوصاف لاحداث وقعت بين العلماء والحكام سواء في قسنطينة أو في الجزائر ، ووصف لبعض الثورات ، وقضايا الامن العام في الريف ، ودور الزوايا ، وتقاليد تلقي العلم ، وأخبار الكتب • وما يلاحظ عليه أن الفكون لم يشر ، ولو لحادثة واحدة فيما نعلم ، عن وجود الاجانب أو النصارى في قسنطينة أو غيرها من أنحاء الجزائر •

وبعد ، فليس أفضل عند الانتهاء من هذه الدراسة لكتاب (منشور الهداية) من قول مؤلفه فيه عندما تحدث عن قول المكودي :

هذا مع الجهل وشغل البال ⁂ والاضطرار واضطراب الحال

اذ علق الفكون على ذلك بقوله : «واذا كان هذا في زمنه (زمن المكودي) ومنار العلم منصوب ، وعن آراء الجاهلين برشق نبال البراهين محجوب ، فكيف بزماننا الذي فاض فيه عباب الجهل والدعوى ، وطلعت كواكب البدع والاهوى (كذا) ، فلا ترى الا مدعيا في العلم أعلى منصنته ، ومرتقيا في شامح التربية أرفع قنته ، جعلوا الطريقتين (العلم والتصوف) شباكا لتحصيل الدنيا منصوبة، وحبالات لجمعها بأوتاد حبها مضروبة ، وما نظروا الى عاقبة الامر وعقابه ، والوقوف بين يدي العالم بالخفيات ودقة حسابه ، وأسأل الله العافية ، وصلح حال الامة •••

«وقد ذكرنا في تأليفنا (منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية) من حال الصنفين ، ودعوى الفريقين ، ما يكتحل باثمده أهل الكمال ، ويروى من عذب فراته أهل الفضل والافضال ، **والبر بتأليفه أردت ، وارشاد الامة ونصحها قصدت ••• وهو ، وان رمقتني من أجله العيون ، وانعقدت على بغضي القلوب وأكثر الشؤون ، فذلك ، ولله الحمد ، مما يسرني في الحال والمآل ، ويقوي رجائي أن يكون لي عدة في عظيم الاهوال ، لوعد رب العالمين ، « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان لمع الـ »** (18) •

فالرجل أراد بكتابه اصلاح حال الامة الاسلامية وحالة مجتمعه الذي طغت عليه الضلالات وهو يعتبر ذلك جهادا في سبيل الله ، كما كرر ذلك أكثر من مرة • وهو لا يبالي ببغض المبغضين ، ولا بحقد الحاقدين عليه من أجله ، لان له من تأليفه هدفا أسمى وغاية حسنى •

د. أبو القاسم سعد الله

---

(18) أورد الفكون هذه السطور في كتابه (فتح اللطيف) الذي سنتحدث عنه .


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



الحياة الاجتماعية فى ولاية طرابلس الغرب العثمانية فى العصر العثمانى الاخير (1835 ـ 1911 م.)

د. رأفت غنيمى الشيخ
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
عميد كلية الآداب ـ جامعة الزقازيق

مقدمة

جاء العثمانيون الى طرابلس الغرب بوصول حملة عسكرية بقيادة سنان باشا قائد الاسطول العثمانى فى 13 شعبان 958 هـ الموافق 16 أغسطس 1551م لانهاء حكم فرسان القديس يوحنا الذين استقر بهم المقام فى مالطة ومنها تسلموا السيطرة على طرابلس خلفا للسيطرة الاسبانية عام 1535 م .

وكان استيلاء العثمانيين على طرابلس يمثل اتمام الحلقة فى أملاك الدولة العثمانية بعد استيلائهم على مصر عام 1517 م من يد المماليك وورثوا دولتهم ، وبعد أن امتد نفوذهم بصفة فعلية على الجزائر عام 1518 م ، ولذلك كان مجىء العثمانيين الى طرابلس شيئا طبيعيا يتسق مع تطور الاحداث التى مرت بالعالم العربى الذى أخذت أجزاؤه تخضع للقوة العثمانية التى أخذت تمد سلطانها على هذه الاجزاء سواء فى المشرق أو فى الشمال الافريقى .

كما كان استيلاء العثمانيين على طرابلس الغرب يمثل قمة الصراع البحرى بين الاسطول العثمانى وأساطيل الدول الاوروبية المنافسة مثل اسبانيا التى تمثل القوة المسيحية الاوروبية ، ثم أسطول فرسان القديس يوحنا الذين كان نشاطهم صليبيا ضد الاراضى العربية الاسلامية وأهلها الذين مارسوا عمليات جهاد بحرى اسلامى ضد السفن الاجنبية المعتدية والمعادية .

ولذلك كان استنجاد جماعة من أهل تاجوراء (1) الذين ركبوا «شنيا» ـ سفينة ـ وتوجهوا لصاحب القسطنطينية (2) عام 956 هـ الموافق لعام 1549م، وكان صاحب القسطنطينية اذا ذاك السلطان سليمان الاول ، يطلبون منه العون للتخلص من النصارى (فرسان القديس يوحنا) ، وأن يولى عليهم واليا يلى أمرهم ، فاستعمل عليهم «مراد أغا» وقدموا به لبلدهم ، وهو أول وال تركى فى طرابلس الغرب (3) .

---

(1) ضاحية قريبة من طرابلس الغرب .
(2) يعني استامبول أو اسلامبول عاصمة الدولة العثمانية .
(3) ابن غلبون : تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ص 93 .

وبهذا كان استنجاد أهل تاجوراء بالسلطان العثمانى لتخليص بلادهم من عسف الفرسان المالطيين هو السبب المباشر الذى أدى الى مجىء العثمانيين الى طرابلس الغرب وهو السبب الذى عجل بقدومهم ، حيث أوقف أهل تاجوراء العثمانيين على أحوال البلاد وضعفها واستعداد أهلها للقيام فى وجه فرسان مالطة اذا وجدوا قوة عثمانية مسلمة تؤازرهم .

استمر العثمانيون يحكمون ولاية طرابلس الغرب حكما مباشرا من 1551 م حتى نجح أحمد القرمانلى (4) فى ارتقاء كرسى الباشوية فى الولاية عام 1711 م مكونا أسرة وراثية ظلت تحكم لمدة 124 سنة انتهت عام 1835 م بعودة الحكم العثمانى المباشر الى الولاية بعد أن اتخذ أمراء الاسرة القرمانلية سياسة المغالاة فى فرض الضرائب على السكان واتخاذ الاساليب التعسفية فى جمعها على يد جند الانكشارية والقولوغلية (5) ، واتباع سياسة مهاجمة السفن الاجنبية فى البحر المتوسط فى مغالاة أدت الى تحالف بين الدول الاوروبية ضد حكام الولاية كما أدت الى ثورات أهل البلاد أنهت حكم الاسرة القرمانلية (6) .

وبعد انتهاء حكم الاسرة القرمانلية فى ولاية طرابلس الغرب عاشت الولاية عصرا من الحكم العثمانى الاخير حيث استمر هذا العصر من عام 1835 م حتى عام 1911 م عندما جاء المستعمرون الايطاليون الى البلاد واحتلوها وأنهوا الحكم العثمانى للولاية الذى استمر 360 سنة .

وقد امتد الحكم العثمانى الاخير لولاية طرابلس الغرب لمدة سبعة وسبعين سنة تولى الحكم خلالها ثلاثة وثلاثون واليا تراوحت مدة ولاية بعضهم بين سنة وعدة شهور وعدة سنوات . وقد أعطى هذا العصر ـ العصر العثمانى الاخير ـ أهمية كبيرة نظرا لقربه تاريخيا ولارتباطه بالاطماع الاستعمارية الاوروبية فى طرابلس الغرب بعد أن أصبحت الدولة العثمانية رجل أوروبا المريض ، كما كان الاوروبيون يطلقون عليها ، عاجزة عن الدفاع عن ممتلكاتها العربية بوجه خاص ضد أطماع الدول الاوروبية (7) .

جاء الحكم العثمانى المباشر لولاية طرابلس الغرب بناء على طلب أهالى الولاية من السلطان العثمانى للتدخل من أجل انهاء حكم الاسرة القرمانلية ذلك الحكم الذى لم يستطع أن يضمن لاهل الولاية الاستقرار والتقدم ، بل لم يستطع حتى أن يحميهم من القوى العثمانية الداخلية والمتصارعة على الحكم والمتسابقة لجمع الاموال من أفراد الشعب المغلوب على أمره .

---

(4) سليل أسرة تركية وفدت من بلدة قرمانيا بالأناضول في أوائل الحكم العثماني لولاية طرابلس الغرب .

(5) فرقة عسكرية نتجت من زيجات بين ابناء أتراك وأمهات عربيات .

(6) أحمد النائب الأنصاري : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ص 345 .

(7) د. رافت الشيخ : تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة ص 44 .

لقد شهدت الولاية خلال هذا العصر العثمانى الاخير تصارعا بين ثلاثة قوى هى : العثمانيون والاوروبيون وأهل الولاية ـ أما العثمانيون فقد انعكست تطورات الاحداث فى الدولة العثمانية على الولايات ومنها ولاية طرابلس الغرب، خاصة أن هذه الفترة شهدت اجراءات تهدف الى اصلاح أحوال «الرجل المريض» ، وتمثلت هذه الاصلاحات فيما عرف «بالتنظيمات» لتنظيم أمور الدولة على أسس جديدة فى مختلف المجالات والتى استغرقت الاعوام من 1839 الى 1878 م (9) .

وكانت القوة العثمانية على مسرح الاحداث فى ولاية طرابلس الغرب فى العصر العثمانى الاخير هى قوة الاستعمار الاوروبى الذى كان يتطلع الى اقتطاع ما تبقى من ممتلكات الدولة العثمانية وخاصة فى شمال افريقيا ، بعد أن ظهر التنافس الانجليزى على مصر أثناء الحملة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر .

وبعد أن احتلت فرنسا الجزائر عام 1830 م تطلعت ـ فرنسا ـ وشاركتها ايطاليا في تطلعها الى استعمار تونس ، فلما فوجئت ايطاليا بانسياب الجيوش الفرنسية من الجزائر الى تونس عام 1881 م ، عولت ـ ايطاليا ـ على اللحاق بالمركب الاستعمارى فوجهت أنظارها الى ولاية طرابلس الغرب ، ومن هنا شهدت سنوات هذا العصر تنافسا بين قناصل انجلترا وفرنسا فى طرابلس، كما شهدت نشاطا استعماريا ايطاليا انتهى بالاحتلال الايطالى للولاية عام 1911 م (9) .

وأما القوة الثالثة فكانت أهل الولاية وتحركاتهم أمام الاستبداد العثمانى المتحكم بمقدراتهم والاطماع الاستعمارية المستندة الى الامتيازات الاجنبية الممنوحة للاوروبيين ، وكانت تحركات أهل الولاية استجابة لتحدى الاوضاع السيئة التى سيطرت على حياة الناس ، وهذا يعنى أنها كانت بدايات ذاتية نتيجة أوضاع داخلية (10) .

ولكن أهل الولاية واجهوا الاطماع الخارجية ، وظهرت زعامات وطنية تواجه سوء الادارة العثمانية داخل الولاية ، كما تواجه الاطماع الاستعمارية فى نفس الوقت ، ومن هؤلاء السنوسيون فى برقة ، والشيخ سليمان البارونى فى الجبل الغربى بطرابلس ، وعبد الجليل سيف النصر فى فزان ، وغوما المحمودى فى «يفرن» بالجبل الغربى أيضا وغيرهم .

ورغم ذلك فقد شهدت الولاية فى العصر العثمانى الاخير تواجد بعض الولاة المصلحين أمثال على رضا باشا الجزايرلى ، وأحمد راسم باشا ونامق باشا

(8) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ص 74 .
(9) د. رأفت الشيخ : العرب : دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر ص 196 .
(10) د. عبد العزيز الدوري : الجذور التاريخية للقومية العربية 56 .

ورجب باشا الذين ساهموا فى التخفيف عن أهل الولاية بتقديم خدمات عمرانية وتعليمية وصحية وغيرها استفاد منها الاهالى ٠

لكى نتحدث عن الحياة الاجتماعية فى ولاية طرابلس الغرب أثناء العصر العثمانى الاخير 1835 ـ 1911 م ، لابد لنا من دراسة تكوين المجتمع فى الولاية للوقوف على القوى الاجتماعية المختلفة ونشاطها والتى تتمثل أساسا فى زواياهم المنظمة فى برقة ، والقبائل العربية فى اقليمى طرابلس وفزان ، الى جانب اليهود الذين تواجدوا فى بعض مدن الولاية ونشطوا فى النواحى الاقتصادية ٠

أولا : السنوسيون فى برقة :

ـ السنوسيون هم أتباع السيد محمد بن على السنوسى الخطابى الادريسى، كما ورد فى الرسالة الموضوعة فى نبذة سرية من أحوال بنى صاحب الرسالة ذوى الفضل والجلالة والعلا حائزى قصب السبق فى كل ملأ المسماة بالدرر السنية فى أخبار السلالة الادريسية (11) ٠

وكان موقع اقليم برقة وظروفه الطبيعية التى ساعدت على اتخاذه مقرا لدعوة السيد محمد بن على السنوسى ، فوقوع الاقليم على حدود مصر الغربية حيث تفصلها الصحراء عن وادى النيل جعلها بعيدا عن أطماع محمد على لضمها أثناء مشروعاته العربية ، كما أن الصحراء تفصل برقة عن طرابلس حيث كان الحكم العثمانى قد عاد فقط الى المدن الساحلية ببرقة تاركا المناطق الداخلية تحت تأثير القبائل العربية وسيطرتها وحروبها ٠

وكان سكان برقة عربا ينتظمون فى قبائل بدوية كثيرة التناحر ، واذا كانوا قد ساد بينهم الاسلام مع تعدد القبائل فان قلة عدد السكان وتجانسهم فى التكوين البشرى ، وخلو الاقليم من الاقليات كانت من العوامل المشجعة لظهور محمد بن على السنوسى وحركته الاصلاحية ٠

وفى ظل هذه الظروف شهدت برقة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كغيرها من الاقطار الاسلامية انتشار البدع والخرافات بين الناس ، وان كانت قد عرفت من التقاليد ما يبشر بنجاح دعوة محمد بن على السنوسى ، فوجود «العالم» وهو الشخص الذى يجيد القراءة والكتابة ويحفظ القرآن الكريم كله أو بعضه ،ووجود «المرابط» الذى يشتهر بالتدين والتصوف الى جانب «المحكم» الذى يفصل فى الخصومات بين القبائل ، ان وجود هؤلاء فى وسط قبائل بدوية يقلل من البدع التى لجأ اليها البعض ويخفف من غلواء العداء القبلى (12) ٠

---

(11) محمد بن علي السنوسي : الدرر السنية في السلالة الإدريسية ص 11 .

(12) د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص 169 .

ومن الامثلة على سوء أحوال المجتمع البرقاوى ما تذكره الروايات من أن بعض أصحاب النفوذ من شيوخ البدو فى الجبل الاخضر شمال برقة بنوا ضربا من الكعبة قصدوا به تقليد البيت الحرام الذى قضى الاسلام بحجه على كل من استطاع اليه سبيلا ، وقد أراد مؤسسو هذه الكعبة الزائفة أن يدخلوا فى أذهان البدو أن زيارتها تقوم مقام حج بيت الله الحرام (13) .

وكان من أثر الضعف الذى ألم بالولاية العثمانية وفيها اقليم برقة وتفشى الجهل بين القبائل ثم ضياع نفوذ الحكومة من دواخل هذا الاقليم أن أنصرف الناس عن اقامة شعائر الدين ، واشتغلوا بأمر دنياهم ، وما كان الاهتمام بالدنيا فى عادات هذه القبائل المتنقلة والبعيدة عن نفوذ الحكومة وسلطانها سوى الامعان فى أعمال السلب والنهب وقطع الطرق على القوافل .

والامثلة كثيرة على التضليل الذى لجأ اليه أهل برقة للتحلل من التمسك بشعائر الدين ، فتذكر الروايات أنه كان هناك فى برقة وادى اسمه وادى «زازا» معروف بقوة رجع صدى الصوت وأن الناس الراغبين فى عدم صوم شهر رمضان كانوا يذهبون الى هذا الوادى قبل حلول شهر رمضان بأيام ويصرخون جميعا سائلين : أى وادى «زازا» أنصوم رمضان أم لا ؟ فيجيب الصدى بالكلمة الاخيرة من هذه الجملة وهى «لا» ويتصور من سأل ذلك الوادى أنهم أصبحوا فى حل من الصوم فيفطرون غير مقيدين بأوامر الدين الحنيف قانعين بأن الامر صدر اليهم بعدم الصوم (14) .

هذا الى جانب أن بعض قبائل برقة قد عادت الى العادات العربية المرذولة التى اعتادها العرب أيام جاهليتهم كوأد البنات مخافة العار وتقديس الجماد من أشجار وأحجار .

وازاء هذه الظروف الاجتماعية السائدة فى برقة فقد جاءت الدعوة السنوسية الى الاقليم ببناء أول زاوية هى الزاوية البيضاء عام 1259 هـ الموافق 1843 م باعتبارها دعوة دينية مدنية واجتماعية ، تقوم على الدعوة الى مبادىء الاسلام قوامها الايمان الصحيح والعمل الصالح والانتاج والتنظيم السياسى داخل هذا الاطار العام الذى عرفه الاسلام وقبل به المسلمون الصالحون فى جميع أطوار تاريخه (15) .

وقد اعتمد السيد محمد بن على السنوسى على الزوايا كأداة لتنفيذ مبادىء دعوته الدينية الاجتماعية ، حيث كانت الزوايا السنوسية مركزا للحياة الروحية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وبمعنى آخر أنها كانت مراكز نشاط اجتماعى ودينى كبير ، اذ يعنى الشيوخ ــ شيوخ الزوايا وأتباع

(13) أحمد حسنين : في صحراء ليبيا ص 48 .
(14) د. محمد فواد شكري : السنوسية دين ودولة ص 26 .
(15) د. أحمد الدجاني : أحاديث عن تاريخ ليبيا ص 79 .

السنوسية من أفراد القبائل والعشائر بشؤون الدين والدنيا معا ، ذلك لان الدعوة السنوسية تحرم قبل كل شيء التسول بل وتأمرهم بالكد والسعى من أجل عيشهم على أساس الاخوة والتعاون : فتتطلب من أتباعها العمل فى الزرع والتعمير والانشاء (16) .

وكان الهدف من انشاء الزوايا عند السيد محمد بن على السنوسى أن تكون خلية حية منتجة يقوم فيها الشيخ بامامة المسلمين عند الصلاة وتعليم القرآن الكريم وعلومه ، الى جانب نشاط أهل الزاوية الزراعى حتى تبتهج الارض حولها بأنواع الاشجار ، ويكثر بها السكان لكثرة الثمار ، وتنتشر العمارة وتتسع الادارة (17) .

ويصف السيد محمد بن على السنوسى رسالة الزوايا فى رسالة الى والى طرابلس المشير محمد أمين باشا : نريد أن تكون تلك العمارة ـ الزوايا ـ مستمرة ، ونفوس سكانها مستقرة ليحصل المقصود منها ، ويدوم من تعلم العلم وتعليمه واقراء القرآن الكريم وتفهيمه ، واقامة شعائر الدين للوافدين عليها والمقيمين بها (18) .

ومعنى هذا أن الزوايا كانت لها وظائف انسانية وروحية واقتصادية ، فالى جانب رسالتها التعليمية والدينية فقد كانت تقوم باطعام الغرباء وايوائهم وفض الخلافات بين القبائل والافراد وتنظيم الشؤون الاجتماعية للناس فى معاملاتهم الشخصية اليومية ، ومعالجة الامراض الاجتماعية ، وارشاد الناس الى جوهر الدين الاسلامى بالاضافة الى الاستعداد للدفاع عن الزاوية ضد الاعداء (19) .

وكانت كل زاوية تبنى على قطعة من الارض تهبها القبيلة التى تطلب انشاء زاوية فى أراضيها ـ وذلك كما جاء فى التعليمات الخاصة بنظام الزوايا ـ وتعتبر قطعة الارض التى بنيت فوقها الزاوية والمساحة المتفق عليها من جهاتها الاربعة وقفا ، ويقوم أفراد القبيلة بتكاليف بناء المسجد والمدرسة وبيت شيخ الزاوية ، كما يقومون بتقديم عمل يوم واحد خدمة للزاوية أثناء بنائها وفى موسم الحرث والحصاد ، وأن يكون الحرم المتفق عليه حول الزاوية حرما آمنا لمن استجار به يلقى الحماية دون أن يمسه أحد بسوء .

وكانت الوظيفة الاجتماعية للزوايا تتمثل فى استضافة العابرين لمدة ثلاثة أيام كما تقضى العادات العربية ، والفصل فى الخصومات بين الناس بالحسنى ، والمصالحة بين القبائل المتنافرة المتحاربة ، وتأمين الطرق عبر الصحراء من

(16) د. نقولا زيادة : ليبيا من الاستعمار الإيطالي الى الإستقلال ص 71 .
(17) أحمد الدجاني : المرجع السابق ص 85 .
(18) محمد الطيب الأشهب : السنوسي الكبير ص 24 .
(19) د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص 177 .

قطاع الطرق والمغيرين بهدايتهم والمؤاخاة بين أبناء القبائل البرقاوية ، كل ذلك وغيره جعل من الزوايا مركز اشعاع علمي ومنبع دعوة اسلامية مهذبة صحيحة جددت من آثار الاسلام ما درس منها في حقب طويلة توالت على صحراء برقة كانت السيادة فيها للجهل والفقر والفوضى (20) .

ونتيجة لدور الزوايا في برقة من النواحي الاجتماعية فقد انتظمت كل قبائل برقة في التنظيم السنوسي وصارت هناك زاوية بكل قبيلة بل كل عشيرة حتى أصبحت برقة بفضل السنوسية على قلب رجل واحد من حيث الترابط الاخوي والتكافل الاجتماعي .

ولهذا لانعجب أن نجد محمد بن عثمان الحشائشي التونسي يصف أهل برقة السنوسيين بقوله : انهم أعراب بادية ، لسانهم طلق فصيح بالعربية ، وطباعهم حسنة وأخلاقهم طيبة لينة معتقدين في شيخهم السنوسي اعتقادا لا تزحزحه الجبال ، ويخافون الله ورسوله والامن وعدم الخوف ضرب أطنابه في ربوعهم (21) .

ومع ذلك فقد حرص صاحب الدعوة ــ السيد محمد بن علي السنوسي ــ على اظهار الولاء للخلافة العثمانية وسلطانها في كل المناسبات والظروف (22) ، وقد ضمن للدولة العثمانية استقرار الامور بين القبائل البرقاوية التي تنتشر بينها زواياه ، بل وضمن للحكم العثماني المتمركز في السواحل والمدن الليبية تحصيل الضرائب ، والقضاء بين أهل القبائل البرقاوية في صحراء برقة ، ومن ثم كانت علاقة هذه القبائل بالسنوسية وليس بالدولة العثمانية .

وكان قيام السنوسية بدور أكبر تأثيرا بديلا عن الحكم العثماني في مصلحة الولاية اذ أن تأمين تحصيل الضرائب كان يحول دون الحكم العثماني ومحاولة فرض سلطانها الامر الذي كان من الممكن أن يؤدي الى ثورات شعبية كثيرة مسلحة ، وصدام بين الحاكم والمحكوم كانت البلاد في غنى عنه (23) .

وقد ساعد على حسن العلاقة بين السنوسية والدولة العثمانية استمرار المراسلات بين صاحب الدعوة والسلطان العثماني ، فجاءت رسل السلطان الى السيد محمد بن علي السنوسي في الجغبوب ، والى السيد محمد المهدي في الكفرة ، كما وصلت الى استانبول رسل السنوسية ونتيجة للعلاقة الطيبة بين الدولة العثمانية والسنوسية منح السلطان عبد المجيد الاول الزوايا السنوسية في عام 1865 م فرمانا يعفي جميع أملاكها من دفع الضرائب ، ويسمح لرئيسها

(20) محمد الطيب الأشهب : عمر المختار ص 44 .
(21) الحشائش : جلاء الكرب عن طرابلس الغرب ص 98 .
(22) مصطفى بعيو : دراسات في التاريخ اللوبي ص 69 .
(23) د. نقولا زيادة : المرجع السابق ص 77 .

بجمع الاعشار الدينية من أتباعها (24) . وفى أيام السلطان عبد العزيز أخى السلطان عبد المجيد أرسل فرمان ثان الى حاكم طرابلس الغرب ـ الذى كانت برقة فى ايالته ـ ثبت فيه امتيازات الزوايا السنوسية ، وأضيف اليها أن اعتبرت الزوايا السنوسية (حمى) يمكن أن يلجأ الناس اليه (25) .

وقد استمرت العلاقة طيبة بين الدولة العثمانية والسنوسيين ، وكان من آثار دعم هذه العلاقة الطيبة بين الدولة والسنوسيين أن وجدت الدعوة السنوسية أتباعا أقوياء لها فى استانبول وفى بلاد السلطان بصفة خاصة ، وكذلك وجدت السنوسية أتباعا لها بين كبار رجال الدولة الآخرين ، كما لم يلبث أن عظم شأن شيوخها ومقدمى زواياها فى برقة بل صار بعض الولاة العثمانيين من الاخوان السنوسيين .

كما كان من أثر ازدياد قوة السنوسية فى برقة بل وفى طرابلس ايضا أن الاخوان فى الزوايا الساحلية صاروا معفين رسميا من الاموال الاميرية والاعشار الشرعية ، بينما كانوا لا يقدمون الى الحكومة فى الزوايا الاخرى الكبيرة فى طربلس والخمس وبنغازى الا ما يرونه ملائما لمصالحهم . هذا بالاضافة الى ان السلطة الفعلية فى برقة بصفة خاصة دينية وزمنية صارت بيد شيوخ الزوايا السنوسية (26) .

ولكن عندما حدثت الثورة التركية التى انتهت بخلع السلطان عبد الحميد عام 1909 م والتى قادها «جماعة الاتحاد والترقى» لم تكن السنوسية ترضى بما كانت ترمى اليه جمعية «تركيا الفتاة» من محاولة تتريك العرب أو امكان الغاء الخلافة (27) .

وعندما عقدت تركيا مع ايطاليا معاهدة «لوزان» عام 1912 م تعترف فيه تركيا بالوجود الايطالى فى ولاية طرابلس الغرب رفض السيد أحمد الشريف زعيم السنوسية آنذاك هذا الصلح مظهرا الغضب من تصرف الدولة ، ومن ثم حاول العثمانيون تخفيف أثر هذا الموقف فأوفدوا القائد العثمانى أنور باشا الى السيد أحمد الشريف فى الجغبوب ليبلغه اسناد أمر الامة الليبية الى سيادته ، واخباره بأن الخليفة قد منح الامة الطرابلسية استقلالها تاركا لها الحق فى أن تقرر مصيرها وتدافع عن نفسها (28) .

ونظرا لقوة السنوسيين الاجتماعية والعسكرية فى العصر العثمانى فانهم تصدوا بصلابة للغزو الايطالى لاكثر من عشرين سنة متتالية من 1911 الى 1931م،

(24) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص 71 .
(25) د. نقولا زيادة : المرجع السابق ص 76 .
(26) د. محمد فؤاد شكري : المرجع السابق ص 79 .
(27) د. نقولا زيادة : المرجع السابق ص 78 .
(28) د. محمد فؤاد شكري : المرجع السابق ص 146 .

حيث شارك رجال الزوايا السنوسية وجميع القبائل البرقاوية بزعامة شيوخ الزوايا فى مقاومة الوجود الايطالى وخير مثل لهذا عمر المختار شيخ زاوية القصور السنوسية بالجبل الاخضر والذى قاد الجهاد حتى أسر وقتل عام 1931 م .

ثانيا : القبائل الطرابلسية :

اختلفت الحياة الاجتماعية فى اقليم طرابلس عنها فى اقليم برقة ، فكما رأينا تمتع اقليم برقة بحياة اجتماعية مستقرة فى ظل نظام الزوايا السنوسية المحكم الذى جعل من شيخ كل زاوية ـ وليس شيخ القبيلة التى بنيت بها الزاوية ـ هو صاحب الامر والنهى والحل والعقد كما صار صاحب الدعوة السنوسية صاحب السطوة والكلمة ، حتى يمكن القول أن الاحوال فى برقة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانت خيرا منها فى طرابلس ، وقد أفادت برقة من وجود السنوسيين فائدة كبيرة (29) .

ورغم أن مساحة اقليم طرابلس أقل مساحة من اقليم برقة الا أن سكانه كانوا أكثر عددا من سكان اقليم برقة ، ومن هنا كانت عاصمة الولاية مدينة طرابلس الغرب التى فى نفس الوقت عاصمة الاقليم وأكبر مدنه ، ومن هنا أيضا تعددت مدن الاقليم مثل الزاوية وزوارة وزنزور على الساحل الغربى ـ غرب مدينة طرابلس ـ والخمس وزليطن وسرت ومصراته على الساحل شرق مدينة طرابلس ، الى جانب بعض المدن الداخلية مثل ترهونة ونالوت وبنى وليد وغريان وغدامس وغات ومرزق وسبها فى فزان .

واذا اتفقت الحياة الاجتماعية فى طرابلس مع مثيلتها فى برقة من حيث أن العلاقات بين أفراد المجتمع تقوم على أساس الارتباط القبلى الذى يساعد على تماسك المجتمع بعض الشىء وأن دين كل أفراد القبائل البرقاوية والطرابلسية هو الاسلام ولغتهم هى العربية ، وأن معظمهم يتبعون المذهب المالكى وان اتبع بعض أهالى الجبل الغربى وبلدة زوارة الساحلية المذهب الاباضى وعرفوا بالخوامس (30) .

اذا كان الامر كما ذكرت فان القبائل البرقاوية تخلت عن طبيعتها البدوية القبلية القائمة على الخضوع التام لزعيم القبيلة والقائمة أيضا على القتال للغزو والسلب وقطع الطرق ، بينما ظلت القبائل الطرابلسية متمسكة بزعامتها القبلية دون النظر الى فكرة وطنية أو فكرة دينية ، كما ظلت تمارس العمليات الحربية ضد بعضها البعض ، وان شهد العصر العثمانى الثانى الذى نحن بصدد دراسته ثورات كثير من الزعماء الطرابلسيين أمثال عثمان أغا فى مصراته ، وغومة

---

(29) د. نقولا زيادة : المرجع السابق ص 57 .

(30) د. أحمد الدجاني : ليبيا قبيل الإحتلال الإيطالي ص 217 .

المحمودى فى «يفرن» بالجبل الغربى ، وعبد الجليل سيف النصر فى فزان ، وغيرهم (31) ، كما شهد خلافا بين زعماء قبائل مصراته وبنى وليـد وبين القبائل الطرابلسية والسنوسية .

ولسنا هنا فى مجال تعداد قبائل طرابلس الا أنهم يتفقـون فى أسلـوب معيشتهم حيث يعتمدون على تربية ورعى الماشية وزراعة بعض المحاصيل مثل الشعير والقمح خاصة فى المناطق الساحلية أو الاماكن الداخلية التى تتوفر فيها مياه الامطار أو الابار ، وهم محكومون بالعادات والتقاليد البدوية منعزلون عن الحضارة الغربية يتصفون بالخشونة والصلابة يتخذون من الخيام مساكن لهم فى البادية (32) .

وأما سكان المدن من القبائل فقد كانوا أكثر تحضـرا بسبب احتكـاكهم بالاجانب كما اشتغلوا بالتجارة وارتبطوا بالسلطة العثمانية واستفادوا مـن الخدمات المدنية التى شهدتها تلك المدن الطرابلسية كالتعليم والصحة ، وان تأثروا بالنزاعات بين الفرق العسكرية العثمانية .

ثالثا : اليهود :

عاش فى بعض مدن الولاية كطرابلس وبنغازى جماعات من اليهود الذين كانت لهم «حارات» خاصة بهم ، وكانت هذه الجماعات التى قدر عددها بحوالى أربعة آلاف نشطة فى حياة المجتمع الليبى اذ سيطرت على النواحى الاقتصادية فى البلاد .

وقد اعتبرت الدولة العثمانية شؤون التعليم فى جملة الامـور المـرتبطـة بالاديان والمذاهب فخولت لليهود حق تأسيس المدارس وادارتها أيضا واختيار لغة التعليم ، ولهذا عاش اليهود متمتعين بالامتيازات التى سمحت بها الدولة العثمانية ،ومن ثم استمروا كقوة متماسكة محافظة على نفسها من الزوال أو الذوبان داخل المجتمع الاسلامى (33) .

وقد انشأت الطائفة اليهودية بمدينة طرابلس بمساعدة المـؤتمر اليهـودى العالمى أول مدرسة حديثة عام 1804 م حيث تدرس فيها اللغة العبرية واللغة الفرنسية حتى عام 1911 م ثم أضيفت اللغة الايطالية .

كما أنشأ بعض رؤساء الطائفة اليهودية بمدينة طرابلس عام 1876 م مدرسة لتدريب الشبان اليهود على الاعمال التجارية ، هذا الى جانب أن دروس الدين الاسرائيلى كانت تعطى للجماعات اليهودية فى مدارس تسمى التلمود ملحقة بمعابد اليهود (34) .

---

(31) د. رأفت الشيخ : تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة ص 46 .
(32) د. أحمد الدجاني : المرجع السابق ص 221 .
(33) د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص 112 .
(34) Annual Report of the U.N. Commissioner in libya, p. 85.

وكانت بعض مدارس اليهود تقام بجهود اليهود الموجودين فى ليبيا أو من قبل الاتحاد العالمى الاسرائيلى ومقره باريس ، كما هو الحال بالنسبة للمدرسة التى تأسست عام 1901 م تحت اسم «اليانس اسرائيليت» (35) وهى مقسمة الى قسمين : قسم للذكور وقسم للاناث ومن يحوز شهادته بتفوق من الطلاب يرسل لاتمام تعليمه فى تونس أو فى فرنسا ، وقد خصص الاتحاد الاسرائيلى العالمى للصرف على هذه المدرسة 16500 فرنك فرنسى سنويا ، أى ما يوازى 825 جنيه ذهب بواقع الجنيه يساوى 20 فرنك (36) .

ويحتوى ملف المعارف بدار المحفوظات التاريخية بطرابلس تراخيص عدة أصدرتها الادارة العثمانية بالولاية لانشاء مدارس يهودية من أمثلتها ترخيص صدر عام 1892 م لاحد اليهود لفتح مدرسة لتعليم ابناء اليهود داخل معبد اليهود بطرابلس التلمود وتفسير التوراة . وطلب ترخيص مقدم من أحد اليهود أيضا عام 1901 م يطلب فتح مدرسة لتعليم أبناء اليهود فى معبدهم باللغة العبرية . وطلب فى 4 فبراير 1901 م مقدم من الاتحاد الاسرائيلى العالمى الى الوالى لفتح مدرسة اسرائيلية ، ووثيقة باسماء المعلمين اليهود الذين يعملون بمدرسة مكونة من خمسة صفوف مفتوحة عام 1896 تدرس فيها التوراة والزبور باللغة العبرية والقراءة والاملاء والحساب باللغة العربية ، وتاريخ أنبياء بنى اسرائيل باللغة التركية (37) .

وفى احصائية عن التعليم أوردها محمود ناجى فى كتابه «طرابلس غرب» ترجع الى عام 1902 م تبين أن عدد التلاميذ فى المدارس اليهودية بطرابلس بلغ 25 طالبا و60 طالبة فى تلك السنة . وهذه الاحصائية توضح أن اليهود فى الولاية اهتموا بتعليم بناتهم وأنهم يهتمون بعملية التعليم المنتج أى التعليم الذى يجعل من اليهودى صاحب مصدر كبير للدخل والثروة ، ولذلك كانت طائفة اليهود فى ليبيا أول طائفة تفتح مدرسة لتعليم أبنائها الاعمال التجارية (38) .

ومن دراستنا للتعليم فى مدارس اليهود نجد أنهم كانوا أول من أدرك أهمية الاتصال بأوروبا ، فبينما كان العرب المسلمون فى ليبيا مفروضا عليهم العزلة وعدم اتاحة فرص الاتصال بالاوروبيين نجد اليهود يعلمون أبناءهم أهم اللغات الاوروبية كالفرنسية وبعض العلوم الحديثة التى تتيح لهم الاستفادة من التقدم الاوروبى ،ولذلك لا نعجب أن رأينا يهود ليبيا هم حلقة الاتصال بين الليبيين وأوروبا .

---

(35) الإتحاد الإسرائيلي العالمي Aliance Israelite Universelle. .

(36) محمود ناجي : طرابلس غرب (تركي) .

(37) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس – ملف المعارف .

(38) د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص 114 .

وعلى هذا فقد عمل يهود طرابلس الغرب فى الحرف اليدوية الصناعية وفى التجارة والامور المصرفية ، وكان من بينهم عدد من أصحاب الثروات الذين كانوا يشاركون فى تجارة القوافل وأن فئة التجار اليهود كانت ـ كما يذكر الرحالة ـ تعيش فى أوضاع حسنة ، وقد تجنس بعضهم بجنسيات أجنبية نالوا بها حماية القناصل ، هذا فى الوقت الذى أشاد فيه الرحالة بمعاملة العثمانيين لليهود معاملة حسنة رغم عادات اليهود الخسيسة كتعاملهم بالربا بصورة مفرطة وكقذارة حاراتهم (39) .

رابعا : الزنوج :

وفد الى الولاية جماعات من الافارقة جنوب الصحراء من العناصر الزنجية وعاشوا فيها ، جاء بعضهم بالهجرة الى الشمال سعيا وراء الرزق وخاصة مع تجارة القوافل وخاصة فى تجارة نبات الحلفا الذى كان سلعة مطلوبة فى أوروبا لها تجارها الاوروبيون وتحتاج الى أيدى عاملة كثيرة من أجل ربط حزم الحلفا وتحميلها ونقلها .

كما كان وجود البعض الآخر من العناصر الزنجية فى الولاية راجع الى تجارة الرقيق حيث شهد القرن التاسع عشر نشاطا متضادا بين بقاء الرق والغائه ، فبينما التزمت الدولة العثمانية بالقرارات الدولية منذ مؤتمر فيينا عام 1815 م بالغاء الرق ، وبالتالى طالبت من والى طرابلس الغرب ـ شأنه شأن بقية الولاة العثمانيين فى الولايات الاخرى ـ الالتزام بالغاء الرق ، استمر وجود الارقاء فى الولاية .

وفى دار المحفوظات التاريخية بطرابلس وثائق تشير الى وجود تجارة الرقيق وامتلاك أهل الولاية لارقاء منذ أن كانت تجارة القوافل تشمل بضائع من وسط افريقيا وغربها . ومن أمثلة هذه الوثائق أوامر الدولة العثمانية لوالى طرابلس بضرورة وقف عملية الاتجار فى الرقيق وتحرير الرقيق المملوك للاحرار (40) .

كذلك هناك وثائق عبارة عن تعليمات الوالى الى المتصرفيات والاقضية تطلب التشديد فى مكافحة الرق وتسليم أوراق العتق من مركز الولاية ، وتوقيع العقوبات على المخالفين لامر المكافحة ، وبناء على منشورات الوالى للمتصرفيات والاقضية بادر كل متصرف أو قائمقام بنشر أوامر الوالى على الاهالى .

وتذكر وثيقة مؤرخة فى 12 جماد الاول 1311 هـ من الوالى أحمد راسم باشا الى قائمقام غريان مانصه : بلغنا أنه يجلب خفية مع قوافل السودان بعض الرقيق الزنجى من السودان ويباع آحادا وأزواجا داخل الولاية ، واذا حدث

---

(39) د. أحمد الدجاني : المرجع السابق ص 227 .

(40) د. رأفت الشيخ : العرب دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر ص 215 .

هذا الامر يكون مخالفا للامر القطعي بالمنع وموجب للمسؤولية الشديدة ضد موظفي الدولة الذين يغمضون العين ويتسامحون مثقال ذرة في هذا الصدد (41)

ويستفاد من هذه الوثيقة استمرار ورود العناصر الزنجية حتى عصر ولاية أحمد راسم باشا التى امتدت من 1882 الى 1896 م ، واقامتها في الولاية ، وموقف السلطات العثمانية الانسانى بتطبيق مكافحة الرق بشقيه : منع الاتجار أى ايقاف عمليات البيع والشراء ، وتحرير الرقيق المملوك للأحرار .

وحياة الزنوج الاجتماعية في الولاية لا تختلف عن حياتهم في أوطانهم جنوب الصحراء ، من حيث الصبر والقيام بالاعمال الشاقة ، ومع ذلك فهم لا يتخلون عن الرقص والضحك والمرح ، حتى وصفوا بأنهم أسعد أهل الولاية. وقد دخل العنصر الزنجى في تركيب الكثيرين من سكان اقليم فزان ، وكانت بيوتهم عبارة عن «زريبة» وهى كوخ من عسف النخيل ، تمثل قرى مرتبطة ومتجمعة (42) .

خامسا : الطوارق والتيبو :

يعيش الطوارق في صحراء اقليم فزان ومركز مدينة «غات» وهم طوال القامة سمر البشرة وان كانت بعض قبائلهم خاصة الساكنة جهة الغرب بيض البشرة، وان اتفقوا جميعا في وضع اللثام على وجوههم بحيث لا يبدو منها سوى العينين .

وليس معروفا على وجه الدقة عددهم في العصر العثمانى الاخير الذى نحن بصدد دراسته وان كان المرجح أنهم يتجاووزن بضعة آلاف قد تصل الى عشرة، وهم يحتفظون بعاداتهم الاولى البدائية حتى في صنع أدواتهم ويتسلحون بالسيوف والحراب والسكاكين ، ويرتدون الملابس القطنية الزرقاء ، وهم منعزلون عن العالم ، ويستخدمون الابل في تنقلاتهم بل وفي تجارتهم حيث يعرفون مسالك الصحراء ودروبها .

والطوارق ينتسبون الى أهل أمهاتهم ، وهو يعتبرون أن أهل الام هم أصحاب الزعامة والاحترام في كل شيء ، والذين لهم حق الوراثة هم فرع الام ، ولذلك سجل الرحالة باندهاش وجود نساء من الطوارق يعرفن القراءة والكتابة . وهم يتكلمون لغة البربر ويكتبونها ولها حروف هجائية (43) .

أما التيبو فهم سكان هضبة تبستى التى تقع في أقصى جنوب الولاية ، وهم من الشعوب المولدة حيث لا يتميزون بالصفات الجنسية التى للزنوج كالشفاه

(41) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس ملف تجارة العبيد .
(42) أحمد الدجاني : المرجع السابق ص 224 .
(43) نفس المرجع ص 225 .

الغليظة أو الشعر المفلفل أو الانوف المفوطة ، وليس معروفا عددهم وان كانوا يمثلون تجمعا بشريا فى الولاية فى تبستى (44) ٠

العثمانيون :

يمثل العثمانيون القوة الاجتماعية الثانية في ولاية طرابلس الغرب ٠ وكان العثمانيون يمثلون الطبقة الحاكمة ذات السلطة حيث كان منهم الباشا أو الوالى ، ومنهم قادة الفرق العثمانية العسكرية ـ أى الحامية ـ بتشكيلاتها من انكشارية وقولوغلية (45) وغيرها ، وهؤلاء جميعا تمتعوا بامتيازات باعتبارهم من الطبقة الحاكمة ٠

ومن أمثلة تلك الامتيازات التى تمتع بها العثمانيون فى الولاية فى العصر العثمانى الاخير انشاء المدارس لتعليم أبناء الاتراك من عسكريين ومدنيين المقيمين فى الولاية ، كالمدارس الرشدية العسكرية (46) التى كانت تابعة للقيادة العسكرية فى مركز الولاية ـ مدينة طرابلس ـ وكان كل معلميها من ضباط الحامية ٠ ومن شروط الالتحاق بهذه المدارس معرفة اللغة التركية قراءة وكتابة وحديثا ٠ وكان المعلمون فى المدارس الرشدية المدنية التى أنشئت فى الولاية بعد المدارس الرشدية العسكرية من الاتراك (47) ٠

كما تم انشاء مدرسة رشدية للبنات بطرابلس فى عام 1898 م ، وقد جاء فى رسالة الوالى الى قائد الحامية العثمانية فى 24 صفر سنة 1316 هـ الموافق أول يوليو عام 1898 م يقول فيها بما أن فيه أمر قطعى من الارادة السنية بعدم دوام الاطفال المسلمين فى المدارس الافرنجية وفى ظل حضرة الخليفة جعلنا فى مركز الولاية مدرسة للبنات رشدى حديثة وأحضرنا لهن معلمات مقتدرات من استامبول ، ولذلك لم يكن هناك عذر لهؤلاء الآباء ، أرجو تنبيه الامراء بهذا الخصوص (48) ٠

كما أن الطبقة التركية الحاكمة أشرفت حتى على النشاط الخيرى والاجتماعى فى الولاية ٠ من أمثلة ذلك انشاء جمعية برئاسة حرم الوالى ابراهيم باشا عام 1910 م عرفت باسم : جمعية النسوان العثمانية الخيرية نجمة الهلال يكون مركزها بالمدرسة الرشدية ، والغرض من تأسيسها تهيئة أمهات المستقبل ، لذا ترى من واجبها العمل على تعليم البنات وتربيتهن ومساعدة

---

(44) نفس المرجع ص 226 .

(45) القول أوغلية فرقة عسكرية مولدة بدأ تكوينها الوالي درغوث باشا من عام 1553 حينما سمح لرجاله الأتراك بالزواج من زوجات ليبيات .

(46) المدارس الرشيدية توازي حاليا المدارس الإعدادية حيث تقبل التلاميذ بعد المكاتب الابتدائية .

(47) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس ملف المعارف . أول مدرسة رشدية عسكرية أنشئت عام 1857 م وأول مدرسة رشدية مدنية أنشئت عام 1877 م .

(48) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس ملف المعارف .

المحتاجات منهن ، وتقديم المساعدات المالية لزواج الفقيرات خدمة للوطن والانسانية (49) .

ويحدد منشور انشاء الجمعية مهمتها تفصيلا بأنها تؤدى خدمتها فى مجالين: احدهما علاجى تحت اسم الهلال الاحمر ، والثانى رعاية تحت إسم الشفقة ، وفى المجال الثانى تجمع الجمعية الاشتراكات والتبرعات لتصرف منها فى مساعدة المحتاجين ، وتعليم البنات الادارة المنزلية والحقوق الزوجية وحفظ الصحة وتربية الاطفال والخياطة والنقش والطبخ والغسيل وكى الملابس والنسيج وصنع البسط ورواتب المستخدمين والانارة والتدفئة (50) .

وعندما أقيم حفل افتتاح نشاط الجمعية فى شهر ربيع الاول عام 1328 هـ الموافق أبريل عام 1910 تحدثت حرم الوالى العثمانى الى السيدات عضوات الجمعية قائلة : لقد أضيفت على دروس مكاتبنا الابتدائية والرشدية الموجودة من قديم للاناث بعض دروس توافق العقائد الاسلامية وآدابنا الملية مع كافة أنواع الاشغال اليدوية ، وجلبت معلمة الآن من أوروبا (51) .

وأضافت حرم الوالى قائلة : نعلن بمزيد المفخرة أنه تأسست تحت رياسة العاجزة – أى هى حرم الوالى – جمعية غايتها الخدمة لدار الصناعة والمكاتب المراد تأسيسها اعانة للبنات الفقيرات المسكينات معنى ومادة ، وتعليمهن الخياطة وسائر الاعمال اليدوية ليستفدن بهذه الصورة من كدهن ، فيتداركن رأس المال اللازم ، وتعليم اليتيمات والفقيرات الصنائع لتكون سببا لتأمين معايشهن وقبلا لمصارف جهازهن فى المستقبل (52) .

ومع ذلك ورغم كل ذلك فان هذه الجمعية بمجهوداتها التى أعلن عنها لم تخدم أعدادا يعتد بها من البنات الوطنيات ، ولم يكن من بين أعضاء مجلس الادارة الستة سوى عضوتين أثنتين فقط من الليبيات وان لم تكونا من عامة الشعب ، ولم تستمر هذه الجمعية كثيرا اذ أن الاحتلال الايطالى للولاية وقع بعد عام وبضعة شهور من الاعلان عن تأسيسها .

الاوروبيـون :

استفادت الدول الاوروبية من الامتيازات التى منحتها الدولة العثمانية لها فى الولايات وأخذت كل دولة أوروبية تتطلع الى بسط نفوذها على جزء أو أجزاء من الاقاليم الخاضعة للحكم العثمانى ، مستخدمة عدة أدوات كالارساليات التبشيرية وانشاء المدارس والمستوصفات الطبية وفتح فروع لمصارفها الوطنية

(49) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس ملف المعارف .
(50) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس ملف المعارف .
(51) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس ملف المعارف .
(52) جريدة طرابلس الغرب العدد 1315 السنة 40 .

فى الولايات موضع الاطماع الاستعمارية ، ودفع عشرات المئات بل الآلاف من المهاجرين الاوروبيين للاستيطان فى الولايات العربية (53) ٠

وبالنسبة لولاية طرابلس الغرب فى العصر العثمانى الاخير فقد توافد على مدنها الساحلية بصفة خاصة جماعات من الاوروبيين تتألف غالبا من الايطاليين والمالطيين واليونانيين ، وحيثما كان من الممكن انشاء كنيسة صغيرة فان الاخوان المبشرين ينشؤون مدارس لتعليم الاطفال الطقوس المسيحية ، وتعليمهم كيف يقرأون ويكتبون ، وفى هذه المدارس فانهم يتعلمون اللغة الايطالية وبعض أساسيات التعليم العام (54) ٠

وكانت الجالية الايطالية فى ولاية طرابلس الغرب أكثر الجاليات الاوروبية عددا وأسرع الى الاهتمام باستيطان المهاجرين الايطاليين الجدد ـ بانشاء الكنائس وفتح المدارس ويمكن التاريخ لبداية التعليم الايطالى فى الولاية بعام 1810 م عندما استقر المبشرون الفرنسيون بطرابلس وأنشأوا مدرسة ابتدائية صغيرة للاطفال المسيحيين ـ أبناء الجاليات الاوروبية القليلين فى البلاد آنذاك ، وقد التحق بها أيضا عدد قليل من أبناء أهل الولاية (55) ٠

وفى عام 1846 م استطاعت بعثة اخوات الراعى الصالح الكاثوليكية انشاء مدرسة للبنات اجتذبن فيها بنات من الديانات الثلاث المسيحية واليهودية والاسلام (56) ٠ ولم يقف الامر عند هذا الحد اذ أن ازدياد الجاليات الاوروبية المسيحية فى ولاية طرابلس الغرب قد ادى الى اتخاذ اجراءين : الاول استخدام بعض القسس الذين يعملون ضمن البعثات التبشيرية الكاثوليكية فى الولاية وتفرغهم من العمل الدينى لاعدادهم وقيامهم فى مدارس الارساليات ، وكان الاجراء الثانى هو انشاء مدارس تقام لغرض التعليم (57) ٠

وقد أورد كتاب طرابلس الغرب احصائية عن التعليم الاجنبى فى ولاية طرابلس الغرب فى عام 1802 م جاء فيه أنه كان يدرس بالمدارس الفرنسية فى تلك السنة 150 تلميذا : 80 ولدا و70 بنتا ، بينما كان يدرس بالمدارس الايطالية 541 تلميذا : 231 ولدا ، 310 بنتا فى المدارس الابتدائية بينما كان فى المدرسة الفنية الايطالية 46 طالبا (58) ٠

وان نظرة الى هذه الاحصائية توضح أن عدد أفراد الجالية الايطالية أكثر من غيرهم وهو دليل على سياسة ايطاليا المتأهبة للسيطرة على ولاية طرابلس

(53) د. رأفت الشيخ : تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة ص 114 .

(54) Annual Report *of the U.N. Commissioner in Libya*, p. 85

(55) Greige, s. : Ashort history of Education in Tripolitania, p. 8

(56) Annual Report.. *op. cit.*, p. 85.

(57) Greige, s. : *op. cit.*, p. 10

(58) محمود ناجي : المرجع السابق .

الغرب ، كما أن هناك جاليات أخرى تمثلت فى المالطيين الذين يحملون الجنسية البريطانية والتونسيين الذين يحملون الجنسية الفرنسية الى جانب بعض مجموعات من اليونانيين وأسبان وهولنديين والنمساويين والالمان وان كان معظم أفراد الجاليات الهولندية والاسبانية والنمساوية والالمانية من اليهود . وقد ذكر «كاكيا» أن بطرابلس فى بداية القرن العشرين تسع جاليات أجنبية بينما ضمت بنغازى ست جاليات (59) .

ولنا أن نتصور تأثير وجود هذه الجاليات بسلوك أفرادها الاجتماعى فى وسط عربى مسلم محافظ ، ولنا أن نتصور نشاط هذه الجاليات الاقتصادى فى ولاية لم تأخذ الجانب الحضارى والفنى مجالا لتدريب أبناء البلاد مما أتاح لابناء هذه الجاليات الانفراد بالنشاط الاقتصادى والحرفي وبالتالى التأثير على المواطنين فى الولاية . ولنا أن نتصور أفراد هذه الجاليات بقناصل دولهم فى الولاية فى ظل الامتيازات الاجنبية حيث أصبح كل فرد منهم يتمتع بالحماية فى الوقت الذى حرم فيه المواطن الطرابلسى من مثل هذه الحماية من الحكم العثمانى .

وليس أدل على ذلك مما ذكرته الوثائق التى تحمل صورا للعرائض التى كتبها أهالى الولاية فى أوائل القرن العشرين مطالبين بعدم الاعتماد كلية على الرأسمال والنشاط الاجنبى ومذكرات من موظفى الولاية تنبه الى استغلال الشركات الاجنبية وخاصة شركات تجارة الحلفا للعمال وللناس الذين يبيعون الحلفا (60) .

كما تذكر الوثائق أيضا تدخل قناصل الدول الاوروبية خاصة دول النمسا وبلجيكا واسبانيا والولايات المتحدة الامريكية وفرنسا وبريطانيا وهولنده فى مسألة تحرير الرقيق من أجل التحبب الى الاهالى ، مما دفع بعض الولاة الى منع اقامة الرعايا البريطانيين خارج مدينة طرابلس ـ وكان ذلك عام 1877 م ـ ، ومنع جميع الرعايا الاوروبيين من التنقل فى داخل الولاية (61) .

د. رأفت غنيمى الشيخ
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
عميد كلية الآداب ـ جامعة الزقازيق
مصر

(59) د. أحمد الدجاني : المرجع السابق ص 228 وجوزيف كاكيا (مترجم) : ليبيا في العهد العثماني الثاني ص114 .
(60) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس .
(61) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس .

مصـــادر البحـــث

أولا : الوثـائق :

وثـائق دار المحفوظات التاريخية بطرابلس ، ملفات المعـارف ، القناصل ، الادارة ، تجـارة العبيـد .

ثـانيا : التقـارير :

أ – تقـارير هيئـة الأمم المتحدة تحت عنوان :

— Annual Report of the united Nations Commissioner in libya, presented in consultation with the council for libya, General Assembly, Official Records : Fifth session supplement N/. 15/A/1340. Lake success, New-York, 1950.

ب – تقارير الادارة الاجنبية :

— A.J. steele Greige : A short history of education in Tripolitania, 1947.

ثـالثـا : المراجع :

(1) ابن غلبـون (أبو عبد الله محمـد بن خليل غلبون) : تـاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار . عني بنشره وتصحيحـه والتعليق عليـه الطـاهر الزاوي ، القاهرة 1349 .

(2) أحمـد النائب الأنصاري : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب جزآن الآستـانة 1899 م .

(3) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمـانية .

(4) د. رأفت الشيخ : تطور التعليم في ليبيـا في العصور الحديثـة طرابلس 1972 م .

(5) د. رأفت الشيخ : في تـاريخ العرب الحديث القـاهرة 1975 م .

(6) د. رأفت الشيخ : العرب دراسات في التـاريخ الحديث والمعـاصر ، القـاهرة 1983 م .

(7) عبد العزيز الدوري : الجذور التاريخية للقومية العربية .

(8) محمـد بن علي السنوسي : الدرر السنية في السلالـة الإدريسية .

(9) أحمـد حسنين : في صحراء ليبيـا ، مطبعـة مصر د . ت .

(10) أحمـد صدقي الدجـاني : أحاديث عن تاريخ ليبيـا في القرنين الثامن عشر والتـاسع عشر طرابلس 1968 م .

(11) أحمـد صدقي الدجـاني : ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي أو طرابلس الغرب في آخر العهد العثمـاني الثـاني 1882 – 1911 م القـاهرة 1971 م .

(12) د. محمـد فؤاد شـكري : السنوسية دين ودولـة القـاهرة 1948 م .

(13) محمـد الطيب بن أدريس الأشهب : السنوسي الكبير (عرض وتحليل لدعـامة حركة الأصلاح السنـوسي) القـاهرة 1955 م .

(14) محمد الطيب بن إدريس الأشهب : عمر المختـار (سلسلـة أبطال الجهـاد والسياسـة في ليبيـا) القـاهرة 1958 .

(15) د. نقولا زيـادة : ليبيا من الاستعمـار الإيطالي الى الاستقلال – معهد الدراسات العربية القـاهرة 1957 م .

(16) الحشـائشي « محمـد عثمـان » رحلـة الحشـائشي أو جلاء الـكرب عن طرابلس الغرب دار لبنـان 1965 م .

(17) محمـود ناجي : طرابلس غرب (تركي) دار المحفـوظات التاريخية بطرابلس .

الـدوريـــــات :

(1) جريدة طرابلس غرب : جريدة الولاية الرسميـة صدرت منذ عـام 1866 في طرابلس .

صور من الحياة الاجتماعية في فلسطين في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري / النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي عبر مذكرات « الفارس دارڤيو » (1)

د. ليلى الصباغ

ان الصور الأجتماعية المشار اليها في عنوان هذا البحث ، هي في الواقع لوحة تصويرية واحدة لمجتمع دويلة ، أو شبه دويلة ، عربية أعرابية ، كانت قائمة في القرن الحادى عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، في شمالي فلسطين ، وفي لواء اللجون بالذات من ألوية ولاية دمشق الشام (2) ذلك اللواء الذي كان يمتد بين لواء صفد (من ولاية

---

(1) من توافق الصدف ان التقي مع الباحثة : اليزابيت سرية « Elisabeth Sirriey » حول الاهتمام بـ« مذكرات الفارس دارڤيو » عن بلاد الشام بعامة ، فقد قدمت هذه الباحثة دراسة عن مجموع هذه المذكرات بالنسبة لبلاد الشام ، كنت قد طرحت بعض ما يماثلها في بحث قدمته عن «فلسطين في مذكرات الفارس دارڤيو ـ البنية الطبيعية والبشرية» الى «المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام » الذي انعقد في الجامعة الاردنية بعمان بين 4 ـ 9 جمادي الثانية 1400 هـ / 19 ـ 24 نيسان (ابريل) 1980 ، (وهو لا يزال مرقونا على الالة الكاتبة) . وقد تعرضت فيه لحياة الفارس دارڤيو ، ورحلاته المختلفة ، والى فلسطين بالذات ، واسبابها ولبعض ما قدمه في مجموع مذكراته عن بلاد الشام ، وتونس ، والجزائر ، والدولة العثمانية . كما انني قدمت بحثا آخر عن «الفعاليات الاقتصادية في فلسطين في العقد السابع من القرن السابع عشر الميلادي ، من خلال تلك المذكرات ، للمؤتمر العالمي الخامس للدراسات العثمانية وما قبل العثمانية ، الذي عقد في تونس من 13 ـ 18 سبتمبر 1982 ، ونشر في «المجلة التاريخية المغربية» تونس العدد 29 ـ 30 جويلية 1983 . ص : 255 ـ 322 علما ، ان اهتماماتي بهذه المذكرات يرجع الى عام 1962 ، عندما كنت اعد رسالة الدكتوراه ، وعنوانها : «الجاليات الاوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر» ، وكانت احد مصادري الأساسية وقد نشرت الباحثة دراستها تحت عنوان :

« The Memories of a French Gentelman in Syria, Chevalier Laurent D'Arvieux (1635 — 1702) ; in, Bulletin of the British Society for Middle Eastern Studies, Vol 11, Number, 2-1984

(2) احدث هذا اللواء (السنجق) في (ايالة دمشق الشام) في النصف الثاني من القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد وكان يضم اربع نواح وتسكنه آنذاك (41) اسرة مسلمة . وكان ريع ضرائبه يعادل 15،500 « اقجة » سنويا . وقد سمي باسم مدينة صغيرة فيه ، هي احدى مدن سهل مرج بني عامر ، وتقع قرب « مجدو » القديمة وعلى خط عرض 32° ، 34 شمالا و35° ، 12 شرقا . وكانت في العهد المملوكي احد أعمال (مملكة صفد) انظر :
M.A. BAKHIT, LADDJUN, dans L'Encyclopédie de L'Islam 2e ed T. V. pp. 597 - 598
وجعلها العمري في كتابه «مسالك الابصار» العمل الثاني عشر من الاعمال الثلاثة عشرة لتلك المملكة ، كما أكد ذلك نقلا عنه ابن كنان في كتابه « المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن

صيدا التي استحدثت عام 1070هـ/1660م) شمالا ، وبين لواءي نابلس وغزة جنوبا ، وبين البحر المتوسط غربا ، والكتل الجبلية المتفرقة كجبل طابور ، والدحيّ ، وفقوعة شرقا ، أي كان يحتوي جبل الكرمل ومرج ابن عامر (3)

الشامية » مخطوطة في مكتبة برلين بخط المؤلف نفسه (المتوفي 1153 هـ / 1740 م) تحت الرقم 1116 – We 6088 ، الورقة 34 آ . وقام بتحقيقه (حكمت اسماعيل) تحت اشراف الدكتورة ليلى الصباغ ، ونال عليه درجة الماجيستير في التاريخ من جامعة دمشق عام 1402 هـ / 1982 م (وهو في طريق النشر) . وقد وردت الفقرة في الرسالة المرقونة على الآلة الكاتبة في ص 273 .

وتشتهر المدينة الصغيرة بوجود مقام لابراهيم الخليل قربها ، وبأنها كانت محطة يستريح فيها السلاطين المماليك والأعيان في طريقهم بين دمشق والقاهرة ، ويشير «اوليا جلبي» الرحالة التركي في النصف الثاني من القرن السابع عشر الى وجود خان للمسافرين والتجار فيها .

ويجب الا يلتبس هذا الاسم مع « اللجون » الواقعة في البلقاء شرقي الاردن ، وكانت احدى منازل الطريق الى المدينة المنورة . ومن مدن اللواء الهامة أيضا « جنين »

انظر بالاضافة الى المصدرين السالفي الذكر :

– المحبي : خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر . 4 اجزاء القاهرة 1284 هـ ج 1 / 222 .

Evliya Tshelebi's Travels in Palestine tr. by St. H. Stephan dans : Quarterly of the Departement of Antiquities in Palestine VI, *(1936). P. 86*

– الموسوعة الفلسطينية 4 اجزاء . دمشق 1984 . ج 3 / 36 – 37 مادة (اللجون) .

(3) أكد « الفارس دارڤيو » في « مذكراته » ان نفوذ هذه الامارة الاعرابية كان يمتد على جبل الكرمل وملحقاته ، وجميع القرى الواقعة في امتداد هذا الجبل ، مضافا اليها مدينة حيفا ، وعتليت ، وطرطورة ، وقيصرية .

انظر : Mémoires du Chevalier d'Arvieux; 6 Tomes Paris 1735. T. II.P.290, 292

ولم يشر « دارڤيو » ضمن وصفه المسهب لسهل مرج ابن عامر الى سيادة هذه الامارة عليه ، بل اكد ان عشيرا بدويا آخر كان يخيم في هذا السهل واطلق عليه اسم « عرب الأمير ناصر » ، وكان ذلك اثناء رحلته الاولى الى المنطقة عام (1657 – 1658) وأكد ان امير هذه العشير هو من اسرة غير اسرة « الامير طرباي » التي كانت على راس الامارة العربية الاعرابية المذكورة . وان اقامة هذا الامير كانت في السهل حيث كان ينصب خيمته السوداء الكبيرة في الوسط وتحيط بها خيام عربانه ، بينما كانت حلة الامير من آل طرباي الحصينة في جبل الكرمل ووازن بين موقع مخيمي الأميرين قائلا بان الامير ناصر قد فضل السهل على الجبال بسبب المراعي التي كان بحاجة اليها ، الا ان الامان فيه قليل ، اذ انه معرض في كل لحظة لهجوم مفاجىء من اعدائه ، دون ان يتمكن من كشفهم من بعيد بينما وجود الامير « طرباي » على مرتفع جبل الكرمل يسمح لحراسه بأن يكشفوا بسهولة اولئك الذين قد يأتون اليه ، وبذلك يكون في مأمن من اعدائه ، (Ibid, P. – 293) انظر حول (جبل الكرمل) : IBID 294 – 317 والموسوعة الفلسطينية ج 3 / 639 – 642 .

ولا يذكر ، «دارڤيو» شيئا ذا بال عن عرب الأمير «ناصر» غير ما اشير اليه سابقا ، وما ذكره عن مرافقته هذا الأمير الشاب في رحلة له من عكا الى صيدا وقد وصفه بأنه كان أميرا شابا ، شريفا جدا ومهذبا (Ibid, p. 87) ولا يعرف اسم العشير الذى كان على رأسه أو منه «الأمير ناصر» ولا فيما اذا كان هذا العشير ينضوي تحت لواء الأمير من اسرة طرباي أم أنه لا صلة بين الفريقين . هذا مع العلم بأن مرج بني عامر كان يضم في آخر النصف الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، أي قبل قرن من زيارة «دارڤيو» للمنطقة ، عددا من طوائف العرب ، ولا يعرف من تبقى منهم قائما في المنطقة ومن نزح خلال ذلك القرن . وكانت تلك الطوائف ضمن إقطاع جد آل طرباي [انظر حول تلك الطوائف دفتر طابو رقم 192 . في مديرية المحفوظات باصطنبول وتاريخه 945 هـ / 1538 م . وفي الصفحتين (57 – 58) . تصدير محمد عدنان بخيت : الأسرة الحارثية في مرج بني عامر (885 – 1088 هـ /

وهذا اللواء يضم منطقة من أخصب بقاع فلسطين زراعيا ، ولا سيما بالحبوب والخضر ، ومن أبرزها في الميدان التجاري ، لاحتوائه على موانىء حيفا ، وعثليت ، وطنطورة (طرطورة) ، وقيصرية ، على البحر المتوسط (4) وقد يكون أهم من تينك الناحيتين ، هو تمتعه بموقع استراتيجي خطير على مدى العصور لأنه مركز عقـدة من الطرق البرية والبحرية التي كانت تمر منه الى كل الاتجاهات ، ومنها الطريق الواصل بين السهل الفلسطيني الساحلي في الغرب ، الذي يؤدي الى مصر ، وبين منطقة الغور عند طبرية في الشرق الذي يوصل الى دمشق . وكذلك الطريق المتجهة الى الشمال : الى عكّا فجبل عامل ، فصيدا ، فبيروت ، والطريق الذاهبة الى الجنوب ، الى نابلس فالقدس . وفي منافذ مرج ابن عامر الضيقة ، الجنوبية والشرقية حدثت المعارك الهامة في التاريخ كمعركة مجدو ، وعين جالوت (5) .

وتتكون البنية البشرية الأساسية لهذه الامارة العربية الأعرابية من عشير من العرب الأعراب من « بني حارثة » (6) . وكان على رأسها في القرنين

1480 – 1677 م) . في مجلة الأبحاث بيروت 1980 السنة 28 (ص / 55 – 78) / 65) .
انظر حول مرج ابن عامر : الموسوعة الفلسطينية ج 4 / 189 – و «دارڤيو» 293 – 292 T. II
ومع أن «دارڤيو» لم يشر الى سيادة آل طرباي على مرج ابن عامر ، فإنه يمكن النظر الى عبارته «وملحقاته» على انها تضم ذلك السهل ، وأن آل طرباي كانوا يسودونه . وقد أكد «أوليا جلبي» تملك الاسرة لواء عجلون لمدى الحياة وأنهم كانوا عند زيارته للمنطقة (1083 هـ / 1673 م) يقيمون غرب جينين ، والمدينة الأخيرة هي من مدن مرج ابن عامر الرئيسية .

(4) انظر : الخريطة في هذا البحث وانظر حول تلك المواني حسب ترتيبها الوارد أعلاه المصدرين التاليين .
– الموسوعة الفلسطينية : ج 2 / 298 . ج3 / 188 – 189 . ج3 / 121 – 122 . ج3 / 618 – 619 .
– مذكرات «دارڤيو» : ج2/10–12 ج2/12 – 13 . ج2/14 ، ج3/88 – 90 . ج2/15 – 16.

(5) معركة مجدو : هي المعركة الفاصلة التي حقق فيها فرعون مصر « تحتمس الثالث » النصر على أمراء سورية ، في القرن الخامس عشر ق.م. أنظر : الموسوعة الفلسطينية ج4 / 86 – 87 .
– معركة عين جالوت : هي المعركة الشهيرة التي انتصر فيها المماليك عام 658 هـ / 1259 م على التتر الغزاة لبلاد الشام واوقفوا زحفهم . وتقع عين جالوت : الى الشمال الغربي من مدينة «بيسان» ، على مسافة 10كم من نهر جالود .

(6) أكد نسبة آل طرباي الى «بني حارثة» ، المؤرخ البوريني : تراجم الأعيان من أبناء الزمان جزءان تحقيق صلاح الدين المنجد . دمشق 1952 و 1963 ج2 / 273 . وكذلك الغزي (نجم الدين : الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة 3 أجزاء تحقيق جبرائيل جبور . بيروت – لبنان 1945 – 1953 . ج2 / 171 – ثم المحبي : المصدر نفسه . ج1 / 221 .
وبنو حارثة ، هم من عرب سنبس (بكسر السين وتسكين النون وكسر الباء) ، من قبيلة طيء من القحطانية . وقد ذكرهم «ابن خلدون» في القرن الثامن للهجرة الرابع عشر للميلاد على أنهم من «أوفر بطون طيء عددا وهم متغلبون لهذا العهد (اي عهده) ، في تلول الشام لا يجاوزونها الى القفار» وأكد ذلك في وقتنا الحاضر عمر رضا كحالة ، كما ذكرهم المقريزي في احداث عام 750 هـ ، عندما تحدث عن فساد العربان ببلاد القدس ونابلس ، وفي حوادث

العاشر والحادى عشر الهجريين : السادس عشر والسابع عشر الميلاديين «آل طرباى » (7) . وكانت هذه الامارة موالية للدولة العثمانية الحاكمة ، أو بتعبير أدق اصطنعتها تلك الدولة باغداق لقب « بك سنجق » على أميرها

808 هـ حيث اشتركوا مع عرب اغوار فلسطين في مقاتلة تيمور لنك ، ثم نزولهم في صفد ومحاربة نائب صفدلهم لأنهم أخذوا مالا كثيراً من الفارين من دمشق الى مصر أثناء حملة تيمورلنك ، وفي احداث سنة 812 هـ ، حيث اشتركوا في قتال الى جانب عسكر دمشق ضد أمير صفد . واورد المؤرخ الفلسطيني المعاصر : «مصطفى مراد الدباغ» بعض أخبار عنهم ومنها نسبة عشيرة وادي الحوارث في قضاء طولكرم لهم ، وخربتا الحارثية من أعمال الرملة ، وقرية الحارثة المندثرة من اعمال فلسطين وسيلة الحارثية من أعمال جنين . وهذا كله يؤكد وجودهم في شمالي فلسطين ، بين الغور شرقا وصفد شمالا ، ونابلس جنوبا .

اما سنبس فقد اتى على ذكرهم «القلقشندي» و«المقريزي» و«الدباغ» وخمن المؤرخ الأخير أن يكون مقامهم الرئيسي في الموقع الذي يحمل اسم «خربة سنبس» في الظاهر الشرقي من قرية حلقات في بلاد غزة . وتؤكد «الموسوعة الفلسطينية» بأنهم نزلوا جنوب فلسطين ، وكثروا هنالك ، واستقرت فروع منهم في منطقة بير السبع ، كالخزاعلة ، ورميح ، ومعين .

– ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر 6 أجزاء بيروت . د . ت . 6/62 .

– المقريزي : السلوك لمعرفة الدول والملوك ، أربعة أجزاء ، كل جزء في ثلاثة أقسام تحقيق عبد الفتاح عاشور . القاهرة 1956 — 1972 (الطبعة الثانية) . ج2 القسم 3 / 804 — ج3 القسم 3 / 1042 ، 1066 — 1067 — ج4 القسم 1 / 121 .

– البيان والاعراب عما بأرض الشام من الأعراب مصر 1334 هـ / 8 .

– القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا . 14 مجلدا مصر 1914 — 1922 ج1 / 321 — 322 .

– ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور . 5 أجزاء القاهرة 1402 — 1404 هـ/ 1982 — 1984 م . تحقيق محمد مصطفى . ج 1 / 630 — 631 .

– عمر رضا كحالة : قبائل العرب القديمة والحديثة 3 أجزاء . بيروت 1388 هـ/ 1968 م . ج1 / 233 .

– مصطفى مراد الدباغ : القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين . بيروت 1399 هـ / 1979 م ص87 — 89 .

– الموسوعة الفلسطينية . ج1 . مادة (بدو) . ص 365 .

(7) ورد هذا الإسم بعدة صور : «طرباي» و«طراباي» و«طربائي» و«طربيه» و«ترابك» «وطرهباي» و«طورهبك» بحسب ما أتي في بعض الكتب التاريخية المعاصرة والفرمانات السلطانية المحفوظة في الارشيف العثماني تحت اسم «مهمة دفتري» .

أنظر : — ابن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، جزءان تحقيق محمد مصطفى . القاهرة 1387 هـ/ 1962 م . ج1 / 22 و ج2 / 43، 72، 79، 145 .

– النجم الغزي . المصدر السابق . ج2 / 171 .

Heyd (Uriel), Ottoman Documents on Palestine (1552-1615) Oxford. 1960. P. 52 N. 1

وقد ورد هذا الاسم على شكل (ابن طراباي) في تاريخ ابن طولون (مفاكهة الخلان ج1 / 22) على أنه اسم بعض عربان في مرج بني عامر وفي احداث عام 885هـ / 1480م . كما ورد اسما لشيخ عرب جبل نابلس (طراباي بن قراجا) في مصادر أخرى (أنظر : محمد عدنان بخيت الأسرة الحارثية ص 56 — 59) .

واسم طرباي اسم مملوكي ، وقد عرف به عدد من اصحاب المناصب الكبرى في الدولة المملوكية . ومنهم على سبيل المثال : «الأمير طرباي الدوادار» (عام 803 هـ) ، في (السلوك . ج3 / 1045 ، 1062 ، 1084) ، و«طرباي الدوادار الكبير» بدمشق (مفاكهة الخلان . ج1/263، 275، 286، 346) . وطرباي راس نوبة النوب (النجم الغزي الكواكب السائرة . ج1/5 ، 240) . وقد استغرب «موسى شارون» في بحثه عن بدو فلسطين وآل طرباي ، هذا الاسم المملوكي لأمير عربي ، وكيف غدا اسما للاسرة ، ورأى في هذا غموضا لابد من تبينه :

منذ القرن السادس عشر (8) ، لتحمي لها تلك الشبكة من الطرق المشار اليها آنفا ، من غزو بقية الأعراب في المناطق المجاورة ، وبصفة خاصة الطريق بين دمشق ومصر ، بما كان يحمل من قوافل التجار والمسافرين ، وبريد الدولة ، ولتكون في الوقت نفسه رقيبا ، وحارسا ، ومؤدبا في المنطقة ، يردع بمقاتليه الأشداء ، جميع المتمردين على سلطة الدولة من الأمراء المحليين ، والأعراب ، وسكان المنطقة . وقد لعبت شبه الدويلة هذه ، دورا بارزا في النصف الأول من القرن الحادى عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، حينما كان على رأسها أميرها «أحمد طرباى» ، الذى ترجم له بطريق مباشر أو غير مباشر ، وعرّف بنشاطه السياسي ، عدد من المؤرخين العرب المشرقيين المعاصرين له ، أو للقرون التي تلت (9) . وقد أبرز هذا

MOSHE Sharon, the political Role of the Bedouins in Palestine in The sixteenth century, in, Studies on Palestine During the Ottoman Period. Jerusalem 1975, P. 26.

وفي الواقع ان التسمية باسم مملوكي معاصر ليست مستغربة ، فالبدو يسمون اولادهم مما يلور في خيالهم ، ومما يخالطونه ويجاورونه أكان مادة ميتة أو حية ، وقد لايكون لبعض الاسماء معنى . وقد يسمون أولادهم بأسماء اجانب نزلوا ضيوفا عندهم أثناء ولادة الاولاد ، أو كانوا على صلات ودية معهم . وهناك في العصر المملوكي من سمي بـ(جانباي) و(ميتريك) ، وفي الوقت الحاضر (لورنس) و(توماس) وغير ذلك .

انظر حول أسماء العرب البدو : أحمد وصفي زكريا . المصدر السابق / 179 — 180 .

ومع ذلك فمن المحتمل أن يكون الإسم عربي الاصالة ثم حرف لفظا وكتابة ويؤكد هذه الأصالة العربية «الفارس دارڤيو» في مذكراته (T.III. 156 حيث أوضح ان «طرابيه» هو ترابي أي نسبة الى التراب وقد استبعد اوريل هايد (op. cit. P : 52 : nI) هذا التفسير الا أن التفسير قد لايكون بعيدا عن الواقع ولا سيما ان هناك قبيلة عربية من فروع قبيلة عنزة العدنانية ، في منطقة بير السبع تدعى «الترابين» ، وكانت مجاورة في سكناها لبعض بطون «سنبس» (الموسوعة الفلسطينية ج1 / 366) ، بل التبس الأمر على المعلق على ترجمة «رحلة أوليا جلبي» الى فلسطين التي قام بها حنا اسطفان ، والمشار اليها في الهامش (2) من هذه الدراسة ، وهذا المعلق هو (مايرL.A. MAYER) فقد وهم بان «آل طرباي» الذين تحدث عنهم «اوليا جلبي» هم من قبيلة «الترابين» نفسها ولذا فإنه علق في الهامش على انها كانت (اي قبيلة الترابي كما اسماها ، ويقصد آل طرباي) في عام 1860 تقطن قرب السويس الى غزة ، وانها لاتزال في ذلك الإقليم حتى وقت الترجمة عام 1938 .

The Quarterly... Op. cit, Vol. VI (1938), P. 88. n.1

(8) Heyd (Uriel), op. cit, PP. 45,65-67, and n. 15

(9) — البوريني (الحسن بن محمد) : المصدر السابق نفسه ج1 / 229 — 230 ج2 / 273، 289 .

— الخالدي الصفدي : تاريخ الأمير فخر الدين الثاني بتحقيق أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني . الطبعة الثانية 1969 . صفحات عديدة ، منها من 15 — 206 .

— المحبي : المصدر السابق نفسه ج1 / 221 — 222 .

— الشهابي (الأمير حيدر أحمد) : الغرر الحسان في تواريخ حوادث الزمان . 3 أجزاء . نشر نعوم مغبغب . القاهرة 1900 — 1901 . صفحات متعددة منها 626 — 678 .

— المعلوف (عيسى اسكندر) : تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني ، الطبعة الثانية ، بيروت 1966 .

— دروزة (محمد عزت) : العرب والعروبة . دمشق 1959 ج1 / 258 — 260، 264 .

— الموسوعة الفلسطينية . ج1 / 100 — 101 .

الدور في وقتنا الحاضر بعض المؤرخين والباحثين العرب والأجانب (10)

الا أن من بحث في شؤون هذه الامارة ودورها من المؤرخين السابقين والمعاصرين ، ركز بصفة خاصة على الفعاليات السياسية لها ، وعلى تحالفات أميرها ، وصراعاته مع الأمراء المحليين في المنطقة ، ولاسيما فخر الدين المعني الثاني ، ولم يتطرق تفصيلا الى الأحوال الاجتماعية فيها . وفي الحقيقة أننا نملك مصدرا هاما عن مجتمعها بمعظم دقائق حياته في «مذكرات الفارس دارڤيو» ، ذلك الرحالة البروڤنسي الفرنسي ، الذي عمل تاجرا في « صيدا » من بلاد الشام لسبع سنوات ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي (1658—1666) ، والذي قام بخمس رحلات الى أنحاء فلسطين إما بقصد زيارة الأماكن المقدسة النصرانية فيها ، أو حبا منه بالرحلات ، أو ارضاء لفضوله النامي للمعرفة ، أو لأغراض اقتصادية وسياسية . وهو نفسه الذي اختارته دولته فرنسا ، ليكون قنصلا لها في حلب شمالي سورية في الربع الأخير من القرن السابع عشر ، ولسبع سنوات (1669 — 1686م) . هذا ولا مناص من أن يـكرر هنا ماكنت قد ذكرته في دراستي السابقتين عن فلسطين (11) بأن تلك المذكرات ، بما فيها من معلومات وملاحظات دقيقة ، وبالموازنات التي أجراها فيها مع ماكان يجري في مجتمعه فرنسا أو في مجتمعات أخرى ، وبالتعليقات الكثيرة ، الذكية في معظم الأحيان ، هي مصدر تاريخي ثمين ، لا يمكن لباحث في تاريخ بلاد الشام ، والجزائر ، وتونس ، والدولة العثمانية ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، التغاضي عنه أو اهماله . ولا سيما أن صاحبه كان شاهد عيان لفترة طويلة نسبيا ، ويتمتع بفكر الشك العلمي ، ويملك نظرة واسعة ، وذات اهتمامات متنوعة ، طبيعية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وسياسية ، وفكرية ، وعمرانية ، ويتقن اللغتين العربية والتركية ، ويحتضن ثقافة طيّبة .

الا أن تلك الصفات النقدية الايجابية لصالح مادونه « الفارس دارڤيو » في مذكراته عن كثير من الأمور ، يجب ألا تنسينا حقيقة هامة جدا ، وهي أنه على الرغم من محاولته قشع بعض ضباب الصليبيات الكثيف الذي غطى الفكر الأوربي تماما في المراحل السابقة ، فحجب عنه الرؤية الواضحة والصادقة للمجتمع العربي الاسلامي ، وعلى الرغم من دفاعه القوي عن العرب

---

(10) انظر : — محمد عدنان بخيت : الأسرة الحارثية بحث أشير إليه سابقا .
MOSHE Sharon, op. cit
Heyd (Uriel), op. cit. PP. 45-46,52-53,56-57-78,94,95-96,109-110.

(11) انظر الهامش الأول (1) في هذه الدراسة .

تجاه الأفكار السيئة السائدة عنهم في أوربا آنذاك ، فانه بقي يحمل في ذاته خزينا كبيرا من الرؤى الصليبية عن الاسلام والمسلمين ، وعن الأرض المقدسة فلسطين (12) ، ويحتضن الشديد من التعصب لدينه النصرانية (13) ، ويكن الكراهية للاسلام ، وللاتراك العثمانيين بصفة خاصة (14) . كما يجب ألا يتغاضى عن جهله أو تجاهله بالتاريخ السياسي للعرب المسلمين (15) ، وبعدم معرفته الصحيحة والدقيقة بالدين الاسلامي ، وتشويهه صورة الرسول الكريم (ص) (16) . فكل تلك النقاط السلبية قد حسب حسابها عند تقويم المعلومات التي قدمها .

(12) ظهر هذا في مواضع متعددة من مذكراته ، وبخاصة عند زيارته لأنحاء من فلسطين أقام فيها الصليبيون سابقا ، وذلك ضمن تعليقاته حول ما كان يجب أن يفعل اولئك الصليبيون ليبقوا محتفظين بالارض المقدسة . انظر على سبيل المثال : (T. II. P 260) . وكذلك عند تنصيبه عضوا في «طائفة القبر المقدس» الكاثوليكية ، التي كان من واجبات اعضائها أن يقدموا أملاكهم ، وحياتهم لاستعادة الأرض المقدسة . وإذا لم يكونوا هم قادرين ، فعليهم أن يبعثوا من يحل محلهم في ذلك العمل (Ibid. PP. 160 - 161) .

(13) تبدي هذا الأمر في عدد من الأمكنة في مذكراته . فقد ظهر هذا جليا عندما كان يقنع بحماسة واصرار كبيرين من يود اعتناق الدين الاسلامي من بعض الاسرى الاروبيين في مخيم (آل طراباي) ، ومن تظاهر باعتناق هذا الدين منهم ، بالبقاء على النصرانية ، او العودة إليها ثم الهرب الى اوربا .
انظر (الفصل الثاني) و(الفصل الثالث) من الجزء الثالث من مذكراته ، اللذين تحدث فيهما عن قصة شابين أوربيين كانا أسيرين ، أحدهما «مايورقي» (Ibid, T. III. PP. 43 - 57) وثانيهما «بندقي» (Ibid. PP. 57 - 63) .

(14) تجلت تلك الكراهية في مجموع المذكرات . ومنها على سبيل المثال فقط ، وصفهم بـ«المتغلبين الوقحين : Vainqueurs insolents » ، وأنهم هم المسؤولون عن سوء أحوال العرب وانصرافهم عن متابعة عطائهم الفكري العلمي السابق ، الذي كانوا فيه في الماضي مبرزين (T. III. PP. 188 — 190) وفي الحديث المستمر عن استبدادهم ، وطغيانهم ، وسوء معاملتهم للسكان ، واضطهادهم لهم وتشتيتهم (Ibid. P. 144) .

(15) يعزو «دارڤيو» انتشار العرب في كثير من بقاع الأرض ، لا الى الفتوحات العربية الإسلامية ، وانما الى اضطهاد الأتراك ، الذين غزوا بلادهم ، وغيروا الحكومة ، والعادات والسكان والتقسيم الإداري ، مما دفع العرب الذين كانوا يقطنون المناطق العربية الثلاث القديمة الى الهجرة الى افريقية وحتى النيجر حيث هناك عدد كبير منهم (T. III. P. 144) . ولا يعرف المصدر الذي استقى منه تلك الأغاليط . هذا مع العلم ، بأنه وهو ابن القرن السابع عشر ، والحركة الإستشراقية لما تكن قد نمت النمو الكبير ، كان عارفا بالحضارة العربية الاسلامية وكان مؤمنا بأن اوربا تدين للعرب بأفضل ما لديها في ميادين الفلك والطب وعلوم أخرى (T. III. P. 189) ، وان على الاوربيين أن يغيروا نظرتهم البشعة حيال العرب لأنها قائمة على جهل بهم ، وعلى أحكام مغلوطة سابقة للمعرفة والتجربة .

(16) لقد نظر الى (الاسلام) على أنه من عمل النبي محمد (ص) ، واطلق على الرسول الكريم صفة « الاغواء seducteur » (T. III. P. 146) ووصف العقيدة والشريعة الاسلامية بأنها «ركام غامض ومشوه من اليهودية والنصرانية ، ومن مختلف الهرطقات التي كانت متفشية آنذاك في الكنيسة المسيحية ، واساءت الى العقيدة النصرانية الحقة وصفائها» (Ibid) . ويظهر جهله بالدين ، عندما تحدث مثلا عن «الصيام» عند المسلمين ، وذكر أن النساء معفيات منه بسبب بنيتهن الضعيفة ، وبسبب حرمان النبي(ص) لهن من الجنة (هكذا !) (Ibid P. 175) . وقد يكون اعتمد في معلوماته تلك على أقوال بعض الجهلة بالدين ، ممن كان يكره النساء ، ممن احتك به ، وتطابق هذا مع فكر «دارڤيو» الذي كان بدوره على ما يبدو ، ممن كان ينظر الى المرأة نظرة سيئة ، بل ومعادية .

وقد يتساءل كيف تعرف « الفارس دارڤيو » بمجتمع أعراب بني حارثة وأسرتهم الحاكمة من « آل طرباي » أو كما يسميهم هو بـ « عرب طرباي » وعرب « جبل الكرمل » وهو التاجر الفرنسي المقيم في صيدا ؟ لقد قام « الفارس دارڤيو » في الحقيقة بأربع زيارات لأمير بني حارثة من « آل طراباي » بين (1658 — 1666) . وسار في رحلة خامسة خاصة تعرف بها منطقة جبل الكرمل ومرج بني عامر .

أما الزيارة الأولى فكانت في أواخر 1658 م (17) ، وكان على رأس عرب بني حارثة الأمير زبن Zoben (18) من (آل طرباي) ، وقد خلف أباه « أحمد » المتوفي عام 1057هـ/1647م ، والمشار اليه آنفا . وكان هذا الأمير كما وصفه « دارڤيو » ، من أفراد عصره ، وقادر على تحقيق مشروعات كبيرة ، لو لم تكن تتحكم فيه انفعالاته الشديدة وغضبه ، مما جعل حكمه قاسيا ، ومن الصعب أحيانا التعامل معه ، ومن ثم فانه لم يكن محبوبا من رعاياه وجيرانه (19) . ولعل « دارڤيو » في حكمه هذا على الأمير ، كان متأثرا بموقف الأمير المجافي من الرهبنة الكرملية(20) التي كان

(17) يذكر الأب لابا Labat الذي قام بجمع مذكرات «دارڤيو» ، وعمل على نشرها ، بأن ذلك كان عام 1660 مع أن تفاصيل الرحلة كما وردت في المذكرات نفسها تبين أنها في أواخر 1658 . أنظر T. II. P. 13

(18) ورد هذا الاسم في كتاب المحبي المصدر نفسه ج1 / 222 (زين) بالياء لا بالباء ، وكذلك أتى في الأبحاث المعاصرة عن الاسرة الحارثية ، بينما أتى في مذكرات «دارڤيو» ولمرتين (ج2 / 312 و ج3 / 158) بالباء وبين (زبن) و(زين) باللغة العربية نقطة واحدة تضاف أو تنقص . وقد يكون الاسم كما اورده «دارڤيو» اقرب الى الصحة ، وقد يكون المحبي نفسه قد أتى به بتلك الصورة ، الا انه حدث تصحيف أثناء الطباعة علما بأن اسم (زبن) ليس غريبا على العرب ، فهو يعني : شديد الدفع والضرب ، كما أنه في اللغة الدارجة البدوية في شمالي الشام اليوم يعني (الملاذ ، والملجأ) ، ويقال (زبن اليه ، اي التجأ) . (المصدر : الدكتور عبد السلام العجيلي وهو الطبيب والأديب السوري المعاصر الذي يقطن الرقة ، وعلى احتكاك دائم في منطقته بكثير من الأعراب) . وهو اسم دارج في (بني صخر) في الأردن وهناك أسرة بهذا الإسم قائمة الى الان . هذا ، ولو كان الاسم بالياء ، فليس فيه ما يعسر نطقه على فرنسي كدارڤيو ، اتقن العربية .

(19) T. III. P. 158.

(20) سميت بهذا الاسم نسبة الى «جبل الكرمل» ، حيث أقامت هذه الطائفة الأوربية الزاهدة لأول مرة ابان الحروب الصليبية . ففي سنة 1156م انسحب احد الصليبيين الكلابريين «برتولد Berthold» الى جبل الكرمل ، وكان يسكنه بعض النساك التابعين لنظام «القديس باسيل» وتدريجيا تجمع نساك آخرون من كهوف الجبل وكونوا لأنفسهم طريقة خاصة . ولمت الموافقة على أول نظام لهذه الطائفة عام 1224م . أما النظام النهائي فتمت موافقة البابا «إينوسان الرابع» عليه عام 1245 وينص على اتباع الطائفة صياما قاسيا ، وممارسة للصمت ، والزهد ، والتقشف ، والصلاة ليلا . وانتشر نظام هذه الطائفة بسرعة ، وادخله لويس التاسع الى باريس ، واضطر البابا «اوجين الرابع» . سنة 1431م للتخفيف من قسوة النظام ، مما أوجب انقساما بين ما سمي بـ«الديريين» و«المحافظين» ثم جرى أصلاح شامل للطائفة عام 1564 ، بتأثير نصائح «القديسة تيريز» وحذر البابا «كليمان الثامن» الطائفة الجديدة من اي ارتباط لها مع الطائفة القديمة وذلك في سنة 1593 . ومن المعروف ان الكرمليين يسيرون شبه حفاة ، ولا يأكلون اللحم أبدا ،

بضعة من أفرادها يقيمون في دير لهم (21) في جبل الكرمل . اذ أن حكمه ذاك مخالف لحكم المؤرخ العربي « المحبي » الذي أكد بأنه كان « شجاعا ، وعاقلا ، وحليما » (22) . وكان الدافع لدارڤيو للقيام بهذه الرحلة هو مرافقة نائب القنصل الفرنسي السيد سوريب Souribe (23) للتوسط لدى الأمير زبن لاعادة الآباء الكرمليين ، وكان عددهم آنذاك ثلاثة فقط، الى ديرهم في الجبل بعد أن كانوا قد هجروه بسبب ما أسماه « دارڤيو » « بالاضطهادات التي كان يمارسها العرب تجاههم » (24) . وتتلخص تلك الاضطهادات كما شرحها ، بأن موظفي الأمير العربي ، كانوا لا ينفكون عن مضايقتهم في كل مناسبة ، اذ كانوا يريدون الزامهم على اطعام جميع المارة من ديرهم ، كما هي العادة المتبعة في القرى (25) ، على الرغم من أنهم بينوا لهم بأن هناك فرقا كبيرا جدا بين قرية عامرة بالسكان ، وغنية ، وثلاثة فقط من رجال الدين الفقراء ، لا يعيشون الا على الصدقات المرسلة لهم من أوربا ، وأنهم كانوا غالبا مضطرين لحرمان

ولا يشربون النبيذ ولا الكحول . انظر : — ليلى الصباغ : الجاليات الاوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر . رسالة دكتوراه من جامعة القاهرة . عام 1966 (في طريق النشر) . ص 427 .

Grand Larousse Encyclopédique. — 12 vol. 1960 — 1975. vol. 2. P. 628 (Carmes)— D'Arvieux. T. III. P. 302.

(21) أنظر حول ذلك الدير المؤلف من خمسة كهوف في الجبل ، وتحصيناته ، وتسلح الكرمليين فيه لمقاومة العرب البدو ، ونمط حياتهم فيه ، «مذكرات دارڤيو» : T. II. PP. 297 — 318 .

(22) خلاصة الأثر . ج1 / 222 .

(23) كان يقيم في (الرملة) في فلسطين ، ويعمل وكيلا لرهبنة آباء الأرض المقدسة في الوقت نفسه (II P. 22) . أنظر حول الرهبنة الأخيرة ونظامها في بلاد الشام ، ليلى الصباغ : الجاليات الأوربية / 428 — 446 .

(24) D'Arvieux. T. II. P. 13.

(25) ان حق اطعام المارة في الأديرة والكنائس ، واستضافتهم لثلاثة أيام عادة اجتماعية عربية قديمة ، وكانت ضمن الشروط التي اشترطها المسلمون على النصارى عند فتح بلاد الشام في عهد عمر بن الخطاب ، وقد قدموا تعهدا بذلك . بل ان الروايات تشير الى ان الأمر كان معمما على أهل الذمة كلهم . فقد روي أن عمر بن الخطاب قضى على اهل الذمة ضيافة ثلاثة أيام للمسلمين : ما يصلحهم من طعام وعلف دوابهم . فإذا نظر الى ان بعض القرى كانت تضم فئة من النصارى فتكون ضيافة أهل القرى للمارة والمسافرين التي تحدث عنها «دارڤيو» وبالتفصيل هي عادة كانت في أساسها ذلك الشرط الذي اشترطه المسلمون على أسلافهم ، فغدت تقليدا ظل قائما حتى أيام «دارڤيو» .
انظر : — أبو يوسف : الخراج القاهرة 1346هـ . ص. 165 .
— البلاذري : فتوح البلدان تحقيق محمد رضوان المكتبة التجارية القاهرة د.ت./131، 156 ، 178 .
— ابن عساكر : تاريخ دمشق المجلدة الأولى ، تحقيق صلاح الدين المنجد دمشق 1371هـ/ 1951 : ص 563 — 566.
— دارڤيو : T. II. P. 86 — T. III, PP : 179 — 187

أنفسهم من الضروري من الزاد كي يدفعوا الضريبة المفروضة عليهم ، بموجب المعاهدات المعقودة مع أسلافه (26) . هذا بالاضافة الى أن الأمير طالبهم بمضاعفة تلك الضريبة اذا أرادوا البقاء على أرضه وخاف رجال الدين أن يدفع الأمير الأمر الى حده الأقصى فيحصل لهم مالا تحمد عقباه ، فانسحبوا بنصيحة من بعض الأصدقاء ، دون ضجّة الى عكا ، ومنها الى حيفا ، وحملوا معهم كل مالديهم من أثاث كنيستهم ومقر إقامتهم (27) . وبالفعل وصل « الفارس دارڤيو » برفقة السيد سوريب الى الأمير زبن ولم يفصّل في وصف المقابلة ، وانما اكتفى بالقول بأن الأمير كان نبيلا جدا ، وبأنه أي « دارڤيو » لم يعدم الوسيلة لاقناعه بأن مصلحته ومصلحة رعاياه هي في ألاّ يدع رجال الدين الكرمليين يغادرون جبل الكرمل ، وأن يكتفي بالضريبة المعتادة . فتمت الموافقة ، ونظمت الأمور على الأساس القديم ، ووقعت معاهدة جديدة . فعاد الكرمليون الى ديرهم بعد أن دفعوا الضريبة السنوية المقررة ، وعاشوا بعدها بسلام واطمئنان كما رآهم «دارڤيو» عند زيارته لهم عام 1660 (28) .

كان ذاك هو التعارف الأول بين الفارس « دارڤيو » والأمير من « آل طرباي » ، أمير أعراب جبل الكرمل وهو تعارف سريع ، اذ لم يمض معه سوى فترة قصيرة جدا ، الا أنه استشف على ما يبدو من هذه الزيارة العاجلة ، ومن رحلته الى جبل الكرمل عام 1660 ، وتعرفه بالمنطقة ، بأن الأمير العربي قوي النفوذ ، وأنه على استعداد مبدئي لحماية من يلجأ اليه . وربما في ضوء هذا قام الفارس « دارڤيو » برحلته الثالثة الى جبل الكرمل ، والثانية لأمير عربانه من بني حارثة وكان ذلك في صيف 1664

---

(26) لايعرف في الحقيقة شيء عن تفصيلات تلك المعاهدات المعقودة ، ولا كمية الضريبة المفروضة . ولكن قد يخمن بأنه اذا نظر اليهم معادلين للرهبان النصارى من أهل البلاد فإنهم كانوا معفيين مبدئيا من ضريبة (الجزية) ، الا أنهم قد لا يعفون من ضريبة (الخراج) على الأرض اذا كان لهم منها ما يستثمرونه زراعيا . ومن وصف «دارڤيو» للدير يتبين بأنهم كانو يشغلون مساحة من جبل الكرمل قرب ديرهم ، حولوها الى مدرجات بعرض 5 — 6 أقدام ، وينزل من مدرج الى آخر بسلالم منحوتة في الصخر وانهم نقلوا الى تلك المدرجات التراب وجعلوا منها بساتين تنتج ثمارا شهية ، وعرائش كرمة تعطي عنبا ذا مذاق لذيذ ، وحدائق تنبت أزهارا من جميع الأنواع (T. II. P. 304) وقد تكون الضريبة المفروضة لاعلاقة لها ايضا بالخراج ، وانما هي ضريبة عرفية تم الاتفاق عليها للسماح للرهبنة بالإقامة . هذا مع العلم ان رهبنة «الأرض المقدسة» كانت معفية من ضريبة الجزية ، ومن الضرائب الأخرى الا أنه كان على «ورديانهم» أن يدفع عند دخوله سنجق القدس (6000) قرش ، مع تقديم هدايا معينة للسلطات الحاكمة . (T. II. PP. 150 ، 151 ، 257) .

(27) كان للكرمليين بيت ايضا في خان عكا ، وغرفة في حيفا ، يحتفظون فيها بمؤنهم ، حيث تكون بمأمن أكبر مما لو وضعت في كهوف الدير (T. I. P. 280 ; T. II, P. 11) .

(28) T. II. PP. 312 - 314.

16 آب (أغسطس) . وكان الأمير زين قد توفي 1070هـ/1660م ، وخلفه أخوه ، وهو الأمير «محمد بن أحمد» وكان بحسب وصف «المحبي» له «جوادا سمح الكف ، ممدحا» (29) . وفي هذه المرة لم يذهب «دارڤيو» لمجرد المعرفة ، أو للتفاوض وانما ذهب لاجئا (30) وذلك عندما رأى أن نفوس سكان بلاد الشام ، والمصريين ، والحكام العثمانيين ثائرة على الفرنسيين وناقمة عليهم ، ومهددة بالويل والثبور ، على اثر احتلال الفرنسيين لمدينة جيجل في الجزائر 1664 (31) فخشي دارڤيو على نفسه ، وعلى تجارته انتقامهم ، ولم يحل لـه ترك بلاد الشام والعودة الى فرنسة وزملاءه ، اذ أن هذا بحسب قولـه ، يجعل بقية الأوربيين من غير الفرنسيين يسيطرون على التجارة في تلك البلاد . فقرر دون اعلام أحد ، حتى أخويه الموجودين معه في بلاد الشام ، اللجوء الى حماية الأمير (محمد بن أحمد طرباى) ، الذي كان بحكم دارڤيو عليه « رئيس جميع الأمراء وأقواهم في جبل الكرمل » (32) . وبالفعل تنكر في زي عربي ، ورحل الى جبل الكرمل حيث كان الأمير مخيما مع عشيره ، وطلب منه حمايته ، بعد أن شرح له السبب . وعلى عادة العرب منحه الأمير حمايته ورحب به ، وأفرد له خيمة خاصة في مخيمه ، مؤثثة على نمط خيام أعرابه ، وخصص له أمة سوداء لخدمته . وما لبث أن نال ثقة الأمير ومحبته ، ولا سيما أنه كان يسامره كل يوم باللغة العربية التي كان يتقنها ، حتى ان الأمير عينه كاتبا لـه ، عند مرض كاتبه الخاص ، فموته . ولقد أقام الفارس « دارڤيو » في مخيم (آل طرباى) أربعة أشهر كاملة هذه المرة ، ولم يغادره الا بعد أن بعث له أخوه يطمئنه

---

(29) خلاصة الأثر . ج 1 /222 .

(30) وهمت الباحثـه «اليزابيت سرية» المشار الى دراستهـا في الهامش (1) من هذا البحث بأن رحلته هذه كانت لصالح الكرمليين ، ولم تشر البتـة الى السبب الهام لرحلته هذه . أنظر ص 33 / من بحثها السالف الذكر .

(31) جيجل : مدينة على ساحل الجزائر ، وعلى بعد 50 ميلا غربي بجاية . كانت في القرن السابع عشر عرينا لبحارة الجزائر ، يهاجمون منه سفن الأوربيين في البحر المتوسط وقد دفع هذا الأمر الدول الأوربية الى شن غارات بحرية عليهـا . ورأت فرنسة اتخاذها قاعدة بحرية دائمـة لهـا ، تكمن فيها طراداتها البحرية لملاحقـة التجار الجزائريين عند خروجهم من موانيء الجزائر الأخرى ، أو عندما يعودون اليها محملين بالاسلاب . وفي الوقت نفسه تقضي على نشاط البحارة الجزائريين فيهـا ، وتجعل منهـا محطـة أمينـة للمراكب التجارية الفرنسية . وفي 23 جويليـة 1664 ، أنزلت فرنسـة (8000) جندي واحتلتهـا ، الا أن الجزائريين استطاعوا ضرب الفرنسيين ، واخراجهم منهـا في 31 تشرين الأول (أكتوبر) 1664 .
أنظر : ج ايڤر G. Yver : جيجل بحث معرب في دائرة المعارف الاسلامية المعربة (تعريب خورشيد – يونس – جلال ، ومراجعة وزارة المعارف المصرية القاهرة د. ت المجلد السابع / 201 – 204 .

(32) دارڤيو . T. III. P. 3 – 4 –
T. III. P. 6

بأن النفوس الثائرة على الفرنسيين في صيدا قد هدأت ، وأن حادثة جيجل قد نسيت ، وبالفعل كانت فرنسة قد أخرجت من جيجل عندما غادر المخيم في 18 كانون الأول (ديسمبر) 1664 (33) .

أما الزيارة الثالثة لآل طراباي (الرابعة للامارة) فكانت لمدة شهر ونصف وكان ابتداؤها في أواخر آذار (مارس) 1665 م ورافقه فيها أحد أخويه . وكانت على ماذكر هو بقصد رؤية الأمير صديقه ، بعد أن كان قد وعده بذلك قبل مغادرته له . وغادر المخيم في منتصف أيار عام 1665 (34) .

والزيارة الرابعة ، والأخيرة (الخامسة للامارة) كانت على ما يبدو لأيـام ، اذ لم يحدد الفارس « دارڤيو » مدتها ، وجرت عام 1666 ، أي قبل أن يغادر مدينة صيدا نهائيا والى غير رجعة . اذ كان قد صمم على ترك عمله التجاري ، والعودة الى فرنسة ، بعد أن اتّضح له أن تجارته لم تعد تدر عليه المكاسب السابقة . فرأى من واجب الصداقة عليه أن يستأذن « الأمير محمد من آل طراباي » قبل سفره . ويبدو أنه كان هنالك علاقات تجارية معينة بينه وبين الأمير ، بدليـل قول « دارڤيو » بأنه « صفى مع الأمير بعض الحسابات المشتركة ودفع له الأمير نقدا » (35) .

فالفارس « دارڤيو » أقام اذا على فترات متقطعة ما يقارب ستة أشهر بين أعراب بني حارثة ، وأمرائهم من (آل طراباي) ، شاركهم خلالها ألوان طعامهم ، وشرابهم ، ومسكنهم ، ولباسهم ، ووسائل لهوهم ولا سيما القنص ، وقلدهم في كثير من عاداتهم ، وحضر جلسات سمرهم ، وتلصص على نسائهم من شقوق خيمته ، وتعرف مباشرة ، وبالتجربة العملية أعمالهم ، في تربية المواشي وبصفة خاصة الخيل ، وفي تشليحهم للمارة وسلبهم ما يملكون ، وفي أعمالهم القتالية الرسمية لصالح الدولة العثمانية ، اذ اشترك فعليا معهم في اخماد ثورة للفلاحين في نابلس .

وهكذا تعرف « دارڤيو » عن كثب ، وبالتجربة ، كل جزئيات الحياة اليومية لهؤلاء الأعراب ، والتقط ما يحبون ، ويحترمون ، ويكرهون ويزدرون ، وأدرك قيمهم الخلقية والاجتماعية ، ولاحظ بدقة مناحي سلوكهم الديني والدنيوي ، بل وسبر فكرهم عبر مجالس السمر التي كانت تجمعه

(33) Ibid. PP. 3 - 123
(34) Ibid. PP. 124 - 142
(35) Ibid. PP. 339 - 340

وإياهم يوميا ، وأحاط أيضا بكثير مما كان يجري ضمن شبه الدولة العربية الأعرابية ، من ناحية علاقة الأمراء بالرعية ، والرعية بالأمراء وعلاقة الأمير مع جيرانه ، ومع السلطة العثمانية الحاكمة . فكل الخفايا كانت بين يديه ، بصفته كاتب الأمير وأمين سره ، يفض الرسائل الواردة ، ويدوّن الصادرة .

ولم يكتف « الفارس دارڤيو » بمعايشة ذلك المجتمع البدوي في دقائق حياته الخاصة ، بل دون تلك المعايشة ، وكما جرت بالفعل ، ومن ثم لم يكن ما دونه عن ذلك المجتمع نقلا عن غيره من الرحالة ، كما فعل عديد منهم ، قبله وبعده ، وانّما كان تصويرا مباشرا لما عاش ومن ثم كان ما طرحه في مذكراته عن مجتمع الامارة العربية في لواء اللجون ، أصيلا ، وجديدا ، ومفصلا جدا ، ودقيقا ــ كما ذكر ناشر مذكراته مما أثار القارىء الفرنسي آنذاك « فالأضواء التي سلطها على العرب البدو لم تكن معروفة الا بمقدار في الأوساط الفرنسية » (36) . ولم يكن تدوين « الفارس دارڤيو » لتلك المعايشة يوما بيوم على طريقة المذكرات اليومية المباشرة ، بل انه نسقها ، ورتبها ، وصنفها بفصول ، على نمط الدراسات الاجتماعية اليوم ، وقام بعمله هذا بعد الانتهاء من آخر زيارة لآل طراباي بمدة ليست بالقصيرة ، وفي وطنه فرنسة . فقد انكب على اخراجها عام 1673 ، مستعينا بالمذكرات الدقيقة التي كان قد دونها أثناء رحلته ، وذلك تحت الحاح فئة من الفرنسيين ، كانت متحمسة لمعرفة كل شيء عن أولئك الأعراب الذين التقى بهم على الأرض المقدسة ، بعدما كان قد حدثهم عنهم شفويا . وفي مدى شهر كانت جاهزة للطباعة (37) . ولكن يظهر أن ما دونه آنذاك عن عرب جبل الكرمل لم ينشر في حياته ، وانما نشر عام 1717 ، وبعد خمس عشرة سنة من وفاته ، وقام بذلك السيد دولاروك (38) ، وبطريق مطبعة كايو Cailleau في باريس . ويشتم مما ذكره «الأب لابا Labat» ناشر مجموع مذكرات دارڤيو عام 1735 ، بأن «دولاروك» قدمها بأسلوبه الطلّي ، وأنها استقبلت بالاعجاب والتصفيق من جميع المهتمين بالأمر (39) . وهكذا يتضح بأن « مذكرات الفارس دارڤيو » عن رحلته الى الامارة

(36) D'Arvieux, T. I. Introduction. P. XIV

(37) Ibid, T. V. P. 40

(38) « De la Roque » يبدو انه كان كاتبا شهيرا آنذاك ، بحسب قول الناشر «لابا» (Ibid, T. III. P. 2) الا انه لم يعثر له على ترجمة .

(39) Ibid

العربية الحارثية قد نشرت وحدها في بادىء الأمر (40) ورأى «لابا» عندما قرر نشر مجموع المذكرات ألا ينشرها ضمنها ، وانما يحيل القارىء الى ما نشره دولاروك ، الا أنه ما لبث أن عدل عن ذلك وقرر نشرها باصالتها. وشرح السبب الذي دعاه لذلك قائلا : « لم أكن آمل أن يستقبل الجمهور ما سأقدمه من تلك المذكرات بمثل ما استقبل به ما أمتعه به ذلك الأديب الكبير (يقصد دولاروك) . وكدت أفعل ، لولا أن بعض الأشخاص ممن أحترمهم ، أفهمني بأنه يجب ألا أترك الجمهور في الضلال الذي أوقعه به السيد دولاروك ، وأنني ملزم بتصحيح ذلك الخطأ الوارد فيما نشره : فالقارىء للقسم الأول من «مذكرات الفارس دارڤيو» يلاحظ بأنه في عام 1660 سويت قضية الكرمليين (41) ، وكان السيد سوريب هو المكلف بذلك بصفته نائبا لقنصل فرنسا في صيدا ، السيد برتانديه Bertandier ، الذي كان غائبا آنذاك في بلاده ، ولم يكن المكلف بتلك المهمة « الفارس دارڤيو » كما ذكر « دولاروك » ، واذا كان « دارڤيو » قد رافق « السيد سوريب » الى الأمير طرباي فقد كان ذلك بدافع الفضول فقط . وقد حل الأمر بيسر ، ولم يكن لدى مؤلفنا (أي دارڤيو) الوقت الكافي كي يتعرف بالعرب ، أو يلاحظ عاداتهم وأخلاقهم وهذا التعرف لم يجر الا في عام 1664 وللأسباب التي سنذكرها (42) فاذا كان الجمهور سيفتقد بعض طلاوة أسلوب « دولا روك » ، الا أنه سيرتاح لمعرفة الحقيقة ، لأن توخي الحق ليس أقل قيمة وأهمية من متعة الأسلوب » (43) .

وفي نشر « لابا » لهذا القسم من مجموع المذكرات ، أتت رحلات « دارڤيو » الثلاث الأخيرة الى الأمير محمد من آل « طراباي » ، وملاحظاته خلالها ، وحدة واحدة ، في الجزء الثالث منها . وقد شغلت 60 ٪ منه ،

---

(40) يبدو ان الباحث «موسى شارون» في بحثه المشار اليه آنفا ، قد اعتمد هذا الجزء المنشور من المذكرات دون غيره. وقد أورده تحت عنوان Voyage dans la Palestine. Amsterdam 1718 ولعله طبع طبعة ثانية غير التي أشار اليها «لابا» ، اذ أن هذه قد نشرت في امستردام كما هو واضح لافي باريس ، وان كان الزمن متقاربا . ولم يتح لي العثور على نسخة باريس أو امستردام لموازنتها مع الأصل المنشور عام 1735 .

(41) انظر الرحلة الأولى لدارڤيو الى الامير (زين) من آل طرباي ، في الصفحة (8) من هذه الدراسة وقد وردت في المذكرات عام 1658 .

(42) انظر الرحلة الثالثة لدارڤيو الى عرب جبل الكرمل – كما أسماهم – في الصفحة (12) من هذه الدراسة .

(43) Mémoires d'Arvieux. T. III. P. 2 - 3

أي (340) صفحة من (558) وجاءت منسقة في عشرين فصلا ، ومحيطة بأغلب جوانب مجتمع الإمارة العربية الأعرابية (44) .

ولما كانت دراسة كل ما أتى في تلك الفصول عن الأحوال الاجتماعية في الامارة العربية الطربائية ، وتحليله ، طويلا جدا على هذه الدراسة المحدودة ، ولاسيما أن البحث في كثير من الجوانب الاجتماعية يتطلب عادة صياغة وصفية وشرحا مستفيضا ، يستغرق الكثير من الصفحات ، فقد اقتصر فيها على طرح :

موجز سريع لما حملته تلك الفصول من ألوان اجتماعية أساسية ، مع بعض التعليق عليها .

يمكن تقسيم **الفصول العشرين** التي حوتها المذكرات الى قسمين ، بحسب طريقة عرض المعلومات فيها ، وصياغتها :

القسم الأول : ويضم الفصول الستة الأولى . وفيها يطرح « الفارس دارڤيو » معلوماته بشكل حركي ، أي أنه يصف فيها مختلف الأحداث التي عاشها في ذلك المجتمع ، الصغيرة منها والكبيرة ، متسلسلة زمنا ، ومضافا اليها مشاهداته ، وتعليقاته ، وموازناته مع ما كان يجري في المجتمع الفرنسي بخاصة ، والأوربي بعامة .

---

(44) الفصول وعناوينها ، وصفحاتها ، كما أتت في الجزء الثالث من المذكرات :

الفصل الأول : رحلة الفارس دارڤيو الى عرب جبل الكرمل وأسبابها ص 3
الفصل الثاني : قصة حسن الملقب بالفرنجي 43
الفصل الثالث : قصة بندقي شاب 57
الفصل الرابع : محادثات «الفارس دارڤيو» عند الأمير طراباي 64
الفصل الخامس : رحلة الفارس «دارڤيو» الى طرطورة 88
الفصل السادس : حملة العرب ضد ثوار نابلس واشتراك «دارڤيو» ... 97
الفصل السابع : عن العرب عامة 144
الفصل الثامن : عن الأمير طراباي وأسرته وحكومته 156
الفصل التاسع : دين العرب 170
الفصل العاشر : قرى الضيف عند العرب في مخيماتهم وفي القرى 179
الفصل الحادي عشر : اخلاق العرب وعاداتهم 188
الفصل الثاني عشر : احترام العرب للحية 204
الفصل الثالث عشر : عواطف العرب تجاه القطط والكلاب 223
الفصل الرابع عشر : القضاء عند المسلمين وبخاصة العرب 228
الفصل الخامس عشر : خيول العرب 239
الفصل السادس عشر : مسكن العرب ومخيماتهم 254
الفصل السابع عشر : مهن العرب 262
الفصل الثامن عشر : ملابس العرب 286
الفصل التاسع عشر : وسائل اللهو والتسلية عند العرب 320
الفصل العشرون : الطب عند العرب 325

وقد يكون أبرز ماجاء عن الأوضاع الاجتماعية في تلك الفصول الستة ما يلي :

1 – وصف الفارس دارڤيو « رحلته الثانية الى الأمير محمد طراباي » وسببها بالتفصيل ، وكيفية استقبال الأمير ، وأمراء الأسرة الآخرين ، وأعراب الامارة ، له بالحفاوة والكرم ، ثم طريقة حياته في المخيم العربي ، وتفصيلات عمله كاتبا لدى الأمير « محمد » وما أدخله من جديد في هذا الميدان ، ومسامراته الطويلة بالعربية ، مع الأمراء والأعيان عن بلده فرنسا ، ومليكه وقوة هذا الأخير العسكرية ، وجيشه البري والبحري ، وأسلحته ولاسيما المدفعية ثم حديثه معهم عن دينه ، وعن العادات في مجتمعه .

2 – تخصيص فصلين كاملين لقضية اجتماعية هامة من قضايا المجتمع العربي والأوربي آنذاك ، وهي قضية « الأسرى الفرنجة » لدى العرب المسلمين ، الناجمين عن عمليات الغزو البري البحري العربي بصفة خاصة واعتناقهم الاسلام قسرا أو حبا . وقد لامس « دارڤيو » تلك القضية عبر تقديمه قصتي شابين ، أحدهما « مايورقي » وثانيهما « بندقي » ، رمتهما ظروف الغزو الى مخيم الأمير طراباي . أولهما تظاهر باعتناق الاسلام ، وثانيهما رغب به . وقد شرح « دارڤيو » الطريقة التي كان يتم فيها اعتناق الدين الاسلامي من قبل أولئك الفرنجة ، وموقف العرب المسلمين من الأمر ، ومنهم ، « وعملية الختان » التي كانت تجري لهم وبقية الاحتفالات (45) وبدا « دارڤيو » في هذين الفصلين وكأنه مبعوث ديني نصراني يسعى لمساعدة مثل هؤلاء الأسرى للبقاء على دينهم ثم معاونتهم بالاتفاق مع الرهبنات الدينية على الفرار الى بلادهم .

3 – رسم صورة « ثورة فلاحية » قام بها العرب المسلمون في قرى ريف نابلس ضد السلطة العثمانية ، ممثلة بأمير لواء نابلس ، لأنه اشتد عليهم في جبي الضرائب المترتبة ، وكان العام : (1664م/1074هـ) (46)

---

(45) انظر : الفصل الثاني ، والثالث من الجزء الثالث من المذكرات 43 – 63

(46) ليس في المصادر العربية المتوافرة ما يفيد بأن هذا العام كان عام جراد وقحط في بلاد الشام.والذي يدعو للشك والتساؤل حول هذا العام ، بأن دارڤيو ربطه بوجود احمد باشا كوبرلي واليا على دمشق ، اذ هو الذي اصدر الأمر الى الأمير محمد بمساعدة أمير لواء نابلس في اخماد الثورة . الا أن احمد باشا كوبرلي ترك ولاية دمشق ليصبح صدرا أعظم عام 1072 1661م ومن ثم فوالي دمشق عام 1074 هـ / 1664 م لم يكن أحمد باشا ، وانما كان مصطفى

عام قحط ، بسبب موجة الجراد التي احتاجت البلاد ، فأكلت الأخضر واليابس . وطرح «الفارس دارڤيو» من خلالها كيف أسهم أمراء آل طراباى وعربانهم ، وقدرهم بأربعة آلاف مقاتل ، في قتال أولئك الثوار ، استناداً الى أمر أتاهم من باشا دمشق ، لمساعدة « بك نابلس » الذي حاصره الفلاحون في المدينة ، وقد اشترك هو نفسه في القتال . والملفت للانتباه في وصفه تلك الثورة ، ومجريات القتال بأن الثوار ويقدرهم « دارڤيو » بخمسة آلاف من سكان القرى المسلمين ، كانوا يقاتلون بالبنادق ، بينما عرب الأمير طراباى كانوا مسلحين فقط بالحراب والفؤوس وبعض أسلحة أخرى غير نارية وأن العرب الأعراب المقاتلين باعوا الأسلحة التي غنموها ، كالبنادق مثلا الى تجار دمشق المرافقين للمخيم وأن « دارڤيو » ومرافقيه الثلاثة ، حاربوا بالبنادق ، وقد أكد أكثر من مرة ، بأن العربان كانوا حتى تلك المرحلة من الزمن لا يملكون الأسلحة النارية ، بل ويخشونها ويفرون اذا وجهها المسافرون المعرضون لسلبهم الى صدورهم (47) . الا أنه من المعروف من الوثائق العثمانية بأنه كان هناك عملية تهريب بنادق الى العربان في فلسطين منذ 979هـ / 1577م ويبدو أن الدولة العثمانية لم تسمح للعربان بالذات ، بحمل الأسلحة النارية ، خشية تمردهم عليها ، كما كان من الصعب آنذاك على الفرسان استخدام البنادق بسهولة وهم على ظهور الخيل (48) .

باشا القيللي . الا أن القحط كان موجودا في ولاية دمشق فعلا عند تسلم أحمد باشا الفاضل «الولاية» عام 1071هـ/1660م . فإما أن يكون «دارڤيو» قد وهم في اسم الوالي ، وظلت موجة القحط والجراد متواصلة حتى عام 1074هـ/1664م – ومن المعروف أن موجة الجراد كانت تستديم لثلاث سنوات على الأقل – وإما ان يكون هناك خطأ في العام نفسه وهذا الأمر الأخير يطرح شكا كبيرا حول تاريخ فترات اقامة «الفارس دارڤيو» في مخيم آل طرباي ، ولا سيما ان هناك خلافا بين ما نشره دولاروك عام 1717 ، وبين ما أدعاه «الأب لابا» ناشر مجموع المذكرات، من تصحيح لها .

انظر : ابن جمعة : الباشات والقضاة تحقيق صلاح الدين المنجد في كتاب ولاة دمشق في العهد العثماني دمشق 1949 ص (1 – 69) . ص 38 – 39 .

– المحبي المصدر السابق . ج1 / 352 – 353 ترجمة (أحمد باشا الكوبري) .

– ليلى الصباغ ، الفعاليات الإقتصادية في فلسطين ، مصدر سابق . ص 276 والحاشية (83) (حول الجراد) .

– الصفحة (13 – 14) من هذه الدراسة (حول نشر « مذكرات الفارس دارڤيو عن عرب جبال الكرمل») .

– مذكرات «الفارس دارڤيو» (T. III P 100 – 101) حول ولاية أحمد باشا كوبرلي وامره بإخماد ثورة نابلس .

(47) D'Arvieux. T. II. P. 9, 263 ; T. III. P. 148, 262

(48) انظر : Heyd op. cit, 80 - 83. n° : 32, 33, 34, 34,

يؤكد أحمد وصفي زكريا في كتابه عشائر الشام بأن أسلحة البدو كانت قديما السيوف والرماح والسهام اما اليوم ومنذ نصف قرن (اي من مطلع القرن العشرين) ، انتشرت البنادق ، ويدعونها

4 ـ شرح تفصيلي لعملية غـزو وتشليح قام بها أعراب الأمير تجاه مركب قبرصي كان متجها الى مصر ، ومحملا بالنبيذ والجبن ، رمته الأمواج على الشاطىء عنـد طنطورة (49) .

5 ـ وصف لرحلات القنص مع بعض أمراء آل طراباي ، وهي لقنص الغزلان والأرانب (50) .

6 ـ وصف تفصيلي للولائم التي أولمت له من قبلهم ، وما قدم فيها من طعام وشراب (51) .

7 ـ حديثه المفصل عن تعاطي الأمير محمد طراباي لمـادة البرش التـي أسمـاهـا بـ Berge وهـي مـادة مخـدرة ، كـانت منتشـرة فـي المجتمعين العربي والتركي ، وبين فئة الأعيان من السياسيين والعلماء والأدباء ومن يراجع كتب التراجم العربية في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين/ السادس عشر والسابع عشر الميلاديين يتضح له هذا الانتشار ، وقـد يكون الفارس « دارڤيو » من المصادر القليلة التي أفادت عنها تفصيلا ، اذ شرح مادتها ، وشكلها ، والنبات الذي تستخرج منه ، وصناعتها ، وآثارها المختلفة على المدمنين عليها ، والطريقة التي على المدمن اتباعها اذا أراد التخلص منها ، اذ أنـه أوصى الأمير بها عندما أبدى استعداده للاقلاع عن تعاطيها ، كما بين ارتفاع ثمنها (52) .

أما القسم الثاني من الفصول فيضم (14) أربعة عشر فصلا . وفيها جرد « الفارس دارڤيو » ملاحظاته عن الزمن ، وتسلسل الأحداث ، وقدمها على شكل دراسة اجتماعية وتعميمات ، استند فيها بالطبع على مشاهداته الجزئية المتكررة والمتنوعة ، وعلى ماجمعه من معلومات من الوسط الذي عاش فيه ومن ثم يلاحظ بعض تكرار في الفصول التي تترى بدءا من الفصل التاسع وحتـى العشريـن اذ ركز الحديث فيها على بعض أمور كان قد طرحها

(بواريد) جمع بارودة (ص 231) الا أن أوليا جلبي يذكر في رحلته ان عربان آل طرباي وعدتهم 20،000 كانو من رماة البنادق ، وذلك في عام 1082هـ/ 1672م ، أي بعد زيارة «دارڤيو» بثماني سنوات (Evlya Chelebi, Op. cit, P. 88)

(49) D'Arvieux, T. III. PP. 88 - 92

(50) Ibid, PP. 97 - 98, 112 - 113.

(51) Ibid, PP. 90 - 91, 94 - 97, 111 - 112

(52) Ibid. PP. 19 - 22, 133

وانظر حول البرش وتعاطيه في القرن السـابع عشر ، ليلى الصباغ : من اعلام الفكر العربي في العصر العثمـاني الأول ، محمد الأمين المحبي دمشق 1406هـ/ 1986م ص202 ـ 203 ، 265

بشكل موجز وسريع في الفصول السابقة ، أو في حنايا الجزئين السابقين من مذكراته . الا أن هذا التكرار لا يرى ، اذا ما أخذت وحدها ، لأنها تكوّن وحدة واحدة ، يمكن فصلها عما قبلها ، وعما بعدها . وهي فصول حرية بدراسة تحليلية دقيقة ، لما حوتـه من معلومات وفيرة ، اتخذت محورا لها كثيرا من العادات ، والتقاليد ، والقيم السائدة عند الأعراب آنذاك ، والتي لا تزال قائمة حتى ساعتنا هذه ، لا في المجتمع العربي البدوي فحسب ، وانما في المجتمع العربي الحضري أيضا ومن ثم فان المصادر المعاصرة التي تصف الحياة الاجتماعية العربية البدوية بخاصة والحياة العربية الاجتماعية بعامة ، قبل أن تتأثر تلك الحياة بالحضارة الغربية وعاداتها وقيمها ، هي مصادر مدعمة لمذكرات « الفارس دارڤيو » في كثير من الأمـور المطروحة (53) .

وقـد يكون من أبـرز ما أتى في تلك الفصول :

1 – شرحـه الغاية من كتابته لها . وهي غاية علمية كما تبـدو لنـا ، وسابقة جديدة في الفكر الأوربي في تلك المرحلة من الزمن تؤيد بـدء تحرره من مواقفه المتعنتة من العرب ، وان بقيت فيه رواسب عميقة تجاه دينهم الاسلام ونبيهم محمد (ص) . فقد أكد « دارڤيو » أن هدفـه « هو ازالة الضلال العالق بأذهان الغربيين عن العرب ، اذ أنهم لا ينظرون اليهم الا على أنهم مشلحون للمسافرين والرحالـة على الطرقات من متاعهم وملابسهم ، وأنهم أناس غير مهذبين ، ومتوحشين ، وظالمين ، وعنيفين ، ودون اخلاص ، وعواطف صادقة» (54) وأنـه أراد من خلال معرفته الدقيقة بأحوالهم أن يظهر – اذا طرح جانبا غزوهم للمارة على الطرق ، الذي له

(53) ان تلك المصادر العربية والأجنبية كثيرة ، ومنها على سبيل المثال فقط بعض ما يخص عربان الشام وفلسطين والبلاد العربيـة .

1 – أحمد وصفي زكريا : عشائر البدو في الشام ، جزءان دمشق دار الفكر 1403هـ / 1983م ومقدمتـه .
2 – مصطفى مراد الدبـاغ : القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين . بيروت 1399هـ / 1979م .
3 – عبد الجليل الطاهر : البدو والعشائر في البلاد العربية . القاهرة 1955 .
4 – أحمد أبو خوصة : بير السبع والحياة البدوية جزءان عمـان 1976 – 1979
5 – عـارف العـارف : تاريخ بير السبع وقبائلها . القدس 1934 .

(54) T. III. P. 188

لابد من الإشارة هنا بأن رأي العرب بالأوربيين آنذاك – على ما يبدو من كلام «دارڤيو» – لم يـكن أحسن حالا من رأي الأوربـيين بالعرب . فقد ورد في مقابلة بين «دارڤيو» والأمير «محمد طرباي» بعد قدومه اليه ، بأن قال الأمير لحاشيته ، وأمام دارڤيو : «لا أرى أن الفرنجة

أسبابه ومسوغاته ـ بأنهم من أفضل الناس ، وأنهم أناس متمدنون على طريقتهم ، ومضيافون ، وأوفياء لوعودهم وشرفاء . (55) وهم من أكثر الشعوب عراقة وعددا ، وأن الأوربيين يدينون لهم بأفضل ما لديهم في ميادين الفلك والطب وعلوم أخرى ، واذا كانت العلوم غير مزدهرة لديهم في ذلك الوقت ، فاللائمة تقع كلها بحسب رأي « دارڤيو » على طغيان الأتراك ، الذين جعلوهم في حالة لا تسمح لهم بالانكباب عليها ، على الرغم من ماضيهم المشرف فيها ، وعلى الرغم مما وهبتهم اياه الطبيعة من قدرات فكرية وجسمية ، لتحقيق تقدم لا نهائي في مجالها . وعلى الأوربيين أن ينزعوا تلك الأحكام المسبقة ، والمغلوطة عنهم من أذهانهم وأن يقوّموا تقويما عادلا وسليما هذا الشعب الذي يتمتع بفكر حي ونظرة ثاقبة ، وقوة محاكمة (56) ؛ ويظهر هنا كرهه للأتراك العثمانيين واضحا .

2 ـ بحثه عن أصل العرب ، وعلى الرغم من كثير من الأغلاط التاريخية الواردة في دراسته تلك (57) ، وعلى الرغم من مهاجمته للرسول محمد (ص) ، وللدين الاسلامي (58) ، فانه أقر بأن العرب في فلسطين وسورية والعربيات الثلاث ، وافريقية هم من أصل واحد (59) ، وبذلك ثبت الاصالة الواحدة لسكان البلاد العربية .

3 ـ وصفه للممارسة الواقعية للدين الاسلامي عند العرب الأعراب (60) وبيّن بأن هؤلاء الأعراب كانوا لايستعمقون في دراسة العقائد لجهلهم ،

متوحشون جدا كما يصفونهم لنا فنحن نستخدم اسمهم لنخيف أطفالنا ، وانتم ترون بأنهم شرفاء جدا (يقصد دارڤيو) وان لهم مثلنا الفهم الحسن ، والأدب ، والتعقل» ، فأجاب «دارڤيو» بأن من أهم الفوائد التي يحصل عليها السائح من رحلاته ، هي التخلص من الأحكام المسبقة السائدة في بلده تجاه الأجانب ، والتي لا يمكن لمن لا يخرج خارج بلاده من التحرر منها ففي فرنسة مثلا يتخيل بأن ليس للعرب وجه انسان ، (هكذا !) T. III. P. 15-16

(55) Ibid P. 143

(56) Ibid P. 189 - 190

(57) من تلك الأغلاط والنواقص انه رد أصل العرب كلهم الى «اسماعيل بن ابراهيم» اي الى «عرب الشمال» ولم يشر الى «عرب الجنوب» كما أنه نظر الى التركمان على أنهم عرب من نوع آخر ، وبذلك دمج «*العرب*» و«*البداوة*» في مضمون واحد .
أنظر بعض التفصيلات الأخرى في ليلى الصباغ : فلسطين في مذكرات الفارس دارڤيو ، البنية الطبيعية والبشرية . ص47 . بحث أشير اليه في الحاشية (1) من هذه الدراسة .

(58) انظر الحاشيتين (15) و (16) من هذه الدراسة .

(59) Ibid, P. 146

(60) انظر (الفصل التاسع) من (الجزء الثالث) من المذكرات P. 170 - 178 .

اذ أن قلة منهم كانت متعلمة ، ومن ثم فهم ينصرفون الى العبادات التي يؤدونها تقليدا ، وببعض التحرر من شروطها ، كما في الصوم والصلاة . ويتكلم بصفة خاصة عن الختان ويصف الأمر وصفا دقيقا ، ويرى بأنه من الطقوس الاسلامية الرئيسة . وفي حديث ، « دارڤيو » عن ممارسة الأعراب للدين الاسلامي أمور كثيرة صحيحة ، الا أن فيه بالمقابل أمورا مغايرة تماما للحقيقة ومشوهة ، كتأكيده بأن الدين الاسلامي أعفى النساء من الصيام وحرمهن من الجنة (61) .

4 — تخصيصه فصلا خاصا للضيافة وواجباتها ، وعاداتها ، عند العرب البدو في مخيماتهم المتنقلة (62) ويطابق ما قاله في هذا الشأن ، المعروف والمتداول عن عادة قرى الضيف عند العرب ، التي هي من أساسيات قيمهم الاجتماعية منذ العصر الجاهلي ، وجاء الإسلام فثبتها (63) ولم يقصر حديثه على الضيافة عند العرب البدو ، بل مدّه الى الضيافة عند المستقرين في القرى ، مسلمين ، أم نصارى ، وما يقدمونه عادة متها للمارة والمسافرين (64) .

5 — وصفه في فصل خاص أخلاق العرب وعاداتهم (65) ، وفيه يعود « الفارس دارڤيو » الى الدفاع بحرارة ومنطقية مقنعة عن أخلاق العرب الطيبة والمهذبة تجاه الأفكار السيئة التي كونها الأوربيون عنهم دون أساس ، ودون دراسة ، ومعرفة تجريبية . وهو ينعت العرب في هذا المجال ، بالجدية والرزانة ، وعدم حبهم للضحك ، وقلة تقبلهم للفكاهة ، وعشقهم للحرية ، وانسيابهم مع سجيتهم دون تكلف . ويتحدث عن تحيتهم الحلوة ولو أنها طويلة وفيها تكرار ، وطريقة وقوفهم المؤدبة أمام الآخرين ، ورفضهم لحركات الجسم والأيدي أثناء الحديث ، واحترامهم الكبير لعلاقة الخبز والملح ، واصرارهم على التعامل بالمال الحلال ، الذي لم يدخله الربا والغش . ويكرر في أكثر من مناسبة نفورهم من سفك الدماء ، الا أنه

---

(61) انظر الحاشية (16) من هذه الدراسة ، و Ibid, P. 175

(62) انظر (الفصل العاشر) من (الجزء الثالث) من المذكرات . 179 — 187 .

(63) انظر حديث الرسول (ص) : من كان يؤمن بالله وباليوم الاخر ، فليكرم ضيفه جائزته، قالوا : وما جائزته يارسول الله ؟ قال : يومه وليلته والضيافة ثلاثة أيام ، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه . صحيح مسلم بشرح النووي 18 جزءا .د. ت. ج11 / 30 — 32 .

(64) انظر الحاشية (25) من هذه الدراسة .

(65) انظر (الفصل الحادي عشر) من (الجزء الثالث) من المذكرات ص 188 — 204 .PP

اذا حدث لهم ذلك ، فالويل للقاتل ، اذ أن عادة الثأر متأصلة في ذاتهم ، ولا تنفع أية وساطة فيها . ومن عاداتهم التي رآها « دارفيو » مستحبة وتدل على تهذيب خلقي ، بأنهم لا يسمحون لأنفسهم مهما كانت الظروف أن يلجؤوا الى البصاق ، والمخاط أمام أحد يحترمونه . وما أثار فضوله بصفة خاصة بأنهم لا يتقبلون أبدا ، ومهما كانت الدوافع ، اخراج غازات البطن بصوت أمام أحد ولذا وقف طويلا أمام هذه الناحية . وبيّن بعدة قصص عاني بعضها ، ورويت له أخرى ، بأن هذا الأمر اذا حدث ، ولو غصبا ، فانه يمثل وصمة عار على صاحبه ، وأسرته ، لن ينسى عبر الأجيال ، ولا تغسله الأيام . وفي الواقع لا يزال مجتمعنا الدمشقي يتداول بعض الروايات التي ذكرها حتى وقتنا الحاضر .

6 — اهتمامه بالالتحاء عند العرب (66) ، ويبدي أسفه على ترك المجتمع الأوربي لتلك العادة ، ويوازن بين موقف الأتراك الذين كان لايلتحي منهم الافئة معينة ، وبين العرب واحترامهم الشديد والمبالغ فيه للحية ، حتى كانوا يقسمون بها . وأوضح بالذات الأسباب الدينية وراء ذلك . ومعظم ما قدم في هذا الباب صحيح ، بل انه في دمشق كان يجري احتفال معين عندما تظهر لحية الشاب (67) .

وانتقل دارفيو في الفصل ذاته الى حديث فيه كثير من التفصيل الذي قد لا يرى في مصادر أخرى عن « الحلاق » وعمله في المجتمع آنذاك .

7 — ابرازه موقف العرب من الحيوانات ؛ فقد بين عنايتهم بمواشيهم من الابل ، والغنم والماعز والثيران لأنها مصدر حياتهم وثروتهم ، فتربيتها من أعمالهم الأساسية (68) وركز في فصل خاص على جهودهم الكبيرة في تربية « الخيل » التي هي عزيزة عليهم معزة أولادهم . ودخل في ثنايا عنايتهم بها ، وطرق رعايتها ، وكيف يحفظون شجرة نسب كل فرس ، ومدى أصالتها . وهذا الفصل (69) لا بد أنه أثار المجتمع الأوربي آنذاك

(66) انظر (الفصل الثاني عشر) من (الجزء الثالث) 204 — 223 ص .

(67) انظر : ابن كنان : الحوادث اليومية من تاريخ احدى عشر والف مية مخطوط بجزئين في مجموعة مكتبة برلين تحت الرقم :
9479 we 1114, 9480 we 1115. / ج 1 ص 131 و 170 آ
وانظر : أحمد وصفي زكريا : عشائر الشام ص 290 .

(68) D'Arvieux. T. III. P. 262.

(69) أنظر (الفصل الخامس عشر) من (الجزء الثالث) من المذكرات ص 239 — 253 .

الذي شرع اهتمامه يتزايد بالخيول العربية وكيفية تربيتها . واذا كان قد خص العناية بالخيل بتفصيل واف ، وهو أمر معروف ومشهور عن العرب ، فانه أفرد فصلا أيضا لحديثه عن عواطف العرب تجاه القطط والكلاب (70) وأوضح تعاطف العرب مع القطط ، التي كان على ما يبدو ، يكرهها هو وبين الأسباب الدينية لذلك التعاطف المستمدة من حديث للرسول (ص) (71) ، مع بعض غمزات غير محببة تجاه ذلك الحديث . كما شرح نجاسة الكلاب وتجنب لمسهم لها ، والأسباب الدينية لذلك وبين كيف أن هذا لم يمنعهم من استخدامهم لها في القنص ، وفي حراسة المخيمات (72) .

8 — ملاحظاته حول المسكن عند العرب الأعراب . وبين ضمن الفصل (73) الذي أفرده لها ، بأنه الخيمة (بيت الشعر) وشرح المادة التي تصنع منها ، ثم أوضح بدقة كيف أن المخيمات كانت أشبه بقرى ، أو مدن صغيرة متنقلة ، وأنه يتبع فيها مخطط واضح . وأظهر اعجابه بطريقة العرب السريعة في فك بيوت شعرهم عندما يريدون تبديل مواقعهم طلبا للكلأ والمرعى . وأكد سيادة الأمن في داخل تلك المخيمات ونوع الأثاث البسيط المستخدم في الخيمة (74) .

9 — ومن المسكن ، انتقل « الفارس دارفيو » الى حرف العرب (75) وقد أجملها في ثلاث : الإهتمام بتربية مواشيهم ، واتباع أميرهم في عمليات القتال التي يستدعى اليها لصالح الدولة العثمانية ، وثالثها وقد يكون أهمها ، وهو السطو على السابلة في الطرقات العامة وتشليحهم كل ما يملكون . وفي هذا المجال كان يتحدث حديث خبير عانى التجربة بنفسه ، وشاهدها ، وسمع عنها أكثر من مرة ، ويشير الى طريقة اقتسامهم الغنيمة ، ثم عودة كل واحد الى مخيمه ليتحدث بفخر عن مغامراته (76) .

---

(70) انظر (الفصل الثالث عشر) من (الجزء الثالث) من المذكرات ص 223 — 228 .

(71) انظر حول ذلك حديث الرسول (ص) «عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت ، فدخلت فيها النار لاهي أطعمتها وسقتها اذ حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض». صحيح مسلم ج4 / 240 .

(72) انظر حول موقف الدين الإسلامي من الكلاب صحيح مسلم ج10 / 235 — 241 وج14 /94ـ95

(73) انظر الفصل (السادس عشر) من الجزء الثالث من المذكرات . ص 254 — 261 .

(74) T. III. P. 259

(75) انظر : (الفصل السابع عشر) من (الجزء الثالث) من المذكرات 262 — 286

(76) انظر : Ibid, PP : 262 - 268

وفي الفصل الذي خصه بحرف العرب وأعمالهم تحدث « الفارس دارڤيو » باسهاب نسبيا عن الطعام عند العرب ، وأنواعه ، ومواده الرئيسة ، وطريقة الطهو ، والشواء ، وأبرز الأطعمة (77) كما وصف ما يشربون وأكد أنهم يشربون الماء ، ولا يتناولون الخمرة لأسباب دينية ، ولعدم توافرها لديهم ، الا أن غير المتعصبين دينيا قد يشربونها ويسعون لايجاد مسوغ لهم . وبالفعل فقد شربها مع « دارڤيو » بعض الأمراء والأعيان . وتحدث عن مشروبهم المفضل القهوة وكيفية صناعتها، وأنها تفضل صناعة الأوربيين لها ، كما بين مشروباتهم الأخرى المركبة من أنواع من عصير الفواكه (78) :

وقد أكد على مادتين كان العرب يتعاطونها وهما : الدخان الذي دخل البلاد العربية المشرقية في أوائل القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي (79) وانتشر بين العرب الأعراب على ما يبدو من حديث « دارڤيو » انتشارا كبيرا حتى تعاطاه النساء والرجال ، والأطفال (80) بل إن « دارڤيو » أشار الى أن الخيول نفسها كانت تلتذ برائحته (81) والمادة الثانية هي البرش ، وقد أشير اليه سابقا (82) الا أنه لم يذكر انتشاره في أوساط العامة انتشار الدخان فيها . وفي هذا الفصل أيضا تطرق الى آداب المائدة عند العرب ، وطريقة جلوسهم وطعامهم (83) .

10 — ولم يفت « دارڤيو » في وصفه للأحوال الاجتماعية عند العرب الأعراب ، أن يحيط بملابسهم ، ملابس الرجال والنساء على حد سواء ، وملابس العامة والخاصة وكان ملاحظا دقيقا في تتبعه لها ، وبيان قماشها وتفصيلها (84) .

11 — ولم ينس « الفارس دارڤيو » « وسائل اللهو والترفيه » فأفرد لها فصلا (85) وتحدث عن تلك الوسائل عند الرجال وتجمل بانصرافهم الى قنص الغزلان ، والأرانب ، والخنازير البرية ، وإلى لعب الشطرنج ،

(77) Ibid, PP. 268-282
(78) Ibid, PP. 273-277
(79) انظر : ليلى الصباغ : من أعلام الفكر العربي : المحبي / 204 — 206 .
(80) D'Arvieux, T. III. P. 282
(81) Ibid, P. 251
(82) انظر الحاشية (52) ، ومتنها .
(83) D'Arvieux, T. III. P. 282 - 286
(84) انظر : (الفصل الثامن عشر) من (الجزء الثالث) من المذكرات ص 320 — 286 :
(85) انظر : (الفصل التاسع عشر) من (الجزء الثالث) من المذكرات . ص 320 — 399

والمنغلة (من لعب الضامة) ، ولعبة العصي . أما عند النساء فيأتي في الدرجة الأولى التزاور والحديث فيما بينهن (أو الثرثرة كما يسميها) ، وشرب القهوة ، والتدخين ، والغناء والموسيقى ، ولو أن الأمرين الأخيرين لا يقتصران عليهن ، بل إن الرجال ينصرفون أحيانا اليهما . وتحدث في هذا الفصل عن أنواع الأدوات الموسيقية المستخدمة ، والألحان المغناة ، وزغاريد النساء . وأفرد صفحات اوصف زيارات الأميرات لبعضهن بعضا ، والاحتفالات التي كانت تجري بهذا الشأن .

12 — ولم يغفل الفارس « دارڤيو » في صوره الاجتماعية العديدة التي قدمها ، الاحاطة بالبنية الجسمية عند العرب ، ومدى تعرضهم للأمراض ، ثم الطب لديهم (86) . وأكد عدم تفشي الأمراض بينهم وبين أطفالهم بكثرة كما كان عليه الحال في أوربا ، ومن ثم فهم يعمّرون مدة طويلة . ويعزو ذلك الى الاعتدال في طعامهم وشرابهم — وهذا ما لا يرى في القارة الأوربية — لا الى ارتقاء الطب عندهم ، فالطب الممارس لا يزال أوليا ، ولا يعتمد على ما قدمه كبار الأطباء العرب السابقون ، من أمثال ابن سينا ، فهم لا يزالون يعتمدون على الرقي والتمائم . ويغلق هذا الفصل بالحديث عن الموت ، ووصفه مراسيم الجنازة والدفن ، وأخيرا توزيع الميراث .

13 — جاء « الفارس دارڤيو » هنا وهناك ، وفي أكثر الفصول على ذكر المرأة الأعرابية ، دون أن يخصها بفصل . وعلى الرغم مما يبدو من موقفه السلبي من المرأة بعامة ، والأوربية بصفة خاصة ، فانه أبدى اعجابه بالمرأة العربية ، لطاعتها وانقيادها لزوجها ، حتى أنه رأى أن يحضر أمراء فرنسا بضع مئات من هذه المرأة الى بلادهم ، ليعلمن نساءها عن طريق القدوة ، الفضائل التي يجب أن يتمتعن بها (87) . كما أبدى تقديره الكبير لأعمالها الكثيرة والمضنية . وقد وصف صورتها الجسمية وما يطرأ عليها من تشويه ، ولا سيما قوامها ، نتيجة عدم العناية به . كما أسهب في وصف لباسها ، وزينتها ، وحجابها ، وكيفية خطبتها ، وزواجها ، وكيف هي مورد رزق لأبيها عن طريق استيلائه على مهرها (88) ، وكيف هي

---

(86) انظر : (الفصل العشرين) من الجزء الثالث) من المذكرات ص 329 — 340 .

(87) انظر : T. III. PP. 35 — 36

(88) ان ما أورده «دارڤيو» متفق مع ما يجري حتى الان فالعروس تشترى بأثمان باهظة أنظر عشائر الشام 212 — 213 .

عار على أهلها من أب وأخ أكثر مما تكون عارا على زوجها اذا ما ارتكبت عملا مشينا (89) .

ان ذلك العرض المقتضب لما رسمه « الفارس دارڤيو » من « صور الحياة الإجتماعية » في امارة بني حارثة ، خلال العقد السابع من القرن السابع عشر الميلادي ومعظم تلك الصور لا يزال قائما حتى وقتنا الحاضر في المجتمعات العربية البدوية كما تثبته المصادر المعاصرة اليوم ، يعطي فكرا عن كثير من جوانب مجتمع تلك الامارة . الا أن تلك الصور تبقى باهتة ، وجامدة ، لأنه ينقصها الوصف التفصيلي الذي يوضح فيها اللون ، ويبث الحياة ولذا فانه سيعمل على ترجمتها بنصها كاملا ، ونشرها قريبا مع التعليق عليها .

ومع ذلك ، فلو اقتصر على تلك الصور فقط ، فقد يرى المؤرخ الاجتماعي بأنها ، على الرغم من تعددها ، تفتقد صورة الهيكل العام لبنية المجتمع . أو بتعبير أبسط ، الفئات الاجتماعية التي يتكون منها ، وعلاقتها بعضها ببعض ، وكيفية سياسة أمورها ، ولا سيما أن الامارة لم تكن آنذاك مماثلة في بنيتها للامارات البدوية العربية العادية ، المنفردة بشؤون مجتمعها الأعرابي وأموره الداخلية ، وانما كان لها صلات بعناصر سكانية غير أعرابية تسكن منطقتها ، كما أن لها علاقات بسلطة أعلى تتبع لها ، ألا وهي الدولة العثمانية . فصحيح أنها امارة عربية أعرابية ، الا أنها في الواقع الفعلي كانت دويلة في طور التكون ، وعليها أن تمارس علاقات متنوعة ليست ذات صفة أعرابية فحسب .

والمتتبع لدقائق ما أتى في « مذكرات الفارس دارڤيو » عن مجتمع هذه الامارة ، يرى بأنه لم يتغاض عن طرح ذلك الهيكل العام ، أو الصورة التركيبية للبنية الاجتماعية لمجموع الامارة ، الا أنه لم يأت بها متكاملة ، أو مجمعة الخطوط في فصل واحد خاص كما فعل بالصور السالفة الذكر ، انما أتى بها متناثرة هنا وهناك . ومن ثم سعي لجمع شتاتها .

ويتبين من ذلك التتبع أنه يمكن تمييز خمس فئات اجتماعية رئيسة في مجموع الامارة وهي : فئة الأمراء ، وفئة الشيوخ والأعيان ، وفئة العامة

(89) ويؤكد هذا ما ورد في كتاب عشائر الشام : 279 اذ أن جريمة المرأة تعود مسؤوليتها على ذويها ولا يسأل زوجها أو أولادها عما أوقعته من الجرائم .

من مجموع الشعب، وفئة الخدم، وفئة الغرباء. وفي الواقع قدم «دارڤيو» معلومات متناثرة كثيرة عن تلك الفئات، ولكن لما كان الوصف والتحليل لكل فئة يفيض عما هو مقرر لهذه الدراسة من حجم، فانه سعي لطرحها كما طرحت الصور السابقة بشكل موجز على أن تنشر قريبا مفصلة ومحللة، مع الترجمة المقترحة لمجموع الفصول المبينة سابقا.

الفئة الأولى، فئة الأمراء: وتتكون من أمراء الأسرة الحاكمة وهي أسرة طراباي (90). وقد بين «الفارس دارڤيو» أن عددهم في زمنه كان (18) ثمانية عشر أميرا، تربطهم رابطة النسب المستندة الى قرابة الدم: فهم أما اخوة، أو عموم، أو أولاد عم. وكان كل واحد يرأس فرعا من الأسرة، الا أن الأمير الأعلى لمجموع العشير، هو عادة الابن البكر من الفرع البكر من الأسرة. ويعترف الأمراء الآخرون بسلطته، ويحترمونه، ويطيعونه في كثير من الأمور، بعد التداول فيها معا بطريقة شورية، ومنها بصفة خاصة أمور القتال التي تأتيه أوامر من السلطة الحاكمة العثمانية بالإسهام فيها. الا أن سلطة هؤلاء الأمراء على حواءاتهم الخاصة (91)، وأعرابهم المرتبطين بهم فمطلقة، ولا يتداخل فيها الأمير الكبير. وهذا الأخير هو الذي كان يلقب بـ«الأمير» مجردا من أي اسم، بينما يضاف اسم كل أمير آخر الى هذا اللقب، فيقال مثلا «الأمير درويش». وقد كان الأمير الكبير يحمل الى جانب لقبه هذا، لقبه الرسمي (بك الصنجق) (أمير اللواء)، الذي انعمت عليه به الدولة العثمانية، وهذا يعطيه الحق في خوض المعارك بجيوشه الخاصة تحت راية السلطان، وأن يحمل طوغا واحدا، ويكون له عدد من الأبواق والطبول والزمور، تقرع على بابه في نوبات معينة (92).

والأمير الكبير والأمراء يعيشون تحت الخيام (93)، أو بتعبير البدو،

---

(90) انظر: الحاشية (7) من هذه الدراسة، (الفصل الثامن) من (الجزء الثالث) من المذكرات ص 156 – 170.

(91) الحواء: هو الاسم الذي يطلقه العرب البدو على مخيماتهم، وقد يسمونه «الحلة» و«النجع» و«الدوار». أحمد وصفي زكريا: عشائر الشام / 195.

(92) T. II. P. 292, T. III, PP. 81, 163

(93) قد لا يتفق هذا مع ما أتى في رحلة أوليا جلبي التي جرت عام 1082هـ / 1672م، أي بعد زيارة «دارڤيو» الأخيرة لآل طراباي بست سنوات (آخر رحلة لدارڤيو كانت 1666م)، ويبدو كذلك أنها بعد وفاة الأمير محمد (1082هـ / 1072م) ووصول ابن أخيه الى الإمارة فقد ذكر أوليا جلبي أن أمير طرباي كان يقيم في حصن جنين. وقد دعا هذا الأمير – الشيخ

في بيوت الشعر (94) ، على الرغم من أنه كان ضمن اقطاع الأمير « محمد بن طرباي » قصر جميل جدا ، بغرف واسعة وأنيقة ، كان قد بناه سابقا الأمير فخر الديـن المعني الثاني ، عندمـا ساد هذه البلاد . وكان بامكان الأمير ، — من وجهة نظر « دارڤيو » — أن يحوله الى مسكن لائق بأمير ، لـو أنـه عمل على ترميمه ، وأنفق بعض المال على تحسينه ، ولـكنه كان لا يرغب في ذلك ، لأنـه « ليس من عادتهم أن يسجنوا أنفسهم في المدن ، والبيوت ، داخل الجدران » (95) .

ويوضح « الفارس دارڤيو » علاقات هذا الأمير بالسلطة العثمانية من ناحية ، وبجيرانه من الأمراء الآخرين من ناحية ثانيـة ، وبعامـة شعبه من ناحية ثالثـة : فهو بعلاقات طيبة مع السلطنة وتدعمها الهدايا المتبادلـة بين الطرفين (96) وعلاقاته علاقات ود وصداقة مع الباشوات جيرانـه ، ولا سيما باشا غزة ، ويتقبل منهم الهدايا ، ويبعث بها اليهم (97) أما صلاته بشعبه فتلخص بقول « دارڤيو » : « يقارن هذا الأمير والأمراء الأعراب الآخرون بالأسياد الذين يقيمون على أرضهم ، ويعيشون مع أتباعهم وكأنهم

— كما يسميه — الرحالة الى «بيت الحكومة» الواقع في قصبة «آل طرباي» ، عبر الجبال غربي جنين . وأضاف بان عدد اعرابه كانوا نحو 20،000 من رماة البنادق بما فيهم الفرسان ، وكان هؤلاء يمتطون خيولا كحيلة . وبيوتهم مبنية من الطين والجير ، وعددها (700) بيت . وفي هذه القصبة مسجد جامع ومساجد أخرى كما فيها دكاكين صغيرة ، وحدائق وبساتين . وكان اوليا جلبي ضيفا على الأمير لليلـة واحدة . واهداه الأمير حصانا ، وخمسين قرشا ، وكركيا مخططا (الكركي : ثوب ، أو معطف بفراء) Evlya Chelebi op. cit p. 88
من المعروف ان مدينة جنين هي من مستوطنات آل طرباي الأولى ، ومعظم أمراء الأسرة قد دفنوا فيها (انظر : المحبي ج1 / 222 — أوليا جلبي المصدر نفسـه 87 — عبد الغني النابلسي : الحضرة الانسية في الرحلة القدسية» . مخطوطة في مكتبة الأسد بدمشق ، تحت الرقم 6844 ، ص 19ب . فهل آثر الامير طرباي في المرحلة التي تلت رحيل الفارس «دارڤيو» أن يقيم في حصن (جنين)؟ ومن المعلوم ان الدولة العثمانية عندمـا حـولت الخان في تلك القرية عام 972هـ/1564 إلى حصن كانت راغبة في ان يقيم فيه أمير صنجق اللجون لأن جنين هي في الطريق الى القدس ومصر ، وقريبة من لواء عجلون (Heyd, op. cit. P. 104 (56 ؟ هذا مع العلم بأن «دارڤيو» لم يشر الى هذه القرية . وهل تحول أعراب آل طرباي الى عرب مستقرين فسكنوا البيوت من الطين والجير ، كما ورد في رحلـة «أوليا جلبي» ؟ إننا لانملك الآن مصادر تؤكد هذا الأمر أو تنفيه ولا بد من البحث في احداث المنطقـة في تلك المرحلـة ، لتفسير هذه الظاهرة الإجتماعية اذا صحت .

(94) لا يستخدم البدو كـلمة «خيمـة» ولا «مضرب» ولا «فسطاط» ولا غيرها مما جاء في كـتب اللغة للدلالـة على مساكنهم ، وانما يستعملون كلمة « بيت » أو «بيت شعر» انظر عشائر الشام / 195 .

(95) T. III. P. 167 ويذكـر «دارڤيـو» متفـاخرا بـأن الأمير «محمـد بن احمـد طربـاي» قد عرض عليه البقاء لديـه وهو مستعد لمنحـه هذا القصر ، وأراضي ، وقرى .

(96) T. III. P. 153 - 154

(97) T. II. P. 70, T. III. P. 160

أسرة واحدة طيبة ، لا على أنهم أسياد مطلقو السلطة (98) فهو يعيش معهم دون تكلف ، ودون تعال ودون غرور ، وهو عادل لايفرق بين واحد وآخر ومن ثم كان يسود قلوب رعاياه ، مع شعورهم بهيبته ، على الرغم من أنه لم يقتل أحدا منهم ، اذ أن أقصى عقوبة كان يطبقها هي ربط المجرم كما تربط الخيل . وكان يقول « بأن انسانا له قلب يشعر به ، يكون عقابه ، اذا ما عومل معاملة الحيوانات ، أشد مما لو انتزعت منه الحياة . » ومن ثم فهو يطاع بدقة أكبر مما يطاع أولئك الذين يستخدمون الحديد ، والعقوبات القاسية جدا (99) .

ويشير الفارس دارڤيو هنا وهناك الى التنظيم الاداري لشبه الدويلة الأعرابية هذه ، وما تضم من موظفين رئيسيين تحت امرة الأمير كالشيوخ في القرى ، والصباشي في بعض المدن كحيفا مثلا (100) وجباة الرسوم المختلفة وملتزميها (101) ، كرسم الخفارة (102) وكاتبه الخاص ، والكتاب عند الأمراء الآخرين . ويبين كيف كانت الرشوة متفشية ، كما هو الحال في مناصب الدولة العثمانية ، وبصفة خاصة لدى « كاتب الأمير » ، الذى كان أشبه بسكرتيره الخاص ، وترجمانه لدى المبعوثين الأتراك ، وصلة الوصل بينه وبين شعبه . فقد كان لا يحل قضايا هذا الشعب لدى الأمير الا مقابل أموال وهدايا ينتزعها من أفراده (103) :

ولم ينس « دارڤيو » أن يتحدث عن البنية الاقتصادية لهذه الفئة من الأمراء ، فأوضح أن ثروتهم تتركز فيما يمتلكون من مواش مختلفة : كالابل ، والغنم ، والخيول العربية الأصيلة (الكحيلان) ، والأبقار والماعز ، وأنهم يتاجرون بها ، وقد [illegible]خرون من ذلك مالا يحوونه مباشرة

---

(98) T. II. P. 290

(99) T. III. PP. 159 - 160.

(100) T. II. P. 11

(101) Ibid. P. 15

(102) هو أشبه برسم المرور ويقصد بالخفارة الحماية وفي الأصل كان يتقاضى هذا الرسم مقابل حراسة المسافرين (خفرهم) . وكان يؤخذ منهم وفي بعض المراكز التي لابد للمسافرين من المرور فيها كعثليت مثلا ، وعيون التجار وطبرية ، وقيصرية وغيرها ولقد أشار «دارڤيو» بأنه عند وجوده وزملاءه في قيصرية اجتمع بأعراب على رأسهم نائب ابن الأمير على راس فئة من الفرسان وقد طلبوا منه ومن زملائه حق المرور فأعطوه وهو ثلث قرش على كل فرنسي الا أنهم لم يرضوا بذلك وطلبوا من كل واحد قرشا (T.II.P.18-19) وفي عيون التجار اعفاهم الصباشي منه لمعرفته بدارڤيو ، وكان قرشا على كل مسافر (Ibid. P. 279) .

(103) T. III. P. 78.

الى نقد ذهبي (104) ويضيف بأن للأمير واراداته من الضرائب والرسوم ، وأن الفلاحين في امارته يقدمون له ضريبة العشر dixme عينا أي حبوبا من القمح والشعير بصفة خاصة (105) . ويخلص الى القول ، بأن فئة الأمراء ليست ثرية جدا إلا أنها تعيش في مستوى أكثر رفاها وترفا من شعبها (106) .

وقد ركز دارفيو اهتمامه على القضاء بصفته جزءا من العلاقة بين الأمراء والرعية (107) . فقد أكد أن السلطة القضائية هي بيد الأمراء في الديارات ، وبيد الشيوخ في القرى . فكل أمير هو الذي يفصل في المنازعات بين أعرابه ، وحكمه لا يستأنف لدى الأمير الكبير . أما حكم الشيخ فيمكن أن يستأنف لدى الأمير الذي يتبعه الشيخ وقد سلط أضواء على الأمور المتنازع حولها عادة ، وهي مختلف الأمور التي تخص التجارة بصفة خاصة ، بينما المنازعات حول الأرض فغير موجودة لأن قلة منهم فقط هي التي تملكها ، وأن التحكيم أساس هام من أسس حل المنازعات ، ووازن بين قضائهم والقضاء عند الأتراك العثمانيين ولدى الفرنسيين ، وأشار الى العقوبات المطبقة في الأحوال المدنية والجنائية ، وتتراوح بين الفلقة (الضرب على أسفل القدمين) والشنق ، والحرق ، والخوزقة ، وقطع الرأس ، وحلق اللحية (108) .

الفئة الثانية وهي فئة الشيوخ والأعيان (109) : وهي دون الفئة الأولى مقاما وسلطة وهي ليست كبيرة العدد بالطبع . ولا يقدم الفارس

---

(104) Ibid. PP. 165 - 166, 235

(105) Ibid, P. 164 - 165
ويرى «دارفيو» بأنها ضريبة معتدلة ، ومايأتي الأمير من الواردات قليل وقد لا يتجاوز سنويا (100،000) إيكو (ويعادل الإيكو تقريبا القرش) . ولو أنه من المعروف بأن الضريبة كانت تتراوح بين ربع المحصول ونصفه .

(106) Ibib. P. 234-235

(107) خص القضاء بفصل خاص هو (الفصل الرابع عشر من الجزء الثالث) ص 228 — 238 .

(108) (Ibid, P. 234) يذكر دارفيو ان عقوبة الحرق بروث البقر عقوبة قاسية وشديدة لأن نار روث البقر المجفف تصنع نارا بطيئة فمن يتعرض لها يتألم بشدة وبلا حدود (Ibid, P. 63) . أما حلق اللحية فهي عقوبة كبيرة أيضا ، وتحمل عارا دائما لا للجاني فحسب انما لكل أسرته فليس هناك من عربي آنذاك كان لا يتمنى أن تقطع راسه على ان تحلق لحيته (Ibid, P. 243) .

(109) يميز «دارفيو» بين لقب «شيخ» الذي يعطى للعلماء في الفقه ، والطب ، وبين تلك الفئة من الشيوخ الإداريين الذين قد يكون بينهم من النصارى Ibid, PP. 152 - 153 .

دارڤيو معلومات وافية عنها ، سوى أن الشيوخ هم الذين يمثلون الأمير وبقية الأمراء في حكم القـرى التي يمتد نفوذه ، ونفوذهم عليها . وهم الذين يجبون الضرائب العينية من الفلاحين فيها ، ويحفظونها لديهم (110) ويوزعون منها على من يأمر الأمير بتوزيعها عليه ، بموجب أوامر مكتوبة صادرة منه(111) . وهؤلاء الشيوخ هم الذين يقدمون الضيافة للمارة ويقومون بمهمة استقبالهم ، ومن ثم فهم معفيون من مختلف الضرائب والرسوم ، اذا كانت لهم أملاك خاصة ، ولا يضايق سكان القرى مثل هذا الإعفاء ، لأنـه يعفيهم بالمقابـل من العنـاية بالغرباء وإطعامهم (112) . وهم الذين يحملون الى الأمير مشاكل أولئك السكان ومطالبهم وشكاواهم ، وهم الذين يفصلون في المنازعات التي تقوم بينهم ، الا أنـه يمكن للمتنازعين أن يرجعوا الى الأمير اذا لم يكونوا راضين عن حكم الشيوخ (113) .

وليس ضروريا أن يكون « الشيخ » مسنا كي يصبح شيخا ، كما قد يتبادر الى الذهن ، بل يمكن أن يكون شابا وقد يصل الى مرتبته في هذه الحالـة بطريق الإرث ، الا أنـه من المنتظر أن يكون متمتعا بالحنكـة ، والدرايـة والرزانـة ، وصواب الرأي (114) ولهؤلاء الشيوخ أجور منظمة ، ومعتدلـة ، الا أنها كافية حتى لا يزعجوا السكان بضغوطهم الماديـة (115) .

أما الأعيان فلم يعط أيـة معلومات عنهم ، وانما أتى ذكرهم أحيانا بشكل عابر (116) ويبدو أنهم يضمون كبـار موظفي الامارة ، والأثرياء ، ومن عرف بنفوذ مادي أو معنوي ، أو بتأثير على الرعية ، أكان من العربان ، أم من سكان القرى ، أو كان من المسلمين أو النصارى .

أما الفئـة الثالثة فهـي عـامة شعب الامـارة الطرباثية ، أو بتحديد أكبر مجموع السكان الأصلاء الذين تتكون منهم الامارة . وتقسم بدورها الى :

أ — أعراب بـدو : وهؤلاء يشاركون الأمراء في أنماط حياتهم البدوية ، في بيوت الشعر . وقد لا تفرق تلك الحياة عن حياة أمرائهم ، الا

(110) Ibid. P. 152, 164.
(111) Ibid, PP. 84 - 85.
(112) Ibid, PP. 185 - 186
(113) Ibid. P. 152
(114 Ibid
(115) Ibid, P. 164
(116) Ibid, P. 182 (Les Principaux

أنها أكثر بساطة وأقل رفاها . وهم فرقاء ، فكل فريق يتبع أميرا ، وتقوم بيوته حوله بيوت أميره . ويكوّن شبابهم القوة المقاتلة التي يعتمد عليها الأمير الكبير في الحالات الطارئة التي تطالب فيها الدولة العثمانية بعونه . وهم من الخيالة ، ويقدر عددهم بـ(5000) مقاتل . ويرى دارڤيو أن هذا العدد كبير بالنسبة لمحيط المنطقة التي تضمها الامارة (117) والذي يقدره بـ (40) فرسخا (lieue) (118) أي ما يقارب (160) كم . وهؤلاء الأعراب يعملون في تربية المواشي والتجارة فيها ، وان كان ما يملكون منها قليلا ، وهم الذين يغزون المارة ، والسفن الجانحة ، عندما تتاح لهم الفرص ، ويشاركهم أمراؤهم بالغنائم (119) . ويقول « دارڤيو » بأنهم يزودون أنفسهم بكل ما يحتاجون اليه من وسائل الحياة ، التي بدت له بأنها تعيسة بالنسبة لوسائل الأوربيين . ويضيف : « إلا أنهم يعيشون بسلام وقناعة ، وسعادة وطمأنينة ، ويتمتعون بما حصلوا عليه (120) » . وهؤلاء الأعراب كأمرائهم يدينون بالدين الاسلامي .

ب — سكان مستقرون في القرى والمدن الصغيرة وبعض هؤلاء من النصارى ، واليهود ، والقسم الآخر من المسلمين (121) . ومعظم النصارى

---

(117) قدر «اوليا جلبي» في رحلته الى فلسطين بعد مغادرة دارڤيو لها بست سنوات ، ان عدد جند أمير طراباي هو (20.000) مقاتل وهم من حملة البنادق ، ويدخل في تعدادهم الفرسان ، وواضح أن هناك اختلافا كبيرا في العدد . ويبدو ان الرقم الذي قدره اوليا جلبي مبالغ فيه ولا سيما أنه أكد أن عدد بيوتهم هو (700) بيت ، ومن غير المحتمل ان تترك الدولة العثمانية أميرا محليا ، ومن العربان ، يمتلك تلك القوة العسكرية . والجديد الذي ذكره أوليا جلبي أيضا بأنهم كانوا مسلحين بـالبنادق (muskets) بينما يؤكد «دارڤيو» وقد رافقهم في القتال بأنهم كانوا لا يستخدمون البنادق وانما اسلحتهم التقليدية .

أنظر : Evlya Chelebi, op. cit, P. 88.

والحاشية رقم (93) من هذا البحث .

(118) الفرسخ Lieue : قياس طول للمسافات ، أصله فرنسي — غالي ، لا تعرف قيمته بالضبط ، الا انها قدرت بما يعادل (4) كم ، وهي تختلف من بلد الى آخر .

أنظر : Grand LAROUSSE Encyclopédique. 12 Vols. Paris 1960 - 1975 Vol. 6. P. 48 :

(119) ان الأسرى من الذين تجنح بهم السفن كانوا من نصيب الأمراء ، وكانو يستعبدون .

(120) Ibid P. 165

(121) يسمي «دارڤيو» العرب المسلمين المستقرين بـ« المور Maures » ويبين بأن الأعراب البدو يزدرونهم لأنهم تركوا أصالتهم البدوية ، وتؤكد المصادر المعاصرة هذا الأمر (أنظر عشائر الشام/159). أما تسمية العرب المسلمين المستقرين «بالمور» فلا يعرف من أين أتى بها دارڤيو ، وهو يؤكد بأنها لا تعني (المغاربة) وهذا الاسم لم يعرف عند العرب أو سكان المنطقة ، — بعد قيامي بسؤال كثيرين من الخبراء في هذا المجال — ولو كانت المذكرات بالعربية لقيل ان محققها وناشرها قد صحف كلمة (مدر) الى (مور) فمن المعروف أن العرب يطلقون تعبير (سكان المدر) على اهل القرى . وقد تكون الكلمة بالمعنى نفسه الذى طرحه «دارڤيو» مشتقة ، أو محرفة عاميا من (ميارة) ومعناها بالعربية الرفقة التي تنهض من البادية الى القرى لتمتار

والمسلمين يعملون بالزراعة ، وقلة بالتجارة وبعض الحرف . ولايشير الى وجود اليهود الا في مدينة حيفا (122) . ويؤكد «دارڤيو» بأن النصارى في القرى من جميع المذاهب ، يعيشون سعداء ، وهم يدفعون ضريبة معتدلة ، قمحا ومواشي وأشياء أخرى تقدمها الأرض ، ويمارسون حياة رخية ، ولا يلزمون على دفع ضرائب ورسوم فادحة كغيرهم من رعايا السلطان ، الذين تدفع بهم تعديات الباشاوات ، والحكام ، والقضاة ، وظلمهم نحو اليأس ، وتجبرهم على ترك أملاكهم وبيوتهم لأنهم لا يمكنهم أن يتحملوا جشع أولئك الموظفين الذي لا يروى ، والذين كانوا يتغيرون عادة كل سنة ، ويعملون للحصول وبنهم على المبالغ وفوائدها التي قدموها لخزينة السلطان ، ولأسيادهم ، وحماتهم ، مقابل مناصبهم (123) ، ويؤكد أيضا بأنهم يعاملون بلطف كبير ، ويعيشون بحرية تامة ، ولا يزعجون البتة فيما يخص دينهم ، وممارسة شعائره (124) . وضمن هذه الفئة هناك الأثرياء نسبيا ، والفقراء .

والفئة الرابعة هي فئة الخدم ، وهي فئة قليلة العدد أيضا وهي التي تقدم خدمات خاصة ولا سيما المنزلية منها للأمراء ، والأعيان . وهذه الفئة أما من العرب الأحرار ، أو من العبيد ويفضل أمراء الأعراب أن يكون خدمهم من غلمان العرب ، ولا يرى هؤلاء حرجا في خدمة أمرائهم مهما كان نوع الخدمة ، بل كانت النساء والفتيات يرين الخدمة لدى الأميرات شرفا وفخرا وكن لا يتقاضين على خدمتهن أجرا ، وانما هدايا لا تغنيهن بالطبع .

(أي لتتمون بالغذاء) . الا أن الفارس «دارڤيو» في موضع آخر من مذكراته يربط هذه التسمية بلون بشرة أصحابها حين يقول ان رعايا محمد طرباي (ويقصد بالرعايا : المستقرين بالقرى والمدن التابعين للأمير) يطلق عليهم اسم «المور» على الرغم من أنهم بيض البشرة ، أو ذوي بشرة بيضاء لوحتها الشمس (T. II. P. 290) وفي الواقع ان كلمة « مور » بالتركية تعني اللون الكستناوي أو «أصحاب البشرة الداكنة» .

Dozy, Supplément aux dictionnaires Arabes. Vol. I. P. 631.

وبذلك لايكون التمييز بين «العرب» و «المور» مستندا الى اختلاف المهنة ، والعمل ، والإستقرار وعدمه ، وانما الى تمييز لوني قد يكون الأتراك هم الذين أوجدوه ، ليفرقوا بينهم ، وهم على الأغلب ذوي بشرة أقرب الى البياض المصفر ، وبين العرب من سكان البلاد ، في المدن والقرى وهم أميل الى السمرة .

(122) T. II. P. II.

(123) Ibid, P. 291

(124) T. III. P. 177

أما العبيد ، فمن المعروف أن تجارة الرقيق كانت لا تزال قائمة ويشتري الأمراء العرب والأعيان العبيد من تجار دمشق ، الذين كانوا يرافقون الأعراب في تنقلاتهم . وهؤلاء العبيد نوعان :

– عبيد من الزنوج ، من الذكور والاناث (الاماء) . وقد يخدم الذكور منهم الأميرات ويختارون من المخصيين ومن أكثر العبيد قبحا وتشوها جسميا .

– عبيد من البيض ، وهؤلاء من الفرنجة على الأغلب ، وهم ممن كان يقع في أيديهم ممن ترميهم السفن على الساحل ، ويغزوها العرب ، وعددهم عادة قليل . ويبيع الأمراء هؤلاء العبيد الأسرى بعضهم لبعض ، وقد يبيعونهم للتجار والنخاسين ، وأحيانا بأسعار رخيصة (125) وقد يكسب بعض هؤلاء العبيد ، ممن كان يدين بالاسلام منهم ثقة الأمير ، فيسلمهم أعمالا ذات شأن في الامارة (126) .

والفئة الخامسة ، هي فئة الغرباء ، وهي أيضا قليلة العدد ، وتضم :

– بعض التركمان الذين نظر اليهم « الفارس دارڤيو » خطأ على أنهم من العرب ، وان لم يحدد مكانهم من الامارة (127) .

– الضيوف الموقتين من أمثال « الفارس دارڤيو » ، ومن كان يفد الى الجوار من مراسلين أتراك وغيرهم .

– التجار المرافقين دوما للأعراب في حلهم وترحالهم ، وكانت لهم خيامهم الخاصة البيضاء المميزة ، وهم عادة من تجار دمشق (128) .

– بعض النساء من البغايا اللائي أتى بهن الأمير من دمشق لصالح بعض شباب نجعه ، ممن لا تساعده أحواله المادية على اقتناء زوجة ، اذ أن الحصول على زوجة يتطلب مهرا مرتفعا من المواشي والذهب لا يستطيع كل شاب أن يوفره . هذا علما أن صفة « العفة » من الصفات الأساسية المطلوبة من الشاب العربي . وكانت بيوت هؤلاء النساء على بعد مرميين

(125) انظر حول كل ما ورد في فقرة (الخدم) . Ibid, PP. 169-170
(126) انظر قصة حسن الفرنجي . Ibid, PP. 43-57
(127) Ibid, P. 155.
(128) Ibid, PP. 104, 165, 256 - 257

أو ثلاثة من طلقة بندقية من حواء الأمير . وهن يخدمن ، ويطعمن على حسابه ، دون أن يعفيهن هذا من دفع الضريبة المحددة عليهن من قبله (129) .

– الأجانب المقيمين في بعض أنحاء الامارة أو المتنقلين ومنهم الأوربيون وهؤلاء ينقسمون اما الى عاملين في التجارة ، ويلاحظ أن الامارة لم يكن فيها مستقرون منهم (130) – واما مبشرين دينيين ، ويتمثلون بالكرمليين (131) بخاصة . وكان في الامارة من الأجانب الغرباء عن المجتمع العربي أيضا ، عدد ضئيل من الهنود ، الذين كانوا يقيمون في مغارة من مغارات جبل الكرمل ، ويشير « دارفيو » الى أنهم أتوا اليها منذ بضع سنين ، ولا يحدد تاريخا لذلك ولا يعرف بالضبط أسباب هجرتهم ، وكانوا يعيشون حياة نسك وزهد ، ومن عمل أيديهم ، ويصنعون السلال وحصر الخيزران . وكان عددهم يتراوح بين 15–16 مهاجرا ، واثنان منهم فقط يعرفان العربية ، بينما يتكلم الآخرون الفارسية والهندية (132) .

وخلاصة القول ، يلاحظ أن البنية الإجتماعية لتلك الامارة ، في العقد السابع من القرن السابع عشر هي في أساسها بنية عربية أعرابية ، وكان لها التركيب الفئوي المشاهد في بنية أية قبيلة أو عشيرة عربية اليوم (133) ، الا أن هذه الامارة أخذت خطا مغايرا لبنيتها الأعرابية تلك ، عندما ألزمت ذاتها في أن يكون تحت سيادتها ، وفي رعايتها عناصر حضرية ، ومنحت لهذا الغرض سلطات ادارية ، ومن ثم فانها سعت لتكييف ذاتها لتنسجم مع البنية الإجتماعية الجديدة لها . وقد تكون مالت مع الزمن ، ومع ممارستها للجوانب الحضرية من الحياة ، الى التثبت والاستقرار على الأرض ، وتحويل بيوت شعرها الى بيوت من الطين والجير ، كما رآها السائح التركي « أوليا جلبي » (134) وبذلك تكون حققت أحد أهداف الدولة العثمانية في سياستها مع الأعراب ، فتحضرت . أوقد يكون تحضر قسم منها فقط ، وقسم

(129) Ibid, PP. 312 - 313

(130) أنظر ، ليلى الصباغ : الفعاليات الإقتصادية في فلسطين ص 293 .

(131) أنظر الحاشيتين (20) و (21) من هذه الدراسة ومتينهما .

(132) T. II. PP. 309 - 312

(133) أنظر : عشائر الشام 184 – 191 .

(134) op. cit, P. 88.

آخر رحل الى بقعة أخرى محتفظا ببنيته البدوية (135) . وفي الواقع ليس لدينا من المصادر ما يبين المصير النهائي للعشيرة الحارثية الطربائية بعد وفاة أميرها (يوسف بن علي) عام 1088هـ/1677م (136) سوى أن « لواء اللجون » قد أسلم الى وال من أصل عثماني هو أحمد باشا الترزي (137) ، أو بتعبير أدق ، ضاع ذكر هذه العشيرة ، ولم يتبق من آثارها سوى أسماء بعض القرى في فلسطين ، وربما أضرحة أمرائها من آل طرباي في جنين اذا كانت لا تزال موجودة حتى الآن بعد الاحتلال الصهيوني لها ، علما أن بعض أمرائها ظلوا قائمين في جنين حتى 1102هـ/1689م حيث التقى بهم عالم دمشق عبد الغنى النابلسي أثناء رحلته الى القدس (138) .

وأخيرا ، وفي نهاية هذا المطاف الطويل حول «صور من الحياة الإجتماعية في فلسطين عبر مذكرات الفارس دارڤيو» قد يتساءل ، وما الجديد فيما أتى في تلك المذكرات أو في هذه الدراسة نفسها؟ أليست الأوضاع الاجتماعية للعرب الأعراب قد غدت معروفة في معظمها اليوم ، وقد بحثها كثير من العرب والأجانب ، ولا سيما المهتمون بتاريخ الدولة العثمانية والولايات

(135) تعزو بعض البحوث المعاصرة انحطاط الإمارة الى هجرة العشير الحارثي الطربائي الى «وادي الأردن» «وعجلون» وتبين ان مصادرها هي دارڤيو نفسه ، معتمدة على جزء من المذكرات نشر عام 1718م والى المرادي في كتابه : سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر 4 أجزاء . القاهرة 1295 — 1306 هـ ج4 / 166 .

— انظر : Moshe Sharon op. cit. P. 29. n. 105

وبعد مراجعة لمجموع مذكرات «الفارس دارڤيو»لوحظ بأنها لا تحوي اشارة الى هجرة بني حارثة وآل طرباي . الا أنه ورد بأن «الفارس دارڤيو» عندما عين قنصلا لفرنسة في حلب ، ووفد اليها عام 1679 ، أخبر «الأمير الكبير طرباي» . بوصوله ، وحمل رسالته اليه بعض الهدايا ورد عليه الأمير — دون أن يذكر اسمه — في مطلع عام (1680) أي (1091هـ) برسالة زاخرة بعبارات الصداقة المخلصة ، ومعها فرس جميلة ، أرسلها له الأمير ليذهب بها اليه ، وجواز سفر يتمتع فيه بحماية واسعة له ولغيره . (T.v. P, 548) وبموجب جواز السفر هذا أعطى دارڤيو لهو لندي سائح جواز مرور بالعربية باسم هذا الأمير ، وكان ذلك في تموز (جويلية) عام 1680 (T. VI P. 26) . ويظهر من هذا أن أميرا من آل طرباي كان موجودا حتى 1091هـ/ 1680م ، وظل اسمه بالنسبة لدارڤيو ، أمير عرب جبل الكرمل ، ولم يحدد مكان اقامة جديد له غير الكرمل .

أما المرادي فلم يشر الى العشير وآل طرباي ، وانما قدم في الجزء المذكور والصفحة المشار اليها ترجمة مصطفى الترزي ابن «احمد باشا الترزي» الذي كان أميرا للواء اللجون .

(136) المجبي خلاصة الأثر ج1 / 222 .

(137) انظر الموسوعة الفلسطينية ج1 / 93 .

(138) المصدر السابق/ 19 ب . وقد يدعو هذا الى التساؤل فيما اذا كانت الدولة العثمانية لم تستغن عن خدماتهم بسبب ما ظهر لها من ضعفهم ، ولا سيما أن هجمات الأعراب كانت قد اشتدت في تلك المرحلة وقد كان اللواء أثناء زيارة النابلسي بيد الشريف يحي بن بركات من أشراف الحجاز ، الذي أسلم أيضا امارة الحج الشامي .

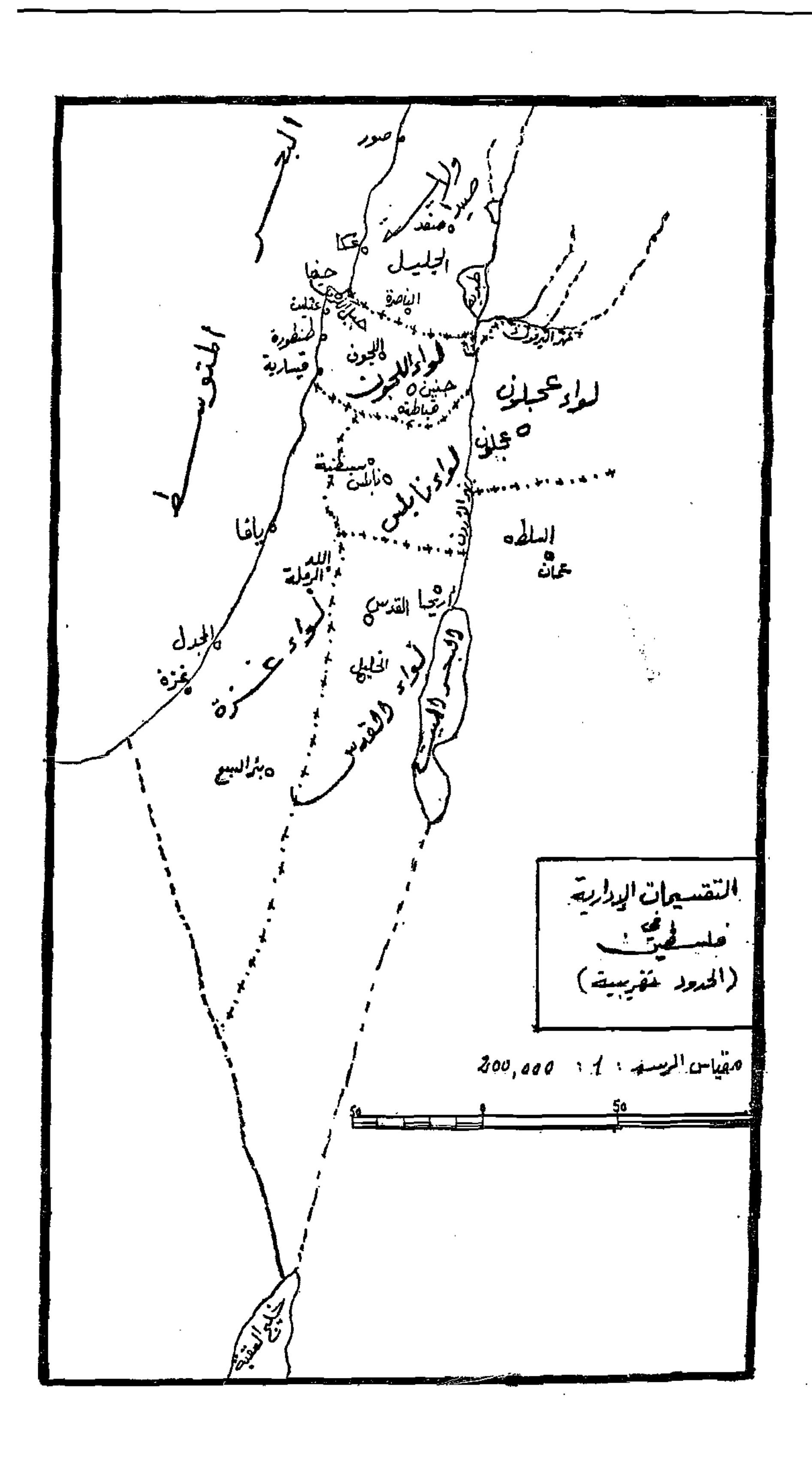
العربية التابعة لها ، لما أوجده هؤلاء العربان من اضطراب في الأمن ، وتوترات اقتصادية ، واجتماعية ، وسياسية ، كانت تنعكس آثارها على مجموع الدولة فتهتز هيبتها الدينية والسياسية ، وتضعف مواردها الاقتصادية ؟

ان في ذلك التساؤل بعض حقيقة ، ولكن ليس كل الحقيقة : فما طرحته مذكرات الفارس دارڤيو من صور اجتماعية عن حياة بعض العرب الأعراب في فلسطين في العقد السابع من القرن السابع عشر ، هو في الواقع جديد ، وطريف ، وقيم ، لأسباب عديدة أهمها :

أولا : انه يمثل لوحة تصويرية متكاملة لمجتمع امارة عربية أعرابية ، قامت في شمالي فلسطين ، ورسمت معالمها ، شبه دويلة في القرن السابع عشر ، ثم زالت واضمحلت بعد أميرها يوسف بن علي عام 1088هـ/1677م ، إما لأن العشيرة الحارثية التي انبثقت منها قد هاجرت من منطقتها ، أو لتحضر عديد من عناصرها ، أو لظروف اجتماعية وسياسية لا بد من استقصائها . وهذه اللوحة بألوانها القزحية ، لم يقدم مصدر آخر معاصر ، وصل الى علمي حتى الآن ، مثيلا لها ، بتفصيلها ، واحاطتها بأكثر جوانب المجتمع . واذا ما وجد مثل ذلك المصدر في المستقبل ، فتبقى المذكرات لا غنى عنها للموازنة .

ثانيا — اذا كانت تلك الصور التي رسمتها المذكرات ، وقد طرح في هذه الدراسة بعض ألوان مجتزأة منها ، لا تبدو جديدة علينا نحن الذين عاصرنا ، ونعاصر ، دراسات عديدة قام بها عرب وأجانب ، عن المجتمع العربي البدوي المشابه للمجتمع الذي وصفه « دارڤيو » ، كما أنها لا تبدو جديدة علينا نحن العرب بالذات الذين لا نزال نعيش في أعماقنا ، وفي حياتنا الاجتماعية الواقعية ، حضرا كنا أم بدوا ، الكثير من القيم ، والعادات والتقاليد التي أحاط بها « دارڤيو » ، فانها تبقى مع ذلك جديدة حتى علينا ، للأمرين الأساسيين التاليين :

1 — للعصر الذي دونت فيه ، وللمجتمع الأوربي الذي وجهت اليه ، ولمدونها الغريب عن المجتمع العربي ، ولتقويمه لها عبر موازناته التي أجراها مع مجتمعه : فقد يكون الفارس دارڤيو من أوائل الرواد الأوروبيين الذين عايشوا مجتمعا عربيا بدويا من الداخل ، ولفترة طويلة نسبيا ، وقدموا وصفا جديدا ، ودقيقا ، ومنسقا ، وفيه كثير من الصحة ، لمختلف جوانبه ، ولبعض جزئيات فيه ، مما لا يتطرق اليه عادة الكثيرون وبذلك يكون


التقسيمات الإدارية في فلسطين
(الحدود تقريبية)
مقياس الرسم : 1 : 200,000
50 0 50
البحر المتوسط
صور
صفد
عكا
الجليل
حيفا
الناصرة
عتليت
طنطورة
قيسارية
لواء اللجون
اللجون
جنين
قباطية
لواء عجلون
عجلون
لواء نابلس
نابلس
سبسطية
يافا
اللد
الرملة
السلط
عمان
أريحا
القدس
الخليل
لواء القدس
لواء غزة
غزة
المجدل
بئر السبع
البحر الميت
نهر الأردن
نهر اليرموك
خليج العقبة

سابقا بقرن من الزمن على الأقـل ، تلك الدراسات ، ولا سيما الأوربية ، عن المجتمعات البدوية . تلك الدراسات التي تزايدت في القرنين التاسع عشر والعشرين بعد نشوء علم الاجتماع ، وكانت من عوامل تغيير نظرة الأوربيين المغرضة السابقة للعرب ، وللمجتمعات البدوية بعامـة ، ولقيمة الحياة الاجتماعية في صنع التاريخ . وبذلك يكون « دارڤيو » طليعة من طلائع الفكر التاريخي الأوربي الجديد ، الذي مثله ڤيكو وفولتير ، والذي أخذ يدعو الى أن التاريخ الحق هو التاريخ الحضاري للمجتمع ، بأعرافه ، ونظمه ، وتقاليده ، وحياتـه اليومية ، أكثر مما هو التاريخ السياسي بأحداثه المفتتة .

2 — للجيل العربي الناشيء ، والأجيال العربية المستقبلة ، التي تعيش اليوم ، وستعيش تطورات اقتصادية واجتماعية ، وسياسية ، وفكرية ، مستمدة معظم عناصرها من الحضارة الغربية . وهذه التطورات اللاهثة أخذت تقتلع تلك العادات ، والتقاليد ، والقيم ، من الجذور ، وبسرعة . فهذه الأجيال قـد تـرى يوما في تلك القيم والعادات ، تراثا جميلا يفتخر به ، فتفـكر بالعودة الى بعض أصالتها ، فتأخذ منه السمين وتطرح الغث ، أو ربما ترى فيه تراثا متخلفا بـكليته ، فتجعله مدعاة للتفـكه والـتندر ، وتقطع نهائيا صلتها بتلك الجذور ، وتبتعد الى غير رجعة عن أصالتها ، كما هو حادث عنـد بعض هـذا الجيـل العربي الحاضر . ومن ثم فهذا التراث العربي الأصيل من العلاقات الانسانية ، والقيم الاجتماعية ، والاخلاق ، الذي دونه « دارڤيو » الفرنسي ، وأعجب به وهو الأوربي المتحضر في العقد السابع من القرن السابع عشر ، هو تراث ثمين وخصيب ، يستحق التثبيت على الورق على الأقـل ، في هذا الحاضر العاصف بكل قيم المـاضي . وهو يمثل مرحلـة من حياة المجتمع العربي ، كان هـذا المجتمع فيها فخورا به ، ورافضا أن يـأخذ بغيـره لأنـه يمثل الذات العربية ، والأصالة ، والجذور . فما قـدم في هـذه الدراسة السريعة ، يبقى جديـدا ، بالنسبة للجيل العربي الحاضر ، وللأجيال المستقبلة ، مهما اختلفت مواقفها منه اليوم وغـدا .

ثالثـا : انه نموذج حي لبدء التواصل العربي مع الحضارة الأوربية . فما يقال عـادة ، دون دراسة علميـة موثقة ، عن العزلـة الحضارية للمجتمع العربي عن المجتمع الأوربي ابان الحـكم العثماني ، وما أكـده كثيرون ولا يزالون يؤكدونه ، بـأن هـذا الحـكم هو المسؤول الأول عن هـذه العزلـة ، هو قـول باطل . فما أتى في تلك المذكرات يثبت أن الأوربيين

بجالياتهم في بلاد العرب المشرقية والمغربية ، كانوا على احتكاك مع هذا المجتمع ، حتى في أضيق وحداته التي كان من غير المنتظر وصولهم اليها ، ألا وهو المجتمع الأعرابي . فالفارس دارفيو دخل الى قلب ذلك المجتمع ، حاملا معه فكره ، وأحاديثه الدعائية الكثيرة ، عن مجتمعه الفرنسي والأوربي ، وما فيهما من مظاهر حياتية مختلفة ، بل وناقلا اليه أحيانا ، ويشكل محسوس ، وعلى صورة هدايا قدمها لأميره بخاصة ، بعض تقنيات أوربية : كالساعة المنبه (139) مثلا ، وفرن الخبز النحاسي على النمط الأوربي(140) وغيرهما ، وعرض على مجموع ذلك المجتمع اللباس الأوربي . فالمجتمع العربي لم يكن معزولا ، وقسرا ، عن المجتمع الأوربي فاذا لم يأخذ من المجتمع الأخير مظاهر حضارته الاجتماعية ، فلأنه كان يرى ولفترة طويلة بأن حياته التي كان يعيشها ، وقيمه الحضارية ، تفضل تلك الدخيلة عليه من عالم الغرب، فتقوقع عليها ، وظل يرعاها ، حتى عصفت به وبها ريح الحضارة الغربية في القرون التالية .

د. ليلى الصباغ
أستاذة تاريخ العرب الحديث بجامعة دمشق

(139) T. III. P. 130

(140) Ibid. P. 273



الحركة السكانية
فى المشرق العربى فى أواخر العهد العثمانى
نموذج الهجرة الى بيروت فى القرن التاسع عشر

د. مسعود ضاهر

مقدمة منهجية :

تمتاز الحركة السكانية فى المشرق العربى ببعض السمات التى تحددت بها فى القرن التاسع عشر واتضحت معالمها بعد انهيار السلطنة العثمانية . فقد شهدت هذه المرحلة استمرار الروابط المتينة بين سكان المشرق العربى على اختلاف مناطقهم ، فى ظل وحدة سياسية عرفت باسم « الرابطة العثمانية » التى كانت تتآكل من الداخل بمقدار ما تقترب من الحرب العالمية الاولى فى مطامع القرن العشرين . ويلاحظ ان السلطنة فى هذه المرحلة كانت أسيرة توازنات استعمارية خارجية فرضت عليها اصلاحات وتنظيمات وخطوط همايونية كانت تزيدها تفسخا فى الوقت الذى كان يطمح فيه الساسة العثمانيون الى تعميق سيطرتهم على الشعوب والولايات الخاضعة لهم . فالضعف الذى انتاب السلطنة جعلها عاجزة عن تنفيذ الفرمانات السلطانية بمقدار ما كانت تعجز عن حماية ولاياتها ودرء مخاطر احتلالها . فأصبح القرار السياسى والادارى والعسكرى والضرائبى العثمانى موحدا فى الشكل لكنه لا ينفذ عمليا اذ عمل كثير من الولاة والزعماء المحليين الى التملص منه وذلك بدعم مباشر من قوى استعمارية خارجية ، بريطانية وفرنسية بشكل أساسى .

ومع ذلك ، وعلى الرغم من بروز الضعف والتفسخ فى جميع ارجاء السلطنة، فان الوحدة التى عرفها سكان المشرق العربى كانت عاملا ايجابيا لان الحواجز الجغرافية بين ولاياته سهلة الاجتياز . وتكفى الوثائق الشخصية العثمانية للانتقال بين ولاية واخرى وصولا الى عاصمة السلطنة ، والى ابعد نقطة جغرافية فيها دون عراقيل كبيرة . واستفاد من هذه التسهيلات جميع السكان على اختلاف مناطقهم وطوائفهم باستثناء من كان ملاحقا بتهم شائنة أو بجرائم تطال أمن السلطنة . وفى ظل هذه الوحدة برزت قوى سياسية واقتصادية وثقافية وعسكرية فاعلة انتقلت من موطنها الاصلى الذى ولدت فيه الى مناطق أخرى فى السلطنة . فأحمد فارس الشدياق ، وسليمان البستانى ، ونجيب ملحمة ، وشكيب ارسلان ، ومحمد ارسلان وغيرهم من القادمين من جبل لبنان

وبيروت سينالون شهرة واسعة في عاصمة الاستانة . ومحمد رشيد رضا ، وآل الرافعي ، وعبد الرحمن الكواكبي ، وشبلي الشميل ، وأديب اسحق ، وفرح انطون ، ويعقوب صروف ، وفارس نمر ، وجرجي زيدان ، وسليم نقلا وعدد كبير من السوريين واللبنانيين والفلسطينيين والعراقيين سيشتهرون في مصر ابان هذه المرحلة .

ويلاحظ ان سهولة الحركية السكانية دفعت باعداد كبيرة من الناس الى تغيير مناطق سكنهم الاصلية لاسباب سياسية واقتصادية واجتماعية متنوعة. لذلك عرفت مدن المشرق العربي ، خاصة بيروت وحلب بالاضافة الى متصرفية جبل لبنان مختلف اشكال الهجرات بحيث اصبحت عائلاتها مزيجا من سكانها المحليين ومن اعداد كبيرة من الاسر الوافدة . وهناك اسماء ليست بحاجة الى تعريف الموطن الذي قدمت منه ، واغلب الظن ان السكان كانوا يطلقون عليهم كنية البلد أو المدينة أو المنطقة التي وفدوا منها فيقال مثلا ، المصري ، السعودي ، الحلبي ، لحمصي ، المغربي ، المقدسي ، الشامي ، الانطاكي ، الطرابلسي ، الاسكندراني ، الصعيدي ، الجزائري ، الحموي ، اليمني ، البغدادي ، الفيومي ، الدمياطي ، السويسي ، الحوراني ، اللاذقي بالاضافة الى أسماء عائلات كثيرة لا زالت جميعها موجودة حتى الآن في بيروت وغيرها من المدن السورية واللبنانية .

لقد حاولت هذه الدراسة الدخول في عمق الحركية السكانية للمشرق العربي في القرن التاسع عشر وحتى مطالع القرن العشرين وهي حركية تبلورت بشكل أساسي باتجاه بيروت ومناطق جبل لبنان القريبة منها ثم استمرت باتجاه مصر والقارة الاميريكية وسواها . ولا يتسع المجال لابراز سمات هذه الحركية باتجاه حلب ودمشق وباقي المدن السورية ، وباتجاه القدس وحيفا ويافا والقاهرة وباقي المدن الفلسطينية لانها تتطلب ابحاثا مستقلة . فلكل هجرة سكانية سمات تبرز تباعا في كل منطقة وذلك في اطار عوامل داخلية وخارجية تشير اليها الدراسات السكانية بمقولة القطب الدافع القطب الجاذب . فالحركية السكانية تبقى على الدوام نتاج جدلية العلاقة بين هذين القطبين .

وقد اتخذنا من نموذج تحول بيروت الى مدينة كبيرة بعد ان كانت بلدة صغيرة في مطالع القرن التاسع عشر حقلا لمدراسة وتحليل حركية السكان في المشرق العربي خلال المرحلة التي تنتهي بسقوط السلطنة في الحرب العالمية الاولى .

بعض العوامل الاساسية للدفع السكاني باتجاه بيروت في القرن التاسع :

تتنوع هذه العوامل لتطال مختلف جوانب الحياة . لكن الدراسة شددت على الاساسي منها استنادا الى وثائق الارشيف الفرنسي بشكل خاص ، وهي

وثائق بالغة الاهمية لانها رافقت أدق تفاصيل الحركية السكانية فى المشرق العربى ابان هذه المرحلة .

ففى مطالع ذلك القرن كانت مدينة طرابلس والميناء التابعة لها تعتبر المرفأ الحيوى للولايات السورية . وبلغ تعداد سكانها قرابة 14900 نسمة عام 1812 معظمهم من ذوى الغنى الاقتصادى (1) . وعرفت نشاطا ملحوظا فى المجال التجارى حيث كانت غالبية سلعها تمر عبر قنوات التجار الفرنسيين الذين لا يدفعون ضرائب الا بنسبة 6،5% فقط عبر مرفأ طرابلس فى حين يدفع التجار المشمولون بحمايتهم نسبة 4% (2) . اما التجار المحليون من غير المحميين فترتفع ضرائبهم لتتراوح ما بين 8 و 20% . وقد رفض بربر آغا ، حاكم المدينة الذى استعصى اخضاعه لفترة على السلطات العثمانية ، هذه الامتيازات فبدأ الفرنسيون تحويل جانب هام من تجارتهم والى مرفأ بيروت(3). ويشير احد تقارير القناصل الفرنسيين الى ان بيروت ستصبح رسميا ، وبعد فترة وجيزة ، المرفأ الاساسى لدمشق (4) .

وفى عام 1814 ضرب مرض لطاعون مدينة حما ، حيث توفى ما بين اربعمائة الى خمسمائة انسان . ثم انتقل الى منطقة عكار ومنها الى طرابلس والميناء ووصل الى جبل لبنان وصيدا ودمشق وعكا (5) . وفى عام 1827 ضرب الطاعون مجددا تلك المناطق وظهر الى جانبه الجراد (6) . لكن أهمية هذا العامل أى الامراض والاوبئة والجراد والجفاف ولتى لم تسلم منه بيروت نفسها فى بعض الفترات، ان اثاره المدمرة أصابت المناطق الزراعية بشكل أساسى وأدت الى هجرات سكانية كثيفة من منطقة الى أخرى . فتضررت طرابلس ، بحكم ارتباطها الوثيق بالداخل الزراعى المجاور لها ، أكثر من بيروت التى غادر سكانها الى الجبال القريبة منها لفترة محددة عادوا بعدها الى مناطق عملهم ، فمناخ الجبال المحيطة، وهو مناخ صحى ممتاز ، استفاد منه سكان بيروت والمناطق المجاورة لها لدرء مخاطر الاوبئة والامراض المعدية بشكل حافظت فيه المدينة على استمرارية تطورها المتصاعد طيلة القرنين التاسع عشر والعشرين .

---

(1) Adel ISMAIL : « Documents diplomatiques et consulaires rélatifs à l'histoire du Liban et des pays du proche-Orient du XVIIème siècle à nos jours ». Edition des œuvres politiques et historiques.
Beyrouth 1975-1985 — série continue T. 4. pp. 337-341.
سنشير إلى هذه المجموعة بكلمة Documents في حواشي الدراسة .

(2) Documents : T.4. pp. 398-402

(3) Ibid : pp. 355 et 408

(4) Ibid : p. 294

(5) Ibid : p. 440

(6) Documents : T.5. pp. 119-131

لكن مرحلة حكم محمد علي فى سوريا (1832 ـ 1840) تعتبر بحق القاعدة الصلبة لانطلاقة بيروت ، اذ اتخذ منها مركزا هاما لحكمه فى الولايات السورية . وفى نهاية عهده أصبحت بيروت ، باعتراف غالبية المصادر الموثوقة، أهم المحطات التجارية فى المشرق العربى . وفى حين كانت المقاطعات المجاورة لبيروت تضج بالصدامات الدموية ذات الوجه الطائفى قبل مجىء محمد علي فان السلطات عرفت كيف تبعد عن المدينة هذا المرض الفتاك حتى فى أشد مراحل انفجار الصدامات الطائفية فى جبل لبنان وحلب ودمشق وحاصبيا وراشيا وسواها .

فعندما تعرضت بيروت لهجوم بحرى يونانى فى 38 آذار 1836 سارعت الطوائف المسيحية الى مغادرة المدينة خوفا من انتقام الاتراك المسلمين المحليين منهم . فاصدر الوالى العثمانى قرارا شديد اللهجة اتهم فيه الاوروبيين بتحريض المسيحيين على الرحيل الى المناطق الجبلية المجاورة واظهر استعداده الكامل لحمايتهم والاقتصاص بشدة من كل من تسول له نفسه الاعتداء على المسيحيين (7) ، وقد سار حكام بيروت على هذه القاعدة فلم تعرف المدينة صدامات طائفية حادة بل حوادث فردية يتم تطويقها بسرعة . لذلك تلاحظ التقارير الفرنسية ان مدينة بيروت عام 1827 أصبحت المركز الاساسى فى المنطقة وبدأ دور صيدا وطرابلس بالتقلص (8) . فى الواقع ، كان حكام بيروت يتعاطون التجارة وتولدت لديهم مصلحة أكيدة لتجنيب المدينة اية صدامات أو اضطرابات مهما كانت صغيرة . ويشير تقرير فرنسى لعام 1827 ان شركة محلية التزمت مرفأ بيروت بقيمة ألف كيس أى حوالى 220 ألف فرنك فرنسى ، وان المبلغ اقتسم مناصفة بين الوالى العثمانى واصحاب الشركة الملتزمة (9) . وهناك عدد كبير من الوثائق التى تدل على ازدهار بيروت فى هذه المرحلة التى سبقت وصول ابراهيم باشا الى سوريا وذلك بالترابط الوثيق بين تجارها المحليين والسلطات العثمانية الحاكمة فيها . ويلاحظ تقرير عام 1832 أن غالبية زعماء بيروت المسلمين وقفوا الى جانب العثمانيين ضد ابراهيم باشا الذى نفى بعضهم فى حين أيده المسيحيون بقوة وابدوا كل ترحيب بتدبير الداعية الى المساواة بين السكان ، وضمان الامن ، واطلاق حرية التجارة ، وتشجيع التعليم ، ومساهمة جميع الطوائف فى حمل السلاح وغيرها . لكن تلك التدابير سرعان ما تكشفت عن قرارات مركزية صارمة أدت الى احتكار التجارة بيد الدولة ، واعتماد السخرة والمصادرة ، وزيادة الضرائب ، وتخفيض النقد ، واطلاق يد بشير الثانى فى جبل لبنان

(7) Ibid : pp. 91-96 et 11-114.

(8) Ibid : p. 108

(9) Ibid : p. 116

للتحكم بخصومه . وتضايق التجار المسلمون كثيرا من مصادرة الحنطة كما تضايق التجار المسيحيون من احتكار الحرير (١٥) .

هكذا بدأت عوامل التذمر تتكاثر ضد الحكم المصرى وتدابيره . فعارضته القوى التى كانت مسيطرة قبل مجيئه ، وهى قوى اسلامية فى الغالب ، ثم انضمت اليها القوى التى استفادت فى بعض المجالات وتضررت من الاحتكار والسخرة والمصادرة فى مجالات أخرى ، وهى قوى مسيحية فى الغالب . واندلعت الانتفاضات ضد الحكم المصرى فى مناطق عدة ابرزها نابلس ، وجبال العلويين ، وحوران ، وعكار ، والضنية ، وغيرها . واندلعت الشرارة الاولى عندما اصدر ابراهيم باشا قرارا عام ١٨٣٤ يقضى بتجنيد ١٥ % من الدروز والمسلمين ويعفى المسيحين واليهود عام ١٨٣٤ . ورافقت التنفيذ تدابير صارمة شملت إحراق القرى فى فلسطين وحوران ، ونزع السلاح ، وزيادة الضرائب . واستخدمت الطوائف اللبنانية فى حروب ابراهيم باشا ضد بعضها البعض مما أعطى للصدامات وجها طائفيا كانت له انعكاسات سلبية بالغة السوء (١١). ولما كانت القوى المتمردة ذات وجه طائفى اسلامى فان نزع سلاحها فى الجبل وبيروت ودمشق وفلسطين ترافق مع نزوح للقوى الطائفية المتضررة من منطقة الى اخرى حاملة معها حقدا دفينا بقي متفجرا فى المرحلة اللاحقة ، قبيل وبعد رحيل الحكم المصرى عن المنطقة . ولا يتسع المجال لذكر جميع الانتفاضات وحركات النزوح خلال هذه المرحلة بل نشير فقط الى محتويات التقارير الكثيرة الدالة عليها . فقد لوحظ نزوح كثيف من بعض القرى الدرزية فى جبل لبنان عام ١٨٣٧ ، وانتفاضة فى حوران ، وصدامات دموية فى حاصبيا ارتدت وجها طائفيا بين المسيحين والدروز ، وعصيان فى راشيا التى يسميها التقرير عاصمة الدروز فيأمر ابراهيم باشا باحراقها مع بعض القرى المجاورة (١٢) . ثم توسعت حركة العصيان لتشمل مناطق عكار وحوران والجليل بالاضافة الى بعض مقاطعات جبل لبنان ذات السكن الدرزى (١٣) . ويمكن رصد الكثير من حركات العصيان والتمرد على قرارات ابراهيم باشا فى سوريا وحليفه بشير الثانى فى جبل لبنان طيلة سنوات ١٨٣٤ ـ ١٨٤٠ والتى انتهت بقصف الاسطول الانكليزى لمدينة بيروت فى 7 تشرين الثانى ١٨٤٠ وانزال عساكره فى جونيه وتوزيع السلاح على القوى التى اعلنت الانتفاضة على المصريين واتسعت لتشمل الطوائف المسيحية الى جانب الطوائف الاسلامية . ومني العسكر المصرى بخسائر هامة من جراء التحرشات العسكرية التى تعرض لها فى طرابلس وبعلبك وبيت شباب وغيرها فى ١٠ تشرين الاول ١٨٤٠ (١٤) .

(10) Ibid : pp. 208-209 et 253-261
(11) Ibid : pp. 288-298 et 306-310 et 368-372
(12) Ibid : pp. 378-379 et 381-392
(13) Ibid : pp. 421-432
(14) Ibid : pp. 446-447

ثم تتالت التحرشات فى الفترة اللاحقة على رحيل الحكم المصرى عن المشـرق العربــى ·

كذلك عرفت بعض مناطق جبل عامل صدامات دموية منذ عام 1830 كانت تتكرر باشكال مختلفة فى الفترة اللاحقة · كما ان السخرة والضرائب الباهظة أجبرت 82 قرية فى ولاية صيدا على مغادرة اراضيهم والنزوح الى مناطق أخرى خلال سنوات 1834 ـ 1840 . وتعرضت قرى ما بين طرابلس وحماه للتدمير خاصة فى منطقة عكار خلال هذه المرحلة (15) . الاسبـاب المبـاشرة كثيـرة ومتنوعة ابرزها السخرة وزيادة الضرائب ، والعصيان ، وحملات التـأديب ، والاحتكار ، والتجنيد الاجبارى وغيرها · لكن استخدام المصريين وحليفهـم الامير بشير الثانى لقوى مسيحية فى قمع انتفاضات المناطـق ذات الكثافـة السكانية الاسلامية الواضحة كحمص ، وطـرابلس ، وعكـار ، وصافيتـا ، واللاذقية ، وحوران ، وحاصبيا ، وراشيا ، ودمشق وغيرها جعلت من حمل السلاح منهم يخاف على نفسه وممتلكاته ويطالب بأن يبقى السلاح فى يده لان السلطة العثمانية لن تحميه نظرا لموقفه الى جانب عدوها ابراهيم باشا (16) وفعلا ، وما ان رحلت عساكر المصريين حتى تعرضت بعض القـرى لاعمال الانتقام ولم تسلم بيوت الاجانب فى بيروت من النهب على ايدى الجنود الالبانيين مما دفع بحاكم بيروت العثمانى الى زيادة عسر الارنلؤوط فى المدينة الى أربعة آلاف فى مطالع آيار 1842 ، فأشاع جوا من الهدوء والاستقرار فيها حيث شعر سكانها ، على اختلاف طوائفهم ، باطمئنان على أرواحهم وممتلكاتهم (17) .

يتضح من ذلك فظائع حكم الامير بشير الثـانى فى الجبـل ، والتـدابير المصرية الصارمة فى المناطق المحيطة به ، وأعمال التنكيل واحراق العصاة ، بالاضافة الى السخرة والمصادرة والاحتكار وغيرهـا جعلت المناطق المحيطـة ببيروت تعيش مرحلة غليان شعبى ما ان يهدأ حتى ينفر مجددا فى أكثر من منطقـة (18) .

ويلاحظ ان احد المقترحات الاربعة التى تقدم بها العثمانيون لحـل مشكلـة الصدامات الدموية كان يشير الى ضرورة التهجير القسرى للسكان من منطقة الى أخرى . وتبلور هذا الاقتراح فى مشروع محدد النقاط قدم فى 28 نيسان 1843 . حتى ان نظام القائمقاميتين الذى اعتمد بموافقة عثمانيـة وفرنسيـة وانكليزية تميز بتزايد الحقد والاستعداد للقتال حتى قيل فيه انه تنظيم للحرب الاهلية بين سكان جبل لبنان (19) .

(15) Documents : T.6. p. 27
(16) Ibid : p. 57-61
(17) Ibid : pp. 86 et 132
(18) Ibid : pp. 153-160 et 292-294
(19) Ibid : pp. 309 et 317-325 et 388

ويبرز الصراع الاجنبى على أشده فى هذه المرحلة تحت ستار دعم الـدروز أو الموارنة فى حين كانت الوثائق نفسها تشير الى انه يتم على حساب الدروز والموارنة معا . فقد سعت الدول الاستعمارية ، كذلك سعت السلطنة العثمانية، ولاسباب متنوعة ، لايجاد حلول للمسألة اللبنانية تتلاءم مع مصالحها بالدرجة الاولى . واعتبرت مرحلة الحكم المصرى ، انها ساهمت فى تنشيط القوى الغنية على حساب الفقراء لكن مرحلة نظام القائمقاميتين قـادت الى انهـاك الاغنيـاء والفقراء معا فى مناطق واسعة من جبـل لبنـان ، بسبب الازمـات الخـانقة ، والصدامات الدموية المستمرة ، وفقدان الامن ، فبدأت الهجرة الى الخارج باعداد كبيرة جدا من سكان المقاطعات اللبنانية المختلطة واتجهت ، وبالدرجة الاولى الى بيروت لانها الاكثر قربا ، وتتمتع بالاستقرار والامن والنشـاط التجـارى البارز (20) . وفى حين أصبحت الهجرة الجمـاعية احـدى المشكلات الاساسية الحادة فى تلك المناطق ابتداء من ايلول 1844 وحتى عام 1860 فان مدينة بيروت شكلت قطبا جاذبا لها خلال المرحلة اللاحقة (21) .

ولم تقتصر الهجرة على المقاطعات المختلطة ذات السكن الدرزى والمارونى بل تعدتها الى مناطق بعيدة عن بيروت حتى وصلت الى دمشق وحلـب وحـوران وحاصبيا وراشيا وجبل عامل وغيرها . ولم تبق الصدامات الطائفية فى اطار صراع الدروز والموارنة بل تعدتهم الى طوائف أخرى داخل الدين الواحد . فعلى سبيل المثال نشير الى هجرة الروم لارثوذكس من حاصبيـا فى تشـرين الاول 1844 اثر صدامات داخل الطائفة بين من بقي على الارثوذكسية ومن انتقل الى البروتستانتية وقدر عددهم بحوالى مئـة عـائلة . وبضغط من البطريركية الارثوذكسية فى دمشق اجبر ارثوذكس حاصبيـا العـائلات التى انتقلت الى البروتستانتية على النزوح الى عبيه فى جوار بيروت . لكن نفوذ الارساليات البروتستانتية المدعومة من الولايات المتحدة الاميركية وانكلترا كـان كافيـا لعزل حاكم حاصبيا العثمانى وارجاع العائلات المهاجرة فقامت هجرة مضادة من العائلات الارثوذكسية والمارونية والكاثوليكية فيها فى مـرحلة تميـزت بالخلاف الحاد بين البروتستانت من جهة وباقى الطوائف الشرقية من جهـة أخرى . وبدأ القناصل يستخدمون اسلوب التهديد للحاكم العثمانى بالعزل ويتوصلون الى ذلك بالفعل (22) .

وطيلة مرحلة القائمقاميتين كانت الصدامـات الطـائفية شبـه مستمـرة يرافقها احراق القرى والمزارع وترحيل سكانها كما حصـل عـام 1845 فى فى المعلقة ، والدامور ، ورأس الحرف ، وعبيـه ، والعربانية ، وترشيش ،

---

(20) Documents : T.7. pp. 366-367 et 375 et 413-414

(21) Ibid : pp. 439-441

(22) Documents : T.8. pp. 17-22 et 52-53

وعينطورة ، والمتسين (23) . ووصلت حمى الصدامات الى مدينة حلب فى 17 تشرين الاول 1850 انتهت بعدد كبير من الفتلى ، واحراق المنازل ، والسرقة والتعديات ، وفى الوقت نفسه حدثت صدامات مشابهة فى بعلبك ارتدت وجها طائفيا ضد المسيحين فتدخلت السلطات العثمانية واعتقلت الامير خنجر حرفوش وارسلته الى الاستانة للمحاكمة (24) .

وهكذا يلاحظ وضوح المخطط المعتمد على اشعال الفتن فى مناطق متفرقة . وابرز جوانبه تحريض طائفى تعقبه صدامات دموية وقتلى وجرحى وتعديات ، وضغط أوروبى متواصل ، وتدخل الجيوش العثمانية التى تفرض العقاب الصارم ثم التهجير والنزوح . لذلك تزايدت اعداد العساكر العثمانية فى المنطقة حتى قاربت العشرة آلاف انتشروا فى العصبات والمدن الكبرى لمنع الصدامات الدموية فى المشرق العربى (25) وحظيت بيروت باهتمام عثمانى خاص اذ بقيت خارج الصدامات موسعى العقلاء فيها الى تعزيز الروابط بين الطوائف ، فتشكلت محكمة الجنايات فيها من ثلاثة مسلمين وثلاثة مسيحيين برئاسة حاكم بيروت العثمانى فى 14 أيلول 1851 (26) . وجعلت فى رأس أهدافها الاقتصاص بشدة ممن يرتكب أعمالا ذات طابع طائفى أو يحرض عليها .

لقد باتت مدينة بيروت مركز استقطاب كبير ، فى مختلف المجالات ، وسط منطقة تضج بالصدامات الدموية من كل نوع وتتسع دائرتها من حدود فلسطين حتى دمشق وحلب وطرابلس بالاضافة الى تعديات البدو التى لعبت دورا كبيرا فى تعطيل دائرة الانتاج المحلى والتجارة الدولية . ومنذ عام 1850 عملت السلطات العثمانية على اقامة مراكز عسكرية ثابتة على تخوم مناطق البدو وأنشأت فيها تحصينات وحرسا للصحراء وراقبت بدقة الواحات ومصادر المياه الصحراوية ، وضمنت استقرار بعض القبائل ، وعملت على توطين قبائل شركسية فى الجزيرة الفراتية (27) .

فساهمت التدابير العثمانية فى ضبط بعض المناطق البدوية لكنها فشلت فى تلافى الصدامات الدموية ذات الوجه الطائفى فى مرحلة تاريخية كانت فيها بعض طوائف المنطقة ، خاصة الدروز والموارنة ، تقيم علاقات ثابتة مع قوى خارجية ، وبشكل أساسى مع بريطانيا وفرنسا . وكما رفض الدروز والعلويون التجنيد الاجبارى ابان حكم ابراهيم باشا واعلنوا الانتفاضات

(23) Ibid : pp. 108-109 et 126 et 150

(24) Ibid : p. 382

(25) Ibid : pp. 230-231

(26) Ibid : p. 413

(27) Jean-Paul PASCUAL : « La Syrie à l'époque Ottomane le XIXème siècle « *im* » La Syrie d'Aujourd'hui » CNRS — Paris 1980 — p. 3.

المتلاحقة ضده رفضوا كذلك التجنيد الاجبارى فى الجيش العثمانى مما دفع العثمانيين الى مهاجمة حوران فى 9 تشرين الاول 1852 واحراق بعض قراها والتنكيل بسكانها . وهاجموا أيضا ، وفى الفترة نفسها ، مناطق العلويين لنفس الاسباب (28) .

فمنذ أواسط القرن التاسع عشر أصبحت المسألة اللبنانية ذات وجه دولى شاركت عدة اطراف ، داخلية وخارجية ، فى تأزيمها فعجزت القوى العثمانية عن ايجاد حل لها الا بالاتفاق مع القوى الاستعمارية ذات المشاريع الواضحة لتفكيك السلطنة العثمانية والسيطرة على الاياتها .

وتميزت سنوات 1856 ـ 1860 بأحداث دموية شهدتها مختلف المناطق المحيطة ببيروت والبعيدة عنها . ولم تبق أسيرة الصدامات الدموية الطائفية بين الدروز والموارنة بل تعدتها لتشمل صدامات محلية داخل كل طائفة ، وصدامات ذات وجه اجتماعي واضح بين الفلاحين والزعامات المسيطرة . ففى عام 1856 بدأ صدام حاد بين موارنة بشري وموارنة اهدن القريبة منها واستمر حتى عام 1857 وترك ذيولا لاحقة لسنوات طويلة (29) . وفى عام 1857 حصلت صدامات دموية فى صيدا وجوارها (30) . وفى عام 1858 اعلنت زحلة العصيان فدخلها العسكر العثمانى بالقوة واخضع سكانها فى كانون الاول من العام نفسه (31) . وفى هذا العام أيضا انفجر الصراع فى كسروان بين الفلاحين والمقاطعين من آل الخازن واستمر حتى 1860 احرق اثناءه الفلاحون بعض بيوت آل الخازن وسيطروا على الاراضى وأقاموا أول حركة فلاحية تحررية بقيت آثارها فاعلة حتى اليوم ولم يقض عليها الا بتكاتف الزعماء المحليين مع القيادات العليا للكنيسة المارونية والحكام العثمانيين والقناصل الاجانب (32) .

وفى ايلول 1859 انفجر صراع دموى فى المتن كانت له انعكاسات مباشرة على اندلاع الصدامات الطائفية الدموية فى مختلف ارجاء جبل لبنان . بدأت الصدامات فى 28 ايار 1860 واستمرت متقطعة عدة اشهر أحرقت خلالها مدينة دير القمر التى كانت أكبر تجمع مارونى فى الجبل وتضم قرابة العشرة آلاف انسان . ودخل الدروز مدينة زحلة فى 19 حزيران 1860 . وتم احصاء حوالى أربعين قرية محروقة ومنهوبة فى جبل لبنان ، حتى وصلت الصدامات الى سهل بيروت (33) .

(28) Documents : T.9. pp. 31- 38
(29) Documents : T.10. pp. 88-93
(30) Ibid : pp. 91-93
(31) Ibid : pp. 120-121
(32) Documents : T.10. pp. 106-107 et 161-169
(33) Ibid : pp. 1 8, 174-177 et 180-189

خلال فترة المعارك وبعدها مباشرة لجات الى بيروت اعداد كبيرة من النساء والاطفال والشيوخ فوجدت فيها الامن والحماية (34) . وليست هناك اية لصدامات طائفية دموية فى بيروت اثناء تلك الصدامات وفى الفترات اللاحقة فى حين تشير المصادر الى فتن طائفية عمت بعض المدن المشرقية خاصة دمشق (35) التى خسرت الكثير من سمعتها لصالح بيروت فبدأت تتحول بسرعة الى المركز التجارى والثقافى الاكثر نشاطا فى شرقى البحر المتوسط .

ويتضح من وثائق هذه المرحلة ان السلطات العثمانية كانت جادة فعلا فى اتخاذ التدابير الصارمة وتنفيذها فورا بحق من ثبتت مشاركته فى الصدامات الطائفية فى دمشق وجبل لبنان . وطالت العقوبات بعض الحكام العثمانيين والزعماء الدروز . وحكم على البعض منهم بالاعدام وتمت ملاحقة عدد كبير منهم فهجرت عائلات كثيرة من دروز جبل لبنان الى حوران وبيروت (36) .

لقد ادركت السلطات العثمانية ان المذابح الطائفين في المنطقة جزء من مشروع استعمارى تحضر له فرنسا للسيطرة على المنطقة واتخذت بالفعل تدابير عملية فى هذا المجال فأرسلت حملة كبيرة الى شواطىء سوريا ولبنان لاحتلالها . لذلك سارعت السلطنة العثمانية الى ارسال وزير خارجيتها فؤاد

(34) Ibid : pp. 178-179

(35) خلال الاشتباكات الدامية في دمشق عام 1860 أحرق الحي المسيحي فيها وقتل عدة الاف من سكانه قدر عددهم بخمسة الاف إنسان . وكانت حلب قد شهدت صدامات دموية مماثلة عام 1850 لكن يد الفتنة لم تمتد إليها عام 1860 بسبب يقظة حكامها وتكاتف السكان فيها . وسلمت كذلك مدن حماه وحمص في حين طالت الصدامات راشيا وحاصبيا ومناطق واسعة من جبل لبنان ، دون أن تصل إلى بيروت . وكان من نتائجها أن قامت السلطات العثمانية بإعدام عدد من قادة الصدامات وفرضت الأمن والاستقرار . لكن اعدادا كبيرة من السكان ارتحلت إلى بيروت وقبرص ومصر ، معظمهم من الطوائف المسيحية . وفرضت على الدمشقيين غرامة مالية كبيرة بلغت 12،5 مليون قرش أجبر مسلمو دمشق على دفعها إلى المسيحين فيها دون أن يصل إلى هؤلاء سوى قسم زهيد من المبلغ .
يراجع : عبد الله حنا « حركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر — نموذج لحياة المدن في ظل الإقطاعية الشرقية » . دار ابن خلدون بيروت 1985 — وفيه معلومات هامة جدا حول حوادث دمشق لعام 1860 خاصة صفحات 260—270 . وحول التعويضات المشار إليها يراجع :
Documents : T.11. p. 38.

(36) Documents : T.11. pp. 18-24 et 32-33
وفي دراسة ظهرت مؤخرا للدكتور سليم هشي بعنوان : « دروز بيروت : تاريخهم ومآسيهم » يشير الكاتب إلى أثر صدامات القرن التاسع عشر في جلب وجبل لبنان التي أجبرت عددا هاما من عائلا تهما على النزوح والاستقرار النهائي في بيروت . وكانت هزيمة الشيخ بشير جنبلاط على يد الأمير بشير الثاني الشهابي عاملا أيضا في تلك الهجرة وفي الكتاب إشارة إلى توقف عائلات نصرانية كثيرة سكنت بيروت منذ عام 1839 منها عائلات ربيز ، وبخعازى ، وزعني وعرزوزي ، وزريق ، وعرمان ورجي ، وغيرها . أما العائلات التي وفدت من حلب فسميت بآل الحلبي وفيها عائلات مسيحية وإسلامية . وابرز العائلات الدرزية التي وفدت إلى بيروت في القرن التاسع عشر هي : آل الضاروب ، عساف ، رباح ، خداج ، رضوان ، عبد الخالق ، سرى الدين ، وجميعها استقرت في مناطق أبناء ملتهم المتواجدين في بيروت منذ مئات السنين بين كركول الدروز وهي الوترات والقنطاري وساقية الجنزير .
« دروز بيروت » — دار لحد خاطر — بيروت 1985 — صفحات 61—67 .

باشا مزودا بصلاحيات مطلقة لحل المسألة اللبنانية بما يضمن مصلحة السلطنة . لكن الضعف الذى انتاب السلطنة آنذاك كان واضحا بعد الحروب التى انهكتها خاصة حروب محمد علي وحروب القرم . وتشير وثائق الارشيف الفرنسي الى اعتراف بعض القادة العثمانيين بالتعاون الوثيق مع الدول الاستعمارية خاصة فرنسا وبريطانيا (37) . وتشير وثائق أخرى الى مشروع عثمانى تدعمه بريطانيا وينص على الغاء نظام المتصرفية تدريجيا وايجاد صعوبات عند تطبيقه بحيث تتم اعادة ربطها بولاية بيروت على غرار ربط القائمقاميتين بولاية صيدا . لكن السياسة الفرنسية استطاعت افشال هذا المشروع وساهمت فى بلورة المتصرفية كنظام خاص لجبل لبنان ، تدعمه الدول الاوروبية وتنفذ بنوده السلطنة العثمانية ويحكمها متصرف يرتبط مباشرة بالباب العالى (38) .

هكذا تجاذبت المتصرفية تيارات سياسية فاعلة ، محليا ودوليا . فمن جهة اصرار عثمانى تدعمه بريطانيا ويقضى بربط جبل لبنان بالسلطنة العثمانية مباشرة على الرغم من الوضع الدولى المميز المعترف به ، ومن جهة أخرى ، اصرار فرنسى يلقى دعم الموارنة من الداخل ويسعى الى بلورة كيان سياسى متميز فى جبل لبنان تمهيدا للاعتراف به ككيان ذى وجه مسيحى فى المرحلة اللاحقة تحت الحماية الاوروبية الفرنسية بشكل خاص وفى الحالتين كانت مدينة بيروت المستفيد الاكبر من تلك المشاريع السياسية . فقد نصت المادة التاسعة من بروتوكول المتصرفية المعدل لعام 1864 ان تكون بيروت مركزا للمحكمة التجارية التى ترعى شؤون الاجانب فى علاقاتهم بالسكان المحليين (39) . وفى تقرير فرنسى بتاريخ 27 ايار 1865 تبدو الاشارة واضحة الى تحول بيروت السريع خلال القرن التاسع عشر حتى اصبحت أهم مركز كوسموبوليتى فى المنطقة . وعلى عكس دمشق الاسلامية لقيت بيروت الدعم الكامل من الاوروبيين لانها مدينة مفتوحة ومختلطة وذات كثافة سكانية مسيحية كبيرة ولا ينسى واضع التقرير ان يوصى بنقل الولاية من دمشق الى بيروت (40) .

وفى الفترة الممتدة من تاريخ هذا الاقتراح عام 1865 حتى تطبيقه فعليا عام 1888 واعلان بيروت مركزا لولاية كبيرة تمتد شمالا وجنوبا دون الغاء ولاية دمشق ، كانت مدينة بيروت تشهد تبدلات اقتصادية وعمرانية وسياسية

---

(37) Documents : T. 11. Rapport du 18 Mai 1861 — pp. 88-89

(38) Ibid : Rapport du 18 Juillet 1861 — pp. 131-134

(39) يتراجع نص البروتوكول الأصلي المعدل لعام 1864 في
Documents : T.12. pp. 33-40

(40) Ibid : Rapport du 27 Mai 1765 pp. 162-163

وثقافية بالغة الاهمية . فقد انتقلت اليها الارساليات الاجنبية اليسوعية والاميركية لتتحول الى جامعات كبيرة لا زالت عاملة حتى الآن .

وتشير التقارير الفرنسية الى وجود ثلاثة مراكز أساسية فى المشرق العربى ابتداء من عام 1888 اى ولاية بيروت ، وولاية دمشق ، ومتصرفية جبل لبنان. لكن ولاية بيروت كانت الاكثر حضورا بينها وعلى كافة المستويات (41). وبدأت ملامحها الاقتصادية والعمرانية تتغير بسرعة مذهلة فى نهاية القرن التاسع عشر . وأقيمت فيها فروع عديدة لمؤسسات مالية وتجارية . وانتشر تأثيرها الثقافى فى المشرق العربى كله وصولا الى وادى النيل (42) . اما دمشق فكانت تعين مرحلة تطور بطىء لا يمكن ان يقارن بنهوض بيروت خلال هذه المرحلة (43) فى حين كانت متصرفية جبل لبنان تنزف خيرة شبابها العامل كمهاجرين الى مصر وأوربا وأميركا . وفى تقرير بالغ الاهمية لقنصل فرنسا العام فى بيروت الكونت دو سيرى Le Comte de Sercey فى 26 شباط 1903 عن الهجرة اللبنانية يشير القنصل الى ان المتصرفية البالغ سكانها قرابة الاربعمائة ألف نسمة فقدت منهم ثمانين ألفا فى السنوات الخمس عشرة الاخيرة أى منذ اعلان ولاية بيروت . ويعزو أسباب الهجرة الداخلية الى اراضى الجبل الوعرة وصعوبة استصلاحها . وان امتيازات الجبليين تمنع فلاحيهم من النزول الى سهل البقاع حيث يتعرضون للسخرة ودفع الضرائب المعفيين منها . لذلك غادر قسم هام منهم الى مصر وعملوا فى التجارة وبالاخص تجارة التبغ . كذلك هاجرت اعداد كبيرة منهم الى القارة الاميركية ، ومعظمهم الى الولايات المتحدة . وبلغت ارقام الهجرة السنوية ثمانية آلاف مهاجر عام 1899. وهى هجرة مسيحية فى الغالب عن بعض المقاطعات التابعة لولاية بيروت خاصة حمص وصافيتا وطرابلس ومرجعيون . ومن اقضية ولاية دمشق بالاضافة الى جميع اقضية المتصرفية . ويشير التقرير الى انه من اصل ثمانية آلاف مهاجر

---

(41) Documents : T.15. rapport du 11 Juillet 1888 — pp. 288-291

(42) توسعنا كثيرا في رسم معالم هذه النهضة في كتابنا الصادر حديثا بعنوان مسعود ضاهر : « بيروت وجبل لبنان على مشارف القرن العشرين — دراسة في التاريخ الاجتماعي من خلال مذكرات العالم الروسي الكبير أ. كريمكي « رسائل من لبنان 1896—1898 » . دار المدى — بيروت 1985 في 312 صفحة .

(43) يرى عبد الله حنا في الصدامات الدموية التي دارت في دمشق عام 1860 « انتصارا للقوى الرجعية في استنبول ودمشق على قوى التقدم الاجتماعي المتمثلة في الفئات الوسطى ذات الملامح البورجوازية الناشئة . وهذا مما أدى إلى تأخير ظهور حركة النهضة العربية في دمشق حتى مستهل القرن العشرين . ولم تتمكن الحركة الوطنية العربية في دمشق من الوقوف على رجليها إلا بعد انهيار الدولة العثمانية عام 1918 . ووقع عبء النهضة العربية الحديثة على كامل القوى المستنيرة في جبل لبنان ، وبيروت التي وضعت أسس حركة البعث القومي في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ومنذ مستهل القرن العشرين أخذ مركز النشاط القومي ينتقل تدريجيا إلى دمشق ، إلى أن استقر فيها بعد الحرب العالمية الأولى » .
« حركات العامة الدمشقية ... » ص 270 .
ثم أشرف شيفاليه على كتاب هام عن المدينة العربية خصصت فيه عدة دراسات تناولت تطور مدينة بيروت في القرن العشرين .

سورى ولبنانى يغادرون أراضيهم كان 6500 منهم يتجهون الى بيروت أولا حيث مركز تجميع المهاجرين ، ووكالات السفر ، خاصة الفرنسية منها ، التى تنقل غالبية المهاجرين عبر الشركة الفرنسية ميساجيرى ماريتيم La Compagnie des Messageries Maritimes . وكانت البواخر الفرنسية تجمع سنويا قرابة 1،8 مليون فرنك فرنسى على الاقل أجور هجرة اللبنانيين ، وان ستة آلاف مهاجر من أصل الثمانية كانوا يمرون عبر مرفأ مرسيليا .

اما التوزيع الطائفى للعثمانيين ألف مهاجر فكان كالتالى 55 ألفا من الموارنة (69 %) ، و 12 ألفا من الروم الارثوذكس (15 %) ، و 9 آلاف من الروم الكاثوليك (11 %) ، و 4 آلاف مسلم معظمهم دروز وشيعة (5 %) . اى ان الهجرة اللبنانية حتى مطالع القرن العشرين كانت بنسبة (95 %) من المسيحيين ، موارنة فى الغالب ، مقابل (5 %) من الطوائف الاسلامية ولا تتبدل هذه النسبة بشكل جذرى حتى الحرب العالمية الاولى (44) .

بعض الاستنتاجات :

تعتبر فترة حكم محمد علي فى سوريا منطلقا هاما لدراسة التبدلات الاقتصادية والاجتماعية والسكانية والسياسية والثقافية التى برزت فى المشرق العربى . فقد استفادت قوى اجتماعية متنوعة من اصلاحات محمد علي ومحاولته ترسيخ سلطة مركزية فى مصر والمقاطعات التى أتبعت بها . وكانت القوى البورجوازية الناشطة ، خاصة المسيحية واليهودية بالاضافة الى بعض شرائح البورجوازية الاسلامية التى أقامت علاقات مبكرة مع أوربا ، أكثر الفئات الاجتماعية استفادة من تلك الاصلاحات فى المشرق العربى . فتعزز دور التجار الوسطاء ، ووكلاء القناصل ، والمترجمين ، وجميع الذين استفادوا من الحماية الاوروبية والاعفاءات الجمركية وجنوا ارباحا طائلة كانت تتكدس على مرأى من الجماهير الفقيرة ، ومعظمها من الطوائف الاسلامية فى المدن ، والارياف ، وكان من نتائج هذه المرحلة ايضا ان غزت السلع الاوروبية الاسواق المحلية ، ونهب الاوروبيون كميات كبيرة من النقود المعدنية والمعادن الثمينة ، وارتفعت الاسعار بشكل فاحش ، واشتدت الضائقة الاقتصادية فطالت مختلف فئات الشعب ، خاصة الفلاحين فى الارياف والحرفيين فى المدن . فعلى سبيل المثال ، انخفض عدد الحرف فى مدينة حلب من عشرة آلاف حرفة فى مطلع حكم محمد علي الى حوالى أربعة آلاف عام 1840 . وان ارقاما غير دقيقة لكنها ذات دلالة تشير الى ان عدد الحرفيين فى مدينة دمشق قد انخفض من ثلاثين ألف حرفى عام 1850 الى 15 ألف عام 1880 والى ثمانية آلاف فقط عام 1839 (45) .

---

(44) Documents : T.17. Rapport du 26 Février 1903 — pp. 220-229

(45) J.P. PASCUAL : *op. cit.* p. 49

شكل الحكم المصرى بداية مرحلة تاريخية جديدة تميزت بتوثيق الصلة بمراكز الرساميل العالمية ، وتحديدا الاوروبية منها . وكان من الطبيعي ان تبرز مراكز فرعية لها فى المشرق العربى فكانت بيروت من اكبر المدن التى استفادت وتحولت من مرفأ صغير شرقى البحر المتوسط فى مطالع القرن التاسع عشر الى مدينة كبيرة تناهز المليون نسمة فى القرن العشرين وتمتلك أكبر مرفأ بحرى فى المنطقة وأقيمت فيها أولى الجامعات الاجنبية فى القرن التاسع عشر ، بالاضافة الى حركة سياسية وصحافية وطباعية وتربوية وأدبية ناشطة .

ودخلت الاصلاحات التى قامت بها ادارة محمد علي فى مصر وبلاد الشام عمق التطور الاقتصادى والاجتماعى وبات من الصعب جدا تجاهلها أو النكوص الى المرحلة التي سبقتها . فأدخلت آلات حديثة ساهمت فى نمو الانتاج ، وتساوى الناس ، على اختلاف مناطقهم وطوائفهم ، فى الحقوق والواجبات ، وتعززت السلطة المركزية على حساب السلطات الاقليمية المفككة ، وتدخلت الدولة في مختلف المجالات عبر قوى عسكرية نظامية بدل قوى الزعماء المسيطرين . وكانت بيروت المركز الاساسى لتنفيذ تلك الاصلاحات حيث أنيط بالقوى العسكرية المتمركزة فيها قمع الصدامات الدموية بين السكان . وعلى الرغم من تقاعس وتواطؤ بعض القادة العثمانيين الذين غضوا النظر أو شاركوا فى استمرار الصدامات الطائفية فى جبل لبنان ودمشق وحاصبيا وراشيا وغيرها فان استقرار الوضع فى بيروت كان مؤشرا ايجابيا لصالح تطورها طيلة القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين . فاستقرت فيها جاليات أوروبية كثيرة مارست مختلف أنواع النشاط ، وارتفعت قيمة المبادلات التجارية بينها وبين الخارج على شكل قفزات كبيرة بلغت ثمانية أضعاف خلال سنوات قصيرة ما بين 1825 و 1855 (46) ، واستمرت هذه الوتيرة بخط متصاعد فى المرحلة اللاحقة . ويلاحظ ان عدد سكان بيروت ارتفع أيضا على شكل قفزات مماثلة . فمن ستة آلاف نسمة تقريبا فى مطالع القرن التاسع عشر الى 46200 نسمة عام 1860 الى 60 ألفا عام 1863 ، الى 80 ألفا عام 1865 ، الى 70 ألفا عام 1870 ، الى 80 ألفا عام 1875 ، الى 120 ألفا عام 1895 الى 136400 عام 1908 ، الى 130 ألفا عام 1914 (47) . وتدل هذه الارقام بوضوح اثر عاملى الجذب والدفع الى بيروت ومنها الى مصر وأوروبا وأميركا . لذلك لا يمكن فهم تلك القفزات الكمية والنوعية الا فى اطار تشكل بيروت

---

(46) Ibid : pp. 45-46

(47) Dominique CHEVALLIER : « *La société du Mont-Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe* ». Paris 1971 — p. 292.
Dominique CHEVALLIER : Directeur : « *L'espace social de la ville arabe* » Paris 1979. Troisième partie : « *Mutations socio-économiques et restruction de l'espace urbain. l'exemple de Beyrouth* » pp. 143-305

كمركز كوسموبوليتى جذب اعدادا كبيرة من الارمن ، والاكراد ، والشركس، والتركمان ، والكلدان ، والاشوريين ، والاتراك ، والاوروبيين ، على اختلاف جنسياتهم . وهى أيضا قطب كوسموبوليتى جذب الرساميل الاجنبية لربط مقاطعات سوريا ولبنان بعجلة السوق الرأسمالية العالمية .

وهكذا قاد ارتباط مصر المبكر بالمشروع التحديثى على النمط الاوروبى الى تبلور مراكز تبعية مشرقية للسوق الرأسمالية العالمية منذ القرن التاسع عشر . فوجدت مصر موقعها فى تلك السوق عبر انتاج القطن والارز ، فى حين وجد جبل لبنان ذلك الموقع فى انتاج الحرير ، وفلسطين فى انتاج الليمون والحمضيات ، واللاذقية فى انتاج التبغ ، والولايات السورية ، خاصة حوران ، فى انتاج الحبوب . اى ان نوعا من التخصص الانتاجى فى المشرق العربى بات شديد الوضوح فى القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين . اما بيروت فشكلت المركز الاهم للربط بين حركة الرساميل الاوروبية وأسواق الانتاج والاستهلاك فى هذا المشرق . وترتب على ذلك ان حركية سكانية كبيرة نشطت من مراكز الانتاج الى مراكز الرساميل عبر مدينة بيروت وتجارتها المزدهرة . ولعبت الصدامات الدموية المتلاحقة فى المناطق المجاورة عامل الدفع للسكان ساعد كثيرا فى توجههم الى بيروت ومصر والخارج . فاستقرت فيها اعداد كبيرة منهم واكملت طريقها الى الخارج اعداد أكبر استقرت فى مصر والقارة الاميركية . ونتيجة الازدهار الاقتصادى والنشاط الثقافى المميز فى مختلف الحقوق شكلت بيروت مركز استقطاب وجذب وتسهل مقارنتها فى هذه الفترة بمدينة الاسكندرية . فقد اغتنتنا بجاليات كثيرة مماثلة وفدت اليها من دمشق ، وحلب ، وحمص ، وحماه ، والقدس ، وطرابلس ، وجبل لبنان ، وسواها بالاضافة الى جاليات مغربية ومصرية (48) ، وجاليات أوروبية متنوعة . وكانت المقاطعات التى شهدت الصدامات الطائفية أكثر المناطق تضررا اذ فقدت آلاف القتلى والجرحى فى معارك التقتيل والثأر ، وارتحلت آلاف أخرى الى مناطق أكثر أمنا واستقرارا ، خاصة بيروت . وعلى الرغم من قيام نظام المتصرفية فى جبل لبنان تحت اشراف عثمانى مباشر وبحماية أوروبية متعددة الجنسيات فان سيل المهاجرة

(48) في دراسة مخطوطة للدكتور حسان حلاق بعنوان « التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لبيروت والولايات العثمانية من خلال سجلات المحكمة الشرعية (1843—1844) في بيروت » تبرز الأصول المغربية والمصرية والسورية لكثير من العائلات البيروتية في أواسط القرن التاسع عشر منها : أسر الداعوق ، يموت ، الطيارة ، فتح الله ، قدورة ، العويني ، سنو ، بيهم من أصل مغربي . أسرة بكداش من أصل ألباني ، كذلك أسرة أرناؤوط . أسرة اليافي من فلسطين . ومن الواضح أيضا أن أسر الحلبي والحمصي والدمشقي ، ودمشقية والحموي ، واللاذقي ، وحوارني وغيرها من أصل سوري . وأسرة مكي من أصل سعودي وأسرة الفيومي ، الرشيدي ، الدمياطي ، المصرى ، الصعيدي ، التكروري ، الإسكندراني ، من أصل مصري ، وجميعها من الأسر التي تقطن بيروت حتى الآن بالإضافة إلى عائلات بيروتية من أصل يوناني كآل باسيلي ، وسرسق ، وسيمونيدس ، وغيرها .

لم ينقطع منها وبلغ ارقاما مذهلة قياسا الى عدد السكان فيها .« فخلال سنوات 1870 ـ 1900 كان يغادر المتصرفية قرابة 12 ألف مهاجر سنويا . حتى ان مدينة نيويورك وحدها شهدت تمركز جالية لبنانية بلغت قرابة 65 ألف مهاجر قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى » (49) . وفى احصاء آخر مكمل لهذه الحقبة نلاحظ « ان لبنان ـ المقصود متصرفية جبل لبنان ـ أصبح المركز الرئيسى للهجرة . وهناك احصائيات تشير الى ان هذا البلد فقد قرابة 25 % من سكانه خلال سنوات 1900 ـ 1914 » (50) .

أخيرا ، ليس من السهل الاحاطة بجميع الاسباب والعوامل التى دفعت سكان الولايات السورية باتجاه بيروت وجبل لبنان ومنهما الى مصر والخارج طيلة القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين . لكن احدى الحقائق التاريخية المثبتة بالوثائق والاحصاء تؤكد ان هذه المناطق تشكلت كمراكز استقطاب جذبت اليها سكان الولايات المجاورة فى المشرق العربى . وكانت أبرز النتائج ان ازدادت الكثافة السكانية بشكل عمودى فى مراكز الجذب على حساب الافقار السكانى فى مناطق الدفع .

ولا شك ان الصدامات الطائفية لعبت دورا أساسيا فى هذا المجال . لكن قراءة متأنية لها على ضوء خط التطور الرأسمالى العالمى الساعى لايجاد مراكز ثابتة للرساميل الاجنبية فى المشرق العربى يلقى اضواء جديدة على مقولة الدفع والجذب تتجاوز النظرة الضيقة اليها فى حدود الصدامات الطائفية فقط . فافراغ مناطق واسعة من سكانها ، خاصة المناطق الزراعية ، ودفع النازحين باتجاه مراكز الاستقطاب الرأسمالى فى بيروت ومصر لا يمكن تفسيره الا فى إطار مشروع رأسمالى تبعى وهامشى بدأ يبرز فى المشرق العربى منذ أواسط القرن التاسع عشر ومازال مستمرا حتى الآن . وتعتبر مرحلة حكم محمد علي في مصر وامتداده الى الولايات السورية نقطة تحول أساسية فى تاريخ المشرق العربى . اثناءها تعززت الروابط بين الولايات السورية ، خاصة جبل لبنان وبيروت ، ومصر على كافة المستويات . وهى نماذج علمى بالغ الدلالة على حركة الاندماج القومى العربى المبكر فى المشرق العربى الحديث والمعاصر (51) .

د. مسعود ضاهر
استاذ التاريخ الحديث والمعاصر
فى الجامعة اللبنانية

---

(49) Pierre LYAUTY : « Liban Moderne ». Paris 1965 — p. 41.

(50) Benoit ABOUSSOUAN : « *Le problème Syrien* » Paris 1924 p. 29.

(51) أنجزنا دراسة كبيرة ستصدر قريبا عن منشورات الجامعة اللبنانية بعنوان « الهجرة اللبنانية إلى مصر — هجرة الشوام » في 470 صفحة استندنا فيها إلى وثائق أصلية معظمها غير منشور وتوصلنا من خلالها إلى استنتاجات هامة نعمل على توسيعها وتعميقها في إطار دراسة مفصلة بعنوان « حركة الاندماج القومي العربي في المشرق العربي الحديث والمعاصر » تتناول بالتحديد الحقبة الممتدة من حكم محمد علي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

الحياة الاجتماعية فى مدينة القاهرة ابان العصر العثمانى (1517 ـ 1798 م.) من خلال وثائق المحاكم الشرعية

د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

تمهيـــد :

تقع القاهرة فى المنطقة الممتدة ما بين النيل وجبل المقطم ، وتشرف عليها القلعة ، قصر الحكم ، وكان يحيط بها سور له عدة أبواب معروفة ، وكانت القاهرة قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح (1498 م.) سوقا تجارية عامة ، ومحورا رئيسيا من محاور التجارة العالمية ، وبعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وتحول طريق التجارة اليها ، أصيبت القاهرة بـل ومـدن الثغور المصرية بالكساد ، وظلت الحركة التجارية فى القاهـرة تعانى انهيار الدولة المملوكية فى يناير 1517 م. ، وفقدت القاهرة مكانتها كعاصمة لدولة كبيرة ، وأصبحت عاصمة لولاية ، تابعة لعاصمة الدولة العثمانية استانبول ، ولكن بعد أن استقرت الامور للحكم العثمانى ، وبـدأ العثمـانيون تطبيـق سياستهم الادارية واحتفاظهم بمعالم النظام القديم مع احداث التنظيمات التى تناسب سياستهم ، وتغيير الوجوه الحاكمة ، وتطبيق سياستهم الاقصادية ، وكانت سياسهم ازاء عدم فرض أية قيود على الحراك السكـانى بين أجـزاء امبراطورتهم ، فاننا نجد نتيجة لهذه السياسـة أن النشاط بـدأ يعـود الى القاهرة مرة ثانية ، فوفد الى القاهرة المغـاربـة والشـاميـون والحجـازيـون والعراقيون والسودانيون ، والتكارنة والاربيون ، حتى أن الوثائق تشير الى امتداد العمران الى ظاهر أسوار القاهـرة (1) وأصبحـت القاهـرة مـركـزا رئيسيا ومحورا هاما للتجارة العالمية ونشطت الحركة فيها نشاطا كبيـرا ، وتكونت فئات اجتماعية مختلفة ، وسادت بين هذه الفئات علاقات اجتماعية مختلفة ، وأصبحت الحياة الاجتماعية داخل المدينة ذات سمـة خاصة ، هذا فضلا عن أن المدينة مرت بأحداث كثيرة مثل انتشار الامراض ، وعدم فيض النيل كان لها تأثيرها الكبير على الحياة الاجتماعية داخل المدينة ، ويجب أن ندرس بادىء ذى بدء التكوين الاجتماعى لمجتمع القاهرة ، وقد كان هذا المجتمع يتكون من :

أولا : الفئـة الحـاكمـة :

كانت هذه الفئة أقلية تشكل ارستقراطية حاكمة ، تتوزع المناصب الادارية والاشرافية على أحوال القاهرة فيما بينها ، سواء أكانت تركية أو مملـوكية

---

(1) هناك آلاف الوثائق في سجلات المحاكم الشرعية التي تشير الى انشاء مباني وقهاوي خارج أسوار القاهرة وتذكر عبارة « خارج القاهرة » « ظاهر القاهرة » .

طابعها فى غالب الاحيان الاستعلاء والصلف (2) ، وقد كان هناك تمييز بين أبناء هذه الفئة على أساس المكانة الاجتماعية من ناحية ، والمركز الذى يشغله الفرد منها من ناحية أخرى ، ولكن الشىء الواضح الذى كان يميزها جميعها عن أفراد المجتمع عموما ، هو أنها عاشت « طبقة متميزة منفصلة عن سائر طبقات المجتمع سواء فى الظواهر السلوكية ، أو فى احتلالها مراكز القيادة فى الادارة والجيش ، أو فى مكانة أفرادها ، أو فى لغة التعبير ، وأسلوب التفكير ، كما تميزت بمستوى اقتصادى مرتفع الامر الذى ينعكس على جوانب حياتهم ، أو تفصح عنه أزياؤهم ، وتدل عليه قصورهم وحاشيتهم (3) ، وأصبح أفرادها ينعتون دائما بأعيان البلاد ، وأكابرها ، وأمراؤهم ، وأصحاب الحل والربط ، أى أصحاب القول الفصل فى أمور البلاد (4) .

وكان على رأس هذه الفئة المتميزة الباشا أى الوالى العثمانى ، وهو صاحب السلطة العليا فى البلاد ، تمكنه من القيام بدور مؤثر فى البلاد ، ولكن تزايد سلطة الجند أضعف من سلطة الباشا ، حتى أن بعضهم ــ منذ الثلث الاخير من القرن السادس ــ قتل ، فمثلا نجد أن محمود باشا قتل على يد جند السباهية فى 20 جماد الثانى 974 هـ / 2 يناير 1567 م ، تضم أويس باشا وهو فى الديوان فى2شوال 997 هـ / 4 أغسطس 1589 م ، ورغم قسوة بعض هؤلاء الباشوات وظلمهم للسكان المحليين ، فأنهم وقفوا عاجزين ازاء فتن الجند ، وانعكس أثر ذلك على الرعايا من أبناء الشعب المصرى (5) ، والجاليات الاخرى التى عاشت فى القاهرة فى ذلك العصر ، ثم كان ازدياد نفوذ الامراء المماليك الذى شل سلطة الوالى وتمكن هؤلاء الامراء من احتواء الاوجاقات التى أصبح نفوذ الامراء عليها أقوى من نفوذ الباشا ، كما أن الامراء منذ منتصف القرن السابع عشر أصبحوا لا يأبهون بالفرمانات العثمانية (6) ، وازداد الصراع بين بيوت المماليك حول الاستحواذ على المناصب الادارية العليا ، والسيطرة على معظم الادارات المالية مثل ادارات الجمارك ، والتزام الاراضى الزراعية ، فقد اتضح لنا من سجلات الالتزام سواء الخاصة بالاراضى الزراعية، أم بالمقاطعات الاخرى ، أن معظم الملتزمين من عناصر مملوكة ، حتى الملتزمين

(2) عبد الغني ، احمد شلبي ، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشاوات ، تحقيق دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، التقديم ، ص 13 .

(3) أبوزيد حكمت ، « المجتمع القاهري على عهد الحملة الفرنسية كما صوره الجبرتي » بحث منشور ضمن ابحاث ندوة عبد الرحمن الجبرتي وعصره ، التي أقامتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية 16 — 23 أبريل 1974 م ، ص 344 .

(4) عبد الغني ، احمد شلبي ، المصدر السابق ، ص 14 .

(5) نفسه ، ص 115 ، ص 122 .

(6) العوفي ، ابراهيم بن أبي بكر ، تراجم الصواعق في واقعة الصناجق ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة .

المنتمين الى الاوجاقات العسكرية ، كانوا من العناصر المملوكية (7) ، حيث أصبح المماليك ينتمون الى الاوجاقات العسكرية للانتفاع بالمميزات المادية والادبية التى كانت ممنوحة لرجال الاوجاقات ، التى أصبح الانتماء اليها سهلا ميسورا ، مما يوحي بأن الادارة العثمانية أصبحت اسما أكثر منها واقعا ، وأصبح الباشوات العثمانيون عرضة للعزل والمحاسبة والسجن من جانب الامراء المماليك ، وأصبحت الدولة العثمانية تستجيب بسهولة ويسر لطلبات هؤلاء الامراء لعزل ولاتها وتولية غيرهم ، وأصبح الامراء المماليك يعقدون اجتماعات خاصة بهم عرفت باسم « الجمعية » لمناقشة الامور التى يريدون انفاذها ، أو ابطالها ، أو مناقشتها ، وأصبح للقرارات التى يصدرونها تأثير كبير فى ادارة البلاد ، وبوصول النفوذ المملوكى الى هذه الدرجة من السلطة ، دخلت البيوت المملوكية منذ منتصف القرن السابع عشر ، والى نهاية القرن الثامن عشر فى صراع مرير فيما بينها من أجل الاستحواذ على السلطة والمناصب الادارية والاشرافية الكبرى (8) ، وكان لهذا الصراع أثره الكبير على مجتمع القاهرة ، والعلاقات الاجتماعية فيها .

ولكن يجب أن نذكر أن هناك بعض الباشوات الذين كانت لهم بعض الاعمال ذات النفع لسكان القاهرة ، فقد واجهوا الغلاء والازمات كما اهتموا بالقاهرة كمدينة ومحاولة اصلاح شوارعها اكثر من اهتمام الاهالى أنفسهم ، فقد أمر محمد باشا ، قول قران 1607 ـ 1611 م ، بازالة النتوءات التى برزت فى شوارع القاهرة وتنظيفها ، وتراكم القاذورات من الشوارع التى أدت الى مشاكل كثيرة (9) ، ومنهم من عمل على اصلاح أحوال الرعية (10) ومنهم من « كان حاكما عادلا صالحا ، محبا للفقراء ، والعلماء محسنا لهم » مثل علي باشا الذى ولى أمر مصر فى الفترة من 10 شوال 956 ـ 25 محرم 961 هـ . / 1 نوفمبر 1549 ـ 31 ديسمبر 1553 م. وعموما فان الباحث فى تاريخ مصر فى العصر العثمانى ، يجد هؤلاء الولاة نوعين لا ثالث لهما ، اما شرير غير عادل ، لا تهمه مصلحة الرعايا ، أو عادل خير تهمه مصلحة الرعايا فى المرتبة الاولى (11) . ويعمل على تنظيم أحوال القاهرة ، وأحوال السكان ومرافق القاهرة عموما ،

---

(7) عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصري في القرن الثامن عشر ، ص 87 — 91 .
(8) عبد الغني ، أحمد شلبي ، المصدر السابق ، ص 6 .
(9) البكري الصديقي ، محمد بن أبي السرور ، كشف الكربة في رفع الطلبة ، تحقيق عبد الرحمن عبد الرحيم ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد الثالث والعشرون 1976 م ، ص 373 — 374 حيث ذكر « برز أمر مولانا الوزير نصره الله تعالى ، باجهار النداء في شوارع مصر (القاهرة) بقطع ما علا من الأرض بالقصبة ، وتحت الحوانيت على العادة ، وشرعوا في ذلك » .
(10) عبد الغني ، أحمد شلبي ، المصدر السابق ، ص 105 .
(11) نفسه ، ص 111 .

ومراقبة الاسعار ، ويأمر بعدم ارتفاع الاسعار مهما حدث من أزمات ، وآخر ينشىء « الحمام الذى بسوق السلاح والدكاكين » (12) وهكذا .

أما الاجهزة التى كانت تحت سلطة الادارة العليا والخاصة بالقاهرة فأننا نجدها ثلاثة هى وجاق الانكشارية (وجاق المستحفظان) ، وكان يقوم هذا الوجاق بدور الشرطة فى كل الشؤون التى لا تخضع لسلطة المحتسب ، وكانت سلطة هذا الوجاق تشمل الحراسة من أعمال اللصوص ، وتقاوم كل أنواع الفساد ، وفى وقت الازمات يحوز أغا هذا الوجاق سلطة مطلقة ، وقد بدت سلطة هذا فى كثير من الاحيان سلطة استبدادية (13) .

والجهاز الثانى هو جهاز والى القاهرة ، أى الصوباشى ، وسلطته محصورة داخل القاهرة وكانت مهام الصوباشى التأكد من أن حراسة احياء المدينة مؤمنة ، ويعمل على أن يسودها النظام ، وكان يقوم ببعض الجولات الليلية ، وكان يقوم بمعاقبة المخالفين بالغرامات و بعقوبات شديدة ، وكان عليه ان يراقب تنظيف ترعة القاهرة وغيرها من أنواع الحراسات (14) .

وثالثها المحتسب والجهاز الادارى الذى يخضع له ، وقد كان اختصاص المحتسب الرئيسى هو مراقبة الاسواق والحركة الدؤوب فيها وبخاصة عمليات الموازين والمكاييل والمقاييس ، والاسعار السائدة وعدم رفعها ، وكان يصحبه فى جولاته جهاز متخصص لكشف الغش والزيف فى هذه الامور ، واستطاع المحتسب فى جولاته العديدة من ضبط كثير من هذه الحالات ، وعمل على ضبط السوق المصرى لتأدية خدماتها المتعددة لسكان القاهرة (15) .

ونأتى أخيرا الى جهاز القضاء الذى كان يقوم آنذاك بمهام عديدة ويسجل أحكامه التى كانت تعبر عن حياة الشارع المصرى ، فى سجلات خاصة ، وليس من مهمتنا هنا أن ندرس القضاء ونظامه (16) ، وانما نسجل ان القضاء كهيئة حاكمة استطاع أن يقدم كثيرا من الخدمات الاجتماعية لسكان القاهرة (17) .

---

(12) نفسه ، ص 114 .

(13) أحمد : ليلى عبد اللطيف ، الإدارة في مصر في العصر العثماني ، ص 191 — 195 ، ص 229 — 232 ، ريمون ، أندريه ، فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية ، ترجمة زهير الشايب ، ص 31 — 34 .

(14) أحمد ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص 233 ، 235 ، ريمون ، أندريه ، المرجع السابق ، ص 34 — 35 .

(15) أحمد ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص 235 — 238 ، ريمون ، أندريه ، المرجع السابق ، ص 32 — 38 .

(16) لمزيد من التفصيل عن القضاء أنظر ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، القضاء في مصر العثمانية 1517 — 1798 م ، بحث منشور في كتاب « بحوث في التاريخ الحديث » جامعة عين شمس 1976 م ، ص 171 — 178 .

(17) نفسه .

وعموما فان الفئة الحاكمة ، رغم أنها كانت تشكل فئة متميزة بمختلف تشكيلاتها فانها عملت طبقا لامكانياتها على توفير الامن والطمأنينة لسكان القاهرة ، ورعاية شؤونهم والعمل على مقاومة أى شىء يضير بأحوال السكان، ومحاولة تنظيم العلاقات والمعاملات فيما بينهم ، والتى تمس مختلف شؤون الحياة ، ومع ذلك فان العلاقات لم تكن دوما على ما يرام بينهم وبين سكان القاهرة الذين كانوا يرفضون كثيرا من تصرفات أفراد الهيئة الحاكمة .

ثانيا : فئة التجار :

بدأت السوق القاهرية ، تشهد نشاطا متزايدا لهذه الفئة ، مع بدايات النصف الثانى للقرن السادس عشر ، وبدأت القاهرة تشهد نوعان من المشتغلين فى العمل التجارى هما : فئة أعيان التجار ، وفئة الشركاء فى العمل التجارى ، وظهرت فى القاهرة ، فى العصر العثمانى ، بعض الاسواق والسويقات الجديدة ، بجانب ازدهار الاسواق القديمة التى كانت قائمة فى العصر المملوكى ، كما اشتهر كثير من الوكالات التى كانت بمثابة مؤسسات تجارية كبيرة ، وبخاصة للسلع الخارجية (18) ، ومن أشهر الاسواق الكبيرة التى تذكرها الوثائق بأنها عامرة بالتجارة هى :

سوق طولون (19) ، سوق أمير الجيوش (20) ، سوق باب اللوق السعيد (21) ، سوق الفحامين (22) ، سوق الجملون (23) ، سوق خان الخليلى (24) ، سوق الهمرامزة (25) ، سوق الباسطية (26) ، سوق

---

(18) لمزيد من التفصيل : انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن ، نشوء الرأسمالية المصرية خلال العصر العثماني 1517 — 1798 م ، وأثرها على الحياة الاقتصادية من خلال وثائق المحاكم الشرعية .

(19) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (4446) ، ص 15 ، مادة (112) بتاريخ 12 رمضان 963 هـ / 9 يولية 1557 م .

(20) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (446) ، ص 79 ، مادة (186) ، بتاريخ 18 رمضان 964 هـ 15 يولية 1557 م .

(21) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : محكمة البرمشية ، سجل (705) ، ص 142 ، مادة (531) ، بتاريخ 5 رمضان 977 هـ / 11 فبراير 1570 .

(22) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (446) ، ص 153 ، مادة 372) ، بتاريخ 4 شوال 964 هـ / يولية 1557 م .

(23) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (445) . ص (391) ، مادة (957) ، بتاريخ 15 جمادي الثاني 964 هـ / 15 أبريل 1557 م .

(24) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : نفس السجل ، ص 395 ، مادة (1996) ، بتاريخ 18 جمادي الثاني 964 هـ / 18 أبريل 1557 م .

(25) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (446) ، ص 194 ، مادة (490) ، بتاريخ 11 شوال 964 هـ / 7 يولية 1557 م .

(26) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : نفس المحكمة ، سجل (445) ، ص 372 ، مادة (939) ، بتاريخ 12 جماد الثاني 964 هـ / 7 يولية 1557 م .

البابلي (27) ، سوق خط الجامع الازهر (28) ، سوق الشرب (29) ، سوق الغورية (30) ، سوق الوراقين (31) ، سوق الدجاجين (32) ، سوق الصاغة (33) ، سوق العطارين (34) ، سوق الغزل (35) ، سوق السلاح (36) ، سوق البقر (37) ، سوق القمح (38) ، سوق الرقيق (39) ، سوق الرميلة (40) ، سوق سفل الربع (41) ، وقد وجدت داخل هذه الاسواق الكبيرة ، أسواق صغيرة متخصصة فى بيع سلع بذاتها مثل « سوق الاحرمة ، داخل سوق طولون » (42) ، وسوق النحاس ، بخط بين

(27) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : نفس المحكمة ، نفس السجل ، ص 402 ، مادة (1019) ، بتاريخ 18 جماد الثاني 964 هـ / 18 أبريل 1557 م .

(28) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : نفس السجل ، ص 322 ، مادة (1073) ، بتاريخ 23 جماد الثاني 964 هـ / 22 أبريل 1557 .

(29) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : نفس السجل ، ص 412 ، مادة (1046) ، بتاريخ 22 جمادي الثاني 964 هـ / 22 أبريل 1557 م .

(30) عبد الرحيم ، عبد الرحمن ، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، ص 401 .

(31) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (446) ، ص 260 ، مادة (683) بتاريخ . 20 شوال 964 هـ / أغسطس 1557 م .

(32) أرشيف الشهر العقاري : نفس السجل ، ص 370 ، مادة (1435) ، بتاريخ 7 جماد الثاني 987 هـ / 1 أغسطس 1579 م .

(33) أرشيف الشهر العقاري : السجل (449) ، ص 188 ، مادة (534) بتاريخ 21 جماد الثاني 971 هـ / 5 فبراير 1564 م .

(34) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (460) ، ص 262 ، مادة (1024) . بتاريخ 9 جماد أول 987 هـ / 4 يولية 1579 م .

(35) أرشيف الشهر العقاري : سجل (449) ، ص (250) ، مادة (688) بتاريخ 6 رجب 971 هـ / 19 فبراير 1564 م .

(36) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العربية ، سجل (5) ، ص 114 ، مادة (190) بتاريخ 19 جماد الثاني 980 هـ / 4 سبتمبر 1577 م .

(37) أرشيف الشهر العقاري : محكمة باب الشعرية ، سجل (596) ، ص 384 ، مادة (1442) ، بتاريخ 15 شعبان 1004 هـ / 13 أبريل 1596 م .

(38) أرشيف الشهر العقاري : نفس السجل . ص 4 ، مادة (7) ، بتاريخ 16 رمضان 1003 هـ / 25 مايو 1595 .

(39) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العربية ، سجل (21) ، ص 1 ، مادة (3) ، بتاريخ 20 ربيع الأول 1025 هـ 8 أبريل 1616 م .

(40) أرشيف الشهر العقاري : نفس السجل ، ص 40 ، مادة (38) ، بتاريخ 10 ربيع الثاني 1025 هـ / 27 أبريل 1616 م .

(41) أرشيف الشهر العقاري : نفس السجل ، ص 41 ، مادة (41) ، بتاريخ 4 ربيع الثاني 1025 هـ / 11 أبريل 1616 م .

(42) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل 175 ، ص 194 ، مادة (270) .

القصرين (43) ، وسوق القماش النابلسى ، داخل سوق خان الخليلى (44) ، وسوق القماش ، داخل سوق باب اللوق السعيد (45) .

أما السويقات ، وهى تصغير لكلمة سوق ، فمن أشهرها : سويقة الحمام (46) ، سويقة أبى الوفا (47) ، سويقة المظفرى (48) ، سويقة السباعين (49) ، سويقة الفسقية (50) ، سويقة الخلافة (51) .

وأصبحت الاسواق بمثابة منظمات تجارية لها ادارتها الخاصة ، والمسؤولة عنها أمام السلطة المسؤولة عن ادارة القاهرة ، فكان لكل سوق شيخ مسؤول عن ادارته ، له وكيل ينوب عنه ساعة غيابه ، وكذلك كاتب يسجل كل ما يأمره به الشيخ أو الوكيل ويقوم بجمع الاعانات التى تقرر على تجار السوق ، وكانت هذه الادارة الخاصة بالسوق مسؤولة عن انتظام العمل داخل السوق ، والمحافظة على شرف مهنة العمل التجارى ، وعدم حدوث غش أو تدليس ، وكان كل من شيخ السوق ووكيله من التجار فى السوق وكانا يختاران من جانب تجار السوق لحظوتهم بالاحترام من جانب زملائهما (52) .

وقد بدأ الازدهار يعود لاسواق القاهرة فى البداية على أساس ظهور نظام المشاركة الى جانب بعض الاسر التجارية ، ووثائق المحاكم الشرعية تفيض بذكر عقود الشركات المساهمة فعلى سبيل المثال نجد أن الحاج أبو سعيد بن الحاج عبد السلام بن يعقوب المغربى يقيم شركة بالاشتراك مع أمغار المغربى

(43) أرشيف الشهر العقاري : سجل (5) ، ص 12 ، مادة (35) ، بتاريخ 11 رجب 970 هـ / 2 مارس 1563 م .

(44) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (449) . ص 134 مادة (372) ، بتاريخ 24 جماد أول 971 هـ / 9 يناير 1564 م .

(45) أرشيف الشهر العقاري : محكمة البرمشية ، سجل (5 ، مادة (2209) ، بتاريخ 19 رمضان 978 هـ / 14 فبراير 1571 م .

(46) أرشيف الشهر العقاري : محكمة باب البرمشية ، سجل (599) ، ص 541 ، مادة (2209) ، بتاريخ 19 رمضان 978 هـ / 10 سبتمبر 1590 م .

(47) أرشيف الشهر العقاري : نفس السجل ، ص 329 ، مادة (1234) ، بتاريخ 3 صفر 999 هـ / 1 ديسمبر 1590 م .

(48) أرشيف الشهر العقاري : سجل (595) ، ص 687 ، مادة (2596) ، بتاريخ 18 شعبان 1003 هـ / 28 أبريل 1595 م .

(49) أرشيف الشهر العقاري : محكمة البرمشية ، سجل (707) ، ص 232 ، ماد (1448) بتاريخ 14 محرم 994 هـ / 5 يناير 1586 م .

(50) أرشيف الشهر العقاري : سجل (708) ، ص 110 ، مادة (535) .

(51) أرشيف الشهر العقاري : محكمة طولون ، سجل (170) ، ص 90 ، مادة (349) ، بتاريخ 21 صفر 970 هـ / 19 أكتوبر 1562 م .

(52) عبد الرحيم عبد الرحمن : نشوء الرأسمالية ...

الجربى التاجر بسوق جامع طولون (53) ، وكذلك نجد عقد شركة بين الحاج سعيد ابن امغار وبين الحاج عبد العزيز يحيى بن عمر المغربى الجربى (54) ، وعقد شركة مساهمة بين الحاج محمد بن الحاج أحمد المغربى الطرابلسى ، وبين الحاج أحمد بن عبد النور (55) ، وكذلك عقد تأمين شركة مساهمة بين محمد بن محمد بن مسعود المغربى الاندلسى وولد أخيه أحمد بن علي بن أحمد (56) وعقد تأسيس شركة مساهمة بين عبد الحميد بن منصور بن عبد الحميد ، وبين عبد النبى بن يونس على الطحان (57) ، وشركة مساهمة بين الحاج يحيى بن عمر شيخ التجار بسوق طولون والخواجا علي بن الشرفى عيسى (58) ، وعقد شركة بين زين الدين أبو بكر والخواجا سالم بن سعيد (59) ، وشركة مساهمة بين الشيخ شمس الدين بن محمد بن قاسم والمعلم علي بن محمد بن أحمد والمعلم أبو النصر ابن أبو النصر بن محمد لتصنيع وتجارة النحاس (60) .

كذلك شاع نظام المتاجرةلحساب الغير ونظير نسبة معينة من الربح ، فقد تسلم الحاج محمد الشهير بأزكين بن الحاج أحمد بن محمد المغربى البازقى ، كمية من السلع المختلفة من المعلم سليمان بن خميس بن مردفاى اليهودى الربان، ليبيع ذلك ببلاد التكرور بالذهب التبر ويحضر ذلك له بالقاهرة (61).

وقد شهدت أسواق القاهرة فى نفس الوقت فئة أعيان التجار أو كبارهم الذين أخذت اعدادهم تتزايد بصورة كبيرة ، واشتهرت أسر تجارية بضخامة

---

(53) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (11) ، ص 638 ، مادة (635) ، بتاريخ 5 شعبان 1004 هـ / 4 أبريل 1596 م .

(54) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (445) ، ص 405 ، مادة (1027) ، بتاريخ 18 جماد الثاني 924 هـ / 18 أبريل 1557 م .

(55) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (446) ، ص 152 ، مادة (368) ، بتاريخ 3 شوال 964 هـ / 20 يونية 107 م .

(56) أرشيف الشهر العقاري : سجل (460) ، ص 294 ، مادة (1155) بتاريخ 16 ربيع الأول 987 هـ / 13 مايو 1579 م .

(57) أرشيف محكمة طولون ، سجل (170) ، ص90 ، مادة (349) ، بتاريخ 21 صفر 970 هـ / 19 أكتوبر 1572 م .

(58) أرشيف محكمة طولون : سجل (188) ، ص 160 ، مادة (1977) بتاريخ 999 هـ / 9 مايو 1591 هـ .

(59) أرشيف محكمة طولون : نفس السجل ، ص 259 ، مادة (801) بتاريخ 11 ذي القعدة 1008 هـ / 24 مايو 1600 م .

(60) أرشيف محكمة طولون : محكمة الصالح ، سجل (319) ، ص 40 ، مادة (180) بتاريخ 20 رجب 1007 هـ / 17 فبراير 1599 م .

(61) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (446) ، ص 88 ، مادة (209) . بتاريخ 20 رمضان 964 هـ / 17 يولية 1557 م .

حجم ثرواتهم التى استطاعوا أن يوظفوا جزءا منها فى بعض المجالات الاخرى مثل امتلاك العقارات ، واسقاط الالتزامات ، ومن أشهر هذه الاسر أسرة الدادة الشرايبى (62) وأسرة الرويعى المصرية الرشيدية (63) . وقد استطاعت هذه الفئة من أعيان التجار أن تكون لنفسها مكانة اجتماعية وان تكون لها علاقات اجتماعية واسعة وان تكون ذات نفوذ واسع ، وانتمى معظمها الى الاوجاقات من باب الوجاهة الادبية (64) ، وكونت لنفسها باعمال الخير مكانة اجتماعية متميزة بين الفئات الاجتماعية الاخرى (65) .

وكانت هذه الفئة تكون وحدة متماسكة فيما بينها ، وكانت جميع منازعاتها تحل فى اطارها ، حيث وجد منصب « شاه بندر التجار » اى كبير التجار ، ويبدو لنا من وثائق المحاكم الشرعية ، ان صاحب هذا المنصب ، كان يتقلده بناء على اختيار التجار له ، ولا بد من ان الذى يختار لشغل هـذا المنصب الفخري ان يكون حسن السيرة ، طيب السمعة ، مشهود له بالعفة والنزاهة ، وكانت مهمته ان يلجأ اليه التجار لحل منازعاتهم ، وبخاصة فئة كبار التجار ، ويتضح لنا من الوثائق المذكورة ، ان كل من تولوا هذا المنصب كانت تتوفر فيهم هذه الصفات واستطاعوا ان يقوموا بدور بارز فى حل مشاكل التجارة والتجار وان يشرفوا بحكمة على السوق المصرية ، وان تكون كلمتهم مسموعة فى حل كثير من الازمات التى حلت بأسواق القاهرة (66) .

---

(62) أرشيف الشهر العقاري ، محكمة القسمة العسكرية ، سجل (165) ص 182 ، مادة (282 ، سجل (152) ، ص 241 ، ص (241 – 243) ، مادة (402) بتاريخ 15 محرم 1156 هـ / 11 مارس 1743 م . سجل (190) ، ص 91 ، مادة (322) ، بتاريخ 10 جماد الثاني 1120 هـ / 27 أغسطس 1708 م ، ص 92 ، مادة (323) ، بتاريخ 10 جماد الثاني 1120 هـ / 127 غسطس 1708 .

أرشيف الشهر العقاري ، سجلات اسقاط القرى (1) ، (2) .

عبد الرحيم عبد الرحمن ، المغاربة في مصر العصر العثماني (1517 – 1798 م) ، دراسة في تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية .

الجبرتي ، عبد الرحمن بن حسن ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار جا ، ص 87 – 88 ، ج2 ، ص 213 .

عبد الغني ، أحمد شلبي ، المصدر السابق ، ص 443 .

(63) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (473) ، ص 276 ، مادة (1102) ، بتاريخ 24 صفر 1005 هـ / 17 أكتوبر 1096 م ، ص 419 ، مادة (1637) بتاريخ 5 جمادي الثاني 1005 هـ / 24 يناير 1597 م ، ص 420 مادة (1632) بتاريخ 23 جماد الثاني 1005 هـ / 11 فبراير 1597 م .

أرشيف الشهر العقاري : سجل (476) ، ص 111 ، مادة (456) بتاريخ 7 ربيع الأول 1009 هـ / 16 سبتمبر 1600 م .

(64) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص 53 – 55 .

(65) نفسه ، ص 69 .

(66) نفسه ، ص 86 – 89 .

ثالثا : الطوائف :

كان مجتمع القاهرة مكونا من عدد كبير من الطوائف المهنية والحرفية ، وكان لكل طائفة شيخ ونقيب وكان الشيخ يختار من قبل أبناء الطائفة ، ليكون ممثلا لهم أمام الحكومة ، واختيار الشيخ كان مشروطا بشروط أبناء الطائفة وأهم هذه الشروط « ألا يحدث عليهم مظلمة » أى لا يفرض عليهم اية ضرائب أو عادات غير الضرائب والعادات المقررة ، « والا يدخل أحدا فى سلك الطائفة من غير أبنائها ، (67) وأما نقيب الطائفة فهو من ابناء الطائفة ولكنه صاحب طريقة صوفية ، ومن الامور التى يجب الاشارة اليها ، ان افراد المجتمع جميعهم ، كانوا منخرطين فى نظام الطوائف ومن أهم الطوائف التى شهدها مجتمع القاهرة في العصر العثماني : طايفة الصيارفة (68) ، طايفة الحباكة (69) ، طايفة الرختوانية بسوق القماش (70) ، طايفة المبيضين فى العقارات (71) ، طايفة المغربلين (72) ، طايفة الصاغة (73) ، طايفة الحريرية (74) ، طايفة القزازين (75) ، طايفة القمصنجية (76) ، طايفة القهوجية (77) ، طايفة النقاشين (78) ، طايفة القبانية (79) ، طايفة

---

(67) أرشيف الشهر العقاري ، محكمة طولون ، سجل (219) ، ص (232 — 233) ، مادة (558) بتاريخ 25 جماد الأول 1138 هـ .

أرشيف الشهر العقاري : محكمة الباب العالي ، سجل (90) ، ص 154 ، مادة (745) بتاريخ 3 رجب سنة 1017 هـ / 13 أكتوبر 1608 م .

(68) أرشيف الشهر العقاري : محكمة طولون . سجل (204) ، ص 480 ، مادة (1908 . بتاريخ 19 شوال 1073 هـ / 27 مايو 1663 م .

(69) أرشيف الشهر العقاري : محكمة طولون : سجل (219) ، ص 250 ،

(70) أرشيف الشهر العقاري : محكمة طولون : سجل (219) ، ص 273 ، مادة (652) ، بتاريخ 10 رجب 1138 هـ / 13 مارس 1726 م .

(71) أرشيف الشهر العقاري : سجل (219) ، ص 312 ، مادة (746) بتاريخ 2 القعدة 1138 هـ / 2 يوليو 1726 .

(72) أرشيف الشهر العقاري ، سجل (219) ، ص 468 ، مادة (1126 ، بتاريخ غرة رجب 1139 هـ / 22 فبراير 1727 م .

(73) أرشيف الشهر العقاري : سجل (204) ، ص 242 — 243) . مادة (987) .

(74) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالح : سجل (346) ، ص 43 ، مادة (115) .

(75) أرشيف الشهر العقاري : سجل (346) ، ص 146 ، مادة (846) .

(76) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالحية النجمية ، سجل ((525) ص 669 ، مادة (1076) .

(77) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (110) ، ص 346 ، مادة (359) بتاريخ 18 شعبان 1129 هـ / 28 يوليو 1717 م .

(78) أرشيف الشهر العقاري محكمة الصالحية النجمية (525) ، ص 307 مادة (604) بتاريخ 15 ربيع الثاني 1177 هـ / 123 أكتوبر 1763 م .

(79) أرشيف الشهر العقاري : سجل (525) ، ص 414 ، مادة (614) بتاريخ 15 ربيع الثاني 1177 هـ / 18 أكتوبر سنة 1763 م .

السقايين (81) ، طايفة الحلوانية (81) ، طايفة الخبازين (82) ، طايفة التتالين (83) ، طايفة المخللاتية (84) ، طايفة المدابغية (85) ، طايفة النحاسين (86) ، طايفة القبانين (87) ، طايفة السماسرة (88) ، طايفة الحفارين (89) ، طايفة الدلالين (90) ، طايفة الصباغين (91) ، طايفة الصبانين (92) ، طايفة الحمامية (93) ، طايفة الخراطين (94) ، طايفة الخياطين (95) ، طايفة الصحافيين (96) ، طايفة المعصرانية (97) ، طايفة

---

(80) الجبرتي ، عبد الرحمن بن حسن ، المصدر السابق ، جـ 1 ، ص

(81) أرشيف الشهر العقاري ، محكمة الصالحية النجمية ، سجل (525) ، ص 484 ، مادة (735) بتاريخ 23 جماد اول 1177 هـ / 29 نوفمبر 1763 م .

(82) الجبرتي ، عبد الرحمن بن حسن ، جـ 1 ، ص .

(83) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العربية ، سجل (8) ، ص 249 ، مادة (557) بتاريخ 7 صفر 968 هـ / 25 أكتوبر سنة 1560 م .

(84) أرشيف الشهر العقاري ، محكمة القسمة العربية ، سجل (8) ، ص 308 ، مادة (604) بتاريخ 968 هـ / 12 جماد أول 29 يناير 1561 م .

(85) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العربية ، سجل (122) ، ص 196 مادة (404) بتاريخ 28 ربيع الثاني 1183 هـ 31 أغسطس 1769 م .

(86) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العربية ، سجل (122) ، ص 232 مادة (514) بتاريخ 6 رجب 1183 هـ / 5 نوفمبر 1769 م .

(87) أرشيف الشهر العقاري : سجل (10) ، ص 31 ، مادة (42) بتاريخ 12 شوال 1002 هـ / 1 يولية 1594 م .

(88) أرشيف الشهر العقاري : سجل (5) ، ص 1 ، مادة (1) بتاريخ 16 ربيع الثاني 985 هـ / 30 يولية 1577 م .

(89) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (473) ، مادة (418) بتاريخ 8 شعبان 1004 هـ / 7 أبريل 1596 م .

(90) أرشيف الشهر العقاري : محكمة طولون : سجل (204) بتاريخ 12 القعدة 1072 هـ / 29 يونية 1662 م .

(91) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الباب العالي ، سجل (90) ، ص 172 ، مادة (848) بتاريخ 11 رجب 1017 هـ / 21 أكتوبر 1608 م .

(92) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العربية ، سجل (15) ، ص 25 ، مادة (57) بتاريخ 6 القعدة 1009 هـ 9 مايو 1601 م .

(93) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالحية النجمية : سجل (525) ، ص 510 ، مادة (791) بتاريخ 22 جماد آخر 1177 هـ / 28 ديسمبر 1863 م .

(94) سجل (181) ، ص 42 ، مادة (167) بتاريخ 13 محرم 994 هـ / 11 نوفمبر 1590 م.

(95) أرشيف الشهر العقاري : محكمة طولون ، سجل (204) ، ص 424) ، مادة (1783) بتاريخ 12 رجب 1073 هـ / 21 فبراير 1663 م) .

(96) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية : سجل (175) ، ص 202 مادة (282) ، بتاريخ 22 جمادي الثاني 1177 هـ / 28 ديسمبر 1763 م .

(97) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (179) ، ص 205 ، مادة (286) ، بتاريخ 22 جمادي الثاني 1177 هـ / 28 ديسمبر 1763 م .

الخصاصة (98) ، طايفة العطارين (99) ، طايفة المناخلية (100) ، طايفة القطانين (101) ، طايفة الحمارة (102) ، طايفة السروجية (103) ، طايفة الكتبة (104) ، طايفة الترابسين (105) ، طايفة الفوالة (106) ، طايفة الطحانين (107) ، طايفة الصوافين (108) ، طايفة الشحاتين (109) ، طايفة النجارين (110) ، طايفة الحدادين (111) ، طايفة المجلدين (112) ، طايفة الخراطيين (113) ، طايفة السمكرية (114) ، طايفة صناع السلاح (115) ،

(98) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (175) ، ص 207 ، مادة (277) ، بتاريخ 29 جمادي الثاني 1177 هـ / 4 يناير 1764 م .

(99) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (175) ، ص 242 ، مادة (342) ، بتاريخ 15 رجب 177 هـ / 19 يناير 1764 م .

(100) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (175) ، ص 263 ، مادة (374) . بتاريخ 2 شعبان 1177 هـ / 5 فبراير 1764 م .

(101) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (175) ، ص 306 ، مادة (427) ، بتاريخ 17 شعبان 1177 هـ / 21 فبراير 1764 م .

(102) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (175) ، ص 318 ، مادة (445) بتاريخ 13 1177 هـ / 16 فبراير 1764 م .

(103) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (175) ، ص 329 ، مادة (458) ، بتاريخ 14 شعبان 1177 هـ / 17 فبراير 1764 هـ / .

(104) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (145) ، ص 40 ، مادة (36) بتاريخ 8 جماد الثاني 1150 هـ / 3 أكتوبر 1737 م .

(105) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (172) ، ص 60 ، مادة (92) ، بتاريخ 5 ربيع الأول 1175 هـ / 4 أكتوبر 1761 م .

(106) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (101) ، ص 171 ، مادة (318) بتاريخ 15 شوال 1121 هـ / 16 ديسمبر 1709 .

(107) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الزاهد ، سجل (684) ، ص 56 ، مادة (131) بتاريخ 16 شعبان 112 هـ / 26 يناير 1701 م .

(108) أرشيف الشهر العقاري : محكمة طولون ، سجل (201) ، ص 30 ، مادة (93) .

(109) الجبرتي : عبد الرحمن بن حسن ، المصدر السابق ، جـ 1 ، ص 105 .

(110) نفسه ، جـ 1 ، ص 397 .

(111) نفسه ، جـ 1 ، ص 397 .

(112) الجبرتي ، عبد الرحمن بن حسن ، المصدر السابق ، جـ 1 ، ص 397 .

(113) نفسه ، جـ 1 ، ص 397 .

(114) نفسه ، جـ 1 ، ص 397 .

(115) أرشيف الشهر العقاري . محكمة الزاهد ، سجل (684) ، ص 72 بتاريخ 9 القعدة 1112هـ / 16 أبريل 1701 .

طايفة الكيالين (116) ، طايفة الدخاخنية (117) ، طايفة البيـاطرة (118) ، طايفة الترابية (119) .

وقد مثلت الطوائف غالبية سكان القاهرة ، وكانت كل طائفة تقفل على نفسها مهنتها التى تخصصت فيها ولا تسمح طبقا لشروط اختيار شيخها ، دخول أحد من غير ابناء طائفتها فيها ، وكانت العلاقات بين ابناء الطائفة تقوم على التعاون والاحترام ، واحترام السلم الطائفى ، وقد ازداد انتماء الطوائف الى الوجاقات للحصول على امتيازات هذه الوجاقات المادية والادبية ، وقد أدركت السلطة خطورة ذلك على خزينة الدولة فأرسلت فى أوائل جماد الاول 1121هـ/ 9 يوليو 1709 م أمرا الى القاضى لينبه على مشايخ الحرف بأن يمنعوا افـراد حرفهم بالانتماء الى الاوجاقات فأرسل « القاضى فأحضـر مشايـخ الحـرف ، وعرفهم انه ورد أمر يتضمن الا يكون لاحد من أرباب الحرف والصنائع علاقة ولا نسبة فى أحد الاوجاقات السبع ، فأجابوه بأن غالبهم عسكـرى مكـرر وابن عسكرى ، وقاموا على غير امتثال ، ثم القاضى أنهم أجمعوا عـلى ايقاع مكروه به ، فخافهم وترك ذلك ، وتغافل عنه ، ولم يذكره بعد » (120) . ولم يقف الامر برجال الطوائف عند هذا الحد ، فقد أصبحوا يتحكمون فى السوق المصرية برفع الاسعار أو خفضها ، ونجد ان المحتسب وآغا القاهرة كثيرا ما قاموا بعمل تسعيرة للسلع المختلفة ، وأعلنوا مشايخ الحرف بها ، ليلتزموا البيع بها ومعاقبة من لم يلتزم بالتسعيرة المحددة ، قام علي آغا مستحفظان بضرب « اثنين قبانية وثلاثة زباتيين وجزار لحم خشن ومـات الستـة من الضرب ، ورسم على شيخ القبانية بأن لا أحد يزن فى بيت زيات سمنا ولا جبنا ، وصار يتفقد الدراهم ، ويحرر الارطال والصنج ويسأل عن اسعـار المبيعات ولا يقبل رشوة ، ومع ذلك فان الطوائف كانت دائمـا تتحكـم فى مسألة الاسعار ، والمسألة الاجتماعية عموما فى القاهرة، ، وكانت لها اعرافها التى تحافظ عليها كل المحافظة ، وكان لها تأثيرها على الحياة الاجتماعية فى القـاهرة (121) .

---

(116) أرشيف الشهر العقـاري ، محكمـة طولون ، سجل (10) ، ص 21 ، مادة (78) بتاريخ 2 شعبان 982 هـ / 17 نوفمبر 1574 م .

(117) أرشيف الشهر العقاري : محكمـة الصالح ، سجل (317) ، ص 148 ، مـادة (560) بتاريخ 22 صفر 1004 هـ / 27 أكتوبر 1595 م .

(118) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالح ، سجل ، (317) ، ص 133 ، مـادة (50) بتاريخ 8 صفر 1004 هـ / 3 أكتوبر 1595 م .

(119) أرشيف الشهر العقاري : محكمـة طولون : سجل (219) ، ص (232 – 233) ، مادة (558) بتاريخ 25 جمـاد أول 1138 هـ / 29 يناير 1726 م .

(120) الجبرتي ، عبد الرحمن بن حسن ، المصدر السابق ، جـ 1 ، ص 37 .

(121) نفسـه ، جـ 1 ، ص 103 ، 104 .

رابعا : العلمــاء وطلبــة الازهــر :

كان علماء الازهر وطلابه ، فئة اجتماعية لها مكانة متميزة ، فالازهر مركز التعليم الاسلامي بمذاهبه المختلفة ، وهو منبع الحياة الفكرية فى مصر ، والمركز الاول فى العالم الاسلامى الذى له مكانة متميزة ، وكانت أروقته تضم طلابا من مختلف العالم الاسلامى ، وكانت السلطات العثمانية والمملوكية تعتــرف لرجال الازهر بمكانتهم ، وتعتبرهم زعامة شعبية يخشى جانبها ، وقد أدرك عامة الناس والتجار والحرفيون هذه المكانة وتلك الزعامة ، فكانوا يلجأون الى الازهر ، كلما اشتد بهم الحال ، فيذكر مصدر معاصر أنه بسبب غش العملة « ضاعت رساميل الخلق ، واشتد الحال على الناس ، وزاد الكرب ، فاجتمــع أهل الاسواق ، ودخلوا الجامع الازهر ، وشكوا أمرهم الى العلمــاء وألزموهم بالركوب الى حضرة الوزير ، فى شأن ذلك الامر ، فــركب الشيــخ محمــد النشرتى ، وركب خلفه جميع العلماء ، وتوجهوا الى الديوان ، وأفهموه على القضية ، وضرورة الناس » (122) فعقد الباشا الديوان ووضع الديوان حــدا لهذه الازمة التى ألمت بأهل القاهرة ، وكان ذلك يوم السبت 4 شوال 1114 هـ./ 21 فبراير 1703 م.

واستمرت معاونة العلماء للعامة واستعمال نفوذهم ، طوال فتــرة القــرن الثامن عشر ، التى اشتعلت بالصراعات المملوكية ، وكثــر تعــدى الامــراء المماليك على أموال وأحياء القاهرة ، ففى ربيع الاول 1200 هـ./يناير 1786 م. ، وقع تعدى من حسين بك على أهل الحسينية فذهب أهل الحسينية « الى الجامع الازهر ومعهم طبول ، والتف عليهم جماعة كثيرة من أوباش العامة والجعيدية وبأيديهم نبابيت ومساوق ، وذهبوا الى الشيخ الدردير ، فونسهم وساعدهم وقال لهم أنا معكم ، فخرجوا من نواحى الجامع ، وقفلوا أبوابه وصعد منهم طائفة على أعلى المنارات ، يصيحون ويضربون بالطبول ، وانتشروا بالاسواق فى حالة منكرة وأغلقوا الحوانيت ، وقال لهم الشيخ الدردير ، فى غد نجمع أهالى الاطراف والحارات وبولاق ، ومصر القديمة ، وأركــب معكــم وننهــب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ، ونموت شهداء ، أو ينصرنا الله عليهم ، فلما كان بعد المغرب حضر سليم آغا مستحفظان ، ومحمد كتخدا أرنؤد الجلفى كتخدا ابراهيم بك وجلسوا فى الغورية ، ثم ذهبوا الى الشيخ الدردير وتكلموا معه من تضاعف الحال ، وقالوا للشيخ اكتب لنا قائمة بالمنهويات ، ونأتى بها من محل ما تكون ، واتفقوا على ذلك ، وقرأوا الفاتحة وانصرفوا » (123) .

هكذا استطاع شيخ من شيوخ الازهر أن يضع لصلف المماليك وطغيانهم واستطاع أن يجبرهم أن يردوا ما نهبه حسين بك ورجــاله مــن أهــل حى الحسينية والامثلة كثير على موقف علماء الازهر فى وجه أى ظلم أو عدوان

(122) عبد الغني ، أحمد شلبي ، ص 208 .
(123) الجبرتي ، عبد الرحمن بن حسن ، جـ2 ، ص 103 .

كان يقع على سكان القاهرة ، وأصبح علماء الازهر خلال العصر العثمانى، القوة التى تمثل الرأى العام ، وتطالب برفع المظالم عنهم ، بطيب قلب وانشراح صدر ، وأصبحت لهم مكانتهم الاجتماعية المتميزة التى يجلها العامة ، ويوقرها الحكام ، وأصبحوا شريحة ذات مكانة من شرائح مجتمع القاهرة .

خامسا : أهـل الـذمـة :

كان النصارى، واليهود، يمثلون شريحة هامة من شرائح أو فئات المجتمع القاهرى ، وكانت هذه الفئة تقتصر نشاطها على أعمال التجارة وبخاصة فى المجوهرات والاعمال المالية ، وبخاصة فى الصيرفة ، وفى معظم حالات غش العملة نجد وراءها الصيارفة اليهود ، وتذكر الوثائق المهن التى كان يشتغل بها اليهود مثل عمليات الاقراض والاشتراك مع آخرين فى معاملات مالية فعلى سبيل المثال كانت هناك معاملة مالية بين المعلم داود بن يعقوب بن يهود الربان اليهودى الشهير بدفتية وبين السيد الشريف أحمد بن الشريف محمد الحسنى ، هو بالخدم العالية (124) ، كما تشير الوثائق الى أن موسى ابن منصور بن موسى اليهودى الربان الشامى ، كان يعمل ملتزما بمقاطعة الخفرا من قبل الديوان العالى (125) ، كما كانوا يتعاملون فى الرهن مثل المعلم ابراهيم بن مسعود الربان الذى كان يتعامل بهذا الاسلوب (126) ، كما اشتغلوا فى الجهاز المالى للحكومة فالمعلم يعقوب بن سعيد بن موشى اليهودى ، كان يعمل صرافا بالديوان العالى (127) ، وكانوا يتعاملون مع كل فئات مجتمع القاهرة فى كل الشؤون المالية عن طريق الصيرفة أو المتاجرة فى المجوهرات (128) ، وكان يشاركهم فى هذه المهن النصارى .

(124) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالح ، سجل (317) ، ص 207 ، ماده (787) بتاريخ 25 صفر 1004 هـ / 30 أكتوبر 1595 م .

(125) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالح ، سجل (315) ، ص 74 ، مادة (231) بتاريخ 5 ربيع الثاني 1000 هـ / 30 يناير 1592 م .

أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العربية ، سجل (8) ، ص 157 ، مادة (356) بتاريخ 13 القعدة 967 هـ / 5 أغسطس 1560 م .

(126) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالح ، سجل (315) ، ص 19 ، مادة (52) بتاريخ 16 صفر 1000 هـ / 1 ديسمبر 1591 م .

(127) أرشيف الشهر العقاري ـ سجل (314) ، ص 209 ، مادة (856) بتاريخ 2 الحجة 996 هـ / 23 أكتوبر 1588 م . .

أرشيف الشهر العقاري : سجل (314) ، ص 98 ، مادة (403) بتاريخ 4 القعدة 996 هـ / 25 سبتمبر 1588 م .

(128) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالح ، سجل (315) ، ص 249) ، مادة (128) بتاريخ 23 شوال 1000 هـ / 2 أغسطس 1592 م .

أرشيف محفظة دشت ، رقم (1) ، ص 65 ، بتاريخ 23 القعدة 928 هـ / 14 أكتوبر 1522 م .

أرشيف محفظة دشت : رقم (1) ، ص 27 ، بتاريخ 19 شوال 928 هـ / 13 سبتمبر 1522 م .

أرشيف محفظة دشت : رقم (1) ، ص 116 ، بتاريخ 2 محرم 929 هـ / 21 نوفمبر 1522 م .

وقد تنبهت سلطات ادارة القاهرة الى أعمال اليهود فى غش العملة ، وتداول العملات المغشوشة فى مرات عديدة ، واتخذت اجراءات مشددة ضد عمليات غش العملة كما سنرى فيما بعد ، وعموما فأن أهل الذمة كانوا كثيرا ما يخلقون أزمات ، وبخاصة اليهود حيث أن النصارى لم يعملوا على خلق أزمات، وعاشوا على هامش المجتمع حتى القرن الثامن عشر حينما استطاعت أسرة الجوهرى المسيحية أن تحل محل اليهود فى الاعمال المالية الحكومة ، ولم تخلق أزمات (129) ، انما اليهود كانت أزماتهم كثيرة ، وكانوا يعيشون فى حارة اليهود ، وعلاقاتهم الاجتماعية محدودة . فالمعاملات تكاد تكون مقصورة على المعاملات ، بخلاف النصارى «الاقباط» الذين كانوا منتشرين فى أحياء القاهرة وصلاتهم بفئات المجتمع الاخرى تتعدى المعاملات الى المجاملات ، ومشاركة فئات مجتمع القاهرة أفراحهم وأتراحهم .

سادسا : الاشراف والسادات :

يقطن مصر عدد من الاشراف الذين ينتمون الى الحسن والحسين والسادات وكان يقطن القاهرة عدد كبير من الاشراف الحسنيين والحسينيين ، وكانت هناك طائفتان من السادات : طائفة السادة الوفائية والسادة البكرية ، وكانت هناك أوقاف كثيرة موقوفة على كلتا الطائفتين ، وكانت للاشراف والسادات مكانة دينية لدى فئات مجتمع القاهرة ، ولدى الفئة الحاكمة ، وللاشراف والسادات أعمالا خيرية كثيرة ، وعلاقات طيبة مع أفراد مجتمع القاهرة حكومة وسكانا (130) .

سابعا : الاجانب :

كان يوجد فى القاهرة فئة من الاجانب التجار والقناصل ، وكانوا يتعاملون مع فئات المجتمع القاهرى ، فى مجالات التصدير والاستيراد ، فنجد فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، اشارات فى الوثائق الى الايطاليين وبخاصة الى البنادقة والجنوبيين والفرنسيين والارمن منذ بداية العصر العثمانى ، امتدادا لما كان عليه الحال فى العصر المملوكى ، وكانوا يتعاملون مع التجار المحليين (131) ، وكان القنصل يتدخل اذا حدث خلاف حول أنواع

---

(129) أرشيف محفظة دشت ، رقم (3) ، ص 87 بتاريخ 4 صفر 931 هـ / 1 ديسمبر 1524 م .

(130) أرشيف الشهر العقاري : محكمة باب الشعرية ، سجل (595) ، ص 357 ، مادة (1425) بتاريخ 2 القعدة 1002 هـ / 20 يولية 1595 م .

أرشيف الشهر العقاري : ص 420 ، مادة (1664) بتاريخ 5 محرم 1003 هـ / 20 سبتمبر 1594 م .

أرشيف الشهر العقاري : ص 450 ، مادة (1772) بتاريخ 5 محرم 1003 هـ / 20 سبتمبر 1594 م .

أرشيف الشهر العقاري وهكذا جميع سجلات محكمة باب الشعرية .

(131) أرشيف الشهر العقاري : محفظة دشت ، رقم (1) ، ص 154 ، بتاريخ 67 محرم 929 هـ / .

بعض السلع (132) ، ثم نجد فى القرن الثامن عشر التجار والقناصل الانجليز وغيرهم (133) ، وقد كانت علاقات هؤلاء الاجانب مع مجتمع القاهرة مفتوحة ، وتقوم على الاحترام المتبادل .

ثامنا : الـــرقـيـــق :

الرقيق المقصود به الأرقاء الذين يشترون ، من سوق الرقيــق ، ووكالـة الرقيق بالقاهرة ، والارقاء نوعان ، رقيق أبيض وهم الذين كانوا يجلبون من بلاد كردستان وجورجيا ، وبعض مناطق شرق أوروبا ، والرجال من هــذا الرقيق ، كان الامراء المماليك يشترونهم ليكونوا جيوشهم الخاصة ، والنساء كن يعملن فى بيوت الامراء المماليك كخدم أو كاماء حتى يحل العتــق بهــن لتزويجهن رجال من قوة الامير ذاته ، أما الرقيق السود فكانوا يأتون عن طريق قافلتى دارفور وسنار ، وكانت سوق الرقيق رائجة ابان العصر العثمانى ، وكان عدد الرقيق كبيرا ، وفى الغالب كان هؤلاء المرقوقــون يحصلــون على حريتهم بعد قضاء فترة فى خدمة سيدهم الذى كان يعتقهم ابتغاء لوجه الله كما كان يفعل أهل الخير من أثرياء التجار الذين كان بعضهم يبالغ فى هذا الاسلوب ، فمثلا نجد السيد الشريف علي بن السيد عبد العزيز بن السيد حسن المغربى الفاسى يعتق فى يوم واحد ثلاثة هم : مساهــل بــن عبد اللــه الزنجى التكرورى (134) ، ورضوان بن عبد الله (135) ، وسرور بن عبد الله الاقجرى الجنس (136) ، وذلك « ابتغاء لوجه الله الكــريم ، وطلبــا لثــوابه الجسيم » ، وبعض الامراء والتجار كان يشترى الرقيق ليكون تابعا له ، ولمــا يبلغ الرشد يسقط باسمه التزامات ، ويشترى عقارات على أن تكون الولاية للسيد علي التابع وما قيد باسمه (137) ، وكان كبار رجــال الاوجــاقــات يشترون الرقيق ، وبعد فترة يحررونهم ليكونوا اتباعا ويقيدون على الوجاق الذى ينتمى اليه سيدهم ، أما النساء المرقوقات فكان عتقهم اما لازواج بهــن أو تزويجهن من أتباع السيد نفسه ، ونظرا لرواج تجارة الرقيق فان تجار

---

(132) أرشيف الشهر العقاري : محفظة دشت ، رقم (2) ، ص 322 ، بتاريخ 3 ربيع الآخر 929 هـ / 19 فبراير 1522 م .

(133) عبد الرحيم عبد الرحمن ، النشاط التجاري في البحر الأحمر في العصر العثماني ، ص 252 — 253 .

(134) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الباب العالي ، سجل (75) ، ص 169 ، مادة (687) بتاريخ 1 ذي القعدة 1009 هـ / 4 مايو 1601 م .

(135) أرشيف الشهر العقاري : سجل (75) ، ص 169 ، مادة (688) بتاريخ 1 ذي القعدة 1009 هـ / مايو 1601 م .

(136) أرشيف الشهر العقاري : سجل (75) ، ص 169 ، مادة (689) بتاريخ 1 ذي القعدة 1009 هـ / 1601 م .

(137) أرشيف الشهر العقاري : سجل (202) ، ص 61 ، مادة (117) بتاريخ 4 صفر 1133 هـ / 5 ديسمبر 1720 م .

الرقيق الابيض الذين كانوا يعرفون باليسرجية ، وتجار الرقيق الاسود الذين كانوا يعرفون بالجلابة ، كانت لهم مكانة كبيرة عند كثير من فئات مجتمع القاهرة .

ونظرا لكثرة الاقبال على التزاوج بالرقيقات ، وباندماج الارقاء فى فئة ساداتهم فان هذه الفئة ذابت فى المجتمع خلال القرن التاسع عشر وأصبحت لهم كامل حريتهم (138) .

تاسعا : العربان :

تذكر الوثائق أن بعض العربان الذين كانوا يعيشون حول القاهرة ، استوطنوا القاهرة ومن أشهر العربان الذين استقروا بالقاهرة ، عربان النجمة ، وكان استقرارهم حول منطقة باب الشعرية ، ولكن هؤلاء العربان ظلوا على حياتهم وطباعهم البدوية ، رغم أن الوثائق تذكر عنهم عبارة « القاطنون بالقاهرة » ولكنها فى نفس الوقت تذكر دائما صفة « البدوى » كصفة ملازمة لهم ، ويتضح من الوثائق أن مشاكلهم فيما بينهم كانت كثيرة ، ومشاكلهم مع فئات مجتمع القاهرة الاخرى كانت أكثر ، ولم يندمجوا مع المجتمع اندماجا كاملا ، فلا تزاوج ولا اختلاط مع فئات المجتمع (139) .

الازمات التى أصابت مجتمع القاهرة ابان العصر العثمانى :

مر مجتمع القاهرة ابان العصر العثمانى ، بأزمات كثيرة ، نتيجة لقصر مفهوم وظيفة الدولة عند العثمانيين من ناحية ، حيث لم تكن هناك خدمات تقدم للشعب من ناحية ، ولجشع بعض فئات المجتمع من ناحية ثانية ، وللصراعات السياسية بين البيوت المملوكية من ناحية ثالثة ، وقد كان لهذه الازمات تأثيرها الكبير على مستوى معيشة فئات المجتمع القاهرى ، كما سنرى ، وأهم هذه الازمات :

أولا : انخفاض مياه النيل :

هذه الظاهرة ، ليست وليدة العصر العثمانى ، وانما هى ظاهرة عامة وقديمة قدم وجود نهر النيل ، حيث أنه فى بعض السنوات ، ولاسباب طبيعية تتعلق بكميات المياه التى تسقط على منابع النيل ، كانت مياه النيل

---

(138) أرشيف انظر على سبيل المثال :
محكمة القسمة العسكرية ، سجل (135) ، ص 1 ، مادة (2) بتاريخ 16 جماد الثاني 1145 هـ / 4 ديسمبر 1732 م .
ص 10 ، مادة (16) بتاريخ 6 رجب 1145 هـ / 23 ديسمبر 1732 م .

(139) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الحاكم : على سبيل المثال انظر ، سجل (555) ، سجل (556) ، سجل (557) سجل (558) والسجلات الأخرى من نفس المحكمة ، مواد عديدة .

لا تصل الى المنسوب المعتاد ، والذى يعرف بوفاء النيل مما يترتب عليه فى هذه السنوات ، عدم رى مساحات كبيرة من أرض مصر الزراعية ، وهو ما يعرف بالشراقى ، ويترتب على ذلك حدوث الغلاء وبخاصة فى الحبوب ، وارتفاع أسعارها بصورة كبيرة ، واستغلال التجار لهذه الظاهرة ، واخفائهم الغلال ، والتحكم فى أسعارها بمجرد شعورهم بأن النيل لم يصل الى منسوبه الطبيعى (140) ، بل ان بعض الباشوات استغلوا هذه الظاهرة للافادة منها لانفسهم ، ففى عهد علي باشا الساحدار (10 صفر 1010 ـ 6 ربيع الثانى 1013 هـ. / 10 أغسطس 1601 ـ 1 سبتمبر 1604 م.) حينما اشتدت الازمة ، وضاقت الاحوال بالناس فاضطروا الى « خطف العجين من المواجير ، والخبز من الاسواق » حاول الباشا دون أن ينظر الى حالة أهل القاهرة ، أن يبيع « قمح العنبر الشريف الى الافرنج فى الجلود على هيئة البهار » مستغلا الظروف للحصول على كسب رخيص فى السوق السوداء حتى « قامت العسكر عليه ، وقالوا له ، كيف تبيع القمح للافرنج بستين فضة ، وقد أكلت الناس بعضها بعضا من الغلاء ، والقمح يباع بستة وثلاثين نصف فضة ، وتطمع فى أربعة وعشرين نصفا فضة زيادة فى كل ويبة ، فبطل بين القمح للافرنج » (141) ، وتكررت ظاهرة الغلاء لنفس السبب فى عهد أحمد باشا (10 ربيع الثانى 1024 ـ 12 صفر 1027 هـ. / 9 مايو 1615 ـ 8 فبراير 1618 م.) ، حتى بيع أردب القمح بتسعين نصف فضة فأمر الباشا أن « لا يباع بأكثر من أربعين فضة ، وأرسل الوالى الى مخازن القمح كسرها ، ثم سار الى الخانكة والى بلبيس وصحبته الوالى والمحتسب خفية ، وأخرج القمح المخزن ، وأوثقه على الجمال والحمير ، وأوصله الى مصر ، وأوقع القتل فى أصحاب الخزاين وأرسل أكثرهم الى المقدأف ، فبعد ذلك انحط السعر الى ثلاثين نصف الاردب » (142) ، وحدثت الظاهرة فى عهد مقصود باشا (8 شعبان 1052 ـ 13 صفر 1053 هـ. / 1 نوفمبر 1642 ـ 13 مايو 1643 م.) حتى أن أمر والى القاهرة أن يراقب الامور بنفسه (143) ، وزادت الازمة المالية شدة فى عام 1087 هـ. / 1976 م. ، حتى « بيع الاردب الحنطة بثمانية قروش ، والشعير بماية وعشرين نصف فضة ، وبيع الحمل التبن بماية وخمسين فضة » (144) ، وفى عامى 1101 هـ. ، 1107 هـ. / 1694 ، 1695 م. ، اشتد غلاء الاسعار ، وزادت حدة الازمة الاقتصادية ، وتأثر مجتمع القاهرة بها كثيرا ، حتى باع الناس أولادهم ، وهجروا ديارهم ، حتى أن كشك محمد هدد الامناء والكياليين والرؤساء الذين يتاجرون فى الغلال ، أن باعوا الغلال بأكثر من السعر المحدد لها « وقال لهم

(140) عبد الغني ، أحمد شلبي ، المصدر السابق ، ص 9
(141) نفسه ، ص 18 .
(142) نفسه ، ص 23 .
(143) نفسه ، ص 34 .
(144) نفسه ، ص 52 .

هذا أمر ما رآه أهل مصر فى وفاء النيل ، وهروبه فى ليلة واحدة ، وأكثر أهل بلدنا فقرا وصناعية ، وكان اذا جاء الغلا لا تغلوا الحنطة الا فى ثانى سنة ، عند بدار النيل الثانى ، وأنتم لمجرد عدم مجىء النيل فى يوم واحد ، تبيعوه بأربعة قروش ، فيلزم من هذا أن تبيعوه فى آخر السنة ببالغ ما بلغ ، وهذا أمر لم يكن ، ولم يزد عن ستين فضة ، مع وجودى على قيد الحياة ، وقام من مجلسهم ، ما فعل بالريسا والامناء فى ثانى يوم ، فقالوا هذا أمر لا نبلغه مع وجود هذا الرجل أبدا ، والوكلا لاولاد همام ريسا مصر أصحاب الحل والربط (145) .

ولما اشتدت وطأة الازمة على الفقراء فى محرم 1107 هـ. / أغسطس 1695 م. ، اجتمعوا وطلعوا الى الديوان يشكون ما حل بهم « وصاحوا ، ونادوا ، متنا من الجوع ، وشدة الغلاء » (146) فلما لم يجدوا صدى لصيحاتهم أخذوا « الحجارة ورجموا جميع من فى الديوان ، فضربهم الوالى جميعا وطرده ، فنزلوا الى الرميلة فنهبوا جميع الغلال التى بالرقعة ، وكسروا الحواصل ونهبوا ما فيها من قمح ، وفول ، وشعير ، ونهبوا حاصل كتخدا الوزير ، وكان ملآن فول وشعير، وكانت هذه الفعلة ابتدا الغلا فى جميع المأكولات جميعا ، ثم أخذت الزيادة من محرم 1107 هـ. / أغسطس 1695 م. ، واستمر فى الزيادة الى أن بيع القمح بستماية فضة الاردب ، والفول بخمسماية فضة ، والشعير بأربعماية فضة ، والعدس لم وجد ، والرز بثمانماية فضة ، واللحم الضانى بخمسة أنصاف الرطل ، والجاموس الوقيع بثلاثة أنصاف الرطل ، والسن بألف فضة القنطار ، والعسل النحل بستماية ، والكل ديوانى ، وحصل للناس بسبب ذلك الغلا الشديد فى مصر وأقاليمها ، حتى أن غالب أهل الارياف والبلاد جاء مصر (القاهرة) ولكن أكثرهم من البهنسا والفيوم ، وامتلات أزقة مصر (القاهرة) ، حاراتها ، وأسواقها ، واشتد الكرب والبلاء وأكلت الناس الجيف ... وافتقرت الاغنيا ، وتهتكت الاحرار ٠ وهجت الناس جوعا من الازقة والحارات ، امتلات بالاموات ، ... وصارت الفقراء يخطفون الخبز من الاسواق ، والعجين وهو رايح الفرن (147) ، وعجز الامراء المماليك عن تسديد الاموال الاميرية المتبقية طرفهم ، ووصل الامر بالاهالى أن استقبلوا اسماعيل باشا فى 17 صفر 1107 هـ. / 27 سبتمبر 1695 م. ، بالعياط من قبة العزب حتى وصل الى أبواب القلعة ، ولما استقر به المقام فى الديوان سأل عن سبب الرعية فى وجهه « فأخبروه بما هم فيه من الغلا والكرب الشديد ، وكثرة الشحاتين ، التى امتلات مصر (القاهرة) منهم ، لان جميع الارض التى لم تكن رويت جاء

(145) نفسه ، ص 64 .
(146) نفسه ، ص 66 .
(146) نفسه ، ص 66 .
(147) نفسه .

فقراؤها الى مصر (القاهرة) » (148) ، ولذا فان اسماعيل باشا ، أمر على اثر سماعه هذا القول ، بتوزيع المعدمين على القادرين، ، عله يستطيع حل هذه الازمة التى يعانى منها المجتمع بهذا الاسلوب ، ولكن هذه الضائقة استمرت حتى أوفى النيل ورويت الارض ، ووزعت جميعها فى العام التالى ، واستمرت هذه الحالات تفاجىء مجتمع القاهرة الى نهاية العصر العثمانى .

ثانيا : غش العملة :

بدأ زيف العملة يظهر فى مصر فى العصر العثمانى ، منذ عهد علي باشا الصوفى (غرة رجب 971 ـ سلخ رمضان 873 هـ. / 14 فبراير 1564 ـ 20 أبريل 1566 م.) ، حيث تم خلط العملة بالنحاس زيادة عن القانون ، فقد أمر هذا الباشا دار الضرب بأن تخلط « فى المآية درهم ثلاثين درهما نحاسا ، فثقل الامر وقامت الرعايا ، وكثرت اللصوص والمفسدون » (149) وانعكس أثر ذلك على السوق المحلية ، وارتبكت الاسعار ، وكسدت بعض السلع ، وتوالت بعد ذلك عمليات غش العملة ، حتى أنه فى عهد قرا محمد باشا (1111 ـ 1116 هـ. / 1699 ـ 1704 م.) ، فشت فى القاهرة الفضة النحاس (وصار النصف المختوم لا يوجد ، وان وجد لا يتعامل به ، وانما تأخذه اليهود ويقصوه أربعة أنصاف ، ويصرف حتى أن الشريفى المحمدى صار بماية وخمسين ، والطرلى بماية وسبعين ، والبندقى بمايتين ، والريال بسبعين ، والكلب بستين ، ثم أنها فشت الى أن صارت تباع بالدراهم ، وصار أهل الاسباب ، وفى آخر النهار يذهبون الى الصاغة ، ويبيعون ما تحصل معهم من المقاصيص ، فضاعت الخلق ، واشتد الحال على الناس ، وزاد الكرب ، فاجتمع أهل الاسواق ، ودخلوا الجامع الازهر ، وشكوا أمرهم الى العلماء ، والزموهم بالركوب الى حضرة الوزير ، فى شأن ذلك الامر ، فركب الشيخ محمد النشرتى ، وركب خلفه جميع العلماء ، وتوجهوا الى الديوان وأفهموه على القضية ، وضرورة الناس ، فجمع السناجق ، والاغوات والامراء وكان ديوانا حافلا ، وتشاوروا شأن تلك القضية ، فاجتمع أمرهم أنهم : يقطعون فضة جديدة ، وتوزع على الصيارف بالقاهرة ، وينادى بابطال المقاصيص أصلا ، وان كل ما كان معه شيء من المقاصيص يطلع الى الديوان ، ويتبدل وزنها فضة من دار الضرب ، أو من الصيارف ، وكل من يتعامل بالمقصوص ، يستاهل ما يجرى عليه ، وان الطرلى بماية ، والمحمدى بتسعين ، والبندقى بماية وعشرين ، والريال بخمسة وخمسين ، والكلب بثلاث وأربعين ، وأنزلوا الاسعار المبتاعة ، وجعلوا لكل صنف سعر لا يباع بأكثر منه » (150) وان تقوم حملة تفتيشية على رأسها ، علي آغا مستحفظان « لنقد الدراهم ، وتحرير

---

(148) نفسه ، ص 70 .

(149) نفسه ، ص 11 .

(150) نفسه ، ص 80 — 81 .

الارطال ، والمناداة على الاسعار المقررة ، فمن وجده يبيع أو يشترى بخلاف المقرر ، سواء أكان فلاحا أو تاجرا أو قبانيا بطحه في السوق على وجهــه ، ويضربه بالمساوق الشوم حتى يتلف أو يموت » (151) هــذه أمثلــة وليس حصر عما كانت تحدثه عمليات غش العملة وزيفها من أثر سيء على المجتمع القاهرى ٠

ثالثا : انتشار الأوبئة والطواعين :

اعتبرت الدولة العثمانية الاهتمام بالصحة العامة للشعب ، أمرا خارجا عن اختصاصها ، ونتيجة لاهمال الرعاية الصحية للمجتمع ، فانه كثيرا ما كانت الأوبئة الفتاكة تهاجم الشعب ، وتقضى على الكثير من أفراده ، وقواه العاملة والمنتجة حتى أنه فى بعض الحالات نظرا لكثرة من يموتون فى اليوم الواحـد ، أمر الوزير علي باشا السلحدار بعدم الكشف على الموتى (152) ، وصلى فى أحد هذه الأوبئة ، على ألف فى كل يوم فى الجامع الازهر وحده ، ولمدة خمسة وثلاثين يوما (153) وفى عهد قرا حسين باشا ، بلغت الصلاة على الاموات فى الجامع الازهر فى اليوم ستماية نفس » (154) ، وفى بعض الاحيان كان انتشار الطاعون يتسبب فى فراغ كثير من الالتزامات ، وعرض هذه الالتزامات فى المزاد ، ووصل فى بعض الحالات أنهم لم يجدوا للميت لا مغسلا ولا عدة « من كثرة الازدحام على الحيوانات » (155) ، وفى كثير من الاحيان كان الوباء يصيب الشباب والصبيان ، أى الجيل القادر على العمل ، والجيل التالى له ، مما كان يؤثر على اقتصاديات البلاد ولفترة طويلة ، ويؤثر بالتالى على مستوى المعيشة لكثير من الاسر ، وهذا يضير بحياتهم الاجتماعية كثيرة ، خاصة اذا فقدت الاسرة عائلها ، مما كان يؤثر على حياة الاسر الاجتماعية ، هذا فضلا الى جانب الكوارث الطبيعية التى كثيرا ما كانت تتسبب فى هلاك القرى ، والزروع ، مما كان يؤثر على انتاج الغلال ، ويصيب مجتمع القاهرة ازمة كبيرة يكون لها تأثيرها على الحياة الاجتماعية (156) .

رابعا : الصراعات المملوكية :

من العوامل التى أثرت فى مجتمع القاهرة ، الصراعات التى نشبت بين البيوت المملوكة المختلفة ، من أجل الاستحواذ على المناصب الادارية الكبرى ، والاشرافية ، أو على التزام المقاطعات المختلفة ، وكأن مصر قد أصبحت ملكا

---

(151) نفسه ، ص 81 .
(152) نفسه ، ص 12 .
(153) نفسه ، ص 12 .
(154) نفسه ، ص 18 .
(155) نفسه ، ص 49 .
(156) نفسه ، ص 13 .

مشاعا تتقاسمه البيوت التالية من هؤلاء المماليك ، وكانت الحروب تدور بينهم فى شوارع القاهرة المختلفة ، وكثيرا ما كانت تقفل الحوانيت والدكاكين والبيوت ، وتصبح الحياة من أصعب الامور ، ويصاب السكان بأضرار بالغة .

تقويم :

كان مجتمع القاهرة يتكون كما مر بنا من فئات عدة ، وكان لكل فئة من هذه الفئات عاداتها وتقاليدها ، التى تتحكم فى علاقاتها بالفئات الاخرى .

واضح من وثائق المحكمة الشرعية ، ومن المصادر المعاصرة ، أن هذه الفئات ، لم تغلق باب الاندماج على نفسها ، وانما الفئات جميعها كانت مندمجة ، وعمليات التزاوج بين أفراد هذه الفئات فيما بينها كانت تتم وبصورة كبيرة ، وبناء على ما هو مسجل بوثائق المحاكم الشرعية نجد أن مجتمع القاهرة ، كان مجتمعا مندمجا اجتماعيا ، ولا يعيش فى عزلة اجتماعية .

واذا كان لكل فئة عاداتها وتقاليدها ، فان هناك عادات وتقاليد خاصة بالمجتمع ككل كان المجتمع كله يرتبط بها ، كما أن المجتمع له ثقافته العامة التى كان يرتبط بها .

د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
كلية الدراسات الانسانية
جامعة الأزهر ـ القاهرة

مصادر البحث

أولا : أرشيف الشهر العقاري : سجلات المحاكم الشرعية التالية :
- محكمة القسمة العسكرية ، محكمة القسمة العربية ، محكمة الصالحية النجمية ، محكمة الباب العالي ، محكمة طولون ، محكمة الزاهد ، محكمة الصالح محكمة الحاكم ، محكمة البرمشية ، سجلات اسقاط القري ، محافظ دشت .

ثانيا : المصادر والمراجع المنشورة :

1 - البكري الصديقي : محمد بن أبي السرور :
« كشف الكربة في رفع الطلبة » تحقيق وتقديم عبد الرحيم عبد الرحمن ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد الثالث ، والعشرون 1976 م ، صص 273 — 374 .

2 - أبو زيد : حكمت :
« المجتمع القاهري على عهد الحملة الفرنسية كما صوره الجبرتي » بحث منشور ضمن أبحاث ندوة عبد الرحمن الجبرتي وعصره ، التي أقامتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في الفترة من 16 — 23 أبريل 1974 م . طبع الهيئة العامة للكتاب سنة 1976م .

3 - أحمد ، ليلى عبد اللطيف :
الإدارة في مصر في العصر العثماني ، مطبعة جامعة عين شمس 1978 .

4 - الجبرتي : عبد الرحمن بن حسن :
« عجائب الاثار في التراجم والاخبار ج 1 ، ج 2 ، طبع القاهرة 1904 .

5 - ريمون أندريه :
التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية ، ترجمة زهير الشايب ، طبعة مكتبة مدبولي 1985 م .

6 - عبد الرحيم عبد الرحمن :
- العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية في العصر العثماني .
- نشوء الرأسمالية المصرية خلال العصر العثماني (1517 — 1798) وأثرها على الحياة الاقتصادية من خلال وثائق المحاكم الشرعية .
- المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517 — 1798) تونس 1986 .
- النشاط التجاري في البحر الأحمر في العصر العثماني ضمن كتاب البحر الأحمر ، القاهرة 1980 .

7 - عبد الغني ، أحمد شلبي :
أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، تحقيق عبد الرحيم : عبد الرحمن عبد الرحيم ، مكتبة الخانجي 1978 م .

8 - العوفي : ابراهيم بن أبي بكر :
واقعة الصناجق في تراجم الصواعق ، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة 1986 .

ثالثا : المراجع الإفرنجية :

Raymond, André, Artisans et commerçants au Caire au XVIII^{e} siècle, Tomes 2. Damas 1973-1974.



الحياة الاجتماعية فى ولاية الموصل
1515 ـ 1918 (1)

د. ابراهيم خليل أحمد العلاف

ـ 1 ـ

مقدمة :

بالرغم من الاهتمام الكبير الذى ظهر فى السنوات الاخيرة بالدراسات العثمانية ، الا أن التاريخ الاجتماعى للوطن العربى لم ينل بعد ما يستحقه من اهتمام . ويعد بحثنا هذا محاولة لتأشير بعض الملامح الرئيسية للحياة الاجتماعية فى ولاية الموصل ومصادر وثائقها فى الفترة الواقعة بين بدء السيطرة العثمانية عليها سنة 1515 وخروج العثمانيين منها أواخر الحرب العالمية الاولى . ومما يلحظ ان الباحث فى التاريخ الاجتماعى يواجه صعوبة كبيرة عند تناوله هذا الموضوع ، ذلك أن مصادر الوثائق الخاصة بالحياة الاجتماعية عديدة ومتنوعة ومتناثرة ، كما انها لم تستخدم بعد بشكل فعلى من قبل الباحثين والمؤرخين (2) .

يتألف بحثنا هذا من اربعة أقسام ، فضلا عن المقدمة ، يتناول القسم الاول الاهمية الجغرافية والستراتيجية والاقتصادية لولاية الموصل . اما القسم الثانى فيتناول طبيعة المجتمع الموصلى المتميز بتعدد قومياته وأديانه ومذاهبه. ويتابع القسم الثالث الانشطة الاجتماعية فى الولاية ، والمتمثلة بالمؤسسات الحرفية والدينية وتقاليد السكان فى ازياءهم واعيادهم . وخصص القسم الاخير لدراسة وضع المرأة الموصلية خلال الفترة موضوعة البحث .

ـ 2 ـ

الأهمية الجغرافية والستراتيجية لولاية الموصل :

حدث انقلاب فى ستراتيجية التوسع العثمانى فى عهد السلطان سليم الاول (15121 ـ 1520) اذ توقف الزحف العثمانى على حساب الغرب

(1) قدم هذا البحث إلى المؤتمر العالمي الثاني للدراسات العثمانية والذي إنعقد في الحمامات تونس للفترة من 15—20 آذار 1986 ، وقد كرس المؤتمر لدراسة الحياة الإجتماعية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني .

(2) أنظر الملحق ، حيث يتضمن قائمة ببعض مصادر ووثائق الحياة الإجتماعية في ولاية الموصل .

الاوربى ، أو كاد واتجه نحو الوطن العربى (3) . ومهما تعددت الآراء واختلفت فى تعليل هذه الظاهرة ، فان تأسيس الدولة الصفوية فى ايران كان عاملا رئيسا فى ذلك . فالغزو العثمانى للوطن العربى لم يكن الا مرحلة من مراحل الصراع بين الدولتين العثمانية والصفوية الفارسية بقصد الاستحواذ على منطقة الشرق الادنى (4) .

ولقد قادت الاحداث التى نجمت عن معركة جالديران سنة 1514 وانتصر فيها العثمانيون على الفرس الى دخول الموصل فى حوزة العثمانيين سنة 1515. وتعد الموصل أول مدينة عربية سيطر عليها العثمانيون مثلما كانت آخر مدينة خرج منها الجيش العثمانى فى أواخر الحرب العالمية الاولى 1918 . وكان لموقع الموصل ولطبيعتها الجغرافية اثار واضحة فى مجرى تاريخها السياسى والحضارى ذلك انها تقع عند تقاطع الطرق التى تربط بين ايران والاناضول وسوريا (5) . ولقد اهتم العثمانيون بولاية الموصل لاهمية موقعها ولعلاقة ذلك بالتطورات الاقتصادية التى كانت تشهدها المنطقة آنذاك ، وخاصة فيما يتعلق بتجارة الحرير . فالموصل تشكل طريقا مهما لانسياب هذه التجارة فى تلك الفترة بعد ان فرض السلطان سليم الاول حصارا على طريق التجارة الفارسية التى كانت تمر من تبريز الى أرضروم ثم أماسيا فالاناضول ، فتحولت التجارة الى حلب ومنها الى الاسكندرونة ، وهذا السبب أعطى الموصل أهمية بالغة بحيث أصبحت مسيطرة على هذا الطريق المهم بالنسبة للتجارة الفارسية ، ومن الطبيعى ان تصبح تجارة الحرير الفارسى تحت رحمة العثمانيين ، وأصبح بالامكان التحكم بهذا الطريق وحرمان الفرس من مرور تجارتهم من خلاله ، خاصة وان ايران كانت تعتمد تجارة الحرير فى صادراتها الى الغرب الذى يقوم بمقابلتها بالحديد والنحاس كمواد رئيسة فى ستراتيجية تلك الفترة . وكان السلطان سليم يهدف الى الحيلولة دون ان ينال الايرانيون عدة الحرب ، وكذلك من خلال منع تجارة الحرير وتخفيض مدخولات ايران ومنعها من تحقيق اطماعها التوسعية (6) .

ولقد أثر الحصار التجارى الذى فرضه العثمانيون على ايران بعد استيلاءهم على مواضع وحدود ومسالك ديار بكر الموصل التى كانت تحظى بالخطوط الستراتيجية الفعالة والمهمة . كما تم للعثمانيين بعد ذلك التحكم فى السيطرة

(3) إبراهيم خليل أحمد ، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516–1916 ، (الموصل ، 1983) ، ص 20–25 .

(4) A. J. Teynbee, Astudy of History, vol, 1, (Oxford, 1934) PP. 385-6

(5) فاضل حسين ، مشكلة الموصل ، (بغداد ، 1967) ، ص 78 .

(6) سيار كوكب الجميل ، دراسات في السيطرة العثمانية على الموصل وأقليم الجزيرة سنة 1516 وبدايات الصراع العثماني – الإيراني في عهد السلطان سليم ، مجلة بين النهرين ، الموصل ، السنة (8) ، العدد (30) ، 980 ، ص 196–197 .

على مسالك أخرى تقطع العراق وصولا الى الخليج العربى الذى يعد الباب الطبيعى الجنوبى للمسلك العمودى ، فى حين كانت حلب هى النهاية الرئيسية للمسلك الأفقى المتمثل بتبريز ـ أرضروم ، اما الموصل فقد بقيت مستمرة فى علاقاتها الاقتصادية بمختلف الاقاليم ، ومحتفظة بنافذتها المفتوحة نحو الشرق والغرب لستراتيجيتها وتحكمها بالمسالك الافقية والعمودية حتى فتح قناة السويس فى سنة 1869 . وكاد ينعدم مسلكها الافقى مع الشام والاناضول ، اما مسلكها العمودى نحو بغداد ـ البصرة ، فقد ظل قائما حتى يومنا هذا (7) .

ـ 3 ـ

أوضاع الموصل الاقتصادية حتى أوائل القرن العشرين :

لم تكن الموصل حين سيطر عليها العثمانيون سنة 1515 أكبر من « بلدة صغيرة مسورة ، ولم تكن حسنة العمران ، ولا تحتفظ الا ببقية شهرتها التجارية القديمة ... ولم يعرف الكثير عن أحوالها الداخلية ، غير عدم استقرار أحوال حكومتها » . الا ان الموصل بعد سيطرة العثمانيين عليها ، دخلت مرحلة جديدة من تاريخها ، اذ اصبحت مركزا لأهم الولايات العربية واتخذت قاعدة متقدمة لضرب الوجود الايرانى من العراق بأكمله (9) وفى النصف الاول من القرن السابع عشر ، أصبحت الموصل ولاية قائمة بذاتها ، ولم تتخذ شكلها الادارى النهائى الا فى سنة 1879 حين اصبحت تضم سنجقى (لواءى) كركوك والسليمانية ، فضلا عن سنجق الموصل نفسه ، تحدها من الشمال ولايتا وان وديار بكر ومن الشرق مملكة فارس ومن الغرب سنجق دير الزور ومن الجنوب ولاية بغداد . وقد بلغت مساحتها حوالى (91/000) كيلو مترا مربعا (10) .

ومنذ عهد السلطان سليمان القانونى (1520 ـ 1566) طبق فيها نظام الاقطاع العسكرى ، اذ قسمت الى وحدات اقطاعية بالدرجات الثلاث المعروفة خاص وتيمار وزعامت (11) . وتكشف لنا أعمال السلاطين العثمانيين الاوائل

(7) المصدر نفسه ، ص 197 .
(8) عبد الكريم غرايبة ، مقدمة في تاريخ العرب الحديث ، (دمشق ، 1960) ص 110-111 .
(9) عماد عبد السلام رؤوف ، الموصل في العهد العثماني ، فترة الحكم المحلي ، (النجف ، 1975) ، ص 27 .
(10) محمد نصر الله وآخرون ، ممالك محروسة شاهانية مخصوص ومكمل مفصل أطلس ، (إستانبول ، 1325) ، ص 102 .
(11) جاء في السجلات العثمانية دفتر رقم 195 لوحة رقم 49 في الفترة بين 949-951/1542-1544 أن في الموصل خمسة زعامات و (67) سباهي و (126) مزرعة و (25) جماعة ، و (8789) شخص منهم (6497) رجل و (2293) إمرأة . للتفاصيل أنظر : حسين محمد الهقواتي العراق بين الإحتلالين العثمانيين الأول والثاني 1534-1638 رسالة ماجستير قدمت لجامعة بغداد 1975 وهي غير منشورة ، ص 313 .

عن طبيعة نظرتهم الى الاقطار التى تحت سيطرتهم ، والتى تقوم على أساس « اقرار الاوضاع القائمة فعلا مع محاولة الاستفادة من هذا الواقع الى أقصى حد ممكن » . ونظرا لظروف الموصل المتميـزة فى وفـرة امطـارها ، وقرب الاراضى الزراعية من الادارة المركزية فقد اتبع فيها العثمانيـون الاسلـوب الاقطاعى (12) . اما فى سائر ارجاء العراق الاخرى ، فـان الارض ظلت فى حوزة مالكيها المحليين . كما امتدت الى أقصى الشـرق من الـولاية بضعـة مشيخات كردية منفصلة سيطر شيوخهـا على مناطـق شاسعة من الاراضى يتوارثونها جيلا بعد جيل ويتولى فيها شيـوخ محليـون جبـاية الايـرادات وتسليمها الى الحكومة . ورغم بداوة المجموعات القبليـة الكـردية كالجـاف والهماوند ، الا انها كانت تحت حكم « ملاكين » ينتمون الى سلالات اقطاعية ذات منشأ دينى أحيانا . وكان اندماج الكردى بالاسلوب الاقطاعى العثمانى قائما على اعتبار ان رؤساء تلك الاسر يعينون (سنجق بيكات) تحت سلطة باشا الموصل لقاء خدمات عسكرية شخصية (13) .

غير ان الاسلوب القبلى ، فى التصرف بالارض فى هذه الجهات من ولايـة الموصل ، كان يبدو أكثر وضوحا من الاسلوب الاقطاعى . فلم يكـن هنـاك زعامات أو تيمارات مستقلة عن الخاص ، لان الاراضى كانت تعود الى الاسـر الحاكمة ، ولم يكن جمع الضرائب يتم على أساس الزعامة أو التجار ، وانمـا وفق اسلوب الالتزام مدى الحياة أو ما يسمى بـ « المالكانة » . وقـد بلغت ممتلكات بعض الشيوخ أحيانا عشرات القرى (14) .

وبالرغم من أن البيئة القبلية كانت هى السائدة فى التنظيم الاجتماعى فى ولاية الموصل ، الا انه كان هناك ثمة خلاف بين البيئة القبلية الكردية والبيئة القبلية العربية ، فالتنظيم الاجتماعى الكردى يعد أكثـر تأثـرا بالاسلـوب الاقطاعى مقارنة بالتنظيم الاجتماعى العربى . فالاغا الكردى يعد ملاك الارض ، ولم يكن الفلاحون الا مستأجرين عنده ، فى حين عرف عن القبيلة العـربية المساواة فى مسألة ملكية الارض والتصرف بها (15) .

لقد عاشت ولاية الموصل حتى أواسط القرن التاسع عشر فى حـالة من الفوضى والاضطراب فى أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية ، ولم يجر فيها أى

(12) عماد عبد السلام رؤوف ، الحياة الإجتماعية في العراق إبان عهد المماليك 1749–1831 ، رسالة دكتوراه قدمت إلى جامعة القاهرة 1976 ، وهي غير منشورة ، ص 18 ومما يؤكد تطبيق النظام الإقطاعي مـا ورد في السجلات العثمانيـة دفتـر رقم 195 لوحة 49 بتاريخ 951هـ/1544م بخصوص التشكيلة الإدارية للموصل حيث وضع على رأسها مير لواء واحد (سنجق بكي) لابكلربكي الذي يرأس الولاية عـادة . للتفاصيل أنظر : القواتي ، المصدر السابق ، ص 313 .

(13) عماد أحمد الجواهري ، تاريخ مشكلة الأراضي في العراق 1914–1932 (بغداد ، 1980) ص 15 .

(14) المصدر نفسه ، ص 16 .

(15) المصدر نفسه ، ص 84 .

اصلاح ملحوظ . كما فشلت الحكومة فى توطيد الامن وتوطين العشائر ، واقتصرت جهودها على ارسال الحملات التأديبية للعشائر العربية والكردية . الا ان الحكومة العثمانية اتخذت بعد ذلك سلسلة من التدابير الاصلاحية تمثلت بمجهودات مدحت باشا (1869 ـ 1872) الذى عين واليا على بغداد وزود بصلاحيات واسعة لتنفيذ اصلاحاته فى الولايات الثلاث بغداد ، الموصل ، البصرة . ويعد نظام الطابو ، أهم ما يلفت النظر فى اعمال مدحت باشا الاقتصادية ، وكان الهدف الرئيسى من هذا النظام محاولة ايجاد حل لمشكلة العشائر ووضع حد لتمرداتها المستمرة وتحويل افرادها الى مواطنين مستقرين وذلك بتوفير سبل العيش وتحسين وسائل الرى (16) . وقد أثمرت سياسته فى أماكن متعددة ، فاستقر رئيس قبائل شمر الجربا فرحان ابن صفوك فى منطقة الشرقاط فمنح لقب باشا وأصبح واسطة لاسكان البدو أفراد عشيرته ، وأخذ يتسلم راتبا من الدولة وزار العاصمة استانبول (17) .

لقد أدت سياسة مدحت باشا الى ان يتحول الشيوخ الى ملاكين للاراضى، ولم تعد العلاقات داخل القبيلة تعتمد على المساواة بين أفرادها ، بل أصبح مقدار ما يملك الشخص المعيار الاساس للتمييز بينهم (18) .

ولم يكن الانتقال من البداوة الى الاستقرار ، سوى ازدياد نفوذ الشيوخ الاقتصادى والسياسى ، وظهور فئات ثرية كان رفاهها متأتيا من عمق الاستغلال الاقطاعى للفلاحين ، فحدث بذلك انقلاب فى طبيعة العلاقات الاجتماعية داخل القبيلة ، وتعاون رؤساء العشائر وأثرياء المدن فى الاستحواذ على كثير من الاراضى الزراعية .. فعلى سبيل المثال كان شيخ شمر يزرع منطقة نجمة بالقرب من الشورة جنوبى الموصل قبل الحرب العالمية الاولى بالاشتراك مع أحد أثرياء الموصل (19) .

لقد أدى تطبيق سياسة الطابو الى حصول أشراف المدن والاغوات الاكراد وبعض شيوخ العشائر على معظم الاراضى .. وتعلل دورين وارنر سكوت الحكومة العثمانية عن تسجيل الاراضى والقرى الكردية بصورة خاصة بأسماء الاغوات والمختارين خلافا لما نص عليه قانون الاراضى من عدم تسجيل القرى باسم شخص واحد ، الى رغبة الحكومة فى الابقاء على استتباب الامن فى تلك المناطق (20) وهكذا تحول الفلاحون الى مجرد مؤجرين ، وتم هذا فى الوقت

---

(16) S. H. Lengrigg, For centuries of Modern Iraq, (Beirut, 1968 P. 305.

(17) عبد الجليل الطاهر ، البدو والعشائر في البلاد العربية ، (بغداد ، 1954) ، ص 37 .

(18) كاتلوف ، ثورة العشرين الوطنية التحريرية في العراق ، ترجمة : عبد الواحد كرم ، (بغداد 197) ، ص

(19) Great Britain, India office, Review of the civil Administration at mesopatamia 1914, 1920, By G. L. Bell, (London, 1920) P. 41 ; Hereafter cited as. Bell, Review.

(20) دورين وارنر ، الأرض والفقر في الشرق الأوسط ، ترجمة : حسن أحمد السلمان ، (القهرة ، 1950) ، ص 977 .

الذى كانت فيه الروابط العشائرية تأخذ بالانحلال ، وحيث أخذت الـروح التجارية تنتشر فى المجتمع العشائرى المتصف بالاكتفاء الذاتى (21) .

أما الاراضى التى ظلت أميرية صرفة ، فقد أجرت بالمزايدة ، الى من يدفع أكثر من غيره ، وبهذه الطريقة انتزعت من أيدى فلاحيها الفعليين ، وانتقل التصرف بها الى ايدى الاغوات ووجهاء المدن ، فقد رست على سبيل المثال ، معظم الاراضى التى كانت لعشيرة (دزئى) شرق كفرى وغربيها على رؤسـاء عشائر الجاف وبازيان والسادة (22) كما نجحت اسرة شيوخ البرزنجة (23) • فى الاستحواذ على معظم القرى والبساتين المحيطة بالسليمانية مستفيدة من مكانتها الدينية وصلة رؤسائها بالحكومة وبلغت القرى التى دخلت فى حوزتهم حوالى (60) قرية ببدل زهيد لا يساوى عشر معشار اثمانها الحقيقية (24) •

اما فى مناطق انتشار اليزيدية فى سنجار والشيخان فقد اكتسب (المير) وهو رئيس اليزيدية الدينى والدنيوى مكانة كبيرة اصبح بواسطتها يستولى على نسبة معينة من المحصول والماشية من كل فلاح (25) • كما كـان يلـزم اتباعه بجمع مبالغ كبيرة لحساب مزار الشيخ عدى بن مسافر الاموى (26) . هذا بالاضافة الى ان العديد من قرى اليزيديين دخلت فى ايـدى المـلاكين الموصليين ، فخد أصبح أحدهم يملك بين (3 ــ 50) قرية (27) .

ولقد استولى أغوات تلعفر على معظم الاراضى (28) ، كما دخلت بعض قرى زاخو وعقرة والزيبار فى ايدى الملاكين باساليب عديدة يتعلق معظمها بطريقة تسجيل الاراضى ، او اغراق الفلاحين بالديوان ، وحين يعجز بعض الفلاحين، عن دفع لضرائب ، فيلجأ الى احد الوجهاء فيطلب حمايته ، بعد أن يفرغ عليه أرضه بدل هذه الحماية ، او ان يملك الوجية الثرى جزءا صغيرا من قربة ثم يعمل على وضعها فى (الشيوع) ويطرد اصحابها عنها (29) .

---

(21) محمـد سلمان حسن ، التطور الإقتصادي في العراق ، جـ 1 ، (بيروت ، 1965) ، ص 189–190 .

(22) للتفاصيل أنظر بحثنـا : أوضاع ولاية الموصل الإقتصادية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين ، مجلة آداب الرافدين ، العـدد (7) 1976 ، ص 667 .

(23) نسبـة إلى قرية برزنجة ، وتقع شرقي مدينة السليمانية وتبعد عنها حوالي 60 كم ، وكان الشيخ سعيد البرزنجي يترأس أسبة الشيوخ هذه . وهي من الأسر الدينية التي كانت تتمتع بنفوذ كبير بين الأكراد وترجع أهميتها إلى مكانة مؤسسها (كاك أحمد الشيخ) إبن الشيخ معروف النودهي مرشد الطريقة القادرية ، وكان الشيخ سعيد من المقربين للسلطان عبد الحميد الثاني (1876–1909) وقد زار إستانبوب سنة 1904 ، أنظر :
E. B. Soane, To mesopotamia and kurtistan in Disguise, (London, 1926), P. 187.

(24) محمـد طاهـر العمري ، تاريخ مقـدرات العراق السياسية ، جـ 3 ، (بغداد 1925) ص 119 .

(25) E. S. Stevens, By Tigris and Euphrates, (London, 1923 P. 189.

(26) ويقع المزار في وادي لالش في الشمال الشرقي من مدينة الموصل .

(27) صديق الدملوجي ، إمارة بهدنيان ، (الموصل ، 1952) ، ص 128 .

(28) Bell, Review, P. 54.

(29) الدملوجي ، المصدر السابق ، ص 128–129 .

لقد أصبح الفلاحون من جراء ذلك بين نارين ، نار الحكومة ونار الملاكين ، حيث كانت بدلات الالتزام وحصة المستأجرين الجدد تجبى بصعوبة كبيرة بسبب المقاومة التى كان يبديها الفلاحون ، لهذا اصبحت الاغارة على القرى بقوات (الجندرمة) لتحصيل الضرائب الحكومية أو حصة المستأجرين بالقوة أمرا مألوفا . فقد كانت ثمة قوة رئيس عشيرة الجاف الخاصة من الفرسان والمسماة (بشت ماله) (30) مستعدة للاغارة على اية مجموعة من العشيرة تعصى أوامره فى دفع الضرائب . زيادة على ذلك ، كان لرئيس العشيرة ضرائبه الخاصة به أمثال ضريبة (دومخة) (31) و (سورانه) (32) و (الديوان) (33) وتزداد هذه الضرائب لتصبح مرهقة للفلاحين فى بعض القرى . الى جانب ذلك مارست بعض الاتحادات القبلية الكردية كاتحاد الهماوند دورها فى الحصول على الاراضى ، فقد كوفىء زعماء الهماوند بعد مساهمتهم فى حرب الدولة العثمانية مع روسيا (1877 ـ 1878) بتوسيع أراضيهم فى منطقة بازيان (34) .

كما كانت هناك الاراضى السنية ، التى تعود للسلطان عبد الحميد الثانى (1876 ـ 1909) وكان لها ادارة خاصة وقد شملت مساحات واسعة قرب مدينة الموصل والسهول الواقعة بين الزاب الاعلى والزاب الاسفل ، ومناطق ديلين ومولوان وباقره جوفى السليمانية ، وأراضى واسعة فى قضاء مخمور (35) وكانت حالة الفلاحين فيها احسن من حال سائر الفلاحين فى العراق ، اذ كان مستأجروها يحصلون على نصف المحصول ، ويضمنون فى حالة قلة المحصول ان يحصلوا على بعض التعويضات والمساعدات والسلف . كما كان فلاحو هذه الاراضى معفوين من الخدمة العسكرية .. وقد بقيت هذه الاراضى ، من الناحية العملية تحت التصرف الفعلى للزراع ، وكانوا يدفعون حصتى الطابو والحكومة معا الى الادارة السنية وبنسبة 20 % من الحاصل لكل من الحصتين (36) . ومع ان الاراضى السنية كانت أفضل الاراضى فى العراق، وكانت وارداتها السنوية تزيد على مئات الالوف من الليرات العثمانية ، الا انها فقدت هذه الامتيازات بعد ثورة 1908 فامتدت اليها يد الاهمال وأخذت أحوال فلاحيها بالتدهور (37) .

(30) كلمة كردية تعني حراس الأمير .
(31) وهي أخذ نسبة معينة على الأغنام مع خرافها أيام الربيع ، ومن مجموعها يشكل قطيع يستفيد الأغا والأمير من حلبيه ، وتكون الخراف له ، ويعيد الأغنام إلى أصحابها ، وتتجدد هذه العلمية في كل ربيع .
(32) هي الضريبة على الزواج .
(33) هي الضريبة التي تؤخذ لإدارة ديوان الأغا .
(34) باسيل نيكيتين ، الأكراد ، (بيروت ، 1967) ، ص 143 .
(35) الجواهري ، المصدر السابق ، ص 43 .
(36) المصدر نفسه ، ص 43—44 .
(37) عبد الله الفياض ، الثورة العراقية الكبرى ، (بغداد 1962) ، ص 27 .

اما القرى الموقوفة على التكايا واصحاب المراقد ، فقد كان ضررها أشد من الملكية نفسها ، اذ يجوز ان تتحول الملكية او تزول ويطلق الفلاحون من الاسر ، ولكن الاراضي الوقفية ، يبقى أهلها في حالة العبودية مدى الدهر (38) .

ومما يلفت النظر أن يحتفظ المسيحيون في القرى المحيطة بمدينة الموصل بأراضيهم ، وسط هذا كله ، فقد تمكنوا من ابعادها عن أيدي الملاكين الموصليين ، وربما يرجع ذلك الى مجهودات بطاركتهم وأساقفتهم ، فضلا عن استفادتهم من مبدأ حماية الدول الاوربية لهم ، خاصة أولئك الذين يعتنقون المذهب الكاثوليكي (39) .

نتيجة لتدفق رؤوس الاموال الاجنبية نحو الموصل واتجاه التجار الاوربيين الى ان يجعلوا العراق كله للخامات ، وسوقا لتصريف بضائعهم ، محاولين ربط اقتصاده باقتصاد السوق العالمية ، ازداد الطلب على المنتوجات الزراعية والحيوانية ، وتحت تأثير ضغط الملاكين الجدد اتجه الاقتصاد على العموم من اقتصاد طبيعي يسد الحاجة المحلية الى اقتصاد التسويق القائم على الربح . وتعد الموصل ، أسرع من باقي مناطق العراق الاخرى ، في تطور العلاقات الاقتصادية والاجتماعية الجديدة ، فقد كثر الاقبال على زيادة المساحات المزروعة في جنوبي سنجار ، والاقسام الغربية من المنطقة الكردية . ولعل ذلك يرجع الى أهمية موقع الموصل وكونها سوقا للمنتجات الزراعية والحيوانية ، فهي ملتقى طرق ، كما سبق ان قدمنا وتضم مدنا تجارية مهمة كالموصل والسليمانية وكركوك (40) . وكذلك لظروفها الزراعية المتميزة ، وكان لعدم شمول ولاية الموصل بالارادتين السنيتين اللتين (41) منعتا انتقال الاراضي بالطابو في ولايتي بغداد والبصرة ، دور كبير في تحول الفلاحين من مالكين للارض الى مستأجرين . ولقد شدد الملاكون ، على الفلاحين من أجل زيادة الانتاج الزراعي ، على الرغم من عدم تقدم وسائل الانتاج التي ظلت بدائية بسيطة حتى أواخر العهد العثماني (42) .

لقد ساعدت التطورات الجديدة تلك على احداث تغيير في علاقات الانتاج ، وايجاد روابط جديدة بالسوق الخارجية وأسهمت في ذلك عوامل أخرى

---

(38) الدملوجي ، المصدر السابق ، ص 126–128 .

(39) Bell, Review, p. 54.

(40) أنظر بحثنا المشار إليه آنفا ، ص 231 .

(41) وصدرت الأولى سنة 1880 والثانية سنة 1890 . وقد منعت الإرادة الأولى منح أراض أخرى بالطابو سواء بدفع بدل المثل أو بواساطة المزايدة . كما أبطلت الثانية حق القرار وهو الحق الذي يقضي بتسجيل الأرض بالطابو باسم مستثمرها الفعلي مجانا إذا كان قد تصرف بها لمدة عشر سنوات متتالية قبل إصدار القانون وللتفاصيل أنظر : الجواهري ، المصدر السابق ، ص 40–41 .

(42) Hashim Jawad, The social structure of Iraq, (Jerusalem, 1945), P. 10.

داخلية وخارجية ، فبعد افتتاح قناة السويس سنة 1869 برزت ظاهرة نشوء واتساع تجارة التصدير الى أوربا • وأصبح لتجار الموصل فعاليات مهمة فى مجال التصدير والاستيراد (43) . وساهمت البنوك فى تسهيل عملية التعامل المصرفى ، وكان لهذه النشاطات أثر كبير فى نشوء فئة برجوازية تجارية جديدة عملت على تنظيم نفسها داخل ما سمي بـ « تجارت اورطه سى » أى غرفة التجارة (44) وكانت هذه الفئة على صلة قوية بالاوساط الاقطاعية المحلية وظهر هذا واضحا فيما بعد ، حيث ان العوائد الاقتصادية فى الموصل حتى أواخر الحرب العالمية الاولى ظلت مقتصرة على «عوائل قليلة العدد • كثيرة المال » (45) ومن هؤلاء آل الصابونجي وآل العمرى وآل الجادر وآل خياط فى الموصل وآل بابان فى السليمانية وآل نفطجى فى كركوك . وقد أخذت هذه الفئات تحاول ان تثبت وجودها وتعبر عن واقعها بشكل أو بآخر ، وكان كل تغيير فى ذلك التعبير يعتمد الى حو كبير على مدى تطورها، خاصة فى امكاناتها لايجاد مواقع ثابتة لها فى الحياة الاقتصادية ، والى شيء من هذا القبيل يشير لونكريك فيقول : ان هذه الفئة استطاعت ان تحافظ على وضعها المتاز فى مضمار السيادة والنفوذ حتى فى فترة الاحتلال البريطانى (46) .

وبالرغم من المواقع الاقتصادية التى احرزتها هذه الفئات البرجوازية الا انها لم تستطع ان تتحول الى قوة مستقلة فى الكيان الاجتماعى ، بحيث تفرض رياح التغيير على مجتمع الولاية ، وربما كان المثقفون ، وهم أساسا من ابناء العوامل الكبيرة ، او من البيوت الدينية والتجارية المعروفة آنذاك ، القوة التى تحولت داخل البرجوزاية لتبنى الفكر القومي ، الذى ازداد الشعور به خاصة بعد ثورة 1908 الدستورية . ولقد عملت فئة المثقفين الموصليين على اثارة الوعى القومي العربى بدرجة لا تقل أهمية عما جرى فى الولايات العربية الاخرى (47) • ولم يؤثر توغل العنصر الكردى فى داخليته الولاية على ذلك ، كما أشار الى ذلك بعض الكتاب (48) ، وانما حدث العكس من ذلك حين تأثر الاكراد كاخوانهم العرب بكافة التطورات السياسية فى الدولة العثمانية ، وسارت القوميتان العربية والكردية فى خطين متوازيين يستهدفان العمل من أجل التحرر من السيطرة العثمانية (49) .

(43) للتفاصيل أنظر بحثنا المشار إليه آنفا .

(44) موصل ولايتي ، سالنامه ، سميسيدر ، 1312هـ ، ص 52 . وأكد لي أحد تجار الموصل وهو المرحوم حمدي جلميران في مقابلة معه بتاريخ 1973/9/20 وجود جمعية في الموصل باسم (جمعية التجارة والزراعة) قبل الحرب العالمية الأولى .

(45) عبد الرحمن صالح ، كتاب العمر ، مذكرات شخصية غير منشورة ، الورقه (95) .

(46) S.H. Longrigg, Iraq, 1900 to 1950, (Beirut, 1968), p. 47.

(47) للتفاصيل أنظر بحثنا : الحركة العربية في الموصل قبيل الحرب العالمية الأولى ، مجلة الخليج العربي ، البصرة ، العدد 7 ، 1977 ، ص 80 .

(48) Longrigg, Op. Cit., P. 45.

(49) أنظر بحثنا : الحركة العربية في الموصل ، ص 86 .

— 4 —

طبيعـة المجتمـع الموصـلى :

لعل من أبرز المشاكل التى تعترض الباحث فى التاريخ الاجتماعى لولاية الموصل ، عدم وجود احصائيات دقيقة لسكانها ، وقد حـالت دون تحقيـق الاحصائيات الدقيقة تلك اعتبارات كثيرة اجتماعية واقتصادية تعد فى الواقع أسبابا ونتائج للتكوين الاجتماعى . فلقد تعود معظم السكان ، خاصة أهـل الريف ، ان ينظروا الى اعمال حكومية من هذا القبيـل نظـرة شـك وريبـة ويعتقدون انها للتجنيد أو لجباية الضرائب فيتهربون منهـا أو ينقصـون أو يزيدون فيها حسب مفاهيمهم لها . أضف الى ذلك ان تسجيل النفوس يقتضى له قبل كل شىء ان يتمتع السكان بنوع من الاستقرار فى السكن ، حين ان قسما كبيرا من السكان فى حركة مستمرة من محل لأخر ، وأخيرا فان انتشار الجهل والامية بصورة كبيرة فى كافة انحاء الولاية يقف عائقا دون ادراك الناس لاهمية تسجيل النفوس (50) .

ومهما يكن من أمر ، فان عدد سكان الولاية لم يكن ثابتـا طـوال العهـد العثمانى . وكان طبيعيا ان تترك النكبات الطبيعية التى تعرضت لها الولاية من طواعين واوبئة ومجاعات آخرها مجاعة 1917 التى أودت بأكثر مـن عشرة آلاف نسمة ، أثر على عدد السكان (51) . ولكن ثمـة اشـارات ، تستند الى استقراء الاوضاع الاقتصادية او استتباب حد أدنى من الامن ، تدل على وجود زيادة كبيرة قد طرأت على سكان الولاية .. ومع ان المصادر الرسمية العثمانية لسنة 1907 (52) قد قدرت نفوس ولاية الموصل بـ 351/200 نسمة مع ملاحظة ان العدد يشمل الذكور فقط ، فان الدكتور محمد سلمان حسن (53) ، يورد أرقاما تختلف مع الرقم المذكور استنادا الى تخمين قام به على أساس المعلومات المتـوفـرة فى تقـارير القنـاصـل البريطـانيين وللسنـوات 1867 — 1919 ، وكمـا يـلى :

النمـو الكـلى لسكـان ولايـة الموصـل
(بالآلاف) *1867 — 1919*

السنة 1867	السنة 1890	السنة 1905	السنة 1919
265	401	540	703

(50) Jawad, Op.cit., p. 18

(51) لقد تعرضت الموصل إلى سلسلة من الأوبئة والمجاعات طيلة العهد العثماني وكان لذلك آثرا إجتماعية أبرزها إعتياد السكان على خزن كميات كبيرة من الغلال في أقبية خاصة تحت الأرض .

(52) موصل ولايتي ، سالنامه رسميسيد ، (موصل 1325—1907) ، ص 130 .

(53) التطور الإقتصادي في العراق ، ج 1 ، ص 41 .

تشكل الموصل نقطة احتكاك وتفاعل دائم بين أقاليم طبيعية أربعة مهمة ، فهي من ناحية منطقة انتقال من الصحراء المنبسطة الجافة الى الجبال المطرة وما وراءها ، وهي من ناحية اخرى منطقة التقاء بين اقليم الجزيرة وبين السهل الرسوبي أو سواد العراق .. ولا شك في ان لكل من هذه الاقاليم الطبيعية تأثيره الخاص المتميز في تشكيل الحياة السياسية والحضارية والاجتماعية للموصل ، مما منحها بتوالي العصور شخصية محلية واضحة المعالم ظاهرة القسمات (54) فلقد تميز المجتمع الموصلي في العهد العثماني ، ولا يزال ، بتعدد وتنوع قومياته وأديانه ، وعاشت عناصره منذ عصور بعيدة متجاورة مشتركة وفي اجواء غلب عليها طابع التعاون والتسامح والمودة ، بحيث بدأ السكان الموصليون وكأنهم ينتمون الى عنصر واحد . فمن الناحية الاثنية ضمت ولاية الموصل العرب والاكراد والتركمان ، فبالنسبة للعرب ، فانهم عاشوا في الموصل منذ عصور ما قبل الاسلام وانتشروا في اطرافها ابان حروب التحرير العربية واستمروا يغذونها بالهجرات حتى القرن السابع عشر حتى منحوها صبغتها القومية ، ولعل من أبرز القبائل العربية التي استوطنت الموصل بعد تمصيرها تغلب ونمر وأياد وقريش وبنو الحارث والعزة والحياليون والبونجمة وقد اتخذت هذه القبائل لنفسها محلات خاصة داخل مدينة الموصل لا تزال حتى يومنا هذا تسمى باسمهم • فالخزرجيون مثلا سكوا في محلة خزرج الواقعة في الجهة الغربية من الموصل واستقر المشاهدة في محلة تدعى باسمهم حتى الآن وتقع الى الجنوب الغربي من مدينة الموصل (57) •

اما الاكراد ، فقد سكنوا المنطقة الجبلية من ولاية الموصل وتقع الى الشمال والشرق من مدينة الموصل •• اذ تمتد الجبال محيطة بسهول العراق من الشرق الى الشمال على شكل قوس ، ويتفاوت ارتفاعها بين 8000 و 11000 قدم • وبين هذه الجبال والاراضي السهلة الكائنة في شرق نهر دجلة ، الروابي المتوجة المرتفعة التي يتفاوت ارتفاعها بين 100 و 7000 قدم ، وتأخذ سلاسل الجبال في الارتفاع تدريجيا كلما تقدمنا نحو الشرق أو الشمال ، وهي تنحدر غربا حتى تتصل بسهول الموصل وتجري المياه في الوديان ، يكسو البعض منها اشجار وأدغال ، وتسقط على هذه المنطقة امطار غزيرة ، وكثيرة من وديان المنطقة ذوات تربة خصبة تصلح للزراعة ، وتمثل منطقة الجبال حاجزا ستراتيجيا مهما يحمي اقليم الجزيرة ، وكان لسيطرة الموصل على هذه المنطقة ، أثر كبير في توفير القوة للمنطقة كلها (56) •

---

(54) رؤوف ، الموصل في العهد العثماني ، ص 10–11 .

(55) أحمد علي الصوفي ، حكايات الموصل الشعبية ، (بغداد ، 1963) ص 10 .

(56) للتفاصيل أنظر : طه الهاشمي ، فصل جغرافية العراق ، (بغداد ، 1923) ص 175–177 ، وكذلك رؤوف ، المصدر السابق ، ص 14–15 .

وبالنسبة للتركمان ، فليس ثمة احصائيات لنفوسهم ابان العهد العثماني، ولكن الكتيب الذي نشرته وزارة الخارجية البريطانية سنة 1920 يشير الى ان عددهم في ولاية الموصل يبلغ (120000) نسمة (57) ولا يؤلف التركمان كتلة مجتمعة في أي جزء من الولاية بخلاف العرب والاكراد بل هم موزعون في المدن والقرى المختلفة . ويعيش التركمان بين موطن العرب جنوبا وعلى طول الخط الممتد من تلعفر ابتداء من قرى الشبك والرشيدية بالقرب من مدينة الموصل مارا بمدينة اربيل ، والتون كوبرى ، ومن ثم مدينة كركوك ويمر بتاز خرماتو ، داقوق ، طوزخرماتو وقسم من قرى البيات ، كفرى ، قره تبه وحواليها . ويتركز معظم التركمان في مدينة كركوك والقرى المجاورة لها مثل تركلان وليلان وغيرهما (58) .

وتقطن الموصل جماعات اثنوغرافية من السكان يطلق عليهم اسم «الشبك» وفي قرى يبلغ عددها قرابة خمسين قرية معظمها يقع الى الجانب الشرقي من مدينة الموصل . وثمة احصائيات تشير الى ان عددهم أواخر العهد العثماني يتراوح على وجه التقريب بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألف نسمة . ولغة الشبك مزيج من العربية والكردية والتركية .. ويعمل معظمهم في الزراعة ومن قراهم القاضية ، شريخان ، يارمجة ، كوكجلي ، الشمسيات ، اورطة خراب ، بايبوخ ، بعويزه (59) وقد كتب عنهم الاستاذ أحمد حامد الصراف (60) يقول : « ان الشبك أهل زرع وضرع ، وما زالت البداوة قائمة فيهم ولم ينسلوا بعد منها » ومن خصائصهم أنهم أشد تعلقا بالسادة المنحدرين من صلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعندهم ان وجود السيد الهاشمي بينهم مصدر خير وبركة ، وطبقات الشبك الاجتماعية هي الاغا ، البير ، الرهبر ، المريد ، الملا ، القلندر ، وهو صاحب السلطة الروحية . ويرى بعض المؤرخين ان الشبك من بقايا الفرق الغالية في الاسلام ، ولكن عدد كبير منهم قد عاد الى حظيرة الشيعة الاثنى عشرية (61) .

اما الباجوان فهم جماعات تقطن في قرى شرقي الموصل ،ولغتهم خليط من العربية والكردية والتركية وهم من السنة . ومن قراهم عمركان ، تبراغ ،

(57) المركز الوطني للوثائق ، ملفات البلاط الملكي ، ملفة تركيا وقضية الموصل والحدود رقم 5 ، 4 ، 1 ، وقد جاء في المذكرة البريطانية التي قدمت بخصوص الحدود بين تركيا والعراق إلى عصبة الأمم في 5 أيلول 1924 أن عددهم لا يزيد عن (64،895) نسمة .

(58) عبد اللطيف بندر أوغلو ، التركمان في عراق الثورة ، (بغداد ، 1973) ، ص 17 .

(59) للتفاصيل ، أنظر : شاكر صابر الضابط ، موجز تاريخ التركمان في العراق ، ج1 ، (بغداد ، 1960) ، ص 108 ، وكذلك : أحمد حامد الصراف ، الشبك ، أصلهم ، لغتهم (بغداد ، 1954) ، ص 89 .

(60) الشبك ، ص 145 .

(61) شاكر صابر الضابط ، موجز تاريخ التركمان في العراق ، ج 1 ، (بغداد ، 1960) ، ص 110 .

زياره ، ومن قرى الشبك التي يسكنها الباجوان ، جيلوخان ، اروطة خراب • تل عاموده ، كهريز (62) •

وهناك الصارلية ويقيمون في قره تبه ويسكنون قرابة خمسة عشر قرية بين الموصل واربيل على الجانب الايمن والايسر من الزاب الاعلى ومن قراهم في الموصل بساطليه ، تل لبن ، خراب (63) .

ويسكن الماولية الموصل وتلعفر ، وهم لا يختلفون عن الصارليه الا بالمذهب وعددهم قليل ويوجد عدد منهم في قرى الشبك والباجوان (64) .

اما من الناحية الدينية ، فان الاسلام ، هو الدين السائد في ولاية الموصل ويمثل المسلمون حوالى 80 % من مجموع السكان . ويتركز المسيحيون في بعض القرى الريفية المحيطة بمدينة الموصل كتلكيف والقوش وبرطلة . وقد سكن اليهود في محلة خاصة بهم في الموصل • كما سكنوا في بعض القرى الكردية كصندور شمال مدينة دهوك • وهناك اليزيدية وثمة احصاء يتعلق بالمعتقدات الدينية لسكان ولاية الموصل يرجع الى اواخر الحرب العالمية الاولى يشير الى أن الفئات غير لمسلمة تمثل 18،3 % من مجموع سكان الولاية (عدا لواء السليمانية) ويتوزع السكان على ألوية الموصل كما يلي (65) :

اللـواء	المسلمين	المسيحيين	اليهـود	أديان أخرى	المجموع
المـوصـل	261903	50670	7635	30180	350378
اربـيـل	96100	4100	4800	1000	106000
كـركـوك	90000	600	1400	—	92000
السليمانية	153000	100	1000	—	155000
	600993	56470	14835	41180	703378

★ ان مجموع سكان العراق بلغ آنذاك 2849282 نسمة •

كان المسلمون يؤلفون الاغلبية العظمى من سكان ولاية الموصل ، اذ بلغ عددهم سنة 1919 (993 و 600) نسمة من مجموع سكان الولاية (703و378) نسمة (66) • ويتألف المسلمون من عدة قوميات هي : العربية ، الكردية ، التركمانية ، وينتمي معظم مسلمي الموصل من العرب الى المذهب الحنفي ، اما الاكراد فأكثريتهم من الشوافع ، وكانوا لكل من اتباع هذين المذهبين مفت

(62) الصراف ، المصدر السابق ، ص 8 .
(63) الضابط ، المصدر السابق ، ص 106 .
(64) المصدر نفسه ، ص 108 .
(65) المركز الوطني للوثائق ، ملفات وزارة الداخلية العراقية ، ملفة مخابرات متنوعة في الألوية المختلفة رقم ، 4 ، 1 ، 5 تسلسل (3) .
(66) المصدر نفسه .

خاص يرتبط بمفتي استانبول (67) . ولم تشهد ولاية الموصل اى خلاف عقائدى بين اتباع المذهبين الاسلاميين او بين المسلمين عموما واتباع الديانات الاخرى فى المدينة (68) . وقد لاحظ بعض الرحالة ان المشاكل الدينية لم يكن لها أثر على علاقات الطوائف الدينية ببعض لغلبة ما سمى آنذاك بـ « العصبية المحلية » على الجميع وانصهارهم فى الحياة الاجتماعية المشتركة (69) .

وقد تركز المسيحيون فى مدينتى الموصل وأربيل فى سلسلة غنية أوسعها تلكيف والقوش ، وتمتد قرى المسحيين الى شرق دجلة وفى منطقتى دهوك والعمادية . ومسيحيو الموصل وطنيون من سكانها القدامى دانوا بالنصرانية بعد منتصف القرن الاول وانتشرت اديرتهم فيها كدير مارمتى ودير ماربهنام ودير ماركوركيس ودير الربان هرمزد . وبقى نصارى الموصل منقسمين فى ولائهم الدينى بين الكنيستين القديمتين السريانية والنسطورية والسريانية ـ اليعقوبية (الارثودكسية) حتى القرن السادس عشر حين تعرضوا لمحاولات البعثات التبشيرية الاوربية الكاثوليكية لتحويلهم الى الايمان بتعاليم الكنائس الغربية القائمة . ولقد شهدت الفترة الواقعة بين القرن السادس عشر ومنتصف القرن الثامن عشر « انشقاقات طائفية خطيرة شملت اتباع الكنيستين النسطورية واليعقوبية على حد سواء » . وكان لا بد أن يتميز المتكثلكون عن اخوانهم من الذين ثبتوا على عقائدهم القديمة بتسميات جديدة فتسمى السريان النساطرة المتكثلكين باقتراح بابوى (كلدانا) فى حين يعرف اليعاقبة الكاثوليك بالسريان (70) .

وهكذا اصبح نصارى الموصل حسب مذاهبهم الدينية كما يلى :

1 ـ اتباع الكنيسة الكاثوليكية ، وهم : الكلدان ، السريان ، الارمن ، الروم ، اللاتين .

2 ـ اتباع الكنيسة الارثودكسية (اليعاقبة) ، وهم : السريان الغربيون، والارمن ، والروم ،

3 ـ اتباع الكنيسة الشرقية الحرة (النساطرة) ، وهم : الاثوريون ، والسريان الشرقيون (القدماء) .

4 ـ اتباع الكنيسة البروتستانتية (الكنيسة الاثورية الانكليكانية) ، وهم : الاثوريين الذين انشقوا عن الكنيسة الشرقية ، وهناك بعض

---

(67) رؤوف ، المصدر السابق ، ص 332 .

(68) المصدر نفسه ، ص 323 .

(69) J. Bucking ham, Travels in Mesopotamia, 11, (London, 1827)P. 33.)

(70) للتفاصيل ، أنظر : رؤوف ، المصدر السابق ، ص 328 .

البروتستانت من السريان ينتمون الى كنيسة السبتيين ، اضافة الى بروتستانتين ينتمون الى طوائف متعددة (71) .

ويأخذ التوزيع الجغرافى للنصارى فى الموصل شكلا مبعثرا ، ولا تكون أماكن تركزهم اقليما متميزا عما يجاوره . بل هناك تجمعات سكانية نصرانية متباعدة . وثمة عوامل جغرافية بشرية وراء ذلك ، منها وجود الاديرة والكنائس القديمة حيث يتجمع النصارى حول اماكنهم الدينية المقدسة وأشهرهم دير مار بهنام (القرن الرابع) ودير مار متي (القرن الرابع) ودير مار الربان هرمز (القرن السابع) ويوجد المسيحيون فى دهوك والعمادية وفى منطقة اربيل . ومن قرى اربيل المسيحية عينكاوة ، وتعد بلدة قرقوش فى شرقى مدينة الموصل وتلكيف التى تبعد عن الموصل 9 أميال شمالا ضمن سهل نينوى وبرطلى على بعد 15 ميلا شرقى مدينة الموصل نموذجا لقرى نصرانية من ناحية تخطيطها وتنظيمها ، فقرقوش مثلا عبارة عن قرية كبيرة نشأت حول بعض الكنائس القديمة ، ويمارس معظم سكانها حرفتين ، فهم يمارسون الزراعة فى الاراضى المحيطة بالقرية والتى تمتد الى ما يقرب من 12 كيلومترا عن البلدة ، والى ان تحل فترة الحصاد يعملون فى بعض الصناعات اليدوية البيتية التى تعتمد على المواد الاولية الزراعية ، ومن هذه الصناعات : صناعة السجاد والبسط الصوفية (الكجى) وبعض الملابس الصوفية الرجالية كالعباءة الصوفية والفراوى (جمع فروة) (72) .

ولقد تمتع اليهود فى الموصل ، شأنهم فى ذلك شأن ابناء الطوائف الاخرى غير المسلمة فى كل الولايات العثمانية باستقلال ذاتى فى تنظيمهم الطائفى حسب نظام الملل الذى كان معمولا به فى الدولة العثمانية (73) ويقول لونكريك : ان ألوفا من اليهود عاشوا فى الموصل خلال العهد العثمانى مكنبين على مزاولة الحرف التى عرف بها عنصرهم (74) . ويصعب تحديد عدد اليهود، فقد بلغ عددهم فى مطلع القرن العشرين (14835) نسمة تتوزع بين الموصل (7635)نسمة وأربيل وكركوك والسليمانية (75) .

وانتهج الجليليون فى الموصل (1726 - 1834) سياسة خاصة تجاه اليهود، ففى الوقت الذى كانت فيه بغداد تضج من مؤامرات الصيارفة اليهود ، نجد

---

(71) للتفاصيل أنظر : منذر عبد المجيد البدري ، جغرافية الأقليات الدينية في العراق ، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت إلى جامعة بغداد ، 1975 ص 57 .

(72) المصدر نفسه ، ص 113 ، 124 ، 279 .

(73) ويقوم نظام الملك الذي أوجده السلطان محمد الفاتح بعد فتحه القسطنطينية 1453 على السماح لأهل الذمة بالإحتفاظ بقوانينهم الخاصة وتطبيق تلك القوانين على أبناء الملة الواحدة تحت إشراف عام من قبل سلطة روحية معترف بها تكون مسؤولة أمام الحكومة .

(74) Longrogg, *op. cit*, p. 21

(75) علي إبراهيم عبده وخيرية قاسمية ، يهود البلاد العربية ، (بيروت ، 1971) ، ص 47 .

ان الموصل ظلت بعيدة كل البعد عن هذه المشاكل . والسبب فى ذلك ان الحكام الجليليين تعمدوا ابعاد اليهود عن تولى المناصب المالية . ولم نسمع خلال فترة حكمهم عن يهودى شغل منصبا فى الولاية ، على ان ذلك لم يمنعهم بأية حال من ممارسة اعمال تجارية واسعة دون أن يضايقهم أحد (76) .

اما اليزيديون ، فأغلب الظن انهم مجموعة اثنوغرافية ، فهم خليط من عرب وأكراد تجمعهم العقيدة الدينية (77) وهناك احصائية تشير الى ان عددهم فى أواخر العهد العثمانى ، لم يكن يزيد عن (14900) نسمة ، والقسم الغالب من اليزيديين يتضمن جبل سنجار ، وهناك كثير من القرى اليزيدية فى الشيخان شمال شرقى الموصل (78) ويتركز اليزيديون حول مراقد ومزارات مشايخهم ورجال دينهم ويتحتم عليهم زيارتها للتبرك بها . وأبرز مزاراتهم مرقد الشيخ عدى بن مسافر فى وادى لالش فى الشمال الشرقى من مدينة الموصل . ويتألف اليزيديون من قبائل عديدة منها الدنادية والقايدية والخالته والهبابات والهسكان والمهركان . ومن أشهر القرى اليزيدية فى الشيخان باعذرى ، وعين سفني ، وبعشيقة . اما فى سنجار فأهمها برد حلي وكهبل وقزلكند وجداله (78) .

وكان لليزيدية رئيسان أحدهما دنيوى ويلقب بالمير ، والثانى دينى وسمى بابا شيخ اى الشيخ الكبير . ويقوم النظام الدينى والاجتماعى عند اليزيدية على طبقية حادة ففضلا عن المير ، وبابا الشيخ ، هناك الشيخ والبير والفقير والقوال والكوجك والمريد . فبالنسبة للشيخ ، ينبغى ان يكون من أصول عشائرية ثلاثة هى : الادانية والشمسانية والقاتانية ولكل اصل من هذه الاصول ينتهى نسب كل أسرة من أسر المشايخ . فقد خصت أسرة الشيخ حسن ، وهى من الاصل الاديانى بالقراءة والكتابة اللتين حرمتا على غيرها . وخصت أسرة الشيخ فخر الدين وهى من الاصل الشمسانى بمقام البابا شيخ وهكذا . وقد حرمت الديانة اليزيدية التزاوج بين هذه الاصول الثلاثة . كما فرض على كل يزيدى ان يكون له شيخ يقاسمه رزقه ، ويكفر سيئاته ويحضر وفاته . ويعتقد مشايخ اليزيدية انهم من سلالة يزيد بن معاوية الاموى وان جزءا آلهيا قد حل فيهم فمنحهم القدرة على تغيير مجرى الحوادث وأباح لهم الانتشار بين القرى اليزيدية كافة وهم لا يحلقون ذقونهم ولا يقصون شواربهم (80) .

---

(76) رؤوف ، الموصل في العهد العثماني ، ص 348 .
(77) شاكر خصباك ، العراق الشمالي ، ص 185–187 .
(78) أنظر : شمس الدين سامي ، قاموس الأعلام ، ج 6 ، (الأستانة ، 1898) ص 4483 .
(79) أنظر رسالتنا للماجستير التي قدمت لكلية الآداب / جامعة بغداد سنة 1975 ، والموسومة « ولاية الموصل : دراسة في تطوراتها السياسية 1908–1922 » وهي غير منشورة ، هامش ص 106 ، وكذلك البدري ، المصدر السابق ، ص 174 .
(80) للتفاصيل أنظر : هاشم البناء ، اليزيديون ، ط 1 ، (بغداد 1964) ص 84–95 .

اما البير ، فهو مرشد الطريقة أو رئيسها ويلي البير الشيخ فى المرتبة الدينية ، ويكاد البيره ينحصرون فى أسر معدودة أباحت الديانة اليزيدية لها حق التزاوج فيما بينها وعلى البيرة ان يقصدوا مرقد الشيخ عدى فى عيد الجماعية وفى المربعانيتين الصيفية والشتوية ، ليطعموا مريديهم على حسابهم الخاص ، ويرشدوهم الى تعاليم اليزيدية ، فان لكل بير جماعة من المريدين ، وقد قضت سنة الزكاة ان ينال البيرهبة من حاصلات مريديه (81) .

اما الفقير فهو الناسك الذى زهد فى الدنيا ، والفقراء اليزيدية لباس خاص يسمونه (خرقة الفقير) وهو قطعة من قماش الصوف الاسود تكم بحلقات من النحاس الاصفر الصدرية يلبسها الفقير على صدره فلا ينزعها الا اذا خلقت فيستبدلها بغيرها ، بعد ان يعلقها فى محل خاص حتى تبلى اما اذا مات فانه يدفن بخرقته . كما ان له حبلا دقيقا يربطه الى عنقه يسمونه « المفتول » وطاقية يضعها تحت عمته السوداء يسمونها « كمة الفقير » فلا يجوز الاعتداء عليه احتراما للخرقة والمفتول والكمة ، مهما أجرم ، كما انه لا يجوز الحلف بهذه الخرقة كذبا . وقد أباح التقليد الدينى لكل يزيدى ان يصير فقيرا بعد ان ينذر نفسه لحياة الزهد والطاعة ويكتسى خرقة الفقير على ان يصادق الامير على أهليته لسلوك هذه الطريقة ويلبسه خرقة الفقير بيده (82) .

وتطلق كلمة القوال على مرتل الاناشيد الروحية فى المواسم الدينية . والقوالون شعراء مجيدون . وهم يعلمون أولادهم الرقص الدينى ويدربونهم على ضرب الدفوف والعزف بالشبابات ، ويلقنونهم القصائد والاناشيد ليربونهم عليها من صغرهم • وليس للقوالين ان يتزوجوا من غير سلالتهم • كما لا يجوز للشيوخ ان يتزوجوا بنات القوالين . ولا يحلق القوالون لحاهم ولا يقصون شواربهم وهم يقومون بالسفارة والنيابة عن أمير الشيخان ويتجولون فى القرى باسمه (83) .

والكوجك يعين المسكين ، وهذا الصنف يخدم فى مرقد الشيخ عدى ويقوم بخدمة السنجق المعروف بطاووس ملك فهم يستأجرونه من الميـر أو من شيوخهم ويتجولون به فى القرى اليزيدية وينتفعون من زيارته ، فيربحون من أجرة سنوية للمير ، وكل ما يفعلون انهم يرقصون حوله ، أو يتخذون افراحا مما يسمى بالجوبى (دبكة شعبية) وليست هذه من نوع التقاليد الدينية ، وانما هى اظهار للفرح والتبرك . وهؤلاء لا يتزوجون من فوقهم وانما يتزوجون من طبقتهم أو من طبقة دونهم فيتزوجون ببنات القوالين • وللكوجك سلطة على الكل . اذ أوجب الشارع احترامه وتصديقه (84) .

---

(81) المصدر نفسه ، ص 87—88 .
(82) المصدر نفسه ، ص 88—90 .
(83) المصدر نفسه ، ص 90—92 .
(84) المصدر نفسه ، ص 92—94 .

اما المريد ، فهو الفرد من عامة الشعب • وقد فرضت الديانة اليزيدية على المريدين الطاعة ، وعدم التدخل في الامور الدينية ، أو التساؤل عن اسرار الديانة اليزيدية . ولابد أن يكون لكل مريد شيخ وبير معا . فيقدم اليهما النذور والخيرات ، ويتلقى منهما التعليمات والارشادات ، والمريدون يتزاوجون فيما بينهم فقط (85) .

حاولت السلطات العثمانية في العهدين الحميدي والدستوري عدة أساليب عسكرية وثقافية لترويض اليزيدية جميعها بالفشل • فلقد تعرض اليزيدية في فترات الحكم العثماني الطويل الى كثير من الحملات التأديبية التي شنها عليهم العثمانيون ، وذلك لاعتقادهم بأن اليزيدية كفرة يجب قتالهم مستندين في ذلك على فتوى صدرت من شيخ الاسلام في القرن السادس عشر . وكان للحملات العسكرية تلك أثر كبير في اضمحلال اليزيدية وتناقص اعدادهم ، فقد كانوا عند مفتتح القرن الثامن عشر حوالي 25000 نسمة وصاروا في أواخر العهد العثماني ، كما اشرنا من قبل (14900) نسمة (86) •

كان اليزيديون ينفرون من الخدمة العسكرية ، ويعدونها حراما وذلك على حد اعتقادهم (87) . لهذا فقد كانوا يدفعون البدل النقدي شأنهم شأن المسيحيين واليهود ، لكن الحكومة العثمانية في العهد الحميدي أخذت تنظر اليهم على انهم فرقة من الفرق الاسلامية الضالة وتطبق بحقهم احكام الشريعة الاسلامية ، فأرادت ان تجبرهم على التجنيد ورفضت قبول البدل النقدي منهم . كما بدأت تمارس ضدهم أساليب ثقافيه بقصد اعادتهم الى الحظيرة الاسلامية ، فأوفدت الحاج مسعود بك نقيب ديار بكر لارشادهم ، لكنه لم ينجح في مهمته . وصادف ان كتب من الموصل في ولاية عبد القادر كمالي باشا 1890 بوجوب ارسال قائد عسكري يخول صلاحية واسعة لقمع العصاة والمتمردين واعادة الامن الى نصابه واصلاح ما يمكن اصلاحه . وقد اجابت استانبول الى ذلك وانتدبت في سنة 1890 الفريق عمر وهبي باشا لهذا الغرض باسم « مأمور اصلاحات العراق » وضمت مهمته الاصلية جلب اليزيدية الى الاسلام (88) . وبعد ان فشلت مجهوداته العسكرية ، ارسل معلمين ليعلموهم القراءة وأصول الدين لكن اليزيدية عمدوا الى طردهم وتهددوهم بالقتل اذا عادوا ثانية . ولما بلغ ذلك عمر وهبي ارسل الى قرى الشيخان حملة عسكرية أوقعت بهم اضرارا فادحة . كما أحرقت أربع قرى

---

(85) البناء ، المصدر السابق ، ص 94–95 .

(86) أنظر رسالتنا المشار إليها آنفا ، ص 103–105 .

(87) إدعى اليزيديون بأن اللون الأزرق ، هو زي الجند العثماني الجديد ، محرم لديهم ، كما إدعوا أن العقيدة اليزيدية تحرم عليهم بعض الأغذية ، أنظر : الدملوجي ، إمارة بهدينان ، ص 69 .

(88) كوركيس عواد ، اليزيدية ، مخطوط في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب / جامعة بغداد برقم 367 ، الورقة 59 .

من الدنادية غربي باعذرى (89) . ثم سار الفريق عمر وهبى الى سنجار فى محاولة مماثلة لاخضاعها . ولكن سرعان ما اضطرت استانبول الى سحبه فى نيسان سنة 1891 بعد الحاح سفراء الدول الأوربية . وفى 1904 اقتنعت الحكومة بقبول البدل النقدى منهم كالسابق (90) .

كانت هناك فى أواخر العهد العثماني أسرتان متنافستنان على حكم اليزيديين هما أسرة اسماعيل بك وأسرة علي بك ، وغالبا ما كانت تحدث خصومات بين هاتين الاسرتين . ولم تكن سياسة الاتحاديين تجاه اليزيدية واضحة ، فأحيانا كانت تستعمل اللين واخرى تستعمل العنف ، وقد أدى ذلك الى استمرار اليزيدية بالعصيان . لهذا فقد ارسلت الحكومة فى عهد ولاية أسعد باشا بالوكالة فوجين من القوات النظامية مع مدفعين جبليين الى سنجار ، وكانت الحملة بقيادة البكباشى (المقدم) محمود فائز أفندى . وقد هاجم اليزيدية صباح 5 أيلول 1912 وقتل الكثير منهم وخاصة من القزلكنديون، وكانت هذه الحملة مقدمة لاستتباب الامن حتى نشوب الحرب العالمية الاولى (91) .

كان سكان ولاية الموصل ، من الناحية الاجتماعية مقسمين الى ثلاثة اقسام رئيسية : العشائر وسكان القرى والارياف وسكان المدن . ومع ان هذا التقسيم عملي ويسهل البحث ، الا ان الخط الفاصل بين هذه الاقسام هو أقرب لان يكون اعتباريا اكثر منه واقعيا ، وذلك لان التطورات الكثيرة التى طرأت على أوضاع الولاية كانت فى كل يوم تزيل شيئا من المميزات الاجتماعية ولا سيما بين سكان القرى والارياف ، فحركة اسكان العشائر الرحل وتوطينهم وخاصة فى القرن التاسع عشر ، كانت عوامل قوية فى مزج السكان بعضهم ببعض وتغيير احوالهم الاجتماعية (92) .

ليس لدينا احصائيات تبين نسبة كل من هذه الاقسام الى مجموع السكان العام للولاية . لكن الدكتور محمد سلمان حسن ثبت جدولا اعتمد فى وضعه على تقديرات تخمينية بين فيها كيفية توزيع السكان حسب احوالهم الاجتماعية بالآلاف ويتضح من الجدول ان المركز النسبى لسكان القطاعات الثلاث : البدوية والريفية والمدنية ظلت مستقرة نسبيا خلال الفترة من 1867 وحتى 1905 (93) .

(89) ولاية الموصل ، ص 106 ، والدنادية عشيرة يزيدية .

(90) كانت بريطانيا بصورة خاصة تتظاهر بالعطف على اليزيدية . أنظر : عبد العزيز نوار ، داؤد باشا والي بغداد ، (القاهرة ، 1968) ص 132 .

(91) صديق الدملوجي ، اليزيدية ، (الموصل ، 1949) ص 511 .

(92) Jawad, *Op. Cit.*, P. 22.

(93) بلغ عدد نفوس العراق سنة 1905 (3،350،000) نسمة ، أنظر : محمد سلمان حسن . التطور الإقتصادي في العراق ، ص 53 .

التاريخ	البدوى	% من المجموع	الريفى	% من المجموع	المدنى	% من المجموع	المجموع
1867	70	26	140	52	55	22	265
1890	93	23	223	55	85	22	401
1905	153	28	254	47	133	25	540

تنتشر فى ولاية الموصل عشائر عربية وكردية عديدة . فمن العشائر العربية شمر الجربا والجبور والعبيد والجحيش والبومتيوت وطى والبو حمد وغيرها (94) . ولا تتوفر احصائيات دقيقة تعداد هذه العشائر ، ولكن يستفاد مما جاء فى قاموس الاعلام بأن عدد نفوس العشائر العربية التى تسكن الخيام يبلغ نحو (93000) نسمة (95) .

تعد عشيرة شمر الجربا من أبرز العشائر العربية فى ولاية الموصل (96) . وتنتشر فى أماكن متفرقة من الولاية ، فهناك اقسام منها عند نهر الخابور بالقرب من نصيبين ، وأقسام أخرى فى شرقى دجلة حول الزاب الكبير . ولعل القسم الذى يوجد فى المنطقة المحصورة بين دجلة والفرات حوالى الحضر من أكبر هذه الاقسام . وكان من عادة شمر ان تنحدر جنوبا الى منطقة عقرقوف بالقرب من بغداد (97) .

كانت رئاسة شمر فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر موزعة بين أخوين هما فارس على الخابور بالقرب من نصيبين وفرحان الذى اتخذ من الحضر على وادى الثرثار مقرا له (98) .

لا تتوفر احصائيات دقيقة عن شمر الجرباء فكثيرا ما تخمن اعدادها بـ (2000) نسمة وهناك من يقول بأنها تجاوزت فى أواخر العهد العثمانى (10000) خيمة (98) .

اتخذت عشائر شمر من « الخوة » وسيلة لكى تفرض نفوذها على العشائر الاخرى ، فأصبح فى استطاعة شيوخها منح أى جزء من الاراضى التى تنتشر

(94) للتفاصيل أنظر : عباس العزاوي ، عشائر العراق ، (4) أجزاء ، (بغداد ، 1939–1956) مكي الجميل ، البدو والقبائل الرحالة في العراق ، (بغداد ، 1956) .

(95) سامي ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 4483 .

(96) ينبغي الإشارة إلى وجود رسالة دكتوراه حول شمر ودورها السياسي في العراق للسنوات 1800–1958 قدمها جون ويلمسون إلى جامعة انديانا ، سنة 1975 وهي غير منشورة .

(97) Great Britain, Admiralty, Intellegence Departement, A Handbook Of Mesopotamia, Vol, 1, (London, 1918) P. 104.

(98) Ibid, Vol, 1, P. 104.

(99) Ibid, P. 104.

فيها للاستغلال المؤقت من قبل عشيرة أخرى • كما اخذوا يفرضون الخوة على القوافل التى تمر ضمن الطرق التى تسيطر عليها العشيرة . ولم يسلم العدوان والحديديون والجحيش والجبور من دفع الخاوة لشمر (100) .

كان الجبور وهم فرع من زبيد ، يوجدون فى مناطق عديدة من العراق وينزل قسم منهم بالقرب من نهر الخابور ورأس العين . اما مناطق انتشارهم فى ولاية الموصل فكانت أواسط نهر دجلة بين مدينة الموصل وسامراء (101). وهناك العبيد وهم ابناء عمومة الجبور وينتشرون شرقى دجلة بين تكريت وكفرى ويتركز معظمهم فى منطقة الحويجة فى كركوك . اما عشيرة طي فتمتد منطقتها فى الدرجة الاولى بين جبل سنجار ونصيبين • وتعد هذه العشيرة من العشائر القوية والكبيرة بعد شمر (102) .

والشيوخ فى العشائر العربية ، هو رؤساؤها وزعماؤها وسلطتهم كانت أعلى سلطة يخضع لها الافراد . ويتولى الشيخ المشيخة عن آبائه .ومهماته فى العشيرة وتنحصر فى تعيين مناطق اقامتها وتجوالها وتحديد طبيعة علاقاتها بالعشائر الاخرى ، وكان هو الذى يعلن الحرب ويطلب الصلح ويقرر التحالف ، كما كان مسؤولا امام الحكومة عن ضمان الامن فى مناطق عشيرته ، وغالبا ما كان الشيخ يقود عشيرته ضد الحكومة . ويرث الشيخ فى تولى المشيخة فى العشيرة عادة ابنه الاكبر ، الا اذا كان هذا الابن غير مؤهل بزعامة العشيرة ، اذ تسند المشيخة فى هذه الحالة الى ابرز الرجال فى بيت الرئاسة فى العشيرة . وقد الفت عائلة الشيخ فى بعض العشيرة امثال شمر كثرة عددية بسبب اقتران الشيخ بأكثر من زوجة ، رغبة منه فى الاكثار من الابناء . ونادرا ما يلجأ الشيوخ الى الزواج من خارج بيت الرئاسة فى العشيرة الا فى حالات المصاهرة لتوثيق الصلات مع العشائر الاخرى ، أو مع بعض الاطراف لدوافع سياسية (103) .

ولمعظم العشائر العربية اعراف هى بمثابة القوانين ، تسمى (السوانى) وتنظم هذه الاعراف شؤون افرادها وعلاقاتهم مع الآخرين سواء أكانوا من العشيرة نفسها ، أم من خارجها . وأبرز هذه السوانى الحماية والعرض وحق الصيد والدخالة والالتجاء والوجه أو التسيار (104) .

---

(100) Ibid, P. 104.

(101) المركز الوطني للوثائق ، ملفات وزارة الداخلية ، ملفة شؤون العشائر ، رقم 37/4/2/ المسلسل 12 وثيقة 155 .

(102) Bell, Review, P. 53.

(103) للتفاصيل : أنظر : محمد أحمد محمود ، أحوال العشائر العراقية العربية وعلاقتها بالحكومة 1872–1918 ، رسالة ماجستير قدمت إلى كلية الآداب بجامعة بغداد 1980 ، ص 12–20 .

(104) المصدر نفسه ، ص 54 .

ولكل عشيرة قاضي يقوم بتطبيق العرف فيها أو يقوم بحسم منازعات افرادها يطلق عليه (العارفه) . ولقد وجد في شمر الجربا على سبيل المثال نوعين من القضاة ، النوع الاول وهم الذين يتوارثون القضاء في العشيرة المذكورة ابا عن جد منذ ان كانت شمر في نجد وسمي هذا النوع بعوارف المناهي ، اما النوع الثاني فهم القضاة الذين يختارهم المتنازلون لثقتهم بقدرتهم على حسم النزاع لما يعهدون فيهم من فطنة وذكاء ويسمى هذا النوع بعوارف المشاهي (105) .

وفي حالات الغزو والحرب ، كانت العشائر تراعي بعض القواعد عدم مفاجئة احدى العشيرتين المتحاربتين للأخرى بالحرب قبل ان تخطرها بانذار يعرف بـ (النكا) . وتخصص شمر في حالة الغزو قسما من المحاربين للبدو بالهجوم وقسما آخر للقيام بدور الكمين لرصد أية مفاجئة . ويخصص مكان الوسط بين صفوف المقاتلين للشيوخ من كآل محمد ويرتب عن يمينهم وشمالهم عدد من المقاتلين يدعون بـ (السربة) . ويطلق على القائد في المعركة اسم «عجيد» . ولبعض العشائر رايات خاصة هي بمثابة الاعلام (106).

اما حالة معظم العشائر العربية الثقافية فقد كانت متدنية ، وكان افراد هذه العشائر يفتقرون الى التعليم سواء بسبب اقامتهم البعيدة عن المدن ، أو بسبب ضعف اهتمام الحكومة العثمانية بتعليمهم . لكن هذا لم يمنع بعض ابناء الشيوخ من التحصيل الدراسي وخاصة في مدرسة العشائر التي أنشأتها الحكومة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني في استانبول لاستمالة الشيوخ وتوجيه ولاء ابنائهم للحكومة (107) .

تنقسم العشائر الكردية في ولاية الموصل بوجه عام الى عشائر رحل وأخرى شبه مستقرة في حين كانت المناطق الجبلية توطن من قبل العشائر الرحالة . وقد مال قسم من العشائر الرحالة الى حالة الاستقرار وسكن القرى ، ومن هؤلاء جماعات في عشائر هورمان وبلباس وبايلان وسنجابي وهركي . وتنقسم العشائر الكردية ، شأنها شأن العشائر العربية الى عدة فروع وافخاذ (108) . وأهم العشائر الكردية وأكبرها هي عشائر الجاف في منطقة السليمانية وتقطن في ناحية شيروان في حليجة وكفري . وهناك عشائر الهماوند الذين يعدون في الاصل من الجاف ، وقد سكن قسم منهم

---

(105) المصدر نفسه ، ص 26 .

(106) المصدر نفسه ، ص 28 .

(107) المصدر نفسه ، ص 38—40 .

(108) حسين محمد القهواتي ، التركيب الإجتماعي في العراق ، في حضارة العراق ، لنخبة من الباحثين العراقيين ، جـ 10 ، (بغداد ، 1985) ص 119—120 .

جمجمال وبازيان . وفى أواخر القرن التاسع عشر أخذ عشائر الجاف بالتحول نحو الاستقرار وممارسة الزراعة فى سهل شهرزور (109) .

وقد عرفت المنطقة الكردية شأنها شأن المنطقة الجنوبية من العراق ، الاحلاف والاتحادات القبلية . ولعل من أبرز هذه الاحلاف ، حلف زنكنه الذى استوطن بالقرب من جبال قره تبه . وهناك عشائر كردية استقرت فى مناطق مختلفة من ولاية الموصل • فمن عشائر زاخو الكلى والسندى والسليفانى • ومن عشائر دهوك المزورى والدوسكى والشرفان . ومن عشائر عقرة السورجية . ومن عشائر العمادية ريكان ونيروه بروارى بالا . وهناك عشائر الزيبار زدره ئـي التى كانت تتجول باتجاه اربيل والموصل . وكثيرا ما وقفت العشائر الكردية جنبا الى جنب مع العشائر العربية فى وجه الغزاة والطامعين فى مراحل عديدة من التاريخ الحديث فامتزجت دماء الجميع فى ساحات الوغى دفاعا عن الارض (110) .

اما بالنسبة للوضع الاجتماعى للعشائر الكردية ، فيمكن القول أن العشيرة تتكون من طبقتين الاولى المقاتلون وهم العشائريون الذين يميزون أنفسهم بأنهم من الاكراد الاقحاح ، لذلك اتخذوا هذه النظرية وسيلة لتبرير تسلطهم وميلهم نحو التعالى على الطبقة الثانية التى ليست من أصل عشائرى وتسمى بـ (الكرمانج) فى منطقتى الموصل وأربيل و (مسكين) فى منطقة كركوك والسليمانية. وفى اجزاء من السليمانية يسمون بـ (كوران) أى فلاح وحالتهم كانت كحالة عبيد الارض يملكهم مالك القرية ويفرض عليهم الخضوع التام . ويتحمل (الكرمانج) الاعباء الاقتصادية فى حين لا يمارس العشائريون أى شىء من ألوان الحياة المادية الاخرى ومنها الزراعة . وعلى الرغم من امتيازات العشائرى المادية ، الا ان حياته اتسمت بالبساطة فى المعيشة ، حيث ان بيته لم يكن يختلف عن بيت الفرد الكورانى المكونة من أكواخ من الاغصان أو بيوت من الطين أو خيم من الشعر (111) .

تتفرع الرئاسة أو السلطة فى القبيلة الكردية وتتوزع بين رئيس القبيلة والأغا والكوخة . وينبغى ان يتمتع رئيس القبيلة بالكرم والشجاعة ويعاونه فى ادارة شؤون القبيلة مجلس استشارى من وجهاء القبيلة ولرئيس القبيلة ضريبته على الارض والمواشى وغالبا ما يكون له نفوذ دينى ومعنوى على افراد عشيرته . اما الأغا فهو رئيس القرية ، وهو أحد أفراد الاسرة الحاكمة فى القبيلة ، ويعد الأغا الحاكم المطلق فى قريته ، اذ يقوم بشؤون الادارة والقضاء

---

(109) محمود الدرة ، القضية الكردية ، ط 2 ، (بيروت ، 1966) ص 89–94 .

(110) للتفاصيل أنظر : العزاوي ، عشائر العراق ، ج 2 ، ص 38 وما بعدها .

(111) هاشم طه عقراوي ، الأسس النفسية والإجتماعية للقبائل الكردية ، (كركوك 1971) ، ص 24–26 .

« ومن ان اغوات أو مالكي الاراضي يحكمون جميع المساحات الزراعية لان هناك علاقات قرابة بينهم ، غير اننا لا نجد اية قرابة بينهم وبين فلاحيهم ، هذا على الرغم من أن الفلاحين مكلفين بواجب الدفاع عن الارض » . ويشبه بعض الكتاب الأغا بالبارون .. فهو لا يعمل أي عمل يدوي ويعيش على ما يجمعه من القبيلة . فالفلاح يدفع عشر محصولاته الزراعية ، كما يدفع ضريبة الماشية (الكوده) وكانت الحكومة تقبل من الأغا مبلغا اجمالا بعيدا عن قيمة العشر والكوده الحقيقتين . ويتخذ الأغا في القرية محلا لسكناه يخصص ركن منه كمضيف (ديوانخانه) ومن الطبيعي ان يساهم ساكنو القرية بتغطية نفقات الضيافة . اما الكوخة ، أو المختار فهو الذي يعهد اليه رئيس القبيلة أو الأغا ممارسة سلطته على قرية ما مباشرة فيعين الكوخة ليكون واسطة بين الأغا والفلاحين ووظيفته الاساسية أخذ نصيب من المحصول الزراعي والحيواني لسيده (112) .

اما بالنسبة لسكان الريف ، فلقد كانت تشكيلاتهم الاجتماعية تختلف تبعا لانظمة الري والزراعة . ففي ولاية الموصل كانت الوحدة الاجتماعية هي القرية التي تعيش على الاكتفاء الذاتي بينما في الاجزاء الاخرى من العراق كانت العشيرة (113) . ولقد أشرنا فيما سبق الى انتقال ملكية الاراضي بمرور الزمن ولعوامل كثيرة من أيدي الفلاحين الى ايدي الملاكين ومع هذا فقد بقيت الملكية الصغيرة سائدة في المنطقة الجبلية في ولاية الموصل (114) .

ولقد أشار عدد من القناصل الاجانب في الموصل الى حالة سكان الريف خلال العهد العثماني . فوصفوهم بانهم كانوا « تعساء قد طحنتهم الضرائب ، كما ان غزوات جيرانهم البدو كانت تداهمهم بدون انقطاع » (115) .

شكل سكان المدن في مطلع القرن العشرين ، حوالي 25 % من سكان ولاية الموصل (أي ما يعادل 540 ألف نسمة) ومدن ولاية الموصل الكبيرة هي الموصل والسليمانية وكركوك وأربيل ومعظم هذه المدن أقيمت لاغراض تجارية . وفي هذه المدن كان التسلسل الاجتماعي مؤلفا من الحكام والرعية . فكانوا منقسمين بين الوجهاء أو أعيان المدينة من التجار ومالكي الاراضي من جهة وبين الجماهير من الحرفيين وبقية العامة (116) وقد أشرنا فيما سبق الى ان مدن ولاية الموصل شهدت بروز أسر ذات أهمية اقتصادية أو دينية أو

(112) المصدر نفسه ، ص 73—77 .

(114) أنظر الصفحة (7) من هذا البحث .

(115) بييردي فوصيل ، الحياة في العراق منذ قرن 1814—1914 ، ترجمة أكرم فاضل ، (بغداد ، 1968) ، ص 60 .

(116) للتفاصيل أنظر : عماد عبد السلام رؤوف ، الحياة الإجتماعية في العراق إبان عهد المماليك 1749—1831 ، رسالة دكتوراه قدمت لجامعة القاهرة 1976 ، وهي غير منشورة ، ص 84 .

علمية . وتعد الاسرة الخلية الرئيسة فى مجتمع المدينة . والاسرة الموصلية ، أسرة واسعة ، فحين يكون الجد باقيا على الحياة فهو يسكن مع أولاده المتزوجين ويكونون بنيات أسرة واحدة ويعيشون فى بيت واحد وماليتهم واحدة ، واذا كان الجد قد شاخ أو توفى فيحل محله ابنه الاكبر غالبا لادارة شؤون الاسرة (117) .

وتتألف المدن الموصلية من محلات تتميز بضيق أزقتها وشوارعها ، وغالبية مدن الولاية كانت غير مبلطة ومغبرة ومرحلة شتاء على الرغم من وجود البلديات التى تأسست فى أواخر القرن التاسع عشر ، وأخذت على عاتقها فتح الشوارع أو توسيعها وانشاء الارصفة والمجارى والاهتمام بنظافة وتنظيم المحلات والاسواق (118) . ويبدو ان دوائر البلدية ظلت حتى أواخر العهد العثمانى تدار بشكل تقليدى ، وتعانى من نقص فى الملاكات والخبرات الادارية والفنية ، هذا فضلا عن معاناتها من قلة التخصيصات المالية (119) .

ولقد تميزت المدن الموصلية بوجود الاسوار التى تحيط بها . وتنتشر المساجد فى جميع مدن الولاية ، وكذلك الاسواق والخانات والحمامات الشعبية اما مياه الشرب فكانت تنقل الى البيوت فى قرب من جلود الماعز ، وعلى ظهور الحيوانات . ولم تعرف مدن الموصل مشاريع اسالة الماء الا فى مطالع القرن العشرين ، حين استخدمت أنابيب من الحديد لايصال الماء الى الدور السكنية (120) .

وكان ابناء المدن يقضون معظم أوقات فراغهم فى المجالس الادبية التى تعقد فى بيوت عدد من الاسر العلمية التي برزت فى الموصل خلال العهد العثمانى كأسرة الفخرى وأسرة الغلامى (121) . واحتلت المقاهى ، مكانة مهمة فى حلبة المدينة الموصلية . اذ كانت بمثابة النوادى التى يلتقى فيها معظم المواطنين . وتلقى فى بعض هذه المقاهى القصص الشعبية التى تؤكد على البطولة والفخار حيث يجلس فى محل مرتفع ويقص على الناس اخبار ابطال العرب أمثال عنترة العبسى وأبو زيد الهلال . وكانت تلك المقاهى كذلك أماكن لتجمع صحاب الحرف والالتقاء بذوى الحاجة من الناس ، وغالبا ما تكون

---

(117) هادي رشيد الجاوشلي ، الحياة الإجتماعية في كدستان ، (بغداد ، 1970) ص 39 .

(118) تأسست بلدية الموصل على سبيل المثال سنة 1869 وبعدها تأسست بلدية أربيل ، أنظر : أحمد علي الصوفي ، تاريخ بلدية مدينة الموصل ، ج 1 ، (الموصل ، 1970) ، ص 22 ، وزبير بلال إسماعيل ، أربيل في أدوارها التاريخية ، (النجف ، 1970) ص 369 .

(119) نمير طه ياسين ، بدايات التحديث في العراق 1869—1914 ، رسالة ماجستير بإشرافنا ، قدمت إلى الجامعة المستنصرية 1984 ، غير منشورة ، ص 163 .

(120) المصدر نفسه ، ص 162—163 .

(121) للتفاصيل أنظر : عبد المنعم الغلامي ، إسرار الكفاح الوطني في الموصل ج 1 ، (بغداد ، 1958) .

داخل الاسواق • وبعد 1904 دخل جهاز الحاكى (الفنوغراف) فسارع اصحاب المقاهى لاقتنائه. وأثار دخول هذا الجهاز الجدل وفيما اذا كان استعماله حلال أم حرام ، لذلك تدخل بعض رجال الدين وأفتوا بجواز استعماله اذا اقتصر على سماع التراتيل الدينية • أما فيما يتعلق بدخول الشاى الى المقاهى ، فيبدو انه حدث حوالى 1895 . وفى مطلع القرن العشرين تحولت بعض المقاهى الى نوع ساذج من الملاهى واستقدمت بعض الراقصات فى حلب ومصر (122) •

وعرفت الموصل المسرح منذ 1880 . اذ عني المبشرون به ، وكان هدفهم نشر التعاليم الدينية والاخلاقية بين رعاياهم ، ولعل من أوائل المسرحيات التى مثلت فى الموصل مسرحية نبو خذ نصر التى ألفها الخورى هرمز فرسو الكلداني ، وقدمت على مسرح المدرسة الاكايركية سنة 1888 . اما السينما الصامتة فقد دخلت الموصل سنة 1909 (123) .

ومهما يكن من أمر ، فان لحركة التحديث التى شهدتها الموصل منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر أثر كبير فى اقتراب الموصليين من الحياة المدنية وابتعادهم عن الحياة القديمة التقليدية التى كانت أشبه بحياة البداوة . ولقد لعبت المدارس الحديثة والمطابع والصحافة والتنظيمات الحزبية التى تشكلت بعد انقلاب 1908 أثر كبير فى ذلك .. ولقد أدى الاهتمام بحركة التحديث الى ظهور فئة من المثقفين الموصليين من ابناء المدن قدر لهم ان يقوموا بدور مهم فى حياة الموصل العامة ، خاصة بعد الحرب العالمية الاولى وفى السنوات التالية لها (124) .

— 5 —

الانشطة الاجتماعية فى الولاية :

أ ــ النشاطات الاقتصادية والدينية :

مارس الموصليون أنشطة اجتماعية عديدة ، من خلال مؤسساتهم الاقتصادية والدينية . كما برزت انشطتهم فى تقاليدهم وأزيائهم وملابسهم واحتفالاتهم الدينية والرسمية والشعبية . فبالنسبة للمؤسسات الاقتصادية ظلت الاصناف تمارس دورها الاقتصادى طيلة العهد العثمانى . ويرأس الصنف شيخ يسمى شيخ الصنف . وكانت هناك اسواق لسائر أصناف التجار والحرفيين مثل سوق الملاحين وسوق السراجين وسوق العلوة وسوق الصفارين • وقد شهد العهد العثمانى محاولات عديدة لغرض الرقابة على الاصناف والحرف . ففى

(122) ياسين ، المصدر السابق ، ص 155—156 .
(123) المصدر نفسه ، ص 158 .
(124) المصدر نفسه ، ص 219 وما بعدها .

الموصل خضعت الى اشراف موحد وجعلت تحت مشيخة واحدة وفرضت عليها الضرائب بالضمان ، فلكل حرفة ضامن ملتزم أمام حكومة الولاية بتحصيل الضرائب وكان على شيخ الاصناف ان ينظم حساباته في دفتر خاص يبين قدر ما ينفقه وسبب انفاقه ، وانه كان عليه أن يقدم دفتره هذا الى الضامن ليشرف بنفسه عليه (125) .

أما أبرز المؤسسات الدينية في ولاية الموصل ، فكانت نقابات الاشراف والطرق الصوفية . والاشراف هم الذين يعودون بنسبهم الى الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعظمهم من الاسر العربية العريقة التى اشتهرت بالعلم والسيادة والزعامة طيلة العصور الاسلامية ومن هؤلاء آل النقيب في الموصل . وقد انحصرت نقابة الاشراف في الموصل في أسرة واحدة تنتمى نسبا الى السادة من أحفاد عبيد الله الاعرج الحسينى العلوى . واشتهر منهم بالنقابة في العهد العثماني عدد من الاشخاص عرفوا بالفخريين نسبة الى احد اجدادهم فخر الدين (توفي 1719) ومنهم السيد حسن أفندى المفتى (توفى 1778) (126) .

وكان الاشراف يقومون بدور الوسيط بين الحكام والسكان المحليين من عامة الناس وكانوا في أهم الامور موالين للسلطان مخلصين له ، مع كونهم في الوقت نفسه الزعماء في مدينتهم . وقد حاولوا في بعض الاحيان الحد من جماح السلطة العثمانية . وكانت وسائل القيام بهذا العمل متاحة لهم . لانهم كانوا يستطيعون تعئة الرأى العام وتجنيده عن طريق استخدامهم الوعاظ ومشايخ المحلات وزعماء الحرف ، بالاضافة الى ما كان لهم من تأثير ونفوذ عن طريق صلاتهم بأصحاب الوظائف الدينية وفى مقدمتهم العلماء في استانبول (127) .

وفى مدينة السليمانية ، اشتهرت أسرة السادة في برزنجة ، وهى قرية كبيرة تبعد أربعة عشر ميلا شرقى مدينة السليمانية ، وقد احتلت هذه الاسرة مكانة متميزة لدى الاكراد . وتشير شجرة الاسرة الى اتصالها من الجيل السابع بالامام موسى الكاظم . وثمة فروع للاسر عرفت بأسماء القرى التى أسسها السادة أو احفادهم مثل سه ركه لو ، دول له مو ، نودى . ولقد حصل افراد الاسرة على بعض الفرامين من السلاطين العثمانيين تتضمن وقف بعض الضرائب لتسديد نفقات مساجدهم وتكاياهم (128) .

(125) رؤوف ، التنظيمات الإجتماعية ، ص 150 .

(126) أنظر كتابنا ، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ، ص 71 ، وكذلك عماد عبد السلام رؤوف ، التنظيمات الإجتماعية في حضارة العراق ، ج 10 ، ص 130 .

(127) تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ، ص 71 .

(128) أنظر : سي ، جي ، إدموندز ، كرد وترك وعرب ، ترجمة جرجيس فتح الله ، (بغداد ، 1971) ، ص 69 .

وشهدت الموصل ، نشاطات عديدة لبعض الطرق الصوفية خلال العهد العثماني . وكان لهذه الطرق أثر بين في المجتمع الموصلي وذلك بما كانت تؤديه من دور اجتماعي وما تتيحه من حفلات الذكر والمواليد ، وخاصة في المناسبات المختلفة . ومن الطرق التي وجدت حظها من الانتشار في الموصل الطريقة المولوية والطريقة القادرية والطريقة النقشبندية . وكان لهذه الطرق تكايا عديدة انتشرت في مختلف انحاء الولاية . وقد شجع انتشار هذه الطرق حالة التدهور السياسي والاجتماعي التي اعقبت سقوط الدولة العربية الاسلامية . وترتبط المولوية طريقة الذكر بنغمات الناي ، ومن تكايا المولوية في الموصل التكية التي كانت تتخذ من مسجد شمس الدين بن عدي بن صخر الاموي الملقب بتاج العارفين مركزا لها . وترتبط بهذه التكية فرقة موسيقية أنشأها عثمان الموصلي سنة 1910 (129) .

اما الطريقة القادرية فقد انتشرت في ولاية الموصل وخاصة في المنطقة الكردية ، ومن أبرز تكاياها تكية زيوه كان (أواخر القرن السادس عشر) وتكية بريفكان (القرن السابع عشر) ويطلق على مريدي الطريقة القادرية في المناطق الكردية اسم الدراويش (130) ويصف الدكتور فسلييباف الرحالة الروسي المعروف ، وقد التقى ببعض الدراويش سنة 1914 اتباع الطريقة بأنهم كانوا « يرتلون لا اله الا الله وهم يتحركون ويميلون ببطء في بادي الامر ، ثم يسرعون في النغم على أصوات الدفوف الكبيرة الى ان يصلوا الى حالة غير اعتيادية من الغيبوبة والوجد ... كانوا يدورون بأجسادهم بسرعة حتى يتبعثر شعر رأسهم الكثيف » (131) .

ولقد ترددت في ولاية الموصل اصداء طريقة صوفية جديدة كانت قد تأسست في القرن الرابع عشر ، هي الطريقة النقشبندية . ويعد الشيخ خالد النقشبندي (1776 ـ 1817) أول من أدخلها الى ولاية الموصل ويطلق على مريديها اسم (الصوفية) ومعظم اتباعها كانوا في المنطقة الكردية ومن غير المتعلمين ، لذلك فهم يميلون بصورة خاصة الى مظاهر غريبة في ممارسة طريقتهم . ومن أشهر تكاياهم تكية بامرني من اعمال العمادية في شمالي الموصل وتكية بارزان التي أنشأها الشيخ عبد الله البارزاني خليفة الشيخ طه النهري (توفي 1825) (132) . ويقول مينورسكي (133) : ان شيوخ شهرزور وشمديان كانوا ينتمون الى الطريقة النقشبندية ، وأنهم يتمسكون بالتعاليم الدينية ويؤمنون بقدرة اجدادهم الروحية وهم يتمتعون باحترام كبير بين الاكراد .

---

(129) عادل البكري ، عثمان الموصلي ، (بغداد ، 1966) ، ص 8 .
(130) إدموندز ، المصدر السابق ، ص 65 .
(131) مينورسكي ، المصدر السابق ، ص 52 .
(132) رؤوف ، المصدر السابق ، جـ 10 ، ص 144 .
(133) الأكراد ، ملاحظات وإنطباعات ، ص 51 .

ب ـ **الازيـاء والمـلابس :**

تميزت أزياء الناس فى ولاية الموصل بالتنوع الشديد فى اشكالها وألوانها وأثمانها وذلك كانعكاس طبيعى للتنوع القومى وحرية النـاس فى ارتـداء الملابس التى تنسجم مع أوضاعهم الاقتصادية . ففى مدينة الموصل نجـد ان الموصليين حافظوا على زيهم الخاص المتمثل بالكوفية والعقال . اما رجال الدين فكانوا يرتدون (الزبون) تحت الجبة فى الشتـاء أو (الصـاية) فى الصيـف . وكان التجار وأرباب الحرف يرتدون الزبون وفوقه (الدميرى) والعباءة ولم يتركوا رؤوسهم حاسرة ، وانما يضعون على رأسهم (العمامة) (134) . وبعد الانفتاح على منجزات الحضارة الاوربية ارتدى الموظفون والمثقفون خاصة الزى الاوربى المتمثل بالبنطلون والسترة . كما اعتمدت هذه الفئة الطرابيش . وقد أطلق الاهالى على هذه الفئة اسم « الأفندية » وواجهت مسألة ارتداء الملابس الغربية العنت من العامة اذ لم يستسيغوها فى بادىء الامر (135) .

اما لباس البدو والفلاحين ، فكان يتألف عادة من ثوب فضفـاض طويـل وتغطى الرؤوس بالكوفية يمسكها العقال وتوضع العباءة فوق الاكتاف (136).

وتختلف ألبسة الاكراد اختلافا بينا عن ألبسة أشقائهـم العـرب . اذ ان ملابسهم بشكل عام أكثر شدا الى الجسم ، قياسا الى سعة وفضفضـة ملابس السكان العرب ويعود ذلك الى وعورة المنطقة الجبلية وبرودة مناخها . ويلعب السروال (الشروال) المصنوع من مواد ومنسوجات محلية فى اغلب الاحيان دورا رئيسا فى اللباس الكردى ثم يليه القميص القصير والسترة التى تسمى (كرتك وشروال) والحزام الملفوف على وسطه عدة مرات ، ولباس الـرأس المتمثل بالعمامة الكردية الخاصة . ويظهر بين الاكراد استعمال الاحذية المحاكة من الصوف ولا يمكن لكل رجل وامرأة كردية الاستغناء عن ارتـداء سـتـرة قصيرة تسمى (الجاروكه) (137) .

ويشتمل لباس النساء البدويات على قمصان عـريضة واسعـة الاكمـام وطويلة تصل الى أخمص القدمين ، وتلبس النساء فوقهـا العبـاءة ويغطى الرأس بمنديل من الطن أو الحرير من ألوان مختلفة . والبدويـات يلبسـن كذلك الاساور والخلاخيل الثقيلة وحلقات يعلقنها بأنوفهن (138) .

---

(134) ياسين ، المصدر السابق ، ص 154 .

(135) حول الأفندية في العهد العثماني أنظر : نجدة فتحي صفوة ، خواطر وأحاديث في بتاريخ ، (بغداد ، 1983) ، ص 35–37 .

(136) طارق نافع الحمداني ، مظاهر الحياة الإجتماعية في العصر العثماني ، في حضارة العراق ، ج 10 ، ص 220–221 .

(137) المصدر نفسه ، ص 220 .

(138) المصدر نفسه ، ص 221 .

وللنساء الساكنات في القرى المسيحية المحيطة بالموصل ملابس خاصة تتكون من غطاء للرأس يتكون من برنس مربع محشو في قمته وسادة مستديرة سمكها انجان تحتها صفيحة مذهبة توضع على الرأس والرقبة مع عدة أوشحة تشكل نوعا من العمامة .. وهي عند النساء الشابات مرصعة بالجواهر وسائر الاحجار الكريمة . ولهن عصائب ذات زوايا ذهبية وقلائد مصنوعة ببراعة ، وأقراط وخلاخل وأساور ، غير ان كل هذه الزينة محفوظة للبيت لان المرأة لا تخرج منه بدون الملاءة الزرقاء المتعددة الالوان والخمار (الحيلية) (139) .

اما لباس المرأة الكردية فيشتمل عادة على السراويل العريضة ، وعلى ثوب فضفاض يحزم بحزام ذي عروتين كبيرتين من الفضة ويلبس فوق ذلك • (المشلح) من نوعية الصدرية الذي يزور عند الرقبة ، ولكنه يترك غير مزرر من الرقبة حتى . ويخاط عادة من الحرير المخطط أو المشجر أو من النسيج الملون وذلك يختلف باختلاف الموسم أو شراء صاحبه اللباس • وكما هو الحال بالنسبة لبقية النساء في العراق ، فان المرأة الكردية ترتدي ازارا أزرق محققا ، ونقابا أسود من شعر الخيل (البوشية) اما القرويات منهن فلا يستعملن الحجاب . وتميل المرأة الكردية الى تزيين نفسها ومن ذلك صبغ الشفاه بقشور الجوز الطرى ، واستعمال الخلاخيل في الاذرع والسيقان والاقراط في الانف والاذان وسلاسل الذهب في الرأس والصدر (140) .

وارتدت المرأة الموصلية ازارا طويلا تعقده بيدها من وسطها ولونه أسود ، وتلبس الجزمة ذات الحلق الطويل ، وتضع على رأسها طربوشا مزركشا بقطع ذهبية مصاغة على نحو خاص . وتتبرقع بما كان يسمى « بالحيليه » نسبة الى « خيلة » اى ان البرقع يريها اشباحا وأشخاصا على وجه الظن لا على وجه اليقين والحيلية عبارة عن نسيج من خيوط سود مخرمة تطرز اطرافها بما يجعلها غير مرنة . ثم استبدلت بذلك بالبوشية (البيجة) التي هي عبارة عن قطعة من القماش الاسود الشفاف (141) .

ج ـ الاعياد والمناسبات الاجتماعية :

كانت الاعياد والمناسبات الاجتماعية من المناشط التي عكست وحدة المجتمع الموصلي ، حيث تشترك العناصر كافة في الاحتفالات باعياد كل طائفة . وبصرف النظر عن الاحتفالات في المناسبات الرسمية التي تقام لمناسبة جلوس سلطان أو ولادة أمير عثماني أو تجديد فرمان الوالي ، فان ولاية الموصل

---

(139) بادجر ، الموصل حسب رحلة بادجر ، تعريب الأب لويس ساكو ، مجلة بين النهرين ، العددين 9 ، 10 ، 1975 .

(140) عقراوي ، المصدر السابق ، ص 115 .

(141) البوشية ، لفظ تركي معناه برقع . أنظر : اللاوند ، المصدر السابق ، ص 73 .

شهدت احتفالات ذات طابع شعبى ، يطغى عليه احيانا الطابع الدينى ، حيث يشارك الشعب فيها مشاركة فعلية ومن ذلك ما يحدث عند التثبت من رؤية شهر رمضان وهلال العيدين (142) .

وتعد احتفالات الزواج وولادة الطفل وبالاخص الذكر والختان فى المناسبات الشعبية التى يحتفل بها الناس . وكانت هذه المناسبات من الفرص التى تتيح للمرأة رؤية الرجل من وراء حجاب الخيلية فهى حرة فى النظر اليه الا انه لا يستطيع رؤية وجهها الا اذا سنحت له فرصة عارضة كأن ترفع الخيلية عن وجهها فى طريق فيراها عرضا فيقع فى حبها . والزواج متنفس المرأة والرجل دون اختيار فى كثير من الاحيان ، وهى تنتظر الزوج ويكفى رضى الأب لبنته فى الزواج ، وكل ما يطلب من الزوج «ستر الحال» ما دام يستطيع تقديم عيشة الكفاف وليس لها بعد تزويج الأب حق النقض ، فاذا كان يوم الزفاف زينت العروس بنوع خاص من مبيضات الوجوه يسمى « سبيداج » ومشطت الماشطة جدائلها وصفقتها وتغنى النساء فرحات :

يا ماشطا مشطيها ... بالعكل لآ تألميها
مشط الذهب لا يكك عليها ... ومعلما على الدلالى

ومعناه يا ممشطة الشعر مشطى شعرها بتأن وعقل ولا تؤلمى شعرها ، فان مشط الذهب يليق بها وبشعرها ، فانها تعلمت على عيش الترف والدلال (143) .

ويوضع على شفتى العروس قطن فيه صبغ احمر كما تصبغ الخدود ، بالاحمر نفسه ، وينتظر الرجال عند الباب ويصيحون بأن الوقت قد حان ، وتخرج العروس لتركب حصانا مزينا الى دار زوجها .. وأمامها الرجال ومن خلفها النساء يهزجن ويزغردن حتى تصل الى الدار ، بينما يكون الجهاز قد أرسل من قبل تحمله احصنة محزمة بالسرج والاشرطة . وفى بيت الزوج تغنى النسوة الاغانى ، وربما دبكت النسوة وهن يغنين الاغانى الشعبية منها :

ليا على ليا ... ليا على ليا
وتميل جنها شطب ريحـ ... ـان على الميا

ومعناها ان هذه البنت الجميلة اذا تمشى تتلوى ليا بعد لى وتميل كأنها شطب ريحان على الماء . اما أهازيج الرجال بهذه المناسبة فكانت تنشد هذه الاهزوجة الركبانية :

يا جمال الحكك بان النا

(142) رؤوف ، الموصل في العهد العثماني ، ص 350–351 .
(143) اللاونـد ، المصدر السابق ، ص 75–76 .

ثم تردد هذه اللازمة بصورة جماعية بينما ينفرد احدهم بالقاء الاهزوجة :

لـو هلهلتـي يـام ثـوب ادعـم
والهلهـولا ال ويـلاد الـعـم
اش حـدو الغـريـب اليـقـحـم
رايـح دمـوا مطلـوب الـنـا

فيـرد الرجـال :

يـا جمـال الحكـك بـان الـنـا

ويستطيع الرجل المنفرد بالهزج ان يلقى ما شاء على غرارهـا بين اطـلاق البارود وزغاريد النساء ، ويشهر كل سلاحه من خنجر أو قامة أو سيـف ، فهى فرصة لا تعوض للفت انظار النساء .. ويتضح من هذا ان الجمال كانت محط المباهاة ، وموضع الاعتزاز فهى واسطة النقل ، والتفاخر بأعز ما يملك الانسان آنئذ ، ويلاحظ ان بنت العم حق لابن العم لا ينازع فيه . اما الغريب الذى يحاول اقتحام هذا الحق ، فان دمه مهدور على عادة التعصب القبلى (144).

وتأخذ المناسبات التى تقام بها الافراح فى المجتمع الكردى أشكالا وصورا مختلفة منها خاصة حفلات الزواج . ومن العادات المألوفة فى المنطقة الكردية انهم يفضلون الزواج المبكر ، وغالبا ما تنشد الام لابنها فتاة لاسرة تكافىء أسرتها من حيث الجاه والثروة ، واذا ما وجدت الاسرة لابنها بعد البحث الطويل ، يذهب عميد اسرة الفتى الى اسرة الفتاة ويطلب يدهـا . وينفق الاكراد عادة نفقات كبيرة على حفلات الزواج والزفاف ، اذ ان يوم الزفاف يعد احتفالا لجميع أهالى القرية أو المحلة ، حيث تقام الولائم وتعـزف الموسيقى والمزمار ، وفى يوم الزفاف يذهب أخو العريس الى اسرة العروسـة ويشـد الرباط الذهبى أو الفضى على خاصرة العروس ، وتزف فى أكثر مدن وقرى المنطقة الكردية على فرس يقوده احد الشباب من أقرباء العـريس وتستمـر الاحتفالات ثلاثة أيام وأكثر حسب مقدرة العريس المالية . كما ان للعـريس موكبا من الرجال فان للعروس كذلك موكب من النساء يـزغردن ويغنيـن ويرقصن ، وفى ليلة الدخلة يزف العريس وسط معارفه وأصدقائه مع جوقات موسيقية وتطلق العيارات النارية بعد دخول العريس على عروسه (145) .

ونظرا لما تتميز به الموصل فى فصل الربيع من تلـون الزهـور وتعـدد النباتات ، وما يتخلل ذلك من غدران ومياه تنساب بها وطيـور تغـرد فى حقولها ، فقد اعتاد الموصليون الخروج الى ظاهر المدن والاحتفـال بالربيـع .

---

(144) المصدر نفسه ، ص 76–77 .

(145) عقراوي ، المصدر السابق ، ص 116–118 .

وتنظيم حفلات الرقص (الدبكات) . ويمارس الناس ألعابا مختلفة ويقيم أرباب الحرف تجمعات تسمى (حريفانات) مفردها (حريفانة) نسبة الى الحرفة ، ولكل حرفة يوم خاص تحتفل به . ويشارك المسلمون اخوانهم المسيحيين جميع اعيادهم ، وينتشرون حولها ويقضون وقتهم في الالعاب وركوب الخيل وغير ذلك . ويذكر العمري ان من عادات المسلمين في الموصل ان يقدموا الهدايا الى اخوانهم المسيحيين في الاعياد الربيعية ، التي ترتبط بصوم الخمسين .. ومن تلك الاعياد عيد أحد ماركوركيس وهو في رابع أحد صوم الخمسين وعيد مار ميخائيل وهو في خامس أحد لصوم الخمسين ، وهذه عادة قد لا نجدها في اغلب المدن الاسلامية في ذلك العصر (146) .

ويقصد الموصليون حمام العليل ، وتقع جنوبي مدينة الموصل بنحو (24) كيلومترا في الربيع والصيف ، يتمتعون بمناظرها الجميلة ويستحمون بمياهها المعدنية الحارة ، ويقيم بعضهم عرائش تسمى (عرازيل) على ساحل دجلة . وفي الاماسي تكون الحلقات على شاطيء النهر وتتردد فيها الاغاني وآلات الطرق ويمارس المصطافون مختلف العاب التسلية والسمر حتى كأن الناس في عيد لا ينقطع فاذا ما حل فصل الخريف اسرعوا بالعودة الى الموصل وينتهي بذلك موسم الاصطياف (147) .

ويخرج الاكراد في احتفالات الربيع السنوية ، ولهم في ذلك تقاليد خاصة، اذ ينظمون (الدبكات) الشعبية . ويعد المجتمع الكردي من أقدم البيئات التي عرفت الدبكات على مختلف أنواعها ،منها دبكات يشترك فيها الرجال وحدهم ودبكات تقوم بها النساء وحدهن ، وفي مناسبات خاصة هناك دبكات مختلفة يشترك فيها الرجال والنساء معا . والدبكات ليست من نوع واحد ، وانما هناك دبكات مختلفة الانواع والاشكال (149) .

د ـ وضع المرأة :

بالرغم من أن المرأة تعد الوحدة الاساسية في العائلة ، الا انها في الموصل عانت كثيرا من العنت خلال الفترة التي اعقبت سقوط الدولة العربية الاسلامية بيد المغول سنة 1258 . فقد عاشت آنذاك وهي محجبة لا يسمح لها بالخروج من الدار الا نادرا ، واذا ما أرادت الخروج ، كانت تسدل عليها العباءة السوداء وتتبرقع ببرقع أسود لا يرى منه شيء ، وعليها ان تمر في الدروب

---

(146) رؤوف ، الموصل في العهد العثماني ، ص 354 .

(147) للتفاصيل أنظر : محمد صديق الجليلي ، الإصطياف في حمام العليل (الموصل ، 1965) ، ص 2—8 .

(148) أنظر : الجاوشلي ، المصدر السابق ، ص 90 .

(149) أنظر : يوسف عزالدين ، الشعر العراقي الحديث وأثر التيارات السياسية والإجتماعية بيه ، (القاهرة ، 1965) ، ص 238 .

الضيقة والازقة المتعرجة . وقد يبلغ التعصب بالرجل ، ان يمنع زوجته الخروج من البيت لاى سبب كان .. وكان احدهم يتحدث مفاخرا بأن زوجتــه لم تــر عتبة الباب • ويخجل الكثير من الرجال من ذكر اسم الأم أم الزوجة أو الأخت أمام الغرباء (149) . وقد وصف مجتمع الموصل ابان العهد العثمــانى بأنــه « مجتمع منعزل ، وهو أشد صرامة وتحفظــا على النســاء ، فهى فى دائــرة الاسوار ، لا تخرج الا اذا ذهبت الى الحمام او اذا أخــذت المــلابس الى الشط لتغسلها مبرقعة » (150) . الا ان بعض الرحالة أشاروا الى اختلاف حياة نساء الاسر الثرية ، في مدينة الموصل ، عن حياة غيرهن من عامة نساء الشعب فهن أقل تحجبا من نساء بغداد ، ويشبهن نساء البلدان الاوربية فى حياتهن(151). ويرتبط بهذا قيام بعض أولئك النساء طيلة العهد العثمانى ، ببناء المساجد أو المدارس الدينية على نفقتهن الخاصة • وقد تثبت اسمائهن على ألواح تذكارية فى هذه المبانى دون اى حرج (152) . كما ان المرأة الريفية ، العربية والكردية ، كانت تشارك الرجل فى تهبيش القمح واستخلاص الزبد من الحليب والعمل فى طواحين الحبوب .. ولم يمنع المرأة الموصلية من مساعدة الرجل فى سعيه الدائب نحو توفير أسباب المعيشة لاسرتهما ، اى شىء . فكان الغزل مثلا من أهم مهام ربة البيت ، واعتبر المجتمع الموصلى عدم معرفة المرأة بالغزل عيبا لا يغتفر (153) . وتخرج المرأة الريفية الكردية الى الحقل مع زوجهــا أو أخيهــا لتشاركه في فلح الارض ورعى الماشية او جمع الحطب . واذا اردنا ان نحــدد مدى حريتها ونقارنها باختها فى المدينة فانها كانت فى الريف تتمتع بحــرية أكبر من المرأة فى المدينة . والى شىء من هذا القبيل يشير مينورسكى عندما يتحدث عن المرأة الكردية الريفية فيقول : انها كانــت تجلس مــع الرجــال بشجاعة وبدون استحياء ، وغالبا ما كانت تشارك الرجال فى الحوار (154) .

لكن هذا لم يمنع أهالى الموصل ، ان يعترضوا على اجراءات تسجيل الاناث التى جرت فى عهد الوالى مصطفى يعنى 1904 ـ 1908 وكادت تنشــب بسبب تلك الاجراءات ثورة دامية ، ومن الطريف ان توثق لنا اليوميات السياسية للمقيمة البريطانية فى بغداد وللاسبوع الــذى ينتمى فى 29 تشرين الثــانى 1906 التظاهرات التى قامت بها جماهير الموصــل احتجاجــا على اجــراءات تسجيل الاناث خلال الايام 10 ـ 15 تشرين الثانى 1906 . وعنــدمــا القــت السلطات العثمانية القبض على قائد التظاهرات وهو محمد أبو جــاسم وابن أخته سرحان انهالت البرقيات على العاصمة محتجة على عمل الــوالى . وعــاد

(150) اللاوند ، المصدر السابق ، ص 73 .

(151) سهيل قاشا ، الموصل في مذكرات الرحالين الأجانب ، مجلة بين النهرين ، السنة (5) ، العدد (20) ، 1977 ، ص 393 .

(152) أنظر : رؤوف ، المصدر السابق ، ص 359–360 .

(153) المصدر نفسه ، ص 356–357 .

(154) مينورسكي ، المصدر السابق ، ص 74 .

الجواب من العاصمة بأن السلطات العثمانية عازمة على معرفة حقيقة الموقف ، وسرعان ما صدرت الاوامر للوالى بأن يلغى اجراءات الخاصة بتسجيل الاناث (155) .

وحين بدأت عوامل التغيير الاقتصادى والاجتماعى والثقافى تأخذ طريقها الى الموصل ، ظهرت فئة من المثقفين تطالب بتحرير المرأة وتأكيد مكانتها المتميزة فى المجتمع . وقد استندت تلك الفئة الى الموروث الحضارى الاسلامى الذى يولى المرأة أهمية كبيرة .. وأمام دعوات التحرير هذه وقفت بعض الفئات المحافظة والدينية موقفا مضادا ، وخاصة فيما يتعلق بسفور المرأة واختلاطها بالرجال ، وهكذا عاش المجتمع الموصلى حتى الثلاثينات من القرن العشرين صراعا عنيفا بين متطلبات العصر والدعوة الى تحرر المرأة وبين التقاليد الاجتماعية الموروثة (156) .

ملحق رقم (1)

أهم مصادر ووثائق الحياة الاجتماعية فى ولاية الموصل

ابتداء لا بد من الاشارة الى الاهتمام الكبير الذى برز بالوثائق ، ولا سيما العثمانية منها والمنتشرة فى أماكن كثيرة من العالم . ولقد اتضح ذلك فى السنوات الثلاثين الماضية .. وثمة مصادر ووثائق عديدة تهم الباحث فى التاريخ الاجتماعى ، وحبذا لو يتم الاهتمام بها وجمعها ودراستها . وبادرة مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العثمانية فى العهد الاجتماعى فى عقد هذا المؤتمر تستحق التقدير والثناء . وبدون شك ، فى ان ما قدم من بحوث وما أشير اليه من وثائق يساعد كثيرا فى فهم التكوين الاجتماعى والنفسى للانسان العربى ، وكذلك فى القاء الاضواء على بعض مشكلاته الراهنة .

ومهما يكن من أمر فان هناك مصادر متوفرة عن حياة ولاية الموصل الاجتماعى تأتى فى طليعتها ، سجلات الدولة العثمانية (طابو دفترى) ويتوفر عن الموصل سجلان أحدهما مفصل دفتر يحمل رقم 195 وعدد لوحاته (79) مؤرخ بين سنتى 1541 ـ1544 ، والآخر مفصل فى دفتر رقم 660 مؤرخ بين سنتى 1574 ـ 1595 وعدد لوحاته (129) وتوجد نسخ من هذه السجلات فى مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب فى جامعة بغداد . وكلا الدفترين يهمان الباحث فى معرفة أمور عديدة منها نظم ملكية الارض وتطورها وشؤون الوقت والضرائب والقرى والايرادات وعلاقة ذلك كله بالتركيب الاجتماعى السائد آنذاك .

---

(155) انظر مقالنا الموسوم « يوم تسجيل الإناث في الموصل » جريدة الحدباء الموصلية ، 11 أيلول 1984 .

(156) للتفاصيل أنظر : ياسين ، المصدر السابق .

اما سجلات المحكمة الشرعية فى الموصل ، ففيها معلومات اجتماعيه جيدة تتعلق بالفئات الاجتماعية ومناشطها المالية ، وعلاقاتها مع المسؤولين من جهة وبعضها مع البعض الآخر من جهة أخرى . وقسم من هذه السجلات مدون بالعربية وآخر بالتركية ، ويعتمد ذلك على شخصية القاضي وانتماءه القومي ، وأقدم السجلات التي عثر عليها في الموصل ترجع الى سنة 1224 هـ. / 1808 م. وتفيد هذه السجلات في معرفة اسماء اسواق ومحلات وخانات وحمامات الموصل وطبيعة نشاط السكان الاجتماعي والاقتصادي وخاصة فيما يتعلق بالبيع والشراء والرهن والتأجير . هذا فضلا عن انها تضم معلومات تتعلق بدعاوى قتل وأخرى مرفوعة من طوائف مختلفة بشأن الاماكن المقدسة . وفي السجلات وثائق وعقود النكاح والمواريث وتصفية التركات وما يتصل بذلك من شؤون تخص الاسرة والمجتمع الموصلي ابان العهد العثماني . وهناك سجلات متخصصة بالوكالات وأخرى بالديون وعقود الزواج . وتكشف سجلات عقود الزواج كثيرا من التفاصيل عن وضع المرأة ومستويات المعيشة ومقادير المهور المعجلة والمؤجلة .

وتشكل الوقفيات المحلية على المؤسسات الدينية والثقافية اكثر المصادر أهمية فيما يتعلق بدراسة عناصر الثروة الاجتماعية ونوع الاستثمارات المالية وعلاقة ذلك بفهم التركيب الاجتماعي وتتوفر في مكتبات وزارة الاوقاف والشؤون الدينية في بغداد والموصل مجاميع طيبة من هذه الوقفيات التي تتعلق بالمساجد والمدارس وخزائن الكتب التي انشأت في الموصل خلال العهد العثماني .

وهناك السالنامات التي تعد مصدرا من مصادر دراسة الحياة الاجتماعية . والسالنامات نوع مهم من أنواع الوثائق الرسمية العثمانية . وهي بمثابة تقويم رسمي سنوي كانت تصدره الحكومة المركزية في استانبول أو الحكومات المحلية في الولايات . والسالنامات انواع منها عامة اعتادت الحكومة المركزية اصدارها سنويا او في اوقات متباعدة لتتضمن معلومات تفصيلية عن الدولة العثمانية وولاياتها باسم « سالنامه دولت عليه عثمانيه » او السالنامات الخاصة التي كانت تصدرها بعض الوزارات والمؤسسات كالسالنامات التي كانت تصدرها وزارة المعارف باسم « سالنامه نظارت معارف عمومية » أو السالنامة العسكرية : سالنامة الجيش «أوردو سالنامة سي» . منها السالنامة التي صدرت سنة 1912 . وفي هذه السالنامات معلومات وفيرة عن شؤون الولاية الادارية والسياسية والاقتصادية والثقافية .. ولا تخلو من المعلومات عن مكان الولاية وطبيعة تركيبهم الديني والاجتماعي .

ولقد حظيت الموصل بعدد من المؤرخين عكسوا في مؤلفاتهم اوضاع الولاية الاجتماعية . وقد نشرت بعض هذه المؤلفات ، لكن البعض الآخر لا يزال مخطوطا ومن ذلك كتاب « الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون » وهو تاريخ مرتب

على السنين يبتدىء من السنة الاولى للهجرة ، وينتهي بسنة 1803 ومعلوماته عن الموصل وسكانها غزيرة ومؤلفه ياسين بن خير الله العمري الموصلي (توفي 1816) . وللعمري كذلك كتب اخرى منها « منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء » وتصل احداثه حتى سنة 1823 وقد نشر في الموصل وكتاب « الآثار الجلية في الحوادث الارضية » وتنتهي حوادثه بسنة 1795 وضمنه المؤلف الكثير من مشاهداته وملاحظاته المباشرة ، وقد جمع الدكتور داؤد الجلبي الفقرات الخاصة بتاريخ الموصل منذ سنة 1231 هـ / 1815 م . في كتاب يحمل اسم « زبدة الآثار الجلية » وقام الدكتور عماد عبد السلام رؤوف بتحقيقه ونشره سنة 1974 . ولمحمد أمين بن خير الله العمري (توفي 1788) كتب عديدة منها « منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء » وهو تاريخ عام للموصل منذ تمصيرها في القرن السابع الميلادي وحتى مطلع القرن الثامن عشر .. وأهم اجزائه هو الذي يبتدىء في حوادثه من سنة 1591 ، وقد حقق السيد سعيد الديوه جي الكتاب ونشره في الموصل 1967 ـ 1968 .

وتعد الصحف ، ومنها جريدة « موصل » التي صدرت في 25 حزيران 1885 ، ونينوى (صدر عددها الاول في 15 تموز 1909) والنجاح (صدر عددها الاول في 12 تشرين الثاني 1910) من المصادر المهمة التي تفيد الباحث في التاريخ الاجتماعي .. وتخلو المكتبات العامة في العراق من هذه الصحف ، لكنها تتوفر في المكتبات الشخصية في الموصل .

وبالرغم من أن المذكرات تمثل وجهة نظر شخصية ، لكنها تلقى بعض الاضواء على جوانب مهمة من حياة ولاية الموصل الاجتماعية . وقسم من هذه المذكرات لا يزال مخطوطا ، كمذكرات عبد الرحمن صالح الموسومة « كتاب العمر » بعدة أجزاء وأهميتها ان صاحبها شاهد عيان على كثير من احداث الموصل أواخر العهد العثماني . ومن كتب المذكرات كتاب عبد العزيز القصاب « من ذكرياتي » المنشور في بيروت سنة 1961 . و « ذكريات 1900 ـ 1958 » لعلي جودت الايوبي المنشورة سنة 1967 .

الدكتور ابراهيم خليل أحمد العلاف
كلية التربية / جامعة الموصل



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الحياة الاجتماعية ومشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود فى قائمقامية قطر العثمانى

(1871 ـ 1882)

د. محمد حسن العيدروس

المقدمه

يعد البحث حول موضوع الحياة الاجتماعية ومشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود فى قطر ، من المواضيع المهمة ، ولكن المشكلة لاساسية التى تواجه الباحث هى قلة المصادر والمراجع ، وخاصة فى الفترة من دخول العثمانين وحتى خروجهم من قطر ، وذلك لعدة اسباب ، اهمها اعتبار هذه المرحلة من اهم مراحل فترة تاسيس امارة قطر ، وخاصة بعد ظهور الشيخ جاسم ابن الشيخ محمد بن ثانى مؤسس الاسرة الحاكمة ، اضافة الى الدور الذى لعبه الشيخ جاسم فى بناء اركان حكم الاسرة فى الوقت الذى اشتد فيه الصراع البريطانى ـ العثمانى حوله ومحاولة بريطانيا ايجاد منفذ لها فى الدوحة ، الا ان الشيخ جاسم الذى طلب من القوات العثمانية الدخول الى قطر ثم خضوعه لسيادة الباب العالى ، جعله فى وضع اقوى ومتساو مع جيرانه ، خاصة مع شيخ البحرين الذى كان يطالب بقطر باعتباره تابعا لشيخ البحرين ، وكذلك مطالب شيوخ ابو ظبى فى اجزاء من قطر ، ولكون البحرين وابو ظبى خاضعتين للنفوذ البريطانى فانه من الصعب على الشيخ جاسم الحصول على استقلاله ان لم يكن مستحيلا واذا علمنا ان الامير سعود حاكم نجد كان ايضا متعاونا مع البريطانيين ويطالب بل وارسل رجاله لاحتلال قطر ، كل هذه العوامل دفعت الشيخ جاسم ان يطلب الدخول فى طاعة السلطان عبد الحميد ومن ثم يواجه المشاكل التى اثارتها بريطانيا عن طريق التجار الهنود ، ولذلك كان اعتمادى على الوثائق البريطانية المترجمة من قبل د. فتوح ، ود. المنصور ، فى كتاب مصادر تاريخ قطر ، وكتاب «جى اى سالدانا» والمترجم من قبل لجنة كتابة تاريخ قطر ، وايضا كتاب دليل الخليج للوريمر والذى عاصر تلك الفترة ثم كتب عنها بتكليف من حكومته ، ولذلك فان المصادر التى بين يدينا تعبر عن وجهة النظر البريطانية ، ونظرا لصعوبة البحث عن الوثائق العثمانية التى جاءت فى هذه الفترة ، وايضا لضيق الوقت حيث لم يكن امامى سوى بضعة اشهر للكتابة فى هذا الموضوع ، فانى بذلت كل جهدى للحصول على مراجع اخرى ، كما قمت بتحليل المعلومات البريطانية وصياغتها فى نظرة علمية منصفة واتمنى ان اكون قد وفقت لبعضها على الاقل فى هذا البحث .

وقد بدأت البحث بالموقع وأهم المدن فى قطر فى تلك الفترة ، ثم السكان والتركيب القبلى ، ثم وضع قطر قبل مجيء العثمانيين اليها ، وبعد دخولهم ، والموقف البريطانى من الوجود العثمانى فى قطر ، ثم مشكلة الرعايا البريطانين من التجار الهنود وطردهم من قطر والضغوط التى مارستها بريطانيا على الوالى العثمانى الشيخ جاسم ورفضه لهذه الضغوط والتهديدات مما اضطرت بريطانيا لتغير من استخدام القوة الى سياسة المرونة واستخدام الطرق السلمية والتقرب من الشيخ جاسم ، مما اسفر عنه دفع الشيخ جاسم التعويضات للتجار الهنود والسماح لهم بعودتهم الى قطر .

وهذا يكشف لنا كيف ان بريطانيا حاولت استغلال هذه المشكلة لصالحها لايجاد بعض النفوذ لولا وقوف جاسم فى مواجهة هذا المخطط البريطانى وأفشله ، الا ان بريطانيا نجحت فى سياستها بعد وفاة الوالى الشيخ جاسم واستطاعت ان تطرد العثمانيين من قطر وان توقع اتفاقية الحماية مع ابنه الشيخ عبد الله بن جاسم الثانى . ولم تخرج بريطانيا من قطر الا فى عام 1971 بعد سياسة الانسحاب من شرق السويس ، واليوم تعتبر قطر واحدة من اقطار الخليج العربى واحد اعضاء مجلس التعاون الخليجى .

موقع قطر :

ان شبه جزيرة قطر عبارة عن لسان كبير من اليابسة يمتد داخل الخليج العربى فى منتصف المسافة تقريبا بين مدخل الخليج العربى فى منتصف المسافه تقريبا بين مدخل الخليج العربى فى مضيق هرمز ورأسه عند مصب شط العرب ، وتبلغ مساحتها حوالى 4،000 ميل ، والعرض حوالى 55 ميل تقريبا (1) وتحيط بها مياه الخليج من الشمال والشرق والغرب ، أما الجنوب فيبدأ حدودها من نهاية دوحة سلوى على الجانب الغربى من شبه الجزيرة ، وتمتد هذه المنطقة فى اتجاه الجنوب الشرقى الى ان تصل الى آبار «اسكاك» ثم تمتد بعد ذلك حتى تصل الى شرق الشمال للطرف الشمالى للتلال الرملية «النقيان» ثم تتجه نحو الجنوب الشرقى للنهاية الجنوبية لهذه التلال على الجانب الشمالى لمدخل خور العديد ، وقد قيل انه يمكن لثلاثة رجال يقفون فى «دوحة سلوى» و «اسكاك» و «خور المحارف» على التوالى رؤية جميع ساحل قطر الجنوبى من البحر الىالبحر (2) .

وتحتل قطر اهم موقع فى الخليج العربى ، (3) ولكن الجزء الاكبر من شبه جزيرة قطر عبارة عن ارض صحراوية حصوية (4) ، الا أن بعض القبائل

(1) Qatar Government Publication-Qatar p. 15

(2) ج.ج. لوريمر – دليل الخليج الجغرافي جـ 6 ص 1942 .

(3) Qatar Government Publication P. 15

(4) يوسف الرحمن عبد الخليفي – النهضة البهية في الاداب والعادات القطرية ص 24 .

البدوية تجد لها فيه مراعى لمواشيها ، كما توجد بعض قرى الصيد على الساحل مثل الزبارة وخور حسان (5) وغيرها .

الدوحــة :

وهى عاصمة قطر كما تعتبر أهم مدنها وأكبرها سكانا ومساحة ، ويسميها البدو أحيانا «دوحة قطر» ، كما كان يطلق عليها اسم البدع ، وقد اشتهـرت بهذا الاسم وهى المدينة الهامة فى قطر القديمة ، (6) والبدع حاليا احد الاحياء القديمة فى الدوحة وتقع على الجانب الشرقى لشبه جزيرة قطر ، وعلى بعـد حوالى 63 ميلا من الطرف الجنوبى لرأس «الركن» و 45 ميلا شمالى خور العديد، وميناؤها تقع على الجانب الجنوبى من خليج عميق ، وهو ميناء طبيعى يبلـغ طوله حوالى ثلاثة اميال وهى محمية من جهتى الشمال الشرقى والجنوب الشرقى بصخور طبيعية ، ويبلغ اتساع المدخل أقل من ميل من جهة الشرق ولكنه ضحل بين رؤوس الصخور ، وصعب بعض الشىء ، ولا تستطيع المراكب ذات الغاطس الاكثر من 15 قدما المرور فيه ويتراوح عمق الميناء ما بين 3 الى 5 (قامات) وقد بنيت المدينة الارض المرتفعة (7) .

وقد أسس «البدع» أفراد من قبيلة السودان المهاجرين من أبو ظبى وكانت مدينة مزدهرة ولكن المنازل ضيقة وصغيرة ويفصل بين الازقة ممرات معتمة ، وكانت بها مراكز لتجارة اللؤلؤ فى قطر اما مدينة الدوحة قد أسسها أفراد من قبيلة ابو عينين الذين نزحوا الى «الوكره» فيما بعد (8) ، وقد تعـرضت الدوحة للتدمير مرتين فى الماضى وذلك بسبب الحروب القبليـة والاقليميـة التى كانت تدور بينها وبين أبو ظبى والبحرين فى تلك الفترة (9) ، وقد كان تعداد السكان فى الدوحة أوائل القرن العشرين اثنى عشرة الف نسمة ، وقد ذكر العثمانيون ان تعدادها كان عشرة آلاف ، ويفصلها عن مدينة البدع حى صغير عرف « بالدوحة الصغيرة » أو « الدويحة » وقد كان حيا صغيرا تسكنه جماعات من الهولة (10) ، وتتكون مدينة الدوحة من تسعة احياء وتمتد الواجهة الكلية للمدينة على البحر حوالى ميلين .

الوكره :

تعتبر ثانى مدينة من حيث الاهمية بعد الدوحة (11) ، وتقع الى الجنوب الشرقى منها بحوالى 10 أميال على الساحل الشرقى لقطر وليس فيها ميناء

(5) مكتبة وزارة الهند وسجلات الوزارة – سرى – 1888م ، B 4 9 ، د. فتوح الخترشي و د. عبد العزيز المنصور – مصادر تاريخ قطر ص 101 .

(6) محمد أحمد عبد الرزاق غنيم – التحضر في المجتمع القطرى ص 71 .

(7) ج.ج. لوريمر – المرجع السابق ج 2 ص 627 .

(8) محمد أحمد عبد الرزاق غنيم – المرجع السابق ص 80 .

(9) محمد عبد الرحيم قافود – الادب القطرى الحديث ص 19 .

(10) محمد أحمد عبد الرزاق غنيم – المرجع السابق ص 80 .

(11) Qatar Government Publication P. 15

واعتمادها على ميناء الدوحة ، ولكن لها ساحل يتكون من الشعب المرجانية الموجودة فى البحر ويمتد لمسافة ميل واحد من شمال الى شرق الوكرة ، اضافة الى شعب مرجانية اخرى تمتد لمسافة سبعة أميال من الجنوب الشرقى كما تبرز من الساحل شعب مرجانية اخرى تعرف باسم «فشت الشويمة» أو «رأس العلبج» ولا تستطيع المراكب الكبيرة او البخارية الرسو بها الا على بعد ميلين على الاقل ، والمنطقة الواقعة بين الوكرة والدوحة خالية من الزراعية وقاحلة، اما المنازل فتتكون من الطوب الاخضر ولا يوجد بها نخيل ليستعمل سعفه فى بناء المنازل ، ولكن فى السنوات الاخيرة بنى بها حى يعرف باسم الرميلة على بعد 800 يارده الى اقصى شمال المدينة (13) ، وقد تعرضت مدينة الوكرة ايضا للتدمير والخراب عندما هوجمت من قبل البحرين وابو ظبى عام 1867 (13) .

السكان :

لا شك ان للظروف البيئية والطبيعية والجغرافية ، تأثيرا واضحا على نشاط الناس وأساليبهم المعيشية وخاصة سكان قطر لارتباطهم بالموقع البحرى الممتد، فاستفاد الناس من العمل فى مياه الخليج العربى منذ القدم فى نشاط اللؤلؤ وصيد السمك (14) ، فقد كان اعتماد السكان الرئيسى فى الاقتصاد يقوم على عملية الغوص بالاضافة الى صيد السمك ، وتعتبر عملية الغوص من الاعمال الشاقة فيها الكثير من المخاطر اضافة الى الامراض الناتجة عنها كداء الرئة ونحوه وما يتعرض له الغوص من اخطار الاسماك المتوحشة ، وكان يعمل فى الغوص اكثر من نصف سكان قطر(15)، وكان سكان قطر قد عرفوا قيمة اللؤلؤ منذ مئات السنين فاهتموا باستخراجه ، كما كان لهم اسطول بحرى يزيد عدده على اربعمائة سفينة تعمل فى صيد اللؤلؤ ، وكان اللؤلؤ يصدر الى مدينة بومباى بالهند ومنها الى الدول الاوربية (16) .

اما صيد الاسماك فيأتى فى المرتبة الثانية بعد الغوص على اللؤلؤ من حيث الاهمية كمورد رزق للسكان ، ومن المعروف ان الخليج العربى غنى بمكيات كثيرة متنوعة من الاسماك نظرا لوجود الاعشاب البحرية ونتيجة للدفء الذى تمتاز به مياه الخليج العربى (17) ، وقد يرجع اتجاه السكان الى البحر منذ أقدم العصور لجدب شبه جزيرة قطر اضافة لاحاطتها بالمياه فى معظم اجزائها مما جعلهم يتخذونه مصدرا للرزق والغذاء واكتسبوا فى ذلك خبرة ومهارة عظيمة (18) .

(12) ج.ج. لوريمر – المرجع السابق ج 7 ص 2556 .
(13) محمد عبد الرحيم قافود – المرجع السابق ص 20 .
(14) احمد علي المنصور وسليمان محمد – المجتمع القطرى – ص 24 .
(15) محمد عبد الرحيم قافود – المرجع السابق ص 34 .
(16) وزارة المعارف – نهضة قطر ص 22 .
(17) محمد عبد الرحيم قافود – المرجع السابق ص 37 .
(18) وزارة المعارف – المرجع السابق ص 22 .

اما النشاط الزراعى فقد كان محدودا نظرا لقلة المياه بالاضافة الى ان التربة غير صالحة للزراعة فى معظم ارجاء قطر لكونها صحراوية ، وبعض المناطق مغطاة بطبقة من الحجارة والجير وملوحة التربة وشدة الحرارة (19) ، اما مياه الامطار فقليلة وغير منتظمة ولا تتعدى البوصتين سنويا ولا يمكن الاعتماد عليها فى الزراعة ، فهى تكفى فقط لبعض الاعشاب ، ولهذا حفرت عدة آبار للمياه العذبة فى وسط وغرب شبه الجزيرة القطرية (20) .

وسكان قطر كمعظم سكان المناطق العربية على الساحل الغربى من الخليج العربى بدو وحضر ، ويتراوحون زيادة ونقصا ويتألف التركيب السكانى للمقيمين من مختلف الجماعات والقبائل والتى تتواجد معظم عناصرها تقريبا فى كل من قطر والبحرين ، ولا يقل عدد سكان قطر المستقرين فى مدينتى الدوحة والكرة وفى قرى «الضعاين» و «الذخيرة» و «أبو الظلوف» و «فويرط» و«هديه» و«خور حسان» «والوسيل» و«الرويس» و«خور شقيق» و«سميسمه» عن 27 ألف نسمه ، اذا ما أضفنا لهم أفراد القوات العسكرية والعثمانية المتواجدة فى الدوحة ، والعائلات القليلة من أصل زنجى والتى تعمل فى زراعة حديقتين أو ثلاث فى قطر ، ويضرب عدد كبير من السكان المقيمين خيامهم فى الداخل اثناء فصل الشتاء مع قطعانهم وماشيتهم ، والبدو ينتمون الى مختلف القبائل (21) .

ويتوزع السكان الى عدة قبائل عربية اضافة الى بعض العائلات من السادة، أما أفراد القوات العسكرية العثمانية فانها تبلغ حوالى ثلاثمائة وخمسين رجلا ، وكان يوجد فى السابق بعض الرعايا البريطانيين من التجار الهنود والذين طردهم الشيخ جاسم فيما بعد نتيجة لتصرفاتهم غير اللائقة ، ولكن ما يزال منهم اثنان او ثلاثه يقيمون اقامة دائمة ، ولكن اعمالهم التجارية لم تعد مثمرة فى تجارة اللؤلؤ بعد ترحيل معظم الهنود (22) .

ويبلغ عدد السكان فى مدينة «الوكره» حوالى ثمانية آلاف نسمة ويبدو أنهم ينتمون للقبائل التالية حسب تعدادهم : آل بوعينين 200 ، العمامرة 100 ، عرب من نجد 250 ، خليفات 850 ، معاضيد 350 ، آل بن مقلة 50 ، القبيسات 75 ، هوله 1000 ، بحارنه 200 ، عبيد محررون 1000 ، زنوج لا يقيمون مع اسيادهم 2000 ، ايرانيون 125 ، ويسكن حى الرميلة كل من الخليفات والمعاضيد وعبيدهم بصفة خاصة ، اما البحارنه والهوله فيعملون بالتجارة والاعمال الحرفية ولا يوجد رعايا بريطانيون من أى نوع فى الوكره (23) .

---

(19) محمد عبد الرحيم قافود — المرجع السابق ص 37 .
(20) يوسف عبد الرحمن الخليفي — المرجع السابق ص 29 .
(21) ج.ج. لوريمر — المرجع السابق ج 6 ص 1987 .
(22) ج.ج. لوريمر — نفس المرجع ج 2 ص 631 .
(23) ج.ج. لوريمر — نفس المرجع ج 7 ص 2551 .

التركيب القبلي لسكان قطر :

يتكون سكان قطر كغيرهم من سكان الخليج العربى ، من مجموعات عديدة من القبائل العربية التى نزحت من اليمن ومن وسط الجزيرة العربية على فترات مختلفه ، واخذت تنتقل فى منطقة الخليج من مكان لآخر ، اما طلب للرزق أو نتيجة لحروب قبلية فتنزح القبيلة او جماعة منها من مكان الى آخر (24) ، اضافة الى القبائل العربية يوجد بعض العبيد الذين تم جلبهم من مناطق متفرقه من افريقيا وآسيا واعداد قليلة من البحارنة والهولة .

ولهذا يمكن القول بان النمط القبلي هو النموذج السائد فى قطر وبقية المناطق فى الخليج العربى ، وحتى هذه القبائل بعد ان استقرت توزعت على اجزاء من شبه جزيرة قطر وفى المدن والاحياء على شكل عائلات ممتدة ، وتخضع هذه الاحياء لها وتسمى باسمائها احيانا ، ويعتبر شيخ كل قبيلة بمثابة رئيسها والمسؤول عن شؤونها ، وتخضع القبيلة لارادته وتأتمر بأمره ، كما نلاحظ ان قبائل الحضر هى التى تقيم على السواحل وتعمل بالتجارة والغوص وصيد الاسماك (25) .

وفيما يلى نتحدث عن هذه القبائل والعشائر القطرية :

آل مسلم : والنسبة اليها «مسلمى» وهى عشيرة صغيرة فى قطر بينما كانوا يشكلون القوة الرئيسية والحاكمة لقطر فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وينتسبون الى بنى خالد ، وكان شيخ البحرين قد اسكن عددا منهم فى عام 1850 فى مدينة الدوحه ، وذلك لموازنة نفوذ عشيرة «السودان» وينتقل آل مسلم فيما بين «فويرط» و«الحويله» وقد بنوا قلعة الدوحه الحالية التى عرفت سابقا باسم قلة آل مسلم كما اسسوا «الدويحة» وظلوا على علاقات وثيقة مع المعاضيد ، ولكن عدة ظروف ادت الى خفض عددهم ، ويعملون فى تجارة اللؤلؤ وقليلون منهم من المجندين فى خدمة شيوخ آل خليفة (26) .

المعاضيد : والنسبة اليها «معضادى» ومن الصعب ان نقرر كان المعاضيد او جزء منهم يعاملون كقبيلة مميزة أو أنه ينظر اليهم كشعبة من قبيلة آل بن على فى البحرين وقطر ، وهى القبيلة التى تنتمى اليها الاسرة الحاكمة لذلك فانها تعد القبيلة الرئيسية على الرغم من انها ليست اكبر القبائل (27) .

ويقال ان المعاضيد فى قطر يتصلون من ناحية الدم «بآل بوكواره» الذين هم أنفسهم يدعون بأنهم من سلالة بنى تميم ويتكون المعاضيد من سبع عائلات

---

(24) محمد عبد الرحيم قافود — المرجع السابق ص 33 .
(25) د. جهينه سلطان سيف العيسى — المجتمع القطرى — ص 43 .
(26) ج.ج. لوريمر — المرجع السابق — ج 4 ص 1624 .
(27) د. جهينه سلطان العيسى — المرجع السابق ص 46 .

انقرضت منها واحدة ، ومن العائلات الست الباقية : آل عـلى ، آل طلـح ، آل ثانى الذين ينكرون أية قرابة لهم بآل بن علي ، بينما يعترف العميرى وآل فضل بذلك ، وآل بن مقبل منقسمون ، ولكن يبدو أن الباقين يدعون أنفسهم من آل بن على (28) ، وكان آل ثانى قد وصلوا الى قطر فى اوائل القرن الثامن عشر ، وفى عهد محمد بن ثانى برزت زعامة آل ثانى للقبائل القطرية والتفوا حوله (29) ، وقد سميت بـ آل ثانى نسبة للجد الاكبر ثانى بن محمد بن ثامر ابن علي (30) .

والمقيمون الاصليون من المعاضيد فى قطر موجودون فى الدوحه ولهم مـائة منزل ، وفى «الوكره» 70 منزلا ، وفى «الوسيل» خمسة منازل ولكن رئيسهم يعيش فى هذه القرية ، والعائلات المختلفة من المعاضيد يعيشون مختلطين فى اقاماتهم المختلفة ، ويشتغل المعاضيد فى تجارة اللؤلؤ والملاحة وتربية الجمال والماشية (31) .

آل بوكواره : والنسبة اليها «كوارى» وتقيم هذه القبيلة بصفة رسمية فى قطر ولهم 250 منزلا فى «سميسمه» و 150 منزلا فى «الضعاين» ومائة منزل فى «الغويرط» وعشرون منزلا فى «الدوحه» وينقسـم «آل بوكـواره» الى أربعـة اقسام وهى : ــ آل عبد الشيخ ، وآل كليب ، وآل بهام ، والمطاوعه ، ويعملون فى تجارة اللؤلؤ وصيده وتربية الابل والماشية ومنهم أيضا بحارة ، ويقال ان «آل بوكواره» تربطهم صلة دم وثيقة بالمعاضيد فكلاهما من بنى تميم (32) .

آل بن مقلا : وهى قبيلة صغيرة وتدعى انها فرع آل بوكواره الذين انكروا عليهم صحة هذا الادعاء ، ويعملون فى صيد اللؤلؤ وتربية الماشية (33) .

النعيم : ويسكنون قرب الزبارة ، وينزحون فى الطقس الحار الى البحرين ويقيمون معسكراتهم فى الجزء الشمالى من الجزيره الرئيسية وبعضهم يقضى الصيف بجوار الدوحة ، وهم منفصلون تماما عن الجسم الاصلى للقبيلـة فى البريمى والامارات ولا يحافظون على الصلة بهم ويعتقدون ان اجرادهم هاجروا من اليمـن الى عمـان ومنها اقطـر منـذ بضعـة اجيـال ، بنـاء عـلى دعـوة مـن العتوب الى قطر من أجل طرد آل مسلم ، وقد اصبح بعض النعيم الشماليين صيادىء لؤلؤ ولكن الاغلبية رعاة ، ويعتمدون فى حياتهم على رعي الحيوانات . وبدو النعيم الشمالية يتكسبون من وراء شيوخ آل خليفه وآل ثانى ، وحماية

(28) ج.ج. لوريمر — المرجع السابق جـ 4 ص 1394 .
(29) محمـد عبـد الرحيم قافود — المرجع السابق ص 30 .
(30) د. خالـد العربي — الخليج العربي في ماضيه وحاضره ص 162 .
(31) ج.ج. لوريمر — المرجع السابق جـ 4 ص 1394 .
(32) ج.ج. لوريمر — نفس المرجع جـ 4 ص 1345 .
(33) ج.ج. لوريمر — نفس المرجع جـ 4 ص 1474 .

هذه المشيخات يعتمد اساسا عليهم اثناء وغياب قوافل صيادى اللـؤلـؤ عن مساكنهم ، وقدرتهم أنهم يتمتعون بثقة فوق مستوى الشبهـات ، ويشتهـر النعيم بأنهم يملكون اكثر من 100 حصان و 200 جمل و 1000 رأس من الماعز ، وأهم أقسامهم **آل بوخريبان** : الجفافلة ، المطـاوعة ، القمـاطين ، الزائـدة ، خلوى ، آل فهد ، آل رمضان ، الوادرة **آل بوشامس** : آل جمعان ، الحتوم ، آل حى ، آل جبر • وهذه الاقسام وحتى الاقسام الاساسية مختلفة ويتبعون شيخين من قسمى آل حى وآل رمضان على التوالى ، وينظر نعيم البحرين لشيخ عجمان على انه جفالى ويحتمل ان قسم جفافلة النعيم فى شمالى قطر ، يناظر قسم القراطسه والذين يقيمون فى البريمى (34) •

بنو هاجر أو الهواجر : يعتبرون من البدو الرحل فى شـرقى الجزيـرة ويلفظ محليا «بنى هاير» و«الهواير» و«مفردها» «هـاجرى» او «هـايـرى» ، ومعظمهم يتواجدون فى سنجق الاحساء العثمانى ولكنهم لا يملكون اقليما معينا بعينه ، باستثناء ارض كبيرة من قطر يعيش فيها فخذ المنحصبة من الهواجر وهم يصطحبون رفاقا من قبيلة عجمان يتجولون بأراضيهم بحرية ، وكثيرا ما يضرب الهواجر خيامهم جنوبا فى خور العديد ، واحيانا يـزورون المنـاطـق الخاضعة لشيوخ الكويت ، كما يزور بعضهم قرية «عنك» فى واحة القطيف سنويا ، والقسم المستقر من الهواجر غير مرتبطين مع القبيلـة ، وطبـائعهم فظة وخشنة ، ولكنهم ذوو فكر بناء ومزاجهم مرح يوفون بالوعود والعهود ، وتتمتع نساؤهم بحرية كبيرة ، مع انهم لا يملكون سفنا خاصة بهم الا انهم يعملون فى البحر ، اما مهنتهم الرئيسية هى رعاية الماشية ويعيشـون عـلى انتاج قطعان الماشية وتربية الخيول والجمال ولديهم عدد صغير من مزارع النخيل فى بر «العقير» و «الظهران» وخيامهم ذات الوان سـوداء بها خيـوط بيضاء ، ويبلغ عدد المقاتلين لديهم حوالى 1500 منهم 150 ينتمون الى «المخضبة» و 850 الى «آل محمد» اما عدد أفرادهم الاجمالى فيبلغ 5،000 نسمة ، وتستحكم العداوة القوية بين الفخذين الرئيسيين وهما «المخضبة» و «آل محمد» وهى الحالة السائدة بينهما فى هذه الفترة ، ولهذا فانه لا يوجد شيخ واحد للقبيلة بأسرها ، كما يتلقى وجهاء القبيلة معونة مالية من متصرف سنجق الاحسـاء العثمانى وهدايا من شيخ الكويت ، وشيوخ آل ثانى فى قطر (35) •

السودان : والنسبة اليها «سويدى» وهم منتشرون فى الامـارات وقـطـر والبحرين،ويقال انهم هاجروا من اليمن وينحدرون من سلالة الاسود الكندى، ويسكنون فى الدوحة ويملكون 80 منزلا ، ويمكن تمييز السودان بسهولة عن القبائل الاخرى التى يعيشون معها ، وأهم الاقسام فى قطرهما آل رمضه وآل سالمين ، وكانوا يتمتعون بقوه ونفوذ كبير الا ان قوتهم ضعفت بعد عام 1867

---

(34) ج.ج. لوريمر – نفس المرجع ج 5 ص 1719 .

(35) ج.ج. لوريمر – نفس المرجع ج 2 ص 786 .

نتيجة لهجوم شيخ أبو ظبى والبحرين على قطر ، وهم يعملون فى مهنة صيد اللؤلؤ والملاحة (36) .

آل بوعينين : فرع من فخذ «آل صبيح» من قبيلة «بنى خـالد» المشهـورة ويقيمون فى قطر والبحرين ، وفى قطر يملكون 400 منزل فى مدينة الوكره ويعتمدون فى مصدر رزقهم على صيد اللؤلؤ وتجارته وليس بينهم مزارعون الا انجزءا منهم يعيش فى خيام خلال فصل الشتاء، ويقال أنهم أسسوا مدينة الدوحة فى أوائل القرن التاسع عشر ولكنهم أخرجوا منها عام 1828 الى «الرويـس» و«فويرط» وفى النهاية أقاموا فى «الوكره» (37) .

العمامرة : والنسبة اليها «عمارى» وهى تعمل فى شؤون البحـر وصيـد اللؤلؤ والملاحة فى كل أجزاء الخليج العربى ، وهى فقيرة نسبيا ويقال انها تنتمى الى فرع «عمار» المتفرع من قبيلة الدواسر ، ولهم عشـرون منـزلا فى الدوحة ، وعشرون منزلا فى الوكره ويبلغ عددهم الكلى حوالى 900 نسمة ، وتربطهم صلة قرابه بقبيلتى آل بوكواره والمعاضيد ، كما أنتقل البعض منهم الى البحرين مع العتوب وفى هذه الفترة يقوم عداء مستحكم فيما بينهم وبين «آل بن على» و «آل بجبج» المتفرعين من «آل مره» (38) .

كبسة : والنسبة اليها «كبسى» ، وهى قبيلة عربية صغيرة وغير مستقرة ويوجد أفرادها بصفة رئيسية فى قطر وان كان البعض يقيم فى البحرين ، ومقرها الرئيسى فى «خوير حسـان» ، وفى الاولى يملكـون 80 منـزلا وفى الثانية 50 منزلا ، كما يملكون منازل اخرى فى كل من «الهدية» و«سميسمه»، ويعملون بصناعة اللؤلؤ ويمتلكون الجمال والاغنـام والحميـر والابقـار ، ويرحلون الى الاجزاء الداخلية فى فصل الشتاء ويتركون ماشيتهم مع البـدو المحليين أثناء فصل الصيف ويتجهون الى البحر لصيد اللؤلؤ ، وكان معظمهم يقيم فى الدوحة فى وقت من الاوقات ولكنهم اضطروا للرحيل الى «خـويـر حسان» بسبب تأزم علاقاتهم مع العمامرة ، كما شاركوا فى تأسيس الزبارة مع قبيلة النعيم ، ولكنهم عادوا بعد فترة الى خوير حسان التى مازالت مقرهم الرئيسى (39) .

السلطة : النسبة اليها «سليطى» ، وهى قبيلة تقيم بشكل مستقر فى قطر ويقال انها فرع من «بنى مالك» وانها وصلت من العراق العثمانى عن طريق ايران ولذلك يمكن تصنيفهم ضمن الهولة وهم غير رحل ، ويملكون 650 منزلا فى الدوحة ، ويعيشون على صيد اللؤلؤ والملاحة وتربية الماشية والابـل ،

---

(36) ج.ج. لوريمر – نفس المرجع ج 7 ص 7405 .

(37) ج.ج. لوريمر – نفس المرجع ج 1 ص 66 .

(38) ج.ج. لوريمر – نفس المرجع ج 1 ص 88 .

(39) ج.ج. لوريمر – نفس المرجع ج 3 ص 1284 .

والبعض منهم كان قد هاجر مع العتوب الى البحرين عام 1723 ، كما استقر بعضهم فى الدمام فى واحة القطيف فى اوائل القرن التاسع عشر وقد عاد بعضهم الى قطر ثانية عام 1869 نتيجة لسوء التفاهم الذى حدث بين الدوحة ووالى البصرة (40) ٠

المهاندة : النسبة اليها «مهندى» وهى قبيلة من اشباه الرعاة وتقول بعض المصادر انها قدمت من ايران الى قطر والذين يرون هذا الرأى يتقبلون الحقيقة القائلة بأن القبيلة تنتمى الى «الهولة» وأهم فروعها : ــ آل حسن ، وآل ابراهيم، وهم يعيشون فى 500 منزل ويعملون بتجارة اللؤلؤ وصيده ويقومون بتربية الماشية والجمال (31) ٠

وضع قطر قبل دخول العثمانيين :

كانت قطر منذ بداية التاريخ الحديث تخضع لحكم بني خالد أو أحد فروعهم وخاصة آل مسلم ، وهى احدى القبائل العربية القوية ذات نفوذ ، وكان آل مسلم يدفعون الزكاة لبنى خالد الذين كانوا يسيطرون على الاحساء والساحل الشرقى من الجزيرة العربية ابتداء من قطر وحتى حدود البصرة(42) وكان نائب المقيم البريطانى فى الخليج العربى قد بعث بتقرير يقول فيه بأنه لم تتقرر مسألة السيادة ابدا بشكل عام فى هذا الموقع ولم يحصل ان بت على الاطلاق فى أمر السيادة على شبه جزيرة قطر ولا شك أنها كانت متنازعا عليها بين أبو ظبى من ناحية والحكم الوهابى فى نجد من ناحية أخرى ، وفى وقت من الاوقات كما يقال مارس شيخ أبو ظبى السيادة على قطر ، ولكن بعد وصول العتوب الى «الزبارة» فى الشمال الغربى من قطر أخذوا يمكنون لانفسهم فى موطنهم الجديد ومن ثم انفرد آل خليفه فى حكم البحرين وخاصة بعد فتحها وطرد الفرس منها (44) ، بينما كانت الزبارة خاضعة لهم وبعد ذلك توسعوا فى حكم شبه الجزيرة القطرية حتى شملت معظمها ٠

وكان فيصل بن تركى الامير الوهابى قد وصل فى اوائل عام 1851 الى الدوحة خلال رحلة كان يقوم بها فى اقاليم حكمه وقد أبدى سكان الدوحة والوكرة والفويرط عقب زيارته رغبتهم فى التخلى عن ولائهم لشيخ البحرين والانضمام الى رعايا الدولة الوهابية ولكن هدنه مواتية عقدت فى يوليو عام 1851 جنبت آل خليفه المخاطر التى كانوا معرضين لها بفقدان املاكهم فى قطر، كما كانوا قد فقدوا فعلا مدينة الدمام على شاطىء الاحساء ، وكان الرائد «بيللى»

(40) ج.ج. لوريمر – نفس المرجع جـ 7 ص 2407 .
(41) ج.ج. لوريمر – نفس المرجع جـ 4 ص 1408 .
(42) د. مصطفى أبو حاكمه – تاريخ شرقي الجزيرة العربية ص 96 .
(43) مذكرة بقلم أ.و. مورا 1879/9/1 – خطاب سرى من الهند رقم 127 بتاريخ 22 مايو 1879 د. فتوح الخترش ، د. عبد العزيز المنصور – المرجع السابق ص 14 .
(44) د. مصطفى أبو حاكمه – المرجع السابق ص 98 .

المقيم البريطانى فى الخليج العربى قد أفاد فى تقرير عام 1866 وأقرته حكومة الهند لاحقا عام 1867 بأن ولاء شيخ البحرين للوهابيين كان مقصودا للمحافظة على املاكه فى قطر أما بالنسبة لبلده البحرين فانه كان مستقلا عنهم كل الاستقلال ، والجزية التى يدفعها للوهابيين كل عام وقدرها أربعة آلاف روبية فهو ينظر اليها على أنها ضريبة لحماية رعاياه فى قطر من أى هجوم قد تشنه القبائل الاخرى على البر ، وفى الفترة ما بين عامى 1852 و1866 يبدو أن أمير الوهابيين كان له ممثل فى الدوحة ولكن من المحتمل ان وكيله هذا انما كان شيخا من شيوخ قطر (45) .

ولكن فى أكتوبر من عام 1867 حدث هجوم مدمر على مدينتى الدوحة والوكرة واشترك فى هذا الهجوم كل من شيخ أبو ظبى والبحرين معا ، فى حين كان دافع الاخير هو رغبته فى معاقبة الاهالى بسبب تمردهم ضده ، وان مدينتى الدوحة والوكرة كانتا فى نهاية عام 1867 قد أزيلتا تماما من الوجود ولو الى حين ، فهدمت المنازل وهجرها اهلها ، وقدرت الخسائر بمبلغ يزيد عن مائتى الف روبية ، وبعد اخفاق القبائل المنكوبة فى الحصول على ترضية عن طريق الاستغاثة بأمير الوهابيين ، شنت غارة انتقامية على البحرين ولكنها لم تنجح (46) .

وكان فى هذه الفترة قد برز الشيخ محمد بن ثانى المؤسس الاول للاسرة الحاكمة فى قطر الى الساحة السياسية متبعا الاسلوب المرن والمعتدل فى ادارة شؤون حكمه مع القبائل ولم يكن مطلق التصرف وكما برز ذلك من خلال حله لخلافاته مع آل خليفه فى البحرين عندما عقد معاهدة مع بريطانيا عام 1868 لفض خلافاته مع آل خليفه (47) ، كما لزم محمد بن ثانى نفسه بموجب تلك الاتفاقية التى وقعها مع الكولونيل «بيللى» مع انه ليس من الشيوخ الداخلين فى معاهدة «السلم البحرى» بألا يبحر لغرض عدوانى فى أى وقت وان يرجع الى المقيم البريطانى بشأن اى خلاف أو سوء تفاهم يقع له مع الآخرين (48) .

ورغم ان هذه الاتفاقية تنطوى على الاعتراف الضمنى بالكينات القبلية ، اذ تعهد محمد بن ثانى بتأدية الجزية نيابة عن القبائل القطرية الى شيخ البحرين (49) ، الا انها تعتبر محاولة من بريطانيا لادخال قطر ضمن حلقة النفوذ البريطانى فى الخليج العربى ، رغم ان سكان قطر لم يمارسوا أى دور عدوانى مما قد يشكل خطرا على الملاحة او على المصالح البريطانية فى الخليج العربى ، ولكن نجد فيما بعد ان ابن الشيخ محمد ويدعى جاسم سوف يلجأ الى

(45) ج.ج. لوريمر — دليل الخليج — القسم التاريخي ج 3 ص 1214 .
(46) ج.ج. لوريمر — المرجع السابق ج 3 ص 1215 .
(47) يوسف محمد عبيدان — المؤسسات السياسيه في دولة قطر ص 40 .
(48) د. فتوح الخترشي وعبد العزيز المنصور — المرجع السابق ص 101 .
(49) د. صلاح العقاد — التيارات السياسية في الخليج العربي ص 178 .

العثمانيين للتخلص من التزامات والده تجاه البريطانيين وشيوخ البحرين وبالتالى يصبح القائمقام العثمانى فى قطر .

وقد وقعت هذه الاتفاقية فى جو من الضغط البريطانى وذلك عندما زار الكولونيل «بيللى» من البحرين الى مدينة الوكرة فى قطر فى أوائل سبتمبر عام 1868 ، تصحبه السفن الحربية البريطانية مثل السفينة «فيجيلافت» والقارب المسلح «هيوروز» والباخرة «سند» وبعد وصوله الى الوكرة اجتمع بكبار الشيوخ فى قطر على ظهر سفينة وأبلغهم استياء الحكومة البريطانية الشديد من حملتهم على البحرين وقال ان الحكومة تفهم حجتهم فى أنها لم تكن سوى حملة انتقامية وتعتبر ذلك سببا يهدىء من الاضطراب الذى أثارته الحملة وفى النهاية توصل الى عقد اتفاقية مع الشيخ محمد بن ثانى فى 12 سبتمبر تعهد فيها بأن يعود الى الدوحة التى هجرها ، وان يقيم فيها فى سلام والا يرتكب أى عمل عدوانى فى البحر ، بل عليه ان يحيل كل الخلافات والمنازعات التى قد تنشب بينه وبين جيرانه الى المقيم البريطانى للفصل فيها ، ولا يساعد شيخ البحرين السابق ، بل عليه ان يسلمه للسلطات البريطانية لو وقع يوما فى قبضته وأخيرا أن يقيم مع الشيخ الجديد فى البحرين نفس انعلاقات التى كانت قائمة وبين الشيوخ السابقين لهذه الجزر ، وان يخضع لقرار المقيم البريطانى فيما يتعلق بأى خلاف فى وجهات النظر يقوم حول مشاكل مثل الجزية (50) ، وبعدها عقد محمد بن ثانى اتفاقية جديدة لدفع الجزية من قطر الى البحرين عن طريق المقيمة البريطانية .

دخول العثمانين الى قطر :

كانت الدولة العثمانية قد اتبعت سياسة تقليدية تجاه وسط وشرق الجزيرة العربية ، وهى تجنب أعباء الحكم المباشر والاكتفاء ، بالسيادة الاسمية للدولة العثمانية ، والتدخل فى أضيق الحدود اذا دعت الحاجة باستخدام الزعامات القبلية لاثبات وجود سلطة من نوع ما هنا وهناك فى مناطق متفرقة من الجزيرة العربية ، ولذا يمكن اعتبار حملة مدحت باشا تحولا هاما فى السياسة العثمانية كما كانت لها اصداء كبيرة فى المنطقة من شمال الخليج فى الكويت وجنوبا الى الامارات وعمان مما نتج عنه قيام حكم عثمانى فى الاحساء وقطر (51) .

وقد يرجع هذا التحول الى شخصية السلطان عبد الحميد أولا ، وشخصية مدحت باشا والى العراق ثانيا ، حيث ان الاخير قام بمحاولة اعادة النظر فى النظام الادارى فى الدولة العثمانية ودعا الى اصلاحات جذرية فى انحاء مختلفة من الدولة ، كما كان من الد أعداء السياسة البريطانية فى الخليج

(50) ج.ج. لوريمر – المرجع السابق ج 3 ص 1230 .
(51) د. صلاح العقاد – مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ص 931 .

العربى ، واعتبر الكويت والبحرين وقطر بلادا عثمانية ليست لبريطانيا اى سيادة عليها (52) ، وهذا ما نجده عندما ولى مدحت باشا الامير عبد الله بن فيصل قائمقاما عثمانيا على نجد واشعر الجميع بأنه ينظر اكثر شمولا واتساعا الى حدود الدولة العثمانية الى الشرق من الجزيرة العربية معتبرا ان هذه الحدود لا تضم منطقة الاحساء وحدها بل أيضا البحرين وقطر والامارات العربية وعمان فى حين رفضت الحكومة البريطانية هذا الادعاء وبعثت بمذكرة احتجاج وجهتها الى الباب العالى (53) .

وكان مدحت باشا قد اتبع سياسة تهدف الى انشاء اسطول بحرى عثمانى قوى فى الخليج العربى ، كما أنشأ خطا للبواخر المدنية أيضا تربط البصرة بالسويس والاستانة لانه كان يرى وجود القوة البحرية ضروريا لاثبات الوجود العثمانى وان يحكم قبضته على الدول والامارات الخليجية التى لم ترتبط باحلاف مع بريطانيا ، ولذا فان مدحت باشا كان قد اقتنع بوجهة نظر عبد الله ابن فيصل عندما أخبره بأن سعودا متعاونا مع بريطانيا وسيلقى بها بيد الاجانب ، لذلك فانه يطلب النجدة من الدولة العثمانية حماية للاسلام والمسلمين، وهنا قرر مدحت باشا أن يغزو السعودية وبقية امارات الخليج العربى ، فكتب الى شيخ الكويت يطلب منه المساهمة فى الحملة ، فوافق الشيخ على ذلك وحشد قواته بسرعة وأمر اسطوله بالانضمام الى الحملة ادراكا منه بأن البريطانيين خطر يهدد مستقبل الاسلام ومناطق الخليج ، وكان مدحت باشا قد وزع منشورات تبين ان اهداف الحملة هو انقاذ نجد وتوابعها من الخارج على الاسلام وعلى طاعة خليفة المسلمين واعادة الحكم الى قائمقام نجد الامير عبد الله ابن فيصل (54) .

وفى عام 1871 بعث مدحت باشا بحملة الى الاحساء للاستيلاء على هذه المناطق باسم السلطان عبد الحميد الثانى ، وسقطت الاحساء بيده على الرغم من صرخات الامير سعود يطلب النجدة من المقدم بيلى المقيم السياسى البريطانى والذى كان قد قدم مساعداته لسعود وقال فى مراسلاته للحكومة البريطانية بان سعودا خير للسياسة البريطانية من أخيه عبد الله بن فيصل ولكن عندما انهزم سعود من الجيش العثمانى فانه لم يحرك ساكنا وكان جوابه هو أنه يهتم بأمن مياه الخليج العربى فقط وأنه سيقاوم التقدم العثمانى اذا ما تعرض لاحدى الامارات المرتبطة بمعاهدات مع بريطانيا (56) .

---

(52) د. محمود علي الدوءاد – الخليج العربي والعلاقات الدولية ص 24 .
(53) جى بى كيلي – الحدود الشرقية للجزيرة العربية ص 142 .
(54) فالح حنظل – المفصل في تاريخ الامارات الجزء الثاني ص 632 .
(55) جى بى كيلي – المرجع السابق ص 138 .
(56) فالح حنظل – المرجع السابق ص 632 .

بعد دخول العثمانين الى الاحساء ارسل قائدها حمله بقيادة شيخ الكويت ، وقد وصلت هذه الحملة فى شهر يوليو عام 1871 بقيادة الشيخ عبد الله الصباح بدعوة من جاسم بن محمد والذى كان قد بعث بها الى نافذ باشا ، وكان مع حاكم الكويت أربع رايات عثمانية مع رسالة من نافذ باشا الى جاسم بن محمد يمتدح فيها الحكم العثمانى ، وقبل جاسم هذه الرايات ورفع احداها على بيته وأرسل الثانية لوالده محمد بن ثانى فى الوكرة والثالثة لعلى بن عبد الله شيخ الخور والرابعة ارسلها الى العديد ، وقد برر جاسم خضوعه للعثمانين بأنه يعيش فى البر والعثمانيين قوة بريه عظيمة وان بريطانيا اخفقت فى تحقيق العدالة لرعاياه فى أكثر من حادثة من حوادث السلب والنهب، وفى شهر يناير 1872 وصلت القوة العثمانية الى الدوحة تحت قيادة شيخ الكويت وتحولت قطر الى قائمقامية تتبع لواء الاحساء التى يحكمها متصرف يرجع فى اموره الى والى الولاية بالبصرة وكان يتبع قائمقامية قطر بعض القرى الصغيرة يحكم كلا منها مدير يرجع فى أموره الى قائمقام قطر (57) .

ولكن الشيخ محمد بن ثانى والد جاسم كان قد رفض رفع العلم العثمانى فوق منزله لانه كان قد وقع اتفاقية عام 1868 مع بريطانيا واستمر يرفع علمه الخاص ، وذلك لم يؤثر لان الشيخ محمد كان طاعنا فى السن بينما أخذ شأن ابنه جاسم يرتفع منذ عام 1868 وقد كان يريد تأكيد استقلال قطر عن البلدان المجاورة وبالتالى فان خضوعه لسيادة دولة كبيرة مثل الدولة العثمانية قطع الطريق على شيوخ البحرين وأبو ظبى فى المطالبة بأية حقوق لهم فى قطر ، كما قد يكون جاسم بدوافع دينية لم يرغب فى الدخول تحت الحماية البريطانية وانما آثر التقارب مع الدولة العثمانية،اذ كانت الزعامة الروحية لدولة الخلافة هى العامل الاول فى اجتذاب الشيخ جاسم الى التعاون مع العثمانين والدخول فى سيادتهم ، اضافة الى عامل محلى هو تعدى القبائل المتحالفة مع سعود بن فيصل صديق بريطانيا على قطر مما جعل الوجود العثمانى نوعا من الحماية من هذه القبائل (58) .

ويمكن القول أن مدحت باشا ارسل قواته الى قطر بناء على طلب من جاسم واعيان البلاد ، لتلك الاسباب التى ذكرناها آنفا ، كما أوضحا لمدحت باشا أنه فى حالة عدم ارسال القوات المسلحة العثمانية فانهم يطلبون السماح لهم بالهجرة فى موسم الحج ، ولهذا ارسل مدحت باشا سرية من القوات العسكرية الموجودة فى الاحساء بقيادة عمر بك،وهذا يعنى ضمنيا بأن السياسة العثمانية لم تستهدف فى بداية الامر وجودا عسكريا مستديما فى قطر وخاصة ان الشيوخ واعيان البلاد كانوا قد طلبوا بانفسهم السيادة العثمانية (59) وارسال اعلامها للتوزيع على المناطق الادارية فى البلاد .

(57) د. فتوح الخترش – د. عبد العزيز المنصور نشوء قطر وتطورها ص 54 .
(58) د. صلاح العقاد – المرجع السابق ص 931 .
(59) د. صلاح العقاد – نفس المرجع ص 932 .

وفى عام 1873 تم سحب القوات النظامية العثمانية التى كانت فى الدوحة وتم ابدالها بثلاثين رجلا من القوات العسكرية ، واحتفظت هذه الحامية العثمانية بموقعها فى الدوحة حتى عام 1913 (60) ، وفى عام 1915 أجلت القوات البحرية البريطانية قوات الحامية العثمانية من مدينة الدوحة (61) ورغم خضوع قطر للحكم العثمانى الا أن الوجود العسكرى لم يغير أو يؤثر فى قطر ، وظلت العلاقات القبلية كما كانت من قبل وظل شيوخ آل ثانى فى الدوحة من أقوى وأهم العناصر فى الحياة الاجتماعية والسياسية .

الموقف البريطانى من الوجود العثمانى فى قطر :

لقد كانت السياسة العثمانية بالنسبة للخليج العربى متأثرة الى حد كبير بالفكرة التى كان السلطان عبد الحميد الثانى يحملها عن الجامعة الاسلامية واعادة الخلافة الى سابق عهدها وهيبتها وجعل استنبول عاصمة العالم الاسلامى (62) .

وجاء الاهتمام البريطانى فى الوقوف ضد التوسع العثمانى فى شرق الجزيرة العربية فى الوقت الذى قل الخطر الروسى على الخليج العربى ، وأصبح أمرا ثانويا بالنسبة لمركز بريطانيا فى الخليج العربى وذلك لانشغال روسيا فى الاوضاع السياسية فى المناطق الايرانية المحاذية لها وكذلك فى الصراع الدولى فى افغانستان (63) .

ولهذا كان للحملة العثمانية أصداء كبيرة على الصعيد المحلى والدولى وخاصة من جانب الحكومة البريطانية ، والتى قابلتها بالمعارضة والرفض نظرا لمصالحها الكبيرة فى منطقة الخليج العربى والتى كانت تهدد تلك المصالح وتعكر الامن البريطانى فى مياه الخليج العربى نتيجة لوصول منافسين جدد وهم العثمانيون الى الساحل الغربى من الخليج وحتى منطقة العديد فيما بين قطر وابو ظبى واصبحت قطر الحد الفاصل بين النفوذ البريطانى والعثمانى ، بعدما كانت بريطانيا هى المسيطرة على الساحلين الشرقى والغربى من الخليج فالوجود العثمانى على الساحل الغربى من الخليج يعنى انتقاصا من السيادة البريطانية رغم وجود الاساطيل البريطانية فى مياه الخليج .

وعندما طالب شيخ البحرين فى عام 1873 بسيادته على قطر ، أوضح له المقيم البريطانى بأن هذه المسألة صعبة ومعقدة وان القضايا الخاصة بالسيادة البحرية ينبغى تجنبها الآن ، وخاصة بعد دخول القوات العثمانية الى هذه

---

(60) د. خالد العربي – المرجع السابق ص 160 .

(61) د. جمال زكريا قاسم – تاريخ امارات الخليج 1914–1935 ص 269 .

(62) د. محمود علي الداوءد – المرجع السابق ص 25 .

(63) د. محمود علي الداوءد – نفس المرجع ص 24 .

المنطقة ، وكانت بريطانيا تفكر فى المحافظة على وضعها فى الامارات العربية والبحرين ، ولكن بعد التأكيدات من الباب العالى بأنه لا ينوى التدخل فى استقلال الشيوخ الخاضعين للحماية البريطانية ابدت ارتياحا كبيرا ، واعتبرتها أكثر قيمة من أى تحديد خاص ولكنها رأت ان عاجلا او آجلا أنه سيتخذ التدخل العثمانى فى بلاد العرب طابع الاستمرار والثبات أو ستكف عن العدوان وبالتالى سوف تحين لها الفرصة المناسبة للتصدى للقضايا الخاصة بالحدود او السيادة ، كما تم الاعتراف بان للبحرين حقوقا معينة مثل حق الرعى على ساحل قطر عن طريق اتفاقية نوفمبر 1868 ، ولكن هذا لم يكن يعنى انها تعطيها الحق فى الاعتداء على أى ميناء فى قطر (64) .

وكان نائب المقيم البريطانى فى الخليج العربى قد بعث بتقارير سرية الى حكومته فى الهند موضحا فيها بأن العثمانيين أصبحت لهم السيادة الفعلية على ساحل قطر حتى مشارف العديد منذ اغسطس 1873 كما بعث السير . هـ. اليوت بتقرير الى اللورد جرانفيل فى 22 اغسطس 1871 ، فيقول فيها بأنه تلقى برقية من نائب الملك فى الهند تتساءل عن وجود اساس من الحقيقه عن كون الجنود العثمانيين سيلقى بهم فى ساحل قطر وان قلاعا ستبنى فى «القطيف» و«عجير» وقد سأل فى ذلك الافندى العثمانى الذى صرح له بأنه بعد مراجعة المراسلات الواردة له لم يجد الحكومة العثمانية فى وضع يسمح لها بأن تفضى بالمعلومات حين تسأل عن اجراءاتها فيما تعتبره أقاليمها الخاصة ، وذلك يشير الى سنجقى النجد واليمن ، اما فيما يتعلق بقطر ، فمن المؤكد انه فى شهر يوليو رفرف العلم العثمانى فوق «البدع» فى ظروف لم توضح من أى مصدر وهى ميناء على الساحل الشرقى لقطر (65) .

ويقول المستر «أتشيسون» فى ملاحظة له فى هذا الصدد ضمن محضر مؤرخ فى 19 يوليو عام 1971 «ان احتلال البدع يبدو مناقضا لروح التأكيدات التى قدمها الباب العالى والباشا أنها بلا شك المحاولة الاولى نحو تأسيس سيادة على القبائل فى الشرق ممن أدخلت مدنهم ، كما هو معروف فى الجريدة الرسمية التركية على أنها بيوتات وحدائق نجد والاتراك أشد ذكاء من ان يشهدوا اى تأكيد عنيف مفاجىء لسيادتهم .... هناك اولا تلميحات الباشا بأن التأكيدات المعطاة «الضمانات» تشير الى القبائل المنشقة التى ليس منها قبيلة واحدة فى نجد ثم هناك ادخالات فى الاوراق الرسمية لاماكن معينة على أنها توابع لنجد ، ثم رفع العلم التركى كما ذكرنا وهكذا» (66) .

كما جاء فى رسالة المقيم البريطانى الى سكرتير الدولة وفيه رسالة للملحق السياسى فى الخليج فى 22 اغسطس عام 1882 بان والد جاسم كان منذ عام

(64) د. فتوح الخترش – د. عبد العزيز المنصور مصدر تاريخ قطر ص 14 .
(65) د. فتوح الخترش – د. عبد العزيز المنصور نفس المرجع ص 102 .
(66) د. ف. – الخترش – د. عبد العزيز المنصور – نفس المرجع ص 102 .

1868 داخلا في ارتباطاته بعلاقات حسنة مع الحكومة البريطانية واستمر عليها حتى وفاته ، في حين تخلى عن شؤون الحكم في أواخر ايامه الى ابنه جاسم بعد ان بلغ في السن وأخذته الشيخوخة ، اما جاسم فانه كان ساخطا على البريطانيين نتيجة لتصرفاتهم ضده بعد ان قام المقيم بفرض رغبات شيخ البحرين ودفع الجزية مما دفعه الى طلب الحماية والدخول تحت السيادة العثمانية وخلال السنوات الماضية فانه اكتسب صفة الرجل السياسي والمتصلب العنيد لكن وجود ابيه على قيد الحياة كان عاملا مهدئا حال دون نشوء صعوبات خطيرة (67)

ونجد البريطانيين سوف يقبلون بالامر الواقع بالسيطرة العثمانية على «قطر» «والاحساء» «ونجد» وعلى هذا الاساس يعملون في خلق مشاكل داخلية ومنها مشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود في قطر .

مشكلة الرعايا البريطانين من التجار الهنود في قطر :

كانت السياسة البريطانية في الفترة من عام 1871 الى عام 1881 وحتى بداية عام 1913 ، لا ترغب في الاعتراف بالسيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية ومنها قطر والوقوف في وجه التقدم العثماني تجاه هذه المنطقة ، لكي لا تنافس مصالحها ونفوذها وتشكل تهديدا لها ، ولذلك نرى هذا الصراع واثبات النفوذ البريطاني واضحا في الخليج العربي ، وخاصة في قطر وبالذات عندما حاولت ان تفرض هذا النفوذ من وراء تصعيدها لمشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود ، والقصد من وراء ذلك لم يكن الوقوف مع التجار الهنود ضد حاكم قطر بقدر ما كان فرض النفوذ البريطاني وطرد العثمانيين منها،وهذا ما نجده من خلال مراسلات الجهات الرسمية البريطانية حول هذه المشكلة اضافة الى عوامل أخرى سوف نتطرق اليها .

وقد استطاعت بريطانيا ان تحصل على مكاسب كبيرة في الخليج العربي منذ ان عقدت اتفاقيات ومعاهدات مع حكام المنطقة وقيدتهم بأحكام فرضتها لخدمة الاقتصاد البريطاني ولرعاياها او الداخلين في الرعاية البريطانية التي تكفل لهم سبل العمل والتجارة في الخليج ، ولذا وفدت على المنطقة وبتشجيع من بريطانيا اعداد كبيرة من الهنود البريطانين ومعظم من طائفة «البانيان» وكان انتشارهم في الخليج مظهرا من مظاهر النفوذ الاقتصادي البريطاني وكانوا معروفين «بالبانيان» سواء كانوا من الهندوس أو السيخ أو غيرهم وكثيرون منهم وصلوا الى مراكز كبيرة في مسقط وفارس والخليج ، وباستثناء المسلمين منهم لم تندمج الجاليات الهندية في المجتمعات الوطنية بل كانت تنتظر تنمية ثرواتها ثم تنتهز الفرصة للعودة الى اوطانها (68) .

---

(67) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - نفس المرجع ص 103 .

(68) د. عبد العزيز المنصور - التطور السياسي لقطر في الفترة مابين 1868-1912 ص 92 .

وكانت الدوحة عاصمة قطر من المراكز التجارية الهامة والمستقرة فى الخليج العربى اثناء حكم الشيخ جاسم ، وجذب هذا الانتعاش التجار الهنود من طبقة البانيان الى هذا الميناء الناشىء ولكن قدوم التجار «البانيان» فى هذه الفترة اختلف عن قدومهم فى الفترات السابقة ، وكانوا يمثلون الشركات الملاحية التجارية والوكالات التجارية الضخمة فى بومباى وغيرها من المدن الهندية الكبيرة ، وان قدومهم كان كرعايا بريطانيين يتمتعون بالحماية البريطانية التى اتخذت فى كثير من الاوقات ذريعة لامتداد النفوذ البريطانى والتدخل فى الشؤون الداخلية لدول المنطقة .

فقد كان افراد جالية «البانيان» من الرعايا البريطانيين يتمتعون بحرية العمل فى مدينة الدوحة مركز النشاط الاقتصادى والذى يتمثل فى تجارة اللؤلؤ والتجارة البحرية وعملية الاستيراد واعادة التصدير الى وسط شبه الجزيرة العربية فى قرى ومدن نجد وهؤلاء التجار «البانيان» بدأوا ينافسون التجار الوطنين فى ارزاقهم وهم فى الحقيقة يمتصون الثروة الوطنية بسبب رؤوس الاموال الكبيرة التى يديرونها فى احتكار اللؤلؤ وفى عمليات اقراض التجار واصحاب السفن الخارجة الى الغوص ، فالوثائق المحلية تكشف لنا عن ما مدى ما وصل اليه نفوذ رأس المال الاجنبى فى قطر وذلك بقيام التجار «البانيان» بعملية الطواشه فى كل صيف بقواربهم الخاصة المجهزة بالبحارة والاغذية والاموال ، وكانوا يمرون على مغاصات اللؤلؤ ويجمعون اللؤلؤ من اصحاب السفن ، مما يعنى منافستهم واخراجهم من قطر او شل حركتهم الاقتصادية ، وذلك هو فى الحقيقة السبب المباشر فى الصراع بين التجار «البانيان» من الرعايا البريطانيين والتجار المحليين فى قطر (69) .

اضافة الى تشكيل هؤلاء التجار «البانيان» تهديدا خطيرا للنظام الاقتصادى القطرى وسيطرتهم على معظم الاعمال التجارية فى قطر فان اثرهم على الحياة الاجتماعية ايضا كان يشكل خطرا ، لان معظم التجار الهنود ان لم يكن جميعهم من جماعة «الشيخ»و«الهندوس» أى يعبدون البقر والاصنام وفى نظر الاسلام يعتبرون كفارا ، وبذلك كانوا يشكلون خطرا على الحياة الاجتماعية الدينية وتصرفاتهم ومعاملاتهم كانت لا تخلو من الكراهية والتسلط ، وخاصة ان هؤلاء الطبقة من الهنود البانيان كانوا من المقربين من البريطانيين على عكس التجار المسلمين من الهنود والذين كانوا كثيرا ما يتعرضون لمضايقات من قبل السلطة والاستعمار البريطانى فى الهند مما كان يحد من نشاطهم التجارى فى داخل الهند وخاصة فى الخارج كمنطقة الخليج العربى ذات الديانة المسلمة مما قد يؤثر فى تعاطفهم الدينى تجاه مسلمى الهند ، وبالتالى لا يقل أهمية العامل الدينى عن العامل الاقتصادى .

---

(69) د. عبد العزيز المنصور – نفس المرجع ص 93 .

هذا وقد كان الشيخ جاسم فقيها وعالما ورعا ومتبحرا فى أصول مذهب الامام ابن حنبل ومتشددا جدا فى احكامه ويمنع ادخال عامل الخوف او المهادنة او التسامح فى أمور الحياة على حساب المبدأ الدينى ، فيروى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قوله : «لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان» ، وقد أخرج اليهود وأجلى النصارى فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكيف بالكفار ولان «البانيان» يعبدون الاصنام فهم وثنيون فكان عداؤهم وحربهم واخراجهم عملا دينيا محضا (70) .

اضافة الى العامل الاقتصادى والدينى هناك عامل سياسى وهو أن جاسم كان قد قبل الحكم العثمانى منذ عام 1871 وبذلك انهى معاهدة 1868 التى عقدها والده مع بريطانيا وقد نتج عن وصول العثمانيين الى قطر اول احتكاك مباشر بين العثمانيين وبريطانيا رغم ان الشيخ محمد بن ثانى كان على ولائه للبريطانيين لفترة معينة الا ان تولى ابنه جاسم مقاليد السلطة فى قطر وحصوله على منصب القائمقامية عام 1876 جعله فى ان يضرب مصالح التجار الهنود بين فترة واخرى لتنفيذ سياسة العداء تجاه بريطانيا فقد كان الهنود هدفا سهلا فى متناول يده طوال فترة المواجهة ، وكان يتهرب فى كثير من الاوقات من العقوبات البريطانية بالاستعانة واللجوء الى العثمانيين او قوته الذاتية ، فى حين كان البانيان يستعينون بالحكومة البريطانية وقد افتخروا فيما بعد بالخطبة التى القاها مندوب عنهم فى الشارقة امام اللورد «كيرزون» نائب الملك فى الهند اثناء جولته بالخليج التى يقدمونها للحكومة البريطانية وبان وجودهم فى الخليج ارتبط مع بداية ظهور السفن البريطانية فى مياه الخليج، وما أعطى لهم القادة البريطانيون من امتيازات اقتصادية ظلوا يتمتعون بها اينما كانوا باعتبارهم من رعايا التاج البريطانى وبعدها تعهد اللورد «كيرزون» نيابة عن حكومة الهند البريطانية بمزيد من الاستقرار للبانيان ما دامت البوارج البريطانية تستطيع ان تحفظ الطريق آمنا الى أجزاء امبراطوريتها (71) من القوى المحلية والاجنبية فى الخليج العربى .

وكان الشيخ جاسم قد طلب من السلطات العثمانية عام 75 ـ 1876 ان يمارسوا سيادتهم على هؤلاء الاجانب للحد من تدخل السلطات البريطانية فى الشؤون الداخلية لقطر ولم تكن الحكومة البريطانية تستطيع ان تعترض على تلك التصرفات لان الوالى جاسم لم يكن يرتبط معها بأية علاقة خاصة او منصوص عليها فى معاهدات ، وكل ما فعلته الحكومة البريطانية هو انها قدمت احتجاجا لدى الباب العالى على المعاملة التى لاقاها التجار من رعاياها ، ولكن العثمانيون لم يتدخلوا كثيرا فى شؤون الشيخ جاسم الداخلية فى تلك الفترة فى حين استمرت التعديات من قبل القبائل وسكان قطر على الرعايا البريطانيين

(70) د. عبد العزيز المنصور – نفس المرجع ص 93 .
(71) د. عبد العزيز المنصور – نفس المرجع ص 93 .

بل وامتدت ايضا للبحر ، ففى شهر نوفمبر عام 1878 استولى جاسم بمساعدة القبائل القطرية على منطقة الزبارة مما شكل خطرا على البحرين ، اما بريطانيا فانها بعثت بعدة رسائل الى الباب العالى تطالب باتخاذ الاجراءات اللازمة للحد من اعمال سكان قطر طالما ان الباب العالى يمارس سيادته على تلك المواقع ولكن شيئا لم يحدث (72) .

وكان أول حادثة مضايقة تعرض لها التجار البريطانيون من الهنود «البانيان» عندما فرض الشيخ محمد بن ثانى عام 1875 ضرائب جديدة ، فقد تسلمت الحكومة البريطانية التماسا من رعاياها من الهنود فى الدوحة يشكون فيه من ابتزاز الشيخ اموالهم ويعربون عن الرغبة فى مغادرة البلدة ، ولكن ثبت العكس وان ما كانوا يشكون منه هؤلاء التجار لم يكن سوى الضرائب المعتادة التى كانت تجبى منهم لحمايتهم (73) . فقد جاء فى التقرير الذى قدمه احد العاملين فى المعتمدية البريطانية فى يونيه عام 1875 بان الشيخ كان قد فرض الضرائب على شعبه أولا ثم على الرعايا البريطانيين من التجار الهنود مقابل تأمين لحمايتهم من البدو وغيرهم ، وقد قال الكولونيل «روس» المقيم البريطانى بأن الشيخ محمد بن ثانى كان جادا فى صداقته مع بريطانيا وبالتالى فانه من حقه ان لا يعفى التجار البريطانيين من الهنود من نفس الضرائب والمكوس المحلية والتى كان قد فرضها على شعبه ، وفى شهر سبتمبر من عام 1875 ، جاءت تعليمات الى المقيم البريطانى فى الخليج من حكومة الهند بأن يبلغ التجار البريطانيين من الهنود بانهم احرار فى ان يغادروا قطر او ان يظلوا فيه واذا ما فضلوا البقاء فيه واستمروا فى الاقامة بها فيجب عليهم ان يخضعوا للقوانين والضرائب المحلية (74) .

وفى عام 1876 كان القبطان جو ثرى قائد سفينة «مائى فرير» قد لقى بعض المتاعب اثناء زيارته للدوحة من قبل المسؤولين العثمانيين عن الموقع ، فقد تجمعوا وراءه اثناء خروجه من الميناء الى سفينته يصيحون به ان الدوحة ميناء عثمانى وانه ليس من حقه النزول الى هذا الميناء دون اذن من السلطات المختصة وان عليه ان يغادره قبل غروب الشمس ، وقد حاول جوثرى ان يمكث فى الدوحة أربع وعشرين ساعة أخرى رغم التهديدات العثمانية (75) .

وكانت عدة حوادث جرت فى عام 1874 منها عندما قام رعايا من قطر من قبائل بنى هاجر فى صيف تلك السنة بالاعتداء على قارب لتاجر من البحرين يدعى عبد الكريم بالقرب من خور شقيق وتضرر منه بعض الرعايا من التجار الهنود ، ولكن المقيم البريطانى فى الخليج «روس» استطاع ان يحصل على

(72) د. فتوح الخترش ، د. عبد العزيز المنصور – المرجع السابق ص 16 .
(73) ج.ج. لوريمر – المرجع السابق ج 3 ص 1227 .
(74) د. عبد العزيز المنصور – المرجع السابق ص 95 .
(75) ج.ج. لوريمر – المرجع السابق – ج 3 ص 1227 .

تعويض لتلك الخسارة عن طريق ارسال مساعدة «فريزر» للتاجرين وهما «تشيلا» و «راما» (76) ولكن الشيخ جاسم الذى كان قد أصبح مؤخرا قائمقاما عثمانيا ، قد دعا التاجرين السابقين والذين حصلا على التعويضات من قبل «فريزر» ودبر نفيهم الى عاصمة اقليم الاحساء البعيدة فى «الهفوف» وزعم ان نفيهم الى هناك أمر ضرورى ولابد منه مما اعتبرته بريطانيا محاكمة التاجرين عدوانا سافرا كبيرا على اثنين من الرعايا البريطانيين الهنود من «البانيان» ومن ثم طولب وزير الخارجية بحكومة الهند بان يحيط وزارة الخارجية البريطانية فى لندن علما بالامر من اجل مطالبة الباب العالى بتفسير الامر والتحرك من اجل تقديم التعويض المناسب للتاجرين (77) .

اما العقيد «روس» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج فقد اعتبر تصرف الشيخ جاسم بانه تحد لبريطانيا وعمل ثأرى من جانبه فى مقابل الغرامة التى اكره على دفعها من جراء الضريبة التى كان انتزعها من نفس هذين التاجرين (78)

ولكن الحوادث توالت وخاصة فيما بين عامى 1878 — 1879 فى حين كان العثمانيون يتجاهلون او غير راغبين فى ذلك بل ورفضوا التعاون مع بريطانيا فى سبيل ذلك ، كما كانت بريطانيا عاجزة عن مواجهة هذه الاعمال على السواحل القطرية باستثناء البحر وخاصة عندما تكون البحرين هى الهدف ، وارادت حكومة الهند ان يكون هناك تحديد للمدى الذى يمكن معه ان يصل فيه النفوذ العثمانى ، وكانت تصر على ان تنفذ الدولة العثمانية التزاماتها باقامة النظام حتى ذلك الحد ، وكانت موافقة فى ان تدخل قطر فى اطار منطقة النفوذ العثمانى على ان الهدف من وراء ذلك كان ان يعقبه هذا التحديد تكوين قوة بحرية لمقاومة النشاط البحرى القوى الذى كان يمارسه ابناء قطر ، وكانت وزارة الخارجية ترى انه يمكن دفع العثمانيين الى الامتناع ولكن على بريطانيا نفسها ان تقرر الحدود وان تمارس السلطة البوليسية خارجها والا تتدخل فى الداخل الا فى الاحوال الخاصة وفى أضيق الحدود اذا دعت الضرورة لذلك (79) .

فى حين كان رأى نائب المقيم البريطانى فى الخليج بأن الاقتراح الاول غير عملى لان العثمانيين لن يوافقوا عليه وحتى اذا وافقوا فانهم سوف يعجزون عن ممارسة السلطة على الساحل على المستوى المطلوب ، أما اذا أخذ باقتراح وزارة الخارجية فسوف يكون فى مقدور سكان قطر أن يتخذوا لانفسهم مرافىء لممارسة اعمالهم البحرية ضد النفوذ البريطانى على السواحل التابعة للسلطات العثمانية التى ستمنع مطاردتهم ولذلك فقد قدم اقتراح آخر بأن توجه رسالة

(76) د. محمد مرسي — مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ص 730 .
(77) د. عبد العزيز المنصور — المرجع السابق ص 95 .
(78) جي . اى . سالدانا — الشؤون القطرية ص 58 .
(79) د. فتوح الخترش — د. عبد العزيز المنصور — المرجع السابق ص 79 .

الى الباب العالى يخطر فيها بأن بريطانيا سوف تعترف بالسيادة العثمانية شمالى منطقة العديد ، ولكن بقدر ما تتم به ممارسة هذه السيادة بالفعل ، وان الاعمال البحرية التى يشنونها تدل على انعدام هذه السيادة ولذلك يصبح من المتعين مطاردتهم والقضاء عليهم بصرف النظر عن الموانىء التى يستخدمونها ، وسوف يتم الاتصال مباشرة بالولاة المحليين ولن يسمح بأى تدخل عثمانى فى شؤون البحرين او القبائل البحرية فى الامارات العربية شرقى العديد ، كما تقدم اللورد «كرانبروك» وزير الهند بتلك الاقتراحات والتى قدمها نائب المقيم فى الخليج العربى ، ولكن وزارة الخارجية رفضتها بعد استشارة مستشاريها القانونيين ، وايضا بعد مراجعة التفاصيل والاتصالات التى جرت مع الباب العالى منذ ذلك التاريخ ٠

وكانت بريطانيا متضايقة جدا من تصرفات رعايا قطر ضد الاعمال التى كانوا يقومون بها سواء ضد الرعايا البريطانيين من التجار الهنود ، او ضد جيرانهم فى البحرين والامارات والتى كانتا من ضمن النفوذ البريطانى ، وحاولت فرض نفوذها على قطر ولكنها كانت تخشى من التواجد العثمانى وبذلك لم تكن تستطيع ان تفعل شيئا سوى تقديم الاحتجاج لدى الباب العالى وتقديم الانذار الى شيوخ قطر ٠

الاعتداء على أحد التجار البانيان :

لقد وقع اعتداء على أحد التجار البانيان من الهنود فى يناير من عام 1879 ، ويدعى «فورسو» عندما ضرب واسيئت معاملته (81) من قبل الحاكم العثمانى محمد أغا ، وذلك لان التاجر الهندى قام بتهريب التمور من الدوحة الى الخارج بدون علم السلطات المحلية علما بأن التمور كانت تستورد من الخارج وخاصة من «البصرة» ، ولا تصدر الى الخارج ، اضافة الى ذلك قد يكون الهدف من وراء ذلك ارغام التجار البريطانيين على مغادرة أراضى قطر بعدما لوحظ تدخلهم فى جميع المجالات والشؤون الاقتصادية القطرية والخاصة بالوطنيين ٠

وقد تدخلت الحكومة البريطانية نتيجة لتلك الحادثة وطلبت التعويض للتاجر الهندى ، ونظرا لتأثير هذه الحوادث تأثيرا سيئا على سمعة بريطانيا فى الخليج العربى ، قام العقيد «روس» المعتمد البريطانى بارسال نسخ عن اوراق القضية الى الوكيل السياسى فى بغداد مع استفسار بشأن الموضوع ، وأشار الى انه لم يوقع اى قصاص بالنسبة لحادث سابق من نفس القبيل حين اسيئت معاملة التجار البانيان فى الدوحة عام 1875 ، كما أشار الى حكومة الهند بأن حوادث من هذا النوع سوف تسىء لهيبة الحكومة البريطانية فى الخليج

(80) د. فتوح الخترش — د. عبد العزيز المنصور — المرجع السابق ص 89 .
(81) د. محمد مرسي — المرجع السابق ص 730 .
(82) د. محمد مرسي — نفس المرجع ص 730 .

العربى وحوله ، ولذا فانه طلب بضرورة تنفيذ اجراء ما لاجلاء البريطانيين من التجار الهنود من الدوحة ، ولكن حكومة الهند كانت ترى غير ذلك بانه من الافضل ابعاد الحاكم العثمانى محمد آغا اذا ما ثبت ضده تهمة معاملة الهندى، وقد وجه خطاب بهذا الفحوى الى المقيم البريطانى فى العراق لكى يمارس نوعا من الضغط لاجبار الحاكم العام العثمانى بسحب محمد آغا من قطر ، كما اعتبرت سحب جميع الرعايا البريطانيين من قطر لن يؤدى الا الى فقدان النفوذ البريطانى (83) فى حين انها تريد أن تعزز هذا النفوذ ، وفى النهاية استطاعت بريطانيا ابعاد المسؤول العثمانى فى الدوحة محمد آغا على اعتبار انه المسؤول المباشر عن مشاكل الرعايا البريطانيين التى وقعت فى مارس عام 1878 (84)٠

ازدياد حالة التوتر بين بريطانيا والوالى جاسم :

لقد ازدادت حالة التوتر بين الجانبين الى درجة أصدر المقيم السياسى البريطانى فى الخليج فى عام 1879 انذارا لشيوخ قطر بألا يرتبطوا بأية أعمال مع بنى هاجر والذين كانوا يحدثون أضرارا كبيرة ضد المصالح البريطانية على طول الساحل الغربى من الخليج ، وكان الكابتن «وودروف» وكيل المقيمة فى البحرين قد سلم انذارا موجها للشيخ جاسم عن الحادثة التى ارتكبها بنو هاجر عندما استولوا على سفينتين «للمهاندة» من رعايا البحرين ، كما ثار التساؤل حول ما مدى استطاعة بريطانيا التدخل فى شؤون قطر عام 1881 بمناسبة تهديد ناصر بن مبارك بغزو البحرين بمساعدة الشيخ جاسم فى الدوحة ، وبسبب مشروعات الشيخ جاسم ايضا ، والذى كان ينوى القيام بعمل بحرى ضد بنى ياس فى أبو ظبى وكانت حكومة الهند البريطانية ترى ان الاتفاقية التى عقدت عام 1868 مع والد الشيخ جاسم والتى تعهدا بمقتضاها بألا يثير الاضطراب فى البحر انما هى اتفاقية ذات طابع شخصى الى حد كبير ، ولذلك لا يمكن اعتبارها ملزمة للشيخ جاسم ، ولذا تم رفع تلك المسألة الى الحكومة البريطانية (85) ٠

وفى اوائل عام 1882 وبالرغم ان الشيخ جاسم كان قد اصبح قائمقاما الا ان الحكومة البريطانية طالبت من الجهات الرسمية بتشجيع الشيخ جاسم على اقامة علاقات وثيقة ومباشرة مع المسؤولين فى حكومة الهند ، وبأن يرجع اليهم فى الوقت الذى يرغب فيه وخاصة فى الامور التى تتعلق بالامن فى البحار ، اما فيما يتعلق بما يجب ان يحدث اذا ما قام شيخ قطر بعمل عدائى فى البحر دون اشارة بذلك للمقيم البريطانى او اهمال لتحذير صادر منه فان الحكومة البريطانية طلبت بتقديم نصائح او تعليمات دقيقة ، وعلى حكومة الهند ان تقرر وفق ما تقتضيه الضرورة ، كما ابلغ الباب العالى فى يوليو عام 1881 بانه ما

(83) جي . اى – سالدانا – المرجع السابق ص 62 .
(84) د. عبد العزيز المنصور – المرجع السابق ص 95 .
(85) د. فتوح الخترش – د. عبد العزيز المنصور المرجع السابق ص 91 .

دام العثمانيون يرفضون الموافقة على سياسة مشتركة فى البحر ، فان الحكومة البريطانية مضطرة لان تتكفل وحدها بحرية مطلقة ودون اشارة لتعليمات السلطان العثمانى بالفصل فى كل المنازعات الاقليمية فى هذه المياه ، كما اعطت تعليماتها لقادة السفن لمنع اضطراب السلم فى البحار وان يتجنبوا بقدر الامكان اثارة مشاكل لاداعى لها مع السلطات العثمانية فى المكان الذى قد توجد به هذه السلطات وان يتجنبوا ايضا بقدر الامكان الاقتراب من حدود الاراضى التابعة للدولة العثمانية على ان تسرى هذه التعليمات ايضا على الساحل شمالى العديد والتابع لقطر (86) ٠

وفى تلك الفترة كان الخطر على النفوذ البريطانى فى البحرين قد ازداد من قبل سكان قطر ، كما طالب العثمانيون بالسيادة على البحرين ولكنهم لم يفرضوها عمليا أبدا . وكان العثمانيون ينوون فى الاستفادة من الوالى جاسم لحثه على الهجوم على البحرين ، ولكن الحكومة البريطانية حذرت الشيخ جاسم فى 7 مايو عام 1881 واخطرته بأنه سيمنع بالقوة وان الدوحة سيتم مهاجمتها بواسطة بريطانيا ، فى حين اعترفت الحكومة البريطانية فى لندن على هذا التصرف فى 26 أغسطس عام 1881 ، وفى شهر يوليو من نفس العام كانت قد جرت مراجعة للاوامر الصادر للاسطول البريطانى وأزيل خطر التدخل ضد الاعمال البحرية التى تجرى فى المياه الساحلية العثمانية من قبل رعايا قطر ، كما طلبت حكومة الهند فى رسالتها المؤرخة فى 30 أكتوبر عام 1881 بأن تصلها التعليمات فيما يتعلق بمستقبل العلاقات مع الولاة العثمانيين فى مدينة الدوحة ، وقد تسلم وزير الهند مشروعا بالرد على اللورد «جرانفيل» وزير الخارجية فى 4 يناير 1882 ، اشار فيه الى ان السيادة العثمانية لا تعدو ان تكون شكلية فى الخليج العربى وانه نزل على طلب المقيم وهذا النزول على رغبة الحكومة البريطانية فيما يتعلق بالمسائل التى تؤثر على السلام فى البحر والتى ينبغى ان يقابل بالتشجيع ، وانه لا يتعارض من حيث المبدأ بالاعتراف على السيادة الداخلية للعثمانيين ، وقد حاولت بريطانيا تجديدا لاتفاقية التى كانت قد وقعتها مع والد جاسم عام 1868 ، ولكنها لم تنجح ثم رأت حكومة الهند انه من غير المرغوب فيه الدخول فى علاقات رسمية مع الوالى العثمانى الشيخ جاسم لان هذا من شأنه ان يثير الصدام مع العثمانيين ولذلك صدرت التعليمات للمقيم بأن يحصل على مجرد تعهدات شفوية من الشيخ جاسم ، فى حين كان جاسم يواصل تهديده لرعايا البريطانيين فى قطر (87) ٠

طرد الرعايا البريطانيين من التجار الهنود «البانيان» :

وعلى الرغم من دخول الشيخ جاسم فى معاهدة مع بريطانيا وان لم تكن مكتوبة اى تعهد شفوى منه بأنه يلتزم بأحكام الاتفاقية القديمة كما تم التزام

(86) د. فتوح الخترش – د. عبد العزيز المنصور – المرجع السابق ص 91 .
(87) د. فتوح الخترش – د. عبد العزيز المنصور المرجع السابق ص 91 .

جاسم بالسلام مع جيرانه ، الا ان ذلك لم يمنعه من اتخاذ اجراءات مشــددة تجاه الرعايا البريطانيين من «البانيان» (89) .

ففى أواخر عام 1881 ، كان الوالى العثمانى جاسم قد ضاق ذرعا بنشــاط هؤلاء التجار الهنود من «البانيان» والذين كانوا يتمتعون بحمايته لهم والتى كلفته كثيرا ، ولكنهم كانوا يرفضون دفع أية التزامات والضرائب المفروضة عليهم ، كما زاحموا بامكانياتهم المادية الضخمة تجار اللؤلؤ المواطنين فى قطر، وكثير من هؤلاء التجار الهنود كانوا يقومون بعمل البنوك الربوية ، اذ يقرضون تجار اللؤلؤ المال بالربا لتمويل عمليات الغوص ، ويطالبون بفوائد عــاليــة لتسديد تلك الديون ، وهو نشاط اصبح وقفا عليهم لرفــض المسلمين هــذا اللون من الكسب الغير شرعى والحرام ، مما اضطر معه الوالى الشيخ جاسم ابلاغ رغبته الملحة فى يناير عام 1882 الى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بنقل وترحيل الهنود «البانيان» من قطر الى البحرين (90) .

اما بريطانيا فقد دافعت عن طبقة التجار الهنود«البانيان»وتصرفاتهم والقت اللوم على الشيخ جاسم والاعمال التى قام بها فى اكتوبر عام 1881 وعام 1880 عندما تقدم الرعايا البريطانيون من الهنود فى الدوحة بشكوى ضـــد اســاءة معاملتهم (91) ، وعلى اثر هذا التصعيد من قبل جاسم ، ارسل الكولونيل «روس» مذكرة الى الحكومة الهند فى 12 نوفمبر من عام 1881 ، حول هذا الموضوع ، والتى جاء فيها مايلى :

«ونظرا لاهمية الوثائق البريطانية ، فاننى سوف انقل هذه المــذكــرات والرسائل المتبادلة فيما بين الجهات الرسمية حول الموضوع ، كما هى دون صياغتها خوفا من أن ذلك قد تفقد معانيها وهى لا تتجاوز سبع مذكرات أو رســائــل » .

«تمت معاينة الواقع بصورة كاملة بعد تحقيق جــرى فى المكــان قــام بــه «كابتن بشام» والمعتمد فى الشاطىء العربى الذين كلفتهما بزيارة «البدع» لم تقع مخالفة من طرف «البانيان» التجار الهندوسيين من طائفة اجتماعية معينة تمتنع عن اكل اللحم وليس هنالك مبرر لمعاملة «جاسم» لهم والذريعة بالمصاريف فى حمايتهم غير مخلصة وجاسم بلا شك يرغب فى الخلاص من التجار الهنود جميعا ، الا اننى اشك بانه ايضا الى بعض المدى متأثر بشعور آخر غير مجرد الجشع انه لا يشعر باطمئنان الى حقيقة وضعه الآن بالنسبة للحكومة البريطانية وهو بلا شك يرغب فى التدخل الى استنتاجات معينة عن ملاحظته الاجراءات

(88) يوسف عبد الرحمن الخليفي – المرجع السابق ص 29 .
(89) د. عبد العزيز المنصور – المرجع السابق ص 96 .
(90) د. فتوح الخترش – د. عبد العزيز المنصور – المرجع السابق ص 95 .
(91) جي. اى . سالدانا – المرجع السابق ص 116 .

التى قد تطبقتها السلطات البريطانية حيال تصرفاته • فاذا رأى اننا امتنعنا عن اجراء مباشر فانه يعتبر نفسه فى مجال من الحصانة عن طريق الهيبة البريطانية وعدم التمييز ولربما تمادى اكثر ضد رعايانا وقد لا يعتبر مصالحنا ورغباتنا فى كثير من النواحى الاخرى ، انها لمشكلة محيرة فيما اذا كان يجب علينا اعتبار هذا الشيخ ما يزال مستقلا او مجرد حاكم عثمانى او فى منزلة متوسطة بين هذا وذاك علما بأن الرجل نفسه حساس تماما حيال الموضوع ثم يتابع المذكرة قولها :

«يبدو أنه ضرورى ان تلاحظ سلوك جاسم بن محمد الجرىء ، ففى حالة متشابهة سابقة حدثت اثناء حياة والد جاسم حيث فضل الاخير تقديم تعويض والتجأ الى مرجعه العثمانى لاستعملنا القوة ضده اننى أخشى ان يرفض جاسم اعطاء ترضية كافية لاساءة تصرفه الحالى وانه يفضل مواجهة النتيجة، وقد يبدو الالتجاء الى السلطات العثمانية للتعويض وكأنما هو اسهل طريق ، ولكن لهذا مساوئه هو ان تعطى حكما على اساس الخبرات السابقة لا ينتج عنه نتيجة مرضية كما وان الحكومة لا ترغب ، كما هى عليه الامور الآن فى تقديم اعتراف حول وضع جاسم بن محمد وقضاة البدع ، ان العودة للحكومة العثمانية دون نجاح سيزعج ويشجع جاسم فى نفس الوقت واذا تبنى ذلك المسلك فانه من المرغوب فيه انذار الحكومة العثمانية بانها ان قصرت فى معاقبة جاسم بن محمد وجعله يعتذر لسلوكه العدائى فان الحكومة البريطانية سيكون عليها أن تأخذ زمام الامر بيدها» (91 مكرر) .

أما الشيخ جاسم فكان موقفه غير ايجابى تجاه السياسة البريطانية بل وقف ضدها وأنه رد فى يناير عام 1882 على الانذار الموجه من قبل المقيم السياسى البريطانى فى الخليج حول الامتناع عن معاملة التجار الهنود من الرعايا البريطانيين والمقيمين فى قطر معاملة سيئة بأنه لا يرغب أساسا فى وجود هؤلاء التجار «البانيان» فى بلاده وأنه يفضل ان يذهبوا الى البحرين وذلك لتدخلهم فى تجارة اللؤلؤ مما كان له أثر سىء على الوضع الاقتصادى لرعاياه ولهذا المورد الاقتصادى الوحيد لبلاده • ولكن وزير المستعمرات البريطانى طالب فى رسالته المؤرخة فى 24 مارس 1882 ، بعد عدة شكاوى من التجار الهنود «البانيان» بضرورة الاتصال مع الشيخ جاسم ، ولهذا ارسل المقيم البريطانى الى قطر أحد موظفيه ومنشىء المقيمية «ميرزا ابو القاسم» والذى يتمتع بخبرة واسعة فى الساحل العربى وقد سبق له ان قام بعدة مهام وواجبات توكيلية ، وكان على «الميرزا» ان يمكث فى قطر عدة ايام ليسمع ويحقق حول اية شكاوى يقدمها الوالى جاسم ضد «البانيان» ولازالة الاسباب التى ادت الى سخطه وان يحاول اقناع جاسم بسحب اعتراضه على اقامة الهنود فى العاصمة القطرية لاغراض تجارية وان يحصل على وعد بمعاملتهم معاملة حسنة فى

(91 مكرر) جي. اى . سالدانا — المرجع السابق ص 116 .

المستقبل ، ولذا فقد بعث المقيم البريطانى الى الوالى العثمانى الشيخ جاسم فى 26 مايو عام 1882 برسالة جاء فيها مايلى (92) :

«ارسل الآن ميرزا ابو القاسم الى مدينتكم للتحقيق فى الاتهامات الموجهة ضد الهنود وسماع جميع الاطراف ، وعليك ان تعرف اننى دائما على استعداد لسماع الشكاوى وان احقق فيها فاذا اعترف الرعايا البريطانيون اية جرائم تستحق العقاب فانهم سيعاقبون ، فاذا كانوا يسلكون سلوكا صحيحا فانه سيكون منافيا للعلاقات الودية المتواجدة حتى الآن بين الحكومة البريطانية ووالدكم وبينكم انتم ، فيما اذا أخرجتم هؤلاء الرعايا البريطانيين او آذيتموهم او سببتم لهم الايذاء ، اننى آمل من شعوركم الودى الذى عبرتم عنه مرارا انكم ستمنحون «البانيان» معاملة عادلة ولطيفة فاذا اتخذتم لسوء الحظ منهجا آخر فان ذلك سيتنافى مع العلاقات الودية ، وانكم بكل تأكيد ستكونون مسؤولين مباشرة وشخصيا عن جميع الخسائر التى تلحق بالرعايا البريطانيين ، اننى واثق انكم ستعيرون هذه الرسالة عنايتكم الفائقة اذ انه محرر بموجب أوامر من الحكومة» ٠

ولكن جهود ميرزا لم تنجح فى اقناع الشيخ جاسم بل كانت عديمة الجدوى وفشلت المفاوضات برغم ابداء الشيخ جاسم شعورا وديا تجاه المقيم السياسى والحكومة البريطانية ، لانه كان مصرا على نقل التجار «البانيان» من العاصمة القطرية لعدة اسباب منها (93) ٠

أولا : انهم كانوا يتدخلون بعمليات التجارية وخاصة تجارة اللؤلؤ التى يمارسها معظم سكان قطر ويرتزقون من وراءها ، ومنافسة التجار الهنود «البانيان» فى عمليات البيع والشراء وفرض اسعار معينة من قبلهم والتعامل بالربا والفوائد ، مما كانت لها آثار سيئة على الوضع الاقتصادى القطرى ٠

ثانيا : وكان وجود هذه الطبقة من البانيان والذين يتمتعون بطقوس دينية معينة تعتبر فى نظر الاسلام كفرا وخارجه عن الاسلام وعن المجتمع القطرى ، مما يجعل وجودهم فى قطر خطر على حياتهم مما دفع الشيخ جاسم ايجاد حرس خاص لحمايتهم مما سبب له خسائر كبيرة ، فى حين كان هؤلاء «البانيان» يرفضون دفع أية تكاليف او نفقات من أجل حمايتهم أو دفع الضرائب المقررة

ثالثا : كانوا يسيئون فى تصرفاتهم وسلوكهم بصفة عامة تجاه المجتمع القطرى وتجاه الشيخ جاسم بصفة خاصة ، ولكن ميرزا رفض الاتهامات الموجهة ضدهم ووصفها بأنها مجرد قذف وتشهير ، وهى اعذار لتجنب ضرورة القول بان «البانيان» لم يكن وجودهم فى قطر مرغوبا فيه لمجرد انهم كانوا تجارا ، فى حين قال الشيخ جاسم بانه كان قد اصدر قرار فى الايام الاولى من يوليو

(92) د. فتوح الخترش – د. عبد العزيز المنصور – المرجع السابق ص 87–88 .
(93) د. فتوح الخترش – د. عبد العزيز المنصور – المرجع السابق ص 88 .

بتكليف ابنه خليفة للبت فى جميع الدعاوى والشكاوى التى تحال اليه وان تطاع أوامره ، وعندما قام خليفة بفرض ضرائب مالية على البانيان فانهم رفضوا دفعها مما اضطر معه بان يقفل متاجرهم وحوانيتهم بالقوة بموجب أوامر من والده (94) ومما شجع الشيخ جاسم فى المضى قدما فى معاملته تجاه الرعايا البريطانيين من التجار الهنود هو الحصانة التى رافقت اجراءات مماثلة فى عام 1881 ٠

ولقد ازداد هذا الموقف سوءا عندما وصل الى الدوحة وكيل الشيخ جاسم والمقيم فى مدينة بومباى الهندية ، ومعه أخبار ثورة عرابى فى مصر ضد الامتيازات الاجنبية والنفوذ البريطانى والفرنسى ، وقد ذكر له وكيله بان اخراج الشيخ جاسم للرعايا الاجانب من قطر هو حق من حقوقه (95) ، حين قال : «قبل المصريون اربعة سفراء لحكومات أجنبية منهم سفيرا فرنسا وبريطانيا وقد تجمع الآن 80،000 رجل يودون محاربة الحكومات الاجنبية وكانت الاسباب انهم لا يريدون رعايا تلك الحكومات ان يكونوا فى بلدهم وانت يا جاسم اذا لم تر من الضرورى ان يبقى «البانيان» فى بلدك فلا اكراه عليك» (96) ٠

ومن هذا يتضح لنا مدى التطور الفكرى والثقافى فى الحياة الاجتماعية فى قطر والخليج العربى فى ذلك الوقت ، نظرا للدور الذى لعبته مدينة بومباى فى تاريخ المنطقة الحديث ، لانها كانت تمثل صورة للواقع الغربى الحديث ، بكل تطوراته ومدنيته وابعاده الجديدة ، مما كان له أثر كبير على تجار الخليج العربى ومنهم تجار قطر ، حيث كانوا يجتمعون هناك كل عام لاغراض تجارية وخاصة تجارة اللؤلؤ ثم يتبادلون احاديثهم حول قضايا المنطقة وقضايا العرب بصفة عامة ، ثم الدور المهم الذى كان لفتح قناة السويس ومرور السفن التجارية بمصر وساحل الشام واشتراك تجار اللؤلؤ فى المجلات والصحف العربية سببا فى التعرف مرة أخرى ولو بصورة بطيئة على ما يجرى فى انحاء الوطن العربى ، وذلك ما نجد من قضية احداث التجار الهنود «البانيان» فى قطر وكيف كان دور وكيل الشيخ جاسم فى بومباى فى نقل أخبار الثورة العرابية فى مصر ومحاولة طرد الاجانب وسحب الامتيازات (97) ٠

وعندما وصلت السفينة البريطانية «وودلارك» فى 20 يوليو الى الدوحة كان التجار الهنود «البانيان» محاصرين فى بيوتهم من قبل الحرس الخاص من أفراد قبائل بنى هاجر من القيام بأية اتصال مع سكان المدينة ، وبعد عدة اتصالات ومحادثات اجراها المبعوث ميرزا أبو القاسم المبعوث من قبل المقيم البريطانى مع الشيخ جاسم وبعد الالحاح الشديد وافق جاسم على فك الحصار

(94) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 89 .
(95) د. محمد مرسي - المرجع السابق ص 730 .
(96) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 79 .
(97) د. محمد مرسي - المرجع السابق ص 731 .

عن الرعايا البريطانيين والسماح لهم بمغادرة قطر ، كما سمح لهم بنقل بضائعهم على ظهر السفن الوطنية فى الوقت الذى كانت السفينة البريطانية راسية بعيدا عن الميناء ، وفى 22 يوليو غادر ميرزا ابو القاسم على ظهر نفس السفينة البريطانية بعد فشل تلك المحادثات علما بأن معاملة جاسم كانت جافة وهدده باستعمال العنف مع الرعايا البريطانيين ، وقد كتب ميرزا الى المقيم السياسى فى البحرين متهما جاسم بأن تصرفاته غير لائقة ، وانتقد قول جاسم بأن رحيل الرعايا البريطانيين بأنه عمل اختيارى تم من طرفهم ، بأنها زائفة وخادعة والحقيقة ان جاسم تصور ان اتصاله مع العثمانيين آمنة من العقاب من الحكومة البريطانية (98) .

الضغوط البريطانية على الشيخ جاسم :

وعلى اثر هذا التصعيد حول مشكلة التجار من الرعايا البريطانيين من «البانيان» بين الوالى جاسم والحكومة البريطانية قامت الحكومة العثمانية بارسال وفد من القضاة للتحقيق والنظر فى هذا الامر نيابة عن الحكومة العثمانية ، ولكى يقوم بدور الفصل فى المشاكل والمنازعات والقيام بواجبات القضاة ، وفى هذه الفترة كان المقيم البريطانى الكولونيل «روس» يقضى اجازته فى لندن وعندما وصلته تلك الاخبار ، قطع اجازته وعاد الى بوشهر ليباشر عمله تجاه هذه المشكلة. وفى 22 اغسطس قدم تقريرا الى حكومة الهند حول ابعاد مشكلة الرعايا البريطانيين من «البانيان» والحلول الممكنة لهذه المشكلة من وجهة النظر البريطانية ، وقد الح فى تقريره عن تاريخ العلاقات البريطانية مع قطر وعن شؤون «البانيان» وحتى فترة الزيارة التى قام بها ميرزا الى الدوحة ، وقد جاء فى تقريره ما يلى (99) :

«كنت كبير الامل بأن ترتيبات مؤقتة على الاقل سوف تنفذ لكن الموقف الذى اتخذه الشيخ جاسم قد اثار استغرابى فلقد كنت على علم بان اعتراضه ضد «البانيان» ناشىء عن مصالح شخصية فهو تاجر باللؤلؤ ويرغب بنوع من الاحتكار المحلى وكانت عمليات «البانيان» تتدخل فيه ، ولذا كان من المتوقع بأنه سوف لا يرضخ فورا ولكن اخراج الهندوس المفاجىء والعنيف فى وجه الانذار المنقول اليه كان لا يقل كثيرا عن تحد للحكومة التى هم رعاياها ، ويظهر بأنه كان الى حد ما متأثرا ومشجعا من قبل مستشارى السوء الذين ابلغوه ان الاوربيين قد اخرجوا من مصر وان اتصاله مع الحكومة العثمانية سيجنبه من النتائج غير السارة ، ومع هذا فأننى أفهم انه اثير ضد السلطة البريطانية بسبب رفض السماح له باحتلال «العديد» وغير ذلك من أمور» (99)

ونجد أن المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى يحاول ان يجد المبررات التى من خلالها يمكنه توجيه التهم الى الوالى الشيخ جاسم ، وبغض

(98) د. فتوح الخترش — د. عبد العزيز المنصور المرجع السابق ص 89 .
(99) د. فتوح الخترش — د. عبد العزيز المنصور — المرجع السابق ص 91 .

النظر عن تصرفات الرعايا البريطانيين من «البانيان» وذلك باعتباره يحتكر تجارة اللؤلؤ محليا وكذلك انه لا يرغب فى بقاء الاجانب فى بلاده اسوة بمحاولة طرد الاوربيين من مصر ، وانه يعتمد فى تصرفاته على مساندة الحكومة العثمانية وانه تابع للباب العالى ·

كما طالب المقيم البريطانى من الشيخ جاسم بتعويض قدره خمسون الف روبية وذلك نتيجة للخسارة التى لحقت بالتجار الهنود من جـراء التـدخـل المفاجىء فى تجارتهم واخراجهم من قطر ، واعتبر اخذ هذا المبلغ ضروريا باعتباره يمثل الادعاء البريطانى ضد جاسم ثم يقول : «فى معاملتى مع الشيخ جـاسم مارست كل صبر واستخدمت كل محاولة نحو المصالحة ولكن الاستمرار على هذه المحاولات سيكون بلا نفع ومجحفا ، فهو مصمم بكل قوة على ابقاء التجار الهنود خارج البدع ولم تفد اية مناقشة او اقتناع فى ثنيه عن ذلك ، وقد ابلغ بوضوح ان مثل هذا السلوك سيعتبر غير ودى وانه سيعتبر مسؤولا مباشرة عن التعدى على حقوق البريطانيين ويمكننى ان اشير هنا الى ان حق التجار فى الاقامة فى البدع ليس حقا يمكن التخلى عنه ، انه شىء له أهميته الكبرى فيما يتعلق بالخليج ، لقد اعتبر جاسم شيخا عربيا مستقلا ضمن منطقـة النفـوذ البريطانى ولست بحاجة ان ابين بالنقاش كم سيضار نفوذنا العادل اذ سمح كجاسم ان يفعل ما يريد فمن الجائز ان يتخذ غيره من الشيوخ نفس «التكتيك» مما سيضر رعايانا التجار فى الموانىء الاخرى ومرة اخرى اذا كـانت البـدع معتمدة كاقليم تركى فان لتجارنا الحق بموجب المعاهدة بالاقامة هناك» (100) ·

وهذا يدلنا على مدى التخوف البريطانى من تصرفات جاسم وخاصة اذا ما اقدم عليها الشيوخ الاخرون فى معاملتهم تجاه الرعايا البريطانيين من الهنود، اضافة الى ان هذه التصرفات تشكل تحديا للسلطة والنفوذ البريطانى فى الخليج العربى ، ولذا وجد المقيم السياسى البريطانى فى الخليج وكـذلـك حكومة الهند فى سياسة الشيخ جاسم تحديا لنفوذهم فى المنطقة كما خشوا ان تمتد سياسة اخراج التجار الهنود من قطر الى بقية الامارات الاخرى (101) ، ولذا فان المقيم البريطانى طالب باستخدام القوة ضد الوالى جاسم دون الرجوع الى السلطة العثمانية ومحاصرة الميناء بالاسطول البريطانى وحدد شهر اكتوبر لتنفيذ طلباته وهى التعويض عن الخسائر والسماح بعودة التجار الهنود الى قطر وتقديم الاعتذار عن تلك التصرفات .

رفض الوالى جاسم للضغوط البريطانية :

وقد رفض الوالى جاسم الضغوط والتهديدات البريطانية ولم يستجب لمطالب المقيم الكولونيل «روس» فى حين بدأت الجهات البريطانية مثل وزارة الخارجية

---

(100) د. فتوح الخترش — د. عبد العزيز المنصور — المرجع السباق ص 91 .
(101) د. محمد مرسي — المرجع السابق ص 730 .

وحكومة الهند ووزارة المستعمرات تتدارس الوضع حول مشكلة الرعايا البريطانيين فى قطر ، وخاصة بعدما رفض جاسم تلك التهديدات والانذار المعطى له ، ولم يبق سوى التصديق على مقترحات المقيم السياسى بالعمل العسكرى ، وجاء فى التعليمات الصادرة بانه كان عليهم استعمال القوة فيجب بذل كل ما فى وسعهم لتحاشى التصادم الفعلى مع القوات العثمانية المتواجدة فى قطر ثم حولت للموافقة من قبل وزير الخارجية ، ونظرا للظروف التى كانت تمر العلاقات البريطانية مع الدولة العثمانية حول شؤون مصر جعلت الوقت غير مناسب لاتخاذ اية اجراءات ضد قطر يعتبرها السلطان تعديا على امتيازاته وان موافقة الخارجية جاءت مترددة بسبب الضرورة ، وفى ١٥ اكتوبر طلب من نائب الملك فى الهند بأن لا يتخذ اى اجراء حتى يتلقى معلومات اضافية وطلب منه ان يوضح الى أى مدى يمكن تأجيل عمليات الاسطول البريطانى ، ونظرا لظروف الدولة وخاصة العلاقات البريطانية ـ العثمانية كان الشيخ جاسم اخذ يخفف من موقفه وكتب رسالة حول ذلك الى المقيم البريطانى ولكن موقف الاخير لم يكن ايجابى ، فقد قال حول ذلك :

«أننى اعتبر كتب الشيخ جاسم غير مخلصة وغير صحيحة فى نقاط جوهرية ، انه من الواضح أنه لو كان مدفوعا فقط بالرغبة لتفادى عواقب اى ضرر وقع على التجار الهنود من طرف العرب فانه قد يعمل بشكل مغاير جدا. كما وان تأكيداته فى بعض الوجوه كانت تناقض بعضها البعض ، وتناقض الحقيقة بما يبرهن بوضوح عدم الاخلاص ، ونلاحظ انه بينما كان يتحجج بأنه كان يخشى ان يصاب «البانيان» بسوء فانه يتهمهم ايضا بطريقة جافة اتهامات يدل التحقيق الدقيق بأنها لا تستند الى اساس ، وليس فى الكتب الاخيرة من جاسم اية علاقة تدل على الاستعداد لتقديم ترضية جوهرية مقابل سلوكه وانا متأكد ان ذلك لا يمكن الحصول عليه منه الا والقوة مهيأة ، ولذلك فاننى رغبت فى أن يقوم الوكيل المحلى فى البحرين بأخبار جاسم بأننى تلقيت كتبه العديدة وان وجهات نظر حكومة الهند بما يتعلق بالامور المشار اليها سوف تبلغ اليه فى حينه» (١٠٢) . وفى نفس الوقت كان المقيم قدم بيانا معدلا الى حكومته بشأن ادعاءات التجار «البانيان» والتى خفضها من 40،759 روبيه الى 27،١١٣ روبيه ويشمل هذا على ١٠،٠٠٠ روبيه تعويض عن فقدان كسب كان متوقعا و5،400 روبيه عن الفائدة على رأس المال خلال فترة توقف الاعمال التجارية لمدة أربعة اشهر ونصف و6،645 روبيه على مبالغ الديون المعلنة من اشخاص متخلفين .

تغير السياسة البريطانية من التهديد الى التفاهم بالطرق السلمية :

وبرغم تحذير المقيم الواضح من الرعايا البريطانيين من الهنود ، الا ان الحكومة البريطانية لم تشأ ان تتورط فى قطر او ان تقف ضد الشيخ جاسم

(102) د. فتوح الخترش – د. عبد العزيز المنصور – المرجع السابق ص 94 .

وانما طالبت المقيم بان يحل هذه المشكلة بالتفاهم وبالطرق السلمية مع الوالى جاسم ، وقد جاء فى المذكرة التى بعث بها نائب الملك فى الهند الى المقيم البريطانى فى الخليج قوله :

«أمرت ان اضيف بان فخامته راغب فى عدم توريط الحكومة البريطانية فى دعم كامل لكافة الادعاءات التى يقدمها «البانيان» انه قبيح جدا ان يكون باستطاعة طبقة من الناس تقديم طلبات غير معتدلة وكسب امتياز بصفتهم رعايا بريطانيين ، وهم بالطبع يستحقون الحماية وتعويضا معقولا عندما يمارس ضدهم ضغط او سوء معاملة ، ولكن حتى فى المناطق البريطانية لا تقوم المحاكم العدلية بالزام ادعاءات مثل هؤلاء الناس بصورة كاملة او لشىء متوقع ، وعندما يختارون من أجل الكسب الواسع ان يتجشموا المخاطر التى تلازم بحكم الضرورة الاعمال التجارية فى بلاد غير متمدنة فليس من المرغوب فيه ان يمنح لهم دعم الحكومة البريطانية بلا تحفظ او بدون دراسة ادعاءاتهم دراسة مستفيضة فى خلافهم مع الحكام الاجانب ، ان الحاكم العام فى مجلسه لا يشك فى انكم تدركون عدل هذا الرأى وانكم سوف تتمكنون من تجنب اى مظهر من مظاهر التميز فى معاملة جاسم بن ثانى او فى التدخل بحقوقه ، وعلى ان اشير فى الختام الى ان الوضع الحالى قد يتيح لكم فرصة توطيد تفاهم مع الشيخ» (103) .

ومما سبق يتبين ان الحكومة البريطانية وحكومة الهند لم توافق على اقتراح روس باستخدام القوة وبضرورة دفع الشيخ جاسم تعويض مالى كغرامة مغالى فيها قيمتها 40 الف روبية وخفضها الى 8 آلاف روبية فقط (104) ، وعلى ضوء هذه التعليمات بحسن المعاملة مع الوالى العثمانى فى قطر ، ارسل المقيم روس كتابا الى الشيخ جاسم جاء فيه بأنه :

«فى وضع هذه المطالب بوسعى أن أؤكد لكم ان الحكومة البريطانية انما هى مدفوعة بنيتها فى تأييد حقوق رعاياها العادلة وهى فى نفس الوقت راغبة بأن العلاقات الودية السائدة بين اسلافكم والحكومة سوف تستمر ولكن على ايضا ان أؤكد لكم بان مقررات الحكومة التى هى معتدلة وعادلة انما هى حازمة وان اى تجنب او رفض لهذه المطالب سيؤدى الى عواقب مؤسفة . ولقد كانت غايتى الدائمة ومحاولتى ان اقرب صلات الصداقة بيننا بفضل ما أحمله من احترام لوالدكم وكذلك للصداقة الشخصية الموطدة بيننا عندما زرت معسكركم فى الزبارة ، تلك الصداقة التى كنت راغبة فى تحسينها الا انكم تتذكرون انه منذ عدة شهور مضت كنت أخبرتكم أن سوء معاملة وطرد الرعايا البريطانيين الهنود من بلدكم يعتبر عملا منافيا للعلاقات الودية وذلك بأن التجار البريطانيين

(103) د. فتوح الخترش – د. عبد العزيز المنصور – المرجع السابق ص 95 .
(104) د. محمد مرسي – المرجع السابق ص 731 .

فى بلاد الحكومات الصديقة كافة فى جميع انحاء العالم يسمح لهم بالذهاب والاياب والمتاجرة وينالون الحماية اللازمة ولقد أرسلت وكيلا ليوضح كل هذا شخصيا لكم وقد استغربت جدا أن أعلم بأنكم لم تلتفتوا لانذارى وعاملتم وكيلى بدون لباقة واذا كان «البانيان» يتدخلون بمعاملاتكم التجارية فيجب أن لا تتوقعوا من الحكومة البريطانية ان تعتبر هذا تعذر لطردهم او رفض ادخالهم، اذ ان الحكومة تعتبركم شيخا للبدع وحاكما لها وليس تاجرا ، وسوف لا تعترض على أية نفقات معقولة لحماية «البانيان» ولكن يجب أن تكون مقرونة بموافقتى وليست عرضة لزيادة بدون موافقتى » (105) .

وكان الوكيل البريطانى المحلى أغا محمد عبد الرحيم ، قد حمل هذه الرسالة من المقيم البريطانى فى الخليج العربى الى الشيخ جاسم وهو معروف لديه ويحمل تعليمات لتوضيح تفصيلات المطالب المالية التى خفضت لمبلغ 8440 ولا تتضمن سوى الادعاءات عن الخسائر المالية المباشرة والفعلية فقط والتى تكبدها التجار «البانيان» من الهنود ، وبعد عدة محادثات بين الطرفين أسفرت عن موافقة الشيخ جاسم بتقديم اعتذار كما ابدى رغبته فى عودة التجار الهنود وان كان ذلك بشروط غير مرغوب فيها ، ولكنه رفض دفع تعويض ما لم يعد التجار الهنود ويثبتوا ادعاءهم ، اما بخصوص تهديدات المقيم البريطانى فان هناك رأيين للشيخ جاسم ، فالاول يقول بانه قال : «اذا استعمل الضغط والقوة ضدى ساضطر اركب مع عشرة آلاف رجل وان اذهب الى البحرين واقتل جميع «البانيان»، واقتلك وأقتل اى واحد اريده فى البحرين، وعلق الوكيل قائلا: لقد حلمت بانك اصبحت عرابى باشا الثانى ، فاجاب الشيخ جاسم «اننى عرابيين اثنين» (106) وفض الاجتماع .

اما الرأى الثانى فيقول انه اثناء المناقشة قال الشيخ جاسم للوكيل البريطانى أغا محمد انه اذا كان هناك ضغط واستخدام قوة من جانب البريطانيين فسوف يجمع رجاله ويقاتل ، قال اغا محمد عبد الرحيم «هل تحلم انك عرابى باشا الثانى» قال جاسم «نعم أنا عرابى الثانى» ، وترك المجلس وذهب (107) ، وقد يكون الحديثان صحيحان وخاصة الثانى ، نظرا لانهما أخذا من المصادر والوثائق البريطانية ونقلا عن المراسلات الرسمية التى جرت بين الجهات الرسمية البريطانية .

وعلى أية حال يمكن القول ان الشيخ جاسم رفض عودة «البانيان» الى الدوحة وتسوية حقوقهم حسب الاصول بعد تلك المناقشة والذى فشل أغا محمد فى مهمته ، ومن ثم توجه الى المقيم البريطانى فى الخليج وابلغه ما جرى فى تلك

---

(105) د. فتوح الخترش — د. عبد العزيز المنصور — المرجع السابق ص 97 .

(106) د. فتوح الخترش — د. عبد العزيز المنصور — المرجع السابق ص 98 .

(107) د. محمد مرسي — المرجع السابق ص 731 .

المحادثات ثم ارسل الكولونيل «روس» المقيم البريطانى كتابا الى جاسم مصوغا بلغة استرضائية ولكنه يصر على دفع التعويض المطلوب فورا وعلى ضمان معاملة ودية ولطيفة لتجار الهنود فى المستقبل ٠

المفاوضات البريطانية مع الوالى العثمانى الشيخ جاسم :

وعندما يئس المقيم البريطانى فى الخليج العربى ، قرر ان يذهب بنفسه لانهاء هذه المشكلة مع الشيخ جاسم وعرض عليه أن يقدم اعتذارا للحكومة البريطانية وان يدفع التعويض للتجار الهنود البريطانيين يسمح لهم بالعودة للاستقرار فى الدوحة (108) ٠

وعندما وصل الى الدوحة فى أول نوفمبر 1882 ، مع قطع الاسطول البريطانى، فاذا به يفاجاء بطلب من الوالى جاسم لمقابلته على الشاطىء ويقول المقيم البريطانى الكولونيل «روس» ان من عادة الشيخ جاسم أنه اذا لم يعجبه الحديث فانه يمتطى ناقته ويذهب ، ومع ذلك فانه قرر النزول الى الشاطىء لمقابلة الشيخ علما بأن جميع الشيوخ والامراء فى الخليج العربى كانوا يأتون الى المقيم البريطانى ويقابلونه على ظهر السفن البريطانية الا الشيخ جاسم فانه كان يرفض الذهاب الى السفن البريطانية ويفضل ان يجتمع معهم على أرضه وفى منزله ويقول حول هذا «لقد كان من عادة شيوخ المدن ان يزوروا المقيم وهو على ظهر السفينة ولكننى كنت متأكدا ان طبيعة الشيخ جاسم المشحونة بالشك سوف لا تسمح بمجيئه الى ظهر السفينة» (109) ٠

ومن المعروف ان الشيخ جاسم قد اشتهر بشخصية فذة وروح صلبة فى الاصرار على تحقيق اهدافه والحفاظ على استقلاله امام الصراعات الدولية والمحلية اضافة الى تلقى علومه على ايدى رجال الدين وتفقه حتى وصل الى مرتبة القضاء والحكم بين الناس بالعدل (110) ، ولهذا يمكننا ان نعتبر تعليل المقيم البريطانى خاطئا بأن الشيخ يشك فى نوايا البريطانيين وعلى العكس من ذلك انه كان معتزا بنفسه ويرفض الخضوع للبريطانيين ولا يخاف من تهديداتهم ، وهذا ما نجد فى سلوكه وفى تصرفاته تجاه البريطانيين ، وقد يكون لوجود الحاميات السكرية العثمانية فى قطر ، دون كبير فى تصرفاته وثقته بهم اذا ما ارادت بريطانيا انزال قواتها لاحتلال البدع ، كما انه لم يكن تابعا لبريطانيا او من ضمن الشيوخ الموقعين على معاهدات الحماية والاتفاقيات العسكرية ، بل كان تابعا للدولة العثمانية ، اضافة الى ذلك من يمكنه الاطمئنان لبريطانيا او اى استعمار فى نواياهم الخفية ٠

(108) د. عبد العزيز المنصور – المرجع السابق ص 96 .
(109) د. فتوح الخترش – د. عبد العزيز المنصور – المرجع السابق ص 98 .
(110) د. فتوح الخترش – د. عبد العزيز المنصور – المرجع السابق ص 91 .

وبعد نزول الكولونيل «روس» المقيم البريطانى ويرافقه كل من الكابتن « نيشام» «ومستر أ. ر حكم خان بهادر» ، الى الشاطىء لمقابلة الشيخ جاسم جرت محادثات بين الجانبين البريطانى والقطرى ، ويصف لنا المقيم البريطانى عما دار فى المحادثات وطبيعتها بقوله :

«فتوجهنا الى منزل جاسم فاستقبلنا بادب وود ظاهرين وبعد بعض المحادثة حول مواضيع عامة فضضنا الاجتماع الى غرفة علوية ودخلنا فى موضوع الشكاوى ضد الشيخ . وسألنى ان كان لدى الصبر لسماع كل ما يريد قوله فاخبرته ان هذا هو رغبتى وقصدى ، فقال انه بعد سماع شرحه سينفذ ما أقرره انا ، ولم يكن فى بيانه ما من شانه ان يلقى الضوء على سلوكه أكثر من هذا،وكرر تأكيداته بانه لم يطرد «البانيان» طردا عاجلا ولم يكن باية وسيلة مسؤولا عن خسائرهم ، وبعد سماع ما كان لديه ليقول ، اخبرته اننى لا أرى سببا لتغيير رأيي بالنسبة الى لومه واملت بانه سوف يسوى الامر بطريقة ودية ويدفع التعويض المعتدل المطلوب وبعد ان وجدت بانه عنيد جدا حول هذه النقطة قلت اننى آسف جدا ولكن حيث انه لا يوجد شيء آخر نقوله فاننا نستأذن بالذهاب ثم طلب منى الشيخ جاسم الانتظار حتى تتم لصلاة ويسمع الى ما سيقوله وزيره محمد بن عبد الوهاب وكان هذا الشخص مستشارا سيئا لجاسم وهو المسؤل جزئيا عن عدم الرضا الذى حل فيما بعد ، وكان قد اقترح شروطا مخفضة جدا ، ذهبت انا مع الكابتن نيشام الى ظهر السفينة تاركين المساعد المحلى والمنشىء مع جاسم ، وفى المساء ذلك اليوم قدم محمد عبد الوهاب وبعد بعض المناقشة عرض دفع 2،000 روبيه كعربون فى صباح اليوم التالى وطلب ضمانة كافية باننى ساقبل بهذه الترتيبات، وقد افهمته بوضوح انه ما لم يحضر الدراهم الى ظهر السفينة فى الوقت المحدد فاننى سأعود الى المطالبة بدفع كامل المبلغ نقدا» (III) .

وبعد ذلك حصل المقيم البريطانى على مبلغ 8 آلاف روبيه (II2) من الشيخ جاسم حسب الموعد الذى حدده وزيره محمد بن عبد الوهاب الفيحانى وكان قد عمل مستشار لمحمد بن ثانى فى شؤون اللؤلؤ وكاتبا لديوانه واقام فى بلد «الغارية» وهى كانت من بين اقوى قرى قطر فى ذلك الوقت (II3) .

الاحتجاج العثمانى على التصرفات البريطانية فى قطر :

وبمجرد ان عرفت الدولة العثمانية عن تحصيل المبالغ المالية من الوال جاسم قائمقام قطر من جانب الاسطول البريطانى فى البدع تقدمت باحتجاج رسمى الى السفير البريطانى فى استنابول ورفعت مذكرة اخرى الى الحكومة

---

(111) د. فتوح الخترش – د. عبد العزيز المنصور – المرجع السابق ص 91 .

(112) د. محمد مرسي – المرجع السابق ص 730 .

(113) د. فتوح الخترش – د. عبد العزيز المنصور – المرجع السابق ص 94 .

البريطانية نفسها جاء فيها ان المقيم البريطاني في اقليم فارس الايراني قد زار قطر ومعه بارجتان واكره الوالي العثماني هناك على دفع ثمانية آلاف روبيه تحت طائلة التهديد بقصف بلده بمدافع البحر اذا هو رفض الدفع (114) ، وكانت التعليمات الصادرة للسفير البريطاني في استانبول بأن يحاول في البداية ان يتهرب ويراوغ من مناقشة هذا الموضوع ، واذا تعذر ذلك فعليه ان يذكر بوضوح ان الحكومة البريطانية لا تعترف للباب العالي بأي سيادة على قطر (115)

كما كتب اللورد «جرانفيل» مذكرة في 7 مايو 1883 الى «موسوروس باشا» جاء فيها بان الحكومة البريطانية لم تعترف بالحقوق العثمانية في قطر . مما ادى ذلك الى تقديم الاحتجاج من قبل السفير العثماني في لندن ورد عليه اللورد «جرانفيل» في 22 سبتمبر 1883 بأن الحكومة البريطانية لا تستطيع الموافقة على آراء الباب العالي في هذا الموضوع وهي غير مستعدة ان تتنازل عن الحقوق التي مارستها خلال فترات تخللت سنوات طويلة من الاتصال المباشر مع الشيوخ العرب على الساحل القطري كلما دعت الضرورة لصيانة السلام البحري او لتحصيل تعويضات عن الحوادث التي تقع ضد الرعايا البريطانيين أو على الاشخاص المشمولين بالحماية البريطانية (116) ، وهذا يدل على اصرار بريطانيا على ممارسة فرض نفوذها بالقوة في مياه وسواحل الخليج العربي وعدم الاعتراف بالحقوق العربية او حقوق الدولة العثمانية في قطر أو الاحساء .

وكان الشيخ جاسم قد احتج وشكا من التصرفات البريطانية ونقل ما حدث الى السلطات العثمانية ، وخاصة متصرف الاحساء ، ووالي البصرة والطريقة التي عومل بها على يد المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي وهدد بالاستقالة من منصبه كقائمقام قطر اذا لم يرجع المبلغ الذي دفعه كتعويض للتجار الهنود ، كما كتب الوالي جاسم مذكرة حول هذا الموضوع الى شيخ البحرين والذي قام بتحويل خطابه الى المقيم البريطاني والذي طلب من شيخ البحرين بان يخبر الشيخ جاسم بانه ما دام قد كف عن التدخل في شؤون الرعايا البريطانيين فالسلطات ترغب رغبة كاملة في ان تكون على وفاق معه في حين كانت حكومة الهند ترى بان السلطات العثمانية في الاحساء وبغداد لا توافقه على اجراءات الشيخ جاسم في طرد «البانيان» (117) ولذلك فاجاءت بالاحتجاج العثماني وموقف الباب العالي من التصرفات البريطانية ضد الوالي في قطر .

كما ان الشيخ جاسم ظل يصر على التمسك بالقول والفعل بأن قطر تابعة للحكومة العثمانية وان على الحكومة البريطانية بالتالي ان تتعامل في شؤون قطر

---

(114) د. فتوح الخترش — د. عبد العزيز المنصور — المرجع السابق ص 95 .
(115) د. محمد مرسي — المرجع السابق ص 731 .
(116) د. فتوح الخترش — د. عبد العزيز المنصور — المرجع السابق ص 97 .
(117) د. فتوح الخترش — د. عبد العزيز المنصور — المرجع السابق ص 98 .

مع حكام الدولة العثمانية وليس معه ، فهو لا يعدو ان يكون مجرد تاجر يرى ان يظل على أحسن احوال الصداقة مع البريطانيين فى شؤونه الخاصة فقط (118)، ويقول المقيم البريطانى عن جاسم بانه لم يتوقف ابدا عن استجلاب كراهية البريطانيين وبغض رعاياهم فى قطر وربما كان فى الواقع العامل الحقيقى وراء الكثير من اعمال التعديات على التجار «البانيان» من الهنود البريطانيين فى قطر (119) ، ولم تتطور هذه المسألة الى حد كبير نظرا لوجود المشاكل والقضايا الدولية وخاصة العلاقة بين بريطانيا والباب العالى فى تلك الفترة .

عودة الرعايا البريطانيين من التجار «البانيان» وظهور بعض المشاكل :

وبعد اتفاقية 1882 رجع خمسة من التجار الهنود «البانيان» من رعايا البريطانيين الذين كانوا قد طردوا من قبل الى الدوحة ولكن عودتهم واقامتهم ظلت غير مرغوب فيها بسبب تصرفاتهم غير اللائقة ، وفى عام 1886 كان الشيخ جاسم قد انتقل من الدوحة الى «العديد» وبعدها مباشرة هاجم رجال من قبائل بنى هاجر بعض التجار من الهنود «البانيان» وجرحوا منهم اثنين جراحا غير خطيرة مما ارسل المقيم البريطانى مساعدة خان بهادر عبد الرحمن حكيم، لبحث الحادثة ، ورفع تقرير جاء فيها بان الهدف من وراء ذلك هو ارغام التجار الهنود على مغادرة الدوحة والخلاص من تصرفاتهم ، وكما ذكر المقيم البريطانى بان الشيخ جاسم أنكر بشدة اشتراكه فى هذه الحادثة وابدى اعتذاره لوقوعها (120) .

وفى العام التالى اى عام 1887 سارت بعض الاضطرابات فى الدوحة وفى البداية قام اقارب الشيخ جاسم بحماية التجار «البانيان» من الهنود ولكن فى اول اغسطس هاجم بعض الرجال تاجرين هنديين واصابوهما ببعض الجراح، مما ادى ذلك الى غضب المقيم البريطانى وطلب بترحيل التجار البانيان من الرعايا البريطانيين من الدوحة على ظهر السفينة «اوزبرى» التى نقلتهم الى البحرين ، واعتبر المقيم الشيخ جاسم هو المسؤول عن هذه الحادثة وطلب من حكومته ممارسة ضغطها على الشيخ جاسم لحمله على دفع التعويض عن الجراح والخسائر التى اصيب بها التجار الهنود وان يضاف الى ذلك غرامه تفرض على الشيخ جاسم (121) .

ولكى يرغم جاسم على دفع التعويضات اللازمة ، طلب المقيم البريطانى من شيخ البحرين مصادرة اموال جاسم واستثماراته فى البحرين وفرض الحضر عليها وخاصة على البهارات واللآلىء الخاصة بالشيخ جاسم والبالغة قيمتها

---

(118) د. محمد مرسي – المرجع السابق ص 731 .
(119) د. عبد العزيز المنصور – المرجع السابق ص 96 .
(120) د. فتوح الخترش – د. عبد العزيز المنصور – المرجع السابق ص 98 .
(121) د. محمد جابر الانصارى – تراث قطر ص 9 .

الاجمالية عشرين الف روبيه ثم ارسل إلى المقيم البريطانى مذكرة الى حكومة الهند فى 23 اغسطس ، اكد فيها بالقاء المسؤولية على عاتق الشيخ جاسم وفى صدد علاقة شيخ البحرين بأموال جاسم فانه اشار بقوله : «واذا أقرت الحكومة (الهندية) اقتراحى بالزام الشيخ جاسم بالتعويض فان امواله الموضوعة تحت اليد قد تلغى الحاجة الى اللجوء للقوات البحرية ، اما لو رفضتم توصيتى فيمكن أن نرد أموال جاسم تلك الى وكيله» (122) .

ونتيجة لحجز بريطانيا أموال الشيخ جاسم فى البحرين فان الاخير اضطر لدفع مبلغ 6،390 روبيه تعويضا عن الخسارة للتجار «البانيان» وكان قائد القوات العثمانية فى الاحساء قد وصل الى الدوحة لدى سماعه تلك الاخبار ومعه فرقة من لحرس لمساعدة الوالى جاسم ثم عقد عدة مفاوضات وجلسات معه حول تلك الاحداث ، فى حين كان قد تقدم الشيخ جاسم بشكوى الى الباب العالى ضد التصرفات البريطانية تجاهه ، كما تقدم الى والى البصرة ، وبغداد شاكيا لهما انه قد جرد من أمواله جميعا فى البحرين ، وهنا قام متصرف الاحساء بتقديم خطاب الى شيخ البحرين يطلب فيها اعادة جميع الاموال الى الشيخ جاسم والتى تم مصادرتها كما تم توجيه احتجاج للسفير البريطانى فى استانبول حول تصرفات المقيم السياسى فى الخليج العربى تجاه جاسم (123) .

ويمكن القول بان الوالى جاسم استطاع ان يحافظ على قطر من التدخل البريطانى حيث اتخذت من مشكلة التجار الهنود ذريعه لكى تتدخل فى الشؤون القطرية ، والوقوف فى وجه اطماعها بكل قوة رغم ان الدولة العثمانية كانت تمر فى هذه الفترة بظروف صعبة ، ولم تكن فى استطاعتها مواجهة بريطانيا فى مياه الخليج العربى ، حيث كانت قطر تشكل حاجزا بين مناطق نفوذ بريطانيا فى مياه الخليج العربى وجزره بما فيها البحرين والامارات

(122) د. فتوح الخترش – د. عبد العزيز المنصور – المرجع السابق ص 94 .
(123) د. محمد مرسي – المرجع السابق ص 731 .
(124) د. فتوح الخترش – د. عبد العزيز المنصور – نشوء قطر وتطورها ص 55 .
(125) جي. اى. سالدانا – المرجع السابق ص 121 .
(126) ج.ج. لوريمر – المرجع السابق ج 3 ص 1232 .
(127) جي. أى. سالدانا – المرجع السابق ص 120 .
(128) د. عبد العزيز المنصور – المرجع السابق ص 96 .
(129) جي. أى. سالدانا – المرجع السابق ص 121 .
(130) جي. اى. سالدانا – المرجع السابق ص 122 .
(131) ج.ج. لوريمر – المرجع السابق ج 3 ص 1234 .
(132) جي. أى. سالدانا – المرجع السابق ص 130 .
(133) جي. أى. سالدانا – نفس المرجع ص 130 .
(134) ج.ج. لوريمر – المرجع السابق ج3 ص 1234 .

العربية وعمان وامتداد النفوذ العثمانى من العراق الى الكويت ونجد والاحساء فى قطر فى شرق الجزيرة العربية ٠

ولذا كان موقف الشيخ جاسم دقيقا وحساسا فى قطر ولكنه استطاع ان يوفر الامن والاستقرار للمجتمع القطرى وامكنه ان يوفر لهم مـزايا عملهـم المجهد فى صيد اللؤلؤ ، والحفاظ عليها من التجار الهنود والاطماع البريطانية من وراءهم ، ولم تستطع بريطانيا ان تجد لها موطأ قدم فى قطر اثناء فترة حكم الوالى الشيخ جاسم ،كما لا ننسى الدعم العثمانى ولو لم يكن حسب ما هو المطلوب نظرا لظروف الدولة العثمانية التى كانت تمر فى تلك الفترة ، ولكن مجرد وجود الحاميات العسكرية العثمانية فى قطر اضـافة الى الدعـم المعنوى من السلطان عبد الحميد للشيخ جاسم كان له ابعد الاثر فى تضافر كل تلك العوامل معا فى جعل الحياة الاجتماعية فى قطر فى تلك الفترة اكثر مستقرة وهادئة ٠

د٠ محمد حسن العيدروس
جامعة الامارات العربية المتحدة
كلية الآداب ـ قسم التاريخ

المراجع والمصادر :

(1) أحمد علي المنصور – سليمان محمد الستاوى – أحمد علي الطوحي – المجتمع القطرى – وزارة المعارف – الدوحة 1968 .
(2) جي. بي. كيلي – الحدود الشرقية للجزيرة العربية – منشورات دار الحياة – بيروت 1971 .
(3) ج.ج. لوريمر – دليل الخليج – القسم الجغرافي والتاريخي – طبعة جديدة معدلة – الدوحة .
(4) جي. أى. سالدانا – الشؤون القطرية – لجنة كتابة تاريخ قطر – الدوحة 1976 .
(5) جمال زكريا قاسم – (دكتور) – الخليج العربي – دراسة لتاريخ الامارات العربية 1914–1945 الطبعة الأولى – القاهرة 1973 .
(6) جهينة سلطان سيف العيسى (دكتوره) المجتمع القطرى – القاهرة 1982 .
(7) خالد العزبي (دكتور) – الخليج العربي في ماضيه وحاضره – بغداد 1972 .
(8) لجنة تدوين تاريخ قطر – البحوث المقدمة الى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية الدوحة – 1976 .
(9) محمد أحمد عبد الرزاق غنيم – التحضر في المجتمع القطرى – الاسكندرية 1983 .
(10) محمد جابر الانصارى – (دكتور) – تراث قطر وثقافتها المعاصرة – وزارة الاعلام القطرية – الدوحة 1980 .
(11) محمد عبد الرحيم قافود – الادب الحديث – القاهرة 1979 .
(12) محمد علي الدؤاد (دكتور) الخليج العربي والعلاقات الدولية . معهد البحوث والدراسات – القاهرة .
(13) فتوح الخترش (دكتور) عبد العزيز المنصور (دكتور) مصادر تاريخ قطر – الطبعة الثانية – ذات السلاسل – الكويت 1984 .
(14) فتوح الخترش (دكتوره) – د. عبد العزيز المنصور (دكتور) – نشوء قطر تطورها – ذات السلاسل – الكويت 1977 .
(15) فالح حنظل – المفصل في تاريخ الامارات – جزئين – لجنة التراث والتاريخ أبوظبي 1983 .
(16) عبد العزيز المنصور (دكتور) – التطور السياسي لقطر في الفترة مابين 1868–1916 – ذات السلاسل – الكويت 1980 .
(17) وزارة المعارف – نهضة قطر – الدوحة 1962 .
(18) يوسف محمد عبيدان – المؤسسات السياسية في دولة قطر – وزارة الاعلام – الدوحة 1979 .
(19) يوسف عبد الرحمن الخليفي – التحفة البهية في الاداب والعادات القطرية – الدوحة 1980 .

المصادر الاجنبية :

(1) Qatar Government Publication — Qatar — London 1968.



الدلالات الاجتماعية لأحكام المحاكم الشرعية فى مصر فى العهد العثمانى : دراسة فى المنهج

علی فهمی (*)

1 – أتى حين من الدهر كانت الشريعة الغراء – نظريا – هى القانون الاساسى المطبق فى مصر ، وذلك منذ الفتح العربى الاسلامى لمصر وحتى الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، بيد أنه من الوارد اثارة تساؤل رئيسى عن مضمون التطبيق الحقيقى والفعلى لاحكام الشريعة الاسلامية خلال تلك الفترة الطويلة ، فنحن نفرق – عن عمد – بين المقولات من جهة والواقع التطبيقى من جهة أخرى ، وبخاصة فى ظل حضارتنا وثقافتنا التى يبدو من خلالها البون شاسعا بين الشعارات والتطبيق • فالقانون ليس نصا جامدا فحسب ، بل هو نص يحكم واقعا اجتماعيا محددا ، ومن ثم فان من المهم ومن الوارد دراسة الواقع والتطبيق فى العمل ، أو ما نسميه بالقانون الحى •

2 – ومن عجب أن التأريخات وملاحظات الكتاب والرحالة ، توقفنا على أمور مجتمعية كانت تحدث بل وتسود فيها منافاة ظاهرة وصريحة لنصوص ولاحكام الشريعة ، وذلك على مدى ربوع العالم الاسلامى ، مما يؤكد وجود الفجوة بين صريح النص القانونى أو الشرعى من جهة ، والقانون الحى من جهة أخرى، مما يغرى بالقول بأن انفصالا ما كان قائما فى معظم فترات الحكم الاسلامى بين المؤسسات القانونية للسلطة فى المجتمع الاسلامى وبين الشعوب التى تحكمها باسم الشرع • فالخمارات تسود العواصم الاسلامية كالقاهرة وبغداد وتفرض على أربابها الضرائب ، وبيوت الدعارة المرخص بها كذلك ، فاذا حدث غزو خارجى أو طرأ وباء ، صدر الامر باغلاق دور المنكرات هذه خوفا من غضب الله ، وسرعان ما تعود الامور الى مجرياتها بزوال خطر الغزو أو الوباء (1) •

3 – يضاف الى ذلك افتراض أن الجيوب السكانية المنعزلة فى البوادى وفى الاقاليم البعيدة ، كان لها قواعدها القانونية العرفية وقضاؤها العرفى الذى

(*) مستشار قانوني واجتماعي ، أحد مؤسسي المركز القومي للبحوث الاجتماعية بالقاهرة (1956) ، مستشار المركز القومي للبحوث الاجتماعية ببغداد (سابقا) ، مستشار تحرير مجلة فكر (القاهرة – باريس) ، عضو مجلس أمناء الجمعية العربية لعلم الاجتماع (تونس) ، الباحث الرئيسي لبرنامج بحوث التاريخ الاجتماعي المصري (القاهرة) .

(1) انظر الأمثلة العديدة : إبن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، دار الشعب ، القاهرة ، 1960 .

لم يكن مستمدا ـ كله ـ من أحكام الشريعة الغراء ، وهو وضع ما تزال آثاره ظاهرة حتى الآن ، على الرغم من سيطرة الحكم المركزى وثورة الاتصال والمواصلات (2) .

4 ـ ومع ذلك تبقى أحكام التطبيق الرسمى للقواعد القانونية الرسمية ، مصدرالا غنى عنه للدراسة التاريخية للمجتمعات المعنية ، مع كافة الاحترازات التى أثرناها آنفا . وفى المجتمع المصرى بخاصة ـ كمجتمع قديم ومستمر فى آن واحد ـ فان الظواهر الاجتماعية التاريخية من المفيد الاستعانة بأكثر من مصدر عند التصدى لها بالدراسة العلمية ، وبخاصة فى ظل حقيقة مؤسفة تتعلق بضياع وغيبة الوثائق فى بعض الاحيان ، وعدم تبويبها ويسر تناولها أمام الباحثين (3) . ولعل من حسن الحظ أن وثائق المحكمة الشرعية بالقاهرة ظلت محفوظة بحالة مناسبة حتى الآن ، مع صعوبات كثيرة فى الوصول اليها والتعامل معها ، وان كانت هذه الوثائق فى وضع أفضل ـ بكثير ـ من غيرها من الوثائق التاريخية الهامة من حيث الحفظ ويسر الاطلاع عليها (4) .

5 ـ ومنذ الغزو العثمانى لمصر (1517) ، بدأت الدولة العثمانية محاولاتها ـ بالتدريج ـ نحو عثمنة القضاء المصرى الذى كان يغلب المذهب الشافعى ، بعكس القضاء العثمانى الذى كان يغلب المذهب الحنفى ، وسارت محاولات القضاء المصرى فى مراحل متدرجة خشية التغييرات الحادة المفاجئة ، اذ اكتفى ـ فى البداية ـ باقرار قضاة المذاهب الاربعة فى وظائفهم مع تعيين قاض عثمانى فى المدرسة الصالحية بالقاهرة سمى بقاضى العرب الذى كانت له اليد الطولى فى الواقع ، ثم عمد الحكم العثمانى الى تعيين رقيب على القضاة هو «المحضر» تسانده قوة عسكرية من الانكشارية وأصبح (يقف بين يديه المدعى والمدعى عليه ، ليسمع منهما بواسطة ترجمان لانه كان لا يعرف اللسان العربى) ، وأصبح هذا المحضر ـ بالفعل ـ يمثل سلطة قضائية عليا (5) .

6 ـ وظل الاتجاه نحو عثمنة القضاء المصرى بفرض ضرائب جديدة على دور الشهود ، ومجالس القضاء ، وتوريد هذه الرسوم الى بيت مال المسلمين، وكذلك تدخل القادة العسكريين مثل اسكندر بك فى الاحكام القضائية بل ونفى وعزل القضاة ، والتقليل من نواب القضاة ، وتقييد الوكلاء ، واحداث

---

(2) علي فهمي ؛ القانون والقضاء العرفي في مصر ، مجلد العدالة ، سلسلة مسوح المجتمع المصري ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية ، القاهرة ، 1985 .

(3) انظر : مشروع خطة برنامج بحوث التاريخ الاجتماعي المصري ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية ، القاهرة ، يناير 1985 .

(4) معظم هذه الوثائق القضائية محفوظة في مصلحة الشهر العقاري والتوثيق التابعة لوزارة العدل بالقاهرة .

(5) لنظر في التفاصيل : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ؛ القضاء في مصر العثمانية (1517—1798) مستخرج من كتاب « بحوث في التاريخ الحديث » ، جامعة عين شمس ، 1976 ، ص 172 .

منصب «قسام التركات» وهو قاض عثمانى كان مسؤولا عن جميع التركات الاهلية ، وأخيرا تمت عثمنة القضاء المصرى باحداث وظيفة «قاضى العسكر» العثمانى ، الذى كانت له الولاية القضائية الاولى ، وبذلك أصبح القضاء المصرى تابعا – على نحو مباشر لقضاء الاستانة (6) ·

7 – وعلى الرغم من أن الحكم العثمانى لم يقم بتحويل القضاء الى نظام المقاطعات شأن كافة المؤسسات المصرية منذ أواخر القرن السادس عشر ، الا أن مفهوم الانابة القضائية الذى تعرفه الممارسات الاسلامية لعب دورا هاما فى هذا الاتجاه ، فصاحب الولاية القضائية الاصيل هو الخليفة يفوضها لمن يشاء مطلقة أو مقيدة ، وعادة كان السلطان يفوضها لشيخ الاسلام فى الاستانة الذى يفوضها – بدوره – الى قاض عثمانى هو «قاضى عسكر مصر» الذى كان يفوضها للنواب فى النواحى والاحياء ، وبالتالى فان عوامل الفساد العامة فى الجهاز الادارى منذ أواخر القرن السادس عشر قد انتقلت الى القضاء (7) ·

8 – ومما يزيد الصورة تعقدا ، تشابك الولايات القضائية وشبه القضائية ، والتى عرفتها الممارسات القضائية الاسلامية ، والتى توزعت بين القاضى والوالى والمحتسب وغير ذلك من الموظفين (8)

9 – ويمكن القول – بصفة عامة – ان القضاء فى مصر العثمانية كان له ولاية الفصل فى المنازعات حين تثور منازعة بين فردين حول حق خاص ، أما عدا ذلك مثل جرائم التسعير والتموين والشغب فكانت تخرج عن ولاية القضاء، وتدخل فى ولاية غيرهم على نحو غير محدد فى الغالب ، اذ كان لوالى الشرطة ولاية واسعة فى التعازير ، كما كان لوالى الحسبة ولاية واسعة فى جرائم الاسواق ، وعلى الرغم من أن ولاية الحسبة – بحسب الاصل – هى من قبيل الوظائف القضائية اعمالا لمبدأ الامر بالمعروف والنهى عن المنكر (8)، فانها تحولت فى العهد العثمانى الى محض وظيفة ادارية يتولاها الجند ، بل انتهى بها الامر الى أن تصبح من نظام مقاطعات الالتزام (مقاطعة احتساب النفس بمصر المحروسة) ، وكانت ذات اختصاص جنائى واضح (9) ·

10 – وواضح من هذا الاستعراض الوجيز ، بأن ولاية القضاء فى مصر العثمانية لم تكن محددة – على نحو دقيق – وكانت متداخلة مع غيرها من

(6) المرجع السابق ؛ ص 173 و ص 176 .

(7) محمد نور فرحات ؛ القضاء المصري قبل إنشاء المحاكم الأهلية ، مجلة الحق ، اتحاد المحامين العرب ، القاهرة ، السنة 15 ، العدد الأول والثاني ، 1984 ، ص 84 ، ص 85 .

(8) علي فهمي ؛ الحسبة في الإسلام – دراسة مقارنة بالأنظمة المشابهة في القانون الوضعي ؛ دراسة مقدمة إلى المؤتمر الثاني للقانون والعلوم السياسية ومهرجان الإمام ابن تيمية ، دمشق ، أبريل / نيسان 1961 .

(9) محمد نور فرحات ؛ مرجع سابق الإشارة إليه ، ص 85 ، ص 86 . وأيضا : عبد الرحمن الجبرتي ؛ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، بيروت ، المجلد الأول ، ص 162 وما بعدها .

الولايات ذات الصفة القضائية التى كان يمارسها غير القضاة ، ولعل هذا أن يشكل بعض المحدودية لقيمة أحكام القضاة فى مصر ابان العهد العثمانى للاستدلال بها فى فهم الظواهر الاجتماعية •

II ـ ومع ذلك تبقى أحكام المحكمة الشرعية فى مصر العثمانية ، مصدرا لا غنى عنه، فى دراسة وفهم التاريخ الاجتماعى المصرى خلال تلك الفترة ، بيد أنه لا يمكن الاعتماد عليها كمصدر وحيد لكل ما سقناه آنفا ، فضلا عن أن القضاء الشرعى ـ فى ذلك ـ لم يكن يعرف ما يسمى حاليا بالحيثيات او بتسبيب الاحكام ، مما يعاون على فهم الخلفية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وراء الحكم القضائى ، بالاضافة الى أن الكثير من منطوق الاحكام الشرعية فى المواد الجنائية بخاصة ، كان يكتفى باثبات الاذناب ، دون تحديد للعقوبة ، والتى كان يلجأ فى ذلك الى غيره من الموظفين مثل والى الشرطة ، على ما سيجىء تفصيلا (IO) •

I2 ـ وواضح من استقراء التنظيم القضائى فى مصر العثمانية ، أن محكمة الباب العالى التى كان يرأسها «قاضى العسكر» فى العاصمة تجىء على رأس هذا التنظيم ، تليها محاكم مصر المحروسة ، ثم محاكم الاقاليم ، وأخيرا بعض المحاكم ذات الاختصاص النوعى مثل محكمة القسمة العسكرية ومحكمة القسمة العربية ، وكانت محكمة القسمة العسكرية تختص بقسمة تركات الجند وكل ما يترتب على الوفاة من آثار قانونية مثل تعيين الاوصياء على القصر ومحاسبتهم، أما محكمة القسمة العربية فكانت ولايتها تنحصر نوعيا فى قسمة تركات المصريين بدائرة مصر المحروسة أى القاهرة وبولاق ومصر القديمة فقط ، أما خارج هذه الدائرة المكانية فكانت اختصاصاتها تناط بمحاكم الاقاليم بحضور مندوب محكمة القسمة العربية من القاهرة أو أمين بيت المال فى الاقليم ذى العلاقة (II) •

I3 ـ ولا مشاحة فى أنه لا يمكن تناول العهد العثمانى فى مصر بالدراسة كفترة واحدة متجانسة ، اذ لا يمكن اغفال التطورات الاجتماعية والاقتصادية الداخلية وحتى الخارجية ذات الانعكاسات على الداخل ، خلال هذه الفترة الطويلة نسبيا ، واثر ذلك على المؤسسة القضائية ، اذ ان هذه المؤسسة ـ كغيرها من المؤسسات ـ لا تحكم فى فراغ ، بل هى تقوم على حكم علاقات اجتماعية اقتصادية معينة تتطور ـ بالضرورة ـ بفعل عوامل كثيرة متشابكة•

---

(10) محمد نور فرحات ؛ نظام التجرم والعقاب في ظل الاختصاص الجنائي للمحاكم الشرعية في مصر منذ مطلع العصر الحديث ، دراسة مقدمة إلى المؤتمر الخامس عشر لاتحاد المحامين العرب ، سوسة/تونس ، نوفمبر/تشرين ثاني 1984 .

(11) انظر في التفاصيل : محمد نور فرحات ؛ القضاء المصري قبل إنشاء المحاكم الأهلية ، سابق الإشارة إليه ، ص 93 ، ص 114 .

14 ـ ولعل هذا قد حدث في المجتمع المصرى ـ بشكل واضح ـ منذ القرن الثامن عشر تحديدا ، اذ توقفنا المصادر التاريخية على بدايات التراكم الرأسمالى التجارى ، ومدى الارتباط الوثيق بين طبقة التجار المصريين وغيرهم في الاقطار المحيطة ، ونشاط بعض الجاليات غير المصرية في ميدان التجارة في مصر وعلى الاخص الجالية المغربية ، وهذه كلها أمور لها ـ بالضرورة ـ انعكاساتها في الوثائق القضائية (12) .

15 ـ وعلى سبيل المثال ، قام «عبد الرحيم» بحصر 123 وكالة تجارية ومهنية كانت قائمة في دائرة القاهرة في العهد العثمانى ، وذلك من واقع وثائق المحكمة الشرعية ، وقد تبين له أنه لا تكاد تخلو أي من هذه الوكالات من التجار المغاربة ، بل ان بعض هذه الوكالات مثل وكالة الماوردى بخط الفحامين بالقاهرة ، كانت تمثل منظمة تجارية مغربية كبرى ، والامر نفسه انتهى اليه فيما يتعلق بالاسواق (13) .

16 ـ ولقد أحدثت هذه التغيرات الاجتماعية الاقتصادية والتى يمكن ان يطلق عليها «بدايات التراكم الرأسمالى التجارى» بعض النتائج على صعيد المؤسسة القضائية وأحكامها ، اذ تعقدت النزاعات التى ترفع الى القضاء ، نتيجة نمو الطبقة الوسطى التجارية في مصر ، مما أدى الى تزايد ظاهرة الفساد في القضاء وبخاصة اذا لاحظنا شبهة شراء الوظائف القضائية والتعيش من الرسوم المقررة ، فضلا عن اتساع الفجوة بين القواعد القانونية البسيطة التى كانت تصلح لحكم علاقات اجتماعية اقتصادية بسيطة هذا من جهة وبين واقع العلاقات الجديدة المتشابكة والمعقدة من جهة أخرى ، وبخاصة في ظل عدم التجديد وعدم الاجتهاد وشيوع مظاهر الانحطاط الثقافى ، لدرجة أن شاع في المجتمع المصرى الاقراض بالربا باللجوء الى حيل قانونية صورية (14) .

17 ـ أما في مجال الولاية القضائية في المسائل الجزائية (الجنائية) ، فان تداخلا واضحا بين ولاية القاضى وولايات غيره ، حتى على المستوى النظرى (الفقهى) ، يقرر «ابن تيمة» مثلا فيما يتعلق بالاختصاص الجنائى للقاضى ولغيره من الولاة ما يلى : (عموم الولايات وخصوصا وما يستفيده المتولى بالولاية يتلقى من الالفاظ والاحوال والعرف ، وليس لذلك حد في الشرع ، فقد يدخل

---

(12) يراجع في التفاصيل الكثيرة : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ؛ المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517–1798) – دراسة في تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية ، من منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية الجزائري ، تونس ، 1982 .

(13) المرجع السابق مباشرة ، ص 63 ، ص 65 .

(14) محمد نور فرحات ؛ القضاء المصري قبل إنشاء المحاكم الأهلية ، سابق الإشارة إليه ، ص 132 ، ص 133 .

في ولاية القضاء في بعض الامكنة والازمنة ما يدخل في ولاية الحرب في مكان وزمان آخر ، وبالعكس ، وكذلك الحسبة وولاية المال ٠٠٠٠٠٠ واذا كان كذلك فولاية الحرب في عرف هذا الزمان (عصر ابن تيمية) في هذه البلاد الشامية والمصرية تختص باقامة الحدود التي فيها اتلاف ، مثل قطع يد السارق وعقوبة المحارب ونحو ذلك ، وقد يدخل فيها من العقوبات ما ليس فيه اتلاف كجلد السارق ، ويدخل فيها الحكم في المخاصمات والمضاربات ودعاوى التهم التي ليس فيها كتاب وشهود ٠٠٠٠٠٠) (15) ٠

18 ـ وهذا التضارب الذي يجد سنده في أصول الفقه فضلا عن الممارسات الاسلامية الطويلة، كان له آثاره في تضخم ما يسمى بالتجريم والعقاب سياسة، وهو باب كبير أدى الى كثير من المظالم والبشاعات ، وكان فيه خروج واضح وحاد على مبادىء الشرعية القانونية ، وهي أمور لها انعكاساتها ـ بالسالب ـ على الحركة الاجتماعية وعلى السلام الاجتماعي وعلى الاستقرار ٠

19 ـ ويبدو أن ولاية القاضي الجنائي في مصر العثمانية كانت تنعقد في حالة استعداء أحد الخصوم للقضاء وهذا هو ظاهر الفقه الحنفي الذي كان هو المذهب الرسمي المعتقد في تلك الفترة ، ولم يكن للقضاء الشرعي اختصاص ـ خارج هذا النطاق ـ الا ما تطلب سماع بينة وشهود سواء في ذلك التعازير والحدود ، عدا الحدود التي يتعلق بها حق الله تعالى وحده ، فكان اختصاص القاضي الشرعي متعلقا بما يحيله اليه الوالي للتحقيق فيه أو الفصل فيه (16) ٠

20 ـ وعلى عكس الرأي السائد لدى معظم الباحثين الغربيين في تاريخ القانون الجنائي في المجتمعات الاسلامية من أن القاضي الجنائي الشرعي هو قاض للوقائع فقط بحيث لا تتعدى سلطته التأكد من اذناب المتهم مستخدما طرق الاثبات الشرعية ، تاركا أمر تحديد العقوبة وتنفيذها لولي الامر ، على العكس من هذا الرأي ، فقد انتهى «فرحات» من قراءة متأنية لسجلات المحاكم الشرعية المصرية ، الى أنه في مسائل الحدود فان سلطة القاضي الشرعي كانت شاملة لتحقيق الاذناب وتقرير العقوبة والنطق بها والامر بتنفيذها (17)

21 ـ وواضح من استعراض بعض سجلات المحكمة الشرعية بمصر المحروسة ، أن المحكمة كان يقتصر دورها في جرائم التعزير على تحقيق الاذناب أو عدمه ، فاذا ثبت الاذناب ، فان المحكمة تقرر مبدأ التعزير وتحيل

---

(15) نقلا عن : محمد نور فرحات ؛ نظام التجريم والعقاب في ظل الاختصاص الجنائي للمحاكم الشرعية في مصر منذ مطلع العصر الحديث ، سابق الإشارة إليه .

(16) محمد نور فرحات ؛ المرجع السابق مباشرة .

(17) يراجع في التفاصيل الكثيرة الموثقة : محمد نور فرحات ؛ المرجع السابق مباشرة .

الامر الى ولاة التنفيذ لتحديد نوع ومقدار العقوبة التعزيرية ثم ايقاع العقوبة ، وواضح أيضا من بعض نصوص «قانون نامة مصر» (1525) أن والى الشرطة (السوباشى) هو الذى كان يختص بذلك (18) .

22 ـ وفى ظل الحملة الفرنسية على مصر ، وبعد احداث «ديوان القاهرة» (1798) ، والتوسع فى اختصاصات هذا الديوان فى عهد «مينو» انعقدت لهذا الديوان ولاية قضائية استئنافية ، وهو أمر لم يعرفه القضاء المصرى ابان العهد العثمانى على نحو صريح (19) .

بعض الاستنتاجات الاولية

23 ـ يمكن الخروج بعدد محدود من الاستنتاجات الاولية التى قد تصلح فروضا علمية يمكن اختبارها بمزيد من البحوث المتعمقة ، وبخاصة فى موضوع المنهج ، ذلك أن أحكام المحاكم الشرعية المصرية فى العهد العثمانى ، لا يمكن اعتبارها جامعة مانعة للفصل فى المنازعات القانونية لتضارب ولاختلاف الجهات والاجهزة التى كانت تقوم ـ فى الواقع ـ باختصاصات وبمهام قضائية ، فضلا عما تكشف عنه التأريخات المعتمدة من تفاصيل للقهر الذى كان يقع على الفقراء بخاصة حتى من أفراد الجند البسطاء ، بالاضافة الى أن التوسع فى نظام الامتيازات الاجنبية التي منحتها الدولة العثمانية للكثيرين من الرعايا الاجانب، وقد انسحب هذا على مصر كولاية عثمانية ، مما يدعو الباحثين الى عدم الاكتفاء بسجلات المحاكم الشرعية فى دراسات وبحوث التاريخ الاجتماعى المصرى ، ومحاولة الافادة من المصادر المتاحة الاخرى ، وقد يكون من الوارد ـ هنا ـ محاولة الافادة من سجلات القنصليات الاجنبية التى كانت موجودة فى مصر آنذاك .

24 ـ هذا من الناحية المنهجية ، أما من الناحية الموضوعية ، فيمكن الخروج بدعم لافتراضات الانفتاح المصرى على الخارج وبخاصة (التجارى) وذلك قبل الحملة الفرنسية بسنين عددا ، وعلى الاخص خلال القرن الثامن عشر ، كما يمكن الوصول الى صور تقريبية عن نشوء وتراكم وأنشطة أنواع من الرأسمالية التجارية عرفتها مصر منذ القرن الثامن عشر أيضا ، كما يمكن تلمس الكثير من أوجه الفساد فى المؤسسة القضائية المتمثلة فى المحاكم الشرعية المصرية ابان العهد العثمانى ، والذى كان جزءا من فساد أعم شمل كافة المؤسسات والاجهزة الاخرى .

25 ـ وبصفة عامة ، فان هذه الورقة بمثابة ورقة أولية ، نرجو أن تفتح أو تشارك ـ مع غيرها من الدراسات التى سبقتها ـ باب بحوث متعمقة موثقة (20)

---

(18) المرجع السابق مباشرة .

(19) شفيق شحاتة ؛ تاريخ حركة التجديد في النظم القانونية في مصر منذ مطلق القرن التاسع عشر ، من منشورات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، 1961 ، ص 7 .

(20) نشير — هنا — إلى البرنامج البحثي الذي يقوم بـه المركز القومي للبحوث الاجتماعية بالقاهرة حول التاريـخ الاجتماعي المصري ، ونشارك فيـه بـدور الباحث الرئيسي .

بيان بأهم المصادر :

1 ــ ابن اياس (الحنفى المصرى) ؛ بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، دار الشعب ، القاهرة ، 1960 .

2 ــ شفيق شحاته ؛ تاريخ حركة التجديد فى النظم القانونية فى مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر ، من منشورات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة ، 1961 .

3 ــ عبد الرحمن الجبرتى ؛ عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ، بيروت ، المجلد الاول ، غير مبين تاريخ النشر .

4 ــ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ؛ القضاء فى مصر العثمانية (1517 ــ 1798) ؛ مستخرج من كتاب «بحوث فى التاريخ الحديث» ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، 1976 .

5 ــ ———————— ؛ المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى (1517 ــ 1798) ، دراسة فى تأثير الجالية الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية ، من منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية الجزائرى ، تونس ، 1982 .

6 ــ على فهمى ؛ الحسبة فى الاسلام ــ دراسة مقارنة بالانظمة المشابهة فى القانونية الوضعى ، دراسة مقدمة الى المؤتمر الثانى للقانون والعلوم السياسية ومهرجان الامام ابن تيمية ، دمشق ، (ابريل / نيسان 1961) .

7 ــ على فهمى ؛ القانون والقضاء العرفى فى مصر ، مجلد العدالة ، سلسلة مسوح المجتمع المصرى ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية ــ القاهرة ، 1986 .

8 ــ محمد نور فرحات ؛ القضاء المصرى قبل انشاء المحاكم الاهلية ، مجلة الحق ، اتحاد المحامين العرب ، القاهرة ، السنة 15 ، العد الاول والثانى ، 1984 .

9 ــ محمد نور فرحات ؛ نظام التجريم والعقاب فى ظل الاختصاص الجنائى للمحاكم الشرعية فى مصر منذ مطلع العصر الحديث ، دراسة مقدمة الى المؤتمر الخامس عشر لاتحاد المحامين العرب ، سوسة / تونس (نوفمبر / تشرين ثانى 1984) .

10 ــ مشروع برنامج بحوث التاريخ الاجتماعى المصرى ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية ــ القاهرة ، 1986 .

على فهمى



السيرة الشعبية مصدرا لدراسة التاريخ الاجتماعى
قـراءة فى سيـرة الظـاهر بيبـرس

د. قاسم عبده قاسم

مر التاريخ ـ باعتباره ممارسة ثقافية ذات وظيفة اجتماعية ـ بتطورات هائلة منذ بدأ وليدا فى حجر الاسطورة ، حتى صار علما أكاديميا له مناهجه وفلسفته وفروعه المختلفة ؛ بل وتاريخه أيضا . وعلى الرغم من هذه التطورات الكبيرة فى ميدان الدراسة التاريخية ؛ فان التاريخ من حيث هدفه ، ومن حيث وظيفته الاجتماعية / الثقافية ، ظل كما هو .

بيد أن أهم التطورات التى لحقت بالتاريخ جاءت مواكبة لتطورات اقتصادية واجتماعية وسياسية جعلت جماهير الناس العاديين أصحاب الحق الاول فى تسيير شؤون حياتهم وصارت الشعوب مصدر السلطات فى الديموقراطيات الحديثة . لقد تخلى التاريخ عن مكانه التقليدى فى قصور الاباطرة والملوك والحكام والامراء ، وفى ساحات الحروب ، لينزل الى خضم الحياة العامة باحثا عن الحقيقة فى الشوارع والطرقات والاسواق بين جموع الفلاحين وجماهير العمال ، وجماعات المثقفين والفنانين والشعراء ؛ لقد بدأ التاريخ يدرس أحوال صناع التاريخ الحقيقيين ، وكانت النتيجة أن ظهرت للتاريخ فروع عديدة تبحث فى شتى نواحى النشاط الانسانى ، ومنها التاريخ الاجتماعى .

والتاريخ الاجتماعى ، فرع حديث من فروع الدراسات التاريخية ، ولا يزال يحبو فى عالمنا العربى على نحو خاص؛ فقد ظلت السياسة والحكم والحرب محور الاهتمام الاساسى عند المؤرخين العرب . حقيقة أن عددا لا بأس به من الدراسات فى ميدان التاريخ الاجتماعى قد تم على يد من الاساتذة والباحثين الافاضل ، ولكنها لم تكن سوى محاولات فردية ومتفرقة حتى الآن .

ويهتم التاريخ الاجتماعى بدراسة أحوال المجتمع عبر التاريخ ؛ سواء من حيث دراسة التركيب الاجتماعى ، والبناء الطبقى ، وتاريخ الطبقات ، والعادات والتقاليد ، والحرف والصنائع والاسواق ، والبنيان السكانى ، وعوامل الزيادة والنقصان ، كما يدرس أوضاع الاقليات وعلاقاتها الاجتماعية/ السياسية . وفضلا عن ذلك يدرس التاريخ الاجتماعى ، القيم والمثل والاخلاقيات التى تحرك المجتمع فى عصر ما من عصوره التاريخية . بيد أن التاريخ الاجتماعى يهتم أيضا بالجوانب السياسية والاقتصادية والفكرية فى حياة المجتمع ، وذلك من حيث تأثرها على حركة المجتمع ، ولكن مصادر المؤرخ الذى يعمل فى مجال التاريخ الاجتماعى تختلف ، بالضرورة ، عن مصادر من يهتم بدراسة التاريخ السياسى أو الاقتصادى أو العسكرى . ففى مجال السياسة أو الاقتصاد أو الحرب يمكن الاعتماد على المصادر التاريخية التقليدية

مثل الوثائق بكافة أنواعها وشهادات المؤرخين المعاصرين . ولكن يختلف تماما عند دراسة المجتمع فى فترة ما من تاريخه . ذلك أن المؤرخ الذى يدرس التاريخ الاجتماعى انما يدرس فى حقيقة الامر علاقات الناس بعضهم ببعض فى اطار ظروف تاريخية معينة . وعادة ما تكون هذه العلاقات التى تشكل حركة المجتمع محكومة بعوامل عديدة متشابكة متداخلة منها ما هو سياسى ، ومنها ما هو اقتصادى ، ومنها ما هو فكرى ، أو نفسى أو عاطفى . ولا شك فى أن لكل مجتمع نظاما من القيم والمثل والاخلاقيات والمواقف الوجدانية تحكم حركته العامة ، وهذه كلها أمور لا يمكن للمؤرخ أن يقتفى أثرها فى المصادر التاريخية التقليدية .

ومن ناحية أخرى ، فان من المسلم به أن أية ظاهرة تاريخية نتاج للتفاعل بين الانسان وبيئته فى اطار الزمان • والظاهرة التاريخية الاجتماعية مصاحبة لافعال جزئية عديدة للافراد الذين تتكون منهم طبقة اجتماعية ما ، أو مجتمع بأسره . ولا يمكن فهم أية ظاهرة تاريخية اجتماعية دون التعرف على الايديولوجية التى تحرك المجتمع أو الطبقة فى اطارها . واذا اخذنا بالرأى القائل بأن الايديولوجية هى النظرة الكونية الشاملة ؛ أى مجمل الافكار التى تحرك مجتمعا ما أو تكون أساسا لوجوده وحركته ، لكان حتما علينا أن نبحث عن مصادر اضافية لدراسة التاريخ الاجتماعى . ذلك أن الايديولوجية لا تشمل الافكار العامة والنظريات فقط ولكنها تشمل أيضا كل انساق القيم والمعتقدات .

كذلك ينبغى أن نلاحظ أن الظاهرة التاريخية ، سواء كانت اجتماعية أو غير ذلك ، لا تصلنا كاملة عبر شهادات المؤرخين والوثائق والتسجيلات التاريخية . فالمؤرخون وكتاب الوثائق يسجلون لنا جوانب جزئية من الظاهرة التاريخية يعتقدون أنها الجوانب الهامة أو الاكثر أهمية ، ويغضون النظر عن الجوانب الاخرى باعتبارها غير هامة . هذا الجانب المهمل من الظاهرة التاريخية ـ أو السكوت عنه ـ هو الذى ينبغى أن يشد انتباه المؤرخين العاملين فى مجال التاريخ الاجتماعى .

فالآثار والنتائج الناجمة عن أية ظاهرة تاريخية تتخذ شكل تيار اجتماعى/ ثقافى غير مباشر ، ولكنه مستمر بين الاجيال بشكل تلقائى . وسرعان ما يجد هذا التيار الاجتماعى/الثقافى لنفسه التعبير فى فنون وآداب المجتمع التى درج الباحثون على تسميتها بالفنون والآداب الشعبية . وبعض هذه الفنون ينتسب الى فنون الشكل مثل التصوير والزخرفة والرسم وصناعة الحلى والسجاد ... وما الى ذلك ، وبعضها الآخر ينتسب الى فنون القول . والفنون الشعبية القولية ، أو الادب الشعبى غالبا ما يتخذ لنفسه قالب المأثورات الشفاهية مثل السير ، والنوادر ، والامثال ، والقصص التاريخية الشعرية ، فضلا عن الزجل والبلاليق .

وما زال الجدل يدور حتى اليوم حول مدى صدارة هذه المأثورات الشفاهية بأن تكون مصدرا للمؤرخ بسبب المشكلات المنهجية التى تثيرها . ويرى البعض أن اكتشاف النص الاصلى القديم الذى تفرعت عنه مثل هذه المأثورات ضرورى لكى نتبين مقدار الحقيقة التاريخية فيها بحيث يمكن تقييم أهميتها أو تقدير قيمتها (1) . بيد أن أصحاب هذا الرأى يبحثون فى مدى صدارة مثل هذه المأثورات بأن تكون مصدرا للمؤرخ « باعتبارها تقريرا صادقا عن الاحداث » ، وهو أمر لا يمكن لمن يدرس التاريخ الاجتماعى أن يعول عليه فى دراسة مثل هذه المأثورات الشفاهية ومنها السيرة الشعبية بطبيعة الحال .

والسيرة الشعبية تدور عادة حول بطل تاريخى حقيقى ، وأحداث تاريخية حقيقية . ولكن السيرة ـ مثل غيرها من المأثورات الشفاهية ـ مجهولة المصدر دائما . ويتم تناقلها على ألسنة الرواة الذين يضيفون اليها ويقولون فى أحداثها ، وبناء شخصياتها بحيث تلبى حاجة السامعين الثقافية/الاجتماعية . ومن ثم ، فان من يدرس هذه السيرة ينبغى أن يدرسها فى ضوء فهمه لعلاقتها بالبيئة الاجتماعية . ولا يمكن أن نقيم السيرة على نحو صحيح دون معرفة الوظيفة الاجتماعية الثقافية التى تقوم بها .

واذا كانت السيرة الشعبية تدور حول بطل تاريخى حقيقى وتتناول أحداثا تاريخية حقيقية فان هذا لا يعنى أننا سوف نقرأ فيها تاريخا بالمعنى التقليدى ، أو أننا سنجد فيها صياغة للاحداث التاريخية ، ولكننا سوف نقرأ فيها « **صورة وجدانية وعاطفية مليئة بالدلالات الاجتماعية للعصر ـ أو العصور ـ التى تتحدث عنها** » ، فالسيرة ، مثل غيرها من فنون الادب الشعبى، لا تهتم برصد الاحداث والوقائع التاريخية،وانما ترصد لنا رأى الناس فى هذه الاحداث والشخصيات أيضا . وهذا النمط ينتج عن التفاعل بين الفن والتاريخ ؛ فالفنان الشعبى حين يختار التاريخ مجالا لعمله ، لا يهتم سوى بالاستجابات العقلية والعاطفية لجمهوره من الناس . ولذا فانه يضيف من خياله تفصيلات ووقائع ، ويعدل من الشخصيات والاحداث التاريخية ليلبى حاجة / اجتماعية ثقافية ، ونفسية للعامة أصحاب المصلحة فى الرواية ، بحيث يضمن استجابتهم العاطفية للسيرة التى يرويها لهم . كما أن الراوى يجعل روايته حبلى بالمفاهيم والمضامين الاجتماعية ، والمصطلحات التى تجعل لغة الرواية قريبة الى وجدان السامعين وعقولهم .

ومن ناحية أخرى ، كانت طبيعة النشر الثقافى فى زمن تداول مثل هذه السيرة الشعبية وراء عمليات الحذف والاضافة والتعديل المستمر فى مضمون السيرة حتى توافق هوى السامعين وتحوز رضاهم . فلم تكن الطباعة قد عرفت ، ولذا لم تكن السيرة تطبع فى آلاف النسخ لتوزع على القراء مثلما

(1) يان فانسينا ، المأثورات الشفاهية ، (ترجمة وتقديم د. أحمد مرسي ، دار الثقافة ـ القاهرة 1981م) ، ص 86 ـ ص 88 .

يحدث الآن ، وانما كانت السيرة ـ مثل غيرها من فنون الادب والعلـوم ـ محلا للتداول الشفوى على ألسنة الرواة . وكانت السيرة تلقى على الناس فى مجالس سمرهم فى حلقات يومية ، لما كانت وظيفتها الاجتماعية / الثقـافية شبيهة بوظيفة سلسلات الاذاعة المسموعة والمرئية فى زماننا . هذه الوظيفة الاجتماعية / الثقافية للسيرة الشعبية هى التى جعلت الرواة على مر الاجيال يحاولون صياغة النص بالشكل الذى يجذب السامعين اليه ؛ وهو ما يعنى أن الراوى كان يعيد انتاج السيرة فيضيف الى النص ويحذف منه ، ويحمله القيم والمضامين الاخلاقية ، والمثل والمـواقف الاجتماعية التى تستحـوذ على اهتمام السامعين . وبطبيعة الحال ، لا يمكن لجماهير العامة من بسطاء الناس أن يستمعوا ، أو يستمتعوا ، بشىء لا يمثلهم ولا يحمل بين طياته ما يعبر عن أمانيهم وأحلامهم وتطلعاتهم .

والسيرة الشعبية ، عموما تحمل ما يمكــن أن نسميــه التفسير النفسى والشعبى للحوادث التاريخية فى حقيقته تعويض نفسى يلجأ اليــه الفنـان الشعبى لكى يتجاوز الواقع بحدوده الزمانية والمكانية صوب اللامحدود زمانا ومكانا ليطرح للناس ما تحتاجه عقولهم وعواطفهم من تعويض . وهكذا يختار الفن الشعبى حادثا تاريخيا ، أو بطلا من أبطال التاريخ ، ويعيــد صيــاغته بشكل تعويضى . ولا يلبث الحدث التاريخى الحقيقى أن يتوارى خلف تراكمات الخيال التى تصنع متنفسا حقيقيا للمشاعـر الشعبية الحقيقية من ناحيــة ، ولتبديد مشاعر الاحباط والحيرة فى أوقات الازمات من ناحية أخرى .

وعلى الرغم من أن البشرية قطعت شوطا كبيرا صوب العقلانية سعيا وراء التخلص من السلوك العاطفى والانفعالى ، فان الاسطورة والخيال ما تزال تحكم تصرفات قطاعات كبيرة من البشر . وعلى الرغم من أن التاريخ قطع رحلة طويلة فى رحاب الزمان لكى يتخلص من شوائب التحيز والاسطـورة ، فان المأثورات الشفاهية للشعوب ـ ومنها السيرة الشعبية بطبيعة الحال ـ احتفظت بقيمتها باعتبارها موروثا شعبيا يغفله الخيال ويدور حول موروث واقعى هو الحوادث التاريخية المجردة . ولذا ، يمكن القول بأن من يقرأ السيرة الشعبية باعتبارها تاريخا سيجدها حافلة بالخيال ، ومن يقرؤهـا باعتبارهـا خيـالا سيجدها حافلة بالمضامين التاريخية ذات القيمة الكبيرة فى مجال التـاريخ الاجتماعى خاصة . واذا كان التاريخ يحمل لنا الواقع ـ أو جـزءا من هـذا الواقع ـ فان السيرة الشعبية تحمل لنا جانبا غير ملموس ، أو غير مادى ، من هذا الواقع نفسه ؛ أعنى الجانب الذى ينبىء عـن الانفعـالات النفسيـة ويشى بالامانى العاطفية والقيم المجتمعية ازاء حدث مـا ، أو شخصية مـا ، أفرزها التاريخ على أرض الواقع .

ولان التاريخ تصنعه الشعوب ويسرقه الحكام ؛ فان الشعوب تعيد صياغة هذا التاريخ من خلال مأثوراتها الشفاهية ومنها السيرة الشعبية . وهنا نجد

الخيال الشعبى يختار الابطال من عامة الناس ، أو من شخصيات تاريخية ، يعيده تصويرها بالشكل الذى يعبر عن رأى الناس فى الحوادث والاشخاص من ناحية ، وبحيث يعبر عن رؤيتهم للتاريخ وعن دورهم الذى أغفله التاريخ الرسمى من ناحية أخرى . ومن المعروف أن عامة الناس يميلون الى معرفة تاريخهم ، ويزداد اقبالهم عليه كلما ارتدى صوب الرواية والقصة والسيرة . ولان المجتمع الانسانى يحتاج الى معرفة تاريخه لكى يظل على اتصال دائم بالماضى ، ولكى يفهم الحاضر ويستشرف آفاق المستقبل ، فانه يختار أقرب الطرق وأيسر الوسائل لتحقيق هذه المعرفة التاريخية ؛ أعنى النقل الشفوى. اذ تتسرب المعرفة التاريخية ـ بخطوطها العامة العريضة ـ بين جماهير الناس وعامتهم من خلال التناقل الشفوى التلقائى بين الاجيال . ذلك أن المعرفة التاريخية للمجتمع ليست رهينة بقراءة كتب المؤرخين ، أو الانتظام فى فصول الدراسة ، وانما تتأتى بانتقال الاخبار التاريخية شفاها من جيل الى جيل يليه ممزوجة بكثير من القصص والخيال . ومن حوادث التاريخ التى يتداولها العامة يختارون حدثا تاريخيا ، أو بطلا ، يكون محورا لموضوع سيرة شعبية يتداولها الرواة والناس .

ولا يمكن للسيرة الشعبية ، التى تخاطب الوجدان الشعبى فى مجتمع ما ، أن تستخدم لغة لا يفهمها هذا المجتمع . كما أن المصطلحات التى تستخدمها السيرة ينبغى أن تكون مفهومة لدى جماهير الناس أصحاب المصلحة فى هذه السيرة . ومن ناحية أخرى فان الصور الاجتماعية ، والوسط الذى يتحرك فيه أبطال السيرة الشعبية ، والقيم والعادات والتقاليد التى تحكم سلوك أبطال السيرة يجب أن تكون مألوفة لدى جماهير السامعين . فالحرف والصنائع ، وأنواع الطعام ، والنقود والاوزان والمكاييل ، وطرز الملابس وأنواع الحلوى ، والالقاب والرتب التى يحملها الحكام وموظفو الدولة ـ كلها يجب أن تكون معروفة للسامعين حتى لا تتوه دلالاتها . ومن ثم ، يلجأ الراوى الى ادخال كل هذه الامور فى سياق حكايته ، الى جانب الاشعار والامثال والنوادر المتداولة لكى يخلق السياق المناسب اجتماعيا لروايته . وهذا هو ما ينبغى لمن يدرس التاريخ الاجتماعى أن يبحث عنه .

* * *

والمثال الجيد على ما ذهبنا اليه يتمثل فى سيرة الظاهر بيبرس . وهى سيرة تدور حول شخصية تاريخية حقيقية اتسمت بصفات البطولة الفذة وهو السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس الصالحى النجمى الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك التى ظلت قائمة طوال فترة تزيد على قرنين ونصف من الزمان . وقد كان نصيب الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى من كتابات المؤرخين الرسميين كبيرا ، فقد كان بيبرس شخصية ملء القلب والعين على مسرح تاريخ المنطقة ، فكتب سيرته القاضى

محيى الدين بن عبد الظاهر (620 ـ 692 هـ. / 1223 ـ 1292 م.) وأسماها «الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهرة» ، كما أن عز الدين بن شداد كتب له سيرة أخرى أسماها « تاريخ الملك الظاهر » . وكتب شافع بن علي مختصرا للسيرة التى كتبها ابن عبد الظاهر جعل عنوانها « حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية » (2) كما أن المصادر التاريخية الاخرى أفردت صفحات طويلة للحديث عن بيبرس وعصره .

بازاء هذه السير التاريخية الرسمية صاغ الخيال الشعبى سيرة للسلطان الظاهر بيبرس بعنوان « سيرة الظاهر بيبرس : تاريخ الملك العادل صاحب الفتوحات المشهورة » . والنص الذى وصلنا لهذه السيرة عبارة عن تدوين لرواية شفوية حافلة بالشعر المرتجل والكلمات العامية ، وتقع فى خمسين جزءا تضمها خمسة مجلدات متوسط عدد صفحات كل منها ستمائة صفحة (3) . وهناك مختصر فى مجلد واحد للسيرة (4) غير أن قيمته فى هذه الدراسة ليست كبيرة لخلوه تماما من الاشعار والحكايات الفرعية التى تحمل كثيرا من الدلالات والمضامين التاريخية الاجتماعية .

وتحمل السيرة اشارات فى بدايتها ، وفى ثناياها ، الى عدد من المؤلفين تنسب اليهم تأليفها ، فقد ورد بها ما نصه « تأليف السادات الكرام المشهورين بالعلم وعلو المقام نبراس الافهام الدينارى ، ووافقه على ذلك الدوادارى ، وهما بذلك أعظم دارى . ثم ناظر الجيش وكاتم السر والصاحب . فكل من هؤلاء له بحر فيها ، وما يخصها من معانيها ومبانيها ، وما أرضوه وما شاهدوه وما نقلوه عن السادة من اخوانهم الذين يعتمدون من كلام الصدق عليهم ، وما عاينوه من كرامات الاولياء ومعجزات الانبياء ... » (5) .

والواقع أن لدينا اثنين من مؤرخى عصر سلاطين المماليك ، يمكن أن يطلق على كل منهما لقب الدويدارى : الاول هو الامير ركن الدين بيبرس الدوادار الناصرى المنصورى (ت 725 هـ. / 1325 م.)(6) وهو رجل مشارك فى صنع التاريخ العسكرى والسياسى فى الفترة الاولى من عصر سلاطين المماليك ، وله كتابان هامان أحدهما « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » (7) وهو تاريخ

---

(1) محي الدين بن عبد الظاهر ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر) ص 5 — ص 7 .

(3) طبعة عبد الحميد أحمد حنفي ، بشارع المشهد الحسيني (بدون تاريخ) .

(4) طبعة المكتبة الثقافية — بيروت (بدون تاريخ) .

(5) سيرة الظاهر بيبرس ، المجلد الأول ، ص 2 . وستكون اشاراتنا جميعا الى طبعة القاهرة من هذه الدراسة .

(6) لمزيد من المعلومات عنه انظر : قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية للتاريخ (دار المعارف 1982 م) ، ص 111 — 128 .

(7) لا يوجد منه الا الجزء التاسع مخطوطا تحت رقم 24028 بجامعة القاهرة . وقد حققته الدكتورة زبيدة عطا في أطروحتها لدرجة الدكتوراه ولكنه لم ينشر .

عام للاسلام ينتهى بسنة 724 هجرية . أما كتابه الثانى فهو « التحفة الملوكية فى الدولة التركية » (8) وهو كتاب خاص بدولة سلاطين المماليك فى مصر والشام بشجرة الدر ، باعتبارها أول سلاطين المماليك، وينتهى عند سنة 711 هجرية . والمؤرخ الثانى هو « أبو بكر بن عبد الله بن ايبك الدوادارى » صاحب كتاب «كنز الدرر وجامع الغرر»، وقد أورد أخبار السلطان الظاهر بيبرس فى الجزء الثامن من هذا الكتاب والمسمى « الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية » (تحقيق ونشر أولرخ هارمان ـ القاهرة 1391 هـ. / 1971 م.) .

ولسنا نعتقد أن الراوى ـ فى الشكل الاخير الذى وصلتنا به السيرة ـ قد التزم حقا بالاعتماد على مثل هذين المؤرخين . ذلك أن السيرة فى شكلها الاخير صارت تتكون من عدة طبقات تحمل كل منها ملامح فترة تاريخية معينة مثل الطبقات الجيولوجية ، فقد توارى الاصل التاريخى الحقيقى للسيرة خلف تراكمات الخيال بحيث صارت مثل البصلة التى تتألف من عدة طبقات حول الاصل ، والتى تشير الى مراحل تاريخية مختلفة منذ عصر سلاطين المماليك حتى العصر العثمانى المتأخر . وفى تصورنا أن النص الاصلى لسيرة الظاهر بيبرس قد اعتمد على نص تاريخى ما فى بداية الامر. ولما كانت وسيلة النشر الثقافى آنذاك هى الحفظ والرواية الشفوية ، فقد كانت كافة كتب العلوم والادب تخضع لذلك التداول الشفوى فى غالب الاحوال . اذ لم يكن ممكنا توفير العدد المناسب من النسخ نظرا لارتفاع تكاليف النسخ اليدوى وصعوبته . بيد أن هذا التداول الشفوى فى مجال الدراسة والعلم كان يخضع لمقاييس صارمة بحيث تضمن عدم التزييف أو التشويه فى النص الاصلى . أما اذا انتقلت رواية النص الى جمهور العامة فان النص الاصلى سرعان ما يتوارى خلف تراكمات الخيال التى يضيفها الراوى لضمان استجابة السامعين . وهذا فى تصورنا ما حدث بالنسبة لسيرة الظاهر بيبرس .

فعلى الرغم من الاشارات الكثيرة الى المصدر (9) ، وعلى الرغم من أن الراوى يحاول أحيانا الايحاء بأنه يتحدث عن أمور وقعت بالفعل فيستخدم بعض التواريخ فى غير موضعها (10) ، فاننا لا ينبغى أن ننظر الى هذا الامر من منطلق البحث التاريخى الصارم ، فلا عبرة هنا بالتواريخ والاشارات الى المصدر لان الراوى يقصد بها احداث التأثير لدى السامعين .

ومن ناحية أخرى ، فان السيرة تستخدم أسماء حقيقية لاشخاص تاريخيين حقيقيين فى كثير من الاحيان ، ولكنها تعيد صياغتهم بحيث يلقون القبول

(8) مخطوط مصور بجامعة القاهرة تحت رقم 24029 .

(9) السيرة : جـ 1 ، ص 3 ، ص 8 ، ص 12 ، ص 68 ، ص 156 ، ص 169 ، ص 174 ، ص 175 ، ص 248 ، ص 253 ، ص 313 ، ص 330 ، ص 341 .

(10) نفسه ، جـ 1 ، ص 545 ، حيث يتحدث عن بناء الظاهر بيبرس لقنطرة فيما بين سنتي 603 و 604 هجرية . ومن المعلوم ان دولة سلاطين المماليك نفسها قامت في منتصف القرن السابع الهجري وبدأ حكم الظاهر بيبرس سنة 658 هجرية .

الشعبى بغض النظر عن الحقائق التاريخية . بل ان التعديل يمتد الى الحوادث التاريخية نفسها فتعيد السيرة نسيجها بحيث تخدم السياق العام للسيرة من ناحية ، وتوظفها فى خدمة هدف السيرة وبطلها من ناحية الاخرى . اذ تحدثنا السيرة عن صلاح الدين الايوبى وعن السلطان العادل والكامل ، كما تحدثنا عن شجر الدر ، وعز الدين ايبك وقلاوون وعن المغول وهلاون • وتحدثنا عن الصالح نجم الدين أيوب ... وغيرهم . ولكنها تعيد صياغتهم بالشكل الذى يكشف عن رؤية الناس لهم ، أو النموذج الذى يجد رأى الناس فيهم . فالسيرة تجعل حكم صلاح الدين لمصر خطأ غير مقصود من الخليفة العباسى . تقول السيرة : « ... وان السبب فى مجىء هؤلاء الاكراد الايوبية سبب عجيب وحال غريب ...(فقد نزل بأرضهم سيل وثلوج) ... فقتل مزارعها وأخربت الارض ، وقد أعياهم الامر وأيقنوا الجميع بشرب كأس المهالك ، فذهبوا الى كبيرهم ، وكان يقال له صلاح الدين الكردى ... » فأمرهم بالسير الى أمير المؤمنين لعله يعطيهم أرضا خصبة يقيمون بها . وكانوا سبعين ألفا ، وقابلهم أحد الصوفية الزهاد فى الطريق فطلب منهم ترك السيوف والدروع والحديد ، وتقلدوا سيوفا خشبية وتروسا من خشب الجميز ، وبها هزموا المغول وانقذوا الخليفة العباسى من أسرهم ، فمنح صلاح الدين حكم مصر مكافأة له ، على الرغم من أنه كان قد أعطى حكم مصر لشجر الدر التى تجعلها ابنة الخليفة العباسى (11) .

وفى هذا الجزء التمهيدى من السيرة نجد الاشخاص والاحداث تصاغ بشكل تعويضى ، اذ ينتقم الخيال الشعبى من المغول بأن يجعلهم يلقون الهزيمة تلو الهزيمة من المسلمين وصياغة الشخصيات التاريخية والاحداث لخدمة الغرض الفنى للسيرة متكرر فى جميع أجزائها ومع جميع شخصياتها ، بما فى ذلك الظاهر بيبرس نفسه . والدلالات الاجتماعية لهذ الصياغات تساعد المؤرخ على اكتشاف حقيقة المشاعر الشعبية تجاه شخصية ما ، أو حدث ما فى التاريخ . فالصالح نجم الدين أيوب هو الوحيد الذى جعلته السيرة محبوبا لدى المصريين ، واختارت له دور من يرعى بيبرس حتى يتولى العرض وكان النموذج الذى ارتضته السيرة له «الصالح نجم الدين أيوب ولى الله المجذوب» وكان « ... قد زهد فى الدنيا ، ورغب فى الآخرة ، وقرأ القرآن ، وعرف ما فيه من البيان وعرف الحلال من الحرام ، فعبد الملك العلام ، وصار من عباد الله الصالحين ، وهو من صغر سنه على الفلاح واليقين ، ولا يجالس أهل الدولة ولا يحضرهم فى حكومة ، فسموه الاكراد الصالح نجم الدين أيوب ولى الله المجذوب ... » ولما تولى السلطنة اشترط على نفسه أن لا يأكل من السلطنة ، ولا يأخذ شيئا من أموال المملكة ، ولا يأكل الا من كسب يديه (12) .

(11) السيرة ، جـ 1 ، ص 9 / ص 11 ، ص 13 — 17 .
(12) السيرة ، جـ 1 ، ص 29 .

ويكشف هذا النص عن موقف الناس من الحكام فى ذلك الزمان ، ورؤيتهم لاموال الدولة التى تجبيها من الناس على شكل ضرائب ، ولعل من الامور اللافتة للنظر فى هذا المقام أن المؤرخين المعاصرين نقلوا لنا فى كتبهم أن الناس كانوا يطلقون على الضرائب فى عصر سلاطين المماليك « المظالم والمغارم والكسف » ، تعبيرا عن رأيهم فيها .

ولكن الدلالات الاجتماعية للشخصيات التاريخية فى سيرة الظاهر بيبرس تحتاج الى دراسة مستقلة ، ومن ثم فان هذه الدراسة تهتم بكيفية استخدام السيرة مصدرا للتاريخ الاجتماعى .

بداية ، لا يمكن لمؤرخ ان يزعم انه يفهم مجتمعا ما ، دون التعرف على وجدان وعواطف وأفكار ومواقف واتجاهات هذا المجتمع فى فترة تاريخية ما. وهذه كلها أمور يمكن رصدها من خلال دراسة النتاج الفنى للمجتمع فى تلك الفترة التاريخية . ومن المسلم به فى مناهج البحث التاريخى ، أن أفضل المصادر التاريخية هى التى لم تكتب بقصد أن تكون تاريخا . والفنون الشعبية عامة ، والسيرة من بينها ، فنون تلقائية تعبر عن مواقف واتجاهات ، كما تعبر عن الحالة النفسية والوجدانية للناس فى عصر من العصور . وسيرة الظاهر بيبرس تحمل لنا من الاشعار والنوادر والامثال والمواقف الفكرية ما يمكننا من رصد الكثير من جوانب الحياة الاجتماعية التى لا نجد لها صدى فى المصادر التاريخية التقليدية .

فالسيرة تحتفى احتفاء بالغا بالصوفية ، بحيث تجعل للبطل علاقة وثيقة بكبار الصوفية .فعلاقته وطيدة بهم وكراماتهم متكررة فى ثنايا السيرة ، بالشكل الذى يكشف لنا عن أن الجو الثقافى السائد كان أريجه الخرافات والشعوذة فى تلك الفترة التى دونت فيها السيرة ، وهو أمر تؤكده المصادر التاريخية الاخرى .

كذلك تكشف سيرة الظاهر بيبرس عن موقف أهل المدن من الفلاحين (13) وعلاقة الحكام بالمحكومين ، وكيف أن الضرائب كانت تجبى منهم بالضرب والاهانة . كما تكشف عن بعض حرف التسلية فى الشوارع مثل المصارعة التى كان من يلعبون بها يرتدون الجلود وكان الناس يراهنون عليهم (14) وتتحدث أيضا عن بعض طوائف اللصوص والمفسدين وبنات الهوى الذين عرفهم المجتمع المصرى فى الفترة المملوكية والعثمانية من تاريخه ، فالنص

(13) السيرة ، جـ 1 ، ص 84 . يقول المماليك لأحد الناس « ... لأنك فلاح قليل الإنصاح » ، ولكنه أيد من يصيح بهم « ... لأي شيء تفعلوا به هذه الفعال ، أما تعلموا اننا كلنا عبيد الملك المتعال ولا فرق بين الملك والجندي ، والمغربي والكردي ، والبربري والهندي ، وكلنا خلقة ربي » ومن الواضح أن الراوي يحاول استرضاء جمهور السامعين .
(14) السيرة ، جـ 1 ، ص 111 ، ص 114 ، ص 206 .

يحدثنا عن أولئك « ... السراحين الذين يسرحون فى كار السرقة والمناسر والزغل والتعريض والبلطجية وأصاب المشارط ، ولعابين القمار وبياعين الخمر وبياعين الحشيش ، وأرباب الزور ودلالين الربى ... » وتبين أن لكل حرفة من هذه رئيسا . أما بنات الهوى فمنهن من يغوين الرجال ويستدرجنهم حيث يتم قتلهم فى بيوتهن ، ومنهن من تذهب الى بيوت الرجال ، ومنهن من تتمسحق فى الرجال فى الزحام لسرقة ما من جيوبهم (15) .

وتحدثنان سيرة الظاهر بيبرس عن الحرف والصناعات وأسماء الاسواق فى الفترة التاريخية التى كانت السيرة أثناءها محلا للتداول . اذ تقول السيرة ان الذين يعرفون البيوت من أرباب الحرف فى مصر أربعة : البقال والفران ومسحر رمضان ، والمنادى أيام النيل (16) ونعرف أن الفران كان يسرق من خبز الناس ، كما تحدثنا السيرة عن « دلالين الاسواق الذين يبيعون هدوم الناس بالدلالة » (17) كما نعرف أن هناك من أرباب الحرف الزياتين ، وخضارية يابس ، وخضارية أخضر ، وجزارين خشن وضأن ، وعلاف ، ومزين ، وقهوجى ، وفكهانى ، وسقا ، وزبال . كما نتعرف من خلال السيرة على العطارين والدخاخنية والنقلية والحلونية والفطاريرية . وكان لكل طائفة رئيس ، مثل شيخ الطباخين ، ولهم مكان يجتمعون فيه مثل قهوة الطباخين (18) .

أما الحرف الصناعية الاخرى فان السيرة تشير اليها أيضا ، ولا سيما البنائين والحجارين الذين يستخدمهم الظاهر بيبرس كثيرا فى بناياته ومشروعاته الخيرية (19) كما تكشف صفحات سيرة الظاهر بيبرس عن علاقة أهل الحرف وأصحاب الدكاكين بالحكام ، فعلى كل منهم أن يعلق قنديلا أمام دكانه ، وأن يهتم بتسوية الطريق أمام دكانه . فالوالى يحاسب أحد أصحاب الدكاكين لعدم تمهيد الطريق أمام دكانه « ... وكذلك تحت الدكان عالى ووسط الطريق واطى . فقال يا سيدى أما وسط الطريق فهو من مرور الحمير والجمال وعدم رصد الماء ... » والتزم صاحب الدكان بتسوية الارض (20) . وتكشف السيرة أيضا عن بعض وسائل الغش فالجزارون يغشون اللحم الضأن بلحم الماعز والبقرى بلحم الجمال ، كما أن تجار السمن يغشونه بالقرع

(15) نفسه ، جـ 1 ، ص 403 / 407 .

(16) السيرة ، جـ 1 ، ص 230 . وتكشف عن أن النساء كن يذهبن للافران بالعجين لخبزه .

(17) نفسه ، ص 232 .

(18) نفسه : جـ 1 ، ص 377 — ص 378 . والجدير بالذكر أنه كان للطباخين في عصر سلاطين المماليك مكان يعرف باسم مصطبة الطباخين (ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، جـ 4 ، ص 13 .) .

(19) نفسه ، جـ 1 ، ص 534 .

(20) نفسه ، جـ 1 ، ص 390 .

العسلى (21) على أن أهم ما تكشف عنـه السيرة فى عـلاقة أهـل الحـرف والصناعات بالحكام ما يرد على لسان أحد أشخاصها « اعلم أن أهل مصـر لا يخافون الا من الحاكم الشاطر ، وأما اذا كان بطال فانهم يستهزئون به » (22).

ولكن أكثر ما يلفت الانتباه فى صفحات سيرة الظاهر بيبرس هو ذلـك الموقف العدوانى والمعادى للقضاة ، فالرواى يسخر منهم سخـرية عنيفـة ، ويجعلهم فى صورة مهينة • والسيرة تجعل القاضى شخصية ضعيفة مهزوزة دساس يخاف دائما من عتمان الذى يجد شخصية : ابن البلد ، بل ان السيرة تجعله نصرانيا يتخفى وراء الاسلام (23) كما تعطينا السيرة فكرة واضحة عن فساد العربان واخلالهم بالامن ومحاربة المماليك لهم (24) . وتكشف عن بعض المفاهيم الاجتماعية المتعلقة بالاقليات الدينية فى كثير من صفحاتها .

وسيرة الظـاهر بيبـرس حـافلة بالاشـارات التى لا تحصى عن العادات والتقاليد والمفاهيم والمواقف الاجتماعية السائدة فى المجتمع المصرى طـوال تلك الحقبة من تاريخه . وفى تقديرى أنه لا غنى للباحث فى ميدان التاريخ الاجتماعى عن الاستعانة بالتراث الشعبى عامة ، والسيرة الشعبية جـزء من هذا التراث بطبيعة الحال . اذ أن الفن الذى ينتجه الشعب فى حقبة تاريخية بعينها مصدر هام من مصادر المعرفة التاريخية ، لا سيما فى مجال التاريـخ الاجتماعى . والتطور الذى ألم بعلم التاريخ ، بحيث بدأ يدرس صناع التاريخ الحقيقيين ، هو الذى يجعل للفنون الشعبية قيمة كبيرة للمؤرخ باعتباره احد مصادره • فالفن يمكن روح العصر ويساعد المؤرخ على اعادة تركيب صـورة الماضى • اذ أن الفن يساعد المؤرخ على فهم انسان العصر الـذى يـدرسـه ؛ بآماله وهمومه ، برفعته وضعتـه ، بنجاحاتـه واخفاقاتـه ، بقيمـه ومثلـه واخلاقياته ... وهذه كلها لا نجد لها أثرا نهتدى به فى المصادر التـاريخية التقليـدية .

د. قاسم عبده قاسم

---

(21) نفسـه ، جـ 1 ، ص 291 .

(22) السيرة ، جـ 1 ، ص 394 .

(23) نفسـه ، جـ 1 ، ص 274 — 343 . ومن المهم ان نشير الى ان موقف الشك من المسالمـة كان موقفا عاما للناس في عصر سلاطين المماليك ، انظر قاسم عبده قاسـم ، أهل الذمـة في مصر العصور الوسطى (دار المعـارف 1977) ، ص 171 — ص 179 .

(24) نفسـه ، جـ 1 ص 281 — ص 307 .



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نظرة حول بعض الحرفيين والمهنيين الاندلسيين والاتراك بالايالة التونسية اثناء القرن التاسع عشر من خلال خزينة الوثائق التونسية

د. عبد الحكيم القفصي

لا شك أن قدوم الأتراك العثمانيين الى تونس بداية من سنة 1574 والجالية الأندلسية الأخيرة التي عرفت بالمورسكيين بداية من سنة 1600 أثرت تأثيرا بليغا في المجتمع التونسي ، وقد برز ذلك في العمارة ، والفلاحة والصناعة ، والعادات ، والتقاليد . وفضلا عن ذلك فإن المجتمع التونسي مازال يحتفظ بالعديد من اسماء العائلات التي تذكرنا بأصلها الأندلسي أو التركي . ومن المعلوم انه خلال شهر أوت 1830 ابرمت معاهدة بين تونس وفرنسا تنص على الغاء القرصنة وبيع العبيد وتمكين التجار الفرنسيين من امتيازات بالبلاد مما ادى الى خنق الصناعات التونسية واستحواذ التجار الأجانب على السوق التونسية . وهذا يعني ان المهن والحرف التي سوف نتعرض اليها كانت تعيش ازمة حادة .

غير ان هذه الأزمة سوف لن نتعرض اليها وانما سوف نقوم بعرض بعض الملامح المتعلقة برجال المهن والحرف من الأصل الأندلسي او التركي وذلك بالاعتماد أولا على ما ورد في الوثائق ، وفي بعض الأحيان ما جاء في التراث (1) او المصادر التاريخية كالمؤنس ، والحلل السندسية ، والكتاب الباشي ، واتحاف اهل الزمان ، وفي بعض الأحيان بالاعتماد على التراكيب والأشكال لأسماء العائلات ، أو على التحقيقات الميدانية ، أو على كل ما هو متعارف لدى العديد من الناس .

ان الغاية من هذا المقال ليست ــ طبعا ــ الاستيعاب والشمول ، وانما سنقتصر على عرض بعض النتائج الاولية التي يمكن لها ان تساعدنا على فهم بعض الجوانب التي مازالت غامضة ــ حسب علمنا ــ من الحياة الاقتصادية والاجتماعية للايالة التونسية خلال هذه الفترة ، خصوصا

---

(1) مقالنا : «بعض شواهد قبور أندلسية،» في المؤتمر العاشر للاثار . الجزائر (تحت الطبع) .

وانا لم نطلع الا على عدد ضئيل من الرصيد المحفوظ في ارشيف الدولة التونسية (2) .

والملاحظ انه تمت دراسة العديد من هذه الجوانب خلال القرون الممتدة بين قدوم الأتراك العثمانيين وانتصاب الحماية الفرنسية بتونس سنة 1881. غير أن الأمور المتعلقة برجال المهن والحرف حسب علمنا — لم يقع التعرض اليها بإطناب او عولجت من زوايا مختلفة واعتمادا على مصادر اخرى (3) . ونحن نعتقد ان هذه الجوانب في حاجة الى دراسة شاملة تستوعب كل النصوص والمصادر والتحقيق الميداني وذلك في مختلف مناطق البلاد . وبحثنا هذا يهدف اذن الى عرض بعض المعطيات الجديدة التي استمدت من وثائق أرسيف الدولة التونسية . وقد أردنا القيام بدراسة تعتمد اساسا على الاحصائيات والنسب المائوية ، الا أننا لم نستطع ، نظرا لطبيعة المصادر ، وكذلك لعدم تمكننا من الاطلاع على الوثائق التي لها صلة مباشرة بالموضوع . وريثما يتم ذلك فإننا سنقوم بدراسة بعض الحرف والمهن .

البناؤون :

يظهر من الوثائق التي اطلعنا عليها ان الأندلسيين اختصوا بعملية البناء والعمارة . وكادت ان تكون هذه الحرفة حكرا عليهم . ودراسة الدفتر عدد 2225 الخاص بخزينة قصر المحمدية تبين بوضوح هذا الرأي

(2) تصفحنا الدفاتر التالية 97. 1253. 1869. 2126. 2166. 2212. 2213. 2214. 2215
(1) (2) (3). 2140. 2213. 2216" 2217. 2218. 2219. 2220. 2221. 2222. 2223. 2224.
5222. 2226. 2227. 2228. 2229. 2231. 2233. 2233 2235. 2236. 2237. 2238.
2239. 2240. 2241، 2242. 2243. 2244. 2245 2246. 2248. 2249. 2249 مكرر.
2281. 2282. 2283. 2284. 2285. 2290. 2292. 2294. 2303. 2304. 2306. 2307.
2308. 2310. 2313. 2314. 2315. 2316. 2399. 1401. 2407. 2492. 2493. 2494.
2495. 2496. 2497. 2498. 2499. 2500. 2501. 2502. 2502. 2701. 2713. 3138.
3146. 3965.
والملفات 932 رزمة 174 .
1017. 1018. 1019. رزمة 183 .

(3) Chater, K. « Le fait andalou dans la Tunisie du XIXè siècle ». In *Actes du symposium International du C.I.E.M.*, Tunis, Institut Supérieur de Documentation, 1984, T 1, 165—170.
Ben Achour, M. A., Islam et contrôle social à Tunis, aux XVIII et XIX e siècles » In, *La ville arabe dans l'Islam, Tunis,* C.E.RE..S., Paris, C.N.R.S. 1982, 237—149.
زبيس ، القفصي ، بوغانمي ، ابالشا : بحوث عن الأندلسيين في تونس ، تونس المعهد القومي للاثار والفنون . مركز الدراسات الإسبانية الأندلسية 1983 . 280 + 180ص.

فقد كان علي البلانكو في سنة 1265 / 1848 أمنيا على هذه الحضيرة (4) . ويبدو انه عوض في السنة الموالية من طرف علي النيقرو الذي بقي بها الى سنة 1269 / 1852 حسب نفس الوثائق (5) . ويعمل بنفس الحضيرة ابنه حميدة كبناء مختص (6) وسليمان النيقرو (7) . وفضلا عن ذلك فقد كان الأسطى حميدة النيقرو ناظرا على بناء سبالة باب سعدون بالحاضرة سنة 1218 / 1803 (8) ، بينما كان مراد بولقباشي بن حمودة عرف ساقسلي الحنفي ، وكيلا على السبابل في نفس الفترة (9) . وقد كانت حضيرة قصر المحمدية تضم الى جانب البلانكو والنيقرو الأمينين الأندلسيين احمد ومحمود توسة (10) .

وبناء على ما تقدم فإن عائلة النيقرو تعد من أشهر العائلات الأندلسية التي برزت في هذا الميدان ، فمن المعلوم ان احد أفرادها قام بترميم جامع القصبة (11) ، وان سليمان النيقرو ترك لنا مخطوطا بعنوان «بلوغ المنى في قواعد الردم والبنا» الذي يحتوي حسب ما جاء في وثيقة خطية تسلمتها من استاذي الجليل سليمان مصطفى زبيس ، على المواضيع التالية : الأساس بناء الجدران المشتركة . بناء الحمامات ، بناء المساجد ، بناء الميضات ، بناء الكوش والمعاصر والأبراج والأسوار والقناطر والجسور والأقواس والأدماس والقباب والآبار والإسطبلات والقنوات والخنادق .

وبالرغم من المحاولات العديدة والتحقيقات التي قمت بها فإني لم اتمكن من العثور على هذا المخطوط . والملاحظ في هذا الشأن ان استاذي لم يتذكر مصدر هذه الوثيقة التي تعد حسب اعتقاده فريدة من نوعها في هذه الفترة . وبجانب هؤلاء فإن شورية وبولين كانا يعملان في حضيرة سراية باردو كمختصين ، في حين كان محمد بالي ناظرا عليها

---

(4) أ.د.ت. دفتر 2225 (1) ص 200
Note sur l'archéologie : source de l'histoire morisco-andalouse », in *Actes du IIsymposium International du C.I.E.M.* t.1, P 309.

(5) أ.د.ت. دفتر 2225 (3) ص394

(6) أ.د.ت. دفتر 2225 (2) ص136 152 153 184

(7) أ.د.ت. دفتر 2225 (3) ص 326

(8) أ.د.ت. دفتر 2308 ص61

(9) أ.د.ت. دفتر 2308 ص1 .

(10) أ.د.ت. دفتر 2225 (3) ص 394.

(12) ومحمد الغرناطي مشاكا بحضيرة المحمدية (13) ومحمد تيوا بناء ببنزرت (14) . وقد افادتنا الوثائق ، انه من بين تجار مواد البناء لاحظنا وجود محمد قرميط ومحمد بن محمد الأندلسيين (15) .

ثانيا العدول :

لاشك ان هذه الفئة لعبت دورا اجتماعيا كبيرا وكانت متواجدة بكثافة في معظم انحاء الإيالة التونسية . وقد مكنتنا المخطوطات التي اطلعنا عليها بقسم المخطوطات بدار الكتب الوطنية التونسية من ان نقف على بعض جوانب هذه الفئة (16) . وتعكس المقارنة بين مختلف المخطوطات ان العائلات الأندلسية التي اشتغلت بهذه المهنة عديدة وهي : واردة ليتو ، ماضور ، المنكبي ، الكشك الأندلسي ، بن حميدة الأندلسي ، بن محمد الأندلسي ، القرطبي ، زفزوف ، برتقيز ، عبد الواحد ، الدالي ، ابراهيم هويسة ، المالقي ، زيتون ، الكوندي ، كرباكة ، جهين ، الشنقيطي الهنديلي ، الريكلي ، مكلين ، حاميلو ، الشواشي ، اللونقو ، الوزير (17) . واما العائلات التركية فهي : بن الخوجة ، التريكي ، الأرنؤوط ، برناز ، القلمزتي ، بيرم ، بوغازلي ، الكشك ، غليونجي ، بن فرحات التركي ، درغوث ، قلايجيني ، بن محمد التريكي .

ويجب أن نلاحظ أن هذه القائمة غير كاملة لأن العديد من العائلات لم نتمكن من معرفة اصولها بصورة دقيقة . وعلى كل فإن القائمة تبين ان عدد العائلات الأندلسية يرتفع الى 26 بينما ينخفض الى 13 بالنسبة للعائلات التركية . ويتبين كذلك من الجدول المصاحب ان عدد العائلات الأندلسية يختلف بالبلاد التونسية . وسنة انتصاب الحماية الفرنسية بتونس بلغ التسعة بينما تقلص الى ثمانية بالنسبة للعائلات التركية . ويتبين كذلك من نفس الجدول ان القرى التي عرفت استيطانا مكثفا للأندلسيين لم تعرف عددا موازيا من العدول . من ذلك ان قرنبالية بها ثلاثة على سبعة ، في حين ان نيانو وبلي اللذين يعتبران من انشاء الجالية التونسية لا يضمان

(12) أ.د.ت. دفتر 2399 ص1 و 15.
(13) أ.د.ت. 2225 (2) ص 477 .
(14) أ.د.ت. دفتر 2494 ص19 و 25
(15) أ.د.ت. دفتر 2248 ص 20 .
(16) أ.د.ت. مخطوط عدد 3396ج1 و2 و3 .
(17) أ.د.ت. دفتر 2494 ص 3 و 19 و 63 .

اي اندلسي (18) بينما القيروان التي لم تكن قد استقر بها الأندلسيون وجدنا بها عدلا أندلسيا .

ويتبين بوضوح ان الصورة التي رسمها الباحثون حول الجالية الأندلسية عند قدومهم قد تغيرت وعرفت تطورات عميقة لايمكن دراستها الا من خلال بحوث جهوية .

جدول لعدد العدول بالجمهورية التونسية (1)

المدينة	الجلمة	عدد الأندلسيين	عدد الأتراك	الصفحة	الملاحظات
سليمان (1)	12	3		7	(1) القاضي محمد بن محمود
منزل بوزلفة	12			9	ماضور
تكلسة	2			9	
بني خلاد	6			9	
قرنباليا	7	(2)3		11	(2)محمد بن الحاج الأندلسي
نيانو . بلي	4				محمد بن محمد الأندلسي
الهوارية	9			11و19	بشير بن الطاهر الأندلسي
نابل	25	(3)2		13	(3) صادق بن أحمد
المعمورة	3			15	القسطلي . محمد بن حسن
بني خيار	10			15	القمطلي
الصمعة	3			»	
قربة وتزركة	7			»	
منزل تميم	22			17	
قليبية	10		(4)2	19	(4) محمد بن حسين التركي.
زاوية المعاوين	33			»	محمد الصادق بن علي قارة
زغوان	(5)13			29	(5) القاضي صادق كشوش
سبنجة	4			»	
جبل الأنصاريين	1			33	
أولاد عيار	41			35	
كسرى	9			37	
أولاد عون	24			»	
الكاف	31			42	
الدشرة	19			44	
بوغانم	24			»	
خمامسة	16			»	
تبرسق ودقة	25			50	
الكريب	8			52	
دريد	14			»	
سوسة	51		(6)1	54	(6) حسن بن علي التركي
مساكن	16			58	وكذلك بها يهودي
الوردانين	5			»	حيم بو الربي

(17) مكرر أ.د.ت. . دفتر رقم 3565 .

(18) Epalza, Petit, *Etudes sur les moriscos-andalous en Tunisie*, Madrid, Tunis, 1973

أكـودة	20				60	
الكـاحلين	11				62	
القصيبة والقلعة	15				64	
حمام سوسة	23				66	
هرقلة وجمال	30				68	
أولاد سعيد	6				72	
المنستير	40				74	
مكنين	17				76	
قصر هلال	12				78	
بو حجر	2				»	
صيادة	6				80	
لمطة	4				»	
قصيبة المديوني	3				»	
جمال والسواسي	28				84	
المهدية	18			1(1)	88	(1) محمد بن حسين خوجة
قصور الساف	13				90	
مشاليث	5				»	
القيروان	84		1(2)		98	(2) دهماني الحاج محمد
سبيبة	10				100	النيقرو
جلاص	17				102	
تالة	12				104	
أولاد بوسالم	40				106	
باجة	59				110	
مجاز الباب	24				116	
ماطر	31		1(3)		80	(3) محمد بن أحمد الأندلسي
بنزرت ومنزل عبد الرحمان	28			1(4)	»	(4)أحمد التركي
منزل جميل	1				»	
العالية	10		1(5)		»	(5) محمد بن عبد الرحمان
غار الملح	8		1(6)		25	الإمام (6) علي كريسو
راس الجبل	14		1(7)	3(8)	»	(7) عبد القادر بليشوك
رفراف	4				»	(8) محمد بن الخوجة .
الماتلين	3				»	أحمد بن الخوجة . محمد
عوسجة	3				»	كشك .
طبربة	9				»	
قلعة الأندلس	2				»	

ثالثا : الشواشية

من الصناعات المرتبطة بالوجود الأندلسي بالإيالة التونسية صناعة الشاشية التي لعبت دورا اساسيا في اقتصاد البلاد خلال قرون طويلة : وينبغي ان نلاحظ ان الصورة التي تركها الباحثون حول هذا الموضوع تنحصر في بعض الجوانب : كاستعمال الكلمات الإسبانية في هذه

الصناعة (19) او المنافسة الأوروبية التي تعرضت اليها (20) او المظاهر المعاصرة لها (21) أو المشاكل المتعلقة ببعض مراحل الصناعة في بداية هذا القرن (22) .

غير ان الوثائق التي تمكننا من الاطلاع عليها امدتنا بمعلومات جديدة كانت وراء دراسة جانب آخر للموضوع اذ هي تشير الى بعض الحرفيين القائمين عليها . ويتضح من هذه القائمة ان العنصر الأندلسي يسيطر تماما على هذه الصناعة باستثناء محمد الماطري ومصطفى الماطري ، فإن البقية متكونة من العنصر الأندلسي .

حوانت الشواشية بسوق الشواشية بتونس سنة 1140 / 1727 (دفتر 2249 مكرر ص .6 .7 .97) .

حانوت القسطلي
حانوت الحاج احمد ويشكة
حانوت الحاج محمد القسطلي
حانوت السيد القسطلي
حانوت محمد الاخوة
حانوت محمد النشار
حانوت محمود لورقة
حانوت لورقة
حانوت محمد الماطري
حانوت احمد المرطلي
حانوت الحاج احمد بالمة
حانوت الحاج عثمان كرضبة
حانوت مصطفى الماطري
حانوت غريب

---

(19) Teyssier, P. « Le vocabulaire d'origine espagnole dans l'industrie de la chéchia », in *Etudes*, p. 308.

(20) Valensi, «L'Islam et le capitalisme, production et commerce de la chechia en Tunisie et enFrance aux XVIII et XIXè siècles » in *Revue d'histoire moderne et contemporaine*, 17, 1969, 376—4000.

(21) Ferchiou, «, *Technique et société : la fabrication de la chéchia tunisienne*, Paris, Paris, 1971.

(22) مقالنا : «وثائق جديدة حول اقامة «باطان» جديد لغسل الشاشية» . في مجلة الفنون والتقاليد الشعبية . (تونس) 1984 ، 5 — 9 — .

حانوت محمد البنزرتي
حانوت علي الاخوة .
حانوت يوسف الاخوة
حانوت كوينة
حانوت الحاج محمد الاخوة.
حانوت محمد قلالو
حانوت محمد الشكيتو
حانوت أحمد شكلابو

وتضيف وثيقة أخرى بتاريخ 1170 / 1756 عددا آخر من الحوانيت في تصرف الأندلسيين الآتية اسماؤهم : الريكاخون ، الكاشو ، الدرافل كرباكة ، قادالو ، الإيريني ، ويشكة . اما العنصر الأندلسي فبحوزته حانوت واحد تحت تصرف عمر ساقسلي (23) . ويجب الملاحظة ان في هذه السنة كان الوكيل على اسواق الشواشية مصطفى بن الحاج حسين باكير الذي هو غير اندلسي .

وبالإضافة الى ما اشرنا اليه فإن الأندلسيين يتعاطون صناعة الشاشية في الجيش ومنهم القورصو والقرمطو (24) ، ويظهر كذلك من خلال وثيقة أخرى ان محمد الأندلسي القاطن بمجاز الباب التي تعد من المناطق التي هجر اليها الأندلسيون كان من بين الممولين للباي بالشواشي (25) ولكننا لم نتعرف على الطريقة التي كانت تمارس بها العملية خاصة اذا علمنا وان هذه القرية لا تلعب دورا في صناعة الشاشية .

ويمكن القول اذن بناء على ما تقدم بأن هذه الصناعة مازالت بأيدي الأندلسيين ، الا أنه يجب التأكيد ان ذلك بارز في مستوى المرحلة الأخيرة من الإنتاج لأن مرحلة غسل الصوف وغزله تتم في العادة خارج سوق الشواشية بالحاضرة اي بالبطان وزغوان . الا أننا لا نعلم اهمية الأندلسيين في هذين المرحلتين غير أن الجدول التالي يجعلنا نفكر بأن كل مراحل الصناعة يسيطر عليها الأندلسيون وهذا الجدول يبين ان في سنتي 1188 / 1774 و1268 / 1851 كان امين الشواشية اندلسيا .

---

(23) أ.د.ت. دفتر 97 ص203 و205 .
(24) أ.د.ت. ملف 932 رزمة 174 وثيقة 27 .
(25) أ.د.ت. دفتر 2126 ص 122 .

امين السراجين	محمد فرنسيس
أمين الشعارة	عمر الشباب
امين البرادعية	الحاج عمر ابن دلامين
امين الحلفاوين	حسونة حميد
امين حصر الحلفة	عثمان بن قمرة
امين الحبال	قاسم الصمعي
امين القلامين	الحاج محمد الفرجاني
أمين نجارة الجبوز	الحاج علي المليتي
امين الفخاخرية	محمد بن عبد القادر
امين حدادة باب سويقة	الحطاب
امين حدادة باب المنارة	الحاج خميس السينغ
امين الصفايحية	علي التركي
امين سوق الباب الجديد	الحاج حسن بوناب (26)
امين التوارزية	قزدغلي
امين الفخار المطلي	احمد الحجار
امين الفخار الشواط	محمد البابقي
امين القلالين	محمد البابقي
امين الترسخابة	محمد خوجة
امين الشواشية	محمد العروسي
امين السراجين	بكار الفياش (27)
امين الحجارة	محمد عنيبة (28)
امين الشواشية	الريكاخون
امين البناية	البلانكو (29)

يعكس هذا الجدول أن عدد الأمناء الأتراك العثمانيين يبلغ الثلاثة بينما انخفض الى الإثنين بالنسبة للأندلسيين من مجموع 24 .

رابعا العسكريون :

كان الحكم العثماني في البداية يعتمد اساسا على العنصر التركي العثماني الذي اسندت اليه المناصب المدنية وخاصة العسكرية . الا أنه

(26) المكتبة الوطنية التونسية مخطوط 21808 ، ص7 . 47 . 112 . 140 .
(27) أ.د.ت. : دفتر رقم 2126 ، ص139 .
(28) أ.د.ت. : دفتر رقم 2502 ، ص 120 .
(29) أ.د.ت. : دفتر رقم 507 : ص 143 .

بداية من حسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية شرع الباي ابتداء من سنة 1705 تقريبا يقلد هذه المناصب للعنصر الأهلي (30) والكرغلي . ونتيجة لذلك فإن المناصب العسكرية لم تبق حكرا على المذكورين الا أنها بقيت بأيديهم وتؤكد الوثائق هذه الحقيقة كما ان العنصر الأندلسي شغل مناصب ثانوية . فقد كان كريستو يعمل مختصا بترسخانة حلق الوادي واحمد كريستو مكلفا بصنع اسرة المدافع واما البقية (الوردي ، شلبطون ، الكانتي ماركو ، بيراوانة ، شكلابو ، الفورصو ، القرمطو ، استريكو ، بلانكو) فكانت غير مختصة . وبالمقارنة مع الأتراك العثمانيين فإن البون شاسع ومن ذلك ان محمد لاز التركي كلف بمرسى سوسة ، والحاج عبد الرحمان التركي بخزنة السلاح والمدافع ، والحاج احمد التريكي بأبراج بنزرت ، وقادري ابراهيم بأبراج الوطن القبلي ، ومحمد الأرنؤوط بخزينة السلاح بالقشلة الأحمدية .

ومن جهة اخرى فإن محمد قايجي شغل منصب معين الوزارات ومحمد اسطنبولي امين الصنايعية بترسخانة حلق الوادي ، ومحمد بن حسرة اسطنبولي امينا على اسلحة العساكر ، واحمد حسن التركي معين الوزير الأول (31) . وتبين مجموعة اخرى من الوثائق ان علي الزمرلي (32) كان من بين الضباط الذين سافروا الى اسطنبول سنة 1270 / 1853 مع أمير الأمراء الرشيد (33) .

ومن جهة أخرى يبرز لنا الدفتر عد 3138 المتعلق بإحصاء عسكر آلاي الثالث أن مجموع الأندلسيين العاملين به يبلغ الثلاثة (الملازم علي الترجمان (ص67) محمد شاتلو (ص60) السنجق دار صالح شلاقوا (ص 359) بينما يرتفع مجموع الأتراك الى الثمانية (القايم مقام محمد المورالي (ص1) حسين مميش التركي (ص5) حسن قبرصلي (19) وزنباشي حسن بيرم (ص57) بين باشي محمد بن عصمان (ص 129) الملازم مصطفى المورالي (ص 179) يوزباشي حسن التركي (222) واليوزباشي محمد بن محمود التركي (ص 346) .

---

(30) Cherif MH, *Pouvoir et société dans la Tunisie de Husayn Bin Ali* (1705-1740, Tunis Faculté des Sciences Humaines et Sociales, 1984, tI, 378p.

(30) راجع ايضا : رشاد الإمام ، سياسة حمودة باشا في تونس ، 1782 — 1814 . تونس ، الجامعة التونسية ، 1980 ، ص201 .

(31) أ.د.ت. : ملف 932 رزمة 174 الوثائق 29.27.26.25.16.10.9.6.2. .

(32) أ.د.ت. : ملفات : 1019.1018.101. رزمة 183 . ص52 .

(33) أ.د.ت. : احمد ابن أبي الضياف ، اتحاف ج 1166.8.ص149 .

ويتضح كذلك من دراسة عدد التلامذة المتخرجين من مدرسة باردو او مكتب الحرب سنة 1278 / 1861 ان العنصر الأندلسي غائب بينما تخرج الصادق بن خليل التركي ضابطا (34) عندما كان الصاغ قولاغاسي محمد خوجة التركي مكلفا بالمقبوض والمصروف بهذا المكتب (35) .

خامسا : ريـاس البحر

الى جانب هذه المهن والحرف تتضمن الوثائق بعض الإرشادات حول رياس البحر فالقائمة التي لدينا تبين ان العنصر التركي العثماني يشكل الأغلبية الساحقة . والعائلات التي احصيناها هي : كشك ، مدرلي ، المورالي قارة ، الأرنؤوط ، بيرق دار ، الزمرلي ، لازغلي ، قارة دنقزلي ، خوجة ، روديسلي ، اسطنبولي ، لاز ، قبرصلي (36) ويوجد رايس اندلسي واحد وهو مسعود ريان (37) . كما يتبين كذلك من هذه القائمة ان لعائلتي الأرنؤوط واسطنبولي عدة افراد في هذه المهنة .

سادسا : مهن وحرف أخرى

لا يندرج نشاط الأندلسيين والأتراك العثمانيين في هذه المهن والحرف فقط ، بل يتعداه الى امانة دار السكة وتولاها محمد القسطلي (38) وامانة الصياغة تحت تصرف احد افراد هذه العائلة (39) . اما بالنسبة للعنصر التركي العثماني فقد كان محمد الأرنؤوط وكيل القمرق بسوسة (40) بينما كانت وكالة أملاك الباي بزغوان احدى القرى الأندلسية الهامة يتقلدها احمد بن دالي الحنفي (41) وكان حسن التركي آغة بيت المال (42) . ومن جهة اخرى فقد كان اليهودي زاكي البلنسي يتعاطى الترازة (43) واما شكلابو فكان يشتغل بصناعة الحرير (44) .

---

(34) أ.د.ت. : دفتر 2407 ص 139 .
(35) أ.د.ت. : دفتر 2401 ص41 ودفتر 2407 ص 7 .
(36) أ.د.ت. : دفتر 2140 ص33 34 40 .
(37) أ.د.ت. دفتر 2166 ص17 .
(38) م انسي دلر السكة تونس كلية الآداب 1978 ص60 .
(39) تملك هذه العائلة كوشة للاسفنج خارج باب منارة . أ.د.ت. : دفتر 2306 ص23 .
(40) أ.د.ت. : دفتر 2126 ص228 .
(41) أ.د.ت. : دفتر 2502 ص17 .
(42) أ.د.ت. : دفتر 2306 ص48 .
(43) أ.د.ت. : دفتر 2294 ص13 .
(44) أ.د.ت. : ملف 932 رزمة 174 وثيقة 27 .

ويتبين لنا من هذه الأمثلة الدقيقة ان الأتراك العثمانيين مازالوا مرتبطين بالمهن القريبة من السلطة ، بينما بقي الأندلسيون متمسكين بالحرف التي اتقنوها كالبناء والشاشية . ومن المفيد ان نلاحظ ان عائلة القسطلي تعد من أكبر العائلات الأندلسية حيث لعبت دورا اساسيا في دار السكة قرابة القرنين ولم نجد نفس هذه الظاهرة عند عائلات اندلسية اخرى (45) .

بقي علينا الآن ان نبدي بعض الملاحظات لها مساس كبير بموضوعنا . فقد لاحظنا أن اماكن الشغل في فترة لم نتمكن من تحديدها بالضبط حيث تبنت اسماء لاتينية ونذكر على سبيل المثال فبريكة الملف وفبريكة الدبدابة ، وينطبق ذلك ايضا على العاملين بها كالماكينجي مثلا (46) ، وفي نفس هذا الإطار نلاحظ ان العديد من الحرفيين يحملون اسماء تركية كالسباولجي أو الطابعجي او الشرباجي (47) كما توجد اسماء تعتمد التركية والعربية كمعلم الموزكة والمكلف بالخزائن والترسنة والأبراج والبطرية والكرستة (48) .

وفي الأخير يجب ان نشير الى وجود اشياء تتعلق بالأندلسيين مثل عبارة النجار الأندلسي الذي يظهر انه ارقى من نجار الجبوز (49) فعلي الشومي ليس من اصل اندلسي ، الا أن الوثيقة تذكر انه نجار اندلسي (50) .

وقد استرعى انتباهنا وجود الزنابل الأندلسية كوحدة قياس ويمكن ان يكون الزنبيل الأندلسي مغايرا للزنبيل المتعارف عليه كما هو الشأن بالنسبة للذراع الأندلسي (52) .

الخاتمة

نقف من المعلومات التي توفرت لدينا من خلال هذا العرض السريع ان الأندلسيين اشتغلوا خاصة في البناء والشاشية ، كما وصل العديد

---

(45) رشاد الإمام «الأندلسيون في البلاد التونسية في منتصف القرن التاسع عشر من خلال خزينة الوثائق التونسية» في المجلة التاريخية المغربية ، 23 — 24 (1981) 293 — 318 .
(46) أ.د.ت. : دفتر 2246 ص 3 .
(47) أ.د.ت. : دفتر 2407 ص147 ودفتر 2308 ص4 .
(48) أ.د.ت. : دفتر 2213 ص42 ودفتر 2216 ص123 .
(49) أ.د.ت. : دفتر 2225 ص365 ودفتر 2239 ص 57 .
(50) أ.د.ت. : دفتر 2225 (4) ص210 .
(51) أ.د.ت. : دفتر 2216 ص29 .
(52) Legendre, M. *survivance des mesures traditionnelles en tunisie*, Paris, P(48) 1958, P 18 I.B.L.A.N °143 N°68

منهم الى درجة الأمين في حين كانت المهن او الحرف المتعلقة بالبحر او الجيش او الوظائف المرتبطة مباشرة بالسلطة من نصيب الأتراك العثمانيين غير انه لا يمكننا – اعتمادا على هذه الأمثلة القليلة – اعتبار النتائج التي توصلنا اليها نهائية نظرا الى ان الوثائق المستعملة قليلة ، وثانيا الى ان العديد من المهن والحرف المرتبطة بالفلاحة والتجارة والوظيفة لم نتعرض اليها بطبيعة الوثائق . ولا بد ان نشير كذلك الى ان هذه الوثائق مكنتنا من التعرف على بعض العائلات الأندلسية او التركية غير المعروفة – حسب علمنا طبعا – كعائلتي واردة ليتو وقلايجيني ، وزوال بعض الأسر الأخرى التي لعبت دورا أساسيا اثناء القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر (53) .

واعتقادنا انه بالإمكان دراسة التنظيم الداخلي لكل مهنة او حرفة (شروط الانتداب والارتقاء والدرجات ووسائل مراقبة الإنتاج والتصرف وقضايا كل حرفة) ، وهي التي تطلب المزيد من الفحص بالاعتماد على الوثائق المتعلقة بدار السكة ودار البار ودار الملف ودار الجلد والرابطة فقط بالحاضرة بل كذلك بجميع انحاء البلاد . ومن الممكن كذلك القيام – انطلاقا من هذا النوع – من الدراسات بوضع خريطة عمرانية يظهر فيها الحرفيون والمهنيون وترجمت عن مشاكل الاندماج والانفلاق لكل فئة من الفئات .

د. عبد الحكيم القفصي

المعهد القومي للفنون والاثار – تونس

---

(53) ابن غانم الأندلسي .

Latham, J.D. « Muçtafa de Cardenas » in *Les Africains,* VII, Paris, de jeune afrique, 201—229.
Epalza, M, Nouveaux documents sur les andalous en Tunisie, au début du XVIIIè siècle Revue d'histoire Maghrébine, 17, 1980, 79-108.
Daguerre Kargo Poulo


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



الفرمان السلطاني بتعيين ناظم باشا واليا على بغداد : دراسة وتحليل في ضوء وثيقة بريطانية

د. سامي عبد الحافظ القيسي
كليـة الآداب
جامعة البصـرة / قسم التاريخ

المقـــدمـة :

تشكل الوثيقة فى الدراسات الحـديثة مصـدرا أصيـلا لا يستغنى عنهـا الباحث ، لما تسلطه تلك الوثائق من معلومات قلما تتوفر فى المصادر المطبوعة الاخرى • وهذا الامر يرجع فى اعتقادى الى المركز الذى يتمتـع بـه مـؤلف الوثيقة ، سواء كان اداريا أو سياسيا ، مما يفسح له مجال الاطلاع على بعض الحيثيات والتفاصيل ، يعجز عنها غيره .

لذا فان هدف هذا البحث ما هو الا تسليط لبعض الاضـواء التى رافقت تعيين ناظم باشا واليا على بغداد عام ١٩١٠ ، اعتمادا على الترجمة الانكليـزية للنص التركى لوثيقة تتوفر مع غيرها من الوثائق فى مركز دراسات الخليـج العربى فى جامعة البصرة ، حيث توجد فى خزانة المركز مجموعات وثائقيـة مختلفة ، منها على سبيل المثال وثائق وزارة الهند التى احتـوت على تقاريـر للمقيم البريطانى فى العراق والتى اعتاد ان يرفعها الىحكومته يضمنها آراءه عن كثير من الامور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى العراق .

ففى تقرير رفعه لوريمر فى 6 حزيران ١٩١٠ ، أوضح فيه أن أهم مسـألة يمكن أن يسلط عليها الضوء وصول حسين ناظم باشا كحاكم عام لولاية بغداد وقائدا للفيلق السادس (١) :

لمـاذا ناظـم باشـا ؟؟

فى رأى بعض الكتاب المعاصرين ان ناظم باشا الذى حكم ولاية بغداد عام ١٩١٠ قد استطاع بما كان يملكه من صلاحيات واسعة وبما كان يتمتع به من مؤهلات شخصية ان يسيطر على بغداد ويعيد الامن النسبى الى ربوعها بعد أن حرمت منه ردحا من الزمن (٢) .

---

(1) India Office Library and Records, Report written by J. G. Lorimer, Political Resident and Consul-Général, Baghdad, 6th June 1910, L/P. S/10/188, p. 252.

(2) انظر على سبيل المثـال : عبـاس العزاوي ، العراق بين الاحتلالين ، ج 1 ، (بغداد ، 1956) ، خيري العمري ، حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث ، (القاهرة ، 1969) ، علي الوردي ، لمحـات اجتمـاعية من تاريخ العراق ، ج 3 ، بغداد 1972) .

وهكذا فان الفرمان السلطاني القاضي بتعيين ناظم باشا يعد وثيقة تاريخية مهمة جديرة بالدراسة والتعليق حيث أكدت على مكانته وضخامة مسؤولياته وعلى مجموعة الموظفين الذين رافقوه للعمل في بغداد والمؤهلات التي كانوا يتمتعون بها .

وقد ورد ذلك في صدر الفرمان حيث ذكر ما يلي :

« الى ناظم باشا قائد فرقة من الدرجة الاولى وعضو مجلس الدولة العسكري، قلدناك حاكمية ولاية بغداد وقيادة الفيلق السادس . ولما كانت رغبتنا لا تقتصر على تحسين ولاية بغداد وتنمية ثروتها فقط ، وانما لاعادة وتحسين تنظيمات الفيلق السادس ، نرى ان ندمج الوظيفتين ونعهد بها اليك » .

وضمن هذه المقدمة جاء التأكيد على مكانة ناظم باشا :

« ولما كنت يا ناظم باشا معروفا باخلاصك ومعرفتك الواسعة بالشؤون العسكرية والمدنية وأحد أبر قادتنا العسكريين ، أصدرنا ارادتنا الامبراطورية بتعيينك حاكما وقائدا عاما في الدولة المذكورة ، ونعطيك في الوقت نفسه ، صلاحية الاحتفاظ بعضويتك في مجلس الدولة العسكري » (3) .

لقد كانت البنود والفقرات التي نص عليها الفرمان بمثابة منهاج عام للاصلاح وبشكل خاص الجانب العسكري منه ، حيث نص الفرمان على ما يلي :

« عند وصولك الى بغداد ستدرس حالة الضباط في فيالق الجيش بشكل عام ، وستعزل من تجده غير مؤهل وتحل محلهم آخرون . وستلبى كل الاجراءات اللازمة بذلك بدون تأخير من قبلنا ، ومن قبل كل الاقسام ذات العلاقة في الدولة » (4) .

كذلك أعطى الفرمان السلطاني لناظم باشا صلاحية تنظيم القيادة العسكرية وخوله صلاحية الاحتفاظ بالوحدات العسكرية الاربعة الموجودة في ولاية الموصل ضمن تشكيلات الفيلق السادس . وتم اعلامه أيضا بأن التعليمات قد أرسلت الى وزير الحربية لشراء أربع زوارق مدرعة سترسل الى البصرة لتتمركز في شط العرب لغرض نقل الجنود كما سيضاف اليها ثلاث سفن أخرى للغرض نفسه (5) .

أما فيما يتعلق بالمعدات العسكرية الاخرى ، كالاسلحة والاعتدة وبقية التجهيزات ، فهناك مؤشرات مشجعة في الفرمان بجعلها تحت تصرف ناظم باشا من خلال الاشارة الى وزير الحرب للتشاور بصدد ارسال تلك التجهيزات.

---

(3) India Office, Lorimer's report, 6.6. 1910, L/P/10/188, 253

(4) India Office, *Ibid*, p. 253.

(5) عباس العزاوي ؛ المصدر السابق نفسه ، ص 192 .

أما بصدد الجوانب المالية فان الفرمان أفرد تخصيصات مهمة لولاية بغداد بهدف تحسين وتطوير أساليب النقل والاتصال بينالولايات العراقية.اذ يبدو واضحا ان ميزانية الولاية لم تكن كافية لتلبية احتياجاتها . حيث كان المدور من العملة قليل . وعليه فان الاوامر قد أعطيت الى وزير المالية لمعالجة العجز المالى فى ميزانية بغداد بتأمين المساعدات المالية من المؤسسات المصرفية . كما خوله صلاحية تقرير كافة التفاصيل المتعلقة بالموضوع .

وهكذا فانه أرسل فى 18 ماى 1910 تلغرافا الى ناظم باشا يعلمه بأنه أى وزير المالية أرسل مبلغا يعادل حوالى (30) ألف ليرة الى بغداد .

الا ان هذه التخصيصات لم تكن كافية ، كما يبدو ، للتغلب على المشاكل المالية . كما لم ترد أية مقترحات أخرى فى كيفية معالجة الوضع المالى .

من جهة أخرى أعلم الفرمان ناظم باشا عن اهتمام وتصميم السلطة العثمانية بتحسين الاحوال المدنية فى ولاية بغداد من خلال التعليمات التى أرسلت الى وزير النافعة التركى بضرورة تخصيص مبلغ من المال يعادل حوالى (40) ألف ليرة سنويا لتحسين وفتح طرق جديدة فى ولاية بغداد (6).

وقد اختتم الفرمان تأكيد ثقة السلطة العثمانية بكفاءة وحماسة ناظمباشا الذى توقعت الحكومة منه بذل جهد استثنائى فى تنفيذ واجباته بكفاءة عالية .

وجاء فى ملحق للفرمان قائمة باسماء بعض كبار الضباط الذين رافقوا ناظم باشا الى بغداد ومنهم حسن رضا بك رئيس اركان الجيش ومحمد حكمت قائد البحرية .

وكان الاول منهما،حسبما ذكر المقيم البريطانى ، يتقن الالمانية والفرنسية ويتمتع بنشاط ملحوظ وقابليات متعددة . أما الثانى فان يتكلم الانقليزية بطلاقة وامتاز باعتداله وانزوائه ويظهر أنه : « سيتبؤ مركزا مرموقا فى قسم البحرية فى استنبول » (7) .

تحليل وتعليق على بعض نصوص الفرمان :

وصل ناظم باشا الى دير الزور فى 23 نسيان 1910 فى طريقه الى العراق ، ومنها الى عانة ثم دخل بغداد فى الخامس من ماى 1910 .

وكان قبل وصوله بغداد قد أصدر أمرا الى المجلس البلدى عارض فيه اجراء ترتيبات أو مراسيم باهظة التكاليف لسكناه أو سكنى الموظفين الذين

(6) من أعماله المشهورة في بغداد جلبه ماكنه لرش الماء في الأسواق دلالة لاهتمامه بنظافة بغداد ، شقشارع النهر وغطاه بالقير . كما أقام سدة حول الجهة الشرقية من بغداد لحمايتها من الغرق ، كذلك أمر بقتل الكلاب السائبة . لمزيد من التفاصيل انظر الوردي ، المصدر السابق نفسه ، ص 180 .

(7) India Office, *op. cit.*, p. 253.

رافقوه . وفي الفلوجه رفض اجراءات مشابهة كان قد قرر القيام بهـا بعض شخصيات بغداد ممن هم أعضاء في المجلس البلدي مثـل عيسـى أفنـدي وجميل زادة .

لقد قرىء الفرمان بتعيين ناظم باشا واليا على بغداد في السراي يـوم 11 ماي 1910 ، أي بعد ستة أيام من وصوله بغداد بحضور عدد كبير من الموظفين ومن سكان مدينة بغداد .

كانت الجوانب العسكرية التي اضطلع ناظم باشا بتنفيذها أكثر اهتمامـا لديه من الجوانب الادارية . وهذا يبدو طبيعيا جدا اذا أخذنا بنظر الاعتبـار خلفياته العسكرية التي أهلته ليحتفظ بمنصبه عضوا في مجلـس الـدولـة العسكري اضافة لوظيفته الجديدة في حاكمية ولاية بغداد .

وكان المقيم البريطاني قد عكس اهتمامات الوالي الجديـد العسكـريـة في تقريره الذي رفعه الى السفير البريطاني في الاستانة ، والذي اعتمدنـاه في تدوين بعض الملاحظات على نصوص الفرمان . فقد ذكر بانه لاحظ نشـاطـا عسكريا أخذ يطفو على السطح تصحبه سرعة محمومة . وكان أول نتائج هذا التوجه طرد راغب بك الرئيس السابق للقسـم الثاني في هيئـة الاركـان العامة لتدني قدراته ومؤهلاته .

وعلى الرغم من التسليم بأن الجوانب العسكرية قد احتلت المكانة الاولى في اجراءات ناظم باشا الا ان النشاطات اللاحقة أظهرت اهتمامات ادارية وعمرانية طغت أحيانا حتى على الجانب العسكري . وعليه فقد أصدر مثلا الاوامر بفصل بعض كبار موظفي الخدمة المدنية من وظائفهم كالمكتوبجي أو سكرتير الولاية ، المستنطق الاول ، مدير الشرطة ورئيس المجلس البلدي . ولم تتوفر المعلومات التي يمكن من خلالها تفسير مثل هذه الاجراءات .

وضمن هذا التوجه الاداري ، فقد أصدر ناظم باشا أيضا ، أمـرا لجميـع المتصرفين والقائمقامين وكل مسؤولي الاقسام الادارية في ولاية بغداد بارسال التقارير اليومية عن أوضاع دوائرهم والاعمال التي تقع ضمن مسؤوليتهم . وعلى رأي المقيم البريطاني ان مثل هذه الاجراءات لا يكتب لها النجاح المستمر ويصعب تطبيقها بشكل دائم .

كذلك استدعى ناظم باشا عددا من رؤساء الوحـدات الادارية الى بغـداد ، ومن بين هؤلاء والي البصرة الذي جاء الى بغداد يوم 11 مايس وبقي فيها حوالي 20 يوما اذ غادرها يوم 30 مايس 1910 . وقد شاع في بغداد في حينها انهمـا افترقا على غير اتفاق .

ويكمن السبب في ذلك ، على أغلب الظن ، الى الاختـلاف في سياستهما الادارية . اذ لم يكن ناظم باشا سعيدا مع سياسة سليمان نظيف في التعامل

مع العشائر والتي اتسمت بالتهور والتسرع ، بينما سعى هو أى ناظم باشا الى سياسة التفاهم والتراضي · وقد عبر عن هذه السياسة باطلاقه لسراح عدد من زعماء العشائر الموقوفين في السجن فى سراى بغداد ، بعد ان تعهدوا بالامتثال لاوامر الوالى . هذا فضلا عن استدعائه لعدد آخر من الزعماء من جميع مناطق العراق للغرض نفسه وحملهم رسائل النصح الاعتيادية بضرورة المحافظة على الامن والنظام فى مناطقهم .

وذهب ناظم باشا خطوة أبعد حينما حاول أن يستخلص ـ ولكن دون جدوى ـ فتاوى من رجال الدين بتحريم الغزو والمعارك ، فتكون سلاحا بيد الحكومة ضد المخالفين (8) .

وعلى رأى المقيم البريطانى ان مثل هذه الاجراءات قد تم اقتراح ما يماثلها في الهند لوضع حد للاعتداءات ضد الاوروبيين ولا سيما فى المناطق الشمالية الغربية للهند ، الا انها لم توضع موضع التنفيذ . وأكد بأنه من خلال سير الامور العامة فى بغداد ومن الشعور السائد بين الموظفين وأصحاب المصالح من البريطانيين ، بأن تلك الاجراءات ليست بذات جدوى ·

وهنا لا بد من الاشارة بأن ناظم باشا لم يكن الاول من لجأ الى ذلك الاسلوب فى السيطرة على العشائر ، فقد سبقه الى ذلك حسن باشا عام 1704 وداود باشا عام 1817 وغيرهما ، الا انهم فشلوا .

وهناك مسألة أخرى جديرة بالتعليق وهى علاقة ناظم باشا بادارة وليم ويلكوكس لمشاريع الرى والتى لم تتسم بالايجابية . اذ حصل أن قام فى يوم 24 مايس 1910 أحد أصحاب الاراضى البارزين فى ولاية بغداد وممن له مصالح فى نجاح أعمال الرى المدعو مناحيم دانيال بنقل خبر الى المقيم البريطانى مفاده أن ناظم باشا أوجد لجنة برئاسة وعضوية دفتر دار الولاية ونقيب بغداد ومناحيم دانيال نفسه · وعقدت هذه اللجنة أول اجتماع لهما فى 22 مايس · ويبدو من مجريات تفاصيل الاجتماع ان سلطات الولاية كانت تسعى الى تجميد وليم ويلكوكس ولوضع أعمال الرى تحت اشرافها . وتساءل دانيال من المقيم البريطانى فيما اذا كان بامكانه التدخل لمنع وقوع مثل هذا الامر .

فكان رأى المقيم البريطانى أنه لا يستطيع التدخل وليس من صلاحيته منع ذلك . ولكن اذا طلب منه ابداء النصح والارشاد فانه سيفعل ذلك بكل رحابة صدر . وهنا يورد المقيم البريطانى اضافة مفادها انه تقابل مرة ثانية مع دانيال هذا يوم الثالث من حزيران 1910 . وعلم منه بعدم حصول أى اجتماع آخر للجنة المشار اليها .

---

(8) الوردي ، المصدر السابق نفسه ، ص 177 .

وفي أغلب الظن أن ناظم باشا قد صرف النظر عن الموضوع لاسباب منها أنه قد واجه مسائل أكثر الحاحا من وليم ويلكوكس وأعماله . أو أنه استلم تعليمات من حكومته بالتوقف عن مضايقة ويلكوكس ومشاريعه الاورائية .

وهنا لا بد من القول لو أن ناظم باشا قد نجح في هذه المسألة بلجنته أو باتفاقه مع ويلكوكس لكان قد حل مشكلة الارض والعشائر في حدود ولاية بغداد على أقل تقدير .

الخاتمة :

لا شك ان دراسة الوثيقة كشفت جانبا ولو مختصرا عن الواقع الرسمي لفترة ناظم باشا التي استمرت حوالي السنة في بغداد . وهي وان اتسمت بشيء من الايجابية الا ان قصر فترة حكمه واضطراب أحوال السلطة المركزية وتأزم الوضع الدولي جعل من الصعوبة بمكان تقييم مثل هذه الفترة ضمن السياق التاريخي العام .

وعلى العموم فالى جانب ما ذكر عن ايجابياته فان فترته لا تخلو من سلبيات تمثلت بتلك الاوامر الصارمة برفضه الالتماسات والعرائض المدونة بغير اللغة التركية ، وتأكيداته بعدم استلام أي طلب يكتب باللغة العربية .

كما أن علاقته الحزبية مع جمعية الاتحاد والترقي لم تكن على وئام ، لكونه إئتلافيا ، وقد انعكس هذا الامر حتى على علاقاته مع مشاهير بغداد كالشاعر الزهاوي الذي ناصبه العداء لكونه اتحاديا .

د. سامي عبد الحافظ القيسي
كلية الآداب جامعة البصرة
قسم التاريخ

العلماء وطرق الصوفية والتنظيم الحرفي معطيات من تاريخ السلطة والمجتمع في ولايـــة ســوريــــة

د. وجيـه كـوثـراني
الجامعة اللبنانية ـ بيروت

ـ المؤسسة الدينية بين الدولة والمجتمع :

ان الموقف الفقهي الذى يعتبر السلطنة العثمانية احدى السلطنـات التى جاءت امتدادا طبيعية لسلطنة السلاجقة (1) ، والذى يجد جـذوره الفقهيـة التبريرية فى ما كان قد ارساه الماوردى وابن خلـدون من نظريـات حـول « السلطنة » ، يجد تطبيقه العملي وترجمته الفعلية فى الموقع والوظيفة اللذين احتلهما العلماء فى الدولة العثمانية .

ولما كانت لغة القرآن والشريعة وعلوم الدين هى اللغة العربية (2) ، فان العلماء الاتراك كانوا يدرسون بالعربية على يد علماء دمشق وحلب والقاهرة ويصنفون مؤلفاتهم بها (3) ؛ فكان ان احتل العلماء العرب لهذا السبب موقعا متميـزا .

وفى هذا السياق شكل العلماء ـ عربـا وتركـا ـ مـا يمكـن ان نسميه « المؤسسة الدينية » فى جهاز السلطنة العثمانية ، ذلك ان السلطنة قامت ،

---

(1) يذكر عبد الكريم غرايبة حول امكانية امارة بني عثمـان في استخلاف سلاجقة الروم ما يلي : « وكان ابن خلدون هو اول كاتب عربي اشار الى امـارة بني عثمـان وادرك امكانيتها وشعر انها اقوى الإمارات التي خلفت سلاجقة الروم واقربها الى العدو البيزنطي واكثر تعرضا للخطر . كانت امارة متحفزة للدفاع والهجوم ، امارة غزاة كونت لنفسها بسرعة سجلا حافلا من روايات البطولـة فاجتذبت اليها اعدادا من المتحمسين لنصرة الدين أو الراغبين بالنهب واصبحت امارة عثمـان المتنفس الوحيد للحمـاس الديني في الإسلام فجاءها كل راغب بالجهاد » . عبد الكريم غرايبة ، العرب والاتراك . ص 272 .

(2) يروى ان السلطان سليمـان بعد ان فتح مصـر والشـام اراد ان يجعل من اللغـة العربية اللغة الرسمية للسلطنة بدلا من التركية فعاجلته المنية قبل اتمـام هذا العمل . هذه الرواية ــ وبغض النظر عن مدى صحتها التاريخية ــ تعكس عبر وضعها وتناقلها طبيعة العلاقة بين العرب والاتراك في اطار السلطنة ، اذ يعلق محمد كرد علي على الرواية بصيغة التمني فيقـول : « لو وفق السلطان سليم الى انفاذ هذه الأمنية لخلصت الدولة العثمـانية في القرون التالية من مشاكل عظيمة ، ودخلت في جملـة العرب عناصر كثيرة مهمة ولزاد انتشار اللغـة العربية فاصبحت الاستانة موطنا لها كما كانت بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة » . راجع : محمد كرد علي خطط الشـام ، ج 1 ، بيروت 1969 ص 221 .

(3) راجع نبذات من ترجمات هؤلاء العلمـاء في : طاشكبري زاده : علمـاء الدولة العثمـانية ، قـارن أيضا : احمد المرسي الصفصافي : الدولة العثمـانية والولايات العربية ، في بحوث المؤتمر الخامس للجنة العالمية للدراسات ما قبل العهد العثمـاني والفترة العثمـانية ، في المجلة التاريخية المغربية . تـونس ، عدد 29 ــ 30 ، 1982 ، ص 323 .

وتسبب ما يمكن أن يضفيه ممثلو الشريعة على « شرعيتها » ، « بتنظيم العلماء على شكل سلسلة من المراتب بدرجات معينة معلومة ووظائف رسمية مع مرتبات تجرى عليهم بانتظام . وكان رؤساء هذه المراتب الدينية، وهم شيوخ الاسلام وكبار شيوخ القضاة والافتاء ، يستشارون فى شؤون الدولة العليا ، وكان القضاة فى الاقاليم السبيل الاكبر الذى كان يجرى عن طريقه الاتصال والترابط بين الحكومة المركزية والرأي العام لمساعي المدن الكبرى ، وأولت الحكومة رعايتها وحمايتها المدارس الاسلامية فى المدن العربية ، وقامت هى من قبلها تأسيس مدارس جديدة فى استانبول لتخريج رجال الدين وملء المراكز العليا فى الادارات والمصالح الدينية (4) .

هذه « المؤسسة الدينية » التى اعتبرها المؤرخون جزءا من جهاز السلطنة العثمانية (5) ، شكلت فى الواقع نافذة « المؤسسة الحاكمة » على المجتمع عبر وظيفتها القانونية والتعليمية فى الولايات والمقاطعات (6) . بيد ان هذه النافذة لم تكن لتستوعب كل العلماء الذين يتخرجون من المدارس الدينية الكبيرة المنتشرة فى مدن العالم الاسلامى والتى تفتح ابوابها لكل طالب علم..لذلك تبقى حركة التعليم الدينى وبالرغم من تدابير الدولة لادخالها فى اطار المؤسسة مستقلة نسبيا عن الوصاية الرسمية ويبقى المجال مفتوحا لاستقلال قسم من العلماء عن المؤسسة الحاكمة (7) ، وتكتسب هذه الاشارة معنى أكيدا ومطلقا بالنسبة للمسلمين الشيعة حيث استقلت مراكز التعليم الدينى عندهم استقلالا كاملا عن المؤسسة العثمانية الحاكمة وحيث شكل « المرجع المجتهد » مصدرا للحكم الفقهى والفتوى (8) .

ومهما يكن من أمر ، فان العرب المسلمين وجدوا فى الولايات العربية فى العهد العثمانى مجالا لهم فى قطاع الوظائف الدينية (9) ، فهذا القطاع شكل

(4) البرت حوراني : الاسس العثمانية للشرق الاوسط الحديث ، جامعة اسكس ، 1969 ، ص 11 — 12 .

(5) بيري اندرسون ، دولة الشرق الاستبدادية ، ترجمة بديع عمر نظمي ، بيروت 1983 ص 14 . والنص العربي المترجم هو جزء من كتاب :

— *Lineages of the Absolutist State*, London, 1977.

(6) المرجع نفسه ، ص 18 .

(7) كما سنلاحظ ذلك بالنسبة للعديد من الاصلاحيين ، وكما سنلاحظ ذلك ايضا في موقف بعض علماء دمشق من ائمة المساجد حيال الوالي .

(8) يقول السيد محسن الامين : « أن مرجع القضاء والفتوى الحقيقي في جميع ادوار جبل عامل هم العلماء المجتهدون العدول سواء في ذلك زمن قضاته الشيعة والمفتين الرسميين في العهد الإقطاعي وفي زمن امتياز لبنان القديم وفي عهد قضاة الاتراك الأحناف وفي عهد الاحتلال الفرنسي فجميع المفتين المعينين من قبل الحكام ليس لهم من القضاء والفتوى الا الاسم اذا لم يكونوا مجتهدين عدولا لان الشيعة الامامية الجعفرية تعتقد .. ان منصبي الفتوى والقضاء مختصان بالفقهاء المجتهدين الثقات العدول القادرين على استنباط الاحكام الشرعية من الادلة الاربعة الكتاب والسنة والإجماع ودليل العقل » . محسن الأمين : خطط جبل عامل ، بيروت طبعة 1983 ، ص 137 — 138 .

(9) البرت حوراني ، الاسس العثمانية ، ص 11 — 12 .

عبر مراتب الافتاء والقضاء وأمانة المساجد وغيرها من الوظائف الدينية ، احد مجالات التعبير عن السلطة المحلية فى الولايات العربية ، اذ كان المفتون والقضاة فى اغلبهم وفى اكثر الاحيان من السكان المحليين (10) .

ولعل هذا ما سمح بقيام تنظيم للمدينة الاسلامية يوازن ما بين « المؤسسة العسكرية » للحكم العثمانى (الوالى والحاميات العسكرية) والمجتمع الدينى وذلك عبر التنظيم الدينى الذى يأتى فى مقدمته المفتى ونقيب الاشراف والقاضي الذي هو « الحاكم الشرعي » للمدينة (11). لقد قام «الحاكم الشرعي» وقبل استحداث التنظيمات العثمانية ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر بمهمات سلطوية عديدة ومتنوعة . فثمة قراءة منهجية لسجلات محكمة طرابلس الشرعية فى القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر ، تتيح لصاحبها ان يستنتج » ان المهمات المتعددة الملقاة على عاتق الحاكم الشرعي كانت واسعة جدا ، وقد قام بمهام قاضي الاحوال الشخصية ، والقضايا المستعجلة، ومحكمة التجارة والاستئناف والجزاء والجنايات ، بالاضافة الى ان محكمته كانت ديوانا للمظالم ، اى المحكمة التى تنظر فى الدعاوى على الحكام . ولعب ايضا وظيفة قاضي العسكر . وواقع الامر ان وظيفة الحاكم الشرعي كانت أوسع من ذلك ، فهو الذى يوجه الوظائف (الدينية) وهو الذى يثبت مشايخ الحرف في مشيخاتهم ويفض منازعاتهم . كما يشرف على الاوقاف ويعين المتولين عليها . ويظهر لنا ان الحاكم الشرعي كان صلة الوصل بين الوالي والاهالي فيما يختص بشؤونهم وانفاذ أوامر حكام السياسة » (12) .

صحيح ان هذه المهمات السلطوية تتمحور حول القاضي ، بيد ان هذا التمحور يشكل نقطة التوازن بين الوالي بصفته استمرارا لنظام السباهية العثمانى (الاقطاع العسكرى) (13) ، وبين شبكة من الحلقات المتداخلة فى التنظيم الدينى الذى يحتضن نشاطات وفعاليات المجتمع فى المدينة من علماء (رجال دين) واشراف وحرفيين وتجار .

---

(10) عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون دمشق 1967 ، ص 82 ، ويمكن بناء على تعداد الحصني لبيوتات دمشق ان نذكر من العائلات التي خرج منها قضاة ومفتون في دمشق : البكري (ص 819 – 820) العدوى ، الجابي ، المنيني (ص 823) بنو الإسطواني (وظائف ص 837) المحاسني (839) الغزي (ص843) بنو الزكي (ص 868) .
راجع : محمد اديب آل تقي الدين الحصني ، منتخبات التواريخ لدمشق بيروت 1979 ، وسنكتفي حين الرجوع الى الكتاب بالاشارة : الحصني ، منتخبات ...

(11) ان ما يسوغ هذا الاستنتاج عطفا على ملاحظتنا هو ان البيوتات الدمشقية الشهيرة هي التي احتلت هذه المناصب في مدينة دمشق . قارن : الحصني ، منتخبات ، ولا سيما باب ذكر من اشتهر من بيوتات دمشق » ص 804 – 915 .

(12) خالد زيادة ، الصور التقليدية للمجتمع المدني في سجلات محكمة طرابلس الشرعية في القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر ، الجامعة اللبنانية ، طرابلس ، 1983 ، ص 85 – 86 .

(13) جب وبوون : المجتمع الإسلامي والغرب ، ص 72 ، ص 203 –

فشبكة العلماء ومريديهم تتكون من مجموعة واسعة من الافراد ابتداء من خطباء المساجد وأئمتها الى المؤذنين والقوام والخدمة والقـراء والوعـاظ الى المؤدبين والتربدارية « اى خدمة الاضرحة والمـزارات والمقابـر ... » (14)، وهؤلاء وان كانوا يعينون من قبل القاضي، ويتقاضون مداخيلهم من خـلال الاوقاف التى هى تحت سلطته، الا انهم لم يشكلوا « جهازا حكوميا » ملحقا بالادارة المركزية، فقد كانوا يمارسون الى جانب وظائفهم التى يختارون لها « اعمالا وحرفا مختلفة»، وسبب ذلك ان المداخيل المخصصة لم تكن كافية وان الاسلام نفسه لا يدعو الى قيام مثل هذا الجهاز المستقل عن المجتمع (15)، بل على العكس فان مفهوم العلم والعلماء فى الاسلام يستتبع انفتاحا كليـا على الجماعة والامة وبالتالى على المجتمع، حيث ينتظم العالم ـ الفقيه فى الجمـاعة كجزء عضوي فيها وحيث يقدم العلم للآخر كواجب من واجبات المسلم (16).

وتتشكل فئة الاشراف فى التنظيم الاهلى الدينى من العائلات ذات الانساب الشريفة، التى تعود فى نسبها الى أهل البيت، وهذه العائلات انتظمت منذ القديم فى اطر من علاقات القربى عملا بالحديث الشريف « اعرفوا انسابكم تصلوا أرحامكم فانه لاقرب بالترميم اذا قطعت وان كانت قريبة ولا بعد بها اذا وصلت وان كانت بعيدة » (17)، وكان ان ثبتت هذه الاطر فى « الدولة السلطانية » على أساس مبدأ « الـولاية » فيحدثنـا المـاوردي فى الاحكـام السلطانية والولايات الدينية من « ولاية النقابة على ذوى الانساب » فيقول: « وهذه النقابة موضوعة على صيانة ذوى الانساب الشريفة عن ولايـة من لا يكافئهم فى النسب ولا يساويهم فى الشرف ليكـون عليهـم احبى وامـرهم امضى ... وولاية هذه النقابة تصح من احدى ثلاث جهات: اما من جهة الخليفة المستولى على كل الامور واما ممن فوض الخليفة اليه تدبير الامر كوزير التفويض وأميرالاقليم واما من نقيب عام الولاية ... فاذا اراد المولى ان يولى على الطالبين نقيبا أو على العباسيين نقيبا يخبر منهم اجلهم بيتا واكثرهم فضلا واجـزلهم

(14) خالد زيادة، الصورة التقليدية للمجتمع المدني، ص 98.

(15) المرجع نفسه، ص 98 — 101 — 103.

(16) تتأكد هذه الفرضية اكثر ما تتأكد في وضعية الفقيه عند المسلمين الشيعة. يذكر محسن الامين وهو مرجع مجتهد عند الشيعة ان الفرنسيين عزموا على احداث منصب رئيس علمـاء للشيعة في لبنان وقرروا (تعيينه) لهذا المنصب فكان ان رفض هذا العرض، وكان يقول: « انا موظف عند الله » محسن الأمين: سيرته، بقلمه واقلام آخرين، النجف، العراق، بدون تاريخ، ص 94 — 95. ويذكر ايضا عن الشهيد الثانى زين الدين بن علي العـاملي الجبعي (معاصر للسلطان سليمـان) انه « مع ما كان عليه من الفقر والقناعة الذي كان يضطر معه الى حراسة الكرم في الليل واخذ السراج معه للمطالعة ويأتي صباحا الى الدرس والى بناء داره وبناء مسجده بيده والى المتاجرة بالشريط والذهاب مع الجمـالة لبيعه لم يعقه ذلك كله عن الذهاب الى اسلامبول وطلب تدريس احدى المدارس ليعيش من اوقافها ويبث علمـه على الناس ».
محسن الامين: خطط جبل عامل، ص 80. قـارن عن هذه المسألة في جانبها النظري (الفقهي):
— Mohammad-Reza Djalili, *L'Islam et l'Etat*, Religion et révolution, Paris 1981, P. 19-22.

(17) ورد في: الماوردي، *الاحكام السلطانية*، ص 96.

رأيا فيولى عليهم لتجتمع فيه شروط الرياسة والسياسة فيسرعوا الى طاعته برياسته وتستقيم أمورهم بسياسته » (18) .

واما حقوق الولاية (السلطة) التى يتمتع بها النقيب فيعددها الماوردي باثنى عشر حقا اذا كانت « خاصة » وتشمل مجالات حفظ النسب ومتابعة الولادات والوفيات والاهتمام بآداب النسب وأخلاق الافراد ومكانتهم الاجتماعية (19) . وهى فى هذه الحدود تقتصر على « مجرد النقابة من غير تجاوز لها الى حكم واقامة حد » (20) والا فان حقوق النقابة تصبح عامة وهنا يكون العلم معتبرا فى شروطها » ، لانها تتداخل مع مهمات القاضى .. واذ كان الماوردى قد فند صلاحيات « النقابة العامة » باضافة « خمسة أشياء على حقوق النظر » أهمها الحكم فى النزاع بين الافراد واقامة الحدود ، فانه من جهة أخرى حاول ان يوضح اشكالات الازدواج بين مهمات القاضي وبين نقيب الاشراف وحالات الاعتماد فى كل حالة كما استقرت فى عصره (21) . والمرجح ان الحالة التى اعتمدت فى الدولة العثمانية هى حالة « النقابة الخاصة » المعينة من قبل نقيب الاشراف المقيم فى عاصمة السلطنة ، فى كل مدينة أو حيال كل نسب شريف » . يقول الحصني فى وصف وضعية « نقابة الاشراف » كما استقرت فى العهد العثماني ما يلي : « نصبت النقباء وتقررت وظائف النقابة منذ القديم والحديث فى ممالك الاسلام بقصد البحث عن حقائق الانساب وتمييز السادة الاشراف من آل البيت ابناء الامام علي وفاطمة رضى الله عنهما صيانة لذلك النسب الطاهر عن حصول الاختلاط المفضي الى تعلق بعض الاحكام الشرعية بغير أهلها مما لا يخفى من اندفاع الكثير فى حصول المجد ورفعة الجاه بدعوى الشرف الحسنى أو الحسينى خصوصا فى زماننا هذا . فالنقباء هم الذين ينبغى لهم التدقيق عن هذه الدعوى وفى نسب كل من يمكن الاشتباه فى نسبه من عامة الناس لئلا تضيع الحقوق الواجبة الرعاية لآل بيت النبوة وتسقط التكاليف الواجبة على من سواهم . ونقابة الاشراف وظيفة عالية لها شأنها فى نظر العالم الاسلامى ولها تأثير عظيم فى اصلاح احوال البيوتات النبوية وتدبر أمورها مما أوجب الامر الى محبة هذه الذرية الشريفة وتوقيرها وطاعة الناس لها لنفوذ كلمتها فيهم وكانوا يأتمرون بأوامرهم ويذعنون لرغباتهم الى غير ذلك مما يعود بعظيم الفائدة على هذا المجتمع وهي قديمة العهد فى زمن الدول العربية.وفى أيام الدولة العثمانية التركية،بدأ بتوظيف نبقاء الاشراف السلطان بايزيد سنة 900 هـ (1494 ـ 1495 م) وعين لها سيد علي نطاع عاشق شلبى » (22) .

---

(18) المصدر نفسه ، ص 96 .
(19) ورد في : الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص 97 .
(20) 20 المصدر نفسه ، ص 96 .
(21) الحصني ، منتخبات ، ص 806 ـ 807 .
(22) الحصني ، منتخبات ، ص 807 ـ 808 .

هذا الوصف لاحد أفراد عائلة الحصني التي شكلت احدى عائلات الاشراف الدمشقية والتي تسلم افراد منها منصب نقابة الاشراف والافتاء في دمشق ، يسمح بالاستنتاج ان وظيفة النقيب انحصرت في حقوق « النقابة الخاصة » التي يعددها الماوردي . وانها من زاوية « امتيازها » الديني (23) في المجتمع الاسلامي ، تملك موقعا ممهدا أو موصلا الى «حصول المجد ورفعة الجاه» في المجتمع على حد تعبير الحصني (24) .

واذا استعرضنا اسماء البيوتات الدمشقية ذات النسب « الشريف » والتي يعددها الحصني خلال الفترة العثمانية وحتى عصره (مطلع القرن العشرين) لاحظنا ان مناصب النقابة والافتاء قد توزعت على العديد منها ، فاسرة بني العجلان كان قد ولي ثمانية منهم نقابة دمشق وثلاثة قلدوا منصب الفتوى (25) وآل حمزة كان اكثر رجالها نقباء وعلماء ، فضلا عن خدمة المحافظة التربدارية التي استمرت في ذريتهم (26) وعائلة الايجي وعائلة الحصني التي تسلم بعض رجالها منصب الافتاء والنقابة في فترات عديدة ... (27) .

ـ التنظيم الحرفي وطرق الصوفية :

واللافت للنظر في طبيعة السلطة الاهلية التي كانت للاشراف « هو في ارتكازها محليا الى هياكل اجتماعية واقتصادية تؤطر المجموعات السكنية في المدينة . ولقد سمحت علاقة الاشراف باصحاب الحرف ، وبنشاطات السوق «نظرا لوجودهم بين الحرفيين»(28)، ونظرا لاحتلال بعض أفراد هذه العائلات منصب « مشيخة » بعض الطوائف الحرفية ، أو ممارستها للتجارة المحلية في

(23) يذكر السيد رشيد رضا في سيرته ان بيته « كان يحظى من الدولة بمخصصات معينة بهذه الصفة الدينية . يقول في وصف ذلك : « واهل بيتنا ممتازون فيهم بأنهم اهل العلم والإرشاد والرياسة ، ويلقبون بالمشايخ للتمييز ، وجدي الثالث هو الذي بنى لهم المسجد المعروف الان بجانب بيتنا القديم ، فاحيا جدنا الدين ببناء المسجد واقامة الشعائر فيه من امامة وخطابة وتدريس وكان عالما صالحا مشهورا بالكرامات وقد انعم عليه السلطان العثماني ببراءة سلطانية حبس حليه فيها سبعة قراريط من 24 قيراطا من اموال الدولة الاميرية وبراءات آخرى بالامامة والخطابة في المسجد ، وقد تسلسلت هذه البراءات من السلاطين في ذريته حتى آلت الي فكانت آخر براءة وجهت علي او الي من السلطان محمد وحيد الدين قبل الحرب العامة » كما ورد في : شكيب ارسلان ، السيد رشيد رضا واخاء الأربعين سنة ، دمشق 1937 ، ص 24 .

(24) تعود بنا هذه التعابير الى مصطلح ابن خلدون حيث يستخدمها في سياق حديثه عن الكسب « والمعاش » « والصنائع » ، من جهة ومن جهة أخرى كوجه من وجوه اللعبة السياسية والتشكل الاجتماعي واوالية توزيع الفائض الإقتصادي راجع :

— A. Cheddadi, « *Le système du pouvoir en Islam d'après Ibn khaldun, op. cit,* P. 536.

(25) الحصني منتخبات ، ص 809 .

(26) المصدر نفسه ، ص 810 .

(27) الحصني منتخبات ، ص 813 — 817 — 819 .

(28) عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر ، ص 82 ، ايضا الياس قدسي ، نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية ، في :

— *International congress of orientalists, 6TH* actes, Leiden 1883, p. 12.

أسواق المدينة (29) ، (سمحت) بايجاد نوع من الهياكل التنظيمية والقواعد الاجتماعية السياسية التى كانت فى اساس ممارسة السلطة المحلية (30) ، والتي قامت بدورها على علاقات الحماية والمناصرة والتساعد في اطار طوائف الحرف أو شبكة علاقات القرابة في الحي (31) .

صحيح ان « شيخ مشايخ الحرف » « وشيوخ الحرف » كانوا يعينون من قبل القاضي ، لكن ثمة ارادة ذاتية محلية كان يعبر عنها التنظيم الاجتماعي ـ الاقتصادي المحلي عبر اختيار شيخهم المناسب . فمن دراسة « لطوائف الحرف والصناعات فى حماه فى القرن السادس عشر » اعتمادا على سجلات المحكمة الشرعية ، نستنتج « ان شيخ سوق حماه وهو شيخ مشايخ الحرف كلها ... أو شيخ التي كان يعين باجماع التجار في سوق التجار ... ويشترط فيه : ان يكون صاحب دين واخلاق اهلا للمشيخة لائقا بها ، ان يختاره ويرضى به كامل التجار ، وان يوافق القاضى والسلطان على تعيينه » (32) .

وكانت مهمة هذا الشيخ تشمل « الاشراف على كل طوائف الحرف ومشايخها » ويقوم بصلة الوصل ما بين الوالى والقاضى من جهة وهذه الطوائف من جهة أخرى ولا يتم اى تغيير فيها الا بعلمه ورأيه . « وكان مشايخ الحرف كلهم ينتخبون بحضوره ويزكون بتزكيته » (33) .

اما سلطة شيخ الطائفة فكانت تشمل ادارة شؤون ابناء الطائفة والاهتمام بمشاكلهم والاشراف على تنفيذ اتفاقاتهم والطلب من القاضى تسجيل هذه الاتفاقات وكان يرفع شكاوى الطائفة على طائفة أخرى الى القاضى بنفسه . وكان الوالى يتصل بالطائفة عن طريقه (34) .

هذه المهمات « الوسطية » كانت لا تخلو من سلطة يمارسها الشيخ اعتمادا على العلاقات التنظيمية والاخوية الصارمة التى تربطه بابناء الطائفة . وهى علاقات تتداخل فى عدة مستويات (تقنية ودينية وعائلية..) . فعلى المستوى التقني والتنظيمي يخضع التعليم الحرفي لترتيبات دقيقة بدءا من

---

(29) برز من عائلة الحجاز الدمشقية تجار الخردة في جهة جامع السنانية ، ومن عائلة الحصني تجار العطارة ومال الفاتورة ، قارن :الحصني ، منتخبات ، ص 815 819 .

(30) راجع : ليندا شلشر (L. Schilcher) بعض مظاهر الأعيان في اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر في دمشق،في ابحاث المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، ج 1 جامعة دمشق 1978 ص 329 .

(31) فيليب خوري ، «طبيعة السلطة السياسية ، وتوزعها في دمشق» في ابحاث المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، ج 1 ، ص 478 .

(32) عبد الودود محمد يوسف ، طوائف الحرف والصناعات او طوائف الاصناف فى حماه في القرن السادس عشر ، مقتطف من مجلة الحوليات الأثرية ، مجلد 19 (بلا تاريخ) ص 85 .

(33) المصدر نفسه ، ص 85 .

المبتدئين الى الصانع والى المعلم . وعلى قاعدة هذه الترتيبات ، لشيخ الحرفة « الحق ان يشد بالكار المبتدئيين الماهرين فيصيرون صناعا أو معلمين » (35). وحفلة الشد التي هي حفلة « ترفيع » المبتدىء الى صانع او الصانع الى معلم تلخص عبر سلطات المشرفين عليها وهم شيخ الحرفة والنقيب والشاويش»(36) وعبر المشاركين فيها وهم أهل الحي والاقارب وأهل الحرفة ، « مشهد » سلطة أهلية تلمح فيه رموز حركات دقيقة لها دلالاتها في التوزيع الوظائفي للسلطة في المجتمع الحرفي (37) ، وفي الالتزام بعهود ومواثيق دينية لها فعل الضوابط لاصول الحرفة واتقانها وعدم الغش فيها وسلوك مخافة الله في المعاملة . فالطابع الديني الذي يرتسم في حفلة الشد والذي يبدو في التشديد على قراءة « الفاتحة » والادعية والاناشيد النبوية التي تتخلل الحفلة واسباغ جو من الورع والتقوى على « المشدود » والحاضرين ، كلها أمور تشدد على « العهد » و « الميثاق » و « الأخوة » أمام الله وأمام الجماعة (38) .

والعهد الذي يقطعه « المشدود » على نفسه أمام معلمه ، وبينما النقيب يقرأ الفاتحة فوق رأسيهما في مشهد تعبدي مؤثر (39) ، يتضمن وفقا للاعراف السائدة في المجموعة الحرفية دستورا .. هو نوع من المبايعة للمشدود في ان

---

(35) الياس قدسي ، نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية ، ص 13 .

(36) النقيب هنا هو مندوب شيخ المشايخ في طوائف الحرف ، ينوبه عنه في حضور حفلات الشد والإجتماعات ، ويتلو الأدعية .
و اما الشاويش « فهو رسول شيخ الحرفة » ، يستحسنه اهل الكار . ليس له سلطة قضائية . بل ينفذ اوامر الشيخ ويبلغ الدعوات والاحكام ويقوم بدور اساسي في حفلات الشد .
راجع : الياس قدسي ، نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية ، ص 14 — 15 .

(37) من امثلة ذلك ربط المحزم في وسط المشدود (الحرفي المرفع) وعقد طرفيه ثلاث عقد أو أكثر ... ويشير القدسي في دلالات هذه العقد ومعاني حلها فيقول . ان الشيخ له وحده القدرة ان يحل الأولى لأنه رئيس الحرفة كي يعلم المشدود ما له عليه من واجبات الخضوع واما الثانية فيحلها المعلم ليفتخر انه اخرج تلميذا ماهرا ، ويحل الشاويش الثالثة لأنه احد السلطات الثلاث التي على المشدود ان يخضع لها في كاره » . هذا فضلا عن دلالة هذا العقد « على عقد العهد والميثاق بالاخاء » . الياس قدسي ، نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية ، ص 24 .

(38) بعض الأناشيد النبوية التي يتلوها النقيب في الحفلة ينتهي بالبيتين التاليين :

« وجاء بالعهد آيات مكرمة فحافظ العهد في خير وفي نعم
وخائن العهد لم تربح تجارته وهو بالحشر كم يلقى من النقم ».

ونصيحة شيخ الحرفة التي يوجهها الى « المشدود » اي الحرفي المرفع ، كانت تشدد على الاستقامة في العمل وحفظ الكار كجزء من حفظ الدين ، وهي بمدلولاتها الاجتماعية والسياسية تحمل وازعا سلطويا ذاتيا . فكان شيخ الحرفة يتوجه الى المشدود بالعبارات التالية :
« يا بني ان جميع الحرف هي كارات امانة على الأموال والأعراض والأرواح . والأمانة هي الدين فإذا نفق كارك احفظ دينك ، كن صادقا واميا واعلم ان كارك مثل عرضك حافظ عليه بمقدرتك ، واذا استلمت اموال الناس فلا تفرط بها واياك أن تخون أهل الحرفة والخائن قبيله الديان ... » .
المصدر نفسه ، ص 25 .

(39) كان المشدود يعاهد معلمه بعد ان يطلب منه هذا الأخير العهد فيقول : « اعاهدك بعهد الله ورسوله اني لا أخون الكار ولا أغش الصنعة في شيء » الياس القدسي ، نبذة تاريخية للحرف الدمشقية . ص 25 — 26 .

يلتزم بقواعد منها : الاتقان ، عدم الغش ، التسعيرة العادلة ، التضامن مع رفاق المهنة . ولعل هذا الامر هو ما يلفت انتباه لويس ماسنيون فيقول ان تعبير « الدستور » استخدم للدلالة على « المشروطية » التى اعلنت عام 1908 اثر الانقلاب الذى قامت به جمعية الاتحاد والترقى ويضيف انه عندما كان الناس يهتفون « دستور » فانما كانوا يستحضرون معنى الميثاق القائم على قسم ايمانى » (40) .

ومهما يكن من أمر أصول هذا التنظيم الحرفى الذى استمر فى المدينة الاسلامية حتى مطالع القرن العشرين (41) ، فان ما يهمنا من التشديد عليه فى الجانب الاجتماعى السياسى هو ما يقدمه هذا التنظيم من معطيات فى الفكر والممارسة فى مجال السلطة الاهلية . ففى هذا المجال تبرز طرق الصوفية والحركات الباطنية فى الاسلام كصيغ تنظيمية وفكرية تتماثل مع الكثير من التقاليد الحرفية ، فسرية المهنة وأخوية العلاقة بين رفاق المهنة تذكر ان بتنظيم حركات العامة الموالى فى المدن والحركات الباطنية السرية واخلاقيات الفتوة (42) . واعطاء مجالس الترفيع (الشد) طابعا رمزيا من خلال الحركات والرموز والاشارات وحلقات الذكر ، لا يذكر فحسب بطرق الصوفية وانما يستدعيها ويستحضرها فى الانتماء والممارسة الطقسية (43) . فتتقاطع الحرف معها من حيث تراتبية مراحل المعرفة عند المريد ، وتتوزعها من حيث تعدديتها الاجتماعية واشكال التعبير فيها .

ومن هذه الطرق التى عرفتها بلاد الشام : الطريقة الرشيدية والرفاعية والقادرية والشاذلية والدندراوية والبدوية والمولوية والنقشيدية

(40) قارن :

— L. Massignon, « *Les corps de métiers et la cité Islamique* », *Opera Minora*, ti, P. 377.

(41) راجع الفرضيات المختلفة التي يعرضها لويس ماسينيون في موضوع أصول التنظيم في :
— L. Massignon, « *La futuwwa, ou pacte d'honneur artisanal entre travailleurs musulmans au Moyen-age* », *Opera Minora tI, P.* 396-417.

(42) راجع عن علاقة التنظيم الحرفي بتلك الحركات في التاريخ الإسلامي آراء لويس ماسنيون المرجع السابق ، ص 399 — 402 . أيضا :

— Louis Gardet, *la cité musulmane*, p .258-259.

(43) — L. Massignon, la « *Futuwwa* », p. 402-405.

والبكتاشية (44) . وقد كان لهذه الطرق زوايا وتكايا (45) يديرها ويشرف عليها شيخ الطريقة.ومن خلال تعداد محمد كرد علي لهذه الزوايا والتكايا في كل من دمشق وحلب والقدس وبعض المدن إلصغرى الاخرى فى بلاد الشـام نستنتج ان بعض معالم هذه الزوايا والتكايا استمر حتى مطالع القرن العشرين ، وان توزعها الجغرافى فى الاسواق والحارات (46) انما يعكس الصورة الاجتماعية للعلاقات السياسية القائمة داخل المجموعات الاجتماعية والمتمحورة حول تلك المراكز التي تتقاطع فيها طرق الصوفية وطوائف الحرف ومواقف سكان الحارة وأهل السوق (47) . يقول جب وبوون فى الدور السياسى الذى يلعبه هذا التقاطع بين الطائفة الحرفية والطريقة الصوفية فى التعبير عن الموقع الاجتماعى للسكان ما يلى : « وكانت الطائفة تخدم عدة اغراض ، فقد كانت توفر الوسيلة التى تمكن أقل المواطنين شأنا من التعبير عن غرائزه الاجتماعية والاطمئنان الى مكانته فى النظام الاجتماعى ، وكانت الحال الذى يمارس فيه حق المواطنة : فهو وان لم يكن يستدعى الا نادرا لكى يلعب أي دور في الحياة السياسية الخارجية ، الا انه من الناحية المقابلة كان فى مأمن من ان يتدخل حكامه السياسيون فى شؤونه الا بشكل طفيف ، اذ كانوا بوجه عام يحترمون استقلال الطوائف وطرائقها التقليدية . ومما كان ينمى الوظيفة الاجتماعية للطوائف ليس كلها بل معظمها وبخاصة طوائف الحارف ، ما لها من ارتباطات مع احدى الطرق الدينية الكبرى » (48) .

ولعل هذا الارتباط بين الموقع المحلى الخاص المتمثل بالعائلة والمحلة والحرفة وبين الامتداد الدينى لطريقة من الطرق التى تنتشر فى انحاء العالم

---

(44) احمد حلمي العلاف ، دمشق في مطلع القرن العشرين ، دمشق 1976 ، ص 120 — 126 والكتاب في الاساس مخطوطة لأحد ابناء الحرفيين ، وضعت في مطلع القرن العشرين ومحفوظة في مركز الوثائق التاريخية بدمشق ، حققها وعلق عليها علي جميل نعيسة . راجع عن تعددية الطرق ايضا : — اسامة عانوتي ، الحركة الأدبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر ، بيروت 1971 ص 179 — 180 .
— Henri Laoust, *Les schismes dans l'islam*, Paris 1977, P, 285-7

(45) وكان يقال لها خوانق ، والكلمة من اصل فارسي مفردها « خونكاه » وتعني دار الصوفية ، ويشير محمد كرد على انه لا فرق بينها وبين الزاوية والرباط وهو المكان المسبل للافعال الصالحة والعبادة » . محمد كرد علي خطط الشام ، ج 6 ، ص 134 .

(46) من مراكز الزوايا في دمشق : سفح قاسيون ، سوق الخيل العتيق ، الشاغور ، الصاغة العتيقة ، محلة العوينة ، الوراقية ، الصالحية ، السليمانية ، القنوات (وفيها الزاوية الشاذلية) الميدان (وفيه زاوية الطريقة الرفاعية) .
محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج 6 ، ص 138 — 140 . وراجع عن أصول هذه الزوايا :
Nicola Ziadeh, *Urban life is Syria under the eary Mamluks Beirut* 1953, pp. 81-90.

(47) ينقل الرحالة الايراني حاجي بيرزاده (1887 — 1888) صورة عن مشاهداته للصوفية في المدن العربية يبدي اعجابه ببعض الصوفية الذين « يجلسون مع كل طبقة من طبقات الفقراء : راجع : حاجي بيرزاده ، سفرنامه ، ترجمة طوني الحاج ، أطروحة ، جامعة القديس يوسف 1983 ، ص 20 وص 211 .

(48) جب وبوون ، المجتمع الاسلامي والغرب ، ج 2 ، ص 115 .

الاسلامي (49) هو ما يسوغ الكلام عن انتماءات وسيطة توصل الى الانتماء الاشمل المتمثل « بالامة » على مستوى الجماعة ، و « بدار الاسلام » على مستوى المناطق (50) . واما العلاقة بالدولة فهي عبارة عن « رعويه » لسلطان تتمثل سلطته بسلم من صلاحيات « الولاية » التى تتركز محليا حول جباية الضرائب وضبط الامن دون ان تتدخل فى الانتماءات الوسيطة لكسرها أو الغائها (51).

ولقد لعب مشايخ طرق الصوفية دورا مهما فى تحديد السلوك الاجتماعى والسياسى للتابعين فى الحارة أو الطائفة . يقول احد ابناء الحرفيين فى وصف علاقة الدمشقيين بمشايخ الطرق : « ولما لم يكن من الوسائط بالنسبة اليهم ما يأخذ بأيديهم الى جادة الحق والصراط المستقيمين ، الا ملازمة طبقة العلماء وبعض الزهاد ممن اشتهروا بفضلهم وزهدهم ونسكهم اخذوا يلتفون حولهم منذ زمن بعيد ، يرجعون اليهم بكل ما يحتاجونه من أمور الدنيا والآخرة . سألت أحدهم الى من أنت ترجع فى استيضاح أمور دينك ودنياك قال لك : الى شيخى فلان ، وفعلا كانت بالنسبة لوضعهم البعيد عن كل ثقافة ودراسة بل وتعليم بدائى ، خير وسيلة لتنظيم شؤونهم والمحافظة على أوامر دينهم ، وكانت هذه الجماعات تلتف حول شيخها عقب صلاة العشاء أو المغرب أو أيام الجمعة عقب صلاة الجماعة ليصغوا الى ما يلقيه عليهم من النصائح والارشادات التى تزكيهم وتنظم حياتهم » (52) .

هذا واذا كانت شهادة العلاف هذه تعكس استمرارية حالة سلطة مشايخ الطرق حتى مطلع القرن العشرين في دمشق ، « كخير وسيلة لتنظيم شؤون

(49) راجع عن هذا الانتشار : بيتراغران ، الاسس الإجتماعية للثقافة في دمشق (1780 — 1850) حيث يشير المؤلف الى علاقة طريقة النقشبندية بوحدة الثقافة والتجارة الحرفية ، بين مراكز في الهند وسوريا وتركيا ومصر .

(50) راجع : Louis Gardet, *la cité musulmane*, P. 205, 208, 209 : 248,255,258. —

(51) راجع : فولف هيتروت (Hutteroth) الادارة المالية للمناطق المتاخمة للصحراء في سورية الكبرى في اواخر القرن السادس عشر في : المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام) ج 1 ، ص 137 . ويقول جب وبوون : « الحق ان ما نعرفه عن العلاقات الداخلية بين الحكومة والشعب ضئيل جدا ، وعلى اساس نتائج الدراسات السابقة في احوال مختلف قطاعات السكان (بما فيهم العلماء على هذا الأساس وحده يمكن القيام حقيقة بدراسة كافية لهذه المسألة الدقيقة الصعبة . ومن النادر ان نتطرق الشك في ان الحكومة من حيث مظهرها الإداري ، لم تكن مجرد اجراءات شكلية تفرضها على الشعب ارادة الفاتح ولكنها بناء على عضوي يرتبط ارتباطا وثيقا بكيان المجتمع وطبيعة الحكومتين وافكارهم ، وانه قد يوجد تفاعل مستمر بين الحاكمين والمحكومين ، ومن الضروري تطهير البحث من عناصر الخلط التي اورثها خطأ استعمال مصطلحات اوروبية مثل الإستبداد والاتوقراطية ، وان نخضع كل اجهزة الحكومة وتقاليدها لبحث جديد » . جب وبوون ، المجتمع الإسلامي والغرب ج 1 ص 18 .

(52) احمد حلمي العلاف ، دمشق في مطلع القرن العشرين ، ص 124 ، وتجدر الاشارة هنا الى ان واجب تقليد المرجع المجتهد عند المسلمين الشيعة لعب هو ايضا دورا حاسما في تحديد السلوك السياسي والإجتماعي لجماعة المقلدين وموقفهم من الحكام والسلاطين : راجع عبد الله الفياض ، الثورة العراقية الكبرى سنة 1920 بغداد 1963 ، ص 80 — 81 . أيضا : عبد الحليم الرهيمي ، الحركة الإسلامية في العراق خلال الربع الاول من القرن العشرين ، الجذور التاريخية والواقع التاريخي الجامعة اللبنانية 1984 ص 72 — 79.

الناس » فانها ومن جهة أخرى تعكس تحولا ما فى مجرى الثقافة السائدة نحو اعتماد معيار « آخر » في تعيين علاقة ما يمكن أن نسميه « رأيا عاما » بالمؤسسات السلطوية التى بدأت بالتشكل فى أجهزة دولة حديثة . وهو معيار يرى فى أقنية « التعليم » و » الصحافة » و « الاحزاب » بديلا للوضع الذى يصفه العلاف في مطالع القرن العشرين ــ أى فى الفترة التى بدأت هذه الاجهزة بالتكون والعمل ــ «بالبعيد عن كل ثقافة ودراسة بل وتعليم بدائى» .

والواقع ان ثمة نوعا من ثقافة ودراسة وتعليم « صدر من الزوايا والتكايا والمساجد فى المدن الاسلامية كان قد أمن للاتجاهات السياسية على مستوى الطريقة والمذهب والنهج وأسلوب النظر الكلامى ، القوى الاجتماعية الفاعلة والمتحركة فى المجتمع (53) .

ومن هنا يمكن ان نقول ان فكرة « الدولة » التى تحكمت فى صياغة النص التاريخى الحديث والتى انبثقت عن فكرة « الدولة الاقليمية » أو « القومية » الآتية من الغرب الحديث والحاملة معها مؤسسات ثقافية مغايرة (54) ، قد ساهمت الى حد كبير فى طمس طبيعة السلطة والثقافة ودورهما فى المدن الاسلامية فى العهد العثمانى . وهذا الطمس يطال فى جانبه الاساسى اشكال التنظيم الاجتماعي والسياسي الذي هو جزء من تنظيم سلطوي « أهلي أمنته ثقافة كانت تنتج على قواعد من الثوابت التاريخية التى تجد جذورها فى الاسلام الفقهى والصوفى والكلامى ومؤسساته من مسجد وتكية وزاوية ورباط ... (55) ، وفى الممارسة الاقتصادية الحرفية التى لم تخضع كحال الرأسمالية الاوربية لفلسفة المنافسة الحرة بل خضعت لضوابط ذاتية ايديولوجية وعقائدية جعلت من معيار « الحلال » مرجعا لشرعية الكسب (56).

د. وجيه كوثراني

---

(53) يقول بيتر غران في ذلك : « وكانت الزاوية في دمشق نقطة تجمع الناس ، يستطيعون منها مجابهة التحديات والمشاكل التي تواجه المدينة « بيتر غران ، الأسس الاجتماعية للثقافة الثقافة في دمشق ، ص 217 . ويمكن ان نستشهد بالمرادي في ترجمه لبعض مشايخ النقشبندية الذين تواصلوا مع التراث الصوفي الهندي ، وعملوا في مساجد دمشق واقام بعضهم حلقات تعليم في تكية محلة القماحين حيث بثوا فكرهم في اتباعهم ومريديهم من تجار وحرفيين ، راجع : محمد خليل المرادي النقشبندي ، سلك الدرر في اعيان القرن الثالث عشر ، القاهرة 1873 ــ 1883 ، ج 2 ص 2 ، وج 3 ، ص . 260 ــ 263 ، وج 4 ، ص 129 ــ 130 .

(54) راجع عن هذه الفكرة في دراسة انتروبولوجية :

— P. Clastres, *la société contre l'Etat*, P. 161-186.

(55) راجع عن هذه المؤسسات في بلاد الشام ، محمد كرد علي ، خطط الشام ج 6 ص 130 — 155 .

(56) راجع عن هذه الوجهة في النظر :

— L. Massignon, «*Les corps des métiers et la cité islamique*» Opera Minora, P. 377-378.

ونذكر ان المثل الحرفي الذي يستعيده لويس ماسينيون والدال على الضابط الإيديولوجي للعمل الذي لا يتوخى تراكما في الربح هو « لقمة كسب حلال كردن » راجع لويس ماسينيون مقدمة « قاموس الصناعات الشامية » محمد سعيد القاسمي ، باريس 1960 — ص 9 .

راجع : وجهة نظر خاصة في طبيعة الممارسة الاقتصادية في الإسلام في :

— M. Rodinson, *Islam et capitalisme*, Paris 1966, pp. 19-44.

« الهجرة والتغيير الاجتماعي في لبنان في آخر الحكم العثماني »

(1850 ــ 1914)

د. بطرس لبكي

مقدمة :

كان موضوع هجرة اللبنانيين المعاصرة وراء وضع العديد من المؤلفات في لبنان نفسه وفي بلدان المهجر ، بشكل خاص . استطعنا احصاء مئات العناوين لكتابات مختلفة الاحجام وضعت اما في العربية أو الفرنسية أو الانكليزية أو الاسبانية أو البرتغالية . وتختلف مواضيع هذه الكتابات : منها دراسات عامة ومنها دراسات أحادية عن الجماعات التي هاجرت ومنها دراسات قطاعية.

تتناول هذه الكتابات نواحي تاريخية وديمغرافية وسياسية ودينية وثقافية واجتماعية ونفسية واقتصادية عن الجماعات المهاجرة أو عن المنحدرين منها في بلدان المهجر .

لكن الكتابات عن علاقات تفاعل الهجرة اللبنانية مع مجتمعها الاساسي نادرة ، خاصة تلك التي وضعت من خلال نظرة دينامية ومتعددة الجوانب . وتريد أن تضع ضمن هذا الاطار هذه المساهمة في دراسة الهجرة اللبنانية المعاصرة .

ترتبط مميزات الهجرة اللبنانية بأشكال دمج لبنان والشرق وبعض المناطق الاخرى من العالم ، (أمريكا اللاتينية ، الولايات المتحدة الاميركية ، افريقيا الغربية ...) ، بالاقتصاد العالمي ووتائره ودورته وبنتائجه المحلية والاقليمية . من هذا المنطلق كان اختيارنا المميز لهذه الفترة لدراسة موجات الهجرة : الفترة الممتدة من 1850 الى 1914 التي تقابل « الثورتين الصناعيتين الاولتين » والتي تتعلق بشكل خاص بلبنان الاوسط .

1 ــ الاسباب الداخلية للهجرة :

تبدأ هذه الموجة الاولى للهجرة مع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، في عهد تميز على صعيد العلاقات مع الخارج بتغلغل متزايد للسلع ورؤوس الاموال والتقنيات الاوروبية بالاضافة الى المفاهيم الثقافية . وتميز هذا العهد على الصعيد الداخلي بتحولات اجتماعية مهمة : انهيار تدريجي لنظام

الاقطاع وتغيير فى مراكز القوى بين الفئات الاجتماعية وتزايـد ديمغـرافى غير متساو ونزوح داخلى .

أصابت التحولات لبنان الاوسط ، بشكل خاص ، حيث يمكـن تحسس نتائج الهجرة . وقد ساهمت هذه التحولات الخارجية والداخلية فى انطـلاقة ظاهرة الهجرة وتزايدها وتم ذلك من خلال الاوليات التالية :

أ ـ تـزايد ديمغـرافى كبيـر :

ساهم انتشار التقنيات الطبية الاوروبية ، (التلقيح وغيره) ، وارتفـاع المستوى الصحى الناتج عنها ، فى تخفيض وفيات السكان (خاصة فى لبنان الاوسط) . هذا التزايد السكانى غير المتوازن فى الزمان والمكان زاد الضغط على الارض فى منطقة كثيفة السكان وجبلية : المتصرفية أو مقاطعة جبل لبنان التى تقابل « لبنان الاوسط » (1) .

جدول رقم 1 : تقديرات السكان المقيمين في جبل لبنان بين عـام 1860 وعام 1914

السنـة	التقديـرات	السنـة	التقديـرات
1867	380 000	1900	400 000
1887	395 000	1905	382 000
1895	399 000	1913	468 714

جدول رقم 2 : تطور عدد السكان في مدينة بيروت بين عام 1860 وعام 1914

السنـة	التقديـرات	السنـة	التقديـرات
1860	46 000	1875	80 000
1863	60 000	1895	120 000
1865	80 000	1908	136 000
1870	70 000	1914	130 000

المصـدر : يوسف كرباج وفيليب فارغ ، الوضع الديمغرافي في لبنان . تحليل المعطيات ـ منشورات مركز الأبحاث في معهد العلوم الاجتماعية ، الجامعة اللبنانية ، بيروت ، 1974 .

ب ـ **حـرم انهيـار الحـرف المحليـة** وعدم التصنيع الذى ينتـج عنـه ، السكان من موارد لا يمكن أن تعوضها زيادة زراعات التوت ومصانـع غـزل الحرير المعد للتصدير . وقد أدى ذلك الى تفاقم مشكلة العمالة .

يمكن توضيح هذا التطور بانخفاض عدد أنوال الحيـاكة ، (عـرف هـذا النشاط انتشارا واسعا فى تلك الفترة) ، كما يبين لنا ذلك الجدول رقم 3 الذى يصف تطور عدد أنوال الحياكة خلال الفترة المذكورة .

(1) راجع سليمان البستاني ، « أمثولة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده » ، بيروت ، دار الطليعة ، 1987 ، ص 169 ، الطبعة الثانية ، مهد لها الدكتور خالد زيادة وعلق عليها .

جدول رقم 3 : تطور عدد أنوال الحياكة بين عام 1829 وعام 1912/1911 .

المركز	عدد الأنوال عام 1829	عدد الأنوال عام 1860	عدد الأنوال عام 1912/1911
دير القمر	—	400	25
الذوق	—	50	30
زحلة	—	20	—
صيدا	—	20	20
طرابلس	—	—	40
بيروت	—	—	70
المجموع	900	490	185

المصدر : غاستون دي كوسو ، صناعة الحرير في سوريا ولبنان ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية 1913 ، ص 180—181—182 و 206 .
وليم بولك : نظرة حول جنوبي لبنان 1788—1940 — جامعة هارفارد ، مطابع كامبريدج — مارس 1963 ، ص 166 .

ج ـ **التخصص في انتاج واحد معد للتصدير** ، خيوط الحرير أو الشرانق التى حدت من انتاج المواد القوتية وزادت فى حدة أزمة العالم الريفى وارتباطه بالنسبة للخارج .

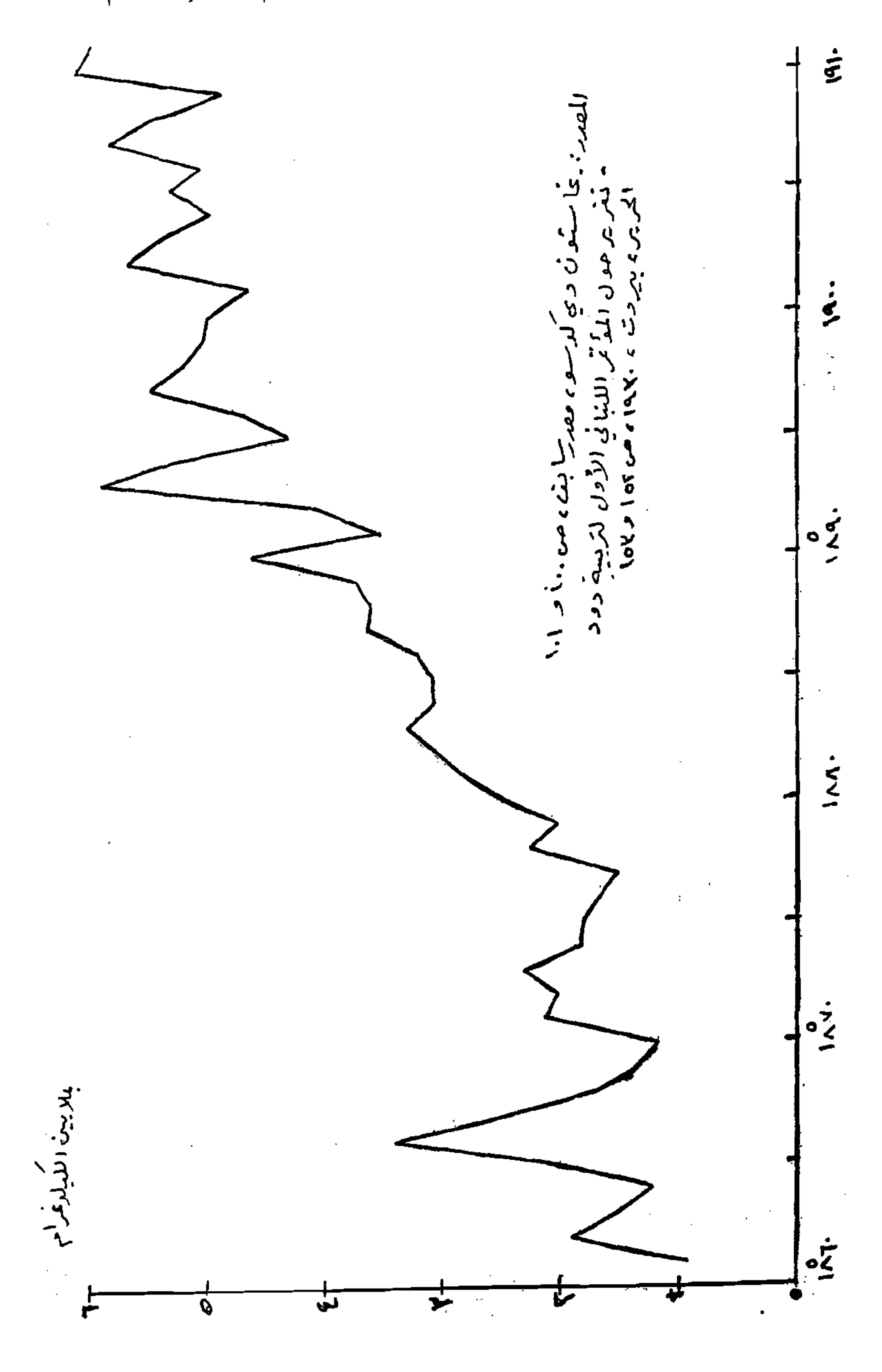
جدول رقم 4 : إنتاج الحرير الخام (بالكيلوغرام)

السنة	الوزن	السنة	الوزن	السنة	الوزن (2)
1873	150 000	1893	520 000	1901	410 000
1874	170 700	1894	466 000	1902	424 000
1875	135 700	1895	376 000	1903	494 000
1876	117 500	1896	420 000	1904	435 000
1877	140 000	1897	490 000	1905	480 000
1878	165 000	1898	465 000	1906	452 000
1879	171 000	1899	456 000	1907	517 000
1880	193 000	1900	450 000	1908	474 000
1881	266 000	1901	(1) 425 000	1909	472 009
1882	235 000	1902	(1) 540 000	1910	527 000
1783	290 000	1903	(1) 510 000		
1884	230 000	1904	(1) 460 000		
1885	265 000	1905	(1) 490 000		
1886	223 000	1906	(1) 470 000		
1887	340 000	1907	(1) 535 000		
1888	231 000	1908	(1) 490 000		
1889	324 000	1909	(1) 445 000		
1890	390 000	1910	(1) 540 000		
1891	290 000	1911	(1) 525 000		
1892	350 000	1912	(1) 400 000		
		1913	(1) 490 000		
		1914	(1) 430 000		
		1915	(1) 350 000		

(1) المصادر النقابية (2) المصادر القنصلية

المصدر : دومينيك شفاليه ، ليون وسوريا عام 1919 ، أسس التدخل ، مقالة منشورة في المجلة التاريخية عدد رقم 314 تشرين الأول — كانون الأول ، عام 1860 ، باريس ، ص 282—286 وغاستون دي كوسو ، المرجع السابق ، ص 142 .

رسم بياني رقم واحد : انتاج الشرانق بين عام ١٨٦١ و عام ١٩١٤



يبين الرسم البيانى رقم واحد والجدول رقم 4 زيادة انتاج الشرانق وخيوط الحرير . هذه الارقام موضوعة لتبيان الانتاج فى سوريا ولبنان معا ، يقدر الانتاج اللبنانى فيها بنسبة 90 % أما الانتاج السورى فيقدر بنسبة 10 % تقريبا . وقد تأثرت هذه الزيادة بانخفاض اسعار الحرير ابتداء من عام 1890 ، (راجع الرسم البيانى رقم 2) .

يتضح هذا التخصص من خلال تطور زراعة التوت على حساب الزراعات الاخرى ، خاصة الزراعات التوتية ، وكانت هذه الزراعة تحتل عام 1913 نسبة 40 % من مجموع الاراضى المزروعة فى جبل لبنان ، وكانت مداخيل نصف السكان تقريبا تأتى من هذه الزراعة (المزارعون ، والحياكون ، والعمال ، والوسطاء ، والتجار ، والناقلون ، وأصحاب البنوك ...) .

بالنسبة لاقتصاد المتصرفية كانت هذه الزراعة تمثل نسبة 73 % من مجموع المداخيل الواردة من انتاج السلع و 36،30 % من المداخيل الاجمالية كما يظهر فى الجدول المبنى أدناه .

جدول 5 : المصادر المحلية لمداخيل سكان متصرفية جبل لبنان عشية الحرب العالمية الأولى (1914–1918)

نوع الدخل	القيمة (بالقروش)
مداخيل إنتاج الشرانق	60 000 000
مداخيل غزل الحرير ومشتقاته	20 000 000
مداخيل زراعية أخرى	20 000 000
مداخيل أخرى من الحرف والمانوفاتورة والصناعة	10 000 000
سياحة واصطياف	20 000 000
تحويلات المغتربين المالية الصافية	90 000 000
المجموع :	220 000 000

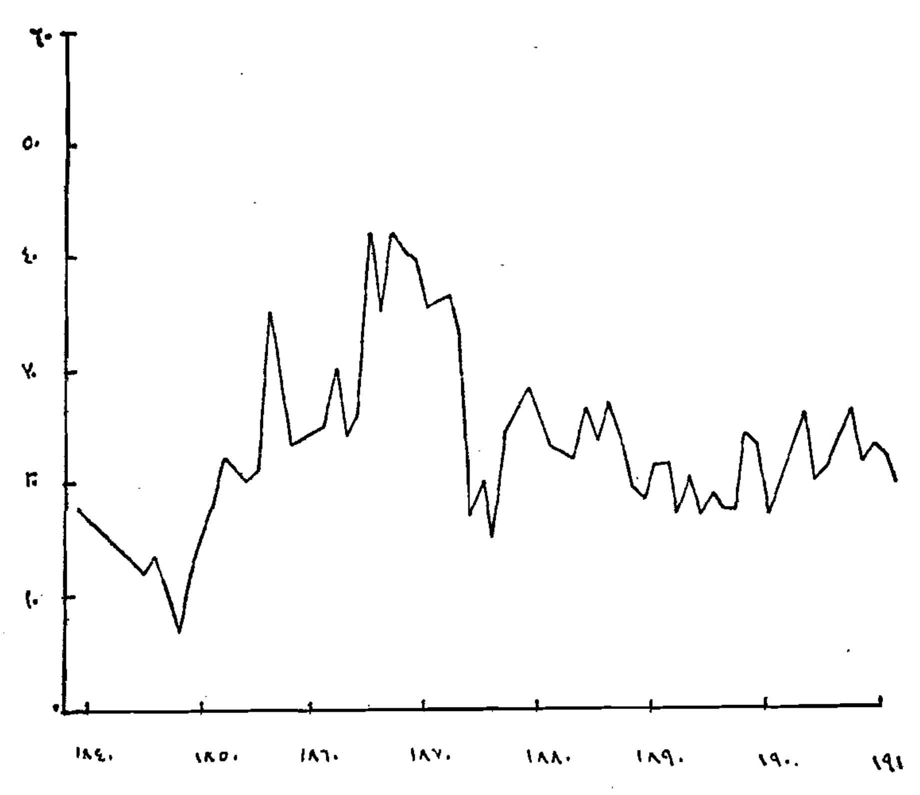
المصدر : إسماعيل حقي وآخرون ، لبنان مباحث علمية واجتماعية ، ص 472–473 ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت 1970 ، الطبعة الثانية .

وتترجم هذا التخصص على مستوى التجارة الخارجية بالطريقة نفسها : بلغت قيمة صادرات الشرانق والحرير تباعا أربعين مايون غرش وخمس وعشرين مليون غرش من مجموع الصادرات الاجمالية البالغة قيمتها 105000000 غرش . كان هذا القطاع يؤمن 62 % من صادرات المتصرفية .

وينعكس هذا الوضع بارتهان تجارة المتصرفية ، (الريفية بشكل أساسى)، الى الخارج ويظهر هذا الارتهان فى ميزانها التجارى عشية اندلاع الحرب العالمية الاولى (راجع الجدول رقم 6) .

يبين تحليل هذا الجدول أن البندين الرئيسيين للموارد هما تربية دود الحرير وتحويلات المهاجرين بينما يقابلهما فى التوظيفات بنود المنتجات الغذائية والصناعية . قاد هذا التطور جبل لبنان الى أن يصبح «مزرعة حرير» لمدينة ليون ولم يعد يسد حاجاته الاساسية الا عن طريق الواردات الضخمة . أصبح الارتهان الغذائى راسخا فى الاحداث منذ تلك الفترة كذلك الارتهان

رسم بياني رقم اثنان : سعر أقة الشرانق للمربي (بالقروش)



المصدر : دي كوسو ، مصدر سابق ص ١١٠ ـ ١١١
دومينيك شفاليه ، مصدر سابق ، ص ٢٣٠

الغذائية والصناعية ، قاد هذا التطور جبل لبنان الى ان يصبح «مزرعة حرير» لمدينة ليون ولم يمد يسه حاجاته الاساسية الا عن طريق الوادات الضخمة ، أصبح الارتهان الغذائي راسخا في الاحداث منذ تلك الفترة كذلك الارتهان للمنتجات الصناعية . أما على الصعيد المالي فقد أصبح الاقتصاد معانا عن طريق تحويلات المهاجرين المالية .

تمول هذه التحويلات ثلث الواردات و 40 % من المداخيل النقدية .

د ـ **تدهور في بنود التبادل التجاري** ، نتج عن هذه العوامل الثلاث مضافة الى الوضع الجديد للتقسيم الدولي للعمل الذي ساد منخلال المبادلات الخارجية. تجرى التجارة بين السلطنة العثمانية وأوروبا التي كانت تتصنع ضمن اطار تبادل غير متساو .

استطعنا تقدير هذا التدهور بالنسبة للمتصرفية فاستخدمنا معطيات التجارة الخارجية المستقاة من الجدول رقم 6 وافترضنا ان هذه المعطيات تعكس البنية حسب الانتاج في التجارة الخارجية لهذه المقاطعة بالنسبة لتطور أسعار هذه المنتجات وضعنا سلسلة لمؤشرات الاسعار ينطلق أساسها من بداية الفترة (1840 ـ 1860) وضعنا هذا للواردات والصادرات على حد السواء . وحصلنا على الاسعار الافرادية من السيد جوزيف عقيقي الذي أخذها بدوره من الارشيف المحفوظ في رهبانية المرسلين اللبنانيين في جونيه (2) .

جدول رقم 6 : المدفوعات الخارجية لمتصرفية جبل لبنان عشية الحرب العالمية الأولى (1914–1918) (بالقروش)

الموارد (الصادرات)		التوظيفات (الواردات)	
النوع	القيمة	النوع	القيمة
شرانق	40 000 000	حنطة	20 000 000
حرير	25 000 000	شعير وحبوب أخرى	45 000 000
أجراس ومعادن وأحجار مصنوعة	5 500 000	أحصنة وبغال وحمير وأبقار	2 500 000
صابون	1 500 000	حيوانات للذبح	3 500 000
جلد	2 700 000	جلد	5 000 000
أقمشة ومطرزات ونسيج الشعر وغيره	1 000 000	زبدة وسكر وقهوة ومنتجات أخرى	8 000 000
تبغ وسجائر	2 100 000	مغزولات قطنية	900 000
بطاطا	300 000	صوف وشعر	400 000
مشروبات كحولية	5 200 000	منتجات صناعية أوروبية	65 000 000
زيتون وزيت الزيتون	12 500 000		
منتجات الأشجار المثمرة	3 500 000		
عنب وعنب مجفف	4 000 000		
مداخيل الاصطياف	1 500 000		
تحويلات أموال المهاجرين الصافية	90 000 000		
المجموع	1963 000 000		1503 000 000

(2) بالنسبة لتفاصيل الحسابات يراجع جوزيف عقيقي في : « دراسة بعض وجوه تكون التخلف الاقتصادي والاجتماعي في منطقة كسروان بين عام 1840 و 1914 ، حسب وثائق دير الكريم » ، رسالة لنيل شهادة الجدارة في علم الاجتماع الإنمائي ، أيلول ، 1983 ، معهد العلوم الاجتماعية الفرع الثاني ، الجامعة اللبنانية ، ص 76–87 .

ارتفع مؤشر اسعار الصادرات خلال الفترة الممتدة بين (1850 و 1914) من 100 الى 157،59 بينما ارتفع مؤشر اسعار الواردات خلال الفترة نفسها من 100 الى 287،91 وانخفضت بنود المبادلات الصافية خلال الفترة على الشكل التـالى :

$$56،50 = \frac{100 \times 157،59}{278،91}$$

يقيس هذا التدهور انخفاض قوة الصادرات الشرائية للسلع المستوردة فى منطقة تساوى فيها الواردات 70 % تقريبا من المداخيل . هذا الانخفاض هو وجه لانخفاض مداخيل السكان الفعلية مما يضطرهم الى الهجرة .

هـ ـ أدى **تطـور التعليـم** الى تخريج مئات من المتعلمين لاقوا صعوبة كلية فى التكيف مع البنى الاجتماعية والسياسية القائمة . لقد ارتفع فعـلا عـدد المدارس فى البلاد من 50 مدرسة عام 1860 الى 142 مدرسة عام 1915 أى أن العدد قد تضاعف ثلاث مرات تقريبا خلال نصف قرن . وبلغ عدد التلامذة من الجنسين 120 ألف تلميذ وتلميذة عشية الحرب العالمية الاولى أى ما يوازى ربع السكان . يجب أن نضيف الى هذا فتح جامعتين خـلال الفتـرة : « الكليـة السورية الانجيلية » ، التى أصبحت فيما بعد الجامعة الامريكية فى بيروت ، وجامعة القديس يوسف . وكانت المدارس التقنية نادرة الوجود . ومن المؤكد أن هذا « الانفجار المدرسى » قد ساهم فى تغذية موجات الهجرة خاصة باتجاه مصر والولايات المتحدة الاميركية (3) .

و ـ هناك **مجموعة من العوامل غير الاقتصادية** كانت من أسباب انطـلاقة ظاهرة الهجرة وتسريعها نذكر منها :

ـ الصراعات الطائفية والاجتمـاعية والسياسية التى هـزت لبنـان فى منتصف القرن التاسع عشر .

ـ الرغبة فى التهرب من الخدمة العسكرية التى أصبحت الزامية للجميـع (خارج جبل لبنان) .

ـ الخطوات التى اتخذها الدائنون الذين يمولون سفر المهاجرين وتلك التى اتخذها ايضا سماسرة شركات الملاحة .

ـ نداء المهاجرين الى ذويهم وأصدقائهم ومراسلاتهم اليهم .

ـ التحويلات المالية الى الاقارب فى الوطن .

(3) راجع توفيق توما ، الفلاحون والمؤسسات الإقطاعية عند الدروز والموارنة في لبنان من القرن السابع عشر حتى عام 1914 ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ، 1971 ، ص 351—353 ، وسليمان البستاني ، المرجع المذكور ، ص 170 .

ـ بذخ الاهل المقيمين النسبى وبذخ المهاجرين العائدين الى الوطن .
ـ وأخيرا خيبات الامل والتخوفات الشخصية .

لعبت هذه العوامل جميعها دورا أكيدا فى التسبب بالهجرة وتسريعها (4).

2 ـ أسباب الهجرة فى بلدان المهجر :

أ ـ عرفت مصر ، التى اندمجت فى الاقتصاد العالمى بتحولها الى « مزرعة قطن لمنطقة لانكاشير » ، وبفتح قناة السويس ، نموا اقتصاديا وليبرالية سياسية نسبية جذبت العديد من اللبنانيين (عمال وتجار ومثقفين ورجال أعمال ...) . ان تخصص مصر بالزراعة الاحادية المدعومة باستثمارات ضخمة فى البنى التحتية والرى قد أدى الى التوسع السريع فى المساحات المزروعة . تزايدت هذه المساحات خلال تلك الفترة على الشكل التالى : (بالفدان ، يساوى الفدان الواحد 4500 م2) :

1840	1863	1893	1914
3756000	4052000	5410000	6410000

رافق هذه الزيادة فى المساحات المزروعة توسع قوي فى انتاج القطن الذى تطور على الشكل التالى : (بالقنطار ، القنطار يساوى 45 كيلوغراما) :

1484	1852	1905	1914
120000	670000	2250000	7300000

بلغ معدل هذه الزيادة 6000 % فى ظرف ثلثي قرن.هذا المعدل للزيادة هو من أقوى المعدلات التى عرفتها بعض المجموعات المهمة فى الاقتصاد المصرى خلال تلك الفترة . لقد كان معدل زيادة الاقتصاد المصرى بين عام 1880و1914 7 و 10 % سنويا (5) .

ب ـ كان لنمو الولايات المتحدة الامريكية الاقتصادى تأثيرا مماثلا خاصة بعد انتهاء الحرب الانفصالية فيها (هجرة العمال ، وبائعى الكشة ، والمثقفين). وخلال الفترة الممتدة من عام 1870 حتى عام 1913 عرفت الولايات المتحدة الامريكية ، فعلا ، أقوى معدل للزيادة السنوية فى الناتج المحلى القائم بين

(4) راجع ، ايلي صفا ، الهجرة اللبنانية ، منشورات كلية الحقوق في جامعة القديس يوسف ، بيروت ، 1960 ص 168–185 .

(5) راجع ز.ي. هيرشلغ ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي في الشرق الأوسط ، بريل ، طبعة ليدن ، 1964 ص 83–107 و 121 ، وحسن رياض ، مصر الناصرية ، منشورات مينوي ، باريس 1964 ، ص 163 .

مجموع الدول الصناعية (4،3 % في السنة) (6) . وقد تترجم هـذا النمـو بموجات هجرة اليها متزايدة .

ج ـ ان النمو الاقتصادى للعديد من دول أمريكا اللاتينية التى انـدمجت فى الاقتصاد العالمى ، كمصدر للمواد الاولية ، قد أحدث أيضا موجة هجرة خاصة الى البرازيل والارجنتين والمكسيك . فى هذه البلـدان التى كانـت تتوسع بسرعة ، جذب « الجوع الى اليد العاملة » موجات المهاجرين من القارات القديمة . تم امتصاص هذه الموجات فى حاجات استثمار البلدان وفقا لمتطلبات السوق العالمية (7) .

د ـ أدى توسع فرنسا فى افريقيا الغربية قبيل انتهاء هـذه الفتـرة الى هجرة التجار وبائعى الكشة وأشكال مختلفة من الوسطـاء ، امتصت تجـارة المقايضة ، التى كانت فى أوجها ، هؤلاء الوسطاء بفعل الاستثمار الاستعمارى للقارة . توجهت الهجرة بشكل رئيسى نحو السنغـال وغينيـا (8) . يجب الاضافة الى هذه الهجرات ، ذات الشأن ، بعض الهجرات الاقل شأنا منها مثل الهجرة الى حوران وكيليكيا وفلسطين والولايات العثمانية الاخرى .

3 ـ وقـائـع الهجـرة :

أ ـ **الوقـائع المحليـة** معبرة ، ويمكن تلخيصها على الصعيـد الاجمـالى كما يلى :

جدول رقم 7 : معدلات الهجرة اللبنـانيـة حتى عـام 1914

الفتـــرة	معدلات الهجـرة السنوية	العدد التراكمي للمهاجرين
1900–1860	3 000	120 000
1914–1900	15 000	210 000

المصدر : بعثة ايرفد ، حاجات تنمية لبنان وامكاناتها ، المجلد الأول ، ص 49 ، بيروت 1960–1961 ، وزارة التصميم العام .

(6) راجع فرنسوا كارون ، النمو الاقتصادي ، في تاريخ العالم الاقتصادي والاجتماعي ، مجلد 4 (1840–1904) ، أرمان كولان ، باريس 1978 ، ص 73 .

(7) راجع شلسوفورتادو ، تكوين الاقتصاد البرازيلي ، جمعية الناشرين الوطنيين ، سان باولو ، 1972 ، ص 123–128 ، الطبعة الحادية عشرة ، وألدو فيرار ، الاقتصاد الأرجنتيني ، مؤسسة الثقافة الاقتصادية ، مكسيكو بونيس أيريس، 1973 ، الطبعة الثامنة ص 91–149 وخاصة الصفحتين 106 و 107 .

(8) راجع سمير أمين ، عالم التجارة السنغالية ، منشورات مينوي ، باريس 1969 ، ص 12–18–19–21 ، وسمير أمين ، أفريقيا الغربية المعاصرة ، منشورات مينوي ، باريس

نملك عن معدلات الهجرة السنوية معطيات أكثر تفصيلا يعود تاريخها الى بداية القرن العشرين نثبتها تباعا في الجداول التالية :

جدول رقم 8 : عدد المغادرين البلاد عام 1909 .

جنسية البواخر / مرافىء المغادرة	طرابلس	بيروت	المجموع
ايطالية	1807	4002	5809
فرنسية	3759	4280	8039
المجموع	5566	8282	13848

المصدر : ارنست ويكلي ، تقرير حول شروط التجارة الأنكليزية وأفاقها في سوريا ، 1911 ، منشورة في نشرة اللجنة الاقتصادية التابعة لمكتب التجارة في البرلمان ، المجلد 87 (1911) .

جدول رقم 9 : عدد المغادرين البلاد في عامي 1911 و 1912 .

المغادرون	1911	1912
الهجرة بواسطة مرفأي طرابلس وبيروت من ولايتي بيروت وبر الشام ومن متصرفية جبل لبنان أيضا	14 000	24 000

المصدر : تقرير القنصل الألماني في بيروت في عام 1912/1911 ذكره أرتير روبين ، مصدر سابق ، ص 20 .

نلاحظ ان حركة الهجرة الاجمالية قد تسارعت بين عام 1909 و 1911 و 1912 . أما بالنسبة للهجرة من مرفأ بيروت فقد انخفضت في عام 1913/1912 وعادت الى الارتفاع عام 1914/1913 لكنها تراجعت نسبيا في عام 1915/1914 مع بداية الحرب .

جدول رقم 10 : حركة مرفأ بيروت عشية الحرب العالمية الأولى

السنة	الواصلون	المغادرون	الرصيد
1329 هجرية (1913/1912)	18131	18904	873
1330 هجرية (1914/1913)	9387	16739	7352
1331 هجرية (1915/1914)	350	6109	5669
المجموع	27868	41752	13884

المصدر : دارة مرفأ بيروت كما أوردها أرتير روبين ، في كتابه « سوريا ، مجال اقتصادي » الذي ترجمه جورج شعيب من الألمانية إلى الفرنسية ، بيروت ، 1917 ، ص 19 .

1971 ، ص 23—72 ، وجان سورية كانالي ، أفريقيا السوداء في عهد الاستعمار من 1900 الى 1945 ، المنشورات الإجتماعية ، باريس ، 1964 ، ص 58—78 ، وميشال أسمر ، هجرة سكان بلدة بيت شباب إلى غينيا ، رسالة لنيل شهادة الجدارة في علم الاجتماع الإنمائي ، الجامعة اللبنانية ، بيروت .

قدر ارتير روبين فى عام 1917 ان العدد السنوى الوسطى للمغادرين من لبنان وسوريا وفلسطين كان يتراوح بين 15000 و 20000 مهاجر وان نسبة تتراوح بين 33 % و 50 % من هؤلاء المهاجرين تعود الى البلاد بعد ان تحقق ادخارا معينا . ان عدد المهاجرين المسجلين فى سجلات متصرفية جبل لبنان كان مقدرا فى عام 1915 كما يلى :

جدول رقم 11 : المهاجرون المسجلون في سجلات متصرفية جبل لبنان عام 1915

القضاء	عدد المهاجرين المسجلين	القضاء	عدد المهاجرين المسجلين
البترون	26124	الشوف	16961
الكوره	7204	جزين	8061
كسروان	14895	دير القمر	5327
المتن	19853	زحلة	2332
المجموع			100757

المصدر : أرتير روبين ، مصدر سابق ، ص 20 .

نلاحظ تسارع الهجرة ابتداء من عام 1900 بسبب ازمة تربية دود الحرير و « تأثير » المهاجرين الاوائل على محيطهم الاجتماعى الذى انطلقوا منه (العائلة ، القرية ، المنطقة الخ ...) .

يذكر ارتير روبين تقديرا لعدد المهاجرين السوريين فى أمريكا الشمالية والجنوبية عام 1912 بحدود 500000 نسمة منهم 250000 نسمة من متصرفية جبل لبنان .

لكن هذه الارقام عن عدد المهاجرين مشكوك بصحتها . ورد في تقدير محلي ان عدد المهاجرين من متصرفية جبل لبنان قبل عام 1914 بلغ 150000 شخص (9) . وأشار تقدير آخر الى رقم مئة ألف مهاجر مسجل فى سجلات جبل لبنان عام 1915 (راجع الجدول رقم 1) . يعتبر كل من التقديرين ان عدد سكان جبل لبنان كان فى ذلك العهد بحدود 400 ألف نسمة . ويشير

(9) راجع ، إسماعيل حقي ، مصدر سابق ، ص 452 .

تقدير آخر الى وجود خمسمائة ألف مهاجر فى أمريكا من أصل لبنانى وسورى وفلسطينى منهم 250000 مهاجر من أصل لبنانى (10) . ان تاريخ الهجرة الديمغرافى لا يزال ناقصا ويحتاج الى من يقوم بوضعه .

وبالنسبة لقضاء البترون كان عدد المهاجرين عام (1921) 6682 مهاجرا وعدد السكان المقيمين 10733 وعدد السكان الذين ماتوا فى الحرب (1914/1918) 8661 شخصا ، مما يعنى ان نسبة المهاجرين كانت تساوى 25،53% من مجموع السكان الفعليين فى المنطقة (11) (راجع الجدول رقم 12) .

اما بالنسبة لقضائى المتن وبعبدا فقد قدر تقرير صدر عام 1906 عن مطرانية قبرص المارونية ، (التى تقابل تقريبا قضائى بعبدا والمتن) ، ان عدد السكان المقيمين يساوى 29238 نسمة ، (راجع الجدول رقم 13) ، وان عدد المهاجرين من الابرشية يساوى 5856 نسمة . ان نسبة المهاجرين تساوى 15 % من مجمل السكان الاجمالى (12) .

جدول رقم 12 : المهاجرون من بلاد البترون والمقيمون فيها عند نهاية الحرب العالمية الأولى

البلدة	عدد السكان	عدد المهاجرين
كفر عبيدا	317	125
سلعاتا	78	35
البترون	3550	1000
تحوم	140	120
راشانا	44	2
غوما	111	61
مراح شديد	69	46
مراح الزيات	29	15
سمار جبيل	127	120
كفيفان	226	83
أجدبرا	110	70
عبرين	320	350
بجدرافل	220	240
بزبينا	20	2
كفرحي	150	130
بقسميا	214	223
جبلا	55	10
حلتا	210	140
صورات	180	130

(10) راجع أرتير روبين ، مصدر سابق ، ص 20 .

(11) استخرجت هذه المعطيات من سجل الزيارة الرعائية التي قام بها المطران بطرس فغالي إلى بلاد البترون والتي انتهت في 1921/10/30 . وقد أرسل إلينا هذه المعطيات الدكتور جان نخول الذي جمعها من أرشيف دير مار يوحنا مارون في بلدة كفرحي ، البترون .

(12) دليل إبرشية قبرص المارونية في لبنان والجزيرة ، أنطلياس – قرنة شهوان ، 1890 .

تابع جدول رقم 12 :

البلدة	عدد السكان	عدد المهاجرين
الفتاحات – عرطز – حربونه	150	18
كفرحتنا	80	40
سمور	255	46
زان	171	65
شبطين	175	210
دريا	79	62
أده	112	149
جران	212	129
نيحا	167	114
الكفور العربي	485	112
حردين	300	650
دير بلا	151	47
حارة بيت كساب	62	37
البستان	27	5
حارة بيت شلالا	150	150
تنورين	؟	؟
دوما (موارنة)	55	81
يشلي	463	462
اصيا	286	120
مراح الحاج	44	44
العلالي	54	18
محمرش	181	6—48
راشا	52	69
حدتون	149	84
رام	62	44
مار ماما	57	5
الدوق	80	50
مزراح	36	59
ظهر أبي ياغي	19	22
تولا	143	326
عبدلي	207	600
جربتا	52	35
صغار	48	74
المجموع	10733	6683

المصدر : سجل زيارة المطران بطرس فغالي الرعائية لمنطقة البترون التي انتهت في 30 تشرين الأول عام 1921 (أرشيف دير مار يوحنا مارون في كفر حي) .

جدول رقم 13 - المهاجرون من قضاء المتن (الشمال والجنوبي) والمقيمون فيه عام 1906

البلـــــدة	عـدد السكـان	عـدد المهاجرين
عـاريـا	500	30
شويت	165	11
دير الكحلونية	150	9
الدكوانـة	500	—
برج حمـود	450	20
البـوشريـة	250	2
عمـارة شلهـوب	400	10
الـزلقـا	150	20
عمـاريـة	20	—
انطليـاس	340	5
بقنايا — جل الديب	—	50
بصاليم	60	12
المطيلب	60	5
بيت الشعار	400	60
ديك المحدي	360	75
مزرعـة يشـوع	900	300
زكريت	400	110
الفـريكـة	250	30
قـرنـة الحمرا	850	150
بيت الككو	200	80
عين علـق	260	26
القنيطرة	100	15
قـرنـة شهوان	805	230
عين عـار	510	55
وادي شـاهين	150	43
مـار بطرس	120	—
الميـاسـة	490	8
عيـن الخروبـة	310	20
حملايـا	600	60
بـكفيـا	4000	1525
ساقيـة المسك	630	168
بحرصـاف	275	30
بـرمـانا	480	105
جـورة البلـوط	350	40
نـابيـه	26	15
الغـابـة	130	11
المسقى	90	20
المزكـة	100	60
قـرطاضـة	144	40
زندوقـة	87	4
القصيبـة	130	—
الـكنيسـة	360	65
بصفـريـن	140	100
الـدليبـة	300	10
العـربـانيـة	600	120

تـابـع جـدول رقـم 13 :

البلـدة	عـدد السكـان	عـدد المهاجرين
صـاليمـا	1800	130
ديـر الحرف	300	25
الشبـانيـة	1510	145
بمـريم	400	10
بتيتـات	36	—
حمـانا	2200	420
كفـرسلـوان	162	12
تـرشيش	200	30
جـوار الحـوز	400	35
القمقـور	300	20
الـدوار	360	10
الشـوير	3000	20
عين التفـاحـة	100	—
شـويا ــ الزغرين	200	10
بيت شـبـاب	5100	1200
الشـاويـة	250	40
المجمـــوع	29238	5856

المصـدر : تقرير عن زيارة رعـائية لمطرانية قبرص المارونيـة عـام 1906 ، منشور في دليل الأبرشية في لبنان والجزيرة ، انطليـاس ، قرنة شهوان ، 1980 ، ص 111 الى 137 .

وأشارت أيضا دراسة عن بلدة بشمزين فى قضاء الكورة الى الى ان نمط الهجرة فيها حتى عام 1914 كان كما يلى :

جدول رقـم 11 : الهجرة من بلدة بشمزين في الكورة بين عام 1880 وعـام 1914 .

الفتـرة	84/1880	89/85	94/90	99/95	04/1900	09/1905	14/1910
عدد المهاجرين خلال الفترة	1	6	13	38	67	67	65

المصـدر : عفيف طنوس ، الهجرة عامل للتغيير الاجتمـاعي في القرى العربية ، منشورة في مجلـة علم الاجتمـاع الريفي ، المجلد السابع ، 1942 ، ص 62 .

نلاحظ تسارع حركة الهجرة ابتداء من عام 1900 .

ب ــ **الهجرة الى مصر** : هذه الهجرة المعروفة جيدا على الصعد الاجتماعية ــ الثقافية والاقتصادية والسياسية غير معروفة تماما على الصعيد الديمغرافى .

ان تقدير عدد اللبنانيين فى مصر (المعروفة آنذاك بانها مقاطعة عثمانية نظريا) غير متوفر الا لسنوات 1940 ، حيث قدر فى تلك الفترة بستين ألف نسمة . يبدو ان غياب التقديرات عن الهجرة قبل عام 1914 ناتج عن وضع مصر القانونى ، (عثمانية نظريا) ، الذى كان يعتبر هذه الهجرة نزوحا داخليا ، تشير مصادر القنصلية الفرنسية الى وجود تجار لبنانيين فى الاسكندرية عام 1893 من عائلات خلاط وجرجور وحمصى وسرسق ودبانه (13) .

ج ـ يمكن تبيان الهجرة اللبنانية الى الولايات المتحدة الامريكية من خلال الجدول رقم 15 (الذى يبين عدد السورين المهاجرين اليها الذين هم بغالبيتهم من اللبنانيين) :

جدول رقم 15 : التدفق السنوي للمهاجرين السوريين الى الولايات المتحدة الأمريكية (1919 — 1899)

السنة	عدد المهاجرين السنوي
1899	3708
1900	2920
1901	4064
1902	4982
1903	5551
1904	3653
1905	4822
1906	5824
1907	5880
1908	5520
1909	3668
1910	6317
1911	5444
1912	5525
1913	9210
1914	9023
1915	1767
1916	676
1917	976
1918	210
1919	231
المجموع	89971

المصدر : التقرير السنوي لمفوض الهجرة العام ، 1919 ، ص 168 ذكره فيليب حتى في كتابه « السوريون في أمريكا » ، جورج 5 . داران وشركاه ، نيورك ، 1924 ، ص 62 — 65 .

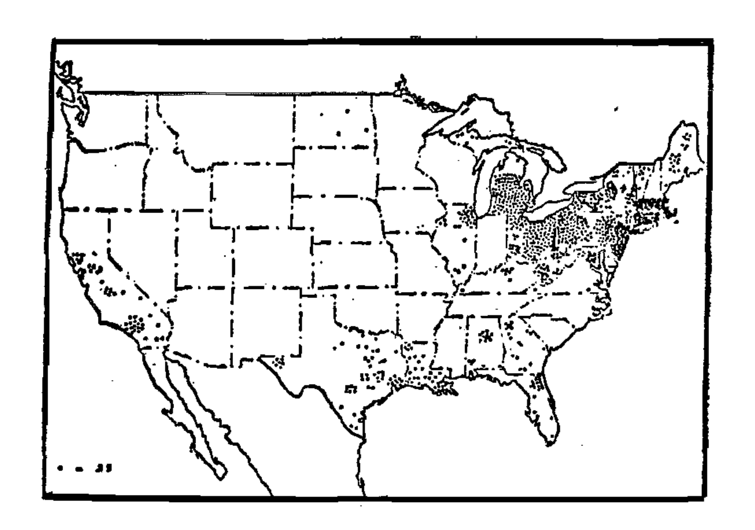
(13) راجع غبريال منسي ، من اجل تجديد اقتصادي لبناني بمساهمة لبنان ما وراء البحار — منشورات الجمعية اللبنانية للاقتصاد السياسي ، بيروت 1950 ، ص 6 .
— الأرشيف الوطني (باريس) — وزارة التجارة — سلسلة — F 12 — كارتون ، 7414 — الملحقان 2 و4 من تقرير القنصل الفرنسي في الإسكندرية (1893) .

يؤمن السوريون (الذين هم بغالبيتهم الساحقة من اللبنانيين) تدفقا سنويا للمهاجرين يسير بازدياد مع بعض التقلبات ويبلغ ذروته عشية الحرب العالمية الاولى .

أشارت المصادر القنصلية الفرنسية فى بيروت الى تسارع هذه الهجرة ابتداء من السنوات العشر الاخيرة من القرن التاسع عشر (14) ، ونسبت سببها الى تدنى الاجور فى الريف عام 1893 .

وتشير هذه المصادر فى عام 1905 الى ان ثلث سكان جبل لبنان قد سافر الى أمريكا وتذكر المصادر نفسها ايضا الجهود التى تبذلها السلطات العثمانية لكبح جماح هذه الهجرة . يتجمع هؤلاء المهاجرون فى الولايات الواقعة شمالى شرقى الولايات المتحدة الامريكية كما يظهر فى الخريطة رقم 1 .

خريطة رقم واحد : التوزيع الجغرافي للمهاجرين اللبنانيين السوريين في نهاية الحرب العالمية الأولى (1914 / 1918) في الولايات المتحدة الأمريكية .



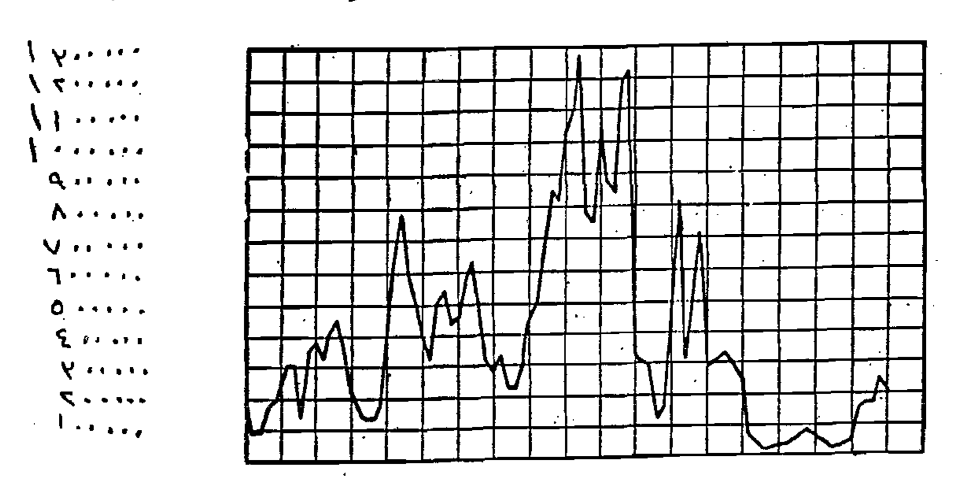
المصدر : فيليب حتى . مرجع سابق ، ص 64 .

---

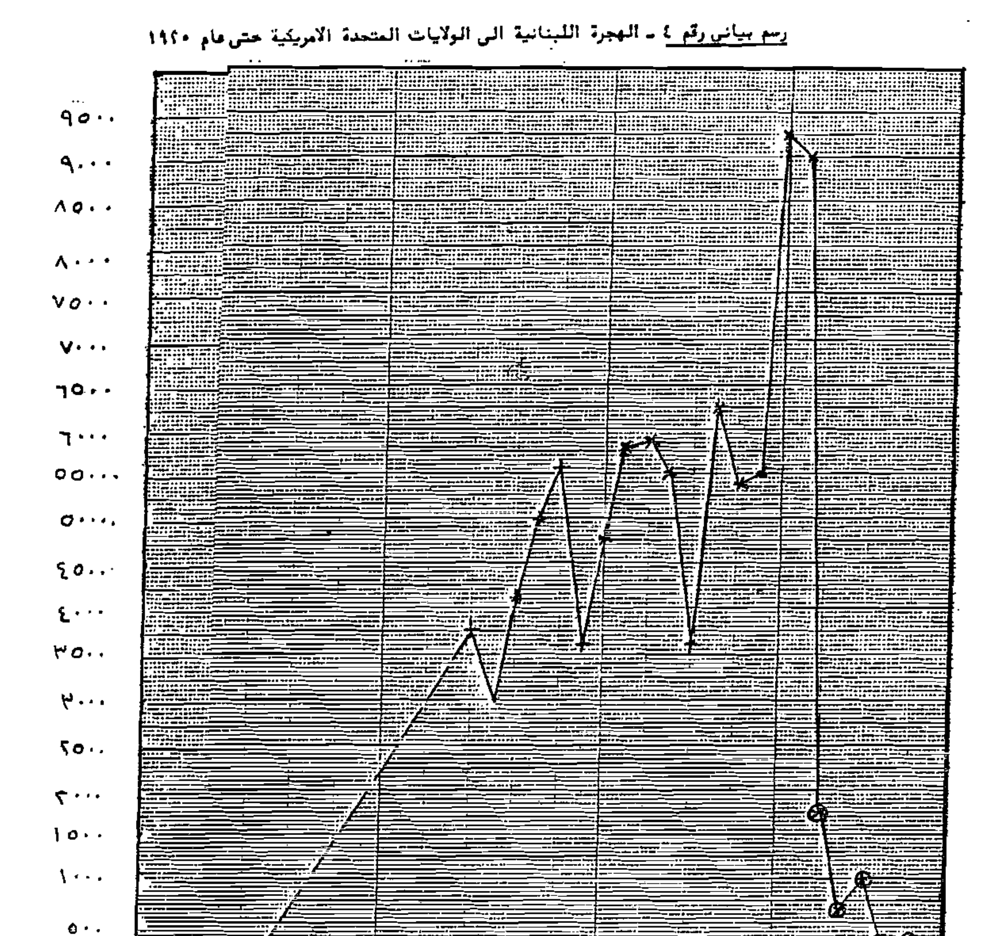
(14) الأرشيف الوطني – مصدر سابق، مجموعة F .12 – كارتون، 7192 – القنصلية الفرنسية العامة في بيروت : وضع التجارة والصناعة ، رسالة مؤرخة في 5 / 6 / 1983 و حركة التجارة والملاحة في بيروت عام 1905 .

من جهة أخرى ، فاذا قارنا التواتر السنوى لكامل الهجرة الى الولايات المتحدة الامريكية ، المبين فى الرسم البيانى رقم 3 مع تواتر الهجرة اللبنانية اليها ، المبين فى الرسم البيانى رقم 4 ، نلاحظ وجود توازى بينهما . يحملنا هذا الافتراض بأن « عوامل الجذب » للهجرة اللبنانية الى الولايات المتحدة الامريكية كانت أقوى من العوامل المحلية التى كانت تدفع بهذه الهجرة من لبنان . هذا بالرغم من الدور الاكيد الذى لعبته ليبرالية التشريع العثمانى بعد عام 1908 .

رسم بياني رقم ٣ ـ الهجرة الى الولايات المتحدة الامريكية (١٨٦٠ ـ ١٩٥٥)



المصدر : الإحصاءات السنوية ، 1921 ، ص 883 ، و 1940 ، ص 99 ، ص 95 .



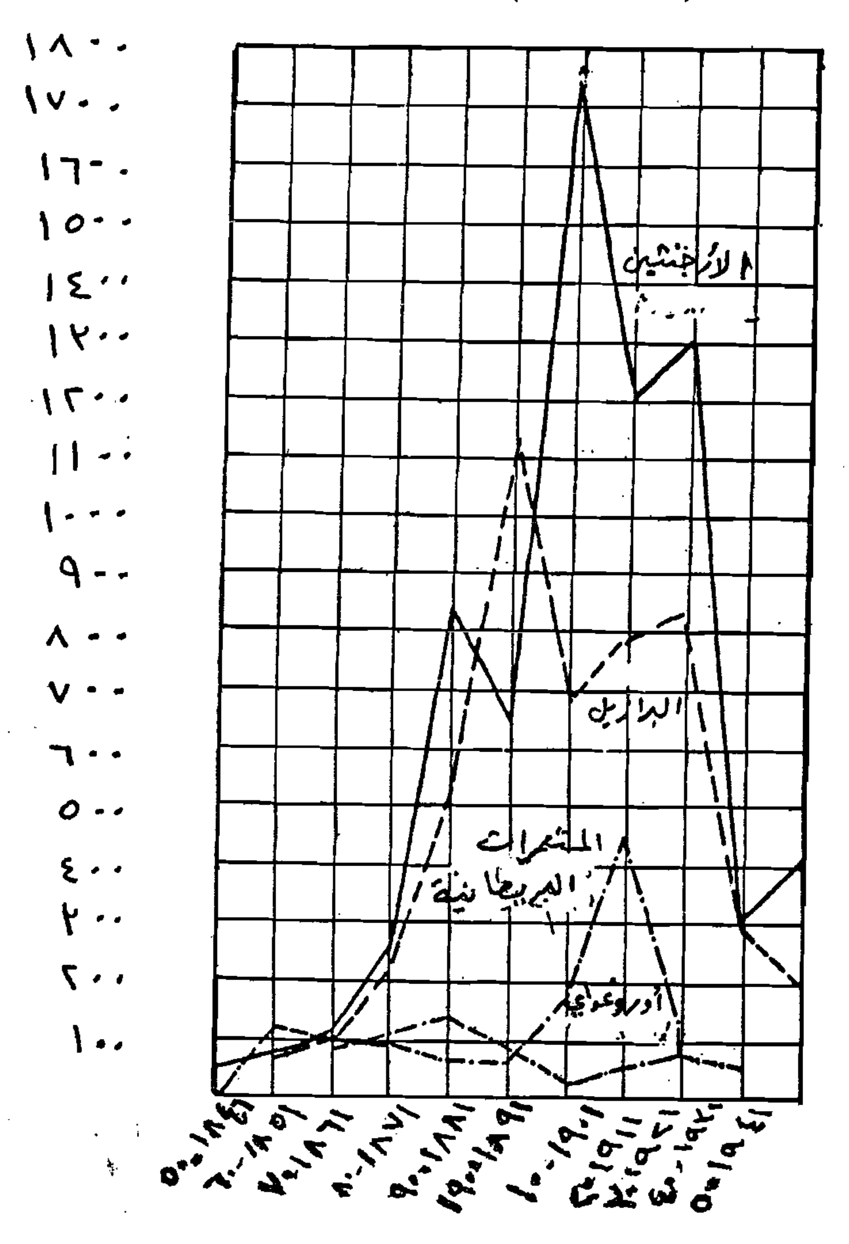
رسم بياني رقم ٤ ـ الهجرة اللبنانية الى الولايات المتحدة الامريكية حتى عام ١٩٢٠

المصدر : ايلي صفا ، مصدر سابق ، ص ١٨٨ الى ١٩٠ .

د ـ الهجـرة الى أمريكـا الـلاتينية :

يمكن التعبير عن كامل الهجرة الى بعض بلدان أمريكا اللاتينية بالـرسم البياني رقم 5 .

رسم بياني رقم 5 – الهجرة نحو الأرجنتين والبرازيل والاوراغواي والمستعمـرات البريطانية في أمريكا اللاتينية (1845 – 1950) .



المصـدر : فريدريك مورو – تاريخ العـالم الإقتصادي ، سيراي ، بـاريس ، 1967 .

استقبلت الارجنتين وحدها 3،300،000 مهاجر (صافى الهجرة) بين عام 1857 و عام 1914 وهذا يعنى متوسطا مقداره 58000 شخص فى السنة (15) ، ويمكن وصف الهجرة اللبنانية الى الارجنتين فى الجدول رقم 16 ، المبين أدناه.

جدول رقم 16 : التواتر السنوي للهجرة اللبنانية الى الأرجنتين 1887 — 1913 .

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
1887	19	1900	1583
1888	31	1901	2195
1889	2020	1902	1671
1890	210	1903	1450
1891	21	1904	3662
1892	30	1905	7055
1893	122	1906	7177
1894	122	1907	7436
1895	380	1908	9101
1896	7197	1909	11765
1897	1194	1910	15474
1898	1715	1911	13605
1899	3196	1912	19092
		1913	19542
			المجموع : 130936

المصدر : نبيل حرفوش ، الحضور اللبناني في العالم ، المجلد رقم 1 ، 1974 ، جونيه ، ص 49 .

خلال هذه الفترة ، أى بين عام 1887 و 1913 ، ترك 38424 لبنانيا الارجنتين ويكون بالتالى صافى الهجرة اليها ، خلال الفترة نفسها 92513 لبنانيا .

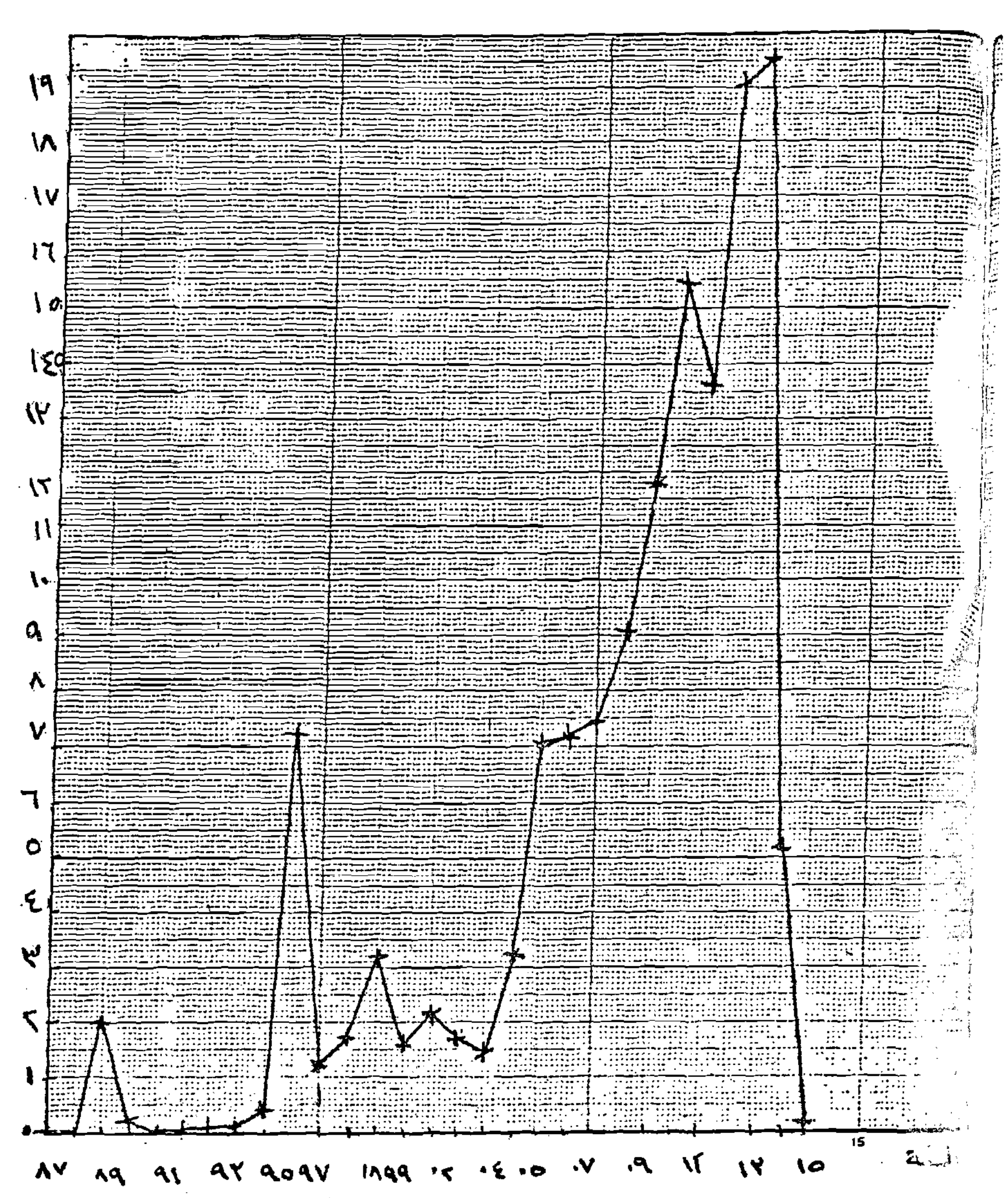
عرفت البرازيل أيضا هجرة مماثلة يمكن تلخيصها فى الجدول رقم 17 الذى يصف الهجرة اللبنانية الى البرازيل (16) . (يقدر المؤلف أن 85% من المهاجرين ، المحسوبين سوريين وأتراك فى الجدول ، هم لبنانيون) .

تعطى هذه الارقام متوسطا قدره 1500 شخص فى السنة لكن تسارع الهجرة ينطلق ابتداء من عام 1900 .

(15) راجع ألدو فيرير ، مصدر سابق ، ص 106 .

(16) راجع غبريال منسي ، خطة لبناء الاقتصاد اللبناني واصلاح الدولة ، منشورات الجمعية اللبنانية للاقتصاد السياسي ، بيروت 1848 ، ص 384 و 385 .

رسم بياني رقم ٦ ـ التدفق السنوي للمهاجرين اللبنانيين الداخلين الى الارجنتين



المصدر: نبيل حرفوش، مصدر سابق، ص ٤٩

جدول رقـم 17 : الهجرة اللبنانية الى البرازيل .

السنـوات	ســوريون	أتراك	المجمـوع	اللبنانيـون
1893 – 1884	93	3	96	82
1903 – 1894	602	6522	7124	6055
1993 – 1904	3826	42177	46003	39102

ان مقارنة معطيات الهجرة اللبنانية الى الارجنتين ،(جدول رقم 16 ورسم بياني رقم 6) ، والبرازيل ، (جدول رقم 17) ، مع كامل الهجرة الى هذين البلدين ، كما هو مبين في (الرسم البياني رقم 5) ، تظهر ان الارتباط بين التواتر السنوي للظاهرتين ضئيل جدا . يحملنا هذا الى الافتراض بأن تواتر الهجرة اللبنانية الى البلدين تأثر بوضع بلد الانطلاق ، وربما بوضع الجاليات اللبنانية في بلاد المهجر أكثر مما تأثر بالوضع العام السائد في بلاد المهجر . وهذا الوضع هو تماما عكس الوضع الذى كـان سائـدا بالنسبـة للهجـرة اللبنانية الى الولايات المتحدة الامريكية .

هـ ـ الهجـرة الى افريقيـا :

يصف مؤلفان مؤهلان هذه الهجرة بالعبارات التالية :

ان المهاجرين الى افريقيا الغربية المعروفين بـ « اللبنانيين ـ السوريين » هم بغالبيتهم من اللبنانيين . لم يكن عددهم الا أربعة أو خمسـة عام 1892 وثلاثين عام 1897 . وبلغ عددهم عام 1900 : 400 مهاجر وأصبح 4000 خلال الحرب العالمية الاولى . هؤلاء المهاجرون الذين كانوا يمثلون عام 1908 : 57،15 % من مجموع السكان الاجانب في افريقيا الغربية الفرنسية أصبحوا عام 1909 أي خلال عام واحد فقط ، يمثلون 64،78 % من مجموع السكان الاجانب . يستقر هؤلاء بشكل قوي في السنغال : كان عددهم مئـة عـام 1900 فأصبح خمسمائة في عام 1914 (17) .

ان الفرز الاولي للمعلومات الصادرة عن ارشيف حكومة افريقيا الغربية الفرنسية (المتوفرة بشكل ميكرو فيلم في الارشيف الوطني في باريس) ،

(17) ايلي صفـا ، الهجرة اللبنانية ، مصدر سابق ، ص 191 .
– وسمير أمين ، مصدر سابق ، ص 12 ، 18 ، 19 ، 21 .

بالاضافة الى استثمار الدراسات اللاحقة تسمح لنا بابراز المعطيات التالية الخاصة بالهجرة المبنانية ـ السورية الى افريقيا الغربية الفرنسية فى نهاية القرن التاسع عشر (الجدول رقم 18) وبداية القرن العشرين حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى (جدول رقم 19) .

جدول رقم 18 : السكان اللبنانيون — السوريون في افريقيا الغربية الفرنسية في القرن التاسع عشر .

البلد — السنة	1889	1890	1892	1897	1898	1899	1900
غينيا	–	(1)1	–	–	(1)4	(1)5	–
		–	(2)1	(2)18	(2)150	–	(2)163
السنغال	–	–	–	(4)1		(4)8	(2)99
السودان	(3)1	–	–	–		(3)4	(2)14
النيجر	–	–	–	–		–	–
فولتا العليا	–	–	–	–		–	–
المجموع	1	1	1	19	154	17	276

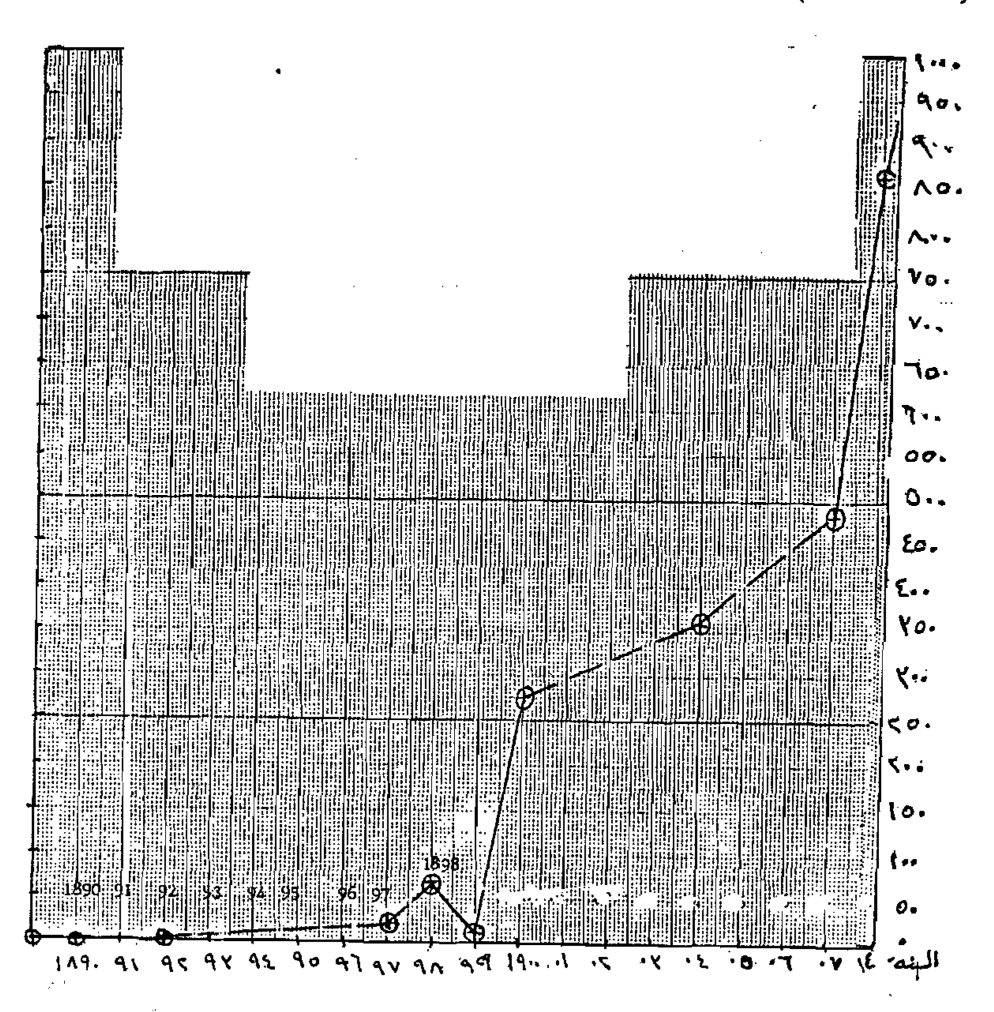
المصدر : (1) 200 ميكرو فيلم 1100 — 21638 (الأرشيف الوطني — باريس ، ميكرو فيلم عن أرشيف افريقيا الغربية الفرنسية)
(2) جان غبريال دابورد ، الهجرة اللبنانية السورية في افريقيا الغربية الفرنسية بواتيه ، المطبعة المصرية ، رينو و شركاهم ، 1938 ، ص 17 — 40 — 41 .
(3) 200 ميكرو فيلم 1101 — 21638 .
(4) روفيسك فقط 200 ميكروفيلم 1099 — 21630 . مستند رقم 183 (هذه المراجع عن الأرشيف وضعها بتصرفنا السيد ميشال أسمر) .

جدول رقم 19 — السكان اللبنانيون السوريون في أفريقيا الغربية الفرنسية من عام1904 حتى عام913

البلد — السنة	1904	1907	1908	1909	1910	1913
السنغال	101	–	281	384	–	1016
غينيا	260	477	554	697	–	–
السودان	–	–	16	–	–	–
شاطىء العاج	–	–	3	–	–	–
داهومي	–	8	10	8	–	–
النيجر	–	–	1	1	–	–
السنغال العالي	–	–	2	–	–	–
موريتانيا						
المجموع	361	385	867	1090	–	1016

المصدر : جان غبريال دابورد ، مصدر سابق ، ص 17 و 19 .

رسم بياني رقم 7 – الإتجاه العام لتطور الهجرة اللبنانية – السورية الى افريقيا الغربية الفرنسية (1899 – 1913) .



المصدر : الجدولان رقم 18 و 19 .

أحصى مصدر الارشيف نفسه ، الذي يذكر نتائج تعداد سكاني جرى عام 1918 في افريقيا الغربية الفرنسية ، وجود 790 مهاجرا فيها (منهم 424 مهاجرا في غينيا فقط) (18) .

بالنسبة لبقية بلدان افريقيا فقد أشير الى وجود مهاجرين لبنانيين في نيجيريا وغانا منذ عام 1884 . وأشير في العام نفسه الى وجود تاجرين لبنانيين من عائلة دهان في مدينة موغادور في المغرب (19) .

و - الهجرة الى استراليا :

يعود تاريخ هذه الهجرة الى عام 1876 (20) وصل عدد المهاجرين الى 1500 مهاجر في بداية القرن العشرين : أحصي عدد 1498 مهاجرا عام 1901 و 1527 مهاجرا عام 1911 (21) .

4 - نتائج هذه الهجرة على الاقتصاد والمجتمع :

ساهمت هذه الهجرة بشكل ظاهر في احداث التحولات الاقتصادية - الاجتماعية التي تمت خلال تلك الفترة وذلك على صعد مختلفة .

أ - على الصعيد الديمغرافي :

طالت الهجرة على هذا الصعيد الفئات العاملة من هرم اعمار السكان . وكانت النتائج نقصا في اليد العاملة الزراعية ثم اليد العاملة الصناعية (مصانع غزل الحرير) في نهاية الفترة : من هنا تنبثق المصاعب التي عانت منها مصانع غزل الحرير .

سجل أحد المراقبين المؤهلين عام 1911 ان الهجرة الى أمريكا تسببت بأحداث نقص في اليد العاملة في مصانع غزل الحرير ، تراوحت نسبة هذا النقص بين 15 و 20 % ولولا الازمة الاقتصادية التي اجتاحت أمريكا ذلك الحين وكبحت بعض الشيء جماح الهجرة اليها ، لكانت حالة تربية دود الحرير وصناعته في لبنان أشد سوءا لأن التحويلات المالية التي كان يرسلها المهاجرون الى ذويهم العائشين في البلاد ، تضاءلت وخفتت جاذبية الهجرة ، لو استمر هذا الوضع لمدة أطول لأنقذت مصانع الحرير (22) .

---

(18) راجع 200 ميكروفيلم 1100 - 2638 .

(19) راجع النهار تاريخ 1984/9/19 و الأرشيف الوطني ،- باريس - وزارة التجارة تقرير القنصلية في موغادور - 1884 .

(20) راجع ايلي صفا ، مصدر سابق ص 107 .

(21) راجع شارل برايس ، الهجرة الى اوستراليا من البلاد العربية ، نشرة السكان في منظمة الاكوا عدد 21 ، كانون الأول 1981 ، بيروت ، ص 64 .

(22) غاستون دي كوسو ، مصدر سابق ، ص 160 ، 161 .

بالنسبة للتزايد الديمغرافى كانت نتائج الهجرة سلبية بالنسبة للولادات الجديدة التى انخفضت بسبب النسبة الكبيرة للمهاجرين الذكور الشباب(23).

ب ـ على الصعيد المالى :

انعكست هذه الهجرة فى وقت مبكر بتدفق مالى دخل الى البلاد . قدر هذا التدفق بثلاثين مليون فرنك فرنسى أى 132 مليون غرش تركى بالنسبة للبنان وسوريا وفلسطين و بـ 90 مليون غرش تركى بالنسبة لمتصرفية جبل لبنان وحدها . من اصل الثلاثين مليون فرنك هذه كان يصل منها بواسطة بيروت 15 مليون ويصل 12 مليون بواسطة طرابلس ومليونين بواسطة حمص (24) . هناك تقدير آخر يعطى رقما لهذه التحويلات الى لبنان وسوريا وفلسطين قدره 25 مليون فرنك فرنسى سنويا (25) . ويعطى تقدير ثالث رقما لهذه التحويلات الى متصرفية جبل لبنان يتراوح بين 90 ومئة مليون غرش تركى فى السنة (26) .

تحملنا كل هذه المعطيات الى تقدير قيمة هذه التحويلات قبل عام 1914 بـ 25 مليون فرنك فرنسى سنويا أى ما يساوى 110 ملايين غرش تركى لكامل لبنان . استخدمت هذه التحويلات فى خمسة مجالات رئيسية : شراء الاراضى وبناء المساكن وزيادة الاستهلاك ورفع مستوى المعيشة والاستثمارات المنتجة بشكل سريع .

جدول رقم 20 : تقدير تحويلات المهاجرين المالية عشية الحرب العالمية الأولى (1914 ـ 1918) .

المصدر / المنطقة	لبنان ، سوريا ، فلسطين	متصرفية جبل لبنان
روبين	30 مليون فرنك فرنسي 132 مليون غرش تركي	90 مليون غرش تركي
نيقولا	25 مليون فرنك فرنسي	ـــــ
حقي	ـــــ	بين 90 و100 مليون غرش تركي

المصدر : الحواشي من رقم 24 الى رقم 62 .

(23) راجع ، اسماعيل حقي ، مصدر سابق ، ص 452 .
(24) راجع ، ارتير روبين ، مصدر سابق ، ص 22 ـ 23 و 29 ـ 30 .
(25) مكسيم نيقولا ، المسائل المالية في سوريا ، ليون ، أ.راي ، 1921 ، ص 29 .
(26) راجع اسماعيل حقي ، مصدر سابق ، ص 453 و 470 .

ج – على الصعيـد العقـاري :

لدى مغادرة الاراضي اللبنانية كان المهاجرون (خـاصة الفقـراء منهـم) يبيعون جزءا من اراضيهم أو جميعها ، لتأمين المال اللازم لتغطية نفقات السفر والايام الاولى من الاقامة وغالبا ما كانت الاوقـاف هي التي تشتـرى هـذه الاراضـي .

عرفت الممتلكات الخاصة بالاوقاف توسعا سريعا خلال هذه الفترة وأصبحت في بداية القرن العشرين تغطي مساحة ما يقارب من ثلث الاراضي الزراعية في متصرفية جبل لبنان . زادت هذه الظاهرة الضغط على الاراضي من جراء الوضع القانوني لهذا النوع من الممتلكـات التي كانت الهجـرة تسـاهم في زيادتها (27) . وقد أدى ذلك الى تجميع ملكية الاراضي في يد الاوقاف . من جهة أخرى نلاحظ حركة شراء للاراضي تمولها تحويلات المهاجرين المالية .

هذا الشراء بالاضافة الى ندرة الاراضي المعروضة للبيـع (بسبب كثـافة السكان وتوسع ممتلكات الاوقـاف) رفعت اسعـار الاراضي والـدخل مـن العقارات . نلمس هذا الوضع بشكل خاص في متصرفية جبل لبنان حيث كانت الافضلية لشراء الاراضي نظرا لانخفاض الضرائب العقارية وتأثيـر السكان في الادارة وغياب الخدمة العسكرية . كل هذه العوامل دفعت المهاجرين من أراضي المتصرفية الى شراء الاراضي فيها وفضليتها على الولايات المجاورة

وعلى سبيل المثال كان سعر غرسة الزيتون بعشرين فرنك في طـرابلس ويتراوح سعرها بين 40 و 60 فرنك في جبل لبنان . وكذلك كان سعر فدان الارض المغروسة بالتوت يقدر بألف فرنك في طرابلس وبأربعة آلاف فرنك فرنسي في جبل لبنان .

وهكذا كانت قيمة الاراضي المماثلة تساوي في المتصرفية مرتين أو ثلاث قيمة الاراضي في الولايات المجاورة وكان العديد من المهاجرين يجدون صعوبة في شراء اراضي بهذه الاسعار . وكانت اسعار الاراضي في مدينة بيـروت أكثر أربع مرات من سعر الاراضي في دمشق وحلب وعشرة مرات أكثر من سعر الاراضي في طرابلس (28) .

د – على صعيـد البنـاء :

انعكست الهجرة باستثمار التحويلات المالية لبناء مساكن فخمة في القرى التي انطلق منها المهاجرون . وأصبحت المساكن المشهورة من القرميد الاحمر

---

(27) راجع ، بول نجيم ، المسألـة اللبنانية ، مطبعة بيبان ، جونيه ، 1961 ، الطبعـة الثانية ، ص 414 و 425 .

(28) راجع ، أرتير روبين ، مصدر سابق ، ص 23 و 42 ، وبول نجيم ، مصدر سابق ، ص 524 ، و اسمـاعيل حقي ، مصدر سابق ، ص 453 .

علامة وجاهة جديدة اكتسبت من جراء الهجرة الى ما وراء البحار (29) . قادت هذه الاستثمارات الى استيراد مواد البناء من الطوب والقرميد والرخام والكلس السائل والكلس والجص والترابة والزجاج (30) . وقادت أيضا الى نشاط متزايد لمهن البناء ولكل نشاطات الانتاج المحلي لمواد البناء : الاحجار المقصوبة ، الكلاس ، الكلس المائي والرخام والقرميد والطوب (31) .

ه ـ على صعيد زيادة الاستهلاك وارتفاع مستوى المعيشة :

ان تأثير الهجرة واضح لان تحويلات المهاجرين المالية كانت تمثل عشية الحرب العالمية الاولى (1914 ـ 1918) نسبة 41 % تقريبا من دخل سكان جبل لبنان . وانعكس ذلك بزيادة واردات السلع الاستهلاكية التي نلاحظها في بنية التجارة الخارجية لمتصرفية جبل لبنان ولمدينة بيروت ولمجمل الاراضي اللبنانية (32) .

وانعكس أيضا هذا الارتفاع لمستوى الدخل في تحسين مستوى التعليم لانه سهل عملية ارتياد المدارس التي كانت جميعها من المؤسسات الخاصة . وساعد مستوى الحياة هذا في ازدهار حياة فكرية وثقافية ناشطة جدا (مدارس وجامعات ومطابع وصحافة وجمعيات أدبية وعلمية) (33) .

وحدث الشيء نفسه على الصعيد الصحي حيث نشاهد انشاء مؤسسات جديدة للطب العصري وقد سهل ذلك الاعداد المحلي للاطباء والصيادلة وتطور الخدمات الصحية العامة والمستشفيات والقيام بحملات تلقيح (34) .

و ـ على صعيد الاستثمارات في الانتاج والتجارة .

كان تأثير الهجرة على هذا الصعيد محدودا جدا . لقد استثمر جزء من التحويلات المالية في التجارة الصغيرة وفي الحرف وفي الصناعة الصغيرة ، وروجت هذه المؤسسات المنتجات التي تعرف عليها مالكوها خلال الهجرة . وقد ادخلت هذه المؤسسات أساليب عمل جديدة وابتاع بعض المهاجرين بعض مصانع غزل الحرير التي كانت تمر بأزمة .

وسجل على الصعيد الزراعي بعض التقدم رغم الصعوبة التي كان يلاقيها

---

(29) اسماعيل حقي ، مصدر سابق ، ص 453 .

(30) راجع بطرس لبكي مدخل الى تاريخ لبنان الاقتصادي ، الحرير والتجارة الخارجية في أواخر العهد العثماني (1840 – 1914) منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ، 1984 ، ص 328 و 336 .

(31) راجع اسماعيل حقي ، مصدر سابق ، ص 445 – 446 – 447 – 468 .

(32) راجع ، بطرس لبكي ، مصدر سابق ، ص 381 الى 383 و 428 الى 439 .

(33) راجع ، اسماعيل حقي ، مصدر سابق ، ص 569 الى 600 و 234 الى 241 .

(34) راجع ، المصدر السابق ، ص 664 الى 667 .

المهاجرون العائدون في امتلاك الاراضي الزراعية : زادت مساحة الاراضي المزروعة وأدخل العائدون بعض التقنيات الزراعية الجديدة (35) .

ز ـ على الصعيد الفكري والثقافي :

ساهمت الهجرة في تنمية النشاطات والحركات الفكرية التي يمكن ادراكها من خلال المؤشرات التالية :

ـ تنمية الصحافة بواسطة المهاجرين ولاجلهم في بلدان المهجر وفي البلد الأم .

ـ تغلغل الايديولوجيات الرائجة في الغرب ونشرها بواسطة المهاجرين (الليبرالية ، القومية والاشتراكية) .

خلاصة :

ان الهجرة اللبنانية في هذه الفترة التي اطلقتها التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي عرفها لبنان ودول المهجر قد تركت بصمات عميقة في السكان والمجتمع واقتصاد البلاد . وقد عدل الانتداب الفرنسي والحرب العالمية الاولى وازمة عام 1929 تعديلا عميقا معطيات هذه الهجرة على ضوء الاطر الجديدة التي حلت في مختلف البلدان .

د. بطرس لبكي
الجامعة اللبنانية ـ بيروت

(35) راجع ، بول نجيم ، مصدر سابق ، ص 510 ، واسماعيل حقي ، مصدر سابق ، ص 451 و 451 ، وارثير روبين ، مصدر سابق ، ص 133 .


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الشوام وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية في مدينة الاسكندرية في العصر العثماني

(923 ــ 1213 هـ / 1517 ــ 1798 م)

دراسة وثائقية من سجلات المحكمة الشرعية

د. صلاح أحمد هريدى

عاشت مصر والشام طوال عهد سلطنة المماليك تحت سلطة دولة واحدة ، الامر الذى سهل انتقال الاهالى من اقليم الى آخر ، وكما كان الطريق البرى ، عبر سوريا الجنوبية هو رباط الصلة عبر سيناء الى مصر ، كانت الثغور والموانىء معابر للاتصال البحرى بين الاقليميين ، الامر الذى أوجد مجموعات من الشوام تقيم فى الثغور المصرية ويهمنا منها تلك المجموعة التى عاشت فى الاسكندرية والتى هو موضوع هذا البحث ·

وجاء فتح السلطان سليم للشام لكى يدعم من هذه الروابط الموجودة بين الاقليمين ومع غيرهم من الاقاليم العربية والاسلامية الاخرى ، ويوسع نطاق المظلة التى امتدت عبر اقاليم السلطنة العثمانية ، ومن خلال الحكم العثمانى كذلك توطدت الصلات البحرية بين موانى أقاليم الدولة وبعضها ، وساعد ذلك على وجود مجموعات من أهالى أحد الاقاليم فى ميناء اقليم آخر كما هو حالة الشوام الذين أقاموا فى مدينة الاسكندرية فى العصر العثمانى · وكان الامر كذلك بالنسبة لابناء شمالى افريقية من المغاربة والذين زاد توطنهم فى مدينة الاسكندرية نتيجة لعبورهم مصر فى طريق الحج أو مجيئهم اليها للتجارة ·

وبالنسبة للشوام الذين أقاموا فى مدينة الاسكندرية تواجه الباحث بعض الصعوبات الاساسية للتمكن من محاولة اعادة بناء الاطار العام وعلى اسس ثابتة · والصعوبات ترجع أولا الى عدم وجود احصاءات عن أعداد الشوام ، بل أيضا عدم وجود سجلات للاقامة ما داموا جميعا رعايا لدولة واحدة ومن حقهم التنقل بين أقاليمها المختلفة دون احتياجهم الى وثائق لذلك ، وأيضا خضوعهم لنفس القوانين المطبقة فى ولايات الدولة سواء أكانت القوانين الاسلامية أو النظم الموضوعة لاصحاب الملل والديانات من غير المسلمين ·

حقيقة ان الوحدات الادارية داخل الدولة العثمانية كانت منفصلة عن بعضها وأن الشام قد تحول الى ولاية قائمة بذاتها فى الوقت الذى أصبحت فيه القاهرة مقر ولاية أخرى ، وخضعت منه الاسكندرية لسلطة القبودان باشا ، وأن الدولة كانت تنقل الولاة من أحد الاقاليم لتولى منصب الولاية فى اقليم آخر ولكن هذه التقسيمات الادارية لم تكن تحد من نشاط الرعية ولا من حرية تنقلهم من اقليم الى آخر ٠

ويمكننا ان نذكر هنا ان احد حكام دمشق من أسرة آل العظم ، وهو سليمان باشا العظم قد حكم مصر لفترة من الزمن (1) وكان ذلك فى عام 1738 م (2)٠ وحدث ذلك أيضا مع رجب باشا حاكم بلاد الشام الذى أتى بعدها واليا على مصر (3) وتقلد بعض الشوام وظائف القضاء فى مصر (4) ، وساهم بعض علماء دمشق فى الحياة الفكرية فيها (5) علاوة على وجود بعض العلماء من الشام فى مصر (6) وكل ذلك داخل اطار الدولة العثمانية هو فى مناخ التضامن والتآخى الاسلامى ٠

ورغم صعوبة البحث وقلة المصادر والبيانات المحددة فان المادة الموجودة فى سجلات الشرعية بالاسكندرية تعتبر مصدرا رئيسيا وأصيلا يخدم هذا الموضوع رغم قصورها عن تغطية جميع أوجه الانشطة الاقتصادية والاجتماعية للشوام وبعضهم أو بين الشوام وأبناء مدينة الاسكندرية وسكوتها على ما تم بالفعل من تعاملات لم يلتجىء فيها الاطراف الى التقاضى (*) ٠

هكذا كان من حق الشوام ، وفى مدينة الاسكندرية ، فى العهد العثمانى ، القيام بممارسة جميع أوجه الانشطة التجارية والاقتصادية والاجتماعية على قدم المساواة مع أبناء هذه المدينة ، وفى ظل النظام العام العثمانى الذى كان يحكم الجميع ٠

ولقد قسمت البحث الى نقطتين : الاولى عن الحياة الاقتصادية والثانية عن الحياة الاجتماعية ٠ ولقد اشتملت الحياة الاقتصادية التى شارك فيها الشوام

(1) مصطفى بن الحاج إبراهيم ، تاريخ وقائع مصر ، ص 163 .
(2) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات في تاريخ العرب الحديث ، الشرق العربي من الفتح العثماني حتى القرن الثامن عشر ، ص 166 .
(3) مصطفى بن الحاج إبراهيم ، المصدر السابق ، ص 165 .
(4) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ج 1 ، ص 47—48 .
(5) عبد الرحمن الجبرتي ، المرجع السابق ، ص 69 ، ج 1 .
(6) نفسه ، ج 1 ، ص 69 ، 75 ، 90 ، 159 .
(*) رغم صعوبة هذا البحث قد شجعني أستاذي الفاضليين الدكتور جلال يحيى و الدكتور عمر عبد العزيز عمر على ضرورة الاستمرار فيه واستغلال الوثائق الموجودة في أرشيف المحكمة الشرعية بالإسكندرية ، والقيام باستنطاقها وبشكل يعطي عناصر أولى أساسية تساعد على بناء موضوع متكامل .

فى مدينة الاسكندرية جميع أوجه الانشطة المعروفة فى ذلك الوقت سواء فى التجارة او الصناعة او الحرف ، او قطاع الاموال ٠

* * *

أولا الحياة الاقتصادية :

وتعطينا وثائق المحكمة الشرعية سجلا واضحا لتعامل الشوام فى التجارة وأنواع السلع وطرق التعامل فى هذا الميدان ٠

فلقد تعامل الشوام فى مدينة الاسكندرية فى تجارة القمح (7) والدقيق (8) وفى المواد الغذائية مثل البطارخ والجبن (9) والعسل (10) والتمر (11) والزبيب (12) والزبد والمسلى (13) والعجوة (14) والفلفل الاسود (15) والبن (16) ٠ وعملوا كذلك فى تجارة اللحوم (17) وتجارة الاغنام (18) وتجارة الجمال (19) والحمير (20) وكذلك الاكديش (21) ٠ وتاجروا فى الجلود (22) والاقمشة والمنسوجات (23) وفى الحرير (24) وفى المنسوجات الحريرية (25)

---

(7) سجلات المحكمة الشرعية ، سجل رقم 8 ، مادة 895 ، ص 333 بتاريخ 19 جمادى الأولى عام 973ھ/نوفمبر عام 1565م . سيكتفى الباحث بذكر رقم السجل فقط دون الإشارة إلى سجلات المحكمة الشرعية .

(8) سجل رقم 6 ، مادة 173 ، ص 69 بتاريخ آخر ربيع الأول عام 1004ھ/نوفمبر 1595م .

(9) سجل رم 56 ، مادة 987 ، ص 321 بتاريخ 15 صفر عام 1010ھ/أغسطس عام 1601م .

(10) سجل رقم 18 ، مادة 1076 ، ص 353 ، بتاريخ 15 صفر الخير عام 991ھ/يناير عام 1583م .

(11) سجل رقم 59 ، مادة 216 ، ص بدون رقم ، بتاريخ 19 ربيع الثاني عام 983ھ/يوليو عام 1575م .

(12) سجل رقم 11 ، مادة 514 ، ص 142 ، بتاريخ 28 رمضان عام 978ھ/يناير عام 1571م .

(13) سجل رقم 46 ، مادة 20 ، ص 8 بتاريخ أواخر ربيع الثاني عام 1050ھ/يوليو عام 1640م .

(14) سجل رقم 25 ، مادة 189 ، ص 63 بتاريخ 11 رجب عام 996ھ/مايو عام 1567م .

(15) سجل رقم 24 ، مادة 94 ، ص 26 بتاريخ 14 محرم عام 983ھ/أبريل عام 1575م .

(16) سجل رفم 56 ، مادة 680 ، ص 232 بتاريخ 26 رجب عام 985ھ/أكتوبر عام 1577م .

(17) سجل رقم 23 ، مادة 631 ، ص 179 بتاريخ 25 شعبان عام 994ھ/يوليو عام 1585م .

(18) سجل رقم 12 ، مادة 194 ، ص 73 بتاريخ 5 محرم عام 986ھ/مارس عم 1578م .

(19) سجلات أرقام 6 ، مادة 11 ، ص 6 بتاريخ 12 ربيع الأول عام 971ھ/أكتوبر عام 1563م . 11 ، مادة 985 ، ص 243 بتاريخ 29 ذي القعدة عام 987ھ/مارس عام 1570م ، نفسه مادة 1022 ، ص 251 ، بتاريخ 3 ذي الحجة المبارك الحرام عام 978ھ/1570م .

(20) سجل رقم 12 ، مادة 848 ، ص 291 بتاريخ 16 ربيع الثاني عام 976ھ/يونيو عام 1587م .

(21) سجل رقم 18 ، مادة 1107 ، ص 362 بتاريخ 13 صفر عام 991ھ/ينساير عام 1583م .

(22) سجل رقم 26 ، مادة 1049 ، ص 356 ، بتاريخ 15 ربيع الثاني عام 918ھ/فبراير عام 1589م ، سجل رقم 27 ، مادة 580 ، ص 273 بتاريخ 14 ربيع الثاني عام 999ھ/يناير 1591م .

(23) سجل رقم 16 ، مادة 43 ، ص 15 بتاريخ 6 صفر عام 1003ھ/أكتوبر عام 1594م .

(24) سجل رقم 21 ، مادة 569 ، ص 96 1بتاريخ 28 جمادي الثاني عام 1009ھ/ديسمبر عام 1600م .

(25) سجل رقم 18 ، مادة 1076 ، ص 353 ، بتاريخ 15 صفر عام 991ھ/يناير عام 1583م .

وعملوا فى تجارة الخردوات (26) وكانوا يتاجرون كذلك فى أدوات مصنوعات القيشاني (الصينى والادوات الفخارية) (27) وعملوا فى تجارة الـورق (28) وكذلك فى تجارة الخشب (29) والحطب (30) وتعاملوا بالبيع والشـراء فى المراكب (31) وتاجروا فى الزئبق والزنجفر والجنزبيل والصمغ العربى وفى التوابل (32) وتاجروا فى الجير (33) والقنسـرين (34) وفى القشـر (35) وامتد نشاط تعاملهم التجارى الى الجوارى (36) وهو ميدان مباح وحلال فى ذلك الوقت .

أما طرق التعامل فى ميدان التجارة فكانت متعددة ولاشك فى أن بعـض التجار كان يعمل لحسابه الخاص ، وسواء على مستوى صغيـر أو فى حجـم تجارة كبير وهنا نجد أن أرشيفات المحكمة يسجل لنا ميادين تعاقده وخلافاته مع الغير الذين يتعامل معهم . وكان هناك كذلك من يقوم بتكـوين شـركات للتجارة ، وبخاصة فى التجارة مع الخـارج . وهنـاك وثـائـق عن تكـوين الشركات لتجارة الاقمشة والمنسوجات (37) وتجارة الحـرير (38) وتجـارة الجلود (39) ولقد استأجر البعض وعلى سبيل المشاركة بين أحد الشوام وأحد الاهالى مخبزا فى وقف سنان باشا : ولقد فسخ عقد الشركة بين الاثنين بعد ذلك (40) وكذلك كانوا يقومون بأعمـال الوكـالة لـدى التجـار الاوربييـن المتخصصين فى تجارة الحرير ، وكان اليهود الشوام الذين يعملون فى هذا القطاع يعقدون صفقاتهم بكتابة عقود خاصة بالبيع والشراء ، ويذكـرون أن

---

(26) سجل رقم 25 ، مـادة 380 ، ص 26 بتاريخ 18 جمادي الأولى عـام 996هـ/29 مـارس عـام 1587م .

(27) سجل رقم 16 ، مـادة 1012 ، ص 374 بتاريخ 2 جمادي الأولى عـام 995هـ/أبريل عـام 1586م .

(28) سجل رقم 24 ، مـادة بدون رقم ، ص 153 بتاريخ 14 ربيع الثاني عـام 972هـ/أكتوبر 1565م .

(29) سجل رقم 25 ، مـادة بدون رقم ، ص 319 بتاريخ 4 محرم عـام 997هـ/نوفمبر عـام 1589م .

(30) سجل رقم 58 ، مـادة 243 ، ص 136 بتاريخ 9 شوال عـام 1102هـ/يونيو عـام 1691م .

(31) كل رقم 95 ، مادة 72 ، ص 48 بتاريخ 18 رجب عام 11864هـ/ 66 1 م.

(32) سجل رقم 21 ، مـادة 450 ص 12 بتاريخ 6 شوال عـام 992هـ/سبتمبر عـام 1585م .

(33) سجل رقم 56 ، مـادة 209 ، ص بدون رقم بتاريخ 13 رمضان عام 985هـ/نوفمبر عـام 1577م .

(34) سجل رقم 11 ، مـادة 593 ، ص 159 بتاريخ 8 شوال عام 978هـ/فبراير عـام 1570م .

(35) سجل رقم 6 ، مـادة 200 ، ص 181 ، بتاريخ 16 رمضان عام 970هـ/أبريل عـام 1563م .

(36) سجل رقم 5 ، مـادة 176 ، ص 65 بتاريخ 3 محرم عـام 967هـ/أكتوبر عـام 1590م .

(37) سجل رقم 16 ، مـادة 43 ، ص 15 بتاريخ 6 صفر عام 1033هـ/أكتوبر عـام 1594م .

(38) سجل رقم 65 ، مـادة 331 ، ص 172 بتاريخ 20 شعبان عـام 1130هـ/يونيو عـام 1717م .

(39) سجل رقم 29 ، مـادة 876 ، ص 299 بتاريخ 10 ذي القعدة عام 1002هـ/أغسطس عـام 1594م .

(40) سجل قم 83 ، مادة 649 ، ص 263 بتا يخ 12 جب عام 1006هـ/فبراير عام 1598 م .

البائع قد استلم حقه كاملا ، وأن المشترى قد استلم بضاعته بمواصفاتها (41) .

وكان الشوام يشتملون بشكل عام على المسلمين ، وكان بينهم بعض الذميين وبعض اليهود ، وعملوا كذلك معهم ومع غيرهم فى تجارة الخردوات وغيرها من السلع (42) .

وكما كان التعامل بالشراء ودفع الثمن فورا ، كان هناك التعامل بالاجل سواء بتقسيط كل المبلغ أو دفع جزء وتقسيط الباقى وبعد فترة معينة (43).

وكان الشوام يتأجرون مع الاوربيين فى الفلفل الاسود ، وبخاصة مع البنادقة ، وكانوا يتاجرون بكميات كبيرة . وشهد هذا الميدان تحرير عقود بيع كان بعضها ينص على تسديد جزء من المبلغ ، ثم تقسيط الباقى . وكان يشهد على العقد بعض تجار المدينة (44). وكانوا يتاجرون مع الاوربيين كذلك فى الورق ، ويقايضون عليه بالفلفل الاسود (45) .

ويصدرون البن الى استانبول (46) وتتم عمليات البيع والشراء فى بعض الاحيان مع بعض التجار المغاربة (47) ويصدرون البغال الى استانبول (48) ويتاجرون فى أقمشة حماه (49) .

ويشهد قطاع التجارة للشوام فى مدينة الاسكندرية الكثير من المنازعات فى هذا الميدان تعطينا صورة عن طريقة التعامل البسيطة وطريقة التقاضى والاحكام التى تصدر أو الطرق التى كانت تتبع لتسوية الخلافات الودية ، وأرشيف المحكمة الشرعية بالاسكندرية ملىء بهذه الصور المعبرة عن أنماط وأساليب هذا العصر العثمانى .

وكان البيع بالاجل ، وعدم قدرة المدين على الوفاء بالتزاماته يتطور فى بعض الاحيان الى اعطاء بعض ممتلكاته ، حصانه مثلا ، للوفاء بجزء من الدين،

---

(41) سجل رقم 65 ، مادة 231 ، ص 172 ، بتاريخ 20 شعبان عام 1130هـ/يونيو عام 1717م .

(42) سجل رقم 25 ، مادة 380 ، ص 26 بتاريخ 18 جمادي الأولى عام 996هـ/29 مارس عام 1587م .

(43) سجلات أرقام 18 ، مادة 17 ، ص 6 بتاريخ 7 جمادي الأولى عام 990هـ/مايو عام 1582م .
سجل رقم 6 ، مادة 173 ، ص 69 بتاريخ آخر ربيع الثاني عام 1004هـ/نوفمبر عام 1595م .
سجل رقم 26 ، مادة 695 ، ص 219 بتاريخ 29 ذي الحجة عام 997هـ/أكتوبر عام 1588م .

(44) سجل رقم 24 ، مادة 96 ، ص 26 بتاريخ 14 محرم عام 983هـ/أبريل عام 1575م .

(45) سجل رقم 24 ، مادة بدون رقم ، ص 253 بتاريخ 4 ربيع الثاني عام 972هـ/أكتوبر عام 1565م .

(46) سجل رقم 45 مادة 329 ، ص 145 بتاريخ 24 محرم عام 1035هـ/أكتوبر 1625م .

(47) سجل رقم 13 ، مادة 106 ، ص 44 بتاريخ 14 ذي الحجة عام 981هـ/مارس 1563م .

(48) سجل رقم 45 ، مادة 329 ، ص 145 بتاريخ 24 محرم عام 1035هـ/أكتوبر عام 1625م .

(49) سجل رقم 16 ، مادة 43 ، ص 25 بتاريخ 6 صفر عام 1003هـ/أكتوبر عام 1594م .

ولكن الحصان لم يكف للوفاء بكل الثمن ، وينتهي الامر باعلان افلاس التاجر (50) وكان البعض يعطى بعض منقولاته رهنا للوفاء بدينه ، مثل وضع أحد المشترين مركبه كرهن لدى البائع (51) ورغم ذلك فان البائع لم يسلمه البضاعة كاملة بل خصم نسبة من وزن القمح كتالف وفاقد ، زيادة فى الضغط على المشترى (52) وفى نفس الوقت نجد حالات كثيرة لا يصر البائع على أخذ رهن ، ويسلم السلع ، ويتفق مع المشترى على الدفع بعد فترة معينة، وفى ثقة كاملة (53) •

وكانت هناك خلافات تنشأ فى قطاع الشراء بالاجل حول المبلغ المتبقى ، كما هى حالة أحد العاملين فى صناعة الكحك • والذى اشترى كمية من الدقيق ودفع جزء من ثمنها ، فلقد طالب البائع المشترى بتسديد مبلغ يفوق المتبقى عليه ، وأصر البائع على طلب المبلغ الذى يطلبه ، وانتهى الامر بالقبض على المشترى وسجنه (54) وهناك حالات أخرى تمكن فيها المشترى وفى نفس القطاع ، وهو أحد الخبازين بتسديد ما عليه فى الميعاد المحدد (55) •

وكان المشترى بالاجل ينكر فى بعض الحالات قيمة المبلغ المتبقى عليه وتوسط البعض بين الطرفين ، وعلى أساس أن يتنازل البائع عن جزء من المبلغ المطلوب (56) فيحصل على بعض حقه بدلا من أن يفقد الكل ، وبعد فترة التقاضى • وهناك حالات كثيرة يتذرع فيها المشترى ويصر على أن المبلغ المتبقى عليه يقل كثيرا عما طلبه البائع (57) وهناك حالات للوفا بالاجل ، تشتمل على تباطىء فى دفع الاقساط ، وكان بعضها ينتهى بدفع ما تم الاتفاق عليه (59) أو يستمر المشترى وهو أحد الحلوانية فى عدم السداد ، متذرعا بعدم توافر المال لديه ، وينتهى الامر بالحكم عليه بالسجن (59) وفى هذا النوع من الخلافات نجد أن بعض المشترين يتذرع بارتباكه المالى ، ويطلب من المحكمة اعطاءه فرصة للتسديد مثل أحد الشوام الذى اشترى كمية من الزبيب من بعض تجار السوس المغاربة وعجز عن التسديد فى الوقت المحدد له • ولقد

(50) سجل رقم 18 ، مادة 17 ، ص 6 بتاريخ 7 جمادي الأولى عام 990هـ/مايو عام 1582م .
(51) سجل رقم 18 مادة 1060 ، ص 349 ، بتاريخ 1 صفر الخير عام 991هـ/يناير عام 1583م .
(52) نفسه .
(53) سجل رقم 24 ، مادة 208 ، ص 61 بتاريخ 7 جمادي الأولى عام 983هـ/أغسطس عام 1575م .
(54) سجل رقم 28 ، مادة 36 ، ص 104 بتاريخ أوايل شهر ذي الحجة عام 1002هـ/أغسطس عام 1594م .
(55) نفسه .
(56) سجل رقم 26 ، مادة 695 ، ص 219 ، بتاريخ 29 ذي الحجة عام 997هـ/أكتوبر عام 1588م .
(57) سجل رقم 26 ، مادة 695 ، ص 219 بتاريخ 29 ذي الحجة عام 997هـ/أكتوبر عام 1588م .
(58) سجل رقم 28 ، مادة 1076 ، ص 353 بتاريخ 15 صفر الخير عام 991هـ/يناير عام 1583م .
(59) سجل رقم 59 ، مادة 216 ، ص بدون رقم بتاريخ 19 ربيع الثاني عام 983هـ/يوليو عام 1575م .

قبل البائع اعطاءه فرصة للتسديد ، وأقرت المحكمة هذا الاتفاق (60) • وكان الدفع بالاجل يتفاوت فى الاوقات التى يتم فيها السداد : ففى تجارة العجوة كانت الاقساط تدفع أسباعيا ، كما استشهد بذلك المشترى ، ولكن البائع لم يعترف بهذه الفترات بعد وقوع الخلاف بينه وبين المشترى (61) •

وكان التعامل بالاجل أمرا شائعا فى ذلك الوقت فى معظم السلع وكانت هناك ظروف طارئة تحدث مثل وفاة البائع قبل حلول ميعاد التسديد ، وفى هذه الحالة يقوم الوصى على الورثة بالمطالبة من المشترين بالدفع • وهذا لدينا مثال فى تجارة المسلى والزبد حين باع أحد اليهود كمية منه بالاجل وقد سوى الامر بدفع المشترى نصف المبلغ وتعهد بالنصف الآخر بعد فترة محددة (62) وهناك ظروف أخرى طارئة مثل فقدان كمية من البن المصدر من الاسكندرية الى استانبول ولحساب تجار آخرين • فيتطلب هذا النزاع تقديم المستندات الدالة على ذلك ، وقائمة الوزن التى قام القبانى بتحريرها ، والرجوع الى الشهود (63) •

وهناك حالات أخرى عدم اعتراف المشترى بالمبلغ المتبقى عليه بعد شرائه لعدد من الخرفان (64) كما أن هناك حالة أخرى لم يتم الاستدلال عليها مع ذلك فهناك صفقات تم دفع ثمنها بالكامل من المتحدث على بيت المال الحشرى ولم يستلم المشترى السلع (65) وعمليات بيع وشراء أخرى تتم بين بعض الشوام وبعض التجار المغاربة بصفة أمانة (66) •

وهناك حالات غريبة مثل ترك بعض الاشراف لعدد من الجمال عند أحد التجار الشوام ، لكى يوصلها له من غزة الى القاهرة ، ولكنه تصرف فيها بالبيع واعترف بأنه باعها وحصل على ثمنها وعلى أساس خوفه من أن تنفق الجمال • ولقد انتهى هذا النزاع بأن تعهد بأن يدفع ثمن الجمال ، جزء منه فى الحال ، والباقى حسبما يختار فى أى وقت (67) •

وكان ميدان التعامل بالاجل يشتمل كذلك على انكار المشترى فى بعض الحالات أنه قد بقى عليه أى مبلغ ، ويصر على أنه دفع المبلغ بالكامل ويقسم

---

(60) سجل رقم 11 ، مادة 514 ، ص 142 بتاريخ 28 رمضان عام 978هـ/يناير عام 1571م .
(61) سجل رقم 25 ، مادة 189 ، ص 63 بتاريخ 11 رجب عام 996هـ/مايو عام 1567م .
(62) سجل رقم 46 ، مادة 20 ، ص 8 بتاريخ أواخر ربيع الثاني عام 1050هـ/يوليو عام 1640م .
(63) سجل رقم 45 ، مادة 329 ، ص 145 ، بتاريخ 24 محرم 1035هـ/أكتوبر عام 2625 .
(64) سجل رقم 12 ، مادة 194 ، ص 73 بتاريخ 5 محرم عام 986هـ/مارس عام 1578م .
(65) سجل رقم 12 ، مادة 371 ، ص 134 بتاريخ 7 صفر عام 986هـ/مارس 1577م .
(66) سجل رقم 13 ، مادة 106 ، ص 44 بتاريخ 14 ذي الحجة عام 981هـ/مارس عام 1574م .
(67) سجل رقم 11 ، مادة 1022 ، ص 251 ، بتاريخ 7 ذي الحجة عام 978هـ/أبريل عام 1570

على ذلك بيمين الله (68) • وقد ينكر المشترى أنه قد تعهد بدفع ثمن الاكديش المرسل الى استانبول من مدينة الاسكندرية بعد عودته اليها ، ولكن الشهود يؤكدون اتمام البيع ، وأن الاتفاق على أساس الدفع بعد عشرين يوما وينتهى الامر بالزام المشترى بالدفع رغما عن انكاره (69) •

وهناك بعض الطرائف مثل قيام أحد القهوجيه بتكوين شركة لتجارة الجلود (70) وقد يضطر المشترى بعد انكاره الى أن يرضخ امام شهادة الشهود فيعترف بالبيع ويتعهد بالدفع (71) وفى بعض الخلافات كان البائع نفسه هو الذى يطالب المشترى بدفع مبلغ أكثر من المطلوب (72) ويلاحظ كذلك أن بعض النساء كن يشتركن فى تجارة المنسوجات الحريرية مع اليهود الشوام ومع التجار الاوربيين (73) •

وكذلك نلاحظ أن أهل الذمة كانوا يقومون فى بعض الحالات وفى تجارة الخردوات على اضافة نسبة الى الثمن على أساس أن البيع قد تم بالتقسيط(74) وهناك كذلك حالة مشترى الخشب الذى دفع مبلغا مقدما وعلى أساس دفع الباقى بعد المعاينة • وقد وجد بعض العيوب بالخشب وطالب البائع برد المقدم ، فاعتدى عليه البائع بالسب بألفاظ نابية • وانتقل الامر الى القضاء (75) وكان بعض أفراد أوجاق مستحفظان يتاجرون فى الحطب وخاصة مع أهل الذمة الذين يعملون كبحارة فى المراكب (76) • ومن الطرائف أمر شراء أحد الشوام أحد المراكب من نوع القايق من أحد المغاربة • وكان هذا المركب يستخدم لنقل الناس من شاطىء الى آخر ، وذكر للمشترى بان به عيبا ، وتم دفع الثمن • وعند استلامه عارضه سردار ادكو فى نقل الملكية لان عليه رسوما متأخرة من مدة كبيرة ، وأكد أحد الشهود بأنه ليس القايق المطلوب (77) والسلطة تطالب بحقها فى الضرائب ، والشهود يرغبون فى اعادة المشكلة الى صاحب المركب الاصلى •

ومن الطرائف كذلك أن قابودان مدينة الاسكندرية اشترى احد الجوارى وبنتها (78) ويتعرض العقد لمواصفاتها الجسدية وغيرها من المواصفات •

---

(68) سجل رقم 12 ، مادة 848 ، ص 291 ، بتاريخ 16 ربيع الثاني عام 986هـ/يونيو عام 1587م .
(69) سجل رقم 18 ، مادة 1107 ، ص 362 بتاريخ 13 صفر عام 991هـ/يناير 1583م .
(70) سجل رقم 29 ، مادة 786 ، ص 299 بتاريخ 10 ذي القعدة عام 1002هـ/أغسطس عام 1594م .
(71) سجل رقم 32 ، مادة 397 ، ص 151 ، بتاريخ 19 ذي القعدة الحرام 1008هـ/مايو 1600م .
(72) سجل رقم 21 ، مادة 569 ، ص 196 بتاريخ 28 جمادي الثاني عام 1009هـ/ديسمبر عام 1600 .
(73) سجل رقم 18 ، مادة 1943 ، ص 433 بتاريخ 21 ربيع الأول عام 991هـ/فبراير عام 1587م .
(74) سجل رقم 25 ، مادة 380 ، ص 26 بتاريخ 18 جمادي الأولى عام 996هـ/29 مارس عام 1587 م.
(75) سجل رقم 25 ، مادة بدون رقم ، ص 319 بتاريخ 4 محرم عام 997هـ/نوفمبر عام 1589م .
(76) سجل رقم 58 ، مادة 43 ، ص 136 بتاريخ 9 شوال عام 1102هـ/يونيو 1691م .
(77) سجل رقم 95 ، مادة 82 ، ص 48 بتاريخ 18 رجب عام 1187هـ/سبتمبر عام 1773م .
(78) سجل رقم 5 مادة 176 ، ص 65 ، بتاريخ 3 محرم عام 967هـ/أكتوبر عام 1559م .

ويعرض عقد آخر شراء احدى الجوارى ، ويتضح للمشترى بعد ذلك أنها كانت حاملا . وتطور الامر الى قيام المشترى بشكوى البائع • وقام نزاع بين الطرفين ادى الى تدخل بعض الوجهاء ، وأقر البائع امامهم بأنه لم يجامعها بالمرة وقبل المشترى هذا الوضع (79) •

وأخيرا أن علينا نذكر أن سجلات المحكمة الشرعية بالاسكندرية تشتمل على نوع جديد من النشاط المالى ، والخلافات التى كانت تحدث فيه ، وهو ميدان الاقتراض ، ثم ما قد يترتب عليها من خلافات فى تسديد مثل هذه الديون ، ولقد شارك الشوام فى الاسكندرية فى النشاط فى هذا الميدان ، فكانوا يقترضون من بعضهم ، كما كانوا يقترضون ويقرضون بعض أبناء مدينة الاسكندرية من غير موطنهم الاصلى ، وشارك فى هذه العملية كذلك عدد من الاشراف (80) •

وكذلك عدد من المغاربة (81) ، وأيضا عربان هوارة (82) ، وحتى بعض أفراد الاوجاقات العثمانية الموجودين فى مدينة الاسكندرية (83) •

وكان الكثير من عمليات الاقتراض تنتهى الى خلافات وبسداد المقترض ما قام باقتراضه ، ولكن سجلات المحكمة الشرعية لا تحتفظ الا بالامور التى حدث فيها خلاف وفى أشكال متعددة •

وكان صاحب المال يطالب فى بعض الحالات المقترض بضرورة وجود ضامن له ، ويجعل هذا الضامن ملزما بتسديد القروض على أقساط ، تختلف فى مددها ، وقد تكون يوميا (84) • وفى بعض الحالات كان البعض يقترض ثم يقوم بتسديد جزء من الدين ويتوقف عن سداد الباقى • ولقد اعترف بذلك وعجز عن الدفع فصدر عليه الحكم بالسجن (85) •

وقد يكون القرض أو الدين عبارة عن تأخير ايجار لاحدى الوكالات ، مثل وكالة وقف قايتباى بالمدينة وعند المطالبة بهذا الايجار المتأخر ، ادعى المستأجر بأنه قد دفع عليه من متأخرات (86) •

---

(79) سجل رقم 64 ، مادة 587 ، ص 79 بتاريخ 10 ربيع الثاني عام 1129هـ/مارس عام 1716م .

(80) سجلات أرقام 11 ، مادة 1208 ، ص 252 بتاريخ 4 ذي الحجة عام 978هـ/أبريل عام 1571م . 22 مادة بدون رقم ص 113 ، بدون تاريخ ؛ 26 ، مادة 593 ، ص 187 ، 25 مادة بدون رقم وبدون تاريخ .

(81) سجل رقم 11 ، مادة 903 ، ص 226–227 بتاريخ 19 ذي القعدة عام 978هـ/1571م .

(82) سجل رقم 21 ، مادة 158 ، ص 46 بتاريخ 12 شوال عام 993هـ/سبتمبر عام 1585م .

(83) سجل رقم 58 ، مادة 243 ، ص 136 بتاريخ 9 شوال عام 1102هـ/يونيو عام 1691م .

(84) سجل رقم 64 ، مادة 578 ، ص 79 ، بتاريخ 10 ربيع الثاني عام 1129هـ/مارس 1716م .

(85) سجل رقم 8 ، مادة 568 ، ص 192 بتاريخ 17 جمادي الثاني عام 973هـ/ديسمبر عام 1565م.

(86) سجل رقم 11 ، مادة 35 ، ص 12 بتاريخ أول رجب عام 978هـ/نوفمبر عام 1570م .

وكثيرا ما كان أفراد الحرف يقترضون من بعضهم البعض ، أو يقترضون ممن يتعاملون معهم • مثل اقتراض أحد العاملين بتجارة الجمال من أحد القصابيين • وفى مثل هذه الحالة نجده يسدد جزءا من الدين ، دون ان يوفى كل ما عليه ، فينشأ نزاع بين الطرفين ، وتوسط فيه البعض ، وانتهى الامر بتسديد باقى الدين (87) وهناك حالات كان القرض أو الدين فيها يمثل قيمة فى حصة رأسمال شركة سابقة ، تم تصفيتها ولقد طالب أحد الشركاء بقيمة حصته • وفى هذه الحالة وأنكر شريكه الآخر حقوقه ــ فالتجأ الى الاستشهاد ببعض الشهود ، وأصر شريكه على الانكار • ولقد انتهى الامر بالقبض على الشريك وايداعه السجن (88) • والوثائق مليئة بعمليات المماطلة فى دفع المقترضين لديونهم ، وفى الاستشهاد بالشهود لحسم الامر (89) • واشتمل هذا القطاع كذلك على أنواع مختلفة ومتنوعة من الخلافات : فقد اقترض أحد المغاربة من أحد الشوام ، وعند مطالبته برد الدين ادعى انه كان ضامنا ولم يكن مقترضا ، واستشهد ببعض الشهود • ولكن أقوال الشهود تضاربت ، فشهد الشاهد الاول بقيمة القرض ، بينما ذكر الشاهد الثانى أن القرض يقل عن ذلك بكثير • ولقد انتهى الموضوع بضرورة دفع قيمة القرض كاملة (90) •

وحتى القضاة كانوا يقترضون فى بعض الاحيان من بعضهم ويشترط أن يتم تسديد كل هذه القروض على أقساط (91) ولدينا احدى الوثائق تصف المقترض ومواصفاته الجسمانية ، حرصا على حفظ الحقوق •

وفى بعض الحالات كان المقترض يفرض ضرورة وضع رهن لديه مثل الملابس والاقمشة ، وأن يكون من حقه بيعها اذا تأخر المقترض عن ميعاد التسديد • وكان ذلك يتم بالفعل فى بعض الحالات (92) •

وقد يتم التعاقد على القرض فى خارج الاسكندرية ، كما هى حالة افتداء احد الاسرى فى مالطة نفسه وتعهد بتسديد المبلغ عند وصوله الى الاسكندرية ولقد نفذ وعده وأوفى بعهده (93) • وقد يتم الاقتراض خارج البلاد ويتم اثبات الحق مرة ثانية فى الاسكندرية (94) لحرص الاوربيين على اثبات حقوقهم • ولدينا ديون هى عبارة عن وفاء بحقوق الزوجة ، مثل كسوتها ، وذلك بالاضافة

---

(87) نفسه ، مادة 985 ، ص 43 بتاريخ 29 ذي الحجة عام 978هـ/مارس عام 1570م .

(88) سجل رقم 11 مادة 1208 ، مادة 252 ، ص 252 بتاريخ 4 ذي الحجة عام 978هـ/أبريل عام 1571 م .

(89) سجل رقم 32 ، مادة 412 ، ص بدون رقم وبدون تاريخ .

(90) نفسه ، مادة 903 ، ص 226 ، بتاريخ 19 ذي القعدة عام 978هـ/1571م .

(91) سجل رقم 14 ، مادة 87 ، ص 26 بتاريخ 5 جمادي الثانية عام 987هـ/سبتمبر عام 1579م .

(92) سجل رقم 38 ، مادة 871 ، ص 225 بتاريخ 2 جمادي الثانية عام 1029هـ/مايو عام 1619م .

(93) سجل رقم 35 ، مادة 680 ، ص 273 ، بتاريخ 20 رجب عام 1015هـ/نوفمبر عام 1606م .

(94) سجل رقم 18 ، مادة 570 ، ص 193 ، بتاريخ 19 رمضان عام 990هـ/سبتمبر 1583م .

الى تسديد هذه الزوجة قرضا خاصا به تجاه الغير · وفى بعض هذه الحالات انكر الزوج هذا الدين حين طالبته زوجته به · وانتهى الامر بالاتفاق على تسديد القرض ، (95) · أما ما طلبته به من حقوقها للكسوة فلم ينص عليه الحكم ·

أما بالنسبة للامانات والرهونات ، فقد أودع أحد الشوام مبلغا بصفة أمانة لدى أحد المغاربة بالمدينة ، وحدث أن استغل هذا المبلغ مع مبلغ خاص فى التجارة ، وانتهى ذلك بالخسارة ، وطالبه برد مبلغه وأكد الشهود على أنه تم الاتفاق بين الاثنين على ذلك ولا يكون له الحق فى المطالبة برد المبلغ (96) ·

* * *

ولقد اشترك الشوام فى مدينة الاسكندرية فى قطاع الحرف والصناعات ، واشترك بعضهم فى صناعة النسيج وبرعوا فيه · وعلينا ان نذكر انها كانت صناعات صغيرة ، وتعتمد على ورش صغيرة · وكانوا يستلمون الغزل الخام، ثم يقومون بصناعته حسب المطلوب · وكانت هناك كذلك صناعة الستائر (97) ولقد عمل السوريون فى حرفة الخبازين (88) وحرفة القصابين (99) · وعملوا فى صناعة الحلوى (100) ، وكأصحاب مقاهى (101) · وكان بعضهم يعملون بالاجر لدى الغير ، وكانوا يحصلون على أجورهم فى بعض الاحيان ، فى شكل عينى مثل الملابس وغيرها (102) · وقد يتفق العامل مع صاحب العمل على عملية معينة وأجرة محددة (103) وعملوا فى حرفة الدخاخنية وعملوا فى حرفة تبيض النحاس (104) وعملوا فى حرفة القلفطة (105) واشتغلوا بالحياكة ،

---

(95) سجل رقم 59 ، مادة 12 ، ص 4 بتاريخ أوايل جمادي الأولى عام 1108هـ/نوفمبر عام 1696م .

(96) سجل رقم 51 ، مادة 84 ، ص 117 بتاريخ 11 جمادي الأولى عام 1074هـ/ديسمبر 1673م .

(97) سجل رقم 11 ، مادة 35 ، ص 12 بتاريخ أول رجب عام 978هـ/نوفمبر عام 1570م .

(98) سجل رقم 5 ، مادة 339 ، ص 121 ، بتاريخ 4 شعبان عام 987هـ/سبتمبر عام 1579م . سجل رقم 21 ، مادة 728 ، ص 298 ، بتاريخ 12 محرم عام 985هـ/مارس 1577م .

(99) سجل رقم 11 مادة 985، ص 243 بتاريخ 29 ذي القعدة عام 978هـ/مارس عام 1570م . ويذكر كلوت بك أن الجزارين قليلي العدد في القطر المصري تبعا لإستنفاذ اللحوم بسبب عدم إقبال الشعب عليها (لمحة عامة إلى مصر ، جـ 4 ، ص 48) .

(100) سجل رقم 2 ، مادة 1147 ، ص 216 ، بتاريخ 3 صفر عام 965هـ/نوفمبر عام 1557م .

(101) سجل رقم 5 ، مادة 468 ، ص 196 ، بتاريخ 10 رمضان عام 963هـ/يوليو عام 1555م .

(102) سجل رقم 25 ، مادة 63 ، ص 20 بتاريخ 13 جمادي الآخر عام 996هـ/أبريل عام 1587م .

(103) سجل رقم 58 ، مادة 288 ، ص 160 ، بتاريخ 19 ذي الحجة الحرام ، 1102هـ/ أغسطس 1691م .

(104) سجل رقم 12 ، مادة 29 ، ص 12 بدون تاريخ .

(105) سجل رقم 8 مادة 379 ، ص 130 ، بتاريخ 23 جمادي الأولى عام 973هـ/نوفمبر عام 1565م .

التى كانوا يتعلمونها عند بعض المغاربة (106) وعملوا فى حرفة الرفا (107) كما عملوا فى كثير من الحرف الاخرى، مثل حرفة البيطار(108) والحمامية(109) والقفاصين (110) والقواسين (111) والحدادين (112) ٠

ولقد دخل الشوام فى التنظيمات الطائفية ، أى طوائف الحرف التى كانت موجودة فى الاسكندرية فى ذلك الوقت ٠ وهكذا ساهموا فى كل الانشطة الاقتصادية التى كانت موجودة فى الاسكندرية فى العهد العثمانى ٠ ولقد اشتغل بعضهم فى وظائف الحكومة مثل قلم الجوالى المختص بتحصيل الجزية من أهل الذمة (113) ولاشك فى أنهم عملوا فى وظائف أخرى حكومية فى هذه المدينة ٠

وأرشيف المحكمة الشرعية بالاسكندرية ملىء بالاحداث والطرائف التى حدثت فى قطاع الصناعات والحرف ، والتى شارك فيها الشوام فى العهد العثمانى وهناك أمثلة كثيرة تسوق بعضها مثل تأخر أحد الصناع عن تسليم الكمية المطلوبة من الستائر منه ، وكان قد استلم المواد الخام ، واتضح بعد ذلك ان الكمية قد سرقت مع بعضر الخامات الاخرى (114) ٠ وقام أحد من يعمل بتبييض النحاس باستلام الاوانى النحاسية ثم قام بتسليمها لاحدى السيدات ولقد طالبه صاحب الاوانى بدفع ثمنها ٠ وان كان الحرفى لم يوافق على المبلغ (115) وفى هذا القطاع نجد الكثير من الخلافات حول اتمام العمل دون دفع الاجر المتفق عليه مثل اتمام العمل فى قلفطة احدى المراكب (116) او اهمال تعليم الحرفة ورفض رد المبلغ الذى دفعه من يرغب فى تعليمها ، وانكار الاستلام ، واقسم على ذلك (117) ومن الطريف أن أحد

(106) سجل رقم 18 ، مادة بدون رقم ، ص 276 ، بتاريخ 18 ذي القعدة 990هـ/نوفمبر عام 1583م .

(107) وهي حرفة لاصلاح الملابس الممزقة أو بهما عيوب .

(108) سجل رقم 5 ، مادة 176 ، ص 65 بتاريخ 3 محرم عام 967هـ/أكتوبر عام 1559م .

(109) سجل رقم 3 ، مادة 766 ، ص 262 بتاريخ 12 صفر الخير عام 984هـ/مايو 1575م .

(110) سجل رقم 91 ، مادة 132 ، ص 87 ، بتاريخ 10 جمادي الأولى عام 1183هـ/أغسطس عام 1765م .

(111) سجل رقم 1 ، مادة 499 ، ص 104 بتاريخ 20 ذي القعدة عام 957هـ/نوفمبر عام 1550م .

(112) سجل رقم 1 ، مادة 1820 ، ص 437 بتاريخ 28 جمادي الثانية عام 958هـ/يونيو عام 1551م .

(113) سجل رقم 24 ، مادة 372 ، ص 125 بتاريخ 13 ذي القعدة الحرام عام 979هـ/مارس عام 1552م .

(114) سجل رقم 11 ، مادة 35 ، ص 12 ، بتاريخ أول رجب عام 978هـ/نوفمبر عام 1570م .

(115) سجل رقم 12 ، مادة 29 ، ص 12 بدون تاريخ .

(116) سجل رقم 8 ، مادة 379 ، ص 130 بتاريخ 23 جمادي الأولى عام 973هـ/نوفمبر عام 1565م .

(117) سجل رقم 18 ، مادة بدون رقم ، ص 276 بتاريخ 18 ذي القعدة عام 990هـ/نوفمبر عام 1583م .

أهالى دمياط قدم حرام صوف لرفيه ، وعند استلامه وجد أن الرفا كان قد اعاره لشخص آخر • فطالبه بدفع ثمنه ، فقدر الثمن على غير أساس، واضطرت المحكمة للاستعانة بأحد المختصين والذى قدر السعر المعقول (118)•

وهكذا نجد أن الشوام قد شاركوا فى جميع ميادين النشاط الاقتصادى مع غيرهم من سكان مدينة الاسكندرية سواء فى التجارة أو الاموال أو الحرف والصناعات وعلى قدم المساواة مع غيرهم من رعايا الدولة العثمانية •

ثانيا الحياة الاجتماعية :

أما حياتهم الاجتماعية ، فقد تمثلت فى أنماط عديدة ، مثل الزواج والطلاق ، وتعاملهم مع بعضهم البعض أو تعاملهم مع الاهالى ومع بعض الافراد الآخرين سواء أكان ذلك من العرب او الاوربيين •

وبالنسبة للزواج ، فقد تزوج أحد الشوام من بنات احدى أهالى الصعيد ، المقيمين بالمدينة • واتفق على مقدم الزواج ومؤخره ، وكسوة الزوجة وغير ذلك من الشروط الاخرى(119) وتزوج أيضا أحد الشوام الدروز من بنات الاهالى (120) ويلاحظ هنا أن المؤخر يسدد على أقساط سنوية ، وهذه ليست بدعة جديدة ، فكانت موجودة طوال هذه الفترة • وكان ذلك واضحا من الاطلاع على سجلات المحكمة الشرعية • وتزوج بعض الصرافين المغاربة من المطلقات الشوام بعد اتمام العدة الشرعية (121) كما تزوجت احدى المطلقات من أهل الذمة أحد المسلمين بعد اتمام عدتها من مطلقها وقبل الزوج ذلك (122) ولوحظ هنا أن العقد خاليا من شروط الزواج مثل المقدم والمؤخر والكسوة وخلافه • واذا كان فقد تزوج احدهم من احدى الارامل بعد انقضاء عدتها الشرعية (123) كما تزوج بعض الاهالى من احدى نساء الشوام (124)

---

(116) سجل رقم 11 ، مادة 834 ، ص 209 بتاريخ 10 من ذي القعدة الحرام 978هـ/مارس عام 1570م .

(119) سجل رقم 22 ، مادة 1147 ، ص 347 ، بتاريخ 3 صفر الخير 956هـ/مارس عام 1549م .
اتفق على صداق 151 نصف فضة سلمانية يدفع نصفها في الحال ويقسط المؤخر على أقساط سنوية بمعدل خمسة أنصاف سنويا وكسوتها السنوية خمسة عشر نصف (أنظر أيضا سجلات أرقام 24 ، مادة 289 ، ص 93 ، وسجل رقم 42 ، مادة 252 ، ص 79 ، سجل رقم 86 مكرر ، مادة 610 ، ص 209 .

(120) سجل رقم 6 ، مادة 121 ، ص 48 بتاريخ 25 ربيع الأول عام 976هـ/أكتوبر 1563م وأنظر سجلات أرقام 11 ، مادة 964 ، ص 164 ، نفسه ، مادة 1117 ، ص 274 .

(121) سجل رقم 26 ، مادة 121 ، ص 48 بتاريخ 5 ربيع الأول 971هـ/أكتوبر 1573م . لوحظ هنا كثرة الشهود الموقعين على العقد . ويذكر الدكتور جلال يحيي في محادثة معه بأن نظام القضاء المستخدم في المغرب والأندلس قبل ذلك والذي يقوم على أساس (الجماعة) بدلا من نظام القاضي المستخدم في البلاد الشرقية .

(122) سجل رقم 26 ، مادة 297 ، ص 99 بتاريخ 9 رمضان عام 997هـ/يوليو 1585م .

(123) سجل رقم 35 ، مادة 101 ، ص بدون رقم بتاريخ 25 محرم 1010هـ/يوليو 1601م . وأنظر سجل رقم 42 ، مادة 385 ، ص 113 بتاريخ 27 شوال عام 1026هـ/أكتوبر عام 1627م .

(124) سجل رقم 6 ، مادة 121 ، ص 48 ، بتاريخ 5 ربيع الأول عام 971هـ/أكتوبر عام 1563م .

ويذكر هنا مواصفات الزوجة • ويتفق على دفع مقدم الصداق ويقسط المؤخر الى الوفاء . ومن الطريف بأنها تشترط عليه اذا تركها مدة ثلاث شهور دون متعة او نفقة تصبح طالقا دون ان يطلق اللفظ (125) وشمل الزواج ايضا من احدى العتقاء ، وكان من ضمن شروط عقد زواجها أن يدفع المؤخر عند الطلاق او موت احدهما (126) ولوحظ فى بعض حالات الزواج أن سن الزوجة كان صغير جدا، وصل فى احدى الحالات الى عشر سنوات(127) وهنا نجد ان تقدير السن كان جزافيا ، وخاصة خلال هذه الفترة حيث لا توجد سجلات لقيد المواليد او الوفاه ، فكان يقدر السن بالتقريب • وشهدت حالات اتمام الزواج بين أهل الذمة امام القاضى الشرعى ، وكانت شروط عقد القران هى نفس شروط عقد زواج المسلم (128) •

أما فى حالات الطلاق ، فقد كانت تتم فى بعض الحالات بأن تطلب الزوجة نفسها الطلاق ، وتتنازل عن مؤخر صداقها (129) وتم طلاق احدى الزوجات وهى ما زالت بكرا ، بعد دفع مؤخر صداقها المذكور ، ويشترط بعدم عودته اليها مرة أخرى الا بعقد قران جديد (130) وتطلق الزوجة نتيجة لسفر زوجها وتركها دون متعة شرعية وعدم انفاقه عليها ، وتستشهد بالبعض الذين يؤكدون ذلك (131) ويلاحظ بأنه قد تم الاتفاق بين الاثنين على ذلك . وسجلات المحكمة الشرعية مليئة بمثل هذه القضايا ، فنجد فى بعض الحالات بأن الزوج يترك زوجته أربع سنوات غائبا عن البلاد ، دون ان يترك لها ما تنفقه على نفسها وتخشى على نفسها من الفتنة والضياع وتستشهد بفقيه الثغر وبعض الاشراف فى المدينة ، ونتيجة لذلك يحكم القاضى بطلاقها من زوجها الغائب(132) وهناك حالة أخرى بأن تتنازل الزوجة عن مؤخر صداقها وبالرغم من ذلك فانه يحكم لها بنفقة شهرية معلومة (133) ولوحظ تطليق بعض عربان هوارة لاحدى الشاميات (134) بالاضافة الى ذلك فهناك حالات مثل الطلقة الثالثة ، ويعنى ذلك بأنه لا يجوز عودتها الى عصمة زوجها السابق الا قبل الزواج بآخر (135)

---

(125) سجل رقم 51 ، مادة 1442 ، ص 616 بتاريخ 2 شعبان عام 1077هـ/يناير عام 1667م .
(126) سجل رقم 12 ، مادة 174 ، ص 66 بتاريخ 1 محرم عام 986هـ/مارس عام 1578م .
(127) سجل رقم 42 ، مادة 784 ، ص 240 بتاريخ 18 صفر عام 1016هـ/1607م
(128) سجل رقم 42 ، مادة 112 ، ص 35 بتاريخ 17 ذي القعدة عام 1015هـ/مارس عام 1607م .
(129) سجل رقم 1 ، مادة 499 ، ص 104 ، بتاريخ 2 ذي القعدة عام 957هـ/نوفمبر عام 1550م .
وأنظر سجل رقم 26 ، مادة 301 ، بتاريخ 14 ربيع الأول عام 1004هـ/نوفمبر عام 1595م .
(130) سجل رقم 9 ، مادة 650 ، ص 209 ، بتاريخ 7 رمضان عام 993هـ/أغسطس عام 1585م .
(131) سجل رقم 11 ، مادة 461 ، ص 132 بتاريخ 22 رمضان عام 978هـ/يناير عام 1571م .
(132) سجل رقم 72 ، مادة 294 ، ص 237–239 بتاريخ ختام ذي الحجة عام 1145هـ/مايو عام 1733م .
(133) سجل رقم 91 ، مادة 319 ، ص 228 ، بتاريخ 8 رجب عام 1184هـ/أكتوبر عام 1770م .
(134) سجل رقم 12 مادة 46 ، ص 20 بتاريخ 28 ذي القعدة عام 985هـ/يناير عام 1578م .
(135) سجل رقم 18 ، مادة 314 ، ص 106 بتاريخ 24 رجب عام 990هـ/يوليو عام 1580م .

وقد تعود المطلقة أحيانا الى زوجها مرة أخرى ، ففى هذه الحالة يدفع لها زوجها مقدم صداق جديد ، ويقرر لها كسوة وغير ذلك من الشروط الاخرى (136) وأحيانا تعود على نفس مقدم الصداق السابق ، ولا يذكر قيمته (137) ويذكر فى بعض الحالات مقدم الصداق الجديد والمؤخر وطريقة تسديده (138) .

يأتى بعد ذلك نوعا آخر من الحياة الاجتماعية وهو الميراث ، مثل وراثة حصة فى منزل عن أخيه لوالدته ، ولكن اتضح بعد ذلك بأنه لم يكن الوارث الوحيد فهناك والدته وجده وشقيقته ، ولذلك وزع الثلث للام والثلثان للجد وللزوجة وبيت المال ايضا (139) قد يكون حصة الميراث فى أشياء اخرى غير الحصص العقارية (140) قد تكون فى بعض الحيوانات ، ويستشهد الورثة بمقدم السقائيين وغيره (141) أو أن يكون الميراث فى شكل أموال نقدية مودعة كأمانة بطرف أحد الاهالى ، ومن الطريف أن الوالد كان ما زال على قيد الحياة (142) واحيانا يموت الوالد ويترك ميراثا ، وتعيين الام وصية على أولادها القصر (143) وقد يموت بعضهم تاركا ميراثا له فى كلا من الاسكندرية والشام ، ويكون الورثة موجودين هناك ففى هذه الحالة يستدعيهم الوصى من هناك ويسلمهم نصيبهم المالى والعينى فى الميراث ويقر الجميع بأنهم قد استلموا نصيبهم كاملا (144) . ويتنازل أحدهم عن نصيبه فى الميراث لاخيه واخوته البنات (145) كما يوهب البعض قبل وفاته ميراثه لبعض الناس الذين كانوا يقومون بخدمته أثناء مرضه وكتب حجة بذلك وشهد عليها بعض الشهود (146) كما يهب آخر حصته فى القايق لشخص ما (147) .

أما قضايا قذف العرض فسجلات المحكمة الشرعية مليئة بمثل هذه القضايا، فقد اتهم الحدادين احد السكندريين بانه قد تفوه بعبارات ضد زوجته ، وعند

(136) سجل رقم 22 ، مادة 766 ، ص 262 بتاريخ 12 صفر عام 974هـ/أبريل عام 1586م .
(137) سجل رقم 11 ، مادة 658 ، ص 172 ، بتاريخ 15 شوال عام 978هـ/فبراير عام 1571م .
(138) سجل رقم 20 ، مادة 223 ، ص 78 بتاريخ 16 جمادي الثانية 973هـ/1565م .
(139) سجل رقم 9 ، مادة 105 ، ص 40 بتاريخ 7 محرم عام 973م/يوليو عام 1565م .
(140) سجل رقم 20 مادة 420 ، ص 164 بتاريخ 21 ربيع الأول عام 995هـ/نوفمبر عام 1567م .
(141) سجل رقم 21 ، مادة 178 ، ص 53 ، بتاريخ 16 شوال عام 993هـ/سبتمبر عام 1585م .
(142) سجل رقم 22 ، مادة 187 ، ص 35 ، بتاريخ 16 شوال عام 993هـ/سبتمبر عام 1585م .
(143) سجل رقم 58 ، مادة 288 ، ص 160 بتاريخ 19 ذي الحجة عام 1102هـ/أغسطس عام 1690م .
(144) سجل رقم 86 ، مادة 169 ، ص 134–135 بتاريخ 10 شوال عام 1177هـ/أبريل عام 1764م .
(145) سجل قم 91 ، مادة 226 ، ص 149 ، بتاريخ ختام عام 1183هـ/مارس عام 1770م .
(146) سجل رقم 95 ، مادة 80 ، ص 52 بتاريخ 8 رجب عام 1187هـ/سبتمبر عام 1773م .
(147) سجل رقم 81 ، مادة 152 ، ص 112 بتاريخ أواخر صفر الخير 1167هـ/نوفمبر 1753م

مواجهته بذلك انكر ، وأما شهادة الشهود الذين اكدوا حدوث ذلك اعتراف ، وتعهد بعدم فعل ذلك مرة أخرى (148) واكتفى القاضى بتعهده ٠

ومن الطرائف احدى القضايا الخاصة باحتساء بعض النساء الخمر فى احدى خمارات المدينة ، وعند مواجهتها بذلك عللت بقولها بأن بعض النساء قد غررت بها ، وادخلتها هذه الخمارة التى يمتلكها احد الذميين ووجدت بعضهن يحتسين الخمر ، وقدمن لها ، واحتست كمية كبيرة حتى فقدت وعيها تماما (149) ومن الملاحظ أنه لم يصدر حكما ضدها . أما الدعارة فقد مارستها احدى الشاميات ومعها احدى الساقطات الاخريات فى احد الحدائق العامة بالمدينة ، وتم ضبطهن بمعرفة صوباشى المدينة أثناء مروره ليلا ٠ وعند مواجهة الجميع من الرجال والنساء أدعى احد الرجال بأن البستانجى هو الذى احضر لهم هؤلاء النساء لممارسة الدعارة معهن نظير دفع مبلغ معين ، وانتهى الامر بتطبيق احكام الشرع الشريف ضد الجميع (150) ومن الملاحظ لم يصدر اى حكم ضد البستانجى باعتباره أنه مارس مهنة القواد ٠

وشهدت الحياة الاجتماعية نمطا آخر من انماط الحياة الاخرى ، مثل النزاع بين بعضهم البعض ، وبينهم بعض اهالى مدينة الإسكندرية ، لذلك نجد بعض القضايا بقيام احد الشوام بسد طاقة تفصل بينه وبين جارته وترتب على ذلك أنها قامت بالاعتداء على وجهه (بالقباب) مما احدث عاهة به ، وطالب بالتعويض المناسب ، وعند مواجهتها انكرت واتهمته بالاعتداء عليها بالضرب ، وكسر أحد اسنانها (151) ولم يتمكن القاضى باصدار اى حكم ضد احدهما ٠ كما اعتدى احد القهوجية من الشوام بالضرب على احد زبائن القهوة الذى امتنع عن دفع ثمن المشروب الذى شربه ، وانكر ـ القهوجى ـ حدوث ذلك (152) وانتهز صوباشى المدينة فرصة انشغال احد المسيحين فى مشاجرة واعتدى عليه بالضرب نتيجة لنزاع قديم فيما بينهم (153) واعتدى احدهم بالضرب لاحد التونسيين وهو فى حالة سكر ، بل الادهش منذلك اراد ان يفعل معه الفاحشة، واستغاث بالبعض الذين حضروا بناء على استغاثته، وطالب بالتعويض المناسب ، وانكر ولكن أكد الشهود ذلك (154) ويتهم أحدهم بعض المغاربة بأن يحضر اليه بعض الصبيان ويفعل معهم الفاحشة ، وبمواجهته بذلك ينكر ، ولكن الشهود يؤكدون عكس ذلك ، مما جعله يطالب بالتعويض المناسب ، وينتهى

(148) سجل رقم 1 مادة 1820 ، ص 434 بتاريخ 20 جمادي الثانية عام 958هـ/يونيو عام 1551م .
(149) سجل رقم 3 ، مادة 607 ، ص 217 بتاريخ 16 شوال عام 964هـ/يوليو عام 1557م .
(150) سجل رقم 53 ، مادة 262 ، ص 155 بتاريخ 17 ذي الحجة عام 1083هـ/مارس عام 1623م .
(151) سجل رقم 11 ، مادة 29 ، ص 11 بتاريخ مستهل رجب عام 978هـ/نوفمبر عام 1570م .
(152) سجل رقم 44 ، مادة 194 ، ص 96 ، بتاريخ 10 جمادي الثاني عام 1064هـ/مارس عام 1644م .
(153) سجل رقم 29 ، مادة بدون رقم ، ص 138 ، بتاريخ 30 رجب عام 1001هـ/أبريل عام 1592م .
(154) سجل رقم 22 ، مادة 191 ، ص 53 بتاريخ 15 جمادي الأولى عام 993هـ/مايو عام 1585م .

الامر بالحكم على الشامى حكما تأديبيا (155) وان كان لم يذكر نوع هذا التأديب . بالاضافة الى ذلك شهد الاعتداء أيضا بالالفاظ كما حدث مع بعض القهوجية (156) واعتدى احدهم على زوجة احدهم باللفظ أثناء غياب زوجها ، مما تسبب فى اجهاضها ، وانكر ولكنها استشهدت بشهادة أربعة نساء اللاتى أكدن حدوث الواقعة (157) ولم تظهر الوثيقة نوع العقوبة التى صدرت ضده. وشهد النزاع نوعا آخر مثل استيلاء أحد القهوجية على شاية خاصة باحدى النساء ، وطالبته بردها (158) كما استولى احدهم على جارية تخص احد الافراد ، وعندما طالبه بردها ، اشترط عليه احضار دليل فى خلال ايام ، واذا لم يحضره فلا يكون له الحق فيها (159) ولم يعرف هل تم احضار الدليل أم لا . وهناك العديد من القضايا المتنوعة فى مثل هذه الامور .

كما شهدت الحياة الاجتماعية مظهرا آخرا من مظاهرها ، مثل اعتاق العبيد، واعتناق احد اليهود الاسلام ، والتبرع لوجه الله تعالى ، لذلك نجد قيام احد القهوجية باعتاق عبد له ، لوجه الله تعالى وابتغاء رحمته وانه اصبح حرا من احرار المسلمين وعليه حقوقهم وله واجباتهم (160) وقد يقوم احد الافراد باتخاذ الاجراءات لاعتاق جارية له ، ويحدث أنه أثناء ذلك وافته المنية ، ولكن يؤكد الشهود ذلك ، وتصبح هذه الجارية حرة من احرار المسلمات (161) أما بخصوص اعتناق احد اليهود الشوام الاسلام ، فيذكر انه قد حضر طائعا مختارا دون اكراه او اجبار ، وتلفظ بالشهادتين امام الجميع (162) أما التبرع لوجه الله تعالى فكان يتخذ صورا عديدة ، مثل التبرع للصرف على وقف معين بالمدينة ويحدد المبلغ الذى قام بهذا العمل هو مستأجر لقهوة فى نفس الوقف وتعهد بصيانتها وترميمها على نفقته الخاصة . كما تبرع البعض بمبلغ للصرف على روح المتوفى للصرف على الوقف (164) ويشترى البعض منزلا من احدى السيدات ، ثم يوقفه بعد ذلك للصرف على قاعدة مذهبية شريفيين ، وعلى معتقده مقلده الامام المنيف الامام ملك بن انس رضى الله تعالى عنه (165) .

د. صلاح أحمد هريدي
جامعة الاسكندرية

---

(155) سجل رقم 23 ، مادة 616 ، ص 175 بتاريخ 15 شعبان عام 994هـ/يوليو 1586م .
(156) سجل رقم 23 مادة بدون رقم ، ص 155 بتاريخ 8 شعبان عام 994هـ/يوليو عام 1586م .
(157) سجل رقم 27 ، مادة بدون رقم ص 195 ، بتاريخ 6 محرم عام 995هـ/أكتوبر عام 1589م .
(158) سجل رقم 11 ، مادة 49 ، ص 20 بتاريخ 14 رجب عام 978هـ/نوفمبر عام 1570م .
(159) سجل رقم 21 ، مادة 943 ، ص 337 بتاريخ 17 محرم 955هـ/ديسمبر عام 1587م .
(160) سجل رقم 41 ، مادة 771 ، ص 416 ، بتاريخ 14 جمادي الأولى عام 1047هـ/ سبتمبر عام 1627م .
(161) سجل 25 ، مادة 765 ، ص 244 بتاريخ 17 ذو القعدة 996هـ/سبتمبر عام 1581م .
(162) سجل رقم 21 ، مادة 364 ، ص 315 بتاريخ 26 شعبان عام 986هـ/1578م .
(163) سجل رقم 31 ، مادة 72 ، ص 30 ، بتاريخ 7 رجب عام 1021هـ/أغسطس عام 1612م .
(164) سجل رقم 81 ، مادة 152 ، ص 112 بتاريخ أواخر صفر عام 1167هـ/1753م .

ملحـق رقـم (1)

وثيقة زواج احد الشوام من بنات الاهالى •

مصدر الوثيقة : سجلات المحكمة الشرعية بالاسكندرية •

تاريخ الوثيقة ؟ : يوم الجمعة المبارك ثالث صفر الخير سنة خمسة وستون وتسعمائة • سجل رقم 2 مادة 1147 ، ص 347 •

لدى مولانا أفندى

تزوج احمد بن الشيخ عبد العال الرامح الشامى الحلوى بمخطوبته خضرة المرأة ابنة عبد النبى بن بشارة الصعيدى المستشار على العتاب واليه وصداق جملة من الفضة السلمانية معاملة تاريخه ماية نصف واحد وخمسون نصف واحد وخمسون الحال لها فرق خمسون نصف ستقبضه والباقى بعده كله مقسطا لها على نحو مدة عشرين قسط كل سنة خمسة انصاف زوجها بذلك الحاكم الشرعى المشار اليه بادخاله فى ذلك ورضاها بعد الوضوح الشرعى تزويجا شرعيا وقبله الزوج لنفسه القبول الشرعى وقرر الزوج لزوجته فى نظير كسوتها على كل سنة خمسة عشر نسف ورضيت بذلك وشهد فى تاريخه •

ملحـق رقـم (2)

وثيقة عن احتساء احد النساء الخمر •

مصدر الوثيقة : سجلات المحكمة الشرعية بالاسكندرية •

تاريخ الوثيقة : يوم الاربعاء المبارك سادس عشر شوال سنة أربعة وستون وتسعمائة • سجل رقم 3 مادة 607 ، ص 217 •

ولدى سيدنا الشيخ الدين الشافعى اعز الله احكامه الحمد لله وحده يوم الاربعاء المبارك سادس عشر شوال عام اربعة وستون وتسعمائة •

فى ليلة تاريخه احضرت عايشة المرأة بنت محمد الشامى المعروفة بوالدها المعتدلة القامة القمحية اللون بحضرة جمع من المسلمين بمجلس الشرع الشريف وان رايحتها خمرة فسئلت عن ذلك فقالت بصريح لفظها على بن الشحم وقال لى ادخلى بيت مينه النصرانى الى ان ياتيك الامر وتعطيه فلوسا ودخلت فوجدت نساء النصارى وعندهن خمر يشربنه فقلن لى اشربى معنا فشربت الخمر معهن الليلة هذه فحدث على اعترافها بذلك الحد الشرعى •

شهــود الحــال

ملحــق رقــم (3)

وثيقة عن طلاق .

مصدر الوثيقة : سجلات المحكمة الشرعية بالاسكندرية .

رقم السجل : 6 مادة 301 ص 121 بتاريخ 13 ربيع الاول عام 1004 هـ

لدى الشيخ محى الدين المالكى ...

سألت الحرمة فاطمة ابنة احمد الشامى زوجها منصور بن نــاصر الــدين البيضاوى ان يطلقها من عصمته وعقد نكاحه طلقة واحد بعد الدخول بها ولا صار عليه براه ذمتها لها من اربعمائة نصف صداقها عليه من الانصاف الجديدة معاملة تاريخه بالديار المصرية بتصادقها على ذلك وزكاواتها الشرعية مــن خير نيابة بها والى وقدرها معلومة لها شرعا اجاب سوالها لــذلــك وطلقها الطلقة المسولة على ذلك بانت منه بذلك بثبوته شرعية فلا نكاح لها الا بعقد جديد بشروطه الشرعية واقر كل منهما الاقرار للشرعية وهى بحالتى صحة واختيار ان منصور فريق ومطلقته والجهة المذكورة فريق كل منهما فريق لا يستحق على الفريق الآخر حقا مطلقا ولا استحقاقا ولا ولا رجا ولا طلبا ولا سبب ولا قمح ولا ذهبا ولا صداقا ولا بقية سنة ولا كسوه ولا فضه ولا متعة ولا شى قل ولا جل ...

الشــهـــود

ملحق رقم (4)

وثيقة عن اقتراض بعض الشوام من احد عربان هوارة .

مصدر الوثيقة سجلات المحكمة الشرعية .

سجل رقم 21 ، مادة 158 ص 046 بتاريخ 12 شوال عام 993 هـ

لدى الشيخ محيى الدين المالكى

ادعى على بن عمران بن محمد الهوارى على ابى القاسم بن نوح الحموى انه يستحق فى ذمته خمسة وثلاثين دينارا ذهبا جديدا ودينار من اكــارنة عــن اثنتان وستون والثابت المقر ابتاع ذلك نفسه ومن شريكه الحاج نافع وعبيد بن منصور الهوارى الحاضرين بالمجلس وطالبه بذلك فسيل المدعى عليه وقد اجاب بالاعتراف بذلك وانه دفع للمدعى الموكل سبعة دنانير والبائع الموكل

ثلاثة عشر دينار او قدمت الدينار الجديد وحوالة الحاج اكارنة فصدقا عليه ماعدا مبلغ الاكارنة حوالة الحاج بندر وطالباه بباقى فاعترف وخرج على الرضا فى تاريخه ٠

ملحق رقم 5

وثيقة عن اشتغال بعض الشوام فى حرفة الخبازين ٠

مصدر الوثيقة ؟ سجلات المحكمة الشرعية ٠

مادة رقم 599 ، ص 219 سجل رقم 032 الجمعة 15 صفر عام 1009 هـ

وفيه لديه

ادعى شميس بن شمس الدين البرنبالى على على محمد بن محمد الشامى بانه يستحق فى ذمته مبالغا جملته من الفضة الجديدة معاملة تاريخه بالديار المصرية خمسة وثمانون نصفا على الحلول الشرعى على ما هو مبين فيه ما هو بقيمته ثمن حطب ستون نصفا وما هو ثمن شافية عتاقة خمسة وعشرون نصفا ويطالبه بذلك سيل اجاب بالاعتراف بذلك جميع ان الستين نصفا موجله على الى سلخ ربيع الاول سنة تاريخه فلم يصدقه على ذلك فى الاجل المذكور وخرج فى الرضى على ذلك واعتقل بسجن الشرع الشريف فرج الله عنه فى تاريخه ٠

قائمة المصادر والمراجع :

أولا : وثائق لم تنشر بعد :

سجلات المحكمة الشرعية بالشهر العقارى بمدينة الاسكندرية ٠

ثانيا : المخطوطات :

مصطفى بن الحاج ابراهيم تابع الامير حسن كتخدا عزبان الدمرداشى تاريخ وقائع مصر ٠ قمت بتحقيقها وهى معدة للنشر ٠

ثالثا : المراجع :

- عبد الرحمن الجبرتى ، تاريخ عجائب الاثار فى التراجم والاخبار طبعة بولاق ٠

- عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، الشرق العربى من الفتح العثمانى حتى القرن الثامن عشر ، 1971 - بيروت ٠

طبيعة الحياة الاجتماعية فى المشرق والمغرب العربيين خــلال الفتــرات العثمــانية

تقرير نقدى لاعمال المؤتمر العالمى الثانى للدراسات العثمانية المختصة بالولايات العربية ، والمنعقدة بتونس للفترة 15 ـ 21 آذار / مارس 1986

د. سيار الجميل

ليس من السهل ، دراسة هذا الموضوع الحيوى بشكله العام الذى يتصل اتصالا وثيقا بطبيعة الحياة العربية فى تاريخها الطويل .. الا من خلال مقدمة تنظيرية له واتخاذ نماذج معينة للدراسة والفحص والمقارنة ، واجراء تفاسير مختلفة ، كما ويتعين ابراز مسارات متعددة فى اتخاذ الامثلة والنماذج كقياس الحالات والانشطة الاجتماعية التى عاشها المجتمع العربى فى ظل الوجود العثمانى فى تاريخه الحديث .. والذى تعتبر صفحاته أقرب فى حياتها التاريخية الى حاضره الاجتماعى اليوم : الحاضر الذى تكون تاريخيا على مدى قرون متوالية من الزمن .. كان فيه متواصلا ، وحيا وله استمراريته . وهنا تقترن الكينونة الاجتماعية بالذاتية العربية مضافا اليها كلا من الثقافة والبيئة العربيتين .

ليست هذه المحاضرة النظرية بمستكملة لكافة الامور التى تتعلق بموضوع الكينونة الاجتماعية لكيان العرب الحديث خلال الفترات العثمانية ، وانما هى دراسة مقدمة هدفها فتح الآفاق الاكاديمية امام الباحثين والمؤرخين العرب ، لالقاء المزيد من الاضواء ، والوقوف على المزيد من الحقائق التى تهم مستقبل المنظومة الاجتماعية العربية التى تشترك فى هويتها القومية ، وأحادية لغتها العربية ، وعناصر حياتها التاريخية المتفاعلة ، وتواصل ثقافتها الخاصة بها على طرفى جناحيها بين كل من المشرق والمغرب العربيين . ان هذه الدراسة ليست جازمة ، ولكنها مقدمة تمهيدية نقدية لفحص المسألة المفروضة علينا من قبل حاضرنا : **طبيعة الحياة الاجتماعية بين كل من المشرق والمغرب العربيين خلال الفترات العثمانية** .. ومحاولة للاجابة عنها من خلال بعض المواضيع الحساسة التى لا بد من فتح المجال لعملية مزاوجة وإستقصاء نقدى مقارن بين الجناحين المذكورين من المجتمع العربى الكبير . ولا ريب بأن تلك المواضيع تعتبر قضايا مركزية ، واشكاليات تاريخية .. آن الاوان لكى تثار حولها المزيد من الآراء والتعليلات والاسئلة . هذا من جانب ، اما الجانب الآخر ، فان الموضوع يتسع فى مجاله وحجمه لعدد كبير من الدراسات العلمية التى تتصل باقتصاديات المجتمع العربى ، وادارات اقاليمه العديدة .. ولا يمكننا ان ننسى بأن الفترات العثمانية كانت طويلة ، فقد شغل الوجود العثمانى مساحة التاريخ الحديث فى حياة المجتمع العربى ، وعلى امتداد اربعة قرون من التاريخ .

1 / أهميــة التاريــخ الاجتمــاعي :

ان أبرز ما نحتاجه اليوم في حياتنا العربية المعاصرة ٠٠ هو فهم واضح للتاريخ الاجتماعي الذي يميز العرب خلال الاحقاب الحديثة التي مر خلالها المجتمع العربي في تكوينه التاريخي المعروف ، وتبلور مواصفاته الحديثة من خلالها . ويتوضح من ذلك : تطور العلاقات الاجتماعية التي حكمت طبيعة المجتمع العربي ابان الوجود العثماني في المنطقة العربية على مدى أربعة قرون. أي منذ بداية القرن السادس عشر وحتى الحرب العالمية الاولى . والتاريخ الاجتماعي : هو العلم الذي يبحث في طبيعة المضامين الاجتماعية ٠٠ والعلاقات الاجتماعية في بيئة جغرافية معينة ، اضافة الى دراسة الحركات الاجتماعية لجماعة أو أكثر في مجتمع معين ٠ ويفترض في دراسته ايضا ، الايغال غير المشروط في معرفة ثقافة المجتمع او ثقافته المتميزة أو المشتركة ، والنماذج المستحدثة والقديمة والطارئة عليه بتأثير التطور السياسي في حركته . وطبيعة الاوضاع الاقتصادية التي مرت عليه ، واثرت في تراكيبه الاجتماعية وانماط عيشه ، وتنظيماته النقابية ، وفئاته السكانية .. كما وانه يتوقف عند مظاهره المتعددة في احوال الريف والمدن .. والهجرة والنزوح ، والبداوة والحضارة ٠ ويوغل بصورة اكبر ، ليتعرف على الوضعية الثقافية السائدة ، والاستفادة من روح علم سوسيولوجية المعرفة والفكر والادب .

لقد ظهرت خلال العقدين الاخيرين ، العديد من الدراسات والتأليفات والمقالات التي عالجت جوانب حية وضرورية في التاريخ الاجتماعي الحديث ، وقد انصب أغلبها في الحلقة التاريخية التي عاشها العرب خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ٠ سواء تلك التي كتبت باقلام عربية شحيحة أم تلك التي كتبها العديد من المؤرخين الغربيين والمستشرقين بلغات أوربية شتى . ان العرب ـ اليوم ـ بحاجة كبيرة الى دراسات وابحاث تغطي جوانب مجهولة وغامضة في حياة تطور مجتمعهم العربي ، والعلاقات المتنوعة التي كانت تحكمه اقتصاديا وثقافيا واداريا وجغرافيا على امتداد القرون المتأخرة في ظل السيادة العثمانية .. اضافة الى ادوار المدينة العربية مشرقا ومغربا كمراكز اجتماعية كبرى في الاستقطاب السكاني والتجاري والثقافي ٠٠ ودور الاقليات السكانية في البيئة العربية . كما ان هناك حاجة ماسة في بحث الديموغرافيا العربية ، والتوزيع السكاني ، وانماط العيش ، واحوال السوق .. ناهيك عن البحث في طبيعة الحركات الاجتماعية ، والثورات والانتفاضات المسلحة التي حملت في جوفها نوازع سياسية ، أو ما رسمته على وجهها من مسميات واهداف دينية أو صوفية . كما يجب دراسة الظروف والاوضاع الطبيعية من امراض وكوارث هزت المجتمع العربي .

2 / حول الحياة الاجتماعية للولايات العربية في العهد العثماني :

تحت هذا الموضوع التاريخي الحي ، انعقد المؤتمر العالمي الثاني في منطقة الحمامات بتونس للفترة 15 ـ 21 / مارس = آذار / 1986 .. والذي نظمه

«مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية فى العهد العثمانى» بتونس ، وأشرف على المؤتمر المؤرخ الدكتور عبد الجليل التميمى · وكان انعقاد هذا المؤتمر خير نموذج علمى اكاديمى للفهم العلمى الجديد ـ الذى قدمنا عنه ـ فى الدراسات التاريخية · اما الشعار الكامل للموضوع فقد كان : **«الحياة الاجتماعية للولايات العربية ومصادر وثائقها فى العهد العثمانى»** · لقد حضر اعمال المؤتمر العالمى المذكور حوالى مائة مؤرخ ومستشرق وباحث .. أغلبهم من أساتذة الجامعات فى كل من : فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة الامريكية والمانيا وايطاليا وتركيا ، والبلاد العربية منها : مصر وتونس والعراق والجزائر ولبنان وسوريا والاردن والمغرب والسعودية ...

وتنوعت الدراسات والابحاث التى قدمت الى هذا المؤتمر ، بحيث يمكن ان نقسمها الى ثلاثة أقسام أساسية ، هى :

1 ـ الابحاث التى تتعلق بحالات عامة ، وقضايا مركزية فى التاريخ الامبراطورى العثمانى ، ووثائقه .

2 ـ دراسات فى الاحوال الاجتماعية للولايات العربية ، واقتصادياتها ، وقضايا متنوعة تختص بالاثنوغرافية ، والهجرات والديموغرافيا السكانية ...

3 ـ مقالات وأوراق مركزة حول الحياة الاجتماعية فى أمهات المدن العربية وما تميزت به من العلاقات كمراكز مدنية حية ، لها اوضاعها الاجتماعية والثقافية ، وحالاتها الاقتصادية والعمرانية ، أمثال : بيروت ، الموصل ، دمشق ، القدس ، بغداد ، القاهرة ، حلب ، قسنطينة ، جدة ، مكة ، تونس ، صفاقس ... الخ .

ومن الملاحظ ، ان مقالات وأوراق القسم الثالث قد طغت فى مواضيعها وحجومها على اعمال المؤتمر ، وندرت الابحاث والدراسات الموسعة ، والتحليلات المقارنة ، كالتى وجدنا بعضا منها فى القسمين الاولين ، وامتازت بالمتانة والرصانة العلمية . كما لاحظنا أيضا ، ان اغلب الموضوعات عالجت الحياة الاجتماعية خلال القرن التاسع عشر .. وندرت تلك الابحاث الثمينة فى حياة العرب الاجتماعية خلال القرون : السادس عشر والسابع عشر الثامن عشر · اضافة الى ان الابحاث التى تتعلق بقضايا مركزية فى مرحلة انهيار التاريخ الامبراطورى ، وعهد السقوط .. جاءت على يد بعض المؤرخين الاجانب من الامريكان والاتراك · اما ابرز الولايات العربية التى درست ونوقشت بعض موضوعاتها فهى : الشام ، الحجاز ، حلب ، الموصل ، تونس ، الجزائر ، بغداد وسنجق الحسا .

بدون شك ، ان مجموعة الابحاث والدراسات والمقالات التى قدمت الى المؤتمر المذكور ، ونوقشت فيه .. كانت متنوعة ، ومنها ما كان جديدا للغاية بحيث استقطب حوله العديد من المناقشين والنقاد والمهتمين ، وذلك بسبب المعلومات الوثائقية التى اكتشفت حديثا على يد مؤرخين عرب وأجانب . ولكن

ـ مع الاسف ـ منها ما كان تقليدى سردى يعتمد على مواد تاريخية معروفة ، ومعلومات مترجمة تقع بسرعة تحت طائلة المؤرخ . اما الملاحظة التى يمكن استخلاصها من نتائج المؤتمر ، هى تلك التى تقع فى دائرة التفسير التاريخى لدى المؤرخين العرب بشكل خاص ٠ اذ ان اغلب المؤرخين العرب الذين شاركوا بدراساتهم وابحاثهم ومقالاتهم .. انما اقترنت اعمالهم بالمدينة او الاقليم او الولاية العربية التى انحدروا منها ٠٠ فالابحاث التى تتعلق بمصر العثمانية كانت من نصيب المؤرخين المصريين ، وهكذا ، بالنسبة لابحاث مختصة بولاية الشام ، أو ولاية بغداد ، أو ولاية الحجاز ٠٠ وكل من ايالتى تونس والجزائر ٠ وهذا ، شىء معروف .. فقد غدا أمر الكتابة التاريخية العربية عند العرب المحدثين فى كتابة تاريخهم سواء وسيطة أم حديثة : تكريس للنزعة الوطنية والاقليمية والمحلية .. فى تثبيت أهمية اقليم أو قطر عربى على حساب غيره من الاقاليم والاقطار العربية . كما ونلاحظ ، مع الاسف .. وخصوصا عند المؤرخين الشباب المحدثين من لبنان : تكريس للنزعة الطائفية المحلية فى لبنان ، والبحث عن جذورها على حساب احادية لبنان وعروبته . اما الملاحظة النقدية الاخرى عن اعمال المؤتمر المذكور اعلاه ، فهى غياب ابحاث ودراسات عن ولاية اليمن التى تشكل بؤرة توتر بالنسبة لتاريخ الامبراطورية العثمانية منذ القرن السادس عشر حتى فجر التاريخ المعاصر .. اضافة الى غياب مؤرخين من ليبيا والسودان ، وبذلك غابت عن اشغال المؤتمر دراسات فى تاريخ كل من هذين القطرين العربيين ايضا . اما المغرب والجزائر ، فقد مثل كل منهما مؤرخ واحد تحدث عن موضوع هام . ويمكننا ان نقول بعد استماعنا لجميع محاضرات المؤتمر ، ومناقشة العديد منها .. انها دراسات رغم تنوعها ، الا انها شغلت حيزا اختصاصيا ضيقا فى التاريخ الاجتماعى للعرب ٠ فقد غابت دراسة أهم عناصره فى الحياة الاجتماعية العربية خلال العهد العثمانى ، الا وهى العلاقات الاجتماعية فى المجتمع العربى ، وربط ذلك بأهم الحركات الاجتماعية واسبابها ونتائجها . ولم يخرج من الباحثين الا القليل فى ابراز استنتاجات تاريخية هامة .. تلك الاستنتاجات التى تعتبر أهم احتياجات المجتمع العربى المعاصر الذى تغيب اليوم أواصره الاجتماعية التى عرفها على امتداد قرون طويلة من **خلال العلاقات السياسية غير المتكافئة او الثابتة فى العقود الاخيرة من القرن العشرين** ٠ كما غابت ايضا دراسة ظاهرة العلاقات الاجتماعية التى عرفها كل من المشرق والمغرب العربيين خلال الفترات التاريخية العثمانية على درجة كبيرة من الاتساق عبر مسارب مختلفة كان أهمها : طلب العلم والحج والتجارة والهجرة والنزوح والتوطن .

ويمكننا أن نطلع من خلال الجدول التالى على عدد الدراسات والاوراق التى اختصت فى مواضيعها التاريخ الاجتماعى ـ الاقليمى والمحلى ، والتى قدمت الى المؤتمر المذكور (علما بأن بعضها ذكر فى منهاج اشغال المؤتمر ولكن لم يلق فى المؤتمر نظرا لغياب صاحبه .. وبالتالى غياب الدراسة والورقة ..) :

البلد والاقاليم	العدد	العربية	التركية	الغربية
تونس (= الايالة + المجتمع + المدينة)	13	10	1	1
بلاد الشام (= المجتمع + الحج + المالية)	11	5	1	5
لبنان وبيروت (= الاثنوغرافية والهجرة)	10	9	—	1
مصر والقاهرة (= الزراعة والعمران)	11	10	—	1
بغداد (= الولاية + المجتمع + المدينة)	6	5	1	—
المغرب (= العلاقات الخارجية)	6	5	—	1
الموصل (= الولاية + مجتمع المدينة)	3	2	—	1
حلب (= الولاية + مجتمع المدينة)	3	1	1	1
الجزائر (= الايالة + مجتمع قسنطينة)	3	2	—	1
فلسطين (= القدس : كتابات ومذكرات)	2	2	—	—
السعودية (= سنجق الحسا)	1	1	—	—
السودان (= غائبة)	1	1	—	—
الحجاز (= مكة + المدينة + جدة)	4	3	—	1
البحرين وقطر (لم يلقيا)	2	2	—	—
طرابلس الغرب (= ليبيا غائبة)	1	1	—	—
المجاميع :	76	59	4	13

أما البحوث التاريخية العامة التى دارت محاور مواضيعها حول قضايا مركزية ، تختص شؤونها بتحديث العالم العربى وعلاقة ذلك بالعثمانيين ، اضافة الى التوثيق العثمانى ، وما اختص منها بحياة الامبراطورية فى ايامها الاخيرة .. فيمكننى ان اقسمها الى قسمين على النسق العددى التالى :

	العدد	عربية	تركية	غربية
2 ـ الامبراطورية العثمانية :	5 بحوث	3	2	—
1 ـ العالم العربى :	9 بحوث	—	4	5
المجموع :	14	3	6	5

3 / جوانب نقدية أخرى :

1 ـ يتوضح لنا ان كلا من تونس وبلاد الشام ولبنان ومصر ، قد استقطبت أغلب الدراسات والاوراق العلمية ، سواء تلك التى ألقيت بالعربية أم بالانكليزية أم بالافرنسية .

2 ـ ان عناوين تلك الدراسات ومضامينها واهتمامات اصحابها من الذين قدموا أوراقهم ، ودافعوا عنها فى مناقشاتهم .. قد تضمنت عند المؤرخين العرب أبرز المواصفات التالية :

1. النزعة الاقليمية فى الكتابة والاهتمام التى تعتبر فرزا للنزعة الوطنية للبلد الذى ينتمى اليه المؤرخ .

2. التزام المصدر العربى أو الوثيقة العربية والكتابات المحلية والمراجع الاجنبية ، على حساب الوثيقة التركية والمصادر العثمانية التى تكاد تغيب عن أبحاث المؤرخين العرب .

3. السردية والانشائية وتركيب النصوص والاقتباسات فى الكتابة .. واتباع قراءة المحاضرة المكتوبة بصورة تقليدية دون هضم كاف للمعلومات ، وتوسع علمى منضبط ، ومعرفة موسوعية بعثمانيات الشرق الادنى ، وربط ذلك بكل من حياة المجتمع العربى فى مشرقه ومغربه العثمانيين .. وبهذا جاءت الابحاث تقليدية فى صيغها المقدمة ودفاعاتها فى اثناء المناقشات .

4. بروز بعض المؤرخين العرب من الشباب الذين برزوا فى محاضراتهم ابناء الجيل الذى سبقهم من المؤرخين .. وذلك من خلال دراسات جادة وثائقية.

اما الجوانب التى تخص من حضر المؤتمر من المستشرقين والمؤرخين الغربيين فان ابرز المواصفات التى ميزتهم ، فهى :

1. عزلة أغلب هؤلاء عن مناقشات الدراسات والاوراق التى قدمها المؤرخون العرب .. وكان كل من الاثنين منعزلا عن الآخر ، رغم القـاعة الكبـرى التى جمعت شملهم .

2. الاهتمام بحياة العـرب الاجتمـاعية المعنيـة اثنـاء الفتـرة التـاريخية المخصوصة ، وذلك من خلال اطار البحث فى تاريخ الامبراطورية العثمانية .. أى ربط الموضوع أساسا بالتاريخ العثمانى .

3. التوسع فى عرض ودراسة وثائق تاريخية جديدة لم يكشف عنها سابقا ، وكان أبرزهم : د. كارل باربير ، د. ثريا فاروقى ، د. كارل ماكس كوربيتر ، د. انكين كارلى ، د. بيتر كلارك ، ود. هيوود .

4. اما المؤرخون الاتراك ، فقد عالجوا في أغلب بحوثهم نـواحي جديدة ، وأطلعوا المؤتمر على وثائق تركية ، وآراء جديدة بخصوص تنظيم تلك الوثائق..

وكان أبرزهم : د. خليل ساحلى أوغلو ، د. عثمان أوكيـار ، والسفيـر اسماعيل سوسيال .

3 ــ الجانب المهم الآخر ، هو ما قدمه العديد من المؤرخين العرب من انتقادات وشكاوى للمؤتمر بخصوص ما يلاقيه المؤرخ العربى فى حصوله على الوثائق العثمانية ــ التركية من متاعب ومصاعب من تركيا .. فى حين يستطيع غيره ان يجدها بين يديه . اضافة الى سوء تنظيمها ، واحتفاظ تركيا الحديثة بالآلاف المؤلفة من الوثائق التاريخية الهامة التى تخـص جـوانب التـاريخ العـربى الحديث السياسية والاجتماعية والاقتصادية والادارية .. الخ .

4 / قضايـا مركـزية : معلومـات حيـة :

1 ــ **الارشيـف العثمـانى** : يعتبر الارشيف الوثائقى العثمـانى من أهـم مصادر التاريخ العثمانى فى معلوماته الرسمية ــ الحية ، باعتباره موردا نفيسا وأمينا فى كتابة تواريخ متنوعة ومختلفة لست وعشرين كيانـا سيـاسيا .. كدول منبثقة ومستقلة ــ فيما بعد ــ . تلك الدول التى انبثقت فى أطرهـا السياسية المعاصرة وكياناتها الجديدة عن الامبراطورية العثمانية بعد سقوط الاخيرة ضمن مداخلات ونتائج الحرب العالمية الاولى . ويحتـوى الارشيـف العثمانى على آلاف مؤلفة من الوثائق الرسمية المتنوعة عن تاريخ العرب الحديث الذى كان يرتبط باستمرارية التاريخ العثمانى ارتباطا مباشرا أم غير مباشر: سياسيا واداريا واقتصاديا .. ان الارشيف العثمانى المركزى يحتوى فى جملته على ركام هائل ، وعدد لا يقدر من الوثائق التاريخية والتى يتراوح عددها بين (100) و (150) مليون وثيقة .. لم تصنف تصنيفا علميا ومكتبيا ومنهجيا حتى يومنا هذا.. ولم يفهرس منها الا ما هو ضئيل وقليل ــ مع الاسف ــ . كان الصدر الاعظم مصطفي رشيد باشا قد أسس في سنة 1846 ادارة رسمية

تحت عنوان «**كنوز وثائق الدولة**» بغرض صيانة الارشيف العثماني الرسمي . وقد اهملت هذه الادارة بعد سنوات .. وفى ثلاثينيات هذا القرن فرزت وصنفت بعض الوثائق ، ولكن العملية لم تتعد نسبة 10 % أو 12 % من مجاميع الوثائق العثمانية بسبب عوامل متباينة .

ان الارشيف العثمانى الذى يتعب طلاب البحوث والمؤرخين والدارسين فى استخدامهم لما يحتاجونه من وثائق ومعلومات ومصورات .. وخصوصا العرب منهم .. تغيب حقائق تاريخية ، والعرب هم أول الذين يحتاجونها ، اذ باكتشافهم تلك الوثائق ودراستهم لها علميا ونقديا .. ستتغير العديد من المفاهيم والآراء ... اضافة الى الافكار والتفاسير التى عرفها العرب منذ استقلالهم عن العثمانيين وسيطرة لامبراطورية العثمانية عليهم ، حتى يومنا هذا . يقول السفير اسماعيل سوسيال رئيس مجلس مديرى مؤسسة الدراسات حول العلاقات التركية ـ العربية وذلك فى محاضرته التى ألقاها فى المؤتمر : « ... وبانتهاء عملية الفرز والتصنيف فى غضون عشر سنوات ، يقع تصحيح التأويلات المشوهة للماضى العثمانى . وعندئذ يمكن كتابة تاريخ تركيا ، وكذلك تاريخ العرب والبلقان من جيرانها ، أو الاوربيين عموما فى ضوء المعلومات الجديدة التى ستنبعث من الارشيف العثمانى » .

2 ـ **قضية التحديث الحضارى** : طرح المؤرخ الامريكى المعروف ل. كارل براون ، تقريرا هاما عن بحث جماعى خاص بموضوع حيوى ، تحت عنوان : «**التطور والتجديد فى افريقيا وآسيا العثمانية وفى بعض الدول المنبثقة عن الامبراطورية العثمانية**» . وتعتبر قضية التحديث من مركزيات القضايا الحية التى يثيرها الكثير من الكتاب والمؤرخين والمهتمين ، والساسة ورجال الاقتصاد والاستراتيجية منذ مطلع القرن العشرين حتى يومنا هذا .. وعلى كل من جانبى الشرق والغرب . وشملت المنطقة التى تحدث عنها المؤرخ براون : مصر وتركيا وتونس والعراق وبلاد الشام .. اما الفترة ، فهى التى يؤطرها القرن التاسع عشر . وقام هيكل البحث فى منهجه وموضوعه على مقارنة النماذج التاريخية والجغرافية فى التحديث الحضارى .. أى مقارنة التحديث بين المنطقة المعنية ـ العثمانية وتجربة كل من اليابان وروسيا .. اضافة الى تجربة الصين من طرف آخر . كان سؤاله ـ دائما ـ يتعلق من تحديات يفرضها البحث المعنى فى اشكالية التحديث عند عدة دول لا تزال قائمة حاليا ، وليست دولة واحدة كالحالة الواحدة التى كانت تعيشها الامبراطورية العثمانية ـ المركزية قبل الحرب العالمية الاولى .. رغم ان هناك كيانات كانت تتمتع بحكم شبه مركزى كمصر وتونس اللتين تمتعتا باستقلالية عملية ان لم تكن شرعية وقانونية . يضاف الى ذلك جبل لبنان الذى منح حكما شبه ذاتى بعد سنة 1860 من قبل الدول الاوربية .

وتكمن استنتاجات براون فى النواحى التالية :

1. مدى تأثير الامبراطورية العثمانية والثقافة العثمانية بشكل عـام على الدول العربية المنبثقة عنها فى قضية التحديث .

2. ان تركيا الحديثة هى الدولة الوحيدة الوريثة للامبراطورية العثمانية .

3. ان الحكم العثمانى الذى دام أربعة قرون فى المنطقة العربية لم يترك اثرا يذكر على المستوى الحضارى والسياسى .

ونختلف مع المؤرخ براون فى استنتاجه الثالث ، اذ ان المنطقة العربية لم تزل حتى يومنا هذا تعيش حالات عديدة موروثة وقديمة تتصل فى حياتها مع تلك الامبراطورية .. وفى جوانب عديدة من الحيـاة السيـاسية والاجتمـاعية والثقافية .. اضافة الى ما خلفته تلك العهود الطويلة من آثار ومخلفات حين كانت القدرات العربية ضائعة ولم ترق الى مستوى القيادة والفعل والحركة فى السياسة أو الحضارة عدا الحالات التى عاشتها كل من مصر وتونس . وعندما سئل براون عن تجربة اليابان وروسيا والصيـن كـدول كانت متخلفـة ، واستطاعت ان تنطلق اليوم فى تحديثات المجتمع والحياة . أجـاب بـراون باسلوب صريح : بأن التراث السلبى والثقافة القديمة هما من العوائق الخطيرة فى سبيل تقدم المنطقة المعنية . ونحن نختلف مع هذا الرأى من خلال نموذجين اثنين فى قضية التحديث :

1. ان تركيا لم تنجح حتى هذا اليوم فى مسألة التحديث ، رغم السياسة التغريبية (= العلمانية) التى اتبعتها منذ سقوط الامبراطورية حتى اليوم • وربما انها حاولت اذابة شخصيتها فاخفقت فى علمانيتها .

2. ان اليابان المستحدثة ، استلهمت التجربة الاوربية التكنولوجية ووسائل المعرفة والتخطيط والخبرات ، دون ان تذيب شخصيتها الثقـافية فى زحمـة اطار التغريب .

3. ن التراث العربى يتميز بهويته الحضارية .. وهو بحاجة الى تجديدات عديدة على أيدى أصحابه . ولا يمكن مطالبة العرب ان يغتربـوا عن ثقـافتهم الاحادية التى تحتاج بدورها للمزيد من التحديث والعصرنة .

4. غابت عن ذهن المؤرخ الاستلابية التى تعرض لها العرب خلال الفترات الاستعمارية الكريهة . ودورها فى بعثرة الامكانيات والطاقـات فى تحقيـق العرب لاهدافهم التاريخية فى التاريخ المعاصر ، سواء كان ذلك فى مشـرق العرب أم فى مغربهم الكبير . وفعل التجزؤ الذى كان نتيجة من نتائج السياسة التى اتبعتها كل من بريطانية وفرنسا فى المنطقة العربية •

3 ــ **الاتحاد والترقى وحلم الوحدة فى اطار العثمانية :** ويعتبر هذا الموضوع من المواضيع الخطيرة والحساسة فى تاريخ كل من العرب والاتراك المعاصر .. فهو يحتوى على أكثـر من قضيـة تاريخيـة سـاهمت فى سقـوط السيـادة الامبراطورية بعد عمر طويل .. ولكن السؤال الذى يفرضه هذا البحث هو :

الحلم الذى راود زعماء جمعية الاتحاد والترقى فى اطار العثمانية ..؟؟ لقد اثاره د. عثمان اوكيار كمؤرخ تركى معاصر ، يحاول ابراز الاهداف الاصلية التى تبنتها جمعية **(الاتحاد والترقى)** المتزعمة لانقلاب عام 1908 ضد حكم السلطان عبد الحميد الثانى المطلق . ولعل من أهم الجوانب التى أظهرها هذا البحث هى (نوايا) الحركة السرية للجمعية التى اعتنقت مبدأ وحدة المواطنين العثمانيين فى اطار السيادة الامبراطورية مهما كان دينهم أو عرقهم ، وذلك لسببين اثنين :

1. الحفاظ على وحدة التراب العثمانى منعا للتفكك والانقسام .

2. تأسيس نظام دستورى تكفله الحريات السياسية ، والذى من خلاله يقضى على حدوث صراعات بين مختلف اقطار الامبراطورية .

لقد وصف ذلك كله بالحلم الذى لم يتحقق ، ملقيا بتبعات ذلك حول الاشكالية الكبرى التى ظهرت فى علاقات الاتراك بالعرب فى فترة انهيار الدولة وتفككها . ويرى أوكيار ، بأن جمعية الاتحاد والترقى كانت صادقة فى أملها للحصول على القومية العربية من خلال الدستور والحرية السياسية .. ويدلل على ذلك بمثال صدق الاتحاديين فى مشاركتهم الحية بالدفاع عن ليبيا ضد الغزو الايطالى سنة 1911 . ولكن لم تصبح المقاومة ممكنة فى ظروف انفجار حرب البلقان فى أكتوبر سنة 1912 .

ونختلف مع المؤرخ د. اوكيار فى قضايا جوهرية بخصوص السياسة الاتحادية التى مارسها الاتحاديون تجاه العرب .. والتى تكاد تكون معروفة فى أمثلتها التاريخية الحية فى بداية تاريخنا المعاصر .. ورغم التعمية أو التغطية تحت واجهة الدستور والحرية السياسية .. فان سياسة التريك ، ومن قبلها عدم مناصرة ومعاضدة أولئك الرجال من المثقفين والمستنيرين العرب الذين ايدوها فى بداية الامر .. ان سياسة الجمعية ورجالها من الاتراك تجاه العرب هى التى فصمت تلك العلاقة التاريخية القوية بين الاتراك كحكام وسلطة وسيادة فى اطار العثمانية .. عن العرب كمحكومين لا يعرفون ان يتعاملوا الا بلغتهم وخطاباتهم وتكتلاتهم وعلاقاتهم الاجتماعية .. وفى ظل فقدان الهوية العربية .. فى عصر ساخن بالاحداث السياسية وحركات الانفصال والثورة القومية والانتفاضات الاقليمية .. فماذا نسمى ثورة البلقان ؟ وما هى طبيعة صراع الاقليات كالارمن والاكراد والدروز ... الخ ؟ وما هى الخفايا التى كان يطويها زعماء جمعية الاتحاد والترقى ؟ كان الحلم الذى مورست سياستهم من أجل تحقيقه هو الذى عرف فيما بعد بـ « **التريك** » . فكيف اذن يسكت العرب ابان فترة فوران النزوع القومى ؟ وبين انفجار كل من البلقان والعرب ضد الاتراك حوالى اربع سنوات فقط : 1912 للبلقان ، و 1916 للعرب .. فى حين كان الاتحاديون قد تسلموا السلطة فى سنة 1908 اثر انقلابهم العثمانى الشهير .

5 / المجتمع العربى الحديث : الصيرورة والتكوين :

5 / 1 المجتمع العربى والدولة :

ائتلف المجتمع العربى مع الدولة المسيطرة ذات السيادة المطلقة عليه (= الامبراطورية العثمانية) ، وذلك من خلال القاسم المشترك بين الطرفين (= الاسلام) . ورغم ان الايدلوجية التى مثلتها الدولة كانت سنية ـ حنفية تتبع المذهب الحنفى ، الا انها كانت معترفة ببقية المذاهب السنية : الشافعية ، والمالكية والحنبلية .. وهى المذاهب التى كان يتوزعها المجتمع العربى بنسبة كبيرة مقابل المذاهب الاسلامية الاخرى اضافة الى الاقليات الدينية ، والاثنيات العرقية التى لم تكن عربية . ورغم ذلك الائتلاف المعروف بين العرب كمجتمع وتكوين وبين الدولة كسلطة وحكومة ، الا ان المنطقة لم تكن تخلو من بؤر توتر معروفة على مدى امتداد التاريخ الحديث ، ومنها اليمن وجبل لبنان .

كان الحاجز ـ من طرف آخر ـ بين المجتمع العربى والدولة كبيرا ، من خلال نظرة كل من الاثنين الى بعضهما الآخر . فالدولة تنظر الى ابناء الولايات العربية كـ (عرب) قوم من رعايا الدولة يدخاون فى عداد (الملة العثمانية) .. سواء كانوا فى ولاياتهم المشرقية أم المغربية . اذن ، كان العرب شعب لا هوية له الا الهوية العثمانية ، باعتباره يدخل فى نطاق حكم الدولة الامبراطورى ـ السياسى تحت غطاء الايدلوجية ـ العثمانية . وهذا الغطاء ، هو الذى يعتمده العرب فى نظرتهم للدولة العثمانية ، أى نظرة المجتمع العربى الى سلطة الدولة .. وهكذا ، ومن خلال فقدان الهوية العربية تحت ظل ذلك الغطاء .. لم يستطع احد من الاقطاب فى أمهات المدن العربية وحواضر المجتمع العربى وفى كافة الولايات العربية ، ان يصل الى مستوى القيادة السياسية فى العاصمة الام ، أو حتى منصب أعلى فى الصدارة العظمى ـ مثلا ـ لانه عربى فى وجهة النظر العثمانية .. والعربى هو أحق من غيره بالخلافة : وهو المنصب المفتقد فى كيان دولة السلطنة العثمانية . اضافة الى كل ذلك ، فان العرب ـ أيضا ـ لم يصلوا حتى مستوى القيادات الادارية بظل المركز العالى للسلطة العثمانية فى عواصم الاقاليم والادارات سواء بمناطق عربية أم غير عربية .. ناهيك عن مستوى القيادة العسكرية ، الا فى أحوال نادرة جدا خلال القرن الثامن عشر بعد انحسار قوة السلطة المركزية فى العاصمة اسطنبول . لقد احتفظت الدولة العثمانية بسيادة أسرة عربية عريقة واحدة فى اقليمها ذاته ، وذلك نظرا للمكانة الدينية التى تتمتع بها تلك الاسرة ، وارومتها المقدسة ، ووظيفتها الخاصة كسادنة للبيت الحرام ، وهى أسرة الاشراف بمكة .. اذ كان السلاطين ينظرون اليها نظرة محترمة من خلال نسبها السلالى المتصل بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

ولم يكن المجتمع العربى جميعه بواقع فى الاطار العثمانى تحت سيادة الدولة العثمانية التى كانت تحكمه بأسلوب الادارات الاقليمية ، وليس فى اطار

التقسيم الجغرافي أو الديموغرافي أو الكتلوى أو الطائفى ـ المذهبى .. كان هناك المغرب الاقصى وعمان وبعض المشيخات العربية المندفعة خارج اطار السيادة العثمانية ، نظرا لما كانت تتمتع به من سلطات عربية قحة ومنبثقة فى اطار التكوين الاجتماعى الداخلى ، وقد مثل نظام (السلطنة) كل من بلاد المغرب الاقصى وعمان .. لقد عرفت البلاد العربية الاخرى ، أو بالاحرى مناطق المجتمع العربى نظام سلطة الادارات التابعة للسلطة المركزية العليا ـ العثمانية . فلم يحاول العثمانيون ان يبقوا على الاطار الجغرافى الموحد بتوفر العناصة الاساسية لذلك وأهمها : تاريخ المنطقة الجغرافية والقوى السكانية العربية التى تحركت عليها منذ مئات السنين ، اضافة الى اللغة العربية كأحد أهم العناصر الفاعلة فى صيرورة المجتمع العربى الكبير . ولم تتبع السلطة العثمانية العليا تجاه المجتمع العربى حكمه من خلال التقسيم الكتلوى ، أى انها لم تخلق كتل عربية عملاقة تجمع العرب من خلالها ، كان تكون هناك ثلاث أو أربع كتل عربية كبيرة . ومن الواضح ، أن السبب فى ذلك يعود الى خوف الدولة من انفصال احدى الكتل ، ويكون ذلك حتما سببا تاريخيا فى القضاء على السلطة العثمانية العايا بتواجد أو ولادة نظام عربى فى كيان جديد له سياسته المنفصلة أو المعزولة عن سدة الباب العالى . ثانيا : الخوف من بروز التحسس بمكانة العرب فى الاسلام ، والمطالبة بتحقيق مبدأ الخلافة الاسلامية مرة أخرى على يد العرب باعتبارهم أصحاب الشرعية التاريخية فيها . ومع كل هذا وذاك ، كانت هناك علاقات أسر عربية عليا فى المجتمع مع سلطة النظام العثمانى ، وخصوصا فى بعض المدن الكبرى فى المشرق العربى فى ارتباطاتها بالعاصمة اسطنبول .

5 / 2 أمهات المدن العربية : مقارنات بين رجال وأفكار جديدة :

سوف اختار فى هذا الحقل نماذج من بحوث ودراسات قدمها مؤرخون عرب فى المؤتمر العالمى الثانى للدراسات العثمانية .. وتختص تلك البحوث والدراسات عن مدن عربية شهيرة وعريقة ، وكان لها ادوار مختلفة على مختلف الاصعدة خلال الفترات العثمانية ، ومنها : بيروت والموصل والقدس وقسنطينة والقاهرة وحلب ودمشق وبغداد ... الخ .

1 ـ **بيروت** : تلك المدينة الاستراتيجية التى عنى بها بحث د. عبد الرحيم أبو حسين ، ومكانتها التاريخية فى كتاب «مجمع المسرات» للدكتور شاكر الخورى .. وأحوالها الاجتماعية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر . انه احد المصادر الهامة والتى غمر ذكرها نسبيا وهو ملخص سيرة ذاتية عن حياة وثقافة صاحبه وذكرياته الشخصية فى قسمه الاول . اما القسم الثانى من البحث ، فيركز على دور الزعامات القبلية والزعامات الاقطاعية فى فترة ما قبل المتصرفية .. والعلاقات بين الدروز والموارنة . انه النظام القديم الذى كان سائدا قبل تلك الفترة : نظام المقاطعات والمقاطعجية الذى تغير بتبدل

النظام الى نظام جديد هو نظام المتصرفية ، وهو القسم الثالث من البحث .. وهنا يتوقف المرء على معلومات جديدة فى انطباعات الرجل عن الاحوال التى سادت بيروت ومتصرفية لبنان بدءا بتنصيب داود باشا أول متصرف على لبنان بعد الحرب الاهلية سنة 1860 انتهاء الى المتصرف السابع يوسف فرنكو باشا .
اما القسم الرابع والاخير ، فالبحث يحتوى على مادة خصبة فى تاريخ جبل لبنان الاجتماعى .. انه يتتبع الحالات الاندماجية Assimilation للقيادات القبلية الاسرية والاقطاعية فى الطبقة البرجوازية المتصاعدة فى المجتمع المحلى البيروتى ، بعد ان كانت تلك القيادات قد فقدت بعض قوتها السياسية الكبرى ، ومكانتها الاجتماعية فى عهد المتصرفية ونتيجة لسياسة المتصرفين المطلقة فى الادارة والاستخدام وادماج العائلات والاسر القبلية والاقطاعية .
لقد قدم لنا البحث المعنى مادة تاريخية جديدة ، اضافة الى تحليل أكاديمى منصف لتاريخ لبنان المتنوع والغنى بالاحداث والرجال .. كما وقدم البحث فى نتائجه ، أفكار جديدة عن بيروت القرن التاسع عشر ، وخصوصا فى نصفه الثانى من خلال مرآة «مجمع المسرات» لصاحبه شاكر الخورى . ولكن كنا نود لو ألقى البحث ونوقش فى اللغة العربية بدل الانكليزية .. لا سيما ونحن نعلم ان هناك عددا كبيرا من المؤرخين العرب الذين حضروا المؤتمر لا يعرفون اللغة الانكليزية ـ مع الاسف ـ .

2 ـ **وقسنطينة** : تلك المدينة الجزائرية التى تقدم فى دراسة عن مجتمعها د. أبو القاسم سعد الله ، تحت عنوان «**مجتمع قسنطينة من خلال كتاب (منشور الهداية) لعبد الكريم الفكون ـ القرن 11 هـ = 17 م ـ**» . ورغم أهمية الباحث كمؤرخ جزائرى شهير ، وأهمية الموضوع الذى تقدم به عن مجتمع مدينة عربية عريقة ، من خلال كتابات رجل مغمور الذكر والمعلومات .. الا ان البعض من الآراء التى جاء بها الباحث كانت موضع نقد . اذ نختلف مع الباحث فى هذه الاحكام التالية التى قدم فيها لنا بحثه، ومنها: «هذه دراسة لحياة وآثار شخصية نابضة من شخصيات العالم الاسلامى **فى عصور الانحطاط** ، وهو عبد الكريم الفكون ، الملقب بشيخ الاسلام . فقد عاش خلال القرن الحادى عشر (17 م.) فى الوقت الذى اشتدت فيه القطيعة بين العالم الاسلامى الجامد والعالم الاوربى المتحرك ، وازدهر فيه التصوف المزعوم والدروشة والامية **والتخلف العقلى** فى المجتمعات الاسلامية ، وكثر فيه ادعياء العلم من الفئة التى كانت تسمى نفسها حامية الشريعة ... وهى فئة الفقهاء أو المتفقهين ، واستولى على مقاليد السلطة حكام جهلة وطغاة وغرباء عن حاجات وأحاسيس المجتمعات الاسلامية التى يحكمونها وعشش اثناءه الفكر الخرافى حتى كاد المجتمع كله يصبح زاوية صوفية تشيع فيها الحضرة **والرقص العصبى والايمان بالغيبيات والروحانيات**» . قد نتفق مع بعض هذه الآراء التى تصف الحياة الاجتماعية والثقافية والفكرية والسياسية خلال الفترات العثمانية ، ولكننا نختلف مع الباحث فى الامور الثلاثة التى أطلق احكامه عليها : « عصور

الانحطاط » « التخلف العقلي » ، « الايمان بالغيبيات والروحانيات » . ولا تعليق لي على ذلك !

لقد وضح د. سعد الله في دراسته أهمية ذلك الرجل المصلح عبد الكريم الفكون الذي ناضل وحده طويلا ضد الجمود والتخلف والدروشة ، وطالب بأن يقارن الباحثون بينه وبين الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي ظهر بعد الفكون بحوالي قرن من الزمن . وتوضحت من ثنايا البحث ، طبيعة الحالة الاجتماعية التي كانت تعيشها مدينة قسنطينة خلال القرن السابع عشر ، وذلك من خلال الآراء التي طرحها الفكون ، وخصوصا الوضع الثقافي ، اضافة الى وصفه لحالة أهل قسنطينة في القصيدة التي ذكرها في آخر كتابه «مجدد السنان» .. اضافة الى قضية اجتماعية أخرى ، هي البدء باستخدام شرب الدخان وشيوعها بين الناس ، واحداثها لازمة حادة في كل من المشرق والمغرب .. اضافة الى قضايا هامة أخرى عاصرها الفكون . ناهيك عن دراسته وعلومه .. وتآليفه التي منها : «منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية» ، و «محدد السنان في نحور اخوان الدخان» ... الخ .

3 ـ اما **القدس الشريف** ، فقد قدم عنه د. امحمد بن عبود في بحثه الموسوم : « **البعد الروحي في رواية ابن عثمان المكناسي للقدس الشريف ـ ق 120 هـ / 18 م ـ** » . وكان ابن عثمان المكناسي وروايته موضع تشكيل هذا البحث في دراسة جزء من رحلته الى مكة والمدينة التي وضعها سنة 1199 هـ / 1784 ـ 1785 م. بعنوان : «احراز المعلة والرقيب ..» وهو «مخطوط تحتفظ به الخزانة الحسنية بالرباط رقم 12307» . لقد ذكر صاحب البحث بأن وصف المكناسي في روايته الاولى عن القسطنطينية تختلف جذريا عن روايته الثانية للقدس الشريف ، بحيث تعتبر الرواية الاولى أساسا عبارة عن وصف دقيق للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بينما يطغى البعد الروحي على الرواية الثانية . لقد كان المكناسي سفير السلطان المغربي سيدي محمد بن عبد الله ، وقد عكس في كتاباته مشاهداته الصادقة والامينة بغرض توصيل المعلومات كاملة عن المشرق العربي الى بلاط السلاطين المغاربة الاشراف . حلل الباحث ميول المؤلف المكناسي الروحية ونصه الذي كتبه في وصف القدس . ثم قارن الباحث كلا من روايتي المؤلف معجبا ايما اعجاب بالمدينتين . اما القسم الثاني من البحث ، فقد عالج فيه كل من البعد الاسلامي والبعد الخرافي . اما البعد الاول فتبرزه الرواية على ثلاثة مستويات هي :

1. المصطلحات التي استخدمها المؤلف في كتاباته .

2. الطريقة التي استغلها المؤلف عند زياراته للاماكن المختلفة في القدس وفلسطين مثل المسجد الاقصى .

3. تقديس المؤلف للاماكن الدينية التي زارها .

اما البعد الثانى (= الخرافي) ، فقد ضم العديد من القصص الخرافية منها قصد رفضها ، ومنها لم يشك فى صحتها .. انه يعطينا صورة عن الحالة التى كانت القدس تعيشها فى أواخر القرن الثامن عشر .

ان الملاحظ من دراسة المكناسي لمعلوماته التى قدمها لنا ، انه مزج متنوع للعناصر التاريخية والدينية والخرافية فى اطار رواية واحدة ، وتكون المكانة الاساسية فيها للمسجد الاقصى . انها من أهم المصادر التاريخية بالنسبة للتاريخ العربى الحديث خلال الفترات العثمانية .. كما وانها تهم جميع أولئك الذين يهتمون بالتاريخ المحلى والانسانى للقدس الشريف . وكنا نأمل ان يقدم لنا الباحث نسخة أخرى من بحثه باللغة العربية الى جانب الانكليزية .

4 ـ اما **الموصل** فى طبيعة حياتها الاجتماعية التى عاشتها خلال العهد الجليلى 1726 ـ 1834 م. ، فقد قدم د. سيار الجميل عنها دراسته التى كان من بين مصادرها التاريخية الاساسية تواريخ المؤرخ ياسين أفندى الخطيب العمرى الذى عاش بالموصل وكان معاصرا للعهد الجليلى فى فترات طويلة منه ، وكتب العديد من الكتب التاريخية . اما المعلومات الجديدة التى ظهرت فى هذا البحث الحالة الاستثنائية الشاذة التى اكتشف فيها الباحث كتاب المؤرخ العمرى الموسوم : «الدر المكنون فى المآثر الماضية من القرون» فى ابرازتين مختلفتين سبقت الاولى الثانية فى كتابتها ، والمعلومات المجهولة التى وجدت فى الابرازة الثانية . واستطاع د. الجميل ان يحقق هذا الكتاب الحولى الكبير فى اسكتلندا عام 1983 فى جمعه للمخطوطات كافة ، واظهاره فى ابرازة واحدة جامعة .

من الامور الاخرى التى يتوقف عندها البحث فى المؤتمر ، المكانة التاريخية لولاية الموصل التى تعتبر أول ولاية عربية تدخل نطاق الامبراطورية العثمانية، وانها آخر ولاية تخرج عن ذلك النطاق . كما واوضح البحث الحالة التى عاشها المجتمع العربى فى القرن الثامن عشر فى ظل انحسار السلطة المركزية العثمانية عنه ، بظهور الحكومات المحلية ، وتبلور المؤسسات الاقليمية ـ العربية .. انه الموضوع الذى يعالجه الباحث بالتفصيل فى فصول متنوعة يحتويها كتابه الموسوم : (بقايا وجذور) . ومن هنا ينفرد البحث بتناول موضوع الحكم الجليلى للموصل ، وعلاقته مع ولايات المشرق العربى . ثم الاوضاع الفكرية والثقافية التى تميزت بها الموصل فى ظله والتى وضح من خلالها : بوادر كل من النزعتين العربيتين المحدثتين : النزعة الدينية ـ الاصلاحية والنزعة الثقافية ـ السياسية العربية . كما اوضح البحث التراكيب الاجتماعية التى تميزت بها مدينة الموصل ومقارنتها بغيرها .. اضافة الى توضيح دور النقابات الشغيلة وتطورها فى العهد الجليلى ، وتقدم الحرف والصناعات المحلية التى اشتهرت بها الموصل كمدينة تجارية ـ شرقية ـ من الطراز الاول . انها تتصل بكافة اتجاهات العالم فى شرقه وغربه من خلال المسالك التجارية البرية والنهرية ، الافقية والعمودية .. وذلك منذ التاريخ القديم حتى فتح قناة

السويس سنة 1869 . فكان لها علاقاتها القوية مع طرفين أساسين : استانبول كمركز للامبراطورية العثمانية . اما الطرف الآخر فكان الولايات العربية المهمة فى المنطقة العربية والتى تحيط بها من جميع الاطراف . وقد خرج الباحث باستنتاجات تاريخية عديدة بما يفيد وطبيعة الحياة الاجتماعية للعرب خلال الفترات العثمانية .

5 ـ **بلدة حيفا** ، التى اختارها د. محمد عدنان البخيت كنموذج تاريخى فى دراسته عن سجلات المحاكم الشرعية ببلاد الشام . كانت المعلومات التاريخية بهذا الخصوص جديدة ومثيرة للمزيد من التساؤلات والدراسات ، فقد اعلمنا د. البخيت عن أماكن وجود تلك السجلات الشرعية : القدس ، حماه ، حلب ، دمشق ، نابلس ، طرابلس ، الشام ، الخليل ، يافا ، حيفا ، السلط ، اربد ، الكرك ، طبريا ، الناصرة ، معان ، العقبة ، الطفيلة ، حنين ، بيت لحم ، اريحا . انها سجلات تختص بالاوقاف والبلديات والاديرة وقيود الامن العام وعلى الاخص قوات البادية . اى انها من اثمن المواد الوثائقية عن الحياة الاجتماعية العربية لكل من بلديات الاردن وفلسطين خلال العهد العثمانى . ونجحت الدراسة المنهجية فى ابراز نموذج حيفا كقضاء تابع للواء عكا كعمالة تابعة بدورها الى ولاية بيروت. كان قضاء حيفا متألفا من مديرتين : قيسارية وشفا عمرو واوضحت السجلات ان حيفا احتوت على 63 قرية سكانية أغلب قاطنيها من العرب المسلمين الذين يشاركهم العيش النصارى واليهود . والمدينة تتألف من محلات التى تشكلها حارات عديدة .. كما ان هناك معلومات عن الاسواق والازقة وفواصل الطرق ، اضافة الى اسماء الجوامع والكنائس وكنيس لليهود . اما الجالية الاوربية ، فكان ابرز عناصرها التجمع الالمانى ، اضافة الى وجود انكليز واسبان وفرنسيين وامريكان .. ونفهم ايضا بأن مدينة حيفا كانت مركز استقطاب جاذب للهجرة بسبب موقعها الجغرافى والاستراتيجى على البحر المتوسط والمسالك البرية المرتبطة بها نحو عمق الداخل ، فقد استحوذت على هجرة هنود ، وانها استقبلت يهود كل من ازمير التركية والمغرب البعيد .

اما بخصوص التشكيلة الادارية كجزء من مقومات وعناصر الحياة الاجتماعية، فانها تتألف من : القائمقام ونائب القاضى والباشكاتب والمحضر .. كما تشير الوثائق المستخدمة الى مجلس بلدى . اما المجلس الادارى فيتكون فى عضويته من ستة اعضاء يعينون من العناصر المحلية . اما المحلات والحارات فترتبط بالسلطة من خلال المخاتير سواء كانوا من المسلمين أم المسيحيين أم اليهود .. اما الريف الذى تكونه (62) قرية ، فالسجلات الوثائقية قد اطلعتنا من خلال بحث د. البخيت على العناصر السكانية العربية المستقرة أم غير المستقرة ، يتمثل الاولى النصارى والدروز ، ويتمثل الثانية العديد من العشائر العربية المتنقلة .

ان هذه السجلات توضح تفاصيل الحياة اليومية والاقتصادية والمعيشية وخصوصا الاسعار فى السوق والاوزان والعملات والمواد المستخدمة والأثاث ... الخ .

اننا توقفنا أمام بحث جديد ورصين يختتمه صاحبه بطرح سؤاله المهم قائلا : « بعد هذا التوجه لاستخدام المادة الوثائقية الشرعية .. كيف ندرس النص الشرعى كوثيقة تاريخية كما وكيفا ؟ » .

6 ـ اما **القاهرة** ، فسوف أقتصر على ذكر محاضرتين اثنتين : الاولى تختص بالظاهرة العمرانية ، ألقاها البروفيسور روبرت مونتران ، والتى تعالج مشكلة التزود بالمياه فى المدن باعتبارها احدى المتطلبات الضرورية لسكان المدن . اما الثانية ، فتختص بالحياة الاجتماعية فى مدينة القاهرة خلال الفترة 1517 ـ 1798 م. قدمها د. عبد الرحيم عبد الرحمن .

كان من الاجدى بالنسبة للاستاذ مونتران ان يقدم لنا قضية علمية مركزية تستحوذ الاذهان فى طبيعة الحياة الاجتماعية لمصر العثمانية مقارنة بغيرها من الاقاليم العربية ، بدل انكبابه على مسألة محلية ، يستطيع ان يتناولها ويبحث فيها اى مختص فى الآثار العمرانية الاسلامية ، لا سيما ونحن نعرف فى الرجل مونتران رئيسا للجنة العالمية للدراسات العثمانية . ومع هذا وذاك ، فقد أطلعنا بحثه على تساؤلات هامة منها : لماذا انشأ العثمانيون سبل المياه وعنوا بها دون المبانى الاخرى ؟ وهل وقع ذلك نتيجة اغراض سياسية أم شخصية ؟ وهل يؤخذ ذلك تحت طائلة اعتبار توزيع سكان القاهرة ؟ لقد عقد الباحث مقارنة ميدانية بين سبل القاهرة واسطنبول للمياه ، من أجل التعرف بدقة على مختلف مظاهر الحياة اليومية والاجتماعية والمدنية لكل من العاصمتين التاريخيتين . وهكذا ، تبقى محاضرة مونتران هى غير ما كان متأملا عند العديد من المؤرخين ان يسمعوا منه .

اما الورقة الاخرى المتعلقة بمصر العثمانية التى قدمها د. عبد الرحيم ، فكانت دراسة لاجتماعيات محليات القاهرة على مدى يقرب من ثلاثة قرون فى تاريخها الحديث . ومن الملاحظ ، ان القاهرة غدت سوقا دولية فى تشكيلاتها الاقتصادية ، وذلك لاستقطابها كبار التجار وصغارهم برا أو بحرا عن طريق العديد من الموانىء المصرية على البحر المتوسط . وكان الباحث قد درس مجتمع القاهرة خلال العصر العثمانى من خلال وثائق المحاكم الشرعية .. يضم المجتمع فئات متعددة منها : الفئة الحاكمة المتكونة من الباشا والاوجاقات العثمانية وقاضى القضاة والمماليك ، وهى فئة متميزة بمختلف تشكيلاتها عن الفئات الاخرى . وهناك فئة التجار التى يقف على رأسها (شاه بندر التجار) . اما طوائف الحرف المختلفة التى يقف على تشكيلاتها مشايخ الحرف ، فهناك العلماء الذين يعتبرون بمثابة الزعماء للمجتمع القاهرى . وهناك فئة اليهود الذين لعبوا دورهم فى الحياة المصرية ، وكانوا سببا فى حدوث ازمات مالية

سواء في الصيرفة ، أم المضاربات أم غش العملة . وهناك فئة العربان والاجانب . ان نقدنا لهذه الورقة ينصب عند ناحيتين : الاولى استخدام الفئة بدل الطبقة الاجتماعية كمصطلح معروف في الدراسات السوسيولوجية . الثانية ندرة استعمال المراجع الاجنبية المهمة .

5 / 3 نمط الهجرة والحركة السكانية : نموذج بيروت ونموذج صفاقس :

لقد اخترت كل من هذين النموذجين ، لكي نتوصل من خلال المقارنة التاريخية الى طبيعة الموضوع بين المشرق والمغرب العربيين ، اضافة الى ان النموذج الثاني يتحدث عن مدينة عربية من خلال الوافدين اليها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ويعتني بأصولهم وتوزيعهم داخل المدينة وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية .. كان قدمه للمؤتمر د. على الزوارى . اما النموذج الاول فيعتني بالحركة السكانية والهجرة الى بيروت في القرن التاسع عشر ، وقدمه للمؤتمر د. مسعود ضاهر .

واختلفت دراسة كل من الباحثين لموضوع الهجرة والحركة السكانية باختلاف المنهج التاريخي الذى اتبعه كل منهما في ابرازه للموضوع والبحث في علله ، والخروج بالاستنتاجات منه. كانت كل من المدينتين ذات استراتيجية اقتصادية وتجارية استقطبتا قوى سكانية متنوعة حسب نظرية القطب الدافع والقطب الجاذب كاطار منهجي في الدراسات السكانية .. وان كانت العاصمة تونس قد حالت دون ان تستقطب صفاقس مركزها السياسي اضافة الى تمتعها بالاستراتيجية ـ الاقتصادية ، فان بيروت غدت فيما بعد مركزا كوسموبوليتيا في المشرق العربي ، لكن ليس كما ذكر د. ضاهر « منذ مطالع القرن التاسع عشر حتى الآن » . بل خلال العقود المتأخرة من القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا . وتكاد تكون العلل والاسباب مشتركة في نشوء الحركة السكانية باتجاه كل من المدينتين كعناصر دفع اساسية ولكن تتوضح الاختلافات في تلك الاسباب والمسببات على النحو التالي :

1. طبيعة العوامل البيئية والجغرافية والمناخية ، كالجفاف واليبوسة والامراض والاوبئة ... وغيرها كانت اكبر فاعلية في الدفع نحو الهجرة الى صفاقس التي تعتبر ذات جاذبية اقتصادية تربط الساحل بالجنوب .

2. ان الصدامات الطائفية التي عصفت بجبل لبنان واطرافه من اللواحق كطرابلس وحاصبيا وراشيا وجبل عامل وبعلبك وغيرها .. كانت من أهم الاسباب في الهجرة نحو بيروت التي اعتبرت ملجأ من اتون الصراعات الطائفية ، فازدادت فيها مختلف الجاليات والطوائف كالارمن والاتراك والاكراد والكلدان والسريان ..

3. يعتبر المركز الجغرافي لبيروت حلقة وصل سياسية واستراتيجية بين عاصمة السلطنة العثمانية وبين مصر وايالات المغرب العربي .. ولا يمكن في

هذا الصدد ان نتغافل عن الازمات الحادة سياسية كانت أم عسكرية تلك التى وقعت بين السلطان محمود الثانى وبين محمد علي فى مصر .

4. ان المهاجرين الى بيروت كانوا متنوعين فى انتماءاتهم القومية كالذين ذكرناهم فى حين كان المهاجرون نحو صفاقس يتميزون بانتماءاتهم الجغرافية كالطرابلسيين والقراقنة والعبيد .. اضافة الى المهاجرين الذين اندمجوا فى مجتمع المدينة وكانوا قد قدموا من لواحقها واطرافها الاقليمية .

5. استقطبت بيروت مجموعات كبيرة من العائلات العربية المتنوعة وخصوصا من المشرق العربى ، ومثل هذا لم نره فى صفاقس ، بل كان بالنسبة الى تونس المدينة التى استقطبت عائلات عديدة من مناطق مختلفة من المغرب العربى بحكم العامل الثقافى أساسا ووجود جامع الزيتونة فى قلب تونس . ونختلف مع د. مسعود ضاهر الذى يذكر أن هناك عائلات سعودية قد سكنت بيروت .. ربما يكونوا من الحجاز أو نجد .. أو أماكن أخرى من شبه الجزيرة العربية ، اذ لا يمكن تسميتهم بعائلات سعودية !!

6. ان مستقبل بيروت بفعل الهجرة السكانية والتفاعل الثقافى هو غير مستقبل صفاقس التى بقيت مدينة تجارية محلية لها مواصفاتها الزراعية . فى حين ازدهرت تجارة بيروت ، وازدهرت الى جانبها الانشطة الثقافية المتعددة ، وغدت مركزا حيويا فى علاقته بمصر خاصة .. وبداية الهجرة المعاكسة من بيروت وبلاد الشام نحو مصر لتتعمق من خلال ذلك الصلات الحقيقية بين مصر وبلاد الشام .

7. إن كلا من المدينتين قد استقطبنا الى جانب العرب ، جاليات اجنبية عديدة خلال القرن التاسع عشر ، وكان لتلك الجاليات تأثير بالغ فى ثقافة وعادات وتقاليد المجتمع العريض لكل من المشرق والمغرب العربيين .. اثر انفتاح كل من المدينتين : بيروت وصفاقس على الخارج بتأثير من الجاليات الاجنبية .. سكن بيروت عدد من الافرنسيين والانكليز والروس واليونان .. فى حين سكنت جاليات طليانية ومالطية مدينة صفاقس ، اضافة الى كبار الافرنسيين .. ويؤكد صاحب البحث عن صفاقس بهجرة اليهود والنصارى اليها ، والعبيد البيض والسود .

8. لقد كان هناك اندماج شبه كامل فى المجتمع العربى البيروتى من الناحية الاجتماعية والثقافية .. فى حين كانت العلاقات بين الوافدين وأهل صفاقس ليست بمتوفرة ابدا ، ولكن تحكمها بعض الحواجز النفسية وخصوصا فى عمليات التصاهر ، والاختلاط ، وكان العبيد البيض هم أول الذين اندمجوا فى مجتمع المدينة .

9. لقد اثرت الهجرة فى بدء حياة التجارة الكبرى مع أوربا لكل من المدينتين بيروت وصفاقس ، وساعدهما فى ذلك موقعهما الجغرافى الساحلى ، فاختلفتا عن مدن الداخل فى علاقة الهجرة السكانية بالتجارة وازدهار الحالة الاقتصادية.

5 / 4 اقتصاديات وديموغرافية :

قدم العديد من الباحثين والمؤرخين بحوثا في اقتصاديات وديموغرافية المجتمع العربي خلال العهد العثماني ، واستقطبت بعض تلك البحوث معلومات جديدة ، وآراء علمية .. وانصب اغلبها على ولاية الشام وايالة تونس وايالة الجزائر • ومن بين تلك البحوث ، ما قدمه د• كارل باربير عن **«المدخول والمصروف في دمشق في القرن الثامن عشر»** ، وهو بحث تركز على دراسة الثروة في الطبقات الاجتماعية التي كانت تحتويها دمشق .. مقسما صاحبه اياها الى ثلاث طبقات : طبقة الحكام وطبقة العلماء ، وطبقة العمال وصاحبي الحرف . ووضح الباحث الكيفية الاقتصادية التي تميز بها المجتمع في استقصائه للمال والثروات باعتبارها من ضروريات الحياة في نهجه وأسلوبه في الحياة .. وتعتبر هذه الحالة من جذور المواصفات التي تميز بها مجتمع الدماشقة خلال القرن الثامن عشر . ورغم ان البحث كان محاولة فحص تحليلية لهذه المسألة الهامة ، الا انها كانت بمثابة باب فتحه د. باربير لاستجلاء حالة اجتماعية واوضاع اقتصادية لمحليات دمشق .. اضافة الى كونها مقدمة تاريخية فتحت المجال لاستقصاء دور المنافع لدى طبقات المجتمع . واعتمد البحث على ثلاثة انواع من المصادر الهامة : كتب التراجم ، وكتب التاريخ ، والوثائق العثمانية . وكان من أهم مصادره : كتاب **«سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر»** ، وكتاب **«مطمح الواجد في ترجمة الوالد الماجد»** لمؤلفهما المؤرخ الشهير محمد خليل المرادي الذي أبرز أوضاع طبقة الحكام وطبقة العلماء على درجة من التوسع والايضاح .. في حين كان كتاب حوادث دمشق اليومية لمؤلفه أحمد البديري الحلاق ، من أهم المصادر عن الطبقة الثالثة• ويعتبر زميلي د. باربير من أبرز المختصين بتاريخ دمشق العثمانية والذي سألته اثناء مناقشة البحث عن فقدان البحث لطبقة أخرى في المجتمع هي طبقة الفقراء اذا كان التجار يعتبرهم في نطاق طبقة العمال وأصحاب الحرف ؟؟ وأين يكون موقع أولئك الذين لا يجدون القوت اليومي ؟؟ ورغم ذلك ، فان المؤرخ باربير يمتلك معلومات تاريخية ممتازة بخصوص أعمال الحج ومهامه خلال الفترات العثمانية واستطاع من خلالها أن يناقش د. ثريا فاروقي في ورقتها التي تقدمت بها عن الحج واعتمادها على وثائق تاريخية عثمانية قديمة بخصوصه ، وكانت ورقتها مثرية جدا ، ودقيقة في معلوماتها وارقامها .. ان سلاطين آل عثمان على امتداد عمر امبراطوريتهم الطويل الذي تجاوز ستة قرون ، لم نجد ان أحدهم قد حج بيت الله الحرام ، بل كانوا يرسلون بحريمهم وكريماتهم وزوجاتهم •• عدا السلطان عثمان الثاني 1618 ـ 1622 م• الذي عزم على الحج ، فمنعه رجال دولته ، ثم قتل بطريقة غامضة وعمره 18 سنة .

اما د. كارل ماكس كورتبيتر ، فقد قدم بحثه عن المال والمعاملات المصرفية في ايالة الجزائر سنة 1800 ، منطلقا فيه من دراسة شخصية غريبة ظهرت على الساحة عصر ذلك ، واثرت في مجرى تاريخ العلاقات السياسية بين الولايات

المتحدة الامركية وبين ايالة الجزائر العثمانية خلال عهد الدايات .. تلك هى شخصية البحارة الايرلندى ـ الامريكى جيمس كاتكارت (James Cathcart) الذى يعتبر أبرز المماليك من المسيحيين البيض يقبض عليه القراصنة الجزائريون .. ويعيش حبيس الجزائر لفترة طويلة ليرقى بنفسه من عامل بسيط الى أبرز رئيس مسيحى للداى الجزائرى نفسه .. يجمع أموالا باهظة بجهوده الشخصية ، ويرتقى من خلالها الى مستوى الدوبلوماسية .. وتستطيع الحكومة الامريكية فى آخر المطاف ان تجد حلا لمشكلة الاستيلاء على سفنها باعتمادها على اسطول بحرى مسلح تكون قاعدته البحرية جزيرة منركا Minorca بقصد حماية تجاراتها للفترة 1825 ـ 1848 م.

لقد درس الباحث الحالة الاقتصادية للمجتمع الجزائرى من خلال دراسته واعتنائه بمعلوماته عن القنصل الامريكى فى الجزائر واعتمادا على السجلات البحرية كوثائق أمريكية توضح مادتها التاريخية تطور حركية المالية وديناميكية المعاملات المصرفية كما يتبع ذلك التأثير الكبير فى التجارة الجزائرية لكل من عائلة البكرى وعائلة بوشناق اللتين كونتا شركة يهودية لانتماء هاتين العائلتين الى الدين اليهودى . وانطلاقا ايضا من معلومات الباحث عن هذه الشركة التجارية الكبرى التى لعبت دورا كبيرا فى تاريخ الجزائر الحديث ، اكتشف وثائق ضافية عن شبكة المعاملات التجارية والمصرفية تضم جل العواصم الاوربية ومعظم المراكز التجارية فى منطقة البحر المتوسط .

وتقدم د. خليفه الشاطر ببحثه الموسوم «اقتصاد العالم واقتصاد البازار من خلال دراسة لتونس فى عهد ما قبل الاستعمار» . انطلق الباحث فى تحليله للاقتصاد التونسى خلال العهد الحسينى معتمدا فى ذلك على مفهومين أساسيين فى دراسة التاريخ الاقتصادى : 1. مفهوم اقتصاد العالم وهو مصطلح استخدمه (بروديل = Braudel) 2. مفهوم اقتصاد البازار ، كمصطلح استخدمه (غارتز) ولاول مرة فى تعريفه ببعض الاوضاع التاريخية واستيعابها وتفسيرها من خلال أدوات ووسائل علمية . ونجح الباحث فى محاولته التطبيقية فى كل من المفهومين اللذين استعملهما على الاقتصاد التونسى . ان مفهوم البازار هو الذى يستوعب أوضاع المدن التونسية للفروق التى بينها وبين القرى والارياف ، نظرا للاسواق الكبيرة التى تندفع من خلالها المنتوجات الصناعية وبواسطة النشاطات التجارية .. ويمتاز اقتصاد البازار بتنظيمه الخاص ووسائله التقنية . فالتنظيم يقابل القانون العرفى المنظم للصناعة . اما الوسائل التقنية فهى التى تقابل النشاط الحرفى المسيطر .. اما طرق عمله فهى التى تقابل الوضعية الصناعية للتجار الذين يبيعون منتوجاتهم . ان اقتصاد البازار كنمط انتاج وبيع وتوزيع له تعريفه الموضوعى الخاص الذى يختلف فى جملته عن اقتصاد العالم . ان اقتصاد العالم له ميزاته ، التى من أهمها المجال المسيطر .. فسؤال الباحث هو : هل كانت البلاد التونسية خاضعة لمجال (اقتصاد ـ عالم) تسيطر عليه لندن التى اصبحت المحور منذ

أواخر القرن الثامن عشر حسب نظرية بروديل ؟؟ وتجيب الدراسة عن ذلك من خلال ابراز طبيعة العلاقات التجارية التونسية فى القرن التاسع عشر ، فتتوضح مكانة تونس الاقتصادية فى انتمائها الى مجال اقتصادى تهيمن عليه القوى الاقتصادية الاوربية .. فى حين ان تونس تنتمى كذلك الى مجال عثمانى سياسى واقتصادى .

وقدم د. بيتر سلاكليت ورقته المعنونة بـ «حيازة الارض فى سوريا الكبرى فى القرن التاسع عشر : بعض الملاحظات الاولية» ، ورغم المعلومات المشوشة التى قدمها هذا الباحث وخرج بنتائج وأحكام خاطئة !! فان السبب فى ذلك كما جاء على لسانه قائلا : « فى الحقيقة ، نظرا لدرجة التغير المحلى ، لا يمكننا فهم هذه الظاهرة الا بالاعتماد على دراسات محلية معمقة . ونواجه مشكلة فى هذا الاطار بحيث نلاحظ انه باستثناء الارشيف العثمانى وارشيف المحاكم الشرعية الذى لم أتمكن من الاستفادة منه ، فان وثائق القنصليات الاوربية محدودة العدد والكم بعد سنة 1870 » . ان موضوعا هاما كهذا لا يمكن بحثه ودراسته الا من خلال الاطلاع على الوثائق المحلية والعثمانية .. اما اذا لم يتمكن الباحث من الاطلاع عليها فيتوجب عليه الا يغامر فى مؤتمر دولى بورقة يطلق عليها « بعض الملاحظات الاولية » . انه لو تقدم بورقة بحث عن العراق الحديث الذى يعتبر مجال تخصصه ، لكان ذلك أفضل له من ذلك الخلط فى المعلومات، والاخطاء فى الفحص والتحليل التاريخى وتوزيعه للاحكام !

أما فى الديموغرافية ، فان البحث الذى تقدم به د. خليل ساحلى أوغلو والموسوم : « نسبة سكان المدن الى سكان الريف فى القطر السورى » ، فيعتبر من البحوث الممتازة والمتعبة والمتميزة بدقة المعلومات . وهو بحث وحيد قدم الى المؤتمر فى الديموغرافية التاريخية . وتكمن أهمية بحث د. ساحلى ، انه حصيلة استقصاء لقرابة (20) دفترا من دفاتر الطابو للبلاد السورية المتكونة من : دمشق وحلب وحماه وحمص وطرابلس والقدس . كما قدم البحث مجموعة من الجداول التى تثبت المعلومات بالارقام . وكنا نأمل لو تغير عنوان البحث ليشمل منطقة شمال العراق والموصل باعتبار ان البحث يحتوى على معلومات ديموغرافية وأرقام تخصها .

5 / 5 عنصر الثقافة : التدخل الاوربى ، العثمانية والاصلاحية الاجتماعية :

حول هذا الموضوع الحيوى ، قدمت ورقتان فى أعمال المؤتمر .. كانت الاولى من قبل د. ليلى فواز بعنوان : «ثقافتان : بيروت فى عهد التدخل الاوربى» ، وقد أوضحت من خلالها طبيعة العناصر الثقافية ومؤثراتها فى منطقة البحر المتوسط .. وكيف كان وجه التلاقى بين كل من الثقافة التقليدية فى مجتمع هذه المنطقة التى كانت بيروت نموذجها فى البحث ، وبين الثقافة الجديدة الوافدة . ونختلف مع د. فواز فى وصفها العناصر الثقافية العربية بأنها أدت الى الخلافات والنزاعات في تلك لمنطقة عبر القرون . ان هذا الحكم قاصر لانه

لم يسعف بأى دليل أو برهان !! وتستطرد فى موضوعها مؤكدة ، بازدياد الصراعات حدة اثر مناداة النخبة المتأثرة بالافكار الغربية لكل من الولايات المتحدة وأوربا بنماذجها التى يتوجب تطبيقها فى الحياة اليومية ، اضافة الى أسلوب التفكير .. فى حين استمر ارتباط معظم السكان بالتقاليد الشرقية وبالثقافة المحلية ٠٠ وظهر كل ذلك فى بيروت التى غدت أكثر مدينة نموا وحركة فى شرق البحر المتوسط . ونختلف مرة أخرى مع د. فواز فى ذكرها (الولايات المتحدة) التى لم تدخل باثارها الثقافية المنطقة الاخلال الفترة التى سبقت الحرب العالمية الثانية بشكل سافر وفعال . اما تأثيرات الثقافة الغربية لما قبل الحرب الاولى وبعدها على المنطقة ، فقد استحوذته أوربا اما ان كان قصد الباحثة نموذج بيروت . فهى محقة اذ استتبع تأسيس الجامعة الامريكية فيها تأثير كبير على بيروت بشكل خاص .. وعلى أولئك الذين تخرجوا فيها خلال السنوات الاولى من حياتها . لقد تعرضت الباحثة ايضا ، للتطور الحضارى فى اثره على طبقية الحياة الاجتماعية وذلك على مستويين : تركيب الطبقة الوسطى المتحركة المتصاعدة اجتماعيا باتجاه التعليم والثقافة الغربية ٠٠ وخصوصا أبناء هذه الطبقة . وعلى المستوى الثانى ، اعتماد الهجرة والنزوح أساسا فى النمو الحضرى السريع ، وليس على أساس التطور الطبيعى البطىء . وهكذا أدى استفحال أمر تدخل الثقافة الغربية الى خلق فراغ بين مناطق التسرب كبيروت التى احتوت على نخبة متأثرة بالغرب ، وبين مناطق قروية اشتدت روابطها التقليدية رسوخا ٠٠و قاد ذلك الى المواجهة السياسية ٠ وتدافع الباحثة عن اشكالية التسرب الاوربى بحيث تخرج بنتائج ، تقول احداها ان التسرب فى الشرق الاوسط له اثره العميق فى استقرار المنطقة .. كما وأوضحت ان المتأثرين بالغرب واجهوا مشكلة التفريق بين الثقافة الغربية والشخصية الغربية فى وجودهم السياسى .. وقاد ذلك التقسيم بين باقى السكان الى عواقب سياسية .. كانت بيروت هى ساحته الاولى .

وقدم د. قيصر فرح ورقة بحث أخرى تقع فى مجال العناصر الثقافية تحت عنوان **«آراء تقدمية فى التآلف العثمانى والاصلاح الاجتماعى»** أكد فيه على دور المهاجرين السوريين فى كل من الاسكندرية والقاهرة فى الانشطة الثقافية ، وخصوصا أولئك الذين دعموا الروابط العربية العثمانية بواسطة الاصلاحية من أجل ايقاظ البيئة على روح تقدمية ـ وكان دورهم خطيرا فى تحقيقه رغم انهم لم يكتب لهم النجاح .. لكنهم بقوا من رواد الفكرة الاصلاحية حتى زوال الامبراطورية العثمانية .

ركز البحث على نشاط بعض منهم ٠٠ اولئك الذين اخلصوا للفكرة العثمانية باعتبارها عاملا فعالا وباعثا على النهضة من خلال التحالف القوى بين العثمانيين والعرب ، وكان من بينهم رفيق العظم وحقى العظم وفرح انطون واديب اسحق وشبلى شميل ٠٠ رغم ان انشطتهم فى التعبير والكتابة والافكار كانت ثورية على مظاهر التفكير التقليدى السائد عصر ذاك . استطاع الباحث

ان يسرد البعض من آرائهم في الاستبداد ، اضافة الى مبادىء الحرية والمساواة والعدالة ، والحكم الذاتي واللامركزية .. ومناداتهم بقيام السلطنة العثمانية على أساس شورى وليس على أساس الحكم المطلق . كان فرح انطون ينادى من خلال جريدته باصلاح المجتمع العثماني على أساس العدالة وباسلوب التحالف القوى بين اعضاء الامة. اما حقى العظم فقد كتب تآليف عديدة ضد سياسة السلطان عبد الحميد الثاني .. كما ساهم مع زملائه أمثال : محمد رشيد رضا وعبد الحميد الزهراوى بتأسيس جمعية الشورى العثمانية الدستورية السرية للنضال ضد سياسة الدولة المخيبة لآمال الاحرار .. ونادى بتنفيذ اللامركزية وتآلف العرب والاتراك من أجل بناء قوة جديدة تستطيع الدولة الاعتماد عليهما .. ولم يوفقا في اقناع رجال جمعية الاتحاد والترقي بقبول النظام الجديد ، فأخذا يناهضان سياسة الجمعية ، ويكشفان خفاياها وعللها . وقد رفضا مظاهر التفرنج وخصال الغربيين وتقليد أساليبهم ، ولكنهما دعا الى المساواة المطلقة واحلال روح الديمقراطية الصحيحة . اما اديب اسحق ، فهو شخصية أخرى نادت بالجامعة العثمانية بالرغم من مساوىء الادارة العثمانية ، اذ رأى فيها الرعوية الشاملة لمختلف العناصر والطوائف مؤكدا انها القوة الوحيدة الجامعة لمختلف العناصر التي تستطيع الصمود امام الاستعمار الغربي.

من سلبيات الموضوع التي أراها ـ من وجهة نظري ـ ان الباحث عندما تحدث عن أفكار رفيق العظم في التآلف ، ذكر ذلك بقوله : « العرب والعثمانيين » في حين عليه ان يذكر بدل ذلك « العرب والاتراك » في أمة « عثمانية » . ثانيا : اعتمد الباحث على أفكار المهاجرين السوريين الى مصر فقط ، في حين قلل من أهمية أفكار غيرهم من أصحاب الائتلاف العثماني والاصلاحية الاجتماعية كولي الدين يكن وغيره .

6 / تصويبات علمية :

1. ذكر د. التونجي في مقالته للمؤتمر «التفاعل الاجتماعي في ولاية حلب بين العرب والعثمانيين» ، بأن مدينة حلب هي اول مدينة عربية عبرها العثمانيون في زحفهم نحو الوطن العربي . والصحيح ان الموصل وشمال العراق من أول المناطق العربية التي سبقت حلب في السقوط بالمجال العثماني . ذكر أيضا بأن السلطان سليم هو الذي فتح بغداد ، والصحيح ان السلطان سليمان القانوني هو الفاتح العثماني الاول لبغداد .

2. أطلق البعض من الباحثين اثناء القاء البحوث والمناقشات لقب أو تسمية «الخليفة» أو «الخلفاء» على السلاطين العثمانيين . وهذا خطأ فادح لم يزل يتبعه ويستعمله العدد الكبير من المستشرقين والمؤرخين العرب وحتى المتخصصين منهم في التاريخ الحديث . ان الامبراطورية العثمانية هي دولة سلطنة ، ولم تكن في يوم من الايام دولة خلافة اسلامية ، كما هو شائع ومتواتر خطأ . لقد انتهت الخلافة الاسلامية بانتهاء آخر خليفة عباسي في الظل عندما

كان يعيش فى ظل المماليك الذين قضى عليه وعليهم السلطان سليم الاول سنة 1517 اثناء سيطرته على القاهرة .

3· انبرى الاستاذ منظم المؤتمر د· عبد الجليل التميمى اثناء ادارته لجلسات مناقشات ابحاث المؤتمر ودراساته .. انبرى بتدخله النقدى اللاذع حول نقطة هامة لم تزل تثير اشكاليات عديدة عند المؤرخين العرب والاجانب . وفى معرض تدخله على اجابة د· فرانسوا ارنولى فى بحثه عن «الطبقة العسكرية فى عهد المراديين وفى بداية العهد الحسينى» ، وعندما وصف الاخير الوجود العثمانى فى تونس بـ «الاحتلال» · أجابه د· التميمى قائلا : «خطأ فاحش هو استعمال مصطلح «احتلال» فى اطلاقه على الوجود العثمانى بتونس · هذا المصطلح الذى يستعمله – مع الاسف – الباحث الفرنسى وغيره من الباحثين. اننى أطرح امكانية الاتفاق على اعادة النظر بالمصطلحات حول طاولة مستديرة. ان الوجود العثمانى فى المنطقة وفر مناخا من التفاعل الثقافى والحضارى » .

4· قال د· رفعت علي أبو الحاج فى ورقته عن «**الموصل فى القرن السادس عشر : ضرائب ، تجارة ، منتوجات ومجتمع حسب قانوننا مه لر العثمانى**» : « يشمل المقال دراسة أولية لما ورد فى لوائح الضرائب العثمانية للواء الموصل ، ويهدف الى تحليل هذه الوثائق لما فيها من معلومات عن المجتمع والاقتصاد الموصلى » . هذا ما كتبه فى مقدمته لبحثه ، فى حين اننا لم نسمع منه كلمة (الموصل) حتى لمرة واحدة . ان الخطأ هو كيفية التعامل مع قانوننا مه لر العثمانى واستخدامه لما يخدم اغراض البحث المعلن عنه . كما ولم يستعن بالمصادر التركية فى حل اشكالية الحالة الادارية للموصل .

كلمة أخيرة : لقد كان للجهود المتميزة التى بذلها الاستاذ الدكتور عبد الجليل التميمى ، فى تنظيمه للمؤتمر العالمى الثانى للدراسات العثمانية عن الولايات العربية ·· كان لها الفضل الكبير فى انجاح اعمال المؤتمر والنتائج التى خرج عنها ، بما يفيد والحياة الاكاديمية التاريخية العربية الحديثة .. اضافة الى تعزيز اهداف مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية فى العهد العثمانى .. وهو المركز الذى تأسس حديثا ويحتاج للمزيد من الاسناد والدعم المادى والعلمى من أجل خدمة حياتنا العربية المعاصرة من كافة الوجوه. وخلق صلة علمية بين المؤرخين العرب والاجانب .. اضافة الى تطوير البحوث التاريخية العربية عن حياة العالم العربى خلال الفترات العثمانية الطويلة .

لقد كان المؤتمر ناجحا بدرجة كبيرة ، من خلال مساهمات العديد من المؤرخين العرب والاجانب .. توقفت فى تقريرى هذا على نماذج متميزة من أعمال البعض منهم . وكنا نتمنى لو شاركنا هذا المؤتمر العديد من المؤرخين العرب والاجانب الذين كتبوا فى تاريخ الولايات العربية والفترات العثمانية أمثال : المؤرخ التركى خليل أونالجيك ، والمؤرخ الامريكى ستانفورد شو ،

والمؤرخ الامريكي روبرت أولسن ، والمؤرخ الاردني عبد الكريم غرايبه ، والمؤرخ المغربي عبد الهادي التازي .

لقد تقرر في نهايته ، الى ان يعقد المؤتمر العالمي الثالث للدراسات العثمانية عن الولايات العربية في تونس ، وذلك بعد مضي سنتين على انتهاء المؤتمر الثاني .. كما وتقرر ان يكون موضوع المؤتمر القادم عن الحياة الثقافية للولايات العربية خلال العهد العثماني ... بعد ان ناقش كل من المؤتمرين السابقين كلا من الحياة الاقتصادية والحياة الاجتماعية..كما وتقرر ان يصدر مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني ، مجلة حولية أكاديمية تعنى بالدراسات والبحوث التي يعنيها المركز واعضاؤه.. وصودق على تسمية مؤسسها د. التميمي لها بـ (المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية) ، وتصدر باللغات : العربية والانجليزية والافرنسية .

ونأمل أن تتوج جهود هذا المركز بكل النجاح والسمو والتوفيق ، وكل العاملين فيه والمشاركين والمعضدين له بالخير والارتقاء .

د. سيار الجميل

دائرة علم التاريخ ـ جامعة وهران ـ الجزائر


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com